مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الخامِسُ والأَرْبعُونَ

سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الخامِسُ والأَرْبعُونَ

سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12

نُخبةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2025

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م

الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الحَادِي وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الأَحزَابِ

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ٢٦﴾

[الأحزاب: 26]

مصيرُ ناكثي العهود من اليهود

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أتمَّ اللّه سبحانه أمرَ الأحزاب؛ أتبعَهُ حال الذين ألَّبوهم من يهود بني قريظة، وما حلَّ بهم من عذاب مهين بسبب نقضهم العهود[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَٰهَرُوهُم﴾: (ظهر) أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، مِنْ ذَلِكَ: ظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظُهورًا، فهو ظاهر؛ إذا انكشف، وبرز، ولذلك سُمّي وقت الظُّهر والظَّهيرة، وهو أظهر أوقات النَّهار وأضْوَؤُها، والأَصْلُ فيهِ كُلِّه ظَهْرُ الإنْسانِ، وهوَ خِلافُ بَطْنِه، وهوَ يَجْمَعُ البُروزَ والقوَّةَ، والظَّهيرُ: المُعينُ، كَأَنَّهُ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إلَى ظَهْرِكَ، والمُظاهَرَةُ: المعاونة، والتَّظاهُرُ: التعاون[2]، ومعنى ﴿ظَٰهَرُوهُم﴾ في الآية: أنَّ اليهود عاونوا الأحزاب المردودين على رسول اللّه ﷺ والمسلمين[3].

2) ﴿صَيَاصِيهِمْ﴾: (صي) كلمة واحدة مطابقة، وهي كل شيء يُتَحَصَّنُ به، من ذلك تسميتُهم الحصونَ صياصيَ، ثمَّ شُبِّهَ بذلك ما يُحارب، ويَتَحَصَّنُ به الدّيك صيصيَّةً، والصَّياصي: قُرون البَقَر والظِّباء، وكلُّ قَرْنٍ صيصة؛ لأنَّ ذَواتِ القُرون يتحصَّن بها[4]، و(الصياصي) في الآية: الحصون الَّتي تحصَّن بها اليهود[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 332.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (ظهر).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 480.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والأزهري، التّهذيب، والرّاغب، المفردات: (صيص).
(5) الواحديّ، البسيط: 18/ 223.

3) ﴿وَقَذَفَ﴾: أصل (قذف) يدلُّ على الرَّمي والطَّرح، يقال: قذف الشَّيء يقذفه قذفًا؛ إذا رمى به، سواء كان بالسَّهْم أم الحَصَى أم الكلام وكلِّ شَيْء، وبعضهم خصَّص القَذْفَ بالرَّمي البعيد، ولاعتبار البُعد فيه؛ قيل: منزل قَذَفٌ وقَذيفٌ، وبلدة قَذوفٌ: بعيدة، واستعير القَذْفُ للشَّتم والعيب، كما استُعير الرَّمي[1]، ومعنى القذف في الآية الإلقاء القويُّ السَّريع، أي: جعل اللّه في قلوبهم الرُّعب بأمره التَّكويني، فاستسلموا، ونزلوا على حكم المسلمين[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

هزيمةُ اليهود الملاعين أمام المسلمين بين القتل والأسر المهين

يخبر ربُّنا سبحانه أنَّه أنزل يهود بني قريظة من حصونهم؛ لإعانتهم الأحزاب في القتال، وألقى في قلوبهم الخوفَ الشديد، فهُزِموا أمام المسلمين، يقتلون منهم فريقًا، ويأسرون فريقًا آخر[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾:

عطفُ نعمةِ إنزال اليهود الملاعين على نعمة ردِّ الأحزاب مغتاظين خائبين

وُصِل قولهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران لكون السياق في تعديد نِعَم اللّه سبحانه على المؤمنين في واقعة الأحزاب، فعطف نعمة نزول اليهود الملاعين على نعمة ردِّ الأحزاب خائبين مغتاظين[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالإنزال دون الإخراج:

التسفُّل بعد العلو بالقتل والأسر

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ التَّعبيرُ بالإنزال دون الإخراج مناسبة لذكر الصياصي، وهي الحصون، فأهبط اللّه اليهود من حصونهم العالية التي كانوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، التّهذيب، والرّاغب، المفردات: (قذف).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 312.
(3) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 421.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 379.

يعتصمون بها بعد أن حاصرهم جيش المسلمين نحوًا من عشرين ليلة، وللإشارة إلى تحوُّل حالهم من العلوِّ والاستكبار إلى الذلِّ والهوان والتَّدنّي والتَّسفُّل.

دلالةُ التَّعبيرِ بجملة الموصول:

بيانُ علَّةِ قتال المسلمين لليهود الخائنين للعهود

استُعمل في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته ﴿ظَٰهَرُوهُم﴾، دون الاسم الظّاهر (اليهود)؛ لأنَّه يسمح بوصفه بجملة الصِّلة، وللتَّنبيه على علَّة الحكم، فعبَّر النَّظم القرآنيُّ عن اليهود بعبارة ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾؛ للإيماء إلى سبب قتال المسلمين لليهود، وهو أنَّهم قد عاونوا، وما لَؤُوا المشركين على حرب النَّبيِّ ﷺ، وأخافوا المسلمين، وراموا قتلَهم؛ ليعزّوا في الدُّنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم القتال، لمّا أسرع المشركون، وراحوا بصفقة المغبون، فكلَّما راموا العزَّ؛ ذلّوا، وأرادوا استئصال المسلمين، فاستُؤصلوا[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي ﴿ظَٰهَرُوهُم﴾:

عـقـابُ يـهـودِ بني قريظة على خيانتهم الماضية

جاء الفعل (ظاهروهم) في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على صيغة الماضي؛ لحكاية حال سابقة منقضية، فيهود بني قريظة كانوا قد أعانوا الأحزاب، وحاصروا المدينة معهم، فلمّا صرف اللّٰه الأحزاب؛ أمر اللّٰه رسولَهُ ﷺ أن يغزو قريظة لخيانة عهدهم مع رسول اللّٰه ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تنوُّعُ المعاني تبعٌ لمعنى (مِن)

دلَّ حرف الجرِّ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على التَّبعيض[2]، فالمقصودون في هذا السّياق هم يهود بني قريظة على قول جمهور أهل المغازي والسِّيَر، وهم بعض

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 06/ 398.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 333.

أهل الكتاب، وليسوا كلَّهم، أو ﴿مِّنْ﴾ بيانيَّة، ويكون القصد من هذا البيان زيادة التَّشنيع عليهم، ببيان سوءاتهم الَّتي كان ينبغي أن تكون عكس ذلك؛ لأنَّهم أهل العلم بالكتاب.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

توبيخُ اليهودِ بمخالفة أحكام التَّوراة

وُصِف اليهود في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بأنَّهم أهل كتاب؛ تذكيرًا لهم بما أوجب اللّه عليهم من اتِّباع موسى عليه السلام، وتوبيخًا لهم على مخالفة التَّوراة الَّتي ورد فيها وصف النَّبيِّ ﷺ ووجوب اتِّباعه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾:

استنزالُ اليهود من الحصون إلى أيدي المسلمين

ورد في قوله تعالى: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ حرف الجرِّ ﴿مِن﴾، وهو دالٌّ على ابتداء الغاية المكانية، فاللّه سبحانه أنزل اليهود من حصونِهم إلى أيدي المسلمين بعدما زلزلهم، وقذف في قلوبهم الرُّعب، فنزلوا على حكمهم مستسلمين.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿صَيَاصِيهِمْ﴾:

إطلاقُ الصياصي على الحصون أو الأصول

عبَّرَ بلفظ الصّياصي في قوله تعالى: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾، والمقصود به الحصون والآطام، ومفرده صيصة أو صيصيَّة، وهو مأخوذ من صيصة الدّيك: الشَّوكة الَّتي في رجله، وصياصي البقر: قرونُها؛ لأنَّها تمتنع بها، وربَّما كانت تركب في الرِّماح مكان الأسنَّة، وأيضًا تسمّى شوكة الحائك: صيصة[1]، وفي ذلك إشارة إلى قوَّة حصونهم ومنعتها بالإضافة إلى تحصُّنهم بالمكان نفسه لارتفاعه، فقد سكنوا أعالي المدينة من جهة الجنوب، كما تُطلق الصياصي على الأصول أيضًا، قال أبو عبيدة: إنَّ العرب تقول: جذَّ اللّه تعالى صِئْصِئَهُ، أي: أصله[2].

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 349، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 161.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 02/ 136.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿صَيَاصِيهِمْ﴾:

تشبيهُ الحصون بالقرون بحصول المنعة في كليهما

أُطلِقَ على الحصون في قوله تعالى: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ لفظُ الصّياصي من باب الاستعارة، فالصياصي أصلها القرون للثور ونحوه، فلمّا كانت القرون يدافع بها الثّور عن نفسه؛ سُمِّيَ المعقل الذي يعتصم به الجيش صيصية، والحصون صياصي من باب الاستعارة بجامع المنعة في كلٍّ[1].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَقَذَفَ﴾:

عطفُ نعمةِ زلزلة الأعداء بالرُّعب على النِّعم الأخرى

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ على قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران؛ لكون السّياق في تعديد نِعَمِ اللّه سبحانه على المؤمنين في واقعة الأحزاب، فعطف نعمة أخرى، وهي نعمةُ زلزلة الأعداءِ وقذف الرُّعب في قلوبهم.

سرُّ التَّعبير بالقذف بدل الإلقاء:

الدِّلالةُ على قوَّةِ المقذوف وسرعته وشدَّة أثره

عبَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقذف بدلَ الإلقاءِ في قوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ مع اليهود هنا وفي الحشر، بينما عبَّر عن الرُّعب بالإلقاء مع عموم الكفار في آل عمران: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: 151]، وفي الأنفال: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: 12]؛ للدِّلالة على أنَّ القذف إلقاءٌ فيه نوع قوَّة وشدَّة وسرعة، حتى يحدث ذلك الأثر الشَّديد في القلوب، فكأنَّ الرُّعب شيء حسيٌّ أو رجل يحمل شيئًا حسيًّا يقذفه، وكأنَّه مقذوفٌ يقذف به في الحرب، وهذا يفسِّر لنا شدَّة جبن اليهود، وعظيم خوفِهم، وهلعهم؛ إذ الرُّعب في قلوبهم قذْفٌ لا إلقاءٌ.

سرُّ إسنادِ القذف إلى ضمير يعود إلى الله تعالى:

عِظَمُ القاذفِ يزيد من قوَّة القذف

لمّا كان القاذفُ هو اللّه جَلَّ جَلَالُهُ، الذي له كلُّ صفات الكمال والجلال والجمال؛ كان القذفُ منه له من الأثر العظيم ما يُهلك به الجيشُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 312.

كلِّه، فضلًا عن أن ينزل به من الهزيمة والغلبة ما لا يتصوَّره عقل، ولا يخطر على قلب، فالقاذف هو الله تعالى، وأنّى يقاربه أحدٌ سواه في قذفه، أو أن يدفع قذف الله عنه؟

بلاغةُ التَّعبير بالفعل الماضي مع اليهود في ﴿وَقَذَفَ﴾:

تحقُّق قذفِ الرُّعب وتمكُّنُهُ من قلوب اليهود

عبَّر ﷻ بالفعل الماضي ﴿وَقَذَفَ﴾ في قوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ مع اليهود؛ للدِّلالة على أنَّ القذف أمرٌ قد تحقَّق، وفرغ منه في قلوب سائر اليهود، بما يدلُّ عليه الفعل الماضي من تحقُّق الوقوع، وهذا التَّحقُّق والتَّمكُّن من قذف الرُّعب في قلوب اليهود، وإن كان ماضيًا في الذِّكر، إلّا أنَّه سنَّة مضطردة في الحاضر والمستقبل كما تحقَّقت في الماضي.

نكتةُ تقديم المسبَّب على السَّبب:

سرور المؤمنين بإنزال اليهود من حصنهم المكين

يُلاحظ أنَّ عطف قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ على قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ من باب عطف المسبَّب على السَّبب، فقذْفُ الرُّعبِ في قلوب اليهود كان سببًا في إنزالهم، ولكنَّ النَّظم القرآنيَّ قدَّم المسبَّبَ؛ لمّا كان السّرور بإنزالهم أكثرَ للمؤمنين، والإخبار به أهمَّ لهم قدَّمه[1].

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾:

تصويرُ حال اليهود واستحضار رُعبهم في النُّفوس

تقدَّم في قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الجارُّ والمجرور ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾؛ لنكتة الاهتمام بموضع الرُّعب وهي القلوب، ولزيادة تصوير الحال واستحضار صورة ما أصاب اليهود في النُّفوس، ولأنَّ القلوب إذا أصابها الرُّعب؛ تزلزل الجسد، وانماع، كما سبق بيانه.

دلالةُ التعريف في ﴿ٱلرُّعْبَ﴾:

عُرِّفت لفظة ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ بأداة التَّعريف (أل) الدّالَّة على العهد الذِّهني، وهي تعرِّف

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 469.

حقيقة ذهنيَّة يراد بها فردٌ مبهمٌ من أفراد الحقيقة باعتبار عهديَّته في الذِّهن لاشتمال الحقيقة عليه[1]، فالمقصود بالرُّعب: الخوف الشَّديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم للأسر من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلًا عن المخالفة والاستعصاء[2].

الخوفُ الشَّديد لدرجة تسليم النُّفوس للقتل والأهل للأسر

علَّةُ فصل جملة: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾:

فُصِلَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنَزَّل الثّانية من الأولى منزلة نفسها[3]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ بيانًا للرُّعب الذي قذفه الله في قلوب اليهود، أو فُصِلَت عنها؛ لأنَّها جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، واقعًا جوابًا لسؤال مقدَّر استدعاه المقام، كأنَّ سائلًا سأل: ما الَّذي حدث حين قذف الله في قلوب اليهود الرُّعب؟ فكانت الإجابة: فريقًا تقتلون، وتأسرون فريقًا.

بيانٌ للرُّعب الذي قذفه الله في قلوب اليهود

سرُّ تقديم المفعول في الآية:

يظهر في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ تقديمُ القتل على الأسر والنُّكتة في ذلك تقديمُ الأهمِّ، فالقائل يبدأ بالأهمِّ فالأهمِّ والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب، والرِّجال كانوا مشهورين، فكان القتل واردًا عليهم، ولأنَّ بقتلهم يتمُّ الاستيلاء على الأرض والأموال والأسرى، وكذلك لمّا كان الرجال أهلَ الشوكة، وكان الوارد عليهم أشدَّ الأمرين، وهو القتل؛ كان الاهتمام بتقديم ذكرِهم أنسبَ بالمقام[4].

قتلُ الرِّجال يسهِّل الاستيلاء على الأرض والدّيار والأموال

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 100.

(3) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 164، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 313، والهرري، حدائق الروح والريحان: 22/ 482.

سرُّ تقديمِ المفعول في قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾:

الـتـفـرُّق حـال القتل أظهرُ منه حال الأسرِ

تفرُّقُ اليهود في ذواتهم وقلوبهم؛ بسبب قذف الرُّعب في قلوبهم، كان سببًا في قتلهم، ولذلك قدَّم المفعول ﴿فَرِيقًا﴾ على الفعل ﴿تَقْتُلُونَ﴾، من باب تقديم السَّبب على المسبَّب.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿تَقْتُلُونَ﴾:

استحضارُ صورة قـتـل المسلمين لرجال اليهود

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بالفعل المضارع؛ للدِّلالة على حكاية حال ماضية، واستحضارها في النُّفوس حتّى كأنَّ السّامع يرى رأي العين قتل المسلمين للرِّجال مِنَ اليهود، وقد كانوا مِن ستِّمئة إلى سبعمئة مقاتل.

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾:

تنبيهُ الأفـهـامِ بتلوين أساليب الكلام

عُدِلَ في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ مِن ضمير الغيبة في قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ على سبيل الالتفات إلى خطاب المؤمنين تكملة للنِّعمة التي أنبأ عنها قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ [الأحزاب: 9] الآية، أي: فأهلكنا الجنود، وردَّهم اللّه بغيظهم، وسلَّطكم على أحلافهم وأنصارهم[1]، كما أنَّ الالتفات من افتنان العرب في الكلام وحسن تصرُّفهم فيه، ولأنَّ الكلام إذا نُقِلَ من أسلوب إلى أسلوب؛ كان ذلك أحسنَ تطريةً لنشاط السّامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد[2].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَتَأْسِرُونَ﴾:

عـطـف حـكـم السَّبي والأسـر على حكم القتل

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ على قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران؛ تتميمًا لحكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في يهود بني قريظة بعد اختيارهم النُّزول على حكمه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 312.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/ 14، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 245.

فبعد أن حُكِمَ في رجالهم بالقتل عطف عليه حكمه في نسائهم وذراريهم بالسَّبي والأسر.

سرُّ عدم تقديم المفعول مع الأسر:

التـزامُ الأصل بتأخير الأسر على القتل

يظهر في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ تأخُّرُ المفعول ﴿فَرِيقًا﴾ مع الفعل ﴿وَتَأْسِرُونَ﴾؛ إذ لا داعي إلى تقديمه، فجاء على الأصل في الجملة الفعلية، وكذلك لأنَّ الأسرى كانوا هم النِّساء والصِّغار، ولم يكونوا مشهورين، والسَّبي والأسر أظهر من القتل؛ لأنَّه يبقى، فيظهر لكلِّ أحدٍ أنَّه أسير، فقدَّم من المحلّين ما هو أشهر على الفعل القائم به، وما هو أشهر من الفعلين قدَّمه على المحلِّ الأخفى[1]، وأخَّر المفعول في الأسر أيضًا لتأخُّر وجوده بالأسر، بخلاف القتل؛ فقد زال المقتول من الوجود.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿وَتَأْسِرُونَ﴾:

استحضارُ صورة أسر المسلمين لنساء اليهود وذراريهم

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَتَأْسِرُونَ﴾ بالفعل المضارع؛ للدِّلالة على حكاية حال ماضية واستحضارها في النُّفوس حتّى كأنَّ السّامع يرى رأيَ العين أسْرَ المسلمين لنساء اليهود وذراريهم، وكان المأسورون سبعمئة[2].

سرُّ التعبير بالفريق في الموضعين:

الدلالةُ على تفرُّق ذواتهم وقلوبهم

عُبِّرَ بالفريق في الموضعين: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾، دون الجماعة أو الطائفة أو العصابة ونحو ذلك؛ للدِّلالة على تفرُّق ذواتهم، وتفرُّق قلوبهم من أثر الرُّعب الذي قذفه الله في قلوبهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المظاهرة والتَّقوية والإعانة:

المظاهرة مجاز والإعانة عامَّة والتقوية خاصة

يظهر الفرقُ بين هذه الألفاظ في كون المُظاهرة مشتقَّة من مادة الظَّهر، وهي مفيدة لِمَعْنى المعونة على سبيل المجاز، والتَّقوية من الله

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 164، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 313.

(2) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 22/ 482.

تعالى للعبد هي إقداره على فعل المقدور، ولو كان كثيرًا، والتقوية من العبد للعبد إعطاؤه المال وإمداده بالرجال، وهي أبلغُ من الإعانة، ألا ترى أنَّه يقال: أعانه بدرهم، ولا يقال: قوّاه بدراهم، وإنَّما يقال: قوّاه بالأموال والرِّجال، وقال بعضهم: التَّقوية تكون على صناعة، فالإعانة عامَّةٌ والتَّقوية خاصَّة(1).

وقد آثر النَّظم القرآنيُّ لفظ المظاهرة؛ لكونها أقوى دلالةً في شدَّة المعونة.

الصّياصي والحصون:

عمومُ الصّياصي في كلِّ ما يمتنع بـه، وخصوص الحصون بالبناء

يظهرُ الفرق بين هذين اللفظين في علاقة العموم والخصوص، فالصياصي عامَّة في كلِّ ما يُحتمى به، ولهذا تُطلق الصَّياصي على قُرون البَقَرِ والظِّباء؛ لأنَّ ذَوات القُرون تتحصَّن بها (2)، وكذلك صيصة الدّيك: الشَّوكة الَّتي في رجله؛ لأنَّها يمتنع بها، وأيضًا تسمّى شوكة الحائك: صيصة(3)، أمّا الحصون؛ فهي خاصَّة بالآطام الَّتي تُبنى للتَّحصُّن مِنَ الأعداء، فهي أخصُّ دلالةً، وقد آثر النَّظم القرآنيُّ لفظَ الصّياصي لدلالته على شدَّة تمنُّعِ اليهود بها.

الإلقاء والقذف:

تـميُّزُ القذفِ بالسُّرعة والشدة والبُعد والعموم

يشترك اللَّفظان في دلالة كلٍّ منهما على الرَّمي، ويختلفان في تميُّز القذف بكونه إلقاءً شديدًا سريعًا(4).

كما جعل بعض العلماء من خصائص القَذْف اعتبار صفة البُعد فيه، ولهذا قيل: منزل قَذَفٌ وقَذيفٌ، وبلدة قَذوفٌ: بعيدة، كما يتميَّز القَذْفُ بكونهِ يُستعار للشَّتم والعيب، كما استُعير الرَّمي دون الإلقاء(5).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 137، 189، والكفويّ، الكلّيات، ص: 592.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صي)، والجوهري، الصحاح، والأزهري، التّهذيب، والرّاغب، المفردات: (صيص).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 349، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 312.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قذف)، والأزهري، التّهذيب: (قذف)، والرّاغب، المفردات: (قذف).

وقد آثر النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ القذفِ؛ للدلالة على سرعة جعْلِ اللّه بأمره التَّكويني الرُّعبَ في قلوب بني قريظة، فاستسلموا، ونزلوا على حكم المسلمين(1).

الرُّعب والخوف:

عموم الخوف، واختصاص الرُّعب بكونه أشدَّ الخوف وأعلاه

يتَّضح الفرق بين الرُّعب والخوف في علاقة العموم والخصوص، فالخوف عامٌّ في كلِّ غمٍّ يلحق العبد من توقُّعه المكروه(2)، وأمّا الرُّعب؛ فهو أخصُّ دلالةً؛ إذ هو الخوف الشَّديد الَّذي يملأ القلوب، وقد ورد في القرآن الكريم في خمسة مواضع، جميعها دالٌّ على كونه معجزة، أربعة في سياق الحرب، وواحد في قصَّة أصحاب الكهف، فكان الأنسب في المعجزة أن يعبِّر بالخوف الشَّديد المخالف للعادة(3)، فكان هو الأنسب بالنَّظم القرآنيِّ، فقد تملَّك اليهود الرُّعب الشَّديد، بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم للأسر من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلًا عن المخالفة والاستعصاء(4).

المتشابهُ اللَّفْظيُّ:

اختصاصُ قذف الرُّعب في القلوب باليهود

يتَّضح التشابهُ بين قول اللّه ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: 2]، في أنَّ في كلٍّ منهما قد نصر اللّه نبيَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 312.
(2) الكفويّ، الكلّيات، ص: 75.
(3) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 240.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 100.

ﷺ بقذف الرعب في قلوب أعدائه من اليهود، وأنَّ آية الأحزاب في شأن غزوة بني قريظة، وآية الحشر في شأن غزوة بني النضير، وكلاهما يهود.

ويختلفان في جملة أمور، منها: أنَّ النَّظم القرآني عبَّر بالإنزال في شأن بني قريظة؛ لأنَّهم تحصَّنوا في صياصيهم، ولأنَّهم قُتِلوا، وعبَّر بالإخراج من الدّيار في شأن بني النَّضيرِ؛ لأنَّهم أُجلوا؛ وأُخرِجوا من المدينة، كما أنَّ آية الأحزاب ذُكِرت أنَّ عقاب بني قريظة كان بقتل رجالهم وسبي نسائهم وذراريهم، في حين أنَّ آية الحشر ذكرت أنَّ عقاب بني النَّضير كان بإجلائهم من ديارهم، فقاموا بتخريب بيوتهم بأيديهم؛ ليأخذوا منها ما يستطيعون حمله.

وانفردت آية الحشر بقوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر: 2]، وهي أصلٌ للقياس عند الأصوليِّين؛ لأنَّ ما حدث مع يهود بني قريظة، أمر لا يتكرَّر مع اليهود إلّا نادرًا، بينما ما حدث مع يهود بني النَّضير، أمرٌ يتكرَّر مع اليهود، بل هي سنَّة كونيَّة فيهم، كلَّما اجتمعوا في مكان، سلك الله عليهم من يعذِّبهم بالطَّرد والإذلال، أو بالحبس والضَّرب، أو بغير ذلك، كما قال ربُّنا: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [الأعراف: 167].

﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧﴾ [الأحزاب: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مصيرُ الصّامت مِنَ الأموال بعد مصير النّاطق

لمّا ذكر الله سبحانه خبر يهود بني قريظة، ولمّا ذكر الناطق بقسميه ممّا حلَّ برجالهم ونسائهم وذراريهم؛ ذكر الصّامت من الأراضي والأموال[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ﴾: (ورث) أصلٌ واحد، وهو الوِرْثُ والميراثُ، وهوَ أَنْ يَكونَ الشَّيْءُ لِقَوْمٍ، ثُمَّ يَصيرَ إِلَى آخَرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ[2]، وتدلُّ تصريفاتها على معنًى كون الشَّيء لقوم، ثمَّ يصير إلى آخرين، ومنه الميراثُ، وهو المال الذي يخلِّفُه الميِّتُ، فإنَّه كان له، فانتقل إلى ورثته من بعده، ويقال لكلِّ مَن حصل له شيء من غير تعب: قد ورِثَ كذا، تقول: ورِثْتُ أبي، وورِثْت الشَّيءَ من أبي، أرِثُهُ بالكسر فيهما، وِرْثًا ووِراثة وإرْثًا، والألف منقلبة من الواو[3]، ومعنى ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ﴾ في الآية: تمليك المؤمنين لأملاك اليهود مِلكًا كالميراث في حصوله بلا مقابل[4].

2) ﴿لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾: (وطأ) كلمة تدلُّ على تمهيد شيء وتسهيله[5]، ووطَّأتُ له المكان، ووطِئته برجلي أطَؤه، ووَطِئَ امرأتَهُ؛ كنايةً عن الجماع، فصار كالتَّصريح للعرف فيه، والوطء أيضًا عبارة عن الأخذ والعقوبة[6]، ويقال: وطِئتُ البلاد أطؤُها وطاءً ووِطاءً، مِن:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 334.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ورث).
(4) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 22/ 482.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وطأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (وطأ).

وطأ البلادَ بِرجلِهِ، كقوله: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ [التوبة: 120] [(1)]، وقوله: ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾، أي: لم تنزلوا بها غُزاةً، ولم تمشوا فيها، فبشّرهم بأرض أخرى، يرثونها من بعدُ[(2)].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

تمليكُ المسلمين أمـلاكَ اليـهود النّاكثين

يمتنّ ربُّنا سبحانه على المؤمنين أنَّه ملَّكهم أرض يهود بني قريظة ومساكنهم وأموالهم المنقولة كالحليِّ والسِّلاح والمواشي، وغير المنقولة كالمزارع والبيوت والحصون المنيعة، وأورثهم أرضًا لم يتمكَّنوا مِن وطئها من قبلُ؛ لمنعتها وعزَّتها عند أهلها، وكان اللّٰه على كلِّ شيء قديرًا، لا يعجزه شيء[(3)].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ عطفِ هذه الآية على ما قبلها:

الـجـمـع والـتـشـريـك في تَعداد نِعَمِ الله على المؤمنين

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾ بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران؛ لكون السّياق في تَعديد نِعَمِ اللّٰه سبحانه على المؤمنين في غزوة بني قريظة، فعطف نعمة تمليك المؤمنين لأموالهم وأراضيهم بعد تمليكهم رقابهم للقتل والأسر.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ﴾:

توريثُ المؤمنين أملاكَ اليهود بلا عُلقة قرابةٍ ولا دين

استُعمِلَ لفظُ التوريث في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾؛ للدِّلالة على تمليك المؤمنين أملاكَ اليهودِ ملكًا، كالميراث في حصوله بلا مقابل، حيث شُبِّهت ممتلكاتُهم في بقائها على المسلمين بالميراث الباقي على الوارثين؛ إذ ليسوا في علقةٍ منهم من قرابةٍ ولا دين، ولا ولاءٍ، فأهلكهم اللّٰه تعالى على

---

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وطأ).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 313.

(3) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 421.

أيديهم، وجعل أملاكهم وأموالهم غنائم لهم باقيةً عليهم كالمال الباقي على الوارث[1].

بلاغةُ المجازِ في لفظ ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ﴾:

تشبيهُ أملاك اليهود بالميراث في حصوله بلا مقابل

يتضمَّن قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ مجازًا؛ لأنَّ حقيقةَ الإرث مصير مال الميِّت إلى من يبقى بعده، وتنتقل الأملاك الموروثة من المَوَرِّثِ الفاني إلى الوارث الباقي، فاستُعير لفظ ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ﴾ في النَّظم؛ إشعارًا بأنَّ ما انتقل إلى المسلمين بعد موت أولئك المقتولين كالميراث في حصوله بلا مقابل، وأنَّ ملكهم إيّاه ملك قويٌّ ليس بعقد يمكن الفسخ فيه أو الإقالة[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ﴾:

تحقُّقُ تمليك المسلمين لأموال اليهود وأراضيهم

جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ الفعلُ ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ﴾ بصيغة الماضي؛ للدِّلالة على تحقُّق تمليك المسلمين لأموال اليهود وأراضيهم، وذلك لأنَّ الإِخْبارَ عَنِ الشَّيْءِ بِصيغَةِ الماضي يَقْتَضي تحقُّق الخبر، ويقتضي كَوْنَ المُخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا عَلى ذَلِكَ الإِخْبارِ[3].

سرُّ الإضافة إلى الضمير (هم):

خيانةُ اليهود للمواثيق جعلتهم يخسرون ممتلكاتهم

أُضيفتِ الأرضُ والديار والأموال في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ إلى الضَّمير (هم)، وهو عائد إلى يهود بني قريظة الذين كانت بينهم وبين المسلمين عهودٌ يأمَنُ بها كلٌّ منهم الآخرَ، ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهود حسدًا منهم وبغيًا، فتمَّ عليهم ما تمَّ مِن سنَّة اللّه في المفسدين، وخسروا أنفسَهم وأهليهم وأرضهم وديارهم وأموالهم، قال بعضهم: يا للّه! ما أسوأ عاقبةَ الطَّيش! فقد تكون الأمَّة مرتاحة البال هادئة الخواطر، حتى

(1) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 22/ 482.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 380، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 175.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنّون من ورائه النَّجاح، فيجلب عليهم الشُّرور، ويشتِّتهم من ديارِهم[1]، ثمَّ إنَّ إضافة المفرد أو الجمع إلى معرفة يفيد العموم، بمعنى: وأورثكم كلَّ جزءٍ من أجزاء أرض بني قريظة، أو أورثكم سائر أراضي أفراد بني قريظة، وكلَّ ديارهم وكلَّ أموالهم، لم يخرج شيء من ذلك عنكم.

نكتةُ التَّرتيب في قوله: ﴿أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾:

تقديمُ الأهمِّ فالأهمِّ عند المتكلِّم

أُوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ ترتيبُ ذِكرِ الأرض والدّيار والأموال، فبدأ بذكر الأرض لكثرة المنفعة بها من النَّخل والزَّرع، ثمَّ عطف عليها ثانيًا ديارهم؛ لأنَّها مبنيَّة على تلك الأراضي، ثمَّ عطف عليها ثالثًا أموالهم؛ ليُستعان بها في قوَّة المسلمين للجهاد، ولأنَّها كانت في بيوتهم[2]، أو روعي في ذلك ترتيب شدَّة الحسرة الواقعة على بني قريظة، فالحسرة على ضياع الأرض أشدُّ من الحسرة على أخذ الديار، وكلتاهما أشدُّ حسرة من ضياع الأموال.

دلالةُ التَّعبير بالجمع في ﴿وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾:

كثرةُ ديار يهود بني قريظةَ وأموالهم

ورد لفظا ﴿وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ بصيغة الجمع للإشارة إلى كثرة ديار يهود بني قريظة وأموالهم، وقد ورد لفظ ﴿أَرۡضَهُمۡ﴾ مفردًا؛ لقصد جنس الأرض، أو لأنَّها أرضٌ واحدة بُنِيت عليها هذه الدّيار بما اشتملت عليه من أموال وخيرات.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾:

تعديدُ نِعَمِ الله سبحانه على المؤمنين في غزوة بني قريظة

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران لكون السياق في تعديد نِعم اللّه سبحانه على المؤمنين

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 08/ 65.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 470.

في غزوة بني قريظة، فعطف على نعمة تمليك المؤمنين أرضَ بني قريظة وديارهم وأموالهم وعدًا صادقًا بأنَّهم سيملكون بقدرة اللّه أراضيَ أخرى يفتح اللّه بها عليهم، كما فتح عليهم أرض اليهود.

دلالةُ التَّنكير في قوله: ﴿وَأَرۡضٗا﴾:

الإبهامُ مع التعظيم والتكثير

جاء لفظ ﴿وَأَرۡضٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ نكرةً، والغرض من تنكيره الإبهامُ، فوعد اللّه المسلمين أنَّه سيورثهم أرضًا لم يقبضوها بعدُ - كفارس والرّوم وخيبرَ - وكلَّ أرضٍ تُفتح إلى يوم القيامة، ولا وجه لتخصيص شيء من ذلك دون شيء[1].

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿وَأَرۡضٗا﴾:

الجمعُ بين الموجود والموعود بالجمع بين الحقيقة والمجاز

استشكل العلماءُ عطْفَ قولِه تعالى: ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾؛ وذلك لأنَّ الإرث ماضٍ حقيقةً بالنِّسبة إلى المعطوف عليه من أرض بني قريظة وديارهم وأموالهم، ومجازًا بالنِّسبة إلى هذا المعطوف، (وهو الأرض الموعودة).

وأجاب بعضهم عن سرِّ هذا العطف بأنَّه يراد بـ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ﴾: أورثكم في علمه وتقديره، وذلك متحقِّق فيما وقع من الإرث كأرضهم وديارهم وأموالهم، وفيما لم يقع بعد: كإرث ما لم يكن مفتوحًا وقت نزول الآية، وبعضهم قدَّر ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ﴾ في جانب المعطوف مرادًا به (يورثكم) إلّا أنَّه عبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع[2].

سرُّ النَّفي بـ﴿لَّمۡ﴾ في الآية:

تبشيرُ المؤمنين بأرض لم يقبضوها من قبل

ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ النَّفيُ بـ﴿لَّمۡ﴾، وهي أداة لنفي الفعل المضارع وجزمه، وقلْبِ زمنه إلى المضيِّ، وهي لنفي (فَعَلَ)، وقد يكون النفي بها منقطعًا أو متَّصلًا إلى زمن المتكلِّم،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 380.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 176.

دون التعرُّض للنَّفي في الحاضر والمستقبل[1]، فبشَّر اللّٰه سبحانه المؤمنين بأنَّ هذه الأرض الموعودة، لم يقبضوها من قبل، وأنَّها ستكون في المستقبل وعدًا صادقًا بأن يفتح عليهم أراضيَ أخرى، كما فتح عليهم أرضَ بني قريظة.

دلالةُ وصفِ الأرض بقوله: ﴿لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾:

وصـفُ الأرضِ الموعودة بعدم الفتح عنوة

وُصِفَت الأرض الموعودة بعبارة: ﴿لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾، من وُطِئَ على الأرض يطأ وطئًا؛ إذا مشى عليها بالأقدام، والمعنى على هذا: أنَّ اللّٰه بشَّر المؤمنين بأرض أخرى يرثونها من بعدُ ينزلون بها غزاة، وهي أرض أخرى غير أرض قريظة، وذهب بعض العلماء إلى أنَّ معنى لم تطَؤوها: لم تفتحوها عنوة، فإنَّ الوطْءَ يُطلق أيضًا على معنى الأخذ الشديد، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ [الفتح: 25][2].

بلاغةُ التَّذييل في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾:

تـوكيـدُ قـدرة الـقـديـر على الفتح العظيم وتـمـلـيـك أراضٍ جديدة للمسلمين

جاء قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ معطوفًا على ما قبله؛ لأنَّه خرج مخرج التَّذييل لما سبق، وفائدة التذييل غالبًا: توكيد المذيَّلِ، وإبراز حكمه في صورة كلّيَّة[3]، وفي هذا التذييل إيماءٌ إلى البشارة بفتح عظيم يأتي من بعده؛ لأنَّه سبحانه ختم هذه الآية بقدرته على كلِّ شيء، فلا يعجزه شيء، وفي ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة، وأنَّه لا يُستبعد ذلك، فكما مَلَّكَهُم أرضَ بني قريظة، فكذلك هو قادر على أن يُمَلِّكهم غيرها من البلاد[4].

دلالةُ التَّعبير بقوله: (كان):

قــدرةُ الـلـه سبحانه ثابتة له سبحانه أزلًا وأبدًا

ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ استعمالُ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 69.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 313، والهرري، حدائق الروح والريحان: 22/ 483.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 471.

الفعل الماضي (كان)، الَّذي يأتي في الأصل للاتِّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنَّه يخرج لدلالة الدَّوام والاستمرار بمعنى (لم يزل)[1]، وفائدتها هنا الدِّلالةُ على أنَّ قدرةَ اللّٰه ﷻ وصفٌ ثابتٌ له سبحانه أزلًا وأبدًا بما له من صفات الكمال[2].

سرُّ التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

تعظيمُ توحيدِ الألـوهـيَّـة واسـتـحـضـار صفات الكمال

أوثِرَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا﴾ التَّعبيرُ باسم اللّٰه الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ الجامع لأسمائه الحسنى؛ تعظيمًا لحقِّ الألوهيَّة، وتقريرًا للقوَّة الكاملة والعزَّة القاهرة للّٰه سبحانه، فهو جديرٌ بكلِّ الصفات الفائقة من القدرة وغيرها[3]، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتصَّةٌ به وحده سبحانه، فَيُذْكرُ لفظُ الجلالَةِ لاستحضارِ المعنى الجامِعِ لِصِفاتِ الكمالِ[4].

دلالةُ تقديم الجار والمجرور في الآية:

استـيـلاءُ قـدرة الـلـه سبحانه عـلـى الأشـيـاء كلِّها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا﴾ على خبر (كان)؛ لغرض الاهتمام والتَّأكيد على أنَّ قدرته سبحانه محيطة بالأشياء كلِّها، إضافة إلى ما في هذا التَّقديم من مراعاة الفواصل.

بلاغةُ الجمع بين التوكيد حرف الاستعلاء:

بـلـوغ الـقـدرة الإلـهـيـة غـايـة الاستعلاء على كلِّ ادّعاء

اجتمع في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا﴾ حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ مع عبارة العموم ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾، فشمل الاستعلاءُ المادّيّات والمعنويات والمشاهدات والغيبيّات، كما أنَّ إضافة لفظ ﴿كُلِّ﴾ - الَّذي هو من ألفاظ العموم - إلى لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ المفيد للعموم، أفادت استعلاءً عامًّا شموليًّا واستقصاء لكلِّ ما يتصوَّره

(1) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 335.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 533.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.

الذِّهن، أو أخبر عن وجوده الوحي، فهو عموم يلفُّه عموم، والجملة في غاية الاستعلاء عن كلِّ ادِّعاء؛ لذلك كثر ورودها في القرآن الكريم.

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿قَدِيرًا﴾:

المبالغةُ في توكيدِ قدرة الله سبحانه على تمليك المسلمين ما شاء من الأراضي

جاء وصف ﴿قَدِيرًا﴾ على صيغة (فعيل)، وهو وزن من أوزان المبالغة المفيدة للكثرة والتكرار ووصول المعنى إلى أعلى درجاته، فصيغة (قدير) أبلغ من صيغة (قادر) الَّتي تدلُّ على الحدث وفاعله، وقد خُتِمت الآية بوصف ﴿قَدِيرًا﴾ مناسبة لسياق الآيات من توكيد قدرة الله سبحانه على تمليك المسلمين ما شاء من الأراضي.

الفروقُ المُعجَميَّة:

الدّيار والمنازل والمساكن والبيوت:

الديار للرفاهية، والمنازل للضيافة، والمساكن للسكنى، والبيوت لمكان البيات وزمانه

يتجلّى الفرق بين لفظَي (الدّيار) و(المنازل) في ملمح اشتقاق كلِّ لفظ، فقد اشتُقَّت الدّار من جذر (دور)، ويدور معنى هذا الجذر على إحداق الشَّيء بالشَّيء من حواليه[1]، وسُمّيت دارًا؛ لدوران أهلها بها أو لدورانها هي على أهلها وإحاطتها بهم[2]، في حين اشتقاق المنزل من (نزل) بمعنى: الهبوط؛ لأنَّ أصحابه ينزلون به بعد مسير أو رحيل ليلًا أو نهارًا، ومكان نُزُل: ينزل فيه كثيرًا، ووجدت القوم على نُزُلاتهم، أي: منازلهم، والنُّزُل: ما يُهيَّأ للنَّزيل[3].

كما يُطلق لفظ (دار) على الأرض والبناء معًا، في حين لا يطلق لفظ المنزل إلّا على حيِّز النزول، فلفظ الدّيار أشملُ دلالةً من لفظ المنازل؛ ممّا يعلِّل استعماله في النَّظم الكريم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دور).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (دور).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزل).

والمساكن يُراعى فيها معنى السُّكنى، وهو الوجود، أو السُّكون، وهو الهدوء، وأمّا البيوت؛ فيُراعى فيها زمانُ البيات، وهو اللَّيل، ولذلك يقترنان كثيرًا، فيقولون: أمرٌ بُيِّت بليل، أو مكان البيات، وهو الغرفة التي ينام فيها عامَّة، أو المخدع خاصة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾

[الأحزاب: 28]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مطالبة الزَّوجات نبيَّ الله بتوسعة الحال وزيادة النَّفقات

لمّا نصر اللّه نبيَّهُ، وفرَّقَ عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظةَ والنَّضيرَ؛ ظنَّ أزواجه أنَّه اختصَّ بنفائس اليهودِ وذخائرهم، فطالبْنَ النبيَّ ﷺ بتوسعة الحال والزّيادة في الكسوة والنَّفقة، فأمره اللّه أن يَتلوَ عليهنَّ ما نزل في أمرهنَّ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَزِينَتَهَا﴾: (زين) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حسن الشَّيءِ وتحسينه، فالزَّيْن نقيضُ الشَّيْن، يُقال: زيَّنتُ الشَّيءَ تزيينًا، وأزينتُ الأرضَ وازَّيَنت وازدانت؛ إذا حَسَّنَها عُشْبُها، والزّينة اسمٌ جامعٌ لكلِّ شَيْءٍ يُتَزيَّن بِهِ [2]، ومعناها في الآية: زخارف الدُّنيا ونضارتها ورفاهيَّتها[3].

2) ﴿فَتَعَالَيۡنَ﴾: (علو) أصله من العُلوّ، وهو السُّموُّ والارتفاع في المنزل والمنزلة، فكأنَّه دعاء ونداء إلى ما فيه رفعة، أو مِن التَّعالي، وهو السُّموُّ والعلوُّ بالارتفاع من موضع هابطٍ إلى مكان عالٍ[4]، ثمَّ كثُر استعمالُهُ حتّى صار دالًّا على طلب التَّوجُّه إلى حيث يُدعى إليه، وإن لم يكن انتقالًا من مكان إلى مكان، فمعناه: هلُمَّ بالرَّأي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 471.
(2) الأزهريّ، التّهذيب: (زين)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 480.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو)، والرّاغب، المفردات: (علو).

والعزيمة[1]، ومعنى ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ في الآية: أقبِلن واقبَلْنَ بإرادتكنَّ واختياركنَّ لأحد الأمرين[2].

3) ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾: (متع) أصلٌ يدلُّ على مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خير، ومنه استمتعتُ بالشَّيء، والمُتْعَةُ والمَتاعُ: المنفعة، وكلُّ موضع ذُكِرَ فيه (تمتَّعوا) في الدُّنيا؛ فعلى طريق التَّهديد، وذلك لما فيه من معنى التَّوسُّع، والمَتاعُ والمُتْعَةُ: ما يُعطى للمطلَّقة؛ لتنتفع به مدَّة عدَّتها، يقال: أَمْتَعْتُها ومَتَّعْتُها، والقرآن ورد بالثاني نحو: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: 49][3]، والمتعة في الشَّرع: دِرع وخِمار ومِلحَفَة على حسب السَّعة والإقتار[4].

4) ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾: (سرح) أصلٌ واحد، وهو يدلُّ على الانطلاق، وسَرَّحْتُ الإبل، أصله: أن تُرعيَهُ السَّرْحَ، ثمَّ جعل لكلِّ إرسال في الرَّعي، والسّارِحُ: الرّاعي، والتَّسْرِيحُ في الطَّلاق مستعار من تَسْرِيح الإبل، كالطَّلاق في كونه مستعارًا من إطلاق الإبل، يقال: سرَّحت المرأة، وفي كتاب اللّه تعالى: ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ [البقرة: 231]، ومعناه في الآية: أُطلِّقْكن، وأعطِكنَّ متعة الطلاق[5].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تخييرُ أزواجِ النَّبيِّ بين متاع الدُّنيا الزائلة وثواب الآخرة

يأمرُ اللّه سبحانه نبيَّه الكريم ﷺ أن يقول لأزواجه اللّاتي اجتمعن عليه يطلبن منه زيادة النَّفقة: إن كنتُنَّ تردْنَ الحياة الدُّنيا وزينتها؛ فأقبِلْنَ أمتعْكنَّ شيئًا مِمّا عندي من الدُّنيا، وأفارقكنَّ دون ضرر أو إيذاء[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 08/ 252، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/ 128.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 535.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع)، والرّاغب، المفردات: (متع).
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 535.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 316، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 177.
(6) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 421.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفتاح بالنِّداء في الآية:

تنبيهُ السّامع إلى ما سيُلقى إليه من الكلام

استفتح قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بأسلوب النِّداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾، والغرض منه تنبيهُ السّامع؛ لإيقاظ ذهنه واستحضار قلبه، فإنَّ الحكيم عمومًا إذا خاطب من يكون محلَّ الغفلة أو مشغول البال؛ يُقَدِّمُ على الكلام المقصود شيئًا؛ ليلتفت المخاطَب بسببه إليه، ويُقبِلَ بقلبه عليه؛ بسبب ذلك المقَدَّم كالنِّداء وحروف الاستفتاح وغيرها؛ تنبيهًا له على أنَّ ما سيُلقى إليه أمرٌ مُهمٌّ[1].

سرُّ النِّداء بـ(يا) التي لنداء البعيد:

تنزيل القريب منزلة البعيد لأهمية ما يأتي بعد النداء

حين ترى خطرًا يحدق بمن أمامك في أمر دنيويٍّ، فإنَّك تناديه مباشرة بصوت مرتفع، وتقول له: يا فلان انتبه، ستسقط في حفرة مثلًا، فما بالك إذا كان الخطر في الدّين، ومِن أحبِّ الناسِ إليك (أزواجك)؟ لذا نادى الله نبيَّه ﷺ: يا أيُّها المعظَّم عندنا المقرَّب منّا، أبعدْ عنك ما يضرُّك في دينك، وافعل ما نأمرك به ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾.

بلاغةُ مجيءِ (أي) بعد حرف النداء:

المبالغةُ في جذب انتباه السّامع

حين تقول (يا) يظنُّ كلُّ سامع أنَّك ستناديه، فإذا قلت: أي؛ ازداد طمع الكلِّ في ذلك، فاشرأبَّت الأعناق، وخشعت الأصوات، وأنصتت الآذان، لتعلمَ مَنِ المنادى، حتى يخلص المتكلِّم إلى لفظ يحدِّد المنادى.

سرُّ مجيء (ها) المنبِّهة بعد (أي):

المبالغة في التَّنبيه

جاءت (يا) للنداء، ثم تلتها (أي) المبهمة، ثم (ها) المنبِّهة؛ ليصل المتكلم بعد ذلك إلى المنادى، وكلُّ ذلك للمبالغة والتَّأكيد، على خطر ما يقال للمنادى، بحشد جملة من ألفاظ الإبهام والتَّنبيه،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 23.

فإذا خلص إلى المنادى؛ ناداه بلفظ يُشعر بمكانته وفضله ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾، المرفوع عند ربِّه فوق بقيَّة خلقه، الموصول بنبأ السماء في كل وقت.

سرُّ النِّداء بوصف النُّبوَّة:

النَّبيُّ هو المرتفع فوق الخلق لتلقّيه نبأ السماء

أوثِر في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نداءُ النَّبيِّ ﷺ بوصف النُّبوَّة دون الرِّسالة؛ لكون سياق الآية في إنباء أزواجه بأمر اللّه سبحانه في تخييرهن بين متاع الدُّنيا وثواب الآخرة، فالنَّبيُّ مشتقٌّ مِن النَّبأ - على قول - وهو الذي يبلغه نبأ السَّماء، ثم يُنبِئ عن اللّه سبحانه، فافتتاح هذه الأحكام بنداء النَّبيِّ ﷺ - بـ: يا أيُّها النَّبيُّ - تنبيهٌ على أنَّ ما سيُذكر بعد النِّداء له مزيد اختصاص به، وهو غرض تحديد سيرة أزواجه معه سيرة تناسب مرتبة النُّبوَّة[1]، أو هو مشتقٌّ من النُّبوَّةِ، وهي المكان المرتفع، أي: هو المرفوع عند ربِّه فوق بقيَّة خلقه.

دلالةُ التَّعبير بصيغة الأمر ﴿قُل﴾:

وجوبُ التَّبليغ في حقِّ النَّبيِّ ﷺ

تضمَّن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل﴾ أمرًا للنَّبيِّ ﷺ بأن يبلِّغ عن اللّه كلامه لأزواجه على جهة الوجوب؛ لأنَّ شأن هذه السّيرة أن يشقَّ على غالب النّاس وخاصة النِّساء، فأمر اللّه رسوله ﷺ أن ينبئَ أزواجه بها، ويخيِّرهن على السَّير عليها تبعًا لحاله وبين أن يفارقهن، فامتثل النَّبيُّ ﷺ أمر ربِّهِ، وخيَّر أزواجه واحدة واحدة، فاخترن اللّه ورسوله[2].

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾:

تعدُّد أزواج النَّبيِّ ﷺ

يشير التَّعبير بلفظ ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ بصيغة الجمع، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ إلى تعدُّد أزواج النَّبيِّ ﷺ، وقد كنَّ تسعَ نسوة: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأمَّ حبيبة - واسمها رملة بنت أبي سفيان - وأمَّ سلمة - واسمها هند بنت أبي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 315.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 315.

أميَّة المخزومية - وسودة بنت زمعة العامرية، وهذه الخمسة من قريش، وأربع من غيرهم: زينب بنت جحش الأسديَّة، وميمونة بنت الحارث الهلاليَّة، وصفيَّة بنت حيي بن أخطب الخيبرية، وجويرية بنت الحارث المصطلقيَّة، وهذه كلُّها بعد وفاة خديجة رضي الله عنها وعنهنَّ[1].

بلاغةُ التعبير بصيغة (أفعال) في جمع الأزواج:

تـقـلـيـل عـدد أزواج النبي ﷺ ولو اجتمع عنده تسع منهنَّ

يظنُّ كثيرٌ من النّاس أنَّ النَّبيَّ ﷺ، تزوَّج عددًا كبيرًا من النِّساء، لا حدَّ له في ذلك ولا عدَّ، والحقيقة أنَّه وإن اجتمعت عنده تسعٌ من النِّساء، فقد ضُيِّق عليه في النِّكاح، حتى صار التسعُ بالنسبة له قليلاتٍ، فالمسلم له أن يتزوَّج أربعًا، وفي كلِّ عام يطلِّق واحدة، ويتزوَّج أخرى، حتى إنَّ بعضهنَّ تزوَّجها، وهو فوق الخمسين، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ مُنِعَ مِنَ الزَّواج بعد ذلك، ولو بتبديل امرأة بأخرى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: 52]، فجاء لفظ أزواج بصيغة جمع القلَّة؛ ليدلَّ على أنَّه وإن جمع بين تسع من الأزواج؛ فهنَّ بالنِّسبة له قليلات؛ بسبب التَّضييق عليه بعدم زواج غيرهنَّ.

دلالةُ الخطاب في قوله: ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾:

تشريفُ الأزواج بإضافتهنَّ إلى خير الخلق ﷺ

دلَّ ضمير الخطاب من ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ على إضافة الأزواج إلى النَّبيِّ ﷺ، وفي ذلك تشريف لهنَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ [الأحزاب: 32]، ولـمّا خُيِّرَ رسول اللّه ﷺ بين مُلك الدُّنيا ونعيم الآخرة، فاختار الآخرة؛ أُمِرَ بتخيير نسائه؛ ليظهر صدق موافقتهن، فاخترن اللّه ورسوله[2].

---

(1) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 22/ 484.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 471.

عمومُ النِّساء في الأزواج والإماء

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ دون (نسائك):

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ لفظُ ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ دون (نسائك)؛ لتخصيص هذا الحكم بالزَّوجات دون ملك اليمين، وقد ورد في سبب نزول الآية أنَّهنَّ سألن النَّبيَّ ﷺ التوسعة في النَّفقة والكسوة، فأمر الله رسوله ﷺ بتخييرهن، فدلَّ على تخصيصهنَّ دون السَّراري.

تخييرُ أزواج النَّبيِّ ﷺ بين احتمالين

دلالةُ التَّعبير بـ﴿إِن﴾ في الآية:

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ بحرف الشرط الجازم ﴿إِن﴾، وهو يرد عمومًا في المعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في حصولها والموهومة والنادرة والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى[1]، فلمّا كان سياق الآية تخييرَ أزواج النَّبيِّ صلّى الله عليه السلام بين احتمالين؛ ناسب استعمال ﴿إِن﴾ دون (إذا) المستعملة في الأمور المتحقِّقة.

حبُّ الدنيا وزينتها وشهواتها راسخ في قلوب الناس

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿كُنتُنَّ﴾:

استُعمِل في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ الفعلُ ﴿كُنتُنَّ﴾؛ للدِّلالة على رسوخ الصفة في الموصوف، بمعنى أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول لأزواجه: إن كانت إرادة الدُّنيا وزينتها من أوصافهنَّ وصفًا راسخًا، فتعالين أمتِّعكنَّ، وأسرِّحكنَّ سراحًا جميلًا، وهذا على سبيل الفرض والاحتمال وإلّا فقد اخترن رضي الله عنهن الله ورسوله[2].

دلالةُ المذكور على المحذوف

دلالةُ حذفِ المضاف في الآية:

تعدّى الفعلُ ﴿تُرِدۡنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى اسم ذات الحياة الدُّنيا، والمقصود: إن كنتن تؤثِرْن ما في الحياة من الترف على الاشتغال بالطاعات والزهد، فالكلام على

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 69.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 336.

حذف مضاف يقدر صالحًا للعموم؛ إذ لا دليل على إرادة شأن خاص من شؤون الدُّنيا، فالمعنى: إن كنتنَّ تردن الانغماس في شؤون الدُّنيا، وقد دلَّت على هذا مقابلته بقوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[1].

سرُّ وصف الحياة بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

تحقيرُ الدُّنيا وتهوين أمرها

الدُّنيا وصف مؤنَّث على وزن (فُعلى)، مِن: دنا، بمعنى: قرب، أو دنأ، بمعنى: حقر، وعليه فالدُّنيا بمعنى الدّانية القريبة السريعة المرور، أو بمعنى الدنيئة الحقيرة، وكلاهما وصفٌ موجودٌ مقصود، فسرعان ما تتبدَّل الأيّام، وتتحوَّل الأحوال، ولا تبقى الدُّنيا على وتيرة واحدة، ثم هي في نفسها وبالمقارنة إلى غيرها حقيرة دنيئة.

نكتةُ عطف قوله: ﴿وَزِينَتَهَا﴾:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ للاهتمام بشأنه والتنويه به

عُطِفت الزينة على الحياة الدُّنيا في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾، من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ اهتمامًا بشأنه وتنويهًا به، ولعلَّ في ذكره إيماءً إلى أنَّ بعض أزواجه سألنه خصوصًا حليًّا وحُلَلًا وغيرها ممّا تتزيَّن به النِّساء، كما ورد في بعض الآثار في سبب نزولها.

سرُّ التَّعبير بالزّينة في الآية:

الحليُّ والحُلَل والإماء والخَوَل من زخرف الدُّنيا ورفاهيتها

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾، بلفظ ﴿وَزِينَتَهَا﴾، والمقصود به زخارفُ الدُّنيا ونضارتها ورفاهيَّتها، وقد ورد في بعض الآثار ذِكرُ بعض أنواع الزينة المرغوبة لهنَّ، فمنها أنَّهنَّ قلن: يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحليِّ والحُلَلِ والإماء والخَوَلِ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، ومنها أنَّ امرأة من أزواجه سألته أن يصوغ لها حلقة من ذهب، فصاغ لها حلقة من فضَّة وطلاها بالذهب - وقيل: بالزعفران -

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 315.

فأبت إلّا أن تكون من ذهب، وغيرها من الآثار التي تُذكر بعض أفراد الزّينة(1).

بلاغةُ إضافة الزينة إلى ضمير الدُّنيا:

الزينة ليست من الدُّنيا

إنَّما عطف الزينة على الدُّنيا وإضافتها إلى ضميرها في قوله: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الدُّنيا إنَّما وجدت؛ لتكون طريقًا موصلة إلى الآخرة بعمارتها، وعبادة اللّه فيها، وليست الزّينة منها، بل هي شيءٌ زائد عنها، ولزينة كلِّ شيء مواضع وأوقات تحسن فيها دون غيرها، ويكثر في القرآن الكريم هذا الأسلوب، من عطف الزينة على الدُّنيا وإضافة الزينة إلى ضميرها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: 15].

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَتَعَالَيۡنَ﴾:

تعليقُ مضمون الجواب على حصول مضمون الشَّرط

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ على ما قبله، وهو قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾، بحرف الفاء ربطًا للجزاء بالشَّرط دليلًا على أنَّه سببه، والغرض البلاغيُّ منه إنَّما هو تعليق مضمون الجواب على حصول مضمون الشَّرط، فيحصل الثّاني بحصول الأوَّل، والمقصود: إن كنتنَّ ممَّن يحببن لذّات الدنيا ونعيمها، والتمتُّع بزخرفها؛ فأقبلن عليَّ أعطِكن ما أوجب اللّه على الرِّجال للنِّساء من المتعة عند فراقهم إيّاهن بالطَّلاق(2).

بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿فَتَعَالَيۡنَ﴾:

انتقالُ المعنى من التَّعالي في المكان إلى المجيء والإقبال

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ استعمالُ اسم الفعل ﴿فَتَعَالَيۡنَ﴾، وأصل (تعالَ): أن يقوله مَن في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطِئ، ثم كَثُرَ حتى استوت في استعماله الأمكنة، ومعنى ﴿فَتَعَالَيۡنَ﴾: أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد أمرين، ولم يرد نهوضهنَّ إليه بأنفسهنَّ،

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 162، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 471.

(2) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 22/ 486.

كما تقول: أقبلَ يخاصمني، وذهب يكلّمني، وقام يهدِّدني، فهو هنا كناية عن الإخبار والإرادة بعلاقة أنَّ المخبر يدنو إلى من يخبره[1].

دلالةُ التَّعبير بالتَّمتيع في الآية:

متعةُ المطلَّقةِ تطييبٌ لخاطرها وتعويض عمّا لحقها من ضرر الطلاق

استُعمِل في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ التَّعبيرُ بالفعل: ﴿أُمَتِّعۡكُنَّ﴾، بمعنى: أعطِكنَّ متعة الطلاق، والمَتاعُ والمُتْعَةُ: ما يُعطى المطلَّقة؛ لتنتفع به مدَّة عدَّتها يكون متاعًا لها؛ تطييبًا لخاطرها، وتعويضًا عمّا لحقها من ضرر بالطَّلاق، والمتعة: درعٌ وخمار وملحفة على حسب السَّعة والإقتار، إلّا أن يكون نصف مهرها أقلَّ من ذلك، فيجب لها الأقل منهما، ولا تنقص من خمسة دراهم؛ لأنَّ أقلَّ المهر عشرة دراهم، فلا ينقص من نصفها[2].

وجهُ تسمية نفقة المطلَّقة متعة:

محاولةُ نسيان المرأة ألم الطَّلاق بلذَّة المتعة

لمّا كان في الطلاق آلامٌ وشدائدُ، وكان وقعه على المرأة قاسيًا سُمّيت النَّفقة التي تحصل عليها في العدَّة متعةً؛ حتى ينسيها بهذا اللفظ وما يحويه من لذَّة ظاهرة وباطنة، وبريق في المال والثياب، ما يلحقها بسبب ذلك من ألم.

وجهُ عطفِ ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾:

عطفُ التَّطليق على التَّمتيع

عُطِفَ في قوله تعالى: ﴿أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾ الفعلُ ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾ على قوله: ﴿أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران، والتَّسريح في الأصل مطلق الإرسال، ثمَّ كُنّيَ به عن الطَّلاق، أي: أطلِّقكن، وأعطِكنَّ متعة الطَّلاق، والسَّراح: الطَّلاق، وهو من أسمائه وصيغه، قال تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ﴾ [البقرة: 231][3].

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 535، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 239.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 535، والرّاغب، المفردات: (متع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 316، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 177.

دلالةُ تقديم التَّمتيع على التَّسريح:

الإحــســان إلى الأزواج من الكرم وحسن الخُلق

تقدَّم في قوله تعالى: ﴿أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾ التمتيعُ على التَّسريح، وكان الظّاهر تأخيرَ التَّمتيع عن التسريح لما أنَّه مسبَّبٌ عنه، إلّا أنَّه قُدِّم عليه من باب الكرم وحسن الخُلق، وإيناسًا لهنَّ وقطعًا لمعاذيرهن من أوَّل الأمر، ولأنَّه مناسب لما قبله من الدُّنيا.

وجوَّز بعضهم أن يكون في محلِّه دون تقديم؛ بناءً على أنَّ إرادة الدُّنيا بمنزلة الطلاق، والسَّراح: الإخراج من البيوت، فكأنَّه قيل: إن أردتنَّ الدُّنيا، وطلَّقتنَّ؛ فتعالين؛ أعطِكنَّ المتعة، وأخرجْكنَّ من البيوت(1).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمفعول المطلق في السَّراح:

جمالُ الخُلق لا يظهر إلّا في الشدائد ومنه الطلاق

المتعةُ أو المتاع أمر مادّيٌّ لا يتنازل النّاس عنه عادة، والسَّراح أو الطَّلاق أمر معنويٌّ، وهو محلُّ الأذى، لا سيَّما من الزَّوج، الذي يأخذ قراره بالطَّلاق بالإرادة المنفردة، فيلحق المرأة بذلك ألمٌ وضرر، وهنا يظهر الخُلق الكريم من الرَّجل الذي يدلُّ على طيب منبتِهِ، وأصالة معدنِه.

دلالةُ التَّنكير في قوله: ﴿سَرَاحٗا﴾:

تأكيد إحسان النَّبيِّ الكريم إلى أزواجه

جاء في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ لفظُ ﴿سَرَاحٗا﴾ نكرةً، والنكتةُ في تنكيره: أنَّه يدلُّ على الإبهام، والإبهام له علاقة مباشرة بالتَّعظيم والتَّفخيم، فإنَّ مَن أراد أن يعظِّم شيئًا أبهمه بحيث لا يُكْتَنَهُ وصفُهُ، وتذهب النَّفس فيه كلَّ مذهب، فالتَّنكير هنا لتأكيد إحسانه ﷺ في تسريح من اختارت الحياة الدُّنيا.

سرُّ وصف السَّراح بالجميل:

جمالُ المفارقة بأن ليس فيها ضرر ولا أذًى

وُصِفَ السَّراحُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ بأنَّه جميلٌ، والجميل: الحسنُ حُسنًا بمعنى القبول عند النَّفس، وهو

---

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 4/ 230، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 177.

الطلاق دون غضب ولا كراهية؛ لأنَّه طلاق مراعًى فيه اجتناب تكليف الزوجة ما يَشُقُّ عليها، ليس فيه مضارة، ولا نوع حقد ولا مقاهرة، أو هو طلاقٌ ذو حُسنٍ كثيرٍ بأن يكون سُنّيًا لا ضرار فيه، كما في الطلاق البدعي المعروف عند الفقهاء، ويحتمل أيضًا أن يكون ما دون بتِّ الطَّلاق، ويحتمل أن يكون في بقاء جميل المعتقَد وحُسن العشرة وجميل الثَّناء وإن كان الطلاق باتًّا[1].

سرُّ التَّعبير بصيغة فعيل في وصف السَّراح:

كثرةُ المعاني والوصول بالصِّفة إلى ذروة سنامها

عُبِّرَ عن الجمال بصيغة (فعيل)، دون غيرها من الصّيغ؛ للدِّلالة على المبالغة في وصف الجمال من جهة باعتبار أنَّ (فعيل) صيغة مبالغة، ولحمل المطلِّق على أن يكون جميلًا في أخلاقه مع زوجته التي طلَّقها من جهة أخرى، باعتبار أنَّها صفة مشبَّهة باسم الفاعل؛ إذ فعلها مضموم العين في الماضي والمضارع.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزوج والمرأة:

عمومُ الزَّوج في الذَّكر والأنثى، وخصوص المرأة بالأنثى

يظهر الفرق بين اللَّفظين في علاقة العموم والخصوص، فلفظ الزوج عامٌّ في الذكر والأنثى، وتختصُّ المرأة بالأنثى فقط من بني آدم، وذلك لأنَّ أصل جذر (زوج) تدور اشتقاقاته على مقارنة شيء لشيء، ومن ذلك الزَّوج: زوج المرأة، والمرأة زوج بعلها، وهو الفصيح، قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35][2]، فالزَّوج كلُّ شيء ثانٍ مع شيء آخر، بينهما تقارن في حال ما، وسُمّيت المرأة القرينة للرَّجل بنكاح: زوجًا؛ لأنَّها اقترنت به، وصيَّرته ثانيًا، ويُسمّى الرَّجل زوجًا لها لذلك بلا فرقٍ، فمِن ثَمَّ لا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 337، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 381، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 316.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).

يقال للمرأة: زوجة بهاء التأنيث؛ لأنَّه اسمٌ، وليس بوصف[1]، فآثر النَّظم التَّعبير بالأزواج في الآية؛ لأنَّه اسم لذات مُنْضَمَّة إلى غيرها على وجه الملازمة.

الزّينة والزّخرف:

عمومُ الزّينة وخصوص الزخرف

يتَّفق اللَّفظان في الدِّلالة على تحسين الشَّيء، ويختلفان في المعنى الدِّلالي لكلٍّ منها، فالزّينة عامَّة في كلِّ ما يُتَزيَّن به، محمودًا كان أو مذمومًا، في حين أنَّ الزُّخرف في أصله هو الذَّهب، ثمَّ أُطلق على كلِّ ما يُتزيَّن به؛ لأنَّ الذَّهب هو الأصل في الزّينة باعتباره أغلى المعادن قيمةً، ثمَّ شبَّه كلَّ مموَّه مزوَّر به، ولهذا يُطلق على القول الباطل، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾ [الأنعام: 112].

السَّراح والطَّلاق:

السَّراح من تَسْريحِ الإبل، والطَّلاق من إطلاق الإبل

يتَّفق اللفظان في الدِّلالة على إخراج المرأة من عصمة الزوج، ويختلفان في ملمح الاشتقاق، فالسَّراح مستعار من تَسْريحِ الإبل، وأمّا الطَّلاق؛ فهو مستعار أيضًا من إطلاق الإبل[2]، وقد ورد القرآن بكلٍّ منهما في الدِّلالة على فكِّ العصمة الزوجية، قال تعالى: ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ [البقرة: 231]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: 1]، وغالبًا ما يُستعمل لفظ الطلاق في الرجعي، ولفظ السَّراح في البائن.

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 428.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 316، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 177.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ٢٩﴾ [الأحزاب: 29]

تخييرُ أزواج النَّبيِّ الكريم بين متاع الدنيا وأجر الآخرة العظيم

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أمر اللّه نبيَّه ﷺ بتخيير أزواجه بين خصلتين، ولمّا ذكر في الآية السّابقة أولاهنَّ؛ ذكر في هذه الآية الثانية منهنَّ تتميمًا للتَّقسيم(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعَدَّ﴾: (عدّ) أصلٌ صحيح واحد لا يخلو من العدِّ الذي هو الإحصاء، والإعداد الَّذي هو تهيئة الشَّيء، والمقصود هنا الثّاني، فالعُدَّةُ ما أُعِدَّ لأمر يحدُثُ، وأصل العُدَّة: الشَّيء المعدُّ المدَّخر، أي: شيء كثير يُعَدُّ من مالٍ وسلاحٍ وغيرهما، يقال: أعددت الشَّيءَ أُعِدُّهُ إعدادًا، واستعددت للشَّيء، وتعدَّدتُ له، وأعدَدْتُ الشَّيءَ: هَيَّأْتُه(2)، فمعنى قوله سبحانه: ﴿أَعَدَّ﴾، أي: هَيَّأ في الآخرة.

2) ﴿أَجْرًا﴾: (أجر) تدور تصاريفها على معنى: الكِراء على العمل، وجَبْر العظم الكسير، وبين هذين المعنيين نظام يجمعهما، وذلك أنَّ الأُجرَةَ بمنزلة الشَّيء الذي يُجبَر به حال العامل مقابل ما أصابه من كدٍّ وجهد في عمله(3)، والأَجْرُ: ما يعود مِن ثواب العمَلِ دنيويًّا كانَ أو أخرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلّا في النَّفْعِ دون الضُّرِّ(4)، قال الخليل: الأجر جزاء العمل(5)، والأجْرُ المذكور في الآية: هو الثَّوابُ الأخرَويُّ في مقابل العمل الدنيويِّ.

(1) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 22/ 486.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(4) الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (أجر).
(5) الخليل، العين: (أجر).

3) ﴿عَظِيمًا﴾: (عظم) أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على كِبَرٍ وقوَّةٍ، والعِظَم: مصدر الشَّيء العظيم، عَظُمَ الشَّيء عِظَمًا؛ فهو عظيم، والعَظامَةُ: مصدرُ الأمرِ العظيم، وعَظَّمَهُ يُعَظِّمُهُ تعظيمًا، أي: كبَّره، ومُعظَم الشَّيء: أكثره، وسُمّيَ العَظْمُ بذلك لقوَّته وشدَّته، وقال بعضهم: عَظُمَ الشَّيءُ، أصله: كَبُرَ عَظْمُهُ، ثم استُعير لكلِّ كبير، فأُجري مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنًى[1]، ومعنى الأجر العظيم في الآية: الكبيرُ في الذّات، الحسن في الصِّفات، الباقي في الأوقات[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ترغيبُ الأزواج في الصَّبر مع النَّبيِّ الكريم والفوز بالثواب العظيم

يأمر اللّه سبحانه نبيَّه الكريم ﷺ أن يقول لأزواجه اللّاتي اجتمعن عليه: وإن كنتنَّ تردْنَ رضا اللّه ورضا رسوله وما أعدَّ اللّه لكُنَّ في الدّار الآخرة من النَّعيم المقيم؛ فاصبرْنَ على ما أنتُنَّ عليه، وأطعن اللّه ورسوله، فإنَّ اللّه أعدَّ للمحسنات منكنَّ ثوابًا عظيمًا[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ﴾:

التشريك في الحكم بين التخييرين

وُصِلَ قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران؛ لأنَّه من عطف القسيم على قسيمه، فقد أمر اللّه نبيَّه ﷺ أن يخيِّر أزواجه بين خصلتين تقدَّم ذكر أولاهنَّ، وعطف في هذه الآية ثانيتهنَّ.

بلاغة تكرار (إن) في موضعي التَّخيير:

صعوبة الاختيار وتردُّد صاحبه

تَكرار (إن) في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات: (عظم).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 165.
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 421.

وَزِينَتَهَا﴾، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾، يشير إلى صعوبة الاختيار، فكلٌّ منهما له جانب يُشدُّ الإنسان إليه، فإذا أضفنا إلى ذلك، خصوصيَّة المرأة التي لها تعلُّق كبير بزينة الدنيا ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾ [الزخرف: 18]، فإنَّها تتجاذبها زينتها التي نشأت فيها من جهة، والإيمان الذي يثبت في قلبها من جهة أخرى، ثم إنَّ المرأة ينتابها نوعٌ من التردُّد، فلكلِّ ذلك وغيره، ناسب الإتيان بـ(إن) في الموضعين.

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿كُنتُنَّ﴾:

رسوخُ صفة حبِّ الله ورسوله في أزواج النَّبيِّ

استُعمل في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ الفعلُ ﴿كُنتُنَّ﴾؛ للدِّلالة على رسوخ الصفة في الموصوف، بمعنى: أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول لأزواجه: إن كانت إرادة رضا اللّه ورسوله وأجر الآخرة من أوصافكنَّ الرّاسخة؛ فأبشرن بالأجر العظيم، وقد اخترن رضي الله عنهن رضا اللّه ورسوله ﷺ.

دلالةُ حذف المضاف في الآية:

اختيارُ الله ورسوله والدّار الآخرة هو الدّين

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ إيجازٌ بالحذف تقديره: إن كنتنَّ تردن رضا اللّه ورسوله والفوز بالدّار الآخرة، فالكلامُ على حذف مضاف يقتضيه السّياق، وإرضاء اللّه: فعل ما يحبُّه اللّه، ويقرِّب إليه، وإرادة رضا الرَّسول ﷺ كذلك على تقدير: كلّ ما يرضي الرَّسول عليه السلام، وأوَّل ذلك أن يَبْقَيْنَ في عشرته طيَّبات الأنفس[1]، وفي ذلك أيضًا إعلامٌ لهنَّ بأنَّ في اختيار النَّبي عليه السلام اختيارَ للّهِ والدّار الآخرة وهذه الثّلاثة هي الدّين[2].

دلالةُ تعليق الإرادة بأسماء الأعيان:

جرى أسلوب الكلام في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 317.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 165.

قضاءُ حقِّ الإيجاز بعد قضاءِ حقِّ الإعجاز

﴿وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ على إناطة الحكم بالأعيان، وهو أسلوبٌ يقتضي تقديرًا في الكلام من قبيل دلالة الاقتضاء، وفي حذف المضافات وتعليق الإرادة بأسماء الأعيان الثلاثة مقصد أن تكون الإرادة متعلِّقة بشؤون المضاف إليه التي تتنزَّل منزلةَ ذاته مع قضاء حقِّ الإيجاز بعد قضاء حقِّ الإعجاز[1].

دلالةُ عطف ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ على اسم الجلالة:

إرضاءُ النَّبيِّ ﷺ إرضاء لله سبحانه

عُطِفَ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ذِكرُ الرَّسول ﷺ على اسم الله الكريم؛ للإيذان بكرامته ﷺ عند ربِّه، وأنَّ إرضاء النَّبيِّ ﷺ إرضاء لله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [التوبة: 62].

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

تعظيمُ قدر الرَّسول وتشريف منزلته بإضافته إلى مرسِله

أضيف في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لفظُ (الرَّسول) إلى مرسِله، وهو الله سبحانه؛ تعظيمًا لقدر هذا الرَّسول وتشريفًا لمنزلته، فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف كبيت الله، وناقة الله ... الخ[2]، وفيه إيماء إلى زوجاته بوجوب تعظيم الرَّسول ﷺ والمسارعة إلى مرضاته، وأوَّلُ ذلك أن يَبْقَينَ في عشرته طيّبات الأنفس[3].

سرُّ عطف إرادة الدّار الآخرة:

الفوز بالدّار الآخرة ثواب طاعة الله ورسوله

عُطِفَ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ ذِكرُ إرادة الدار الآخرة على إرادة الله ورسوله للإيماء إلى أنَّ ثواب طاعة الله ورسوله سيكون بالفوز بالدار الآخرة بدخول الجنَّة والنَّجاة من النّار.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 317.
(2) ابن أبي العزّ، شرح الطحاوية، ص: 129.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 317.

بلاغةُ المقابلة في الآية:

تتجلّى بين قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾، مقابلةُ إرادةِ اللّٰه ورسوله والدّار الآخرة بإرادة الحياة الدُّنيا وزينتها، فإنَّ المقابلة تقتضي إرادتين يجمع بينهما، والتعلُّق بالدُّنيا يستدعي الاشتغال بأشياء كثيرة من شؤون الدُّنيا لا محيص من أن تلهي صاحبها عن الاشتغال بأشياء عظيمة من شؤون ما يرضي اللّٰه، وما يرضي رسوله ﷺ، وما يُكسب الفوز في الآخرة، والمعنى: إن كنتنَّ تؤثرن ما يرضي اللّٰه، ويحبُّه رسوله وخير الدّار الآخرة؛ فاخترن ذلك على ما يُشغل عنه، فالنّاس متسابقون في هذا المضمار وأولاهم بقصب السَّبق فيه أشدُّهم تعلُّقًا بالرَّسول ﷺ، وكذلك كانت هِمَمُ أفاضل السلف، وأولى النّاس بذلك أزواج الرَّسول ﷺ[1].

التَّعلُّقُ بالدُّنيا الدَّنيَّة يُشغل المؤمن عن الآخرة العَليَّة

سرُّ دخول الفاء على الجملة الاسميَّة:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ على ما قبله، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ بحرف الفاء ربطًا للجزاء بالشرط؛ دليلًا على أنَّه سببه، والغرض البلاغيُّ منه: إنَّما هو تعليق مضمون الجواب على دوام حصول مضمون الشَّرط، فيحصل الثّاني بحصول الأوَّل، فالأجر العظيم جزاء إرادة رضا اللّٰه ورسوله والدّار الآخرة، وقال بعضهم: إنَّ الجواب محذوفٌ، تقديره نحو: تُثَبْنَ، أو تَنَلْنَ خيرًا، وما ذُكِرَ دليله[2].

الأجرُ العظيم جزاء إرادة رضا اللّٰه ورسوله والدّار الآخرة

بلاغةُ التَّعبير بـ(إنّ):

أُكِّدَ الكلام في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ بحرف التَّوكيد (إنّ)؛ تنزيلًا للمخاطَب غير المنكر

تأكيدُ الأجر العظيم لأزواج النَّبيِّ الكريم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 317.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 179.

منزلةَ المنكر؛ إذا اقتضى السّياق التأكيدَ، فيؤكّد له الكلام تأكيده للمنكر، وغير المنكر يشمل خالي الذّهن من الحكم، والمتردِّد، والعالم به من غير إنكار، ولكنّه لا يعمل به[1]، فأكّد اللّه سبحانه لأزواج النَّبيِّ ﷺ وعده بالثواب العظيم جزاء إحسانهنَّ.

دلالةُ التّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

عظمة العظيم في عدم إضاعة أجر المحسنين

أوثِرَ في قَوْله تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ التَّعبيرُ باسم اللهِ الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ الجامع لأسمائه الحسنى؛ تعظيمًا لحقِّ الألوهيَّة، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتَصَّةٌ به وحده سبحانه، فَيُذْكَرُ اسْمُ الجلالَةِ لإحضارِ المَعْنى الجامعِ لِصِفاتِ الكمالِ[2]، ومِن عظمته سبحانه في ألوهيَّته أنَّه لا يضيع أجر مَن أحسن عملًا، بل يعطيه الأجر العظيم والفضل العميم.

بلاغةُ التعبير بالإعداد في الآية:

تيقُّن إنجاز الوعد بما هو معدٌّ بالفعل

قال اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ بدل قوله: (فإنَّ للمحسنات أجرًا عظيمًا)؛ للدِّلالة على أنَّ الأجر الموعود به، موجود بالفعل، ومعدٌّ لأهله الذين يستحقّونه.

بلاغةُ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَعَدَّ﴾:

صِدْقُ أخبارِ اللّه سبحانه وحتميَّة وقوعها

جاء الفعل ﴿أَعَدَّ﴾ الواقع في جملة جواب الشَّرط في قَوْله تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ بصيغة الماضي، بمعنى المضارع الدال على الاستقبال، والنُّكتة في التَّعبير به الدِّلالة على حتميَّة الوقوع حتّى كأنَّه وقع، ويخبر عنه ماضيًا[3].

بلاغةُ الإظهار بدل الإضمارِ:

حصولُ الأجر على قدر الإحسان والتَّفاوت فيه

عدل النَّظمُ القرآنيُّ في قَوْله تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ إلى التَّعبير بالاسم المظهر في قوله: ﴿أَعَدَّ

(1) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 47.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 179.

﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ بدل المضمر: (أعدَّ لكنَّ)؛ تنبيهًا على الوصف الَّذي ترتَّب لهنَّ به الأجر العظيم، وهو الإحسان، كأنَّه قال: أعدَّ لكنَّ؛ لأنَّ مَن أراد اللّه ورسوله والدّار الآخرة؛ كان محسنًا، وكذلك لمّا كانت إرادتهن اللّه ورسوله والدار الآخرة مقتضية عملهن الصالحات، وكان ذلك العمل متفاوتًا، جعل الجزاء على ذلك بالإحسان؛ ليعلمنَ أنَّ هذا الأجر حاصل لهنَّ على قدر إحسانهنَّ، فهذا وجه ذكر وصف المحسنات، وليس هو للاحتراز[1].

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾:

مدحُ المحسنين وبيان علّة الأجر العظيم

دخلت (أل) الموصولة في قَوْله تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على الاسم المشتقِّ (محسنات)؛ للتَّنبيه على ما في حيّز الصِّلة من الوصف والمدح به من أوَّل الأمر، والمقصود اللواتي أحسنَّ بطاعة اللّه ورسوله، ورجاء ثواب الآخرة، كما أنَّ إيثار الاسم الظّاهر (المحسنات) على جملة الصِّلة (اللواتي أحسنَّ)؛ لنكتة الدلالة على رسوخ الصفة في اسم الفاعل دون الفعل الدالِّ على الحدوث.

سرُّ التَّعبير بالمحسنات دون المؤمنات:

الإحسانُ أرفع درجـــة مـن الإيمان

عبَّر في قَوْله تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ بوصف الإحسان دون وصف الإيمان؛ حثًّا لأزواج النَّبيِّ ﷺ على السَّعي لأعلى المراتب وأزكاها، فالإحسان أرفعُ درجةً مِن الإيمان، فقد ورد في حديث جبريل عليه السلام لمّا سأل النبي ﷺ عن الإحسان؛ قال له النبي ﷺ: «أن تعبد اللّه كأنك تراه فإنْ لم تكُنْ تراه؛ فإنَّه يراك»[2].

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾:

اختصاص أزواج النَّبيِّ ﷺ بالأجر العظيم وقصره عليهنَّ

ورد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 473، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 317.
(2) متفق عليه، رواه البخاري في الجامع الصحيح، الحديث رقم: (50)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (09).

تقديم الجارِّ والمجرور: ﴿لِلۡمُحۡسِنَٰتِ﴾ على المفعول: ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا﴾؛ لنكتة بلاغية: وهي الاختصاص، فأئمَّة علم المعاني يجعلون التخصيص لازمًا للتقديم[1]، بمعنى اختصاص أزواج النَّبيِّ ﷺ بالأجر العظيم، أو لدلالة القصر، أي: أعدَّ للمحسنات منكنَّ دون غيركن أجرًا عظيمًا.

دلالةُ التَّعبير بـ(مِن):

البيان والوضوح

دلَّ حرف الجرِّ (من) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ على البيان لا التَّبعيض باعتبار أنَّ أزواج النَّبيِّ ﷺ كلَّهن محسنات؛ لأنَّهن جميعًا - على المشهور - اخترن اللّه ورسوله والدّار الآخرة، وذكر بعضهم أنَّ إحدى زوجاته، وهي العامرية أو الحميرية قد اختارت قومها، فكانت بعدُ تقول: أنا الشَّقيَّة، فعلى هذا جعلوا (مِن) هنا للتبعيض، وهو ضعيف[2].

بلاغةُ تقديم الجار والمجرور على المفعول:

قصرُ الأجر العظيم على المحسنات من أزواج النَّبي دون غيرهن

في تقديم الجار والمجرور ﴿مِنكُنَّ﴾، بعد تقديم الجار والمجرور ﴿لِلۡمُحۡسِنَٰتِ﴾، قصر بعد تخصيص أو قصر، وفي كلِّ ذلك تشويقٌ إلى المفعول المعدِّ، حيث ينتظر السّامع الشَّيء الذي أعدَّه اللّه لأزواج النَّبيِّ ﷺ، فيسمع ﴿لِلۡمُحۡسِنَٰتِ﴾، فيقول: ماذا أعدَّ لهنَّ؟ فيسمع ﴿مِنكُنَّ﴾، فيقول: ماذا أعدَّ اللّه لهنَّ؟ فإذا ما ازداد شوق السّامع إلى معرفة الشَّيء المعدِّ؛ أخبره اللّه بأنَّه الأجر العظيم.

دلالةُ التَّنكير في قوله: ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا﴾:

تعظيمُ أجرِ أزواج النَّبيِّ ﷺ وتكثيره

جاء في قَوْله تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا﴾ لفظُ ﴿أَجۡرًا﴾ نكرةً، والنُّكتة في تنكيره أنَّه يدلُّ على الإبهام، والإبهام له علاقة مباشرة بالتَّعظيم والتَّفخيم، فإنَّ من أراد أن يعظِّم شيئًا

(1) السَّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 233.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 535، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 04/ 230، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 178.

أبهمه بحيث لا يُكْتَنَهُ وصفه، وتذهب النَّفس فيه كلَّ مذهبٍ، فالتَّنكير هنا للمبالغة في تأكيد عظيم أجر أزواج النَّبيِّ ﷺ بإيثارهنَّ رضا اللّه ورسوله، كما يدلُّ التنكير بدلالة السّياق والتَّنكير معًا على حُسن هذا الأجر، في مقابل حسن صنيعهنَّ، وكثرة هذا الأجر وتنوُّعه ودوامه، كأنَّه قال: فإنَّ اللّه أعدَّ للمحسنات منكنَّ أجرًا كبيرًا كثيرًا حسنًا تقرُّ به العين، وتبتهج به النَّفس.

معنى وصف الأجر بالعظيم:

أجرُ الآخرة دائمٌ خالٍ مِن القبائح والمنغِّصات

وُصِفَ في قَوْله تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا﴾ الأجرُ بأنَّه عظيمٌ، والمقصود به الكبير في الذّات الحسن في الصفات الباقي في الأوقات، وذلك لأنَّ العظيم في الأجسام لا يطلق إلّا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق، فإذا وجدت الأمور الثلاثة؛ قيل: عظيم، فيقال جبل عظيم؛ إذا كان عاليًا ممتدًّا في الجهات، فأجر الدُّنيا في ذاته قليل وفي صفاته غير خالٍ مِن القبائح والمنغِّصات، لما في مأكوله من الضَّرر والثقل، وكذلك في مشروبه وغيره من اللَّذات، وهو غير دائم، وأجر الآخرة كثير خالٍ من جهات القبح دائم، فهو عظيم[1].

سرُّ تقديمِ الجملة الشَّرطيَّة الأولى وتجريدها من الوعيد:

تحقيق معنى تخيير الأزواج والاحتراز عن شائبة الإكراه

يُلاحظ في سياق الآيات تقدُّمُ الجملة الشَّرطيَّة الأولى، وهي قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾، على الجملة الشَّرطيَّة الثّانية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، والنُّكتة في ذلك موافقة سبب النُّزول، وهو كون أزواج النَّبيِّ ﷺ سألنه شيئًا من متاع الدُّنيا، وكذلك يشير التَّقديم إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ غير ملتفتٍ إلى الدُّنيا ولذَّاتها غاية الالتفات، وفي وصف السَّراح بالجميل إشارة إلى ذلك أيضًا.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 165.

وكذلك يُلاحظ تجريد الجملة الشَّرطيَّة الأولى عن الوعيد واقتران الثّانية بالوعد بالأجر العظيم؛ للتَّرهيب من الدُّنيا، فليست إلّا مجرَّد زينة لا وعد لصاحبها، بل أغلب من تخدعه بزينتها لا يخرج منها سالمًا، فضلًا عن أن يكون رابحًا، بل يخرج منها خاسرًا مغبونًا، وفيه أيضًا التَّرغيب في الآخرة، وعدًا بالأجر العظيم.

وقيل: إنَّ السَّبب في ذلك هو المبالغةُ في تحقيق معنى التَّخيير والاحتراز عن شائبة الإكراه، وهو أيضًا السِّرُّ في تقديم التَّمتيع على التَّسريح ووصف التَّسريح بالجميل[1].

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 178.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ [الأحزاب: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الوعيد بالعذاب الأليم بعد الوعيد بمفارقته لاجتناب ما يسوء النَّبيَّ في كلا الموضعين

لمّا خيّرَ النَّبيُّ صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم أزواجَهُ، واخترن اللّه ورسوله، أَدَّبَهُنَّ اللّه، وهدَّدَهُنَّ للتّوَقّي عمّا يسوء النَّبيَّ ﷺ، ويقبح بِهِنَّ؛ حتى لا يَعُدنَ إلى التطلُّع للحياة الدنيا وزينتها، المتوعَّد عليه بالطلاق.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: (فحش) كلمة تدلُّ على قُبح في شيء وشناعةٍ[1]؛ لمجاوزته الحدَّ مع تكرُّهٍ له وذمٍّ شديد، فالفُحش والفاحشة والفحشاء ما عظُم قبحه من الأفعال والأقوال[2]، وكلُّ ما حرَّمه الشَّرعُ؛ فهو فاحشٌ، أو هي ما فَحُشَ من الكبائر خصوصًا، وهو الذَّنب الَّذي عاقب اللّه عليه بالحدِّ وتوعَّد فاعله بالعذاب الشديد، وقال بعضهم: الفاحشة إذا وردت معرفة؛ فهي الزِّنى ونحوه، وإذا وردت منكَّرةً؛ فهي سائر المعاصي من كلِّ ما يُستَفْحَشُ، وإذا وردت موصوفةً بالبيان، كما في هذه الآية، فهي عقوقُ الزَّوج وفسادُ عِشْرَته[3].

2) ﴿يُضَٰعَفۡ﴾: (ضعف) أصلان متباينان، يدلُّ أحدهما على خلاف القوَّة، ويدلُّ الثّاني على أن يُزاد الشَّيء مِثْلَهُ، وهو المقصود في هذه الآية، قال الخليل: أَضْعَفْتُ الشَّيء إضعافًا، وضَعَّفته تضعيفًا، وضاعفته مضاعفة، وهو أن يُزاد على أصل الشَّيء، فيجعل مثلين أو أكثر[4]، وهو عند العرب أيضًا المِثلُ إلى ما زادَ، وليس مقصورًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فحش).
(2) الراغب، المفردات: (فحش).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 381.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري تهذيب اللغة: (ضعف).

على المِثلين، ويُرجِّح ذلك قوله تعالى في ذكر ثواب المؤمنين: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبأ: 37]، وقد تضافرت الآيات والأحاديث على أنَّ الضَّعف هنا عشرة أمثال، وضِعْفُ الشيء مِثْلُه، وضِعفاهُ مِثْلاهُ، وأضعافُهُ أمثالُهُ[1]، فأصل معناه: هو أن يُزادَ الشَّيءُ مِثْلَهُ[2]، فمعنى مضاعفة العذاب في الآية: أنَّه يكون ضِعف عذاب أمثال تلك المعصية؛ إذا صدرت من غير نساء النَّبيِّ، وهو ضعف في القوَّة وفي المدَّة[3].

3) ﴿يَسِيرًا﴾: (يسر) أصلٌ يدلُّ على انفتاح شيء وخفَّته[4]، واليُسْرُ: ضدُّ العسر، وتَيَسَّرَ كذا، واسْتَيْسَرَ، أي: تسهَّل، قال تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمل: 20]، أي: تَسَهَّلَ، وتَهَيَّأَ، واليَسِيرُ والمَيْسُورُ: السَّهلُ[5]، واليسير: الهيِّن أو القليل، يُقال: شيءٌ يسير، أي: هَيِّنٌ أو قليل[6]، ومعنى كون تضعيف العذاب لأزواج النَّبيِّ ﷺ - إن أتين بفاحشة - هو الأمر اليسير على اللّٰه ﷻ، أي: سهلًا لا يصعب عليه، ولا يتعاظَمُهُ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تغليظُ العقوبة على قدر المكانة والمنزلة

يُخاطب اللّٰه سبحانه نساء النَّبيِّ الكريم بأنَّه مَن يأتِ منهنَّ بمعصية ظاهرة؛ يُضاعَفْ لها العذابُ مرَّتين أو أكثر، فلمّا كانت مكانتهنَّ رفيعة؛ ناسب أن يجعل اللّٰه للذَّنب الواقع منهنَّ عقوبة مغلَّظة؛ صيانة لجنابهن وجناب رسول اللّٰه ﷺ، وكان ذلك العقاب على اللّٰه يسيرًا[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ضعف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 320.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).
(5) الراغب، المفردات: (يسر).
(6) الزّبيدي، تاج العروس: (يسر).
(7) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 22/ 488.
(8) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 421.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ النِّداء في الآية:

توجيهُ النِّداء لإظهار الحرص والاعتناء

جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ نداءُ اللّه سبحانه لنساء النَّبيِّ ﷺ تلوينًا للخطاب، فقد كان الخطاب قبل هذه الآية موجَّهًا للنَّبي ﷺ ذاته، كما أنَّ في توجيه النِّداء لنساء النبيِّ صلّى عليه وسلَّم إظهارَ الاعتناءِ بنصحهن، والحرص عليهن، وليجعلن بالهنَّ ممّا يخاطبن به؛ اهتمامًا بما سيُلقى إليهن؛ إذا كان أمرًا يجعل له البال[1].

نكتةُ الخطاب المباشر في الآية:

مكانةُ أزواج النَّبيِّ عند الربِّ العليِّ

تولّى اللّه سبحانه في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ﴾ خطابَ نساء النَّبيِّ ﷺ بعد أن أمر رسوله بتخييرهن، فخيَّرهن، فاخترن اللّه ورسوله والدّار الآخرة، فخاطبهن ربُّهن خطابًا؛ لأنَّهن أصبحن على عهدٍ مع اللّه تعالى أن يؤتيَهنَّ أجرًا عظيمًا، وقد سمّاه عمرُ عهدًا؛ فإنَّه كان كثيرًا ما يقرأ في صلاة الصُّبح سورة الأحزاب، فإذا بلغ هذه الآية؛ رفع بها صوته، فقيل له في ذلك، فقال: أُذَكِّرُهُنَّ العهدَ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّساء دون الأزواج:

شمولُ لفظِ النِّساء للحلائل من الأزواج والإماء

عُبِّرَ في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ بلفظ (النِّساء) دون (الأزواج)؛ لكون المرادِ بهنَّ الحلائل من الأزواج والإماء، فاعتبار كونهنَّ نساءً في الموضعين أبلغُ من اعتبار كونهنَّ أزواجًا؛ لقصد الشمول، ولمناسبة ما سيُلقى إليهنَّ من أحكام بوصفهنَّ نساء[3].

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾:

المضافُ إلى العظيم عظيمُ القدر

أضيفت النِّساءُ في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ تشريفًا لهنَّ وتعظيمًا لمكانتهنَّ، فهنَّ نساء النَّبيِّ وأمَّهات المؤمنين، وليعلمن أنَّ ما سيُلقى إليهنَّ من كلام يناسب علوَّ أقدارهن، كما أنَّ في ذلك

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 473، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 180.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 318.

(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 180.

تهييجًا لهنَّ على امتثال ما سيأتي من أحكام تخصُّهنَّ دون سائر نساء العالمين، قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: 32].

سرُّ التَّعبيرِ بالنُّبوَّة في الآية:

علوُّ مرتبة أزواج النَّبيِّ وارتفاع منزلتهنَّ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ التَّعبيرَ بوصف النُّبوَّة دون الرِّسالة؛ لما يومِئ إليه لفظ النَّبيِّ من ارتفاع القدر وعلوِّ المكانة؛ إذ اشتقاقه من (نبو)، وهو يدلُّ على ارتفاع في الشَّيء عن غيره[1]، وبذلك أشار السّياق أيضًا إلى علوِّ مرتبة أزواجه وشرفهنَّ وارتفاع منزلتهن، فضوعِفَ لهنَّ الأجرُ والعذاب.

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرط:

التَّهديد بمضاعفة العذاب جزاء المعصية

ورد أسلوب الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾، والغرض البلاغيُّ منه إنَّما هو لتعليق العلم بمضمون الجواب على حصول مضمون الشَّرط، فيتوقَّف وقوع الثّاني على وقوع الأوَّل، فإذا وقع الأوَّلُ؛ وقع الثاني، فهُدِّدت أزواجُ النَّبيِّ ﷺ إذا فعلْنَ ما يسوء النَّبيَّ ﷺ؛ فإنَّهُ سيضاعف لهنَّ العذابَ يوم القيامة ضِعفين[2].

سرُّ التَّعبير بالإتيان دون الفعل:

المقدَّم على المحرَّمات مقدَّمٌ على العقوبات نفسها

جاء التَّعبيرُ بفعل الإتيان - في قول الله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ - لأنَّ الإقدام على الفاحشة لمّا كان لا يقع إلّا بمقدِّمات ممهِّدات له؛ كان فاعل الفاحشة هو الَّذي يذهب إليها بنفسه، ويختارها بطبعه[3]، وليست هي الَّتي تأتيه، وتتعرَّض له، كما أنَّ التَّعبير بالإتيان يفيد أنَّ مَن أتى الفاحشة هو الَّذي اختار العقوبة؛ لأنَّ المُقدِمَ على جريمة تترتَّب عليها عقوبة هو في حقيقة الأمر مُقْدِمٌ على العقوبة نفسها.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نبو).

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 488.

(3) المراغي، التّفسير: 04/ 205.

بلاغةُ الصورةِ البيانية في الآية:

الـــسَّـــيرُ عـلى طريق الفاحشة موصل إليها

يحتمل أن يكون قولُهُ تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ مِن باب الاستعارة، وذلك أنَّ أصل الإتيان: المجيءُ إلى شيء، يُقال: أتيتُ فلانًا، أي: جئته، فإذا تعلَّق الإتيان بالحدث؛ دلَّ على فعل الشَّيء وتحصيله، كقولهم: أتيتُ العمرةَ، أي: فعلتها، فاستعير هنا الإتيانُ لفعل شيء؛ إشعارًا بأنَّ الأمر مقصودٌ، وقد سبقه عزمٌ على الفعل؛ لأنَّ فاعل شيء عن قصد يشبه السّائر إلى مكان حتّى يصله[1]، ففي قوله: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ﴾ استعارة تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، وبلاغتها تصوير المعاني العقليَّة وإبرازها في صورة المحسوس، وذلك أدعى لإدراك حقيقتها والتَّنفير منها.

كما يحتمل أن تكون الصورة البيانية مجازًا مرسلًا بعلاقة السَّببيَّة؛ إذ أُطلِق السَّبَبُ، وهو الإتيانُ، وأُريد المسبَّبُ، وهو الفِعْلُ، والنُّكتَةُ في ذلك الإشارة إلى أنَّ السَّيرَ على طريق الفاحشة موصِل إليها وموقِع فيها.

دلالةُ حرف الجرِّ (مِنْ) في قوله: ﴿مِنكُنَّ﴾:

اختصاصُ أزواج النَّبيِّ بتضعيف الـــثـــواب أو العذاب

يدلُّ حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ على البيان، فإنَّ مضاعفة العذاب على الإتيان بفاحشة خاصٌّ بأزواج النَّبيِّ ﷺ دون غيرهن من النِّساء لما لهنَّ مِن مزيَّة كونهن في بيت النُّبوَّة ومن كونهنَّ أمَّهات للمؤمنين.

بلاغةُ التَّعبير بالباء في الآية:

التلبُّس بالذنوب سبب للعذاب

يدلُّ حرف (الباء) في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ على التَّعدية، بمعنى تعدية فعل الإتيان إلى مفعوله، وذلك لأنَّ الفعل اللّازم لا يصل إلى مفعوله إلّا بحرف جرٍّ، كما تحتمل الملابسة أو المصاحبة، أي: مَن يأتي بفعل ملابس لفاحشة أو مصاحب لها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 04/ 270.

سرُّ التَّعبير بلفظ (فاحشة):

عظمُ الذَّنب تابع لمكانة صاحبه

أوثر في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ التَّعبيرُ بلفظ (فاحشة)، وهي كلُّ ما يشتدُّ قبحه من الذُّنوب والمعاصي، وقد اختلف المفسِّرون في المقصود بالفاحشة في هذه الآية، فذهب بعضهم إلى أنَّ المقصود بها الزِّنى المعروف الَّذي أوجب اللّه عليه الحدَّ، فهو أصعب على الزوج من كلِّ ما تأتي به زوجته، غير أنَّه خرج في الآية مخرج قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]، من حيث إنَّ ذلك ممكن الوقوع في أوَّل النَّظر، ولا يقع جزمًا، فإنَّ الأنبياء صان اللّه زوجاتهم عن الفاحشة[1].

وذهب آخرون إلى أنَّ الفاحشة هنا وردت موصوفة بالبيان؛ إذ لا يمكن سترها، والزِّنى وغيره هو ممّا يُتَسَتَّرُ به، ولا يكون مُبَيَّنًا، ولهذا قالوا: ينبغي أن تُحمَلَ الفاحشةُ على عقوق الزَّوج، وفساد عشرته، وقال ابن عبّاس: يعني: النشوز وسوء الخلق، ولعلَّ وجه قول ابن عباس: إنَّ الزلَّة منهنَّ، كسوء الخلق ممّا يعدُّ فاحشة بالنِّسبة إليهنَّ؛ لشرفهن وعُلوِّ مقامهنَّ، خصوصًا إذا حصل بها أذيَّة النَّبيِّ ﷺ[2].

سرُّ التَّنكيرِ في لفظ (فاحشة):

اتِّساع المعاني للتقليل والإبهام والعموم

جاء في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ لفظُ (فاحشة) نكرةً، ويحتمل تنكيرها التَّقليل مبالغة في التهديد بأنَّ أدنى معصية منهنَّ - لشرف منزلتهنَّ - توجب لهنَّ مضاعفة العذاب.

كما يحتمل تنكيرها الإبهام والعموم؛ ليشمل بذلك كلَّ المعاصي، نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 90، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 166.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 382، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 473، والهرري، حدائق الروح والريحان: 22/ 488.

[الأعراف: 33]، ويؤكِّد ذلك أنَّها وردت هنا نكرة في سياق الشَّرط، وقال بعضهم: كلَّما وردت الفاحشة في القرآن معرفة؛ فهي الزِّنى ونحوه، وإذا وردت منكَّرة؛ فهي سائر المعاصي من كلِّ ما يُستفحَش(1).

بلاغةُ القراءاتِ في ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾:

إثـــراءُ المعـاني وتكثير الدِّلالات بتنوُّع القراءات

تنوَّعت القراءات في لفظ ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾، فقرأها الجمهور بصيغة اسم الفاعل ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ بكسر الياء من (بيَنَ) بمعنى: (تبَيَّنَ)؛ مبالغة في بيان كونها فاحشةً ووضوحها حتى كأنَّها تُبَيِّنُ نفسَها، وقرأ ابن كثير وأبو بكر بفتح الياء ﴿مُّبَيَّنَةٍ﴾، أي: يبيِّنها فاعلها(2)، وتكون قراءة اسم الفاعل من باب المجاز العقلي.

دلالةُ التَّعبير بالمضاعفة في الآية:

تضاعُف الشَّرفِ وارتفاع الدَّرجات موجب لتضاعف العقوبات

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ بالفعل ﴿يُضَٰعَفۡ﴾، والمضاعفة: تكريرُ شيءٍ ذي مقدار بمثل مقداره أو أكثر، والضِّعفُ: مماثل لعدد ما.

ومعنى مضاعفة العذاب: أنَّه يكون ضِعف عذاب أمثال تلك المعصية؛ إذا صدرت من غيرهنَّ، وهو ضِعفٌ في القوَّة وفي المدَّة، فإن مَكَثَ غيرُهُنَّ ممَّن أتى بفاحشة مبيِّنة في النار يومًا مثلًا؛ مَكَثْنَ هُنَّ، لو أتينَ بمثل ما أتى يومين أو أكثر، وإن وجب على غيرهنَّ حدٌّ لفاحشة؛ وجب عليهنَّ لو أتين بمثلها حدّان أو زيادة.

وسببُ تضعيفِ العذاب: أنَّ الذنب منهنَّ أقبحُ، فإنَّ زيادة قُبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنِّعمةِ عليه، وتلك ظاهرة فيهنَّ؛ لشرفهنَّ وعلوِّ درجتهنَّ وارتفاع منزلتهنَّ، ولـمّا كانَ مكانُهُنَّ مَهبطَ الوحي من الأوامر والنَّواهي؛ لَزِمَهُنَّ بسبب ذلك، وبسبب كونهنَّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 381.
(2) ابن الجزري، النشر: 02/ 248، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 319.

تحت الرَّسولِ ﷺ أكثر ممّا يلزم غيرهُنَّ، فضوعف لهنَّ الأجرُ والعذاب، ولذلك جُعِل حدُّ الحُرِّ ضِعفَ حَدِّ الرَّقيق، وعوتب الأنبياءُ ﷺ بما لا يُعاتَب بِهِ غيرهم، وكذا حالُ العالم بالنِّسبة إلى الجاهل، فليس من يعلم كمن لا يعلم، وقد ثبت في هذه الشَّريعة في غير موضع أنَّ تضاعُفَ الشَّرفِ وارتفاع الدرجاتِ يوجِبُ لصاحبه - إذا عصى - تضاعفَ العقوباتِ، وقد روي عن زين العابدين رَضيَ اللّه تعالى عنه أنَّه قال له رجلٌ: "إنَّكم أهل بيت مغفورٌ لكم"، فغضِبَ، وقال: "نحنُ أحرى أن يَجْرِيَ فينا ما أجرى اللّه تعالى في أزواج النبي صلّى اللّه تعالى عليه وسَلَّم مِن أن نكون كما تقول، إنّا نرى لمحْسِنِنا ضعفين من الأجر، ولمسيئنا ضعفين من العذاب"، وقرأ هذه الآية والَّتي تليها[1].

بلاغةُ القراءات في قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾:

تنوُّع القـراءة وأثـره في بلاغة الآية

تنوَّعت القراءات في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾، فقرأ الجمهور ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ بتحتيَّة في أوَّلِهِ للغائب وفتح العين مبنيًّا للنائب ورُفِع ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ على أنَّه نائب فاعل، وقرأه ابن وابن عامر ﴿نُّضَعِّفۡ﴾ بنون العظمة وبتشديد العين مكسورة ونصب ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ على المفعولية، وقرأه أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر ﴿يُضَعَّفۡ﴾ بتحتيَّة للغائب وتشديد العين مفتوحة[2]، فالحجَّة لمن خفَّف: أنَّ ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ أكثر من (يُضعَّف)، والحجَّة لمن شدَّد: التَّكرير ومداومة الفعل[3]، وروى الطبريُّ عن أبي عمرو بن العلاء وعن أبي عبيدة معمر بن المثنى: أنَّ بين (ضاعَف وضَعَّفَ) فرقًا، فأمّا (ضاعف)؛ فيفيد جعل الشيء مثليه، فتصير ثلاثة أعْذِبَةٍ (جمع عذاب)، وأمّا (ضَعَّفَ)

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 180، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 320، والهرري، حدائق الروح والريحان: 22/ 488.

(2) ابن الجزري، النشر: 02/ 348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 319.

(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 98.

المشدَّدُ؛ فيفيد جعل الشَّيء مثله، قال الطبري: وهذا التفريق لا نعلم أحدًا من أهل العلم ادَّعاه غيرهما[1].

دلالةُ صيغة المضارع في الآية:

التَّهديدُ والوعيد بالعذاب الشَّديد يوم القيامة

أوثِرَت في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ صيغةُ المضارع في الفعل على ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ للدِّلالة على الاستقبال، إذ محلُّه يوم القيامة، كما يدلُّ المضارع على دوام مضاعفة العذاب وملازمته، وفي ذلك مِن التَّهديد والوعيد ما هو غليظ وشديد، فيوم القيامة أهولُ من غيره من الأيّام بما لا يُقايَس، وعذابُه أفظعُ من عذاب الدُّنيا بما لا يقارن[2].

سرُّ تقديم شبه الجملة ﴿لَهَا﴾:

تهديدُ نساءِ النَّبيِّ الكريم بمضاعفة العذاب لهنَّ دون سائر نساء العالمين

تقدَّمت في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ شبهُ الجملة ﴿لَهَا﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾؛ لنكتة الاختصاص، بمعنى: قصر مضاعفة العذاب على مَن أتى من نساء النَّبيِّ ﷺ شيئًا من هذه الذنوب العظيمة والقبائح المنكرة دون غيرهنَّ من نساء العالمين وفاقًا لما اختصصن به من الشَّرف وعلوِّ الدرجة وارتفاع المنزلة، فهنَّ أمَّهات المؤمنين وأزواج خير البشر أجمعين.

بلاغةُ (أل) التعريفيَّة في العذاب:

اتِّساع المعاني بكثرة الاحتمالات

جاء في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ معرَّفًا بـ(أل) الدّالَّة على تعريف العهد، أي: العذاب الذي جعله اللّه للفاحشة[3]، وقد تكرَّر لفظُ العذاب في كثير من الآيات، وصار معهودًا عند المسلمين أنَّ العذاب المقصود في لسان الشَّرع هو عذاب نار جهنَّم والعياذ باللّه، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾ [الزمر: 19].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 91.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 320.

دلالةُ التَّثنية في قوله: ﴿ضِعۡفَيۡنِۚ﴾:

ورودُ التَّثنية في كلام العرب كنايةٌ عن التَّكرير والكثرة

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ بلفظ ﴿ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ بصيغة التَّثنية، فمِنَ العلماء من حمل التَّثنية على حقيقتها، فجعل معنى ضِعْفَيْنِ، أي: يُعذَّبنَ ضعفَي عذابِ غيرهنَّ، أي: مثليه فإن مكث غيرُهُنَّ ممَّن أتى بفاحشة مُبيَّنَةٍ في النّار يومًا مثلًا؛ مكثن هُنَّ لو أتين بمثل ما أتى يومين، وإن وجب على غيرهن حدٌّ لفاحشة؛ وجب عليهن لو أتين بمثلها حدّان، وقال أبو عمرو وأبو عبيدة فيما حكى الطبري عنهما: الضِّعفان أن يجعل الواحدة ثلاثة، فيكون عليهنَّ ثلاثة حدود، أو ثلاثة أمثال عذاب غيرهن، وقولهما مردود.

وجعل بعض العلماء صيغةَ التثنية في قوله: ﴿ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ مستعملةً في إرادة الكثرة، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك: 4]؛ لظهور أنَّ البصر لا يرجع خاسئًا وحسيرًا من تكرُّر النَّظر مرَّتين، والتَّثنية ترد في كلام العرب كناية عن التَّكرير، كقولهم: لَبَّيْكَ وسعدَيْك، وقولهم: دواليك، وبهذا لا معنى لتحديد المضاعفة المرادة في الآية لظهور إرادة الكثرة[1].

بلاغةُ فاصلة ختام الآية:

تأكيدُ الوعيد بعدم استثناء أيٍّ أحدٍ من التَّعذيب

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ على ما قبلَهُ بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران؛ لأنَّه خرج مخرجَ التَّذييل لما سبق، وفائدة التَّذييل - غالبًا - توكيد المذَيَّل، وإبراز حكمه في صورة كليَّة[2]، فأكَّد اللّه أنَّه يحقِّق وعيده، ولا يمنعه من ذلك أنَّها زوجة نبيٍّ، بل هو سبب له، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 180، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 319، والهرري، حدائق الروح والريحان: 22/ 488.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [التحريم: 10](1).

دلالةُ فعل الكينونة الماضي:

صـفـات الـلـه سبحانه دائمة مطلقة

ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ استعمالُ الفعل الماضي (كان)، الَّذي يأتي في الأصل للاتِّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنَّه يخرج؛ لدلالة الدَّوام والاستمرار بمعنى: (لم يزل)، أي: إنَّها تأتي دالَّة على الدَّوام(2)، وهذا الأصل في صفات اللّه سبحانه وأفعاله، فهي مطلقة، وفائدتها هنا الإشعار بأنَّ تضعيف العذاب مع كونه عظيمًا عندكم غير أنَّه على اللّه يسير يليق بمقام الجلال والكبرياء والعظمة(3).

دلالةُ اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تـضـاعُـفُ الـعـقـوبـاتِ بارتفاع الدَّرجات

استُعمِل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ اسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾، والنُّكتة في ذلك الدِّلالة على عظمة المشار إليه، وهو مضاعفة العذاب لأزواج النبيِّ ﷺ؛ إن أتين بفاحشة - مع شرفهنَّ وعلوِّ منزلتهنَّ - وذلك لأنَّ تضاعُفَ الشَّرف وارتفاع الدَّرجات، يوجب لصاحبه - إذا عصى - تضاعُفَ العقوبات.

سرُّ إظهار الاسم الأعظم في فاصلة الآية:

عـظـمـةُ الـلـهِ سـبـحـانـه فـي تـعـذيـبـه عـلـى المـعـاصي والذُّنوب

أوثِرَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ التَّعبيرُ باسم اللّه الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ الجامع لأسمائه الحسنى؛ تعظيمًا لحقِّ الألوهيَّة، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُختَصَّةٌ به وحده سبحانه، فَيُذْكرُ لفظُ الجلالَةِ لإحضارِ المَعْنى الجامِعِ لِصِفاتِ الكمالِ(4)، ومِن عظمته سبحانه في ألوهيَّتِهِ إثابةُ الطائع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 320.
(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.

ومعاقبة العاصي، وفي هذا السّياق مضاعفةُ العذاب لأزواج النَّبيِّ ﷺ؛ إن أتين بفاحشة بما يليق بمقام الجلال والكبرياء والعظمة[1].

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

اختصاصُ الله المجيد بحساب العبيد

تَقَدَّمَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الخبر ﴿يَسِيرًا﴾؛ لإفادة الاختصاص، بمعنى: اختصاص اللّٰه سبحانه وحده بشؤون حساب العباد والجزاء على الأعمال ومضاعفة العذاب، كما أنَّ في هذا التقديم تربيةً للمهابة وتأكيدًا للوعيد الشَّديد.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿يَسِيرًا﴾:

شمولُ الوعيد والعقوبات لكلِّ العصاة دون محاباة

دلَّ لفظُ ﴿يَسِيرًا﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ على أنَّ تضعيفَ العذاب لأزواج النَّبيِّ ﷺ - إن أتين بفاحشة - أمرٌ سهلٌ على اللّٰه سبحانه، لا يصعب عليه، ولا يتعاظمه؛ لأنَّه لا يحابي أحدًا لأجل أحد، فكونهنَّ نساء رسوله ليس بمغنٍ عنهن شيئًا، بل هو سبب لمضاعفة العذاب، يدعوه إليه لمراعاة حقِّه، وليس أمر اللّٰه كأمر الخلق، حيث يتعذَّر عليهم تعذيب الأعزَّة بسبب كثرة شفعائهم[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المضاعفة والزِّيادة:

عمومُ الزِّيادة وخصوص المضاعفة بالمثل

يظهر الفرق بين (المضاعفة)، و(الزِّيادة) في علاقة العموم والخصوص بينهما، فالزِّيادةُ عامَّةٌ في مطلق الإضافة قليلة أو كثيرة، أمّا المضاعفة؛ فهي خاصَّة بتكرير شيء ذي مقدار بمثل مقداره ومماثله، فاختير في الآية لفظ (المضاعفة)؛ للدِّلالة على شرف أزواج النَّبيِّ ﷺ وعلوِّ درجتهن وارتفاع منزلتهنَّ بحيث إنَّ الذنب منهنَّ أقبح، فاستوجبت المضاعفة مبالغة في التَّهديد[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 427.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 488.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 180، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 320، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 488.

الجُزْءُ
الثَّانِي وَالعِشْرُونَ

﴿۞وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ٣١﴾ [الأحزاب: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من كمالِ عدْلِ اللهِ ورحمتِه اقترانُ زيادةِ الثّوابِ بزيادةِ العقاب

أعقَبَ البيانُ الحكيمُ الوَعيدَ في قوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: 30] بالوَعْدِ بقوله: ﴿۞وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾؛ جريًا على سُنَّةِ القُرآنِ[1]، فبَيَّن زيادةَ ثوابِ زَوجاتِ النَّبيِّ ﷺ، كما بيَّن زيادةَ عِقابِهنَّ[2].

التّحليةُ بعدَ التّخليةِ والتّرغيبُ بعدَ التّرهيبِ

لـمّا قدَّم البيانُ القرآنيُّ درْءَ المفاسدِ الذي هو من بابِ التّخلّي؛ أتبعَهُ جلبَ المصالحِ الذي هو من طرازِ التّحلّي فقال: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقْنُتْ﴾: أصلُ (قنت) يَدُلُّ على طاعَةٍ وخَيْرٍ في دينٍ، والأصْلُ فيهِ الطّاعَةُ، ثُمَّ سُمّيَ كُلُّ اسْتِقامَةٍ في طَريقِ الدّينِ قُنوتًا، وقيلَ لِطولِ القيامِ في الصَّلاةِ، والسُّكوتِ فيها، والإقْبالِ عَلَيْها: قُنوتٌ[4]، والقُنوتُ: الخشوعُ، والإقرارُ بالعبوديّة، والدّعاء، والقيامُ بالطّاعةِ التي ليس معها معصيةٌ[5]، ومعنى ﴿يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾: تُطِعِ اللّهَ ورسوله منكنّ، وتعملْ بما أمرَ اللّهُ به[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 5.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 166.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 341.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنت).
(5) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قنت).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 256.

2) ﴿صَٰلِحًا﴾: أصلُ (صلح) يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الفَسادِ[1]، وقد أصْلَحَ الشَّيْءَ بعدَ فَساده: أقامَه، ومن المجاز: أصْلَحَ إليه: أحْسَن، والصالحُ: الَّذي يُؤَدّي إلَى اللّه ﷻ ما افْترضَ عليه، ويُؤَدّي إلَى النّاس حُقوقهم، والمُصْلِحُ: المُقيمُ على الإيمان المُؤَدّي فَرائِضَه اعتقادًا وعَملًا[2]، وأصْلَحَ: أتى بالصّلاحِ، وهو الخيرُ والصّواب، ومن الصّلاح: السّلامةُ من الخطايا المعوقة، والعملُ الصّالح هو الذي يتّفقُ ويلتئمُ مع ما يطلبهُ الشّرع أو يرضاه[3]، ومعنى ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ في الآية: تعملُ بالطّاعات فيما بينها وبين ربّها، كالصّلاة والصّيام[4].

3) ﴿رِزۡقًا﴾: أصلُ (رزق) يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه غَيرُ المَوْقوتِ، فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ[5]، والرّزق: كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ مالٍ ونَحْوِهِ، والجَمْعُ: أرْزاقٌ[6]، والرَّزْقَةُ: المَرّةُ الواحدةُ[7]، والرَّزْقُ بِفَتْحِ الرّاءِ: العَطاءُ الدّائِمُ، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا، أيْ: أعْطَى ووَهَبَ، والرّازِقُ: المُعْطي وهوَ اللّهُ[8]، وكُلُّ ما يَصِلُ إلَى الجَوْفِ ويُتَغَذَّى بِهِ فَهوَ رِزْقٌ، ومِنْ مَعاني الرِّزْقِ أيْضًا: الكَسْبُ، والهِبَةُ، والصَّدَقَةُ[9]، والمقصودُ بالرِّزق الكريم في الآية: رِزْقُ الجَنّةِ والعيشُ الهنيءُ فيها[10].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إظْـهـارُ شـرفِ أمّهـاتِ المؤمنين ومـرتـبـتـهـنَّ في القنوتِ والعملِ الصّالح

يتابعُ اللّهُ سبحانه ذِكْرَ بعض التّوجيهاتِ الحكيمةِ الّتي وجّهها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(2) ابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (صلح).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صلح).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 256، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/ 59.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (رزق).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رزق).
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رزق).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 256، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 6.

إلى أزواجِ النَّبيِّ ﷺ، فيقولُ: مَن تُداوِمْ منكُنَّ على طاعةِ اللّهِ ورَسولِه، وتجتلبْ رضاهما، وتعمَلْ صالِحًا؛ نُؤتِها ثوابَها في الآخِرةِ مَرَّتينِ، وأعدَدْنا لها رِزقًا حَسَنًا جَميلًا، وعَيشًا في الجَنَّةِ هَنيئًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ﴾:

القلب الغليظ منبع الإتيان بالفواحش المُجاهر بها

(الواو) في مطلع الآية عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: 30]، وقد وُصِلتا؛ لاتّفاقهما في الشّرطية، ولوجودِ نوع من المقابلةِ الخفيّة بين قوله: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وقوله: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [الأحزاب: 30]؛ لأنّ الإتيانَ بالفاحشة المبيّنة الظاهرة في جهارة وتبجّح لا يكون إلا من قلب غليظٍ جافٍ خالٍ من معاني الخضوعِ والخشيةِ والقنوت[2]، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ استئنافيّةً، والجملة بعدها مستأنَفَةٌ[3].

دلالة (مَنْ) الشرطيّة:

الدّوامُ على الطّاعة شرطٌ في الاختصاص بالأجرِ العظيم والرِّزق الكريم

(مَنْ): اسمُ شرطٍ جازم في محلّ رفعِ مبتدأ، والجملةُ من فعلِ الشّرط وجوابه في محلّ رفع خبر، ويفيد الشّرط أنَّ دوامَ نساء النبيّ على طاعة اللّه ورسوله شرطٌ في اختصاصهنّ بالأجرِ العظيم والرِّزق الكريم.

سرّ التعبير بالمضارع المجزوم ﴿يَقۡنُتۡ﴾:

المطلوبُ ممّن أعلى اللّهُ قدرَهنّ الدّوامُ والاستمرارُ على الطّاعة

القنوتُ هو لزومُ الطّاعة مع الخُضوع[4]، وقد عبّر البيانُ القرآنيُّ عنه بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 256.
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 270.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 157.
(4) الراغب، المفردات: (قنت).

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدّلالة على المبالغةِ في الدّوام على الطّاعة للّه ورسوله، أي: من يدمْ على الطّاعة منكنّ؛ لأنّهنّ قانتاتٌ مطيعاتٌ بالفعْل فوجبَ المصير إلَى المَجاز بأنْ يكون المَعْنَى من يدمْ عَلَى الطّاعة لا مَنْ يُحدثِ القنوتَ والطّاعة[1]، إذن التعبيرُ بالمضارع يدلّ على أنّ دوامَ نساءِ النبيّ على الطّاعة للّه ورسوله شرطٌ في اختصاصهنّ بالأجرِ العظيم، والرّزقِ الكريم.

فائدة التعبير بشبه الجملة ﴿مِنكُنَّ﴾:

ترهيبٌ لنساءِ النبيّ ﷺ في ترغيب

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنكُنَّ﴾ حرفُ جرٍّ صالحٌ مع البيانِ للتّبعيض؛ ترهيبًا لنساءِ النبيّ ﷺ في ترغيبٍ، فلمّا حقّقَ أمّهاتُ المؤمنين ما أمرهنّ به اللّهُ من القنوتِ للّه ورسوله والعمل الصالح؛ أصبحَ معنى (مِنْ) للبيان[2].

دلالة تقديم ﴿مِنكُنَّ﴾:

اختصاصٌ لنساءِ النبيّ ﷺ بالأجرِ المضاعف واهتمامٌ بهنّ

﴿مِنكُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حالٌ من فاعل ﴿يَقْنُتْ﴾ و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿يَقْنُتْ﴾[3]، وقد قدّمَ البيانُ الحكيمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿مِنكُنَّ﴾ على قوله ﴿لِلَّهِ﴾؛ لإفادةِ الاختصاص، أي هذا لَكُنّ خاصّةً دون غيركنّ، وكذلك للاهتمام بهنّ رضي الله عنهن.

السرّ وراء تَكْرار ﴿مِنكُنَّ﴾:

تأكيدٌ على الاهتمام بشأنِ نساءِ النبيّ ﷺ واختصاصهنّ

كرّر البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿مِنكُنَّ﴾ ثلاث مرات؛ هنا ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ [الأحزاب: 29]، وقوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ [الأحزاب: 30]؛ وفي هذا التَّكرار تأكيدُ الاهتمام بشَأْنِ نساءِ النبيّ ﷺ، واختصاصهنّ بهذه الأحكام، فهنّ لسنَ كأحدٍ من النّساء.

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 349.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 338.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 42.

معنى اللام في ﴿لِلَّهِ﴾:

لامُ ﴿لِلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ﴾ لامُ التّوكيد والاختصاص، والمعنى: ومن تُخلصِ الطّاعةَ للّه الذي هو أهلٌ لها؛ لئلا يُلتفتُ إلى غيره؛ لأنَّه لا أعظمَ منه بإدامةِ الطّاعة، فلا تخرجُ عن مراقبته أصلًا، وتُخلِصُ الطّاعة لرسوله فلا تغاضبه، ولا تختارُ عَيْشًا غيرَ عيشِه[1].

خلوصُ الطّاعة للـه ورسـولـه سـبـبٌ لـلأجـرِ العظيم والرّزقِ الكريم

نكتة التّصريح باسم الله الأعظم:

صرّحَ البيانُ الحكيم باسم اللّه الجليل (اللّه) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ولم يُضمره، على الرَّغم من أنّه ذُكر في الآية السّابقة، فلم يقلْ: (له ورسوله)؛ ليُلقيَ على هذا القنوتِ المقيَّدِ بالجارِّ والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ فَيْضًا من نورِ الجلالِ والجمالِ والكمال والحبّ والميلِ المناسبِ من الاسم الجليل الدالّ على كمالِ الصفات، بما يدعو إلى هذا الدّوام على هذا القنوت[2].

كـونُ الـقـنـوتِ لصاحبِ الجلال والـجـمـال والـكـمـال هو دعـوةٌ لـلـدّوام عليه

دلالة العطف بالواو في ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾:

عطفَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على لفظِ ﴿لِلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في سياق الخشوعِ والطّاعة لهما؛ تعظيمًا للرّسول ﷺ وتقديرًا له، ورفعًا لمنزلته، بالإشارَة إلَى مقامه عند ربّه[3]، بأنّ طاعته غيرُ منفكّةٍ عن طاعةِ اللّه تعالَى، أو هي عينُ طاعةِ اللّه تَعالَى، قال تَعالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80][4]، وأنّ خشيته جزءٌ من خشيةِ اللّه تعالى[5].

طاعةُ الرسولِ ﷺ غيرُ منفكّةٍ عن طاعةِ الله

إيثار لفظ الرسول دون النبيّ:

التّعبيرُ بلفظِ (رسول) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ

رسولُ اللهِ مبلّغٌ عن ربّه وطاعتُه طاعةٌ لله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 341.
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 270.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 704.
(4) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 349.
(5) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 270.

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ تشجيعٌ لنساء النبيّ ﷺ على طاعته؛ إذ إنّه رسولٌ يبلّغُ عن اللّه ما أمره به لا مِن عند نفسه، ولأنّ الوصفَ بالرّسالة يغني عن بقيّةِ الأوصاف في مقامِ الاعتقاد - كوصف (النبيّ) -، دون قيامِ غيره عنه، ولكون لفظِ الرّسول أنسبَ لسياق الطّاعة والعبادة والعمل الصالح؛ وفاقًا لشريعةٍ قد أتى بها من عند اللّه، وقد أُمِرَ بتبليغها؛ لأنّ الإنباءَ عن الشَّيْءِ قد يكون من غيرِ تحميلِ النّبأ، وأمّا الإرسالُ فلا يكون إلا بتحميلِ رسالة[1].

نكتة إضافة الرسول إلى الله تعالى:

تشريفُ الرسولِ ترغيبٌ بطاعته وطلبِ مرضاته

إضافةُ لفظ الرّسول للضمير العائد للّه تعالى في قوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إضافةُ تشريفٍ لرسولِ اللّه ﷺ، وبيانٍ لمنزلته، وفي هذا ترغيبٌ بطاعته وطلبِ مرضاته ﷺ.

دلالة العطف بالواو في ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾:

جمعٌ بين ولاءِ القلبِ وخشوعِه وترجمةٌ عمليّةٌ لطاعته وخضوعه

عَطْفُ جملة ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ على ﴿يَقۡنُتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ عطْفُ تفسيرٍ، أو أنّ الجامعَ بينهما ارتباطهما بـ(مَنْ) الشّرطيّة بكونهما فعلي الشّرط في الجملة الشّرطيّة، وينبني عليهما جزاءٌ واحد، وهو استحقاقُ الثّواب العظيم؛ مضاعفةِ الأجر والثّواب مرّتين، والرِّزْقِ الكريمِ الذي لا عيبَ فيه ولا نقصَ ولا منّةً لأحد، مع اختلافهما في التّذكير والتّأنيث؛ مراعاةً للفظ (مَنْ) ومعناها[2]، والمُرادُ بالأوّل الخضوعُ والطّاعةُ له ﷺ بتركهنّ زينةَ الدُّنيا، واختيارِ الدّار الآخرَة[3]، وبالثاني عملُ الصّالحات التي هي ترجمةٌ عمليّةٌ للطّاعةِ والخضوعِ، فالقنوتُ - وهو الولاء والخشوع - من عملِ القلب، ولكي

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 530 - 532.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 474.

(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 349 - 350.

يكون لهذا القنوتِ أثرٌ، ينبغي أنْ يخرجَ إلى مجالِ العمل، فالعملُ هو المحكّ الذي يظهرُ عليه ما في القلب من مشاعر ومعتقدات[1].

سرّ إيثار لفظ العمل:

آثرَ البيانُ الحكيم التَّعبيرَ بلفظِ (العمل) دون (الفعل) فقال: ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾؛ لكونِ العملِ أوسعَ دلالةً؛ فهو يشملُ كلّ ما يصدرُ من أمّهات المؤمنين: من قولٍ وهو عملُ اللسان، وفعلٍ وهو عملُ الجوارح، ونيّةٍ وهو عملُ القلب، ومِنْ ثمَّ فهو أنسبُ لرفعةِ مقام نساء النبيّ ﷺ الذي يستدعي كثرةَ الأعمالِ وصِدّقَها منهنّ، وأنْ يكونَ عملُهنّ عن قَصْدٍ ورويّةٍ وعقلٍ وتفكيرٍ واستمرارٍ وطولِ زمانٍ، وهذه المعاني يدلُّ عليها معنى العمل في اللغة[2].

مقامُ نساءِ النَّبيِّ ﷺ يستدعي العملَ الأشملَ والأكملَ

سرّ التّعبير بالمضارع المجزوم ﴿وَتَعۡمَلۡ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بصيغة المضارع الذي يفيدُ الاستمرارَ والتّجدد في قوله تعالى: ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ لإفادةِ دوامِ العملِ الصالح من قِبل نساءِ النبيّ ﷺ شرطًا لاستحقاقِ مضاعفةِ الأجرِ والرّزق الكريم[3].

الاستمرارُ على العملِ الصّالح مطلوبٌ لاستحقاقِ مضاعفة الثّواب

توجيه القراءات في ﴿وَتَعۡمَلۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ قراءتان؛ إذ قرأ الجمهور: ﴿وَتَعۡمَلۡ﴾ بالتاء الفوقيّة على اعتبار معنى (مَنْ) الموصولة المراد بها إحدى النّساء، وحَسَّنَهُ أنّه معطوفٌ على فعل ﴿يَقۡنُتۡ﴾ بعد أنْ تعلّقَ به الضمير المجرور، وهو ضميرُ نسوة ﴿مِنكُنَّ﴾، وقرأ حمزة والكِسائيُّ وخَلَفٌ ﴿وَيَعۡمَلۡ﴾ بالتحتيّة مراعاةً لمدلول (مَنْ) في أصلِ الوضع[4]، وهما قراءتان مشهورتان، ولغتان معروفتان في كلام العرب[5].

عدمُ اقتصارِ نساءِ النبيّ على طاعةِ القلوب والرّفق بهنّ في عملِ الجوارح

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 704.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 666، والزبيدي، تاج العروس: (فعل).
(3) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1497.
(4) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1497، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 6.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 257، وابن الجزري، النشر: 2/ 348.

ويرى الإمام البِقاعيُّ أنّ القنوتَ من عمل القلب، ولمّا كان قد يُفهم من قوله ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ الاقتصارُ على عملِ القلب؛ عبّر القرآن بقوله ﴿وَيَعْمَلْ﴾ التي روعي فيها لفظ (مَن) فجاءتْ على التّذكير؛ حَثًّا لهنَّ على منازلِ الرجال، وألا تقتصرَ طاعتهنّ على ما يتعلّق بالقلوب؛ إذ لفظُ العمل يدلُّ على عملِ الجوارح، وبالمقابل فإنّ التعبيرَ بقراءة ﴿وَتَعْمَلْ﴾ - التي روعي فيها معنى (مَن) فجاءتْ على التأنيث - تشيرُ إلى الرّفق بهنّ في عمل الجوارح والرضى بالمستطاع، كما قال ﷺ: «إذا أمرتُكم بأمرٍ فأْتوا منه ما استطعتم»[1]، وأمّا عملُ القلب فلا رضى فيه بدون الغاية، فلذا كان ﴿يَقْنُتْ﴾ مذكّرًا، أي نُظر فيه إلى لفظ (مَنْ)[2].

دلالة تنكير لفظ ﴿صَٰلِحًا﴾:

بـيـانٌ لـعـمـومِ العملِ الصالحِ وتـفـخـيـمٌ لـه وإعـلاءٌ لـشأنِه ومكانِه

التقدير في قوله تعالى: ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾: وتعملْ عملًا صالحًا، ومن ثَمّ فإنّ تنكيرَ لفظ ﴿صَٰلِحًا﴾؛ لإفادةِ العموم، أي: تعملْ الأعمالَ الصالحة قليلةً أو كثيرة[3]، وفي جميعِ ما أمرَ به سبحانه أو نهى عنه[4]، من الفروضِ والنّوافلِ والذّكر وغيرها من الأعمال الصّالحة[5]، كما أنّ في تنكيرِ صلاح العملِ تَفْخيمًا للعملِ الصالح وإعْلاءً لشأنه ومكانه.

سر التّعبير بفعل الإيتاء مضارعًا:

عمومٌ في المؤتَى وقـــوّةٌ وثـبـاتٌ وقرارٌ فيه

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالإيتاء دون الإعطاء في قوله تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾؛ لكونه أنسبَ للسّياق والمقام: أمّا السياقُ فهو سياقُ تفضّلٍ وتكريم لأمّهات المؤمنين؛ فالإيتاءُ أعمُّ من الإعطاء؛ إذ يكونُ في الأشياءِ المادّيّة والمعنويّة، في حين أنّ الإعطاءَ يكونُ في الأشياءِ

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (7288).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 342.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 663.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 342.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 1.

المادّيّة؛ إذ أصلهُ التناول، وكذلك الإيتاءُ أنسبُ للمقام؛ فالمؤتي هو اللّهُ سبحانه، وإخباره مُسنِدًا فعلَ الإيتاء إلى ضمير العظمة بأنّه يؤتي نساءَ النبي ﷺ الأجرَ؛ فيه قوّة ووجوبٌ ولا يتوقّف على قبولٍ منهنّ، وهذا يناسبه لفظُ الإيتاء، بخلافِ الإعطاء؛ لأنّ الإعطاءَ له مطاوعٌ، يُقال: أعطاني فعَطَوتُ، ولا يُقال: أتاني فأتيتُ، ممّا يجعل فعلَ الإيتاء أقوى[1]، لذلك استعملَ القرآنُ الإيتاءَ دون الإعطاءِ للأشياءِ العظيمة التي فيها ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمة والسبع المثاني[2]، وهذا فيه إشارةٌ إلى أنّ هذا الأجرَ الذي آتاهم اللّهُ إياه ثابتٌ مستقرٌ لهنّ تفضّلًا من اللّه سبحانه.

وفي صيغةِ المضارعِ دلالة على التجدّد والاستمرار في إيتاءِ اللّه الأجرَ مرّتين لأمّهات المؤمنين، بما يدلّ على عظيم مكانتهنّ عند اللّه سبحانه، وعلى عظيم هذا الأجر الذي لا ينقطع.

الايـتـاء إيـذانٌ بالقربِ والكرامةِ لنساءِ النبيّ ﷺ

توجيه القراءات في ﴿نُّؤۡتِهَآ﴾:

في قوله تعالى: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا﴾ قراءتان؛ إذ قرأ الجمهور ﴿نُّؤۡتِهَآ﴾ بنون العظمة، وقرأ حمزة والكِسائي وخَلَف بالتّحتيّة ﴿يُؤۡتِهَآ﴾ على اعتبارِ ضمير الغائب عائدًا إلى اسم الجلالة من قوله قَبْلَهُ، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ [الأحزاب: 30][3]، وفي كلا القراءتين انتقالٌ من المبني للمفعول في قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: 30] - الذي يدلُّ على البعدِ والخِزْيِ المفهوم - إلى المبني للفاعل ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ أو ﴿يُؤۡتِهَآ﴾؛ المؤذنِ بالقرب والكرامة، وفي هذا تفنّنٌ في الأداء.

عظمةُ المُؤتي تُـؤْذِنُ بكمالِ رحمته وعظيم كرمه فإتيانهُ جـذلٌ وعطاؤه وفْرٌ

دلالةُ عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿نُّؤۡتِهَآ﴾:

أُسنِدَ فِعلُ إيتاءِ أجْرِهنَّ في قوله تعالى: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ إلى ضَميرِ الجلالةِ بوَجهٍ صَريحٍ؛ تَشريفًا لإيتائِهنَّ الأجْرَ؛ لأنَّه

---

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 85.

(2) الزبيدي، تاج العروس: (أتى)، والكفوي، الكليات، ص: 212.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 348، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 6.

المأمولُ بهنَّ، ويُلحظ هنا أنّ في إيتاء الأجر ذَكَرَ المؤتي وهو اللّه، وعندَ العذابِ لمْ يُصرِّح بالمعَذِّبِ فقال: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ [الأحزاب: 30]، "وكأنّ الحقَّ سبحانه لم يُرِدْ أنْ يواجهَ بذاته في مقام العذاب، إنّما واجه بالعذاب فقط"[1]؛ إشارةً إلى عظيم هذا الأجر، أي: نؤتها أجرها بما لنا من العظمة[2]، وإشارةً إلى كمالِ الرَّحمةِ والكرم، فهو إتيانٌ جذلٌ وعطاءٌ وفرٌ، كما أنّ الكريم الحيّ عند النّفع يظهرُ نفسه وفعله، وعند الضرّ لا يذكر نفسه[3]، فَضْلًا عن أنّ عدم التّصريح باسم الفاعل في ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ [الأحزاب: 30] يدلُّ على العناية بالتّهويل بالعذاب بجعله عُمدةَ الكلام، وللإيماءِ بأنّ هذا العذاب يسقطُ على النّفس من حيث لا تدري، وكأنّها تُرجَم من وراء الغيب، وفيه كذلك لطفٌ من اللّه رجاءَ أنْ يعودَ العاصي إلى ربّه، وأنّه سبحانه يفرحُ بتوبةِ عبده المؤمن أكثرَ من فرحِ أحدكم حين يجدُ راحلته وقد ضلّتْ منه في فلاة[4].

نكتة التّعبير بلفظ الأجر:

أجـرٌ مـستحقٌّ لأمّهات المؤمنين عـلى طـيـبِ ما قدّمنَ من الخير

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ الأجر في قوله تعالى: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾، دون غيره من الألفاظ كالثواب؛ للإشارة إلى الإعزاز والتّكريم، وكأنّ ما يأخذنَ من هذا الوفر ليس عطاءً، وإنّما هو أجرٌ مستحِقٌّ لهنّ على طيبِ ما قدّمنَ من الخير[5]، ولما فيه من معنى الجَبْر، فهو في أصله يدلُّ على معنيين: الكِراءُ عَلَى العَمَلِ، وجَبْرُ العَظْمِ الكَسيرِ[6]، وكذلك فإنّ استعمالَ الأجر يناسبُ لفظ العمل الذي ورد في السياق بقوله ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾؛ لأنّ الأجرَ لا يكون إلا مقابلَ عملٍ سواءٌ دُنيويًّا أو أُخرويًّا[7].

(1) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12014.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 342.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 166.
(4) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12014.
(5) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 270.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجر).

استحقاق أمّهات المؤمنين للأجرِ العظيم تَشريفٌ لهنّ وبيانٌ لكرامتهنّ

علّة نسبة الأجر إلى الأزواج:

في إضافةِ الأجْرِ إلى الضَّميرِ العائد على نساءِ النبيّ ﷺ في قولِه: ﴿أَجۡرَهَا﴾ إشارةٌ إلى تعظيم ذلك الأجْرِ بأنَّه يُناسِبُ مَقامَ أمّهات المؤمنين، وإلى تَشريفِهنّ بأنَّهنّ مُستحِقّاتٌ ذلك الأجْر[1]، أي أجرها الذي يُضافُ إليها فهي تستحقّه؛ لكرامتها على اللهِ بوجودها في بيتِ النّبوّة ومنزلِ الوحي ونور الحكمة وعين الهداية[2]، بخلاف العذاب فلم يقلْ: (يضاعف لها عذابها)، وفي هذا مراعاةٌ للجانب النّفسي لأمّهات المؤمنين، إذ أبعدهنَّ عن العذاب ولم يُضفه لهنّ، بخلاف الأجر فقد أضافة لهنّ.

دلالة عود الضمير في ﴿أَجۡرَهَا﴾:

ضَميرُ ﴿أَجۡرَهَا﴾ عائدٌ على (مَنْ) باعتبارِ أنَّها صادقةٌ على واحدةٍ مِن نِساءِ النَّبيِّ ﷺ[3].

تكرارُ العطايا فضلُ اللهِ تعالى وإحسانه اختصَّ به أهلَ ودِّه

سرّ إيثار لفظ المرّة في قوله: ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾:

معنى مرّتين في قوله تعالى: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾، توفيرُ الأجر وتضعيفه[4]، أي يعطي الأجرَ الوفيرَ مرّةً، ثمّ يستأنفُ العطاءَ الوفير مرّةً أخرى، وهذا دلَّ على التّكريم الجميل[5]، ومعنى مضاعفة الأجر: أنّه يكون ضعفَ أجرِ أمثالِ تلك الطّاعة إذا صدرتْ من غيرهنّ، وهو ضعفٌ في القوّة وفي المدّة[6]؛ لقدرهنّ، وهذه المضاعفةُ في الحالين من خصائصِ أزواج النبيّ ﷺ؛ لعظم قدرهنّ[7]، أي في لفظ ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ احتراسٌ من أنْ يُظنّ إذا قال (ضعفين) أنَّ المقصود

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 5.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 4.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 5.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 5.
(5) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 272.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 320.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 6.

هو المضاعفةُ في الأجر؛ فهي خصيصةٌ لكلّ المسلمين، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة: 261]، فجاءَ التّعبير بلفظ ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾؛ ليزيلَ هذا الوهمَ عن الأذهان، وليكمّلَ المعنى، بأنّ هذه خصوصيةٌ لأمّهات المؤمنين، وأنّهنّ يأخذنَ مع الأمّة الضِّعْفَين ويأخذنَ المرّتين، وأمّا في العذاب فيُضاعَفُ لهنّ العذابُ ضعفين فقط.

رضى النبيّ وخدمته طاعةٌ خاصّة تستحقّ الأجر

وموجبُ المَرَّتَيْنِ هو: مرّةٌ على الطّاعة والتّقوى، أي: على العمل الصالح مُطْلَقًا كسائرِ المطيعين، ومرّةٌ أخرى على خدمةِ رسول الله ﷺ الخدمةَ الباطنيّة التي لا تتيسّر من غيرهنّ[1]، وعلى طلبهنّ رضى النَّبيّ ﷺ، وهذه طاعةٌ خاصّةٌ مَخْصوصةٌ بهنّ، ولذا اختصهنّ بالأجر مرّتين لامتيازهن بهذا الطلب الذي هو طاعةٌ مَخْصوصةٌ بهنّ[2].

كما أنّ في التعبير بالمرّتين دليلًا قويًّا على أنّ معنى ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: 30] أنّه يكون العذاب مرّتين لا ثلاثًا؛ لأنّ المرادَ إظهارُ شرفهنّ ومرتبتهنّ في الطّاعة والمعصية، تكون حسنتُهنّ كحسنتين، وسيِّئَتُهنّ كسيِّئتين، ولو كانت كثلاثِ سيّئات لم يناسبْ ذلك كون حسنتهنّ كحسنتين، فإنّ اللّهَ أعدلُ من أنْ يُضاعفَ العقوبةَ عليهنّ مضاعفةً تزيدُ على مضاعفة أجرهنّ[3].

دلالة العطف بالواو في ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾:

ما أعدّه الله من الرّزقِ الكريم لهنّ هو زيادةٌ على الأجرِ المضاعف

يدلُّ عطف جملة ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ على جملة ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ على الزيادةِ على أجرِها المضاعفِ[4]، وهو الرّزقُ

---

(1) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1497.
(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 350.
(3) صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 80.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 102، وصديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 80.

الكريم في الدنيا والآخرة، وفي مزيده توكيدٌ للاستحقاق، وبيانٌ لكبير الحظوة.

توجيه التّعبير بفعل الإعتاد دلالةً وصيغة:

الأجـرُ هُـيّـئ لأمّـهـات المؤمنين، وهو ينتظرهنّ، وفي ذلك مزيدُ إكرامٍ لهنّ

التاءُ في ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ بَدَلٌ عن أحدِ الدّالين من (أعدَّ) لقربِ مخرجيها وقصد التّخفيف[1]، وقد عبّر البيانُ القرآنيّ بلفظ الإعْتادِ في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾، ولم يقلْ: (ولهنّ رزقٌ كريمٌ) وهو لا يُعجزه شيء، وإنّما أمْرُه أنْ يقولَ للشّيءِ: كنْ فيكون؛ فالتعبيرُ بالإعْتادِ لإفادةِ العنايةِ بهذا الأجر، والتنويهِ به زيادةً على وصفه بالكريم[2]، وللدّلالة كذلك على مزيدِ الإكرام لأمّهات المؤمنين؛ إذ أُعدّ لهنّ من الآن، والمعنى: "وجهزّناه لها من الآن، فهو ينتظرها"[3]؛ لأنّ الإعْتادَ في اللغة: التهيئةُ من العتاد، وهو العدّة[4]، قال الراغب: "الإعتدادُ: ادّخارُ الشيء قبل الحاجة إليه كالإعداد"[5].

وللسببِ ذاته وهو إكرامُ أمّهات المؤمنين عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ في قولِه: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ عن التعبير بصيغة المُضارعِ إلى صيغة الماضي - رغم أنّ الأفعال التي سبقتْ ﴿يَقۡنُتۡ﴾ و﴿نُّؤۡتِهَآ﴾ هي بصيغة المضارع، ورغم أنّ الحديثَ عن يوم القيامة، ولم يأتِ بعدُ؛ لإفادةِ تَحقيقِ وُقوعِ ما أعدّهُ اللّهُ لأمّهاتِ المؤمنين من الرّزقِ الكريم[6]، أي هو نعيمٌ مقيمٌ في الآخرةِ قدْ تقرّرَ وأُعدَّ وانتهى.

دلالة ضمير التعظيم (نا):

تـشـريـفٌ لأجـرِ أمّـهـاتِ المؤمنين يعدّه ذو الجلال والـكـبـريـاء والعظمة

أسندَ البيانُ الإلهيُّ فعلَ الإعْتادِ إلى ضمير التّعظيم (نا) في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 317، 22/ 6.
(3) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12014.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 50.
(5) الراغب، المفردات: (عتد).
(6) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 350، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 5.

قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ تشريفًا للأجرِ الذي يعدّهُ ذو الجلالِ والكبرياء والعظمةِ والسلطانِ بذاته وبجلاله تكريمًا وتقديرًا لهنّ(1)، والمعنى: هيّأنا لهنّ رزقًا كريمًا بما لنا من العظمة(2)، كما أنّ الإسنادَ لذاته العَليَّةِ يفيدُ تحقّقَ الوقوع.

فائدة التعبير بشبه الجملة ﴿لَهَا﴾ مقدّمًا:

خُصَّ أمّهاتُ المؤمنين بمزيدٍ من العطاء كرامةً لقدرهنّ

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾؛ للاختصاص، أي: خصّهنّ دون غيرهنّ زيادةً على أجرهنّ المضاعف برزقٍ كريم عظيم لا يعلمُ مقداره إلا الله؛ لشرفهنَّ وعلوِّ منزلتهنَّ، فزيادةُ أجرِ الطّاعة تتبعُ زيادةَ فضلِ الآتي، بسببِ قناعتهنّ مع النّبي ﷺ، وتخلّيهنَّ عن الدنيا التي يبغضها الله(3).

سرّ تنكير ﴿رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾:

رزقٌ عظيمُ القدرِ رفيعُ الشأنِ لا شيءَ أكرمُ منه

جاء الرّزق ووصفه في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ نكرتين؛ لإطلاقِ الرّزق وتفخيمه وتعظيمه، وأنّه غيرُ محصورٍ ولا محدود؛ فهو رزقٌ يتضمّنُ كلّ المواهب المادّيّة والمعنويَّة، وهو عظيمُ القَدْرِ رفيعُ الشأن(4)، وكذلك للتّكثير، والمعنى: وهيّأنا لهنّ زيادةً على ذلك رِزْقًا كَريمًا لا يعلمُ مقداره إلا الله(5)، في الدنيا والآخرة، فلا شيءَ أكرمُ منه؛ لأنّ ما في الدّنيا منه يوفّقُ لصرفه على وجهٍ يكون فيه أعظمُ الثّواب، ولا يخشى من أجله نوعَ عتابٍ فضلًا عن عقاب، وما في الآخرة منه لا يوصفُ ولا يُحدّ، ولا نكَدَ فيه بوجهٍ أصلًا ولا كَدّ(6).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 5.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 342.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 342.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 29.
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 204.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 343.

نكتة وصف الرزق بالكريم:

أنـفَـسُ أنـــواعِ الـرّزق وأعظمهُ هـو مـا يـنـاسبُ مـقـامَ أهـلِ ودِّ اللهِ ورسوله

الرِّزقُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ هو رزقُ الجنّة، قالَ تَعالَى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ [البَقَرَة: 25]، وقد وصَفَه اللّه تعالى بالكريم، فلم يقل: (رزقًا حسنًا)؛ لأنَّه أفضَلُ جنسِه[1]، أي: أنفَسُ أنواعِ الرّزق وأعظمهُ، "إذ كلُّ شيءٍ شَرُفَ في بابه فإنّه يوصفُ بالكرم"[2]، فهو الرّزقُ الذي لا يُخالطُ النّفعَ به ضرٌّ ولا نكدٌ، فهو نفعٌ مَحْضٌ لا كدرَ فيه[3]، وللدّلالة على كرامةِ صاحبه، "فإنّهنّ في منازلِ رسول اللّه ﷺ، في أعلى علّيّين، فوق منازلِ جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقربُ منازلِ الجنّة إلى العرش"[4]، وفي هذا الوصف كذلك سرٌّ بلاغيٌّ وهو أنَّ الكريمَ لا يكونُ إلا وصفًا للرزاق؛ لأنّ الرّزقَ في الدنيا مقدّرٌ على أيدي النّاس، فالتاجرُ يسترزقُ من السوقة، والصناعُ من المستعملين، والملوكُ من الرّعية، والرّعيةُ منهم، فالرِّزقُ في الدنيا لا يأتي بنفسه، وإنَّما هو مسخّرٌ للغير يمسكُه ويرسلُه إلى الأغيار، وأمّا في الآخرة فلا يكونُ له مُرْسِلٌ ومُمْسكٌ في الظّاهِرِ، فهو الذي يأتي بنفسه، فلأجلِ هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم إلا الرزاق، وفي الآخرة يوصفُ بالكريم نفْسُ الرّزق[5].

وإذا كان المقصودُ بالرزق هو الكريمُ في الدنيا؛ فلكونه واسعًا حلالًا[6]، أو بكون أمّ المؤمنين مرموقةً بعينِ الغِبْطَةِ لدى نساءِ العالمين، منظورًا إليها نظرةَ المهابة والإجلال[7]، ثم فيها ملحظٌ آخر وهو: إذا كان الرّزق يوصفُ بالكرم، فما بالُ الرازقِ الحقيقي سبحانه[8].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 6.
(2) الراغب، المفردات: (كرم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 89.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 408، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 4.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 398.
(7) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 4.
(8) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12017.

توجيه المتشابه اللفظي في ذكر الرزق الكريم مسبوقًا بالمغفرة:

سياقُ المبالغةِ في تكريمهنّ يناسبهُ عدمُ ذكرِ ذنوبٍ لهنّ قد غُفِرتْ

سَبقَ ذِكْرَ الرّزقِ الكريمِ الوعدُ بالمغفرة في خمسة مواضع في القرآن الكريم وهي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال: 4]، و﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾ [الأنفال: 74]، و﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾ [الحج: 50]، و﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦﴾ [النور: 26]، و﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [سبأ: 4]، وأمّا هنا في آية الأحزاب وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ فلم يذكرِ المغفرة؛ وسرُّ ذلك أنّ الآيات السابقة تتحدّثُ عن عموم المؤمنين، ويدخلُ ضمنهنّ أمّهاتُ المؤمنين، أمّا آية الأحزاب فالحديثُ فيها عن أمّهات المؤمنين على وجهِ الخصوص، وما خصّهنّ اللّهُ به من الأجرِ المضاعف والرّزق الكريم؛ في سياق المبالغةِ في التّكريم لهنّ على شدّةِ طاعتهن لله ولرسوله، وعلى عملهنّ الصّالح، والتمييز لهنّ عن سائرِ المؤمنين، فناسبَ ألا يذكرَ لهنّ ذنوبًا قد غفرها اللّهُ لهنّ؛ زيادةً في رحمتهنّ وتكريمهنّ.

نكتة حذف متعلَّق ﴿رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾:

رزقٌ كريمٌ في الدنيا أوسعُ من أنْ تحدّه العبارة

تنوّعتْ أقوالُ المفسّرين في بيانِ متعلَّقَ ﴿رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ على قولين[1]: فبعضُهم قَدَّره بـ(في الدنيا)، وبعضهم بـ(في الآخرة)، وقد حذفَه البيانُ القرآنيَّ لإفادة العموم؛ إذ إنّه لو ذَكرَ أحدَهما لاقتصرَ المعنى عليه، ولكن بحذفه فالمعنى يشملُ كلًّا من الرّزق الكريم في الدنيا بكونه واسعًا حلالًا،

(1) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 398، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 382.

وفي الآخرة وهو نعيمُ الجنّة، وهذا أنسبُ مع تضعيفِ الأجرِ من المعطي الكريم سبحانه لأشرفِ نساءِ العالمين زوجاتِ النبيّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

فائدة كون الآية جملة خبرية:

الإخبارُ يبعثُ في نفوسِ أمّهات المؤمنين الرضا والطمأنينة بأنّهنّ أشرفُ نساءِ العالمين

الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ جملة خبريّة تشيرُ إلى أنّ نساءَ النبيّ أشرفُ نساءِ العالمين[1]؛ لكون الله سبحانه عظّمَ طاعاتِ أزواج النبيّ ﷺ، وأوجبَ لها الأجرَ مرّتين، وفي هذا دلالةٌ كذلك على أنّ أجرَ العامل العالم أفضلُ وثوابهُ أعظمُ من العاملِ غيرِ العالم، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قد دلّ على ذلك[2].

زِدْ على ذلك أنّ الآيةَ تزاحمتْ فيها الكلماتُ الوضيئةُ في سياقِ الوعد؛ ففي القنوتِ شفافيةٌ باصرةٌ وضّاحةٌ، وفي ذكرِ (الله ورسوله) سكينةُ القلب، وقرارُ النّفس، ثمّ العملُ الصالح والرّزق الكريم، وكلّها كلماتٌ تبعثُ في نفوسِ نساء النبي ﷺ معاني الرّضا، والطمأنينة، وتملأُ القلبَ شعورًا بالخير والأمل[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القنوت والخشوع والخضوع:

يناسب القنوتُ المداومة على طاعةِ الله ورسوله، والعبادة والعمل الصالح

القنوتُ أعمّ دلالةً وأوسعُ معنى من الخشوع والخضوع، فالقنوتُ هو لزومُ الطّاعةِ مع الخضوع، وهو الإخباتُ والاستكانةُ، والعبادةُ والدّعاء[4]، والاسْتِقامَةُ في طَريقِ الدّينِ، ويطلقُ على طولِ القيامِ في الصَّلاةِ، وعلى السُّكوتِ في الصَّلاةِ والإقْبالِ عَلَيْها[5]، أمّا

(1) صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 80.
(2) الجصاص، أحكام القرآن: 3/ 470.
(3) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 271.
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قَنَتَ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنت).

الخشوعُ فيدلّ على التّطامن، والإخباتِ والسُّكونِ والتَّذَلُّل[1]، ويظهر أثره في القلب والصَّوْتِ والبَصَر وفي الجوارح[2]، ولا يكونُ إلا مع خوفِ الخاشعِ للمخشوعِ له؛ لأنّه يرى فاعلَه أنّ من يخشع له فوقه، وأنّه أعظمُ منه، فلا يكونُ تكلّفًا، فهو انقيادُ الباطن للحقّ[3]، وأمّا الخضوعُ فهو الذلُّ والتّواضع[4]، واللّينُ وانقيادُ الظاهر، ويكون في الصوت والبَدَنِ[5]، ولهذا يجوزُ أنْ يخضعَ الانسانُ تكلّفًا من غير أنْ يعتقدَ أنّ المخضوع له فوقه[6]، واستعمالُ القنوت في الآية أنسبُ؛ لكون السياق في المداومة على طاعةِ اللّه ورسوله، وفي العبادة والعمل الصالح، وليس في التذلّل أو التّواضع أو الخوف.

الإيتاء والإعطاء:

ما وعدَ اللهُ به نساءَ النبيّ من الأجر ذو ثباتٍ وقرارٍ ويشملُ أنْ يكونَ مادّيًّا ومعنويًّا

اشتهرَ الإيتاءُ في معنى الإعطاءِ وأصلهُ الإحْضارُ[7]، والإعطاءُ: التناولُ باليد[8]، ويكونُ في الأشياءِ المادّيّة؛ إذ أصلهُ التّناول، وفيه دليلٌ على التّملّك[9]، في حين يكونُ الإيتاءُ في الأشياءِ الماديّة والمعنويّة.

وقد يكونُ الإيتاءُ واجبًا وقد يكونُ تَفَضُّلًا، بخِلافِ الإعْطاءِ فإنَّه لا يكونُ إلّا بمحْضِ التَّفَضّلِ[10]، والإيتاءُ أقوى من الإعطاءِ؛ لأنّ الإعطاءَ له مطاوعٌ، يُقال: أعطاني فعَطَوتُ، ولا يُقال: أتاني فأتيتُ، وإنّما يُقال: أتاني فأخذتُ، والفعلُ الذي له مطاوع أضعفُ في إثباتِ مفعولهِ من الذي لا مطاوعَ له[11]، لذلك استعملَ القرآنُ الإيتاءَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خشع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خشع).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 248.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (خضع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خشع).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249.
(7) الزبيدي، تاج العروس: (أتى).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عطو).
(9) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.
(10) الزبيدي، تاج العروس: (عطو).
(11) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 85.

دون الإعطاء للأشياءِ الكثيرة والعظيمة وفيما له ثباتٌ وقرار، مثل (الملك والرحمة والحكمة والسبع المثاني والقرآن العظيم)، بخلاف الإعطاء فإنّه غالبًا يُستعملُ للشيء القليل، وفيما ينْتَقلُ مِنْهُ بعد قَضاء الحاجة مِنْهُ[1]، واستعمالُ الإيتاء في الآية؛ لكونه أنسبَ مع إيتاء الأجر لأمّهات المؤمنين؛ ليشملَ الأجر المادّيَّ والمعنويَّ، الذي وعدهم الله به، وهو أجرٌ عظيم ذو ثباتٍ وقرار.

(أعتدنا) و(أعددنا):

لفظ أعتدنا يتناسبُ مع خصوصِ ما أعدّه الله لأمّهاتِ المؤمنين

يدلّ اللَّفظان على معنى التّهيئة، لكنّ لفظ (أعتدنا) أخصُّ من لفظ (أعددنا)؛ إذ فيه معنى التّهيئة مع الحضور والقرب، فأصلُ أعتدنا من (عَتَدَ)، ويدلّ عَلَى حُضورٍ وقُرْبٍ، وتهيئةٍ للشيء[2]، والعَتادُ: الشَّيْءُ الَّذي تُعِدّه لأمرٍ ما وتدّخرهُ له قبل الحاجة إليه وتهيِّئُه لَهُ[3]، أمّا أعددنا فأصله (عدّ) من الإعْدادِ، وهوَ تَهْيِئَةُ الشَّيْءِ[4]، أو أصْلُ أعتدنا، هو أعددنا فأبدل من أحد الدّالَين تاء[5]، كما أنّ لفظ (أعدّ) تعدّدتْ معانيه في القرآن؛ إذ وردَ مع الجنّة والنّار والرّزق والأجر والمغفرة والعُدّة وآلة الحرب، ممّا يشيرُ إلى اتّساع المدى الدّلالي له، بينما كان استعمال (أعتدّ) مقتصرًا في وروده على ثلاثة معاني، فأتى مع العذاب والنّار في أكثر المواضع (12) مرة، ومرّة واحدة مع الرّزق في آية الأحزاب هنا، ومرة واحدة مع المتّكأ في سورة يوسف[6]، ومن هنا كان استعمالُ لفظ (أعتدنا) أنسبَ؛ كونه أخصَّ من (أعددنا)، والآياتُ هنا خاصّة بأمّهات المؤمنين رضي الله عنهن؛ فناسبَ أن يكون إعداد الأجر لهنّ له خصوصية، فهو أجرٌ مُهَيَّأٌ لهنّ مع قُربٍ وحضور.

(1) الكفوي، الكليات، ص: 212.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (عتد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدّ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (عتد)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 18.
(6) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 336 - 337.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾

[الأحزاب: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خـصـوصـيّـةُ أمّهاتِ المؤمنين تناسبُ مقامهنّ الكريم

لَمّا ذَكَرَ ﷻ في الآيتين السّابقتين أنَّ عذابَ نساءِ النّبي ﷺ ضِعْفُ عَذابِ غيرِهِنَّ، وأجْرَهُنَّ مِثْلا أجْرِ غيرِهِنَّ؛ صِرْنَ كالحَرائِرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الإماءِ، بما يقرِّرُ خصوصيّةً لهنّ وعليهنّ تناسبُ مقامهنّ الكريم، ومكانهنّ من رسولِ الله المختار، فَقالَ: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1].

فضيلةُ أمّهاتِ المؤمنينَ على سائرِ النِّساء إشارةً وتصريحًا

لمّا أشارَ سبحانه إلى أنّ نساءَ النبيّ ﷺ أشرفُ نساءِ العالمين بتضعيف ثوابهنَّ وبإكرامهنّ زيادةً على ذلك بالرّزق الكريم الذي لا نقصَ فيه ولا كَدَرَ، وهو نعيمُ الجنّة؛ أعقبَ ذلك ببيانِ فضيلتهنَّ على سائرِ النّساء تصريحًا فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَخۡضَعۡنَ﴾: (خضع) أصلٌ يدلُّ على تَطامُنٍ في الشَّيْءِ[3]، والخضوعُ هو الذُّلُّ والتواضعُ واللّين والانْقيادُ والمُطاوعة، وخضعَ الرجل إذا لانَ كلامه، والخُضَّع: اللَّواتي قَدْ خَضَعْن بِالقَوْلِ ومِلْن؛ يقال: الرَّجُلُ يُخاضِع المرأةَ وهيَ تُخاضِعُه: إذا خَضعَ لَها بِكَلامِهِ وخضَعَتْ لَهُ ويَطْمع فيها[4]، ومعنى ﴿تَخۡضَعۡنَ﴾ في الآية موافقٌ لهذا المعنى اللُّغويِّ، أي: فلا تُجِبْنَ بقولٍ خاضعٍ ليّنٍ، رقيقٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.

(2) صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 80.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خضع).

(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خضع).

متفكّكٍ، أي: إذا استَقْبلتُنَّ أحدًا من الرِّجال فلا تُلِنَّ الكلام، ولا تُرقّقْنَه فيما يبتغيه أهلُ الفاحشة منكنّ[1].

2) ﴿فَيَطْمَعَ﴾: (طمع) يَدُلُّ في أصله عَلَى رَجاءٍ في القَلْبِ قَوِيٍّ لِلشَّيْءِ، وهو خلافُ اليأسِ، وطَمِعَ فيه: حرَصَ عليه ورجاهُ[2]، وهو النّزوعُ إلى الشّيء؛ لأجل شَهوةٍ في النّفس[3]، فهو عبارةٌ عن شِدَّةِ التَّعلُّقِ بالشَّيءِ باطنًا، والإلحاحِ في ابتغائِه ظاهرًا، والمَطْمَعَةُ: ما طَمِعْتَ من أجلِه، يُقال: إنَّ قولَ المُخاضَعَةِ من المَرأةِ لَمَطْمَعَةٌ في الفَسادِ، أي: مِمّا يُطْمِعُ ذا الرِّيبَةِ فيها[4]، والمعنى المحوريُّ للطَّمعِ هو محاولةُ الإطباقِ على الشيء وضمّه مع تهيّؤٍ يقوّي الرّجاءَ في ذلك، ومن هذا التهيّؤ شدةُ شهوةِ النّفس لضمّ الشيء؛ لأنَّها تهيّجُ وتهيّئ وتيسُّر ذلك[5]، ومعنى الطَّمع هنا: موافقٌ للمعنى اللغوي.

3) ﴿مَرَضٌ﴾: (مرض) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى ما يَخْرُجُ بِهِ الإِنْسانُ عَنْ حَدِّ الصِّحَّةِ في أيِّ شَيْءٍ كان[6]، وهو ضِدُّ الصِّحَّة، وهوَ العلَّةُ تكون في البدنِ والعقل والقلب، فهو خروجٌ عن اعتدالِ المزاج الصحيح الخاصِّ بالإنسانِ، وذلك ضربان: مَرَضٌ جسميٌّ، والآخرُ عبارةٌ عن الرِّذائلِ الكائنة في القلب كالجهلِ، والجُبْنِ، والبُخْلِ، والنِّفاقِ، وغيرِها من الرَّذائلِ الخُلُقيَّةِ، أي: المكتسَبة بالأفعال[7]، ويُطلق على الشَّكِّ والنِّفاقِ[8]، ويُطْلَقُ على الفُجورِ[9]، ويَرِدُ المرضُ مرادًا به الظُّلْمَة، ثُمَّ يُسْتَعارُ هذا الأخيرُ لِسَوادِ القَلْبِ بالمَعْصيَةِ[10]، والمراد بالمرض هنا مرضٌ في القلب من ريبةٍ وفجورٍ ونفاقٍ، أو فتورٍ عما أمرَ به اللّٰهُ أو نهى عنه، وتهاونٍ بإتيانِ الفواحش[11].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 257، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 5.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طمع).
(3) الرّاغب، المفردات: (طمع).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (طمع).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طمع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرض).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طمع).
(8) الأنباريّ، الزّاهر: 1/ 476.
(9) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 546.
(10) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (مرض).
(11) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 546، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 493، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 258، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 5.

4) ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾: (عرف) أصلٌ يدُلُّ على السُّكون والطُّمأنينة، ومنه المَعرِفَةُ والعِرفانُ، وقولهم هذا أمرٌ معروفٌ؛ لأنَّ مَن أنكر شيئًا تَوَحَّشَ منه، ونَبا عنه، ومنه العَرْفُ: وهي الرّائحةُ الطَّيِّبةُ؛ لأنَّ النَّفسَ تَسكُنُ إليها، والعُرفُ: المَعروفُ، وسُمّيَ بذلك، لأنَّ النُّفوس تَسكُن إليه[1]، والمعروفُ: اسمٌ لكلِّ فعلٍ يُعرَفُ حُسنُه بالعقلِ أو الشّرع، فهو محبوبٌ لدى الجميع، أو هو ما تألفه الطّباع، ولا يستنكره الشّرعُ ولا العرفُ ولا المروءةُ، وهو خلافُ المُنكَر[2]، ومعنى ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾ هنا: أي: جميلًا حسنًا معروفًا في الخير بعيدًا من الرّيبةِ غيرَ مطمعٍ لأحد[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كونهنّ أزواجًا لرسولِ الله تُرَتِّبُ عليهنَّ واجباتٍ تناسبُ مكانَتَهنّ

يأمرُ اللّهُ تعالى نساءَ النّبي ﷺ بآدابٍ، فيقولُ مخاطبهنّ: يا أزواجَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كأيِّ امرأةٍ مِن النِّساءِ في الفَضلِ والشَّرَفِ إنِ اتَّقَيْتُنَّ اللّهَ تعالى بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه؛ فلا تُلِنَّ كلامَكُنَّ للرِّجالِ على وجهٍ فيه خُضوعٌ وانكِسارٌ لهم، فيَطمَعَ مَن في قَلبِه مَرَضُ الشَّهوةِ المحَرَّمة، وإرادةُ الفُجورِ، وتكلَّمْنَ بكلامٍ مُباحٍ حَسَنٍ لا خُشونةَ فيه ولا بَذاءةَ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ تكرار الخطاب بـ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾:

اختصاصُ أمّهاتِ المؤمنين بالخطابِ وإعادته تأكيدٌ على فضيلتهنّ وما سيُلقى إليهنّ

أُعيدَ خِطابُ نِساءِ النَّبيِّ ﷺ من جانِبِ ربِّهنَّ، وأُعيدَ نِداؤهنَّ مباشرةً رضي الله عنهن في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ للتّأكيد على فضيلتهنّ وعظيم قدرهنّ، والثناءِ عليهنّ حيث يخاطبهنّ من بين غيرهنّ من النّساء، كما خاطبَ مريمَ عليها السلام بقوله:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرف).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، والمعجم الوسيط: (عرف)، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/ 211.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 258، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 5.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 257.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران: 43][1]، ولإظهارِ كمال الاعتِناءِ بنُصحِهنَّ[2]، وللاهتِمامِ بهذا الخبَرِ الذي سيُلقى إليهنّ اهتِمامًا يَخُصُّه[3]، فالغرضُ الذي يُساق من أجلِه الحديثُ هو بيانُ فضلهنّ، والحرصُ على مكانتهنّ وحمياتها من أيّ سوء.

دلالة النداء بـ(يا):

إيـذانٌ بالبلاغِ وامتداده عبرَ العصور وحَثٌّ على الإصغاءِ لهذا البلاغ

تكرّرَ نداءُ نساءِ النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بحرفِ النّداء (يا) الذي يُستعملُ في المنادى البعيد، مع أنّ المنادي قريبٌ سبحانَه؛ ليكونَ امتدادُ الصّوت مُؤذنًا بالبلاغ، وليمتدَّ الصَّوتُ بالبلاغِ على سائرِ العصور؛ لتتحلّى النّساءُ بهذه الأخلاق الفاضلة[4]، ولتنبيهِ أمّهاتِ المؤمنين كذلك بأنْ يُصغينَ لِما يُنادى به عليهنَّ؛ لأهميّته بالنسبة لهنّ.

سرُّ إيثارِ لفظِ النّساءِ دونَ الزّوجات:

نساءُ النبيّ ﷺ قدوةٌ لنساءِ الأرض في الصّيانة والعفاف

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (نساء) في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ دونَ (زوجات النّبي أو أمّهات المؤمنين)؛ "ليكونَ هذا اللفظ وحيًا إلى نساءِ الأرضِ، وإلى أنّهنّ - من وراء أمّهات المؤمنين - يتّجهُ إليهنّ الخطابُ مهذّبًا وموجِّهًا، والدرسُ في هذه الآيات يشرحُ وسيلةَ الصّيانة والعفاف"[5].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾:

تفضيلُ أزواجِ النّبي ﷺ على جميعِ نساءِ الأمّةِ أو نساءِ الأرض

التّعريفُ في لفظ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ للجنس[6]، فيشمل كلَّ نساءِ هذه الأمّة، أي تفضيل أزواج

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 379.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 101.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 6، 21/ 318.

(4) حسن عثمان، دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ص: 224.

(5) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 276 - 277.

(6) الطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ 416.

النبيّ ﷺ على جميعِ نساء هذه الأمة[1]، أو كلّ نساءِ العالمين، والمعنى: "لستنّ كجماعةٍ واحدةٍ من جماعات النّساء، أي: إذا تُقصّيتْ أمّةُ النساء جماعةً جماعة؛ لم توجدْ منهنّ جماعةٌ واحدةٌ تساويكنّ في الفضلِ والسابقة"[2].

نكتة إضافة النساء إلى النَّبيّ:

أحكامٌ خاصّةٌ لنساءِ النّبيِّ تناسبُ مقامَ القدوةِ لسائرِ نساءِ المؤمنين

نادى البيانُ القرآنيُّ أمّهاتِ المؤمنينَ بوصفِ نساءِ النبيّ ﷺ، أي: بالإضافة إليه؛ لأنَّها التي يدورُ عليها ما يردُ عليهنَّ من الأحكام[3]، وليعْلَمْنَ أنّ ما سيُلْقى إليهنَّ خبرٌ يناسبُ علوّ أقدارهنّ[4]، أي: لقدْ أعطاكنّ اللّهُ تعالى مِنَ الفضل ومن سموِّ المنزلةِ ما لم يُعطِ غيركُنَّ، فأنتنَّ في مكانِ القدوةِ لسائرِ النّساء، وهذا الفضْلُ كائنٌ لَكُنَّ إنِ اتَّقيْتُنَّ اللّهَ تعالى، وصُنْتُنَّ أنفسَكنَّ عنْ كلِّ ما نهاكُنَّ سبحانه عنه[5].

علّة النفي بـ(ليس):

نفيُ ما توهّمَ مِن مساواةِ أمّهاتِ المؤمنين لسائرِ النّساء

نفى البيانُ القرآنيُّ مساواةَ جماعةِ نساءِ النبيّ ﷺ لكلّ جماعاتِ النّساء بـ(ليس) دون (ما) أو (لا) في قوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾؛ لكون (ليس) تُستعملُ لِما يُتوهّمُ وقوعه، وبذلك تكون أنسبَ للمقام؛ لأنّ أمّهاتُ المؤمنين لمّا طالَبْنَ النَّبيَّ ﷺ بزيادةِ النّفقة، وأنْ يكون لهنّ مثلُ سائرِ النّساء؛ قد تَوَهَّمْنَ أنّهنّ مثلُ سائرِ النساء، فأزالَ القرآنُ هذا الوهمَ من الفهم، وعلّمهنّ أنّهنّ لسْنَ كأحدٍ من النساء، وأنّ لهنّ خصوصيّةً ليست لبقيّة النساء، والمعنى: "فيكنَّ غيرَ ذلكَ أمرٌ لا يوجدُ في غَيْرِكُنَّ، وهو كَونُكُنَّ أمّهاتِ جميع المؤمنين، وزوجاتِ خيرِ المرسلين، وكما أنّ محمدًا ﷺ ليس كأحدٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 7.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 536.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 101.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 318.
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 204.

من الرجال، كما قال ﷺ: «لسْتُ كأحَدِكُم»[1]، كذلك قرائبُه اللاتي يشْرُفْنَ بِهِ، وبين الزّوجين نوعٌ من الكفاءة"[2].

وجه التوكيد بالنون الثقيلة:

تأكيدُ أفضليّة أمّهات المؤمنين ومسؤوليّتهنّ ودورهنّ في المجتمع الإسلامي

استخدامُ النّون الثقيلة ﴿لَسۡتُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ يفيدُ التوكيدَ القويَّ لنفي مشابهةِ أمّهات المؤمنين بأحدٍ من النّساء، ويعزّزُ قوّةَ هذا المعنى؛ لأنّ النّون الثقيلة تُستخدمُ في التّعبير عن الجزمِ والقطع، ممّا يُظهر أنّ الكلامَ ليس مجرّد رأيٍ أو احتمال، بل هو حقيقةٌ مؤكّدةٌ، كما أنّ التّعبيرَ بها يشيرُ إلى أهميّة هذه الرّسالة الموجّهة إليهنّ، ويُظهرُ الخصوصيّة والتمييز لنساء النّبي ﷺ، وأنّ لهنّ مكانةً خاصّةً ومتميّزة، ممّا يعكسُ عظمة دورهنّ في المجتمع الإسلامي، ويعزّزُ من شعورهنّ بالمسؤوليّة.

بلاغة نفي التَّشبيه:

نفيُ مساواةٍ مُكنًّى به عن أفضليَّةٍ تستوجبُ القيامَ بحقّها

نَفْيُ المُشابَهةِ في قوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يُرادُ به نَفْيُ المُساواةِ، مُكنًّى به عن الأفضليَّةِ على غيرِهنَّ، فالمعنى: أنتنّ أفضلُ النّساء، وسببُ ذلك أنّهنّ اتّصلنَ بالنبيّ ﷺ اتّصالًا أقربَ من كلِّ اتّصال، وصرنّ أنيساته وملازمات شؤونه، فيختَصِصْنَ باطّلاع ما لم يطّلع عليه غيرُهنّ من أحواله وخلقه في المَنْشطِ والمَكْرَه، ويتخلّقنَ بخُلُقهِ أكثر ممّا يقتبس منه غيرهنّ، ولأنّ إقباله عليهن إقبالٌ خاصٌّ، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «حُبِّبَ إلَيَّ النِّساءُ والطّيبُ»[3]، وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: 26][4]، والغرضُ من ذلك أنْ يبدأ بإشعارِ نفوسهنّ بعظيم مكانهنّ، ورفيعِ مقامهنّ، وفضلهنّ على النّساء كافّة، وتفرُّدِهنّ

(1) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، رقم: (4752).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.

(3) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: (12293) و(13057).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 22.

بذلك المكان بين نساء العالمين، على أنْ يوفّينَ هذا المكان حَقَّه، ويُقِمْنَ فيه بما يقتضيه.

سرُّ نفي لفظ (أحد) دون (واحد):

شمولُ النّفي بـ(أحد) أمّةَ النّساءِ جماعةً جماعةً

(أحدٌ): اسم بمعنى (واحد)، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عبّر في قَولِه تعالى: ﴿كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بأحدٍ دون واحد فقال: ﴿كَأَحَدٖ﴾، ولم يقُلْ: (كواحِدةٍ)؛ لأنَّ (الأحدَ) عامٌّ يَصلُحُ للواحِدِ والاثنينِ والجَمعِ، والمذكَّرِ والمؤنَّث[1]، وأكثرُ ما يُستعمل في سياق النَّفْي، فإذا وقعَ في سياقِ النّفيِ دلّ على نفيِ كلّ واحد من الجنس[2]، أي: استغراقِ جنسِ الموصوفين، القليلَ والكثيرَ على طريقِ الاجتماعِ والافتراق، فلو قلتَ: فلانٌ لا يقومُ له واحدٌ، جاز في المعنى أنْ يقومَ له اثنان أو ثلاثة فما فوقهما، وإذا قلتَ: فلانٌ لا يقومُ له أحدٌ: جزمتَ أنّه لا يقومُ له واحدٌ ولا اثنان فما فوقهما، ومعنى استعمال (أحد) هنا: "إذا تُقصّيتْ أمّة النّساء جماعةً جماعةً؛ لم توجدْ منهن جماعةٌ واحدةٌ تساويكنّ في الفضلِ والسابقة"[3]، فالأحدُ أكملُ من الواحد، وأبلغَ مع مقام أمّهاتِ المؤمنين، أي: ليس قدركنّ عندي مثلَ قَدْرِ الصالحات من النساء، أنتنّ أكرمُ عليّ، وأنا بكم أرحمُ، وثوابكنّ أعظمُ من ثواب جميع النّساء؛ لأنّكنّ أزواجُ حبيبي ﷺ[4]، ولو عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ (كواحدة) لما دلّ على هذا المعنى.

بلاغة التقييد بقوله ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾:

اشتراطُ التّقوى تنويهٌ بمكانة أمّهات المؤمنين وتَحريضٌ لهنّ على الازديادِ منها

التَّقييدُ بقولِه: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ ليس لِقَصدِ الاحترازِ عن ضدِّ ذلك، وإنَّما هو إلْهابٌ وتَحريضٌ وتهييجٌ على الازديادِ مِن التَّقْوى؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 536، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 635.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 6.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 536.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 232.

لنبذِ الدنيا والإقبالِ على كمالِ الطّاعة والتّقوى[1]، بجعلِ طلبِ الدنيا والميل إلى ما تميلُ إليه النساءُ - لبعده من مقامهن - بمنزلةِ الخروجِ من التّقوى[2]، أي جاء: اشتراطُ التّقوى من باب التّنويه بهنّ وبمنزلتهنّ العالية عند اللّه، والثناءِ عليهنّ رضي الله عنهن، ففضلُهنَّ على نساءِ الأرض ثابتٌ مطلقٌ، ليس مشروطًا بالتّقوى.

رحمةُ اللهِ بأمّهاتِ المؤمنينَ بتكليفهنّ بما يُطِقْنَ

إيثار ﴿إِنِ﴾ دون (إذا):

آثَرَ النَّظمُ الحكيم استعمال ﴿إِنِ﴾ - التي تدخلُ على المشكوك - دون (إذا) - التي تدخل على المتيقّن - في قوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾؛ إشارةً إلى رحمةِ اللّه بأمّهات المؤمنين؛ إذ لم يشرطْ فضلهنَّ على جميعِ النّساء بتحقّق دوامِ وزيادة التّقوى على وجه اليقين، بل يكفي أنْ يجْتهدنَ بصدقٍ في ذلك.

رفعةُ مقامِ أمّهاتِ المؤمنين وفضلهنّ يقتضي دوامهنّ على التّقوى

دلالة فعل الشرط ﴿ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ وتوكيده:

فعلُ الشَّرْطِ ﴿ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ مستعملٌ في الدّلالةِ على الحثِّ والدَّوامِ؛ لاقتضاءِ المقامِ إيّاه؛ تهييجًا وإلهابًا[3]، أي: إنْ دُمْتُنَّ على التَّقوى؛ فإنَّ نساءَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مُتَّقياتٌ مِن قَبْلُ[4]، ولبيانِ أنَّ فضيلتَهنَّ على نساء العالمين إنَّما تكونُ بالازدياد من التَّقوَى؛ لأنّ جواب الشرط دلَّ عليه ما قبل فعل الشرط[5]، والتقدير: إنِ اتَّقيتُنّ فلَسْتُنّ كأحدٍ من النّساء[6]، وليستِ المسألةُ مجرّد قرابةٍ من النبيّ صلى الله عليه وسلم، بل لا بدّ من القيامِ بحقّ هذه القرابة في ذاتِ أنفسكنّ، وفي استعمال نون التوكيد الثقيلة توكيدٌ لمعنى الحثّ والدّوام على التّقوى، وفي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 7.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 186.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ 418.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 7.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 7.
(6) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 204.

الشرط وجوابه دلالةٌ على تفضيلِ أزواجِ النبيّ ﷺ على جميع نساء هذه الأمّة[1].

توجيه قوله ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾:

رفعةُ قَدْرِ نساء النبيّ يتفرّعُ عنه إرشادُهنَّ تهييجًا إلى الابتعادِ عن الملاينة في القول

الأحسنُ أنْ يكون الوقفُ على ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾ ابتداءُ تفريع وليسَ هو جوابَ الشّرط، أي: فُرِّعَ على تَفضيلِهنَّ وتَرفيعِ قَدْرِهنَّ إرشادُهنَّ إلى دَقائقَ مِن الأخلاقِ قد تقَعُ الغَفلةُ عن مُراعاتِها؛ لِخَفاءِ الشُّعورِ بآثارِها؛ ولأنَّها ذرائعُ خَفيَّةٌ نادرةٌ تُفْضي إلى ما لا يَليقُ بحُرْمتِهنَّ في نُفوسِ بعضٍ ممَّن اشتمَلَتْ عليه الأُمَّةُ، وفيها مُنافِقوها، ومن ذلك هيئةُ الكلام[2]، وهذا الإرشادُ على سبيلِ التّهييج لهنّ، والإلْهابِ والتَّحريضِ على الابتعادِ عن التّخضّع والملاينة في القول.

منزلةُ نساءِ النبيّ السّاميةُ عند الله ليس فيها غناءٌ عن التّذكير والإثارة

ويجوز أنْ يكون قوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾ جوابَ شرط، والمعنى: إنِ اتقيتنّ فلا تخضعنَ[3]، أي: الوقفُ على ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾، والابتداءُ بـ: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾، ومجيءُ الجملة الشرطيّة بعد الثناء البالغ في قوله: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إشارةٌ في ذلك إلى أنّ منزلةَ أمّهات المؤمنين السّامية عند الله ليس فيها غَناءٌ عن التّذكير والإثارة؛ للاستمساكِ أكثر بمُثُلِ الخير، والازدياد منها، وملاحظة النّفس، وأخذها على الطريق القويم، وفيه قرعُ العصا لنساءِ الأرض، من جهة أنّ هذا الأسلوبَ الحاسمَ في النّهي عن التّخضّع والملاينة، وربطه بالتّقوى - قدْ ورد موجَّهًا إلى الطّاهرات العفيفات بعد بيانِ فضلهنّ على النّساء جميعًا، فماذا يكونُ الحال بالنسبة لغيرهنّ؟[4]، وفي ارتباطِ التّقوى بالنهي عن التّخضّع ومُلاينة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 7.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(4) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 279 - 280.

الحديث؛ إشارةٌ إلى أنّ مُلاينةَ الحديث بين الرّجال والنّساء دليلٌ على أنّ مهابةَ الحقّ وجلالَ الدّين قدْ سقطَ من القلوب(1).

حذف مفعول ﴿ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾:

تنزيهُ مقامِ أمّهاتِ المؤمنين والتلطّفُ بهنّ

حذَفَ النّظم الحكيم مفعول ﴿ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾، والتقدير: إنْ اتقيتنّ مخالفةَ حكم اللّه تعالى ورضا رسوله ﷺ؛ اختصارًا لدلالةِ ما قبله عليه(2)، وتنزيهًا لهنّ عن ذلك، وتلطّفًا بهنّ.

دلالة النهي عن الخضوع في القول:

النهيُ للتهييج والتذكير؛ فأمّهات المؤمنين مبرّءاتٌ من التّخضّع بالقول

جاء النّهي عن الخضوعِ بالقول بعد الثناءِ على أمّهات المؤمنين بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ واردًا موردَ الإشارةِ والتهيّج؛ لأنّهنّ مُبرّآتٌ عن التّخضّع بالقول، ومُلاينة الحديث للغرباء(3)، أو واردًا موردَ الإرشادِ لهنّ، "فإنَّ النّاسَ مُتفاوِتونَ في لينِه، والنِّساءُ في كلامِهنَّ رِقَّةٌ طَبيعيَّةٌ، وقد يكونُ لِبَعضِهنَّ من اللَّطافةِ ولِينِ النَّفْسِ ما إذا انضمَّ إلى لينِها الجِبِلِّيِّ، قَرُبَت هَيئتُه من هيئةِ التَّدلُّلِ؛ لِقِلَّةِ اعتيادِ مِثلِه إلّا في تلك الحالةِ، فإذا بَدا ذلك على بَعضِ النِّساءِ ظَنَّ بعضُ مَن يُشافِهُها مِن الرِّجالِ أنَّها تَتحبَّبُ إليه، فرُبَّما اجترَأتْ نفْسُه على الطَّمعِ في المُغازَلةِ، فبدَرَتْ منه بادِرةٌ تكونُ مُنافيةً لحُرْمةِ المرأةِ، بلْهَ أزواجَ النَّبيِّ ﷺ اللّاتي هنَّ أمَّهاتُ المؤمنينَ"(4).

ووراء هذه الإشارةِ والتّهييج أو الإرشاد لأمّهاتِ المؤمنين؛ نهيٌ مؤكّدٌ لنساءِ المسلمين عن الخضوعِ والمُلاينة(5)، وتحذيرٌ ممّا هو زائدٌ على المعتاد في كلامِ النّساء من الرقّة، وذلك ترخيم الصوت، أي:

(1) الجوهرة، من بلاغة الخطاب الموجه إلى أمهات المؤمنين، ص: 322.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 186.

(3) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 279 - 280.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.

(5) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 279 - 280.

ليكنْ كلامكنّ جزلًا[1]، ودعوةٌ للمرأةِ للاحترازِ من كلِّ ما دعا إلى شهوتها، والفتنةِ عليها[2].

بلاغة المجاز في لفظ (الخضوع):

المبالغةُ من التنفير من رقّة الكلام أمامَ الأجانبِ إرشادٌ على سبيل التّهييج

الخضوعُ حقيقتُه التذلّلُ، وأُطلق في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ على الرِّقَةِ لمشابهتها التذلُّل[3]، والمعنى: "لا تُلِنَّ بالقولِ للرّجالِ ولا تُرَقِّقْنَ الكلام"[4]، وفي التّعبير بالمجاز مبالغةٌ في التّنفير من هذا الفعل، مع العلمِ أنّ النّهيَ هنا هو إرشادٌ على سبيل التّهييج.

معنى الباء في ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ وسرّ إيثارها على همزة التعدية:

المبالغةُ في الحذرِ مِنْ ترقيقِ القولِ والمُلاينةِ فيه مع الغُرَباء

الباءُ في قولِه: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ للتَّعديةِ بمَنزلةِ هَمزةِ التَّعديةِ، أي: لا تُخضِعْنَ القولَ، أي: تَجعَلْنَه خاضعًا ذليلًا، أي: رقيقًا مُتفكِّكًا، ومَوقعُ الباءِ هنا أحسَنُ مِن مَوقعِ هَمزةِ التَّعديةِ؛ لأنَّ باءَ التَّعديةِ جاءتْ من باءِ المُصاحَبةِ؛ فأصْلُ قولِك: ذهَبْتُ بزَيدٍ، أنَّك ذهبْتَ مُصاحبًا له، فأنتَ أذْهَبْتَه معك، ثمَّ تُنوسيَ معنى المُصاحَبةِ في نَحوِ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17]، فلمّا كان التَّفكُّكُ والتَّزيينُ للقولِ يَتبَعُ تَفكُّكَ القائلِ، أُسنِدَ الخُضوعُ إليهنَّ في صورةٍ، وأُفيدَت التَّعديةُ بالباءِ[5]، وفي هذا مبالغةٌ في الحذرِ مِنْ ترقيقِ القولِ والمُلاينةِ فيه مع الغُرَباء، ويجوزُ أنْ تكونَ الباءُ بمعنى (في)، أي: لا يكُنْ مِنكنَّ لينٌ في القولِ[6].

دلالة تعريف لفظ ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾:

هيئةُ القولِ المنهيُّ عنها هي ترقيقُ الكلام بحضرةِ الرجال الغرباء

مادة القول تشمل كل أنواع التّعبير اللفظي، وفيه دلالة على التّصريح والمجاهرة، لكنّ لامَ تعريفِ لفظِ ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ في قوله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(2) القصّاب، النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام: 3/ 653.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 348.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.

تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ عهديّة، معهودها ذهنيٌّ؛ إذ هيئةُ القولِ المنهيّ عنها هي ترقيقُ الكلام بحضرةِ الرّجال الغرباء، لا كلّ هيئةٍ للقولِ، وهذا ما يدلُّ عليه الاحتراسُ في السّياق في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

معنى (الفاء) في ﴿فَيَطۡمَعَ﴾:

الرقّةُ في القول والملاينةُ فيه سَبَبٌ في طمَعِ مرضى القلوب

فاءُ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ﴾ سببيّةٌ[1]، تدلُّ على أنَّ ما قبلها سببٌ لِما بعدها، وقد انتصبَ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ في جوابِ النَّهْيِ بَعْدَ الفاءِ؛ لِأَنَّ المَنْهيَّ عَنْهُ - وهو الرّقةُ في القول - سَبَبٌ في هَذا الطَّمَعِ[2].

سر التّعبير بلفظ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ مادةً وصيغةً:

تنزيهُ مقامِ أمّهات المؤمنين عن سببيّةِ طمعِ مرضى القلوبِ بهنّ وحصولِ مرادِ أصحابها

عبـّرَ البيانُ الحكيمُ بلفظ الطّمع دون غيره من الألفاظ كالرّجاء مثلًا، في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ للدّلالة على أنّ أمنيةَ الذي في قلبه مرضٌ لا سببَ لها في الحقيقة؛ إذ الطمعُ يكون من غيرِ سَبَبٍ يَدْعو اليه[3]، فهو نزوعٌ إلى الشيء لأجلِ شهوة في النّفس[4]، ولأنَّ اللّينَ في كلامِ النّساءِ خُلُقٌ لهنّ لا تَكلُّفَ فيه، فأُريدَ من نساءِ النبيّ ﷺ التكلّفُ بالإتيان بضدّه[5]، وأمّا التعبيرُ بالرّجاء فلا يناسبُ المقام هنا؛ لأنّ الرجاء هو أملٌ في الخيرِ لا في الشرّ، ولا يكونُ إلا عن سببٍ يدعو إليه من كَرَمِ المَرجوّ[6]، ولكون الطمع لا سببَ في الحقيقة يدعو إليه إلا شهوةٌ في نفسِ صاحبه، فإنّ ذلك يشيرُ إلى أنّ الذي في قلبه مرضٌ لن ينالَ ما يطمعُ فيه، وفي هذا كلّه تنزيهٌ لأمّهات المؤمنين.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 344.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 245.
(4) الراغب، المفردات: (طمع).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 344.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 244.

وقد جاء بصيغة المضارع زيادةً في تحذيرِ أمّهات المؤمنين؛ لأنّ طمعَ من في قلبه ريبةٌ وفجورٌ وشهوةٌ مستمرٌّ لا ينقطع.

علّة حذف متعلِّق الطمع:

تَـنـزيـهُ شَــأْنِ نِساءِ النَّبيِّ ﷺ والتلطّفُ بهنّ

حُذِف مُتعلِّقُ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ إذ التقدير: فيطمعَ فيكُنَّ؛ وعلّة الحذف هي تَنزُّيهُ وتَعظيمُ شَأنِ نِساءِ النَّبيِّ ﷺ مع قيامِ القَرينةِ[1]، وتلطّفُ البيانِ الحكيمِ بهنّ.

نكتة التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِي﴾:

في الموصوليةِ إيذانٌ بعلّةِ طمع الفاجر، وهي مرضُ قلبه

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ للإيماءِ إلى علّة طمعِ الفاجر، وهي مرضُ قلبه، أي: فجوره، وللدّلالة على العموم؛ فيشمل كلّ من خَبُثَ قلبه وغلَبَتْه الشهوة المحرّمة والنّفاق، وفيه كذلك لفتٌ للانتباه من خلالِ الإبهام؛ ليقعَ بعده التفصيلُ فيتمكّن معناه من الذّهن، وفي هذا مزيدُ تحذيرٍ لأمّهاتِ المؤمنين.

معنى حرف الجر ﴿فِي﴾:

تحذيرُ أمّهات المؤمنين ممّن تأصّلَ الشكُّ والريبةُ والفجورُ في قلبه

عبّرَ البيانُ القرآنيّ بحرفَ الجرّ ﴿فِي﴾ الذي يفيدُ الظَّرْفيَّة في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ للدّلالةِ على شدّةِ سوءِ مَنْ حذرَ اللّهُ أمّهاتِ المؤمنين منه؛ إذ المرضُ من الريبةِ والشكّ وسوءِ الظنّ وغلبةِ الشهوةِ المحرّمة والفجور، ليس أمرًا طارئًا على قلبه، وإنّما هو متأصّلٌ متوغّلٌ متمكّنٌ في قلبه، ومِنْ ثَمّ زيادةُ تحذيرِ أمّهات المؤمنين من هؤلاء الناس.

نكتة تقديم الجارّ والمجرور ﴿فِي قَلۡبِهِۦ﴾:

قلوبٌ تأصّلَ فيها الفجورُ لا بدّ من الحذرِ منها

الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ متعلّقان بمحذوفِ خبرٍ مقدَّمٍ، و﴿مَرَضٞ﴾ مبتدأٌ مؤخّر[2]، وقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 10.

قُدّم متعلّق الخبر ﴿فِي قَلْبِهِۦ﴾؛ للاهتمام؛ إذ القلوبُ محلُّ الخبثِ والفجورِ والريبةِ والشّكّ وسوءِ الظنّ، فلمّا كانت محلًّا لهذا كلّه؛ أضحت محطّ الاهتمام، ولبيانِ أنّ ما تحملُهُ قلوبُهم من خبثٍ وريبةٍ وفجور ليس أمرًا طارئًا بل هي متأصّلة متوغّلة فيهم.

وجه نسبة المرض الى القلب دون غيره:

الجوارحُ تابعةٌ للقلبِ؛ تَسْلَمُ بسلامته وتَفْسُد بفساده

نسبَ البيانُ الإلهيُّ المرضَ إلى القلب في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ لأنّه محلّ ما يعنيه لفظ (المرض) من الفجورِ والرّيبة وسوء الظنّ؛ إذ هو محلّ المعاني والأفكار والمعتقدات، ولأنّ الجوارحَ تابعةٌ للقلبِ، فتَسْلَمُ بسلامته، وتَفْسُد بفساده[1]؛ إذ الفسادُ بالجوارح لا يكون إلا عن قصدِ فاسدٍ بالقلب، قال رسول اللّه ﷺ: «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهيَ القَلْبُ»[2].

دلالة تنكير المرض:

أمراضُ القلوب كثيرةٌ وخطيرةٌ في أثرها وفسادها الفرديّ والمجتمعي

نكّر البيانُ القُرآنيُّ لفظَ المرض في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ لإفادة العموم، ليشمل كلّ مرضٍ يصيب القلب؛ كالفِسْق[3] أو النِّفاق، أو ضَعْفِ الإيمان ممّن كانوا من الأعراب، أو سوء الظنّ[4]، أو الفساد والرّيبة[5]، أو شهوة الزنى والفجور[6]، ولو عبّر بأحدها لاقتصرَ عليه، ولَما أفادَ المراد، وكذلك في التّنكيرِ إفادةُ التّهويل؛ فهو مرضٌ خطيرٌ في أثره وفسادِهِ الفرديّ والمجتمعيّ، فكان لابدّ من التّحذير منه.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 248.
(2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، الحديث رقم: (52).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 344.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 399.

بيان الاستعارة في لفظ ﴿مَرَضٌ﴾:

استعارةُ المرضِ لبيانِ اختلالِ الوازعِ الدينيّ والفجور وأنّه مؤدٍّ للهلاك

حقيقة لفظ (المرض) اختلالُ نظام المزاج البدنيّ من ضعفِ القوّة، فالمرضُ في اللغة ما يَخْرُجُ بِهِ الإِنْسانُ عَنْ حَدِّ الصِّحَّةِ[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ مستعارٌ لاختلالِ الوازع الدينيّ، بجامعِ أنّ كلًّا منهما مؤدٍّ إلى الهلاك، أو مُسْتَعَارٌ للفجور، أي: الميل إلَى الزنا؛ لأنّه يخرجُ النّفس عن الكَمالات، كما أنّ المرضَ الحقيقي يخرجُ البدنَ عن الاعتدال[2]، فمرضُ القلبِ مثل المنافقين، ومن كان في أوّل الإيمان من الأعراب ممّن لم ترسخْ فيه أخلاقُ الإسلام، وكذلك من تخلّقوا بسوءِ الظنّ فيرمونَ المُحْصَناتِ الغافلاتِ المؤمنات، وقضيّةُ إفكِ المنافقين على عائشة رضي الله عنها وعن أبيها شاهدٌ لذلك[3].

بلاغة الاحتراس في ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾:

نفيُ توهّمِ عدمِ وجودِ الطّمعِ بأمّهاتِ المؤمنينَ مِنْ كلِّ النّاسِ

في قوله: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ احتراسٌ عمّا قد يُقال: إنّهنَّ أمّهاتُ المؤمنين، والإنسانُ لا يطمعُ في أمّه، فأجاب: بأنّ الذي يقعُ منه الطّمعُ إنّما هو المنافق؛ لأنّ شهوته حاصلةٌ معه، وهو منزوعُ الخشيةِ والخوفِ من الله، ومع ذلك فإنّهنّ نُهينَ عمومًا سدًّا للذّريعة[4].

بلاغة الإطناب في قوله ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾:

إحاطةُ المعنى بالاستقصاء الذي يؤكّده في نفسِ المتلقّي

في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ إطنابٌ؛ وذلك بالتفصيل بعد الإجمال، والغايةُ منه هي إحاطةُ المعنى بالاستقصاء الذي يؤكّده في نفسِ المتلقّي ويثبّته أقوى تثبيت.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرض).
(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 352.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(4) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1498.

بلاغة الاحتراس في عطف جملة الفاصلة:

نفيُ توهّمِ أمورٍ تخالفُ دورَ نساءِ النبيّ ووظيفتهنّ في التّبليغ عنه

عَطْفُ جملة الفاصلة ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ على قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ بمَنزلةِ الاحتراسِ؛ لئلّا يَحسَبْنَ أنَّ اللهَ كلَّفَهُنَّ بخَفْضِ أصواتِهنَّ كحَديثِ السِّرارِ[1]، أو بإغلاظِ القَولِ أو بالقولِ المؤذي والمنكر لمن يُكلمهنّ، أو بالسكوت؛ فدفَعَ هذا بقَولِه: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾[2]؛ لأنّهنّ زوجاتُ خاتمِ الأنبياء، ولهنّ وظيفة التّبليغ عنه ﷺ.

دلالة الأمر ﴿وَقُلۡنَ﴾:

الأمرُ بالقولِ المعروف واجبٌ على أمّهات المؤمنين عند الحاجة

أَمْرُ اللهِ لأمّهات المؤمنين بالقولِ المعروف في هيئة الكلام وفي مضمونه بما يتضمّنه من دلالة على المجاهرة والتّصريح في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ هو أمرٌ للوجوبِ عند الحاجة إلى ذلك، أي: هو المأمورُ به لا غيره[3]، وهذا الأمرُ مفهومٌ من النّهي المَذْكور؛ إذ النّهيُ عن الشيء يستلزمُ الأمرَ بضدّه، ولكمالِ الاهتمام ذُكر صريحًا؛ تقريرًا للنهي المَذْكور[4].

فائدة التعبير بالمصدر ﴿قَوۡلٗا﴾:

التأكيدُ على أنْ يكون قولُ نساءِ النبيِّ قولًا معروفًا

صرّح البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿قَوۡلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ على الرّغم من أنّه يُفهَم من السّياق أنّ الأمرَ بأنْ يقلنَ قَولًا؛ إذ إنّه من مقتضى فعل الأمر ﴿وَقُلۡنَ﴾؛ وذلك من باب التَّوكيد، وليجريَ الأمرُ مجرى المثل في حياة المؤمنات، ولاسيما أنّ ﴿قَوۡلٗا﴾ جاءت نكرةً مفردةً تدلُّ على كلّ جنسٍ من أجناسِ القول دون استثناءِ شيءٍ منه.

سرّ وصف القول بالمعروف منكّرًا:

المَعروفُ هو الَّذي يَألَفُه النّاسُ بحسَبِ العُرْفِ العامِّ، وقد قيّد

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 363.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.

(4) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 353.

الأمرُ بأنْ يكون القولُ معروفًا في جميع جوانبه عظيمًا في شأنه

البيانُ القرآنيُّ القولَ بصفةِ المعروفِ بصيغة النكرة في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ لإفادة العموم، فالمعروفُ يشمل هَيئةَ الكلامِ، وهي الَّتي سيقَ لها المَقامُ؛ إذ النّهيُ عن الشيء يستلزمُ الأمرَ بضدّه[1]، ويَشملُ كذلك مَدلولاته: ألّا يَنْتَهِرْنَ مَن يُكلِّمُهنَّ، أو يُسْمِعْنَه قولًا بذيئًا[2]، مِن بابِ: فلْيقُلْ خيرًا أو ليَصْمُتْ[3]، ويشمل كذلك مضامينَهُ، فكما نهاهنّ من قبلُ عن النَّبرةِ اللَّيّنة واللهجةِ الخاضِعة، وأمرهنّ في هذه أنْ يكون حديثهنّ في أمورٍ معروفة غير منكرة؛ فإنّ موضوع الحديث قد يُطمع مثل لهجةِ الحديث؛ فلا ينبغي أنْ يكون بين المرأة والرجل الغريب لحنٌ ولا إيماءٌ، ولا هذرٌ ولا هزلٌ، ولا دعابةٌ ولا مزاحٌ، كي لا يكون مدخلًا إلى شيء آخر وراءه من قريبٍ أو من بعيد، كما أنّ في تنكيره تفخيمًا لهذا القول، وتعظيمًا لشأنه بأنْ يكون جميلًا حسنًا معروفًا في الخير بعيدًا من الريبةِ غير مُطْمِعٍ لأحد.

بلاغة التذييل في ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾:

النَّهيُ عن الشيء يستلزمُ الأمرَ بضدّه

جملةُ الفاصلة تذييلٌ[4]؛ وله موقعٌ جليلٌ، ومكانٌ شريف خطير؛ لأنّ المعنى يزدادُ به انشراحًا، والمقصدُ انفتاحًا، فهو إعادةُ الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهرَ لمن لم يفهمه، ويتوكّدَ عند من فهمه، وقد خرجَ هنا مخرجَ المثل السائر في حياة المؤمنات؛ ليحقّق ما قبل، "فلمّا نهاهنّ عن الاسترسالِ مع سجيةِ النساء في رخامةِ الصوت، أمرهنّ بضدّه فقال: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، أي يُعرف أنّه بعيدٌ عن محلّ الطَّمَع"[5].

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 353.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 344.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الخضوع واللّين والخنوع والإذعان:

المنهيُّ عنه القولُ اللَّيّن الذي فيه خضوعُ المرأةِ للرجل وانكسارها عنده لا مجرّد الكلام اللّيّن

الخضوعُ هو الذلُّ والتّواضع[1] واللّينُ والانْقيادُ والمُطاوعةُ، ويكون في الصوت والبَدَن، والخُضَّع اللَّواتي قَدْ خَضَعْن بِالقَوْلِ ومِلْن[2]، وأمّا اللينُ فهو ضدُّ الخشونة، وحقيقتُه في الأجسام ثم يستعملُ في المعاني[3] بمعنى السهولةِ والانقيادِ والإذعانِ، والتّنعّم والمعاملة بلُطْفٍ ورحمة[4]، وقد ناسبَ هنا التّعبير بالخضوع دون اللّين؛ لأنّ المنهيَّ عنه القولُ اللَّيّن الذي فيه خضوعُ المرأةِ للرّجل، وانكسارها عنده، والخاضعُ هو الذي يُطمَعُ فيه، بخلافِ من تكلّم كلامًا ليِّنًا، ليس فيه خضوعٌ، بل ربما صارَ فيه ترفّع وقهرٌ للخصم، فإنّ هذا لا يَطمعُ فيه خصمه، ولهذا مدحَ الله رسوله باللّين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: 159] وقال لموسى وهارون: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: 43 - 44][5].

وأمّا معنى الخنوع فأصْلُه يدلُّ على ذلٍّ وخضوع وضَعَةٍ وفُجور، والخُنّع: لا يخضعون لهنَّ بالقول، بل يُغازِلونَهُنَّ[6]، والخَنْعَةُ: الرّيبة والغدر، والخانِعُ: الَّذي يَضَع رأْسه للسَّوْءة يأْتي أمرًا قَبيحًا فَيَرْجِعُ عارُه عليه فيستَحْيي مِنْهُ ويُنَكِّس رأْسه[7]، وهذه المعاني لا تتناسبُ في الخطاب مع مقام أمّهات المؤمنين.

وأمّا الإذعانُ فأصله يَدُلُّ عَلَى الإصْحابِ والِانْقيادِ، والإسراعِ مع

---

(1) الزبيدي، تاج العروس: (خضع).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لين).

(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لين).

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 663.

(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خنع).

(7) ابن منظور، لسان العرب: (خنع).

الطّاعة، ويأتي بمعنى الخضوع والذلّ والإقرار والاعتراف[1]، وهذه المعاني لا تتناسبُ مع السياق في الآية.

الطمع والرجاء والأمل والتمنّي والطموح:

الطمعُ رغبةٌ قويةٌ لأجلِ شهوةٍ في النّفس تتناسبُ مع مرضِ القلب

الطَّمَعُ أشدُّ من الرجاء؛ إذ الطمعُ في أصله رَجاءٌ في القَلْبِ قَويٌّ لِلشَّيْءِ وحرصٌ عليه، فهو لا يحدثُ إلّا عن قوّةِ رغبةٍ، وشدّةِ إرادة[2]، ويكونُ من غير سبَبٍ يدعو إليهِ، فإذا طَمِعتَ في الشَّيءِ، فكأنّكَ حدّثتَ نفسَك بهِ من غير أن يكون هُناك سببٌ يدعو إليه، فهو نُزوعٌ إلى الشّيء؛ لأجل شَهوة في النّفس[3].

وأمّا الرجاء فهو الأملُ في الخير، ولا يكونُ الرَّجاءُ إلّا عن سببٍ يدعو إليه مِن كَرَم المَرجوّ، ولهذا ذُمّ الطّمع، ولم يُذَمّ الرَّجاء[4]، والفرقُ بين الطمعِ والأمل؛ أنّ الطمعَ توقُّعُ حصولِ القريب ممّا تريده النّفس، وأكثر ما يُستعمَلُ فيما يَقرُبُ حصولُه، في حين أنّ الأملُ هو توقُّعُ حُصولِ الشّيء، وأكثرُ ما يُستعمل فيما يُستَبعَدُ حُصولُه[5]، والرجاءُ هو بين الأمل والطمع، فإن الرّاجي قد يخاف أنْ لا يحصل مأموله، فالترجّي: ارتقابُ شَيْءٍ لا وثوقَ بحصوله، والرّاجي ليس مُطمَئِنًّا مُتَيَقّنًا بحصول ما يرجو، بل تُخالِجُهُ درجةٌ من تَوَقُّعِ الحرمان، ولهذا يُستعمل بمعنى الخوف[6].

وأمّا التّمنّي فهو محبَّةُ حُصول الشَّيْء، سَواءٌ كانَ ينتظره ويترقّب حُصوله أو لا، فهو تقديرُ شيء في النّفس وتصويرُه فيها، وتَشَهّي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذقن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (طمع)، والهرري، حدائق الروح والريحان: 2/ 49.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 245، والرّاغب، المفردات: (طمع).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 244 - 245.
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (طمع)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 62.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 73، والفيوميّ، المصباح المنير، والكفوي، الكليات، ص: 468، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجو).

حُصولِ ما يرغب فيه، وذلك يكون عن تخمينٍ وظنّ، ويكون في البعيد، وأكثر التّمنّي تصوّرُ ما لا حقيقة له[1]، فيمكن أنْ يقع في المستحيلات عكس الترجّي فلا يقع إلا في الممكن، وغالبُ التّمنّي كذبٌ وتصوّر ما لا حقيقة له[2].

وأمّا الطُّموحُ فهو التطلّعُ إلى تحقيقِ هدفٍ بعيد[3]، فأصلُ (طمح) يدلّ على علوّ وارتفاعٍ في شيء[4]، والطامحُ: الرّافعُ بصَرَه إلى الشيء[5].

فكان استعمالُ لفظ الطّمع في الآية دون غيره؛ لمناسبته للسياق ولمرض القلب؛ إذ السياق في النّهي عن الخضوع في القول؛ لئلّا تنزَعَ نَفْسُ الرّجل الذي في قلبه مرض لتحقيق غايةٍ من المرأة لأجلِ شَهوة في نفسه.

(1) الكفوي، الكليات، ص: 468، والمناوي، التوقيف، ص: 109، والزبيدي، تاج العروس: (مني).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مني).

(3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (طمح).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمح).

(5) المناوي، التوقيف، ص: 235.

﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾

[الأحزاب: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يُـذهـبُ الـلـهُ الرِّجْسَ عن أهلِ البيتِ ويطهّرهم تطهيرًا بوسائلَ قوليَّةٍ وفعليَّةٍ

لَمَّا تَقدَّمَ إلى نساءِ النبيِّ ﷺ في القَولِ وقَدَّمَه لِعُمومِه بقوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾؛ أَتْبَعَه الفِعلَ، فقال: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾، ليجمعَ بذلك بين وسائلَ قوليّة وفعليةٍ يُذهبُ بها الرجسَ عن أهل البيت ويطهِّرهم تطهيرًا[(1)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَرۡنَ﴾: أصلُ (قرّ) يدُلُّ على التَّمَكُّنِ[(2)]، وهو من القرار ومعناه السكونُ والاستقرارُ في المكان، وقَرَّ في المكان: ثبتَ وسكنَ واطمأنَّ[(3)]، ومعنى ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: أي اسْكُنَّ واثْبُتْنَ أو التزِمْنَ بيوتكنّ وامْكُثْنَ دائمًا فيها، ولا تخرُجْنَ إلّا لحاجةٍ[(4)]، وقيل: أصله من الوقار، ومعنى الوقار: السكونُ والحِلْمُ والرَّزانَة[(5)]، والمعنى: كنَّ أهلَ وقارٍ وسكينة وهدوء في بيوتكنّ[(6)].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 344.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (قرر).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 102، ودروزة، التفسير الحديث: 7/ 371، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 267.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 259، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 254، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقر).

2) ﴿تَبَرَّجْنَ﴾: (برج) هو البُروزُ والظُّهورُ، والتَّبَرُّجُ: إظْهارُ المَرْأةِ مَحاسِنَها لِلرِّجالِ، وما يُسْتَدعَى بِهِ شَهْوَةُ الرَّجُلِ، وتَبَرَّجَتِ المرأةُ: أظهرتْ وجْهَها، وإذا أبدتِ المرأةُ مَحاسِنَ جيدِها ووَجْهِها قيلَ: تَبَرَّجَتْ[1]، وثوبٌ مُبَرَّجٌ: صوّرتْ عليه بروجٌ، واعتُبرَ حُسنه، فقيل: تَبَرَّجَتِ المرأة أي: تشبّهتْ به في إظهارِ المحاسن، وقيل تبرّجتْ: ظهرتْ من برجها، أي: قصرها[2]، والمراد في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: النّهي عن خروجِ المرأة من بيتها بغيرِ حاجةٍ محوجةٍ، وعن إظهارِ زينتها، وإبرازِ محاسنها للرّجال، وعن التّبخترِ والتّكسّرِ والتّغنّج كما كانوا في الجاهليّة[3].

3) ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾: (رجس) أصلٌ يدلّ على اختلاط، ومنه الرِّجْسُ: القَذَرُ، لِأَنَّهُ لَطْخٌ وخَلْطٌ[4]، وكلُّ شَيءٍ يُستقذَرُ فهوَ رِجسٌ، وكلّ ما استُقذِرَ من العَمَل، والعَمَلُ المُؤَدّي إلَى العَذاب والعِقاب والغَضَب فَهوَ رِجْس، ورجُسَ الشَّخصُ: عمِلَ عملًا قبيحًا، ورجُسَ الشَّيءُ: نجُسَ وقَذِر[5]، ومعناهُ أيضًا العَذابُ والرِّجزُ، وقد يُعبَّرُ عنِ القُبحِ المعنويِّ بالرّجسِ؛ كالكُفرِ، فإنّهُ مِنْ حيثُ العقل مِنْ أقبحِ الأشياءِ، وهو العمَلُ المؤدّي إلى العَذابِ والعِقابِ[6]، والمراد بالرّجس هنا السوءُ والفحشاء، وقيل الشيطان، وقيل الشرك[7]، أو الذَّنْبُ المُدَنِّسُ للعِرْضِ[8]، ويمكن القول بأنّه كل ما ليس فيه للّه رضًا من أعمال ومظاهر منكرة ومريبة وآثمة[9].

4) ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾: (طهر) أصلٌ يدلُّ على نقاءٍ من الدَّنَس وزواله، والتَّطهُّر: التّنزّه عن الذمّ وكلّ قبيح[10]، والطُّهرُ نقيضُ النَّجاسة والدَّنَس، والتَّطهُّر: التَّنزُّه والتَّنظُّف من النَّجاسة والدَّنَس، وقومٌ يتطهَّرون: يتنزَّهون من الأدناس[11]، والطَّهارة ضربان:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (برج).
(2) الراغب، المفردات: (برج)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 173.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 260، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 102، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 12.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجس).
(5) الكفوي، الكليات، ص: 465، وأحمد مختار عمر، اللغة العربية المعاصرة: (رجس).
(6) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رجس).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 263.
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 103.
(9) دروزة، التفسير الحديث: 7/ 371.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر).
(11) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (طهر).

طهارةُ جسم، وطهارةُ نفسٍ[1]، والتَّطَهُّر كما يكون تَنَزُّهًا عن النَّجاسة والدَّنَس في الجسم كذلك يكون تَنَزُّهًا وكفًّا عن الآثام وما لا يُحمد[2]، والمعنى المحوريُّ للطهارة نقاءُ الشيء ممّا يُتَأذَّى به، وتستعملُ الطهارة في النقاءِ من الأدرانِ الماديّة والمعنوية[3]، ومعنى ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾، أي: يفعلُ في طهركم بالصّيانةِ عن جميعِ القاذوراتِ الحسيّة والمعنويّة فعلَ المبالغِ فيه[4].

المَعنى الإجماليُّ:

توجيهاتٌ أخلاقيّةٌ وسلوكيّةٌ لأهلِ البيتِ الكريمِ تخليةً لهم وتحلية

يقولُ اللّه تعالى مخاطبًا نساءَ النبيّ ﷺ: الزَمْنَ يا نِساءَ النَّبيِّ بُيوتَكنَّ، فلا تَخرُجْنَ منها لِغيرِ حاجةٍ، ولا تُظهِرْنَ زينَتَكنَّ، وتُبرِزنَ مَحاسِنَكنَّ وتُظهِرْنَها كعادةِ نِساءِ الجاهليَّةِ، وأقمْنَ الصَّلاةَ وآتينَ الزَّكاةَ، وأطِعْنَ اللّهَ ورَسولَه، إنَّما يريدُ اللّهُ أنْ يُذهِبَ عنكم مَساوِئَ الأخلاقِ والأعمالِ - يا أهلَ بَيتِ محمَّدٍ - بما يأمُرُكم ويَنهاكم، ويُحِبُّ أنْ يُطَهِّرَكم تَطهيرًا مِن دنَسِ السَّيِّئاتِ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

جمعٌ بين أمرٍ قوليّ وأمرٍ فعليّ للوصولِ بأمّهات المؤمنين إلى الكمال

عطفَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ على قوله: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ فكلاهما أمرٌ من اللّهِ تعالى لنساءِ النبيّ ﷺ، في سياقِ توالي أوامرَ ونواهٍ منه سبحانه في جملٍ إنشائيّة طلبيَّة، وقد أفادَ قوله تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أمرًا لأمّهات المؤمنين بلزومهنّ بيوتَهنَّ وعدم الخروج منه إلا لحاجةٍ محوجةٍ، وفي هذا العطف جمعٌ بين أمرٍ قوليّ وأمرٍ فعليّ، ممّا يُشيرُ إلى تنوّعِ ما أمروا

(1) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طهر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (طهر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 103.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 6 - 7، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 206.

به، ومن ثمّ مكانتهنّ وعلوّ مقامهنّ عند اللّه تعالى؛ للوصول بهنّ إلى الكمال.

دلالة الأمر في ﴿وَقَرْنَ﴾:

حكمُ قرارِ نساء النبيّ في البيوت فـرضٌ وفي حقّ غـيرهـنّ كـمـالٌ وارتقاءٌ

قَولُ اللّه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يقتضي وُجوبَ مُكثِ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ في بُيوتِهنَّ، وألّا يَخرُجْنَ إلّا لضرورةٍ، وجاء في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أُذِنَ لكُنَّ أنْ تَخرُجْنَ لحَوائِجِكنَّ»[1]، أي: حاجاتِ الإنسان، ومحملُ هذا الأمر على ملازمةِ بيوتهنّ فيما عدا ما يُضطرُّ فيه إلى الخروج؛ كموت الأبوين، أو الحجّ أو غير ذلك، وقد تأوّلتْ أمّنا عائشة رضي الله عنها وعن أبيها لخروجها إلى البصرة في الفتنة - التي تُدعى: وقعةَ الجمل - مصلحةً تفيدُ إطلاقَ القرارِ المأمور به يكافئُ الخروجَ للحجّ، وهي الإصلاحُ بين المسلمين.

وهذا الحُكمُ - وهو وُجوبُ القرارِ ومُلازَمَتهنّ بيوتهنّ - خاصٌّ بنساءِ النَّبيِّ ﷺ، توقيرًا لهنَّ، وتقويةً في حرمتهنّ، فقرارُهنَّ في بيوتهنّ عبادةٌ، وأنّ نزولَ الوحي فيها وتردّدَ النبيّ ﷺ في خلالها يُكْسبها حرمةً، وهو كمالٌ لسائرِ النِّساء[2]، وذهب القرطبيُّ وغيره إلى أنّه يَدخُلُ في هذا الخِطابِ لِنساءِ النَّبيِّ ﷺ؛ غيرُهنَّ مِن النِّساءِ بالمعنى، وأنّ اللّهَ خصَّ أمّهاتِ المؤمنين بالخطاب تشريفًا لهنّ[3]، أي: أنّ الآية "حجّةٌ في لزوم المرأة بيتَها، وتركِ البراح عنه فيما لا يعنيها"[4].

وفي هذا الأمرِ لأمّهات المؤمنين ومن خلالهنّ لنساءِ العالمين؛ إيماءةٌ لطيفةٌ إلى أنْ يكون البيتُ هو الأصلُ في حياتهنّ، وهو المقرُّ، وما عداه استثناء طارئ لا يثقلنَ فيه ولا يستقررنَ، إنّما هي الحاجةُ تقضى وبقدرها.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب خروج النساء لحوائجهنّ، رقم: (5237).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 10.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 179.

(4) الكَرَجي القصَّاب، النكت الدالة على البيان: 3/ 654.

توجيه القراءات في ﴿وَقَرْنَ﴾:

قرارُ أمّهات المؤمنين في بيوتهنّ يعطيهنّ مزيدَ وقارٍ

في قَولِه تعالى: ﴿وَقَرْنَ﴾ قِراءتان: **الأولى:** قِراءةُ ﴿وَقَرْنَ﴾ قرأ بها نافعُ، وعاصم، وأبو جعفر المدني[1]، وهي بمعنى الاستِقرار، فأصلُ قَرْنَ (اقْرَرْنَ) حُذفَتِ الرّاءُ الأولى للتَّخْفيفِ من التَّضعيفِ وأُلْقيَتَ حَرَكَتُها عَلَى القافِ، والمعنى: واقْرَرْنَ في بُيوتِكنَّ[2].

والثانية: قِراءةُ ﴿وَقِرْنَ﴾، قرأ بها الباقون[3]، وفي معناها وجهان؛ **الأوّلُ**: كُنَّ أهلَ وقارٍ وسَكينةٍ في بيوتكنّ[4]، **والثّاني**: القَرارُ في البُيوتِ، وعلى هذا الوجهِ تَكونُ القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ[5]، وعلى الوجه الأوّل - وهو أنّها من الوقار - يكون كلٌّ من الاستقرارِ والوقارِ مطلوبًا من أمّهات المؤمنين، وأنّ مقصدَ الاستقرارِ في البيوت هو الحفاظُ على وقارهنّ.

بلاغة الكناية في ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾:

مُلازَمَةُ أمّهاتِ المؤمنين لبُيوتِهنَّ بكونها قرّةَ عينٍ لهنّ ووقارًا

في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ كنايةٌ عن مُلازَمَةِ بُيوتِهِنَّ في وجهٍ آخرَ لقراءة ﴿وَقَرْنَ﴾ وهو أنَّها مِنْ قُرَّةِ العَيْنِ، بمعنى: واقْرَرْنَ عُيونًا في بُيوتِكُنَّ، أي: لَكُنَّ في بيوتكنَّ قرّةُ عينٍ فَلا تَتَطَلَّعْنَ إلى ما جاوَزَ ذلك، أي: فَيَكونُ كِنايَةً عن مُلازَمَةِ بُيوتِهِنَّ[6]، وكذلك فيها كناية في الوجه الثاني في قراءة (وَقِرْنَ) وهو أنَّها أمْرٌ مِنَ الوَقارِ، مع الإيماءِ إلى عِلَّةِ ذلك بأنَّهُ وقارٌ لَهُنَّ[7].

معنى ﴿فِى﴾ في قوله ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ﴾:

في الظرفية تأكيدٌ على استقرار أمهات المؤمنين داخل بيوتهنّ

حرف الجرِّ ﴿فِى﴾ في قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ معناه الظرفيّة،

(1) ابن خالويه، الحجة في القراءات، ص: 290، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 348.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 259.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 348.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 259.
(5) ابن خالويه، الحجة في القراءات، ص: 290، والأزهري، معاني القراءات: 2/ 283، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 577 - 578.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 10.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 10.

وهو حرفُ وعاءٍ، كوجود الظرفِ في المظروف، وقد أفادَ حرف الجر ﴿فِي﴾ التّمكّنَ والاستقرار، والتأكيدَ على قرارِ نساءِ النبيّ داخل بيوتهنّ واستقرارهنّ فيها، وعدمِ خروجهنّ إلا لحاجة.

سرّ إضافة البيوت إلى الزوجات:

بيتٌ ما بُنيَ إلّا لكِ فالزَمي الّذي مِن أجْلِكِ بُنيَ

إضافةُ البُيوتِ إلى نِساءِ النَّبيِّ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ للاختصاصِ والتّكريم والإسكان، وليس للتَّمليكِ، وإنَّما أُضيفَتِ البيوتُ إليهنَّ؛ لأنَّهنَّ ساكناتٌ بها، أسكَنَهنَّ رسولُ اللّهِ ﷺ، فكانتْ بيوتُ النَّبيِّ ﷺ يُميَّزُ بعضُها عن بعضٍ بالإضافةِ إلى ساكنةِ البيتِ، فيقولون: حجرةُ عائشة، وبيتُ حفصة، ولذلك لَمّا توفيّتِ الأزواجُ كلّهنّ أُدخلتْ ساحةُ بيوتهنّ إلى المسجد في التّوسعة التي وسّعها الخليفةُ الوليد بن عبد الملك في إمارةِ عمر بن عبد العزيز على المدينة، ولم يعطِ عوضًا لورثتهنّ(1)، ويمكن أنّ تكونَ الإضافةُ إضافةَ تمليك، أي: أنَّها مِلكٌ لهنَّ، وفيه إغراءٌ لأمّهات المؤمنين ولبقيّة النِّساءِ على لزوم البيتِ؛ لأنَّه بيتُها وسِترُها، وهذا أبلغُ من قول: (وقَرْنَ في البيوتِ)، كأنَّه يقولُ: هذا البيتُ ما بُنيَ إلّا لكِ - سِترًا لك وصَوْنًا؛ فالزَمي هذا البيتَ الَّذي من أجْلِكِ بُنيَ(2).

وأمّا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 53] فالإضافةُ هي إضافةُ تمليك؛ لأنّ تلكَ البيوت مِلْكٌ له ﷺ ملكَها بالعطيّة من الذين كانتْ ساحةُ المسجد مِلْكًا لهم من الأنصار، وبالفَيْء لقبورِ المشركين، فإنّ المدينةَ فُتحتْ بكلمةِ الإسلام، فأصبحتْ دارًا للمسلمين، ومصيرُ تلك البيوت بعدَ وفاةِ النّبيّ ﷺ مصيرُ تركته كلّها، فإنّه لا

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 612 - 613، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 154، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 11، وابن عثيمين، تفسير سورة الأحزاب، ص: 240.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الأحزاب، ص: 240.

يورَثُ وما تركه ينتفعُ منه أزواجه وآله بكفايتهم حياتهم، ثمّ يرجعُ ذلك للمسلمين[1].

فائدة جمع (البيوت):

لكلّ زوجةٍ من أزواجِ النبيّ ﷺ بيتها الخاصّ بها

أتى النّظم الحكيم بلفظ البيوت بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، ولم يقل: (وقرنَ في بيتكنّ)؛ لكي لا يُتوهّمُ أنهنّ يسكنّ في بيتٍ واحدٍ، وموافقةً لِما هو الواقع؛ وهو أنّ لكلّ زوجةٍ من نساءِ النبيّ ﷺ بيتًا خاصًّا بها، فكان يميّز بعضها من بعض بالإضافة إلى ساكنة البيت، يقولون: حجرة عائشة، وبيت حفصة، وكذلك موافقةً لسياق الآيات التي وردت الألفاظ فيها بصيغة الجمع.

توجيه العطف بالواو:

في الأمرِ بالشيءِ والنّهي عن ضدّه توكيدٌ لمضمونه

عطَفَ البيانُ القرآنيُّ قوله ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ على ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بجامعِ أنّ كليهما أحكامٌ من اللّه لأمّهاتِ المؤمنين، أولهما: أمرهنَّ بالقرارِ في بيوتهنّ، وثانيهما: نهاهنّ عن ضدّه مبشّعًا له، أي: لا تخرجنَ من بيوتكنّ بغيرِ حاجةٍ محوجة[2]، وفي هذا تؤكيدٌ للقرارِ في البيوت وملازمتها، ولكن في العطفِ دلالةٌ على أنّ الأمرَ بملازمةِ بيوتهنّ ليس نهيًا عن مطلَق الخروج، بل عن خروجِ التّبرّج، فالجملةُ المعطوفة وهي (لا تَبَرَّجْنَ) في معنى الجملة المعطوفِ عليها[3].

دلالة النهي في قوله ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾:

نهيٌ يقتضي دوامَ أمّهاتِ المؤمنين على الانكفافِ عن التّبرُّجِ

المقصودُ مِن النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ الدَّوامُ على الانكِفافِ عن التَّبرُّجِ، وأنَّهنَّ مَنهيّاتٌ عنه[4]، ذلك لأنّ نساءَ النبيّ ﷺ أمّهات المؤمنين لم يكنّ يتبرَّجْنَ، وفي توجُّـه النّهـي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 84.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 344.
(3) أبو العباس البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 2/ 402.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 12.

لأمّهات المؤمنين فائدةٌ جليلةٌ، هي الإشارةُ إلى أنّ هذه الجاهليّة قد تتقنّعُ وتلبسُ ثوبَ الزّور، حتى يقعَ فيها خياركم من حيث لا يشعرون[1]، فهو تعريضٌ بنهي غيرهنّ من المسلماتِ عن التّبرّج[2].

إيثار لفظ التبرّج دون غيره من الألفاظ:

بـروزُ المـرأة من بيتها وإظـهـارُ محـاسـنـهـا لا يـليـقُ بأمّهات المؤمنين

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ﴾ آثرَ البيانُ القرآنيُّ التعبيرَ بلفظ التّبرّج دون غيره من الألفاظ كالتزيّن والتجمّل؛ لكون التّبرّج أنسبَ مع السياق الذي هو النّهي عمّا لا يليقُ بأمّهات المؤمنين ممّا كان من عادات النّساء في الجاهلية؛ من إظهارِ المرأة محاسنها ومفاتِنَها أمامَ الرّجال وخروجها من بيتها لغير الحاجة - فكلّ هذه المعاني تؤدّيها مادة (برج) التي تدورُ على البُروز والظُّهور[3]، فالتّبرّج: التكلّفُ والتّصنّعُ في إظهار المرأة ما يخفى[4] من محاسن ذاتها وثيابها وحليّها بمرأى الرّجال[5]، أي إظهار ما عادةِ المؤمنات سَتْرُه، فإنّ المرأة إذا تحلّتْ بزينةٍ من شأنها إخفاؤها إلا عن الزّوج، فكأنّها تعرضُ باستجلابِ استحسان الرجال إيّاها وإثارةِ رغبتهم فيها[6]، كما أنّ من معاني التبرّج ظهورَ المرأة من بُرْجِها، أي: قصرها[7]، في حين أنّ التّجمّل والتزيّن ليس مَنْهيًّا عنهما بل مندوبٌ إليهما، وهذا لا يناسبُ السياق هنا.

توجيه القراءة في قوله ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ﴾:

في التّضعيف والمدِّ مزيدُ تأكيدٍ ومبالغةٍ في النّهي عن التّبرّج بكافّةِ أشكاله

قرأ البزّي عن ابنِ كثير ﴿وَلَآ تَّبَرَّجۡنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ بتشديدِ التاءِ وصلًا مع وجوبِ إشباعِ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 291.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 12.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برج).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 114.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 12.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 298.
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (برج).

المدّ للساكنين، أي: (ولا تَّبرّجنَ)؛ إذ أصلُها: (تتبرّجنَ)؛ فأدغمَ التاءَ الأولى في الثانية[1]، وقرأ الباقون بحذفِ إحداهما ﴿تَبَرَّجۡنَ﴾ تخفيفًا[2]، والمعنى في القراءتين واحد[3]، إلا أنّ زيادةَ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنى؛ فكان في التّضعيف وفي إطالةِ صوتِ المدّ مزيدُ تأكيدٍ ومبالغةٍ في النّهي عن التّبرّجِ بكافةِّ أشكاله، ولفتُ الانتباهِ إلى قبيح هذا الفعل في حقّ أزواجِ النبيّ ﷺ، وفي حقِّ النّساء المؤمنات، وأنّه من قبيحِ أفعالِ الجاهليّة التي لا تليقُ بمن شهدنَ الوحيَ والتّنزيل.

دلالة المفعول المطلق ﴿تَبَرُّجَ﴾:

مصدرٌ مؤكِّدٌ أُريدَ به الإمعانُ في ذمِّ التَّبرّجِ وتحريمه

انتصبَ ﴿تَبَرُّجَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ على المفعول المطلق، وهو مصدرٌ تشبيهيٌّ، في جملته إيجازٌ بحذفِ المضافين؛ إذ التقدير: ولا تبرّجنَ تبرّجًا مثلَ تبرُّجِ نساءِ الجاهليّة الأولى[4]، وهو يفيدُ تأكيدَ النّهي عن التّبرّج؛ لأنّ المفعول المطلق ﴿تَبَرُّجَ﴾ هو مصدرٌ من جنس الفعل ﴿تَبَرَّجۡنَ﴾.

ويظهرُ من التأكيد بالمفعول المطلق أنَّ أمّهات المؤمنين منهيّاتٌ عن التّبرّج مطلقًا، حتى في الأحوال التي رخّص للنساء التّبرّجَ فيها في سورة النور في بيوتهنَّ؛ لأنَّ تركَ التّبرّجِ كمالٌ وتنزّهٌ عن الاشتغالِ بالسفاسف[5].

بلاغة التّعريض في النّهي عن التّبرّج:

في حثّ كُمّلِ النّساءِ على دوامِ انكفافهنّ عن التّبرّج تعريضٌ بغيرِهنَّ مِن أهلِ النّفاق

في حثّ نساءِ النبيّ ﷺ أمّهاتِ المؤمنين على الدّوام على الانكفافِ عن التّبرّج في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾؛ تَعريضٌ بنَهْيِ غيرِهنَّ من المُسلماتِ عن التَّبرُّجِ؛ فإنَّ

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 348، وعبد الفتاح القاضي، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: 1/ 256.

(2) أبو شامة، إبراز المعاني من حرز الأماني، ص: 368، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 348.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 1/ 362.

(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 123.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 12.

المدينةَ أيّامَئذٍ قد بقيَ فيها نِساءُ المنافقين، ورُبَّما كُنَّ على بَقيَّةٍ مِن سيرتِهنَّ في الجاهليَّةِ؛ فأُريدَ النِّداءُ على إبطالِ ذلك في سيرةِ هؤلاء المُسلماتِ[1]، وفيه كذلك دعوةٌ إلى وجوبِ تطهيرِ المجتمعِ المسلم من عوائدِ الجاهليّة، ومطاردةِ كلّ مظهرٍ من مظاهرها في حياة المسلمين.

فائدة الجناس في ﴿تَبَرَّجْنَ﴾ و﴿تَبَرُّجَ﴾:

جماليّةٌ في السمعِ وتأكيدٌ للنّهي عن التَّبرّج

بين اللفظين ﴿تَبَرَّجْنَ﴾ و﴿تَبَرُّجَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ إذ يرجعُ اللَّفظان إلى جذرٍ لغوي واحد هو (برج)، إلا أنّ ﴿تَبَرَّجْنَ﴾ أتى فعلًا بصيغةِ المضارع، و﴿تَبَرُّجَ﴾ أتى مفعولًا مطلقًا، ممّا يعطي جماليّةً في السمعِ، تحملُ على الإصغاءِ، ويسهمُ في إيضاحِ المعنى أكثرَ ويؤكّده، وهو الدّوامُ على الانكفافِ عن التّبرّج.

نكتة التعبير بلفظ الجاهلية:

في نسبةِ التّبرّج إلى الجاهليّة ذمٌّ لـهُ وتنفيرٌ منه وتحقيرٌ لها

الجاهليّةُ نسبةٌ إلى الجاهل؛ لأنّ النّاس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين باللّه وبالشرائع[2]، ولذا فإنّ التّعبيرَ بلفظ الجاهلية في قَولِه تعالى: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ذَمٌّ للجهلِ وتنفيرٌ منه، ومدْحُ ما كان مبنيًّا على العلمِ؛ لأنَّ ذَمَّ الضِّدِّ يدُلُّ على مدحِ ضدِّه[3]، ومِنْ ثَمَّ فإنّ نسبةَ هذا الفعل وهو التّبرّج إلى الجاهليّة - أي الجهلِ - لا شكَّ أنَّه يُرادُ به الذمُّ والتَّنفيرُ والإمعانُ في تحريمه؛ لأنّه قد تقرَّرَ عند المسلمين المخاطبين تحقيرُ ما كان عليه أمرُ الجاهلية إلا ما أقرّه الإسلام[4].

ثم إنّه لا يُقصد بقيدِ الجاهلية مفهوم المخالفة، فالتّبرجُ منهيٌّ عنه سواءٌ كان تبرّجَ الجاهليةِ أو غير تَبَرُّجِ الجاهلية.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 12 - 13.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 13.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الأحزاب، ص: 241.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 13.

توجيه المتشابه في تكرار لفظ ﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾:

تحذير القرآنِ من فسادِ الجاهليّة يحمي الأمّة من السقوطِ والهلاك

ورد لفظ ﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ في القرآن الكريم في أربعة مواضع، وهي قوله: ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ [آل عمران: 154]، وقوله: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [المائدة: 50]، وقوله: ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾، وقوله: ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: 26]، وهو من مبتكراتِ القرآن، وصَفَ به أهلَ الشرك تنفيرًا من الجهل، وترغيبًا في العلم، ولذلك يذكره القرآنُ في مقامات الذمّ[1]؛ فذَمَّ ظنَّ الجاهلية؛ مُحذّرًا من فسادِ القلوب، وذَمَّ حكمَ الجاهليّة مُحذّرًا من فساد الحكم، وذمّ تبرّجَ الجاهلية مُحذّرًا من فسادِ النساء وفتنتهم، وذمّ حميّةَ الجاهلية محذّرًا من القَبَليَّة العصبيَّة والطائفيَّة، وفي تكرارِ لفظ الجاهلية وإضافته في هذه المواضع ملمحٌ بلاغيٌّ؛ وهو أنّ هذه الأمور الأربعة المحذَّر منها ما استفحلتْ في أمّة إلا أدّتْ إلى ذلّها وتراجعها وهلاكها.

سرّ تعريف لفظ ﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ وتأنيثها:

جاهليّةٌ معروفةٌ عند المخاطبين جامعةٌ لصفاتِ العُريّ والتّبرّج

لامُ تعريفِ لفْظِ الجاهليّةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ عهديّةٌ معهودُها ذهنيٌّ، إذ هم يعرفونها، أي: الجاهليّةُ المعروفةُ عند المخاطبين، وهي المدّة التي كانتْ عليها العربُ قبل الإسلام، وتأنيثها لتأويلها بالمدّة، أي ما كان قبل الشرع من سيرةِ الكفرِ، وحالةِ الجهل باللّه وبالشرائع[2]، إذ كان العربُ في أمرِ النساء دون حجبةٍ، وفيهم عُرْيٌ وتبرّجٌ، وقد مرّ إطلاقُ اسم الجاهلية بين المسلمين على تلك المدّة التي قبل الإسلام، فقالوا: جاهليّ في الشعراء، وقال ابن عباس: "سَمِعۡتُ أبي في الجاهِليَّةِ يَقولُ: اسْقِنا كَأْسًا دِهاقًا"، وفي حديث حكيم بن حزام: أنَّه سألَ النبيَّ ﷺ عن أشياءَ كان يتحنّثُ بها في الجاهليّة من صدقةٍ وعتاقةٍ وصلةِ رحم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 136.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 13، 4/ 136.
(3) ابن عطية المحرر الوجيز: 4/ 384، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 13.

وصفٌ محدِّدٌ لزمنِ الجاهليةِ كاشفٌ لحقيقتها تقريريٌّ لما كانتْ عليه من القبائح

نكتة وصف ﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ بـ﴿ٱلۡأُولَىٰۖ﴾:

وصْفُ ﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ بـ﴿ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ هو وصفٌ كاشفٌ للجاهليّة التي لم تكنْ تعرفُ اللّهَ، وتأتمرُ بأوامره، وتلتزمُ شرائعه؛ ومحدّدٌ لزمنها الدّالِّ على وصفها الدقيق وماهيّتها الحقيقية، فلا تختلطُ بغيرها ممّا لا يُراد[1]؛ لأنّها أوّلَى قَبْلَ الإسلام، وجاءَ الإسلامُ بعدَها؛ لأنّه يقالُ لكلِّ متقدِّم ومتقدِّمةٍ أوّل وأوّلَى، وتأويله أنّهم تقدّموا على أمّة محمد ﷺ، فَهُم أولى، وهم أوّلُ من أمّة محمد ﷺ[2]، والمقصودُ من الأولى كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠﴾ [النجم: 50]، أي "صِفَتُها الَّتي لَيْسَ لَها نَعْتُ غَيْرِها، وهَذا كَقَوْلِه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: 112] وهذِه حقيقَتُهُ؛ لأنَّهُ ليسَ يَحكُمُ إلّا بالحَقِّ"[3]، وليسَ ثمّةَ جاهليَّتان أولى وثانية، والمعنى: ولا تبرّجنّ تبرّجَ الجاهليةِ القديمة[4]، ومِن ثَمَّ لا يُقصدُ مِنْ لَفْظِ الأولى مفهومُ المخالفةِ بجوازِ تبرّجِ الجاهليةِ غيرِ الأولى؛ إذِ التّبرجُ محرّمٌ، وإنّما هو وصفٌ تقريريٌّ لِما كان عليه الأمرُ وحالُ العربِ قبل الإسلام.

ومن المفسّرين من جعلوا ﴿ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ وصفًا مقيّدًا، وجعلوا الجاهليّة جاهليَّتَيْن، واختلفوا في تحديدهما، وكلُّ ذلك تكلُّفٌ دعاهم إليه حملُ الوصفِ على قصدِ التقييد[5].

جمعٌ بين التَّخليةِ عن الشَّوائِبِ والتَّحليةِ بالرَّغائبِ

توجيه العطف بالواو في الجمل الثلاث:

أفادَ العطفُ بالواو في الجمل الثلاث في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ فيما بينها من جهة،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 12 - 13.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 478.
(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 571.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 478، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 13.

وعطفها على ما قبلها من جهة أخرى - وهو قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾: الجمعَ بين أمرِ اللّه لأمّهات المؤمنين بلُزوم البُيوتِ للتَّخليةِ عن الشَّوائِبِ؛ وإرشادهنَّ إلى التَّحليةِ بالرَّغائبِ من إقامةِ الصّلاة وإيتاءِ الزكاة وإطاعة اللّه ورسوله[1]، تقويةً للصلة بخالقهنّ[2]، وأنّ عدمَ إظهار الزّينة، وعدمَ الملاينة في القول، ليس وحده مقصودَ الشرع، وإنّما لا بدّ أنْ يكونَ وراءَ هذا الحجاب نقاءٌ، وطهارةٌ، ووضاءةٌ، ونظافةٌ، وخُلوٌّ من كلِّ دنسٍ، وإلى أنّه كما أنّ الصلاةَ والزكاة عمادُ الدّين، ومن أركانه؛ فإنّ صيانةَ المجتمع من العريِّ والفاحشةِ ركنٌ في إقامةِ كيان الأمّة[3]، ولإفادةِ أنّ التّكليفَ ليس في النّهي فقط، بل فيه وفي الأوامر ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي تركُ التّشبه بالجبّار المتكبّر ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي هي تشبّهٌ بالكريم الرحيم ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، أي: ليس التّكليف منحصرًا في المذكور، بل كلُّ ما أمرَ اللّهُ به فأْتينَّ به، وكلُّ ما نهى اللّهُ عنه فانْتَهِينَّ عنه[4]، أي: إنّ عطف قوله ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ على ما سبقه من عطفِ العام على الخاص[5] بهدفِ التّعميم والتّثبيت.

فكأنّه ذكرَ هذه الأشياء جميعًا مرّةً ثانية، وفي هذا التّكرار الخفيّ توكيدٌ وتثبيتٌ لهذه المعاني في القلوب، وله مزيةٌ في فضلِ الكلام وفصاحته، يعني أنّ آخر الكلام قد عادَ إلى أوّله، واتّصل به اتّصالَ الكلِّ بجزئه.

وفي العطف أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ وطاعة اللّه ورسوله مِن الموانعِ عن المُحَرَّمات؛ لأنَّه ﷻ قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأَقِمْنَ﴾؛ فدَلَّ هذا على أنَّ مِن أسبابِ عدَمِ التَّبرُّجِ: إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزكاة، والطاعةَ للّه ورسوله[6].

سرّ استعمال لفظ الإقامة:

استعملَ البيانُ الحكيم لفظ الإقامة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقلْ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 345.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 207.
(3) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 291.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 168.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 231، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 295.
(6) ابن عثيمين، تفسير سورة الأحزاب، ص: 241.

المُعْتَبَرُ في الصلاة هو أداؤها أداءً وافيًا سليمًا

(وصلّين)؛ لكون إقامةِ الصلاة أوسعَ دلالةً؛ إذ الإقامةُ في أصلها تدلّ على الانتصابِ والثّباتِ والدّوام، وعلى توفيةِ الشيء حقّه[1]، كما أنّ فيها معنى التّقويم والتّعديل[2]، فيكون معنى إقامة الصلاة: إقامتها في أوقاتها بخشوعٍ وإخلاص على الوجه القيّم المعتبرِ شرعًا، وتقويمها، والمحافظة على سننها وفضائلها، وهو تعبيرٌ له مغزًى جليل، من حيث إنّه يفيدُ أنّ المُعْتَبَرَ في هذه الصلاة هو أداؤها أداءً وافيًا سليمًا، تُحفظُ فيه كلّ فضيلة من فضائلها[3].

دلالة تعاقب أفعال الأمر:

زيادةُ القربِ يقتضي زيادةَ التّكليف

أُريدَ بهذه الأوامرِ المتعاقبة: ﴿وَأَقِمْنَ﴾، ﴿وَءَاتِينَ﴾، ﴿وَأَطِعْنَ﴾ الثباتُ والدَّوامُ عليها؛ لأنَّهنَّ مُتلبِّساتٌ بمَضمونِها مِن قبْلُ، وليَعلَمَ النّاسُ أنَّ المُقرَّبينَ والصّالحينَ لا تَرتفِعُ دَرجاتُهم عندَ اللّهِ تعالى عن حَقِّ تَوجُّهِ التَّكليفِ عليهم[4].

سرّ اختصاص ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بالأمْر وتقديمها:

الصلاةُ والزكاةُ أساسُ العباداتِ البدنيّة والماليّة

خَصَّ البيانُ القرآنيُّ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بالأمْر، ثمَّ جاء الأمْرُ عامًّا بالطّاعةِ؛ لشَرفِهما وعُلوِّهما على غيرِهما، ولأنَّ هاتَينِ الطّاعتينِ البَدنيَّةَ والماليَّةَ هما أصْلُ سائرِ الطّاعاتِ، فمَنِ اعْتَنى بهما حقَّ العِنايةِ جرَّتاهُ إلى ما وراءَهما[5]، وكثيرًا ما يَجمَعُ اللّهُ تعالى بينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ في القرآنِ؛ وذلك لأنَّ الصَّلاةَ متضَمِّنةٌ للإخلاصِ للمعبودِ، والزَّكاةَ والنَّفقةَ متضمِّنةٌ للإحسانِ إلى عَبيدِه، فعنوانُ سعادةِ العبدِ إخلاصُه للمعبودِ، وسَعْيُه في نفْعِ الخَلْقِ، كما

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قوم).

(2) النبراوي، حاشية على الأربعين النووية، ص: 37.

(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 207، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 6، ومحمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 292.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 13.

(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 538، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 103، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 13.

أنَّ عنوانَ شقاوةِ العبدِ عدمُ هذينِ الأمْرَينِ منه، فلا إخلاصَ ولا إحسانَ[1]، وبدأ بالصلاة؛ لأنّها عمدة التّكاليف كلّها، وإنْ كنتَ في الزكاة تنفقُ بعضَ المال، والمالُ فرعُ العمل، والعملُ فرعُ الزمن، فأنتَ في الصلاة تنفقُ الزّمن نفسه وتضحّي به[2].

وفي أمرِ أمّهات المؤمنين بإيتاء الزكاة أيضًا إشارةٌ إلى أنّ للمرأة ذمّتها الماليّة الخاصّة المستقلّة عن ذمّة الغيرِ من أبٍ أو زوجٍ أو غيره، بدليل أنّ اللّهَ كلّفها بإيتاء الزكاة[3].

معنى اللام في لفظَيِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

عِبادتان معهودتان معروفٌ أثرهما في الصِّلةِ بالخالق والإحسانِ للخلق

لامُ تعريفِ لفظي الصّلاة والزكاة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ عهديّة؛ أي الصّلاة المعهودة، "فرضًا ونفلًا صلةً لما بينكنّ وبين الخالق"[4]، وكذلك الزكاة المعهودة المعروفة المفروضة التي لا ينصرفُ الذّهن إلى غيرها، وفي هذا بِشارةٌ بالفُتوحِ وتَوسيعِ الدُّنيا على زَوجاتِ النَّبيِّ ﷺ؛ فإنَّ العَيشَ وقتَ نُزولِ هذه الآيةِ كان ضَيِّقًا عن القوتِ، فضلًا عن الزَّكاةِ[5].

سرّ حذف متعلّق ﴿وَأَقِمۡنَ﴾ و﴿وَءَاتِينَ﴾:

الصّلاةُ والزكاةُ لا تكونان إلا للهِ سبحانه

حُذِف مُتعلِّقُ ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ اختصارًا للعلم به؛ إذ التقديرُ: أقمن الصّلاة للّهِ على الوَجهِ المُستقيم، وآتينَ الزَّكاةَ للّه أهْلَها المُستحِقّينَ لها؛ إذ الصلاةُ والزكاةُ لا تكونان إلا للّهِ سبحانه، بخلافِ الطّاعة في قوله تعالى: ﴿وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ فقد تكونُ للّه ورسوله ولغيرهما، كما أنّ التّصريحَ بمتعلّقِ الطّاعة؛ للإشارةِ إلى فلسفةِ الإسلام في إقامةِ السلوك، وتحديدِ الواجبات والآداب،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 41.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12023
(3) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12023
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 345.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 345.

وتكوينِ نظامِ الاجتماع في الأمة المسلمة، على أساسٍ من طاعةِ اللّه ورسوله وتربيةِ مهابتهما في القلوب، والمعنى: أطعنَ اللّهَ ذاكراتٍ ما له من صفاتِ الكمالِ، وأطعنَ رسوله في جميعِ ما يأمران به، فإنّه لم يُرسل رسوله إلا للأمر والنّهي تخليصًا للخلائق من أسرِ الهوى(1).

دلالة العطف بالواو في ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾:

دوامُ استحضارِ أمّهات المؤمنين العلاقةَ بين الله ورسوله في طاعتهنّ لهما

تكرّرَ عطفُ لفظ (رسولَهُ) على لفظ ﴿ٱللَّهَ﴾ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سياق خطابِ اللّه لزوجاتِ النبيّ ﷺ، فقد سبَقَ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ تأكيدًا على علوِّ مكانةِ النّبي ﷺ عند اللّه سبحانه، فهو رسولُه، والمبلِّغُ عنه، وطاعتُه من طاعةِ اللّه تعالى، وذلك ليستحضرَ أمّهات المؤمنين هذه العلاقةَ بين اللّه ورسوله بشكلٍ دائمٍ في علاقتهنّ باللّه تعالى وبرسوله ﷺ.

توجيه المتشابه اللفظي:

لكلِّ أسلوبٍ قرآنيٍّ مدلولٌ ومعنى

عبّر القرآنُ في آية الأحزاب بقوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وعبّر في مواضع أخرى منها قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ [التغابن: 12]، ولكلٍّ من هذه الصّيَغ مدلولٌ ومعنى، فقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ [التغابن: 12] يوحي وكأنّ للّهِ في الأمرِ طاعةً في الإجمال، وللرسولِ طاعةً في التّفصيل، فالحقُّ سبحانه مثلًا أمرَ في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 83] بالصلاة وبالزكاة أَمْرَ إجمال، ثم بيَّن الرسول ذلك وفصَّل هذا الإجمال، فقال: «صَلّوا كما رأيتموني أصلّي»(2)، وقال: «خُذوا عنّي مناسككم»(3)، أي تكرّرَ الفعل هنا؛ لأنّ للّه طاعةً في إجمال الحكم، وللرسول طاعة في تفصيله، فإنْ جُعلَ الفعلُ واحدًا كما في قوله: ﴿وَأَطِعْنَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 345 - 346.
(2) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر، رقم: (631).
(3) البيهقي، السنن الكبرى، باب الْإِيضَاعِ فِي وَادِي مُحَسِّرٍ، رقم: (9524).

﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فهذا يعني توارد أمر الله تعالى مع أمر رسول الله ﷺ، فالطاعةُ إذن واحدة[1].

توجيه الفصل في جملة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ﴾:

تلطّفٌ إلهيٌّ بأهلِ البيتِ الكريم ببيانِ علّة التّكليفِ وغايته

فَصَلَ القرآنُ جملةَ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ عمّا قبلها، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمال اتّصال؛ إذ إنّها جاءتْ جملةً اعتراضيّةً بين الأوامر والنَّواهي المتعاطفة تعليليّةً لِما تَضمَّنَتْه الآياتُ السّابقةُ مِن أمْرٍ ونَهْيٍ ابْتِداءً مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ﴾[2] على الاستِئنافِ[3]، فإنّ موقعَ ﴿إِنَّمَا﴾ يفيدُ ربطَ ما بعدها بما قبلها؛ لأنّ حرفَ (إنّ) من شأنه أنْ يغني غَناءَ فاءِ التّسبب، والمعنى: أمركنَّ بما أمركنَّ به ونهاكنَّ عمّا نهاكنَّ عنه؛ لأنّ ذلك سببٌ في إذهابِ الرِّجس عنكنَّ وارتقائكنَّ، أي: لأنَّهُ أراد لَكُنَّ تخليةً عن النَّقائِصِ وتحْلِيَةً بالكَمالاتِ[4]، رعايةً لمصلحتكنَّ[5]، وتشريفًا لكنّ، ودفعًا لوهمِ من يتوهّم أنّ ذلك لهوانٍ، أو غير ذلك من نقصانٍ وحرمانٍ[6].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الفصلُ لكون الآيةِ جاءتْ استئنافًا بيانيًّا يفيدُ تعليلَ أمرهنّ ونهيهنّ[7]؛ فكأنّ سؤالًا دارَ في ذهنِ المتلقّي: لماذا أُمرتْ أزواجُه ﷺ ونُهيهنَ وهنّ ينتسبنَ إلى أطهرِ الخلق؟ فكان الجواب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾[8].

وفي هذا التعليل حثٌّ على مكارمِ الأخلاقِ، والرَّدعُ عن رذائِلها،

(1) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12024.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 14.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 231، والطيبي، فتوح الغيب: 12/ 422، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 103.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 14.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 168.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 346.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 193.
(8) حسن عثمان، دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ص: 212.

فالواجبُ أن تُعَلَّلَ العِلّةُ بما يدلُّ على التّخليةِ والتّحلية[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الخُضوعَ بالقَولِ وتبرُّجَ الجاهليَّةِ هي مِن الرِّجْسِ، وأنَّ القَرارَ في البُيوتِ، وإقامَ الصَّلاةِ، وإيتاءَ الزكاةِ، وطاعةَ اللّهِ ﷻ ورَسولِه ﷺ؛ هي مِن أسبابِ زَوالِ الرِّجسِ؛ لأنَّ ما تقدَّمَ أوامِرُ ونَواهٍ، بَيَّن اللّهُ تعالى أنَّه إنَّما أمَر بها ونهَى عنها؛ مِن أجْلِ أنْ يُذهِبَ عن أهل هذا البَيتِ الرِّجْسَ[2].

وجْهُ القَصْرِ في قوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ﴾:

توجيهاتٌ ما قُصِد منها إلا التّكريمُ والتّشريف

القَصرُ في قولِه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ بـ﴿إِنَّمَا﴾ قَصرُ قلْبٍ، قَلَبَ ما قد يُتوهمُ من أنّ ما سبقَ من أوامرَ ونواهٍ لهوانهنّ، أو غير ذلك من نقصانٍ وحرمان، وبيّن أنّ اللّهَ ما يُريدُ لَكُنَّ ممّا أمَرَكنَّ ونَهاكُنَّ إلّا عِصمتَكُنَّ مِن النَّقائص، وتَحليتَكُنَّ بالكَمالاتِ، ودوامَ ذلك، أي: لا يُريدُ من ذلك مَقْتًا لَكُنَّ ولا نِكايةً[3]، وهذا القصرُ يفيدُ أنّ مرادَ اللّه قد انحصرَ في إذهابِ الرّجس عن هذا البيت، وتطهيره، وليس هناك مرادٌ وراء ذلك في شأنٍ مِنْ شؤونِ الخلقِ؛ أي: إنّ اللّه سبحانه قد أقبلَ على أهلِ هذا البيتِ إقبالًا كاملًا، وهذه زيادةٌ في التّكريم، ومبالغةٌ في إظهارِ عظيمِ العنايةِ والرعاية، ومِنْ ثَمّ فإنّ هذا القصرَ يفيد أنّ اللّه قد عَصَمَ أزواج نبيّه ﷺ من ارتكابِ الكبائر وزكّى نفوسهنّ[4].

فائدة التّعبير بـ﴿إِنَّمَا﴾:

طهارةُ أهلِ البيت الكريم ومكانتهنّ شيءٌ مقرّرٌ معلومٌ لا يسعُ أحدًا أنْ ينكره

مِنْ فوائد التّعبير بـ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أنّها تجيءُ لخَبرٍ لا يَجهلُه المخاطَبُ ولا يَدفعُ صِحّته، ولكنْ لِمَن يَعلَمُه ويُقِرُّ به، إلّا أنّك تُريدُ أنْ تُنَبِّهَهُ للذي يجبُ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 422.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الأحزاب، ص: 242.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 346.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 15.

عليه من حقٍّ[1]، كما أنّها تفيدُ في الكلامِ بعدها إيجابَ الفعلِ لشيء، ونَفْيَه عن غيره دفعةً واحدةً في حالٍ واحدةٍ[2]، وهذا واقعٌ في خطاب أمّهات المؤمنين رضوان الله عليهنّ في الآية؛ فقد أكّدتْ ﴿إِنَّمَا﴾ أنّ طهارةَ أهلِ البيت الكريم ومكانتهنّ شيءٌ مقرّرٌ معلومٌ لا يسعُ أحدًا أنْ ينكره لشهرته وذيوعه، وكأنّ قصرَ مرادِ المولى سبحانه على إذهابِ الرّجس عن هذه الجماعة وتطهيرها أمرٌ معلومٌ، لا يدفعهُ دافع، ولا يخالفُ فيه عاقلٌ، وناهيكَ عمّا وراء هذا من التّكريم، وكذلك نفتْ أنْ يُريدَ اللّهُ بهنّ ضرًّا أو تضييقًا عليهنَّ، كما قد يهجسُ بذلك بعض المنافقين ويُشيعون، وإنّما إرادةُ اللّه خاصّة بتطهيرهنَّ وأهلِ بيتِ رسول اللّه ﷺ كلّهم، وتنبيههنّ على مكانتهنّ، وفي ذلك تعريضٌ بنجسي الأعراضِ من المنافقين والكافرين، كما أنّ فيه إثباتًا لصفةِ الإرادة للّه على الوجهِ الذي يليقُ بجلاله وعزّته[3].

دلالة التعبير بالمضارع ﴿يُرِيدُ﴾:

الرعايةُ العُلْويَّةُ مستمرّةٌ بأهل البيتِ الكريم

في التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يُرِيدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ دَلالةٌ على تَجدُّدِ إرادةِ اللّه واستمرارها في عصمةِ أهلِ البيت الكريم أمّهاتِ المؤمنين من النقائص وتحليتهنّ بالكمالات، وإذا أرادَ اللّه أمرًا قدّره إذ لا رادّ لإرادته[4]، بما يدلّ على رعايةٍ عُلْويَّةٍ مستمرّةٍ بأهلِ هذا البيت الكريم.

سرّ إظهار اسم الله الأعظم:

التّلطّفُ الإلهيُّ بأهلِ البيتِ الكريم يشعرهم برعايةٍ عُلْويّة مباشرة تتولّى إكرامهنّ

أظهرَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ ولم يُضمره على الرغم من أنّ هذا الفعل - وهو تطهيرُ نساء النبيّ ﷺ، وإذهابُ الرّجس عنهم - لا

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 330.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 335.
(3) الجوهرة، من بلاغة الخطاب الموجه إلى أمهات المؤمنين، ص: 48 - 49.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 15.

يصلحُ إلا له سبحانه؛ وذلك تعظيمًا لإرادة اللّهِ، وتوقيرًا لها، فهي إرادةُ ذي الجلالِ والجمالِ بما أمركم به ونهاكم عنه[1]، وتلطّفًا بأهلِ البيتِ الكريم أمّهاتِ المؤمنين يشي بأنَّ اللّه سبحانه - يشعرهم بأنّه بذاته العليّة - يتولّى تطهيرهم وإذهابَ الرّجس عنهم، وهي رعايةٌ علويّةٌ مباشرةٌ بأهلِ هذا البيت، وحين نتصوّرُ أنّ القائلَ هو اللّهُ ذو الجلال والإكرام المهيمنُ العزيزُ الجبّار المتكبّر ربُّ هذا الكون الذي قال له: كن فكان - ندركُ عظمة هذا التّكريم.

ولا بدّ من الإشارةِ إلى أن البيانَ القرآنيَّ في الآية قد أسندَ أفعالَ الجملة كلّها إلى اللّه؛ فهو الذي يريد، وهو الذي يُذهبُ الرّجس عنهم، وينقّي قلوبهم ونفوسهم بيدهِ القادرة، وهو الذي يطهِّرهم بنفسه تطهيرًا.

معنى (اللام) في ﴿لِيُذۡهِبَ﴾:

توكيدُ عصمةِ أهلِ البيت الكريم من النّقائص وتحليتهنّ بالكمالات

لام ﴿لِيُذۡهِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ﴾ إمّا أنْ تكون حرفَ جَرٍّ يفيدُ التوكيد - وغالبًا ما يكون ذلك بعد مادّتي الإرادة والأمر - أي: تأكيد إرادةِ اللّه إذهابَ الرِّجْسِ عن أهل البيت الكريم، وينتصبُ الفعل المضارع بعدها بـ(أنْ) مضمرة إضمارًا واجبًا[2]، ويكون في موضعِ المفعول به ليريد، فكأنّه قيل: يريدُ اللّهَ إذهابَ الرّجسَ عنكم وتطهيرَكُم[3]، أو أنْ تكونَ اللامُ ناصبةً وهي لامُ التعليل، والمعنى: إنّما يريد اللّه أمْرَكُم ونَهْيَكم لأجلِ أنْ يُذْهِب عنكم الرجسَ[4]، وهي كذلك تفيدُ التوكيد.

نكتة تقديم ﴿عَنكُمُ﴾:

اهتمامٌ من اللهِ سبحانه بأهلِ البيتِ الكريم وبما يرتقي بهنّ

﴿عَنكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ جارٌّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 346.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 17.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 193.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 346، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 17.

ومجرور متعلّقان بـ(يُذْهب)، و﴿ٱلرِّجْسَ﴾ مفعول به، وقد قدّمَ البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور على المفعول به؛ لبيانِ الاهتمام بنساء النبيّ ﷺ، وبما يرتقي بشأنهنّ، وكذلك للاختصاص، فقد خُصّوا بهذا التّطهير دون غيرهم؛ فهنّ أهلُ البيت، وزوجاتُ النبيّ ﷺ، ومِنْ أطهر مَنْ عرفت الأرض من النساء.

بلاغة اجتماع المؤكّدات:

المبالغةُ في بيانِ شـرفِ أهـلِ البيتِ الكريـمِ ومكانتهم

توالتِ المؤكّدات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ لتشملَ التّوكيدَ بـ﴿إِنَّمَا﴾ التي قصرتْ إثباتَ إرادةِ اللّهِ من الأوامر والنواهي لأمّهات المؤمنين عِصمتهنّ مِن النَّقائصِ، وتَحليتهنَّ بالكَمالاتِ، ودفع أيَّ توهّم بأنّ ذلك لهوانٍ أو غير ذلك من نقصان وحرمان وبخاصةٍ أنّ القصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ يؤتى به عند معرفة المخاطب بمضمون الخطاب، ممّا يزيد من معنى التوكيد فيها، ومن المؤكّدات: إظهارُ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي يقوّي الجملةَ، ويضفي المهابةَ في نفوسِ أمّهات المؤمنين واللُّطْفَ بهنّ، والتّعظيمَ لإرادته سبحانه بـ(اللام)، وأيضًا تقديمُ شبهِ الجملة ﴿عَنكُمُ﴾، فضلًا عن الاستئنافِ الموجود في الجملة الذي يقتضي تأكيدَ الحكم؛ إذ جاءتِ الجملةُ تعليلًا لِما تَضمَّنَتْه الآياتُ السّابقةُ مِن أمْرٍ ونَهْيٍ.

وكلّ هذه المؤكّداتِ مجتمعةً أفادتِ المبالغةَ في بيانِ شرفِ أهلِ البيت الكريم ومكانتهم، ومقامهم عند اللّه تعالى.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾:

تـنـفـيرُ أولي الألـبـاب عـن المـنـاهـي وتـرغـيـبُـهـم في الأوامر

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ معنى الرِّجسُ في الأَصْلِ: القذَرُ الَّذي يُلَوِّثُ الأبدانَ، وعُبِّرَ به هنا عن الذُّنوبِ والنَّقائصِ الدِّينيَّة؛ لأنَّها تَجعَلُ عِرضَ الإنسانِ في

الدُّنيا والآخرةِ مَرْذولًا مَكروهًا كالجِسمِ المُلَوَّثِ بالقذَرِ[1]، وفي هذا تنفيرٌ لأولي الألباب عن المناهي وترغيبٌ لهم في الأوامر[2]؛ لأنّ تشبيهَ الذّنب بالرِّجْسِ يصوّر في نفسِ ذي اللُّبِّ ما يوحِشُه ويُنفِّرُ طبعَه، كما أنّ تشبيهَ التّقوى بالطّهارة ممّا يُرغِّبه، ويُميلُ طبْعَه إليه[3].

دلالة تعريف ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾:

الأوامرُ والتوجيهاتُ لإذهابِ كلِّ شكلٍ من أشكالِ الرّجس

لامُ تعريف ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّة تدلّ على استغراقِ الجنس[4]، فتشمل كلَّ ما استُعيرت له هذه الكلمة من العذابِ والإثمِ والشِّرْك، والشَّيْطان والأفْعالِ الخَبيثَةِ ما ظَهَرَ مِنْها وما بَطَنَ، والأَخْلاقِ الذَّميمَةِ كالشُّحِّ، والبُخْلِ، والحَسَدِ، وقَطْعِ الرَّحِمِ وغير ذلك من كلّ مُستقذَرٍ، من مأكولٍ أو عملٍ أو فاحشةٍ، ولذلك اختلف المفسرون فيها على الأقوال السابقة[5]، وهي تشملها كلّها[6]، أي: أَذْهَبَ اللّهُ جميعَ ذلك عن أهلِ البيت[7].

المراد بأهل البيت:

أهلُ بيتِ النبيّ ﷺ نساؤُه ومن ألحقه رسولُ الله بهنّ

المعنى الحقيقيُّ للفظ البيت في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ هو بيتُ كلّ واحدةٍ من زوجاته الذي كان يسكنه ﷺ، والذي كان من طينٍ وخشب، ومن ثَمّ فأهلُ البيتِ هم أزواجُ النبيّ ﷺ، والخطابُ موجَّهٌ إليهنَّ، وكذلك ما قبله وما بعده، لا يخالطُ أحدًا شكٌّ في ذلك، ولم يفهمْ منها أصحابُ النبيّ ﷺ والتابعون إلا أنّ أزواجَ النبيّ ﷺ هنّ المراد بذلك، وأنّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 538، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 478، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 103، وابن عاشور: 22/ 14.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 231.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 421.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 193.
(5) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 571، وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 3/ 462.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 193.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 384.

النزولَ في شأنهنّ، "وليس له بيتٌ يسكنه سوى سكناهنّ"[1]، وأمّا السيدةُ فاطمة وابناها وزوجُها ﭫ؛ فمجعولون أهلَ بيته بالسنّة بدعائه؛ فعن أمّ المؤمنين عائشة ﭬ وعن أبيها أنّها قالت: خرجَ رسولُ الله غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ فجاءَ الحسنُ فأدخله، ثم جاء الحسينُ فأدخله، ثم جاءَتْ فاطمةُ فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[2]، أي ألحقَ أهلَ الكساءِ بحكم هذه الآية، وجعلهم أهل بيته، كما ألحقَ المدينةَ بمكّة في حكم الحَرَميَّةِ، ومثله قَوْل النبي ﷺ: «سَلْمانُ مِنّا أهْلَ البَيْتِ»[3]، ويمكنُ عدّهم من أهلِ البيت بحمْلِ البيتِ في الآية على معنييه الحقيقي والمجازي، وكأنّ حكمةَ تَجْليلِهِمْ معه بالكساءِ تقويةُ استعارةِ البيت بالنسبة إليهم تقريبًا لصورة البيتِ بقدر الإمكان في ذلك الوقت؛ ليكونَ الكساء بمنزلةِ البيت، ووجود النبيّ ﷺ معهم في الكساء تحقيقٌ لكونِ ذلك الكساء منسوبًا إليه، وبهذا يتّضحُ أنّ أزواجَ النبيّ ﷺ هنّ آلُ بيته بصريحِ الآية، وأنّ فاطمة وابنيها وزوجَها مجعولون أهلَ بيته بدعائه، أو بتأويل الآيةِ على محاملها[4].

إيثار لفظ ﴿أَهْلَ﴾:

كمالُ تطهيرِ أمّهاتِ المؤمنين لأجلِ مقامِ النبيّ الكريم فهنّ أهلُ بيته

رغمَ أنّ الخطابَ لأزواج النّبيّ ﷺ، إلا أنّ البيانَ القرآنيَّ عبّر بلفظِ الأهلِ في قوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، ولم يقلْ: (أزواج النّبي أو نساء النّبي)؛ تفنّنًا في الخطاب، ولأنّ أساليبَ اللغة العربية التي نزلَ بها القرآن أنّ زوجةَ الرّجل يُطلق عليها أهل، وباعتبار لفظ الأهل يُخاطب مخاطبة الجمع المذكر،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 194.
(2) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ، رقم: (2424).
(3) الحاكم، المستدرك على الصحيحين: 3/ 691، الحديث رقم: (6539).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 15 - 16.

ومنه قوله تعالى في موسى: ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ [طه: 10] وقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ [النمل: 7] والمخاطبُ امرأته كما قاله غير واحد[1]، ومناسبةً للسياقِ فقد ذُكر فيه لفظُ البيوت في قوله تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وقوله ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فذِكْرُ البيتِ تجاذبٌ بين الألفاظ، كما أنّه حديثٌ عن كمالِ السَّتْر، فناسبَ ذكرُ لفظٍ يدلُّ على كمالِ السَّتر[2]، ولكونِ الخطابِ يشملُ مع أمَّهاتِ المؤمنين حضرةَ النبيّ ﷺ؛ لأنه ربُّ كلِّ بيتٍ من بيوتهنّ، وهو حاضرٌ هذا الخطاب؛ إذ هو مبلِّغُه، وفي هذا إيماءٌ إلى أنّ هذا التّطهيرَ لهنَّ لأجلِ مقامِ النبيّ ﷺ؛ لتكون قريناتُه مشابهاتٍ له في الزكاءِ والكمال[3]، وليشملَ الخطابُ كذلك مع أمّهات المؤمنين من ألحقَ النبيُّ ﷺ بهنّ وهم: فاطمة وابناها وزوجها وسلمان، ولا يعدو هؤلاء[4].

توجيه نصب ﴿أَهۡلَ﴾:

جبرُ كلفةِ العبادَة بلذّة المخاطبةِ وبالمدحِ وبالاختصاص

نَصْبُ ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ على النّداء المضاف[5]، والمعنى: يا أهلَ البيت، لطفًا بهم، أي: يا أهلَ بيت النبوّة، وفيه جبرٌ لكلفةِ العبادَة بلذّةِ المخاطبة[6]، أو على المدح؛ ثناءً عليهنّ، والمعنى: أمدحُ أهلَ البيتِ، أو بإضمارِ أعني، أي منصوبٌ على الاختصاص، أي أخصُّ أهلَ البيتِ دون غيرهم[7]، وهذا النداءُ أو المدح دليلٌ على أنّ نساءَ النبي ﷺ يدخلنَ في أهلِ البيت دخولًا أوَّليًّا؛ بقرينةِ سياقِ الآيات[8].

---

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 209.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12026.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 14.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 1.
(5) السيوطي، الإتقان: 2/ 313.
(6) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 355.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 384، وابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 151.
(8) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 208.

نكتة حذف حرف النداء في ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾:

خطابُ قربٍ وملاطفةٍ لأهل البيت الكريم

حذَفَ النّظمُ الحكيم حرفَ النّداء في قوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾؛ على تقدير نصب ﴿أَهۡلَ﴾ على النّداء، والمعنى: يا أهلَ البيت، ونكتةُ ذلك إشعارُ أهلِ البيت الكريم بالتّقريب والتّكريم، فكأنّ أهلَ هذا البيتِ في حضرةِ الملكِ القدّوس، وفي المكانةِ المتسامية، يُخاطَبون خطابَ القربِ والملاطفة[1].

دلالة تعريف ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾:

بَيْتُ أزواجِ النبيّ بيتٌ معلومٌ مشهور، لا ينصرفُ الذّهن إلى غيره

لامُ تعريف لفظ البيت في قوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ عهديّةٌ[2]، معهودها ذِكريٌّ؛ إذْ سبَقَ ذِكْرُ هذا البيت في قوله تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ والمراد به: بيتُ النبيّ ﷺ، وبيوتُ النبيّ ﷺ كثيرةٌ، فالمراد بالبيتِ هنا بَيْتُ كُلِّ واحِدَةٍ من أزواج النبيّ ﷺ، وكُلُّ بَيْتٍ مِنْ تلكَ البيوت أهْلُهُ النبيّ ﷺ وزَوْجُهُ صاحِبَةُ ذَلِك، ولِذَلِكَ جاءَ بَعْدَهُ قَوْلُهُ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[3]، و"ليس له ﷺ بيتٌ يسكنه سوى سكناهنّ"[4]، وهذا التّعريف العهديُّ يفيد أنه بيتٌ معلومٌ مشهور، لا ينصرفُ الذّهنُ إلى غيره[5].

نكتة الإضافة في قوله ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾:

إضافةُ تعظيمٍ وتشْريفٍ لأهل بيتٍ قائمٍ في العالمين رمزًا للطُّهر والهداية

إضافةُ لفظ ﴿أَهۡلَ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ إضافةُ تعظيمٍ وتشْريفٍ وتكريمٍ لأهلِ بيتِ النبيّ ﷺ، أي: يا أهلَ هذا البيتِ القائم في العالمين رمزًا للهدايةِ والرّشاد والطّهر والنّور[6].

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 295.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 193.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 14.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 194.
(5) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 296.
(6) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 296.

نكتة التعبير بلفظ ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾:

تكريمٌ وتشريفٌ واختصاصٌ عظيمٌ لبيتِ بيت رسول الله ﷺ

في التّعبير بلفظ ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ بدون وصفٍ للبيت ولا إضافةٍ؛ إيحاءٌ كلّه رقّةٌ وحنانٍ ورفق، فهو يسمّيهم ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ كأنّما هذا البيت هو ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ الواحدُ في هذا العالم، المستحقُّ لهذه الصفة، فإذا قيل ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ فقد عُرِفَ وحُدِّدَ ووصِفَ، ومثل هذا قيل عن الكعبة (بيت اللّه) فسمّيتِ البيت، والبيت الحرام، فالتعبيرُ عن بيتِ رسول اللّه ﷺ كذلك تكريمٌ وتشريف واختصاصٌ عظيم.

توجيه العطف بالواو:

جمعٌ بين مآلِ الإذهابِ وهو التّخليةُ ومآلِ التّطهيرِ وهو التّحلية

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾، والعطفُ جمعَ بين أنْ يُذهبَ عن أهلِ البيت الكريم لا محالةَ ما يَستهجنَّ، وأنْ يحلّيهم أجلَّ تحليةٍ بما يَستحسِنَّ، وفيه إيماءٌ إلى قبولِ أعمالهم وترتّبِ الآثار الجميلة عليها قطعًا، ويكون هذا خصوصيةً لهم ومزيةً على من عداهم، من حيث إنّ أولئك الأغيار إذا انتهوا وائتمروا لا يقطعُ لهم بحصول ذلك[1].

وكذلك فإنّ العطفَ يشيرُ إلى لطيفةٍ وهي أنّ الرِّجْسَ قد يزولُ عينًا، ولا يطْهُرُ المحلّ فلذلك عطفَ ليدلّ على كمالِ الإزالة والتّطهير، أي: يزيلَ عنكم الذُّنوبَ ويُلبِسَكم حُلَّةَ الكرامة[2].

نكتةُ تقديم إذهاب الرّجس على التّطهير:

تقديمُ التّخلية على التّحلية من أهمِّ قواعد تربيةِ النّفس

تقديمُ إذهابِ الرّجس عن أمّهات المؤمنين على تطهيرهنّ في قوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ إنّما هو من بابِ تقديمِ التّخليةِ من الذّنوب على التّحليةِ بالطّاعة، وهي من أهمِ قواعد تربيةِ النّفس.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 199.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 168.

إيثار لفظ التّطهير مضارعًا:

تـطـهـيـرُ أهـلِ البـيـت مستمرٌّ عـلـى الـدّوام لا ينقطع إكـرامًـا لهم

عبّر البيانُ القرآنيّ بلفظ التّطهير مضارعًا في قوله: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ للدّلالة على أنّ تطهيرَ اللّهِ لأهلِ البيت مستمرٌّ متجدّدٌ، وفي هذا مزيدُ تكريمٍ لأهل البيت، وعنايةٍ بهم، وأنّ تطهيرهم من الرّجس مستمرٌّ على الدّوام لا ينقطع.

بلاغة الاستعارة في لفظ التّطهير:

في الـتّرشـيـح بالتّطهير زيـادةُ ترغيبٍ بالطّاعة وتـنـفـيرٍ عـن المعصية

لـمّا استعارَ البيانُ القرآنيُّ للمعصيةِ الرِّجسَ، وهو القَذَرُ الذي يوسِخُ للإنسانِ جسدَه وثوبَه، استعارَ لضدِّ ذلكَ - أيَ للطّاعة وتجنّب الذنوب والنقائص - ما يناسبُ لفظَ الرّجس وهو التّطهير[1]، وهذا ترشيحٌ بالتّطهير "وهو مع كونه تَرْشيحًا للاسْتعارَة الأولى مُسْتَعار للتّقوى؛ لأنّ العِرْضَ معها نقيٌّ مصونٌ كالثوبِ الطاهر، كما أنّ عِرْضَ المذنبين يتلوّثُ ويتدنسُ بالمعاصي"[2]، وفي هذا ترغيبٌ لأصحابِ الطباع السليمة والعقول المستقيمة في الطاعة، وتنفيرٌ لهم عن المعصية فقال: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾، أي: يفعلُ في طهركم بالصيانة عن جميعِ القاذورات الحسيّة والمعنوية فعلَ المبالغِ فيه[3].

عود ضميري الخطاب في ﴿عَنكُمُ﴾ و﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾:

تغليبُ التّذكير إيـمـاءٌ إلى أنَّ تطهيرَهنَّ لأجلِ مقامِ النّبيِّ ﷺ

في الآية تَرْكٌ لخِطابِ المؤنَّثاتِ، فلم يقلْ: (عنكنّ)، وإيثارٌ لخِطابِ المذكَّرينَ؛ أي: جاء بالضَّميرينِ بصيغةِ جمعِ المذكِّرِ، على الرغم من أنّ ضَمِرَي الخِطابِ موَجَّهانِ إلى نساءِ النَّبيِّ ﷺ على سَنَنِ الضَّمائرِ الَّتي تَقَدَّمَتْ، وذلك على طريقةِ التَّغليبِ؛ لاعتبارِ النَّبيِّ ﷺ في هذا الخِطابِ؛ لأنَّه رَبُّ كلِّ بيتٍ من بُيوتِهنَّ، وهو حاضرٌ هذا الخِطابَ؛ إذ هو مُبلِّغُه، وفي هذا التَّغليبِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا التَّطهيرَ لهنَّ لأجْلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 14.
(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 356.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 347.

مقام النَّبيِّ ﷺ؛ لِتكونَ قريناتُه مُشابهاتٍ له في الزَّكاة والكمالِ، كما قال الله تعالَى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النّور: 26] يعني: أزواجَ النَّبيِّ للنَّبيِّ ﷺ، وهو نظيرُ قولِه في قصَّةِ إبراهيمَ: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ [هود: 73]، والمخاطَبُ زوجُ إبراهيمَ وهو معها[1]، ويَحتمِلُ كذلك أنّه عبّر بالمذكّر ليَدخُلَ فيه نساءُ أهلِ بيتِه ورجالُهم[2]، وهو يَعُمُّ غيرَ أزواجِه ﷺ؛ كعَليٍّ، وفاطِمةَ، والحَسَنِ، والحُسَين - رضي الله عنهم -[3]، وقد أجمَعَ أهلُ اللِّسانِ العربيِّ على تغليبِ الذُّكورِ على الإناثِ في الجموعِ ونحوِها[4].

المبالغةُ في تحليةِ أهلِ البيتِ الكريم بالتّقوى أو بالصَّوْنِ والحفظ

نكتة التعبير بالمفعول المطلق ﴿تَطۡهِيرٗا﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالمفعول المطلق ﴿تَطۡهِيرٗا﴾ الذي هو من جنسِ الفعل ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾؛ فالمصدر فيه معنى التوكيد[5]؛ لإفادةِ توكيدِ الارتقاءِ بمقام نساءِ النّبيّ ﷺ، والمبالغة في تحليتهنّ بالتّقوى، والمعنى: ويحلّيكم بالتّقوى تحليةً بليغةً فيما أمركم، أو المبالغة في الحفظِ والصَّوْنِ، والمعنى: ويصونكم من المعاصي الحسيّة والمعنوية صَوْنًا بليغًا فيما أمرَ ونهى جلَّ شأنه[6].

جماليَّةٌ في الجناسِ تحملُ السامعَ على الإصغاءِ وتؤكّدُ أهميةَ تطهير أهل البيت

بلاغة الجناس الاشتقاقي في ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ و﴿تَطۡهِيرٗا﴾:

بين اللَّفظين ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ و﴿تَطۡهِيرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ إذ يرجعُ اللفظان إلى جذرٍ لغوي واحد هو (طهر)، إلّا أنّ ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾ أتى فعلًا بصيغةِ المضارع، و﴿تَطۡهِيرٗا﴾ أتى بصيغةِ المصدر المؤكّد، ممّا يعطي جماليَّةً في السمعِ، ويحقّقُ عذوبةً وترنّمًا، بما يحملُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير التنوير: 22/ 41.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 168.
(3) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية: 4/ 23.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 6/ 238.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 182.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 347، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 193.

السامعَ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وضوحًا ويساعدُ على ترسّخهِ في الذّهن، ويؤكِّدُ أهميّةَ الطهارة التي طهّر اللّهُ بها أهلَ البيت، فهي طهارةٌ بليغةٌ مستمرّةٌ متجدّدةٌ لا انقطاع لها.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(قَرْنَ) و(امْكُثْنَ) و(أَقِمْنَ) و(الْبَثْنَ) و(الزَمْنَ):

في (قَـرْنَ) معنى الـقـرارِ والـوقـارِ وهـذا يتناسبُ مع مقام أمّهات المؤمنين

فعلُ (قَرْنَ) أوسعُ دلالةً من غيره من الألفاظ؛ إذ يمكن أنْ يكونَ من القرار، ومعناه التمكّنُ والجلوسُ والسكونُ والاطمئنانُ والاستقرارُ في المكان والثبوتُ فيه[1]، ويمكن أنْ يكون من الوقار، ومعناه السكونُ والحلمُ والرَّزانَةُ[2]، أمّا (امكثْنَ) فيدلّ على التوقّف والأناة والإقامةِ والثَّباتِ مَعَ الِانْتِظارِ[3]، وعلى اللَّبْثِ والتَّلَبُّث في المَكانِ زَمَنًا كالمقيم الثابت[4]، وأمّا (أقِمْنَ) من الإقامةِ، وأصلُه يدلّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ[5]، ويعبّرُ به عن الدّوام والاستقرارِ والثباتِ في المكان واتخاذه وطنًا[6]، وأمّا (البَثْنَ) فمن اللَّبثِ وهو المُكْثُ والإقامةُ[7]، فاللَّبْثُ أخصُّ من الإقامة، إذ يدلُّ على الإقامة الطويلة[8]، وأمّا (الزَمْنَ) فمن اللُّزوم، ويدلُّ على مصاحبةِ الشيء بالشيء دائمًا، وعدم مفارقته له، ويدلّ على طولِ المكثِ والإقامة، وعلى الثبوتِ والدّوام[9].

وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (قَرْن) لاتّساع دلالته، ولكونه أليقَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرّ)، وابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (قرر).

(2) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (مكث).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مكث).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).

(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيومي، المصباح المنير: (قوم).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لبث).

(8) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لبث).

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (لزم).

مع مقامِ أمّهات المؤمنين؛ إذ فيه معنى القرارِ والوقار، فيكون معنى ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: أي: اسكنّ واثبتْنَ والتزمْن بيوتكنّ وامكُثْنَ دائمًا فيها، وكنّ أهلَ وقارٍ وسكينة، ولا تخرجنَ إلا لحاجة(1).

التبرّج والتَّجَمُّل والتَّزيّن:

التبرّجُ منهيٌّ عنه بخلاف التّجمّل والتّزيّن فهما مندوبٌ إليهما

التَّبَرُّجُ منهيٌّ عنه، أما التّجمّلُ والتزيّن فمندوبٌ إليهما؛ فالتبرّجُ هوَ إظْهارُ المَرْأةِ مَحاسِنَها لِلرِّجالِ، وما يُسْتَدعَى بِهِ شَهْوَةُ الرَّجُلِ، فإذا أبدتِ المرأة مَحاسِنَ جيدِها ووَجْهِها قيلَ: تَبَرَّجَتْ(2)، وقيل التّبرّج: ظهورُ المرأة من بُرْجها، أي: قصرها(3)، أمّا التجمّلُ فهو تكلّفُ الحُسْنِ والجمالِ، والجمالُ هو البهاءُ والحُسْنُ الكثير والتّمامُ، ويكونُ في الفِعْلِ والخُلُق، وفي الصّوَرِ والمَعاني، وفي الحَديثُ: «إن الله جَميلٌ يُحبُّ الجَمال»(4)، أي: حَسَنُ الأفعالِ كاملُ الأوصاف، منْهُ تَفيضُ الخَيراتُ الكَثيرَةُ فيُحبّ مَنْ يَخْتَصُّ بذلك(5)، وأمّا التزيّن فهو تحسينُ الشيءِ بغيرِه من لِبسة، أو حِلية، أو هَيئة(6)، وهو التّحلّي بحلية مُجتَلَبةٍ تقليدًا لِما هو ناشئٌ من البدن، كالتّجمّل بالأصباغِ ونحوها، فالزينةُ هي الحِلْيةُ الظاهرة(7)، والزينةُ الحقيقيّة: ما لا يَشينُ الإنسانَ في شيءٍ من أحوالِه لا في الدُّنيا ولا في الآخرة(8)، واستعمالُ لفظ التبرّج لمناسبته للسياق الذي ورد فيه النّهي عمّا لا يليقُ بأمّهات المؤمنين، فنَهاهُمّ عن الخضوعِ بالقول، وعن إظهارِ الزينة أمام الرجال.

الرِّجْس والرِّجْز:

الرِّجْسُ والرجزُ لغتان، وأُبدِلَتِ السّينُ زايًا، ومعناهما واحدٌ؛

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 259، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقر)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 102.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (برج).

(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (برج).

(4) صحيح مسلم، رقم الحديث: (91)، ومسند أحمد، رقم الحديث: (3789).

(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جمل).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زين).

(7) جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (زين).

(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).

الرِّجْسُ أخلاطٌ من أعمالٍ تؤدّي إلى العذابِ طهّرَ اللهُ منها أمّهات المؤمنين

وهو القَذَرُ والعذابُ والعقابُ وما يؤدّي إليهما[1]، لكن يمكن التّفريق بين الرِّجس والرِّجز في الأصل اللُّغَويِّ لهما؛ فالرِّجْسُ في أصله يدلّ على الاختلاط، ومنه القذر؛ لِأَنَّهُ لَطْخٌ وخَلْطٌ[2]، وكلّ ما استُقْذِرَ من العَمَل المُؤَدّي إِلَى العَذاب والعِقاب والغَضَب فَهوَ رِجْس[3]، ويُطلَقُ على الكفرِ والشكّ ووسوسةِ الشيطان، وكلّ هذا يؤدّي إلى العذاب[4]، أمّا الرِّجْزُ فيدلّ في أصله على الاضطراب، والرِّجْزُ هو العذاب، ويطلقُ على عبادةِ الأوثان، وما يدعو إلى الكفر والبهتان والفساد[5]، وقد استُعمِل الرِّجْسُ هنا تناسبًا مع السّياق الذي ورد فيه النَّهيُ عن أخلاطٍ من الأعمالِ المؤدّية إلى العذاب، والتي لا ترضي اللّه تعالى، ولا تليقُ بأمّهات المؤمنين.

التّطهير والتّنقية:

تـطـهـيرُ أهـلِ البيت بزوالِ أيِّ دنسٍ ماديًّا كان أو معنويًّا عنهم أبلغُ

التّطهيرُ أبلغُ من التّنقية؛ فالتّطهيرُ هو زوالُ الدَّنَس، والتَّنَزّهُ والتَّنظُّفُ من النَّجاسة ومن كلّ قبيح[6]، والتّطهيرُ يشملُ طهارةَ الجسم عن النَّجاسة والدَّنَس، وطهارةَ النفسِ بتَنَزُّهِها وكَفِّها عن الآثام وما لايُحمد[7]، فالطهارةُ هي النَّقاء ممّا يُتَأذَّى به من الأدْرانِ الماديّة والمعنويَّة[8]، أمّا التّنْقيةُ: فهي تنْظيفُ الشَّيءِ وتخليصُه ممّا به[9]، وتُستعملُ غالبًا في الأشياء المادّية، ومن هنا كان استعمالُ لفظ التّطهير في الآية أنسبَ؛ كونه أبلغَ في زوالِ كلّ دَنَسٍ عن أهلِ البيتِ ماديًّا كان معنويًّا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجز)، والجوهري، الصحاح، والرازي، مختار الصحاح: (رجس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجس).
(3) الكفوي، الكليات، ص: 465، وأحمد مختار عمر، اللغة العربية المعاصرة: (رجس).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رجس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رجز).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (طهر).
(7) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طهر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نقي).

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عَودٌ على بدءٍ من تذكيرِ أمّهاتِ المؤمنين بمكانتهنَّ وامتيازهنَّ على النّساء

ختمَ البيانُ القرآنيُّ توجيهاته لنساءِ النبيّ ﷺ بمثلِ ما بدأها به؛ بتذكيرهنّ بعلوِّ مكانتهنَّ، وامتيازهنَّ على النّساء، وبمكانهنّ من رسولِ اللّه ﷺ، وبما أنعمَ اللّه عليهنَّ، فجعلَ بيوتهنّ مهبطَ القرآن، ومنزلَ الحكمة، ومشرقَ النّورِ والهدى والإيمان.

وهذا التّذكيرُ يجيءُ كذلك في ختامِ الخطابِ الذي بدأ بتخيير نساءِ النبيّ ﷺ بين متاعِ الحياةِ الدنيا وزينتها، وإيثارِ اللّه ورسوله والدّار الآخرة؛ لتبدوَ جزالة النّعمة التي ميّزهنّ اللّهُ بها، وضآلة الحياةِ الدنيا بمتاعها كلّه وزينتها.

العظمةُ والمكانةُ الرَّفيعةُ تقتضي التَّحلّي بأسبابها بدراسةِ القرآنِ والسُّنّة

لمّا ضَمِنَ اللّهُ لنساءِ النبيّ ﷺ العظمةَ والمكانةَ الرَّفيعةَ؛ أمرَهُنَّ بالتَّحلّي بأسبابها، والتَّملّي من آثارها، والتَّزودِ من علم الشَّريعة بدراسةِ القرآن؛ ليجمعَ ذلك اهتداءَهنَّ في أنفسهنَّ ازديادًا في الكمالِ والعلم، وإرشادَهنَّ الأمةَ إلى ما فيه صلاح لها من علم النبيّ ﷺ[1].

كمالُ التّشريفِ يقتضي كمالَ التّكليفِ

بعْدَ أنْ أمرهنَّ بإقامةِ الصّلاة وإيتاءِ الزكاةِ وإطاعة اللّهِ ورسوله وغير ذلك ممّا هو فعلٌ وتركٌ؛ أشارَ بعدها إلى أنَّ التَّكاليفَ غيرُ منحصرةٍ في ذلك، فأمرهنَّ بالعِلم، وبيَّنَ لهنَّ طَريقَه؛ بتعلُّم الواجباتِ كلِّها الواردةِ في القرآنِ والسُّنّة؛ ليأتينَ بها، وتعلّم المحرّماتِ بأسرها فينتهينَ عنها، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 18.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 168، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 663.

الإنعامُ بما هو من آثارِ إذهابِ الرّجس والتّطهير بكونِ بيوتهن مهبطَ الوحي القرآني

لمّا ذكرَ ما فيه رفعة مكانةِ أمّهاتِ المؤمنين إلى أنْ ختمَ بالتّطهير؛ أتبعهُ التّذكير بما أنعمَ سبحانه به، ممّا أثرهُ التّطهير من التّأهيل لمشاهدةِ ما يتكرّرُ من تردّدِ الملائكةِ بنزولِ الوحي الذي هو السببُ في كلّ طُهرٍ ظاهرٍ وباطن؛ فقال - مخصّصًا من السياق لأجلهنّ، منبّهًا لهنّ على أنّ بيوتهنّ مهابطَ الوحي ومعادن الأسرار -: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾: (ذكر) ذَكَرْتُ الشيءَ: خِلافُ نَسيتُهُ، ثم حُملَ عليه الذِّكْرُ باللسان، ويقولون: اجْعَلْهُ منكَ على ذُكْرٍ - بضمّ الذال -، أي لا تَنْسَهُ[2]، والذِّكْرُ: الحِفْظُ للشيءِ تَذْكُرُه، والذِّكْرُ أيضًا: جَرْيُ الشيءِ على لسانك، وأذْكَرَهُ إيّاه: ذَكَّرَهُ، والاسمُ الذِّكْرَى، أي: اسم للتّذكير[3]، ومعنى ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾ في الآية يجوز أنْ يكون من التّذكّر، وهوَ أنْ لا يَنْسَيْنَ ما جاءَ في القُرآنِ ولا يَغْفُلْنَ عَنِ العَمَلِ بِهِ، ويجوز أنْ يكون من الذِّكْرِ، أيْ: بَلِّغْنَهُ لِلنّاسِ بطريقِ العظةِ والتّذكير؛ بأنْ يَقْرَأْنَ القُرْآنَ ويُبَلِّغْنَ أقْوالَ النَّبي ﷺ وسيرَتَهُ[4].

2) ﴿يُتۡلَىٰ﴾: (تلو) أصلٌ واحدٌ وهو الاتّباع، تَلَوْته تُلوًّا: تَبِعْتُهُ، ومِنْهُ تِلاوَةُ القُرْآنِ، لِأنَّهُ يُتْبِعُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ[5]، والتلاوةُ: القراءةُ، وقيل القراءةُ من مكتوب، ثم عُمّم في القراءةِ عن ظهرِ قلبٍ، أي: من غير المكتوب[6]، والتِّلاوَةُ تَخْتَصُّ باتّباعِ كُتُبِ الله المُنْزَلَةِ تارَةً بالقِراءَةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 347.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ذكر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (تلو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (تلو).

وتارَةً بالارْتِسام لما فيهِ مِن أمْرٍ ونَهْيٍ وتَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ، أو ما يُتَوهّمُ فيهِ ذلِكَ[1]، والمقصودُ بـ﴿يُتۡلَىٰ﴾: يُقرأ[2].

3) ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾: (حكم) أصلٌ وهو المنعُ، وأوّلُ ذلك الحُكْم هو المنعُ من الظلم، والحكمةُ هذا قياسها؛ لأنّها تمنعُ من الجهل[3]، والحِكْمةُ: إصابةُ الحقِّ بالعلم والعقل، وقيل: الحِكْمَةُ عِبارَةٌ عَنْ مَعْرِفَةِ أفْضَلِ الأشياء بِأفْضَلِ العُلوم، فالحكمةُ من اللّهِ تعالى: علمُ الأشياءِ وإيْجادُها على غايةِ الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجوداتِ وفعلُ الخَيْرات، واستعملها القرآنُ بعدّة مَعانٍ منها: النبوّة، والقرآن والتوراة والإنجيل، وطاعة اللّه، والفهم[4]، والمراد بالحكمة في الآية: ما أوحيَ إلى رسول اللّه ﷺ من أحكامِ دين اللّه، ولم ينزلْ به قرآن، وذلك: السُنّة[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

كونِ بيوتِ نساء النبيّ موقعَ مهبط الوحي نعمةٌ عظيمةٌ تترتّبُ عليها عِظَمُ مسؤوليّة التّبليغ

يذكُرُ الحقُّ ﷻ في ختام خطابِ أزواجِ النَّبي ﷺ نعمةَ اللّه عليهنّ؛ بأنْ جعلهنَّ في خيرِ بيوتٍ؛ لأنّها مهابطُ الوحي، وفيها تُتْلى آياتُ اللّه والحكمة، فعليهنَّ أنْ يتذكرنَ نعمةَ اللّه فيشكرْنَ اللّهَ ويحمَدْنَه على ذلك، وأنْ يَذكُرنَ بالتِّلاوة والحفظِ والتّذكير ما يُقرأ في بيوتهنّ من آياتِ اللّه والحكمةَ؛ وهي ما أوحيَ إلى رسولِ اللّه ﷺ من أحكام دين اللّه، ولم ينزلْ به قرآن، وذلك السُنّة، ويختمُ بتأكيدِ المنّة عليهنّ بقوله: إنّ اللّهَ المتَّصِفَ أزَلًا وأبدًا باللُّطفِ، المتضمِّنِ عِلمَه بالأشياءِ الدَّقيقةِ كان ذا لطفٍ بكنَّ؛ إذْ جعلكنَّ في البيوتِ التي تُتلى فيها آياتُ اللّه والحكمة، خبيرًا بكنَّ إذِ اختاركنَّ لرسولِه أزواجًا[6].

(1) الراغب، المفردات: (تلو).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 267.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 268، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 416.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 268، وصديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 11/ 89.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

أمرٌ إلهيٌّ لنساءِ المؤمنين بالعِلمِ وبيانٌ لطريقه بعد أمرهنّ بالعَمَلِ

عطَفَ البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ على جملة: ﴿وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾[1]، وما بينهما وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ جملةٌ اعتراضيّةٌ تعليليّةٌ بين الأوامرِ والنّواهي المتعاطفة[2]، وكذلك أخّر المعطوف ليكونَ كالخاتمةِ الَّتي تشتملُ على التَّخلصِ إلى شروعِ نوعٍ آخر من الكلام[3]، وهو توجيهُ الخطاب لكلّ المسلمين المتّصفين بما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ﴾ بعد أنْ توجّهَ بالخطابِ لنساءِ النبيّ ﷺ، أو أخّره لكونه تقريرًا لِما قبله من الأمرِ والنهي[4].

وهذا العطفُ بين الأوامر الإلهيّة لأمّهات المؤمنين يضيفُ أمرًا جديدًا على الأوامر السابقة، وهو أنّه قد أمرهنّ بالعِلم، وبيَّنَ لهنَّ طَريقَه بعد أنْ أمرهنّ بالعَمَلِ الَّذي هو فِعلٌ وتَركٌ[5].

دلالة استعمال الفعل ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾:

الـذّكـرُ كلمةٌ جامعةٌ شاملةٌ لمعانٍ تستوجبها عِظَمُ مكانةِ أمّهات المؤمنين

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ مادَّةِ الذّكرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ لِما لها في الآية من موقعٍ شريفٍ؛ لِتَحمُّلِها عدّة محاملَ[6] لا تناقضَ بينها ولا تعارضَ، بل يكمّلُ بعضها بعضًا، ممّا لا يَتحمَّلُه غيرُها إلّا بإطنابٍ، أي: لاتّساع دلالتها، وبيانُ ذلك بكون الفِعل ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ من الذُّكرِ - بضَمِّ الذّالِ - وهو التَّذكُّرُ، وهذه كلِمةٌ جامعةٌ تَشملُ المعنى الصَّريحَ منه، وهو ألّا يَنْسَيْنَ

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 17.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 14.
(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 356.
(4) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 357.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 663.
(6) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 4/ 347، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 479.

ما جاء في "آيات كتابه تعالى، وسنّةِ نبيّه اللّتين فيهما حياةُ الأنفسِ وسعادتها وقوام الآداب والأخلاق، وذكرُ ذلك مستوجبٌ لتصوّر عظمته ومكانته وثمرةِ منفعته، وذلك يجرّ إلى العمل به"(1)، ويَشملُ المَعنى الكِنائيَّ؛ وهو أنْ يُرادَ مُراعاةُ العَملِ بما يُتْلى في بُيوتِهِنَّ ممّا يَنزِلُ فيها، وما يَقرَؤُه النَّبيُّ ﷺ فيها، وما يُبيِّنُ فيها مِن الدّين، أي: "أرادَ ذلك تعبيرًا عن المسبّب باسم السبب"(2)، ويَشملُ معنًى كِنائيًّا ثانيًا؛ وهو تَذكُّرُ تلك النِّعمةِ العظيمةِ أنْ كانتْ بُيوتُهنَّ مَوقعَ تِلاوةِ القرآنِ، وهذا "يوجبُ قوّةَ الإيمانِ والحرصَ على الطّاعة؛ حثًّا على الانتهاءِ والائتمار فيما كُلّفنَه"(3).

ويجوزُ أنْ يَكونَ مِن الذِّكرِ - بكَسرِ الذّالِ - وهو إجراءُ الكلامِ على اللِّسانِ، أي: بلِّغْنَهُ للنّاسِ؛ بأنْ يَقرَأْنَ القرآنَ، ويُبلِّغْنَ أقوالَ النَّبيِّ ﷺ وسيرتَه، وفيه كِنايةٌ عن العَملِ به(4).

وكذلك فإنّ الذِّكر ضدُّ النسيان(5)، فهو استحضارُ الأمرِ واستدعاؤه وعدمُ نسيانه، وجعله على البال دومًا، والذّكرُ أخفُّ العباداتِ وأيسَرُها على النّفس، فلا يمنعُ منه سَعْيٌ ولا عملٌ، فهو يجري على اللسان في أيٍّ وقت، وعلى أيّ حالٍ وبدون استعدادٍ، وهو كذلك أثقلُ العبادات في الميزان قال تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: 45](6)، وهو الأنسبُ مع السياق الذي امتُدِحَ فيه المُتَّصِفون بالذّكر الكثير قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ وخُتِمَ به لكونِ كلّ الأعمال التي سبقته تستلزمه.

وجه التّعبير بصيغةِ الأمرِ في ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾:

التّعبيرُ بصيغةِ الأمرِ الذي يقتضي وجوبَ الذّكرِ بجميع معانيه السابقة، يدلُّ على وجوبِ ما يصدقُ عليه الأمر مِن امتنانِ اللّه عليهنَّ بهذه النّعمةِ، ووجوب شكره عليها، إذ أكرمهنّ فجعلهنَّ أزواجًا لرسولٍ كريم يتلقّى الوحيَ من ربّه، ومن وجوبِ تدبّره والتّفكّر

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 75.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 75.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 231.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 18 - 19.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ذكر).
(6) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12027 - 12028.

فيه والعملِ به، ومن وجوبِ حفظه وقراءته وتبليغه إلى النّاس[1]، وتفيدُ صيغةُ الأمر الاستمرارَ، والمعنى: "واذكرنَ في أنفسكنّ ذكرًا متّصلًا، وذَكِّرْنَ غيرَكنَّ على سبيلِ الإرشاد، بما يُتلى في بيوتكنّ من آياتِ اللّه"[2].

الذّكرُ والتّذكّرُ لما يُتلى من القرآن والسُّنّة واجبٌ على أمّهاتِ المؤمنين

وجه إيثار ﴿مَا﴾ الموصولة دون الاسم الظاهر:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ وصلته ﴿يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ دون الاسمِ الظاهر، فلم يقلْ: (واذكرنَ المتلو في بيوتكنّ)؛ للاهتمامِ والعنايةِ بصلته التي هي مناطُ الحكم، والزيادة في تقريرِ مضمونها وتفخيمه، ولِما في الصلةِ من الإيماءِ إلى أنّ المذكورَ شيءٌ مهمٌّ وعظيم وهو: آياتُ اللّهِ الدّالَّةُ على إعجازِ قرآنه، وما اشتمله من أحكام وحِكم، أو آياتُ القرآن والسُّنّة.

في الموصوليّة عمومٌ لكلّ ما يُتلى وإيماءٌ إلى أنّ المتلوّ شيءٌ مهمٌّ وعظيمٌ

ويفيدُ التعبيرُ بالموصوليّةِ هنا أيضًا العمومَ، والمعنى: واذكرنَ كلّ الذي يُتلى في كلّ بيتٍ من بيوتكنَّ من آياتِ اللّهِ والحكمة، سواءٌ كان قليلًا أو كثيرًا، وسواءٌ كانتِ التّلاوة من رسولِ اللّه أو منكنّ أو من أي أحدٍ من الصحابة، وسواءٌ كان يتعلّقُ بالجوانب العَقَديَّة، أو التّشريعيّة، أو الأخلاقيّة في آياتِ اللّه وسُنّةِ نبيّه ﷺ، وفي هذا تنبيهٌ لنساءِ النبيّ ﷺ على ضرورةِ استغلالِ أفضل الفرص التي تُتاحُ لهنّ في سبيلِ الإحاطةِ بحقائق الإسلام والعلم بها وبأبعادها.

وفي ﴿مَا﴾ أيضًا إبهامٌ فسّره صلةُ الموصول بعدها، وفي مجيئها مبهمةً تشويقٌ لمعرفةِ المبهَم، وهو المتلوُّ في بيوتِ نساء النبيّ ﷺ.

إيثار لفظ التلاوة دلالة وصيغة:

وجوبُ إكثارِ أمّهات المؤمنين مِن الذِّكرِ والتَّذكيرِ وتَمكُّنِهنّ فيه

آثرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ﴾ لفظَ التِّلاوةِ في البُيوتِ دونَ النُّزولِ فيها، معَ أنَّ التّعبيرَ بالنّزولِ فيهِ تشريفٌ بِكَونِها

---

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 490.

(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 209.

مَهبِطَ الوحْيِ؛ لِعُمومِها لِجَميعِ الآياتِ، ووُقوعِها في كلِّ البيوتِ؛ بما يدلُّ على وجوبِ كثرةِ ذكرِهنَّ لكلِّ ما يُتلى من آياتِ اللّه وسُنّة رسوله ﷺ، ولو عبّر بالنّزولِ لاقتصرَ الأمرُ على أنْ يذْكُرن ما يتنزّلُ في بيوتهنّ فقط، كما أنّ التلاوةَ تعني "إعادة كلامٍ مكتوبٍ أو محفوظ"[1]، فالقارئُ يتلو بعضَ الكلامِ ببعض، وفي هذا التَكرُّرِ للآياتِ إيجابٌ لِتَمكُّنِهنَّ من الذِّكرِ والتَّذكيرِ، بخِلافِ النُّزولِ[2].

وجوبُ الذّكر والتّذكّر من نساءِ النبيّ لكلِّ ما يُتلى في بيوتهنّ

وآثرَ التّعبيرَ بصيغةِ المبني للمفعولِ ﴿يُتْلَىٰ﴾، أي: لم يعيّن التّالي؛ لِتَعُمَّ تِلاوةَ جِبريلَ، وتِلاوةَ النَّبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتِلاوتَهنَّ، وتِلاوةَ غيرِهنَّ؛ تَعليمًا وتَعلُّمًا[3]، فلو أتى بالمبني للمعلوم لقيّده بتالٍ واحد فقط، وكذلك للتَّركيز على الحدثِ ذاته، أي: تلاوة الآياتِ والحكمة، وحصر الوعي فيه، فلا يتوزّع في غيره؛ لعدمِ تعلّق غرضِ الآيات بشخصِ التّالي.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾:

بيوتٌ شريفةٌ تمكّنت فيه آياتُ اللهِ وسُنّةُ نبيّه

جاء حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بمعنى الظّرفيّة الحقيقيّة المكانيّة؛ لتشيرَ إلى شرفِ هذه البيوت التي تمكّنتْ فيها آياتُ اللّه وسُنّة نبيّه ﷺ، لتكونَ بذلك منارَ هدايةٍ للأمّةِ ومقصدَ النّاس طلبًا للهداية.

نكتة تقييد المتلوّ بـ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾:

مَن جُعلت بيوتهنّ موطنًا لنزولِ القرآنِ والحكمة أحقُّ بالتّذكير وبالعملِ الصالح

قيَّدَ البيانُ القرآنيُّ المتلو بالجار والمجرور ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾؛ تعيينًا لهذهِ البيوتِ الشريفةِ، بيوتِ نساءِ النبيّ ﷺ؛ إذ يمكنُ أنْ يقول: (واذكرنَ ما يُتلى من آياتِ اللّه والحكمة)، وفي هذا التّعيين إشارةٌ إلى أنّهنّ - وقد خصّهنّ اللّه تعالى بجعلِ بيوتهنّ موطنًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 18.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 103.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 103.

لمهبطِ الوحي ونزولِ القرآن ولنزولِ الحكمة - أحقُّ بهذا التّذكير، وبالعملِ الصالح من غيرهن[1]، وهذا التّقييد كذلك يناسبهُ قوله تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فالقرارُ في مركزِ نورِ القرآن يجعلكنّ قادراتٍ أكثرَ من غيركنّ على أنْ تستفدنَ كثيرًا من الآياتِ التي تدوّي في فضاءِ بيتكنّ، ومن تعليماتِ الإسلام وحديث النّبي ﷺ الذي كان يتحدّث به؛ فإنّ كلّ نَفَسٍ من أنفاسهِ درسٌ، وكلَّ لفظٍ من كلامه برنامجُ حياة.

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾:

في الاهتمامِ ببيوت أمّهات المؤمنين مبالغةٌ في أمرهنّ بتبليغِ ما يُتلى في بيوتهنّ

قدّم البيانُ الحكيم شبهَ الجملة ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾؛ اهتمامًا بهذه البيوتِ الشريفة، وأنّها المعنيّة بالتّلاوة فيها، والمعنى: واذكرنَ هذه النّعمة التي كُرِّمْتُنَّ بها من بين الناس، وهي أنّ الوحيَ ينزلُ في بيوتكنّ دون سائرِ النّاس، وعائشة الصديقة بنت الصديق أَوْلاهُنَّ بهذه النّعمة، وأحظاهنّ بهذه الغنيمة والرّحمة العميمة، فإنّه لم ينزلْ على رسولِ اللّه ﷺ الوحيُ في فراشِ امرأةٍ سواها، قال ﷺ: «يا أمَّ سلَمةَ لا تُؤْذيني في عائشةَ، فإنّه واللّهِ ما نزلَ عليّ الوحيُ وأنا في لحافِ امرأةٍ منكنّ غيرِها»[2]، وفيه كذلك توكيدٌ ومبالغةٌ في أمرهنّ بتبليغه؛ لأنّ تلاوته في بيوتهنّ مَظِنّةٌ لاختصاصهنّ بسماعه عن غيرهنّ من النّاس، فينبغي أنْ يكون وُجوبُ تبليغه عليهنّ وجوبَ فرضِ العين، لا وجوبَ فرضِ الكفاية[3].

معنى ﴿مِنۡ﴾ في ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

بيانٌ لما أُبهِمَ في الاسمِ الموصول من المتلوّ الواجبِ تذكّره والتّذكير به

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بيانيَّةٌ؛ أي: بيانٌ لما يُتلى فكلُّ ذلك متلوٌّ، وذلك القرآن، وقد بيّن المتلوّ بشيئين: هما آياتُ اللّه،

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 20.

(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها، حديث رقم: (3775).

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 296.

والحكمة[1]، أي: هي بيانٌ لِما أُبهمَ في الاسم الموصول ﴿مَا﴾ فيتعلَّقُ بـ(أعني) المقدّرة[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالآياتِ دون الكتابِ:

الآياتُ علاماتٌ دالّةٌ على إعجازِ القرآن ونزوله مفرّقًا

آثرَ البيانُ الحكيمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ءَايَٰتِ﴾ دون لفظ (الكتاب) في قوله تعالى: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ إمّا لأنّ القرآنَ نزلَ منجّمًا على آياتٍ متفرّقة، ولم ينزلْ دفعةً واحدةً، أو أنّ المقصودَ بالآياتِ هي العلاماتُ الدّالّةُ على إعجازِ القرآن، وعُبِّر عنها بلفظ آياتِ القرآن؛ لأنّها استكملتْ كُنْهَ الآياتِ باشتمالها على عظمِ الدّلالة على الحقّ، وإذ هي معجزاتٌ بنظمها ولفظها[3]، وهذا يناسبُه التعبيرُ بلفظِ الآية التي معناها في اللغة العلامةُ والبرهانُ والمعجزةُ، وبذلك يكون التعبيرُ بلفظِ الآية إشارةً إلى إعجازِ القرآن، ثم إنّ التعبير بلفظ ﴿ءَايَٰتِ﴾ أنسبُ للسياق الذي ورد فيه فعلُ التلاوة ﴿يُتۡلَىٰ﴾ فالتلاوةُ هي التتابعُ، وهذا يناسبُ تتابعَ نزول الآيات.

دلالة جمع الـ﴿ءَايَٰتِ﴾:

التّكليف لنساءِ النبيّ بذكرِ آياتِ اللهِ الكثيرةِ المتعدّدة دليلٌ على عظيمِ مسؤوليّتِهنَّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ءَايَٰتِ﴾ جمعًا في قوله تعالى: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على كثرةِ هذه الآيات وتعدّدها وعِظَمِها، وهذا هو الموافقُ للواقع فإنّ المنزّلَ على رسولِ اللّه هو آياتٌ كثيرةٌ متعدّدةٌ؛ سواءٌ قُصد بها القرآن أو العلامات الدّالّة على إعجازه، وفي هذا التّكليفُ لنساء النبيّ ﷺ، والإيجابُ بذكرِ آياتِ اللّه الكثيرةِ المتعدّدة، وتذكّرها والتّذكير بها، وفي هذا دليلٌ على عظيم مسؤوليتهنّ.

سرُّ تعريف الآيات وإضافتها:

عرّفَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ءَايَٰتِ﴾ بإضافتها إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لِما في الاسمِ الجليلِ من التّذكيرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 18.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 124، والدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 483.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 70.

بأنّه حقيقٌ بأنْ لا تُغفَلَ آياتُه، وتأكيدًا لاستحقاقِ أمّهاتِ المؤمنين للمكانةِ العظيمة؛ إذ ما يُتلى في بيوتهنّ هي آياتُ اللّه سبحانه، وفي الإضافةِ تشريفٌ وتعظيمٌ للآياتِ بالنّظرِ للّذي أنزلها ونُسِبتْ إليه، وتنبيهٌ وتحريضٌ وتهييجٌ لأمّهاتِ المؤمنين للقيامِ بوظيفتهنّ التي شرّفهنّ بها اللّهُ من ذكرِ هذه الآياتِ، والاتّعاظِ بها وتبليغها للنّاس.

تعظيمُ اللهِ وتربيةُ مهابتِهِ في النّفوس أعظمُ دافعٍ لئلّا تُغفلَ آياتُه

توجيه العطف بالواو:

عطْفُ لفظِ ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ على ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾: إمّا عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ، باعتبارِ كون معنى ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: تعمّ القرآنَ كلّه؛ لأنّه معجزٌ عن معارضته، فكان آيةً على أنّه من عند اللّه، ومعنى الحكمة: ما في القُرآنِ من مَواعظَ وأحكام شرعيَّة؛ بدلالة قوله تعالى - بعد ذكر الأحكام التي في سورة الإسراء -: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الإسراء: 39][1]، أو عطفُ صفةٍ على صفةٍ، والعطفُ راجعٌ إلَى تغايرِ الوصفين[2]، والمعنى: اذكرنَ للنّاس من الكتابِ الجامعِ بين وصفين؛ كَوْنَهُ آياتِ اللّهِ البَيِّنةَ الدّالَّةَ على صدقِ النُّبوّةِ بنظمِه المُعجزِ، وكونَهُ حكمةً منطويةً على فُنونِ العلومِ والشَّرائعِ[3].

القرآن كتابٌ جامعٌ بين كونه آياتِ اللهِ البيّنةِ، وكونه حكمةً منطويةً على فُنونِ العلومِ والشَّرائعِ

أو أنّ المراد بـ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآنُ الكريم، عُطفَ عليه ما هو أعمُّ منه؛ بيانًا لشدّةِ الاهتمامِ بالحكمةِ بإدخالها في جملة المتلوّ؛ اعتمادًا على أنّ العاملَ فيه معروفٌ؛ لأنّ التلاوةَ لا تُقال في غيرِ الكتاب، والمعنى: ويبثُّ وينشرُ من العلمِ المزيّنِ بالعملِ، والعملِ المتقنِ بالعلم[4]، أو هو عطفُ الصِّفةِ على الموصوف، فالحكمةُ من أوصافِ القرآن، قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 18.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 357.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 103.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 348.

[يونس: 1][1]، أو هو عطفُ السُّنّة على القرآن، باعتبارِ أنّ معنى الحكمة: "ما أوحيَ إلى رسول اللّه ﷺ من أحكامِ دينِ اللّه، ولم ينزلْ به قرآن، وذلك السُّنّة"[2]؛ من أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته[3]، وذلك أولى[4].

دلالة تعريف ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ دون إضافة:

حكمةٌ بليغةٌ عامّةٌ ينتفعُ بها نساءُ النبيّ ويبلِّغنها للنّاس

عرَّفَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ بأل التّعريف دون الإضافة؛ لإفادةِ العموم؛ بكون اللّامِ للجنس، فتشملُ الحكمةُ ما اشتملتْ عليه آياتُ القرآنِ من فنونِ الحِكَمِ والآدابِ والمواعظ، وتشملُ أقوالَ النبيّ ﷺ وأفعالَه وتقريراته، وتشملُ حكمتَهنّ في أقوالهنّ وأفعالهنّ في البيتِ الكريم، وتشملُ أيّ حكمةٍ تقعُ على سمعهنّ من الصحابةِ الكرام، ولو عرّفها بالإضافة كأنْ قال: (حكمةُ اللّه) أو (حكمةُ رسوله) لتقيّدتِ الحكمةُ بالمضافِ ولاقتصرتْ عليه، فكان التعريفُ أبلغَ وأعمَّ وأشمل.

نكتة فصل جملة الفاصلة عمّا قبلها:

استئنافُ خطابٍ عامٍّ هو تعليلٌ وتذييلٌ لِما سبق

لم يعطفِ القرآنُ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ على قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وإنّما فصلَ بينهما؛ لِما بين الجملتين من كمالِ الانقطاع؛ لاختلافهما إنشاءً وخبرًا، فالجملةُ الأولى: إنشائيّةٌ، والثانية: خبريّةٌ، ولهذا تعيّنَ الفصلُ بينهما، وبهذا الفصل جاءتْ جملة الفاصلة استئنافَ خطابٍ عامّ، هو تعليلٌ وتذييلٌ للجملِ السابقة.

سرّ إظهار اسم الله الأعظم:

مَن لهُ جميعُ العظمةِ له كمالُ اللطفِ والعلم

أظهرَ النَّظمُ الحكيمُ اسمَ اللّهِ الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ ولم يُضمره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ فلم يقلْ: (إنّه كان لطيفًا

---

(1) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12027.

(2) الشافعي، أحكام القرآن، ص: 74، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 268، والشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12027.

(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 209.

(4) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12027.

خبيرًا)، على الرغم من أنّه سبقَ ذكره في قوله: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ تربيةً للمهابةِ والتّعظيم في نفوسِ المستمعين، ونفوسِ أمّهات المؤمنين، والمعنى: إنّ اللّهَ الذي له جميعُ العظمة[1]، وتناسبًا مع سياقِ العظمة والجلال لتنزّلِ القرآن الكريم في قوله ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وزيادةَ تأكيدٍ لِما تضمّنتهُ الجملةُ من إخبارٍ باتّصافِ اللّهِ سبحانه باللطيفِ الخبير.

نكتة التّعبير بفعل الكينونة:

اتّصافُ اللهِ باللُّطْفِ والعلم وصفٌ لا ينفكُّ عنه سبحانه

يدلُّ فعل الكينونة ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ على أنّه تعالى مَوصوفٌ باللُّطفِ والعِلم، والمعنى: إنّ اللّهَ الذي له جميعُ العظمةِ لم يزلْ لطيفًا خبيرًا[2]، فهو المتّصفُ أزلًا وأبدًا باللطفِ، المتضمّنُ علمه بالأشياء الدّقيقة، وهو المتّصفُ أزلًا وأبدًا بالخبرة، فهو العالمُ بالأسرارِ والخفايا، فيشملُ عُمومُ لُطفِه وعِلمِه لُطفَه بِهنَّ، وعِلمَه بما فيه نفعُهنَّ[3].

بلاغة التّوكيد في جملة الفاصلة:

مبالغةٌ في توكيدِ شمولِ لُطفِه وعِلمِه لُطفَه بِنساءِ النبيّ ﷺ

تضمّنتْ جملةُ الفاصلة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ عدّةَ مؤكّداتٍ لاتّصافه سبحانه بصفةِ اللّطف والعلم، وخاصّة بنساءِ النبيّ ﷺ؛ هي: التوكيدُ بـ﴿إِنَّ﴾ التي تفيدُ توكيدَ النّسبة بين المسندِ والمسندِ إليه في الجملة، والتوكيدُ بفعلِ الكينونة ﴿كَانَ﴾ الذي يفيدُ الدَّيْمومةَ، والتوكيدُ بالجملةِ الإسميّة التي تدلّ على الثباتِ والاستمرارِ وقوّةِ الحكم وبقائه، وقد جاءتْ في الآية مرّتين، والتوكيدُ كذلك بتكرارِ الخبر في قوله: ﴿كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾؛ إذ "﴿لَطِيفًا﴾ خبرٌ أوّل، ﴿خَبِيرًا﴾ خبرٌ ثانٍ"[4]، وكذلك تأكيدُ اتّصافِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 348.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 348.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 19.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 483.

اللّهِ باللطيف الخبيرِ بإظهارِ الاسم الجليل الذي يجمعُ صفاتِ الجلالِ والكمالِ، وله جميعُ العظمةِ، وعدم إضماره.

وتكمنُ بلاغةُ التوّكيد في أنّ الآياتِ السابقةَ تستحضرُ المنافقين في خطابها كلِّه تعريضًا؛ فكلُّ ماسبقَ من أوامره تعالى ونواهيه لأزواج النبيّ ﷺ في الأمورِ الخفيّة الباطنة، وفي الأمور الظاهرة - تدلُّ على أنَّ اللّهَ محيطٌ بأدقِّ الدّقائق وأخفاها، وتؤكّد شمولَ وعمومَ لطفه وعلمه لكلّ شيءٍ، وخاصّةً لُطفَه بِنساء النبيّ ﷺ، وعِلْمَه بما فيه نفعُهنَّ.

وجه التعبير بـ﴿لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ دلالةً وصيغة:

كلُّ ما وُجِّهَ إلى نساءِ النبيّ نفعٌ لهنّ بطريقةٍ لا مشقّةَ فيها فهو العليمُ بما يصلحهنّ

عبّرَ البيانُ الحكيم بصفتي اللطيف والخبير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾؛ مناسبةً للسياق والمقام: أمّا التعبيرُ باللطيف فلأنَّ اللُّطْفَ يقتَضي إسداءَ النَّفْعِ والبرِّ وجميلِ الفعلِ بِكَيْفيَّةٍ فيها سهولةٌ ورفقٌ ورأفةٌ ورحمةٌ[1]، لا تَشُقُّ على المُسْدَى إلَيْهِ[2]، وفيما وُجِّهَ إلَى نساء النبيّ ﷺ مِنَ الأمْرِ والنَّهْيِ كلُّه نفْعٌ لهنّ بطريقةٍ لا مشقّةَ فيها ولا إعنات، وهذا عينُ اللطفِ بهنّ[3]، واللطفُ كذلك هو التّدبيرُ الذي ينفذُ في صغيرِ الأمورِ وكبيرِها؛ أي: تدبيرُهُ سبحانه لأمّهات المؤمنين تدبير من لا يخفى عليه شيء، ولا يكون ذلك إلا بإجرائه على حقّه[4]، إذن: "فاللطيفُ هو الذي اجتمعَ له الرِّفقُ في الفعل، والعلمُ بدقائقِ المصالح، وإيصالها إلى مَنْ قدّرها له مِنْ خَلقه بسبُلٍ خفية"[5]، وعليه فـ" اللطفُ من اللّهِ التّوفيق والعصمة"[6]، وهذا يتناسبُ مع شرعه سبحانه لأمّهاتِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لطف).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 218.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 19.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 218.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 4/ 1977.
(6) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح: (لطف).

المؤمنين من أوامرَ ونَواهٍ عَصَمَهُنَّ بها ممّا لا يليقُ بهنّ، ولمْ يكلّفهم إلا بما يطيقون.

وأمّا الخبير؛ فلأنّ ما شرعه من أوامرَ ونَواهٍ قائمٌ على كونه عالمًا ببواطنِ الأشياء، وبما كانَ وما يكونُ[1]، فلا يخفى عليه شيءٌ، فلا يجوز لأحدٍ أنْ يستدركَ عليه.

كما أنّ ذِكْرَ هذين الاسمين من أسماءِ اللّه الحسنى، يشيرُ إلى أنّ ما قد تهمسُ به النّفوسُ في سرائرها في سياقِ آياتٍ تتحدّثُ عن الملاينةِ في القول، والتّبرجِ، والقولِ السديدِ الصائب، وغير ذلك ممّا هو خاصٌّ بالسلوكِ؛ لا يفوتُ اللطيفَ الخبير الذي لا تعزبُ عنه همهمةٌ في قاعها السحيق.

المبالغةُ في لطفِ اللهِ وعلمِهِ تبعثُ الثّقةَ برحمةِ الله وعظيم تدبيره

وأمّا الصيغة فإنّ لفظ ﴿لَطِيفًا﴾: إمّا أنْ يكون اسمَ فاعلٍ من (لطَف) - بفتح الطاء - يدلُّ على صفةٍ من صفاتِ الأفعال، وهي وصفهُ تعالى بالرّفقِ والإحسان إلى مخلوقاته وإتقانِ صنعه في ذلك، وكثرةِ فعله ذلك، وإذا حُملَ في الآية على هذا المحملِ كان وصفًا مستقلًّا عمّا قبله لزيادةِ تقريرِ لطفهِ بأمّهاتِ المؤمنين، أو صفةً مشبّهةً من (لطُف) - بضمّ الطاء - تدلُّ على صفةٍ من صفاتِ ذاتِ اللّه تعالى، وهي صفةُ تنزيههِ تعالى عن إحاطةِ العقول بماهيّته، أو إحاطةِ الحواسِّ بذاته وصفاته، وهي بذلك تتنزّلُ من الجملة التي قبلها منزلةَ التّذييل، أو منزلةَ الاستدلالِ على الجزئيّة بالكلية، فيزيد الوصف قبله تمكّنًا[2]، وكلا المحمَلَيْن يدلُّ على المبالغة.

وأمّا لفظُ ﴿خَبِيرًا﴾ فهو صفةٌ مشبّهةٌ من (خبُر) - بضمّ الباء - في الماضي، خُبْرًا - بضمّ الخاء وسكونِ الباء - بمعنى عَلِمَ وعَرَفَ، وهي على وزن فعيل، وهي من أبنيةِ المبالغة، وغرضُ المبالغة

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خبر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 417.

في التّعبير بالاسمين الجليلين أنْ تَبعثَ الثقةَ عند نساءِ النبيّ ﷺ برحمةِ اللّهِ وعظيمِ تدبيره فيما أمرهنّ به ونهاهنّ عنه.

فائدةُ تقديمِ صفةِ اللطيفِ على الخبيرِ:

وَصْفُ اللطيف يُتمِّمهُ وصفُ الخبير

قدّم البيانُ الحكيم اسم اللّه (اللطيف) على (الخبير) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾؛ لكونها عادةً قرآنية، ولأنّ من معاني اسمِ اللطيفِ الرفقَ والرأفةَ والرحمةَ[1]، ورحمتُه سبحانه وسعتْ كلَّ شيءٍ فتتقدّمُ، كما أنّ وصْفَ اللطيفِ يُتمِّمُهُ وصفُ الخبيرِ، فإذا كان اللطفُ يعني الدّقة في تناولِ الأشياءِ، وحُسْن التأتّي، فالخبرةُ تعني معرفة الموضع، فاللطفُ لا يتأتّى إلا بالخبرة[2]، وإذا كان اللطيفُ هو الرَّفيقُ المُحْسِنُ، فالخبيرُ هو العالمُ بمواقعِ الرِّفقِ والإحسانِ وبمستحقيه، وهذا فيه احتراس[3]، زدْ على ذلك أنّ في تأخيرِ اسم اللّه الخبير مراعاةً للفاصلةِ القرآنية القريبة منها ﴿تَطْهِيرًا﴾ و﴿عَظِيمًا﴾.

نكتة تنكير الاسمين الجليلين ﴿لَطِيفًا خَبِيرًا﴾:

اللّه سبحانه عظيمٌ في لطفِه وعلمِه

نَكَّرَ البيانُ الحكيمُ الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ في سياقِ التفخيم لمقامِ أمّهاتِ المؤمنين، ولمقامِ تنزّلِ آياتِ القرآن والحكمة، وسياقِ تتابعِ المؤكّدات في فاصلةِ الآية؛ لإفادةِ معنى التّفخيم والتّعظيم للطفِ اللّه تعالى بخلقه وبهنّ، وعلمِه بما يرفعُ من شأنهنّ، وهذا اللطفُ والعلمُ العظيمان الذي لا يحُدُّ حدّهُما ولا يُقادرُ قدْرهُما يُفرّغان الطمأنينةَ والأنسَ على قلبِ نساءِ النبيّ ﷺ.

بلاغة التّعليل في جملة الفاصلة:

جملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ تَعليلٌ لِما سَبَقَ مِنَ الأوامرِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لطف).

(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12029.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 417.

والنّواهي الموجهةِ لأهلِ البيتِ الكريم، وتَذييلٌ عظيمٌ للجُمَلِ السّابقةِ؛ والتعليلُ صالحٌ لحاملِ الأمرِ كلِّها؛ لأنّ اللُّطْفَ يقتضي إسداءَ النَّفعِ بكيفيّةٍ لا تشقُّ على المُسْدى إليه، وفيما وُجِّهَ إلى نساءِ النّبيّ ﷺ من الأمر والنهي ما هو صلاحٌ لهنَّ وإجراءٌ للخير بواسطتهنَّ، وكذلك في تيسيره إيّاهنّ لمعاشرةِ الرّسول ﷺ، وجعلهنّ أهلَ بيوته، وفي إعدادهنّ لسماعِ القرآن وفهمه، ومشاهدةِ الهدي النبويّ - كلّ ذلك لطْفٌ لهنَّ، هو الباعثُ على ما وجَّهَهُ إليهنّ من الخطاب ليتلقّينَ الخبرَ ويبلّغنَهُ، ولأنَّ الخبيرَ إذا أرادَ أن يُذهبَ عنهنّ الرجسَ ويطهرهنّ حَصَلَ مرادُه تامًّا لا خلَلَ ولا غفلة[1]، ويعلمُ ما يصلحُ في الدّينِ، ولذلك فعلَ ما فعلَ من الأمرِ والنَّهي، ويعلمُ مَن يصلُحُ للنُّبوةِ ومن يستأهلُ أنْ يكونَ من أهلِ بيتِه، أي: علمَ أنّ قلوبهنّ من أطهرِ القلوبِ فاختارهنّ قريناتٍ وقرائب للرّسول ﷺ[2].

من صفتِه سبحانه اللُّطفُ والعِلمُ ومن لطفِه وعلمِه مكانتهنّ من رسولِ الله

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التلاوة والقراءة:

التلاوةُ أخصُّ من القراءةِ من جهةِ أنّها قراءةٌ على وجهٍ مخصوص، وتعني القراءة المتتابعة، وغلبَ في العرفِ إطلاقها على قراءةِ القرآن؛ لأنّ القارئَ يتبعُ كلَّ كلمةٍ أختها، فالتلاوةُ لا تكونُ في الكلمةِ الواحدة، تقول: قرأ فلانٌ اسمه، ولا تقولُ تلا اسمه[3]، كما أنّ التلاوةَ تختصُّ باتّباع كتبِ الله المنزّلة بالعلم والعمل، وهذا الاتّباع يكون تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لما فيها من أمرٍ ونهي، وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يُتَوهّمُ فيهِ ذلِك، وهوَ أَخَصُّ مِن القِراءَة، فكلّ تلاوةٍ قراءة، وليس كلّ قراءةٍ تلاوة[4]، ويمكن أنْ تكونَ القراءةُ أعمَّ من

اتّباع ما في الذِّكْر من أمرٍ ونهي وترغيبٍ وترهيب أنسبُ لمقام أمهات المؤمنين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 19.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 348، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 103.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (تلو).

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 140، والرّاغب، المفردات: (تلو).

جهةِ أنّ (تلا) تُستعملُ للقراءة من مكتوبٍ بصوت، ويُتسامحُ فيها فتكون من غير مكتوبٍ لكن بصوت، و(قرأ) تستعملُ للقراءة من مكتوب ومن غير مكتوب، بصوتٍ وبغير صوت، فإذا عُدّيا بـ(على) فهما بصوت[1]، ومن هنا كان استعمالُ لفظِ التلاوة في الآية أنسبَ مع السياق الذي فيه أمرٌ لأمهاتِ المؤمنين بذكر ما يُتلى، أي ما ينزلُ متتابعًا ويُقرأُ بصوت أمامهم، فَضْلًا عن اتّباع ما فيه من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيب.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (تلو).

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيان ما أعدّه اللهُ لنساءِ النبيّ خاصّةً جاء التّبشيرُ عامّة

لمّا عرضَ اللّهُ تعالى أماناته على أهلِ بيتِ النبيّ ﷺ، واستحفظهم رعايتها، ووعدهم على الوفاء بها الأجرَ الجزيلَ، وحذّر بمضاعفةِ العقاب لو قُدِّرَ عدمُ الامتثالِ، وبيّن أنَّه ليس مِثلَهنَّ أحدٌ مِنَ النِّساءِ، وأثنى على آل البيت بخيرٍ، فإنّ نفوسَ المسلمين والمسلمات تشوّقتْ لخيرٍ لهم كالذي حصل لآل البيت الطّاهرين، فبشّر اللّهُ كلَّ مصدّقٍ ومصدّقةٍ بالحقّ، مستقيمٍ على الهدى والبرّ والرّشد ومستقيمة؛ برحمةٍ منه ورضوان وعفوٍ وغفران، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾(1).

شمولُ الرسالة يقتضي عمومَ الخطاب لأمّهات المؤمنين وللرجال وللنساء

لمّا حثّ سبحانه على المكارم والأخلاق الزّاكية، وختمَ بالتّذكير بالآيات والحكمة؛ أتبعهُ بما اتّصف به أهل البيت بما يدعو إليه ذلك من صفاتِ الكمال، ولكنّه ذكرَهُ على وجهٍ يعمُّ غيرَهم من ذَكَرٍ وأنثى؛ مشاكلةً لعموم الدّعوةِ وشمولِ الرّسالةِ، فقالَ – جوابًا لقول النساء: يا رسول اللّه، ذكَرَ اللّهُ الرّجالَ ولم يَذكُرِ النساء بخيرٍ، فما فينا خيرٌ نُذكرُ به؟ إنّا نخافُ أنْ لا يقبلَ منّا طاعة –: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾(2).

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 664، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 269.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 351.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ﴾: (خشع) أصلٌ يدلّ على التّطامن، يُقال خَشَعَ إذا تطامنَ وطأطأ رأسَه، والخاشِعُ: المُسْتَكينُ والرّاكِعُ[1]، وخَشَعَ: خَضَعَ وذلّ وخافَ، فالخُشوعُ: السُّكونُ والتَّذَلُّلُ[2]، والتّخشُّع للّه: الإخباتُ والتّذلُّل والتّواضع، ويكون في البَدَنِ والصَّوت والبَصَر[3]، ومعنى الخاشعين في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: المتواضعينَ للّه بقلوبِهم وجوارحِهم والخائفين منه، والمتذلّلين له بالطاعة[4].

2) ﴿فُرُوجَهُمۡ﴾: (فرج) أصلٌ يدلّ على تَفَتُّحٍ في الشَّيْءِ[5]، والفَرْجُ: الشَّقّ والخَلَلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ ومنه الفَرْجُ للعورة، فهي تُستعملُ لفتحةِ ما بين الرِّجْلَيْنِ[6]، فالفَرْجُ: اسمٌ يجمعُ سوءاتِ الرِّجال والنّساء والقُبُلانِ وما حواليْهما، أي: هو العَوْرَة[7]، ومعنى فروجهم في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: عوراتهم[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صِفاتٌ تُكوّنُ النّفسَ المسلمة، الرِّجالُ والنّساءُ فيها سواء

يقولُ اللّهُ تعالى مبيِّنًا أُمّاتِ الفضائلِ، وما أعَدَّه للمتَّصِفينَ بها: إنَّ الرِّجالَ والنِّساءَ المُستَسلِمينَ للّهِ، المُنقادينَ له بطاعتِه، والمؤمنينَ والمؤمِناتِ باللّهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، وبالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه، والمُطيعينَ والمُطيعاتِ للّه فيما يأمُرُهم ويَنْهاهم، المُداوِمينَ على طاعتِه بذُلٍّ وخُضوعٍ وسُكونٍ، والصّادقين والصّادقات في عقائِدِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، فلا يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنون، ولا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشع).
(2) الزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خشع).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (خشع).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 268، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 104.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرج).
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فرج).
(7) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (فرج).
(8) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 76، والهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 22.

يَكذِبون، ولا يُراؤون، ولا يُخلِفون الوَعدَ، ولا يَنقُضونَ العَهدَ مع اللّهِ ومع عِبادِه، والصّابِرينَ والصّابراتِ على التَّمسُّكِ بالدّينِ وفِعلِ الطّاعاتِ، وتَركِ المعاصي والشَّهواتِ، وتحمُّلِ المصائِبِ والمشَقّاتِ، والخائِفينَ والخائِفاتِ مِن اللّهِ، المتواضِعينَ الخاضِعينَ له في صَلاتِهم وفي جميعِ أحوالِهم، والمؤدّينَ والمؤدّياتِ الصَّدَقاتِ، والمتعَبِّدينَ والمتعَبِّداتِ للّهِ تعالى بالصّيامِ، والحافِظينَ فُروجَهم عمّا لا يَحِلُّ مِن الزِّنا وغَيرِه، إلّا على أزواجِهم أو ما ملَكَت أيمانُهم مِن الإماءِ، والحافِظاتِ فُروجَهنَّ كذلك إلّا على أزواجِهنَّ إنْ كُنَّ حرائِرَ، أو أسيادِهنَّ المالِكينَ لهنَّ إنْ كُنَّ إماءً، والذّاكِرينَ والذّاكِراتِ اللّهَ ذِكرًا كثيرًا - أعدَّ اللّهُ لأولئك الرِّجالِ والنِّساءِ المتَّصِفينَ بتلك الصِّفاتِ مَغفِرةً، فيَستُرُ ذُنوبَهم ولا يؤاخِذُهم بها، وأعدَّ لهم أجرًا عَظيمًا[1].

وروي في سببِ نزولِ الآيةِ أنَّ أمَّ سَلَمةَ رضي الله عنها قالت: ما لنا لا نُذكَرُ في القُرآنِ كما يُذكَرُ الرِّجالُ؟ فأنزل اللّه الآيةَ[2]، وعن أُمِّ عُمارةَ الأنصاريَّةِ رضي الله عنها أنَّها أتَتِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أرى كُلَّ شَيءٍ إلّا للرِّجالِ، وما أرى النِّساءَ يُذكَرْنَ بشَيءٍ! فنَزَلت هذه الآيةُ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

إجابةٌ عن سؤالٍ مطروحٍ: هل ما سبقَ هو خاصٌّ بأمّهات المؤمنين

فصَلَ البيانُ الحكيمُ جُملةَ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عمّا قبلها؛ لِما بينهما من شبهِ كمالِ الاتّصالِ؛ إذ جاءتْ هذه الجملة استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿۞وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ وقولَه: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يُثيرُ في نُفوسِ المُسلماتِ أنْ يَسألْنَ: أهنَّ مَأجوراتٌ على ما

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 268 - 269، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 21 - 22.
(2) النَّسائيّ، السنن الكبرى، الحديث رقم: (11405)، ومسند الإمام أحمد، الحديث رقم: (26645).
(3) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (3211).

يَعمَلْنَ مِن الحَسناتِ؟ وأهُنَّ مَأموراتٌ بمِثلِ ما أُمِرَتْ به أزواجُ النَّبيِّ ﷺ، أمْ تلك خَصائصُ لِنِساءِ النَّبيِّ ﷺ؟ فكان في هذه الآيةِ ما هو جَوابٌ لهذا السُّؤالِ، على عادةِ القرآنِ فيما إذا ذَكَر مَأموراتٍ يُعقِبُها بالتَّذكيرِ بحالِ أمْثالِها، أو بحالِ أضْدادِها، ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا ورَدَ بمُناسَبةِ ما ذُكِرَ مِن فَضائلِ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ(1).

دلالة التوكيد بحرف ﴿إِنَّ﴾:

التأكيدُ يدفعُ شكَّ من شكَّ في هذا الحكمِ من النساء

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ هذا الخَبرِ وهو إعدادُ اللهِ المغفرةَ والأجرَ العظيمَ للنساء والرّجال ممَّن اتّصفوا بالإسلام والإيمانِ والقنوتِ والصدق وغير ذلك مما ذُكر بحَرْفِ ﴿إِنَّ﴾؛ ليدفَعَ شَكَّ مَن شكَّ في هذا الحُكمِ مِن النِّساء؛ بحسب ما روي فيما مضى من سبب نزول الآيةِ، وكذلك أتى بالتأكيد "لأجلِ كثرةِ المنافقين المكذّبين بمضمون هذا الخبر وغيرهم من المصارحين"(2).

بلاغة التسوية في ذكر الأوصاف:

اختلافُ النّوعِ موجبٌ للعطفِ مُعلِمٌ بالتّشريكِ في الحكم

ما سبقَ من سببِ نزول هذه الآية يبيّن أنّ المقصودَ مِن أصحابِ هذه الأوصافِ المذكورةِ هم النِّساءُ، وأمّا ذِكرُ الرِّجالِ، وعطْفُ النّساء عليهم؛ فاشتراكٌ للصنفين في هذه التّشريعات المذكورة، وأنّهما فيها سواءٌ(3)؛ ليَعلموا أنَّ الشَّريعةَ لا تختصُّ بالرِّجالِ، كشَريعَةِ التَّوراةِ الخاصّ مُعظَمُها بالرِّجالِ، فَشَريعَةُ الإسْلام تعُمُّ الرِّجالَ والنِّساءَ إلّا ما نُصَّ على تخصيصِه بأحدِ الصِّنفَين، أي: إنّ هذه الآية وأمْثالها تقرِّرُ أصلَ التَّسويةِ في التَّكليفِ والجزاءِ بين الرجال والنّساء، بما أغنى عن التَّنبيه عليه في مُعظَمِ أقوالِ القُرآنِ والسُّنَّة(4).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 20.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 351.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 461.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 21.

علّة الإطناب في تعديد الأوصاف:

يقتضي المقامُ زيادةَ البيانِ وإزالةَ التّوهّم

سلكَ النّظمُ الحكيمُ مَسْلَكَ الإِطْنابِ في تِعْدادِ الأَوْصافِ في الآية؛ لئلّا يُتوهَّمَ التَّسويةُ في خُصوصِ صِفةٍ واحِدةٍ، ولِأنَّ المَقامَ لِزيادةِ البيانِ لاخْتِلافِ أفهامِ النّاسِ في ذلك، عَلَى أنَّ في هَذا التِّعْدادِ أيضًا إيماءً إلى أصولِ التَّشْريعِ في الإسلام[1].

دلالة التعبير عن الصفات بصيغة الجمع:

كثرةُ المتّصفين بهذه الصفات يبعثُ في النّفس الطمأنينة والأمل

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن الصفات الواردة في الآية بصيغة الجمع مراعاةً لما هوَ في الواقع من أنّ المتّصفين بهذه الصفات جمعٌ وليسوا أفرادًا، وفي هذا إشارةٌ إلى كثرةِ المتّصفين بهذه الصفات، ممّا يبعثُ في النّفس الطمأنينة والأمل، ويحفّزُ النّفسَ على الاتّصاف بهذه الصفات؛ إذ عملُ الجماعة مرغوبٌ مندوبٌ إليه، وفيه إيماءٌ إلى فضلِ الجماعة والحثّ على العمل الجماعي، وكذلك موافقةً لنظم الآيات السابقة التي جاء غالبيتها بصيغة الجمع، كما أنّ الجمع أضافَ إلى الآية إيقاعًا موسيقيًا خاصًّا من خلال المدّ في الياء والنون في جمع المذكر السالم، وفي الألف والتاء في جمع المؤنث السالم.

سرُّ عَطْفِ هذه الصِّفاتِ بالواوِ:

تمكينُ المتّصفين من كلّ وصفٍ وما أُعدّ لهم

عَطْفُ هذه الصِّفاتِ الواردة في الآية كلّها بالواوِ المُفيدِ مُجَرَّدَ التَّشْريكِ في الحُكْمِ دونَ حَرْفَي التَّرتيب: الفاءِ و(ثُمَّ)، يُفيدُ تمكينَ الجامعين لهذه الأوصاف من كلّ وصفٍ منها[2]، ويُفيدُ كذلك أنْ يكونَ الحُكْمُ المذكورُ معه ثابتًا لكلِّ واحدٍ اتَّصَفَ بوَصفٍ من الأوصافِ المُشتقِّ منها مَوصوفُه؛ لأَنَّ أصلَ العَطفِ بالواوِ أنْ يدُلَّ على مُغايَرَةِ المَعطوفاتِ في الذّات، ولِهَذا فَحَقُّ جُمْلَةِ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ أن تكونَ خَبَرًا في المَعْنَى عَنْ كُلِّ واحِدٍ مِنَ المُتَعاطِفات، فكأنَّهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 21.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 351.

قيلَ: إنَّ المُسْلِمينَ أعَدَ اللّه لَهُمْ مَغْفِرَةً وأجْرًا عَظيمًا، إنَّ المُسْلِماتِ أعَدَّ اللّه لَهُنَّ مَغْفِرَةً وأجْرًا عَظيمًا، وهكذا، بِخِلافِ العَطْفِ بِالفاءِ كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾ [الصافات: 1-3] فَإنَّ الأوْصافَ المَذْكورَةَ في تِلْكَ الآيَةِ ثابِتَةٌ لِمَوْصوفٍ واحِدٍ[1].

سرّ تقديم صفات الذكور على صفات الإناث:

الذّكَرُ أكملُ وأفضلُ من الأنثى، والأفضلُ مقدّمٌ على المفضول

قدّمَ البيانُ القرآني صفاتَ الذّكور على صفات الإناث في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ جريًا على عادةِ القرآن في تقديم الذّكور على الإناث؛ لشرفهم وتقديمهم في الوجود، ولأنّ الذّكَرَ أكملُ وأفضلُ من الأنثى، والأفضلُ مقدّمٌ على المفضول.

النساء تبعٌ للرجال في الخلقة والخطاب الشرعيّ، والعرف اللغويّ

والتّقديم موافق لعقيدة الإسلام في أصل الخليقة وبدايتها من أنّ النساء تَبَعٌ للرجال لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الزمر: 6]؛ فكما كانت المرأة تَبَعًا للرَّجُل في الخِلْقة، ناسَبَ أن تكون تَبَعًا له في الخطاب الشرعي، ثمّ إنّ تغليب التذكير في الخطاب القرآني يناسب العُرفَ اللُّغويَّ، جاء في الكتاب: "واعلَمْ أن المذكَّر أخفّ عليهم من المؤنّث لأنّ المذكر أوّل، وهو أشدُّ تمكُّنًا، وإنّما يخرج التأنيثُ من التذكير"[2].

وجهُ صَوْغ الصفات على هيئة اسم الفاعل:

المستحقّون للأجر العظيم هم الثابتون على أصول التّشريع العظيم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالصفات الواردة في الآية بصيغة اسم الفاعل التي تدلُّ على الثبوتِ والدّوام؛ للدّلالة على أنّ الذين يستحقّون هذا الأجرَ العظيم والمغفرةَ من اللّه؛ هم من كانتْ هذه الصفاتُ ثابتةً دائمة راسخةً فيهم، فهم دائمون على الاتّصاف بها في الماضي والحاضر والمستقبل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 24 - 25.

(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 22.

نكتة الجمع بين وصفَي الإسلام والإيمان:

الإيمانُ هو الأصلُ والأكملُ وأعلى مرتبةً من الإسلام

جَمَعَ البيانُ الحكيمُ بين وصْفي الإسلام والإيمان فذكَرَ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بعدَ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ وأنّ الإسلامَ مِنْ نُطْقِ الشَّهادةِ والصّلاةِ والصّوم والزكاةِ والحجّ لا يُعتبر إسلامًا مقبولًا إلا مع الإيمان[1]، فالإيمانُ عظم الإسلام ودعامته[2]، إذن الإسلامُ غير الإيمانِ؛ فالعَطفُ يقتَضي المغايَرةَ[3]، فالإيمانُ أخَصُّ مِن الإسلام؛ لِقَولِه تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]، وفي الصَّحيحَين: «لا يَزني الزّاني حينَ يَزني وهو مُؤمِنٌ»[4]، فيَسلُبُه الإيمانَ، ولا يلزَمُ مِن ذلك كُفرُه، بإجماعِ المُسلِمينَ، فدَلَّ على أنَّه أخَصُّ منه، فالإيمانُ مرتبةٌ بعدَ الإسلامِ[5]، ولأنّ الإسلامَ مع كونِه أكملَ الأوصاف وأعلاها يمكن أنْ يكونَ بالظاهر فقط، أتبعهُ المحقّق له، وهو إسلامُ الباطن بالتّصديق التّامِّ بغاية الإذعان[6]، فمجيءُ صفةِ الإيمان بعد صفةِ الإسلام ترقٍّ من مرتبةِ الإسلام إلى مرتبةٍ أعلى وأكمل وهي الإيمان.

وجه إيثار لفظ (القنوت):

القنوتُ هو لزومُ الطّاعة مع الخضوعِ ويتناسبُ ترتيبه على الإيمان

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (القنوت) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ﴾ فلم يقل: (والطائعين والطائعات)؛ لكون القنوتِ أخصَّ من عمومِ الطاعة، فالقنوتُ هو لزومُ الطّاعةِ مع الخضوعِ والإخباتِ والاستكانةِ، والقنوتُ هو العبادةُ والدّعاء[7]، والاسْتِقامَةُ في طَريقِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 21.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 185.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الأحزاب، ص: 277.
(4) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (2475)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (57).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 418.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 351.
(7) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قنت).

الدّين، ويطلقُ على السُّكوتِ في الصَّلاةِ مع طولِ القيامِ فيها والإقْبالِ عَلَيْها[1]، فالقنوتُ يَجْمَعُ الطّاعاتِ كُلَّها مَفْروضَها ومَسْنونَها، وتَرْكَ المَنْهيّاتِ والإقْلاعَ عَنْها، فهو تَمامُ الطّاعَةِ[2]، وهذه المعاني تتناسبُ مع السياقِ الذي هو ترقٍّ من الأعمّ إلى الأخصّ، فترتيبُ القنوت على الإيمان أنسبُ من ترتيبِ عمومِ الطاعة.

عطف القنوت على الإيمان والإسلام:

القـنـوتُ من آثـارِ الإيـمـان والإسلام وناشئٌ عنهما

عَطَفَ النّظم الحكيمُ القنوتَ على الإيمان والإسلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ﴾؛ لأنَّ القنوتَ ناشئٌ عنهما[3]، مترتّبٌ عليهما، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الإيمانَ لابدّ وأنْ يتبعهُ العمل، فالقنوتُ يمثّلُ الجوانبَ العمليّة للإيمان وآثاره.

دلالة تعريف صفة الصدق:

كـلُّ من اتـصّفَ بصفةِ الصدق يستحقُّ المغفرةَ والأجرَ العظيم

لامُ تعريف الصّدق في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ جنسيّةٌ تفيدُ العموم، أي: تشملُ كلّ صادق وصادقة في إيمانهم[4]، وفي عهودهم[5]، وعقودهم ورعايةِ حدودهم[6]، وفي نيّاتهم وأقوالهم، وفي أفعالهم[7]، أي: كلُّ من اتّصَفَ بصفةِ الصدقِ يستحقُّ المغفرةَ والأجرَ العظيم.

دلالة تعريف صفة الصبر:

كـلُّ من اتّصفَ بالصبرِ يستحقُّ المغفرةَ والأجرَ العظيم

لامُ تعريف الصبر في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ جنسيّةٌ تفيدُ العموم، أي تشملُ كلّ صابرٍ وصابرة على أمرِ اللّه ونهيه[8]، وعلى ما يبتليهم اللّهُ به من المصائبِ، وما يأمرهم به من

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنت).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 23.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 418.
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 61.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 403.
(6) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 161.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 539.
(8) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 61.

الجهادِ في سبيله، وفي البأساء والضّراء[1]، والصابرين والصابرات عن الشّهوات والمعاصي، وعلى الطّاعات في المكره والمنشط[2]، ومن ثمّ فكلُّ من اتّصفَ بالصبرِ يستحقُّ المغفرةَ والأجرَ العظيم.

إيثار لفظ الخشوع معرَّفًا دون غيره:

انقيادُ الباطنِ للحقّ مع خوفٍ وتعظيمٍ له يتناسبُ ترتّبهُ على الصبر

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (الخشوع) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ﴾ دون غيره من الألفاظ كالخضوع أو الإخبات أو التذلّل؛ لكونه أنسبَ مع السياق الذي بدأ بالترقّي في درجات العبوديّة، فبدأ بالإسلام ثم الإيمان إلى أنْ وصلَ إلى الخشوع، وهو أقلُّ بالدرجة من الإخباتِ، وأعلى من الخضوعِ والتّذلّل، فكان الخشوعُ أنسبَ لما ورد قبله وبعده من صفات، فالخشوعُ هو انقيادُ الباطنِ للحقّ، ولا يكونُ إلا مع خوفِ الخاشعِ للمخشوعِ له؛ لأنّه يرى فاعله أنّ من يخشعُ له فوقه، وأنّه أعظمُ منه، فلا يكونُ تكلّفًا[3]، ويظهرُ أثره في القلب والصَّوّتِ والبَصَر والجوارح[4]، فالخشوعُ هو الإخلاصُ بالقلب والظاهر، فهو الانقيادُ بإتيانِ جميع القربِ والنّوافل، وتجنّبِ جميع المعاصي[5]، وأمّا مجيءُ لفظ الخشوع معرَّفًا؛ فلإفادةِ العموم، إذ اللامُ جنسيّةٌ تشملُ جنسَ الخاشعين، فكلّ من اتّصفَ بصفةِ الخشوع يدخلُ تحتَ هذا الحكم، ويستحقُّ الأجر العظيم من الله سبحانه.

إيثارُ لفظ التصدّق معرَّفًا دون غيره من الألفاظ:

التّصدّقُ يشملُ الواجبَ والنّفل ويتحرّى صاحبه الصدقَ والإخلاص

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (التّصدّق) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ دون غيره من الألفاظ كالزكاة أو الإنفاق، فلم يقل: (والمزكّين، أو المنفقين)؛ لكون لفظ التصدّق أبلغَ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 403.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 539، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 385.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 248.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خشع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 23.

من الزكاة ومن الإنفاق؛ إذ التصدّقُ يحتوي جَميعَ أنْواعِ الصَّدَقاتِ والعَطيّاتِ، وبَذْلِ المَعْروفِ والإرْفاقِ[1]، فيدخلُ فيه الزكاةُ المفروضة، وكذلك الإنفاق تطوّعًا وإحسانًا ومعروفًا بين الناس، فالمتصدّقُ هو المؤدّي حقوقَ اللّه من ماله في الفرضِ والنفل[2]، ولفظ التصدّق من مادة (صدق)[3]، وفيه معنى الإخلاص، وتُقالُ للمتطَوِّعِ بِهِ، والزّكاةُ تُقال للواجِب، ويُسمّى الواجِبُ صَدَقةً إذا تحرّى صاحِبُه الصِّدقَ في فِعْله[4]، فالتصدّقُ هو: "تقديمُ الخير إلى الغيرِ بإخلاص؛ دفعًا لحاجته، وعملًا على عونه ومساعدته"[5]، فكانت هذه المعاني أنسبَ مع السياقِ الذي بدأ بالترقّي في الصفات بدءًا من الإسلام ثم الإيمان ووصولًا إلى التّصدق، وأمّا مجيء لفظ التصدّق معرّفًا؛ فلإفادة العموم، إذ اللامُ جنسيَّةٌ تشملُ جنسَ المتصدّقين، فكلّ من اتّصفَ بصفةِ التصدّق يدخلُ تحتَ هذا الحكم، ويستحقُّ المغفرةَ والأجرَ العظيم من اللّه سبحانه.

سرّ عطف صفة التصدّق على صفة الخشوع:

لن يتصدّقَ إلا من كانَ خاشعًا لله خائفًا من عذابه

أعقبَ البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ﴾ بقوله: ﴿وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، أي عطفَ التصدّق على الخشوع؛ للمناسبةِ القويّة بينهما؛ فالخشوعُ يبدأ من القلب ويظهرُ آثارُهُ على الجوارح، فكان التّصدّق - وهي عبادةٌ ماليّة - من آثار الخشوع، والذي فيه دليلٌ وبرهانٌ على تحقّق هذا الخشوعِ في قلبِ المؤمن، فلنْ يتصدّقَ الإنسانُ إلا إذا كان في قلبه الخشوعُ للّه سبحانه، والخوفُ من العذاب ومن العقوبة ومن السؤال يوم القيامة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 23.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 269، وصديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 11/ 91.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(4) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (صدق).
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 210.

توجيه المتشابه اللفظي في الآية:

من بلاغةِ القرآن مناسبةُ كلِّ لفظٍ لسياقه

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ [الحديد: 18] تضعيفان في الصّاد، وتضعيفٌ في الدّال، بما يدلُّ على زيادةِ المبالغة في التّصدق؛ أي: المبالغون في الصّدقات، أيْ: كثيرو التّصدق، ويعطونَ الكثير، كما أنّ السياقَ في الآية هو حديثٌ عن كثرةٍ في التّصدّق ومضاعفةٍ في الأجر على ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ [الحديد: 18]، أمّا ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ فيها تضعيفٌ واحدٌ في الدّال، فالسّياقُ حديثٌ عن صفاتٍ تؤهّلُ صاحبها لاستحقاقِ المغفرةِ والأجرِ العظيم، ولذا عبّر بمن يتّصفون بالتّصدّق ولو كان قليلًا، ولو قال هنا: (المُصَّدِّقينَ والمُصَّدِّقاتِ) لَما دخلَ فيهم من يتصدّقون بشيءٍ قليل[1].

دلالة تعريف صفة (الصوم):

كلّ من صامَ الصيامَ الكامل له مغفرةٌ وأجرٌ عظيم

لامُ تعريف الصوم في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ جنسيّةٌ تفيدُ العمومَ واستغراقَ جميع الأفراد التي تدخلُ تحته، أي: لفظُ الصائمين والصائمات يشملُ كلَّ صائمٍ وصائمة، كما أنّها تدلّ على الكمالِ في الجنس، فيكون المعنى: الصائمين الصيامَ الكامل كما أراده اللّهُ فرضًا كان أو نفلًا لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم.

سرّ عطف حفظ الفرج على الصوم:

الصَّومُ مِن أكبرِ العَونِ على كَسرِ الشَّهوةِ وحفظِ الفروج

عطفَ البيانُ القرآنيّ قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ على الاتّصاف بالصوم في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ بجامعِ أنّ الصَّومَ مِن أكبرِ العَونِ على كَسرِ الشَّهوة؛ ناسَبَ أن يَذكُرَ بعدَه[2]، ويدلّ عليه قولُ النبي اللّه ﷺ: «يا مَعْشَرَ الشَّبابِ، مَنْ اسْتَطاعَ مِنْكُمُ الباءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، ومَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعليه بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجاءٌ»[3].

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 5.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 420.

(3) البخاري، صحيح البخاري، رقم: (5066).

فائدة تخصيص الصوم بالذكر:

الصومُ عبادةٌ عظيمةٌ لها خصوصيّة دون غيرها

خُصِّصَ الصَّومُ بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ مع أنَّ الفرضَ منه مَشمولٌ في لفظ الإسلامِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾، ويَفي صَومَ النّافلة؛ تنويهًا بفضلِ الصّوم وأنّه عِبادةٌ عَظيمةٌ، وفي الحَديث: «قالَ اللّه تَعالَى: الصَّوْمُ لي وأنا أَجْزي بِهِ»[1]، ولِما فيه مِنْ تَخَلُّقٍ بِرياضَةِ النَّفْسِ لِطاعَةِ اللّه[2].

إيثار لفظ الحفظ على غيره من الألفاظ:

حفظُ الفروج يكون بالمبالغةِ في الحياطةِ القويّةِ في حراستها

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (الحفظ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ دون غيره من الألفاظ كالصَّوْنِ والحماية؛ لكونِ لفظِ الحفظ أبلغَ وأوسعَ دلالةً من الصَّوْنِ والحماية، وهذا يناسبُ المبالغةَ في حفظِ الفروج، من خلال الحياطةِ القويّة في حراستها ومراقبتها، ومنعِ أنفسهم من الوَطْءِ الحرام، وصرفِهم عنها كلّ ما يؤدّي إلى الوقوعِ في الحرام، فالحفظُ في اللغة هو مراعاةُ الشيء وحراستُه ومراقبته، والحياطةُ القويّة الضابطةُ له فلا يضيعُ ولا يتفلّت[3]، والمنعُ له بتفقّده ورعايته، وبصرفِ المكارهِ عنه لئلا يهلك[4].

بلاغة الكناية في حفظ الفروج:

حفظُ الفرج كنايةٌ بليغةٌ عن التّعفّف والتّطهّر

حفظُ الفرج في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ كنايةٌ بليغةٌ عن التّعفّف والتّطهّر والتصوّن عن أنْ يضعَ الإنسانُ شهوته في غير الموضعِ الذي أحلّه اللّه تعالى، وأنْ لا يتدنّس باقترابِ قذارةٍ، أو يتلوّث بارتكابِ حرامٍ، فيجتنب الفحشاء ويتحفّظ في طهارة الفرج[5].

---

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (7492).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 23.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حفظ).

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 192، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حفظ).

(5) السيوطي، الاتقان: 2/ 60، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 210.

دلالة ذكر متعلّق ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ﴾:

المبالغةُ في حفظِ الفروج للتّحذير من خطورتها

لم يَذكُرِ البيانُ الحكيمُ للأوصافِ الواردة في الآية مُتعلّقًا إلّا في موضعين؛ منهما: قوله ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ﴾ فقد نَصَّ على مُتعلَّقِ الحِفظِ وهو ﴿فُرُوجَهُمۡ﴾؛ لِكَونه مَزلَّةَ العُقلاءِ ومَركَبَ الشَّهوة الغالبة[1]، فكان في ذكره بيانُ خطورةِ الشّهوات على استقامةِ المسلم، وأثرها فيه، فهي لا تنفكُّ عنه، وبيانُ ضرورةِ الاهتمام بمجاهدةِ النّفس في الحذرِ من خطورتها، ومِن ثمّ زيادة مدحٍ لمن اتّصف بهذه الصفات.

بلاغة الإيجاز بحذف متعلّق ﴿وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾:

حذفُ ما يُستحيا من ذكره تأدّبًا وسترًا

مَفعولُ ﴿وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه من قولِه ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ﴾[2]، والتقدير: والحافظات لها[3]، أو التقدير: والحافظاتها، فحُذف المفعول؛ لأنّ الظاهرَ يدلّ عليه، ولو تأخّرَ الظاهرُ فيه لكان: والحافظين والحافظاتها فروجهم؛ لأنّ الفعلَ الأول هو المُعْمَل[4]، وكذلك تنبيهًا لنا على الإيجازِ قدْرَ المُستطاع في ذكر ما يُستحيا من ذكره؛ تأدّبًا؛ لأنّ أمرَ النساء مبنيٌّ على السَّتْر.

عَطْفُ الوصفِ بالذِّكْر على حفظ الفرج:

دوامُ الذِّكْر يحملُ على المراقبةِ الموصلة إلى كمالِ العبوديّة

عطفَ البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ على الاتّصاف بحفظ الفرج في قوله: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾؛ بجامعِ أنّ حِفظَ الفروجِ وسائرَ الأعمالِ لا تَكادُ توجدُ إلّا بالذِّكرِ، وهو الّذي فيه المُراقبة الموصلة إلى المحاضرة المحقّقةِ للمشاهدة المحيية بالفناء[5].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 22.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 539، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 254.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 352.

الذاكرون اللهَ هم من يذكرونه بقلوبهم وألسنتهم وبجميع أنواع الذِّكْر

إيثار لفظ (الذّكر) معرَّفًا:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ (الذّكر) في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ دون غيره من الألفاظ كالتّسبيح أو التّهليل؛ لاتّساع دلالة الذّكر؛ إذ يشملُ كلّ ذكرٍ، فالذّكرُ في اللغة خلافُ النّسيان وهو الحفظ، ويُطلق على الذّكرِ باللسان والقلب[1]، فالمرادُ بالذّاكرين اللّهَ، أي: الذّاكرينه بقلوبهم وألسنتهم بالتّسبيح، والتّهليل، والتّكبير، وتلاوة القرآن، وغير ذلك من الأذكار، والاشتغال بالعلم للّه، ومطالعة الكتب من الذّكر[2]، وفي كلّ حالةٍ من أحوالهم[3]؛ في أدبارِ الصلوات وغُدوًّا وعَشيًّا، وفي المضاجعِ وعند الانتباهِ من النّوم، قال مجاهد: "لا يكون ذاكرًا للّه تعالى كثيرًا حتى يذكره قائمًا وجالسًا ومضطجعًا"[4]، وجاء معرّفًا باللام الجنسيَّة؛ للعموم والشمول والاستغراق؛ فيدخل في الحكم كلُّ ذاكرٍ وكلّ ذاكرةٍ للّه كثيرًا، فيستحقّون المغفرةَ والأجرَ العظيم منه سبحانه.

في الذِّكر استحضارُ ما للهِ من صفاتِ الكمالِ والجلال والجمال

سرّ تقييد الذّكر بلفظ الجلالة:

نَصَّ البيانُ الإلهيُّ على مُتعلَّقِ الذِّكرِ بالاسم الأعظم وهو لفظُ اللّهِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ لكونِهِ العَلَمَ المُحتوي على جَميعِ أوصافِه؛ ليَتذكَّرَ المُسلِمُ مَن يَذكُرُه، وهو اللّهُ تعالى[5]، وليستحضرَ بالقلبِ واللسانِ في كلّ حالةٍ ما للّه من صفات الكمالِ والجلال والجمال[6].

بلاغة حذف متعلّق ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾:

حُذفَ مَفعولُ ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ذكر).
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 233، وابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 431.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 186.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.

الإيــجــازُ من بـلاغـةِ الـقـرآن الكريم

﴿كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾؛ إيجازًا واختصارًا، وقد دلَّ عليه ما قبْلَه مِن قولِه ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ﴾[1]، والتقديرُ: والذّاكراته[2]، فحذفَ لأنّ الظاهر يدلّ عليه، ولو تأخّرَ الظاهرُ فيه لكان: والذاكرين والذاكراته الله كثيرًا؛ لأنّ الفعلَ الأول هو المعمل[3].

دلالة الوصف بالمفعول المطلق ﴿كَثِيرٗا﴾:

ذِكْـرُ الله كثيرًا ليس بمتعسّرٍ وهـو يـدخـلُ في جميع العبادات

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الذكرَ بالكثرةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾؛ للإشارة إلى أنّ المذكورين في جميع هذه الأحوال يذكرون اللّهَ، ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنيّة صادقةٍ للّه، ولأنّ الإكثارَ مِنَ الأفعالِ البدنيّة متعسّرٌ قد يمنعُ الاشتغالُ ببعضها من الاشتغالِ بغيرها بحسبِ الأغلب، بخلافِ عبادة الذّكر فلا يمنعُ منها أيّ عملٍ؛ إذ لا مانعَ من أنْ يذكرَ المسلمُ اللّهَ وهو آكلٌ أو شاربٌ أو ماشٍ أو نائمٌ أو مشغولٌ ببعض الصنائع والحِرَفِ، على أنّ جميعَ الأعمال صحّتها أو كمالها بذكر الله تعالى وهي النيّة، ولذا ختمَ الأوصاف بقوله ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ يعني أنّهم في جميع الأحوال يذكرون اللّهَ، كما أنّ وصفَ الذّكرِ بالكثرة يتناسبُ مع ما ورد في السورة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: 21]، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب: 41]، ولأنّ اللّهَ تعالى في أكثرِ المواضع حيثُ ذكرَ الذّكرَ قرنه بالكثرة[4].

سرُّ ترتيب الصفات في الآية:

تقديمُ الأظهرِ على الظاهرِ والمسبَّبِ على السببِ بلاغةٌ قرآنية

قرّرَ العلماءُ وجهَ التّرتيب في هذه المعطوفات بعدّة أمور منها:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 22.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 539، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 254.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 169، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 461.

الظّاهر والأظّهر، والسّببُ والمسبّبُ، والتّعدي والقُصور؛ فقدّمَ الإسلام لظهوره وخفاءِ الإيمان، فالإسلامُ هو الوصفُ الأوّلُ الأعمُّ الأشهرُ من أوصافِ أهلِ هذا الدين[1]، وقدّمَ الإيمانَ على القنوتِ؛ لأنّه أظهرُ من القنوت، ولأنّ "القانتَ هو القائمُ بالطّاعة الدائمُ عليها"، قاله الزمخشري؛ فيُعْرفُ إيمانُ الإنسان بمجرّد مخالطته، ولا يُعلمُ أنّه قانتٌ إلا بدوامِ مخالطته، وقدَّمَ القانتين على الصادقين والصابرين؛ لأنّ الصادقَ هو الذي يصدُق في نيّته وقولِه وعمله، والصّابرُ الذي يصبرُ على فعلِ الطّاعة وعن المعاصي، فحُصولُ وصْفِ القنوت لهم مع الإسلام سببٌ في اتّصافهم بالصدقِ والصّبر، ورتبةُ المسبَّب أنْ يكون بعد سببه، ثمّ مَنْ حصلت له هذه الأوصاف لا ينبغي له أنْ يثقَ بعمله، بل لا بد أنْ تكونَ سببًا لأنْ يبقى خائفًا خاشعًا؛ لأنّ هؤلاء مع فعلِهم هذا كلِّه متَّصفون بالخوفِ والخشوع.

وأخَّر (المتصدّقين) إمّا لأنّ ما قبلَه أوصافٌ قاصرةٌ، وهو وصفٌ بطاعةٍ متعدّية للغير، وأخَّر الصيام؛ لأنّه أمرٌ عَدَمي راجعٌ لترْك الأكلِ والشربِ والاستمتاع، وجميعُ ما قبلَه أمرٌ وُجوديّ، والوجودُ أشرفُ من العدم، وللسببِ ذاته قدّم الصَّومَ على حفظِ الفروج؛ لأنّ الصومَ تركٌ غيرُ دائم في زمانٍ ما، وهو النّهارُ فقط، وحفظُ الفروج تركٌ دائمٌ في كلّ الأزمان، فالصومُ أقربُ إلى الوجود، وحفظُ الفروج أبْعدُ منه، وأخَّرَها عن المتصدّقين؛ لأنّ الصدقات مَظِنَّةُ الغنى، ومنْ حصَل له الغنى فهو متمكّنٌ من شهوتَيْ بطنِه وفرجه، فأفادَ أنّهم مع ذلك يتركون شهوةَ بطونهم بالصوم، وشهوةَ فروجهم بحفظها عن المحارم، فجاء هذا شبه الاحتراس والتّكميل.

وأخَّرَ الذاكرين اللّه كثيرًا؛ إشارةً إلى قوله ﷺ: «من كان آخر قوله لا إله إلا اللّه دخلَ الجنة»[2]؛ أو لأنّه كالعلّة الغائيّةِ التي قال الحكماء فيها: "أوّلُ الفكرةِ آخرُ العمل"، فأفادَ أنّ فعلَهم ذلك كلَّه إنّما كان لذكرِهم اللّه تعالى، واستحضارِهم مقامَ الهيبة والإجلال[3].

وقد يكون وجهُ التّرتيب هو أنّه بدأ أولًا بالانقيادِ الظاهر، ثم بالتّصديق، ثم بالأوصاف

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 351.

(2) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (977).

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 297.

التي بعدهما تندرجُ في الإسلام وهو الانقياد، وفي الإيمان وهو التّصديق، ثم ختمها بخلّةِ المراقبةِ وهي ذكرُ اللّه كثيرًا[1].

نكتة التعبير بالفعل ﴿أَعَدَّ﴾ مادةً وصيغةً:

ينتظرُ المتّصفين بصفاتِ أصولِ التّشريعِ أجرٌ عظيمٌ مُهيّئٌ من الآن

لمْ يقلِ سبحانه: (لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ)، وإنّما عبّر بلفظ ﴿أَعَدَّ﴾ فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾؛ لإفادةِ العنايةِ بهذا الأجر، وبمن أُعِدّ من أجله، فهو كأنّه مُعَدٌّ لهم من الآن وهو ينتظرهم، أو أنّه مُعَدٌّ على الحقيقة، فالإعدادُ في اللغة هو تَهْيِئَةُ الشَّيْءِ، وتجهيزه وتحضيره[2]، وفي هذه المعاني مزيدٌ من التّرغيب للاتّصاف بهذه الصفات لقاءَ ما أعدّه اللّهُ لأصحابها من الأجر العظيم.

وقد ورد بصيغة الماضي؛ للدّلالة على بيانِ حتميَّةِ هذه المغفرةِ وهذا الأجر العظيم، وعدمِ إمكانِ خُلْفِه، أو للإشارة إلى أنّ الجنّة ونعيمها معدّةٌ منذ الآن للمؤمنين.

وجه التّصريح بلفظ الجلالة:

لا يـقـدِرُ أحـدٌ أنْ يَـقْـدُرَ اللـهَ سبحانه حَـقَّ قَـدْرِه فهو الذي لا يـتـعـاظَـمُـه شيءٌ

لم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بالاسم الجليل الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ مُضمَرًا، وإنّما صرّح به في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾؛ لكونه "العَلَمَ الْمُحْتَوَى عَلَى جَمِيعِ أَوْصافِهِ، لِيَتَذَكَّرَ الْمُسْلِمُ مَنْ تَذَكَّرَهُ، وهوَ اللَّه تَعالَى"[3]، وللإشارةِ إلى أنّ المطيعَ وإنْ جاوز الحدّ في الاجتهاد يبقى مُقصِرًا عن بلوغِ ما يحقّ للّه تعالى، وإلى صغرِ الذنوب إذا نُسبتْ إلى عفوهِ سبحانه، والمعنى: أعدَّ اللّهُ الذي لا يقدِرُ أحدٌ أنْ يَقْدُرَهُ حقّ قدرهِ، مع أنّه لا يتعاظمه شيء[4].

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿لَهُم﴾:

قدّم البيانُ الإلهيّ الجارَّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عدّ).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.

اختصاص المتّصفين بهذه الصفات بالأجرِ العظيم، واهتمامٌ بهم

﴿ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، ولم يقلْ: (أعدّ مغفرة وأجرًا عظيمًا لهم)؛ اهتمامًا بمن كانتْ هذه صفاته، وتنبيهًا على أنّ ما أعدّه اللّهُ من المغفرةِ والأجرِ العظيم لهم خاصٌّ بهم دون غيرهم، وكذلك مراعاةً للفاصلة القرآنية في الآيات.

علّة التّعبير بـ﴿لَهُم﴾ دون (لهنّ):

جمعُ الإناثِ مع الذكور في ضميرٍ واحدٍ من باب التّغليب والاختصار

عبّر البيانُ الحكيمُ بـ﴿لَهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ دون (لهنّ) أو (لهم ولهنّ)؛ وذلك من باب التغليب؛ كما هي عادةُ القرآن، أي: جَمَعَ الإناثَ مع الذكور وأدرجهم في الضمير[1]؛ لأنّ جمعَ المؤنّث يدخلُ في المذكّر، ولا يصحُّ العكس، وذلك اختصارًا.

سرّ تنكير قوله ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾:

المتّصِفون بهذه الصفات لهم مغفرةٌ عظيمةٌ عامّة من كلّ الذنوب

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ في قولِه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾؛ للتّعظيم، أي: مغفرةً عظيمةً[2]، ولإفادةِ العموم، فتشملُ كلَّ ما وقعوا فيه من هفواتهم وما أتوه من سيئاتهم فيما يتعلّق بكلّ أصلٍ من الأصول التي ذُكرت من صغائر أو كبائر تابوا منها.

نكتة حذف متعلّق المغفرة:

المغفرةُ عامّةٌ لِمَن كانت هذه صفاتهم لا عتابَ فيها ولا عقاب

حذفَ البيانُ القرآنيُّ المتعلّقَ في ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ اختصارًا؛ للعِلْم به، ولإفادةِ العموم؛ إذ لو اكتفى بذكرِ أحدِ أفرادِ المتعلِّق لاقتصرَ المعنى عليه، والمراد: مغفرةً من كلّ الذّنوبِ المتعلّقة بكلّ أصلٍ من الأصول التي ذُكرتْ في الآية، مع اشتراطِ التّوبةِ من الكبائر كما دلّت عليه دلائلُ الكتاب والسنّة، وكذلك حذفه تلطّفًا بالمؤمنين الذين هذه صفاتهم؛ فلا عقابَ ولا عتابَ، ولا ذِكْرَ لأيّ سببٍ من الأسباب[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الأحزاب، ص: 274.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.

وجه تقديم المغفرة على الأجر:

التَّخليةُ قبلَ التَّحليَةِ وطردُ المنغّصاتِ قبل جلبِ الخيرات

قدّمَ البيانُ الإلهيُّ المغفرةَ على الأجر في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا﴾؛ للإشارة إلى أنّه تعالى قد غسَل هفواتهم وما أتوه من سيّئاتهم التي كانتْ سببًا في تلوّثِ أرواحِهم بماءِ المغفرة، "بحيث يمحو عينه وأثره، فلا عتابَ ولا عقاب"[1]، ثمّ كتبَ لهمُ الثّوابَ العظيمَ الذي لا يعْرفُ مقدارَه إلّا هو، أي التّخلية قبل التّحلية، والواقعُ أنَّ أحدَ هذين الأمرين يطردُ كلّ المنغّصات، والآخرُ يجلبُ كلَّ الخيرات.

دلالة عطف الأجر على المغفرة بالواو:

الـجـمـعُ بين الفضل بالتّجاوز والتّفضّل بالكرم والرحمة

عَطَفَ اللّهُ سبحانَه ما أعَدّهُ للمؤمنينَ المتّصفينَ بأصولِ التّشريع الإسلامي من الأجر العظيم في قوله: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، على ما أعدّه لهم من المغفرةِ العظيمة الشاملةِ لذنوبهم في قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ بالواو؛ ليجمعَ لهم بين الفضْلِ بالتجاوزِ وما تبعهُ من التفضّل بالكرم والرحمة[2].

ثم إنّ المفعول به ﴿مَّغْفِرَةً﴾ والمعطوف عليه ﴿وَأَجْرًا﴾ كلاهما متعلِّقٌ للفعل ﴿أَعَدَّ﴾ فيصحُ الإخبارُ به عن كلِّ واحدٍ من الموصوفات المتعاطفات باعتبارِ المعطوف على مفعوله؛ لأنّ الأجرَ العظيمَ يصلُحُ لأنْ يُعطى لكلِّ واحدٍ، ويقبلُ التّفاوتَ، فيكونُ لكلٍّ من أصحابِ تلكَ الأوصاف أجرُهُ على اتّصافه به، ويكونُ أجرُ بعضِهم أوفرَ من أجرِ بعضٍ آخر.

نكتة التّعبير بالأجر وتنكيره:

الأجـرُ العظيمُ لا يُقادَرُ قَـدْرُهُ يستحقّه من عـمـلَ بهذه الصفات

التَّعبيرُ بالأجرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يدلُّ على التّكريم والجبرِ لكلّ مِن يتّصفُ بصفةٍ من هذه الصفات، وكأنّ ما يأخذهُ من هذا الكرمِ الإلهيّ ليس عطاءً، وإنّما هو أجرٌ مُستحقٌ له على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.

طيبِ ما عمله؛ لأنّ الأجرَ في أصلِ مادّته يدلُّ على الكِراءُ عَلَى العَمَلِ، وجَبْرُ العَظْمِ الكَسيرِ[1]، أي: فيه دليلٌ بنفسه على عظمته، وأمّا تنكيرُ الأجرِ فللدّلالة على زيادة هذه العظمة، فهو أجرٌ عظيمٌ فخيمٌ لا يقادرُ قدره، فالأجرُ من العظيم الكريم لا يكونُ إلا عظيمًا فخيمًا.

فائدة وصف الأجر بـ﴿عَظِيمًا﴾ مُنَكَّرًا:

أجرٌ عظيمٌ أعدّهُ اللهُ للمتّصفين بهذه الصفات

وصْفُ الأجرِ بالعظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ تأكيدٌ على عظمةِ هذا الأجر، وكون هذه العظمة مطلقةً دليلٌ آخرَ على سعةِ أطرافها وتراميها، ومن البديهيّ أنّ الشيءَ الذي يعدّهُ اللّهُ عظيمًا يكون خارقًا في عظمته، والمعنى: أعدَّ لهم مثوبةً وجزاءً لا يحيطه الوصف، على ما عملوه من طاعات.

دلالة صيغة فعيل في (عظيم):

مبالغةٌ في عظمِ الأجرِ الذي أعدّه اللهُ للمتّصفين بهذه الصفات

وصفَ النّظمُ الحكيم الأجرَ بأنّه عظيمٌ في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وهو صيغةُ مبالغةٍ على وزنِ فعيل؛ لإفادةِ المبالغة في عظم هذا الأجر الذي أعدّهُ اللّهُ للمتّصفين بهذه الصفات، فهو ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشر، فيكون في ذلك حثٌّ وترغيبٌ للاتّصاف بهذه الصفات لاستحقاقِ هذا الأجر العظيم والفوزِ به.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخشوع والإخبات والتذلّل:

الترقّي في درجات العبودية يناسب لفظ الخشوع

الإخباتُ أعلى من الخشوع، والخشوعُ أعلى من التّذلّل، فالخشوعُ لا يكونُ إلا مع خوفِ الخاشعِ للمخشوعِ له؛ لأنّه يرى فاعله أنّ من يخشع له فوقه، وأنّه أعظمُ منه، فلا يكونُ تكلّفًا، فهو انقيادُ الباطن للحقّ[2]، ويدلّ في أصله على التّطامُنِ والسُّكونُ والتَّذَلُّل[3]، ويظهرُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 248.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خشع).

أثره في القلب والصَّوْتِ والبَصَر والجوارح[1]، في حين أنّ الإخبات هو الاطمئنانُ[2]، والمخبتُ هوَ المطمئنُّ بِالإيمان، والمُجْتَهد بِالعبادَة، والملازمُ للطّاعةِ والسُّكون، فالإخباتُ على ما يوجِبهُ الاشْتِقاق هوَ الخضوعُ المستمرُّ على اسْتِواء[3]، للمخافةِ الثابتةِ في القلب مع الإطمئنان ودوام الإخلاص والإنابة لله[4]، وأمّا التذلّلُ فهو ضَعْفٌ وعجزٌ واسْتِكانَةٌ وضدّه العِزُّ والقوَّةُ[5]، فالتَّذلّلُ إظْهارُ العَجزِ عَن مقاومةِ من يتذلّل لَهُ، والذَّليلُ المفعول بِهِ الذل من قِبلِ غَيره في الحَقيقَة، وإن كانَ من جِهَة اللَّفْظ فاعِلًا، ولِهَذا يُمدحُ الرجل بِأَنَّهُ متذلّل ولا يُمدح بِأَنَّهُ ذليلٌ؛ لِأَنّ تذلُّلَه لغيره اعترافه لَهُ، والاعْتِرافُ حسنٌ، ويُقال: العلماء متذلّلون للهِ تَعالَى، ولا يُقال أذلّاء لَهُ سُبْحانَهُ[6]، وإيثارُ استعمال الخشوع في الآية دون غيره؛ لمناسبته للسياق إذ بدأ السياق بالتَّرقّي في درجاتِ العبودية فبدأ بالإسلام ثم الإيمان إلى أنْ وصلَ إلى الخشوع، وهو أقلُّ بالدرجةِ من الإخبات، فكانَ الخشوعُ أنسبَ لَما وردَ قبله وبعده من صفات.

الحفظ والصَّوْن والحماية:

حفظُ الفروج تحتاجُ إلى المبالغةِ في الحياطة القويّة الضابطةِ لها

الحفظُ أوسعُ دلالةً من الصَّوْن والحماية، فالحفظُ هو مراعاةُ الشَّيءِ وحراستُه ومراقبتُه، والحياطةُ: القوّة الضابطة له فلا يضيعُ ولا يتفلّت[7]، ويكون حفظه بالمنع للشيءِ بتفقّده ورعايته، وبصرفِ المكارهِ عنه لئلّا يهلك[8]، أمّا الصَّوْنُ: فهو حفظُ الشيء ووقايتُه ممّا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، وعمدة الحفاظ: (خشع).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خبت).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 250.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/ 21.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (ذلّ).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حفظ).
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 192، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حفظ).

يُفسِده[1]، والحمايةُ هي الدفاعُ عن الشَّيءِ والمنعُ عنه[2]، ومن هنا ناسبَ استعمالُ لفظ الحفظ في الآية للمبالغةِ في حفظِ الفروج، بالحياطةِ القويّة في حراستها ومراقبتها، ومنعِ وصرفِ عنها كلّ ما يؤدّي إلى الوقوع في الحرام.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (صون).
(2) الجوهري، الصحاح، وأبو بكر الرازي، مختار الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (حمي).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانـتـقـالُ من أحـكـامِ الـشّـرعِ الـثّـابـتـةِ إلى أحـكـامِ الـشّـرعِ المُستجدّةِ

بعد أن ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ الأوصافَ التي يجب أن يتحلّى بها الرّجالُ والنِّساء في المجتمع المسلم، وذكرت في آخرها ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب: 35]؛ ناسبَ أن يُذكرَ شرطُ قَبول تلك الصّفاتِ على الدّوام فيما يكونُ فيه حكمٌ لله تعالى، وهو الانقيادُ التّامُّ لِما يحكمُ به الله ورسولُه في أيّ أمرٍ من أمور الحياة، فإنَّ الالتزام بصفات الشّرعِ الظّاهرِ الثّابتةِ مطلبٌ مهمٌّ، ومثلُه الالتزامُ بأحكام الشّرع فيما يَستجدُّ من أمور الحياة، فإنَّ الآيتين قد جمعتا بين ما كان ثابتًا في أمور الشّرع وما كان مُستجدًّا من أحكام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَضَى﴾: (قضى) أصلٌ يَدُلُّ عَلى إحْكام أمْرٍ وإتْقانِهِ وإنْفاذِهِ لِجِهَتِه، قالَ اللّه تعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12] أيْ أحْكَمَ خَلْقَهُنَّ[1]، والقَضاءُ: فصلُ الأمر قولًا كان، كما في قوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] أي: أمر بذلك، أو كان فعلًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ [غافر: 20][2]، والمرادُ بالقضاء هنا الحكمُ والأمرُ.

2) ﴿ٱلۡخِيَرَةُ﴾: (خير) أصلٌ يدلُّ على العَطْف والمَيْل، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه، فالخَيْرُ: خِلافُ الشَّرِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ أحَدٍ يَميلُ إلَيْه ويَعْطِفُ عَلَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضى).
(2) الراغب، المفردات: (قضى).

صاحِبِه، والاسْتِخارَةُ: أنْ تَسْأَلَ خَيْرَ الأمْرَيْنِ لَكَ، وكُلُّ هَذا مِنَ الاسْتِخارَةِ، وهيَ الِاسْتِعْطافُ[1]، والخيرَةُ اسْمٌ مِنَ الاخْتيارِ مِثْلُ: الفِدْيَةِ مِنْ الافْتِداءِ، والخِيَرَةُ بِفَتْحِ الياءِ بِمَعْنَى الخيارِ، والخيارُ هوَ الاخْتيارُ، ومِنْهُ يُقالُ لَهُ خيارُ الرُّؤْيَةِ ويُقالُ: هيَ اسْمٌ مِنْ تَخَيَّرْتُ الشَّيْءَ مِثْلُ: الطِّيَرَةِ اسْمٌ مِنْ تَطَيَّرَ، وقيلَ: هُما لُغَتانِ بِمَعْنًى واحِدٍ[2]، والمرادُ بها هنا الاختيارُ، أي: ليس لهم أن يختاروا من أمرهم[3]، ما يخالفُ حكمَ اللهِ ورسولِه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حكـمُ اللـه ورسـولِـه فـوقَ كـلِّ اعـتبـارٍ ولا يستقيمُ بعدَه الاختيارُ

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّه لا ينبغي ولا يجوزُ ولا يستقيمُ لمؤمنٍ أو مؤمنةٍ ظاهرًا وباطنًا أن يختاروا حُكمًا سوى حُكمِ اللهِ ورسولِه، فإن جاء حكمُ اللهِ تعالى وحكمُ رسولِه في أمرٍ منَ الأمورِ؛ فإنَّ الإيمان يمنعُ صاحبَه أن يُفكِّر في الاختيارِ، بل عليه أن يخضعَ ويخنعَ ويستسلمَ لِما حَكم اللهُ وحكمَ رسولُه، فهذا هو مقتضى الإيمان، ومقتضى سلوك الإسلام، ومن يعصِ اللهَ ورسولَه بعد حُكمِهما فقد ضلَّ ضلالًا مبينًا لا يختلفُ فيه المؤمنون، ولا يَخفَى على ذي بصرٍ وبصيرةٍ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الـــواوُ تحتمـلُ الـــعــــطـــفَ والاستئنافَ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ تحتملُ العطفَ على الجملة السّابقة ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: 35][4]، وقد سبق بيانُ المناسبةِ بين الآيتين، وهو من باب عطْفِ حُكمِ الالتزام بأحكام اللهِ ورسولِه التي تخصُّ بعضَ المؤمنين، على حُكمِ الالتزام

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (خير).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (خير)، وابن الهائم، التبيان، ص: 257، والهروي، الغريبين: 2/ 608.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 31.
(4) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 22/ 19.

بشرع اللّه ورسولِه في القضايا التي تعمُّ كلَّ مسلم، وتحتملُ الواوُ أن تكون استئنافيةً، والكلامُ مَسوقٌ للشُّروع في قصَّة عبدِ اللّه بنِ جحش وأختِه زينبَ وزيدِ بنِ حارثةَ ﭫ أجمعين[1].

ويرى ابنُ عاشور أنَّ الواو لعطف الجملة على كلامٍ نزلَ قبْلَها من سورة أخرى، لم نقفْ على تعيينه ولا تعيينِ السّورة التي كانت الآيةُ فيها، وهو عطفُ جملةٍ على جملةٍ لمناسبةٍ بينهما[2]، وهو رأيٌ لا يستندُ لدليلٍ، ولا يظهرُ له معنًى.

بلاغةُ النَّهي بأسلوبِ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

النَّهيُ بأسلوب (مـا كـان) أبلغُ لتنزيلِه منزلةَ الـخـبرِ الـذي لا يتخلّفُ

استعملَ النّظمُ الكريمُ أداةَ النّفي (ما) للدّلالة على العموم، ودخلت على ﴿كَانَ﴾ لإفادةِ نفْيِ عموم الكوْنِ عن فعل الخيرة، فهي للدَّلالة على الحظر والمنْع الشّرعيَّيْن، فيكونُ الخبرُ هنا في معنى النّهي[3]، فإنّ التّعبيرَ بما كان ونحوها: معناه الحظْرُ والمنع، فيجيءُ لحظرِ الشّيء والحُكم بأنّه لا يكونُ[4]، بل هو أشدُّ في النَّهي من صيغ النَّهي المعروفةِ؛ لأنَّه نفَى الكونَ العامَّ، فنزّله منزلةَ الخبر الذي لا يتخلّفُ، فكذلك فعلُ المؤمن، والمؤمن يجبُ أن لا يتخلّف عن حكم اللّه ورسولِه ﷺ، والمعنى: ما صحَّ وما استقامَ لمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ فالمنفيُّ هو "الصّحةُ واللّياقةُ، وهذا المبنى شائعٌ في الاسْتعْمال فصار حَقيقَةً عرفيةً"[5].

نكتةُ ذكرِ فعل ﴿كَانَ﴾:

المبالغةُ في انتفاءِ حُكم النَّهي عنِ المخالفةِ

ذُكر فعلُ ﴿كَانَ﴾؛ لإفادة المبالغةِ في انتفاء الحُكم، فإنَّ إدخالَ "كان في النّفي أقوى دلالةً على انتفاء الحكم؛ لأنَّ فعلَ كان لدلالته

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 18، والخراط، المجتبى: 3/ 970.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 26.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 299.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 187.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 361.

على الكون، أي: الوجودُ يقتضي نفيُه انتفاءَ الكونِ الخاصِّ برُمّتِه"[1]، وليس المقصودُ بنفيِ الكون نفيَ الوقوع، فإنّه قد يقعُ من بعض المُخالِفين، فلا يُقال إذا وقع: قد وقع الخُلفُ في الخبر، فالخبرُ هنا في معنى النّهي.

نوعُ اللّام ودلالتُها:

شــأنُ المـؤمـن أن يَـلـزم حـدَّه بالطّاعة وترك المخالفةِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِمُؤۡمِنٍ﴾ للتّأكيد، أي: تأكيدِ نفْيِ إقبال عمومِ المؤمنين على تقديم اختيارِهم على حُكم اللّه ورسولِه، فالمؤمنون لا يصدرُ عنهم هذا التّجاوزُ في حقِّ اللّه ورسولِه، ويحتملُ أن تكون اللّام للملك، والمعنى: ما كان اختيارُ بعض شؤونِهم ملكًا يملكونَه، بل يتعيَّنُ عليهم اتّباعُ ما قضى اللّه ورسولُه ﷺ فلا خيرةَ لهم[2].

علّةُ التّعبيرِ بالإيمان دون الإسلام:

جاء استعمالُ لفظِ الإيمان في قوله تعالى: ﴿لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾؛ لأنَّ الرّضا بحُكم اللّه ورسولِه، هو من أعمالِ القلوبِ المبنيّةِ على اليقين والتّصديقِ، وذلك من شأن الإيمانِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ (مؤمن ومؤمنة):

حُكمُ اللّه تعالى يَعمُّ ولا يخصُّ

نُكِّر لفظُ (مؤمن ومؤمنة) لإفادة العموم، فهما نكرتان وقعتا في سياق النّفيِ، فيشملُ جميعَ من دخل الإيمانُ قلبَه وكان مكلَّفًا، ولا يخرجُ من ذلك حاكمٌ ولا محكومٌ، ولا عالمٌ ولا جاهلٌ، ولا صاحبُ طريقة ولا مريدٌ، ولا صغيرٌ ولا كبيرٌ.

نكتةُ عطفِ لفظِ ﴿مُؤۡمِنَةٍ﴾ على ﴿لِمُؤۡمِنٍ﴾:

يستوي الـذَّكَـرُ والأنـــثـــى في وجـوب الالـتـزام بالشّرعِ

عُطف لفظُ المؤمنة على المؤمن في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾؛ للدّلالةِ على اشتراكهما في الحُكم؛ فلا فرقَ بين المؤمن والمؤمنة في وجوب التزام حُكم اللّه ورسولِه، وعدمِ وجودِ الاختيار

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 27.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 28، 20/ 165.

الشَّخصيِّ معه، فالحكم يعمُّ المتعاطفين ويدخلُ في عموم المؤمن والمؤمنة دخولًا أوَّليًّا من نزلت في شأنه الآيةُ[1].

نكتةُ دخولِ حرفِ (لا) على ﴿مُؤۡمِنَةٍ﴾:

دخلت (لا) على ﴿مُؤۡمِنَةٍ﴾؛ للإشعارِ باستقلالِها في الحُكم، أي: أنَّ المؤمنة منهيّةٌ عنِ الخيرةِ كنهيِ المؤمن، مع ملاحظة اختلافِ ما يخصُّهما باعتبار اختلافِ الجنسِ.

نوعُ ﴿إِذَا﴾ ودلالتُها:

تحتملُ (إذا) الظَّرفيّةَ والشّرطيّةَ

قولُه تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ﴾ يجوزُ أن يكون محْضَ ظرفٍ معمولُه الاستقرارُ الذي تعلّق به الخبرُ، أي: وما كان مُستقرًّا لمؤمن ولا مؤمنة وقْتَ قضاءِ اللّه كونُ خيرةٍ، ويجوز أن تكون شرطيّةً، ويكونَ جوابُها مقدَّرًا مدلولًا عليه بالنّفيِ المُتقدّمِ[2].

نكتةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

حُكمُ اللهِ متحقِّقٌ في شؤونِ العبادِ ولا يخلو أمرٌ منَ العلمِ به

آثرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ أداة ﴿إِذَا﴾ الدّالّةِ على التّحقّقِ دون (إن) الدّالّةِ على الاحتمال؛ للإشعار بأنَّ ما يحتاجُ النّاسُ إليه منَ الأحكام الإلهيّةِ هو حاصلٌ لا محالةَ، وأنَّ بيانَ أمرِه سبحانه فيما يحتاجُ إلى بيانٍ هو أمرٌ محقّقُ الوقوعِ، فاللّه تعالى إنَّما يقضي لعباده منَ الأحكام ما يحتاجون إليه ويفصّلُها لهم، ولا يكِلُهم في هذا الباب إلى اختياراتِهم التي قد تحيدُ عن صوابِها، وللدّلالة على أنَّ ما يجبُ امتثالُه وعدمُ المحيدِ عنه هو ما عُزم فيه القضاءُ والأمرُ بحيث "لم يجعل للمأمور فيه خيارًا في الامتثال"[3]، ولبيانِ أنَّ جميعَ الأمورِ الثّابتةِ والمستجدّةِ فإنَّ للّه فيها حُكمًا، يُبيِّنه رسولُه ومَن بعدَه منَ العلماء.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 480.

(2) السمين، الدر المصون: 9/ 124.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 27.

إيثارُ فعلِ ﴿قَضَى﴾ مادّةً وصيغةً:

عبَّر بلفظ القضاءِ لدلالتِه على الفصلِ والإحكامِ والإنفاذِ، وهو ما عَزمَ أمره ولم يجعل للمأمور خيارًا في الامتثال[1]؛ لذلك اختيرت صيغةُ الماضي الدّالّةُ على تحقّقِ الوقوع.

نكتةُ ذكرِ لفظ الجلالة:

أُسند الفعلُ ﴿قَضَى﴾ إلى الاسم الأجلِّ تفخيمًا لشأنه، وإيجابًا لامتثاله، وترهيبًا منَ الميل عنه؛ لأنَّ الاسمَ الأجلَّ يُلقي المهابةَ في القلوب، لتفزعَ إلى الطّاعة وتفرَّ منَ العصيان.

فائدةُ عطفِ لفظِ الرّسول على لفظِ الجلالة:

أوامـــــرُه ﷺ وطـاعـتُـه من طاعةِ الله تعالى

في عطْفِ لفظ الرّسولِ على لفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ دلالةٌ على وجوب امتثالِ قضائه ﷺ وإنفاذِ أوامرِه واجتنابِ نواهيه؛ لأنَّ قضاءَ الرّسول معطوفٌ على قضاء اللّه تعالى؛ فأخذَ حُكمَه في الوجوب، أي: "هما مُتحدّان في الخارج ولذا حُمل عليه بالمواطأة، وإن كانا متغايرَيْن مفهومًا ولذا عُطف عليه؛ إذِ التّقديرُ: (إذا قضى اللّه وقضى رسولُه) ونظيره قَوْلُه تَعالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80]"[2]، وقيل: إنَّ المقصودَ هو قضاءُ رسولِ اللّه ﷺ، وإنّ ذكرَ لفظِ الجلالة ليُعطف عليه: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾؛ لتعظيم أمره ﷺ، ولقوّة الاختصاص، وبيانِ أنَّه صلواتُ اللّه عليه بمنزلةٍ منَ اللّه ومكانةٍ[3].

نكتةُ إضافةِ لفظ (رسول) إلى الضَّمير:

تشريفُ الرّسول وبيانُ مشروعيّة طاعتِه

أضيف لفظُ الرّسول إلى ضميره سبحانه فقيل: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ تشريفًا له ﷺ بهذه الإضافة، وإنَّما كانتِ الإضافةُ إلى الضّمير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 27.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 362.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 427، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 202.

وليس إلى الاسم الظّاهرِ؛ للعلم بمرجع الضّمير وأنّه للّه تعالى، فلا حاجةَ إلى إظهاره مرّةً أخرى، فلا التباسَ في الأمر، كما أنَّ في الإضافة دلالةَ المشروعيَّة على وجوب طاعتِه، أي: لأنَّه رسولُ اللّه أرسلَه بالإسلام فطاعتُه واجبةٌ.

فائدةُ تنكير ﴿أَمۡرًا﴾:

نُكِّر الأمرُ في قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا﴾ لإفادة العموم، فيشملُ كلَّ أمرٍ قضى اللّه فيه حُكمًا ورسولُه، وهو توكيدٌ لمعنى العموم في مطلع الآيةِ.

علَّةُ تقديمِ خبرِ كان على اسمها:

اجتماعُ العلَّةِ المعنويّةِ واللّفظيّةِ قوّةٌ في النّظم وجمالٌ في الرّصف

لمّا كان من دواعي التّقديم، الاهتمامُ بالمُقدَّم، قُدّم خبرُ ﴿كَانَ﴾ وهو قولُه: ﴿لِمُؤۡمِنٖ﴾ على اسمها وهو المصدرُ المؤوَّل ﴿أَن يَكُونَ﴾ اهتمامًا بشأن المكلَّفين بعدم المحيدِ عمّا قضاه اللّه ورسولُه، وإبرازًا لكوْنِ الإيمان مانعَهم من هذا، فهم موضعُ العنايةِ والاهتمام في السّياقِ، ولثِقلِ ذلك في اللّفظ؛ فإنَّ قولنا: (وما كان أن يكون لأحد أن يفعل) ثقيلٌ في اللّسان، وفصاحةُ العربيّ تأباهُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمصدر المؤوّلِ:

بيانُ استمراريَّةِ نفْيِ الفعل في كلِّ الأزمان

المصدرُ المؤوّلُ ﴿أَن يَكُونَ﴾ هو الاسمُ المؤخَّرُ لـ﴿كَانَ﴾ المنفيّة، ومقصودُ إيثارِ التّعبير به دون المصدرِ الصّريحِ هو ما يفيدُه الفعلُ المضارعُ المؤوّلُ مع ﴿أَن﴾ بمصدرٍ من دلالةٍ على الاستمرار؛ إذ ليس من شأن المؤمن ولا المؤمنة أن يكون لهم في أيِّ وقتٍ منَ الأوقات اختيارٌ مع اختيار اللّه ورسولِه، سواءٌ فيما قائمٌ في الحال، أم فيما هو آتٍ في الاستقبال، فهو نفيٌ مستمرٌّ يعمُّ كلَّ الأزمان، وهو يتّسقُ مع مضمون الآية.

توجيهُ القراءاتِ المتواترة:

في قوله تعالى: ﴿أَن يَكُونَ﴾ قراءتان متواترتان؛ فقد قرأ

قــراءةُ (يـكـون) لمـراعـاةِ الفصل و(تـكـون) لمراعاةِ اللّفظ

الكوفيّون عاصمٌ وحمزةُ والكسائيّ وهشامٌ ﴿يَكُونَ﴾ بالياء من أسفل؛ لأنّ لفظَ ﴿ٱلۡخِيَرَةُ﴾ مجازيُّ التّأنيث، وللفصل بين فعل ﴿يَكُونَ﴾ ولفظِ ﴿ٱلۡخِيَرَةُ﴾، وقرأ الباقون بالتّاء من فوق: ﴿تَكُونَ﴾ مراعاةً للفظِها(1)، والقراءتان في غاية الحسن والبلاغة والدّلالة على وجوب الانقيادِ المطلقِ للّه تعالى ورسولِه ﷺ، ولو جعلنا قراءةَ الياء التّحتانيَّة على حذْف مضافٍ لاحتمله المقامُ، والتّقديرُ: (أن يكون لهم أمرُ الخيرة).

دلالةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلۡخِيَرَةُ﴾ على المعصيةِ:

الـــخـــيرةُ هي اختيارُ أمـرٍ من أمــورٍ أحدُهـمـا حُكمٌ لله تعالى

الخيَرة بكسر الخاء وفتح التّحتانيّة: اسمٌ لمصدرِ الاختيار مثل الطّيَرةِ اسمٌ لمصدر التّطيّر، والتّعبيرُ باسم المصدرِ ﴿ٱلۡخِيَرَةُ﴾ أجزلُ للمعنى(2)؛ فإنَّ النَّهي قدِ انصبَّ على قضيّة الخيرة، لا المخالفةِ والمعصيةِ فحسب، وذلك أنَّ الاختيار بين حُكم اللّه ورسولِه وحُكم غيره معصيةٌ عظيمةٌ، فلو فكّر المسلمُ فيمَ يختارُ؟ وفيما يُناسبُ مصلحتَه؟ فإنَّه عاصٍ للّه تعالى؛ لأنَّه واقعٌ في مرمَى الخيَرة، ولوِ اختار حُكمَ اللّه تعالى فيما يوافقُ مصلحتَه فهو كذلك عاصٍ؛ لأنَّه لم يأخذْه على سبيل التّسليم بل على سبيلِ تحقيقِ المصلحةِ الخاصّةِ، فالخيرةُ هي اسمٌ جامعٌ لفعل كلِّ ما يكونُ من ورائه اختيارُ أمرٍ من أمور، يكون أحدُها حُكمًا للّه تعالى، وأمّا المعصيةُ فهي المخالفةُ الصّريحةُ، وقد تكون الخيرةُ في بعض صورِها أبشعَ وأشنعَ وأقبحَ منَ المعصية.

نوعُ ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُها:

حرفُ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ للتّبعيض، أي من

---

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 124، والفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 476، وابن الجزري، النشر: 2/ 348.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 363.

بعض أمرِهم، - ولو قلَّ - والمقصودُ به ما كان فيه عزمُ قضاءِ اللّه ورسولِه، بحيث لم تُترك فيه إتاحةُ الاختيار.

فائدةُ التّقييدِ بالجارّ والمجرور:

الإذعانُ لحُكمِ اللّه ورسولِه واجبٌ في الشّؤون العامّة والخاصّةِ

قولُه تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ حالٌ منَ ﴿ٱلۡخِيَرَةُ﴾[1]، وفائدةُ هذا القيد تنبيهُ المخاطَبين إلى أنّه يجبُ عليهم تغليبُ ما قضاه اللّه ورسولُه عليهم، حتى لو كان ذلك في أخصِّ أمورِهم وشؤونِهم كاختيارِ الزَّوج؛ إيماءً إلى ما حصلَ منَ السّيدة زينبَ بنتِ جحشٍ وأخيها عبدِ اللّه في عدم رضاهُما باختيار رسولِ اللّه ﷺ زيدَ بنَ حارثة رضي الله عنه زوجًا لها، حتى نزلت هذه الآية فرَضيا بذلك.

وإذا ما تجاوزنا هذه الواقعةَ الخاصّةَ إلى عموم شؤونِ المؤمنين، فإنّ الشّأنَ فيهم والواجبَ عليهم يحتِّمُ أن يُغلِّبوا حُكمَ اللّه ورسولِه في كلّ شيءٍ، وأن يُجروه على كلِّ ما يتعلّقُ بهم من شؤونهم العامّةِ والخاصّةِ، وألّا يجعلوا لهم اختيارًا مع ما ظهرَ فيه حُكمُ اللّه والرّسولِ.

نكتةُ إضافةِ (أمر) إلى ضمير الغائبين:

حُكمُ اللهِ إذا التُزِم فيما يخصُّ عمَّ نفعُه

أُضيف لفظُ الأمر إلى ضمير الغائبين في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ لبيان خصوصيَّةِ هذا الأمر، فالإضافةُ هنا إضافةُ اختصاصٍ؛ على معنى: أنَّ المؤمنين يقدِّمون حُكمَ اللّه ورسولِه على رغبات أنفسِهم حتى في أخصِّ شؤونِهم التي تمسُّ حياتَهم، ومنها اختيارُ الزّوج، في السّياق الذي وردت فيه الآيةُ الكريمة.

نكتةُ إضافةِ أمر إلى ضمير الغائبين:

حكمُ العبادِ بأمرِ الله اعتقادًا وامتثالًا

وُحِّد لفظُ الأمر وهو الشّأنُ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾؛ لأنَّ المراد به الجنسُ، والمعنى: "ما كان اختيارُ المؤمنين لبعض شؤونِهم

(1) الصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 5/ 327.

ملكًا يملكونَه بل يتعيّنُ عليهم اتّباعُ ما قضى اللّه تعالى، ورسولُه ﷺ فلا خيَرة لهم[1].

سرُّ جمعِ الضّمير في قوله: ﴿لَهُمُ﴾ و﴿أَمْرِهِمْۗ﴾:

أمرُ الجماعةِ في حُكم الله تعالى كأمرِ الأفراد لا يختلفُ

جُمع الضّميرُ في الموضعين: ﴿لَهُمُ﴾ و﴿أَمْرِهِمْۗ﴾ مع أنّه فيهما راجعٌ إلى مفردتَيْ ﴿لِمُؤْمِنٖ﴾ و﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ فكان من حقه أن يوحَّدَ، كما تقول: ما جاءني من رجلٍ ولا امرأةٍ إلّا كان من شأنه كذا[2]؛ لأنَّ المرادَ بهما عمومُ الجنس، فهما نكرتان وقعتا في سياق النّفيِ فأفادتا العمومَ، فأوثر الجمعُ ردًّا على هذا القصد، أي على المعنى، لا على اللّفظ، وفائدةُ ذلك الإيذانُ بأنَّه كما لا يصحُّ لكلّ فردٍ منَ المؤمنين أن يكون لهم الخيرَةُ، كذلك لا يصحُّ أن يجتمعوا ويَتَّفِقوا على كلمةٍ واحدة؛ لأنَّ تأثيرَ الجماعة واتّفاقَهم أقوى من تأثيرِ الواحد، فجمعَ في الآية المعنَيين معًا[3]، وعليه فكلُّ أمرٍ اجتمعَ عليه النّاسُ أو بعضُهم فيه ما يخالفُ حكمَ اللّه تعالى، أو فيه اختيارٌ بين حُكم اللّه تعالى وحكمِ غيره، فهو والعياذُ باللّه مخالفةٌ صريحةٌ لأمر اللّه وحُكمِه، والمعنى على الضَّمير في قوله: ﴿لَهُمُ﴾، ما كان للمؤمنين أن يكون لهم اختيارٌ في شيءٍ من أمورهم إذا قضى اللّه ورسولُه لهم أمرًا[4].

ويحتملُ أن يكون ضميرُ الجمع عائدًا إلى ﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ وكان المقتضى على ذلك تثنيةَ الضَّمير، فيُقال: (من أمرهما)؛ لكنَّه عدَلَ إلى الجمع للتَّعظيم على سبيل الاستعارة[5].

دلالةُ واوِ العطف:

اشـتراكُ المُتخيِّر والـعـاصي في حكمٍ واحدٍ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ للعطف، حيث

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 28.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 540.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 427.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 202.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 363، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 202.

عطفتِ الجملةَ على جملة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، ونكتةُ الجمع بينهما بالعطف هو بيانُ أنَّ المتخيِّرَ لحكم دون حكم الله تعالى، والعاصيَ صراحةً يشتركان في حكمٍ واحد، وهو الضّلالُ المبينُ.

فائدةُ استعمالِ اسمِ الشّرط:

التّحذيرُ يشملُ عمومَ العُصاةِ وخصوصَ المتخيِّرين

(من) في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ شرطيَّةٌ، وهي تعمُّ كلَّ من يصدرُ عنه معصيةٌ، وهو قانونٌ عامٌّ يشملُ كلَّ من هو أهلٌ للخطاب والتَّكليف، بحيث يحذِّرُهم جميعًا من عصيان الله ورسولِه، وهو بالنّسبة لعموم المؤمنين "تذييلُ تعميمٍ للتّحذير من مخالفةِ الرّسول ﷺ سواءٌ فيما هو فيه الخيرةُ أم كان عن عمدٍ للهوى في المخالفة"[1].

إيثارُ التّعبير بالعصيان مادّةً وصيغةً:

التّخيُّر بدايةُ العصيان ومآلُه الضّلالُ المبينُ

العصيانُ هو الخروجُ عنِ الطّاعة، وأصلُه أن يتمنّع بِعَصاه[2]، وكأنَّ العاصيَ قد حارب الله ورسولَه بعصاه، فخرج على طاعة الله ورسولِه، فلهذا المعنى الذي تحملُه مادّةُ العصيان أوثرَ التّعبيرُ بها، كي يظهرَ التّجانسُ بينها وبين الجزاءِ المذكورِ في تتمّة الآية، وأمّا الصّيغةُ وهي صيغةُ المضارع، فإنّها تفيدُ أنَّ الوعيد المذكورَ في الآية هو لمنِ استمرأ معصيةَ الله ورسولِه، فداومَ واستمرَّ عليها، وراح يكرّرُها دون مبالاةٍ، ولذا حقَّ عليه الجزاءُ، وما يترتّبُ عليه منَ الوعيدِ، وهو قوله سبحانه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

بلاغةُ حذفِ القيد:

حُذِف القيدُ المتعلّقُ بفعل ﴿يَعْصِ﴾ لغرضِ التّعميم وعدم تعيينه حتى يكونَ المعنى: ومن يعصِ اللهَ ورسولَه في أيِّ أمرٍ فيه حكمٌ لله تعالى ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 28.

(2) الراغب، المفردات: (عصى).

الأمـرُ إذا تـكـرّرَ تقرّرَ

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

آثر النَّظمُ الكريمُ إظهارَ ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ دون الاكتفاء بالإضمار؛ فلم يقل: (ومن يعصِهما)، بعد أن قال: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾؛ لتعظيم جريمةِ العصيان، فإنَّ ذكرَ من عُصي إظهارًا ليس كإضمارِ ذكرِه.

شـرفُ الـرّسـول ومكانتُه في كونِه معظَّمًا من عندِ الله تعالى

نكتةُ تعريفِ الرّسولِ بالإضافة:

عُرِّف لفظُ الرّسول في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الموضعين بالإضافة إلى الضَّمير، ولم يقل: (اللّه والرسول)؛ وذلك لِما في الإضافة منَ التّشريف والتّعظيم لقدره ﷺ، ولِما فيها من الدّلالة على أنَّ طاعتَه ﷺ في قضائه وأوامرِه هي عينُ طاعةِ اللّه تعالى، وكذلك معصيتُه هي عينُ معصيةِ اللّه سبحانه.

تذييلٌ تحذيريٌّ من مخالفة أمرِ الشَّرع

دلالةُ الجملةِ الشّرطيّةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ تذييلٌ وتعميمٌ قُصد به التّحذيرُ من مخالفة الرّسول ﷺ، سواءٌ فيما هو فيه الخيرةُ، أم كان عن عمدٍ للهوى في المخالفة[1]، كما أنَّ فيها حُكمًا مؤكَّدًا بأنَّ مخالفةَ قضاء اللّه ورسولِه هو ضلالٌ ظاهرٌ مبين.

تـأكـيـدُ وصـفِ الـــضّـــلال بالعصاة

سرُّ تأكيدِ جوابِ الشّرط:

رُبط بين الشّرط وجوابِه ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ بالفاء التي دخلت على حرف التَّحقيق (قد) فأفاد ذلك تأكيدَ حصولِ جزاءِ الشّرط لمن عصى اللّه ورسولَه، وهو الوصفُ بالضّلالِ المبين، الذي يترتّبُ عليه الوعيدُ الشّديدُ، وذلك حتى لا يقعَ التّهاونُ في أمر المخالفةِ والعصيانِ.

سرُّ اصطفاءِ لفظِ الضَّلال:

الضَّلالُ هو السّيرُ في غير الطّريق الموصِلِ، فالضّالُّ في باديةٍ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 28.

يسيرُ في غير طريقِ النّجاة، وكلّما بعُدَ عنِ الطّريقِ المستقيم أوْغَل في الضَّلال[1]، فكان ضلالُه واضحًا بيّنًا لا يحتاجُ إلى جهد في إدراكه والوقوفِ عليه، وجاء ذكرُ الضّلال في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ لبيانِ أنَّ الضّالَّ قدِ ابتعد بإبانةٍ عنِ الطّريق الموصلِ للنّجاة التّامة، وفي اختيار صيغةِ الماضي ﴿ضَلَّ﴾ دليلٌ على تحقُّقِ وقوعِ الضَّلال لكلِّ من يخالفُ عن أمرِ اللّه ورسولِه.

بقدْرِ الابتعادِ عنِ الشَّرعِ يكون قدرُ الضَّلال

نكتةُ تأكيدِ الضّلال بالمفعول المطلقِ:

المفعولُ المطلقُ ﴿ضَلَٰلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَلَّ ضَلَٰلٗا﴾ مؤكِّدٌ لمعنى فعلِه ﴿ضَلَّ﴾، أي: مؤكِّدٌ للحُكم بضلالِ من يخالفُ قضاءَ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ، وفي ذلك دلالةٌ على عِظم إثمِ هذه المخالفةِ.

المفعولُ المطلقُ يؤكِّدُ حصولَ الضَّلال

فنُّ الجِناسِ الاشتقاقيّ:

في قوله تعالى: ﴿ضَلَّ ضَلَٰلٗا﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ يحملُ الدّلالةَ النّحويّةَ التي دلَّ عليها المفعولُ المطلقُ منَ التّأكيد على حصول ضلالِ العصاةِ المخالفين.

بلاغةُ وصْفِ الضَّلال بالمبين:

وُصف الضّلالُ في الآية بكونِه ﴿مُّبِينٗا﴾ إيغالًا في التّحذير منَ المخالفة والعصيانِ، وحثًّا على الحرص على تجنّبهما؛ لأنَّ الوقوع فيهما هو ذنبٌ شديدٌ وضلالٌ ظاهرٌ لا شُبهةَ فيه ولا لبسَ، والإبانةُ هي في كون الضّلال يُبيِّنُ حقيقتَه بآثاره ومآلاته وحقيقته.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

ورد وصْفُ الضَّلال بالبُعد في عدد منَ الآيات القرآنيّة منها قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء: 116]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء: 136] وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

وصفُ الضَّلال بالبُعدِ في سياقِ العقيدةِ وبالمبُين في سياق الشّريعةِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/ 1861.

﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾ [النساء: 167]، وأمّا في آية الأحزاب فقد وُصف الضّلالُ بكونه مُبينًا، حيث قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

ويظهرُ الفرقُ في اختلاف وصْفِ الضَّلال، فوُصف بالبعيد في سياق الحديث عنِ الشِّرك، ووُصف بالمبين في سياق العصيان، فمن أشرك باللّه أو كفرَ به، فقد وقع في الضّلال البعيدِ، وهو أبلغُ وصفًا وأعمقُ دلالةً منَ الوصفِ بالضّلال المُبين؛ لأنَّ الضّلال البعيدَ لشدّة ابتعادِه لا يُرى، بخلاف المُبين فهو مع كونِه ضلالًا لكنّه يُرى ويُرجى الرّجوعُ عنه بالتّذكيرِ والموعظةِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القضاءُ والحكمُ:

القضاءُ مبناه على اليقين، والحُكمُ مبناه على النَّظر

القضاءُ يقتضي فصْلَ الأمر على التّمام، فهو من قولك: قضاه إذا أتمّه وقطعَ عملَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [الأنعام: 2] أي: فصلَ الحُكمَ به، وقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4] أي: فصلنا الإعلامَ به، وقال: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: 14] أي: فصلنا أمرَ موتِه، والحكمُ يقتضي المنعَ عنِ الخصومة.

ويجوزُ أن يُقال: الحُكمُ فصلُ الأمرِ على الأحكام بما يقتضيه العقلُ والشّرعُ، فإذا قيل: حَكمَ بالباطل فمعناه أنه جعلَ الباطلَ موضعَ الحقِّ، ويُستعملُ الحكمُ في مواضعَ لا يُستعملُ فيها القضاءُ؛ كقولك: حُكمُ هذا كحُكمِ هذا أي هما متماثلان في السّببِ أوِ العلة ونحو ذلك(1).

وبهذا يظهرُ أنّ التّعبير بالقضاء أبلغُ منَ التّعبير بالحكم؛ لأنّه يُبنى على اليقين الذي يُفضي إلى الفصل التّامِّ، ولذا وصف سبحانه

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 431.

بالحقّ قضاءَه فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [غافر: 20]، بخلافِ الحُكم فإنّه يُبنى على النّظر في الشّواهدِ على مقتضى الشّرعِ والعقل، ومن ثمَّ أمرَ اللّه تعالى نبيَّه داودَ عليه السلام بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [ص: 26] معبِّرًا بالحُكم دون القضاء مع اتِّصافِه بالحقّ أيضًا، لكنّه الحقُّ النّسبيُّ المبنيُّ على النّظر في ظواهر الأدلّةِ، وهذا شأنُ البشرِ، ولذا قابلَه باتّباع الهوى، فظهر أنَّ الحقَّ في الحُكم هو ما كان مُجانبًا لاتِّباع الهوى، باعتمادِه على ظواهر الأدلّةِ والاجتهادِ في الوصول من خلالها إلى الحقِّ، ومع هذا فقد لا يصيبُ في حكمِه الحقَّ من حيث هو.

العصيانُ والمخالفةُ:

العصيانُ عداوةٌ مع مخالفةٍ، والمخالفةُ أعمُّ لعدمِ اشتراطِ العداوةِ

العصيانُ هو الخروجُ عنِ الطّاعة، والامْتِناعُ عَنِ الانقيادِ، وأصلُه أن يتمنّع بِعَصاهُ[1] وكأنَّ العاصيَ قد حارب اللّه ورسولَه بعصاه، فخرج على طاعة اللّه ورسولِه، فلهذا المعنى الذي تحملُه مادّةُ العصيان أوثرَ التَّعبيرُ بها هنا في الآية، كي يظهرَ التّجانسُ بينها وبين الجزاءِ المذكورِ في تتمّة الآية.

والمخالفةُ منَ الخلْف ضدّ الأمام، يُقالُ: هَذا خَلْفي، وهَذا قُدّامي[2] قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 255] والاختلافُ والمخالفةُ: أن يأخذ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريق الآخرِ في حاله أو قوله[3].

وبهذا يظهرُ أنَّ العصيانَ أشدُّ وقعًا منَ المخالفة مع اشتمالِها عليه؛ لأنَّ العصيانَ يحملُ معنى المحاربةِ مع المخالفة، والمخالفةُ تعني سلوكَ الطّريق المخالفِ، ولو من غير محاربةٍ ومعاداةٍ.

(1) الراغب، المفردات: (عصا)، والكفوي، الكليات، ص: 656.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(3) الراغب، المفردات: (خلف).

الضَّلالُ يشملُ المحسوسَ والمعنويَّ، والتّيهُ يقتصرُ على المحسوس

الضَّلالُ والتّيهُ:

أصلُ (ضل) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِه في غَيْرِ حَقِّه، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ، لُغَتانِ، وكُلُّ جائِرٍ عَنِ القَصْدِ ضالٌّ[1]، والضّلالُ الهلاكُ ومنه قولُهم: ضلّتِ النّاقةُ إذا هلكت بضياعها[2]، وفي القرآن قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 10] أي: هلكنا بتقطُّعِ أوصالنا[3]، ويُطلق الضّلالُ في القرآن الكريم على ما يقابلُ الهدى[4]، قال تعالى عنِ المنافقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: 16]، وقال سبحانه: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [الأعراف: 30].

وأمّا التّيهُ فمعناه: التّحيُّر، يقال: تاهَ يَتيهُ: إذا تحيّر، وتاه يتوه لغةٌ في تاه يتيه، وفي قصّة بني إسرائيل: ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: 26] أي: يتحيّرون فيها، ويقال: وقع في التّيهِ والتّوه، أي في مواضعِ الحيرة[5].

واستخدامُ الآيةِ ونظائرِها للفظِ الضَّلال مُرادًا به ما يقابلُ الهدى والسَّيرَ على الطّريق المستقيم، دون استخدام لفظِ التّيه إلّا في معناه المادّي وهو الضّياعُ في الأرض والتّحيّرُ فيها، يُظهرُ خصوصيّةَ استعمالِ القرآن للفظِ الضّلال في معناه غيرِ المادّيّ، أي الضّياع في الدّين، وبهذا يكون لفظُ الضَّلال أعمقَ معنًى ومغزًى من كلمة التّيه؛ لأنّه يشملُ الضَّلالَ في الطّريق والضَّلالَ في الدّين، بخلاف التّيه فإنَّ القرآن استعملَه في معنى الضّياعِ في الأرض.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلَّ).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 214.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 214.
(4) الكفوي، الكليات، ص: 576.
(5) الراغب، المفردات: (التّيه).

﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾ [الأحزاب: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

بيانُ مثالٍ على انعدامِ الخيَرة بعد بيانِ حُكمِها

لمّا قال الله تعالى في الآية السّابقة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ فحذَّر من مخالفةِ أمرٍ قضاه الله ورسولُه ﷺ، بيَّن بعد ذلك أنَّ ممّا قضاه الله سبحانه وهو واجبُ النَّفاذِ أن يتزوّجَ رسولُ الله ﷺ السّيدةَ زينبَ بنتَ جحشٍ بعد طلاقِها من زيدِ بنِ حارثةَ، حيث لم يكن من ذلك بُدٌّ بعد أنِ استحالتِ العشرةُ بينهما، وكان الله تعالى قد أعلم نبيَّه ﷺ بأمر هذا الطّلاقِ، ثمّ تزويجِه ﷺ منها لحكمةٍ يعلمُها الله، ولغاياتٍ تشريعيّةٍ، لكنّه ﷺ تحرّجَ من إظهارِ ما أعلمَه الله إيّاه من أمر هذا الزّواجِ، فتحرّجَ أن يُخبرَ به زيدًا والنّاسَ، فعاتبَه ربُّه على ذلك، وذكَّره بأنَّ ما قضاه الله سبحانه ليست له فيه خيَرةٌ وأنّه واجبُ النّفاذ، وأنَّ ما كُلِّف بإظهاره واجبُ البلاغِ.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿أَمۡسِكۡ﴾: (مسك) أصلٌ يَدُلُّ على حَبْسِ الشَّيْءِ أَوْ تَحَبُّسِهِ[1] وإمساكُ الشّيء: التّعلّقُ به وحفظُه، قال تعالى: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: 229]، وقال: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسك).

ﵟٱلۡأَرۡضِﵞ [الحج: 65]، أي: يحفظُها[1]، والمرادُ بقوله: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ أي: لا تُطلّقْها ضرارًا وتعلُّلًا بتكبّرها[2].

2) ﴿قَضَىٰ﴾: لفظ (قضى) هنا ليس منَ القضاء بمعنى الحُكم، بل منَ الانقضاء بمعنى الذّهابِ والانتهاء، يقال: قضى الشّيءَ يقضي: إذا قطعَه وأزاله[3]، وانقَضَى الشّيءُ وتَقَضَّى أي فنيَ وذهب[4]، ومنه انقضاءُ الأجل بمعنى انتهائِه.

3) ﴿وَطَرٗا﴾: (وطر) الوَطَرُ: النّهمةُ والحاجةُ المهمّة[5]، وهو كلُّ حاجةٍ كانَ لصاحِبها فيها هِمَّة، فَهيَ وطَرُه، وقَضَيتُ مِن أمر كَذا وكَذا وطَري، أي: حاجَتي، وجمعُ الوَطَر أوْطار[6]، والمراد بقضاء الوَطَر في اللّغة: بلوغُ منتهَى ما في النِّفس منَ الشّيء، ثم صار عبارةً عنِ الطّلاق؛ لأنَّ الرّجلَ إنّما يطلِّقُ امرأتَه إذا لم يَبقَ له فيها حاجةٌ، والمعنى: لمّا قضى زيدٌ حاجةً من نكاحِها زوّجناكَها[7].

4) ﴿حَرَجٞ﴾: (حرج) أصلُ الحَرَج والحَراج مجتمعُ الشّيئين، وتصوّرُ منه ضيقُ ما بينهما[8] ويقال: مَكانٌ حَرَجٌ وحَرِجٌ، أي ضيِّقٌ كثيرُ الشّجَر لا تصلُ إليه الرّاعية[9]، فقيل للضيّق: حَرَج، وللإثم حَرَج، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾ [النساء: 65]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: 78][10] والمراد هنا: ضيقٌ ومشقّةٌ[11] أو إثمٌ وذنبٌ.

5) ﴿أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾: (دعو) أدعياءُ جمعُ دَعيّ، وهو مأخوذٌ منَ الدِّعْوَة؛ يقال: دَعيٌّ بيّنُ الدِّعْوَة، والادّعاءُ أن تدّعي حقًّا لك أو لغيرك، يقال: ادّعَى حقًّا أو باطلًا، والدِّعْوَةُ: ادّعاء

(1) الراغب، المفردات: (مسك).
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 232.
(3) الراغب، المفردات: (تفث).
(4) الخليل، العين: (قضى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وطر).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (وطر).
(7) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 468.
(8) الراغب، المفردات: (حرج).
(9) الجوهري، الصحاح: (حرج).
(10) الراغب، المفردات: (حرج).
(11) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 105.

الولد الدّعيّ غيرَ أبيه، ويدّعيه غيرُ أبيه[1] والمُراد بالأدعياء هنا: الأبناءُ بالتّبنّي.

المَعْنى الإجْماليُّ:

القـضـاءُ على عـادةِ التّبنّي بتزويجِ خيرِ الخلْقِ من طليقةِ مُتَبنّاه

تُذكِّرُ الآيةُ الكريمة رسولَ اللّه ﷺ بموقفِه منَ التّحرّجِ من إعلانِ ما كان قد أعلمَه ربُّه به من أمرِ زواجِه منَ السّيدة زينبَ بنتِ جحشٍ بعد طلاقِها من زيدِ بنِ حارثةَ رضي الله عنه بخطابِه: واذكرْ يا رسولَ اللّه، إذ تقولُ لزيدِ بنِ حارثةَ الذي أنعمَ اللّه عليه بهداية الإسلام، وأنعمتَ عليه بالتّربيّةِ والعتقِ، أمسكْ عليك زوجَك - زينبَ بنتَ جحشٍ - واتّقِ اللّه فيها، واصبرْ على معاشرتِها، وتُخفي في نفسك ما اللّه مظهرُه من أنّه سيُطلّقُها وأنّك ستتزوّجُها، وتخافُ أن يُعيِّرك النّاسُ، واللّه أحقُّ أن تخافَه، ولو كان في ذلك مشقّةٌ عليك، فلمّا قضى زيدٌ منها حاجتَه وطلَّقها تخلُّصًا من ضيقِ الحياة معها زوّجناكَها؛ لتكونَ قدوةً في إبطال هذه العادةِ المرذولةِ، وهي عادةُ التّبنّي، وكيلا يتحرّجَ المسلمون بعد ذلك منَ التّزوّجِ بزوجاتِ مَن كانوا يتبنّونَهم بعد طلاقهنّ، وكان أمرُ اللّه الذى يريدُه واقعًا لا محالةَ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

لا تكونُ الخيَرة لأحدٍ ولو كان رسولَ اللّه ﷺ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ تحتملُ أن تكون استئنافيّةً[3]، وتحتملُ أن تكون عاطفةً على الآية السّابقةِ[4]، وغرضُها بيانُ مثالٍ من أمثلةِ استجابةِ النَّبيِّ ﷺ لأمر اللّه تعالى، دون أن يكون له الخيرةُ في ذلك، مع خشيتِه من كلام النّاس في كلامِهم في شأن الزّواج من مُطلّقة زيدٍ رضي الله عنه.

---

(1) الخليل، العين: (دعو)، والأزهري، تهذيب اللغة: (دعا).
(2) مجموعة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 628.
(3) صافي، الجدول: 22/ 163.
(4) الدرويش، إعراب القرآن: 8/ 19، والخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 22/ 21.

معنى (إذ) ودلالتُها الارتباطيّةُ:

من غاياتِ التّذكيرِ ترتيبُ أمرٍ خفيٍّ على ظاهرٍ

(إذ) اسمُ زمانٍ مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذْكُر، منَ الذُّكر بضمِّ الذّال الذي هو بمعنَى التَّذكُّر، فلم يأمرْه اللّه بأن يذكرَ ذلك للنّاسِ إذ لا جدوَى في ذلك، ولكنَّه ذكَّر رسولَه ﷺ؛ ليُرتِّب عليه قولَه: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾[1]، أي: واذكرْ وقتَ قولكِ لزيدٍ: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾.

سرُّ إيثارِ القولِ بصيغة المضارع:

استحضارُ الحالةِ الماضيةِ يُعزِّزُ حضورَ الجانبِ النّفسيِّ

جاء التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ﴾ رغم أنَّ هذا القولَ كان قد سلفَ ومضَى، تصويرًا[2] واستحضارًا لوقت هذا القول وحالتِه، ليرتِّبَ عليه ما وردَ بعدَه من عتابٍ، ومن إقرارٍ لزواجِه ﷺ منَ السّيدةِ زينبَ لحكمةٍ أرادها اللّه تعالى، منها إبطالُ التّبنّي، كما أنَّ صيغةَ المضارع ﴿تَقُولُ﴾ تُشعرُ بأنَّه ﷺ قد كرَّر قولَه لزيدٍ: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ مِرارًا ولم يكتفِ بمرّةٍ واحدةٍ.

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

اللّام في قوله: ﴿لِلَّذِيٓ﴾ وهو زيدٌ رضي الله عنه، هي لامُ التّبليغ، أي: تقول مُبلِّغًا زيدًا كذا وكذا، ويجوزُ أن تكونَ لامَ الأجَل والتَّعليل، أي: تقول لأجلِه كذا وكذا.

نكتةُ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ دون الاسمِ الصّريحِ:

إظهارُ المعاني التّعليليّةِ من وظائفِ جُملةِ الصّلةِ

جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ ﴿لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ﴾ المرادُ به زيدٌ، نظرًا لِما تضمّنتْه جملةُ الصِّلة المعطوفةُ وهي قولُه: ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ من معنى إنعام الرّسول ﷺ على زيدٍ رضي الله عنه؛ إشارةً إلى أنَّ هذا القول نفسَه: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ هو من جملةِ إنعامِ الرَّسول عليه السلام بحسبِ الظّاهر، فالتَّعبير بالموصول قد يكونُ للإشارَة إلى وجه بناءِ الخبرِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 29.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 300.
(3) ابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد مع القونوي: 15/ 364.

وقيل: السّببُ هو ما تُشعر به الصِّلةُ المعطوفةُ وهي ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ من تنزُّه النّبيِّ ﷺ عنِ استعمال ولائِه لحمْلِه على تطليق زوجِه، فالمقصودُ هو الصّلةُ الثّانيةُ، وهي ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾؛ لأنَّ المقصودَ منها أنَّ زيدًا أخصُّ النّاس به، وأنَّ الرَّسول ﷺ أحرصُ على صلاحِه، وأنَّه أشار عليه بإمساكِ زوجِه لصلاحِها به[1].

بلاغةُ استعمالِ فعلِ ﴿أَنۡعَمَ﴾ مادّةً وصيغةً:

الإنْعامُ تمامُ الإحسانِ وكمالُ الامتنان في إسعادِ العقلاء

الإنْعامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الغَيْر، ولا يقال إلّا إذا كان الموصَلُ إليه من جِنْسِ النّاطِقينَ، فإنه لا يُقال: أَنْعَمَ فلانٌ على فَرَسِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: 7][2]، ولمّا كان زيدٌ رضي الله عنه قد امتنَّ اللّه عليه بالإسلام، وبرفقة النّبيِّ ﷺ، الذي أنعم عليه بحُسن المعاملةِ وبالعتق منَ العُبوديّةِ وبتزويجِه ابنةَ عمّته زينبَ بنتَ جحشٍ رضي الله عنها، لمّا كان ذلك كذلك أوثر التّعبيرُ بالإنعام لدلالتِه على بالغ الإحسان الذي ناله زيدٌ منَ اللّه ورسولِه، وقد أوثرت صيغةُ الماضي الدّالّةُ على تحقّقِ الوقوع، لحصول هذه المظاهرِ كلِّها في حقِّه رضي الله عنه.

نكتةُ التّعبيرِ بعنوانِ الألوهيّة دون الرُّبوبيّة:

استحضارُ اسمِ المُنعم في الذِّكر إنعامٌ وامتنانٌ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظِ الجلالة مُسنِدًا الإنعامَ إليه ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾، وذلك لِما في هذا اللّفظ من توريثِ المهابةِ والخشوعِ في قلوب المؤمنين، فإسنادُ الإنعامِ إلى لفظِ الجلالةِ يتركُ في قلبِ زيدٍ رضي الله عنه ما وُصف له منَ الطُّمأنينة والرّاحة، وهي جائزةٌ بين يدي خضوعِه لأمر اللّه تعالى في مثل هذا الأمرِ العظيم، كما أنَّه قدِ اقترن ذكرُ اللّه ورسولِه في نسقِ السّورة في أكثرَ من موضعٍ، من مثل: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: 29]، وقولِه تعالى: ﴿۞وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأحزاب: 31]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَطِعۡنَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 31.

(2) الراغب، المفردات: (نعم).

﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب: 33]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب: 57]، وهنا جاء ذكرُ المُنعِم ﷻ، وذكرُ المُنعِم النِّعمة الخاصّة، وهي إنعامُ محمَّدٍ ﷺ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنۡعَمۡتَ﴾ عاطفةٌ، حيث عطفت (أنعمت) على جملة: ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾ بقصد الجمعِ بين الإنعامَين؛ الإلهيِّ والنّبويِّ، وهو من إكرامِ زيدٍ رضي الله عنه.

فائدةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء:

استُعمل حرفُ الجرّ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾ وهو للاستعلاءِ المجازيِّ؛ لبيانِ أنَّ إنعامَ اللّه ورسولِه عليه قد تمكّن منه، وأحاط به، وفيه بيانُ الامتنان في أهل الإيمان.

نوعُ العطفِ ودلالتُه:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ يكون لمزيّةٍ في ذلك الخاصّ

عُطِف ذكرُ إنعامِ رسول ﷺ على زيدٍ رضي الله عنه على إنعام اللّه تعالى، فكُرّر الفعلُ ونُصَّ عليه استقلالًا وذلك لتغايُرِ المُنعم[1]، مع أنَّ إنعامَه ﷺ في هو من جملة إنعام اللّه تعالى عليه؛ فيكونُ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ، ووجْهُ التّخصيص، أنَّ إنعامَه ﷺ على زيدٍ لا يُشبهُ أيَّ إنعامٍ، ولم يكن لأحدٍ ما كان لزيدٍ رضي الله عنه، واللّه سبحانه هو الذي هيأ له هذه الصّحبةَ وتلك المرافقةَ، وتوطئةً لنفي حالةِ الحرج التي كانت في نفس النّبيِّ ﷺ، فهي لبيانِ منافاةِ حالِه لِما صَدَر عنه ﷺ من إظهار خلافِ ما في ضميره؛ إذ هو إنَّما يقعُ عند الاستحياء أوِ الاحتشام، وكلاهما ممّا لا يُتصوّرُ في حقّ زيدٍ[2].

(1) ابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد مع القونوي: 15/ 364.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 105.

فائدةُ إسناد فعلِ الإنعام إلى ضمير المخاطَب:

توافقُ الضّمائرِ أولَى مِنَ الالتفاتِ بلا مُسوِّغٍ

أُسند الإنعامُ إلى ضميرِ المخاطَب دون الاسم في قوله تعالى: ﴿وَأَنْعَمْتَ﴾؛ فلم يقل: (وأنعم عليه رسولُه)، أو (أنعمت أنت عليه)، وذلك لاتّساقِ الأسلوبِ مع الخطاب في مستهلِّ الآية في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ فالخطابُ له ﷺ، فناسبَ أن يمضيَ الكلامُ على الأصل، دون حاجةٍ إلى الالتفات عنه، كما أنَّ في توجيهِ الكلام إليه ﷺ بتاء الخطاب اهتمامًا به وتحفيزًا له للقيام بتنفيذِ ما أُمر به.

فنُّ الجِناس:

بين قوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ﴾ و﴿وَأَنْعَمْتَ﴾ جناسٌ، لاتّحاد أحرُفِ الكلمتَين، وما في الثّانية هو ضميرٌ متّصلٌ وليس من الكلمة نفسِها، وجمعَ بين الإنعامين تكريمًا للمُخبَر عنه.

دلالةُ جملةِ مَقولِ القول ﴿أَمْسِكْ﴾:

الدّلالةُ على فرطِ أدبِه ﷺ وشدّةِ حيائِه

قولُه تعالى على لسان نبيِّه محمّدٍ ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ هو قولُه ﷺ لزيدٍ كوصيّةٍ له ونصيحةٍ، قال له ذلك مع علْمِه أنّه سيطلّقُها، وذلك من فرط أدبِه وحيائِه ﷺ، فقولُه هذا إنَّما هو "على طريق الأدبِ والوصيّةِ"[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الإمساك:

الإرشادُ بهذا التّعبير إلى تقويّةِ أواصرِ العلاقةِ الزّوجيّةِ لتبقَى قائمةً على المودّةِ والرّحمةِ

جاء التّعبيرُ بلفظِ الإمساك على صيغة الأمرِ، كنايةً عن أمرِ النّبيّ ﷺ لزيدٍ في الكفِّ عن طلاق زوجِه، والإبقاءِ عليها، وذلك لما يتضمّنُه لفظُ الإمساكِ من دلالة على قوّة القبضِ على الشَّيء، مع التعلُّقِ به وحفظِه[2]، وقد جاء لفظُ الإمساك كنايةً عن إبقاءِ الحياة الزّوجيّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 481.

(2) الراغب، المفردات: (مسك).

[البقرة: 229]، أو يكونُ لفظُ الإمساك استعارةً "لبقاء الصّحبةِ تشبيهًا للصّاحب بالشّيءِ المُمسَكِ باليدِ"(1).

دلالةُ فعْلِ الأمر ﴿أَمۡسِكۡ﴾:

التّشريعُ لله وحدَه وليس لرسولِ الله ﷺ إلّا الطّاعةُ

جاء الأمرُ بالإمساك في قوله تعالى: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ موحيًا بأنَّ زيدًا رضي الله عنه جاء يعرضُ على رسول اللّه ﷺ مفارقةَ زوجِه؛ فأمرَه بما أمرَ.

ولسائلٍ أن يسألَ عن غرضِ النّبيِّ ﷺ حين أمر زيدًا حين قال له: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾؟ وهو يعلم أنَّ اللّه تعالى أخبرَه بأنّه سيتزوّجُها، وهذا ما ثارت به كلماتُ المفسّرين، وخلاصةُ الأمرِ؛ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ جاء بخلافِ الأولى فيما يظنُّه الظّانُّ منّا، فإنَّه عليه السلام من أرقِّ النّاس أفئدةً، فقوله: ﴿أَمۡسِكۡ﴾ لا يقتضي مخالفةَ أمرِ اللّه تعالى، بل يقتضي أن يُعلم زيدًا أنْ لا شأنَ له في المسألة وإن عَلِمَ بها، فهو أمرٌ محضٌ منَ اللّه تعالى، وأنَّ الأمر لو كان بيده لما قال إلّا ما قال، وأمّا أمرُ اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ بالخشيةِ دون خشيةِ النّاس، فهو من باب الإرشادِ، فإنَّ خشيةَ النّاس لا داعيَ لها في هذا المقام، والأمرُ للّه تعالى وحدَه، فهو المشرّعُ لعبادِه ما يُصلحُهم، فهي مسألةٌ تشريعيّةٌ اجتماعيّةٌ.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المفعولِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المفعول ﴿زَوۡجَكَ﴾؛ للاهتمام بشأنِ الإمساك إذ هو محلُّ الحديثِ.

نكتةُ ذكرِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾:

الرّغبةُ في صلاح النّاس قيمةٌ راسخةٌ لا كلمةٌ عابرةٌ

ذُكِر حرفُ الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ دون الاكتفاءِ بذكرِ المفعولِ به وحده، كأن يقول: (أمسك زوجك)،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 32.

وذلك للدّلالة على الملازَمةِ والتّمكّن مثل: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، وهو ما يُشعرُ بأنَّ النّبيَّ ﷺ كان حريصًا على أن يُمسك زيدٌ زينبَ رضي الله عنهما، أو لتضمين فعْلِ ﴿أَمۡسِكۡ﴾ معنى احبسْ، أي: أبقِ في بيتِك زوجَك[1].

نكتةُ اختيارِ لفظِ (الزوج):

اللّفظُ القرآنيُّ قائمٌ على تعيين المعاني الصّريحةِ والضّمنيّةِ

آثر النّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ (زوج) دون (امرأة) في قوله تعالى: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾، وذلك لدلالةِ هذا اللّفظ على التّماسُكِ والاقتران بين الزَّوجين، أي: أنيستُك وقرينتُك التي هي كالشّقّ الآخرِ منك؛ فإن قيل: كانتِ العلاقةُ بين زيدٍ وزينبَ على غير ما يُرام، فلِمَ قال زوجة، والزّوجةُ هي الأنيسةُ والأليفةُ؟ فالجوابُ كان ذلك على سبيل التّحفيزِ لرأبِ الصّدعِ وتجاوُزِ الخلافِ لتقومَ الزّوجيّةُ بينهما على الودادِ والرّحمةِ.

فائدةُ إضافةِ (زوج) إلى ضميرِ الخطاب:

أُضيف لفظُ الزّوج إلى ضمير الخطاب: ﴿زَوۡجَكَ﴾ للإشعارِ بما يجبُ أن تكونَ عليه العلاقةُ بين الزّوجين، منَ القُرب والاتّفاق، وذلك لرأب الصّدعِ وتجاوُزِ أسبابِ الشِّقاق.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ عاطفةٌ على جملة: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾، فهو لم يأمرْه بالإمساك بل أمرَه بإحسان العشرةِ بعد الإمساك، بملاحظةِ التّقوى في الأمر كلِّه.

مناسبةُ ذكرِ الاسمِ الجليل:

الاسمُ الجليلُ يُربّي المهابةَ في القلوبِ

التّقوى خوفٌ ومهابةٌ؛ فناسبَ الأمرَ بها في مقام التّحذيرِ أن يكونَ المذكورُ الاسمَ الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ لِما له من هيبةٍ ورهبةٍ تدفعان إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 32.

الخوفِ منه سبحانه، فلا يقعُ ظلمٌ من أحد على أحد، بل يقعُ عفوٌ وتسامحٌ طمعًا في عطائه وفضلِه.

نوعُ الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَتُخۡفِي﴾:

تحتمل الـواوُ العـطـفَ والاستـئـنـافَ والحالَ

تحتملُ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَتُخۡفِي﴾ أن تكون عاطفةً للجملة على جملة: ﴿تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾[1]، أو على جملة: ﴿أَمۡسِكۡ﴾ أي: وإذ تجمعُ بين قولك كذا وإخفاءِ كذا، وخشيةِ النّاس[2]، وتحتملُ أن تكون استئنافيّةً، أو واوَ الحال، أي: والحالُ أنّك تُضمرُ في قلبك وتسترُ الأمرَ الذي سيُظهرُه اللّه للنّاس[3]، وذلك على إضمارِ مبتدأ، أي: وأنت تُخفي، لأنّه مضارعٌ مثبتٌ، فلا يدخلُ عليه الواوُ إلّا على ذلك الإضمارِ[4].

بلاغةُ استعمالِ لفظِ الإخفاء مادّةً وصيغةً:

الإخفاءُ سترٌ تامٌّ للأمر المَخفيّ بخلاف الإسرارِ فهو سترٌ ناقصٌ

يطلقُ الإخفاءُ على ما يُقابل الإبداءَ والإعلانَ، كما قال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 271]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ [الممتحنة: 1]، والخَفاءُ: ما يُستر به كالغطاء[5]، أي: أنَّ الخفاء يُطلقُ على السِّتر مطلقًا، بخلاف لفظ السّرِّ، فإنَّه يُطلقُ على الإسرار بالحديث خاصّةً[6]، ويكونُ بين اثنين أو أكثرَ، فلفظُ الإخفاء أشدُّ من لفظ الإسرار، فالإخفاءُ أن يبقى الأمر خفيًّا مستورًا، بخلاف الإسرار فيُذكر لقليلٍ منَ النّاس، والأنسبُ في هذا المقام هو لفظُ الإخفاء؛ لأنَّ الأمرَ لم يخرج من نفسِ النّبيِّ ﷺ، وأوثر التَّعبيرُ بصيغة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 32.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 126.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 28.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 483، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 126.
(5) الراغب، المفردات: (خفي).
(6) الراغب، المفردات: (خفي).

المضارعِ ﴿وَتُخۡفِي﴾؛ للدّلالة على تكرّرِ إخفاءِ ذلك وعدمِ ذكره[1] لحكاية الحالِ الماضيةِ[2].

بديعُ فنِّ الطِّباق:

ما بين الإخفاءِ والإبداءِ علمٌ مستورٌ وغيبٌ خفيٌّ

بين قوله تعالى: ﴿وَتُخۡفِي﴾ و﴿مُبۡدِيهِ﴾ طباقُ إيجابٍ، حيث قابلَ الإخفاءُ الإبداءَ، وصدرَ الإخفاءُ عن رسول الله ﷺ، وصدرَ الإبداءُ عن ربِّ العالمين سبحانه، ولم يكن بين إخفائه ﷺ وإبداءِ الله للأمر علمٌ لأحدٍ به، وهذا يدلُّ على السّترِ التّامِّ للأمر، وأنّه وقع موقعًا عظيمًا في نفس النّبيِّ ممّا لم يستطع معه أن يبوحَ به لأحد.

دلالةُ قيدِ ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾:

الأخبارُ المخفيَّةُ دليلُ الحرصِ وبرهانُ الحسِّ

دلَّ ذكرُ القيدِ ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾ على تصوير شدّةِ إخفائِه ﷺ أمرَ زواجِه منَ السّيدة زينبَ، حتى إنّه اختزنَه في نفسه، ولم يُخبر به أحدًا مطلقًا حتى أقربَ النّاس إليه الذين كان يستشيرُهم في الأمور كلِّها؛ كالشَّيخين رضي الله عنهما، وهو ما يُصوِّرُ الجانبَ النَّفسيَّ لدى رسولِ الله ﷺ في هذا الأمرِ ذي الحساسيّةِ الكبيرةِ.

إيثارُ إضافةِ النَّفس إلى ضميرِ المخاطَب:

أضيفتِ النّفسُ إلى ضمير المخاطَب ﴿نَفۡسِكَ﴾، لتتّسقَ الضّمائرُ في السّياقِ نفسِه، ولتكشفَ عن مدى التصاقِ المَخفيِّ بنفسِه ﷺ.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي، وهو مع صلتِه يبيّنُ حقيقةَ مآلِ الأمرِ المخفيِّ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفاعل:

رُبَّ قيدٍ يُعيِّنُ المرادَ ويُصوِّرُ المطلوبَ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾ على المفعول ﴿مَا﴾؛ لأنَّ العتابَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 32.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 366.

إنَّما وقع على الإخفاءِ وهو محلُّ الاهتمام، والقيدُ ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ يساعدُ على تصوير ذلك الإخفاءِ، بل يُعيِّن أهميّةَ الأمر، ولو تأخّر ذكرُ ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ لَما اكتسب النّظمُ جلالَ المعنَى، وبهاءَ المبنَى؛ فناسب تقديمُه على المفعول.

غرضُ تقديمِ المُسند إليه:

قُدِّم المسندُ إليه وهو اسمُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ على المسنَد ﴿مُبْدِيهِ﴾؛ لإفادة القصرِ والحصْرِ؛ فإنَّه لا يعلمُ ما في الصُّدور أحدٌ غيرُه، ومن ثمَّ لا يقدرُ على إبدائِها أحدٌ سواه.

دلالةُ اختيارِ لفظِ ﴿مُبْدِيهِ﴾ مادّةً وصيغةً:

الإبـــداءُ بعد الإخـفـاءِ يـأتي ظاهرًا مُنكشفًا

البُدوُّ هو الظُّهورُ البيِّن[1]، ومعنى ﴿ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: مُظهره بجلاءٍ، وذلك كونُ هذا الزّواج حُكمًا قدَريًّا قدَّره اللّه تعالى على نبيِّه ﷺ، لغاياتٍ وحِكمٍ منها إبطالُ التّبنّي، وهو كذلك حكمٌ تكليفيٌّ أوجبَه اللّه تعالى على نبيّه ﷺ، فهو واجبُ النّفاذ، ولا خيَرةَ له فيه، ولذلك أوثر في الإبداء التّعبيرُ بصيغة اسم الفاعلِ لتأكيد حصولِه في حينه، فكأنَّه قيل له: إنَّ هذا الأمرَ بادٍ ظاهرٌ بانكشافٍ بيِّنٍ لا محالةَ، وإن أخفيتَه عنِ النّاس.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى﴾ عاطفةٌ؛ عطفت جملةَ (تخشى النّاس) على جملة ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ فتأخذُ حكمَها، أي: تُخفي ما سيُبديه اللّه، وتخشى النّاس من إبدائه[2].

توجيهُ استعمالِ لفظِ (الخشية) مادّةً وصيغةً:

الخَشْيَة هي: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك عن علمٍ

(1) الراغب، المفردات: (بدا).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 33.

تتعيّنُ معاني الألفاظِ بحسبِ سياقِها ومقامِها في الكلام

بما يُخشَى منه[1]، لكنَّها في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّـهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ يُرادُ منها دفعُ النّبيِّ ﷺ إلى الإقدام على ما كُلّفَ به من أمر هذا الزّواجِ غيرَ مبالٍ بإرجاف المنافقين وغيرِهم، فالمرادُ به: كراهيةُ ما يرجفُ به المنافقون، والكراهةُ من ضروب الخشيةِ، إذِ الخشيةُ جنسٌ مقولٌ على أفراده بالتّشكيك، فليست هي خشيةَ خوفٍ، إذِ النّبيُّ ﷺ لم يكن يخافُ أحدًا من ظهور تزوّجِه بزينبَ، ولم تكن قد ظهرت أراجيفُ المنافقين بعدُ، ولكنَّ النّبيَّ ﷺ كان يتوسّمُ من خُبثهم وسوءِ طويّتِهم ما يبعثُهم على القالةِ في النّاس لفتنةِ الأمّة، فكان يعلمُ ما سيقولونَه ويمتعضُ منه، كما كان منهم في قضيّةِ الإفك، ولم تكن خشيةً تبلغُ به مبلغَ صرْفِه عمّا يرغبُه بدليل أنّه لم يتردّد في تزوُّجِ زينبَ بعد طلاقِ زيدٍ، ولكنَّها استشعارٌ في النَّفس وتقديرٌ لِما سيُرجفُه المنافقون[2]، وأوثرت صيغةُ المضارع لاستحضار الحالِ الماضيّةِ[3].

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

الأمورُ الجسامُ يُهوِّنُها الإيمانُ ويُشوِّهُها النِّفاقُ

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للعهد، والمعهودُ هنا همُ المنافقون ومن يُسايرُهم من غيرِ المسلمين، فهمُ المتوقَّعُ منهمُ الإرجافُ، أمّا المسلمون فهم مُسلّمون لأمر اللّه واثقون في أنَّ رسولَهم لا يصدرُ في قراراتِه ولا في أفعالِه إلّا عن وحيٍ، ويحتملُ أن يُراد بها الجنسُ؛ لأنَّ الزّواج من مطلّقةِ المُتبنَّى كالزّواجِ منَ البنت، وهو أمرٌ صعبٌ على النّاس تقبُّلُه، لكنَّه لمّا أتى من رسول اللّه هان على المؤمنين، وعظُمَ في نفوس المنافقين.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الـواوُ حاليةٌ وهو الظّاهرُ، وتحتملُ أن تكون اعتراضيّةً

تحتملُ الواو في جملة: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ﴾ أن تكون للحال، أي: تخشى

(1) الراغب، المفردات: (خشي).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 33.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 366.

النّاسَ والحالُ يجبُ أن يكونَ أنَّ اللّه تعالى هو الأحقُّ بالخشية، وتحتملُ أن تكون اعتراضيّةً، والجملةُ معترضةٌ؛ لمناسبةِ جريانِ ذكرِ خشيةِ النّاس، ومعنى الآية هو معنى قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: 44][1]، والفرقُ بين الإعرابَينِ قائمٌ على التّفريق بين المعنيَيْن، فإذا جعلناها حاليّةً وهو الشّائعُ من كلام المفسّرين فالأمرُ للعتابِ، وعلى القولِ بأنّ الواوَ للاعتراضِ فتقلُّ دلالةُ العتاب.

نكتةُ التّعبيرِ بعنوانِ الألوهيّةِ:

جاء التّعبيرُ بلفظِ الجلالة (اللّه) في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾؛ لِما في الاسمِ الجليلِ من دلالةٍ على الهيبةِ والجلالِ الذي يناسبُ مقامَ الخشية منَ اللّه تعالى.

نكتةُ التّعبير بلفظِ ﴿أَحَقُّ﴾ معنًى وصيغةً:

تحريكُ نفوسِ الكُمَّلِ يكونُ بالإلهابِ والتّهييجِ

أفعلُ التّفضيلِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ ليس على بابه منَ المفاضلةِ، بل هو مسلوبُ المفاضلة، إذ هو بمعنًى حقيقٌ؛ لأنَّ اللّه تعالى وحدَه هو الحقيقُ بالخشية دون سواه، فلا يشاركُه فيها أحدٌ، كما أنّه لا يوجدُ في "الكلام السّابقِ ما يفيدُ وقوعَ إيثارِ خشيةِ النّاس على خشية اللّه، ولا ما يفيدُ تعارضًا بين الخشيَتَينِ حتى يُحتاجَ إلى ترجيح خشيةِ اللّه على خشية النّاس، والمعنى: واللّه حقيقٌ بأن تخشاه"[2]، وعليه فالواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ أقربُ أن تكونَ اعتراضيَّةً، وإن كانت من باب المفاضلةِ، فتُحملُ على الإلهاب والتّهييج؛ لتقويةِ موقفِ النّبيِّ ﷺ في شأن زواجه من زينبَ رضي الله عنها.

نكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ:

جاء التّعبيرُ بالمصدرِ المؤوّلِ ﴿أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾؛ لِما يحويه المضارعُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 33.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 34.

منَ الإشارةِ إلى تجديد الخشيةِ، واستمراريّتِها في هذا الموقفِ وفي سائرِ المواقفِ.

فنُّ الجناس:

بين قوله تعالى: ﴿وَتَخۡشَى﴾ و﴿تَخۡشَىٰهُۖ﴾ جناس، يحمل في طيّاته المناسبة فلمّا "ذكر الخشية من الناس، ذكر أنَّ اللّه أحقُّ بالخشيةِ في عمومِ الأحوالِ في جميعِ الأشياء"[1].

نوعُ الفاءِ ومعناها:

الفاءُ للتّفريع لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾ لتفريع[2] الجملةِ على جملة ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾، وقد طويَ كلامٌ يدلُّ عليه السّياقُ، مُفادُه أنَّ الذي وقع من زيدٍ ﵁ هو تطليقُ زوجِه لا إمساكُها، وطيُّ الحدثِ لِما لا فائدةَ فيه مفيدٌ.

معنَى (لمّا):

استعملَ النّظمُ الكريمُ أداةَ (لمّا) لدلالتِها على الظّرفيّةِ، أي: (حين قضى)، وهي شرطيّةٌ غيرُ جازمةٍ، أي: لمّا جاء وقتُ استيفاء زيدٍ منها وطرَه وقع تزويجُك منها.

سرُّ اختيارِ لفظِ ﴿قَضَىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

أصـبـحـتْ طليقةُ زيدٍ ﵁ كـالأجـنـبـيّـةِ في نفسِه

استعملَ النّظمُ الكريمُ لفظةَ ﴿قَضَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ بمعنى الذّهابِ والانتهاءِ والاستيفاء، يُقال: قضى الشّيءَ يقضي: إذا قطعه وأزالَه[3]، وانقَضَى الشّيءُ وتَقَضَّى، أي: فنيَ وذهبَ[4]، ومنه انقضاءُ الأجل بمعنى انتهائِه، ومعناه في الآية: فلمّا استتمَّ زيدٌ مدَّةَ معاشرةِ زينبَ ﵂، وأيسَ من استمرارِ العشرةِ بينهما فطلّقها، أي: فلمّا لم يبقَ له وطرٌ منها[5]،

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 428.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 38.
(3) الراغب، المفردات: (تفث).
(4) الخليل، العين: (قضى).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 38.

وأوثر التّعبيرُ بالماضي، للتّحقّقِ من تمام الانقضاء، ولذلك جاز دخولُ (لما) على الكلمة فهي إنّما تدخلُ على الماضي لا غيرَ، أي: قضى وطرَه بحيث لم يبقَ في نفسِه شيءٌ منها ألبتّةَ.

لطيفةٌ في التّصريحِ باسمِ ﴿زَيۡدٌ﴾ دون الكنايةِ:

تقليلُ الاحتمالِ هو الأنسبُ في النّظمِ التّشريعيّ

لم يُذكرِ اسمُ أحدٍ منَ الصّحابة في القرآن سوى زيدٍ رضي الله عنه في هذه الآية، وقد أظهرَ اسمَه وكان المقتضى إضمارَه بأن يُقال: فلمّا قضى منها وطرًا، أي: قضى الذي أنعم اللّه وأنعمتَ عليه، فعدلَ عن مقتضى الظّاهر لكي يكونَ الأمرُ صريحًا في شأن الزّواج من طليقةِ المُتبنَّى، وكي لا يقعَ مجالٌ للاحتمال، والسّياقُ تشريعيٌّ في أمرٍ لا يقبلُ كبيرَ نقاش، وللتّنويه بشأن زيدٍ، قال السُّهيليّ: "كان يقال له زيدَ بنَ محمّد، فلمّا نُزِعَ عنه هذا الشّرفُ حين نزل: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: 5]، وعلمَ اللّه وحشتَه من ذلك شرّفَه بخصّيصةٍ لم يكن يخصُّ بها أحدًا من أصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم وهي أنّه سمّاه في القرآن، ومن ذكرَه اللّه تعالى باسمِه في الذّكرِ الحكيمِ نوَّهَ غايةَ التّنويه"[1].

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على المفعول:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنۡهَا﴾ على المفعول ﴿وَطَرٗا﴾؛ لأنَّ مدخولَ الجارِّ هو ما دار حولَه الحديثُ؛ فكان أولَى بالتّقديم في الذِّكر، فالكلامُ عن زينبَ رضي الله عنها وطلاقِها.

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿وَطَرٗا﴾ وتنكيره:

نفيُ وجودِ أيِّ إجبارٍ أو إكراهٍ أو إحراجٍ

جاء ذكرُ لفظِ ﴿وَطَرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾؛ ليدلَّ على الحاجة المهمَّة، فالوطرُ هو كلُّ حاجةٍ كان لصاحبها فيها همّةٌ فهي وطَرُهُ[2]، فدلَّ ذلك على أنَّ زيدًا رضي الله عنه كان له همَّةٌ في زينبَ رضي الله عنها، فلمّا فترتْ وذهبت حاجتُه كليًّا - بقطع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 38، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 194.

(2) الخليل، العين: (وطر).

النّظر عنِ الأسباب الموجِبةِ لذلك - طلَّقها، فجاء طلاقُه لها بعد انتهاء حاجتِه كاملةً، أي: لم يبقَ في نفسِه شيءٌ، وهذا يدلُّ على أنَّ النّبيَّ ﷺ لم يتدخلَّ بأيِّ شكلٍ منَ الأشكالِ في شأنِه مع زوجِه، ولو أكرهَه أو أحرجَه لطلاقها لبقيَ في نفسِه شيءٌ، ولَما صحَّ استعمالُ هذه المفردة الدّالّةِ على سلْبِ كلِّ حاجة، وكلِّ همّةٍ من نفس زيدٍ رضي الله عنه، ومع التّنكيرِ وقعَ العمومُ.

علّةُ اختيارِ لفظِ التّزويج دون النّكاح:

انتقاءُ المفرداتِ موصولٌ بغاياتِ السّياقِ التّشريعيّةِ

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ كلمةِ الزّواج التي تدلُّ على الاقتران، دون النّكاحِ فهو فللعَقْدِ، ثم يُستعارُ للجماعِ[1]، ولمّا كان المقصودُ الإخبارَ عنِ الاقتران الذي تتحقّقُ به الغايةُ التّشريعيّةُ من إبطالِ التّبنّي أوثرَ التّعبيرُ بالتّزويج فقال: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾.

نكتةُ إسنادِ فعلِ التّزويجِ إلى ضمير التّعظيمِ:

أعظمُ زواجٍ عرفتْه البشريّةُ ما صدرَ عنِ العظيمِ سبحانه

أسندَ النّظمُ فعلَ (زوّج) إلى ضمير العظمة (نا) لتعظيم الفعلِ وتشريفِ الذي وقع عليه، وهو أمرُ تزويجه ﷺ منَ السّيدة زينبَ بنتِ جحشٍ رضي الله عنها، فما يُسندُ إلى العظيم عظيمٌ، ومن دواعي عظمةِ هذا التّزويج ما ترتّب عليه من تحقيقِ غاياتٍ تشريعيّةٍ أهمُّها إبطالُ التّبنّي وما يترتّبُ عليه من آثارٍ كالمشاركةِ في الإرث، وتزويجُ اللّه تعالى لزينبَ رضي الله عنها حقيقيٌّ؛ لذا كانت تفخرُ على زوجاتِ الرّسول ﷺ بقولها: «زَوَّجَكُنَّ أهاليكُنَّ، وزَوَّجَني اللّه تعالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَماواتٍ»[2].

لطيفةُ اجتماعِ الفعلِ والفاعلِ والمفعولَين:

مجيءُ الضّمائرِ مقترنةً كدلالةِ لفظِ الزّواج مع تقديمِ الأعلى رُتبةً على من دونَه

اجتمعَ في قوله تعالى: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ فعلُ التّزويج والفاعلُ وهو ضميرُ العظمة، والمفعولُ الأوّل الكافُ والمقصودُ به رسولُ اللّه ﷺ، والمفعولُ الثّاني وهو ضميرُ الهاء والمقصودُ به زينبُ رضي الله عنها، وقد سوَّغ

(1) الراغب، المفردات: (نكح).
(2) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: (7420).

اتّصالَهما بالفعل اختلافُهما في الرّتبة، فهما مفعولان أوّلٌ وثانٍ، وهو الأفصحُ في عُرفِ النُّحاة، ولا مُسوِّغَ للفصل، بل جاءت على مزيّة الإيجاز، ولما كان لها نفسُ النَّغم والجرسِ الصّوتيِّ الذي تميّزت به في نُطقِها ككلمةٍ واحدةٍ ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾، وهذا يُلفتُنا إلى ما أجراه القرآن الكريم على الكلمات الطّويلة من أسباب العذوبةِ والطّلاوةِ والخفّةِ التي تبرزُ في كلماتٍ مثل: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ﴾ [البقرة: 137]، و﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: 28]، و﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾ [النور: 55]، ومن لطيف هذا الوصل؛ أنَّ كلمةَ التّزويج فيها معنى الاقترانِ والوصلِ، فناسب ذلك اقترانَ الضّمائر وتقديمَ الضّمير المذكّرِ على المؤنّث، والأعلى رُتبةً على من هو دونَه، وهو الملحوظُ في الزّواج.

بلاغةُ جوابِ الشَّرطِ:

طـلاقُ زيـدٍ رضي الله عنه بـمحض إرادتـه وبتمامِ قوّته

دلّتِ الجملةُ الشّرطيّةُ في الآية وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ على أنَّ التّزويجَ ما حصل إلّا بعد اكتمالِ الشّرط وهو أنْ قضى زيدٌ رضي الله عنه وطرَه من هذا الزّواج، وأنَّه لم يكن لأحدٍ عليه إجبارٌ، بل هو محضُ اختيارٍ منه فيما رأى وقرَّر، والذي يُرشّحُ ذلك أنَّ النّبيَّ ﷺ أمرَه بإمساكِها لا بطلاقِها، فهو قد اختار، وكان انتهاءُ الأمر من عنده وحدَه وبقرارٍ ذاتيٍّ، كان تزويجُ اللّه تعالى لنبيِّه من مطلّقةِ زيدٍ.

بلاغةُ التَّعليل في ﴿لِكَيۡ﴾:

تعليلُ التَّعليل تـوكـيـدٌ يَـروي العليلَ

دخلتِ اللّام على حرفِ (كي) للتَّعليل، وتعلَّق ﴿لِكَيۡ﴾ بفعلِ ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾، وهي هنا ناصبةٌ لدخول الجارِّ عليها[1]، والجمعُ بين اللّام وكي توكيدٌ للتّعليل كأنه يقول: ليستِ العلّةُ غيرَ ذلك[2]، وفي هذا أبلغُ ردٍّ على من يَزعمون أنَّ زواجَه ﷺ منَ السّيدة زينبَ كان

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 127.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 39.

لرغبةٍ فيها، فها هو القرآنُ يؤكّدُ أنّ العلّةَ في هذا التَّزويج هو رفعُ الحرجِ عنِ المؤمنين إذا رغبوا في الزَّواج بمن كانت زوجةً لأدعيائِهم المُتبنَّين بعد أن أبطل الله تعالى التّبنّيَ وهدمَ ما ترتّبَ عليه من آثارٍ، ومنها تحريمُ الزّواج بمن كانت زوجةً للمُتبنّى.

فائدةُ نفْيِ فعلِ الكونِ:

نفيُ فعلِ الكونِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَكُونَ﴾ ليس نفيًا للوجود، ولكنّه نفيٌ للحُرمةِ التي يتبعُها انتفاءُ وجودِ أيِّ لونٍ من ألوان التَّحرّجِ والضّيقِ منَ النّاس بسبب هذا الزّواجِ.

توجيهُ تخصيصِ المؤمنين بالذّكر:

الأحكامُ التّكليفيّةُ منوطةٌ بالمؤمنين

خصّتِ الآيةُ الكريمةُ المؤمنين بالذّكر في قوله تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دون ذكرِ عموم النّاس؛ لأنّهم همُ المنوطُ بهم رفعُ الحرجِ الشَّرعيِّ، وهو الذّنبُ والإثمُ، على معنى: ليس عليكم أيُّها المؤمنون من ذنبٍ في الزَّواج بمطلّقةِ الدّعيّ أو أرملتِه؛ لأنَّ الله تعالى أبطلَ التّبنيَّ، وفرّق بين البُنوّةِ الحقيقيّةِ التي تترتّبُ عليها كلُّ الآثار الشَّرعيّة، وهذه البُنوّةِ المُدَّعاةِ التي لا تترتّبُ عليها أيُّ آثارٍ قدْرَ رُتّبت على البُنوّةِ الحقيقيّةِ.

نكتةُ تقديمِ القيدِ على اسم ﴿يَكُونَ﴾:

قُدِّم القيدُ ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على ﴿حَرَجٌ﴾ للاهتمام والاختصاصِ، وذلك لرفْعِ الحرجِ عنِ المؤمنين بسببِه بشكلٍ خاصٍّ، وهو حرجٌ شرعيٌّ اجتماعيٌّ.

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿حَرَجٌ﴾ دون رديفاتِه:

تجمعُ لفظةُ الحرجِ الدّلالةَ الحسّيّةَ والنّفسيّةَ والاجتماعيّةَ والشّرعيّة

آثر النّظمُ الكريمُ ذكرَ لفظِ الحرج دون رديفاته كالمشقّةِ مثلًا، لما يشتملُ عليه هذا اللّفظُ من معنًى، فأصلُ الحرجِ ضيقٌ لا منفذَ فيه، فهو مأخوذٌ منَ الحرجةِ وهي الشّجرُ الملتفُّ الذي لا يمكنُ الدّخولُ

فيه[1]، والحرجُ له استعمالٌ يُصوِّرُ الحالةَ النّفسيّة، فإنَّ الذي يكون عنده حرجٌ من أمرٍ ما فإنَّه يكونُ راغبًا فيه، فإذا أُتيح له رفعُ الحرج، ارتاح وأناخ دابّتَه فيه، وطبّقَ ما أرادَ، فهو يشملُ الضّيقَ الحسّيَّ المادّيَّ كما هو في الأصل اللّغويّ، والنّفسيِّ والاجتماعيِّ والشّرعيِّ الذي أصبح حقيقةً في الاستعمال، فهو أوسعُ دلالةً منَ الضّيق، وأدقُّ في الاستعمال في هذا السّياق، فإنَّ التّبنّي هو الحرجُ المانعُ منَ الزّواج، وبزوال حكمِه القديم منَ النّفوس، زال معه الضّيقُ، والذي أزال الحرجَ ونحّاه هو تزويجُ اللّه تعالى نبيَّنا ﷺ لأمِّنا زينبَ بنتِ جحش رضي الله عنها، فكانت هذه بركةً من بركاتها، وبركاتِ زيدٍ رضي الله عنه.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿حَرَجٌ﴾:

نُكّر لفظُ ﴿حَرَجٌ﴾ لإفادة التّقليل والعموم، أي: بهذا الزّواج المباركِ انتفَى عنِ المؤمنين كلُّ حرجٍ كان في الحسبانِ مهما قلَّ أو دقَّ.

فائدةُ تقييدِ رفعِ الحرج:

تخصيصُ رفعِ الحرجِ في أزواجِ الأدعياءِ منسجمٌ مع باقي آياتِ رفعِ الحرج

أفاد قيدُ ﴿فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ تخصيصَ رفْعِ الحرجِ ونفيَه عنِ المؤمنين في موضوع الزّواج من مطلّقاتِ أدعياءِ التّبنّي، فليس المقصودُ عمومَ الحرجِ، فهذا لا علاقةَ للآيةِ به من قريبٍ أو بعيد، وهو منخرطٌ في جنس الآيات التي رفعتِ الحرجَ عنِ المؤمنين في سياقاتٍ تشريعيّةٍ كثيرةٍ، من مثل قولِه تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ﴾ [المائدة: 6]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: 78].

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿أَزۡوَٰجِ﴾:

الملحوظُ بالسّياق قيامُ عقدِ الزّوجيّة ليشملَ ما سِواه

آثر النّظمُ الكريمُ اختيارَ لفظ ﴿أَزۡوَٰجِ﴾ دون (مطلقات) أو (نساء)، وذلك لتخصيص الأمر بالأزواج وهنَّ أزواجٌ حين نزولِ الآيات، ولتكون جملةُ ﴿إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ مبيِّنةً للمقصودِ، وهو

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 182.

أنَّ الحكمَ يشملُ المطلّقاتِ سابقًا، واللّواتي قد يصدرُ في حقّهنّ طلاقٌ مستقبلًا، فيشملُ الجميعَ، ولتأكيدِ معنى قيامِ عقد الزّوجيّةِ دون ملك اليمين، فهو لِسَوقِ الدّليل على أنَّ ما ثبتَ له ﷺ من الأحكام ثابتٌ لأمّته، إلّا ما عُلم أنّه من خصوصيّاتِه ﷺ بدليلٍ[1].

نكتةُ اختيارِ لفظِ الأدعياء:

تنفيرُ النّاسِ ممّا أبطل الله حُكمَه غايةٌ من غاياتِ اختيارِ الألفاظ

أدعياءُ جمعُ دعيّ، كأغنياءَ جمع غنيٍّ، وهو فعيلٌ بمعنى مفعول، أي: مدعوّ، بمعنى مُدَّعًى لغير أبيه وليس أصيلًا[2]، وأصلُه مأخوذٌ مِنَ الدِّعْوَةِ؛ يقال: دَعيٌّ بيّنُ الدِّعْوَة وهي: ادّعاءُ الولد الدّعيّ غيرَ أبيه، ويدّعيه غيرُ أبيه[3]، وقد آثر النّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ أدعياءَ في قوله تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ لبيانِ موقفِ الشَّرعِ من هذا الارتباط بعد نزول آيات إلغاء حُكم التّبنّي، وليبقى الوصفُ الثّابتُ بعد ذلك وهو (أدعياء) منفِّرًا عند النّاس، فإنَّ الدّعيَّ الذي لا أصلَ له.

دلالةُ إضافةِ لفظِ (أدعياء) إلى الضّمير:

إبطالُ ما سبقَ لا يعني ذمَّ ما سبقَ

أضاف النّظمُ الكريمُ لفظَ (أدعياء) إلى ضمير الغائبين العائدِ على المؤمنين في قوله تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾، والإضافةُ بمعنى اللّام، أي: أدعياءُ لهم فيما سبقَ قبل إبطالِ التّبنّي، وذلك لإفادة أنَّ أحكامَهم قبل نزولِ حُكم التّبنّي لا حرجَ فيه ولا إثمَ على صاحبه، وللإشارةِ إلى أنَّ غايةَ هذا الزَّواج كان هدفُه رفعَ الحرجِ عنِ المؤمنين في التّزوّج بمطلّقاتِ الأدعياء وأراملِهم، وليس للرّسول ﷺ فيه من منفعةٍ خاصّةٍ ولا رغبةٍ قلبيّةٍ كما زُعِم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 206.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دعو).
(3) الخليل، العين: (دعو)، والأزهري، تهذيب اللغة: (دعا).

نكتةُ اختيارِ أداة ﴿إِذَا﴾:

اختيرت أداةُ ﴿إِذَا﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾؛ لإفادة أنَّ رفع الجناحِ لا يكونُ إلّا بعد تحقُّق ذلك على وجه القطعِ واليقين.

فائدةُ اختيارِ فعل ﴿قَضَىٰ﴾ و﴿قَضَوۡاْ﴾:

ليس لأحدٍ أن يُكرِهَ أحدًا على تطليق زوجِه

بيْنَ فعلَيّ ﴿قَضَىٰ﴾، و﴿قَضَوۡاْ﴾ ترابطٌ، حيث جعل النَّظمُ فعلَ قضى لِما قام به زيدٌ ﵁، هو فعل قضَوا لأدعياء المؤمنين، وذلك ليُفهم أنَّ ما كان لزيدٍ يكون لمن بعده سواءً بسواء، دون إجبار أو إكراهٍ أو إحراجٍ، وليس المقصودُ اقتحامَ البيوتِ والتّطليقَ بحجّةِ أنَّ الأمرَ قام به رسولُ الله ﷺ، فهذه ليست سنّةً، بلِ السُّنّةُ في التزام شرعِ الله وعدم مخالفته.

غرضُ تقديم ﴿مِنۡهُنَّ﴾ على المعمول:

قُدّم الجارُّ والمجرور ﴿مِنۡهُنَّ﴾ على المفعول ﴿وَطَرٗا﴾؛ للاعتناءِ بشأن طلاقهنَّ من حيث إنّهنَّ محطُّ الاهتمام وموضعُ العنايةِ في الجملةِ.

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿وَطَرٗا﴾ وتنكيرِه:

وقوعُ الطّلاق مبيحٌ لزواجِ المرأة من مُتبنّي الدّعيّ

نُكِّر لفظُ ﴿وَطَرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾؛ ليشمل كلَّ ما يدلُّ عليه اللّفظ دون تقييدٍ أو تعيينٍ، حيث إنَّ الوطرَ هو الحاجةُ المهمّةُ، فإذا قُضيت الحاجةُ ولم يبقَ شيءٌ في النّفس تجاهَ الزّوجِ المُرادِ تطليقُها، فإنَّ الزّواج منها من قِبَلِ المُتبنّي سابقًا جائزٌ لا حرجَ في ذلك بتاتًا، وعليه فليس شرطًا أن يكون الوطرُ المنقضي مشابهًا لحالة انقضاءِ الوطرِ التي كانت في شأن زيدٍ وزينبَ ﵄.

دلالةُ الواوِ في الفاصلة:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ اعتراضيّةٌ، والجملة بعدَها اعتراضٌ تذييليٌّ مقرّرٌ لِما قبله، وهي جملة: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾[1].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 543، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 105، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 39.

فائدةُ ذكْرِ فعل (كان):

(كان) في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ تدلُّ على الزّمن الماضي، والاستمرارِ فهي قائمةٌ مقامَ (لم يزل)[1]، وفائدةُ ذكرِها تأكيدُ وقوعِ أمرِ اللّه كما أراد هو.

نكتةُ اختيارِ لفظِ الأمر وإفرادِه:

السَّعةُ الدّلاليّةُ باختلافِ درجاتها مرادةٌ في اختيار مفردةِ الأمر

أَمۡرُ اللّه في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ قد يكون هو التّشريعيَّ التّكليفيَّ، ومعنى كونه ﴿مَفۡعُولًا﴾ أي واجبُ الاتّباع، وقد يكون المرادُ به أمرَه الكونيَّ القدريَّ الذي أراده، ومعنى كونِه ﴿مَفۡعُولًا﴾ أي لازمُ الوقوع والنّفاذِ، وفي اختيارِ لفظ الأمرِ في هذا السّياق دلالةٌ على إرادةِ المعنى الأوسعِ، فالمرادُ التّشريعيُّ صراحةً، والتّكوينيُّ إشارةً، وأُفرد لفظُ الأمر على إرادة الجنسِ على المعنيَيْن التّشريعيِّ والقدريِّ.

غرضُ الإضافة:

أُضيف لفظُ الأمر إلى اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ لتفخيمِه، بقصدِ حضِّ المخاطَبين على الاعتناء بشأنه، فيُسارعوا إلى الامتثال، أوِ الإذعان.

نكتةُ إيثارِ عنوانِ الألوهيّةِ:

مناسبةُ لفظِ الألوهيّةِ لسياقِ التّشريع

من دلالات الاسم الأجلِّ ﴿ٱللَّهِ﴾ أنَّه يُنشِئُ في قلوب المكلَّفين الهيبةَ والجلالَ، فتُقبِلُ على طاعة أوامره رغَبًا واجتنابِ نواهيه رهَبًا، كما أنَّ التّكاليفَ أمرًا هي من تجلّياته، أمّا اسمُ الرّبّ فهو من أسماء الجمال، ومن تجلّياتِه الخلقُ والإنعامُ ونحوُ ذلك، ولذا أضاف الأمرَ إليه فقال: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: (أمر ربكم) ونحوَه.

سرُّ التّعبيرِ بصيغةِ اسمِ المفعول:

جاء التَّعبير باسمِ المفعول في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾؛

---

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 125، والسيوطي، الإتقان: 2/ 256.

التّناسبُ التّامّ بين مطلعِ الآية وختامِها

للدّلالةِ على كونِه واقعًا لا محالةَ إن كان المرادُ بالأمرِ الأمرَ القدريَّ الكونيَّ، وعلى كونِه واجبَ النّفاذ إن كان المرادُ به الأمرَ الشّرعيَّ التّكليفيَّ، وذلك كما كان في قضيّة تزويجه ﷺ السّيدةَ زينبَ ، "فيكون ختمُ الآية بهذه الملاحظة مناسبًا لأوّلها ومقرّرًا له"[1]، وهو الأنسبُ بفعل (كان)، فهو يُقرِّرُ حتميّةَ الوقوعِ الفعليِّ.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإخفاءُ والكتمانُ:

لفظُ الإخفاء أعمُّ، فكلُّ كتمانٍ إخفاءٌ، وليس كلُّ إخفاءٍ كتمانًا

يطلقُ الإخفاءُ على ما يقابلُ الإبداءَ والإعلانَ، كما قال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 271]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ [الممتحنة: 1] والخَفاء: ما يسترُ به كالغطاء[2] أي أنَّ الخفاء يُطلقُ على السّتر مطلقًا، بخلاف لفظِ (الكتم) مثلًا، فإنّه يطلقُ على إخفاء الحديث وسترِه خاصّةً، فيقال: كتمتُ الحديثَ كتمًا وكتمانًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النساء: 42][3]، وعليه فلفظُ الإخفاءِ أعمُّ وأوسعُ دلالةً وأعمقُ من لفظِ الكتمان، فكلُّ كتمانٍ إخفاءٌ ولا عكسَ.

الإبداءُ والإظهارُ:

كلُّ إبداءٍ إظهارٌ، وليس كلُّ إظهارٍ إبداءً

يقال: بَدا الشّيء بُدوًّا وبَداءً أي: ظهر ظهورًا بيّنًا[4]، وعلى هذا، فمعنى ﴿ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ أي: مُظهره بجلاء، وأصلُ (ظهر) يدلُّ على قوّةٍ وبُروز، يقال: ظهر الشّيءُ يظهرُ ظهورًا فهو ظاهرٌ، إذا انكشفَ وبرز، ولذلك سمّيَ وقتُ الظّهر والظّهيرة، وهو أظهرُ أوقات النّهارِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 369.
(2) الراغب، المفردات: (خفي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (كتم).
(4) الراغب، المفردات: (بدا).

وأضوؤُها، والأصلُ فيه كلّه ظهرُ الإنسان، وهو خلافُ بطنِه، وهو يجمعُ البروزَ والقوةَ، ويقال للرّكاب: الظّهر؛ لأنَّ الذي يحملُ منها الشّيءَ ظهورُها، ويقال: رجلٌ مظهرٌ، أي شديدُ الظّهر، ورجلٌ ظهِرٌ: يشتكي ظهرَه، وبذلك يتّضحُ أنَّ الإبداءَ أخصُّ منَ الإظهار؛ لأنّه الإظهارُ البيِّنُ أي بجلاءٍ ووضوحٍ، فيكون له معنًى زائدٌ على أصلِ الظّهور، وعليه فكلُّ إبداءٍ إظهارٌ ولا عكسَ.

الوطرُ والحاجةُ:

الوطرُ حاجةٌ مقترنةٌ بهمّةٍ خاصّةٍ؛ والحاجةُ أعمُّ من ذلك

الوَطَرُ: النّهمةُ والحاجةُ المهمّةُ[1] قال اللّيث: الوَطَر كلُّ حاجةٍ كانَ لصاحِبها فيها هِمَّةٌ، فَهيَ وطَرُه، ولم أسمع لَهُ فِعلًا أكثرَ من قَوْلهم: قَضَيتُ مِن أمر كَذا وكَذا وطَري أي حاجَتي، وجمع الوَطَر أَوْطارٌ[2]، والمرادُ بقضاء الوَطَر في اللّغة: بلوغُ مُنتهى ما في النّفس منَ الشّيء، ثمّ صار عبارةً عنِ الطّلاق؛ لأنَّ الرّجلَ إنّما يطلِّقُ امرأتَه إذا لم يبقَ له فيها حاجةٌ، والمعنى في الآية: لمّا قضى زيدٌ حاجتَه من نكاحِها زوجّناكها[3].

وأصلُ (حوج) الاضطرارُ إلى الشّيء، والحاجةُ واحدةُ الحاجات[4]، يقال: حاج يَحوج ويَحيج: أي: احتاجَ، قال تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ [يوسف: 68]، وقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ [الحشر: 9]، أي: لا يجدون مسَّ حاجةٍ من فَقْدِ ما أوتوا[5]، وكلمةُ الوطر فيها أصلُ معنَى الحاجةِ وزيادةٌ، إذ هي الحاجةُ المهمَّةُ والنَّهمةُ التي تحتاجُ إلى علوِّ همةٍ وجهدٍ زائدٍ، وبذلك يكون: كلُّ وطرٍ حاجةً، ولا عكسَ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وطر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (وطر).
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 468.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوج).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حوج).

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: 38 - 39]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من بيانِ رفعِ الحرجِ العامِّ إلى رفعِ الحرجِ الخاصِّ

لمّا نفتِ الآيةُ السّابقةُ الحرجَ عنِ المؤمنين في شأن الزّواجِ من أزواجِ أدعيائِهم، وكان ذلك بعد تزويجِ رسولِ اللّه ﷺ لمطلّقةِ زيدٍ رضي الله عنه، فكان رفعُ الحرجِ عامًّا في المؤمنين جميعًا، ناسبَ أن يُخصَّ رسولُ اللّه ﷺ بنوعٍ من رفعِ الحرجِ وهو فيما فرضَه اللّه تعالى له، وهذا في المتقدِّم ذِكْرُه وفي سائر التّشريعات، وذلك على سبيل التّكريم والتّشريفِ، فيكونُ قد نفَى الحرجَ عنه مرّتين، إحداهما بالاندراجِ في العمومِ، والأخرى بالخُصوص[1]، فهو انتقالٌ من رفع الحرجِ العامِّ، إلى رفعِ الحرجِ الخاصِّ، لبيانِ أنَّ ذلك هو سنَّتُه سبحانه في السّابقين ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ تأكيدًا على أنّهم عليهم السلام لم يَصدروا في أفعالِهم إلّا عن وحيٍ منَ اللّه لا يكتمونَه، بل يبلّغونَه مهما كان وقعُه على النّاس؛ لأنّهم لا يخشون في دين اللّه أحدًا سِواه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَضَ﴾: (فرض) أصلٌ يدلُّ على تأثيرٍ في شيءٍ من حزٍّ أو غيرِه، فالفرضُ: الحزُّ في الشّيء[2]، وقطعُ الشّيء الصّلبِ والتّأثيرُ فيه، كفرض الحديدِ، وفرضِ الزّندِ والقوسِ، والفَرْضُ كالإيجاب،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 484.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرض).

لكنَّ الإيجابَ يُقال اعتبارًا بوقوعِه وثباتِه، والفرضُ بقطعِ الحُكم فيه، قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور: 1][1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّـهُ لَهُۥ﴾ أي: قسمَ له وقدَّر[2].

2) ﴿سُنَّةَ﴾: (سنّ) أصلٌ يدلُّ على جريان الشّيء واطّرادِه في سهولة، والأصلُ فيه قولُهم: سننتُ الماءَ على وجهي أسنُّه سنًّا، إذا أرسلتُه إرسالًا، والسُّنّة: السّيرةُ[3] والطّريقة؛ وسُنَّةُ النّبيّ: طريقتُه التي كان يتحرّاها، وسُنَّةُ اللّه تعالى: قد تقالُ لطريقةِ حكمتِه، وطريقةِ طاعتِه[4]، نحو قولِه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّـهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: 23]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: 43]، ومعنى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ﴾ أي: عادةُ اللّه في الأنبياء المتقدّمين أن ينالوا ما أحلَّ اللّه لهم[5].

3) ﴿خَلَوْاْ﴾: (خلو) أصلٌ يدلُّ على تعرّي الشّيء منَ الشّيء، يُقال: هو خِلْوٌ من كذا، إذا كان عِرْوًا منه، وخلتِ الدّار وغيرُها تخلو، والخَليُّ: الخالي من الغمِّ، وامرأةٌ خليةٌ: كنايةٌ عنِ الطّلاق؛ لأنّها إذا طُلّقت فقد خلت عن بعلها[6]، وخلا بمعنى: مضى، "وكلُّ ما في القرآن منَ التّركيب فهو من (خلا) بمعنى مضى"[7]، و﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾: هم النّبيّون[8] السّابقون الذين مضَوا.

4) ﴿مَّقْدُورًا﴾: (قدر) أصلٌ يدلُّ على مبلغ الشّيء وكُنهه ونهايتِه، فالقدر: مبلغُ كلِّ شيءٍ، يُقال: قدرُه كذا، أي: مبلغُه، وكذلك القدرُ، وقَدَرْتُ الشَّيْءَ أَقْدِرُهُ وأَقْدُرُهُ مِنَ التَّقْدِيرِ، وقَدَّرْتُهُ أُقَدِّرُهُ، والقَدَرُ: قَضاءُ اللّه تَعالَى الأَشْياءَ عَلى مَبالِغِها ونِهاياتِها الَّتي أرادَها لَها، وهوَ القَدَرُ أيْضًا[9]، وتَقْديرُ اللّه على وجهين: أحدُهما: بالحُكم منه أن يكونَ كذ ا أو لا يكون كذا، إمّا على سبيل الوجوب، وإمّا على سبيل الإمكان، وعلى ذلك قولُه:

(1) الراغب، المفردات: (فرض).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 105.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سن).
(4) الراغب، المفردات: (سنن).
(5) ابن جزيّ، التسهيل: 2/ 153.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلو).
(8) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 469.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق: 3]، والثّاني: بإعطاء القُدْرَةِ عليه، كقوله تعالى: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣﴾ [المرسلات: 23]، تنبيهًا أنّ كلّ ما يحكمُ به فهو محمودٌ في حكمِه[1]، ومعنى ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ أي: قضاءً مقضيًّا[2].

5) ﴿يُبَلِّغُونَ﴾: (بلغ) أصلٌ يدلُّ على الوُصولِ إلى الشَّيْءِ، تَقولُ بَلَغْتُ المَكانَ، إذا وصَلْتَ إليْهِ، وقد تُسمّى المشارفةُ بلوغًا بحقِّ المقاربة، قال اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ [الطلاق: 2][3]، والبُلُوغ والبَلاغ: الانتهاءُ إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا منَ الأمور المقدّرة[4]، ومعنى ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يوصلونَها إلى من أُرسِلوا إليهم من أممهم أو غيرِهم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحرجُ مرفوعٌ عن سيِّد الخلقِ، وأمرُ الله ماضٍ في الخلْقِ

تُبيِّن الآيتان الكريمتان أنَّه ليس على النّبيِّ حرجٌ فيما أحلَّ اللّه له من نكاحِ امرأةِ مَن تبنّاه بعد فراقِه إياها، ثم بيّنَ أنَّ الرّسول ﷺ ليس بدعًا في الرّسلِ فيما أباح له؛ فقال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: إنَّ اللّه سنَّ بك أيّها الرّسول سنّةَ أسلافِك منَ الأنبياء الذين مضَوا من قبلُ فيما أباح لهم. ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ أي وكان أمرُ اللّه الذي يقدّرُه كائنًا لا محالةَ وواقعًا لا محيدَ عنه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[5]، وهؤلاء الرّسلُ كان من شأنِهم تبليغُ الرّسالات، وعدمُ خشيةِ أحدٍ إلّا اللّه تعالى، وكذلك شأنُ النّبيِّ ﷺ، في أنَّه مُبلّغٌ لرسالة اللّه، لا يخشى أحدًا سواه، ثم خُتمت الآيةُ الثّانية بقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾،

---

(1) الراغب، المفردات: (قدر).
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 469.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(4) الراغب، المفردات: (بلغ).
(5) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 16.

أي: ناصرًا ومعينًا، وكافيًا عبادَه كلَّ ما يخافونَه، وحافظًا لأعمال خلْقِه، ومحاسِبًا لهم عليها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآية:

مجاهدةُ النَّفسِ في الملمّاتِ خيرٌ من مُجاهدتِها في المباحاتِ

قولُه سبحانه: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ جيء به ليحقّقَ أكثرَ من غرض؛ ففيه زيادةُ بيانِ مساواة النّبيّ ﷺ للأمّة في إباحة تزوّجِ مُطلّقةِ دعيِّه، وبيانُ أنَّ ذلك لا يُخلُّ بصفة النّبوّة؛ لأنَّ تناولَ المباحاتِ من سنّةِ الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: 51]، وأنَّ النّبيَّ ﷺ إذا رامَ الانتفاعَ بمباحٍ لِمَيْلِ نفسِه إليه، ينبغي له أن يتناولَه، لئلّا يجاهدَ نفسَه فيما لم يُؤمر بمجاهدة النّفس فيه؛ لأنَّ الأليقَ به أن يستبقيَ عزيمتَه ومجاهدتَه لدفعِ ما أُمر بتجنّبِه، وفي هذا الاستئناف أيضًا ابتداءٌ لنقض أقوالِ المنافقين: إنَّ النّبيّ ﷺ تزوَّج امرأةَ ابنِه[2] فتحقّقَ بهذه الجملة الاستئنافيّةِ أكثرُ من غرض، ولأهمّية هذه الأغراضِ المتحقّقةِ كان الاستئنافُ.

نكتةُ النَّفيِ بأداة ﴿مَّا﴾:

جاء التَّعبيرُ بأداة ﴿مَّا﴾ النّافيةِ للدّلالةِ على نفيِ عموم الحرجِ عنه ﷺ، فيدخلُ فيه كلُّ ما من شأنِه أن يُحدثَ حرجًا في النَّفسِ، أو في نفوسِ الآخرين.

فائدةُ ذكرِ ﴿كَانَ﴾:

استغراقُ كلِّ أسبابِ الحرجِ أولَى من نفْيِ بعضِها

جاء ذكرُ فعلِ ﴿كَانَ﴾ بعد أداة النّفيِ لإفادة المبالغةِ في انتفاء الحُكم، فإنَّ ذكرَها "أقوى دلالةً على انتفاءِ الحُكم؛ لأنَّ فعلَ كان لدلالتِه على الكونِ، أي الوجودُ يقتضي نفيَه انتفاءَ

(1) صديق خان، فتح البيان: 11/ 100، والقاسمي، محاسن التأويل: 22/ 16.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 40.

الكونِ الخاصِّ برمّتِه"[1]، وهذا أرسخُ في تسليةِ النَّبيِّ ﷺ، وأقوى في العمومِ والشُّمول، بحيث يجمعُ كلَّ ما من شأنِه أن يُثيرَ في النّفوس ثائرةَ الرّيبةِ.

أكثرُ ما يُحرجُ أهلَ الباطل تواضعُ أهلِ الحقِّ في معاملة النّاس

نكتةُ تقديمِ المُسنَد على المسندِ إليه:

جاء تقديمُ خبر ﴿كَانَ﴾ على اسمها في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٍ﴾؛ لإفادة التّخصيص، فإن قيل: وأيُّ تخصيصٍ له ﷺ في ذلك، والأمّةُ كلُّها يشملُها هذا الحكمُ؛ إذ لا حرجَ على أحد مطلقًا في أن يأتيَ ما أحلَّه اللّه وأباحه؟ والجوابُ: أنَّ فائدةَ التّخصيص بنفي الحرجِ عنه في هذا، هو دفعُ ما قد يُتوهّمُ في حقِّه من أنّه لعلوِّ منزلته، قد لا يفعلُ المباحاتِ، ويُشدّدُ على نفسه فيها كما يُشاهدُ بعضُ أشراف النّاس يتنزّه عن أشياءَ يفعلُها غيرُه، وانظرْ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: 7]، وقوله ﷺ: «لَكِنّي أصومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلّي وأرْقُدُ، وأتَزَوَّجُ النِّساءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ مِنّي»[2].

دلالةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

رفعُ الحرجِ عن الكُمَّل ليس كرفعِه عن غيرِهم

استُعمل حرفُ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٍ﴾ للدّلالة على تمكُّن نفْيِ كينونةِ وجودِ أدنَى حرجٍ واقعٍ على النّبيّ ﷺ، فإنَّ المعنى هنا رفعُ الحظرِ رفعًا متمكّنًا لا إثباتُه، أي: ما صحَّ وما استقامَ في الحكمة أن يكونَ عليه حرجٌ فيما أباحَه اللّه له ﷺ وقدّره عليه، فالمنفيُّ هو "الصّحةُ واللّياقةُ، وهذا المبنَى شائعٌ في الاسْتعْمال فصار حقيقةً عُرفيّةً"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 27.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 300، والحديث في صحيح البخاري، رقم (5063).
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 361.

وجهُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ على الرّسول:

يُلحظُ في غالب استعمالِ لفظِ النّبيّ التّكليفُ الخاصُّ وفي لفظِ الرّسول التّبليغُ العامُّ

آثر النّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظِ النّبيّ دون الرّسولِ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ﴾؛ وذلك لأنَّ السّياقَ هو سياقُ تشريعِ أمرٍ للنّبيِّ ﷺ، وهو كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التحريم: 1]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ [آل عمران: 161] وقولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ [الأنفال: 67]؛ فيُلاحظُ في هذه الآيات أنَّ المشتركَ بينها هو كونُها تتحدّثُ عنِ الجانبِ العمليِّ، من حيث ما يَنبغي عليه فعلُه وما لا ينبغي، ويأتي في سياقِ تشريعِ أمرٍ خاصٍّ به ﷺ، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: 50] فهذا شأنٌ خاصٌّ به ﷺ، وليس للأمّة تقليدُه.

بينما يؤثِرُ استعمالُ وصفِ الرّسول في شأنِ التّبليغ والإنذارِ كما في قوله سبحانه: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: 67]، وقولِه سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: 7] وقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59] ونحوِها منَ الآيات المناظرةِ.

معنَى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾:

(أل) في ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ للعهدِ، والمرادُ نبيُّنا محمّدٌ ﷺ، لكونِ السّياق خاصًّا به، واللّحاقُ أكّدَ ذلك بقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾.

معنَى ﴿مِنۡ﴾ ونكتةُ تنكيرِ ﴿حَرَجٖ﴾:

كلُّ حرجٍ عن سيّدِ الخلقِ مرفوعٌ

استعملَ النّظمُ الكريمُ حرفَ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَرَجٖ﴾ لتأكيد النّفيِ، أي نفيِ أيِّ حرجٍ، فالمرادُ به العمومُ الذي هو مستفادٌ من تنكيرِ لفظ ﴿حَرَجٖ﴾ في سياق النّفيِ، والمرادُ نفيُ كلِّ ما يصحُّ

أن يتناولَه لفظُ الحرج عنه ﷺ في التّلبُّس بما أباحَه اللّه له، ويدخلُ الزّواجُ بالسّيدةِ زينبَ مُطلّقةِ زيدٍ رضي الله عنهما دخولًا أوّليًّا.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّةِ:

استُعملَ حرفُ الظرفيّة في قوله تعالى: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ لبيانِ استغراقِ رفعِ الحرجِ عن كلِّ المفروضات دون استثناءٍ.

نكتةُ استعمالِ (ما) الموصولةِ:

نفيُ رفعِ الحرج عن عموم المفروضاتِ

(ما) في قوله تعالى: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ اسمٌ موصولٌ دالٌّ على عموم ما فرَضَه اللّه لرسولِه وقدَّرَه عليه وأباحَه له، ويدخلُ فيه دخولًا أوّليًّا "ما أحلَّه اللّه لهم من أمر النّكاح وغيرِه، أي: إنّ اللّه سنَّ بك أيّها الرّسولُ سنّةَ أسلافك منَ الأنبياء الذين مضَوا من قبلُ، فيما أباح لهم منَ الزّوجاتِ والسّراري"[1].

دلالةُ القيدِ ﴿فِيمَا﴾:

الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿فِيمَا فَرَضَ﴾ قيدٌ لتوكيدِ موضعِ رفعِ الحرج، وهو كونُه ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾، ولا يُرفع الحرجُ إلّا في المفروضات.

فائدةُ إيثارِ استعمالِ كلمةِ ﴿فَرَضَ﴾:

كثرةُ المعاني المتّسقةِ أولَى في الاستعمالِ من لفظٍ ذي دلالةٍ واحدةٍ

استُعملَ الفعلُ ﴿فَرَضَ﴾ ليشملَ الاحتمالاتِ الدّلاليَّةَ التي يُبنى عليها المعنى، فإن قيل: المرادُ بالفرض الإيجابُ، فمحتملٌ، وإن قيل: التّقديرُ، فمحتملٌ، وإن قيل: الإذنُ وعدمُ الحظر فمحتملٌ، وهذه المعاني مجتمعةً لا تؤدّيها كلمةُ (حكَم) وغيرِها منَ الألفاظِ القريبة، ومن ثَمَّ يظهرُ لنا أنَّ استعمالَ لفظِ الفرض هو الأنسبُ لكونه الأدلَّ والأشملَ.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 33.

فائدةُ إسنادِ فعلِ ﴿فَرَضَ﴾ إلى الذّات العليّة:

تحذيرُ المنافقين وتسليةُ سيِّدِ المُرسَلين

أُسند فعلُ ﴿فَرَضَ﴾ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾؛ مع العلم أنّه ﷻ هو الذي فرض الأمرَ لنبيّه ﷺ، وذلك للتّحذيرِ والتّنبيه أن يمسَّ أحدٌ رسولَ اللّه ﷺ بأدنى كلمةٍ فيما فرضَ اللّه له، فإذا علمَ العبادُ أنَّ الأمرَ للّه وحدَه؛ فإنَّ لمزَ النّبيِّ يتضاعفُ، والإثمَ يعظمُ، مع الإيماءِ إلى تسليةِ النّبيّ ﷺ.

نكتةُ استعمالِ حرفِ اللّام:

عُدّي فعلُ ﴿فَرَضَ﴾ باللّام دون (على) ليدلَّ على الإذنِ له ﵇، وعدمِ الحظر، فمعنى: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ قدّره، إذ أذنَه بفعْلِه[1]، وأنَّ هذا الفرضَ له لا عليه.

غرضُ حذفِ مفعولِ ﴿فَرَضَ﴾:

حُذف مفعولُ ﴿فَرَضَ﴾ للعلم به بحُكمِ السّياق، فالكلامُ عن زواجه ﷺ بالسّيدةِ زينبَ ﵂، مع إفادة العموم، أي: كلُّ ما أباحه وليس الزّواجَ فقط.

علّةُ فصلِ الجملةِ عنِ السّابق:

سُنَّةُ اللهِ في النّبيّين عدالةٌ باقيةٌ إلى يومِ الدّين

فُصِل قولُه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ عمّا قبله، إمّا باعتبار هذه الجملة مؤكّدةً لِما قبلَها من نفي الحرج[2]، أي: رُفع عنه الحرجُ كما رُفع عمّن قبله، أو هي تعليلٌ لها للسّابقة، أي: رفعَ عنه الحرجَ؛ لأنَّ هذه هي سنّةُ اللّه تعالى في السّابقين منَ النّبيّين، فتكونُ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، كأنّه قيل: لماذا رُفع الحرج؛ فقيل: لأنَّ هذه سنّةُ ربِّ العالمين في أنبيائه، وهو ما يدلُّ على العدالةِ الإلهيّةِ في التّشريع للرّسل، كأنّه قيل: ارضوا بما كان للسّابقين، ولا تكونوا كمن رفعَ الصّوتَ فلحقه الغضبُ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 40.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 105.

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿سُنَّةَ﴾:

جاء استعمالُ لفظِ السّنّة في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: طريقتُه التي رسمَها لأنبيائِه وكلَّفهم بانتهاجِها، لبيانِ أنَّ فيها عنصرَ الثّباتِ والدّيمومةِ، والوضوحِ والانكشافِ.

إعرابُ ﴿سُنَّةَ﴾ ودلالتُها:

توكيدُ أنَّ المفروضَ سنّةٌ وأنّ التزامَها واجبٌ

نُصب لفظُ ﴿سُنَّةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾، إمّا على المصدر، وفائدتُه: تأكيدُ الجملة المنفيّةِ قبلَه، والتّقديرُ: (سنَّ اللّه ذلك سُنّةً)، وإمّا لكونِه اسمًا وُضِع موضعَ المصدر، وإمّا على جعله منصوبًا بفعل (جعل) مقدّرًا، وإمّا على أنَّه منصوبٌ على الإغراء، أي: فعليه سنّةُ اللّه[1]، وهي أوجهٌ تجتمعُ في معنى التّوكيدِ والإلزامِ.

نكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالة:

إثباتُ الوعيدِ في قلوب المُرجفين كتربيةِ المهابةِ في نفوس الصّالحين

آثر النّظمُ الكريمُ إظهارَ اسمِ الجلالة الذي جاء مضافًا إليه في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: (سنّته في الذين خلوا)، وذلك لإدخال الوعيدِ والتّرهيبِ في قلوب المُرجفين الذين يُشغّبون على ما سنّه اللّه تعالى لأنبيائه، والمهابةِ في قلوب المؤمنين.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّة:

استُعمل حرفُ الظّرفيّةِ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ للظّرفيّةِ المجازيّةِ، أي: سنّةُ اللّه تعالى الثّابتةُ والمستقرّةُ في الذين خلوا من قبلُ.

بلاغةُ استعمالِ الموصول:

منِ انتقص نبيًّا كمن انتقصَ سائرَ النّبيّين

المرادُ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ الأنبياءُ السّابقون، وقد زاده بيانًا قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فعبّر عنهم بالاسمِ الموصول للتّنبيه على ما تضمّنتْه جملةُ صلةِ

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 127، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 328.

الموصول من كونِهم قد خلَوا ومضت سنّتُه تعالى فيهم على النّحو الذي كان في شأنِه ﷺ ممّا رآه النّاس، فلم يكن بدعًا منَ الرُّسل، وليعلمَ النّاسُ أنَّ هذه هي سنّةُ اللّه تعالى في بقيَّة النّبيّين، فمن غمزَ في أحدهم فقد غمزَ في كلِّهم.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿خَلَوۡاْ﴾:

أبلغُ المفرداتِ ما جمعتْ إلى المعنَى المرادِ المعانيَ الإشاريّةَ

دلَّ فعلُ ﴿خَلَوۡاْ﴾ على معنى تركِ الشَّيءِ خاليًا بعدَ الذّهاب، فخلوُّ الزّمان والمكان منَ الأنبياءِ هو ذهابُهم وعدمُ بقاء أحدٍ من جنسِهم، ولمّا كان ذهابُ الأنبياء وموتُهم يُحدثُ فراغًا لا يملؤُه إلّا نبيٌّ كان استعمالُ هذا اللّفظ هو الأنسبَ، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ النّبيّ ﷺ سيذهبُ كما ذهبوا ويَخلو الزّمانُ والمكان منه، وهذا الاستعمالُ واضحٌ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: 144]، فعلى المؤمنين أن يَنتبهوا لِما يصدرُ عنهم في شأنِه في الأيّام الباقيةِ، فهو تنبيهٌ وتحذيرٌ.

فائدةُ تقييدِ فعلِ ﴿خَلَوۡاْ﴾ بـ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾:

الـرّدُّ الضّمنيُّ على المُسيئين من أهل الكتاب

جاء تقييدُ فعلِ ﴿خَلَوۡاْ﴾ بقيدِ ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ مع أنَّ الفعل دالٌّ على المُضي وجاء بصيغة الماضي، ونكتةُ ذلك أنَّ القيدَ يُنبِّهنا على أنَّ ما قبْلَ النّبيِّ ﷺ هو زمانٌ معتبرٌ كما أنَّ ما بعدَه كذلك، فلا فرقَ بين الزّمانَين، ومن حاول أن ينتقصَ من أحدِ الزّمانين فهو منتقصٌ منَ الزّمان الآخر، ففيه ردٌّ ضمنيٌّ على اليهود الذين ظاهروا المنافقين في التَّشغيب على مسألة زواجِه ﷺ منَ السّيدة زينبَ، على معنى أنّه كان أولى بهم إذن أن يَنسبوا العيبَ إلى أنبيائِهم الذين خلَوا فـ " كأنّه أراد أن يكونَ أنبياءُ بني إسرائيلَ عليهم السلام أولى مُرادًا بهذا، تبكيتًا لمِلبّسي أتباعهم، فأدخل الجارَّ فقال: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ أي منَ الأنبياء الأقدمين في إباحة التّوسيع في النّكاح لهم، وهو تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا ذلك، وإظهارٌ لتلبيسِهم[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 361.

سنّةُ الله في النّبيّين واحدةٌ لا تختلفُ ولا تتخلّفُ

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ:

جاءت جملةُ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ في هذه الآية في سياق بيانِ أنَّ النِّكاح سنّةٌ في النَّبيين على العُموم، وفي قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: 62] في سياق الحديثِ عنِ المُنافِقين والشّاكين الّذين في قُلوبهم مرضٌ والمرجفين في المَدينَة على العموم، وقولِه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الفتح: 23]، في سياق الحديثِ عن نصرَة اللّه لأنبيائِه، والعمومُ في النُّصرَة أبلغُ منْهُ في النِّكاح والقَتْل، والجامعُ بين هذه الآيات الإلماحُ إلى أنَّ سنّةَ اللّه تعالى في جميع الأنبياء واحدةٌ، لا تختلفُ ولا تتخلّفُ، وأنَّ ما كان لهم كان لنبيِّنا ﷺ، فالجملةُ في بيان وحدةِ الرّسالة.

الجملةُ إمّا اعتراضٌ أو تذييلٌ

نوعُ الواو في الفاصلة:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ إمّا أن نجعلَها اعتراضيَّةً، أو تذييليّةً، وذلك بحسب ما بعدَها ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ﴾، فإن جعلناها صفةً للموصول ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ فالجملةُ اعتراضيةٌ، وإن كان الاسم الموصولُ مستأنفًا فالجملةُ تذييلٌ، والواوُ عطفٌ على الجملة المستأنفةِ السّابقةِ فلها حُكمُها[1].

فائدةُ ذكرِ فعلِ (كان):

ذُكر فعلُ (كان) في الفاصلة ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ وهو بمعنى (لم يزل)[2]؛ لإفادة تأكيدِ وقوعِ أمر اللّه كما قدّره سبحانه، وهو دالٌّ على الاستمرار.

دلالةُ إضافةِ لفظِ ﴿أَمۡرُ﴾ إلى اسم الجلالة:

الأمرُ واحدُ الأمور، والمرادُ به الأمرُ القدريُّ وهو إمّا مصدرٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 41.

(2) الزركشي، البرهان: 4/ 125، والسيوطي، الإتقان: 2/ 256.

والمرادُ به أنّ اتّباعَه والعملَ بموجبه لازمٌ مقضيٌّ في نفسِه، أو هو كالمقضي في لزوم اتّباعِه، أو أنَّه اسمٌ والمعنى: كان مرادُه ذا قدرٍ أو عن قدرٍ[1]، وأُضيف ﴿أَمۡرُ﴾ إلى الاسم الجليل؛ للتّعليل إذا كانتِ الإضافةُ بمعنى (من)، أو للاختصاصِ إذا كانتِ الإضافة بمعنى اللّام، وكلاهما صحيحٌ مقبولٌ، وآثَرَ اختيارَ لفظِ الجلالةِ لتوريثِ الهيبةِ في قلوب العباد.

ما كان لله ومِنَ الله فهو موجبٌ للإذعان لاجتماع التّعليلِ والاختصاصِ

إيثارُ لفظِ ﴿قَدَرٗا﴾ مادّةً وصيغةً:

القَدَرُ بفتح الدّال: إيجادُ الأشياء على صفةٍ مقصودةٍ وهو مشتقٌّ مِنَ القَدْر بسكون الدّال وهو الكمّيةُ المحدّدةُ المضبوطةُ[2]، أو هو تعلّقُ الإرادةِ بالأشياءِ في أوقاتِها، وهو تفصيلُ قضائه السّابق في إيجادها في الموادِّ الجزئيّةِ المُسمّاةِ بلوحِ المحوِ والإثْباتِ[3]، أي: أنَّ القضاء هو الإرادةُ الأزليّةُ المتعلّقةُ بالأشياء على ما هي عليه، والقَدَرُ عبارةٌ عن إيجادِه إيّاها على تقديرٍ مخصوصٍ مُعيّنٍ[4].

أمرُ الله تعالى قدرٌ قائمٌ لا يتخلّفُ

وقد يُطلقُ القدَر على الشّيء الذي تعلّق به القدرُ وهو المقدورُ كما في هذه الآية، فالمعنى: وكان أمرُ اللّه مقدّرًا على حكمةٍ أرادها اللّه تعالى من ذلك الأمر، فاللّه لمّا أمرَ رسولَه ﷺ بتزوج زينبَ التي فارقها زيدٌ كان عالمًا بأنَّ ذلك لائقٌ برسوله ﷺ كما قدَّر لأسلافِه مِنَ الأنبياء[5]، فاختيارُ هذا اللّفظ لإفادةِ التّسليمِ المطلقِ لقدرِ اللّه تعالى.

نكتةُ التّوكيدِ بالوصفِ:

قولُه ﴿مَّقۡدُورًا﴾ صفةٌ لـ ﴿قَدَرٗا﴾ وهي أيضًا مؤكّدةٌ لـ ﴿قَدَرٗا﴾ كما يقال: ظلٌّ ظليلٌ وليلٌ أَلْيَلُ في قصد التّأكيدِ، وفسّر بعضُهم القدرَ

توكيدُ الموصوفِ بالصِّفات قوّةٌ للمقصودِ بالمعنى

(1) الخفاجي، حاشية الشهاب: 7/ 174.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 42.
(3) الخفاجي، حاشية الشهاب: 7/ 174.
(4) الخفاجي، حاشية الشهاب: 7/ 174.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 42.

هنا بالقضاء فقال: معنى ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: قضاءً مقضيًّا، ففسّر القدرَ بالقضاء تنبيهًا عَلَى أن كلًّا منهما يُستعملُ بمعنى الآخر[1].

فنُّ بديعِ الجِناسِ:

بين الموصوفِ ﴿قَدَرًا﴾ والصّفةِ ﴿مَّقْدُورًا﴾ جناسٌ ناقصٌ، فهو يجمعُ بين جمالِ الصّوتِ، وقوّةِ الأداء، وبهاءِ المعنى، وتأكيدِ الموصوف بصفتِه بالمعنَى والمبنَى.

توجيهُ اختلافِ الفاصلةِ بين الآيتَين:

أمرُ الله مقدورٌ مفعولٌ لا محالةَ

اختلفت فاصلةُ الآيةِ السّابقة التي جاءت بجملةِ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، عن فاصلة هذه الآيةِ التي جاءت بجملة: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾؛ فجاءتِ الأولى في القضاء، والثّانية في القدَر، ثم فُرِّق بين القضاء والقدر بأنَّ القضاء ما كان مقصودًا في الأصل، والقدرَ ما يكون تابعًا له.

ثمّ لمّا قال تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي تزويجُنا زينبَ إيّاك كان مقصودًا متبوعًا مقضيًّا مُراعى، ولمّا قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي كان ذلك حُكمًا تبعيًّا[2].

نكتةُ الوصفِ بالاسم الموصول:

تبليغُ رسالاتِ الله تعالى لا يتنافى مع الاستمتاعِ بالمباحات

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ للاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾، وقد آثرَ النّظمُ استعمالَ الاسم الموصولِ للتّنبيه على ما تضمنتّه جملةُ الصّلةِ من تفصيلاتٍ مهمّةٍ، فجيء بالاسم الموصول لبيانِ أنَّ هؤلاء الأنبياءَ الذين سنَّ الله فيهم تلك السّنّةَ، فتزّوجوا وأخذوا بالمُتعِ الحلالِ، همُ الذين يبلّغون رسالاتِ الله

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 370.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 170.

تعالى، ففيه دفعٌ للحرجِ عنهم، ببيان صفاتِهم التي هم عليها، وهذا أبلغُ ما يكونُ عليه الحالُ، فالاسمُ الموصول بمثابة التّعليلِ للمتقدِّم ذكرُه، وأولى الأعاريبِ أن يكون قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفةً، ويصحُّ معه أن يكون بدلًا، وهو صحيحٌ صناعةً، بعيدٌ دلالةً؛ لأنَّ المقصودَ هو بيانُ جريانِ السّنّة فيهم مع كونِهم يبلّغون رسالاتِ اللّه، والبدلُ يقلقُ هذا المعنَى، وقيل خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: همُ الذين، ففيها معنَى الوصف، أو نصْبًا على المدح بإضمار (أمدح) أو (أعني)[1].

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ التّبليغ مادّةً وصيغةً:

دفـــعُ تـــوهُّـــمِ تقصيرِ الرّسل في الإنذار والدّعوةِ

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفردةِ التّبليغ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ وهي دالّةٌ على معنى الوصولِ إلى الشّيء، وبلوغِ مُنتهى المقصدِ وما يتبعُه من إيصالِ شيءٍ إلى آخرين، ونكتةُ ذلك بيانُ أنَّ هؤلاء الرّسلَ يبلِّغون رسالاتِ اللّه بكلِّ ما أوتوه من عزيمةٍ وقصدٍ، ولا يَتوانون عن ذلك أبدًا، وأنَّ ما أباحَه اللّه لهم لا يجعلُهم متهاوِنين في التّبليغِ الذي هو بلوغُ أقصى الشّيء، وأوثرت صيغةُ المضارع استحضارًا للحال الماضيةِ، ولبيانِ أنّ الرّسلَ في أوقاتهم كانوا مُستمرّين في تبليغ رسالاتِ اللّه دونَما انقطاعٍ حتى انتقالِهم إلى الرّفيق الأعلى، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أتّباعَهم عليهم أن يستمرّوا في تبليغ الرّسالة للنّاسِ.

غرضُ جمعِ كلمةِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾:

جمعُ الرّسالاتِ باعتبارِ تعدّدِ الرُّسل لا باعتبار تعدّدِ الرّسالةِ

جمعَ لفظُ الرّسالات في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ باعتبار جمْعِ الرُّسل المُشار إليه في الجملتَين الموصولتَين ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ﴾، ولأنَّهم ﷺ قد أُرسلوا في أوقاتٍ متفاوتةٍ إلى أممٍ مختلفةٍ، فصحَّ التّعبيرُ عن رسالاتِهم بصيغة

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 127، والزمخشري، الكشاف: 3/ 544.

الجمعِ لهذا الاعتبار، وإلّا فإنَّ رسالةَ جميع الرّسل واحدةٌ من حيث الأصولُ، متنوعةٌ من حيث الفروعُ لاعتباراتٍ منها الزّمانُ والمكانُ واختلافُ المجتمعات.

فائدةُ إضافةِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ إلى اسم الجلالة:

الرّسالاتُ نازلةٌ مِنَ الله تعالى وتبليغُها لله تعالى

أضيفت كلمةُ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ إلى اسم الجلالة ﴿رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى (من) فهي رسالاتٌ منَ اللّه تعالى، أو بمعنى اللّام، فهي رسالاتٌ للّه تعالى في التّبليغ والإيصال، فاجتمع فيها معنَى المصدرِ والغاية، وجمعُ المعنيَين منَ الإضافة هو الأولى بالمقام، فهي رسالاتٌ نازلةٌ منَ اللّه تعالى، وهي رسالات تُبلّغُ لأجل رضا اللّه تعالى.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في جملة ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾ للعطفِ، عطف الجملة على جملة: ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ جمعهما بين وظيفة التبليغ، وعلة التبليغ وهي الخشية من اللّه تعالى.

نكتةُ اختيارِ مُفردةِ الخشية:

دقيقُ العلمِ يَدعو إلى عظيمِ الخشيةِ

أوثر التّعبيرُ بالخشية دون الخوف في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾؛ لأنَّ الخشيةَ تجمعُ بين الخوف والتّعظيم للمَخشيّ، وهذا لا يكونُ إلّا للّه ﷻ، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ أي: لا يُعظِّمون في خوفهم أحدًا سواه، وهو متّسقٌ مع ما ورد في الآيات السّابقةِ ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾، فمُفردةُ الخشيةِ وردت في السّياق، كلِّه، وهي تدلُّ على دقيق علْمِ الرّسل باللّه تعالى الذي دعاهم إلى خشيته دونَ سواه.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

أوثرت صيغةُ المضارع ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾ لاستحضارِ الحالِ الماضيةِ، حيث كان الأنبياءُ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ في كلِّ مراحل حياتِهم مستمرّين على خشيتِهم للّه، لا يَخْشَون أحدًا سواه.

دلالةُ إسنادِ الخشيةِ إلى الضّمير:

أُسند فعلُ الخشية ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾ إلى ضمير الغائبِ دون الاسم الظّاهرِ؛ لمعرفة مرجعِ الضّمير، والإضمارُ هو الأصلُ؛ لأنّه مقتضى الظّاهرِ والحالِ، وللرّبط بين المتعاطفَين.

براعةُ عطفِ الجملِ المتقاربةِ الدّلالة:

الـتّرقّـي مـنَ الإخبار في الأولى إلى الـقـصْـر في الثّانية

دلَّ عطفُ جملةِ ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ﴾ على جملة: ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾ على التّغايرِ الظّاهر، فالأولى إثباتٌ لخشية اللّه، والأخرى نفيٌ لخشيةِ مَن سواه، فاتّحد الإثباتُ والنّفيُ في قضيّةٍ واحدةٍ، فنُزِّلتِ الثّانيةُ منزلةَ التّغاير مع الأولى، وإنِ اتّحدت في النّتيجة وهي إثباتُ خشيةِ الرّسل للّه تعالى، فهو قريبٌ من معنى التّأكيد، فيكونُ التّغايرُ في الأسلوب، لإفادة التّرقّي منَ الإخبار في الأولى، إلى الحصْر والقصْر في الثّانية، فحصلَ التّأكيدُ لإثبات الأولى بنفْيِ الثّانية.

فنُّ بديعِ الجِناس:

بين جملتَيْ ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾، و﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ التي أكدّت فيها الثّانيةُ المنفيّةُ ما أفادتْه الأولى المُثبَتَةُ أن تأتيا على صورة بديعةٍ وهي الجناسُ، ليجتمع بديعُ النّظم وجمالُ النّغم، مع حسن المعنى.

غرضُ تنكيرِ ﴿أَحَدًا﴾:

جاء لفظُ ﴿أَحَدًا﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ في سياق النّفيِ ليُفيد العمومَ، أي: لا يخشون أيَّ أحدٍ، والنّفيُ توطئةٌ لإثبات الخشيةِ للّه وحده.

بلاغةُ القَصْر ودلالتُه:

نفيُ الخشيةِ عن كلِّ أحدٍ توطئةُ إثباتِها لله الأحدِ

جاءتِ الآية على أسلوبِ القصرِ بطريقِ النّفي والاستثناء، وذلك في نفي خشيةِ الأنبياء أحدًا إلّا اللّه تعالى، وهي النّفيُ مع الاستثناء ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ تأكيدًا لعدم وقوعِ الخشيةِ منهم ﷺ لأيِّ أحدٍ سوى اللّه تعالى، فخشيتُهم مقصورةٌ على اللّه تعالى وحده، وهو

من قصْرِ الصّفة على الموصوف، وإيثارُ هذه الطّريق في القصر؛ لنفي كلِّ ما يُتصوّرُ أن يُخشى، وإثباتِ فعل الخشيةِ بعد ذلك للّه تعالى وحدَه.

إيثارُ اسمِ الجلالة في القصر:

أوثر في جملة القصْر التّعبيرُ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَۗ﴾ دون غيره منَ الأسماء الحُسنى، لمناسبتِه لسياقِ إثباتِ الخشيةِ للّه وحده، فالخشيةُ جلالٌ وجمال، وهما ركنا هذا الاسمِ الأعظمِ.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ مستأنفةٌ لتقرير أنَّ اللّه وحده هو الحقيقُ بالخشية، أو تكون معطوفةً على جملة ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقۡدُورًا﴾[1].

نكتةُ التَّعبير بالفعلِ ﴿وَكَفَىٰ﴾:

لا كافيَ غيرُ الله يكفي النّاس ما يحتاجونَه ويكفيهم شرورَ خلْقِه

فعلُ ﴿وَكَفَىٰ﴾ مأخوذٌ منَ الاكتفاء أوَ الكِفاية، أي: ما فيه سدُّ الخلّة وبلوغُ المراد في الأمر[2]، و﴿وَكَفَىٰ﴾ متعدٍّ لواحد، وهو محذوفٌ تقديرُه: وكفاكم اللّه، وهذا لأنّ كفى في بعض المواضع قد تتعدّى إلى مفعولَين، وقد جعلها أبو البقاء هنا كذلك متعدّيةً إلى مفعولَين محذوفَين، والتّقدير: كفاك اللّه شرَّهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: 137][3]، وهذا ما لم يَستظهره السّمينُ هنا وقال: والظّاهرُ أنَّ معناها غيرُ معنى هذه[4].

دلالةُ الباء وإسنادِ الفعل لاسم الجلالة:

الباءُ للتّأكيد ولبيانِ أنَّ كفايتَه سبحانه ليست ككفايةِ غيره

الباءُ الدّاخلة على الفاعل وهو اسم الجلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾ للتّأكيد؛ "لأنَّ ما قُرنت به هو الفاعلُ حقيقةً لا مجازًا"[5]، وإنَّما دخلتِ الباءُ في

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 22/ 168.
(2) الراغب، المفردات: (كفى).
(3) العكبري، التبيان: 1/ 332.
(4) السمين، الدر المصون: 3/ 588.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 199.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه كان يتّصلُ اتِّصالَ الفاعل، وبدخول الباء اتَّصل اتّصالَ المضاف واتّصالَ الفاعل؛ لأنَّ الكفايةَ منه تعالى ليست كالكفاية من غيره، فضوعفَ لفظُها لمضاعفةِ معناها[1].

نكتةُ إظهارِ الاسمِ الجليل في موقع الإضمار:

أُظهر اسمُ الجلالة في مقام الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ حيث تقدّمَ ذكرُه، لقصدِ أن تكون هذه الجملةُ جاريةً مجرَى المثَل والحِكمة[2]، مع ما في الاسم من توريث الهيبةِ.

دلالةُ وقوعِ ﴿حَسِيبٗا﴾ تمييزًا في الفاصلة:

لا يُحاسِبُ النّاسَ بالعدلِ المُطلَقِ أحدٌ سوى الله تعالى

أوثر في فاصلة الآية قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ ختمُها باسم الحسيب دون غيره؛ لأنَّه لمّا ذكرَ من صفات الأنبياء أنّهم لا يخشون أحدًا إلّا اللّه، فقد اقتضى ذلك تحذيرَ من يُقيمون للنّاس وزنًا، فيخشونَهم كخشيةِ اللّه أو أشدَّ خشيةً أي: محاسبًا، و﴿حَسِيبٗا﴾ منصوبٌ على التّمييز يدلُّ على ذلك صلاحيةُ دخول (من) عليه، وهي علامةُ التّمييز[3]، ووقع التّمييزُ ﴿حَسِيبٗا﴾ فاصلةً حتى يتعيَّن به كونُ اللّه تعالى وحدَه هو المحاسبُ العدلُ، الذي يُجازي كلًّا بما يَستحقُّ؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

بلاغةُ جملةِ التّذييلِ:

من خشيَ الله حقَّ الخشيةِ كفاه

جاءت جملةُ التّذييل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ تعليلًا للآيةِ، فلمّا ذكرَ أنَّ الخشيةَ للّه تعالى وحدَه، ناسبَ أن يُعلّلَ ذلك بأنَّه هو تعالى الذي يكفي عبادَه المُتوكّلين عليه الذين يخشونَه ولا يخشونَ أحدًا سواه، فهي تعليلٌ لمعنى الخشية، فمن خشي اللّه وحدَه، كان كافيَه وحافظَه.

---

(1) السمين، الدر المصون: 3/ 587.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 43.

(3) السمين، الدر المصون: 3/ 587.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإبلاغُ والإيصالُ:

الإبلاغُ إيصالٌ محكمٌ بتحقيقِ الغايةِ، والإيصالُ أعمُّ منَ الإبلاغِ

البلاغُ: أصلُ (بلغ) يدلُّ على الوُصولِ إلى الشَّيْءِ، تَقولُ بَلَغْتُ المَكانَ، إذا وصَلْتَ إلَيْهِ[1]، وقيل: البُلوغ والبَلاغ: الانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ والمُنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا منَ الأمور المقدّرة[2].

والإبلاغُ أشدُّ اقتضاءً للمُنتهى إليه منَ الإيصال؛ لأنَّه يقتضي بلوغَ فهمِه وعقلِه كالبلاغة التي تصلُ إلى القلب، وقيل: الإبلاغُ اختصارُ الشّيء على جهة الانتهاء، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: 6]، وبهذا يكون الإبلاغُ إيصالًا خاصًّا؛ لأنَّه إيصالٌ وانتهاءٌ إلى أقصى المقصد والمُنتهى، فيكون كلُّ إبلاغ إيصالًا وليس كلُّ إيصالٍ إبلاغًا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).

(2) الراغب، المفردات: (بلغ).

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾ [الأحزاب: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّأكيدُ على انتفاءِ صلةِ البُنوّةِ بالتّبنّي والادّعاءِ

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ حكمَ التّبنّي بشكلٍ جليٍّ قاطعٍ لبقاءِ آثارِ التّبنّي، وذلك من خلالِ ذكْرِ ما كان من تزويجِ اللّه نبيَّه من زوجة زيدٍ رضي الله عنهما، لكيلا يبقى حرجٌ في نفوسِ المؤمنين تجاهَ أزواجَ أدعيائِهم، وبيانِ ذلك من خلال تقعيد قانونِ السّببيّة لدى جميع النّبيّين، ناسبَ أن يذكر الموقفَ الصّريحَ من أبوّةِ النّبيّ ﷺ للمؤمنين، وأنّها منفيَّةٌ نفيًا قاطعًا عن أيِّ أحدٍ منَ المؤمنين، وإثباتِ الرّسالة والنّبوّة فحسبُ، كان ذلك بمثابة إعلانِ قانونٍ حاسمٍ لا يقبل الشّكَّ أوِ الرّيبةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَخَاتَمَ﴾: (ختم) أصلٌ يدلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيْءِ، يُقالُ خَتَمْتُ العَمَلَ، وخَتَمَ القارِئُ السّورَةَ، فَأمّا الخَتْمُ، وهوَ الطَّبْعُ عَلَى الشَّيْءِ، فَذَلِكَ مِنَ البابِ أيْضًا؛ لِأنَّ الطَّبْعَ عَلى الشَّيْءِ لا يَكونُ إلّا بَعْدَ بُلوغِ آخِرِهِ، والخاتَمُ مُشْتَقٌّ مِنْهُ؛ لِأنَّ بِهِ يُخْتَمُ[1] والخاتمُ والخاتَمُ، بكسر التّاء وفتحها، والخَيْتامُ والخاتامُ كلُّه بمعنًى، والجمعُ الخَواتيمُ[2] ومعنى ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ أي: آخرُهم؛ لأنّه خَتَمَ النّبوّة، أي: تمّمَها بمجيئِه[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

النّبيُّ هو رسولُ اللهِ وخاتمُ النّبيّين وليس بأبي أحدٍ منَ المؤمنين

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ أنَّ محمّدًا ليس بأبٍ لأحد منَ الرّجال

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ختم).
(2) الجوهري، الصحاح: (ختم).
(3) الراغب، المفردات: (ختم).

المؤمنين، أبوّةً شرعيّةً يترتّبُ عليها حرمةُ المصاهرة ونحوُها، ولكنّه أبٌ للمؤمنين جميعًا فيما يجبُ عليهم من توقيرِه وإجلالِه وتعظيمِه، كما أنّ عليه أن يُشفقَ عليهم ويحرصَ على ما فيه خيرُهم وفائدتُهم في المعاش والمعاد، وما فيه سعادتُهم في الدّنيا والآخرة، فليس هو في حكمِ الأبِ الحقيقيِّ، وإنّما خُتمتِ النّبوّةُ به؛ لأنَّه شرعَ له منَ الشّرائع ما ينطبقُ على مصالح النّاس في كلِّ زمان وكلِّ مكان؛ لأنَّ القرآن الكريمَ لم يدَعْ أُمّا من أُمّات المصالح إلّا جلّاها، ولا مكرمةً من أصول الفضائل إلّا أحياها، فتمّتِ الرّسالاتُ برسالتِه إلى النّاس أجمعين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ قد أحاط علمُه بجميع الأشياء، ويعلمُ حيث يجعلُ رسالاتِه، ومن يصلحُ لفضلِه، ومن لا يصلحُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ فصلِ الآية:

قطعُ الطّريقِ على إرجافِ المُرجِفين وافتراءاتِ المُغرضين

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ جملةٌ مفصولةٌ عمّا قبلَها لكونها مستأنفةً، وغايتُها إبطالُ قول كلِّ مَن خاضوا في حقِّه ﷺ بالإساءة بسبب زواجِه من أمّ المؤمنين زينبَ بنتِ جحشٍ رضي الله عنها، زاعمين أنّها مطلّقةُ ابنِه، فقطعتِ الجملةُ عليهم طريقَ إرجافِهم وحسمتْ أنّه ﷺ ليس بأبٍ حقيقيٍّ لأحدٍ منَ الرّجال، وعليه فزينبُ رضي الله عنها ليست مُطلّقةَ ابنِه، بل مطلّقةُ زيدِ بنِ حارثةَ، وليس زيدٌ ابنَ محمّد.

نكتةُ إيثارِ النّفي بأداة ﴿مَّا﴾:

قطعُ نفيِ أيِّ احتمالٍ مُتوهَّمٍ في ادِّعاءِ الأبوّة

استُعملت أداةُ النّفي ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ لنفي العُموم، لإزالةِ توهُّمِ وجودِ أيِّ أبوّةٍ وبُنوّةٍ حقيقيّةٍ بينه ﷺ وبين زيدٍ،

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 80، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 16، والسعدي، تفسير السعدي، ص: 666.

أو أيِّ أحد منَ الرّجال البالغين، وأزال بواعثَ الحالةِ التي أراد المنافقون ومن لفَّ لفَّهم منَ اليهود وضعافِ الإيمان أن يقرّوها في الآذان والأذهان من أنَّه ﷺ قد تزوّجَ مُطلّقةَ ابنِه.

فائدةُ ذكرِ ﴿كَانَ﴾:

ذكرُ (كـان) في الـنّـفـي يـفـيـدُ المبالغةَ في انتفاءِ الحُكم

ذُكرَ فعلُ ﴿كَانَ﴾ المنفيُّ؛ لإفادةِ المبالغةِ في انتفاءِ الحُكم، فإن "كان في النّفيِ أقوى دلالةً على انتفاءِ الحُكم؛ لأنَّ فعلَ كان لدلالته على الكون، أي الوجودِ يقتضي نفيُه انتفاءَ الكونِ الخاصِّ برُمّته"[1] وأوثر التّعبيرُ بـ﴿كَانَ﴾ بصيغةِ الماضي؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ بنوّةِ زيدٍ، وهذا كان ماضيًا وقتَ نزولِ الآية.

سرُّ التّصريحِ باسمِ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾:

إبـطـالُ الـبُـنـوّةِ المزعومةِ قائمٌ عـلـى الاعـتـبـارِ التّشريعيِّ

أوثر التَّصريحُ باسمِه الشّريفِ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ ﷺ، اتّساقًا مع التّصريح باسمِ زيدٍ في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ ليُعلم أنَّ المقصودَ بالذّات وعلى وجه التّعيين إبطالُ علاقةِ الأبوّةِ والبُنُوّةِ المزعومةِ بينه ﷺ وبين زيد، حتى يخرسَ ألسنةَ المُشغّبين، وليكونَ ذكرُ الاسم باعتبارِ التّجرّدِ ابتداءً من أيِّ وصف، كي لا يُتوهَّمَ أنّه ليس أبًا له بالاعتبارِ الشّخصيِّ، لا باعتبارِ النّبوَّةِ أوِ الرّسالة، فيتوهَّمَ أنّه بسببهما سُلب عنه البُنُوّةُ، فأريد نفيُ البُنُوّة عنه باعتبارِه محمَّدًا - ﷺ -؛ ليكونَ التّشريعُ له ولسائر المؤمنين من كلِّ اعتبار.

نكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿أَبَآ﴾ على والد:

لفظُ الأبِ يُطلقُ باعتباراتٍ كثيرةٍ بـخـلاف الـوالـدِ فباعتبارِ الأبوّةِ النّسبيّةِ

أوثر التَّعبيرُ بلفظِ الأبِ دون لفظِ الوالد؛ لأنّ كلمةَ الوالد إنّما تطلقُ حصرًا على علاقةِ النّسبِ الحقيقيّةِ بين الولد ووالدِه، أمّا كلمةُ الأب فإنّها تقالُ باعتباراتٍ عديدةٍ غيرِ اعتبارِ النّسب الذي هو أوّلُ اعتباراتِها، فيقالُ إضافةً إلى أبوّةِ النّسب: النّبيّ أبو المؤمنين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 27.

من حيث الشّفقةُ عليهم من جهتِه، وواجبُ التّوقير له من جهتِهم، وهذا كما يقال فيها أيضًا: "أبو الأضياف لتفقّدِه إيّاهم، وأبو الحرب لُهيّجِها، وأبو عذرتِها لمفتضِّها، ويسمّى العمُّ مع الأب أبوَين، وكذلك الأمُّ مع الأب، وكذلك الجدُّ مع الأب"[1] والمعلّمُ أبٌ لطلابه، ونحوُ ذلك، وكلُّ هذه الإطلاقات غيرُ داخلةٍ في النّفي، حيث المرادُ به فقط نفيُ الأبوّةِ الحقيقيّةِ الشّرعيّةِ لأحدٍ من رجالهم، وهي البُنوّةُ التي يترتّبُ عليها الآثارُ الشّرعيّةُ من حقّ الإرثِ والاطّلاعِ على المحارم وتحريمِ الزّواج منهن.

وفي الآية تعريضٌ بزيدٍ ﵁، بأنّه ليس ابنًا شرعيًّا وإن كان ابنًا بالتّربيةِ والرّعايةِ والشّفقة، وهذه بُنوّةٌ لا ترتّبُ أيَّ أثرٍ شرعيٍّ ممّا يترتّبُ على البُنوّةِ الشّرعيّةِ الحقيقيّة.

فائدةُ إضافةِ ﴿أَبَآ﴾ إلى لفظ ﴿أَحَدٍ﴾:

نفيُ الأبوّةِ يستغرقُ جميعَ أبناءِ المخاطَبين فلا يدخلُ أبناؤه

كلمةُ ﴿أَحَدٍ﴾ من خصائصها أنّها في حالة النّفي تُستخدمُ في التّعبير عن استغراقِ جنسِ النّاطقين ذكورًا وإناثًا[2]، فإذا قلتَ: ما في الدّار أحدٌ، شملَ النّفيُ عمومَ الذّكور والإناث، ولذلك لمّا أُريدَ النّساءُ فقط قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: 32] ولمّا أُريدَ الرّجالُ قيل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾، فأفادتِ الإضافةُ في ﴿أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ استغراقَ نفْيِ أن يكون أبًا لأيِّ أحدٍ من رجال المخاطَبين، أي: على وجه العموم، ولولا هذه الإضافةُ لما أفاد هذا المعنَى بهذه الدّقّة، ولو قيل: (ما كان محمد أبًا) بدون إضافتِه إلى أحد لنفَى عنه الأبوّةَ مطلقًا وهذا غيرُ صحيحٍ، فقد كان للنّبيّ ﷺ أولادٌ وأحفادٌ منَ الذّكور والإناث.

---

(1) الراغب، المفردات: (أبا).

(2) الراغب، المفردات: (أحد)، والسيوطي، الإتقان: 2/ 170.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها:

مَن في قوله تعالى: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ بيانيّةٌ، أي: ما كان محمدٌ ﷺ أبا رجالِكم، وإنّما دخلت لاستغراقِ شمولِ أفراد أبناءِ المخاطَبين.

نكتةُ التَّعريف بالإضافةِ:

عُرِّف لفظُ الرّجال بالإضافة ﴿رِّجَالِكُمْ﴾ دون اللّام؛ هو لقصدِ توجيه الخطابِ إلى الخائضين في قضيّة تزوّجِ زينبَ إخراجًا للكلام في صيغة التَّغليطِ والتّغليظِ[1].

توجيهُ إضافةِ (رجال) إلى ضميرِ الخطاب:

دلالـةُ العـموم مـخـصـوصـةٌ بـدلالـةِ الـحـالِ والمقامِ

توجَّه النَّفيُ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ﴾ على كوْنِ المنفي ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، واختُلف في المراد بالرِّجال؛ فقيل: الرّجالُ البالغون، فيخرج أبناؤه؛ لكونِهم ماتوا صغارًا، فلم يبلغوا مبلغَ الرّجال[2]، وتخلّصَ بعضُهم من هذا بجوابٍ آخرَ، وهو أنَّ أولاده ﷺ الذّكورَ لم يكونوا موجودين وقتَ نزولِ الآية لكونِهم قد ماتوا صغارًا[3]، والأدقُّ من هذا أن يقال: إنَّ إضافة كلمةِ رجالٍ إلى كاف الخطابِ ﴿رِّجَالِكُمْ﴾، تنفي عنه رجالَ المخاطَبين فلا يدخلُ أبناؤه؛ لأنّهم رجالُه لا رجالُهم، والقرآنُ أطلق الرّجالَ ليشمل الصّغارَ والكبارَ، فقال سبحانه: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: 7] فإنّه يشملُ الذّكورَ مطلقًا صغارًا وكبارًا[4].

دلالةُ الاستدراكِ وفائدتُه:

نـفـيُ الأبـــوّةِ الـنّـسـبـيّـةِ، لا يـنـفـي الأبـــوّةَ الـشّـفـيـقـةَ الرّحيمةَ بأمّتِه

جاء الاستدراكُ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ بعد نفْيِ أبوّتِه ﷺ عن أبناء المخاطَبين؛ لرفع ما قد يُتوهّمُ من نفيِ أبوّته، من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 44.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 372.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 484.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 544.

انفصال صلةِ التّراحُم والبرِّ بينه وبين الأمّة، فَذُكِّروا بأنَّه رسولُ اللّه ﷺ، فهو كالأبِ لجميع أمّتِه في شفقتِه ورحمتِه بهم، وفي برِّهِمْ وتوقيرهم إيّاه، شأنَ كلِّ نبيّ مع أمّته[1]، أو أنَّه لدفعِ توهُّم أنَّه ليس بينه وبينهم صلةٌ توجبُ عليهم تعظيمَه وتوقيرَه، فدفعَه ببيانِ أنَّ حقَّه آكدُ من حقِّ الأبِ الحقيقيِّ من حيث إنّه رسولُهم[2]، أو لرفع التّوهّم النّاشئَ من أوّل الكلام كما في قولك: ما زيدٌ كريمٌ لكنّه شجاعٌ، بل بمعنى أن يثبتَ لِما بعدَها حكمٌ مخالفٌ لِما قبْلَها نحو: ما هذا ساكنٌ لكنّه متحرّكٌ، وقد جاء كذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾ [الأعراف: 67] فإنّ نفيَ السّفاهة لا يوهِمُ انتفاءَ الرسالة، ولا انتفاءَ ما يلزمُها منَ الهدى والتّقوى حتى يُجعلَ استدراكًا بالمعنى الأوّل[3].

وجهُ القصرِ بالنّفي والاستدراك:

نفيُ الأبوّةِ لإثباتِ الرّسالةِ تعظيمٌ وتشريفٌ

أفاد نفيُ أبوّةِ النّبيِّ ﷺ عن أبناء المخاطَبين، ثمّ الاستدراكُ بقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ القصرَ، وهو من باب قصْرِ الموصوف على الصِّفة، وذلك لتغليظِ الرَّدِّ على منِ ادّعَوا له أبوّةَ زيدٍ وتأكيدِه، فقيل: هو ليس أبًا له ولا لغيرِه من رجالِكم، ولكنّه ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾.

نكتةُ الجمعِ بين وصفَيِ الرّسالةِ والنّبوةِ بالاحتباك:

اكتسابُ أعظمِ الصِّفاتِ يورِّثُ أنبلَ الأخلاقِ ضرورةً

جمعتِ الآيةُ بين لفظَيْ ﴿رَّسُولَ﴾ و(نبيّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾، لبيان غايةِ القصْر، وهو كونُه رسولًا نبيًّا، وهذا فيه منَ التّعريف والثّناءِ والمدحِ ما لا يَخفى، فكأنّه قيل: هو ليس أبًا لأحدٍ من رجالكم، بل أعلى شأنًا من ذلك، فهو أبوكم في الإحسانِ والشّفقة والرّحمة جميعًا، مع ما فيه من بديع الاحتباكِ، كأنّه قيل: (ولكنْ رسولُ اللّه وخاتمُ النبيين، ونبيُّ اللّه وخاتمُ المرسلين).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 44.
(2) الجمل، حاشية الجمل: 6/ 178.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 212.

فائدةُ إضافةِ ﴿رَّسُولَ﴾ إلى اسمِ الجلالة:

في إضافة لفظِ ﴿رَّسُولَ﴾ إلى اسم الجلالة تشريفٌ له ﷺ، وبيانٌ لكونِه رسولَ اللّه الذي لا يصدرُ في أقواله وأفعالِه وتشريعاته إلّا عنه سبحانه.

دلالةُ عطفِ صفةِ ختمِ النّبوّةِ على صفةِ الرّسالةِ:

التّنويهُ بمقامِه ﷺ بأخصّ الصّفاتِ

عُطِفت صفةُ ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ على صفةِ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ تكميلًا وزيادةً في التّنويه بمقامِه ﷺ، وإيماءً إلى أنَّ في انتفاء أبوّتِه لأحدٍ منَ الرّجال حكمةً قدّرَها اللّه تعالى، وهي إرادةُ أن لا يكونَ إلّا مثلَ الرّسل أو أفضلَ في جميع خصائصِه[1].

بلاغةُ التّكميلِ بذكرِ خاتمِ النّبيّين:

من شأنِ تكميلِ الصِّفاتِ دفعُ بعضِ الأوهامِ

اختارَ النّظمُ صفةَ الختم في قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ وذلك أنَّ الرّسلَ لم يخلُ عمودُ أبنائِهم من نبيّ؛ فكان كونُه خاتمَ النبيّين مقتضيًا ألّا يكونَ له أبناء بعد وفاتِه؛ لأنّهم لو كانوا أحياءَ بعد وفاته ولم تُخلع عليهم خُلَعَةُ النّبوّة لأجلِ ختم النّبوّةِ به كان ذلك غضًّا فيه دون سائرِ الرّسل وذلك ما لا يريدُه اللّه به، واللّه لمّا أراد قطعَ النّبوّةِ من بني إسرائيلَ بعد عيسى عليه السلام صرفَ عيسى عنِ التّزوّج، فيكونُ قولُه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ داخلًا في حيِّز الاستدراك باعتبارِه تكميلًا واستطرادًا بمناسبة إجراءِ وصْفِ الرّسالة عليه[2].

نكتةُ اختيارِ مُفردةِ ﴿وَخَاتَمَ﴾:

اكتمالُ الحُسنِ وتمامُ الجمالِ بتتويجِ النّبيّين بخاتمِهم

دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ على أنّه ﷺ آخرُ الأنبياء مبعثًا، وأنّه نبيُّ آخرِ الزّمان فلا نبيَّ بعده، وأنّه بالنّسبة لهم كالخاتَم والطّابع[3] الذي يُختمُ به في آخر الرّسائل، أو كالخاتم الذي يُتزيَّنُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 44.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 44.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 485.

به، فهو ﷺ زينةُ الأنبياء ومتمّمُ جمالِهم لكونِه آخرَهم، وقد أخرج البخاريُّ بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «إنّ مثلي ومثلَ الأنبياء من قبْلي، كمثلِ رجل بنى بيتًا فأحسنَه وأجملَه إلّا موضعَ لَبِنة من زاوية، فجعل النّاسُ يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللّبِنةُ، قال: فأنا اللّبِنةُ وأنا خاتمُ النبيين»[1]، فالختمُ يُراد به هنا الكمالُ والتّمامُ، أي: لا تحتاجُ البشريّةُ بعد إرساله نبيًّا؛ فبإرسالِه تمَّ الأمرُ واكتملَ الحسنُ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

اجـتـمـاعُ القـراءتَـين في معنى الوظيفةِ والجمالِ

اختلف العشرة في قراءة ﴿وَخَاتَمَ﴾ فقرأ عاصمٌ وحدَه: ﴿وَخَاتَمَ﴾ بفتح التاء، وقرأ الباقون بالكسر ﴿وَخَاتِمَ﴾، فالحُجّةُ لمن كسر: أنّه أراد: اسمَ الفاعل من قولك: خَتَم النّبيّين فهو خاتِمُهم، والحُجّةُ لمن فتح: أنّه أخذه منَ الخاتَم الملبوسِ، لأنّه جمالٌ[2]، أو الخاتَم الذي يطبعُ[3] فتُعتمدُ به الرّسائلُ والوثائقُ ونحوُها.

اختيارُ لفظِ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

ذكـرُ النَّـبـيّين يشملُ المُرسَلين

آثر النَّظمُ الكريمُ الإتيانَ بصفة النّبوّة في قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على صفة الرّسالة، فلم يقل: (وخاتم المرسلين)؛ لأنَّه لا نبيَّ بعده كما قال ﷺ: «إنّه لا نبي بعدي»[4] بالنّصّ على نفي النّبوة دون الرّسالة، وذلك لأنّ النّبوّة أعمُّ منَ الرّسالة، ونفيُ الأعمِّ يقتضي نفيَ الأخصِّ ولا عكسَ، فالمعنى: وخاتمُ النّبيّين والمرسَلين، ولو قال: (وخاتمُ المرسلين) ما اقتضى نفْيَ ختم النّبوّة من كلِّ وجهٍ، ولَتعلّقَ بذلك بعضُ المُغرِضين.

---

(1) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: (3535).

(2) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 496، وابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 290، وابن الجزري، النشر: 2/ 348.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 485.

(4) صحيح مسلم، حديث رقم: (3455).

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ اعتراضيّةٌ، وجملتُها اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لِما قبْله، وقيل: عطفُ الجملة على قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[1].

فائدةُ التّعبير بالكونِ بصيغةِ الماضي:

ما كان منَ الله قديمًا كان له في المستقبلِ استحقاقًا

جاء ذكرُ فعلِ (كان) في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ لإفادةِ تأكيدِ وقوعِ علم اللّٰه سبحانه على كلِّ ما أخبرَ عنه، ثمّ إثباتِ لازمِه وهو أنّه واقعٌ وفقَ الحكمةِ، والحاصلُ أنَّ (كان) في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ لا تدلُّ فقط على الزّمن الماضي كما هو شأنُها، بل هي دالّةٌ على الاستمرار قائمةٌ مقامَ (لم يزل)[2].

غرضُ تقديمِ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ على ﴿عَلِيمًا﴾:

إفادةُ اختصاصِه سبحانه بعلمِ كلِّ شيءٍ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ على خبر (كان) وهو قوله: ﴿عَلِيمًا﴾ لإفادةِ اختصاصِه سبحانه بالعلم بجميع الأشياءِ، فإنَّه لا يعلمُ جميعَها حصْرًا إلّا هو سبحانه، كما أنَّ هذا التَّقديمَ يدلُّ على الاهتمام بالأخبارِ المَسوقةِ قبلُ وما تَنطوي عليه من وقائعَ ومضامينَ، من حيث شمولُ علمِ اللّٰه لها وإجراؤها وفقَ الحكمةِ الإلهيَّةِ.

دلالةُ الباء:

الباءُ في قوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ للإلصاقِ وهو معناها الأصيلُ الذي يدور معها حيث جاءت.

بلاغةُ العمومِ في تركيب (كل شيء):

تعاضُدُ الصّيَغِ والمُفردات والتّنكير على إفادة العُموم

استُعمل لفظُ (كل) وهو أحدُ صيغِ العموم، للدّلالة على أنَّ علمَه سبحانه لا يخرجُ عنه شيء، وجيء بلفظ ﴿شَىْءٍ﴾ نكرةً ليدلَّ على العمومِ كذلك، فاجتمع دليلان على مدلولٍ واحدٍ، أي أنَّ إفادةَ العموم

(1) الخطيب وآخران، التفصيل: 22/ 31.

(2) الزركشي، البرهان: 4/ 125، والسيوطي، الإتقان: 2/ 256.

تعاضدت على إفادتِها لفظُ (كل) مع تنكير ﴿شَيۡءٍ﴾، ويُضاف إلى ذلك أنَّ كلمة ﴿شَيۡءٍ﴾ تدلُّ على عموم كلِّ ما يصحُّ أن يُعلَمَ ويُخبرَ عنه[1].

اتِّساقُ صفةِ العليمِ مع السّياقِ:

علمُ الله تعالى محيطٌ بسلوكِ البشرِ في الحالِ والمآل

جاء اختيارُ صفةِ الله العليم في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾، لاتِّساقِها مع الآية، وذلك أنَّ العليم هو المدركُ لِما يدركُه المخلوقون وما لا يدركونَه، وذلك راجعٌ إلى أنه لا يعزبُ عنه شيءٌ، ولا يُعجِزُه إدراكُ شيءٍ[2]، فمجيءُ هذه الصّفة في هذا السّياق لبيان ملحظِ التّشريع في أمر التّبنّي، ولبيانِ شأنِ النّبيِّ مع أمّته، وللتّصريح بأنَّ ذلك لا يكونُ إلّا عن علم الله تعالى، فعلمُه بكلِّ شيءٍ "دخلَ فيه (أن لا نبيَّ بعده)؛ فعلم أنَّ مِنَ الحكمة إكمالَ شرعِ محمّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم بتزوّجِه بزوجة دعيِّه تكميلًا للشَّرع، وذلك من حيث إنَّ قولَ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يفيدُ شرعًا، لكن إذا امتنعَ هو عنه يبقَى في بعض النّفوس نفرةٌ، ألا ترى أنه ذَكَرَ بقولِه ما فُهِم منه حلُّ أكلِ الضّبّ، ثمّ لمّا لم يأكلْه بقيَ في النّفوس شيءٌ، ولمّا أكلَ لحمَ الجمل طابَ أكلُه، مع أنّه في بعض المللِ لا يُؤكلُ وكذلك الأرنبُ"[3].

نكتةُ إيثارِ صيغةِ عليمٍ على عالمٍ:

سياقُ التّشريعِ يُناسبُه صيغةِ العليم

صيغت صفةُ العليم على وزن فعيل صفةً مشبّهةً باعتبارِها صيغةَ مبالغةٍ، جيء بها للمبالغة في وصفِه بكمالِ العلم[4]، ومدلولُ هذه الصّيغة يُفضي إلى كونِه سبحانه عليمًا بكلِّ ما في الكون مهما دقَّ وصغُر، ومهما لطُف وخَفي، فهو العليمُ بأمور التّشريعِ وما يصلحُ للعباد، ويعلمُ الغيبَ وما بعد الغيبِ، فكان المقامُ في هذا كلِّه "مقامَ إحاطةِ العلم"[5].

(1) الراغب، المفردات: (شيء).
(2) البيهقي، الأسماء والصفات: 1/ 123.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 171.
(4) البيهقي، الأسماء والصفات: 1/ 123.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 25/ 171.

بلاغةُ جملةِ الفاصلةِ:

اتِّسامُ الفاصلةِ بالتّعليلِ إحكامٌ لِما تقدّمَ من أحكامِ التّنزيل

تناسبت فاصلةُ الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ مع السّياق، فهي جملةٌ تعليليَّةٌ لِما أخبرَ به ﷺ من كونِه ﷺ ليس أبا أحدٍ من رجالِهم، نفيًا لصلةِ الأبوّةِ الحقيقيّةِ بينه وبين زيدٍ وغيرِه منَ الأبناء، فكأنَّه قيل: شرعَ لكم ما شرعَ؛ لأنَّه ليس عليمًا به فحسبُ، بل هو عليم به وبكلِّ شيءٍ ممّا تُدركه عقولُكم وما لا تُدركه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأبُ والوالدُ:

بين اللّفظَين عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ، فكلُّ والدٍ أبٌ، وليس كلُّ أبٍ والدًا

الأبُ: الوالد، ويُسمّى كلُّ من كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحِه أو ظهورِه أبًا، ولذلك يُسمّى النّبيُّ ﷺ أبا المؤمنين، قال اللّه تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: 6] ويُسمّى العمُّ مع الأب أبوَين، وكذلك الأمُّ مع الأب، وكذلك الجدُّ مع الأب، قال تعالى في قصة يعقوب: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [البقرة: 133]، وإسماعيلُ لم يكن من آبائهم وإنّما كان عمَّهم[1].

لكنَّ الوالدَ يُطلقُ باعتبار والديّةِ النّسبِ الحقيقيّةِ على وجه الخصوصِ، "ولا يُسمّى الإنسانُ والدًا إلّا إذا صار له ولدٌ"[2]، بخلاف لفظِ الأب فإنّه يُطلقُ باعتباراتٍ كثيرةٍ غيرِ اعتبارِ النّسبِ، فيقال: النّبيُّ أبو المؤمنين من حيث الشّفقةُ عليهم من جهته، وواجبُ التّوقير من جهتِهم، ويقال: "أبو الأضياف لتفقّدِه إيّاهم، وأبو الحرب لُمهيّجِها، وأبو عذرتِها لمفتضّها، ويُسمّى العمُّ مع الأب أبوَين، وكذلك الأمُّ مع الأبِ، وكذلك الجدُّ مع الأب"[3]، والمعلِّم أبٌ لطلّابه.

(1) الراغب، المفردات: (أبا).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 13.
(3) الراغب، المفردات: (أبا).

ونحوُ ذلك، وعلى هذا فكلّ والدٍ أبٌ ولا عكسَ، فيكونُ بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ.

الرّجالُ والذّكورُ:

الـرّجـــلُ هـو الـذّكَـرُ باعتبار الـقـوّةِ والـشّـدّةِ والاحتمالِ

الرَّجُلُ: مختصّ في اللّغة بالذّكَر منَ النّاس، ويقال رَجْلَةٌ للمرأة: إذا كانت متشبّهةً بالرّجل في بعض أحوالِها[1]، وجمعُ رجل: رجالٌ ورجالاتٌ - مثل جمال وجمالات - وأراجلُ[2] ومعنى هذا أنّ الرّجل في اللّغة هو الذّكرُ مطلقًا صغيرًا كان أو كبيرًا، فاللّغة لا تنفي أن يُطلقَ على الذّكَر الصّغير وصفُ رجل، وكذا القرآن بدليل قوله سبحانه: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: 7]؛ فإنَّه يشملُ الذّكور مطلقًا صغارًا وكبارًا، وعلى هذا مضى الشّرع؛ فاسمُ الرّجل شرعًا مَوْضوع للذّات من صنف الذُّكور من غير اعْتِبار وصْف مُجاوزَة حدّ الصِّغر، أوِ القُدْرَة على المُجامعةِ، أو غيرِ ذَلِك، فَيتَناوَلُ كلَّ ذكرٍ من بني آدم حَتَّى دخل الخصيُّ والصَّبيُّ في آيَة المَواريث الوارِدَة باسم الرّجل والذّكر كَقَوْلِه تَعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11]، وقَولِه تَعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ [النساء: 12][3]، لكنْ في إيثار لفظِ الرّجال على الذّكور اعتباراتٌ؛ فالرَجُل: الذّكَرُ من نوع الإنسان، خلافَ المرأة، وهو السّاعي على الرِّزق، وهو الأشدُّ، والقائمُ الجادُّ في الأمور المنتصبُ لها وفيها، جاء في الفروق "قولنا (رَجُل) يفيدُ القوّةَ على الأعمال، ولهذا يقال في مدح الإنسان: إنه رَجُلٌ، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34]، ولذا قالوا: هذا أَرْجَلُ الرَّجُلين: أي أشدُّهما[4] وعلى هذا فالرّجلُ هو الذّكرُ لكنْ باعتبار القوّةِ والشّدّةِ والاحتمالِ.

---

(1) الراغب، المفردات: (رجل).
(2) الجوهري، الصحاح: (رجل).
(3) الكفوي، الكليات، ص: 121.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجل).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب: 41 - 42]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تأديبُ الله للأمّةِ بـالاسـترشـادِ بهدي نبيّها وآلِ بيته

لمّا تقدّمَ ذكرُ أوصافِ الذين يبلّغون رسالاتِ اللّه تعالى، وما كان عليه شأنُ نبيِّنا محمّد ﷺ، في كونه رسولَ اللّه وخاتمَ الذين يبلّغون رسالاتِ اللّه تعالى، ناسبَ الانتقالُ إلى بيان الموقفِ الصّحيح من اتِّباع سنّة النّبيّين، في الاستجابة لأمر اللّه تعالى وذكره ذكرًا كثيرًا، ووجهُ تعلّق الآية بالسّورة؛ هو أنَّ السّورة بُنيت على تأديبِ النّبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بأمره بالتَّقوَى في مطلعِها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، وتأديبِ أزواجِه في وسطها بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: 28]، وتأديبِ سائرِ المؤمنين في هذه الآية[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذِكۡرٗا﴾: (ذكر) أصل وهو من قولك: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلاف نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ، أيْ لا تَنْسَهُ، والذِّكْرُ: العَلاءُ والشَّرَفُ، وهوَ قياسُ الأَصْلِ، ويُقالُ رَجُلٌ ذَكُرٌ وذِكّيرٌ، أيْ: جَيِّدُ الذِّكْرِ شَهْمٌ[2] والذّكرُ أنواعٌ: ذكرٌ بالقلب وذكرٌ باللّسان، وذكرٌ بالقلب واللّسان معًا كما في قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 198][3]، ومثلُه أيضًا قولُه تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أي: بالقلب وباللّسان[4].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 172.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(3) الراغب، المفردات: (ذكر).
(4) ابن جزيّ، التسهيل: 2/ 154.

2) ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾: (سبّح) من التَّسْبيح وهو: تنزيهُ اللّه تعالى، وأصلُه: المرُّ السّريعُ في عبادة اللّه تعالى، وجُعل ذلك في فعل الخير كما جُعل الإبعادُ في الشّرّ، فقيل: أبعدَه اللّه، وجُعل التَّسْبيحُ عامًّا في العبادات قولًا كان، أو فعلًا، أو نيّةً، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: 143] قيل: منَ المصلّين، والأَوْلى أن يُحمل على ثلاثتها[1] أي بما يشملُ النّيةَ والقولَ والفعلَ، ومنَ الفعلِ الصّلاةُ.

3) ﴿بُكْرَةً﴾: (بكر) أصلٌ وهو أوّلُ الشَّيْءِ وبَدْؤُهُ ....، ومنه البُكْرَةُ وهيَ الغَداةُ، والجَمْعُ البُكَرُ، والتَّبْكيرُ والبُكورُ والابْتِكارُ المُضيُّ في ذَلِكَ الوَقْتِ، والإبْكارُ: البُكْرَةُ، كَما أنَّ الإصْباحَ اسْمُ الصُّبْحِ[2]، وأمّا أبْكارٌ، فهو جَمْعُ الجَمْعِ مِثْلِ رُطَبٍ وأرْطابٍ، وإذا أُريدَ بُكْرَةُ يَوْمٍ بِعَيْنِهِ مُنِعَتْ منَ الصَّرْفِ لِلتَّأْنيثِ والعَلَميَّةِ[3]، والمرادُ: المداومةُ على تسبيح اللّه وأداءِ الصّلوات فترةَ الغداة أي النّهار.

4) ﴿وَأَصِيلًا﴾: (أصل) ثلاثةُ أصولٍ مُتباعدٍ بعضها من بَعضٍ، أحدُها: أساسُ الشَّيْءِ، والثّاني: الحَيَّةُ، والثّالثُ: ما كانَ مِنَ النَّهارِ بَعْدَ العَشيِّ[4]، ويقال للعشية: أصيل وأصيلَة، فجمعُ الأصيل أُصُل وآصال، وجمعُ الأصيلة: أصائِل، وقال تعالى: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: 9][5]، وقيل: ما كانَ مِنَ النَّهارِ بَعْدَ العَشيِّ[6]، ومعنى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: ونزّهوه عمّا لا يليقُ به أوّلَ النّهار وآخرَه، على أنَّ تخصيصَهما بالذّكر ليس لقصْرِ التّسبيح عليهما دون سائرِ الأوقات، بل لإبانة فضْلِهما على سائر الأوقات لكونِهما مشهودَين[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرَ اللّه تعالى عبادَه المؤمنين في هذه الآية بما يُصلحُهم قلبًا وقالَبًا ويبعدُ عنهم تأثيرَ الظّنّ السّيِّئ والارتيابِ قائلًا لهم: يا أيّها الذين صَدَّقوا اللّه ورسولَه وعملوا بشرعه،

(1) الراغب، المفردات: (سبح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بكر).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (بكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أصل).
(5) الراغب، المفردات: (أصل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أصل).
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 106.

اذكروا اللّه بقلوبِكم وألسنتِكم وجوارحِكم ذِكْرًا كثيرًا، واشغلوا أوقاتَكم بذكر اللّه تعالى عند الصّباح والمساء، وأدبارِ الصّلوات المفروضاتِ، وعند العوارضِ والأسبابِ، فإنَّ ذلك عبادةٌ مشروعةٌ، تدعو إلى محبّةِ اللّه، وكفِّ اللّسان عنِ الآثام، وتُعينُ على كلِّ خيرٍ[1].

الذّكرُ الكثيرُ علامةُ الإيمانِ الكبيرِ والتّسبيحُ أمارةُ الاعتقادِ الصّريحِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستئناف:

فُصلت جملةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ عمّا قبلها، لكونِها استئنافًا ابتدائيًّا، وغرضُها حثُّ المؤمنين بأن يُشغلوا ألسنتَهم بذكر اللّه وتسبيحِه، أي: أن يُمسكوا عن مُماراةِ المنافقين أو عن سبِّهم فيما يُرجفون به في قضيّة تزوّج زينبَ، فأمرَهم أن يعتاضوا عن ذلك بذكر اللّه وتسبيحِه؛ لأنّ فيه خيرًا لهم[2].

حثُّ المؤمنين على الذِّكر بدلًا منَ الخوضِ فيما لا يُعني

بلاغةُ الانتقالِ منَ الأمرِ الضّمنيّ إلى الأمرِ المباشرِ:

نهجت هذه الآيةُ نهجًا مختلفًا عمّا قبْلها في الخطاب، فما قبْلها من آيات وردَ في صورة الإخبار، حتى مع حمل بعضِها على الطّلب، كالذي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾، فقد قيل: الخبرُ في معنَى النّهي[3]، فإنَّ التَّعبير بـ(ما كان، وما ينبغي) ونحوِهما، معناه الحظرُ والمنعُ، فيجيءُ لحظرِ الشّيءِ والحُكم بأنّه لا يكون[4]، لكنَّ هذه الآيةَ ولأهميّةِ المطلوب جاءت طلبًا مباشرًا للمؤمنين بأن يتّجهوا إلى اللّه تعالى بكلّيتهم قلبًا وقالبًا بحيث يشغلون أوقاتَهم بما ينفعُهم من ذكر اللّه وتسبيحِه وتوقيرِه والصّلاةِ له، بدلًا من ضياع أوقاتِهم واستفراغِ جُهدهم في محاورة المُرجِفين منَ المنافقين ومرضَى القلوبِ.

بناءُ فقهِ الأولويّاتِ من أولويّاتِ الخطابِ القرآنيِّ في التّوجيه والإرشادِ

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسّر، ص: 423.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 47.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 299.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 187.

فائدةُ أسلوبِ النّداء:

تنبيهُ المؤمنين وإيقاظُ قلوبِهم للمُهمّاتِ مِنَ الأمور

آثر النّظمُ الكريمُ عند توجيهِ الأمرِ بالذّكر استعمالَ أسلوبِ النّداء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ وذلك لتنبيههم إلى أهميّة المطلوب، ولإيقاظِ القلوبِ الغافلةِ عنه؛ لأنَّ النِّداء بوصْفِ الإيمانِ يحرّكُ حرارةَ الإيمان في القلوبِ؛ فتندفعُ نحوَ الامتثالِ إن كان المطلوبُ أمرًا، أوِ الاجتنابِ إن كان المطلوبُ نهيًا.

دلالةُ استعمالِ (أي) مع هاء التّنبيه:

تنزيلُ المُنادَى منزلةَ الغافلِ لمزيدِ تنبيهٍ وتحذيرٍ

إدخالُ (أي) على هاء التّنبيه في النّداء وجعلُها المنادَى يدلُّ على خطرِ خطبِ المُنادى له أو غفلةِ المُنادى، وذلك أنَّ الفرقَ بين النّداء والمُنادى بقولك: يا رجلُ ويا أيّها الرّجلُ، أنَّ قولَك: يا رجل يدلُّ على النّداء، وقولَك: يا أيّها الرّجلُ يدلُّ على ذلك مع الإنباءِ عن خطرِ خطبِ المُنادى له أو غفلتِه، وبيانُ هذا أنّ قولك: (يا أي) جعلَ المُنادَى غيرَ معلوم أوّلًا فيكونُ كلُّ سامع مُتطلّعًا إلى المُنادى، فإذا خصَّ واحدًا كان في ذلك إنباءُ الكلِّ لتطلُّعِهم إليه، وإذا قال: يا زيدُ، أو يا رجلُ لا يلتفتُ إلى جانب المُنادى إلّا المذكور[1].

غرضُ استعمالِ الاسمِ الموصولِ:

استعملَ النَّظمُ الاسمَ الموصولَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تنويهًا بما تضمنتْه جملةُ الصّلة من تحقّقِ المنادَين بالإيمان، وإيماءً إلى أنّه مناطُ شرفِهم، ومحلُّ أهليّتِهم للنّداء من ربّهم.

نكتةُ التّعبير بعنوانِ الألوهيّةِ:

مقاماتُ الهَيبةِ والجلالِ يزيدُها روعةً اسمُ الجَمالِ

من عادةِ القرآن إيثارُ التّعبير بلفظِ الجلالة دون غيرِه مِنَ الأسماء الحُسنى عندما يَستدعي المقامُ تهيُّبًا وتحفيزًا شديدًا، وكذلك الأمرُ هنا، فذكرُ اللّه المأمورُ به هو تعبيرٌ أثيرٌ قَصَدت به

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 153.

الآيةُ عمومَ الطّاعة قولًا وفعلًا، ابتداءً من إجراء ذكْر اللّه على اللّسان، والمعنى: اذكروا نعمَه؛ لتشكروا له، واذكروا أوامرَه؛ لتأتمِروا، ونواهيَه ومناهيَه؛ لتَنتهوا، ومواعيدَه؛ لتخافوا، وعِداتِه؛ لترغبوا، واذكروا عظمتَه وجلالَه وكبرياءَه؛ ليُهابَ[1].

بلاغةُ حذفِ المذكورِ به:

حُذفَ المذكورُ به لقصدِ التّعميم؛ فلم يقل: (اذكروا اللّه بألسنتكم ونحوه)؛ فيشملُ الذّكرَ القوليّ بكلِّ ما يُذكر اللّه به وبالأخصَّ ما هو واردٌ في المأثور، والذّكرَ العمليَّ قلبيًّا كان أو قالَبيًّا.

فائدةُ التّأكيدِ بالمفعولِ المطلقِ:

التّأكيدُ أمارةُ العنايةِ ومهمازُ الرّعايةِ

أُكِّد فعلُ الأمرِ ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ بالمفعولِ المطلَق ﴿ذِكۡرٗا﴾ ليحثَّ المأمورين على الاهتمام بالمأمور به، وحمّلِ الأمر على الوجوب بتأكيد فعلِ الأمر، خصوصًا مع تفسير الذّكْر هنا بأنّه مطلقُ الطّاعة بكلّ معانيها وأحوالِها القوليّةِ والعمليّةِ.

فائدةُ وصفِ الذّكْرِ بالكثرة:

استغراقُ الأوقاتِ بالذّكْر لأنّه النّجاةُ من الْمُلْهيّاتِ

قيل: الذّكرُ الكثيرُ ما جرَى على الإخلاص منَ القلب، والقليلُ ما يقعُ على حكم النّفاق كالذّكر باللّسان[2] المجرَّدِ عن حضورِ الإخلاص في القلب، فيَنْبَغي للمؤمنِ أن يغلّبَ أوقاتَه بالذّكْر حسبما تيسَّر له، ولا يَخْتَصُّ الكثيرُ بالعددِ بل يعمُّ بالكَيْف أيْضًا - أي بالإخلاص والحضور - فإنَّ كثرةَ الذّكْر إنّما يكون بدوامِه واسْتغْراقِه لجميع الأوقات، ويكونُ بكثرة أنواعِه، وكثرةِ الأفراد من كلّ نوعٍ؛ منَ التّقديس والتّحميدِ والتّهليل والتّمجيدِ وما أشبهَها[3].

بلاغةُ الأمرِ بالتَّسبيح بعد الأمرِ بالذِّكْر:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ تنويهٌ بفضلِه ورعايةٌ لمكانتِه

يترتَّبُ على تفسير الذّكْرِ بمعناه العامّ وهو جنسُ الذّكْر، أو

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 396.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 197.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتا القونوي وابن التمجيد: 15/ 375.

بمعناه الأعمِّ وهو مجملُ الطّاعات؛ "فإنَّ كلَّ طاعةٍ وكلَّ خير من جملةِ الذّكر"[1]، فيكونُ قولُه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ اهتمامًا بالخاصِّ، وذلك لِما يحملُه لفظُ التّسبيح من معنى التّنزيه عمّا لا يجوزُ على اللّه منَ النّقائص، فهو لذلك من أكملِ الذّكر، كما أنَّ في اختيار لفظِ التّسبيح إيماءً إلى التّبرّؤ ممّا يقولُه المنافقون في حقِّ النّبيِّ ﷺ، فيكونُ في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 16]؛ فإنَّ كلمةَ: سبحان اللّه، يكثُرُ أن تُقالَ في مقام التّبرؤ من نسبةِ ما لا يليقُ إلى أحد[2].

نكتةُ الإضمار:

جاء ذكرُ المفعول ضميرًا في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾؛ لأنّه مقتضى الظّاهر، وعبَّر بضمير الغائبِ، للعلم بمرجع الضّمير في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾، ولأنَّ التَّسبيح من فروعِ الذّكر.

الدّلالةُ البلاغيّةُ لوزن ﴿بُكۡرَةٗ﴾:

البُكرة بالضمّ: كالغُدْوة، فُعْلة من: بَكر يبكرُ بكورًا[3]، والبكرةُ هي (أوّلُ النّهار حيث يخرجُ أوّلُ الضّوء من عمقِ الظّلام ثمّ يسترسلُ مستمرًّا ومتزايدًا)، وهي بهذا المعنى في كلِّ موضعٍ وردت فيه في القرآن[4]، وانتصبت هي ومعطوفُها ﴿وَأَصِيلًا﴾ على الظّرفيّةِ التي يتنازعُها الفعلان ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ و﴿وَسَبِّحُوهُ﴾[5].

البُكرةُ هي أوّلُ النّهار في مقابل الأصيـلِ وهـو آخرُه

دلالةُ المقابلةِ بين ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾:

البكرةُ والأصيلُ استيعابٌ للزّمانِ كلِّه

إذا كان المرادُ بالبُكرة: أوّلَ النّهار، وبالأصيل: العشيّ، وهو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 486.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 48.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 383.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بكر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 48.

الوقتُ الذي بعدَ العصر، فإنَّ الغرضَ من جمعهما هو استغراقُ كلِّ الوقت، أي: إعمارُ جميعِ أجزاءِ النّهار بالذّكر والتّسبيح بقدرِ المُكْنَة؛ لأنَّ ذكرَ طرفَي الشّيء يكونُ كنايةً عنِ استيعابه، فقولُهم: المشرقُ والمغربُ، هو كنايةٌ عنِ الأرض كلِّها، والرّأسُ والعقبُ كنايةٌ عنِ الجسد كلِّه، فهذا هو سرُّ المقابلةِ بينهما[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكثيرُ والكبيرُ:

الكبيرُ يكون بحسبِ الشّأن والخطرِ، كالجليلِ والعظيم، والكثيرُ يكونُ بحسبِ الكمّيةِ والعددِ فيُقال: دارٌ واحدةٌ كبيرةٌ، ولا يجوز: كثيرةٌ، ويُقال: جنودٌ كثيرةٌ، ولا يجوز: كبيرةٌ، والكبيرُ نقيضُ الكثير، والكثيرُ نقيضُ القليل[2]، وقد يجتمعان في الشَّيء الواحدِ باعتبارَين، فيُقال: فلانٌ عمرُه كبيرٌ باعتبارِ العلمِ والخبرةِ، وعمرُه كثيرٌ باعتبار السِّنين والأيام.

الكثيرُ ملحوظٌ فيه العددُ، والكبيرُ ملحوظٌ فيه الشّأنُ

البُكرةُ والصّباحُ:

البُكْرَة هي أوّلُ النّهار[3]، من وقت صلاةِ الفجر، وهي فُعْلة من بَكر يبكرُ بكورًا، ألا ترى أنّه يُقالُ: صلاةُ الغداةِ، وصلاةُ الظُّهر، والعصرِ، فتضافُ إلى الوقت، ولا يقال: صلاةُ البُكرة، وإنّما يُقال: جاء في بُكرة، كما تقول: جاء في غدوة، وكلاهما فُعْلة مثل النُّقْلة، ثم كثُر استعمالُ البُكرة حتى جرَت على الوقتِ[4].

البُكرةُ يبدأُ من وقتِ صلاةِ الفجرِ، أمّا الصّبحُ فبعدَ إشراقةِ الشّمس

والصّبحُ كذلك أوّلُ النّهار، وهو وقتُ ما احمرّ الأفقُ بحاجبِ الشّمس[5]، وكأنّه بدايةُ إشراقِ الشّمس وبروزِها، كما قال سبحانه:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 48، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 486.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 449.
(3) الراغب، المفردات: (بكر).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 383.
(5) الراغب، المفردات: (صبح).

﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: 96]، أي: فلقَ الضّوءَ من ظلام اللّيلِ ببروز الشّمسِ وانبلاجِ الضّياء، قال العسكريُّ: الصّبحُ هو بريقُ الحديد وغيرِه، وقيل للصّبح: صبحٌ لبريقِه[1]، ويظهرُ من ذلك أنَّ البُكرة يبدأُ من وقت صلاة الفجرِ، أمّا الصّبحُ فبعد إشراقةِ الشّمس.

الأصيلُ والعشيّ:

العشيُّ بعد أن يفيءَ الفيءُ، والأصيلُ ما بعدَ العصرِ إلى الغروب

يُطلق على العشيّة: أصيلٌ وأصيلَة، وقيل: لفظُ العشيّ يطلقُ على وقتِ أن يفيءَ الفيءُ، فإنّه يُسمّى عشيةً، ثم يكونُ أصيلًا بعد ذلك، فالأصيل: ما بعد العَصْر إلى الغُروب[2]، وإنّما يُقال: فاء الفيءُ إذا زاد على طول الشّجرةِ، ويقال: أتيتُه عشيةَ أمسٍ، وسآتيه العشيّةَ ليومك الذي أنت فيه، وسآتيه عشيَّ غدٍ بغير هاء وسأتيه بالعشيِّ والغداة أي كلَّ عشيٍّ وكلَّ غداة[3] وقالَ الأزهريّ: يَقَع العَشيُّ عَلى ما بَيْنَ زَوالِ الشّمْسِ إلى وقْت غُروبها، كُلُّ ذَلِكَ عَشيٌّ، فَإذا غابَتِ الشَّمْسُ فَهوَ العِشاءُ[4]، ومعنى ذلك أنّ وقتَ الأصيلِ داخلٌ في وقت العشيِّ، فيكونُ العشيُّ أعمَّ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 309.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 129.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 383.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عشا).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ منَ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الحثِّ عليه بتعليلِه

بعد أن أمرَ اللّه تعالى المؤمنين بأن يذكروه ذكرًا كثيرًا، وأن يسبِّحوه بكرةً وأصيلًا، ناسبَ أن يذكرَ ما يُغري المؤمنين بكثرةِ الذّكر والتّسبيح في الزّمان كلِّه، فأخبرَ سبحانه بأنَّه هو الذي يصلّي على المؤمنين وملائكةُ قدسِه، مع ذكر الغرضِ من ذلك وهو إخراجُهم منَ الظّلمات إلى النّور، وهذا التّعليلُ يُبينُ جانبَ الرّحمة بعبادِ اللّه تعالى، فهو انتقالٌ من ذكر الأمرِ بالأعمال إلى ذكرِ ما يُغري بها، ويحثُّ عليها، كأنَّه قال: اذكروا اللّه ذكرًا كثيرًا وسبِّحوه لأنّه يصلّي عليكم وملائكتُه، وهو بكم رحيمٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾: (خرج) أصلُ الخروج النَّفاذُ عَنِ الشَّيْءِ[1]، يُقال: خَرَجَ خُروجًا: أي: برز من مقرِّه أو حالِه، سواء كان مقرُّه دارًا، أم بلدًا، أم ثوبًا، وسواء كان حالُه حالةً في نفسه، أم في أسبابه الخارجةِ، والإخْراجُ أكثرُ ما يُقال في الأعيان، نحو قوله ﷻ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: 5]، ويُقال في التّكوين الذي هو من فعلِ اللّه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النحل: 78][2]، والمعنى: ليُديمَ إخْراجه إيّاكُمْ منَ الكفر إلى الإيمان[3].

2) ﴿ٱلنُّورِ ۚ﴾: (نور) أصلٌ يَدُلُّ عَلى إضاءَةٍ واضْطِرابٍ وقِلَّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(2) الراغب، المفردات: (خرج).
(3) الجلالان المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص: 556.

ثَبات، ومِنْهُ النّورُ والنّارُ، سُمّيا بذَلِكَ مِنْ طَريقَةِ الإضاءَةِ، ولِأنَّ ذَلِكَ يَكونُ مُضْطَرِبًا سَريعَ الحَرَكَةِ[1]، والنّور قسمان: دنيويٌّ، وأخرويٌّ، فالدّنيويُّ ضربان: ضربٌ معقولٌ بعين البصيرة، وهو ما انتشر مِنَ الأمور الإلهيّةِ كنورِ العقلِ ونورِ القرآن، ومحسوسٌ بعين البصر، وهو ما انتشر مِنَ الأجسام النّيّرةِ كالقمرَين والنّجوم والنّيّرات[2] وما في قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ هو ممّا يُدركُ بالبصيرة، إذِ المرادُ به الإيمانُ.

المَعنى الإجْماليُّ:

رحـمـةُ الله بعبادِه المؤمنين سبقتْها أسبابٌ هيّأتْها رحمتُه بهم

تُخبرُ الآيةُ الكريمةُ بأنَّ هذا الذي أُمِر بذكره وتسبيحِه المؤمنون هو الله الذي يُصلّي عليهم ليرحمَهم، وتُصلّي عليهم ملائكتُه بالدّعاء والاستغفار؛ ليُخرجَهم من ظلماتِ النّفس الأمّارةِ بالسّوء، ومن ظلمات الدّنيا الغَرور، ومن ظلماتِ وسوسةِ الشّيطان، بما يَهديهم ويُرشدهم، ويثني عليهم ويوفّقُهم إلى طُرق النّور والعلم والإسلام والخير، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[3] في الآخرة بأن يدخلَهم وحدَهم الجنّةَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

التّعليلُ بالاستئنافِ يقعُ موقعَ الإقناعِ بعدَ الأمرِ والإرشادِ

فُصِل قولُه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ عنِ السّابق؛ لأنَّه استئنافٌ جارٍ مجرَى التّعليل لما قبْله منَ الأمرين بالذِّكر والتّسبيح، فإنَّ صلاتَهُ تعالى عليهم مع عدمِ استحقاقِهم لها وغناهُ عنِ العالمينَ، ممّا يوجبُ عليهم المُداومةَ علَى ما يستوجبُه تعالى عليهم من ذكرِه تعالى وتسبيحِه[4] فكأنّه قال: إنّما أمركم بذكرِه كثيرًا وتسبيحِه طويلًا؛ لأنّه يُصَلّي عَلَيْكُمْ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(2) الراغب، المفردات: (نور).
(3) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 101.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 107.

براعةُ الاستهلالِ بالضّمير:

استهلّتِ الآية بالضّمير ﴿هُوَ﴾ مقصودًا به تعالى، والضّميرُ أقوى المعارف، ولأنّه مركوزٌ في نفوس المؤمنين أنّ اللّه تعالى وحدَه هو الذي يَهديهم إلى الإيمان، وأنّه الذي يحفُّهم بإنعامه وإفضاله عليهم، فقد اكتفى بالتَّعبير عنه بالضّمير دون الحاجةِ إلى التَّعيين بالاسم الصَّريحِ، لكونِه سبحانه في هذا لا يلتبسُ بغيره، إذ لا ينازعُه في هذا الأمر منازعٌ.

الـضَّـمـيرُ هـو أقـوى المـعـارفِ المُـنـاديـةِ على الذّاتِ العليّةِ

غرضُ استعمالِ الاسمِ الموصول:

جاء التّعبيرُ بالاسم الموصول دون الاسمِ الصّريحِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ﴾؛ للإيماءِ إلى مضمون جملةِ الصّلةِ، والاستشهادِ على العباد بما في مضمونِها، ليكونَ تأكيدًا للتّعليل، فقد تضمّنت صلةُ الموصول إبرازَ كونِه سبحانه وحدَه الذي يملكُ الرّحمةَ والهدايةَ لعباده، ولولاه ما اهتدوا، وهذا منَ المقرّرات الرّاسخةِ في نفوس المؤمنين وقلوبهم، كما جاء الاعترافُ من سادةِ المؤمنين: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِىَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: 43].

تأكيدُ التّعليلِ تنبيهٌ على أهميّةِ المعنَى وجلالِ المضمونِ

سرُّ تقديمِ المسندِ إليه على المسندِ:

قُدِّم المسندُ إليه على الخبرِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لإفادة التّقوّي وتحقيقِ الحكم، والمقصودُ تحقيقُ ما تعلّقَ بفعل ﴿يُصَلِّى﴾ من قوله: ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾[1]، ويحتملُ أن يكون قد قُدِّم المسندُ إليه على خبره؛ لإفادة الحصْرِ وهو مفيدٌ للتّأكيد، وللنّصّ على استمرارِ ودوام كونِه سبحانه يرحمُ عبادَه المؤمنين ويُديمُ عليهم الإيمانَ، والبُعدَ عنِ الكفر والعصيان.

للمقدَّمِ شأنٌ في العنايةِ باعتبارِ التّقديمِ وباعتبارِ الموضوعِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 49.

بلاغةُ استعمالِ المشتركِ اللّفظيِّ:

الصّلاةُ منَ الله تعالى رحمةٌ، ومنَ الملائكة استغفارٌ

ورد لفظُ ﴿يُصَلِّي﴾ مسندًا إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ وكذلك إلى الملائكة، والصّلاةُ منَ اللّه رحمةٌ ومنَ الملائكة استغفارٌ، وهذا من استعمالِ المشتركِ في معنيَيْه على مذهبِ مَن يُجوِّزُه، أوِ الجمع بين الحقيقة والمجاز، فإن أريد تقريبُه بحيث يصيرُ في غاية القُرب نقول: الرّحمةُ والاستغفارُ يشتركان في العناية بحالِ المرحوم والمستغفَرِ له، والمرادُ هو القدرُ المشتركُ فتكونُ الدّلالة تضمّنيةً لكون العنايةِ جزءًا منهما[1].

وقدِ استبعد أبو السّعود قصدَ الاشتراك بين معنيين وإرادتِهما بلفظٍ واحدٍ، ورأى أنّه لا مَساغَ لذلك، ورأى أنَّ المرادَ بالصّلاة معنًى مجازيٌّ عامٌّ يكون كلا المعنيَيْن فردًا حقيقيًّا له؛ وهو الاعتناءُ بما فيهِ خيرُهم وصلاحُ أمرِهم، فإنَّ كُلّا منَ الرَّحمةِ والاستغفارِ فردٌ حقيقيٌّ له[2].

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

الرّحمةُ الدّائمةُ متجدّدةٌ بتجدُّدِ الدُّعاءِ والإقبال

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بصيغةِ المضارع، وذلك لأنَّه يدلُّ على الرّحمة المُتجدِّدة منَ اللّه تعالى، على معنى: أنَّ اللّه تعالى يُديمُ عليكم إيمانَكم ويجدِّدُه فيكم؛ بأن يزيدَكم إيمانًا فوق إيمانِكم بتوفيقِه إيّاكم إلى صالح الأعمالِ، ومن هذه الأعمالِ المُستدعيّة لتكرّرِ الصّلاة عليكم وتجدّدِها محافظتُكم على الذِّكر والتّسبيحِ.

دلالةُ حرفِ الاستعلاء:

حرف (على) في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾ دالٌّ على الاستعلاءِ المجازيِّ، ومن ثماره الدّلالةُ على التّمكُّن، فصلاتُه سبحانه على عبادِه مُحيطةٌ بهم، متمكّنةٌ منهم.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 172.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 107.

نوعُ العطفِ دلالتُه:

عطفُ الجُملِ يُغايرُ بين معاني الألفاظِ المقدّرةِ

قولُه تعالى: ﴿يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾ جملةٌ مستقلّةٌ ومعناها هو الذي يرحمُكم ويَهديكم إلى صالح الأعمالِ، وقولُه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أي يُصلّون عليكم كذلك بمعنى يَستغفرون لكم، والعطفُ بينهما هو من عطفِ الجُمل لا من عطفِ المُفردات لِتغايُرِ معنى الصّلاتَين، فالمقامان مختلفان[1]، وعلى القول بأنَّ ذلك من عطفِ الجُمل يُعفي منَ اللُّجوء إلى القول بالمجازِ في لفظ ﴿يُصَلِّي﴾ أو دعوى استعمالِ المشتركِ في معنيَيْه الحقيقيِّ والمجازيِّ؛ لأنَّ المعنى يتبعُ اللّفظَ المستقلَ المقدّرَ في الجملة الثّانية.

نوعُ اللامِ ودلالتُها:

الـلّامُ لتعليل إخـراجِ المؤمنين منَ الظُّلماتِ إلى النّور

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِيُخۡرِجَكُم﴾ هي لامُ التّعليل، وهي متعلّقةٌ بفعل ﴿يُصَلِّي﴾، أي: يعتني بكم هو سبحانه وملائكتُه ﴿لِيُخۡرِجَكُم﴾، أو يترحَّمَ هو ﷻ وملائكتُه ليُخرجَكم بذلك منَ الظّلمات إلى النّور[2]؛ فعُلم أنّ هذه الصّلاةَ جزاءٌ عاجلٌ حاصلٌ وقتَ ذكرِهم وتسبيحِهم.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ الإخراج:

الإخـراجُ مـنَ الظّلماتِ دالٌّ على الدّوامِ أوِ التّذكيرِ بما كان لهم

جاء التّعبيرُ بمفردةِ الإخراج بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، بمعنى الهدايةِ، أي: يَهديهم ويَنقلُهم منَ الظّلمات إلى النّور، والتّعبيرُ عنه بصيغة المضارع دالٌّ على دوامِ ذلك والاستزادةِ منه؛ لأنَّهم لمّا كانوا مؤمنين كانوا قد خرجوا منَ الظّلمات إلى النّور، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم: 76][3]، أو يكونُ مقصودًا به الإشارةُ إلى وقتِ أن كانوا كفّارًا قبل أن يهديَهم اللّه إلى الإيمان، وتكونُ صيغةُ المضارع مُفضيةً إلى استحضار الحالِ الماضيةِ تذكيرًا لهم بنعمة الإخراجِ من ظلماتِها إلى نور الإيمان.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 301.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 221.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 50.

فائدةُ ذكْرِ ضميرِ المخاطَبين دون الاسمِ الظّاهر:

تشريفُ المخاطَبين وتنبيهُهم على النِّعمة وشُكرِها

دخل فعلُ الإخراج على ضمير المخاطَبين في قوله: ﴿لِيُخۡرِجَكُم﴾ دون الاسم الظّاهر؛ تكريمًا وتشريفًا للمخاطَبين أن كانوا أهلًا للخطاب الشَّريف من ربّهم، ولإيقاظِهم وتنبيهِهم على شكرِ نعمةِ الله عليهم في هذا الإخراج، فكافُ الخطاب موقظةٌ لوعي المخاطَب، ومنبِّهةٌ على النِّعمة التي حظيَ بها في هذا الخطاب، وهو ما يجعلُهم في حيِّز الرّغبة في العبادة والطّاعةِ والإقبالِ.

نكتةُ جمعِ الظّلمات وإفرادِ النّور:

طريقُ الحقِّ واحدٌ وسُبلُ الضَّلال مُتشعّبةٌ

جُمِع لفظُ الظّلمات في قوله تعالى: ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾؛ لتعدُّدِ طُرق الشَّكِّ وكثرةِ مداخله، وأُفرِد النّور لاتِّحاد طُرق الإيمان[1]، حيث إنَّ الإيمان منحصرٌ في اتِّباع الصّراط المستقيم، الذي بلّغه الرَّسولُ الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: 52 - 53].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيّةِ في الآية:

التّنفيرُ من الكفر بتصويره والتَّرغيبِ في الإيمان بتقريبه

كلمتا ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِۚ﴾ مرادٌ بهما الكفرُ والإيمان، وهما استعارتان تصريحيّتان أصليتان، حيث استعار كلمةَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ للكفر، وكلمةَ ﴿ٱلنُّورِۚ﴾ للإيمان وحذف اللّفظَين المشبَّهين، وصرَّح باللّفظَين المستعارَين، وغرضُ هاتين الاستعارتَين بيانُ علاقةِ المشابهة بين المشبَّه والمشبَّه به في الكلمتَين تنفيرًا وتحذيرًا مما يحملُه المشبَّهُ في كلمة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، ولفتًا إلى ما يحملُه المشبَّهُ به في كلمة ﴿ٱلنُّورِۚ﴾ من وضاءةٍ وملاحةٍ ترغيبًا فيه وحثًّا للمخاطَبين على مداومة شكرِ الله الذي أخرجهم إليه.

نكتةُ الجمعِ بين حرفَي ﴿مِّنَ﴾ و﴿إِلَى﴾:

حرفا ﴿مِّنَ﴾ و﴿إِلَى﴾ يدلّان على الغاية ابتداءً وانتهاءً، أمّا ﴿مِّنَ﴾

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 436، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 360.

فهي لابتداء الغاية ومعنى هذا أنّهم كانوا قبلَ أن يهديَهم اللّه في ظلمات، أي: ظلماتِ الكفر والبعدِ عنِ اللّه، وأمّا ﴿إِلَى﴾ فهي لانتهاء الغاية، دالّةٌ على غاية الانتقال منَ الظّلمات وهي كونُهم قدِ انتهوا على النّور، الذي هو نورُ الإيمان، فجمعَ الحرفان الإشارةَ إلى ما قبل حلولِ النّعمة وما بعد حلولِها، لبيان أنَّ لكلِّ عملٍ بدايةً ونهايةً، وأنَّ من أحسنَ العملَ في البدايات ظفرَ في النِّهايات.

مَن أحسنَ العملَ في البداياتِ يوشكُ أن يظفرَ في النّهايات

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ اعتراضيّةٌ، والجملةُ بعدها اعتراضٌ تذييليٌّ مقرّرٌ لما قبْله، أي كانَ بالمُؤمنينَ الذين أنتم من زمرتهم ﴿رَحِيمًا﴾ ولذلك يَفعلُ بكم ما يفعلُ منَ الاعتناءِ بإصلاحِكم بالذّاتِ وبالواسطةِ، ويَهديكم إلى الإيمانِ والطّاعةِ[1].

التّذييلُ تأكيدٌ للمعنى المذكورِ وتقريرٌ للمضمون

فائدةُ ذكرِ فعل (كان):

ذُكِر فعلُ (كان) في جملة التّذييل؛ للإخبار عن رحمته سبحانه بالمؤمنين، فتقتضي كان من ثبوت ذلك الخبرِ له تعالى وتحقّقِه، وأنّه شأنٌ من شؤونه المعروفِ بها في آيات كثيرة[2].

علّةُ تقديمَ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ﴿رَحِيمًا﴾:

قُدّم قولُه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ﴿رَحِيمًا﴾ اهتمامًا بهم، فالسّياق سياقُ حثٍّ على الصّالحات، وذكرِ اللّه تعالى، والثّباتِ على الطّاعة والإيمان، فالذي يناسبه مزيدُ عنايةٍ بالمؤمنين.

فائدةُ اختيارِ لفظِ الإيمان دونَ الإسلام:

أوثر التّعبيرُ بالإيمان في قوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون الإسلام لكونِه الأعلى، والأعلى يتضمّنُ الأدنى، فلفظُ المؤمنين شاملٌ لِما يدلُّ عليه لفظُ الإيمان ولفظُ الإسلام، ومعروفٌ أنَّ اللّفظَين (الإيمان

مدلولُ اللّفظِ الأعمِّ يشملُ الأخصَّ فهو داخلٌ فيه بالتّضمُّن

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 107.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 50.

والإسلام) إذا ذُكِر أحدُهما دخلَ معه الآخرُ، ولا يفرّقُ بين معنيَيْهما إلّا إذا تعاقبا في الذِّكر، كما في قوله تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ [التحريم: 5]، ولهذا فالإيمانُ والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

بلاغةُ الاكتفاء:

اكتُفي بذكر المؤمنين بالنّصّ عليهم دون المؤمنات تغليبًا، مع التّأكيد على أنَّ المؤمناتِ داخلاتٌ في مضمون الآية مشمولاتٌ بالرّحمة كذلك.

علّةُ إيثارِ صفةِ الرّحمة على غيرِها:

اتّساقُ صفةِ الرّحمةِ مع السّياق

آثر النّظمُ الكريمُ استعمالَ صفةِ اللّه الرّحيم في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، وذلك أنّه الأنسبُ بالسّياق، فسياقُ الآية يتناولُ رحمةَ اللّه بعباده بالصّلاة عليهم، وذكْرِ الملائكة التي تُصلّي عليهم، فكان هذا التّذييلُ متناسبًا في ذكرِ الرّحمة التي هي سببُ الهداية والمغفرةِ وتقريبِ العباد، ورحمتُه سبحانه بالمؤمنين أعمُّ من صلاتِه عليهم؛ لأنّها تشملُ إسداءَ النّفع إليهم وإيصالَ الخير لهم بالأقوال والأفعال والألطاف[1].

سرُّ العُدول عنِ الإضمار إلى الإظهار:

تشريفُ المؤمنين ومدحُهم من غاياتِ النّظمِ الكريم

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عنِ الإضمار إلى الإظهار في قوله تعالى ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، حيث أتى بالاسمِ الصّريح (المؤمنين) وكان حقُّ المقام الإضمارَ اتّساقًا مع ضمائر الخطابِ المُتتاليةِ في الآية، لكنّه عدلَ إلى الإظهار مدحًا للمؤمنين وتشريفًا لهم، وبيانًا لعلّة استحقاقِهم الرّحمةَ، وهو تحقّقُهم بالإيمان الخالصِ، ولبيان أنَّ هذا شأنُه سبحانه مع من يتّصفُ بصفة الإيمان، وهو الرّحمةُ والمغفرةُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 50.

الفروقُ المُعجَميَّة:

الصّلاةُ والدّعاءُ:

الصّلاةُ والدّعاءُ متطابقان لغةً، مفترقان في الاصطلاحِ الشّرعيِّ

الصّلاةُ في اللّغة: الدّعاءُ، يقال: صَلَّيْتُ عليه، أي: دعوتُ له وزكّيت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة: 103][1]، لكنَّ الشّرعَ خصَّ الصّلاة بالأقوال والأفعالِ المُفتَتَحة بالتّكبير، والمُختتَمة بالتّسليم في ضوء ما حدَّده الشّرعُ الحنيفُ، وعلى هذا، فكلّ منَ الصّلاة والدّعاء متطابقان في المعنى اللّغويِّ، مفترقان في المعنى الشّرعيِّ.

وكذلك لفظُ الصّلاة يتحدّدُ معناه بحسبَ المُسندِ إليه، فالصّلاةُ منَ اللّه تعالى الرّحمةُ ومنَ الملائكة الاستغفارُ ومنَ العبد هي التي جاء بها الشّرعُ منَ الرّكوع والسّجودِ وسائرِ حدود الصّلاة[2].

الإخراجُ والإنجاءُ:

كلُّ إنجاءٍ إخراجٌ، وليس كلُّ إخراجٍ إنجاءً

أصلُ النَّجاء: الانفصالُ منَ الشيء، ومنه: نَجا فلان من فلان وأَنْجَيْتُه ونَجَّيْتُه، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: 53] وقال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ [العنكبوت: 33] والنّجاةُ، هي أن تُعاون أحدًا على ما فيه خلاصُه[3]، فالنّجاةُ تفيدُ الخلاصَ منَ المكروه[4]، أمّا الإخراجُ فهو: الإزالةُ من محيطٍ أو ما يجري مجرَى المحيط، فهو عامٌّ في كلّ شيءٍ[5]، أي أنَّ الإخراج أعمُّ منَ الإنجاء، فكلّ إنجاءٍ إخراجٌ، وليس كلُّ إخراجٍ إنجاءً.

الظُّلمةُ واللّيلُ:

الفرقُ بينهما أنّ اللّيل يذكرُ مقابلَ النّهار، والظّلمةَ تُذكرُ مقابلَ الضّياء والنّور، ومن طبيعةِ اللّيل أن يكون مظلمًا، فهما مشتركان في هذه الصّفةِ، مُفترقان في المقابل.

---

(1) الراغب، المفردات: (صلا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلى).
(3) الراغب، المفردات: (نجو).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 532.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 282.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ آثارِ الرَّحمةِ الآجلةِ بعدَ بيانِ آثارِها العاجلةِ

لمّا ذكرَ ﷺ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: 43] آثارَ الرَّحمةِ العاجلةِ - وهي العنايةُ بأمرِ المؤمنينَ وهدايتُهم إلى الطّاعةِ في الدُّنيا - ذكرَ آثارَها الآجلةَ في الآخرةِ فقالَ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾: (حيي) أصلُ التَّحيَّةِ مِنَ الحياةِ، وهي أنْ يُقالَ على سبيلِ الدُّعاءِ: حيّاكَ اللّهُ؛ أيْ: جعلَ لكَ حياةً[2]، ثمَّ استُعمِلَتْ في مُطلَقِ الدُّعاءِ والثَّناءِ عندَ اللِّقاءِ وإنْ لم يكنْ بلفظِ الحياةِ[3]، وغلبَتْ على سلامِ النّاسِ بعضِهم على بعضٍ[4]، وعلى الكلامِ الَّذي يُخاطَبُ بِهِ عندَ ابتداءِ الملاقاةِ[5]، والمُرادُ بالتَّحيَّةِ في الآيةِ: ما يُحيَّونَ بهِ[6].

2) ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾: (لقي) مِنَ الأصولِ الَّتي يدلُّ عليها: تَوافي شيئَيْنِ[7]، ومِنْ ذلكَ: اللِّقاءُ؛ وهو مصادفةُ الشَّيءِ للشَّيءِ ومقابلتُهُ لهُ معًا، وقد يُعبَّرُ بِهِ عن كلِّ واحدٍ منهما، ولقاءُ اللّهِ ﷻ عبارةٌ عن المصيرِ إليهِ يومَ القيامةِ[8]، أوِ الإقبالُ عليهِ بالكلّيَّةِ بحيثُ لا يَعْرِضُ للشَّخصِ ما يشغلُهُ أو يوجبُ غفلتَهُ عنهُ[9].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 172، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 107.
(2) الرّاغب، المُفردات: (حيي).
(3) السَّمين، عمدة الحُفّاظ: (حيي)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 51.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (حيي).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 51.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 107.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لقي).
(8) الرّاغب، المُفردات: (لقي)، والسّمين الحلبي، عُمدةُ الحُفّاظ: (لقي).
(9) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 222.

3) ﴿سَلَٰمٌۚ﴾: (سلم) أصلٌ يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[1]، والخُلُوِّ مِنَ الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنةِ[2]، ومِنْ ذلكَ: التَّسليمُ، وهو التَّحيَّةُ بالسَّلامِ؛ أي: الأمانُ والسَّلامةُ[3]، والمُرادُ بالسَّلامِ في الآيةِ: الإخبارُ بالسَّلامةِ عن كلِّ مكروهٍ وآفةٍ.

4) ﴿وَأَعَدَّ﴾: (عدّ) من الأصولِ الّتي يدلُّ عليها: تهيئةُ الشَّيءِ[4]، ومِنْ ذلكَ يُقالُ: أعددتُ هذا لكَ؛ أيْ: جعلتُهُ بحيثُ تتناولُهُ بحسَبِ حاجتِكَ إليهِ[5]، ومعنى ﴿وَأَعَدَّ﴾ في الآيةِ: هيَّأ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

سـلامُ اللـهِ وثوابُهُ للمؤمنينَ الذّاكرينَ

تحيَّةُ اللّهِ ﷻ للمؤمنينَ الذّاكرينَ يومَ القيامةِ لفظُ سلامٍ، وقد هيَّأ لهُم ﷻ أجرًا كريمًا؛ ثوابًا لهُم على طاعتِهم إيّاه في الحياةِ الدُّنيا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾:

المؤمنُ الذّاكرُ لله تعالى يحيا حياةً آمنةً يومَ القيامةِ

قولُه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ استئنافٌ جيءَ بهِ لإفادةِ ضربٍ آخرَ مِنْ ضروبِ التَّكريمِ للمؤمنينَ الذّاكرينَ، وكأنَّ سائلًا سأل هل هذا ما أعدّه اللّه لهم فقط؟، أو: هل تكريمُ اللّه لهم مقصورٌ على الدّنيا فقط؟ فكانتِ الإجابة: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾، وهو الإكرامُ بالتَّسليم بالحياة الآمنة التي تدلُّ عليها التّحية بالسّلام[6]، وفي هذا الاستئنافِ مِنَ البلاغةِ ما فيه؛ إذ يفيدُ أنَّ تكريمَهم لم يقتصرْ على ما في الدُّنيا مِنَ الصَّلاةِ عليهم المذكورة في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلم).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (سلم).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 101.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدّ).
(5) الرَّاغب، المُفردات: (عدد).
(6) أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسةٌ تحليليةٌ لسورة الأحزاب، ص: 361.

﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب: 43]؛ بل يمتدُّ إلى الآخرةِ؛ وهو تكريمٌ أعظمُ مِنَ التَّكريمِ السّابقِ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الإكثارَ مِنْ ذِكْرِ اللّهِ وتسبيحِهِ المأمورِ بهما في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب: 41 - 42] مِنْ أسبابِ الأمنِ مِنْ أهوالِ يومِ القيامةِ، وأنَّ منفعةَ الذِّكرِ متَّصلةٌ لا تنقطعُ في الدّارَيْنِ.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾:

الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾ راجعٌ إلى المؤمنينَ[1] المذكورينَ في الآياتِ السّابقةِ، فهمُ الَّذينَ يتعلَّقُ بهم السَّلامُ يومَ القيامةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّحيَّةِ:

المؤمنونَ مُكرَمونَ مُميَّزونَ عن غيرِهم يومَ القيامةِ

جيءَ بلفظِ التَّحيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنْ إكرامِ المؤمنينَ كما يُكرَمُ العُظَماءُ والملوكُ بالتَّحيّاتِ الَّتي يُرتِّلُها الشُّعراءُ والمُنشِدونَ، ومِنْ إظهارِ السُّرورِ بلقاءِ المؤمنينَ، وابتغاءِ الخيرِ لهم، والثَّناءِ عليهم؛ لأنَّ التَّحيَّةَ هي الكلامُ الَّذي يُخاطَبُ بهِ عندَ ابتداءِ الملاقاةِ للتَّعبيرِ عن ذلكَ[2]، وكأنَّ القيامةَ على ما فيها مِنَ الأهوالِ قد تزيَّنَتْ واستعدَّتْ للقاءِ المؤمنينَ الَّذينَ كانوا يذكرونَ اللّهَ كثيرًا ويُسبِّحونَهُ، ولم يَنْسَوْهُ، فلم يَنْسَهم مِنْ خيرِهِ وبركاتِهِ في هذا اليومِ.

تحيّةُ المؤمنين بعضِهم بعضًا في الآخرة مُعبِّرةٌ عن فرط سرورِهم

هذا إذا كانتِ التَّحيَّةُ مِنَ اللّهِ - كما هو الظّاهرُ - أو مِنَ الملائكةِ للمؤمنينَ، وأمّا إنْ كانتِ التَّحيَّةُ مِنَ المؤمنينَ بعضِهم لبعضٍ؛ فالتَّعبيرُ بها للدَّلالةِ على فَرْطِ السُّرورِ والاغتباطِ، والأُنْسِ والأمنِ والحُبورِ، ونحوِ ذلكَ مِنَ المعاني الَّتي غمرَتْ قلوبَهم؛ فتنطلقُ ألسنتُهم عندَ اللِّقاءِ بالتَّعبيرِ عمّا في ضمائرِهم منها.

(1) ابن الجوزيّ، زادُ المَسير: 3/ 470.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 51.

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾:

التَّحيَّةُ خاصَّةٌ بالمؤمنينَ دون غيرِهم مِنَ المُكذِّبين

الظّاهرُ أنَّ إضافةَ التَّحيَّةِ إلى ضميرِ المؤمنينَ في قولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾ مِنْ إضافةِ اسمِ المصدرِ إلى مفعولِه؛ أيْ: تحيَّةٌ يُحيَّونَ بها[1]، والمُحيّي لهم اللّهُ تعالى أوِ الملائكةُ[2]، وفي ذلكَ تشريفٌ لهُم وتكريمٌ لا نظيرَ لهما؛ إذِ الإضافةُ تُشعِرُ بأنَّ هذهِ التَّحيَّةَ العظيمةَ خاصَّةٌ بِهم لا تتجاوزُهم إلى غيرِهم، وإذا كانَتْ مِنَ اللّهِ مباشرةً - كما هو الظّاهرُ - فلا يُقادَرُ قَدْرُ عظَمتِها.

السّلامُ نعمةٌ مِنَ الله تعالى على عبادِهِ المؤمنين

جوَّزَ بعضُ العلماءِ أنْ تكونَ الإضافةُ مِنْ إضافةِ اسمِ المصدرِ إلى الفاعلِ؛ والمعنى: يُحيّي بعضُهم بعضًا بالسَّلامِ[3]؛ ليُطَمئِنَ بعضُهم بعضًا في ذلكَ اليومِ العصيبِ بأنَّهم قد سَلِموا مِنَ المكارهِ، ويُظهِرُوا نعمةَ اللّهِ عليهِم حيثُ آمنَهم ممّا في ذلكَ اليومِ مِنَ الأهوالِ الجِسامِ، والأمورِ العِظامِ، ولا يَخفَى ما في الكلامِ مِنَ المبالغةِ حتَّى كأنَّ المؤمنَ كلَّما لقيَ مؤمنًا آخرَ مِنْ إخوانِهِ المؤمنينَ يُحيّيهِ بالسَّلامِ، ويُظهِرُ لهُ ما يَغْمُرُهُ مِنَ الفرحِ والأُنسِ، وذلكَ لا يكونُ إلّا للمؤمنينَ؛ فهي تحيَّةٌ خاصَّةٌ بهِم، مُتعارَفَةٌ فيما بينَهم، وهو ما تدلُّ عليهِ الإضافةُ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(اليوم):

اتِّساعُ الزَّمانِ الشّاملِ لأجزاءِ اليومِ بمفهومِهِ العُرفيِّ والشَّرعيِّ

يحتملُ قولُه: ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾: حين يلقونه، فيكون زمانًا ضيّقًا، ويحتملُ اليومَ الذي يُشبه أيّام الدُّنيا على أنّ المعنى هو اللّقي بالموت، ويحتملُ اتّساعَ زمان اليوم؛ أيْ: تحيّتهم من بدء يلقونه سلام، ليشمل ذلك الموتَ والبعثَ ودخولَ الجنّة، ويحتملُ أن يُراد به يومُ القيامة، ولا مانعَ من شمول هذا اللّفظ لكلِّ هذه المعاني، مع تقييده بقوله تعالى: ﴿يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 51.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 176.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 9/ 129، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 176.

نكتةُ التَّقييدِ في ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾:

إفادةُ تكريم المؤمنين وتبشيرهم بالسَّلام

يحتملُ أن يكون المُرادُ باليوم في الآية الكريمة يومَ القيامةِ؛ والظّاهرُ أنَّ اللّهَ تعالى يُسلِّمُ عليهم[1] بعدَ دخولِهم الجنَّةَ تكريمًا لهُم وتعظيمًا[2]، والذي يُرجِّحُ أنَّ المُسلِّمَ هو اللّهُ قولُهُ تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾؛ إذ لا خلافَ في أنَّ المُعِدَّ هو اللّه ﷻ، وتقييدُ التَّحيَّةِ بكونِها في ذلكَ اليومِ؛ لإظهارِ رِضاهُ ﷻ عنِ المؤمنينَ في يوم الحسابِ والجزاءِ، وذلكَ لونٌ مِنْ ألوانِ النَّعيمِ، بل هو أعظمُ ألوانِه.

مِنَ التَّكريمات تهوينُ السَّكرات

قد يُرادَ باليوم في الآية الكريمة يومُ موتِهم، وأنَّ ملَكَ الموتِ والملائكةَ معَهُ يُسلِّمونَ عليهِم ويُبشِّرونَهم بالجنَّةِ[3]، وفي ذلكَ تهوينٌ لسَكَراتِ الموتِ عليهِم، وتخفيفٌ لآلامِ فراقِهم للدُّنيا وأهلِها.

التّطمينُ عند الفزعِ مِنَ القبورِ

مِنَ المحتمل أنْ يكونَ المُراد باليوم في الآية الكريمة يومَ النَّفخ في الصّور مرَّةً أُخرى وخروجِ المؤمنين مِنَ القبورِ بعد المُكث فيها، وأنَّ الملائكةَ يُسلِّمونَ على هؤلاءِ المؤمنين دون غيرهم، ويُبشِّرونَهم بالجنَّةِ[4]، وفي ذلكَ تهوينٌ لأهوالِ يوم القيامةِ عليهم.

التَّطمينُ يومَ نَصْبِ الموازينِ

يحتملُ أنْ يُرادَ باليوم هنا يومُ القيامةِ، وأنَّ الملائكةَ يُسلِّمونَ عليهم عندَ دخولِ الجنَّةِ كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ [الرّعد: 23 - 24][5]، والغرضُ مِنْ ذلكَ إظهارُ كرامتِهم، والتَّنويهُ بهم.

مرجعُ الهاءِ في ﴿يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾:

لقاءُ اللهِ ﷻ أعظمُ النَّعيم

الظّاهرُ أنَّ الهاءَ في قولِه تعالى ذِكرُهُ: ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ راجعةٌ إلى اللهِ تعالى[6]، بدليلِ السّياقِ اللّاحقِ وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 222.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 222.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 222.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 222.
(6) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 470، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 199.

﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾، وفي اقترانِ لقائِه ﷻ - وهو أعظمُ النَّعيم - بالتَّحيَّةِ بالسَّلامِ مِنَ التَّكريمِ ما لا تُحيطُ بِه العبارةُ، وجوَّزَ بعضُهم أنْ يعودَ الضَّميرُ على غيرِ مذكورٍ - وهو مَلَكُ الموتِ - بناءً على أنَّ المُرادَ باليوم في الآية الكريمة يومُ الموتِ، وأنَّ مَلَكَ الموتِ يُقرِئُ المؤمنَ السَّلامَ مِنَ ربِّهِ إذا جاءَ لقبضِ روحِه[1]، والقولُ الأوَّلُ أبلغُ وأكملُ؛ فشتّانَ بينَ لقاءِ الخالقِ ولقاءِ مخلوقٍ، وشتّانَ بينَ سلامٍ مباشرٍ وسلامٍ بواسطةٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ باللِّقاءِ في ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾:

كلُّ النّاسِ صائرونَ إلى اللهِ، والمؤمنون مُقبِلون عليه بالكُلّيَّة لشرفِ اللِّقاءِ

يحتملُ أنْ يكونَ اللِّقاءُ هو المصيرُ إليهِ ﷻ يومَ القيامةِ[2]، وهذا عامٌّ لجميعِ النّاسِ؛ إذ كلُّهم صائرونَ إلى اللّهِ ﷻ، فميَّزَ المؤمنينَ يومئذٍ بالتَّحيَّةِ تكريمًا لهُم[3]، ولا يَبْعُدُ أنْ يدخلَ في جملةِ ما ميَّزَهم بِهِ تعالى إذاقتُهم حلاوةَ شهودِهِ ورؤيتِه في الجنَّةِ، فيكونُ هناكَ لقاءٌ خاصٌّ بِهِم مُختلِفٌ عنِ اللِّقاءِ العامِّ، وحينئذٍ يخاطبُهم سبحانَهُ ويُحيّيهم بالسَّلامِ؛ زيادةً في التَّشريفِ والتَّكريمِ والتَّعظيم.

لإقبالِ المؤمنين على ربِّهم خصوصيّةُ تكريمٍ وتشريفٍ

يحتملُ أيضًا أنْ يكونَ المُرادُ بلقاءِ اللّهِ تعالى في قولِهِ: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾: الإقبالَ عليهِ بالكلّيَّةِ بحيثُ لا يَعْرِضُ للإنسانِ ما يشغلُهُ عنهُ ﷻ؛ لأنَّهُ في دنياهُ غيرُ مُقبِلٍ بكلّيَّتِه على اللّهِ؛ فهو حالةَ نومِهِ غافلٌ عنهُ، وفي أكثرِ أوقاتِه مشغولٌ بتحصيلِ رزقِه، وأمّا في الآخرةِ فلا يُلهيهِ عنهُ شيءٌ[4]، ثمّ إنّ لإقبالِ المؤمنين على اللّه خصوصيّةَ تكريمٍ وتشريفٍ، فهم متشوّقون إليه.

وأمّا مَنْ أرجعَ الضَّميرَ في ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ إلى مَلَكِ الموتِ فاللِّقاءُ عندَهُ على ظاهرِهِ وحقيقتِه؛ لأنَّ المُحتضَرَ يقابلُ مَلَكَ الموتِ ويعاينُهُ.

---

(1) ابن الجوزيّ، زادُ المَسير: 3/ 470، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 199.

(2) الرَّاغب، المُفردات: (لقي).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 51.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 172.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾:

مَنْ أرادَ تحيَّةَ اللهِ بالسَّلام حين يلقاه؛ فليُكثِرْ من لقائِه في الدُّنيا

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾؛ لأنَّ لقاءَ اللّهِ تعالى أمرٌ مُستقبليٌّ، وصيغةُ المضارعِ هنا تدلُّ على الاستقبالِ بقرينةِ أنَّ القيامةَ لم تقعْ بعدُ، وفي التَّعبيرِ بهذهِ الصّيغةِ تنبيهٌ لِمَنْ أرادَ الالتحاقَ بِرَكْبِ هؤلاءِ القومِ المُكرَمينَ، على أنَّهُ لا يزالُ أمامَهُ متَّسعٌ مِنَ الوقتِ ما دامَ فيهِ عِرْقٌ ينبضُ، فليُكثِرْ مِنْ ذِكْرِ اللّهِ.

وفي هذا التّعبيرِ إشارةٌ إلى أنَّ لقاءَ اللّه في الدُّنيا من خلال قيامِ اللّيلِ مثلًا، يُثمرُ السَّلامَ منَ اللّه والتَّحيّةَ، وكأنَّ شوقَ المؤمنِ للقاءِ اللّه في الآخرة منذ الموت وحتى استقرارِه في الجنَّة، يبعثُه إلى حبِّ لقائه في الدُّنيا حتى ينالَ تحيّةَ اللّه بالسَّلام حين يلقاه يومَ القيامة، وتلك إشارةٌ عظيمةٌ بالتّعبير عن لقاءِ اللّه بالفعل المضارع.

سرُّ تقديمِ ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾:

المؤمنُ آمِنٌ وسالِمٌ من أهوالِ يومِ القيامةِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (تحيَّتُهم سلامٌ يومَ يلقونَهُ) بتقديمِ المُسنَدِ على الظَّرفِ، كما هو الأصلُ في ترتيبِ الجُملِ، لكنْ أُخِّرَ المُسْنَدُ عنِ الظَّرفِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾؛ للاهتمامِ بكونِ التَّحيَّةِ واقعةً في يومِ اللِّقاءِ الَّذي هو يومُ الأهوالِ والأفزاعِ، وذلكَ يَبُثُّ الطُّمأنينةَ في نفوسِ السّامعينَ، ويزيدُ رغبتَهم في الأعمالِ الَّتي بها تُنالُ هذهِ المَكْرُمةُ، وللتَّشويقِ إلى الخبرِ المُؤخَّرِ - وهو السَّلامُ - ليتمكَّنَ عندَ وُرودِهِ فضلَ تمكُّنٍ في النَّفسِ.

براعةُ التَّعبيرِ بالسَّلامِ:

المؤمنونَ محفوفونَ بالأمنِ والأُنْسِ والتَّكريمِ

جيءَ بلفظِ السَّلامِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ التَّحيَّةِ في الأصلِ تأنيسُ الدّاخلِ بتأمينِهِ إنْ كانَ لا يُعرَفُ، وباللُّطفِ لهُ إنْ كانَ معروفًا، ولفظُ السَّلامِ يجمعُ المَعنيَيْنِ؛ لأنَّهُ مُشتقٌّ مِنَ السَّلامةِ، وهو يدلُّ على أنَّ المُسلِّمَ مُسالِمٌ للمُسلَّمِ عليهِ، لا يريدُ بِهِ مكروهًا، فيكونُ كنايةً عنِ التَّأمينِ، ويدلُّ على حصولِ تكريمِ

ولُطْفٍ وخيرٍ كثيرٍ[1]؛ لأنَّ مَنْ لَقيَ غيرَهُ وسلَّمَ عليهِ دلَّ ذلكَ على الصَّفاءِ بينَهما[2]، فيكونُ في هذا اللَّفظِ إيجازٌ وافٍ غزيرٌ بالمعاني[3]، وأعظِمْ بكلمةٍ تنشرُ الخيرَ والأمنَ في رُبوعِ القيامةِ للمؤمنينَ!

سرُّ إطلاقِ ﴿سَلَٰمٞ﴾:

المؤمنونَ سالمونَ مِنْ كلِّ آفةٍ ومكروهٍ يومَ القيامةِ

جيءَ بلفظِ السَّلامِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَلَٰمٞ﴾ مُطلَقًا، ولم يُقيَّدْ بشيءٍ، فلم يُقَلْ: (سلامٌ مِنْ كذا وكذا)؛ ليدلَّ على السَّلامةِ مِنْ كلِّ مكروهٍ وآفةٍ، لا مِنْ مكارهَ وآفاتٍ مُعيَّنةٍ، فيعظُمَ أثرُهُ في النُّفوسِ، وليدلَّ على سلطانِ الرُّبوبيَّةِ[4]، ببيانِ أنَّ مَنْ أمَّنَهُ اللّٰهُ سبحانَهُ - وهو مالكُ يومِ الدّينِ - فلا يُصيبُهُ خوفٌ ولا فَزَعٌ في ذلكَ اليومِ، ولا ينالُهُ أحدٌ بضُرٍّ، ولا تعرفُ المكارهُ إليهِ سبيلًا.

نكتةُ تنكيرِ ﴿سَلَٰمٞ﴾:

اتِّساعُ المعاني للعمومِ والتَّكثيرِ والتَّعظيمِ والتَّفخيمِ

﴿سَلَٰمٞ﴾ نكرةٌ في سياقِ الإثباتِ كقوله: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ١٢﴾ [الغاشية: 12]، فالأصلُ فيها أنّها تدلُّ على الإطلاق؛ لكنّها لمّا كانت في سياق الامتنان وفي سياق الوعد وكلٌّ منهما يدعو إلى العموم؛ شمل ذلك كلَّ أنواع السّلام بلفظه ومعناه، بظاهره وباطنه، فكأنّه قال: "إنّ تحيّة اللّٰه لهم أن يشملهم بكل أنواع السّلامة والأمن"، ولا مانع من أن يُراد بالسّلام التّقليلُ، بتنكير ﴿سَلَٰمٞ﴾ في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾، والقليلُ منهُ سبحانَهُ كثيرٌ، وحَسْبُ المؤمنينَ فضلًا أنْ يلقاهم اللّٰهُ ويُحيّيهم، ويُلقيَ عليهم رِداءَ الأمنِ والسَّلامِ[5].

ويحتملُ أنْ يكونَ للتَّعظيمِ والتّفخيم؛ أيْ: سلامٌ أيُّ سلامٍ، عظيمُ الشَّأنِ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ؛ لأنَّ السَّلامَ منَ العظيمِ عظيمٌ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 304.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 172.
(3) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 361.
(4) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 361.
(5) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 362.

ولا مانع من أن يُراد مع كلِّ ما سبق حكايةُ التّحيّة بلفظها على أنَّ التَّحيَّةَ هي كلمةُ ﴿سَلَٰمٞ﴾، وأنّها محكيَّةٌ هنا بلفظِها دونَ لفظ (السَّلامُ عليكم)، أو (سلامٌ عليكم)؛ لأنَّهُ لو أُريدَ ذلكَ لقيلَ: (وتحيَّتُهم فيها السَّلامُ) بالتَّعريفِ؛ ليتبادرَ منهُ أنَّهُ السَّلامُ المعروفُ في الإسلامِ، وهو عبارةُ (السَّلامُ عليكم)[1].

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّةِ:

السَّلامُ على المؤمنينَ دائمٌ لا ينقطعُ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾؛ للدَّلالةِ على ثباتِ السَّلامِ ودوامِهِ، وأنَّهُ لا انقطاعَ لهُ؛ فهو منْ جملةِ نعيمِ الجنَّةِ الَّذي لا نهايةَ لهُ، وفي ذلكَ إيذانٌ بأنَّ التَّكريمَ أبديٌّ، والتَّشريفَ أبديٌّ، والتَّعظيمَ أبديٌّ، والأمانَ لا يَعقُبُهُ خوفٌ، والسَّلامةَ لا يَعقُبُها ضَرَرٌ ولا مَرَضٌ ولا آفةٌ.

بلاغةُ الواوِ في ﴿وَأَعَدَّ﴾:

سَعَةُ رحمةِ اللهِ تعالى للمؤمنين، وتنويعُ أصنافِ النَّعيمِ لهم

يحتملُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ للحالِ[2]، والجملةُ حالٌ منْ ضميرِ الجلالةِ؛ أيْ: يُحيّيهم يومَ يلقونَهُ، والحالُ أنَّهُ قد أعدَّ لهُم أجرًا كريمًا، والمعنى: ومنْ رحمتِهِ بهِم تبشيرُهم أوَّلًا بالسَّلامةِ منَ الآفاتِ والمكارهِ، والحالُ أنَّهُ قد أعدَّ لهُم أجرًا كريمًا؛ إتمامًا لرحمتِهِ بهِم[3].

ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ لعطفِ هذهِ الجملةِ على سابقتِها؛ لأنَّهما من وادٍ واحدٍ؛ فهذهِ تحيَّةٌ ولقاءٌ، وتلكَ مائدةٌ منَ الأجرِ مُعَدَّةٌ[4].

سرُّ إيثارِ الفعليَّةِ الماضويةِ على الاسميَّةِ:

الأجرُ الكريمُ موجودٌ مُهيَّأٌ الآنَ

عُدِلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ إلى الجملةِ الفعليَّةِ عنِ الاسميَّةِ المناسبةِ لِما قبلَها، فلم يُقَلْ مثلًا: (وأجرُهم أجرٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/ 103 - 104.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 371.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 51.
(4) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 362.

كريمٌ)، أو (ولهم أجرٌ كريمٌ)؛ للمبالغةِ في التَّرغيبِ والتَّشويقِ إلى المُعَدِّ، ببيانِ أنَّ الأجرَ الَّذي هو المقصدُ الأعلى مِنْ بينِ سائرِ آثارِ الرَّحمةِ واقعٌ موجودٌ بالفعلِ وإنْ لم يكنْ واصلًا إليهم بعدُ، وهو مُهيَّأٌ لهُم الآنَ كما تدلُّ عليهِ صيغةُ الماضي[1]؛ لأنَّ الجنَّةَ وما فيها موجودٌ الآنَ[2]، يُضافُ إلى ذلكَ ما في التَّعبيرِ بالفعليَّةِ مِنْ مراعاةِ ملاءمةِ الفاصلةِ لِما قبلَها[3].

سرُّ إسنادِ الإعدادِ إلى اللهِ:

كرامةُ المؤمنينَ على اللهِ تعالى

أُسنِدَ إعدادُ الأجرِ الكريمِ إلى اللهِ سبحانَهُ في قولِهِ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾؛ للتَّنويهِ بهِ وتعظيمِ شأنِهِ، ببيانِ أنَّ ذا العظَمةِ والجلالِ هو الَّذي تولَّى إعدادَهُ[4]، وإعدادُ العظيمِ عظيمٌ، وفي ذلكَ زيادةُ ترغيبٍ وتشويقٍ لهذا الأجرِ؛ إذِ الكريمُ سبحانَهُ لا حدودَ لعطائِهِ وكرمِهِ، وفيهِ أيضًا تشريفٌ للمُعَدِّ لهُم، وبيانُ كرامتِهم ومنزلتِهم عندَ اللهِ.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾:

نعيمُ الجنَّةِ مِلْكٌ للمؤمنينَ ومُختصٌّ بهم

اللّامُ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ للتَّمليكِ، وفي التَّعبيرِ بها مبالغةٌ في بيانِ تكريمِ اللهِ تعالى للمؤمنينَ، حيثُ أعدَّ لهم هذا الثَّوابَ العظيمَ، وجعلَهُ مملوكًا لهُم، يتنعَّمونَ فيهِ كما يشاؤونَ.

وفي اللّامِ أيضًا إشارةٌ إلى اختصاص المؤمنين بذلك دون غيرهم، فكأنّه قال: وأعدَّ لهم ومدَّهم دون غيرهم، ويتأكَّدُ ذلك بما سيأتي من تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول الصَّريح.

سرُّ تقديمِ ﴿لَهُمۡ﴾:

تعجيلُ سرورِ المؤمنينَ والاهتمامُ بهم واختصاصُهم بذلك

قُدِّمَ ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿أَجۡرٗا﴾؛ للاهتمامِ بكونِ الأجرِ للمؤمنينَ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 107، والآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 222.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 380.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 107.
(4) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 362.

وتعجيلِ المَسَرَّةِ لهُم ببيانِ أنَّ شيئًا ما قد أُعِدَّ لهُم، والتَّشويق للمُؤَخَّرِ المُعَدِّ، وهو الأجرُ الكريمُ، وفي تقديم ما حقُّه التّأخير أيضًا الاختصاص، كما سبق الإشارة إليه؛ أيِّ: لهم وحدَهم دون غيرهم، ويضافُ إلى ذلك أنَّ هذا التَّقديمَ يترتَّبُ عليهِ ملاءمةُ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

بيانُ عِظَمِ الأجرِ المُعَدِّ للمؤمنين وتفخيمِه

فائدةُ تنكير ﴿أَجۡرٗا﴾:

جيءَ بلفظِ الأجرِ في قولِه ﷻ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ مُنكَّرًا؛ لتفخيمِه[1] وتعظيمِ شأنِه؛ أيِّ: أجرًا عظيمَ الشَّأنِ لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، ولا تُحيطُ العبارةُ بكُنْهِهِ، فهو مِنْ إعدادِ الكريمِ الرَّحيمِ الَّذي لا تَفْنَى خزائنُهُ.

أجرُ المؤمنينَ نفيسٌ دائمٌ لا تعبَ فيهِ ولا كَدَرَ

غرضُ وصفِ الأجرِ بالكريمِ:

المُرادُ بالأجرِ في قولِه ﷻ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾: الجنَّةُ[2] الَّتي لا غايةَ فوقَها، وقد وُصِفَ الأجرُ بكونِه كريمًا؛ لزيادةِ التَّفخيم المُستفادِ مِنَ التَّنكيرِ[3]، وللإشارةِ إلى نفاستِه في جنسِه[4]، وأنَّهُ لا يُدانيه أجرٌ آخرُ في منزلتِه؛ فهو يشتملُ على جوارِ اللّهِ تعالى[5]، وهو يأتيهم مِنْ غيرِ طلبٍ[6]، وهو دائمٌ لا انقطاعَ لهُ، ولا كَدَرَ في شيءٍ منهُ[7]، ولأنَّ الكرم اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يرضى به اللّه ويحمدُه مِنَ النّاس، وصف الأجرَ بالكريم، كأنّه قال: أجرًا كريمًا بكلِّ أنواع الكرم وأشكاله وأفانينه، فوصفُ الأجرِ بالكريم لا يُستفاد من دلالة التّنكير في ﴿أَجۡرٗا﴾ على التّكريم، ولا يُغني عنها.

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 380.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 389، والنَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 36.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 380.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 51.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 389.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 173.
(7) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 371.

بلاغةُ المَجاز في إسنادِ الكرمِ إلى الأجرِ:

أجـرُ المؤمنين يَفيضُ بالكرمِ

وُصِفَ الأجرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ بأنَّهُ كريمٌ على سبيلِ المجازِ العقليِّ، وإلّا فالَّذي يوصَفُ بالكرمِ في الحقيقةِ هو الَّذي أعدَّ الأجرَ، وبلاغةُ هذا المجازِ أنَّهُ يفيدُ أنَّ الكرمَ قد تعدَّى مِنَ الرَّبِّ الكريمِ المُعِدِّ للأجرِ إلى الأجرِ نفسِهِ حتَّى صارَ هو أيضًا كريمًا[1]، وكأنَّ الجنَّةَ كلَّها تَفيضُ بالكرمِ، وليسَ فيها موضعُ شِبْرٍ إلّا وهو مَحَلُّ تشريفٍ وتكريمٍ وتعظيمٍ للمؤمنينَ.

سرُّ الوصفِ بالكريمِ دونَ العظيمِ:

استيفاءُ أجرِ الذّاكرينَ لصفتَي العظَمةِ والكرمِ

تقدَّمَ وصفُ الأجرِ بكونِهِ عظيمًا في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: 35] حيث خُتمت الآية بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب: 35]، ومِنْ جملةِ المذكورينَ في الآيةِ الذّاكرونَ اللّهَ كثيرًا والذّاكراتُ، ووُصِفَ هنا بكونِهِ كريمًا، وهو أيضًا أجرٌ للمؤمنينَ المأمورينَ بذكرِ اللّهِ كثيرًا، كما أفادَهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب: 41]، فيكونُ الغرضُ مِنِ اختلافِ الوصفِ في الموضعَيْنِ بيانَ أنَّ أجرَ الذّاكرينَ قد استوفَى الصِّفتَيْنِ معًا، فهو عظيمٌ، وهو أيضًا كريمٌ.

ويُلحَظُ أيضًا أنَّهُ قد تقدَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦﴾ [الأحزاب: 26] ذِكْرُ ما نالَ أهلَ الكتابِ المُمالئينَ للأحزابِ مِنَ القتلِ والأسْرِ، وهما ذلٌّ وهَوانٌ، فقوبِلَ ذلكَ بما ينالُهُ المؤمنونَ مِنَ التَّكريمِ عندَ اللّهِ تعالى بإعدادِ الأجرِ الكريمِ لهُم.

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشعراوي: 19/ 12074.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّحيَّةُ والسَّلامُ:

السَّلامُ أخصُّ مِنَ التَّحيَّةِ

التَّحيَّةُ أعمُّ مِنَ السَّلامِ[1]، فيدخلُ فيها السَّلامُ ويدخلُ فيها غيرُهُ، نحوُ: حيّاكَ اللّهُ، ولكَ البُشرى، ولَقيتَ الخيرَ[2]، ولكونِها أعمَّ؛ أُخبِرَ في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ عن تحيَّتِهم بأنَّها سلامٌ؛ أيْ: لفظُ سلامٍ، إخبارًا عنِ الجنسِ بفردٍ مِنْ أفرادِهِ[3].

الإعدادُ والإعتادُ:

ثَمَّةَ تقاربٌ في المعنى الأصليِّ

الإعتادُ والإعدادُ معناهما مُتقاربٌ في الأصلِ؛ فالإعتادُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قبلَ الحاجةِ إليهِ[4]، والإعدادُ: جعلُ الشَّيءِ بحيثُ يُتناوَلُ بحسَبِ الحاجةِ إليهِ[5]، وقد غلبَ في القرآنِ استعمالُ الإعتادِ في تهيئةِ النّارِ والعذابِ، ولم يُستعمَلْ في غيرِ ذلكَ إلّا قليلًا، وأمّا الإعدادُ فاستُعمِلَ في تهيئةِ الجنَّةِ والنّارِ والرِّزقِ والأجرِ والمغفرةِ والعُدَّةِ وآلةِ الحربِ[6].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 487.
(2) زيدان، الفروق اللغويّة، ص: 338.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/ 103.
(4) الرَّاغب، المُفردات: (عتد).
(5) الرَّاغب، المُفردات: (عدد).
(6) محمد داود، معجم الفروق الدلاليّة في القرآن الكريم، ص: 338.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: 45 - 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

النَّبيُّ ﷺ سببُ خيرٍ لكلِّ أُمَّته

لمّا بيَّن اللّه ﷻ ثوابَ المؤمنين الذّاكرين وعظيمَ ما أعدّه لهم؛ أشار إلى سبب ذلك وهو إرسالُه النَّبيّ ﷺ؛ إذْ ما من طاعة يقومون بها وأجرٍ يأخذونه عليها إلّا والنَّبيُّ ﷺ الدّاعي لها، والمُرغِّبُ فيها، والمُبشِّرُ بثوابها، والمُنذرُ من عقوبة تركها، ولذلك شرَّفه بالخطاب بعد ذِكْرِه والثَّناء عليه بالغيبة.

وقيل: لمّا وعظَ ﷻ المؤمنينَ بما أقبلَ بأسماعِهم وقلوبِهم إلى النَّبيِّ ﷺ وختمَ بما يوجِبُ لهم الفوزَ بما عندَهُ سبحانَهُ، وكانَ مُعظمُ ذلكَ لهُ ﷺ؛ إذ هو رأسُ المؤمنينَ - نوَّهَ بهِ ﷺ بخطابِهِ بما في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ[1].

وقيل: لمّا بيَّنَ سبحانَهُ أنَّهُ أخرجَ المؤمنينَ مِنَ الظُّلماتِ إلى النّورِ برحمتِهِ، وبسببِ دعاءِ الملائكةِ واستغفارِهم؛ أشارَ إلى رحمتِهِ للمؤمنينَ بإرسالِ النّبيِّ ﷺ[2].

وفي هذينِ الوجهيْنِ نظرٌ لمناسبةِ الآيتيْنِ للآياتِ القريبةِ منهما.

ذِكْرُ علاقةِ النَّبيِّ ﷺ معَ الخَلْقِ بعدَ ذِكْرِ علاقتِهِ معَ ربِّهِ وأهلِهِ

وقيل: بعدَ أنْ ذَكَرَ ﷻ في أوّلِ السّورةِ ما يتعلّقُ بعلاقةِ النَّبيِّ ﷺ معَ ربِّهِ، بنهيِهِ عن طاعةِ الكافرينَ والمنافقينَ، وذكرَ ما ينبغي أنْ يكونَ عليهِ النَّبيُّ معَ أهلِهِ؛ ذكرَ ما ينبغي أنْ يكونَ عليهِ معَ الخلقِ كافَّةً[3]، وفي هذا الوجهِ نظرٌ إلى مناسبةِ الآيتيْنِ لآياتٍ بعيدةٍ منهما.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 371.
(2) زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 645.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 173.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَٰهِدًا﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على الحضورِ والعِلمِ والإعلامِ[1]، والأصلُ فيه أن يكون بالمشاهَدة، فالشُّهودُ والشَّهادةُ: الحضورُ معَ المشاهَدةِ؛ إمّا بالبصرِ، أو بالبصيرةِ[2]، والشَّهادةُ أيضًا: قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حصلَ بمشاهَدةِ بصيرةٍ أو بصرٍ[3]، والمُرادُ بكونِ النَّبيِّ ﷺ شاهدًا: أنّه مُخبرٌ عن أحوالِ أمَّتِه وأحوالِ الأمم السّابقة، ومهيمنٌ على الشَّرائع السّابقةِ، يشهدُ بصحَّةِ ما هو صحيحٌ مِنَ الشَّرائع، وبقاءِ ما هو صالحٌ للبقاءِ منها، ويشهدُ ببطلانِ ما أُلصِقَ بها، وبنسخِ ما لا ينبغي بقاؤُهُ مِنْ أحكامِها.

2) ﴿وَمُبَشِّرًا﴾: (بشر) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ معَ حُسْنٍ وجمالٍ[4]، ومِنْ ذلكَ: البَشَرةُ، وهي ظاهرُ الجِلْدِ، والبِشارةُ مأخوذةٌ مِنْ ذلكَ؛ لأنَّها الإخبارُ بخبرٍ سارٍّ يبسطُ بَشَرةَ الوجهِ، وذلكَ أنَّ النَّفْسَ إذا سُرَّتْ انتشرَ الدَّمُ فيها انتشارَ الماءِ في الشَّجَرِ[5]، والمُرادُ بالمُبشِّرِ هنا: المُخبِرُ بالبُشْرَى والبِشارةِ[6]، والنَّبيُّ ﷺ مُخبرٌ بما فيهِ سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ.

3) ﴿وَنَذِيرًا﴾: (نذر) أصلٌ يدلُّ على تخويفٍ، ومنهُ: الإنذارُ، وهو الإبلاغُ بما فيهِ تخويفٌ[7]، واشتُقَّ منهُ النَّذيرُ والمُنذِرُ، وهو المُخبِرُ بما فيهِ تخويفٌ[8]، وهذا هو المُرادُ هنا؛ فالنَّبيُّ ﷺ مُخبرٌ بالعقوبةِ للَّذينَ يخالفونَ دينَهُ مِنَ الكافرينَ، ومِنْ أهلِ العصيانِ[9].

4) ﴿وَسِرَاجًا﴾: (سرج) أصلٌ يدلُّ على الحُسْنِ والزّينةِ والجمالِ[10]، ومِنْ ذلكَ: السِّراجُ، وهو الزّاهرُ بفتيلةٍ ودُهْنٍ[11]، وقد سُمّيَ بذلكَ لضيائِهِ وحُسْنِه، ويُعبَّرُ بهِ عن كلِّ مُضيءٍ[12]، والمُرادُ بكونِ النَّبيِّ ﷺ سراجًا: أنَّهُ قد أضاءَتِ الدُّنيا بما جاءَ بهِ مِنَ الإيمانِ والحقِّ[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (شهد).
(3) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (شهد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).
(5) الرَّاغب، المُفردات: (بشر).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 53.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(8) الرَّاغب، المُفردات: (نذر).
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 53.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرج).
(11) الخليل، العين: (سرج).
(12) الرَّاغب، المُفردات: (سرج).
(13) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سرج)، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سرج).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اشتمالُ النّبيِّ ﷺ على أوصافِ الكمالِ

يقولُ اللّهُ تعالى لنبيِّهِ ﷺ: يا محمَّدُ إنّا أرسلناكَ شاهدًا على أمّتِكَ وعلى الأُمَمِ يومَ القيامةِ، ومُبشِّرًا للمؤمنينَ الطّائعينَ بالجنَّةِ، ونذيرًا للكافرينَ والعُصاةِ بالنّارِ، وداعيًا إلى سبيلِ اللّهِ بتوفيقِهِ وتيسيرِهِ، وسراجًا مُنيرًا، تَهدي إلى الحقِّ، وتُزيلُ ظلماتِ الكفرِ والجهلِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ الكريمةِ:

النّبيُّ ﷺ رحمةٌ لكلِّ العالمينَ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ ...، الآية، عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ جيءَ بِهِ للانتقالِ للحديثِ عن إرسالِهِ ﷺ موصوفًا بالأوصافِ الجليلةِ التي هي ثمارُ رحمته ﷺ والَّتي عليها مدارُ صلاحِ النّاسِ بعدَ الحديثِ عن رحمتِهِ سبحانَهُ بالمؤمنينَ، وما أعدَّهُ لهُم مِنَ الثَّوابِ العظيمِ.

بلاغةُ تلوينِ الخطابِ:

تشريفُ النّبيِّ ﷺ بعِزِّ الخطابِ والحضورِ

انتقلَ الأسلوبُ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ مِنْ خطابِ الجماعةِ المؤمنةِ باللّهِ في قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب: 41] إلى خطابِ رأسِ هذهِ الجماعةِ، وهو النَّبيُّ ﷺ؛ لتذكيرِهِ برسالتِهِ في الأرضِ وتحديدِ مهمّاتِهِ[1]، وهذا الانتقالُ تفنُّنٌ في الكلامِ، وفي توجيهِ الخطابِ لهُ ﷺ تشريفٌ لهُ بعِزِّ الخطابِ والحضورِ، وإيقاعٌ لهذهِ الأوصافِ في سمعِهِ، ولينبنيَ على الخطابِ قولُهُ بعدَ ذلكَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ...، الآية.

بلاغةُ الافتتاحِ بالنِّداءِ:

اتّصافُ النّبيِّ ﷺ بالأوصافِ الكاملةِ الرَّفيعةِ

عُبِّرَ بالنِّداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ...، الآية، واستُعمِلَتْ فيهِ (يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ، وجيءَ معَها بهاءِ التَّنبيهِ؛ إشارةً

(1) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 363.

إلى شدَّةِ الاهتمام بالأمرِ الَّذي سيقَ لهُ الكلامُ، وهو التَّنويهُ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ، ووصفُهُ بالأوصافِ الرَّفيعةِ[1]، ولذلكَ نُبِّهَ النَّبيُّ ﷺ ولُفِتَ انتباهُهُ لِما سيُتلَى عليهِ؛ ليتلقّاهُ بنَفْسٍ يَقْظَى.

سرُّ النِّداءِ بوصفِ النُّبوَّةِ دونَ غيرِه:

الـدّلالـةُ على الرِّفعة وعلوِّ المنزلة لاتّصاله بخبر السّماء

نوديَ النَّبيُّ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بوصفِ النُّبوَّةِ دونَ اسمِهِ العلَمِ؛ تشريفًا لهُ ومدحًا بالوصفِ الَّذي هو مَنْبَعُ المعرفةِ والحكمةِ.

ونوديَ بالنُّبوَّةِ دونَ الرِّسالةِ؛ لأنَّ وصفَ الرِّسالةِ بمنزلةِ المذكورِ في الآيةِ بعد وصف النُّبوّة مباشرة؛ إذ يدلُّ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وهو يُشبه في ذلك حديثَ: (وبنبيّك الذي أرسلت)[2]، ولموافقةِ ما في مواضعَ أخرى مِنَ السّورةِ؛ إذِ الغالبُ في هذهِ السّورةِ ذِكْرُ وصفِ النُّبوَّةِ، سواءٌ في النِّداءِ - وقد نوديَ النَّبيُّ ﷺ بهذا الوصفِ خمسَ مرّاتٍ في السّورة - أو في غيرِهِ.

غرضُ الإخبارِ بالإرسالِ:

الرِّسالةُ نعمةٌ عظيمةٌ لا تقلُّ عن نعمةِ النُّبوَّة

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ ... الآية، خبرٌ لا يُرادُ به مُجرَّدُ الإخبارِ؛ لأنَّهُ ﷺ يعلمُ أنَّهُ مُرسَلٌ مِنَ اللهِ تعالى، ولكنَّ المُرادَ بِهِ تأنيسُهُ ﷺ بإجراءِ هذهِ الصِّفاتِ الجليلةِ عليهِ، والامتنانُ عليهِ بها، والتَّمهيدُ لذِكْرِ التَّكليفِ، وتأنيسُ المؤمنينَ والامتنانُ عليهِم أيضًا؛ إذ أُرسِلَ إليهم رسولٌ موصوفٌ بهذهِ الصِّفاتِ الَّتي فيها لهُم خيرٌ عظيمٌ[3]، وبذلك يكون قد جمع بين أعظم وصفيْن، وصفِ النّبوة، ثمّ وصفِ الرِّسالة.

نكتةُ التَّوكيدِ في ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

لا شكَّ في ثبوت الرِّسالةِ

يحتملُ أنْ يكونَ التَّأكيدُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ للرَّدِّ على

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 371، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 52.
(2) أخرجه البخاريّ (247)، ومسلم (2710).
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 389، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 200.

الكافرينَ والمنافقينَ الَّذينَ يُنكرونَ الرِّسالةَ وما تَبِعَها[1]، كما يحتملُ أنْ يكونَ التَّأكيدُ لإظهارِ الاعتناءِ بكونِه ﷺ مُرسَلًا بعد كونه نبيًّا مُرسَلًا مُتَّصفًا بهذهِ الأوصافِ الجليلة، وبيانِ أنَّ رسالتَه منَ اللهِ تعالى بمكانٍ، وفي ذلكَ حثٌّ للمؤمنينَ بل للنّاسِ جميعًا على التَّيقُّظ لمضمونِ الكلام والتَّصديقِ بهِ؛ ليَقْدُروا النَّبيَّ ﷺ حقَّ قَدْرِه، ويَعْلَموا أنَّه نِعْمةٌ عُظمى، ورحمةٌ كُبرى، ينبغي الانتفاعُ بها وعدمُ التّفريط فيها.

وعلى كلٍّ؛ فالتَّوكيدُ حاصلٌ بـ(إنَّ) وبذِكْر ضمير التّعظيم (نا)، وببناءِ المُسنَدِ الفعليِّ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ على المُسنَدِ، وهو (نا) في ﴿إِنَّآ﴾، فيفيدُ الكلامُ نسبةَ الإرسال إلى اللهِ تعالى مرَّتيْن، كأنَّه قيلَ: إنّا أرسلنا لكَ، إنّا أرسلنا لكَ.

سرُّ الإسنادِ في ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

عظَمةُ كلِّ مَن انتسبَ إلى الرِّسالةِ

جيءَ بضميرِ العظَمةِ في قولِه جلَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، ولم يُقَلْ: (إنّي أرسلتُكَ)؛ لتعظيم شأنِ الإرسالِ بأنَّه إرسالُ ذي العظَمة والجلالِ، والمعنى: إنّا أرسلناكَ بعظَمتِنا بما نُنبِّئُكَ بهِ إلى سائرِ خَلْقِنا[2]، وفيه أيضًا تعظيمٌ للمُرسَلِ بأنَّه رسولُ العظيم سبحانَه، ويلزمُ مِنْ ذلكَ تعظيمُ المُرسَلِ إليهم حيثُ أُرسِلَ إليهم هذا النَّبيُّ الباهر الشَّأنِ ﷺ، وينبغي عليهم القيامُ بحقِّ هذهِ الرِّسالةِ؛ لينالوا شرفَ هذا التَّعظيم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

لا عُذرَ لجاحدِ النُّبوَّةِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ إرسالَ النَّبيِّ ﷺ أمرٌ مُتحقِّقٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وفي ذلكَ زيادةُ تأنيسٍ للنَّبيِّ ﷺ وتسليةٌ له، وقطعٌ لأعذارِ الجاحدينَ المُنكرينَ لنبوَّته.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.
(2) البقاعيّ، نَظم الدُّرر: 15/ 372.

علّةُ حذفِ مُتعلَّقِ الإرسالِ:

النّبيُّ مُرسَلٌ لكلّ النّاس

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، تقديرُهُ: إنّا أرسلناكَ لكلّ النّاس، أو إلى كلّ النّاسِ، وقد حُذِفَ مُتعلَّقُ الإرسالِ إيجازًا؛ لكونِهِ معلومًا مِنْ آياتٍ أخرى، كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النساء: 79]، ولأنَّ حذف مُتعلِّقِ الفعل يُفيد العمومَ.

بلاغةُ الحالِ ﴿شَٰهِدٗا﴾:

تشريفُ الشّاهدِ وتخويفُ المشهودِ عليهم

قولُهُ تعالى: ﴿شَٰهِدٗا﴾ حالٌ مِنْ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وهي حالٌ مُقدَّرةٌ؛ لأنَّهُ ﷺ لا يكونُ شاهدًا وقتَ الإرسالِ، وإنَّما يكونُ كذلكَ عندَ تحمُّلِ الشَّهادةِ أو عندَ أدائِها[1]، والمعنى: أرسلناكَ مُقدَّرًا أنْ تكونَ شاهدًا، ويحتملُ أنْ يكونَ وجهُ الحالِ أنَّهُ قد قَرُبَ زمانُ البعثةِ وإيمانِ مَنْ آمنَ وتكذيبِ مَنْ كذَّبَ، وكأنَّ ذلكَ قد وقعَ في زمانٍ واحدٍ[2].

وأيًّا ما كانَ التَّوجيهُ؛ فالإتيانُ بالحالِ بيانٌ لكونِ الشَّهادةِ مِنْ مُقتضَياتِ الإرسالِ، وفي ذلكَ تعظيمٌ لشأنِ المُرسَلِ الشّاهدِ، وتخويفٌ للمشهودِ عليهِم إن لم يُؤمِنوا ويُحسِنوا العملَ، وحثٌّ لهُم على الاستجابةِ وإحسانِ العملِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّهادةِ:

اتِّساعُ المعاني للَّفظة الواحدة في ذاتِها مع عموم مُتعلّقِها

يدلُّ لفظ (شهد) أصالةً على حضورٍ ومشاهَدةٍ بالعين، كما أنَّه يدلُّ تبعًا على علم ناتجٍ عنِ الحضور والمشاهَدة، ويدلُّ كذلك على إعلامٍ دقيقٍ مُنضبطٍ ناتجٍ عن دقّة الرُّؤيا، فكلُّ هذه المعاني دلَّ عليها لفظُ (شهد)، (أرأيت الشمس؟، قال: على مثلها فاشهد أو دع)[3] دلالةٌ على معنيَيْن من هذه المعاني الأربعة، أوّلهما: وضوحُ الرّؤية ودقّتُها عند المشاهَدة، والثّاني: صدقُ الإعلامِ ودقّتُه عند الإخبار.

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 487.

(3) في الحديث عن عبدالله بن عبّاس رضي الله عنهما أنّ النّبيَّ ﷺ قالَ لرجُلٍ: "تَرى الشَّمسَ؟ قالَ: نعَم، قالَ: علَى مثلِها فاشهَد، أو دَعْ"، ينظر: ابن حجر العسقلاني، بلوغ المرام، والحديث إسناده ضعيف.

في التَّعبيرِ بالشّاهدِ أيضًا في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ مبالغةٌ؛ لتعدُّدِ معاني الكلمةِ المحتملةِ في هذا السّياقِ؛ إذ يحتملُ أنْ يكونَ المُرادُ أنَّهُ ﷺ شاهدٌ على مَنْ بُعِثَ إليهِم، وعلى تكذيبِهم وتصديقِهم[1]، أو أنَّهُ شاهدٌ على الخلقِ يومَ القيامةِ أنَّ أنبياءَهم بلَّغوهم، أو أنَّهُ شاهدٌ في الدُّنيا بأحوالِ الآخرةِ مِنَ الجنَّةِ والنّارِ والميزانِ والصِّراطِ، وشاهدٌ في الآخرةِ بأحوالِ الدُّنيا مِنَ الطّاعةِ والمعصيةِ، والصَّلاحِ والفسادِ[2]، أو أنَّهُ شاهدٌ بصحَّةِ ما هو صحيحٌ مِنَ الشَّرائعِ، ويشهدُ ببطلانِ ما أُلصِقَ بها، فيكونُ وصفُ الشّاهدِ أشملَ الأوصافِ المذكورةِ في الآيةِ له ﷺ، بوصفِ كونِه رسولًا لهذهِ الأمَّةِ، وبوصفِ كونِه خاتمًا للشَّرائعِ ومُتمِّمًا لمُرادِ اللّهِ مِنْ بعثةِ الرُّسلِ[3].

النَّـبـيُّ ﷺ شـاهـدٌ، ولا يـشـهـدُ إلّا عن يقينٍ

نكتةُ إطلاقِ الشَّهادةِ:

أُطلِقَتِ الشَّهادةُ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾، ولم يُقَلْ: (شاهدًا على كذا)؛ لتفخيمِ شأنِ الشَّهادةِ؛ لِما يفيدُهُ الإطلاقُ مِنْ تعدُّدِ الاحتمالاتِ وسَعَةِ المعاني كما تقدَّمَ.

نكتةُ تنكيرِ الأحوالِ في الآيةِ الكريمةِ:

تعظيمُ أوصافِ النَّبيِّ ﷺ

تنكيرُ الأحوالِ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا﴾ للتَّفخيمِ، فكلُّ وصفٍ مِنْ هذهِ الأوصافِ عظيمٌ في ذاتِه، ويزيدُهُ التَّنكيرُ فخامةً وتعظيمًا ﷺ.

بلاغةُ تقديمِ الشَّهادةِ:

شـهـادةُ النَّـبـيِّ ﷺ عـن صـدقٍ وأمانةٍ وضَبطٍ

قُدِّمَ الوصفُ بالشَّهادةِ في قولِ اللّهِ عزَّ ذِكْرُهُ: ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ معَ أنَّ أداءَ الشَّهادةِ يكونُ في يومِ القيامةِ؛ لأنَّ تحمُّلَها في الدُّنيا، وللاهتمامِ بها؛ لأنَّها

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 173.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 52.

أقوى في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[1]، وفي تقديمِها إشارةٌ إلى أنَّهُ ينبغي على المُسلِمِ أنْ يراعيَ حُرمةَ هذا الوصفِ فيه ﷺ، ويحرصَ على ألّا يَسوءَهُ بعملِ السَّيِّئاتِ، وفيه أيضًا إشعارٌ بثِقَلِ المسؤوليَّةِ المُلْقاةِ على عاتقِهِ ﷺ؛ إذِ الشّاهدُ مُكلَّفٌ بالصِّدقِ والأمانةِ والتَّحرّي والضَّبطِ.

سرُّ حذف متعلق اسمِ الفاعلِ ﴿شَٰهِدٗا﴾:

شمولُ الشّهادةِ لكلِّ أنواعِها في الحالِ والاستقبالِ

حذف متعلق اسم الفاعل؛ أيْ: وشاهدًا على كلِّ شيءٍ أنت أهلُه، ليشمل اسمُ الفاعل الحالَ والاستقبال في كلِّ مشهودٍ عليه، ولا يبدأ الحالُ من وقت نزول الآية؛ بل يبدأ الحالُ من أوَّل الرِّسالة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾، وبذلك يشمل حياةَ النَّبيّ ﷺ كلَّها، المعتبرةَ بالرِّسالة، والمشرّفةَ بالنّبوّة، ثمّ تمتدّ الشّهادة بعد ذلك إلى يوم القيامة.

بلاغةُ تعدُّد العطفِ:

رسوخُ النَّبيِّ ﷺ في كلِّ وصفٍ مِن هذه الأوصافِ

عُطِفَتِ الصِّفاتُ في قولِهِ تعالى: ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ بعضُها على بعضٍ بالواوِ، ولم يُقَلْ: (شاهدًا مُبشِّرًا نذيرًا داعيًا إلى اللّهِ بإذنِه سراجًا منيرًا...) دونَ عطفٍ؛ لأنَّ المُرادَ الإعلامُ برسوخِ قَدَمِهِ ﷺ في كلِّ صفةٍ منها[2]، كما هو مُقتضَى مقام التَّكريم والتَّشريف، والواوُ تُشعِرُ باستقلالِ كلِّ صفةٍ منها، حتَّى كأنَّ الذّاتَ مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ هذهِ الصِّفاتِ، ولو تُرِكَ العطفُ لربَّما ظُنَّ أنَّ الصِّفاتِ الأخرى تابعةٌ للصِّفةِ الأولى، وليسَتْ مقصودةً لذاتِها.

نكتةُ صيغةِ التَّضعيفِ:

عِظَمُ بِشارةِ النَّبيِّ ﷺ

جيءَ بصيغةِ التَّفعيلِ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾، ولم يُقَلْ: (مُبْشِرًا) معَ صحَّتِهِ؛ إذ يُقالُ: أبشَرْتُهُ، وبَشَرْتُهُ، وبشَّرتُهُ؛ لأنَّ البِشارةَ لها أثرٌ حسنٌ في إقبالِ المدعوِّ، وفي صيغةِ التَّفعيلِ هنا مبالغةٌ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 380.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.

في بِشارتِهِ ﷺ؛ لما في هذهِ الصّيغةِ مِنَ الدَّلالةِ على كثرةِ الفعلِ والمفعولِ، وفي ذلكَ إيذانٌ بكثرةِ التّابعينَ والمُستجيبينَ المُبشَّرينَ[1]، وقد عُرِفَ مِنْ سيرتِهِ ﷺ المبالغةُ في الرَّحمةِ والرِّفقِ بالنّاسِ واللّينِ معَهم، وعدمِ تنفيرِهم مِنَ الدّينِ، وتركِ التَّشديدِ عليهِم، وهكذا ينبغي أنْ يكونَ حالُ العلماءِ والدُّعاةِ إلى اللّهِ مِنْ بعدِهِ.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ التَّبشيرِ:

النَّبيُّ مُبشِّرٌ بالخيرِ لعمومِ المؤمنينَ

قولُهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ معناهُ: ومُبشِّرًا للمؤمنينَ[2]، وقد حُذِفَ مُتعلَّقُ التَّبشيرِ لظهورِهِ، والإيذانِ بأنَّ البشارةَ لا يستحقُّها إلّا المؤمنونَ المستجيبونَ، ولذلكَ لا ينصرفُ الذِّهنُ إلى غيرِهم عندَ الحذفِ، لا سيَّما وقد صُرِّحَ بهذا المحذوفِ في قولِهِ تعالى بعدها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وللإيجازِ المناسبِ لحُسْنِ تتابعِ الأوصافِ المذكورةِ في الآيةِ وتلاحقِها، كما يمكن أن يكون الحذفُ للشُّمول والعموم المُنصرف للمؤمنين، فلا يندُّ أو يخرجُ من أهل الايمان أحدٌ من عموم هذه البُشرى حتى ولو كان عاصيًا.

المعنى المستفاد من إعمال اسمِ الفاعلِ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾:

الإيمانُ بالنَّبيّ ﷺ منذ بدءِ رسالتِهِ

أُعمِل اسمُ الفاعل فنَصَبَ مفعولًا محذوفًا؛ أيْ: ومُبشِّرًا كلَّ المؤمنين بكلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة، وإنّما أُعمل اسمُ الفاعل ليشمل الحال والاستقبال منذ بدء الرّسالة، ولا يكون التّبشير إلّا لأهل الإيمان، فدلّ ذلك على أنّ هناك مَن سيؤمن بالنّبيّ ﷺ منذ نزول الوحي عليه؛ مثل: خديجةَ، وورقةَ بنِ نوفل، وأبي بكر الصِّدّيق، وعليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنهم، حتى يتحقَّق التَّبشير منذ بدء الرِّسالة لهؤلاء المؤمنين، ويمتدَّ التَّبشير في المستقبل، ليشمل كلَّ المؤمنين بعد ذلك.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 36، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 380.

التَّبشيرُ غالبٌ على الإنذارِ

سرُّ تقديمِ البِشارةِ على النِّذارةِ:

قُدِّمَ التَّبشيرُ على الإنذارِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾؛ لإظهارِ شرفِ التَّبشيرِ واستحقاقِهِ التَّقديمَ[1]، وبيانِ عُلوِّ درجةِ المؤمنينَ المُبشَّرينَ بتقديمِ ما يتعلَّقُ بهم، ولأنَّ التَّبشيرَ هو المقصودُ الأصليُّ؛ فالنَّبيُّ ﷺ قد غلبَ عليهِ التَّبشيرُ؛ لأنَّهُ رحمةٌ مُهْداةٌ للعالمينَ[2]، ولكثرةِ عددِ المؤمنينَ في أُمَّتِهِ[3]، فهم بمنزلةِ الأصلِ، وأمّا الخارجونَ عن الطّاعةِ فهم خارجونَ عنِ الأصلِ، يُضافُ إلى ذلكَ ما في تأخيرِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ مِنْ مراعاةِ تلاؤمِ الفواصلِ[4].

القرآنُ موجَّهٌ في الأصلِ إلى أهلِ الإيمانِ

والمُلاحَظُ أنَّ التّبشير مُقدَّمٌ على الإنذار في كلِّ السّوَر المدنيَّة؛ لأنَّ القرآن موجَّهٌ في الأصل إلى أهل الإيمان وهم كُثُرٌ، بينما السّوَرُ المكّيّة يُقدَّم التّبشيرُ فيها تارةً والإنذارُ فيها أخرى لقلّة أهل الإيمان، فهم مع قلّتهم لقوّة إيمانهم أعظمُ منَ الكثرة الكافرة.

عمومُ الإنـذارِ للـكـافـريـنَ والعاصينَ

سرُّ اختيارِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ دونَ (ومُنذِرًا):

جيء باسم المصدر ﴿وَنَذِيرًا﴾ بدلًا من اسم الفاعل (منذرًا) للمبالغة في الوصف، مثل: رجلٌ عدلٌ، وكأنَّ اللّه ﷻ يريد أن يقول إنّه ﷺ مُنذِرٌ بذاته وإن لم يُباشِرِ الإنذارَ بلسانه، منذرٌ بالوحي الذي أوحاه اللّه إليه حين يقرأه المؤمنون وإن لم يقرأه هو منذرًا به ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19]، فكلُّ مَن بلغه القرآن أنذره النَّبيُّ ﷺ به، ووجب عليه أن يُنذِر به مَن بعده.

كَـثُرَ في القـرآنِ الوصفُ بالنَّذيرِ، وقـلَّ الـوصـفُ بالمُنذِرِ

وعُدِلَ إلى صيغةِ المبالغةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَذِيرًا﴾، ولم يُقَلْ: (ومُنذِرًا) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لعمومِ الإنذارِ للمؤمنينَ العاصينَ والكافرينَ[5]، وذلكَ يستدعي المبالغةَ المُستلزمةَ للتَّكثيرِ، ولأنَّ الإنذارَ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 380.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 176.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 53.
(4) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 8/ 184.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 176، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 223.

أبلغُ في ردِّ المخالفِ وردْعِه[1]، ولأنَّهُ أُريدَ بالنَّذيرِ الاسمُ، وهو المُخبِرُ بحلولِ العدوِّ بديارِ القومِ، ومِنْ أمثالِ العربِ: أنا النَّذيرُ العُرْيانُ؛ أي: الآتي بخبرِ حلولِ العدوِّ بديارِ قومٍ، والمُرادُ بالعُرْيانِ أنَّهُ ينزعُ عنهُ قميصَهُ ليُشيرَ بهِ مِنْ مكانٍ مرتفعٍ، فيراهُ مَنْ لا يسمعُ صوتَهُ، فالوصفُ بالنَّذيرِ تمثيلٌ بحالِ نذيرِ القومِ؛ للإيماءِ إلى تأكيدِ ما أنذرَهم بهِ، حتَّى كأنَّ المُخبِرَ عنهُ مُخبرٌ عن أمرٍ قد وقعَ، وهذا لا يُؤدّيهِ إلّا اسمُ (النَّذيرِ)، ولذلكَ كَثُرَ في القرآنِ الوصفُ بالنَّذيرِ، وقلَّ الوصفُ بالمُنذرِ[2].

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ النِّذارةِ:

النَّـبـيُّ نـذيـرٌ لـلـكـافـريـنَ والعُصاةِ

من فوائد حذفِ متعلّقِ الفعل وما يقوم مقامه عند البلاغيين إرادةُ العمومِ؛ أيْ: نذيرًا لكلِّ النّاس مؤمنِهم وكافرِهم، أمّا مؤمنُهم فليَتوازنَ حالُه بين التّبشيرِ والإنذار، بين الرّغبة والرّهبة ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: 90]، فبُشراهُم الجنّةُ، ونُذرانهم النّارُ، وأمّا الكفّار فلا بُشرى لهم إذا ظلّوا معاندين جاحدين وماتوا على الكفر، والذي يؤكّدُ هذا العمومَ مجيءُ المفعول به بلفظ (النّاس) في بعض آيات القرآن الكريم ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ [يونس: 2][3]، كما حُذِفَ مُتعلَّقُ الإنذارِ لظهورِه، وللإيجازِ المناسبِ لحُسْنِ تتابعِ الصِّفاتِ المذكورةِ في الآيةِ الكريمةِ وتلاحُقِها، ولمراعاةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

بلاغةُ الطِّباقِ:

إحسانُ النَّبيِّ ﷺ لـلـنّـاسِ جميعًا

في الجمعِ بينَ المُبشِّرِ والنَّذيرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ رِعايةُ مُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، إذ يرسمُ الكلامُ صورتَيْنِ متقابلتَيْنِ؛ إحداهما صورةُ تبشيرِهِ ﷺ للمؤمنينَ، والأخرى صورةُ إنذارِهِ للكفرةِ والعُصاةِ، وفي ذلكَ دليلٌ على أنَّ فضلَهُ سابغٌ على

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 53.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 331.

النّاسِ جميعًا مؤمنِهم وكافرِهم؛ لأنَّ إنذارَ الكافرينَ والعُصاةِ رحمةٌ بهم؛ لصرفِهم عنِ الضَّلالِ إلى الهدى، وعنِ العصيانِ إلى الطّاعةِ، ويُستفادُ مِنْ ذلكَ أنَّ على الدّاعيةِ إلى اللهِ سبحانَهُ أنْ يمزجَ بينَ التَّبشيرِ والإنذارِ باستعمالِ كلٍّ منهما في مقامِهِ اللّائقِ بهِ.

نكتةُ صيغةِ (فاعلٍ):

مطابقةُ الدَّعوةِ لمُقْتضَى الحالِ

جيءَ بصيغةِ (فاعلٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَدَاعِيًا﴾ دونَ مبالغةٍ؛ لأنَّهُ شاملٌ للتَّبشيرِ، والإنذارِ، والإخبارِ بالقصصِ والأمثالِ، وذِكْرِ الأحكامِ والحدودِ، ونحوِ ذلكَ، والمأمورُ بهِ في كلِّ ذلكَ الإبلاغُ بقدرِ الحاجةِ بمبالغةٍ أو غيرِها[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بلفظِ الدّعوةِ:

الاهتمامُ والتّبجيلُ والتّوقيرُ والخصوصيّةُ

الدّعوةُ إنّما تكون لِما فيه مصلحةُ المدعوِّ، وأكثرُ ما تكون إلى الطّعامِ، وغالبًا ما يكون فيها نوعٌ منَ الاهتمامِ، فيرسلُ الأفرادُ إلى المدعوّين بدعواتٍ خاصّةٍ أو عامَّةٍ، شفاهةً أو مع رسائلَ مكتوبةٍ، ولا يكاد يتخلّف عن هذه الدّعوة أحدٌ؛ لأنّها دعوةٌ إلى شيءٍ يشتهيه المدعوُّ ويُحبُّه، فعبّر بلفظ (الدّعوة) ترغيبًا للمدعوّين وطمعًا في إيجاب الدّعوة.

الدَّعوةُ تشتملُ على أصولِ الاعتقادِ

أصلُ قولِهم: دعاهُ إلى فلانٍ: أنَّهُ دعاهُ إلى الحضورِ عندَهُ، واللّهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن جهةٍ يحضرُها النّاسُ عندَهُ، فتعيَّنَ أنَّ معنى الدُّعاءِ إليهِ في قولِهِ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ الدُّعاءُ إلى تركِ عبادةِ غيرِهِ، فيشملُ هذا الوصفُ أصولَ الاعتقادِ في الإسلامِ ممّا يتعلَّقُ بصفاتِ اللّهِ؛ لأنَّ دعوةَ اللّهِ دعوةٌ إلى معرفتِهِ، وما يتعلَّقُ بصفاتِ الدُّعاةِ إليهِ مِنَ الأنبياءِ والرُّسلِ والكُتُبِ المُنَزَلةِ عليهم[2].

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَدَاعِيًا﴾:

النَّبيُّ يدعو كلَّ النّاسِ إلى عبادةِ اللهِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿وَدَاعِيًا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 372.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 54.

التَّعميم؛ أيْ: وداعٍ كلَّ أحدٍ إلى اللّهِ، وهذا شأنُ الدّاعيةِ إلى اللّهِ، يحبُّ الخيرَ والهدايةَ للنّاسِ جميعًا، ولا يختصُّ بذلكَ قومًا دونَ قومٍ بناءً على عِرْقٍ أو لونٍ أو جنسٍ.

دلالةُ حرفِ الجرّ في ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾:

غايةُ الدَّعوةِ هي اللهُ

أفاد حرفُ الجرِّ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ انتهاءَ الغايةِ المكانيَّةِ مجازًا، وهو يفيدُ أنَّ غايةَ الدَّعوةِ هي إيصالُ الخلقِ إلى خالقِهم، وهدايتُهم إليه، ولذلكَ استحقَّتْ أنْ تُذكَرَ في سياقِ الامتنانِ والتَّشريفِ والتَّنويهِ بشأنِ النَّبيِّ الدّاعي ﷺ.

نكتةُ الالتفاتِ في ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾:

عظَمةُ الدَّعوةِ بعظَمةِ المدعوِّ إليهِ

التُفِتَ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ في قولِه تعالى ذِكرُهُ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يُقلْ: (وداعيًا إلينا بإذنِنا)؛ لِما في التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ مِنْ بيانِ موجَبِ الدَّعوةِ، وتعيينِ المدعوِّ إليهِ الحقِّ الَّذي تجبُ عبادتُه، ولا ينبغي أنْ يُدعَى إلى غيرِه، ولِما في ذِكْرِ لفظ الجلالة من تربية المهابة في القلوب لإيقاظِ دواعي الامتثالِ للعظيم الَّذي لا عظيمَ فوقَهُ؛ فهو القادرُ على الانتقامِ ممَّنْ خالفَهُ وعصاهُ وعبدَ غيرَهُ.

بلاغةُ التَّقييدِ بـ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

النَّبيُّ يدعو إلى ربِّهِ لا إلى نفسِهِ

قُيِّدَتِ الدَّعوةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ بكونِها إلى اللّهِ، ولم يُقلْ: (وداعيًا) بإطلاقٍ كما في باقي الصِّفاتِ؛ لزيادةِ التَّصريحِ بكونِ المدعوِّ إليهِ هو اللّهَ تعالى، وذلكَ أنسبُ بسياقِ الحثِّ على التَّوحيدِ، فهو ﷺ يدعو الخلقَ إلى ربِّهم، والدّاعي الَّذي يدعو إلى مِثْلِ ذلكَ جديرٌ بأن يُستجابَ لهُ، فهو لا يدعو إلى نفسِهِ وأفكارِه، كما هو شأنُ أصحابِ الفلسفاتِ والعقائدِ؛ لأنَّ ذلكَ استبدادٌ وتسلُّطٌ[1].

بلاغةُ الباءِ في ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾:

قد تكون الباءُ للمُلابسة أوِ المُصاحبة، أوِ الاستعانة أوِ السّببيّة،

(1) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 365.

تنوُّعُ المعاني واتّساعُها تبعًا لتنوُّع معاني الباء

على خلافٍ بين العلماء في بعض هذه المعاني؛ أيْ: مُلتبسًا بإذنه ومُصاحبًا له، ومستعينًا به ﷻ، إذ هو المُرسِلُ الآذِنُ صاحبُ الإذن، ثمّ إنّي ما دعوتُ إلى اللّه من قِبَلِ نفسي، إنَّما دعوتُه بسبب إذنه الذي أذِن لي به في الدَّعوة إليه.

بلاغةُ المجازِ في الإذنِ:

الدَّعوةُ مرهونةٌ بتيسيرِ اللهِ

الإذنُ بالدَّعوةِ إلى اللّهِ مُستفادٌ مِنْ قولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، فلا يكونُ الإذنُ في قولِه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ محمولًا على حقيقتِه؛ لئلّا يلزمَ التَّكرارُ غيرُ المفيدِ؛ بل هو مجازٌ عنِ التَّسهيل والتَّيسيرِ[1]؛ لأنَّ مَنْ أُذِنَ لهُ في أمرٍ يَسْهُلُ عليهِ الدُّخولُ فيه، لا سيَّما إذا كانَ الآذِنُ هو اللّه تعالى؛ لأنَّهُ إذا أذِنَ في شيءٍ هيَّأ أسبابَهُ[2]، وهذا المجازُ مُرسَلٌ[3].

سرُّ التَّقييدِ بالإذنِ:

لا تُثمِرُ الدَّعوةُ إلّا بتيسيرِ اللهِ وتوفيقِهِ

قُيِّدَتِ الدَّعوةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ بالإذنِ دونَ باقي الصِّفاتِ؛ إشارةً إلى أنَّ دعاءَ المشركينَ إلى التَّوحيدِ أمرٌ في غايةِ الصُّعوبةِ، لا يتأتَّى إلّا إذا سهَّلَهُ اللّهُ ويسَّرَهُ[4]، وفي ذلكَ تنبيهٌ لكلِّ داعٍ إلى أنَّهُ لا فضلَ لهُ على اللّهِ بالدَّعوةِ إليهِ؛ بلِ اللّهُ هو المُتفضِّلُ عليهِ؛ إذ جعلَهُ في زُمْرةِ الدُّعاةِ إلى الحقِّ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نجاحَ دعوةِ الدّاعي إنَّما يكونُ بتوفيقِ اللّهِ وفضلِه، فينبغي أنْ يُسنِدَ الفضلَ إليه، وأنْ يتَّكلَ عليه، لا على براعتِهِ وحِذْقِه في الدَّعوةِ؛ فإنَّ مفاتيحَ القلوبِ بيدِ اللّهِ وحدَهُ.

على قدْرِ الصِّدقِ تأتي المعونةُ

وفي التَّقييدِ مَلْمَحٌ آخرُ بليغٌ، وهو أنَّ اللّهَ أرسلَ نبيَّهُ داعيًا إليهِ، ويسَّرَ لهُ الدَّعوةَ إليهِ معَ ثِقَلِ أمرِها[5]، فيؤخذُ مِنْ ذلكَ أنَّ كلَّ داعيةٍ إلى اللّهِ ﷻ صادقٍ في ابتغاءِ وجهِ اللّهِ مُعانٌ.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 381.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 176.
(3) القُونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 381.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 546، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 234.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 54.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَسِرَاجًا﴾:

إتمامُ الدَّعوةِ بالبراهين والأدلَّةِ

في عطفِ قولِهِ تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ على ما قبلَهُ مناسبةٌ لطيفةٌ، وهي أنَّهُ لمّا كانَ الدّاعي إلى اللهِ تعالى يلزمُهُ النّورُ لتظهرَ الأدلَّةُ قالَ تعالى: ﴿وَسِرَاجًا﴾؛ ليفيدَ أنَّ ذلكَ حاصلٌ[1].

وأيضًا الوصفُ بالسِّراجِ يشملُ ما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ منَ البيانِ والإيضاحِ، وكشفِ ما كانَ في الأديانِ منَ التَّبديلِ والتَّحريفِ، فشملَ ما في الشَّريعةِ منْ أصولِ الاستنباطِ والتَّفقُّهِ في الدّينِ، وهذا وصفٌ شاملٌ لجميعِ الأوصافِ الَّتي وُصِفَ بها آنفًا، فهو كالفذلكةِ وكالتَّذييلِ[2].

بلاغةُ التَّشبيهِ بالسِّراجِ:

النَّبيُّ يُضيءُ طريقَ الحقيقةِ

السِّراجُ المنيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ مُشبَّهٌ بهِ، والمُشبَّهُ هو الكافُ في ﴿أَرْسَلْنَكَ﴾، ويحتملُ هذا التَّشبيهُ أنْ يكونَ منَ التَّشبيهِ المُركَّبِ العقليِّ؛ شُبِّهَ ﷺ بالسِّراجِ المنيرِ في كونِهِ قد جُلّيَتْ بهِ الظَّلماءُ، وهُديَ بهِ الضّالّونَ، ويحتملُ أنْ يكونَ منَ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ، وهو أنْ يكونَ الوجهُ مُنتزَعًا منْ عدَّةِ أمورٍ مُتوهَّمةٍ[3].

وعلى الاحتمالَيْنِ يكونُ في الكلامِ مبالغةٌ في وصفِ هدايتِهِ ﷺ، فهو يُضيءُ طريقَ الحقيقةِ، ويكشفُ الدُّروبَ الَّتي يمكنُ أنْ تَضِلَّ في متاهاتِها أقدامُ المُفكِّرينَ، وهو يُخلِّصُ النّاسَ منْ حَيْرةِ البحثِ عنِ الطَّريقِ الَّذي يقيمونَ عليهِ أمرَ دينِهم ودنياهم[4].

لطيفةُ اختيارِ السِّراجِ دونَ الشَّمسِ:

الصَّحابةُ حاملو لواءِ الهدايةِ بعدَ النَّبيِّ ﷺ

عُبِّرَ بالسِّراجِ دونَ الشَّمسِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ معَ أنَّها أشدُّ إضاءةً؛ للتَّنبيهِ على لطيفةٍ، وهي أنَّ نورَ الشَّمسِ لا يُؤخذُ منهُ شيءٌ، والسِّراجَ يؤخذُ منهُ أنوارٌ كثيرةٌ، فإذا انطفأ الأوَّلُ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 373.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 54.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 445.

(4) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 366.

يبقَى الَّذي أُخِذَ منهُ، وكذلكَ ينوبُ عنِ النَّبيِّ ﷺ الصَّحابةُ الَّذينَ أخذوا منهُ نورَ الهدايةِ(1).

فائدةُ الوصفِ بالمُنِير:

سراجُ الهدايةِ لا يُؤذي ولا يُطفأُ

عبَّر البيانُ الإلهيّ عنِ الشَّمس بالسِّراج؛ لأنَّ فيها نارًا ونورًا، يستدفئون بنارها، ويستضيئون بنورها وإن بعُدت، ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣﴾ [النَّبأ: 13]، ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ [نوح: 16]، فلما وصف النَّبيَّ ﷺ هاهنا بالسِّراج، احترز من أن يُفهم من لفظ السِّراج أيُّ نوع منَ الأذى ناتج عن نار السِّراج، فيتبادر إلى الأذهان أنّه سراجٌ مشتعلٌ وهّاجٌ، يُؤذي وتشتدُّ إضاءته مع أذاه، فاحترز بقوله: ﴿مُّنِيرٗا﴾ عن أن يُفهم شيءٌ من ذلك، وأبقى الوصفَ بالسِّراج ليدلَّ على شدَّةِ الإضاءة والإنارة بلا أدنى أذًى.

ووُصِفَ السِّراجُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ بكونِهِ مُنيرًا، معَ أنَّ الإنارةَ مِنْ لوازم السِّراجِ؛ لأنَّ مِنَ السِّراجِ ما لا يُضيءُ إذا قلَّ دُهْنُهُ، ودقَّتْ فتيلتُهُ(2)، وفي ذلكَ مبالغةٌ في إنارةِ السِّراجِ المشبَّهِ به هُدى النَّبيِّ ﷺ، وهو كوصفِ الشَّيءِ بالوصفِ المُشتقِّ مِنْ لفظِهِ، كقولِهم: شِعْرٌ شاعرٌ؛ لإفادةِ قوَّةِ معنى الاسم في الموصوفِ بهِ الخاصِّ؛ فإنَّ هُدى النَّبيِّ ﷺ أوضحُ الهُدى، وإرشادَهُ أبلغُ الإرشادِ(3).

سرُّ ترتيبِ الصِّفات:

تدرُّجُ النَّبيِّ ﷺ في هدايةِ النّاسِ

في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ ترتيبٌ حسنٌ للأوصافِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُرسِلَ شاهدًا بالتَّوحيدِ، ويُرغِّبُ في ذلكَ بالبِشارةِ، فإنْ لم يكفِ ذلكَ يُرهِبُ بالإنذارِ، ثمَّ لا يكتفي بقولِهم:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 174، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 373.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 547، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 201.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 55.

لا إلهَ إلّا اللّهُ؛ بل يدعوهم إلى سبيلِ اللّهِ مُبرهِنًا على ما يقولُ بالحُجَجِ النَّيِّرةِ[1].

نكتةُ الاقتصارِ على الأوصافِ الخمسةِ:

مجامعُ الرِّسالةِ في الأوصافِ المذكورةِ

ذُكِرَ للنَّبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ خمسةُ أوصافٍ، وهي: شاهدٌ، ومُبشِّرٌ، ونذيرٌ، وداعٍ إلى اللّهِ، وسراجٌ مُنيرٌ، واقتُصِرَ عليها مِنْ بينِ أوصافِهِ الكثيرةِ؛ لاشتمالِها على مجامعِ الرِّسالةِ المحمَّديَّةِ[2].

المتشابهُ اللَّفظيُّ:

في سورةِ الفتحِ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ [الفتح: 8 - 9]، ولم يَقلْ هناكَ كما قالَ هنا: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾؛ لأنَّ آيةَ الفتحِ ليسَتْ في سياقِ الكلامِ عنِ الدَّعوةِ، وإنَّما هي في سياقِ الكلامِ عنِ القتالِ والبيعةِ والفتحِ عليهِ، فقد قالَ سبحانَهُ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح: 9]، ومِنْ معاني التَّعزيرِ الإعانةُ والنُّصرةُ بالسَّيفِ، وقالَ بعدَها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، ويستمرُّ الكلامُ في هذا السّياقِ إلى آخرِ السّورةِ، وأمّا آيةُ الأحزابِ فهي في سياقِ التَّبليغِ، فقد قالَ سبحانَهُ قبلَ هذهِ الآيةِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾ [الأحزاب: 39][3].

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

البعثُ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ

يشتركُ الإرسالُ والبعثُ في مَلْمَحٍ دلاليٍّ عامٍّ، وهو توجيهُ الشَّيءِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، ويفترقانِ بأنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 173.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 52.
(3) السّامرّائيّ، مراعاة المقام في التّعبير القرآنيّ، ص: 50.

والإيقاظِ والإثارةِ، كبعثِ البعيرِ مِنْ مكانِهِ، والإرسالَ يتميَّزُ بملْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلّا في المواضعِ الَّتي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)؛ نحوُ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل: 3][1].

(1) محمد داود، معجم الفروق، ص: 136 - 137.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾ [الأحزاب: 47 - 48]

مُناسَبةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تحقيقُ مضامينِ الصِّفاتِ السّابقةِ للنَّبيِّ ﷺ

لمّا ذكرَ ﷻ أنّه أرسلَ نبيَّه ﷺ مُتَّصفًا بتلكَ الصِّفاتِ الجليلةِ ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾؛ أمرَ بتطبيقِ ثمراتِها عليها فقالَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ... الآية[1]، فهذا جزاءٌ لهؤلاء المؤمنين على ما قدَّموا.

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى؛ فهي أنَّهُ ﷻ لمّا أمرَ نبيَّهُ ﷺ بما يَسُرُّ؛ نهاهُ عمّا يَضُرُّ، فقالَ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضۡلٗا﴾: (فضل) أصلٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ[3]، ومِنْ ذلكَ: الفَضْلُ، وهو الزّيادةُ والخيرُ، والإفضالُ: الإحسانُ، ومنهُ يُقالُ: رجلٌ مُفْضِلٌ[4]، وأمّا المُتفضِّلُ فهو المُدَّعي للفَضْلِ على أقرانِهِ[5]، والمُرادُ بالفضلِ هنا: الثَّوابُ.

2) ﴿أَذَىٰهُمۡ﴾: (أذي) أصلٌ يدلُّ على الشَّيءِ المكروهِ[6]، ومِنْ ذلكَ: الأذَى، وهو الضَّرَرُ الحاصلُ في النَّفسِ أوِ الجسمِ[7]، والمرادُ بالأذى هنا: الضَّرَرُ الحاصلُ لهُ ﷺ مِنْ أقوالِهم وأفعالِهم[8].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 488، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 373.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 374، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 331.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فضل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(5) الرّاغب، المُفردات: (فضل)، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (فضل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(7) الرّاغب، المُفردات: (أذي).
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 547.

3) ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ ﴿وَكِيلًا﴾: جذرُ هذهِ الكلمةِ: (وكل)، وهو أصلٌ يدلُّ على الاعتمادِ على الغيرِ[1]، ومِنْ ذلكَ: التَّوكيلُ، وهو أنْ تعتمدَ على غيرِكَ وتجعلَهُ نائبًا عنكَ[2]، والتَّوكُّلُ على اللّهِ: الاعتمادُ عليهِ، وتفويضُ التَّدبيرِ إليهِ[3]، والمُرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: اعتمِدْ عليهِ، وفوِّضِ الأمرَ إليهِ، وقولُهُ: ﴿وَكِيلًا﴾؛ أيْ: مُتولّيًا أمورَ خلقِهِ وحافظًا لها[4]؛ فإنَّ الوكيلَ هو مَنْ يُعتمَدُ عليهِ في الأمورِ المُهِمَّةِ[5].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

عنايةُ اللهِ تعالى بالنَّبيِّ والمؤمنينَ وكفايتُهم عدوَّهم

وبشِّرْ - يا محمَّدُ - أهلَ الإيمانِ والتَّوحيدِ بأنَّ لهُم ثوابًا عظيمًا بإدخالِهم الجنَّةَ وتضعيفِ حسناتِهم أضعافًا كثيرةً، ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقينَ، ولا تسمَعْ لأقوالِهم الَّتي تدعوكَ إلى التَّقصيرِ في تبليغِ ما أُرسِلْتَ بهِ، وأعرِضْ عن أذاهم لكَ في شخصِكَ، واصبِرْ عليهِ، ولا يَمْنَعْكَ ذلكَ عن القيامِ بما أُمِرْتَ بهِ، وفوِّضِ الأمرَ والتَّدبيرَ إلى اللّهِ، وثِقْ بهِ؛ فإنَّهُ يكفيكَ كلَّ شيءٍ، وحَسْبُكَ باللّهِ قيِّمًا بأمورِكَ، وحافظًا لكَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ ﴿وَبَشِّرِ﴾:

عظيمُ عنايةِ اللهِ بالنّبيِّ ﷺ وبالمؤمنينَ معه

قولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفٌ بحسَبِ الظّاهرِ على جملةِ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾، وبينَهما كمالُ الانقطاعِ لاختلافِهما خبرًا وإنشاءً، لفظًا ومعنًى، وذلكَ يوجِبُ الفصلَ، فتُحمَلُ الواوُ هنا على أنَّها عطفَتْ جملةَ بشارةِ المؤمنينَ - أي: قصَّةَ هذهِ البِشارةِ - على جملةِ إرسالِهِ ﷺ شاهدًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا، فيكونُ مِنْ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ[6]، وليسَ عطفًا لجملةٍ مُعيَّنةٍ على جملةٍ مُعيَّنةٍ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل)، والزّبيديّ، تاج العروس: (وكل).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (وكل).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 58.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 390.
(5) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وكل).
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 224.

فيُطلَبَ معَهُ التَّناسبُ بينَ الجملتَيْن في الخبريَّةِ والإنشائيَّةِ، وفي الانتقالِ مِنَ الخبرِ إلى الإنشاءِ لَفْتٌ وإثارةٌ، وتنبيهٌ على عظيمِ عنايةِ اللّهِ بالمؤمنينَ وبسَوْقِ البُشرى الَّتي تسرُّ قلوبَهم، وعظيمِ كرامتِهم عندَهُ[1].

ويحتملُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَبَشِّرِ﴾ معطوفًا على إنشاءٍ مُقدَّرٍ يقتضيهِ سياقُ الكلامِ، كأنَّهُ قيلَ: إنّا أرسلناكَ شاهدًا ومُبشِّرًا فاشهَدْ وبشِّرْ[2]، أو: فراقِبْ أحوالَ أمَّتِكَ وبشِّرِ المؤمنينَ منهُم[3]، وفي العطفِ عنايةٌ بكونِ البشارةِ واردةً بعدَ معرفتِهِ ﷺ بأحوالِ أُمَّتِهِ ومَنْ يستحقُّ البشارةَ منهُم ومَنْ لا يستحقُّها.

بلاغةُ الأمرِ ﴿وَبَشِّرِ﴾:

أُمِرَ بالتَّبشيرِ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ إيناسًا للمؤمنينَ بسلامةِ الطَّريقِ الَّذي يسلكونَهُ؛ لأنَّهم يستنيرونَ بهدايةِ النَّبيِّ ﷺ، ويقفونَ عندَ حدودِ اللّهِ سبحانَهُ، وإدخالًا للفرحِ والسُّرورِ على قلوبِهم، وحثًّا لهُم على الاستزادةِ مِنَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ؛ لأنَّ السّالكَ في الطَّريقِ إذا علمَ سلامتَهُ، وتيقَّنَ أنَّهُ بالغٌ نهايتَهُ، زادَ نشاطُهُ في المسيرِ.

السّالك إذا أيقن بالسَّلامة نشطتْ هِمَّتُهُ في المَسيرِ

نكتةُ صيغةِ التَّفعيل ﴿وَبَشِّرِ﴾:

جيءَ بصيغةِ التَّفعيلِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على مزيدِ الاعتناءِ بالبشارةِ، والحثِّ على الإكثارِ منها؛ لأنَّ السّائرَ في طريقِ الحقِّ يتعرَّضُ للفتَنِ والمِحَنِ والابتلاءاتِ مِنْ أعداءِ الدّينِ، والبشارةُ ممّا يقوّي عزمَهُ على المسيرِ والاستقامةِ.

تثبيتُ السّائرينَ في طريقِ الحقِّ

نُكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَبَشِّرِ

أهلُ البِشارةِ هم أصحابُ الإيمانِ الرّاسخِ

(1) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 366.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 174.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 234، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 108.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ ثباتِ الإيمانِ واستقرارِهِ، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ المأمورَ بتبشيرِهم هم أهلُ الإيمانِ الرّاسخ الَّذينَ خالطَتْ بشاشةُ الإيمانِ قلوبَهم، وصحَّ لهُم هذا الوصفُ[1]، حتَّى امتزجَ بدمائِهم وعُروقِهم، وصارَ سَجيَّةً فيهم.

دلالةُ الباءِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِأَنَّ﴾:

قــوَّةُ تـعـلُّـقِ الـبِـشـارةِ بالمُبَشَّرِينَ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ للتَّعديةِ؛ لأنَّ فعلَ التَّبشيرِ يتعدَّى بها غالبًا، فتفيدُ تقويةَ العاملِ، وقد تُحذَفُ أحيانًا إيجازًا، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ [البقرة: 25].

نكتةُ التَّوكيدِ في الآيةِ الكريمةِ:

بشارةُ المؤمنينَ حاصلةٌ لا ريبَ

جيءَ بقولِهِ تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ مُصدَّرًا بالتَّوكيدِ؛ لإظهارِ الاعتناءِ بمضمونِهِ تكريمًا للمؤمنينَ، ولتقويةِ أثرِ البِشارةِ في نفوسِهم؛ لأنَّ مقامَ التَّبشيرِ مقامُ وعدٍ بعطاءٍ، وهو مِنْ مَحازِّ استعمالِ التَّوكيدِ؛ ليتيقَّنَ المُبشَّرُ بحصولِ المُبشَّرِ بهِ، ويزدادَ سرورُهُ الَّذي هو غرضُ البِشارةِ.

دلالةُ اللّامِ في ﴿بِأَنَّ لَهُم﴾:

اســتــحــقــاقُ المؤمنينَ للمُبشَّرِ بِهِ واختصاصُهم بِهِ

اللّامُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ للاستحقاقِ، وهي تفيدُ أنَّ المُبشَّرَ بهِ مُستحَقٌّ للمؤمنينَ تفضُّلًا منهُ سبحانه وتعالى، جزاءً لهُم على إيمانِهم، وفيها أيضًا دلالةٌ على اختصاصِ الفضلِ الكبيرِ بهِم، وأنَّهُ لا يتجاوزُهم إلى غيرِهم، ولا ينازِعُهم فيهِ أحدٌ.

غرضُ تقديمِ ﴿لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

الأصلُ في تقديمِ ما حقُّه التَّأخيرُ القصرُ والاختصاصُ، كأنَّه سبحانه يقول: هذا الفضل الكبير مقصورٌ عليهم دون غيرهم، وهم

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 373.

مخصوصون به، والأصلُ أنْ يُقالَ: (بأنَّ فضلًا كبيرًا مِنَ اللّهِ لهُم)، لكنْ قُدِّمَ المُسنَدُ ﴿لَهُم﴾؛ لِما سبق ذِكْرُه وللعنايةِ بالمُقدَّم وتعجيلِ مَسَرَّةِ المؤمنينَ بِه، ببيانِ أنَّ لهُم شيئًا يستحقّونَه، والتَّشويقِ للمُؤَخَّرِ - وهو الفضلُ الكبيرُ - ليتمكَّنَ عندَ ورودِه على النَّفْسِ غايةَ التَّمكُّن، وقُدِّمَ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لزيادةِ الاغتباطِ بعطيَّةِ الكريمِ المُتفضِّلِ، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في تأخيرِ المُسنَدِ إليهِ ﴿فَضۡلٗا﴾ وصفتِهِ ﴿كَبِيرٗا﴾ رعايةً لتلاؤمِ الفواصلِ، وتقويةً للاختصاصِ المُستفادِ مِنَ اللّامِ في ﴿لَهُم﴾.

في الفضلِ الكبيرِ سرورٌ كبيرٌ للمؤمنينَ باختصاصهم به وقصْرِه عليهم

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للابتداءِ، وهو يفيدُ أنَّ ابتداءَ الفضلِ الكبيرِ مِنَ اللّهِ سبحانَهُ، فهو المُتفضِّلُ به، والمُنعِمُ عليهِم به.

سرُّ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (منهُ) لتقدُّمِ لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ فقيلَ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ في التَّبشيرِ بالفضلِ الكبيرِ وعدًا، وفي التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ تحقيقٌ لإنجازِه؛ لأنَّهُ وعدٌ عظيمٌ لا يقدرُ عليهِ إلّا الّذي لهُ جميعُ صفاتِ العظَمةِ والجلالِ الّتي يشتملُ عليها لفظُ الجلالةِ[1]، وذلكَ يزيدُ يقينَ المؤمنينَ بنيلِ الموعودِ، ويحثُّهم على المُسارعةِ في الخيراتِ والاصطبارِ عليها.

لا يقدرُ على إنجازِ الموعودِ العظيمِ إلّا العظيمُ

سرُّ تقديم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

أصلُ الكلامِ أن يُقالَ: (وبشِّرِ المؤمنينَ بأنَّ فضلًا كبيرًا من اللّه لهم)، والأصل في تقديم ما حقُّه التّأخيرُ القصرُ والاختصاصُ، كأنَّه ﷻ يقول: هذا العطاء والفضل منَ اللّه وحده، لا يقدر عليه أحدٌ غيره، ولذا يجب على المؤمنين ألّا يبحثوا عن عطاء اللّه وفضله

قصْرُ عطاءِ المؤمنين على الله ﷻ، لإبعادهم عن تعلُّقهم بغيره

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 374.

من غيره، فليأخذوا بالأسباب لكن عليهم ألّا يتعلقوا بها؛ بل يكون تعلُّقهم بالمُسبِّب سبحانه وحده، كما أنَّ فيه عنايةً بالمُقدَّم؛ لأنَّه منَ اللّه، وفيه تشويقٌ للمُؤخَّر، يُضاف إلى ذلك أنَّ في التَّقديم رعايةً لتلاؤم الفواصل القرآنيَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفضلِ:

المؤمنونَ لهُم الحُسنى وزيادةٌ

الظّاهرُ أنَّ المُرادَ بالفضلِ في قولِه ﷻ: ﴿فَضۡلٗا﴾: العطاءُ الَّذي يزيدُهُ المُعطي على العطيَّةِ، والمعنى: أنَّ لهُم ثوابَ أعمالِهم الموعودَ به وزيادةً مِنْ عندِ ربِّهم، كما قالَ تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26][1]، وفي التَّعبيرِ بالفضلِ إشارةٌ إلى أنَّهُ كرمٌ مِنَ اللّهِ وإحسانٌ[2]، وكونُهُ جزاءً لأعمالِ المؤمنينَ لا يعني أنَّ لهُم استحقاقًا حقيقيًّا لهُ، وإنَّما هو استحقاقٌ صوريٌّ، جعلَهُ اللّهُ وسيلةً للتَّرغيبِ في العملِ الصّالحِ.

تشريفُ الإيمانِ وأهلِهِ، وعُلوّ شأنِهما عندَ الله

يحتملُ أيضًا أنْ يكونَ المُرادُ بالفضلِ تفضيلَهم على سائرِ الأممِ، والمعنى: بشِّرْهم بأنَّ لهُم زيادةً على سائرِ الأممِ في الرُّتبةِ والشَّرفِ والمنزلةِ[3]، فيفيدُ الكلامُ تشريفَ الإيمانِ وأهلِهِ، وعُلوَّ شأنِهما عندَ اللّهِ ﷻ.

علَّةُ تنكيرِ ﴿فَضۡلٗا﴾:

العطيَّةُ على مِقدارِ مُعطيها

نُكِّرَ ﴿فَضۡلٗا﴾ لتعظيمِهِ وتفخيمِهِ وتكثيره؛ أيْ: فضلًا أيَّ فضلٍ، فضلًا عظيمَ الشَّأنِ والقَدْرِ، وافرَ المقدارِ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، ولا تُحيطُ بكُنْهِهِ العبارةُ، ولتذهبَ النَّفْسُ في تقديرِهِ مذاهبَ شتَّى، فالعطيَّةُ على قَدْرِ مُعطيها، فما بالُكَ بعطيَّةِ العظيمِ الكريمِ الرَّحيمِ ﷻ؟!

نكتةُ الوصفِ بالكبيرِ:

لا مثيلَ لأجرِ المؤمنينَ في نفاستِهِ لأنَّهُ في الجنَّةِ

وُصِفَ الفضلُ بكونِهِ كبيرًا في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾:

---

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 382، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 57.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 108.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 108.

لزيادةِ تفخيمِ شأنِه؛ فكونُهُ مِنَ اللّهِ كبيرٌ، فكيفَ إذا انضمَّ إلى ذلكَ هذا الوصفُ[1]؟! وللدَّلالةِ على نفاستِهِ[2]، وكونِهِ فائقًا في نوعِهِ[3]، ولأنَّهُ يناسبُ تضعيفَ الحسنةِ مِنْ عشرةِ أمثالِها إلى ما لا يعلمُهُ إلّا اللّهُ[4].

ومِنَ العلماءِ مَنْ فسَّرَ الفضلَ الكبيرَ بالجنَّةِ، وذكرَ أنَّهُ حيثُ وقعَ في القرآنِ: (فضلٌ كبيرٌ) و(أجرٌ كبيرٌ) فالمرادُ الجنَّةُ[5]، فيكونُ ذلكَ مِنْ عاداتِ القرآنِ الكريمِ في استعمالِ الألفاظِ والتَّراكيبِ، وفي هذا التَّعبيرِ توسعةٌ للرَّجاءِ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى أمرَ نبيَّهُ ﷺ أنْ يُبشِّرَ المؤمنينَ بأنَّ لهُم عندَهُ الجنَّةَ[6].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَلَا تُطِعِ﴾:

تيقُّظُ الدّاعيةِ لأعداءِ دعوتِهِ

قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[7]، وفائدةُ هذا العطفِ بيانُ ما ينبغي عليهِ ﷺ في التَّعاملِ معَ الكافرينَ والمنافقينَ بعدَ بيانِ ما ينبغي عليهِ مِنْ تبشيرِ المؤمنينَ وتثبيتِهم، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الدّاعيَ إلى اللّهِ مُعرَّضٌ لإيذاءِ أعداءِ الدَّعوةِ وإغرائِهم لهُ لتركِ ما هو عليهِ مِنَ الحقِّ، فينبغي عليهِ أنْ يكونَ حَذِرًا ومُتيقِّظًا لدسائسِهم ومكائدِهم.

بلاغةُ النَّهيِ عنِ الإطاعةِ:

الثَّباتُ على الحقِّ وعدمُ الالتفاتِ للباطلِ أو مداراةِ أهلِه سِمَةُ الدّاعيةِ

النَّهيُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ ليسَ على ظاهرِهِ؛ لأنَّهُ ﷺ معصومٌ عن طاعتِهم في شيءٍ ممّا يريدونَهُ، ويُشيرونَ بهِ عليهِ، ولا يُتوقَّعُ منهُ الإطاعةُ حتى يُنْهَى عنها[8]؛ بل هو

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 174.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 374.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 57.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 374.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 441.
(6) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 389.
(7) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 363.
(8) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 382.

محمولٌ على الدَّوامِ والثَّباتِ على ما كانَ عليهِ مِنْ عدمِ إطاعتِهم[1]، ويُؤيِّدُ ذلكَ استعمالُ صيغةِ المضارعِ المجزوم، والمعنى: استمرَّ على عدمِ إطاعتِهم، وفي ذلكَ إعلامٌ لهُم بأنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يقبلُ أقوالَهم؛ لييأسوا مِنْ ذلكَ[2]، أوِ النَّهيُ ورادٌ على سبيلِ التَّهييجِ والإلهابِ[3]، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ مِنْ شأنِ النَّبيِّ الإعراضَ عن طاعةِ الكافرينَ والمنافقينَ، فلا تُطِعْهم.

على الأُمَّــة أن تحذرَ الكافرين والمنافقين

يحتملُ كذلك أنْ يكونَ النَّهيُ في الحقيقةِ لأمَّتِهِ[4] وإنْ كانَ في الظّاهرِ لهُ، فيكونُ في الكلامِ تعريضٌ بغيرِهِ مِنْ أفرادِ أمَّتِهِ[5]، ونكتةُ توجيهِ النَّهيِ لهُ معَ أنَّ المُرادَ غيرُهُ المبالغةُ، بإخراجِ الكلامِ في صورةِ نهيِ مَنْ لا يُتصوَّرُ منهُ ارتكابُ المنهيِّ عنهُ، فغيرُهُ أولى بذلك، ووراءَ ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ على هذهِ الأمَّةِ أنْ تكونَ حَذِرةً في مسيرتِها مِنْ هذيْنِ الصِّنفيْنِ الخبيثيْنِ، فلا تُطيعُهما في أمرٍ مِنْ أمورِ دينِها ودنياها، ولا تُعوِّلُ عليهما في مَشورةٍ[6].

المبالغةُ في الزَّجرِ والتَّنفيرِ عنِ الإطاعةِ

يُحتملُ أنْ يكونَ المُرادُ النَّهيَ عن مداراتِهم في أمرِ الدَّعوةِ، واستعمالِ لينِ الجانبِ في التَّبليغِ، والمسامحةِ في الإنذارِ، وقد كُنيَ عن ذلكَ بالنَّهيِ عن إطاعتِهم مبالغةً في الزَّجرِ والتَّنفيرِ عنِ المنهيِّ عنهُ، بنظمِهِ في سِلْكِ الإطاعةِ، وتصويرِهِ بصورتِها[7].

علَّةُ ذِكْرِ الكافرينَ والمنافقينَ:

الكفرُ والنِّفاقُ خَطَرانِ مُحدِقانِ بالأمَّةِ

ذُكِرَ في قولِهِ تعالى ذِكرُهُ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هذا الصِّنفانِ؛ لأنَّهما أخبثُ خلقِ اللهِ، وكانَ مِنْ دأبِهم السَّعيُ إلى إمالةِ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 547، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 7/ 176.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 250 - 251.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 547.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 176.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 331.
(6) أبو موسى، دراسة تحليليَّة لسورة الأحزاب، ص: 367.
(7) أبو السَّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 108.

النَّبيِّ ﷺ عنِ الحقِّ، وحثِّه على إطاعتِهِم فيما يُشيرونَ بهِ عليهِ، ومداهنتِهم في الدّينِ[1]، وهذانِ الصِّنفانِ أخطرُ أعداءِ الأمَّةِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ فأحدُهما عدوٌّ مِنَ الدّاخلِ، ينخرُ في جسدِها، ويَسعَى إلى تفتيتِها وإضعافِها، وهمُ المنافقونَ الَّذينَ يتربَّصونَ بها الدَّوائرَ، والآخرُ عدوٌّ مِنَ الخارجِ، يكيدُ لها بأنواعِ المكائدِ، ولا يَرْقُبُ فيها إلّا ولا ذِمَّةً، ولا يدَّخِرُ فُرصةً للانقضاضِ عليها ونَهْشِ جسدِها مُستعينًا بالصِّنفِ الأوَّلِ.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾:

وجوبُ أخذِ الحِذْرِ من جميعِ الكافرينَ والمنافقينَ

(أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ موصولةٌ، واسمُ الفاعل صلتُها في الكلمتَيْن، والموصول من صيغ العموم، والتّقديرُ: ولا تطع كلَّ الذين كفروا ولا كلَّ الذين نافقوا، بقرينةِ مقام النَّهي عن إطاعةِ مَنْ يكيدُ للإسلام وأهلِه، ويتربَّصُ الدَّوائرَ برأسِ المؤمنينَ ﷺ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على ضرورةِ الحَذَرِ مِنْ جميعِ الكافرينَ والمنافقينَ؛ لأنَّ ما فيهم مِنْ نوازعِ الشَّرِّ والفسادِ ومحاربةِ الحقِّ وأهلِه أمرٌ مُشتَرَكٌ بينَهم على اختلافِ أمكنتِهم وأزمنتِهم، وفي ذلكَ إيقاظٌ للأمَّةِ وتحذيرٌ دائمٌ مِنْ هذينِ الصِّنفَيْنِ.

براعةُ الطِّباقِ:

غـمُّ الكـافـريـنَ سرورٌ للمؤمنينَ

في ذِكْرِ الكافرينَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بعدَ ذكرِ المؤمنينَ في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ رعايةٌ لمُحسِّنٍ مِنَ المُحسِّناتِ المعنويَّةِ، وهو الطِّباقُ، ومِنْ بلاغتِه في هذا الموضعِ أنَّهُ يجعلُ أمامَ النّاظرِ صورةً للمؤمنينَ وهم تُنْثَرُ عليهِم ألوانُ الحُبورِ والسُّرورِ، وصورةً للكافرينَ وهم يُنْهَى عن إطاعتِهم ومُلاينتِهم، وفي ذلكَ غمٌّ لهُم، ولا شكَّ أنَّ في غمِّهم زيادةً لسرورِ المؤمنينَ.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 202.

سرُّ تقديمِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

المُجاهِرُ بالكُفْرِ أولى بعدمِ الإطاعةِ

قُدِّمَ الكافرونَ على المنافقينَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ ليكونَ ذِكرُهم عَقِبَ ذِكرِ المؤمنينَ المُبشَّرينَ بالفضلِ الكبيرِ، فيكونَ أنسبَ بالطِّباقِ، ولأنَّ أمرَ كفرِهم ومحاربتِهم للإسلامِ ظاهرٌ؛ لأنَّهم مجاهرونَ بالكفرِ؛ فالنَّهيُ عن إطاعتِهم أَوْلى، وأمّا المنافقونَ فيُبطِنونَ الكفرَ، ويُظهِرونَ الإسلامَ، ولذلكَ أُخِّرَ ذِكْرُهم، وإنْ كانوا عونًا للكفرةِ في الواقعِ؛ فقد كانوا يُدبِّرونَ معَهم المكايدَ، ويُظهِرونَ أنَّهم ينصحونَ النَّبيَّ ﷺ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

الكافرونَ والمنافقونَ لا أمانةَ لهُم

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الكافرينَ والمنافقينَ المنهيَّ عن إطاعتِهم قد رَسَخوا في الكفرِ والنِّفاقِ، واشتُهِروا بهذينِ الوصفينِ، وفي هذا مزيدُ تحذيرٍ منهُم ومِنْ خبيثِ مكائدِهم؛ لأنَّ مَنْ ضَرِيَتْ نفسُهُ بالشَّرِّ والفسادِ ومعاداةِ الحقِّ وأهلِهِ لا يُؤتَمَنُ على شأنٍ مِنَ الشُّؤونِ، ولا يؤخَذُ بزُخْرفِ قولِهِ.

بلاغةُ اختصاصِ الكافرينَ والمنافقينَ بالذِّكْرِ:

لا يُتصوَّرُ عداوةُ أحدٍ للإسلامِ غيرِهم

اقتُصِرَ على ذِكرِ الكافرينَ والمنافقينَ دونَ غيرِهم لِوجوهٍ؛ **أحَدُها**: أنَّ ذِكرَ الغَيْرِ لا حاجَةَ إلَيْهِ؛ لِأنَّ غَيْرَهُما لا يَطْلُبُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ الاتِّباعَ، ولا يَتَوَقَّعُ أنْ يَصيرَ مُطيعًا لَهُ؛ بَلْ يَقْصِدُ اتِّباعَهُ ولا يَكونُ عِنْدَهُ إلّا مُطاعًا، **والثّاني**: هوَ أنَّهُ تَعالَى لَمّا قالَ: ولا تُطِعِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ مَنَعَهُ مِنْ طاعَةِ الكُلِّ؛ لِأنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ مِنَ النَّبيِّ ﷺ طاعَتَهُ فَهوَ كافِرٌ أوْ مُنافِقٌ؛ لِأنَّ مَنْ يَأْمُرُ النَّبيَّ بِأمْرٍ أمْرَ إيجابٍ مُعْتَقِدًا عَلَى أنَّهُ لَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ يُعاقِبُهُ بِحَقٍّ يَكونُ كافِرًا[1]، أمّا **الثّالث**

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 154.

فإنَّ اليهود والنَّصارى ومَنْ على شاكلتهم منَ المجوس داخلون في عموم الكافرين والمنافقين؛ لأنّهم إنْ أعلنو كُفرهم وعدمَ إيمانهم فهم داخلون ضِمْنَ الكفّار، وإن أعلنوا الاسلام نفاقًا، فهم داخلون في زمرة المنافقين.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَدَعۡ﴾:

كـمـالُ عـدمِ إطاعةِ الكافرينَ والمنافقينَ بتركِ أذاهم

قولُهُ جلَّ ذِكرُهُ: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، وفائدةُ العطفِ أنَّهُ ﷻ بعدَما نهَى نبيَّهُ ﷺ عن إطاعةِ الكافرينَ والمنافقينَ؛ لِما في إطاعتِهم مِنَ المَضَرَّةِ والأذَى؛ صرَّحَ بما اقتضاهُ النَّهيُ السّابقُ، وأمرَ نبيَّهُ بتركِ أذاهم، وعدم الالتفاتِ إليهِ[1]، وفي ذلكَ تكميلٌ لمقصودِ قطعِ الطَّريقِ على مَنْ يريدُ إضعافَ عزيمتِهِ ﷺ في الدَّعوةِ إلى اللّهِ، وفي ذلك إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ أذاهم للنَّبي ﷺ مُتحقِّقٌ، أطاعهم أم لم يُطعهم، فإن أطاعهم حلَّ الأذى في دينه، وإنْ لم يُطعهم آذوه في نفسه وأصحابه.

بلاغةُ الأمرِ ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾:

الـتَّرفُّـعُ عن مُـجـاراةِ أهـلِ الرَّذائلِ والصَّبرُ عـلى أذاهـم في سبيل الله

يجوزُ أنْ يكونَ فعلُ (دَعْ) مُستعمَلًا في حقيقتِهِ، ويُرادَ بتركِ أذى الكافرينَ والمنافقينَ عدمُ معاقبتِهم، وأنْ يترفَّعَ النَّبيُّ ﷺ عن مُؤاخذتِهم على ما يَصدُرُ منهُم في شأنِهِ، وهذا إعراضٌ عن أذىً خاصٍّ لا عمومَ لهُ، فليسَتْ آياتُ القتالِ بناسخةٍ لهُ[2]؛ لأنَّ الحديثَ عن أذاهم المُتعلِّقِ بِهِ ﷺ فيما يُشيعونَهُ حولَهُ مِنَ الأكاذيبِ، ونحو ذلكَ مِنْ ضروبِ الأذى، لا عن الأذى النّاجم عن محاربتِهم للمسلمينَ؛ فإنَّ ذلكَ يستوجبُ أنْ يُكَفَّ عُدوانُهم، وتُكسَرَ شوكتُهم، وتُطفأَ نيرانُ حروبِهم.

يجوزُ أنْ يكونَ الفعل (دع) مُستعمَلًا مجازًا في عدمِ الاكتراثِ

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 374.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 58.

بما يقولونَهُ ممّا يُؤذي[1]، وفي ذلكَ حثٌّ لهُ ﷺ على مزيدٍ مِنَ الصَّبرِ والتَّجلُّدِ في مقارعةِ أهلِ الباطلِ، وتنبيهٌ للدُّعاةِ مِنْ بعدِهِ على وجوبِ الاستمرارِ على مجاهدةِ المُبطِلينَ، وأهلِ البِدَعِ والضَّلالاتِ، واحتمالِ ما يُلاقونَ في سبيلِ اللّهِ مِنْ أنواعِ الأذى[2].

دلالةُ إضافةِ الأذى إليهم:

احتمالُ الأذى في سبيلِ اللهِ وحَبْسُ النَّفْسِ عن إنفاذِ غضبِها

الظّاهرُ أنَّ الإضافةَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَذَىٰهُمْ﴾ مِنْ إضافةِ المصدرِ إلى الفاعلِ[3]، والمعنى: أعرِضْ عن أقوالِهم وما يُؤذونَكَ بهِ، ولا تشتغلْ بهِ[4]، واصبِرْ على ما ينالُكَ منهُم؛ فإنَّ اللّهَ تعالى ينتقمُ منهُم، ويجعلُ لكَ أجرًا عظيمًا[5].

الأنبياءُ لا يَحرصون على الانتقامِ بقَدْرِ الإصلاحِ

ويحتملُ أنْ تكونَ الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿أَذَىٰهُمْ﴾ مِنْ إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ؛ أيْ: دَعْ أذاكَ إيّاهم[6]، ولا تُعاقِبْهم، واصفَحْ عن زَلَلِهم[7]، وتسميةُ ذلكَ إيذاءً لكونِهِ في صورةِ الإيذاءِ، وإلّا فما هو للجزاءِ لا يكونُ إيذاءً[8].

نكتةُ اختيارِ الأذَى دونَ الإيذاءِ:

أذى الكافرينَ والمنافقينَ إلى اضمحلالٍ

قيلَ: ﴿أَذَىٰهُمْ﴾، ولم يُقَلْ: (إيذاءَهم)؛ لأنَّ الأذَى أوجزُ؛ لأنَّ حروفَهُ أقلُّ، وقد بُنيَتْ هذهِ الآيةُ وما قبلَها على الإيجازِ، فيكونُ الأذَى أنسبَ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أذَى الكافرينَ والمنافقينَ وإنْ كَثُرَ وعَظُمَ فعاقبتُهُ إلى زوالٍ وقلَّةٍ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾:

مَنْ رفعَ الأمرَ للهِ كفاهُ

قولُهُ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿وَدَعْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 58.
(2) محمد أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 367.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 547.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 234، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 202.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 382.
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 547.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 202.
(8) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 382.

﴿أَذَىٰهُمۡ﴾، ونكتةُ العطفِ: أنَّهُ لمّا كانَ تركُ المُؤذي والإعراضُ عنهُ شاقًّا على النَّفسِ ذُكِرَ الدَّواءُ، وهو التَّوكُّلُ على اللّهِ[1]، وكأنَّ تفويضَ الأمرِ للّهِ هو علَّةُ الأمرِ بتركِ أذَى الكافرينَ والمنافقينَ؛ فإنَّ اللّهَ كافٍ عبدَهُ ﷺ شرورَهم، وناصرُهُ ومُظهِرُهُ عليهِم، ولهُ في إمهالِهِم حِكَمٌ، حتَّى إذا أخذَهم لم يُفلِتْهم.

بلاغةُ الأمرِ بالتَّوكُّلِ:

العبدُ يُفوِّضُ أمرَهُ إلى اللهِ على الدَّوامِ

أمرَ اللّهُ نبيَّهُ الكريمَ ﷺ بالاعتمادِ عليهِ، وتفويضِ الأمرِ والتَّدبيرِ إليه، فقالَ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: اعتمدْ على اللّهِ في تبليغِ الرِّسالةِ، وفي كفايتِهِ إيّاكَ شرَّ عدوِّكَ[2] وفي كلِّ شيءٍ، ومعلومٌ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُتوكِّلٌ على اللّهِ، فليسَ المُرادُ بالأمرِ إحداثَ التَّوكُّلِ؛ بل الاستمرارُ عليهِ، واتِّخاذُهُ زادًا وعُدَّةً لكلِّ خَطْبٍ مُلِمٍّ، فالعبدُ لا ينفكُّ عن رَبْطِ الوسائلِ والمقاصدِ باللّهِ، وفي الكلامِ إيناسٌ لهُ ﷺ وتثبيتٌ[3]، وتعليمٌ للدُّعاةِ ألّا يَرْكَنوا إلى ما عندَهم مِنَ الحُجَجِ والدَّلائلِ والأسبابِ المادّيّةِ والمعنويّةِ؛ بل يضمّونَ إلى ذلكَ طلبَ المَدَدِ والعونِ والحفظِ مِنَ اللّهِ؛ فإنَّ طريقَ الدَّعوةِ إلى اللّهِ شائكٌ عظيمُ الخَطَرِ.

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾:

لا يَخيبُ مَنِ استجارَ باللهِ

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّهُ لا ينبغي أنْ يكونَ للعبدِ مُتعلَّقٌ إلّا الاعتمادُ على اللّهِ، فتفويضُ الأمرِ إليهِ استمساكٌ بالعُروةِ الوُثْقَى لا انفصامَ لها، وطرحٌ للأحمالِ والأثقالِ في ساحةِ مَنْ لا تضيعُ عندَهُ الحقوقُ، ولا يَخيبُ مَنْ فوَّضَ الأمرَ إليهِ، ولا يُضامُ مَنِ التجأ إلى حِماهُ، فهو مُعتمِدٌ على العليِّ المتعالي، فالنَّبيُّ ﷺ مُستَعْلٍ بتوكُّلِه على اللّه على كلِّ شيءٍ دونه.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 374.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 547، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 58.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 202.

سرُّ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (وتوكّلْ عليه)؛ لتقدُّم ذِكرِ لفظِ الجلالةِ، لكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ فقيلَ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ لتقويةِ داعي الامتثالِ بالمأمورِ؛ فاللّهُ سبحانَهُ هو الكافي، وهو النّاصرُ، ولا رادَّ لأمرِهِ، وهو الحيُّ الَّذي لا يموتُ، فلا يَخشَى المُتوكِّلُ عليهِ أنْ يَلْحَقَهُ ضعفٌ أو موتٌ، وأيضًا في إظهارِ لفظِ الجلالةِ هنا، وفي قولِهِ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ إشعارٌ بمعيَّةِ اللّهِ تعالى للنَّبيِّ ﷺ في جميعِ مراحلِ دعوتِهِ، وتنبيهٌ على أنَّهُ لا ملجأَ إلّا للّهِ، ولا اعتمادَ إلّا على اللّهِ، وتقويةٌ لاستقلالِ الجملةِ، بحيثُ تَصلُحُ لأنْ تُستعمَلَ استعمالَ الأمثالِ الجاريةِ.

التَّوكُّلُ الحقُّ يكونُ على الحيِّ الَّذي لا يموتُ

نكتةُ إطلاقِ التَّوكُّلِ:

قيلَ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ بإطلاقٍ، ولم يُقيَّدْ بمعيَّنٍ، فلم يُقَلْ: (وتوكّلْ على اللّهِ في دعوتِكَ)، أو (في كذا وكذا)؛ ليكونَ التَّوكُّلُ على اللّهِ شاملًا لكلِّ شأنٍ مِنْ شؤونِهِ ﷺ، والمعنى: وتوكّلْ على اللّهِ في كلِّ ما تأتي وتَذَرُ مِنَ الشُّؤونِ الَّتي مِنْ جملتِها شأنُ الدَّعوةِ إلى اللّهِ، والصَّبرُ على أذى الكافرينَ والمنافقينَ؛ فإنَّهُ سبحانه وتعالى يكفيكَ إيّاهم[1]، وفي ذلكَ تعليمٌ للعبدِ أنْ يُظهِرَ الافتقارَ للّهِ في كلِّ شيءٍ، فذلكَ مِنْ علاماتِ العبوديَّةِ الصّادقةِ.

كلُّ عبدٍ مُفتقرٌ إلى اللهِ في كلِّ شيءٍ

بلاغةُ جملةِ الفاصلةِ:

الظّاهرُ أنَّ الواوَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ تذييلٌ لجملةِ ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، والمعنى: فإنَّ اللّهَ هو الوكيلُ الكافي في الوكالةِ[2]، وفيها تأكيدٌ للأمرِ السّابقِ ومزيدُ حثٍّ عليهِ؛ فإنَّهُ لمّا كانَ الوكيلُ قد لا ينهضُ بجميعِ الأمورِ؛ أخبرَ سبحانَهُ بأنَّ

النَّبيُّ ﷺ منصورٌ على أعدائِهِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 108، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 332.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 59.

التَّوكُّلَ عليهِ كافٍ[1]، وفي الكلامِ وعدٌ بنصرِ النَّبيِّ ﷺ على أعدائِهِ مِنَ الكافرينَ والمنافقينَ[2].

سرُّ حذفِ مفعولِ ﴿وَكَفَىٰ﴾:

اللهُ كافٍ كلَّ مَنِ اعتمدَ عليهِ وقَصَدَه

حُذِفَ مفعولُ ﴿وَكَفَىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ لإفادةِ العمومِ؛ أيْ: كفَى كلَّ أحدٍ توكَّلَ عليهِ؛ فهو سبحانَهُ القويُّ العزيزُ الَّذي لا تَؤودُهُ كثرةُ المسائلِ والحاجاتِ، ولا تختلطُ عليهِ الأحوالُ والشُّؤونُ، ولو أنَّ الخلقَ كلَّهم ورَدوا ساحةَ كرمِهِ، وفوَّضوا إليهِ أمورَهم، وسألوهُ حاجاتِهم - لأصدرَهم جميعًا، ولم يَنْقُصْ ذلكَ مِنْ مُلْكِهِ شيئًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالكفاية:

الكفايةُ أن يجد الإنسانُ ما يكفيه، سواء أكانت الكفاية من نفسه أم من غيره، ويلزمُ مِنَ الكفاية ألّا يحتاج الإنسان لأحدٍ؛ إذ عنده ما يكفيه.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

مِنْ علاماتِ التَّوكُّلِ الثِّقةُ بكفايةِ اللهِ

الباءُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ صلةٌ للتَّأكيدِ[3]؛ أيْ: تأكيدِ كونِ الكافي هو اللّهَ[4]، والأصلُ: وكفى اللّهُ وكيلًا، وفي الإتيانِ بالباءِ زيادةُ بثٍّ للطُّمأنينةِ في نفسِ المُتوكِّلِ بأنَّ اللّهَ تعالى لا يُخيِّبُ مَسْعاهُ، وفي الكلام إشارةٌ إلى محذوفٍ على رأي بعض المُفسِّرين، كأنَّه حذف فاعل ﴿وَكَفَىٰ﴾ وحذف فعلَ الأمر منه، وأصلُ الكلام: (وكفى اللّهُ وكيلًا؛ فاستفد أنت من هذا واكتف باللّه وكيلًا)، ويُعبِّر البعضُ عن ذلك بأنَّ الفعل الماضي ﴿وَكَفَىٰ﴾ بمعنى

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 374.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 390.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 59.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 374.

الأمر، وعليه فتكون الباء أصليَّةً لا زائدةً، ويكون المعنى: واكتف باللّه وكيلًا.

بلاغةُ إظهارِ لفظِ الجلالة:

اللهُ هو الوكيلُ الكافي في الوكالةِ

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: (وكفى بهِ وكيلًا)، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾؛ لتعليل الحُكم؛ فإنَّ كفايةَ الوكيلِ بسببِ كونِهِ ذا العظَمةِ والجلالِ الَّذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ولتأكيدِ استقلالِ جملةِ التَّذييل[1]، بحيثُ تكونُ جاريةً مَجْرَى الأمثالِ، ولو استُعمِلَ الضَّميرُ لتوقَّفتِ الجملةُ على سابقتِها، وما أفادتِ الاستقلالَ، وفي الكلامِ إشارةٌ إلى أنَّ الكفايةَ التّامَّةَ لا تكونُ إلّا منَ اللّهِ.

بلاغةُ التَّمييز:

التَّوكُّلُ على اللهِ زادُ المؤمنِ

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَكِيلٗا﴾ تمييزٌ، والغرضُ منهُ زيادةُ التَّأكيدِ في تحقيقِ كفايتِهِ تعالى لِمَنْ توكَّلَ عليه[2]، ولذلكَ نرى الأمرَ بالتَّوكُّلِ على اللّهِ والإشارةَ إلى كفايتِهِ - يتكرَّران في كتابِ اللّهِ كثيرًا؛ ليطبعَ في القلوبِ هذا المعنى الجليلَ؛ فإنَّ القلبَ إذا أحسنَ التَّوكُّلَ على اللّهِ، وأيقنَ بكفايةِ ربِّهِ - تتكوَّنُ فيهِ طاقةٌ هائلةٌ، تُمِدُّهُ بزادٍ لا يَنْفَدُ في مواقفِهِ الصَّعبةِ[3].

براعةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ:

اللهُ خيرُ وكيلٍ وكـافٍ لعبادِه المؤمنين

في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ مُحسِّنٌ لفظيٌّ، وهو ردُّ العَجُزِ - وهو ﴿وَكِيلٗا﴾ - على الصَّدرِ، وهو ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾؛ لِما بينَ اللَّفظيْنِ مِنَ التَّجانسِ في الاشتقاقِ، وفائدتُهُ إكساءُ الآيةِ ثوبَ التَّناسبِ والتَّلاؤمِ اللَّفظيِّ، والإشارةُ إلى أنَّ مَنْ توكَّلَ على اللّهِ وجدَ اللّهَ خيرَ وكيلٍ وكافٍ في البدايةِ والنّهايةِ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 108، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 224.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 375.

(3) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 367.

تتميمُ التَّشريفِ بالتَّكليفِ

بلاغةُ المُقابلةِ:

لمّا وصفَ ﷻ نبيَّهُ ﷺ بخمسِ صفاتٍ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ - قابلَ في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ كلَّ صفةٍ منها بخطابٍ مناسبٍ؛ فحذفَ مقابلَ الشّاهدِ؛ لدلالةِ السّياقِ عليهِ، والتَّقديرُ: فراقِبْ أحوالَ أمَّتِكَ، وقابلَ المُبشِّرَ بالأمرِ ببشارةِ المؤمنينَ، وقابلَ النَّذيرَ بالنَّهيِ عن مراقبةِ الكفّارِ والمنافقينَ والمبالاةِ بأذاهم؛ لأنَّهُ إذا تركَ أذاهم في الحاضرِ - والأذى لا بدَّ لهُ مِنْ عقابٍ عاجلٍ أو آجلٍ - كانوا مُنذَرينَ بهِ في المستقبلِ، وقابلَ الدّاعيَ إلى اللّه بتيسيرِهِ بالأمرِ بالتَّوكُّلِ عليهِ؛ فإنَّ مَنْ توكَّلَ على اللّهِ يُسِّرَ عليهِ كلُّ عسيرٍ، وقابلَ السِّراجَ المُنيرَ بالاكتفاءِ بهِ تعالى؛ فإنَّ مَنْ جعلَهُ اللّهُ برهانًا نيِّرًا يَهدي الخلقَ حقيقٌ بأنْ يكتفيَ باللّهِ عن كلِّ ما سواهُ(1).

المتَشابهُ اللَّفظيُّ:

تكفَّل اللّه ﷻ بتوعُّد مَن يُؤذي النَّبيِّ، ومَن يُؤذي المؤمنين من بعده

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾ [الأحزاب: 1 - 3]، وقال تعالى هنا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾، وبين الموضعيْن فروقٌ:

الأوَّل: بُدِئت السّورة بالأمر بتقوى اللّه تعالى، ثمّ باتّباع الوحي، ولم يُذكر ذلك هنا؛ لأنَّ هذا الأمر مناسبٌ لبدء السّورة، ولم يُذكر شيءٌ يتطلَّب تكرارَه.

الثّاني: انفرد الموضع الثّاني بقوله تعالى: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾، وهذا

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 234، والنّسَفيّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 36.

مناسبٌ لعددٍ منَ الأذى المذكور قبل هذا الموضع وبعده منَ الأحزاب، ومن بني قريظة، ومن نساء النَّبيِّ ﷺ حين طلبوا الدُّنيا، ومنَ المؤمنين حين جلسوا في بيوت النّبيّ ﷺ بعد الطّعام بلا داعٍ، وحين رغب بعضُهم في نكاح أزواج النّبيّ ﷺ بعده، ولذلك تكفَّل اللّه ﷻ بتوعُّد مَن يُؤذيه، ومَن يُؤذي المؤمنين من بعده، وختم السّورة بأن نَهى المؤمنين عن أن يُؤذوا رسولَ اللّه كما آذى اليهودُ موسى عليه السلام.

الثّالث: اشترك الموضعان في النَّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، وبالأمر بالتّوكُّل على اللّه، وهما أمران لازمان للنَّبيِّ ﷺ منذ البعثة، والإعلانِ بالدّعوة، حتى أتمَّ اللّه عليه نعمته بالنَّصر والفتح، ودخولِ النّاس في دين اللّه أفواجًا، وكلُّ ذلك علامةٌ على قُرْب أجله، فهما شاملان كلَّ حياته الدَّعوية ﷺ، وهما كذلك مأوًى لكلِّ داعيةٍ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ من بعده، والرُّكنُ الشَّديد الذي يركن إليه، فكان التَّكرارُ في سورةٍ مليئةٍ بالأذى والشَّدائد، دافعًا إلى التَّذكير بعدم التّنازل عن ثوابت الدّين، والتّوكُّل على اللّه في سبيل تحقيق ذلك، وكفى باللّه وكيلًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البِشرُ والسُّرورُ:

البِشْرُ أعـمُّ من الـسُّـرور وأنـفـعُ لصاحبه وأظهرُ

البِشْر سرورٌ ظاهر، والبشارةُ والخبر السّارُّ تظهر آثارهما على البَشَرة لا سيما الوجه، كما أنّه فيه معنى الحُسْن الظّاهر على الوجه أيضًا؛ لأنَّ السُّرور القلبيَّ يُلقي على الوجوه بهاءً وإشراقًا، ولذلك وُصِفت وجوهُ المؤمنين يوم القيامة بالاستبشار، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ [عبس: 38 - 39]؛ فالتَّبشير استُخدم في إخبار المؤمنين بما يسرُّهم في الدُّنيا والآخرة، أمّا السّرور فيختصُّ بالقلوب غالبًا، وهو فرحٌ خالصٌ خفيٌّ، وقد يظهر أثره بِشْرًا وحبورًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ [الأحزاب: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الأحكامِ بعد الأمرِ بالبلاغِ والإعراضِ عنِ المُؤذين

لمّا أمرَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ بإبلاغِ أوامرِه، والإعراضِ عنِ المُؤذينَ والتَّوكُّلِ عليهِ؛ رجعَ إلى بيانِ الأحكامِ الَّتي ذُكِرَتْ في أوَّلِ السّورةِ[1] ووسطِها، لتطبيقها وعدمِ المبالاة بإرجاف المُؤذين بسببها، أو لمّا ذُكِرَتْ قصَّةُ زيدٍ وتطليقِه زينبَ، وكانَتْ مدخولًا بها، وخطبَها النَّبيُّ ﷺ بعدَ انقضاءِ عِدَّتِها؛ بيَّنَ اللّهُ للمؤمنينَ حكمَ المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ[2].

وأمّا المناسبة العامّة للآيات؛ فهي أنَّ اللّهَ تعالى كلَّما ذكرَ للنَّبيِّ ﷺ مَكْرُمةً وعلَّمَهُ أدبًا؛ ذكرَ للمؤمنينَ ما يناسبُ، فكما بدأ في تأديبِ النَّبيِّ ﷺ بذِكْرِ ما يتعلَّقُ بجانبِ اللّهِ، وثنَّى بما يتعلَّقُ بجانبِ أزواجِه، وثلَّثَ بما يتعلَّقُ بجانبِ العامَّةِ؛ كذلكَ بدأ في إرشادِ المؤمنينَ بما يتعلَّقُ بجانبِ اللّهِ فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب: 41]، ثمَّ ثنَّى بما يتعلَّقُ بجانبِ الزَّوجاتِ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، ثمَّ ثلَّثَ بما يتعلَّقُ بجانبِ نبيِّهم، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: 53]، وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: 56][3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: (مسس) أصلٌ يدلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليدِ[4].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 375.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 202، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 489.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 175.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (مسس).

ويُقالُ مجازًا: مسَّهُ الكِبَرُ والمرضُ، ومسَّهُ العذابُ[1]، وكُنيَ بالمَسِّ عنِ الوَطْءِ؛ فقيلَ: مسَّها وماسَّها[2]، وهو المُرادُ في الآيةِ[3].

2) ﴿عِدَّةٍ﴾: (عدد) أصلٌ لا يخلو منَ العَدِّ الذي هو الإحصاءُ، والإعدادُ الّذي هو تهيئةُ الشّيءِ[4]، والعِدَّةُ هاهنا عددٌ منَ الأيامِ تُهيَّأُ فيها المرأةُ لزواجٍ آخر وهي اسمُ هيئةٍ مِنَ العَدِّ، وغلبَ إطلاقُها في الشَّرعِ على المُدَّةِ المُحدَّدةِ لانتظارِ المرأةِ زواجًا ثانيًا؛ لأنَّ انتظارَها مُدَّةٌ معدودةُ الأزمانِ[5]، وهو المعنى المُرادُ هنا.

3) ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾: (متع) أصلٌ يدلُّ على منفعةٍ وطولٍ[6]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: مَتَعَ النَّهارُ؛ أيْ: طالَ[7]، والمتاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوقتِ[8]، والمُتعةُ: ما يُعطَى للمُطلَّقةِ لتنتفعَ بهِ مُدَّةَ عِدَّتِها[9]، وهو المعنى المُرادُ هنا[10].

4) ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾: (سرح) أصلٌ يدلُّ على الانطلاقِ[11]، والتَّسريحُ: الإرسالُ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: سرَّحتُ الإبلَ؛ أيْ: أرسلتُها في المرعى، ثمَّ استُعمِلَ التَّسريحُ في الطَّلاقِ[12]، ومعنى ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ هنا: أخرجوهنَّ مِنْ منازلِكم بعدَ الطَّلاقِ[13].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حقوقُ المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ

يا أيُّها الَّذينَ صدَّقوا اللّٰهَ ورسولَهُ إذا عَقَدْتُم على المؤمناتِ ثمَّ

(1) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (مسس).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (مسس).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 60.
(4) الرَّاغب، المُفردات: (عدد).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 60.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (متع).
(8) الرَّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (متع).
(9) الخليل، العين: (متع).
(10) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 62.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرح).
(12) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سرح).
(13) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 235.

طلَّقتموهنَّ مِنْ قبلِ أنْ تُجامعوهنَّ؛ فليسَ لكُم عليهنَّ حقٌّ في العِدَّة؛ فأعطوهنَّ متعةً ينتفِعْنَ بها مِنْ عَرَضٍ أو مالٍ أو نحوِ ذلك، وخلّوا سبيلَهنَّ بلُطْفٍ وإكرامٍ مِنْ غيرِ إضرارٍ بهنَّ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ الكريمةِ:

حُكمُ المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ حريٌّ بالاستقلالِ

فُصِلَتْ هذهِ الآيةُ عمّا قبلَها لِما بينَهما مِنَ الاختلافِ في الغرضِ؛ فما قبلَها حديثٌ عنِ الأوصافِ السَّنيَّةِ للنَّبيِّ ﷺ، والأوامرِ الَّتي أُمِرَ بها، والنَّواهي التي نُهِيَ عنها، وهذهِ الآيةُ استئنافٌ جيءَ بهِ لبيانِ حُكْمِ المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ، ولأنَّ الكلامَ المُفتتَحَ بالنِّداءِ والتَّنبيهِ لا يناسبُ عطفُهُ على ما قبلَهُ، وينبغي أنْ يُعتبَرَ افتتاحَ كلامٍ، بحيثُ لا يُعطَفُ إلّا بالفاءِ إذا كانَ مُترتِّبًا عمّا قبلَهُ؛ لأنَّ العطفَ بالفاءِ بعيدٌ عنِ العطفِ بالواوِ، وأوسعُ مِنْ جهةِ التَّناسبِ[1].

بلاغةُ تلوينِ الخطابِ:

تلطُّفُ اللهِ بالمؤمنينَ وتشريفُهُ لهُم

انتقلَ الأسلوبُ في قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مِنْ خطابِ النَّبيِّ ﷺ إلى خطابِ المؤمنينَ؛ لتشريعِ حُكمٍ جديدٍ لهُم، وهذا الانتقالُ تفنُّنٌ في الكلامِ، وتصريفٌ لهُ مِنْ لونٍ إلى لونٍ، وفي توجيهِ الخطابِ للمؤمنينَ تلطُّفٌ بهِم، وتشريفٌ لهُم بعِزِّ الخطابِ والحضورِ، وإيقاعٌ لهذا الحُكمِ المُهِمِّ في أسماعِهم وقلوبِهم مباشرةً، وفي توجيهِ الخطابِ للمؤمنينَ أيضًا بعد خطابِ النَّبيِّ ﷺ، وقبل خطابه أيضًا (بين خطابيه ﷺ) تشريفٌ للمؤمنين وتكريمٌ لهم، وإشارةٌ إلى خطورة هذا الحُكم.

بلاغةُ الافتتاحِ بالنِّداءِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

عِظَمُ شأنِ حُكمِ المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ

افتُتِحَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالنِّداءِ، واستُعمِلَتْ فيهِ (يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ، وجيءَ بعدها بـ(أي) المُبهمةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 651.

الشّديدةِ الإبهام لتشدَّ انتباه المُنادَى، ثم جيء معَها بهاءِ التَّنبيهِ؛ ليزداد بذلك جذبُ المُنادَى بتعيينه، فإذا بالاسم الموصول المُبهم ليزداد الشّوقُ لمعرفة مَن هو المنادَى، وإذا ببيان كلِّ هذا الإبهام أنَّ المُنادَى هم أهل الإيمان، إشارةً إلى شدَّةِ الاهتمام بمُناداةِ المؤمنينَ ولَفْتِ انتباهِهم للحُكم الَّذي سيُتلَى عليهم؛ فإنَّه حُكمٌ جليلٌ، وشأنُ الأخبارِ العظيمةِ الَّتي تَهولُ المُخاطَبَ أنْ يُقدَّمَ قبلَها ما يُهيِّئُ النُّفوسَ لقَبولِها؛ لتستأنسَ بها عندَ وُرودِها عليها، ولذلكَ لم يُقَلْ: (وإذا نكحَ المؤمنونَ المؤمناتِ ثمَّ طلَّقوهنَّ).

نكتةُ النِّداءِ بوصفِ الإيمانِ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

الإيمانُ وازِعٌ للمؤمنين للامتثالِ

نادى اللّهُ تعالى المؤمنينَ في قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بوصفِ الإيمانِ؛ تذكيرًا لهُم بعهدِ الإيمانِ، وإلهابًا لهُم وتهييجًا، وإشعارًا بأنَّ امتثال ما سيُلقَى إليهِم مِنَ الأحكامِ هو مِنْ مُقتضَياتِ الإيمانِ، فينبغي عليهِم إنْ أرادوا إثباتَ صِدْقِ إيمانِهم أنْ يمتثلوا لهُ، كأنَّهُ قيلَ: إنْ كنتُم مُؤمنينَ حقًّا فاعملوا بموجَبِ هذا الحُكمِ، ولم يُقَلْ: (يا أيُّها النّاسُ)؛ لشمولِه للمؤمنِ والكافرِ، وهذهِ الأحكامُ خاصَّةٌ بالمؤمنينَ، وأمّا الكافرونَ فتُطلَبُ منهُم بعدَ الدُّخولِ في الإسلامِ.

نكتةُ التَّعريفِ بالموصولِ:

مَنْ عُرِفَ بالإيمانِ سارعَ إلى الاستجابةِ

جُعِلَ طريقُ تعريفِ المُنادَى في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ طريقَ الموصوليَّةِ؛ لإفادة العموم ولِما تُؤذِنُ بِهِ الصِّلةُ مِن اشتهارِ المؤمنينَ بهذا الوصفِ الَّذي هو أخصُّ أوصافِهم، فشأنُ الموصولِ أنْ يكونَ بمنزلةِ المُعرَّفِ بلامِ العهدِ[1]، وفي ذلكَ - كما تقدَّمَ - تنبيهٌ على استعدادِ المؤمنينَ لامتثالِ أوامرِ اللّهِ تعالى.

ولم يُقَلْ: (يا أيُّها المؤمنونَ) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لأنَّ الإتيانَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 275.

بالماضي الدّاخلِ في حيِّزِ صلةِ الموصولِ أنسبُ بالتَّهييجِ والإلهابِ، بحملِ الماضي على معنى: (أحدَثوا الإيمانَ، كأنَّهُ قيلَ: يا أيُّها الَّذينَ قالوا: آمَنّا وأحدَثوا الإيمانَ)، ولو عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ لأفادَ الرُّسوخَ والثَّباتَ، وهو غيرُ مناسبٍ في هذا المقامِ.

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرطِ:

شأنُ المؤمنِ الامتثالُ الدّائمُ لحُكمِ الله

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾؛ لإفادةِ ترتُّبِ عدمِ العِدَّةِ على الطَّلاقِ قبلَ المَسِّ ترتُّبًا قويًّا، وفي التَّعبيرِ بهِ حثٌّ للمؤمنينَ على الامتثالِ بهذا الحكمِ كلَّما وقعَتْ لهُ صورةٌ في واقعِهم.

سرُّ إيثارِ ﴿إِذَا﴾ على (إنْ):

كثرةُ وقوعِ الطَّلاقِ قبلَ المَسِّ

اختيرَ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ)؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، و(إنْ) تُستعمَلُ في مقامِ عدمِ الجزمِ بوقوعِهِ[1]، والمقامُ هنا مقامُ بيانِ حكمٍ شرعيٍّ يَكثُرُ وقوعُهُ في حياةِ المؤمنينَ، فيناسبُهُ إيرادُ ﴿إِذَا﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

تحقُّقُ الطَّلاقِ قبلَ المَسِّ لا يوجِبُ العِدَّةَ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ لمّا كانَتْ للجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ غُلِّبَ لفظُ الماضي معَها؛ لدلالتِهِ على الوقوعِ قطعًا بالنَّظرِ إلى نفسِ اللَّفظِ، وإنْ كانَ معناهُ على الاستقبالِ؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ تقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ؛ لأنَّها للشَّرطِ في الاستقبالِ[2]، فتفيدُ هنا عدمَ وجوبِ العِدَّةِ على تحقُّقِ الطَّلاقِ قبلَ المَسِّ.

(1) التفتازاني، المختصر، ص: 270.
(2) التفتازاني، المختصر، ص: 270.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنِّكاحِ:

الارتباطُ بينَ الزَّوجيْن بالعقدِ قويٌّ وثيقٌ

المُرادُ بالنِّكاحِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ العقدُ باتِّفاقٍ، وقدِ اختُلِفَ في وجهِ تسميةِ العقدِ نكاحًا على أقوالٍ كثيرةٍ، ومِنْ جملةِ ذلكَ: أنَّهُ قد ذكرَ بعضُهم أنَّ النِّكاحَ حقيقةٌ في الوَطْءِ، وتسميةُ العقدِ نكاحًا مجازٌ؛ لملابستِهِ لهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ طريقٌ إليه[1]، وذكرَ بعضُهم أنَّ استعمالَ النِّكاحِ في معنى العقدِ حقيقةٌ شرعيَّةٌ[2]؛ لأنَّ أصلَ النِّكاحِ الضَّمُّ والإلصاقُ، فشُبِّهَ عقدُ الزَّواجِ بالالتصاقِ والضَّمِّ؛ لِما فيه مِن اعتبارِ انضمامِ الرَّجلِ والمرأةِ، فصارا كشيئَيْنِ متَّصلَيْنِ[3].

ولم يُسمَّ العقدُ زواجًا؛ لأنَّ التّزاوج تناغمٌ وتكاملٌ عامٌّ لا يَختصّ بالنِّكاح، فكلُّ ما عدا الفرد زوجٌ لشَبَه ما بينهما، ولم يُقل عقدًا؛ لأنَّ أغلب استخدام العقود في المادّيّات، وأمّا النِّكاح فهو عقدٌ معنويٌّ مخصوصٌ، تترتَّب عليه آثارٌ مادّيَّةٌ، ولذلك لمّا وصفه اللّه بغيرِ لفظِ النِّكاح؛ عبَّر عنه بالميثاق الغليظ، وهذا تعبيرٌ مجازيٌّ يُشعِر بعِظَم تلك العلاقة التي تنشأ عنِ النِّكاح.

براعةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

الإيمانُ أكملُ أوصافِ المرأةِ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على رسوخِ الإيمانِ وثبوتِهِ في المذكوراتِ، حتَّى صارَ سجيَّةً فيهنَّ، وفي ذلكَ حثٌّ للمؤمنِ الَّذي يريدُ النِّكاحَ على أنْ يكونَ إيمانُ مَنْ يختارُها للزَّواجِ نُصْبَ عينِهِ؛ لأنَّهُ وصفُ تشريفٍ يقتضي غايةَ الرَّغبةِ فيها[4].

سرُّ تخصيصِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بالحُكمِ:

المؤمنُ الفَطِنُ يَظْفَرُ بذاتِ الدِّين

الحُكمُ المذكورُ في الآيةِ تستوي فيه المؤمناتُ والكتابيّاتُ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 548، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 37.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 450.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 60.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 375.

لكنْ خُصّتِ المؤمناتُ بالذّكرِ في قولِه جلّتْ كلمتُه: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ للتّنبيهِ على أنّ الأوْلى بالمؤمنِ أنْ يتخيّرَ لنُطفتِه، وألّا ينكحَ إلّا مؤمنةً عفيفةً؛ فإنّها أشدُّ تحصينًا لدينِه، ويتنزّهَ عن نكاحِ الفواسقِ والكوافرِ[1].

ويحتملُ أنْ يكونَ اللّفظُ قد خرجَ مَخْرَجَ الغالبِ[2]؛ لأنّ نساءَ المؤمنينَ يومئذٍ لم يكنّ إلّا مؤمناتٍ، وليسَ فيهنّ كتابيّاتٌ[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى ما سيكون في حياة المؤمنين من وجود زواج الكتابيّات.

سرُّ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

التّراخي الرُّتبيّ احـــتراسٌ من تـوهُّـم تـأثيرِ التّراخي الزّمنيّ في الحُكم

الرّاجحُ أنْ تكونَ ﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي الرُّتبيّ لا للتّراخي الزّمنيّ، فتفيدُ التّباينَ بينَ الزّواجِ والطّلاقِ؛ فالزّواجُ للحبِّ والأُنسِ والأُلفةِ، والطّلاقُ بعكسِ ذلكَ، ويُؤدّي لقلّةِ التّناسلِ الّذي بِه تَكْثُرُ الأمّةُ[4]، فيفيدُ الكلامُ تقبيحَ أمرِ الطّلاقِ؛ لما يترتّبُ عليهِ مِنَ المفاسدِ؛ أيْ: نكحتموهنّ ولم يظهر لذلك النّكاح أثرٌ حسّيٌّ ولا معنويٌّ بسببِ الطّلاقِ.

كما أنّ من فوائد مجيءِ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ إشارةً إلى معنًى لطيفٍ في تحديدِ أمرِ العِدّةِ؛ لأنّهُ قد يُظَنُّ وجوبُ العِدّةِ على المرأةِ الّتي عُقِدَ عليها، وطالَ زمنُ العقدِ، ثمّ طُلِّقَتْ قبلَ الدُّخولِ، فنُصَّ بهذهِ الكلمةِ على أنّ ذلكَ لا يجبُ، والّتي يُعقَدُ عليها وتُطلَّقُ مِنْ غيرِ تطاولِ زمنٍ؛ تكونُ أوْلى في عدمِ وجوبِ العِدّةِ[5]، فيزول بذلك الاحتراسِ فهمُ البعض بأنّ هذا للتي طال نكاحُها.

ويمكن أنْ يكونَ التّعبيرُ بها جريًا على الغالبِ[6]؛ إذِ الغالبُ أنْ تكونَ هناكَ مدّةٌ بينَ العقدِ والتّطليقِ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 548، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 175.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 440.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 60.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 226، واطفيّش، تفسير اطفيّش: 8/ 188.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 584.

(6) السّمين، الدُّرُّ المَصون: 9/ 131.

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾:

ابتداءُ وقوعِ الطَّلاقِ قبلَ المَسِّ

حرفُ الجرِّ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ لابتداءِ الغايةِ الزَّمانيَّةِ، وهو يفيدُ أنَّ ابتداءَ الطَّلاقِ الَّذي لا يوجبُ العِدَّةَ ينبغي أنْ يكونَ قبلَ المَسِّ، والمُرادُ وقوعُ الطَّلاقِ قبلَ المَسِّ، وفي الإتيانِ بـ﴿مِن﴾ تأكيدٌ للقَبْلِيَّةِ، ولذلكَ لم يُقَلْ: (قبلَ أنْ تمسّوهنَّ).

غرضُ تخصيصِ المُطَلَّقاتِ قبلَ المَسِّ بالذِّكرِ:

المؤمنُ يُراعي المودَّةَ والعهدَ

خُصَّتِ المُطلَّقاتُ قبلَ المَسِّ بالذِّكرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ إرشادًا للمؤمنينَ إلى أعلى درجاتِ المَكرُماتِ؛ ليُعلَمَ منها حُكمُ ما دونَها، وبيانُ ذلكَ: أنَّ المرأةَ إذا طُلِّقَتْ قبلَ المَسِّ لم يحصلْ بينَهما تأكُّدُ العهدِ، وإذا أمرَ اللّٰهُ المؤمنَ بالتَّمتيعِ والإحسانِ لِمَنْ لا مودَّةَ بينَهُ وبينَها؛ فمَنْ حصلَتْ بينَهُ وبينَها مودَّةٌ أَوْلى بذلكَ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

على المُطلِّقِ التَّثبُّتُ مِنْ إيقاعِ الطَّلاقِ قبلَ المَسِّ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ لأنَّ المَسَّ المنفيَّ مستقبلٌ بالنِّسبةِ لزمنِ الطَّلاقِ، والمضارعُ وإنْ كانَ يَصلُحُ في الأصلِ للحالِ والاستقبالِ، لكنَّ دخولَ ﴿أَن﴾ عليهِ هنا عيَّنَهُ للاستقبالِ، وفي ذلكَ إرشادٌ للمُطلِّقِ بأنَّهُ ينبغي عليهِ أنْ يتثبَّتَ ويتأكَّدَ أنَّ طلاقَهُ قد وقعَ قبلَ الدُّخولِ.

بلاغةُ القراءاتِ في ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾:

اشتمالُ كلِّ قراءةٍ على معنًى جديدٍ

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿تُمَآسُّوهُنَّ﴾، وقرأ الباقونَ: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾[2]، والمعنى على القراءتيْنِ واحدٌ، وهو الجماعُ[3]، إلّا أنَّ القراءةَ الأولى مِنَ المفاعلةِ؛ إذِ المَسُّ إنَّما يكونُ مِنَ الطَّرفيْنِ[4]، فتكونُ أدلَّ على حصولِ الجماعِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 175.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 228.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 390.
(4) القُونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 15/ 385.

ولأنَّ المرأة إذا دعاها زوجها سارعت إليه طاعةً له، فيكونُ في ذلك إشارةٌ إلى أنَّ هذا الأمر يكون منَ الطرفَيْن معًا من جهةٍ، وإلى أنَّه برغبة الزَّوج ابتداءً من جهةٍ أخرى، فتدلّ كلُّ قراءةٍ منهما على معنًى مُستقلٍّ.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَمَا لَكُمْ﴾:

عـدمُ الـعِـدَّةِ مُـترتِّـبٌ قطعًا على الطَّلاقِ قبلَ المَسِّ

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ فاءُ الجوابِ، وهي رابطةٌ لجملةِ جوابِ الشَّرطِ بما قبلَها، وفائدتُها تقويةُ السَّببيَّةِ بينَهما، وتأكيدُ ترتُّبِ عدمِ العِدَّةِ على الطَّلاقِ قبلَ المَسِّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

انتفاءُ العِدَّةِ عن المُطلَّقةِ حُكمٌ ثابتٌ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ الدّالَّةِ على الثُّبوتِ والدَّوامِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾، ولم يُقلْ مثلًا: (فلا يَعْتَدِدْنَ)، أو (فلا تجبُ عليهنَّ العِدَّةُ)؛ لتأكيدِ عدمِ وجوبِ العِدَّةِ عليهنَّ؛ لأنَّ في العِدَّةِ حقًّا للزَّوجِ، فعُنيَ بنفْيِه؛ لئلّا يُظَنَّ أنَّ ما بينَهما منَ العقدِ يوجبُ العِدَّةَ، وفي ذلكَ تيسيرٌ على المرأةِ الَّتي طُلِّقَتْ قبلَ الدُّخولِ بها، ولتكونَ الجملةُ ملائمةً لسياقِ الخطابِ للمؤمنينَ.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَكُمْ﴾:

مقصودُ العِدَّةِ رعايةُ مصلحةِ الأزواجِ

اللّامُ في قولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ للاستحقاقِ[1]، ووقوعُها في سياقِ النَّفيِ يفيدُ نفيَ استحقاقِ الزَّوجِ العِدَّةَ على المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ، وإنَّما جُعِلَتِ العِدَّةُ في الشَّرعِ للأزواجِ؛ لأنَّهم يملكونَ مراجعةَ أزواجِهم ما دُمْنَ في مدَّةِ العِدَّةِ، ولأنَّ المقصدَ منها راجعٌ إلى نفعِ الأزواجِ بحفظِ أنسابِهم باستبراءِ أرحامِ المُطلَّقاتِ[2]، وذلكَ أساسٌ في تماسكِ كيانِ الأُسرةِ، وتنقيةِ الأنسابِ؛ حتَّى تتواصلَ قلوبُ الآباءِ بالأبناءِ في

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 385.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 61.

جوٍّ مِنَ الثِّقةِ والاطمئنانِ، وحتَّى يقومَ الآباءُ بواجبِهم نحوَ الأبناءِ مِنْ غيرِ شكٍّ[1].

قطعُ أطماعِ الزَّوجِ في العِدَّةِ

سرُّ تقديم ﴿لَكُمْ﴾:

قُدِّمَ المُسنَدُ ﴿لَكُمْ﴾ على المُسنَدِ إليهِ ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، والمسارعةِ إلى نفيِ حقِّ الزَّوجِ في العِدَّةِ على مُطلَّقتِهِ قبلَ الدُّخولِ؛ قطعًا لأطماعِهِ في ذلكَ، ولأنَّ تأخيرَ ﴿لَكُمْ﴾ يترتَّبُ عليهِ اختلالُ نَظْمِ الكلامِ.

نفيُ وجوبِ العِدَّةِ على المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ تيسيرٌ مِنَ الشَّارعِ

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾:

حرفُ الجرِّ (على) في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، وهو يدلُّ على الوجوبِ والتَّكليفِ[2]؛ أيْ: وجوب عدم تكليف المُطلَّقة قبل الدُّخول بالعدَّة، وكأنَّ الحُكمَ المُكلَّفَ بهِ قد أحاطَ بالمُكلَّفِ، واستعلَى عليهِ، وقد يسَّرَ الشَّارعُ على المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ، فخفَّفَ عنها أعباءَ العِدَّةِ، فلم يوجِبْها عليها.

مراعاةُ الشَّارعِ جانبَ المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ

بلاغةُ الطِّباقِ:

في قولِ اللهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ﴾ مُحسِّنٌ معنويٌّ، وهو الطِّباقُ بينَ ﴿لَكُمْ﴾ و﴿عَلَيۡهِنَّ﴾؛ فالأوَّلُ يُفيدُ في الأصلِ النَّفْعَ والاستحقاقَ، والآخرُ يُفيدُ الضَّرَّ والتَّكليفَ، وأمّا في هذا السّياقِ فقد نُفيَ استحقاقُ الرَّجلِ للعِدَّةِ، ونُفيَ تكليفُ المرأةِ بها، فروعيَ جانبُ المرأةِ؛ جبرًا لخاطرِها لئلّا يجمعَ لها بين ألمِ الطَّلاقِ الذي لم تنعم فيه بشيءٍ، وطولِ العدَّةِ التي تحول بينها وبين الزّواج، ولانتفاءِ حكمةِ العِدَّةِ، وهي استبراءُ الرَّحِمِ على أحد الوجوه؛ إذ لم يقعْ دخولٌ هنا.

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿مِنۡ عِدَّةٖ﴾:

جيءَ بحرفِ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ

(1) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 370.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 376.

عـمـومُ انـتـفـاءِ الـــعِــدَّةِ عـنِ الْمُـطـلَّـقـةِ قبـلَ الَمــسِّ انـتـفـاءً مُؤكَّدًا

﴿عِدَّةٍ﴾ لتأكيدِ عموم النَّفيِ المُستفادِ مِنْ (ما)[1]؛ لأنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تُفيد غلبةَ العموم (تفيدُ العمومَ بالظّاهر)، فإذا دخل حرفُ الجرِّ الزّائدُ عنِ النَّكرة أفاد اليقينَ في العموم، وعدمَ تخصيصه أبدًا (تُفيد العموم بالنَّصِّ)، فدخولُها على النَّكرةِ أفادَ الاستقصاءَ في عموم النَّفي، حتَّى كأنَّهُ قد بُحِثَ عن عِدَّةٍ تكونُ حقًّا للمؤمنينَ على المُطلَّقاتِ، فلم يُعثَرْ عليها في أيِّ زمانٍ وفي أيِّ مكانٍ ولا بأيّةِ حالٍ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عِدَّةٍ﴾:

لا تَـبِـعـةَ على الْمُـطـلَّـقـةِ قبلَ الدُّخولِ في تركِ العِدَّةِ

تنكيرُ ﴿عِدَّةٍ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾ للعمومِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ، والمعنى: فما لكُم عليهنَّ مِنْ جنسِ العِدَّةِ شيءٌ[2]، قليلًا كانَ أو كثيرًا، فتفيدُ الجملةُ المبالغةَ في نفيِ العِدَّةِ الواجبةِ على المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ، وفي ذلكَ تبرئةٌ لساحتِها مِنْ أنْ يلحقَها تقصيرٌ في طاعةِ اللّهِ تعالى، أو تأديةِ حقوقِ العبادِ.

نكتةُ صيغةِ الافتعالِ:

الـتَّـشـديـدُ في استكمالِ أيّامِ العِدَّةِ

عُبِّرَ بصيغةِ الافتعالِ في قولِه ﷻ: ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾؛ للإشعارِ بالتَّشديدِ في عددِ أيّامِ العِدَّةِ، ووجوبِ استيفائِها وإكمالِها يومًا فيومًا؛ لأنَّ حاصلَ معنى ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾: تستوفونَ عددَها، على أنَّ (اعتدَّ) مُطاوِعُ (عدَّ)، يُقالُ: عَدَدْتُ الدَّراهمَ فاعتدَّها؛ أيْ: عدَّها لنفسِه[3]، كأنَّ المُطلَّقةَ عدَّتِ الأيّامَ للتَّربُّصِ، فاعتدَّ الزَّوجُ؛ أيْ: قَبِلَ العددَ[4].

لا تُلزَمُ المُطلَّقةُ بـمـا لا يـجـبُ عليها منَ العِدَّةِ

ويُحتملُ أن يكون المعنى: (فما لكم عليهنَّ من عدَّةٍ تُلزمونهنَّ بها من غير وجوهٍ)، من باب الافتعال الذي هو بمعنى الاختلاق،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 376.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 60.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 108، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 225.

(4) القُونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 385.

كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ﴾ [البقرة: 116]؛ أي: ادَّعَوا له ولدًا غيرَ موجودٍ؛ أيْ: تُلزمونهنّ بعدَّةٍ غيرِ واجبةٍ عليهنَّ، واتَّخذ الرَّجل زوجةً؛ أيْ: تزوَّج بعد أن لم يكن.

تُحصى أيّامُ العِدَّة للمُطلَّقة بدقَّةٍ

ويحتملُ أنْ يكونَ معنى ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾: تعدّونَها عليهنَّ؛ أيْ: تعدّونَ أيّامَها عليهنَّ، كما يُقالُ: اعتدَّتِ المرأةُ، إذا قَضَتْ أيّامَ عِدَّتِها، فصيغةُ الافتعالِ ليسَتْ للمطاوعةِ، ولكنَّها بمعنى الفعلِ، نحوُ: اضطُرَّ إلى كذا[1].

سِرُّ إسنادِ العِدَّةِ للرِّجالِ:

العِدَّةُ حقٌّ الأزواجِ على زوجاتِهم عند الطّلاقِ

إسنادُ الاعتدادِ إلى الرِّجالِ في قولِهِ ﷻ: ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ العِدَّةَ حقٌّ للأزواجِ[2]، أوجبَهُ لهُمُ الشَّرعُ؛ استبراءً للرَّحِمِ على أحد الأقوال، لاحتمالِ الولدِ، ولا يَخفَى أنَّ في العِدَّةِ حقًّا للّٰهِ تعالى، ولذلكَ لا تسقطُ بإسقاطِ الزَّوجِ، لكنْ لمّا غلبَ فيها حقُّ العبدِ نُسِبَتْ إليهِ[3]، ويُقوّي كونَها حقًّا للأزواجِ اللّامُ في ﴿لَكُمۡ﴾ كما تقدَّمَ.

نكتةُ صيغةِ المضارعِ ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾:

استيفاءُ العِدَّةِ يحصلُ بالتَّدريجِ مع تهيئةِ النَّفس وإعدادِها

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾؛ لأنَّ استيفاءَ أيّامِ العِدَّةِ - لو وجبَتْ - يكونُ تدريجيًّا في المستقبلِ؛ لأنَّها تنقضي شيئًا فشيئًا، ولأنَّ الزَّوجَ يُهيئُ نفسَه ويُعِدُّها لأخذ قراره أثناء العدَّة، إمّا بالرَّجعة، وإمّا بتمام الفراق، والمرأةُ تُعِدُّ نفسَها وتُهيِّئُها للزَّواج منتظرةً انتهاءَ أيّامِ عدَّتِها.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ ﴿عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾ مُحسِّنٌ لفظيٌّ، وهو جناسُ الاشتقاق، وهو الجناسُ بينَ ﴿عِدَّةٖ﴾ و﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾، ويترتَّبُ عليهِ التَّناغمُ الصَّوتيُّ بينَ ألفاظِ الآيةِ الكريمة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 61.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 235.
(3) القُونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 385.

بلاغةُ الفاءِ:

الإيجازُ بتنوُّعِ الاحتمالاتِ تبعًا لتنوُّعِ معاني الفاء

الفاءُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ إمّا أن تكون للتّفريع، فتكونَ لتفريع التَّمتيع على عدم وجوبِ العِدَّةِ على المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ[1]، وجيءَ بها لأنَّ حكمَ التَّمتيعِ مُقرَّرٌ في قولِه تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ [البقرة: 236] الآية[2]، وعليه فيكون التَّمتيعُ مُتسبِّبًا عنِ الطَّلاق مع عدمِ وجوبِ العِدَّة.

وجوِّزَ أنْ تكونَ الفاءُ فصيحةً دالَّةً على شرطٍ محذوفٍ؛ أيْ: إذا كانَ كما ذُكِرَ فمتِّعوهنَّ[3]، فليس معنى أنَّه لا عدَّة عليهن، أن تمتنعوا من تمتيعِهنَّ.

دلالةُ الأمرِ ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾:

المتعةُ جَبْرٌ لخاطِرِ المرأةِ المُنكسِرِ بالطَّلاقِ

ظاهرُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ الوجوبُ؛ لأنَّ أصلَ صيغةِ الأمرِ للوجوبِ، ومِنَ العلماءِ مَنْ حملَ الأمرَ هنا على النَّدبِ، ومنهُم مَنْ فصَّلَ فقالَ بالوجوبِ إنْ لم يُسَمَّ لها مهرٌ في العقدِ، وبالنَّدبِ إنْ كانَ مُسمًّى لها مهرٌ[4]، وأيًّا ما كانَ فالأمرُ بالتَّمتيعِ جَبْرٌ لخاطرِ المُطلَّقةِ المُنكسِرِ بالطَّلاقِ التي لم تَنعمْ فيه من زوجها بشيء، وتخفيفٌ لآلامِ الفراقِ عليها[5].

براعةُ توالي النّوناتِ:

التّناغمُ الصَّوتيُّ بينَ ألفاظِ الآيةِ

مع أنَّ تواليَ الحروف عيبٌ من عيوب الفصاحة والبلاغة، إلّا أنَّ في توالي النّوناتِ المُشدَّدةِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ تناغمًا صوتيًّا بينَ ألفاظِ الآيةِ يُخفِّفُ ثِقَلِ التَّشديد، ويجعلُهُ صورةً

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 229.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 61.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 229.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 549، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 461.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 62، وأبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 370.

مِنْ صورِ الجمالِ؛ لأنَّهُ يَخْلِبُ الأسماعَ بالغُنّاتِ المتتاليةِ، وأغلبُ ما يكون ذلك في الميم والنّون.

فائدةُ عطفِ الأمرِ بالتَّسريحِ:

التَّسريحُ بإحسانٍ مَنْ كرمِ أخلاقِ المؤمنِ

بعدَما أمرَ ﷺ بالمتعة؛ أمرَ في قولِه: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ بزيادةِ الإحسانِ إلى المُطلَّقةِ بإخراجِها مِنَ المنزلِ بلُطْفٍ وإكرام، وعدم الإضرار بها[1]، وذلكَ مِنْ تكريمِ الإسلامِ للمرأةِ، ومراعاتِهِ لخاطرِها.

علَّةُ تنكيرِ ﴿سَرَاحٗا﴾:

المؤمنُ يتحرَّى أكملَ الأخلاقِ

جاء تنكيرُ ﴿سَرَاحٗا﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ للنَّوعِ؛ أيْ: وسرِّحوهنَّ نوعًا مِنْ أنواعِ السَّراحِ، وهو السَّراحُ الجميلُ، وفي ذلكَ تنبيهٌ للمؤمنِ لئلّا تصرفَهُ لحظاتُ النِّزاعِ والطَّلاقِ والفراقِ عن محاسنِ الأخلاقِ والشّيَمِ، وألّا يتَّخذَ هذهِ اللَّحظاتِ ذريعةً لسوءِ الخُلُقِ، وعليهِ أنْ يراقبَ نفسَهُ؛ فإنَّ هذهِ اللَّحظاتِ هي الميزانُ الدَّقيقُ للأخلاقِ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ المصدرِ ﴿سَرَاحٗا﴾:

تأكيدُ الفعلِ ودفعُ توهُّمِ المَجازِ

جيءَ بـ﴿سَرَاحٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ لتأكيدِ الفعلِ باسمِ المصدرِ، فهو عِوَضٌ عن تَكرارِ الفعلِ مرَّتيْنِ، وفائدتُهُ دفعُ توهُّمِ المَجازِ، وليُتوصَّلَ إلى وصفِهِ بكونِهِ جميلًا؛ لأنَّهُ حيثُ أُكِّدَ بالمصدرِ النَّوعيِّ فالأصلُ فيهِ أنْ يُنعَتَ بالوصفِ المُرادِ منهُ[2]، والَّذي هو مَحَطُّ العنايةِ والفائدةِ، فليسَ المُرادُ مُطلَقَ السَّراحِ؛ بلِ السَّراحُ الجميلُ.

بلاغةُ وصْفِ السَّراحِ بالجمالِ دون الحُسْنِ:

وجوبُ ضبطِ الإنسانِ نفسَه في حالِ الشّدَّةِ والغضبِ

إنَّما يُستعمَلُ الجمالُ في أوقاتِ الغضبِ والشِّدَّةِ والانفعالِ، كالحُزنِ والأذى والطَّلاقِ، فيكون الجمال في الصَّبر والهجر

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 37.

(2) الزَّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/ 401.

والسَّراح، وهو على هذا مناسبٌ للحال التي يقع فيها الطَّلاقُ بين الزَّوجيْن، وذلك بخلاف الحُسْن.

المُتشابهُ اللّفظيُّ:

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾ [الأحزاب: 28]، والفرقُ بين الآيتيْن في أمور **منها**: عدمُ ذِكْر الطَّلاق في آية التّخيير، وذُكر هنا في الآية التي معنا، وذلك أنَّ الطَّلاق يُضرُّ بالمرأة، ولا يضرُّ النَّبيُّ ﷺ أحدًا أبدًا، ولذلك سُمّيت آيةَ التَّخيير، والاختيارُ هنا يكون منَ المرأة لا منَ الرَّجل، فيلزم منَ التّخيير اتّفاقُ الطّرفيْن على المُفارقة والسَّراح، وهذا ليس بطلاقٍ.

ومنها: أنّه جاء الفعلُ ﴿أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾ [الأحزاب: 28] بصيغة المضارع في آية التَّخيير في جواب الشَّرط المبدوء بـ﴿إِن﴾ [الأحزاب: 28] الدّالِّ على الشّكِّ في وقوع الفعل، فإن وقع الشَّرط وقع الجواب وإلّا فلا، ولمّا لم يقع الشّرط لم يقعِ الجواب، فلم يكن لأزواج النّبيّ ﷺ متعةٌ ولا سراحٌ، حيث لم تقعِ المفارقةُ، وأمّا هنا فجاءتِ المتعةُ والسّراح بالفعل الماضي؛ لأنَّها جاءت في جملةٍ معطوفةٍ أو متسبِّبةٍ على جوابِ شرطٍ، بُدئَ بـ﴿إِذَا﴾ الدّالّ على تحقُّقه، فكان الوجوب والسَّراح لازميْن يقينًا إذا وقع الفعل وهو الطَّلاقُ قبل الدُّخول.

خامسًا: الفُروقُ المعجمية:

الطَّلاقُ والتَّسريحُ:

أغلبُ استخدامِ القرآن للطَّلاق إنَّما يكون قبل وقوعه، أو حالَ وقوعه، أو بعد وقوعه مباشرةً، وأغلب استعمالِ السَّراح في القرآن إنَّما يكون عند انتهاء العدَّة، أو قبلها بقليل، وقيل: الطَّلاقُ فيه إشارةٌ إلى التَّخليةِ منَ الوَثاقِ، يُقالُ: أطلقتُ البعيرَ منْ عقالِه، ومنهُ استُعيرَ الطَّلاقُ؛ إذ هو حلُّ وثاقِ المرأةِ، وهو النِّكاحُ[1]، والتَّسريحُ فيه إشارةٌ إلى الإرسالِ

(1) الرَّاغب، المُفردات: (طلق).

فكُّ وثاقِ النِّكاحِ يَعْقُبُهُ الإرسالُ والتَّخليةُ بإحسانٍ

والإطلاقِ، ويُستعمَلُ في الطَّلاقِ أيضًا، وقد جُمِعَ بينَهما في الآيةِ للإشارةِ إلى أنَّ على الزَّوجِ بعدَ حلِّ وثاقِ نكاحِ المرأةِ بالطَّلاقِ أنْ يُخلّيَ سبيلَها ويُرسِلَها بإحسانٍ مِنْ غيرِ إضرارٍ بها، ولا ينبغي أنْ يجعلَ الطَّلاقَ وسيلةً لظُلمِ المرأةِ والإساءةِ إليها وأكلِ حقوقِها.

المَسُّ واللَّمْسُ:

اللَّمْسُ قد يُقالُ لطلبِ الشَّيءِ وإنْ لم يوجَدْ، والمَسُّ يقالُ فيما يكونُ مُدركًا باللَّمْسِ

اللَّمْسُ قد يُقالُ لطلبِ الشَّيءِ وإنْ لم يوجَدْ، والمَسُّ يقالُ فيما يكونُ معَهُ إدراكٌ بحاسَّةِ اللَّمْسِ، ويُكنَى بهِ عنِ الجماعِ[1]، واللَّمسُ يكونُ باليدِ خاصَّةً لمعرفةِ اللّينِ منَ الخُشونةِ، والحرارةِ منَ البرودةِ ونحوِ ذلكَ، والمَسُّ يكونُ باليدِ والحجرِ وغيرِهما[2].

الجمالُ والحُسْنُ:

الجـمـالُ أمـرٌ ذاتيٌّ وقد يُتكلَّف ويُكتسب، بينما الحُسْنُ يكون صفةً للذَّوات والأفعال

الجمال خُلُقٌ يُستعملُ في أوقات الغضب والشّدّة والانفعال، كالحزن والأذى والطّلاق، فيكون الجمال في الصّبر والهجر والسّراح، وقلّما يُستخدم في الذَّوات والصّوَر، وهو أمرٌ ذاتيٌّ وقد يُتكلَّف، وقد يُكتسب، بينما الحُسْنُ يكون صفةً للذَّوات والأفعال، وهو أمرٌ ذاتيٌّ لا يُتكلّف ولا يُكتسبُ، فلا يُقال: تحسَّنتِ المرأة، إنّما يُقال: تزيَّنت وتجمَّلت[3].

(1) الرَّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدةُ الحُفَّاظ: (مسس).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 262.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠﴾ [الأحزاب: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ التَّشريفِ والتّفضيلِ، ودفعُ الشّبهات بعدَ ذِكْرِ التّكليفِ

بعدَما ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ بعضَ مسؤوليّاتِ الرِّسالةِ؛ جاءَتْ هذهِ الآيةُ للتّوسعةِ على النَّبيِّ ﷺ في أمرِ النِّساءِ، وذِكْرِ ما فضَّلَه اللّهُ بهِ[1]، أوِ اختصّه ﷺ به دون المؤمنين؛ كنكاح الواهبة نفسَها، وذلك بعد ذِكْر بعض أنكحةِ المؤمنين.

وقيل: لمّا خاضَ المنافقونَ في زواجِ النَّبيِّ ﷺ من زينبَ بنتِ جحشٍ رضي الله عنها، وقالوا: تزوَّجَ مَنْ كانَتْ حليلةَ مُتبنّاهُ؛ جمعَ سبحانه وتعالى في هذهِ الآيةِ مَنْ يَحِلُّ للنَّبيِّ ﷺ تزوُّجهنَّ؛ حتَّى لا يقعَ النّاسُ في الشَّكِّ والرّيبةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾: (حلل) أصلٌ يدلُّ على فتحِ الشَّيءِ[3]، والحلالُ: المباحُ، وأصلُهُ مِنْ حلِّ العُقْدَة؛ أيْ: أزالَ ما كانَتْ ممنوعةً به، فالحلالُ: ما ارتفعَ عن تعاطيهِ المنعُ[4]، ومعنى ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾: أبَحْنا.

(1) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 371.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 62.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلل).
(4) الرَّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: (حلل).

2) ﴿أَفَآءَ﴾: (فيأ) أصلٌ يدلُّ على الرُّجوعِ، ومِنْ ذلكَ يُقالُ: فاءَ الفيءُ، إذا رجعَ الظِّلُّ مِنْ جانبِ المغربِ إلى جانبِ المشرقِ[1]، ويُقالُ: فاءَ إلى اللهِ فيئةً حسنةً، إذا تابَ ورجعَ[2]، والفيءُ أيضًا: الغنيمةُ الَّتي لا يلحقُ فيها مشقَّةٌ[3]؛ بل ينالُها المسلمونَ من العدوِّ بغيرِ قتالٍ، وهي المُرادُ هنا[4].

3) ﴿هَاجَرْنَ﴾: (هجر) أصلٌ يدلُّ على مفارقةِ الإنسانِ غيرَهُ، إمّا بالبدنِ، أو باللِّسانِ، أو بالقلبِ[5]، والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ[6]، والهجرةُ في الشَّرعِ: الخروجُ مِنْ دارِ الكفرِ إلى دارِ الإسلامِ، ومنهُ الهجرةُ مِنْ مكَّةَ إلى المدينةِ[7]؛ وهي المُرادةُ هنا.

4) ﴿وَهَبَتْ﴾: (وهب) الهِبَةُ: جعلُ المِلْكِ للغيرِ بغيرِ عِوَضٍ، ويوصَفُ اللهُ تعالى بالواهبِ والوهّابِ؛ لأنَّهُ يُعطي مِنْ غيرِ استحقاقٍ مِنَ العبدِ؛ بل هو تفضُّلٌ منهُ على خَلْقِهِ[8]، والمُرادُ بهِبَةِ المرأةِ نفسَها للنَّبيِّ ﷺ أنْ تجعلَ نفسَها هبةً لهُ دونَ مهرٍ[9].

5) ﴿خَالِصَةً﴾: (خلص) أصلٌ يدلُّ على تنقيةِ الشَّيءِ وتهذيبِهِ[10]، ومِنْ ذلكَ: التَّخليصُ، وهو التَّصفيةُ[11]، وخُلوصُ الشَّيءِ: عدمُ الشِّركةِ فيهِ[12]، والمُرادُ بكونِ المرأةِ خالصةً للنَّبيِّ ﷺ أنَّهُ لا يشاركُهُ فيها أحدٌ[13].

6) ﴿فَرَضْنَا﴾: (فرض) أصلٌ يدلُّ على تأثيرٍ في شيءٍ بالحَزِّ أو غيرِهِ[14]، أو على قطعِ الشَّيءِ الصُّلْبِ والتَّأثيرِ فيهِ، كفَرْضِ الحديدِ، والفَرْضُ: الإيجابُ، وسُمّيَ بذلكَ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فيأ).
(2) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (فيأ).
(3) الخليل، العين: (فيأ)، والرَّاغب، المُفردات: (فيأ).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 65.
(5) الرَّاغب، المُفردات: (هجر).
(6) الجوهريّ، الصِّحاح: (هجر)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (هجر).
(7) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (هجر).
(8) السمين، عُمدة الحُفَّاظ: (وهب)، والزّبيديّ، تاج العروس: (وهب).
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 67.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلص).
(11) الزمخشريّ، أساس البلاغة: (خلص).
(12) الخليل، العين، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (خلص).
(13) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 70.
(14) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهريّ، الصِّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فرض).

لأنَّهُ لازمٌ للعبدِ لُزومَ الحَزِّ للمحزوزِ[1]، والمُرادُ بالفرضِ هنا: التَّكليفُ والإيجابُ[2].

7) ﴿حَرَجٌ﴾: (حرج) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ وضيقِهِ[3]، ومِنْ ذلكَ: الحَرَجُ، وهو الشَّجرُ الملتفُّ[4]، والمكانُ الضَّيِّقُ[5]، والحَرَجُ أيضًا: الإثمُ[6]، والمُرادُ بالحَرَجِ هنا: أدنى الحَرَجِ، وهو ما في التَّكليفِ مِنْ بعضِ الحَرَجِ الَّذي لا تَخلو عنهُ التَّكاليفُ[7].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ بعضِ خصائصِهِ ﷺ

يا أيُّها النَّبيُّ إنّا أحلَلْنا لكَ أزواجَكَ اللّاتي أعطيتَهنَّ مهورَهنَّ، وأحلَلْنا لكَ إماءَكَ اللّاتي ملكتَهنَّ دونَ حربٍ وقتالٍ، وأحلَلْنا لكَ نساءَ قرابتِكَ مِنْ جهةِ العُمومةِ وجهةِ الخُؤولةِ المهاجراتِ معَكَ، وأحلَلْنا لكَ امرأةً مؤمنةً إنْ وهبَتْ نفسَها لكَ بغيرِ صَداقٍ، ورغبتَ في نكاحِها، لا يَحِلُّ ذلكَ لأحدٍ مِنْ أمَّتِكَ؛ فإنّا قد فرَضْنا على المؤمنينَ في أزواجِهم وإمائِهم أحكامًا لم نوسِّعْ عليهِم فيها كما وسَّعْنا عليكَ، وقد أحلَلْنا لكَ ما سبقَ؛ لئلّا تقعَ في الضّيقِ أبدًا، وكانَ اللهُ غفورًا لكَ ولأهلِ الإيمانِ، رحيمًا بكَ وبهِم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عما قبلها:

ما خُصَّ بهِ النَّبيُّ ﷺ مُفرَدٌ بالذِّكرِ

فُصِلَتْ هذهِ الآيةُ عمّا قبلَها؛ لِما بينَهما مِنَ الاختلافِ في الغرضِ؛ فما قبلَها خطابٌ للَّذينَ آمنوا، فيه بيانُ حُكمِ المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرض).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 70.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرج).
(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حرج).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (حرج).
(6) الرَّاغب، المُفردات: (ج).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 71.

بها، وهذهِ الآيةُ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، فيه بيانُ بعضِ الأمورِ الخاصَّةِ به في النِّكاحِ، ولأنَّ الكلامَ المُفتَتَحَ بالنِّداءِ لا يناسبُ عطفُهُ على ما قبلَهُ بغيرِ الفاءِ، فينبغي أنْ يُعتبَرَ افتتاحَ كلامٍ.

براعةُ تلوينِ الخطابِ:

النَّبيُّ ﷺ إنسانُ عينِ التّكريمِ والتّشريفِ

انتقلَ الأسلوبُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ مِنْ خطابِ المؤمنينَ إلى خطابِ النَّبيِّ ﷺ؛ لبيانِ ما يتعلَّقُ بتحليلِ أصنافٍ مِنَ النِّساءِ لهُ، وما خصَّهُ اللّهُ تعالى بهِ مِنَ التَّوسعةِ عليهِ في هذا البابِ، وهذا الانتقالُ تفنُّنٌ في الكلامِ، وتصريفٌ لهُ مِنْ لونٍ إلى لونٍ، ومِنْ مُخاطَبٍ إلى مُخاطَبٍ آخرَ[1]، وما أجملَ هذا التَّناغمَ والتَّعاقبَ بينَ النَّبيِّ ﷺ - وهو رأسُ أهلِ الإيمانِ - وبينَ المؤمنينَ في نَيْلِ الهِباتِ الرَّبّانيَّةِ! وأيضًا في توجيهِ الخطابِ للنَّبيِّ ﷺ تلطُّفٌ بهِ، وتشريفٌ لهُ بعِزِّ الخطابِ والحضورِ.

بلاغةُ الافتتاحِ بالنِّداءِ:

النَّبيُّ ﷺ بينَ حلاوةِ القُرْبِ وعِزِّ التَّشريفِ

عُبِّرَ بالنِّداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، واستُعمِلَتْ فيهِ (يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ، وجيءَ معَها بهاءِ التَّنبيهِ؛ إشارةً إلى العنايةِ البالغةِ بمضمونِ الكلامِ الَّذي فيه تنويهٌ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ، ببيانِ التَّوسعةِ عليهِ في المُحلَّلاتِ لهُ في النِّكاحِ[2]؛ لأنَّ الكلامَ القيِّمَ المُعتبَرَ يستدعي لَفْتَ انتباهِ المُخاطَبِ بهِ، وتهيئتَهُ لتلقّيهِ بأُذُنٍ واعيةٍ وقلبٍ حاضرٍ، وفي ذلكَ جمعٌ بينَ حلاوةِ القُرْبِ والخطابِ وعزِّ التَّشريفِ والتَّكريمِ.

سرُّ النِّداءِ بالنُّبوَّةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

الوصفُ الشَّريفُ فيه تكريمٌ للمُنادَى

نوديَ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بوصفِ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ هذا الوصفَ مبدأُ القُرْبِ، ومَنْبَعُ الكمالِ[3]؛ إذْ يُشيرُ إلى رِفعتِهِ ﷺ،

---

(1) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 371.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 371، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 52.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 378.

وعلوِّ منزلته ومنزلةِ مَنِ اتّبعه، وكونِهِ مُنبَّأً مِنَ اللّهِ، موصولًا بخبر السَّماء، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ ما سيأتي مِنَ التَّوسعةِ عليهِ ﷺ إنَّما هو ثمرةٌ مِنْ ثمارِ النُّبوَّةِ الَّتي شرَّفَهُ اللّهُ تعالى بها، وعطاءُ النُّبوَّةِ لا يَغيضُ ولا ينضبُ، ولأجلِ ذلكَ لم يخاطبِ اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ باسمِهِ العلَمِ[1]؛ إذ لو خاطبَهُ بذلك لفاتَ التَّنبيهُ على هذهِ اللَّطائف.

غرضُ التَّوكيدِ في ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾:

براءةُ ساحتِهِ ﷺ مِنَ الرَّيبِ والطَّعنِ

جيءَ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ مُصدَّرًا بالتَّوكيدِ؛ للاهتمامِ بمضمونِ الكلامِ المُشتملِ على التَّنبيهِ على رفعةِ مقامِ النَّبيِّ ﷺ، واختصاصِهِ بالتَّوسعةِ عليهِ في المُحلَّلاتِ في النِّكاحِ[2]، وللرَّدِّ على مَنْ ينكرونَ خصائصَهُ[3]، ويتَّخذونَ مِنْ تزوُّجِهِ بعددٍ مِنَ الزَّوجاتِ وسيلةً للطَّعنِ فيهِ، وتشويهِ سيرتِهِ، والغضِّ مِنْ مقامِ نبوَّتِهِ، وصدِّ النّاسِ عنِ اتِّباعِهِ.

المُحلِّلُ هو اللهُ تعالى وحده دونَ غيرِهِ

وفي الكلامِ توكيدٌ آخرُ ينضمُّ إلى التَّوكيدِ بـ(إنَّ)، وهو بناءُ الخبرِ الفعليِّ ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾ على المُسنَدِ إليهِ، وهو (نا) في ﴿إِنَّآ﴾[4]، فيفيدُ الكلامُ نسبةَ الإحلالِ إلى اللّهِ تعالى مرَّتيْنِ، كأنَّهُ قيلَ: إنّا أحلَلْنا لكَ، إنّا أحلَلْنا لكَ، وهذا التَّوكيدُ يحصلُ تبعًا للتَّخصيصِ، فالمُحلِّلُ هو اللّهُ تعالى دونَ غيرِهِ.

بلاغةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تعظيمُ اللهِ تعالى والإشارةُ إلى عِظَمِ شأنِ نبيِّهِ ﷺ عند ربِّهِ

أُسنِدَ قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا﴾ إلى ضميرِ العَظَمةِ؛ لبيانِ عُلوِّ منزلةِ الإحلالِ؛ لأنَّهُ صادرٌ عن ذي العظَمةِ والجلالِ الَّذي لا مُعقِّبَ لحُكْمِهِ ولا رادَّ لقضائِهِ، وفي ذلكَ تعظيمٌ أيضًا للمُحَلَّلِ لهُ ﷺ.

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 19/ 12101.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 63.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 378.

(4) أبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 375.

غرضُ الإخبارِ بالإحلالِ:

تشريعُ أحكامٍ جديدةٍ لهُ ﷺ مع التَّذكير بنعمةِ الله عليه

الإخبارُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ ... الآية، للتَّشريعِ، ولذلكَ عُطِفَتْ على مفعولِ ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾ معطوفاتٌ قُيِّدَتْ بأوصافٍ لم يكنْ شرعُها معلومًا مِنْ قبلُ، وذلكَ في تقييدِ بناتِ العُمومةِ والخُؤولةِ بوصفِ الهجرة، وتقييدِ المرأةِ المؤمنة بهبَتِها نفسَها، وإرادةِ النَّبيِّ ﷺ نكاحَها، أو يكونُ الإخبارُ للامتنانِ والتَّذكيرِ بنعمتِه تعالى على النَّبيِّ ﷺ[1]؛ لتجديدِ الشُّكرِ عليها.

نكتةُ صيغةِ الماضي: ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾:

النَّبيُّ ﷺ في عينِ العنايةِ منذُ الأزلِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إحلالَهُ ﷻ المذكوراتِ للنَّبيِّ ﷺ أمرٌ قد تحقَّقَ وثبتَ، وحكمَ اللهُ تعالى به في الأزلِ، وفي ذلكَ تقويةٌ للتَّشريفِ والتَّعظيم؛ إذ قِدَمُ الامتنانِ دليلٌ على قِدَمِ العنايةِ والمكانةِ، وهو أدعى لشكرِ المُنعِمِ وتعظيمِه.

لطيفةُ التَّعبيرِ بالإحلالِ:

لا حرجَ على النَّبيِّ ﷺ فيما أحلَّ اللهُ تعالى لهُ

عُبِّرَ بالإحلالِ في قولِه تعالى: ﴿أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾؛ لما تدلُّ عليهِ هذهِ الكلمةُ مِنْ أنَّ ما شرعَهُ اللهُ تعالى لنبيِّهِ في هذهِ الآيةِ الكريمةِ لا يَشوبُهُ شيءٌ مِنَ المنعِ والتَّحجيرِ، كأنَّما حُلَّتْ عنهُ عُقَدُ المنعِ عُقْدةً عُقْدةً، وبرزَ في صورةِ حلالٍ خالصٍ، لا تَبِعةَ فيهِ، وذلكَ أعظمُ في المِنَّةِ، وأبلغُ في الكرامةِ.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَكَ﴾:

الاختصاصُ كمالُ التَّشريفِ

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَكَ﴾ للاختصاصِ، فتدلُّ على أنَّ الإحلالَ المذكورَ لأجلِ النَّبيِّ ﷺ فقطْ، لا يتعدّاهُ إلى غيرِه، وفي التَّعبيرِ بها تقويةٌ للامتنانِ والتَّشريفِ؛ فالمِنَّةُ إذا عَظُمَتْ وكانَتْ خاصَّةً؛ أشعرَتْ بعِظَمِ قدرِ مَنِ اختُصَّتْ به.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 63.

غرضُ تقديمِ ﴿لَكَ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكَ﴾ على المفعولِ ﴿أَزۡوَٰجَكَ﴾، مع أنَّ حقَّهما التَّأخيرُ عنهُ؛ للدَّلالة على قَصر هذه النِّعم على النَّبيِّ ﷺ، فهي له وحده دون غيره، حقيقةً لا ادّعاءً، مبالغةً في إكرام اللّه له مسارعةً في هواه، وللعنايةِ بكونِ الإحلالِ للنَّبيِّ ﷺ، والمسارعةِ إلى إدخالِ السُّرورِ إلى قلبِه، ولأنَّ في المفعولِ وصفتِهِ وما عُطِفَ عليهِ نوعَ طولٍ، فيخلُّ تقديمُهُ بتجاوبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ.

مِـنْ كـمـالِ الامتنانِ قَصْرُ النِّعمة عليه ﷺ دون غيرِه

سرُّ التَّعبيرِ بالأزواجِ دونَ الزَّوجاتِ:

جيءَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَزۡوَٰجَكَ﴾ بلفظِ الأزواجِ دونَ لفظِ الزَّوجاتِ؛ لأنَّ الأزواجَ جمعُ زوجٍ، وهو اسمٌ لذاتٍ مُنضمَّةٍ إلى غيرِها على وجهِ المُلازَمَةِ والتَّناغمِ والتّكامل، بحيث لا تكاد تفرّقُ بينهما، من شدّة ما بينهما منَ الحبِّ والودِّ والاحترامِ والأدب، فالزَّوجُ ثانٍ لواحدٍ، وهو يُطلَقُ غالبًا على الذَّكرِ والأنثى مِنْ بني آدمَ المتلازمَيْنِ بعقدِ نكاحٍ[1]، ويتبيَّنُ المُرادُ بِهِ مِنَ السّياقِ، وقد جرَتْ عادةُ القرآنِ على استعمالِهِ، وأمّا الزَّوجاتُ فهو جمعُ زوجةٍ، ولم يُستعمَلْ في القرآنِ الكريمِ.

لا فَـرْقَ بين الـزَّوجَيْن إلّا في الصّورة الجسديّة

نكتةُ الإضافةِ في ﴿أَزۡوَٰجَكَ﴾:

أُضيفَتِ الأزواجُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿أَزۡوَٰجَكَ﴾ إلى كافِ الخطابِ الرّاجعِ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لتشريفِهِنَّ وتفخيم شأنِهنَّ، ولإفادةِ أنَّ المُرادَ بهنَّ الأزواجُ اللّاتي في عِصْمتِهِ[2]؛ لأنَّ الإضافةَ تُشعِرُ بالاختصاص.

تـشـريـفُـهُ ﷺ يَـسْـري إلى نسائِهِ

نكتةُ تقييدِ الأزواجِ بإيتاءِ الأجورِ:

ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّهُ يُشترطُ

أداءُ الحقوقِ أنقَى للقلوبِ والعقولِ وأطيبُ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 19/ 12104.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 491.

لحلِّ الزَّوجةِ أنْ يكونَ ﷺ قد آتاها أجرَها، وليسَ كذلكَ؛ لأنَّ العقدَ يصحُّ بلا تسميةِ مهرٍ؛ بلِ التَّقييدُ بإيتاءِ الأجورِ لإيثارِ الأفضلِ والأكملِ له ﷺ [1]؛ فإنَّ الزَّوجةَ الَّتي أوتيَتْ مهرَها أطيبُ قلبًا مِنَ الَّتي لم تُؤْتَ[2]، وإيتاءُ المهرِ مُعجَّلًا يتضمَّنُ تخلُّصَ الزَّوجِ عن عُهْدةِ الدَّينِ، وشُغْلِ ذِمَّتِه به[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

أداءُ حقِّ الأزواجِ مِنْ أخلاقِهِ ﷺ

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾، ولم يُقَلْ: المُؤتَياتِ أجورَهنَّ؛ لأنَّ الموصولَ يفيدُ أنَّهنَّ قد عُرِفْنَ بذلكَ واشتُهِرْنَ به، فالموصولُ بمنزلةِ المُعرَّفِ بلامِ العهدِ بهذا الاعتبارِ، وليُتوصَّلَ بالصِّلةِ إلى بيانِ أنَّهُ ﷺ هو الَّذي آتاهنَّ أجورَهنَّ ابتداءً، وسعَى في ذلكَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿ءَاتَيۡتَ﴾:

المسارعةُ في أداءِ الحقوقِ هَدْيٌ نبويٌّ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إيتاءَ الأزواجِ أجورَهنَّ قد مضَى وتحقَّقَ دونَ مماطلةٍ أو تأخيرٍ، وعُرِفَ واشتُهِرَ، وفي ذلكَ مدحٌ لهُ ﷺ بمسارعتِهِ إلى أداءِ الحقوقِ، وحثٌّ للمؤمنينَ على الاقتداءِ بهِ في ذلكَ، وعدمِ الإضرارِ بأزواجِهم في تأخيرِ مهورن مهورهنّ، وعدمِ الاضرار بهم في بقاء الدَّين في ذمّتهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالأجرِ:

إيتاءُ المَهرِ حقٌّ لازمٌ للزَّوجةِ

عُبِّرَ عنِ المَهرِ بالأجرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾؛ لأنَّ المَهْرَ أجرٌ على الاستمتاعِ بالبُضْعِ وغيرِهِ ممّا يجوزُ بهِ الاستمتاعُ[4]، وللتَّأكيدِ على لزومِه، فهو بمنزلةِ أُجرةِ الأجيرِ الَّتي لا ينبغي المُماطلةُ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 235.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 176.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 491.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 549، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 491.

فيها، وفي ذلك تكريمٌ للمرأة لاختصاصها بالأجر دون الرَّجل، مع أنَّ كلًّا منهما يستمتعُ بالآخر.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿أُجُورَهُنَّ﴾:

أُضيفَتِ الأجورُ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى أزواجِهِ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾؛ للتَّنبيهِ على استحقاقِهنَّ لها؛ فهي حقٌّ مملوكٌ لهنَّ، ولا ينبغي أن يحال بينَ المِلْكِ والمالكِ.

سرُّ ترتيبِ النِّساءِ المذكوراتِ في الآيةِ:

فضلُ اللهِ تعالى لا يفارقُ نبيَّهُ ﷺ

بُدِئ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ بالنِّساءِ اللّاتي هنَّ على عِصْمتِهِ ﷺ، وآتاهنَّ أجورَهنَّ؛ لشرفِهنَّ على غيرِهنَّ، ولكونِهنَّ حلالًا واقعًا، ثمَّ ذُكِرَ مِلْكُ اليمينِ الحاصلُ مِنَ الفيءِ، ثمَّ النِّساءُ المهاجراتُ اللّاتي هنَّ مِنْ قريباتِهِ ﷺ، ويمكنُ أنْ يعقدَ عليهنَّ في المستقبلِ ويُؤتيَهنَّ أجورَهنَّ، ثمَّ ذُكِرَتِ الواهبةُ نفسَها في المستقبلِ بشرطِ أنْ يرغبَ النَّبيُّ ﷺ بنكاحِها، فيُلحَظُ أنَّ الآيةَ تدرَّجَتْ مِنَ الحلالِ الواقعِ إلى الحلالِ الَّذي يمكنُ أنْ يقعَ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ فضلَ اللهِ تعالى لا يفارقُ نبيَّهُ ﷺ.

بلاغةُ عطفِ مِلْكِ اليمينِ:

مَنْ حَظِيَ بالقُرْبِ نالَ زيادةَ الإحسانِ

قولُهُ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿أَزۡوَٰجَكَ﴾، وفائدةُ هذا العطفِ زيادةُ التَّوسعةِ عليه ﷺ، وزيادةُ الامتنانِ ببيانِ حِلِّ ما ملكَتْ يمينُهُ بالفيءِ، أو ممّا أُعطِيَ لهُ، مِثلُ ماريةَ القِبْطيَّةِ أمِّ ابنِهِ إبراهيمَ، فقد وهبَها إليهِ المقوقسُ صاحبُ مصرَ هديَّةً لمكانِ نبوَّتِهِ، فكانَتْ بمنزلةِ الفيءِ؛ لأنَّها ما لوحِظَ فيها إلّا قصدُ المسالمةِ مِنْ جهةِ الجوارِ، والمعروفُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يتسرَّ غيرَ ماريةَ القِبْطيَّةِ[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 64.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(ما) دونَ (مَنْ):

الاِلتفاتُ إلى الوصفِ في مقامِ الامتنانِ

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (ومَنْ مَلَكَتْ يمينُكَ ممَّنْ أفاءَ اللّهُ عليكَ)؛ لأنَّ (مَنْ) الموصولةَ تُستعمَلُ في العاقلِ، لكنْ عُدِلَ إلى (ما) في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾؛ للالتفاتِ إلى ما فيهنَّ مِنْ صفةِ الاستمتاعِ، وذلكَ أنسبُ بمقامِ التَّوسعةِ والامتنانِ.

براعةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿وَمَا مَلَكَتۡ﴾:

قِدَمُ المِنَّةِ مِنْ دواعي تعظيمِها

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مِلْكَ النَّبيِّ ﷺ للمذكوراتِ - وهو سببُ الحِلِّ - أمرٌ قد تحقَّقَ وثبتَ واستقرَّ، فلا شكَّ فيهِ ولا منازعةَ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ الاستمتاعَ الممتنَّ بِهِ واقعٌ.

سِرُّ التَّعبيرِ باليمينِ دونَ الشِّمالِ:

اليمينُ أعظمُ اليدَيْنِ نفعًا

اختيرَ التَّعبيرُ باليمينِ في قولِ الحقِّ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ دونَ الشِّمالِ ودونَ اليديْنِ معًا؛ لأنَّ اليمينَ أقوى اليديْنِ، وبها يُزاوَلُ الكثيرُ مِنَ الأعمالِ، ولذلكَ يُنْسَبُ إليها الكثيرُ مِنَ الأعمالِ الَّتي فيها قوَّةٌ وتمكُّنٌ، وأكثرُ ما يكونُ الأخذُ والعطاءُ باليمينِ، وهي الَّتي جرتِ العادةُ باستعمالِها في التَّعبيرِ عن الأرقّاءِ.

بلاغةُ إسنادِ المِلْكِ إلى اليمينِ:

اقترانُ المِلْكِ عُرْفًا باليمينِ

إسنادُ المِلْكِ إلى اليمينِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ اليمينَ سببٌ وهميٌّ للمِلْكِ؛ لأنَّ سببَ المِلْكِ إمّا أسْرٌ، وهو أثرٌ للقتالِ بالسَّيفِ الَّذي تُمسِكُهُ اليدُ اليُمنى غالبًا، وإمّا شراءٌ ودفعٌ للثَّمنِ، وهو يكونُ باليدِ اليُمنى عُرْفًا، فهي سببٌ وهميٌّ ناشئٌ عنِ العادةِ[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 215.

نكتةُ تقييدِ المملوكاتِ بكونِهنَّ فيئًا:

للنَّبيِّ ﷺ أطيبُ الحلالِ

تقييدُ إحلالِ السَّبْيِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ بكونِهِ مِنَ الفيءِ؛ لاختيارِ ما هو الأولى لهُ ﷺ، فالمملوكةُ الَّتي سباها الرَّجلُ بنفسِهِ أطهرُ مِنَ الَّتي اشتراها الرَّجلُ؛ لأنَّها لا يُدرَى كيفَ حالُها[1]؛ فقد يكونُ السَّبْيُ قائمًا على أساسٍ ظالم، وقد تكونُ غيرَ مسبيَّةٍ؛ بل تكونُ حُرَّةً مسروقةً[2]، ولأنَّ الفيءِ نفعٌ لا ضررَ معه؛ فأكثر استعماله مع ظلِّ الشَّمس واللّيل بحيث لا توجد شمسٌ تُؤذي، فكأنَّ الانتفاع بالمملوكة منَ الفيءِ لا يُتصوّرُ في الاستمتاع بها أيُّ أذًى أو ضرر، بخلاف المُستمتَع بها من الزَّواج، وإن كانت دون الزَّوجة في الرُّتبة.

دلالةُ (مِنْ) في ﴿مِمَّآ أَفَآءَ﴾:

مـقـامُ بـيـانِ الحلالِ يَستدعي التَّفصيلَ

(مِنْ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ للبيان، وقولُهُ: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ﴾ بيانٌ لـ ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾[3]، وفي ذلكَ مزيدُ إيضاحٍ لِمِلْكِ اليمينِ المقصودِ هنا، يناسبُ مقامَ اختيارِ أطيبِ الحلالِ لهُ ﷺ.

براعةُ الالتفاتِ في ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾:

فضلُ اللهِ ﷻ يُتلقَّى بنفسٍ يَقْظَى

الظَّاهرُ أنْ يُقالَ: (أفأْنا عليكَ)، لكنْ عُدِلَ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيبة، فقيلَ: ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾؛ لتجديدِ نشاطِ السّامعِ بالانتقالِ مِنْ لونٍ إلى لونٍ، وليُسنَدَ الفعلُ إلى لفظِ الجلالةِ المُفيدِ لِما سيأتي مِنَ النُّكَتِ واللَّطائفِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَفَآءَ﴾:

فضلُ اللهِ على نبيِّهِ سابغٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ كونِ الإفاءةِ قد وقعَتْ ومضَتْ، وفي ذلكَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 176، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 235.

(2) القُونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 390، وأبو موسى، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 372.

(3) السّمين، الدُّر المَصون: 9/ 133.

مزيدُ امتنانٍ، وإظهارٌ لكرامةِ النَّبيِّ ﷺ عندَ اللّهِ تعالى بالتَّنصيصِ على فضلٍ قديمٍ.

براعةُ الإسنادِ إلى لفظِ الجلالةِ:

فيءُ اللهِ لا يكونُ إلّا حلالًا طيِّبًا

أُسنِدَتِ الإفاءةُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ إلى لفظِ الجلالةِ؛ لما في هذا الإسنادِ مِنْ تعظيمِ الإفاءةِ بكونِ المُتفضِّلِ بها هو ذا العظَمةِ والجلالِ المُتَّصفَ بصفاتِ الكمالِ، ومنها قدرتُهُ سبحانَهُ على أنْ يُفيضَ على نبيِّهِ السَّبْيَ دونَ حربٍ أو قتالٍ، ولما في هذا الإسنادِ أيضًا مِنَ الملاءمةِ لمقامِ اختيارِ الأوْلى والأطهرِ لهُ ﷺ؛ لأنَّ فيءَ اللّهِ لا يُطلَقُ إلّا على الطّيِّبِ دونَ الخبيثِ[1].

دلالةُ حرفِ الجرِّ في ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾:

فضلُ اللهِ تعالى غامرٌ لنبيِّهِ ﷺ

يدلُّ التَّعبيرُ بـ(على) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ على استعلاءِ الفيءِ على النَّبيِّ ﷺ استعلاءً مجازيًّا، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ فضلَ اللّهِ تعالى قد غمرَ نبيَّهُ؛ لكرامتِه عليه، وعُلوِّ شأنِهِ عندَهُ، وذلكَ يلائمُ غايةَ الملاءمةِ مقامَ التَّوسعةِ والامتنانِ، كأنَّ هذا الذي أفاءه اللّه عليه مستعلٍ عليه، ممتدٌّ حوله من علوٍّ، محيطٌ به من كلِّ جانبٍ.

بلاغةُ عطفِ بناتِ العُمومةِ والخُؤولةِ:

توسيعُ دائرة الإباحةِ للنَّبيِّ ﷺ

في عطفِ قولِهِ تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ على ما قبلَهُ زيادةٌ في التَّوسعةِ على النَّبيِّ ﷺ في المُحلَّلاتِ في النِّكاحِ؛ أيْ: أحلَلْنا لكَ زيادةً على الأزواجِ اللّاتي آتيتَ أجورَهنَّ وما ملكَتْ يمينُكَ أنْ تتزوَّجَ مَنْ تشاءُ مِنْ نساءِ أقاربِكَ مِنْ جهةِ أبيكَ أو مِنْ جهةِ أُمِّكَ المتَّصفاتِ بالهجرةِ[2].

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 549، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 379.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 65.

علَّةُ تقديمِ العُمومةِ:

تقديمُ العُصبةِ على غيرِها

قُدِّمَتْ جهةُ العُمومةِ على جهةِ الخُؤولةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَٰتِكَ﴾؛ لشرفِها[1]، فهي أقربُ؛ لأنَّ الأعمامَ مِنَ العَصَباتِ.

علَّةُ الإضافةِ في ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾:

اللهُ سبحانَهُ واسعُ الفضلِ والعطاءِ

النّكرةُ المُفردةُ أوِ المجموعةُ إذا دخلت عليها (أل) الاستغراقيّةُ، أو أضيفت إلى أحد المعارف أفادتِ العمومَ، فالإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَٰتِكَ﴾ تُفيد العمومَ؛ أيْ: كلّ بنات أعمامك، وكلّ بنات عمّاتك، وكلّ بنات أخوالك، وكلّ بنات خالاتك، أحلهنّ اللّه لك بشروط النّكاح المعروفة، والإضافةُ في الآية بمعنى اللّام؛ أيْ: وبناتٍ لعمِّكَ، وبناتٍ لعمّاتِكَ، وبناتٍ لخالِكَ، وبناتٍ لخالاتِكَ، وهي تفيدُ عمومَ الكلامِ وشمولَهُ لجميعِ بناتِ المذكورينَ كما سبق ذِكْره، إلّا إنْ وُجِدَ مانعٌ مِنَ النِّكاحِ، وفي هذا العموم مبالغةٌ في التَّوسعةِ عليهِ ﷺ؛ فإنَّه سبحانَهُ واسعُ الفضلِ والعطاءِ.

سرُّ إفرادِ العمِّ والخالِ:

توافقُ الإفرادِ والجمعِ معَ استعمالِ اللُّغةِ وحالِ قرابتِهِ ﷺ

أُفرِدَ العمُّ والخالُ دونَ العمَّةِ والخالةِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَٰتِكَ﴾؛ لأنَّ العمَّ والخالَ على زِنَةِ المصدرِ، ولذا لم يُجمَعا، بخلافِ العمَّةِ والخالةِ، أو لم يُجمَعا ليَعُمّا إذا أُضيفا، والعمَّةُ والخالةُ لا يعمّانِ لتاءِ الوَحْدةِ، أو لأنَّ أعمامَهُ ﷺ همُ العبّاسُ وحمزةُ ﷺ وأبو طالبٍ، وبناتُ العبّاس كنَّ ذاتِ أزواجٍ لا يليقُ ذِكْرُهنَّ، وحمزةُ ﷺ أخوهُ مِنَ الرَّضاعِ، لا تَحِلُّ لهُ بناتُهُ، وأبو طالبٍ ابنتُهُ أمُّ هانئٍ لم تكنْ مهاجرةً[2].

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 380.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 178.

العمُّ بمنزلةِ الأبِ، والخالُ كالعمِّ

أو لأنَّ العمَّ بمنزلةِ الأبِ، ويُطلَقُ عليهِ الأبُ، والأبُ لا يكونُ إلّا واحدًا، فكانَ الإفرادُ أنسبَ بمَنْ يُنزَّلُ منزلتَهُ، وجمعُ العمَّةِ على الأصلِ، وإفرادُ الخالِ ليكونَ على وفْقِ العمِّ، وجمعُ الخالةِ - وإنْ كانَتْ بمنزلةِ الأمِّ - لتكونَ على وفْقِ العمّاتِ، أو إفرادُ المُذكَّرِ وجمعُ المُؤنَّثِ لقلَّة الذُّكورِ وكثرةِ الإناثِ(1).

في هذا الاجتماعِ إشارةٌ إلى الكفاءةِ

أو لأنَّهُ قد جرَى عُرْفُ اللُّغويّينَ في مِثْلِ ذلكَ على إفرادِ العمِّ والخالِ، وجمعِ العمَّةِ والخالةِ(2)، أو لأنَّهُ لمّا كانَ المُفردُ أصلًا والمجموعُ فرعَهُ، والمُذكَّرُ أصلًا والمؤَنَّثُ فرعَهُ؛ أُتيَ بالعمِّ والخالِ المُذكَّرينِ مُفرديْنِ، وبالعمَّةِ والخالةِ المُؤنَّثيْنِ مجموعيْنِ، فاجتمعَ في الأوَّلينِ أصلانِ، وفي الأخيرينِ فرعانِ، وفي هذا الاجتماعِ إشارةٌ إلى الكفاءةِ، وأنَّ المناسبَ ضمُّ الجنسِ إلى جنسِهِ، وأيضًا في الانتقالِ مِنَ الإفرادِ إلى الجمعِ في جانبَيِ العُمومةِ والخُؤولةِ إشارةٌ إلى ما في النِّكاحِ مِنِ انتقالِ كلٍّ مِنَ الزَّوجِ والزَّوجةِ مِنْ حالِ الانفرادِ إلى حالِ الاجتماعِ(3).

اتِّساعُ دلالةِ لفظِ (العم)

أو لأنَّ العمَّ في استعمالِ العربِ يُطلَقُ على أخي الأبِ، وعلى أخي الجدِّ، وأخي جدِّ الأبِ، وهكذا، فهم يقولونَ: هؤلاءِ بنو عمٍّ أو بناتُ عمٍّ، إذا كانوا لعمٍّ واحدٍ أو لعدَّةِ أعمامٍ، ويُفهَمُ المُرادُ مِنَ القرائنِ، وأمّا لفظُ العمَّةِ فإنَّهُ لا يُرادُ بِهِ الجنسُ، فإذا قالوا: هؤلاءِ بنو عمَّةٍ؛ أرادوا أنَّهم بنو عمَّةٍ مُعيَّنةٍ؛ فجيءِ في الآيةِ بجمعِ العَمَّةِ؛ لئلّا يُفهَمَ منهُ بناتُ عمَّةٍ مُعيَّنةٍ، وكذلكَ القولُ في إفرادِ لفظِ الخالِ وجمعِ الخالةِ(4).

جُمعُ الأعمامِ والأخوالِ لمناسبةِ جمعِ البيوتِ

وأمّا جمعُ الأعمامِ والأخوالِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾ [النّور: 61] فهو على الأصلِ(5)؛ لأنَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 233.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 208.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 233.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 66.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 178.

الحديثَ هنا عنِ البيوتِ الَّتي يُباحُ للإنسانِ أنْ يأكلَ منها، وجاءتِ البيوتُ بصيغةِ الجمعِ، والعمُّ لهُ بيتٌ واحدٌ، فما دامَ قيلَ: ﴿بُيُوتِ﴾ [النّور: 61] فلا بدَّ أنْ يَرِدَ الأعمامُ والأخوالُ بصيغةِ الجمعِ(1).

نكتةُ عدمِ التَّقييدِ بإيتاءِ الأجورِ:

إيتاءُ الأجرِ حقٌّ لكلِّ زوجةٍ

لم يُقيِّدْ قولُه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ﴾ بإيتاءِ الأجورِ؛ لأنَّهُ معلومٌ مِنَ السّياقِ، وقد حُذِفَ هنا؛ لأنَّه يدلُّ عليهِ قولُهُ في حقِّ الأزواجِ: ﴿ٱلَّـٰتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾(2).

نكتةُ التَّقييدِ بالهجرةِ:

عِظَمُ شأنِ الهجرةِ؛ فالقريبةُ المهاجرةُ أولى بالنَّبيِّ المهاجرِ ﷺ

التَّقييدُ بالهجرةِ في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾؛ لبيانِ الأولى لهُ ﷺ؛ لأنَّ مَنْ هاجرَتْ مِنْ أقاربِه معَهُ أشرفُ ممَّنْ لم تُهاجِرْ(3)؛ لأنَّ المهاجرةَ تشاركُهُ ﷺ في وصفِ الهجرةِ الشَّريفِ الدّالِّ على أنَّ الدّينَ أغلى وأعلى عندَ المؤمنِ مِنَ المالِ والدّيارِ ومِنْ كلِّ شيءٍ، فتكونُ المهاجرةُ قد جمعَتْ بينَ شرفِ النَّسبِ وشرفِ العملِ(4).

ويحتملُ أنْ يكونَ التَّقييدُ بالهجرةِ شرطًا للحِلِّ في حقِّهِ ﷺ خاصَّةً(5)، فيفيدُ الكلامُ المبالغةَ في تعظيمِ شأنِ الهجرةِ، وفي اختيارِ ما يليقُ بحالِهِ ﷺ؛ فهو رأسُ المؤمنينَ والمهاجرينَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

الهجرةُ شرفٌ لمَنِ اشتُهِرَ بِهِ وعُرِفَ

لم يُقَلْ: (المهاجراتِ معَكَ) معَ أنَّهُ أوجزُ؛ بل عُدِلَ إلى الإطنابِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾؛ لما في التَّعبيرِ بالموصولِ وصلتِهِ مِنَ الإشارةِ إلى أنَّهنَّ قد عُرِفْنَ واشتُهِرْنَ بوصفِ الهجرةِ؛ لأنَّ الموصولَ في مِثْلِ هذا المقامِ بمنزلةِ المُعرَّفِ بلامِ العهدِ.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 19/ 12105.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 302.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 549، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 176.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 380.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 235، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 67.

لطيفةُ التَّعبيرِ بالماضي:

لا تليقُ بهِ ﷺ إلّا المُهاجِرةُ يقينًا

استُعمِلَتْ صيغةُ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَنْ تَصلُحُ لهُ ﷺ وتليقُ بِهِ؛ هي مَنْ تحقَّقَ منها فعلُ الهجرةِ ومضى وانقضَى، بحيثُ لا يُشَكُّ في حصولِه، ولأنّ السّورة نزلت بعد غزوة الأحزاب، ولم يبق منَ المؤمنين في مكّة لم يهاجر إلّا المُستضعَفين.

سرُّ الاقتصارِ على وصفِ الهجرةِ:

الـهـجـرةُ إنّـما تـكـونُ مِـنَ المؤمنينَ

لم يُذكَرْ وصفُ الإيمانِ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾؛ لأنَّهُ قد أغنَى عنهُ وصفُ الهجرةِ؛ لأنَّ الهجرةَ لا تكونُ إلّا بعدَ الإيمانِ[1]، ولأنَّ الكلامَ هنا عمَّنْ يتَّصِفْنَ بصفاتٍ تجعلُهنَّ أولى مِنْ غيرِهنَّ مِنَ المؤمناتِ، وأمّا وصفُ الإيمانِ فهو وصفٌ مُشترَكٌ مفروغٌ منهُ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ في ﴿هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾:

أبو بكرٍ صاحبُ النَّبيِّ في الهجرةِ

المعيَّة في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ مَعيّةُ تشريف، وهي تفيد المعيَّة الحقيقيّةَ مع اتّساع الزّمان، فيدخل فيها اللّاتي هاجرن قبله أو بعده، ولأنَّ المُهاجرات قد هاجر أكثرُهنَّ في ذلك الوقت المُتَّسع قليلًا، ولم يبق بمكَّة إلّا المُستضعفون منَ الرِّجال والنِّساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلًا، وعليه فالمُرادُ بالمعيَّة هنا: الاشتراكُ في الاتِّصافِ بوصفِ الهجرةِ لا في الصُّحبةِ فيها؛ لأنَّهُ يُقالُ: دخلَ فلانٌ معي، وخرجَ معي؛ أيْ: كانَ عملُهُ كعملي وإنْ لم يقترنا في الزَّمانِ[2]، ولأنَّهُ لم يكنْ معَهُ ﷺ في هجرتِهِ أحدٌ مِنَ النِّساءِ، وإنَّما صحبَهُ مِنَ الرِّجالِ أبو بكرٍ الصِّدّيقُ رضي الله عنه.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَٱمۡرَأَةٗ﴾:

اخـتـصـاصُـهُ ﷺ بحِلِّ نكاحِ الواهبةِ نفسَها

قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ على اختلافٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 65.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 492.

في توجيهِ العطفِ، وفي هذا العطفِ مزيدُ مبالغةٍ في التَّوسعةِ عليهِ ﷺ، والامتنانِ عليهِ ببيانِ أمرٍ خاصٍّ بهِ، وهو أنَّهُ يَحِلُّ لهُ أنْ ينكحَ امرأةً مؤمنةً تَهَبُ لهُ نفسَها، ولا تطلبُ مَهْرًا[1]، ولا يُعَدُّ ذلكَ مِنَ الصَّدقةِ الَّتي لا تَحِلُّ لهُ ﷺ[2].

غرضُ تنكيرِ ﴿وَٱمۡرَأَةً﴾:

المــرأةُ الـواهـبـةُ نفسَها للنَّبيِّ ﷺ غيرُ مُتعيِّنةٍ

تنكيرُ ﴿وَٱمۡرَأَةً﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ للتّعظيم والتّفخيم، كأنّه قال: (وامرأةٌ عظيمةٌ تقيّةٌ، تريد صحبةَ النّبيّ ﷺ في الدّنيا والآخرة، ولا تُريد دنيا؛ لذا تتنازلُ عن مهرها)، مع أنَّ المرأة بطبيعتها تتطلَّعُ إلى الزّينة والدُّنيا، وهذا يدلُّ على عِظَمِ مقصدِها[3]، أو أنَّ التَّنكير للنَّوعيَّةِ، والمعنى: ويَحِلُّ لكَ أنْ تنكحَ نوعًا مِنَ النِّساءِ، وهو امرأةٌ مؤمنةٌ تَهَبُ نفسَها لكَ، وتريدُ أنتَ أنْ تتزوَّجَها[4].

التّنكيرُ قد يكون لـلـعـمـومِ أوِ التّقليل

ولا مانعَ من أن يُراد بالتَّنكير ها هنا العمومُ، لأنّها نكرةٌ في سياق الامتنان، ثمّ إنّها وُصفت، فهي أحرى بالعموم؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: 48]، والمعنى: وكلُّ امرأةٍ مؤمنةٍ وهبت نفسها للنَّبيِّ ﷺ بالقيود المذكورة، فهي حلالٌ له، وليس معنى قلَّةِ عدد الواهبات المذكورات في كتب السّيرة قلّتهنّ في الواقع، ونفسِ الأمر إذْ إنَّ ذلك مما تستحي المرأة أن يطَّلع عليه غالبًا.

وقيل للتَّقليلِ، فيفيدُ التَّنكيرُ أنَّ احتمالَ وقوعِ هذا الأمرِ قليلٌ[5]؛ إذ لو كانتِ الواهبةُ مُتحقِّقةً لكانَتْ مُتعيِّنةً، فكانَ المناسبُ التَّعريفَ[6].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 235.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 381.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 237، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 69.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 67.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 235.
(6) زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 650.

علّةُ الوصفِ بالإيمانِ:

الطَّيِّباتُ للطَّيِّبينَ، والطَّيِّبونَ للطَّيِّباتِ

دلَّ وصفُ المرأةِ بالإيمانِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً﴾ على أنَّ المرأةَ غيرَ المؤمنةِ لا تَحِلُّ للنَّبيِّ ﷺ بهبَةِ نفسِها، وفيهِ دلالةٌ بلَحْنِ الخطابِ على أنَّهُ لا يَحِلُّ لهُ تزوُّجُ الكتابيّاتِ بَلْهَ المشركاتِ[1]؛ لأنَّ الطَّيِّبينَ للطَّيِّباتِ، والنَّبيُّ ﷺ رأسُ الطَّيِّبينَ، فلا تليقُ بِهِ غيرُ مؤمنةٍ تقيَّةٍ نقيَّةٍ، ولئلّا يُظنَّ بالواهبة نفسَها طلبُ شهوةٍ من شهوات الدّنيا، فالإيمان هو الدّافع لها إلى الهبة.

علّةُ إيثارِ ﴿إن﴾ في قوله: ﴿إِن وَهَبَتۡ﴾:

قلّةُ النِّساءِ الواهباتِ أنفُسَهنَّ لهُ ﷺ بالنّسبة لعموم النّساء

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ﴿إِن﴾ على (إذا)؛ لأنَّ (إنْ) تدلُّ على عدمِ الجزم بوقوعِ الشَّرطِ، وتُستعمَلُ في الأمرِ القليلِ النّادرِ، وما نحنُ فيهِ كذلكَ[2]؛ فقد وردَ أنَّ النِّسوةَ اللّاتي وهَبْنَ أنفُسَهنَّ لهُ ﷺ أربعٌ؛ هنَّ: ميمونةُ بنتُ الحارثِ، وزينبُ بنتُ خزيمةَ الأنصاريَّةُ المُلقَّبةُ بأمِّ المساكينِ، وأمُّ شريكٍ بنتُ جابرٍ الأسديَّةُ أوِ العامريَّةُ، وخولةُ بنتُ حكيم السُّلَميَّةُ، فأمّا الأوليانِ فتزوَّجَهما النَّبيُّ ﷺ، وهما مِنْ أمَّهاتِ المؤمنينَ، وأمّا الأُخريانِ فلم يتزوَّجْهما[3].

علّةُ التَّعبيرِ بالماضي:

تناسبُ أفعالِ الآيةِ في المُضيِّ

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (إنْ تَهَبْ نفسَها)؛ لأنَّ (إنْ) للشَّرطِ في الاستقبالِ، والأصلُ فيها أنْ يكونَ كلٌّ مِنْ جملتَيْ شرطِها وجزائِها فعليَّةً استقباليَّةً، ولا يُخالَفُ ذلكَ إلّا لنكتةٍ[4]، والظّاهرُ أنَّ النُّكتةَ في قولِهِ هنا: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا﴾ موافقةُ ﴿وَهَبَتۡ﴾ لباقي الأفعالِ الماضيةِ في الآيةِ، ومثْلُ ذلكَ يُقالُ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾، أو عبَّر بالماضي هنا للدّلالة على صدق

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 70.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 237.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 67.
(4) التفتازانيّ، المختصر، ص: 275 - 276.

إيمانها وتحقُّق هبتِها، فإنَّ التَّعبير فيما يُستقبل يدلُّ على تحقُّق الأمر المُعبَّر به فيه.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِلنَّبِيِّ﴾:

اللّامُ في قولِه جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ للتَّخصيصِ[1]، فتفيدُ أنَّ هبةَ المؤمنةِ نفسَها تكونُ لهُ ﷺ، ولا تتعدّاهُ إلى غيرِه، وفي ذلكَ تشريفٌ لهُ وتعظيمٌ، وفي ذلك لطيفةٌ أخرى وهي أنَّ حياء المرأة يمنعُها أن تُصرِّح بذلك إلّا لمَنْ تهبُ نفسَها له.

المؤمنةُ تَهَبُ نفسَها لهُ ﷺ خاصَّةً

نكتةُ الالتفاتِ في ﴿لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾:

عُدِلَ عنِ الخطابِ إلى الغَيبةِ في قولِه تعالى: ﴿لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾، فلم يُقَلْ: (لكَ إنْ أردتَ)، ثمَّ رُجِعَ إلى الخطابِ في قولِه: ﴿لَكَ﴾ و﴿عَلَيْكَ﴾؛ للإيذانِ هنا بأنَّ سببَ اختصاصِه ﷺ بنكاح الواهبة نفسَها وإيثارِه بذلكَ هو النُّبوَّةُ[2]، ولو جيءَ بالخطابِ، فقيلَ: (لكَ)؛ لم يُفهَمْ ذلكَ مِنَ المنطوقِ؛ بل فُهِمَ مِنَ الفَحْوَى، والمنطوقُ أَوْلى وأعلى[3]، ويُؤخَذُ مِنْ ذلكَ أنَّ مدارَ الإكرامِ مِنَ الخالقِ والمحبَّةِ مِنَ الخلقِ هو وصفُ النُّبوَّةُ النُّبوَّةِ[4]، ويدلُّ الكلامُ أيضًا على تزكيةِ فعلِ المرأةِ الَّتي تَهَبُ نفسَها بأنَّها راغبةٌ لكرامةِ النُّبوَّةِ، لا لحرصِها على الرِّجالِ[5].

النُّبوَّةُ مدارُ الكرامةِ والتَّشريفِ

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿لِلنَّبِيِّ﴾:

التَّعريفُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ للعهدِ[6]؛ لأنَّ النَّبيَّ الممتنَّ عليهِ بهذهِ الهِبَةِ هو نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، وفي ذلكَ إشعارٌ بأنَّهُ حقيقٌ بهذهِ الخصائصِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ﵈، فلا ينصرفُ الذِّهنُ إلى غيرِه.

الموهوبُ لهُ هو نبيُّنا ﷺ

---

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 339.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 550، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 235.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 395.

(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 381، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 109.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 237، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 69.

(6) القُونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 395.

سرُّ التَّعبيرِ بالنُّبوَّةِ دونَ الرِّسالةِ:

النَّبيُّ محلُّ الرِّفعةِ والتَّعظيمِ

اختيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ التَّعبيرُ بالنُّبوَّةِ على التَّعبيرِ بالرِّسالةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ يُشعِرُ بالرِّفعةِ لغةً على تقديرِ كونِهِ مِنَ النَّبْوةِ الَّتي هي الرِّفعةُ[1]، وهذهِ الرِّفعةُ حاصلةٌ ممّا اختُصَّ بهِ مِنَ الإنباءِ بالأمورِ العظميةِ مِنْ عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ الثّاني:

لا يجبُ على النَّبيِّ قبولُ نكاحِ الواهبةِ نفسَها

كُرِّرَ الشَّرطُ في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ نكاحَ الواهبةِ نفسَها ليسَ مطلَقًا؛ بل هو مُقيَّدٌ بإرادتهِ ﷺ[3]، ولا يجبُ عليهِ القَبولُ[4]، وفي ذلكَ رفعٌ للحرجِ عنهُ، وإبطالٌ لعادةِ العربِ في الجاهليَّةِ، وهي أنَّهم كانوا إذا وهبتِ المرأةُ نفسَها للرَّجلِ تعيَّنَ عليهِ نكاحُها، وفيهِ أيضًا رفعٌ للتَّعييرِ عنِ المرأةِ الواهبةِ ببيانِ أنَّ الرَّدَّ مأذونٌ بهِ[5].

سرُّ تَكرارِ لفظِ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

اعتبارُ إرادةِ النَّبيِّ ﷺ مِنْ آثارِ كرامتِهِ

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (للنَّبيِّ إنْ أرادَ أنْ يستنكحَها) بالإضمارِ، لكنْ كُرِّرَ لفظُ النَّبيِّ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ لتفخيمِ شأنِهِ ﷺ، وتأكيدِ استحقاقِهِ الكرامةَ بسببِ نبوَّتِهِ[6]، وللدَّلالةِ على أنَّ اللّهَ تعالى إنَّما آثرَ إرادةَ النَّبيِّ في ذلكَ؛ لكونِهِ ﷺ أهلًا لذلكَ[7].

دلالةُ صيغةِ المضارعِ ﴿يَسْتَنكِحَهَا﴾:

الاستنكاحُ إنْ وقعَ يكونُ في المستقبلِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ لأنَّ

---

(1) القُونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 395.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 382.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 109.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 382.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 69.
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 550.
(7) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 392.

الاستنكاحَ على فَرْضِ قَبول النّبيّ ﷺ نكاحَ الواهبةِ نفسَها، مستقبلٌ بالنِّسبةِ للإرادةِ، وصيغةُ المضارعِ تدلّ على الحال والاستقبالِ، ودخولُ ﴿أَن﴾ هنا يُعيِّنُها للاستقبال.

بلاغةُ صيغةِ الاستفعالِ ﴿يَسۡتَنكِحَهَا﴾:

اشتراطُ قَبولِ النَّبيِّ ﷺ يقينًا

تدلُّ صيغةُ الاستفعالِ في الأصلِ على طلبِ الفعلِ، فتكونُ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ لطلبِ النِّكاحِ والرَّغبةِ فيه[1] بحسَبِ الظّاهرِ، والمُرادُ حقيقةً هو قَبولُهُ ﷺ لنكاحِ الواهبةِ نفسَها، وفي التَّعبيرِ بالاستفعالِ مبالغةٌ؛ حيثُ يُفيدُ تأكيدَ الفعلِ[2]، وبيانَ عزمِهِ المُصمِّمِ ﷺ على النِّكاحِ[3].

ويجوز أن يكون الاستفعالُ للتّحوُّل والصّيرورة، مثل قولهم: استنوق الجمل؛ أيْ: صار الجمل ناقةً، فيكون المعنى: إن أراد النّبيُّ ﷺ أن يجعلها زوجةً حليلةً له، بعد أن كانت مجرّدَ واهبةٍ.

بلاغةُ موقعِ ﴿خَالِصَةٗ﴾:

مِنْ كمالِ النِّعمةِ اختصاصُها بالمُنعَمِ عليهِ على أيِّ معنًى جاءت

قولُه تعالى: ﴿خَالِصَةٗ﴾: إمّا مصدرٌ مُؤكِّدٌ، كـ (وَعْدَ اللّهِ)؛ أيْ: خلصَ لكَ إحلالُ المذكوراتِ أو إحلالُ الواهبةِ نفسَها خالصةً، بمعنى خُلوصًا، أو حالٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿وَهَبَتۡ﴾، أو صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أيْ: هبةً خالصةً[4]، وأيًّا ما كانَ ففي الكلامِ بيانُ أنَّ الحُكمَ مخصوصٌ به ﷺ[5].

دلالةُ اللّامِ في ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ﴾ للاختصاص، فتفيدُ تأكيدَ الخُلوصِ؛ أيْ: خالصةً لكَ وحدَكَ، لا يشارِكُكَ فيها أحدٌ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 550، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 7/ 179.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 69.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 397.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 235، والسّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصون: 9/ 135.

(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 382، والقُونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 397.

بلاغةُ ﴿مِن دُونِ﴾:

تفرُّدُ النَّبيِّ ﷺ ببعضِ الأحكامِ عن سائرِ المؤمنينَ

﴿دُونِ﴾ في الأصلِ ظرفٌ للمكانِ الأقربِ مِنْ مكانٍ آخرَ، ويُستعمَلُ مجازًا في المفارقةِ، فيدلُّ على تخالفِ الأوصافِ أوِ الأحوالِ، والمعنى في قولِهِ تعالى هنا: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: لا حقَّ للمؤمنينَ فيها، فيكونُ توكيدًا لمعنى الاختصاصِ والامتيازِ، ثمّ إنَّ لفظ ﴿دُونِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى علوِّ منزلة النّبوّة، وإن علا شأنُ المؤمن، فإنَّ أعلى الأولياء درجةً دون أدنى الأنبياء منزلةً، فإنَّ أعلى ما ينالُ الأولياءُ، لَدون أدنى ما ينالُ الأنبياء، فما بالك بأعظم الأنبياء وأفضلِهم وأشرفِهم؟.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

فضلُ النَّبيِّ ﷺ على المؤمنينَ على اختلافِ مراتبِهم

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ رسوخِ المؤمنينَ في وصفِ الإيمانِ، وأنَّهُ صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبلِّيَّةِ، وفي ذلكَ مزيدُ تكريمٍ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّهُ قدِ اختصَّ بهذا الحُكمِ عن سائرِ المؤمنينَ على اختلافِ درجاتِهم ومراتبِهم في الإيمانِ[1]؛ لأنَّهُ إذا اختصَّ بذلكَ عنِ الرّاسخينَ منهُم فاختصاصُهُ عمَّنْ دونَهم أَوْلى.

علَّةُ إيثارِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على (النّاسِ):

لا حظَّ للكفّارِ مِنَ الأحكامِ قبلَ الدُّخولِ في الإسلامِ

عُبِّرَ بالمؤمنينَ دونَ النّاسِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ الكفّارَ وإنْ كانوا مُخاطَبينَ بفروعِ الشَّريعةِ عندَ جماعةٍ مِنَ العلماءِ؛ فليسَ لهُم في ذلكَ الحكمِ دخولٌ؛ لأنَّ تصريفَ الأحكامِ فيهم إنَّما يكونُ على تقديرِ إسلامِهم[2]، ولأنَّهُ ﷺ إذا اختصَّ بذلكَ عنِ المؤمنينَ فاختصاصُهُ عن سائرِ النّاسَ معلومٌ بطريقِ الأَوْلى[3].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 382.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 213.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 382.

شرعُ العليمِ عينُ الحكمة

بلاغةُ الاعتراضِ في الآية الكريمة:

قولُه عزَّ شأنُه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ اعتراضٌ بينَ الإحلالاتِ المذكورةِ وبينَ قولِه: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾، ومعنى هذا الاعتراضِ: أنَّ اللّهَ تعالى - وهو العالمُ بالأحوالِ والطَّبائعِ - قد علمَ ما يجبُ فرضُهُ على المؤمنينَ في الأزواجِ والإماءِ، ففرضَهُ، فأوجبَ عليهم مثلًا ألّا يتزوَّجوا أكثرَ مِنْ أربعٍ، ولا يتزوَّجوا إلّا بوليٍّ وشُهودٍ ومَهْرٍ، وعلمَ المصلحةَ في اختصاصِ رسولِ اللّهِ ﷺ بما اختصَّهُ به، ففعلَ[1]، وفائدةُ الاعتراضِ: تقريرُ الاختصاصِ، والتَّنبيهُ للمؤمنينَ على أنَّهُ لا ينبغي لهُم أنْ يَحملوا أنفُسَهم على ما كانَ للنَّبيِّ عليه السلام[2].

إيناسُ المؤمنينَ بما يجعلُهم يمتثلونَ شرعَ الله

وجوِّزَ أنْ تكونَ الجملةُ حالًا مِنَ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾؛ أيْ: حالَ كونِهم قد عَلِمْنا ما فرَضْنا عليهِم[3]، وفائدةُ الحالِ: إيناسُ المؤمنينَ بما يجعلُهم يمتثلونَ ما شرعَهُ اللّهُ تعالى لهُم، ولا يتجاوزونَهُ إلى ما اختصَّ بهِ نبيَّهُ ﷺ.

دلالةُ ﴿قَدۡ﴾:

اللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ

حرفُ ﴿قَدۡ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا﴾ للتَّحقيقِ، فيفيدُ أنَّ علمَ اللّهِ ﷻ بما فرضَ عليهِم أمرٌ مُحقَّقٌ، ويجوز أن تكون دالَّةً على قَسَمٍ حُذف منه المُقسَمُ به ولامُ القَسَمِ؛ أيْ: (واللّه لقد علمنا)؛ فيكونُ تأكيدًا من جهةٍ، واستشرافًا للغيرِ من جهةٍ أخرى، ردًّا وإنكارًا على مُثيري الشّبُهاتِ، فيما اختصّ اللّه به نبيَّه ﷺ منَ الأحكامِ، كرامةً له وشرفًا وفضلًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا﴾:

علمُ اللهِ وفرضُهُ قديمانِ لا طارئان

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّه تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 551، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 460.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 176، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 110.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 70.

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لأنَّ علمَ اللّٰهِ ﷻ صفةٌ قديمةٌ، وهو يعلمُ في الأزلِ كلَّ شيءٍ، ومِنْ جملةِ ذلك علمُهُ بما فرضَ على المؤمنينَ، وكذلكَ ما فرضَهُ عليهم قديمٌ، حكمَ بهِ في الأزلِ، وإنَّما ظهرَ للمُكلَّفينَ وقتَ تكليفِهم به.

نكتةُ الإسنادِ إلى نونِ العظَمةِ:

شـرعُ العـليمِ الخـبيرِ عظيمُ الشَّأنِ

أُسنِدَ العلمُ والفرضُ إلى نونِ العظَمةِ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لتعظيمِ شأنِهما وتفخيمِه[1]؛ فعلمُ اللّٰهِ تعالى هو العلمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ، وفرضُهُ هو أكملُ الفرضِ وأحسنُه؛ لأنَّهُ يلائمُ أحوالَ المُكلَّفينَ؛ لأنَّهُ تشريعُ الحكيمِ الخبيرِ بأحوالِ خَلْقِه، وما يُصلِحُهم في شؤونِ دنياهم وآخرتِهم.

دلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا فَرَضۡنَا﴾:

على المؤمنينَ مجاهدةُ أنفسِهم لقَبولِ التَّشريعِ

﴿مَا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ اسمٌ موصولٌ، وما بعدَهُ صلتُهُ، والتَّعبيرُ به للدَّلالةِ على مفروضٍ معهودٍ يتعلَّقُ بالأزواجِ ومِلْكِ اليمينِ يعلمُهُ المؤمنونَ، وفي الإخبارِ بذلكَ زيادةُ تأكيدٍ لِما اختصَّ بهِ ﷺ، بالتَّنبيهِ على أنَّ ما فُرِضَ على المؤمنينَ فيه نوعُ توسعةٍ لكنّه ليس كالتَّوسعةِ الَّتي وُسِّعَ بها على النَّبيِّ ﷺ، فما عليهِم إلّا أنْ يتلقَّوهُ برِضًا وقَبولٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفرضِ دونَ الإيجابِ:

الأحكامُ الشَّرعيَّةُ امتحانٌ لإيمانِ المؤمنينَ

عُبِّرَ بالفرضِ دونَ الإيجابِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لأنَّ الفرضَ فيهِ إشارةٌ إلى صعوبةِ التَّكليفِ ومشقَّتِه على المؤمنينَ؛ لأنَّ نفوسَهم تطمحُ إلى التَّوسعةِ عليهم في شأنِ نكاحِ النِّساءِ، وما يتعلَّقُ بذلكَ مِنَ المهرِ ونحوِه، وما شرعَهُ اللّٰهُ تعالى لهُم ليسَ فيهِ كلُّ ذلكَ، وفي ذلكَ امتحانٌ لصدقِ إيمانِهم وامتثالِهم لأوامرِ اللّٰهِ ﷻ.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 383.

دلالةُ حرفِ الجرِّ في ﴿فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾:

ثِقَلُ التَّكليفِ على المؤمنينَ

(على) في قولِهِ ﷻ: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، وقد شاعَ استعمالُها في مواطنِ التَّكليفِ والفَرْضِ والإيجابِ، وكأنَّ التَّكليفَ ونحوَهُ مُستعلٍ على المُكلَّفينَ، وفي ذلكَ إشعارٌ بثِقَلِ التَّشريعِ عليهِم، وأنَّهم يَودّونَ أنْ يُخفَّفَ عنهُم بعضُ شرائعِ أزواجِهم وما ملكَتْ أيمانُهم، كزيادةِ عددِ الزَّوجاتِ مثلًا، فإذا سَمِعوا ما خُصَّ بهِ النَّبيُّ ﷺ مِنَ التَّوسعةِ في تلكَ الأحكامِ ودّوا أنْ يكونوا مِثْلَهُ، فأخبرَ سبحانَهُ أنَّهم باقونَ على ما سبقَ شرعُهُ لهُم في ذلكَ[1].

سرُّ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

لا تغييرَ لِما شرعَهُ اللهُ للمؤمنينَ في أزواجِهم وإمائِهم

قُدِّمَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾؛ للعنايةِ بتعلُّقِ الفرضِ بهم، وهو يناسبُ مقامَ التَّسجيلِ عليهم بأنَّ ما شرعَهُ ﷻ في حقِّ أزواجِهم وإمائِهم باقٍ على ما كانَ عليهِ مِنْ قبلُ، لا تغييرَ فيهِ، ولا تبديلَ، وفي ذلكَ مسارعةٌ إلى قطعِ حبائلِ الآمالِ في نفوسِهم.

دلالةُ ﴿فِيٓ﴾:

حرفُ الجرِّ في قولِهِ تعالى: ﴿فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ للظَّرفيَّةِ، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ؛ لأنَّ المظروفَ هو الأحكامُ الشَّرعيَّةُ لا ذواتُ الأزواجِ وذواتُ الإماءِ[2].

بلاغةُ عطفِ مِلْكِ اليمينِ:

التَّوسعةُ على المؤمنينَ في الإماءِ

في عطفِ الإماءِ على الأزواجِ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ تذكيرٌ بما وسَّعَ اللهُ تعالى على المؤمنينَ في شأنِ الإماءِ، حيثُ لم يُضيِّقْ عليهم في عددِ الإماءِ اللّاتي ملكَتْ أيمانُهم[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 70.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 71.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 235، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 179.

وفي ذلكَ تسليةٌ لهُم عن كونِهم لم يوسَّعْ لهُم في شأنِ الأزواجِ، وتهوينٌ للأمرِ عليهم، والنَّظرُ للموجودِ يُنسي مرارةَ المفقودِ.

بلاغةُ التَّعليلِ ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ﴾:

عنايةُ اللهِ بقلبِ نبيِّهِ ﷺ

قولُهُ تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ متَّصلٌ بقولِهِ: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾[1]، أو بقولِهِ: ﴿أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾ ... الآية[2]، والمقصودُ مِنَ التَّعليلِ نفيُ الضّيقِ عنهُ ﷺ[3]؛ ليكونَ في فُسحةٍ مِنَ الأمرِ، فلا يَبقَى لهُ شُغْلُ قلبٍ، فتنزلَ الآياتُ على قلبِهِ الفارغِ، ويُبلِّغَ رسالاتِ ربِّهِ بجِدِّهِ واجتهادِهِ[4]، وفي هذا التَّعليلِ أيضًا امتنانٌ عليهِ ﷺ[5].

بلاغةُ المضارعِ المنفيِّ:

الحـرجُ منفيٌّ عنِ النَّبيِّ ﷺ باستمرارٍ

يدلُّ التَّعبيرُ بالمضارعِ المنفيِّ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ على استمرارِ انتفاءِ وجودِ الحرجِ؛ لأنَّ المضارعَ يفيدُ الاستمرارَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، وفي ذلكَ تعظيمٌ للمِنَّةِ عليهِ ﷺ؛ إذ لا يجدُ الحرجُ إليهِ سبيلًا في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ في ﴿عَلَيۡكَ﴾:

حرفُ الجرِّ (على) في قولِهِ تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، وفي التَّعبيرِ بهِ إشارةٌ إلى أنَّهُ قد نُفيَ عنهُ ﷺ ما يَثْقُلُ عليهِ، ويشغلُ قلبَهُ.

غرضُ تقديمِ ﴿عَلَيۡكَ﴾:

بـراءةُ ساحةِ النَّبيِّ ﷺ عنِ الحرجِ

قُدِّمَ المُسندُ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المُسندِ إليهِ ﴿حَرَجٞۗ﴾ في قولِهِ تعالى

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 551.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 494.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 551.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 176.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 71.

ذِكْرُهُ: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾؛ للاهتمام بتعلُّقِ الحَرَجِ المنفيِّ بهِ ﷺ، والمسارعةِ إلى نفيِ الحَرَجِ عنهُ، أو للقَصْرِ والاختصاص؛ أيْ: لكيلا يكونَ عليك وحدك دون غيرك أيُّ حرجٍ، فكأنّه إخبارٌ مُختصٌّ به ﷺ، وفي كلِّ ذلكَ إيذانٌ بمزيدِ كرامتِهِ على اللّهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالحرجِ:

كمالُ النِّعمةِ بنفيِ الحرجِ فيها

عُبِّرَ بالحرجِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾؛ لدلالتِهِ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ على الضّيقِ، وفي نفيِهِ هنا ملاءمةٌ لسياقِ التَّرخيصِ والتَّوسعةِ والامتنانِ؛ إذ لا يَكْمُلُ ذلكَ إلّا بكونِهِ لا تَبِعَةَ فيهِ، ولا تنغيصَ، ولا تكديرَ.

غرضُ تنكيرِ ﴿حَرَجٌ﴾:

انتفاءُ كافَّةِ صوَرِ الحرجِ عنِ النَّبيِّ ﷺ

تنكيرُ ﴿حَرَجٌ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾؛ لإفادةِ العمومِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ الحرجَ بجميعِ صوَرِهِ وأشكالِهِ وأنواعه وأحواله منفيٌّ عنهُ ﷺ.

بلاغةُ إطلاقِ الحرجِ:

لا يجدُ أيَّ حرجٍ إلى النَّبيِّ ﷺ سبيلًا

المقصودُ بقولِهِ تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ نفيُ الحرجِ عنهُ ﷺ في دينِهِ ودنياهُ[1]، وفي إطلاقِ الحرجِ وعدمِ تقييدِهِ، حيثُ لم يُقَلْ: (حرجٌ في كذا وكذا)؛ مبالغةٌ في نفيِ الحرجِ، ببيانِ أنَّهُ لا يكونُ في أيِّ أمرٍ مِنْ أمورِهِ ﷺ.

بلاغةُ التَّذييلِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

لا حرجَ في دينِ الغفورِ الرَّحيمِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تذييلٌ لِما شرعَهُ اللّهُ تعالى للنَّبيِّ ﷺ مِنَ الأحكامِ[2]، ووجهُ التَّذييلِ: أنَّهُ لمّا كانَ مضمونُ هذهِ الأحكامِ رفعَ الحرجِ عنهُ ﷺ في أمورِ النِّساءِ؛ جيءَ بالفاصلةِ عامَّةً في نفيِ الحرجِ في جميعِ تكاليفِ الدّينِ لسائرِ المؤمنينَ، ويدخلُ في

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 551.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 71.

ذلكَ أمرُ الرَّسولِ ﷺ دخولًا أوَّليًّا[1]، لأنّ ما اختُصّ به النّبيُّ ﷺ هو الغالب في هذه الآية، وللدّلالة على ما قد يقع من أمور المؤمنين من أخطاءَ وهفواتٍ، فأشار إلى أنّ اللّه غفورٌ لِمَنْ أتى منه ذلك، رحيمٌ به، أو للإشارة إلى أنَّ هذه التّوسعة على النّبيّ ﷺ وعلى المؤمنين من آثار رحمته، التي لا يمنعُه من إسباغها على عباده بعضُ ذنوبهم، إذ يغفرُها لهم ويوسِّعُ عليهم.

علّةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ ماضيًا:

اتِّصافُهُ تعالى بالمغفرةِ والرَّحمةِ أزليٌّ أبديٌّ

لمّا كانَ المقصودُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ بيانَ أنَّ اتِّصافَ اللّهِ بالمغفرةِ والرَّحمةِ أمرٌ مُتمكِّنٌ؛ عُبِّرَ بفعلِ (كانَ) ماضيًا؛ ليُشيرَ إلى السّابقيَّةِ والرُّسوخِ[2]؛ أيْ: وكانَ اللّهُ غفورًا رحيمًا أزلًا وأبدًا[3].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾:

شرعُ اللهِ ﷻ مُصطبغٌ بالرَّحمةِ

لمّا كانَ المقامُ لتذييلِ ما شرعَهُ اللّهُ تعالى للنَّبيِّ ﷺ مِنَ الأحكامِ؛ عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذهِ الأحكامَ صادرةٌ مِنَ المُتَّصفِ بصفاتِ الكمالِ مِنَ الحِلْمِ والأناةِ مع القدرةِ[4]، وذلك عينُ الرحمة، وفي ذلكَ إيناسٌ للنُّفوسِ بأنَّ شرعَ اللّهِ تعالى لا حرجَ فيهِ على الإطلاقِ؛ بل هو مُصطبغٌ بالرَّحمةِ.

سرُّ إيثارِ المغفرةِ والرَّحمةِ:

نفيُ الحرجِ مِنْ آثارِ المغفرةِ والرَّحمةِ

اختيرَ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ صفتا المغفرةِ والرَّحمةِ دونَ غيرِهما من صفاتِهِ ﷻ؛ للدَّلالة على أنَّ نفيَ الحَرَجِ في الشَّرعِ مِنْ آثارِ اتِّصافِهِ ﷻ بالمغفرةِ والرَّحمةِ[5].

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 22/ 71.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 71.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 383.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 383.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 71.

إيثارُ الرَّحمة بصيغة (فعيل) والمغفرة بـ(فعول):

مـغـفـرةُ الـلـهِ ورحمتُهُ لا يُحيطُ بهما الوصفُ

صيغة فعول (غفور) من صيغ المبالغة[1]، والمبالغةُ لا تكون في ذات الصّفة؛ لأنّ صفاتِ اللّه في أعلى درجات الكمال لا تفاضلَ فيها باعتبار ذواتها، فالمبالغةُ فيها باعتبار مُتعلّقاتِها ممَّن يغفرُ اللّه لهم؛ فالمبالغة تدلُّ على كثرتهم من جهةٍ، واختلافِ ذنوبهم بين العظيم والحقير في الذّنوب من جهةٍ أخرى، ويُغفرُ للشّخص الواحد مهما كثرت ذنوبُه وعظُمت من جهةٍ ثالثةٍ.

وأمّا الرّحمةُ فيحتملُ أن تكون صفةً مُشبّهةً باسم الفاعل منَ الفعل (رَحُمَ)، الدّالّ على لصوق الصّفة بالموصوف، وعدمِ انفكاكها عنه، على أيِّ حال، ويحتمل أن تكون صيغةَ مبالغةٍ على وزن (فعيل)[2]، ويُقال في المبالغة في الرَّحمة مثلما قيل في المبالغة في المغفرة، فوصْفُ (فعيل) هاهنا أعمُّ في المُتعلّق؛ لأنَّ الرَّحمة لا تحتاج إلى سببٍ كالمغفرة، وآثارُها موجودةٌ قبل الخلق، ثم إنَّ في احتمال الصّيغة للصّفة المُشبّهة والمبالغة زيادةً في اتّساع المعنى.

وعليه فيكون الوصف بـ(فعول) مع المغفرة قبل الوصف بـ(فعيل) مع الرحمة جاريًا على سَنَنِ البلاغة، في التّرقّي منَ الأدنى إلى الأعلى، وهذا السِّرُّ مُضطردٌ في سائر القرآن الكريم، فلم ترِدِ المغفرة على وزن (فعيل)، ولم ترِدِ الرّحمة على وزن (فعول).

سرُّ تقديمِ المغفرةِ على الرَّحمةِ:

التَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ

قُدِّمتِ المغفرةُ على الرَّحمةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ غُفرانَهُ تعالى للذُّنوب ومَحْوَهُ وإزالتَهُ لها نتيجةٌ لرحمتِهِ الَّتي وسِعَتْ كلَّ شيءٍ، كأنَّهُ قيلَ: وكانَ اللّهُ غفورًا؛ لأنَّهُ رحيمٌ، وأيضًا الرَّحمةُ أعمُّ مِنَ المغفرةِ؛ لأنَّها لا تقتصرُ على مَحْوِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 383.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 41.

الذُّنوبِ وسَتْرِها، فيكونُ ذلكَ مِنْ قبيلِ تقديمِ الخاصِّ على العامِّ، ولأنَّ التَّخليةَ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ؛ فالمغفرةُ تمهيدٌ لإفاضةِ رحماتٍ كثيرةٍ.

سرُّ عدمِ تقييدِ المغفرةِ والرَّحمةِ:

مَنْ خافَ أدلجَ

لم يُذكَرْ مُتعلَّقٌ للصِّفتيْنِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فلم يُقَلْ: (غفورًا رحيمًا لكذا أو كذا)؛ لإفادةِ سَعَةِ المغفرةِ والرَّحمةِ، فيا لَخسارةَ مَنْ أسرفَ على نفسِهِ، ولم يتعرَّضْ لهما!.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإعطاءُ يكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ، والإيتاءُ في المادّيَّةِ والمعنويَّةِ

الإيتاء أقوى مِنَ الإعطاءِ في إثباتِ مفعولِهِ؛ لأنَّ الإعطاءَ لهُ مُطاوِعٌ، تقولُ: أعطاني فعَطَوْتُ، ولا تقولُ: آتاني فأتيتُ، وإنَّما تقولُ: آتاني فأخذتُ، والفعلُ الَّذي لهُ مُطاوِعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولِهِ مِنَ الفعلِ الَّذي لا مُطاوِعَ لهُ، والإيتاءُ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ، كالقرآنِ والحكمةِ والمُلْكِ[1]، وفيهِ معنى الوجوبِ والإلزامِ غالبًا، وأمّا الإعطاءُ ففيهِ معنى التَّفضُّلِ والإكرامِ[2]، والإعطاءُ يكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ، وأمّا الإيتاءُ فيكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ والمعنويَّةِ[3].

(1) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 248.
(2) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 248 - 249.
(3) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 251.

﴿۞تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١﴾ [الأحزاب: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين ما أحلَّ الله لنبيِّه من النِّساء، ورفع الجُناح عنه بالخيار فيهنَّ

ذكر الحقُّ سبحانه في الآية السّابقة ما أحلَّه لرسوله من النِّساء؛ رفعًا للحرج عنه ﷺ، فإنَّه تعالى غفور رحيم، ولّمّا ذكر هاتين الصِّفتين؛ أردفه ما يخفِّف عنه من أمرهنَّ، إكرامًا له ﷺ ممّا كان من شأنه أن يتحمَّل فيه، ويتخرَّج عن فعله، فخيَّره بين أن يرفض هبة الواهبة، أو يطلِّق من هي في العصمة، فيُرجيها، أو يقبلُها، أو يُبقي من هي في عصمته[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُرۡجِي﴾: (رجى) أصلان متباينان، يدلُّ أحدهما على الأمل، والآخر على ناحية الشَّيء، وأمّا المهموز؛ فإنَّه يدلُّ على التَّأخير، يقال: أرجأتُ الشَّيء: أخَّرته، وإرجاء النّاقة: دنوُّ نتاجها، ومعنى ﴿تُرۡجِي﴾ في الآية: أنَّه ﷺ كان يترك المرأة من نسائه ما بدا له من غير طلاقٍ، فإذا شاء؛ راجعها، ويتركها كذلك، وهي خصّيصة له وحده ليس لغيره[2].

2) ﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾: (أوى) أصلان: أحدهما التَّجمُّع، والثّاني الإشفاق، يقال: أوى الرجل إلى منزله، وآوى غيره أويًا وإيواءً، ويقال: أوى إيواءًا أيضًا، والمأوى: مكانُ كلِّ شيءٍ يُؤْوى إليه ليلًا أو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 384.

(2) ابن وهب، تفسير القرآن من الجامع: 2/ 42.

نهارًا[1]، و﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ في الآية، أي: تضمُّ وتقرِّب بقبول الهبة أو بالإبقاء في العصمة، بِقَسَمٍ وبغير قَسَمٍ، بجماعٍ وبغير جماعٍ، تخصيصًا له بذلك عن سائر الرجال[2].

3) ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾: (بغي) أصلان: أحدهما: طلبُ الشيء، والثاني: جنسٌ من الفساد، فمِن الأوَّل: بغيتُ الشيء أبغيه؛ إذا طلبته، ويقالُ: بغيتك الشَّيءَ؛ إذا طلبته لك، وأبغيتك الشَّيءَ؛ إذا أعنتك على طلبه[3]، والابتغاءُ هو الاجتهاد في الطَّلب[4]، وهو أيضًا الإرادة والقصد، يقال: ابتغيت الأجرَ في عملي، أي: قصدتهُ، ويأتي بمعنى الاتِّخاذ، تقول: ابتغيت البيت سكنًا لي، أي: اتَّخذته[5]، ومعنى ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾ في الآية، يعني: "إيواء من أرجى منهنَّ، أباح له بذلك أن يعتزلَ من شاء منهنَّ، ويُؤوي من شاء، وأن يؤويَ منهنَّ من شاء بعد الاعتزال"[6].

4) ﴿عَزَلْتَ﴾: (عزل) معنى العزل التَّنحية والإبعاد، فمَن كان في معزل؛ فهو في ناحية القوم معتزلًا عنهم، واعتزالُ القوم: مفارقتُهم، والأعزلُ ما كان من غير سلاحٍ، والاعتزال تجنُّب الشَّيء عمالةً أو براءةً بالبدن أو بالقلب، وأيُّ شيء أفرزته جانبًا فقد عزلته[7]، ومعنى فعل الاعتزال المنسوب إلى النَّبيِّ ﷺ أن يوسِّع على أمَّهات المؤمنين، فيُقسم لهنَّ جميعًا، حتّى وإنْ لم يطلبْنَ ذلك، فلم يكن توسيعُهُ عليهنَّ بدافع الحاجة، بلْ كان نابعًا من رحمة واسعة، وحنانٍ عظيمٍ، وحرصٍ على حفظ مشاعرهنَّ، وصون قلوبهنَّ من الغَيرة[8].

5) ﴿جُنَاحَ﴾: (جنح) أصلٌ يدلُّ على المَيْل والعُدوان، والجُناح على زنة (فُعال)، وهو ما كان دالًّا على الإثم والذَّنب؛ لأنَّه ميلٌ عن الصَّواب، فمَن جنح إلى شيء؛ فقد مال إليه، وأُطْلِق الجُناح على الإثم لميله عن طريق الحقِّ، ثمَّ سُمّي كلُّ إثم جناحًا[9]، ومن معاني

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 384.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(4) الراغب، المفردات: (بغي)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 35.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (بغا - بغي).
(6) الجصاص، أحكام القرآن: 3/ 482.
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عزل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عزل).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (جنح).

الجُناح الجنايةُ والجرمُ، وفي كلِّ نفي للجُناح في القرآن الكريم نفيٌ للإثم والذَّنب بحسب سياقه[1]، ونفْيُ الجُناح عن الرَّسول ﷺ في الآية بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ دالٌّ على انتفاء الإثم واللَّوم والعتاب، وانتفاء الضّيق عليه في شيءٍ من الأمور الثَّلاثة التي ذكرت، وهي الإرجاء والإيواء والابتغاء[2].

6) ﴿تَقَرَّ﴾: (قرّ) أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على برد، والآخر على تمكُّنٍ، والقرُّ من البرد نقيض السُّخونة، واستُعْمِلَ للعين دلالةً على بردها مجازًا، فإنَّ دمعة الحزن ساخنةٌ، فإذا فرحت، وسرَّت؛ بردت، وقرَّت، وكلُّ ما ورد في القرآن الكريم من قرَّة مضافة إلى (عين أو عينها أو أعين أو أعينهن)، فهو من برد العين حالَ سرورِها، فإنَّهم يستعملون سخونةَ العين في ضدِّها بقولهم: أسخن اللّه عينه[3]، ووصْفُ الأعين بأنَّها ﴿تَقَرَّ﴾ دالٌّ على طيب أنفسهنَّ، وذهاب حزنهنَّ إن علمن أنَّ ذاك التَّخيير في الصُّحبة إنَّما هو من الحقِّ سبحانه[4].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

إغـداقُ رحمة اللّه على رسوله في فتح خيارات متاحةٍ له في أمر نسائه

أعطى اللّه تعالى لرسوله الكريم ﷺ خياراتٍ متعدِّدةً في إدارة شؤون نسائه، مخفِّفًا عنه ثقل التَّكليف، ومراعيًا مشاعر نسائه واحتياجاتهنَّ، فكان أن خيَّره بين أن يرجي من يشاءُ منهنَّ، أو أن يُؤوي إليه مَن يشاء من زوجاته، ومَن ابتغى منهنَّ أصابها، ومَن عزل لم يصبها، فخيَّرهن بين الرِّضا بذلك أو المفارقة، فاخترن اللّه ورسوله، فإذا علمن أنَّ هذا رخصةٌ من اللّه تعالى كان أطيبَ لأنفسهنَّ، وأقلَّ لحزنهنَّ، وأقرَّ لأعينهنَّ، واللّه يعلم ما في قلوب الرِّجال من ميلٍ إلى بعض النِّساء دون بعضٍ بالهوى والمحبَّة، فوضع

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جنح).
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 207.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دنى)، والراغب، المفردات: (دنا)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دنو).
(4) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 366.

عنك الحرج يا محمَّد تفضُّلًا وتكرمةً، فهو العليم بأعمال العباد، الحليم بمن تاب، وأناب[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل جملة ﴿تُرۡجِي﴾ عمّا قبلها:

الاستئنافُ البيانيُّ مفيدٌ في الإبانة عن دلالة السّياق

لَمّا أحلَّ المولى سبحانه لنبيِّه أزواجَهُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: 50]، إلى قوله تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ [الأحزاب: 50]؛ أثار هذا في النَّفس تطلُّبًا وسؤالًا حول تفاصيل هذا التَّحليل وكيفيَّته، فأتت هذه الآيةُ من قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ استئنافًا بيانيًّا[2] للإجابة عن ذلك التَّساؤل.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإرجاء مادَّة وصيغة:

الإرجاءُ يتناسب مع السياق مادَّة وصيغة

عبَّر عن تخييره ﷺ بالإرجاء، في قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي﴾، وحقيقة الإرجاء التَّأخير إلى وقت مستقبليٍّ[3]؛ ولذلك أورده بصيغة المضارع الذي يدلُّ على الحال والاستقبال.

والإرجاءُ يشير إلى إعطاء الأجل أو المهلة، وإرجاء الأمر إلى وقتٍ آخرَ، مع بقاء الأمل في حدوثه، هذا المعنى يتناسب مع سياق الآية، حيث أُعطي النَّبيُّ ﷺ الخيار مع نسائه في إرجاع من شاء منهنَّ.

سرُّ إيقاع الإرجاء على ذوات نساء النُّبوَّة:

انصرافُ فِعل الإرجاء إلى الأوصاف المناسبة لهنَّ

الأصلُ في فعل الإرجاء انصرافه إلى الأحوال والأوصاف، لكنَّه وقع هنا على الذَّوات بقوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾، وهُنَّ أزواجه ﷺ، وفعل الإرجاء إذا عُدّي إلى اسم دالٍّ على الذّات؛ انصرف الفعل إلى ما يُراد من الأوصاف المناسبة، كأن يقال: أرجأتُ غريمي؛ إذا أخَّرت سداد دينه إلى وقت لاحق[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 145 - 146.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 72.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 72.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 72.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾:

معنى العموم منبئٌ عن مدلول التَّخيير للبشير النَّذير

عبَّر بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿مَن تَشَآءُ﴾؛ لدلالة الاسم الموصول ﴿مَن﴾ على العموم لا التَّعيين؛ لجواز مجيئه استفهامًا وشرطًا للواحد أو الأكثر من ذلك[1]، مفارقًا (الذي) و(التي) في دلالتهما على التَّعيين، ولمّا كان تخييره ﷺ في فعل الإرجاء عامًّا يشمل أيًّا من النِّساء الواهبات، أو مِن نسائه اللّائي تحت عصمته بتطليقهنَّ أو غير ذلك؛ استعمل ﴿مَن﴾ الدّالَّة على التَّعميم لا التَّعيين.

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿تَشَآءُ﴾:

استمرارُ مدلول المشيئة النَّبويَّة تعبيرٌ عن الخصوصيَّة الرَّضيَّة

التَّعبيرُ بفعل المشيئة المسنَدِ إليه ﷺ بصيغة المضارع ﴿تَشَآءُ﴾؛ للإشارة إلى الإرادة المستمرَّة، فإنَّ استعمال فعل المضارع يُعطي دلالةً على استمرار إرادة الرَّسول في اختيار ما يشاء من أزواجِه ﷺ، وتأخير من يشاء، وإيواء من يشاء، وفيه تأكيد على التَّجدُّد في إشارة إلى أنَّ هذا الإرجاء والإيواء ليس أمرًا ثابتًا لا يتغيَّر، بل هو أمر مستمرٌّ بحسب ما تقتضيه الحكمة الإلهيَّة، ومصلحة النَّبيِّ ﷺ وأمَّته.

معنى (مِنْ) ودلالتها في: ﴿مِنۡهُنَّ﴾:

أحلَّ الله للرَّسول الإرجاءَ على عمومه

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾، حرف جرٍّ لإفادة التَّبعيض، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يُرجِئ جميع زوجاته، بل يُرجِئُ من يشاء الله تعالى له منهنَّ، أي: إنَّه يختار بعضهن دون بعضهنَّ الآخر، ويجوز أن يكون حرف الجرِّ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ دالًّا على البيان بعد الإبهام[2]، فإنَّ قوله: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾ يحتمل أن يكون الإرجاء لعموم النِّساء، فلمّا قيَّده بحرف الجرِّ؛ عُلِمَ أنَّهنَّ نساؤه ممَّن تحت عصمته، أو ممَّن عزلهنَّ.

(1) الرّضي، شرح على الكافية: 1/ 1038، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 1/ 113.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 514.

دلالةُ مرجعِ الضَّمير في القيد ﴿مِنۡهُنَّ﴾:

ينسحبُ الإرجاء على كلِّ مَن شاء لهنَّ النَّبيُّ الإرجاء

الضَّمير المجرور في قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ يعود إلى الأصناف الأربعة من النِّساء المذكورات ممَّن هنَّ في عصمته، فالنِّساء اللّائي أحلَّ الله له نكاحهنَّ، ثمَّ النِّساء من بنات عمِّه وعمّاته وخاله وخالاته، والنِّساء اللّاتي وهبْنَ أنفسهنَّ(1).

دلالةُ (الواو) في ﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾:

بيانُ ملمحِ التَّخييرِ بين الإرجاء والإيواء

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ للعطف الَّذي يفيد التَّخيير، فإنَّ الحقَّ سبحانه خيَّر نبيَّه ﷺ بين الإرجاء في قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾، والإيواءِ في هذه الجملة.

توجيهُ القراءاتِ في الفعل ﴿تُرۡجِي﴾:

تنوُّعُ القراءة مجالٌ لاتِّساع المعنى وانفساح الدِّلالة

ورد الفعل ﴿تُرۡجِي﴾ على قراءتين، فقرأه بهمزة مضمومة ﴿تُرۡجِئُ﴾ ابنُ كثير وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب وأبو بكر، وقرأه الباقون بدون همز ﴿تُرۡجِي﴾(2)، يجوز أن تكون قراءة الهمزِ دالَّة على التَّأخير، وقراءة الياء دالَّة على الرَّجاء، أي: مع التَّأخير أنَّها تكون راجيةً لعطفك(3)، أو يكون المعنى واحدًا(4)، والفرق في تحقيق الهمز أو إبداله ياءً.

نكتةُ التَّقييد بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾:

تقييدُ فعل الإيواء بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾، مؤذنٌ بأنَّ هذا التَّخيير تخصيصٌ وتمييز له ﷺ، بذلك من سائر الرِّجال(5)، فيكون من خصوصيّات النَّبيِّ الأكرم؛ تعبيرًا على مقامه الأعظم.

نكتةُ تكرار الفعل ﴿تَشَآءُ﴾:

المشيئةُ تفويض في التَّصرُّف مع زوجاته

ذُكِرَ فعل المشيئة مع فعل الإرجاء ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾، ومع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 72.
(2) ابن الجزري، النشر: 1/ 406.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 384.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 74.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 384.

فعل الإيواء ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾، وفي تكراره إشارةٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يتصرَّف في شؤونه الخاصَّة وفقَ ما يراه الله خيرًا له، وأنَّ الحقَّ ﷻ قد أعطاه حرّيَّة التصرُّف الكاملة في ذلك.

دلالةُ تقييدِ الإرجاء دون الإيواء:

الاستغناءُ عن الثّاني بدلالة الأوَّل من الإيجاز والاختصار

في قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ قيَّد فعل الإرجاء بالجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهُنَّ﴾، ولمّا ذكرَ فعل الإيواء؛ حذف الجارَّ والمجرور منهنَّ، في قوله تعالى: ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾؛ إيجازًا واختصارًا، بأن استغنى عن الثّاني لدلالة الأوَّل عليه، والمعنى: وتُؤوي منهنَّ إليك من تشاء.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخبر في موضع الإنشاء:

خبريَّة الفعلين منبئةٌ باستمراريَّة تخيير النَّبيِّ المكرم

الجملة من قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي﴾ خبريَّة، إلّا أنَّها مستعملة في إنشاء التَّخيير له ﷺ بأن يرجي منهنَّ من يشاء، وكذا فعل الإيواء ﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾ بأن يؤويَ منهنَّ من يشاء[1]، وإيراد فعلَي الإرجاء والإيواء بصيغة الخبر لا الإنشاء؛ للدِّلالة على استمرار التَّخيير في الفعلين، ولو وردا بصيغة الإنشاء؛ لكان ذلك دالًّا على مجرَّد الطَّلب، أو الأمر، بينما تدلُّ خبريَّة الفعل على ثبات هذا التَّخيير للنَّبيِّ ﷺ.

بلاغةُ المقابلة بين جملتَي ﴿تُرۡجِي﴾ ﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾:

الإرجاءُ والإيواء مقابلة في اللَّفظ وتضادٌّ في المعنى

بين قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ مقابلة لطيفة، وهي من الأساليب البلاغيَّة التي تزيد من قوَّة النَّصِّ وتأثيره، ممّا يخلق تباينًا واضحًا في المعنى، ومقتضى المقابلة أن يكون الإرجاء مضادًّا للإيواء، أو أن يكون الإيواء ضدَّ الإرجاء، وبذلك تنشأ احتمالاتٌ في المراد من الإرجاء والإيواء صريحهما وكنايتهما[2]، مع توكيد شموليَّة المعنى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 72.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 72.

بلاغةُ الكناية بالإرجاء والإيواء:

التَّخييرُ رفْعٌ للإحراج، وإفساحٌ لبدائل العلاج

التَّعبيرُ بفعلَي: الإرجاء ﴿تُرۡجِى﴾، والإيواء ﴿وَتُـٔۡوِىٓ﴾ كنايةٌ لطيفة عن المضاجعة والمجامعة، والمعنى: لك الخيار في أن تتركَ المبيتَ مع مَن تشاء منهنَّ، وتبيتَ مع مَن تشاء، وكناية عن الطَّلاق وتركه، والمعنى: خيَّرناك بين أن تُطلِّقَ مَن تشاء، وتمسك من تشاء[1]، لا حرج عليك في ذلك كلِّه.

بلاغةُ التَّقسيم في الآية:

التَّقسيمُ استيعابٌ للأحوال دلالة على كرامة النَّبيِّ المفضال

قوله تعالى: ﴿تُرۡجِى مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِىٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ تقسيمٌ جامع لأحواله ﷺ مع نسائه، وهذه القسمة مشتملةٌ على التَّطليق أو الإمساك، فإذا أمسك؛ جاز له أن يقسم لهنَّ أو لا يقسم، وفي تطليقه له الخيار في إخلاء المعزولةِ أو ابتغائِها، وقد أرجى خمسًا، وآوى أربعًا، وروي أنَّه كان يُسوّي بينهنَّ مع ما أُطلِقَ له، وخُيِّرَ فيه إلّا سودة، فقد وهبت ليلتها لعائشةَ رضي الله عنهما رغبةً منها في أن تُحشرَ في زمرة أزواجه[2].

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾:

بين الاستئناف والعطف، ينقدح معنى السّياق

الواو الدّاخلةُ على جملة الابتغاء، في قوله: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ دالَّةٌ على الاستئناف، سيقت جملتُها لبيان أنَّ هذا التَّخيير، لا يوجب استمرارَ ما أخذ به من الطَّرفين المخيَّر بينهما، أي: لا يكون عمله بالعزل لازم الدَّوام، بمنزلة الظِّهار والإيلاء، بل أذن اللهُ أن يرجع إلى من يعزلها منهنَّ، فصرَّح هنا بأنَّ الإرجاء شامل للعزل[3]، ويجوز أن تكون الواو عاطفةً، عطفت جملة: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾، على قوله: ﴿مَن تَشَآءُۖ﴾ الثّانية، والمعنى: تُرجي من تشاء، وتؤوي مَن تشاء، وممَّن عزلت، وهي المطلَّقة[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 552.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 552.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 74.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 401.

دلالةُ التَّعبير بالموصول (مَنْ):

قصدَ العموم بالموصول يعامل معاملة الشَّرط

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ موصولةٌ، ومحلُّها متردِّد بين المفعوليَّة والابتداء[1]، وهي في كلٍّ مقصودٌ منها الدِّلالةُ على العموم؛ ولذلك عومِلَت معاملةَ الشَّرط، فاقترن خبرها بالفاء، وهو كثير في كلام العرب[2]، والمعنى: لك الخيار في أن تراجعَ مَن أردت بعد إرجائها.

دلالةُ التَّعبير بالابتغاء:

مفهومُ تخصيص النَّبيِّ بالابتغاء توفيةٌ لمقام الإكرام

استعملَ فِعل الابتغاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾؛ لإرادة الميل والطَّلب، والمعنى: وإن مالت نفسك إلى طلبها؛ حلَّ لك أن تعود إليها، وكلُّ هذا توفيَةٌ واستمرارٌ في مقام إكرام النَّبيِّ ﷺ، بأن يتصرَّف بما يشاء، وتريد نفسه.

دلالةُ حذفِ مفعول ﴿ٱبۡتَغَيۡتَ﴾:

المحذوفُ الَّذي دلَّ عليه المذكور لونٌ من الإبانة مأثور

في قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ جملة مقدَّرة دلَّ عليها قوله: ﴿ٱبۡتَغَيۡتَ﴾؛ إذ هو يقتضي أنَّه ابتغى إبطال عزلها، فمفعول ﴿ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه قوله: ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾، كما هو مقتضى المقابلة بقوله: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾، فإنَّ العزل والإرجاء مؤدّاهما واحد.

والمعنى: فإن عزلت بالإرجاء إحداهنَّ، فليس العزلُ بواجب استمرارُه، بل لك أن تعيدها إن ابتغيت العودَ إليها، أي: فليس هذا كتخيير الرَّجل زوجه، فتختار نفسها المقتضي أنَّها تبين منه[3].

دلالةُ (مِنْ) في: ﴿مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾:

رفْعُ الملامةِ والعتاب ملمحٌ للرِّفق بالنَّبيِّ الأوّاب

﴿مِمَّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ تركيبٌ مشتمل على حرف الجر (مِنْ) والاسم الموصول (مَنْ)، ومعنى

---

(1) العكبري، التبيان: 2/ 1059.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 74.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 74.

(مِنْ) هنا التَّبعيض، والمعنى: فلا جُناح عليك أيُّها الرَّسول، ولا لوم ولا عتاب؛ إن أردت ردَّ أيٍّ من نسائك اللّائي عزلتهنَّ، وطلبْتَ إيواءها، فأنت مخيَّرٌ في ذلك[1].

علّةُ التَّعبير بالموصول (مَنْ) في السّياق:

عمومُ الدِّلالة مبينٌ عن المراد من السّياق بالأصالة

التَّعبيرُ بالاسم الموصول (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ دالٌّ على العموم وعدم التَّعيين، فإنَّ العزل "يصحُّ أن يكون في معنى القسم، ويصحُّ أن يكون في الطَّلاق والإمساك وفي الواهبات"[2]، فمَن لم يقسم لها؛ فقد عزلها، ومَن طلَّقها؛ فقد عزلها، ومَن لم يقبل هبتها؛ فقد عزلها.

دلالةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾:

نفيُ الجُناح عن النبيِّ ﷺ كرامة له

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ واقعٌ في جواب الشَّرط، أو كالواقع في جواب الشَّرط؛ لأنَّ نفي الجُناح، وإن كان خبرًا للمبتدأ (مَنْ)، لكنَّ المبتدأ لَمّا كان موصولًا دالًّا على العموم؛ فإنَّ العرب تعامله معاملة الشَّرط[3]، والشَّرط يقتضي الفاء في جوابه إن لم يكن صالحًا؛ لأن يكون شرطًا، ويجوز في معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ أن تكون دالَّةً على التَّفريع، وهذا على كون جملة ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ معطوفةً على ﴿مَن تَشَآءُ﴾ الثانية - كما تقدَّم - ويكون المعنى: فلا إثمَ في شيء ممّا ذُكِرَ[4].

دلالةُ (لا) في: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾:

نفيُ الجنس نفيٌ مؤكَّد من كلِّ وجه

(لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ دالَّة على نفي الجنس[5]، وهو نفيٌ مؤكَّد من كلِّ وجه، وهذا النَّفي لبيان أنَّ هذا التَّخيير ليس

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 393.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 393.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 74 - 75.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 401.
(5) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 178.

واردًا لاستمرار ما اختاره النَّبي ﷺ، فلا يكون عمله بالعزل لازم الدَّوام، بل في الأمر سَعة وإذنٌ من الحقِّ سبحانه في أن يرجع إلى مَن يعزلها، ويتركها منهنَّ(1).

دلالةُ (على) في شبه الجملة: ﴿عَلَيۡكَۚ﴾:

الاستعلاءُ المعنويُّ أوفى في الدِّلالة عن رفع الجُناح

الاستعلاءُ هو المعنى الشّائع لحرف الجرِّ (على) في كلام العرب(2)، وقد يكون الاستعلاء معنويًّا، كالوارد في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾، فمعنى نفي الجُناح على الرَّسول ﷺ أنَّ الإرجاء والإيواء والابتغاءَ كلَّها أفعال لا يقع فيها عليك أيُّ ذنب أو إثم.

دلالةُ الحذف في جملة نفي الجُناح:

المحذوف الَّذي يدلُّ عليه المذكور مبينٌ عن المراد

في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ محذوف دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱبۡتَغَيۡتَ﴾، والمعنى: إن ابتغيت إيواءها؛ فلا جُناحَ عليك من إيوائها، ولا إثم ولا مؤاخذة(3).

مرجعُ الإشارةِ ودلالة البُعد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإذنُ بخيارِ الإرجاءِ والإيواء إشارةٌ إلى الشَّرف والإعلاء

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ راجعةٌ إلى الإذن له ﷺ من الحقِّ تعالى بالإرجاء والإيواء، فإنَّه إخبار من الحقِّ سبحانه أنَّ نساءَهُ ﷺ على غير ما يُظنُّ من أنَّهن يكرهْنَ ما خيَّرهنَّ من تلك الأفعال، والتَّعبير بالإشارة الدّالَّة على حرف البُعدِ، للتَّعظيم لما له مِن الشَّرف والمكانة عند ربِّه(4).

ويجوز أن تكون الإشارةُ راجعةً إلى الابتغاء بعد العزل، أي: إنَّ هذا الفعل أقربُ وأدنى لأن تقرَّ أعين النِّساء ممَّن كنت قد عزلتهنَّ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 74.
(2) ابن السراج، الأصول في النحو: 3/ 176.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 74.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 385، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 75.

وفي هذا ترغيبٌ وتحبيب للرَّسول ﷺ في اختيار إرجاعهنَّ، وترك العزل عن القَسم، فهو مناسب لقرَّة العين، وانتفاء الحزن[1].

دلالةُ موقع جملة: ﴿أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾:

جعـلُ الحـقِّ للنَّبـيِّ المهـديِّ أقرُّ لأعين نسائه وأهنأ لهنَّ

جملة: ﴿أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾ في موقع الجرِّ بحرف الخفض المقدَّر، والتَّقدير: ذلك أقربُ إلى أن تقرَّ أعينهنَّ[2]، فإذا كان المشارُ إليه هو الإيواء؛ كان المعنى: الإذن لك من اللّه، والإيواء أقربُ من الإرجاء ومن عدم التَّصريح بالإذن في القرآن المعجز إلى ﴿أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾[3]، إن كان المشارُ إليه هو التَّفويض المستفاد من قوله: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾؛ كان المعنى: أنَّ في هذا التَّفويض جعلَ الحقِّ في اختيار أحد الأمرين بيد النَّبيِّ ﷺ، ولم يُبْقِ حقًّا لهنَّ، فإذا عيَّنَ لإحداهنَّ حالةً من الحالين؛ رضيت به؛ لأنَّه بجعلِ اللّه تعالى، على حكم قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب: 36]، فقرَّت أعينُ جميعهن بما عيَّنتَ لكلٍّ واحدة؛ لأنَّ الذي يعلم أنَّه لا حقَّ له في شيء كان راضيًا بما أوتي منه، وإن علم أنَّ له حقًّا حسِب أنَّ ما يؤتاه أقلُّ من حقِّه، وبالغ في استيفائه[4].

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾:

حُكْمُ الله قرَّةُ عينٍ واطمئنان بالٍ

التَّعبيرُ بقرَّة العين في قوله تعالى: ﴿أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾ كنايةٌ عن الفرح والسُّرور والطُّمأنينة وذهاب الحزن بأن بلغن المراد في الإرجاء والإيواء، وأنَّه من اللّه تعالى فرضين به، واطمأنَّت نفوسهن، فإنَّ المطمئنَّ تكون عينه قارَّةً، والمحزون عينه كثيرة التَّقلُّب لما يخشاه[5]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 75.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 180.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 385.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 75.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 385.

ويجوز أن يكون التَّعبير بقرِّ العيون ما كان ضدَّ الحرِّ والسُّخونة، فإنَّ المسرور ذو عين باردة، والمهموم تكون عينه حارَّةً ساخنةً، كقولهم للصَّديق: أقرَّ اللّه عينك، وللعدوِّ أسخنَ اللّه عينك[1].

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ من بليغ الكلام

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ عاطفة، عطفت قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ على قوله: ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾[2]، ومع أنَّ قرَّة العيون مشتملةٌ على انتفاء الحزن، إلّا أنَّ نفْيَ الحزن عنهنَّ فيه ترغيب للنَّبي ﷺ في أن يبقى مواصلًا جميع نسائه؛ فإنَّ العزل موجب لحزنهنَّ، وهو ما لا يُرضي الرَّسول الموصوف بأنَّه بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم[3]، فيكون هذا العطف من باب عطف الخاصِّ على العامِّ.

دلالةُ (لا) في قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾:

الجمع بين نفي الحزن وقرَّة العين مَسْلَكٌ للسَّعادة مكين

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ دالَّةٌ على النَّفي[4]، ونفْيُ الحزن هنا كالتَّأكيد لقرَّة الأعين[5]، فجُمِع لهنَّ في هذا الإرشاد الإلهيِّ للنبيِّ ﷺ بين قرارة العين المكنيِّ بها عن الفرح والطُّمأنينة والسُّرور، وبين الأمان من الحزن الذي قد ينغِّص على الإنسان سعادته وطمأنينته.

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾:

الرِّضا طيبٌ للخواطر، ونفيٌ للحزن الكاسر

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ دالَّةٌ على العطف، فقد عطفت هذه الجملةَ على جملة: ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾، فإنَّ ذلك التَّشريع من تفويض الأمر إليك أقربُ إلى طيب نفوسهنَّ، وأقرب إلى انتفاء حزنهنَّ، وحصول رضاهنَّ، وقبولهنَّ ما تفعله معهنَّ؛ لعلمهنَّ أنَّه وحيٌ من الحقِّ سبحانه[6]، وكلُّ أمر للّه فهو خيرٌ لعبده.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 386.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 515.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 76.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 179.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 402.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 232 - 233.

دلالةُ (الباء) في: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ﴾:

طبْعُ الإنسانِ أنَّ ما يؤتاه يكون سببًا في رضاه

الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ﴾ دالَّةٌ على السَّببية والتَّعليل[1]، فإنَّ نساءه ﷺ قد رضين بسبب ما أعطاهنَّ ممّا خيَّره المولى سبحانه من إرجاءٍ وتقريب وإيواء وعزلٍ وغير ذلك[2]، فالباء هنا تدلُّ على أنَّ رضا النِّساء نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لما آتاهنَّ النَّبيُّ من خير وقسمة عادلة، أي: إنَّ رضاهنَّ كان بمقتضى ما آتاهن.

دلالةُ تقديم ﴿بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ﴾ على التَّوكيد ﴿كُلُّهُنَّۚ﴾:

العطاء الإلهيُّ مفتاح الرِّضا والاطمئنان

تقديمُ فعل الإيتاء بمعنى الإعطاءِ على التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾، وإن كان خلاف القياس في أن يليَ التَّوكيدُ المؤكَّدَ لكنَّه جائز[3]، وتقديمه هنا اختيارٌ دقيق يعكس عمقَ المعنى، وجمال الأسلوب القرآني، فهو يركِّز على الفعل نفسه، وهو الإعطاء، أي: ما قُدِّم للنِّساء من نِعَم أو حقوق، وهذا يزيد من التَّأكيد على أنَّ رضاهنَّ ينصبُّ على هذا الإيتاء، وهو مفتاح القناعة النَّفسيَّة.

بلاغةُ ترتيب الأفعال الثَّلاثة:

تـرتـيـبُ نفي الحزن بين قرَّة العين والرِّضا المستفاد، مبيِّنٌ عن المراد

رتَّب النَّظم الكريم الجملَ المتعلِّقة بوصف نسائه ﷺ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ﴾ بأن قدَّم قرَّة العيون، ووسَّط نفي الحزن، وأخَّر حصول الرِّضا؛ فهو ترتيب راعى فيه مراد النَّفس الإنسانية، فإنَّ برد العين وقرارها كنايةٌ عن ذهاب السّوء أوَّلًا، فالنَّفس تسعى إلى ذلك قبل كلِّ شيء، ثمَّ جاء انتفاء الحزن مؤكِّدًا لقرَّة العيون، والتَّوكيد يلي المؤكَّد، ثمَّ أورد حصول الرِّضا بعد إزالة الحزن وتوكيده، فرُتِّبت الأفعال الثَّلاثة ترتيبًا يوافق طبيعة النَّفس البشريَّة.

---

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 39.
(2) الخازن، لباب التأويل: 3/ 432.
(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/ 382.

التَّعبيرُ بضمائر الجمع أحوط وأشمل لهنَّ كلّهنَّ

دلالةُ ضمائر الغيبة في: ﴿أَعۡيُنُهُنَّ﴾ و﴿كُلُّهُنَّۚ﴾:

ضمائرُ الغيبة في قوله تعالى: ﴿أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾ راجعةٌ إلى المذكورات الدّالِّ عليهنَّ الاسم الموصول (مَنۡ) في قوله: ﴿مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾[1]، والسِّرُّ في ذلك أنَّ العزلَ الواقع على تلكم النِّساءِ أصابهنَّ بالحزن والأسى، فلمّا فوَّض الحقُّ ﷻ رسوله الكريم، وأحلَّ له أن يعيدَ إليه المعزولات؛ كان ذلك أقرَّ لأعينهنَّ، وأنفى لحزنهنَّ، وآكدَ لرضاهنَّ على وجه الإحاطة والشُّمول.

لا يحسن الرِّضا إلّا مع العدل المرتضى

سرُّ التَّوكيد بلفظ ﴿كُلُّهُنَّۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿كُلُّهُنَّۚ﴾ من باب التَّوكيد المعنوي، وهو توكيد الشُّمول والإحاطة الذي يرفع احتمالَ قصدِ بعض القوم لا جميعهم قاطبةً، وألفاظُه (كلّ) وما تفرَّع منه، و(جميع) وما تفرَّع منه، و(عامَّة)[2]، وفي هذا التَّوكيد إشارة إلى أنَّ الرِّضا المعنيَّ هنا هو الرِّضا الَّذي تتساوى فيه نساؤه جميعًا ﷺ[3].

أثرُ الاستئنافِ بعلم ما في القلوب مبينٌ عن المعنى المطلوب

دلالةُ (الواو) في: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾؛ مؤذنةٌ باستئناف جملة جديدة[4]، وهذا الاستئناف تذييلٌ بكلام جامع لمعنى التَّرغيب والتَّحذير، ففيه ترغيب النبيِّ ﷺ في الإحسان بأزواجه وإمائه، والمُتَعرِّضات للتَّزوُّج به، وتحذير لهنَّ من إضمار عدم الرِّضا بما يلقينه من رسول اللّهِ ﷺ[5].

إحاطةُ علمهِ بكلِّ شيء على الدَّوام، حقٌّ لا ريب فيه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(العلم) مادَّةً وصيغةً:

استعمل فعلَ العلم بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 76.
(2) الشاطبي، المقاصد الشافية: 5/ 7 - 8.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 76.
(4) الخراط، المجتبى: 3/ 974، والدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 515.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 77.

لتأكيد عظمةِ اللّه تعالى، وعِلمهِ المطلق بكلِّ شيءٍ، فإنَّ علمه تعالى يشمل كلَّ شيء ظاهرًا وباطنًا، لا يقتصر على المعرفة الظّاهرية للأشياء، بل يتعدّاها إلى معرفة الدَّواخل والأسرار، وفي صوغه مضارعًا إيذانٌ باستمراره[1] في الأزمان كلِّها، والأفعال كلِّها.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾:

التحذيرُ بعموم علم الله تعالى لكلِّ شيء

التَّعبيرُ بـ﴿مَا﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾؛ لدلالتها على العموم والشُّمول؛ ليدخل تحت علمه تعالى جميع ما في قلوبهم، صغيرًا كان أو كبيرًا، فإنَّه لا يندُّ عن عِلمه شيء من أعظم الأمور إلى أدقِّها، فلا يخفى عليه شيء.

دلالةُ ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾:

القلبُ مستقرٌّ للمشاعر اللَّطيفة ووعاءٌ للمعاني الطَّريفة

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾ دالٌّ على الظَّرفية المجازية، فالقلب مُستقَرُّ الأفكار والمعتقدات والمشاعرِ ووعاؤها، وعِلمُ اللّه تعالى يشمل كلَّ ما هو مركوزٌ في القلوب من خيرٍ أو شرٍّ، لا يخفى عليه شيءٌ.

وفي التعبير بحرف ﴿فِي﴾ إخبارٌ من اللّه بأنَّه عالمٌ بمكنونات الصُّدور، وما تحويه القلوب، وتخفيه، كما قال تعالى على لسان لقمان عليه السلام: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان: 16].

سرُّ الإضافةِ في لفظ: ﴿قُلُوبِكُمْۚ﴾:

عِلمُ اللهِ بما تطويه القلوب، مظهرٌ لعلمه بما تحويه الغيوب

أضاف النَّظمُ القرآنيُّ لفظ القلوب إلى ضمير المخاطَبين، الدّال على الجمع في قوله تعالى: ﴿قُلُوبِكُمْۚ﴾؛ للإشارة إلى أنَّه سبحانه يعلم ما في قلوب الخلائق كلِّهم[2]، لا يعزب عن علمه أحدٌ من خَلقِه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 386.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 386.

دلالة (الواو) في: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾:

علمُ الله وحلمه مظهرٌ لإحاطته المطلقة بكلِّ شيء

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ على معنى الاستئناف، فالجملةُ مستأنفة[1]؛ لأنَّها جملة تعليليَّة؛ فإنَّ الحقَّ ﷻ يعلمُ ما في قلوبهم؛ لأنَّه العليم الحليم، ويجوز أن تكونَ الواو في الجملة عاطفةً، عطفت قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ على قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾، فالجملة المعطوفة تمنح قوَّةً وتأكيدًا لجملة العلم الفعليَّة[2]، فبعد أن ذكر الحقُّ تعالى علمه بما في القلوب، أكَّده بأنَّه عليم وحليم.

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي (كانَ):

لُطفُ الله بالبشر أنْ كان علمه أزليًّا وحلمه أبديًّا

عبَّر بفعل الكون ماضيًا مع صفة العلم والحلم له ﷻ، بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾؛ للإيذان بأنَّ علمَهُ وحلمه كائنان من الأزل مستمرّان إلى الأبدِ[3]، ويدلُّ كذلك على كمال هاتين الصِّفتين في حقِّ اللّه ﷻ.

سرُّ ختمِ الآية بصفتَي ﴿عَلِيمًا حَلِيمًا﴾:

عِلمُ اللهِ الرَّحيب وحلمه القريب يناسبان التَّرغيبَ والتَّرهيب

ختم الحقُّ ﷻ الآية بصفتَين من صفاته تعالى بقوله: ﴿عَلِيمًا حَلِيمًا﴾؛ لمناسبتهما لمقام الترغيب والترهيب، فإنَّ العليمَ مناسبٌ لما ذكره من قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾؛ ليكون العلمُ محيطًا بما في القلوب ومحيطًا بكلِّ شيء، فيحمل هذا العبد على الخوف منه سبحانه؛ لأنَّه مطَّلعٌ على كلِّ شأنه، والتَّعبير بالحليم، وهو الذي لا يعاجل مَن عصاهُ، بل يديم إحسانه إليه في الدُّنيا، وحلمه مقتضٍ للاستحياء منه، والخوف منه كذلك؛ لأنَّ أخْذَ الحليم شديدٌ[4].

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم، وإعرابه وبيانه: 7/ 516.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 116.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 387.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 387.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيواء والضَّمُّ:

الإيواءُ هو الميل، بينما الضَّمُّ هو جمع الأشياء المتعدِّدة

الأصلُ في الإيواء هو الميلُ، ومنه منزِلُ الرَّجل الَّذي يقيم فيه، ويميل إليه، ويأتي الإيواء بمعنى الضَّمِّ كأنَّك أملته إليك بعطفك ورحمتك[1]، أمّا الضَّمُّ؛ فهو جمع الأشياء المتعدِّدة الكثيرة، ونقيضه البثُّ، وهو التَّفريق[2]، فاختيار لفظة ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ يتضمَّن معنًى أوسعَ وأشمل من مجرَّد الجمع والضَّمِّ المادّي، في إشارة إلى الأمان والاستقرار والرّاحة، وإلى توفير المأوى والحماية، وهذا المعنى يتناسب تمامًا مع السّياق الذي وردت فيه الآية، حيث يُمنَحُ النَّبيُّ ﷺ الخيار في إيواء من يشاء من زوجاته، أي: في توفير بيئة آمنة ومستقرة لهنَّ، أمّا كلمة (الضَّمِّ)؛ فلا تدلُّ على هذه المعاني المذكورة.

الجُناح والإثم:

الجُناح بمعنى: الميل بغير قصد، والإثـمُ: ما كان عن تعمُّد وقصد

نفى الحقُّ ﷻ عن النَّبيِّ ﷺ الذَّنب في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾، ولَمّا كان هذا النَّفي متعلِّقًا بما أباحه له من الإرجاء والإيواء والابتغاء، وليس متعلِّقًا بذنب أو فعل متعمَّدٍ - وهو ﷺ منزَّهٌ عنه - عبَّر عنه بأخفِّ الألفاظ، وهو نفي الجُناح، وهو من جنح؛ إذا مالَ، وسُمّي الجناحان جناحين؛ لميلهما في الشقَّين[3]، ولم ينفِ عنه الإثم؛ لأنَّ الإثم لا يكون إلّا تعمُّدًا[4]، وهو من المعاصي، والرَّسول منزَّهٌ عن ذلك بما عصمه المولى سبحانه.

الإرجاء والتَّأخير:

إرجاءٌ مشوب بالعودة لا تأخير رحمة النَّبيِّ والتَّيسير على أزواجه

استعمل فعل الإرجاءِ في قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾، ولم يستعمل التَّأخيرَ، والتَّأخيرُ ما كان نقيضًا للمتقدِّم، أمّا الإرجاء؛

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 86.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 331.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنح).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 222.

فإنَّه وإن كان مشتملًا على معنى التَّأخير لكنَّه مشوبٌ بالعودة، فإنَّ الحقَّ سبحانه أباح لرسوله ﷺ الإرجاءَ، أي: ترْكُ مَن يشاء مِن نسائه، ما بدا له من غير طلاقٍ، فإذا شاء؛ راجعها، أويتركها كذلك، فلفظُ الإرجاء يحمل معنًى أوسعَ وأشمل من مجرَّد التَّأخير، فهو يشير إلى إعطاء الأجل أو المهلة، وإرجاء الأمر إلى وقت آخر، مع بقاء الأمل في حدوثه، هذا المعنى يتناسب تمامًا مع سياق الآية، حيث يُعطى النَّبيُّ ﷺ الخيار مع نسائه، أمّا التَّأخير؛ فيدلُّ على التَّرك بشكل قاطع، دون إعطاء أيٍّ أمل في حدوثه في المستقبل القريب، وهذا المعنى لا يتناسب مع سياق الآية، حيث إنَّ النَّبيَّ كان سيعيد نساءه بعد أن خيَّرهنَّ، فاخترن الله ورسوله.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ [الأحزاب: 52]

العلاقة بين التَّخيير في الإرجاء والإيواء، والإذن للنَّبيِّ في التَّعدُّد المحدَّد

۞ مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن خصَّ اللّه النَّبيَّ ﷺ بالتَّخيير في الإرجاء والإيواء في الآية الماضية، وهما مظهران لتعظيمه وإكرامه، وبعد أن اختار أزواجُه اللّهَ ورسولَه، وأعرضْنَ عن الدُّنيا؛ جاءت هذه الآية بما يزيد سرورهنَّ من تحريم غيرِهنَّ عليه؛ إكرامًا وشكرًا لهنَّ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبَدَّلَ﴾: (بدل) أصل واحد، وهو قيام الشَّيء مقام الشيء الذّاهب، يُقال: هذا بدلُ الشيءِ وبديلُه، ويقولون: بدلَّت الشيءَ؛ إذا غيَّرته، وإن لم تأتِ له ببدلٍ، ويُقال: الإبدال والتَّبديل والتَّبدُّل والاستبدال، وجميعها دالَّةٌ على جعْلِ شيءٍ مكان آخر، ومعناه المحوريُّ حلول شيءٍ محلَّ شيء آخر؛ لاختفاء الأوَّل، وظهور الثّاني[2]، والفعل ﴿تَبَدَّلَ﴾ في معناه عدَّة أقوال منها: أن يطلِّقَ أزواجه، ويستبدلَ بهنَّ سواهنَّ، أو أن يُبَدِّلَ المشركات بالمسلمات، أو غير ذلك من الأقوال[3].

2) ﴿رَّقِيبًا﴾: (رقب) أصلٌ واحد مطَّرد، يدلُّ على انتصاب لمراعاة شيء، من ذلك الرقيب، وهو الحافظ، يقال منه: رقبت أرقب رقبة ورقبانًا، والرَّقيب هو الذي لا يغيب عنه شيء، فإنَّه مشاهد وسامع وعالم لكلِّ ما يجري، ويسجِّله[4]، ومعنى الرَّقيب في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 387.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدل).
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 477.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رقب).

الآية أنَّه تعالى مطَّلع على أفعال عباده، ويحفظها، ويكمِّلها بمقتضى حكمه المتقن، ثمَّ يمنع ما يشاء[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إكرامُ الحقِّ سبحانه لنساء نبيِّه بالبقاء في عصمته دون زيادة ولا تبديل

لمّا خيَّر رسولُ اللّه ﷺ أزواجَهُ؛ فاخترن اللّهَ ورسولَهُ؛ كافأهنَّ اللّهُ تعالى على ذلك تشريفًا لهنَّ، فجعلهنَّ أمَّهاتِ المؤمنين، وحرَّم على نبيِّه الكريم الزَّواجَ من غيرهنَّ، أو تبديلهنَّ بأُخريات، حتّى لو أعجبه جمالُ غيرهنَّ، واقتصار نكاحهِ عليهنَّ حسب، ومنع توسيعه في الملاذِّ بعدهنَّ إلّا ملك اليمين فقط، وهو تعالى حافظٌ لا يغيب عنه علمُ شيءٍ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ عمّا قبلها:

تحريمُ نكاح غير نسائه التَّسع تكريمٌ لهنَّ وجزاء لطاعتهنَّ

فصل قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بحكم جديد، وهو تحريم نكاحِ غيرِ اللّائي اختارهنَّ اللّه لنبيِّه ﷺ، فمنع أن يطلِّق واحدة منهنَّ، وحرَّم عليه أن يتزوَّج بدلها أخرى[3]، وهو حكم فيه مجازاة لنساء النَّبيِّ ﷺ اللَّواتي اخترن اللّه ورسوله.

دلالةُ ﴿لَّا﴾ في قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ﴾:

بيانُ حكم تعديد النَّبيِّ للزَّوجات فوق مَنْ كُنَّ في عصمته

﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ دالَّةٌ على النَّفي[4]، وجملتها خبريَّة لفظًا إنشائيَّةٌ معنًى، والمقصود نهْيُ النَّبيِّ عن التزوُّج بغير النِّساء اللاتي أحلَّ له نكاحها فيما سبق، على خلاف في المقصود بهنَّ على ما سيأتي في بيان قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾.

---

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 161.
(2) النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 195.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 478.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 517.

دلالةُ المضارع المنفيِّ ﴿يَحِلُّ﴾:

كرامةُ الله لنساء النَّبيِّ، ومنَّة النَّبيِّ عليهنَّ

الفعل المضارع يدلُّ على الحال والاستقبال، وفي التَّعبير به منفيًّا في قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ دلالةٌ على استغراق هذا الحكم الزمنَ كلَّه، من وقت نزول الآية إلى الزمن المستقبليِّ، لذلك لم يقع منه ﷺ نكاحٌ بعد نسائه التِّسع، وذلك كرامة مِن الله لهنَّ، ومنَّة للرَّسول ﷺ عليهنَّ[1].

نكتةُ توجيه القراءات في الفعل ﴿يَحِلُّ﴾:

تذكيرُ الفعل باعتبار اللَّفظ وتأنيثُه باعتبار المعنى

قرأ الجمهور بالياء على التَّذكير في قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ﴾، وقرأ البصريّان أبو عمرو ويعقوب ﴿لَّا تَحِلُّ﴾ بالتّاء[2]، فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى: لا يحلُّ لك شيءٌ من النِّساء[3]، ولَمّا كان لفظ ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾ جمعًا؛ فإنَّ تأنيثه ليس على الحقيقة، وليس له قوَّة تأنيث الواحد[4]، فإذا انضمَّ إليه الفصلُ بين الفعل وفاعله بفاصل هو الجارُّ والمجرور بقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾؛ كان ذلك أدعى إلى جواز تذكير الفعل[5].

معنى (اللّام) ودلالتها في: ﴿لَكَ﴾:

التَّخصيصُ بالحفاظ على تسع زوجات دون زيادة ولا تبديل

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ﴾ للاختصاص، فحُكم تحريمِ زواجِهِ ﷺ، وزيادته على ما في عصمته بقوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ﴾ مختصٌّ به لا يتعدّاه إلى غيره من خلقه، أي: نفى عنه الحلَّ خاصَّة[6].

سرُّ إيثار ﴿لَّا يَحِلُّ﴾ على الفعل (يحرم):

استعمل النَّظم الكريم في هذا الحكم الشَّرعيِّ الفعل ﴿يَحِلُّ﴾

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 447.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 349.
(3) الفراء، معاني القرآن: 2/ 346، والأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 285.
(4) ابن جني، المنصف، ص: 162.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 552 - 553.
(6) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 22.

التَّلطُّف والتخفيف في مخاطبة النَّبيِّ ﷺ

منفيًّا في قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾، ولم يستعمل فعل التَّحريم المرادف لمعناه بأن يقال: (حرَّمنا عليك النِّساء)، والغرض من ذلك "أنَّ نفيَ الحلِّيَّة تقتضي رفعَ الإذن ابتداءً، ولا يستلزم المنع بعد الفعل، والتَّحريم يستلزم المنع ابتداء وبعد الفعل، فهذا أخفُّ؛ فلذلك خوطِبَ به النَّبيُّ صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلَّم"(1).

معنى ﴿مِنۢ﴾ ودلالتها في: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾:

تحريمُ نكاح النِّساء فوق التِّسع مستغرقٌ جنس الأزواج على وجه التَّأكيد

﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ تدلُّ على ابتداء الغاية، وهو المعنى الشّائع لها في حروف معاني العربية(2)، والمعنى: أنَّ تحريمَ الزَّواج على الرسول ﷺ يبدأ مِنَ الآن، أي: مِن يوم نزول الآية(3) حتّى مماته، أي: منذُ أن اخترن اللّه ورسوله على الدُّنيا وزينتها، فلا يزيد على نسوته التِّسع تطييبًا لقلوبهنَّ.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف في ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾:

بيانُ أنَّه لا يحلُّ له النِّساء من غيرهنَّ، ولا أن يتبدَّل بهنَّ غيرهنَّ

يُحتَمَلُ أن يكون معنى كلمة ﴿بَعۡدُ﴾، في قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ الظَّرفيَّةَ على أصلها، والتَّقدير: لا يحلُّ لك تزوُّجُ النِّساء من بعد اللَّواتي أحللنا لك، في قوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾، أو من بعد التِّسع اللَّواتي في عصمتك(4)، أو على معنى الزَّمان، أي: من بعد هذا الوقت(5)، ويجوز أن يكون معنى البعديَّة هو الغيريَّة، أي: لا يحلُّ لك النِّساء من غيرهنَّ، وهو مستعملٌ كثيرًا في اللُّغة، ويؤيِّده التَّعبيرُ بلفظ الأزواج، على تقدير لا يحلُّ لك النِّساء من بعدُ، ولا أنْ تبدَّل بهنَّ من أزواجٍ، أي: غيرهنَّ(6).

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 304.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 380، والمرادي، الجنى الداني، ص: 308.
(3) الشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 655.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 496.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 77.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 77 - 78.

عطفُ حرمة استبدالهنَّ على تحريم غير اللّائي في عصمته

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ دالَّةٌ على العطف[1]، عطفت منْعَ استبدالِهِ ﷺ النِّسوةَ اللّاتي في عصمته - وهنَّ النِّساء التِّسع - وتحريم طلاقهنَّ، على منع زواجه بغيرهنَّ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾، وذلك جزاء اختيارهنَّ اللّه ورسوله، فلم يُبَحْ له تعويض امرأة قديمةٍ بأن يطلِّقَها، ويروم من طلاقها أن يتزوَّج بحادثة جديدة[2].

التَّبديلُ كنايةٌ عن الطَّلاق؛ لأنَّه لازمه في العُرف الغالب

بلاغةُ التَّعبير بالكناية في: ﴿تَبَدَّلَ﴾:

التَّبديلُ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ كناية عن الطَّلاق؛ لأنَّه لازمه في الغالب من العُرف، فالرَّجل لا يطلِّق إلّا باعتياض المرأة المطلَّقة امرأةً غيرها، ولو كان المعنى صريحَ التَّبدُّلِ؛ لخالف آخر الآية أوَّلها وسابقتها؛ فإنَّه ﷺ أحلَّت له الزّيادة في النِّساء من الأصناف الثَّلاثة، وحرَّم ما سوى ذلك[3]، ويحتمل أن يكون التَّبديل في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ حرمةَ زواجه ﷺ إذا وافت المنيَّة نساءه؛ فلا يحلُّ له عندئذٍ أن يتزوَّج غيرهنَّ[4].

نفي التَّبدُّلِ وارد على جهة الاستمرار، حتّى موت الرَّسول الخاتم

دلالةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿تَبَدَّلَ﴾:

التَّعبيرُ عن فعل التَّبدُّل بصيغة المضارع، في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾، فيه دلالة على استمرار النَّهي والتَّحريم في الحال والاستقبال، أي: إنَّه لا يحلُّ للنَّبيِّ ﷺ أن يبدِّل بهنَّ من أزواج في أيِّ وقت من الأوقات ابتداءً من وقت نزول الآية، وقد ورد عن أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ مات على التَّحريم[5].

(1) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1858.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 79.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 79.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 405.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 111.

معنى (الباء) ودلالتها في: ﴿بِهِنَّ﴾:

لا تتبدَّل وتفارق امرأة من أزواجك بغيرها

الباء في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ تسمّى باء التَّعويض أو العوض[1]، وهي متعلِّقة بفعل البدل الذي يقتضي شيئين يُعطى أحدهما عوضًا مِن الآخر، ففِعْلُ التَّبديل يتعدّى إلى الشَّيء الذي أخذ مكانه، وإلى الشَّيء المعطى بالباء[2].

دلالةُ مرجع الضَّمير في القيد ﴿بِهِنَّ﴾:

بيانُ أنَّه لا يحلُّ تبديل امرأة في عصمتك من الأصناف الثَّلاثة

مرجعُ الضَّمير المجرور بحرف الجرِّ (الباء) في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ عائدٌ إلى المحذوف المضاف إلى لفظة ﴿بَعۡدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾، وهنَّ الأصناف الثَّلاثة ممَّن أرجى، وممَّن آوى، وممَّن أرجع بعد العزل، فلا يحلُّ له أن يتبدَّل بامرأة كانت في عصمته، أو ستحصل امرأة غيرها[3].

معنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها في شبه الجملة:

بيانُ أنَّ الاستغراق في النَّفي مفيدٌ ألّا يُبدِّل أحدًا من الأزواج

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾، نجد ﴿مِنۡ﴾ ترد للدِّلالة على الاستغراق والتَّوكيد[4]، فإنَّه لمّا نفى عنه أن يتبدَّل بأزواجه غيرهنَّ؛ أغرقَ في النَّفي[5]، وجعله مستغرقًا على وجه التَّحقيق والتَّوكيد، بإدخال ﴿مِنۡ﴾ الاستغراقيَّة[6] على لفظ الأزواج، أي: استغراق جنس الأزواج بالتَّحريم، ومن معاني ﴿مِنۡ﴾: أنَّها تأتي زائدةً لإفادة التَّنصيص على العموم[7]، وهو الملحوظ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾، فالحرف هنا مزيدٌ على المفعول الثّاني للفعل ﴿تَبَدَّلَ﴾، وهو الأزواج، وفائدتها العموم، والمعنى: ولا أن تبدَّل بهنَّ أزواجًا أُخَر[8].

(1) السيوطي، همع الهوامع: 2/ 420.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 79.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 79.
(4) ابن الأثير، البديع في علم العربية: 1/ 246.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 388.
(6) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 137.
(7) المرادي، الجنى الداني، ص: 316.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 79.

معنى (الواو) ودلالتها في: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ﴾:

لا يحلُّ للنَّبيِّ الزَّواج الزَّائد، ولو أعجبه حسنُ امرأة ما

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ دالَّة على الحال، أي: ولو كنت يا محمَّد على هذه الحال[1]، ففيه نهيٌ مِنَ الحقِّ تبارك وتعالى لرسوله ﷺ عن الزَّواج من أيِّ امرأة أخرى زائدة على نسائك، وبأن تعوِّض إحداهنَّ بامرأة جديدة في الأحوال جميعًا، حتّى في حال أن أعجبه حسنها، وجمال خصالها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالأداة (لَوۡ):

توكيدُ حكم عدم زيادة النَّبيِّ ﷺ على ما أحلَّ الله له

(لَوۡ) في لسان العرب تأتي على أوجه كثيرة إلّا أنَّ الجامع بينها الدَّلالة على الشَّرط[3]، وأوردها هنا في قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾؛ لإفادة الشَّرط المقطوع بنفيه، وهي فرضيَّة تقديريَّة، والمعنى: لا يحلُّ لك الزَّواج، ولو في حال فرض الإعجاب بحسنهنَّ، وتُسمّى وصليَّة[4]، فهي للوصل والرَّبط في مقام التَّوكيد، ويراد منها المبالغة، أمّا التَّعبير بغيرها كـ(إذا) مثلًا؛ فيفيد تحقُّق الوقوع، وهو غير مراد هنا.

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾:

ملكُ اليمين مستثنًى من حُكم منْع الزَّواج من غير الأصناف الثَّلاثة

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ للاستثناء، وهو استثناء منقطع؛ لأنَّ لفظ ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾، وإنْ كان في الأصل يتناول الحرائرَ والإماء، لكنْ غلَبَ استعمالُهُ في الأزواج، وهو المراد هاهنا، والمعنى: فإنَّ ما ملكت يمينك من الإماء حلالٌ لك في الأحوال كلِّها[5].

الغرضُ مِن التَّعبير بالموصول ﴿مَا﴾:

المنع عامٌّ في غير ملك اليمين

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ اسم موصول دالٌّ

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 137.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 80.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 337 فما بعدها.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 306، و22/ 80.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 80.

في أصله على العموم والشُّمول، في موضع رفع على البدلية من لفظ ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾، أي: إلّا ملك يمينك(1)، ولّما كان ملك اليمين جائزًا للنَّبيِّ ﷺ مطلقًا من غير تحديد؛ استعمل ﴿مَا﴾ الدّالة على العموم والإبهام، وهي هنا واقعةٌ على جنس النِّساء(2).

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿أَعۡجَبَكَ﴾:

جوازُ الرُّؤية إلى مَن يريد زواجها

فعلُ الإعجاب في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾، فيه دليل شرعيٌّ على جواز نظر الرَّجل إلى المرأة الَّتي يروم التَّزوُّج بها(3)، والتَّعبير بالماضي توكيد لذلك النَّظر، وتحقيق له، يؤيِّده قول الرَّسول ﷺ للمغيرة بن شعبة رضي الله عنه حينما همَّ بزواج امرأة: (اذهبْ، فانظر إليها، فإنَّهُ أجدرُ أن يُؤْدَمَ بينكما)(4).

دلالةُ التَّعبير باليمين في جملة ﴿مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾:

بيانُ حرّيَّة التَّصرُّف في ملك اليمين بما قرَّره الشَّرع

التَّعبيرُ باليمين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ فيه إشارةٌ واضحة إلى الملكيَّة والتَّصرُّف المطلق، فمُلك اليمين ما يملكه الإنسان ملكيَّة تامَّة، ويمكنه التَّصرُّف فيه كيف يشاء، ضمن حدود الشَّرع، وهو عين المراد في هذه الآية الَّتي لم يحلَّ الحقُّ سبحانه لنبيِّه ﷺ الزَّواج من النِّساء بعد الأصناف الثَّلاثة، لكنَّه استثنى ملك اليمين التي يتصرَّف فيها النَّبيُّ، فهو حرٌّ في اختيار ما يملك، وهنَّ حلٌّ له على الإطلاق(5)، وهنَّ الإماء والسّراري، فقد ملك منهنَّ مارية القبطية رضي الله عنها أمَّ ولده إبراهيم الذي توفّي صغيرًا(6).

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَكَانَ﴾:

الجملةُ ظاهرها الإخبار، وباطنها التَّحذير من مجاوزة الحدود

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ استئنافيَّة،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 394.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 497.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 394.
(4) رواه الإمام أحمد، رقم الحديث: (18137).
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 741.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 86.

وما بعدها جملة مستأنفةٌ ظاهرها إخبار بصفة من صفاته تعالى، وهو الرَّقيب المهيمن الحافظ، ومعناها تهديدٌ وتحذير لهم عن مجاوزة الحدود، وتخطّي الحلال إلى الحرام(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون في قوله: ﴿وَكَانَ﴾:

رقابة المولى كائنةٌ منذ الأزل إلى ما شاء الله الأجلُّ

التَّعبيرُ عن رقابته تعالى بالكون بصيغة الماضي، في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾؛ للإشارة إلى أنَّه ﷻ رقيبٌ شهيد عليهم، وأنَّ رقابته كائنةٌ منذ الأزل، مستمرَّة(2) وثابتة ومتحقِّقة.

وفعل الكون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾، يستغرق الأزمنةَ جميعًا ماضيها وحاضرها ومستقبلها(3)، فقد أجمل في طيّاته أزمنةَ الدُّنيا كلَّها، فشملت رقابته ما مضى مِن الزَّمان، وما هو قائمٌ في الحاضر، وما سيردُ في المستقبل، فهو الرَّقيب الدّائم على كلِّ ما كان، وما هو كائنٌ، وما سيكون.

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

التَّحذيرُ من التَّهاون في استشعار رقابة الله تعالى

بعد أن بيَّن اللّه تعالى أحكامه، وحدَّ حدوده أمرًا ونهيًا؛ حذَّرهم من التَّهاون فيما أمرهم، ونهاهم، ولو تأويلًا، فذكر اسمه الجليل بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ الدّالَّ على كماله المطلق، وعظمته البالغة، وهو العالم بكلِّ شيء، المحيط بصفات الكمال جميعها(4)، وهذا التَّذكير بعظمة اللّه يزيد من خشوع العبد وتقواه، ويجعله ملتزمًا بأوامره، منتهيًا عن نواهيه؛ خوفًا من عقابه، وسعيًا لرضاه.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ العموم ﴿كُلِّ﴾:

رقابتُه تبارك تعالى تعمُّ جميع الأشياء، بلا استثناء

دلَّ التعبيرُ بلفظ ﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ على العموم والاستغراق، فإنَّه ﷻ العليمُ والرَّقيب الذي لا

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 517 - 518.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 406.

(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 22.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 389.

يخفى عليه شيء، صغيرًا كان أو كبيرًا، وزاد هذا المعنى شمولًا واستغراقًا إضافته إلى لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿رَّقِيبًا﴾:

لفظُ الرَّقيب من أشدِّ أسماء الله الحسنى وعيدًا

التَّعبيرُ بالرَّقيب من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ رَّقِيبًا﴾، يحمل معنى الوعيد والتَّحذير، فإنَّه لمّا تقدَّم في هذه الآيات أمرُ الله ونهيه وحدوده الَّتي حدَّها؛ حذَّر من التَّهاون بشيء من ذلك، وعبَّر بلفظ ﴿رَّقِيبًا﴾؛ لأنَّه مِن أشدِّ الأسماء وعيدًا[1]؛ إذ هو اسم يحمل معنى الاطِّلاع والحفظ لكلِّ شيء، فهو سبحانه الَّذي لا يغفل عمّا خلق، والحافظ الَّذي لا يغيب عنه شيءٌ من أمر خلقِهِ، يعلم السِّرَّ وأخفى، وإذا كان كذلك؛ فهو جدير بأن يُخاف، ويُتَّقَى[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُسن والجَمال:

الحسنُ جمال ظاهريٌّ يُطلق على الصّورة، والجمال منه ماديٌّ ومعنويٌّ

استعملَ صِفة الحُسن في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾، ولم يستعمل صفة الجمال في لفتة بلاغيَّة لطيفة، ذلك أنَّ الجمال ما يشتهر به الإنسان ممّا هو معنويٌّ كالأفعال والأخلاق، وما هو مادّي ككثرة المال والجسم، أمّا الحسن؛ فإنَّه للصّورة في الأصل، ثمَّ استعمل في الأفعال، فالجمال يشمل كلَّ ما يثير الإعجاب، سواء كان جمالًا ظاهريًّا أم باطنيًا، جمالًا معنويًّا أم ماديًّا، أمّا الحسن؛ فهو يرتبط بالصّورة الظّاهرة، بالشَّكل الخارجيِّ الذي يجذب العين.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 389.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/ 382.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين حكم تعدُّد زوجات الرَّسول، وأدب الدُّخول على حجراته وزوجاته

بعد أن خصَّ رسول اللّٰه ﷺ نساءه الكرام بحسن العشرة، وفضل الرِّفقة، وكان قد تقدَّم لزومهنَّ البيوت، وترك تبرُّج الجاهليَّة؛ ذكر في هذه الآية آداب الأمَّة مع نسائه ﷺ؛ كرامةً لهنَّ رضوان اللّٰه عليهنَّ، وحفظًا لمقام النَّبيِّ ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَٰظِرِينَ﴾: (نظر) أصل صحيح يرجع فروعُهُ إلى معنًى واحدٍ، وهو تأمُّل الشَّيء ومعاينته، ثمَّ يُستعار، ويُتَّسع فيه[2]، ومنه النَّظر المعروف، وهو على ضربين: نظر العين، ونظر القلب، و"النَّظر: تقليبُ البصر والبصيرة لإدراك الشَّيء ورؤيتِه، وقد يُراد به التأمُّل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الرّويَّة، والنَّظر هو التَّأمُّل بالعين، والعامَّة تستعمل النَّظر في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 390، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 81.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).

البصر أكثر، والنَّظر في حقيقته مواجهة بالعين مع التَّرقُّب والتَّهيُّؤ لالتقاط الشَّيء بمعنى رؤيته[1]، ومعنى ﴿نَـٰظِرِينَ﴾ في الآية، أي: منتظرين متحيِّنين إدراكه وبلوغه[2]، والحديث هنا عن الطَّعام في بيت رسول اللّٰه ﷺ.

2) ﴿إِنَىٰهُ﴾: (أنى) له أصول أربعة: البطْءُ وما أشبهه من الحلم وغيره، وساعة من الزمان، وإدراك الشَّيء، وظرف مِنَ الظُّروف، وكلُّ معانيه ترجع إلى هذه، فالنُّضج مثلًا يرجع إلى الإدراك، يُقال: انتظرنا إنى اللَّحم، أي: نضجَهُ وإدراكه، و"المعنى المحوريُّ تهيُّؤ الشَّيء وصلوح حاله لما يراد به كالنَّبات المذكور، والظُّروف المذكورة تُهيِّئُ الطَّعام للتَّناول... كأنَّ أصل ذلك أنَّ النُّضج هو غاية طبخ الشَّيء، أو وضعه في النّار، ولا غاية بعده، ليوضعَ بعدئذٍ في الأواني"[3]، ومعنى ﴿إِنَىٰهُ﴾ في الآية غير متحيِّنين نضجَهُ[4]، أي: لا منتظرين نضجَهُ.

3) ﴿طَعِمْتُمْ﴾: (طعم) أصلٌ مطَّرد منقاس في تذوق الشَّيء، يقال: طعمتُ الشَّيء طعمًا[5]، فمعنى الطَّعم الذَّوق والأكل، ومنه الطَّعام، وهو معروف، ومنه المطاعم، وهي الأشياء التي تُؤكَلُ، ويرد الطَّعام في القرآن الكريم على أربعة أضرب ثلاثة منها خاصَّة، وواحد بالمعنى المتعارف عليه، وهو الأكل[6]، ومعنى ﴿طَعِمْتُمْ﴾ في سياق الآية، أي: أكلتم وتناولتم الطَّعام[7].

4) ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾: (نشر) أصل صحيح يدلُّ على فتح شيء وتشعُّبه[8]، ومنه قولهم: نشرتُ الكتاب؛ إذا بسطته، والنَّشر ما كان مخالفًا للطَّيِّ، وجاء الجيش نشرًا، أي: متفرِّقًا، ومنه انتشار الدَّواب في اللَّيل للرَّعي[9]، والنَّشر التَّفرُّق في كلِّ الجوانب، ومن معاني النَّشر الامتدادُ والابتعاد والتَّباعد، حقيقةً كانتشار النّاس، أو مجازًا كما يقال:

(1) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نظر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 305.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أنو - أنى).
(4) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 551.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طعم).
(6) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 313.
(7) الثعلبي، الكشف والبيان: 8/ 58.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(9) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (نشر).

نشر الله رحمته للعباد[1]، ومعنى الأمر ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ في الآية، أي: تفرَّقوا، واذهبوا، ولا تمكثوا[2] في هذا المكان؛ لما يترتَّب عليه من أذًى لرسول الله ﷺ.

5) ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾: (أنس) أصل واحد، وهو ظهور الشَّيء، وكلُّ شيء خالف طريقة التَّوحُّش والإنس خلاف الجنِّ، وسمّوا لظهورهم، يقال: آنست الشَّيء؛ إذا رأيته[3]، والأُنس ما كان مخالفًا للنُّفور، وقيل سمّي الإنسان بهذا الاسم؛ لأنَّه خُلِقَ على طبيعة لا قوام له إلّا بأن يأنس بغيره؛ فقد قيل: إنَّه مدنيٌّ بطبعه، والأُنس معناه الألفةُ بأن يكون الشَّيءُ في وسط مجانسٍ مشاكل له[4]، ومعنى ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾، أي: ولا متحدِّثين بعد أن تفرَّغوا من أكل الطَّعام بإيناس بعضكم لبعضٍ[5].

6) ﴿مَتَـٰعٗا﴾: (متع) أصلٌ صحيح يدلُّ على منفعةٍ وامتداد مدَّة في خير، منه استمتعت بالشَّيء، والمتعة والمتاع: المنفعةُ، وكلُّ شيء يُنتفع به، ويُتبلَّغ به، ويُتزوَّد، والماتع: الجيِّد البالغ الجودة، ومن معاني التَّمتُّع الاستلذاذ بالشَّيء طعامًا أو شرابًا في البدن أو نحوه[6]، والمقصود بقوله: ﴿مَتَـٰعٗا﴾ في الآية الطَّعام أو غيره من الأمور[7]، فأمرهم ألّا يسألوا شيئًا من ذلك إلّا من وراء ستر وحجاب.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمر الله تعالى المؤمنين بالأدب مع النَّبيِّ ﷺ وزوجاته رضي الله عنهن فقال: لا تدخلوا بيوت النَّبي إلا بعد أن يأذن لكم بدعوتكم إلى طعام، ولا تطيلوا الجلوس تنتظرون نضج الطعام، ولكن إذا دعيتم إلى طعام؛ فادخلوا، فإذا أكلتم؛ فانصرفوا، ولا تمكثوا بعده يستأنس بعضكم بحديث بعض، إنَّ ذلك كان يؤذي النَّبيَّ ﷺ، فيستحيي أن يطلب منكم الانصرافَ، واللّهُ لا يستحيي أن يأمرَ بالحقِّ، وإذا طلبتُم من زوجاتِ النَّبيِّ ﷺ حاجةً مثل آنيةٍ ونحوها؛

(1) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نشر).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 100.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أنس).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 161.
(6) الراغب، المفردات، وابن عباد، المحيط في اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (متع).
(7) مكي القيسي، الهداية: 9/ 5863.

فاطلبوها مِن وراء ستر، ولا تطلبوها منهنَّ مواجهةً؛ حتى لا تراهنَّ أعينكم؛ صونًا لهنَّ؛ لمكانة رسول اللّه ﷺ، ذلكم الطَّلب من وراء سترٍ أطهرُ لقلوبكم وأطهرُ لقلوبهنَّ؛ حتى لا يتطرَّقَ الشيطان إلى قلوبكم وقلوبهنَّ، وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسولَ اللّه، ولا أن تتزوَّجوا نساءه من بعد موته، فهنَّ أُمَّهات المؤمنين، ولا يجوز لأحد أن يتزوَّج أمَّه، إنَّ ذلكم الإيذاء - ومن صوَرِه نكاحكم نساءَهُ من بعد موته - حرام، ويعدُّ عند اللّه إثمًا عظيمًا[1].

آدابُ زيارة بيت النَّبيِّ والاستئذان عليه، وحرمة الزَّواج من زوجاته بعده

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل جملة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الفصلُ بين الجملتين لتأسيس معنًى جديد

فصل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بكلام جديد، فقد بيَّن في الآية السّابقة آدابَ الرَّسول ﷺ مع أزواجه، وجاءت الآية هنا في آداب الأمَّة معهنَّ ومع بيوتهنَّ[2].

دلالةُ النِّداء بالأداة (يا) في السّياق:

استعمالُ أداة نداء البعيد للقريب؛ للتَّنبيه على عِظَم الأمر

غرضُ النِّداءِ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ حصول إقبالهم بقلوبهم على ما بعده من الانتهاء عن خرق حرمات بيوتهِ ﷺ، ولزوم الأدب معه ومع أهله، وفيه اهتمام بما سيلقى عليهم من أمر مهمٍّ؛ قصدًا لإحضار الذِّهن، فيعي ما يُلقى عليه.

وناداهم بـ(يا) الدّالَّة على البُعد في أصل وضعها، لكنَّها استعملت في نداء السّاهي، أو الغافل، وإن كان قريبًا تنزيلًا له منزِلَة البعيد[3]؛ لأنَّهم غفلوا عن أمر خطير متعلِّق بالأدب مع الرَّسول ﷺ وبيته وحرماته.

---

(1) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/ 425.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 81.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 324.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

استعمالُ الاسم الموصول، إشعار ببناء الحكم على صلة الإيمان

استعمل الاسم الموصول، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إشعارًا بعلَّة بناء الحكم على الصِّلة، وهي الإيمان في قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾، والمعنى: إن كنتم من أهل الإيمان؛ فصدِّقوا دعواكم فيه، واستجيبوا لما تؤمرون به من الأدب مع النَّبيِ ﷺ، فلا تدخلوا بيوته إلّا بإذنه...[1].

دلالة ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾:

النَّهي القاطع الجازم تأكيدٌ على خطورة الأمر وأهميَّته

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ دالَّةٌ على النَّهي القاطع الجازم؛ لأهمّيَّة الأمر المنهيِّ عنه، فالجملةُ خطاب من الحقِّ ﷻ إلى المخاطَبين في ذلك الزَّمان، وإلى المؤمنين عامَّة من أمَّته بلزوم الأدب مع رسوله الكريم، بأن نُهوا عن دخول منازل الرَّسول ﷺ من غير إذنٍ، فهو أمرٌ غير مرغوبٍ فيه، وغير محمود.

دلالةُ الفعل المنهي عنه ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾:

ضوابطُ الدُّخول إلى بيوتات الرَّسول وآدابُهُ

النَّهي عن الدُّخول إلى بيوت النَّبيِّ ﷺ، في قوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ تضمَّن معانيَ متعدِّدةً، ففيه النَّهي صراحةً عن دخولها دون إذنٍ، وفيه النَّهي عن الدخول مع طول الإقامة فيها[2]، وفيه النَّهي عن أن يبادروا بالمجيء والحضور قبل أوان الطَّعام ونضجه[3]، وكلُّ ذلك من باب التَّأدُّب مع النَّبيِّ ﷺ وأهل بيته.

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾:

نسبةُ البيوت إليه، إمّا للملكيَّة أو التَّشريف

إضافةُ لفظ البيوت إلى لفظ النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ على معنى المِلك للنَّبيِّ ﷺ، فقد تملَّكها بالعطيَّة من الأنصار الَّذين كانوا يتملَّكون ساحة المسجد بعد فتح المدينة، وتصييرها دارًا للمسلمين، فلمّا قُبِضَ إلى الرَّفيق الأعلى؛ بقيت

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 391.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 304.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 83.

لأزواجه وآله في حقِّ السُّكنى، حتّى توفّاهنَّ اللّه تعالى، ثمَّ رجعت إلى المسلمين، وأدخلت في المسجد حين توسعته(1).

ويجوز أن تكون إضافةُ لفظ البيوت إلى لفظ النَّبيِّ ﷺ من باب التَّشريف والتَّكريم، كقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس: 13]، فإنَّ لهذه البيوت من الحرمة والتَّقديس ما ليس لغيرها من البيوت(2)، فليس لكم أن تدخلوها إلّا بإذن أهلها.

نكتةُ وصفه بـ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ دون (الرَّسول):

تبريزُ معنى النُّبوَّة؛ لتأكيد معنى القداسة وخصوصيَّة الوحي

وصف الحقُّ ﷻ محمَّدًا ﷺ بصفة النُّبوَّة، في قوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾، ولم يعبِّر بصفة الرِّسالة؛ للدِّلالة على أنَّ تلك البيوت من الأمكنة المقدَّسة التي تأتي فيها الأنباء، وهي الأخبار العظيمة من علّام الغيوب بما فيه غاية رفعة الرَّسول وشرفه عند مولاه، وفي ذلك تنبيهٌ للمخاطَبين ألّا يشوِّشوا على النَّبيِّ ﷺ، ويشغلوه عن شيء من أمر النُّبوَّة(3).

دلالةُ ﴿إِلَّآ﴾ على الاستثناء في الآية:

ملمحُ الاستثناء للأحوال الَّتي يؤذن فيها بالدُّخول على الرَّسول

﴿إِلَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ بمعنى الاستثناء، كما هو شأنُها في لسان العرب، وهو هنا استثناءٌ من عموم الأحوال والظُّروف التي يتطلَّبها الدُّخول إلى بيوت النَّبيِّ ﷺ الذي نهى الحقُّ ﷻ عن دخولها في الأحوال كلِّها، إلّا ما كان حالًا يُؤذن لكم فيه(4).

دلالةُ القصر بالنَّفي والاستثناء:

حرمةُ بيوت النَّبيِّ وحفظ خصوصيَّته

القصرُ متحقِّق بالنَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾، وهو من باب القصر الحقيقيِّ، وهو يدلُّ على حرمة بيوت النَّبيِّ ﷺ، وعدم جواز الدُّخول إليها إلّا بإذنه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 84.
(2) الصابوني، روائع البيان في تفسير آيات الأحكام: 2/ 345.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 391.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 82.

الشَّريف؛ حفظًا لخصوصيَّة النَّبيِّ ﷺ وأهله، وعدم إزعاجه بأيِّ شكل من الأشكال.

دلالةُ الموقع الإعرابيِّ لجملة: ﴿أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾:

تنوُّع التَّأويل الإعرابيِّ للجملة مفيدٌ في بيان المعنى

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ مصدريَّة ناصبة[1]، وهي مع مدخولها في معنى الظَّرف، والتَّقدير: لا تدخلوا بيوت النَّبيِّ ﷺ إلّا وقت أن يُؤذن لكم[2]، فبيوتُ النَّبيِّ محرَّمة الدُّخول إلّا وقت الإذن بدخولها.

ويجوز في ﴿أَن﴾ وما بعدها أن تكون في موضع نصبٍ على الحاليَّة من الضَّمير المندرج في ﴿تَدْخُلُواْ﴾، أي: لا تدخلوا بيوت النَّبيِّ ﷺ إلّا مأذونًا لكم[3].

ويجوز أن تكونَ ﴿أَن﴾ مع مدخولها في محل جرٍّ بحرف جرٍّ مقدَّرٍ هو الباء الدّالَّة على المصاحبة، والمعنى: أنَّ الحقَّ ﷻ نهاهم عن دخولها في أيِّ حال من الأحوال، إلّا في حال كونهم مصحوبين بالإذن في دخولها[4].

ويجوز أن تكونَ ﴿أَن﴾ مع مدخولها في محل جرٍّ بحرف جرٍّ مقدَّرٍ هو الباء السَّببيَّة، فأسقط الباء، وبقيت ﴿أَن﴾، ويكون التَّقدير لا تدخلوا بيوت النَّبيِّ ﷺ إلّا بالإذن لكم، أي: بسبب الإذن[5].

بلاغةُ التَّضمين في الفعل ﴿يُؤْذَنَ﴾:

بيانُ أنَّ السّياق يستوعبُ الدَّعوة والإذن وزمن الفعل

عُدّيَ فعل الإذن بـ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾؛ لأنَّه قد ضُمِّنَ فعل الدَّعوة (تدعون)؛ ليصيرَ المعنى: (إلّا أن تُدعَوا إلى طعام، فيُؤذن لكم بالدُّخول)؛ ذلك أنَّ الطُّفيليَّ قد يُؤذن

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 521.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 554.
(3) العكبري، التبيان: 2/ 1060.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 181.
(5) ابن عادل، اللباب: 15/ 580.

له؛ إذا استأذن، وهو غير مدعوٍّ، وهي حالة غير مقصودة من سياق الكلام، فالكلام هنا متضمِّن شرطَي الدَّعوة والإذن[1].

دلالةُ بناء الفعل ﴿يُؤۡذَنَ﴾ للمجهول:

بيانُ أنَّ الإذنَ في الدُّخول، يجوز بمجرد الرِّضا وانتفاء المانع

في إيراد فعل الإذن بالبناء للمفعول من غير بيان فاعل، في قوله تعالى: ﴿يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الإذن في الدُّخول لا يشترط فيه التَّصريح، بل يجوز بمجرَّد العلم بالرِّضا، فيحتمل أن يكون الإذن من الحقِّ ﷻ، أو الرَّسول ﷺ، أو أهل البيت، أو الصَّديق، أو العقل المؤيَّد بالدَّليل بأن يعلم الدّاخل بانتفاء المانع من الدُّخول، كدخول أبي بكر رضي الله عنه على بيت عائشة رضي الله عنها من غير تكشُّف، أو حصول العلم بخلو الدّار، أو أنَّها محتاجة إليه، أو سوى ذلك[2].

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿لَكُمۡ﴾:

الإذنُ بدخولهم البيت غير مستلزم دعوتهم الأكل

اللّام في ﴿لَكُمۡ﴾ دالَّةٌ على التَّخصيص والاستحقاق[3]، فإنَّه تعالى نهاهم عن الدُّخول إلى بيوت النَّبيِّ ﷺ إلّا أن يُؤذن لهم إذنًا يستحقّون بموجبه الدُّخول فالأكل، فلا يجوز لأحد دخول بيوت النَّبيِّ ﷺ إلّا بإذنٍ صريحٍ خاصٍّ له بالدُّخول.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها في: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾:

لا يكونُ انتهاءُ غايتكم الطَّعام

الأصلُ في معنى حرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في كلام العرب أن يكون دالًّا على انتهاء الغاية[4]، وهو عين معناه في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، أي: لا تكونوا منتهين[5] إلى هذا الغرضِ، فلا يكون انتهاءُ غايتكم الطَّعام.

والتَّعبيرُ ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ غير مقيَّد بجواز الدُّخول لأجل الطَّعام

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 82.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 179.
(3) الزجاجي، اللامات، ص: 65.
(4) ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبة: 1/ 236.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 391.

حسب، وإنَّما ذكر الطَّعام من باب التَّخصيص بالذِّكر، ولا يدل على نفي ما عداه، فيجوز أن يكون دخوله إلى غير الطَّعام مع وجوده، كالتَّكلُّم معه، والاستعانة به في قضاء حوائجه، وإعلامه ممّا عنده من العلوم، وغير ذلك ممّا لا يمنع انضمامها إلى الطَّعام[1].

سرُّ التَّقييد بالحال ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾:

قيدٌ ثالثٌ في منع الدُّخول على تلك الحال بعد قيد الإذن وقيد الدَّعوة

﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ حال من ضمير في ﴿لَكُمۡ﴾، أي: لا يكن منكم دخول، وأنتم على هذه الحال[2]، وهذه الحال قيدٌ في متعلِّق المستثنى، وهو قيدٌ في قيد: قيد الإذن، وقيد الدَّعوة، وقيد انتفاء النَّظر قبل النُّضج والتَّحيين، فهذه قيودٌ ثلاثة، وتقييد النَّهي بالحال في قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ للتَّنزيه؛ لأنَّ الحضور قبل تهيُّؤ الطَّعام غير مقتضٍ للدَّعوة، ولا يتضمَّنه الإذن، فهو تطفُّل[3].

دلالةُ النَّظر في قوله: ﴿نَٰظِرِينَ﴾:

اسمُ الفاعل دالٌّ على حدوث النَّظر واستمراره، وهو أبلغُ في التَّعبير به

استعملَ اسمَ الفاعل في قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، وهو مِن الفعل (نظَرَ) بمعنى: (انتظَرَ)، كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [يونس: 102]، والمعنى: غير متحيِّنين أوانه ونضجه، فالمعنى: لا تحضروا البيوت للطَّعام قبل تهيئة الطَّعام للتَّناول، فتقعدوا تنتظرون نضجَهُ[4].

وفي صياغة اسم الفاعل ﴿نَٰظِرِينَ﴾ من فعل النَّظر لطيفةٌ، فإنَّ اسم الفاعل دالٌّ على حدوث النَّظر منهم واستمراره، والتَّعبير به أبلغُ في النَّهي[5] من الفعل الذي قد يحدث، وينقطع، أي: إنَّهم يستمرّون

(1) ابن عادل، اللباب: 15/ 582.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 221.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 85.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 82.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 392.

في النَّظر إلى الطَّعام وانتظاره، فكأنَّ أعناقهم مشرئبَّة، وعيونهم متوجِّهة إلى ما في البيت انتظارًا للطَّعام، وهو خُلقٌ منهيٌّ عنه.

معنى (الواو) ودلالتُها في الآية الكريمة:

عطفُ جملة الاستدراك على جملة النَّهي مفيدٌ في البيان

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ عاطفة، عطفت جملة الاستدراك على جملة جواب النِّداء ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾[1]، فإنَّه لّمّا نهاهم عن الدُّخول إلى بيوت النَّبيِّ ﷺ من غير إذنٍ؛ عطف عليه جملة الاستدراك بأنَّ "إذا رسول الله ﷺ، فادخلوا البيت الذي أذِن لكم بدخوله"[2].

دلالةُ الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ﴾:

توكيدُ المنع وتخصيص الوقت مِن الأدب مع الحضرة النَّبويَّة

﴿وَلَٰكِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ حرف استدراك، وفائدته هنا توكيدُ منعِ الدُّخول، وأنَّه لا يكون إلّا بإذنٍ تأدُّبًا، وحفظًا للحضرة الكريمة ممّا يكره من التَّباسط، وتقدير الكلام: ولكن إذا دُعيتم، وأذن لكم، فادخلوا؛ لأنَّ الدَّعوة نفسها ليست إذنًا كافيًا في الدُّخول[3].

ويجوز في إيراد الاستدراك هنا أن يكون رافعًا توهُّمَ أنَّ مَن تأخَّر عن إبّان الطَّعام هو أفضل له على وجه الإطلاق، فبيَّن أنَّ مثل هذا التَّأخُّر غير محمود، بل هو ليس من الأدب؛ لأنَّه يجعل صاحب الطَّعام منتظرًا ضيوفَهُ المدعوّين[4].

سرُّ تقييد دعوتهم بـ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

بيانُ أنَّ الدُّخول لا يصحُّ إلّا بدعوة صريحة

استعمل ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾، ولم يستعمل (إنْ)؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ دالَّة على تحقُّق الوقوع وحتميَّته[5]، و(إنْ)

(1) الخراط، المجتبى: 3/ 975.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 160.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 226.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 83.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 409، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 23.

دالَّة على ندرة التَّحقُّق والحصول، وفي التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾ هنا إيماءٌ إلى التَّحرُّز من الدُّخول إلّا إذا كانت الدَّعوة من أهل البيت حتميَّةً واقعةً حقًّا من دون أدنى شكٍّ، وهذا من أدب الدُّخول إلى البيوت في هذه الآية.

معنى (الفاء) ودلالتها في: ﴿فَٱدۡخُلُواْ﴾:

الدُّخولُ يكون مقارنًا للدَّعوة، لا متقدِّمًا عنها ولا متأخِّرًا

لَمّا كان دخولهم بيوتَ النَّبيِّ ﷺ لأجل دعوته لهم[1]؛ أدخل الفاء المؤذنة بالعلَّة والسَّبب على فعل الدُّخول في قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلُواْ﴾، فعلَّمهم أنَّ الأدب يكون في حصول الدَّعوة قبل الدُّخول، وأنَّ الدَّعوة سبب للدُّخول، ويجوز في الفاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ أن تكون دالَّة على المجازاة[2]، فقد صدَّر الجملة بـ﴿إِذَا﴾ الظَّرفية الشَّرطية، وهي لما يستقبل من الزَّمان، فوقعت الفاء جزاء في جوابها[3]، والمعنى: إذا دعاكم رسول اللّه ﷺ إلى بيته؛ فأجيبوه، وادخلوا.

معنى الفاء ودلالتها في: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ﴾:

تفصيلُ أحكام الآداب قبل الدُّخول وبعده

الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ﴾ دالَّةٌ على التَّعقيب من دون مهلة؛ للدِّلالة على أنَّه ينبغي أن يكون دخولهم بعد الإذن والدعوة، على وجه يعقبه الشُّروع في الأكل بلا فصل[4]؛ لئلّا يطولَ مكثهم في بيوت النَّبيِّ، فيتأذَّى من ذلك، ويكون فيه إشغالٌ له ﷺ عن أمر النُّبوَّة والدعوة، وأمر أهل بيته.

ويحتمل أن تكون الفاء هنا للتَّفريع؛ فبعد أن بيَّن اللّه تعالى أنَّ دخولهم ينبغي أن يكون عن إذنٍ ودعوة إلى أمر خاصٍّ كالطَّعام مثلًا؛ فرَّع عليه بيانَ ما الذي ينبغي أن يكون منهم بعد انقضاء الأمر الذي دخلوا لأجله، فقال: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 392.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 273.
(3) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 521.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 246.

سرُّ تقييد الطَّعام بـ(إذا) دون (إن) و(لو):

بيانُ أنَّ (إذا) ظرفيَّة شرطيَّة، دالَّة على تحقُّق فعل الشَّرط وجوابه

علَّق تناولهم الطَّعام على وجه الحتم والتَّوكيد، بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ بالانتشار، فاستعمل (إذا) الظَّرفيَّة الشَّرطيَّة الدّالَّة على تحقُّقِ الحصول والوقوع وحتميَّته[1]، ولم يستعمل (إنْ) أو (لو) الشَّرطيَّتين؛ لأنَّهما أقلُّ تحقُّقًا في وقوع الفعل، فيكون المعنى: أنَّه إذا تناولتم الطَّعام، وفرغتم منه على وجه التَّأكيد، فقد حصل مقصود الدَّعوة، فليس لكم بعد ذلك إلّا الانتشار في الأرض لقضاء مصالحكم وحوائجكم.

معنى (الفاء) ودلالتها في: ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾:

فعلُ الانتشار أمرٌ بالتَّفرُّق فورًا من دون مهلة

الفاءُ الدّاخلة على فعل الانتشارِ، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾، بمعنى: العطفِ والتَّعقيب من دون مهلةٍ، فقد أمرهم الحقُّ ﷻ أن يتفرَّقوا في الأرض، ونهاهم عن إطالة الجلوس، فيستأنس بعضُهم ببعضٍ في الأحاديث[2] بعد الانتهاء من الطَّعام، وألّا يمكثوا في بيت النَّبيِّ ﷺ بعد ذلك، فهو ليس بالخُلُقِ المحمود.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾:

الأمرُ بالانتشار يُطلَقُ على الأمر بالخروج مجازًا

أُطلِقَ لفظُ الانتشار على معنى الخروج بعد الأكل مجازًا، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾، ففعلُ الانتشار (افتعال) من النَّشر، وهو إظهار ما كان مطويًّا[3]، فكأنَّهم كانوا في طويَّة، فأمروا جميعًا بالخروج والانتشار أدبًا مع النَّبيِّ ﷺ وأهل بيته، فلا يتأخَّرون في بيته.

دلالة (الواو) في: ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾:

عطفُ أدبٍ آخر من الآداب في بيوت النَّبيِّ الأوّاب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ دالَّة على العطف[4]، فقد عطفت نفي الاستئناس بالحديث منهم في بيت

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 23.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 555.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 83.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 521.

النَّبيِّ ﷺ على ما سبق من قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، فقد نُهوا عن دخول بيوت النَّبيِّ ﷺ وانتظار الطَّعام قبل أناته، ونُهوا عن البقاء بعد الطَّعام للحديث والاستئناس بالكلام؛ لأنَّ كلَّ ذلك كان يؤذي رسول الله ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بالاستئناس:

التَّعبيرُ باسم الفاعل إشارةٌ إلى دوام الفعل واستمراره

معنى الاستئناس في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ طلبُ الأُنسِ والصُّحبة مع غيرهم، واستئناس الحديث أن تتسمَّعه، وتعتني بالإصغاء إليه[1]، والتعبيرُ باسم الفاعل يدلُّ على الدَّوام والاستمرار في الفعل، فإنَّهم كانوا يجلسون، "وينتظرون الغداء، وإذا أكلوا، جلسوا طويلًا، ويتحدَّثون طويلًا"[2]، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بالخروج عقب انتهائهم من طعامهم.

دلالةُ (اللّام) في قوله: ﴿لِحَدِيثٍ﴾:

إيرادُ الحكم مع علَّتِهِ مفيدٌ في البيان عن المراد

اللّام الدّاخلة على لفظ الحديث في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾؛ لإفادة العلَّة والسَّببيَّة، والمعنى: أنَّ استئناسَهُم ومكوثهم في بيت النَّبيِّ ﷺ إنَّما هو لأجل رغبتهم في الكلام، وتبادُلِ الأحاديثِ الطَّويلة التي تجري بينهم[3]، وهو ممّا يؤذي النَّبيَّ وأهل بيته.

ويجوز أن تكون اللّامُ الدّاخلة على الحديث هي اللّام الَّتي تقوّي اسمَ الفاعل ﴿مُسْتَـْٔنِسِينَ﴾ في طلبِهِ المفعولَ ﴿لِحَدِيثٍ﴾، فالنَّهي واقعٌ على استئناس حديث أهل البيت، بمعنى: تسمَّعه، والإنصات إليه، وتوحَّشه.

الغرضُ من تنكير لفظ ﴿لِحَدِيثٍ﴾:

التَّنكير تعميمٌ يستوعب كلَّ ألوان الحديث

أورد لفظ ﴿لِحَدِيثٍ﴾ في قوله: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ منكَّرًا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 83، 84.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 70.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 83.

إشعارًا بأنَّ المكوث بعد الطَّعام في بيوت النَّبيِّ ﷺ أمرٌ غيرُ محمود ولا مرغوب فيه على وجه الإطلاق أيًّا كوان نوع الحديث، وهذا الأدبُ من الآداب العامَّة للمسلمين[1].

علَّةُ فصل جملة: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾:

كونُ الجملةِ للتَّعليل أو الاستئناف مفيدة الغاية من وجهي التَّأويل

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه تعليلٌ له[2]، والمعنى: أنَّه تعالى نهاكم عن دخول بيوت النَّبيِّ ﷺ إلّا في حدود الشَّرع؛ لأنَّه ﷺ يتأذّى من تجاوز تلك الحدود بالدُّخول عليه في كلِّ وقتٍ وحين من غير إذنٍ أو دعوة[3].

وقد يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا، الغرضُ منه التَّحذير، ودفعُ الاغترار من أن يظنّوه ﷺ قد رضي بفعلهم هذا لسكوته عنهم، بل هو أذًى يلحق النَّبيَّ، وهو متقرَّر في نفوسهم، وهو عملٌ مذموم، فالنَّبيُّ أكرم الخلق جميعًا، وذلك يقتضي تجنُّب إلحاق أدنى أذًى به[4].

دلالةُ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

ممّا يؤذي النَّبيَّ الخلوق انتظارُهم الطَّعام واستئناسُهم بالكلام

اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ راجعٌ إلى انتظارهم الطَّعام حتّى ينضج، واستئناسهم بالحديث بعد الطَّعام، وكلُّ ذلك ممّا يؤذي رسول اللّه ﷺ[5]، واقترانُ حرف البُعد مع اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾؛ للإيذان بعظمة فِعْلِهم عند اللّه تعالى وشدَّتِهِ[6]؛ فإنَّ الدُّخول من غير إذنٍ والمكوث بعد الطَّعام خُلُقٌ ذميم فيه أذًى لرسول اللّه ﷺ.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 238.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 392.
(3) السايس، تفسير آيات الاحكام، ص: 656.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 85 - 86.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 500.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 392.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

الإشارةُ تستوعب كلَّ ما يفعل في الزّيارة

أضاف اسمُ الإشارة إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الخطاب متوجِّهٌ إلى جميع من قام بذلك الفعل[1]، ويجوز أن يكون التَّعبيرُ بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ للإشارة إلى أمور كثيرة مجتمعةٍ مهمَّة لا أمر واحد، وهي النَّظر والانتظار والمكوث والجلوس والحديث بعد الطَّعام وغير ذلك ممّا كان يؤذي النَّبيَّ ﷺ، أو يشقُّ عليه[2].

دلالةُ الإخبار بالفعل ﴿كَانَ﴾ ماضيًا:

بيانُ تحمُّلِ النَّبيِّ أذًى ممَّن لا يعرفون الأدب معه

دلَّ التعبيرُ بفعل الكون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ على تحقُّق وقوع الأذى على النَّبيِّ ﷺ، حينما كان النّاسُ يجتمعون في بيته، ويطيلون المكوث، ولم يكن سكوتُهُ عن فِعلِهم ذلك ناشئًا عن رضاه بِفعلِهم؛ إنَّما حياءً منه وأدبًا معهم، وفيه إشارة إلى تحمُّل النَّبيِّ عليه السلام[3].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع: ﴿يُؤۡذِي﴾:

ما نُهيَ عنه شاغل للنَّبيِّ عن شؤون الأمَّة الدّينيَّة والدُّنيويَّة

التَّعبيرُ عن فعل الإيذاء مضارعًا في قوله تعالى: ﴿يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾، دالٌّ على تكرُّر دخول بعضٍ مِنَ المؤمنين بيوتَ النَّبيِّ ﷺ على الوجه الذي كان يُحدِثُ له الأذى في كلِّ مرَّة؛ لأنَّ فعلهم فيه ما يحول بينه وبين التَّفرُّغ لشؤون النُّبوءة من تلقّي الوحي أو العبادة، أو تدبير أمر الأمَّة، أو التَّأخُّر عن الجلوس في مجلسه لنفع المسلمين، ولشؤون ذاته وبيته وأهله[4].

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

(أل) في ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ للعهد،

---

(1) الشربيني، السراج المنير: 3/ 265.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 23.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 180.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 86.

أي: النَّبيَّ المعهود عندكم، وهو الرَّسول الكريم محمَّد ﷺ خاتم الأنبياء، فليس لكم أن تؤذوا النَّبيَّ المتَّصف بهذه الصِّفة، بما كان له عند الحقِّ ﷻ من العظمة والرِّفعة والسُّموِّ، وما هيَّأه اللّٰه تعالى لتلقّي الأنباء العظيمةِ الَّتي تكون سببًا في شرفكم وعلوِّكم في الدُّنيا والآخرة، فاحذروا من إشغاله عن تلقّي الوحي وعن أمر الدَّعوة والنُّبوَّة.

خاتمُ الأنبياء الــذي تأتيه الأنباءُ العظيمة مــن ربِّــه فلا يُشغَلُ عن ذلك

دلالةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾ دالَّة على التَّفريع، غير أنَّه تفريع على مقدَّر دلَّ عليه السياق، فليس الاستحياء مفرَّعًا على الإيذاء، ولا هو من لوازمه، وتقديرُ الكلام: أنَّ ذلك الفعل كان يؤذي النَّبيَّ ﷺ، فيهُمُّ بإخراجكم، لكنَّه يستحي منكم، فلا يفعل[1].

ملمحُ التَّفريع على مقدَّر دلَّ عليه السّياق

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ﴾:

التَّعبيرُ باستحيائه ﷺ إنَّما هو في حقيقته صورةٌ لسكوته عن أفعالهم، وهو سكوتُ مظنون فيه ظنًّا خاطئًا في أنَّه سكوت رضًا من الرَّسول عن جلوسهم وأحاديثهم في بيته، فأرشدهم هنا إلى وهْمِ ذلك وخطئه، وإنَّما سكت استحياءً من أن يباشرهم بالإخراج، فهو استحياء خاصٌّ من عمل خاصٍّ[2].

السُّكوتُ مظهرٌ لاستحياء الرَّسول من إخراجهم

وإيرادُ فعلِ الاستحياء بصيغة المضارع للدِّلالة على أنَّ هذا خُلقٌ متكرِّر متجدِّد منه ﷺ، ويدلُّ على استمرار حالة الاستحياء لدى النَّبيِّ مِن أصحابه، ويؤيِّدُهُ سبب النُّزول من أنَّ الرَّسول جعل يدخل ويخرج، ويستحيي من أن يكلِّمَهُم[3]، وهي حالة متكرِّرة؛ كلَّما تكرَّر منهم ذلك الفعل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 86.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 86.
(3) مكي القيسي، الهداية: 9/ 5862.

دلالةُ (مِن) في شبه الجملة: ﴿مِنكُمۡۖ﴾:

دخولُ حرف الجرِّ (مِنْ) على ضمير المخاطَبين، في قوله تعالى: ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾، على تقدير مضافٍ، ومعناه الابتداء[1]، وهو الإعلامُ والإخبار، والمعنى: أنَّه ﷺ، يستحيي مِن إخراجكم، أو إعلامكم أنَّ فعلكم ذاك يؤذيه[2].

الاستحياءُ شيمةُ الرَّسول، والأذى فعل كلِّ جهول

دلالةُ الحذفِ البلاغي للمضاف:

في قوله تعالى: ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾ محذوفٌ مقدَّر دلَّ عليه السّياق؛ لأنَّ الاستحياء لا يكون من الذّات، وإنَّما يكون من الأفعال، وآيةُ ذلك أنَّه عطف نفْيَ فعل الاستحياء من الحقِّ المسند إليه تعالى، ولم يعبِّر عن الاستحياء هنا منهم؛ لأنَّ الكلامَ على نيَّة الحذف، والتَّقدير: إنَّ فعلكم ذلك ممّا يؤذي النَّبيَّ ﷺ، فيستحيي من إخراجِكم، أو الأمْرِ منه بأن تنصرفوا[3].

الاستحياءُ لا يكون من الذّات، وإنَّما يكون من الأفعال

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ عاطفة، بأن تكون هذه الجملة معطوفةً على قوله تعالى: ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾، والمعنى: الإشارة إلى سوء الأدبِ معَهُ ﷺ، فإنَّه إن كان يستحيي منكم؛ فلا يُنكر عليكم فعلكم هذا، فإنَّ الحقَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يستحيي من الحقِّ؛ لأنَّه ربُّ العالمين، ويشرِّع لعباده ما يشاء، ويريد، فلا يمنعه شيء عن الحكم بالحقِّ.

حكمُ الله حقٌّ، لا يؤخِّره شيء

بلاغةُ المشاكلة في الآية:

بين استحياء الرَّسول ﷺ، واستحيائه سبحانه من بيان الحقِّ، في قوله تعالى: ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾، فقد أسند فعل الاستحياء المنفيِّ للّه تعالى، وأراد منه عدمَ السُّكوت عن

المشاكلةُ بين استحياء الرَّسول واستحياء الله تعالى، من بديع السّياق

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 247.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 555، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 87.

(3) الصابوني، روائع البيان: 2/ 346.

بيانه، بتسمية السُّكوت استحياءً على طريق المشاكلة، مع العبارة الدّالَّة على استحياء الرَّسول[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل:

إظهارُ قدرته السّامية تعظيمًا وتخويفًا وتنبيهًا

التَّعبيرُ بالاسم الجليل (الله) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ له الأمر جميعًا[2]، وأنَّه يفعل ما يشاء، وأنَّ له القدرة المطلقة، والعظمة الباهرة، والمهابة السّامية، وفي ذلك تعظيمٌ وتخويفٌ وتنبيهٌ للمخاطَبين، وأحرى في الالتزام بما أمر به مِنَ الأدب مع الرَّسول وبيوته وأهله.

دلالةُ ﴿لَا﴾ في ﴿لَا يَسۡتَحۡيِۦ﴾:

أسبابُ الحياء المتأتّاة من الخلق منتفيةٌ عن الله الخالق

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ دالَّة على النَّفي[3]، أي: نفي الاستحياء، والمعنى: أنَّ الحقَّ ﷻ لا يفعل فعلَ المستحيي، فيترك الأمر بالحقِّ[4]؛ لأنَّ أسباب الحياء بين الخلق منتفيةٌ عن الخالق سبحانه[5].

دلالةُ التقييد بالجارِّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾:

الإسلامُ لا يستحيي من الحقِّ، دعوة إلى الجهر به ونشره وإقامته

في تقييد الفعل بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أحكامَ الله تعالى لخلقِهِ كلَّها حقٌّ وخيرٌ ونفعٌ لهم في كلِّ شؤونهم من شؤون دنياهم وأخراهم، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى وجوب التزام الأمَّة بالحقِّ في كلِّ جوانب حياتها، فكما أنَّ الحقَّ ﷻ لا يستحيي من إظهار الحقِّ، فكذلك يجب على المؤمن ألّا يستحيي من تعلُّمه وإقامته ونشره بين النّاس، إلّا في الحقوق الخاصَّة المتسامح فيها من أصحابها[6].

---

(1) الصابوني، روائع البيان: 2/ 347.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 393.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 183.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 555، والبقاعي، نظم الدرر: 15/ 393.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 88.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 88.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ تعريفٌ للاستغراق؛ ليشمل كلَّ المعاني الدّاخلة تحت مسمّى ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾، فليس الأمر مقصورًا على ما يتعلّق ببيوت النَّبيِّ ﷺ، ولزوم الأدب معها بما بيَّنه سبب النُّزول في أن يبيِّن لهم الحقَّ الذي يأمرهم بالخروج بعد تناول الطَّعام، وما تشير إليه الآية في حفظ الأدب والتَّعليم[1]، بل هو في كلِّ خُلق ضمن الدّين والشَّريعة، وهو العدل والخير والصِّدق والواجب؛ لأنَّ "الحقَّ ضدُّ الباطل، فمنه حقُّ الله، وحقُّ الإسلام، وحقُّ الأمَّة جمعاء في مصالحها وإقامة آدابها، وحقُّ كلِّ فرد من أفراد الأمَّة فيما هو من منافعه ودفع الضُّرِّ عنه، ويشتمل حقُّ النَّبيِّ ﷺ في بيته وأوقاته"[2]، فهو مُستغرِقٌ وجوهَ الخيرِ كلَّها، مُستخرِجٌ منه وجوهَ الباطلِ كلَّها.

الاستغراقُ يشمل كلَّ المعاني الدّاخلة تحت مسمّاه

دلالةُ (الواو) في: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا﴾ عاطفةٌ[3]، فقد عطفت هذه الجملةَ على قوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا﴾ زيادةُ بيانٍ للنَّهي عن دخول بيوته ﷺ، وتحديدٌ لمقدار الضَّرورة التي تدعو إلى دخولها أو الوقوف بأبوابها[4].

عطفَ بالنَّهي عن دخول البيوت النَّبويَّة، إلّا للضَّرورة المقدَّرة

نكتةُ التَّقييدِ بـ(إذا) دون (إن):

استعمل (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا﴾ دون (إن) الشَّرطية الجازمة؛ لأنَّ (إذا) ترد للمقطوع بحصوله، والكثير وقوعه، بخلاف (إنْ) التي أصلها الشَّكُّ والإبهام[5]، وعبَّر بـ(إذا) هنا؛ لأنَّ

سؤالُ المتاع من البيوت متكرِّرُ الحصول كثير الوقوع

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 70.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 88.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 41.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 90.

(5) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 75.

سؤالهم زوجات النَّبيِّ المتاع قطعيُّ الوقوع؛ "لأنَّ سؤالَ المتاع من مصالح التَّكليف المرغَّب فيها شرعًا"(1)، فهو أمر يحدث، ويتكرَّر في حياة النّاس، فناسبه التَّعبير بما يدلُّ على تحقُّق الوقوع، وهو (إذا).

دلالةُ السُّؤال بالماضي في ﴿سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾:

خطابُ المؤمنين لزوجات النَّبيِّ قائمٌ على التعظيم والتوقير

التَّعبيرُ بالسُّؤال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾، يدلُّ على معنى الإرادة، أي: إذا أردتم أن تسألوهنَّ متاعًا، فالسُّؤال هنا مضمَّنٌ معنى الإرادة والنِّيَّةِ، فهما الحقيقة، والسُّؤال والقول مظهرهما(2)، ويدلُّ على ذلك أنَّه أعاد لفظَ السُّؤال بعده، بقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾، فأورد السُّؤال هنا بلفظه ومعناه، ويجوز في استعمال لفظ السُّؤال، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ دلالة أخرى، وهي إظهار التَّعظيم والتَّوقير لنساء النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ الطَّلب من الأدنى إلى الأعلى دعاءٌ ومسألة(3).

دلالةُ مرجع ضمير الغائبات في ﴿سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾:

الاكتفاءُ بالضَّمير؛ لدلالة الحال على المقال

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ يعود إلى نساء الرَّسول ﷺ، واكتفى بالضَّمير؛ لدلالة الحال على المقال(4)، وهنَّ ربّات البيوت المفهوم من ذكر بيوت النَّبيِّ، وهنَّ الأزواج أيضًا؛ فإنَّ ذِكر البيوت دالٌّ على الأزواج، وزوج الرَّجل هي ربَّة بيته، وكان من عاداتِهم أنَّ الرَّجل يبني البيت وقت زواجِه؛ فسمّي الزِّفاف بناء، فالمرأة والبيت متلازمان، فالبيوت تدلُّ على الأزواج بالالتزام(5).

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مَتَٰعًا﴾ وتنكيره:

المتاع لفظٌ يُراد به المعنيان المادّي والمعنويُّ

المتاع في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ كلُّ ما يمكن أن

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 305.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4266.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 305.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 555.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 90.

يُحتاج إليه، ويستعار بين النّاس مثل ما يكون في البيت مِن الأدوات[1]، ومثل عارية الأواني، وغير ذلك من الحاجات، وكذا سؤال العفاة، وهم الأضياف وطلاب المعروف، ويجوز أن يلحق به ما كان معنويًّا، فهو أولى بالحكم من السُّؤال عن الدّين أو الشَّرع أو القرآن، ويؤيِّده أنَّهم كانوا يسألون أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن مسائل في الدّين[2]، فالمتاع عامٌّ في جميع ما يمكن أن يُطلَبَ من المواعين وسائر المرافق للدّين والدُّنيا[3]، ولذلك جيءَ به منكَّرًا.

دلالةُ الأمر في جملة ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ﴾:

أوامرُ الله تعالى تربيةٌ وإرشادٌ ونفعٌ لخلقه

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ﴾؛ للتَّوجيه والإرشادِ، ففيه تعليمٌ للنّاس وتربيةٌ لهم على آداب مخاطَبة زوجات النَّبيِّ ﷺ، والحدود الشرعيَّة في ذلك، فقد بيَّن هنا أنَّ السُّؤال ينبغي أن يكون عن حاجةٍ كالمتاع، وأن يكونَ مِن وراء حجابٍ يستر بين السّائل وزوجات رسول اللّه ﷺ.

سرُّ تقييدِ: ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ﴾ بـ ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾:

توقيرُ أمَّهات المؤمنين توقيرٌ للرَّسول ومقامه

قوله تعالى: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾ تقييدٌ لقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ﴾، فهو قيدٌ في السّائل والمسؤول، والوراء: مكانُ الخلف، وهو مكان نسبيٌّ باعتبار المتَّجه إلى جهة، فوراء الحجاب بالنِّسبة للمتَّجهين إليه، فالمسؤولةُ مستقبِلةٌ حجابها، والسّائلُ من وراء حجابها وبالعكس[4].

وفي تقييد سؤالهنَّ هذا حكمةٌ سامية، بأن يرسِّخ معنى كونهنَّ أمَّهات للمؤمنين في قلوب المسلمين، وهي أمومةٌ جعلها الشَّرع، وقرَّرها، وهي ذات معنًى روحيٍّ يرتدُّ من النَّفس، فتتلاشى أمامه ذواتهنَّ، وهي كونهنَّ فلانةً أو فلانةً، فلا يُتصوَّرْنَ إلّا بعنوان

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 393.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 90.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 227.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 91.

الأمومة[1]، فيكون ذلك أدْخلَ في طاعة الرَّسول ﷺ من خلال توقير زوجاتِه رضي الله عنهن.

علَّة فصل جملة ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ﴾ عما قبلها:

طهارةُ القلوبِ من مقاصد التشريع

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّ معناه من تمام الاتِّصال الذي يؤكِّد تعانق المعاني بين الجملتين، فهذه الجملة تعليلٌ لما سبقها[2]، فطهارة القلوب تعليلٌ حكيمٌ للأمر الإلهيِّ بمسألة الحجابِ، وبيانٌ لحكمة هذا التَّشريع، وكلمة ﴿أَطۡهَرُ﴾ تدلُّ على درجة عاليةٍ من الخلوص والنَّقاء، وهي تطهيرٌ للقلب والعقل معًا، وليس مجرَّد تطهير جسديٍّ، وذلك أنَّ الحجاب يمنعُ الوقوع في الفِتن والشَّهوات الَّتي تفسد القلوب، كما أنَّه يحفظ كرامةَ المرأة، ويرفعُ من قدرها.

دلالةُ التَّعبير بالطُّهر في الخبر ﴿أَطۡهَرُ﴾:

قلوبُ المؤمنين طاهرة، ويزيدها الله تعالى طهرًا بأحكامه

عبَّرَ بلفظ الطُّهرِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ هذه الآداب التي أمر بها اللّه تعالى من عدم الدُّخولِ بغير إذنٍ، وعدم الاستئناسِ للحديثِ عند الدُّخولِ، وسؤالِ المتاع من وراء حجاب، فيها حفظٌ لقلوب المؤمنين وقلوب زوجات النَّبيِّ ﷺ من كلِّ وساوس الشَّيطان وخواطره[3]، وأورد الطُّهر على صيغة التَّفضيل (أفْعَل) بقوله تعالى: ﴿أَطۡهَرُ﴾، وهو وإن كان على هذه الصّيغة إلّا أنَّه مستعملٌ للزّيادة لا للتَّفضيل، ومعناه أقوى طهارة لقلوبكم وقلوبهنَّ؛ لأنَّ قلوب الفريقين طاهرةٌ أصلًا بتقوى اللّه، وتعظيم حرماتِهِ وحرماتِ رسوله ﷺ، لكنَّه أراد أن يزيدهم من الطُّهر ما يكسبهم مراتبَ مِن الحفظ الإلهيِّ من خواطر الشَّيطان، وما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 91 - 92.

(2) المظهري، التفسير المظهري: 7/ 372، والهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 94.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 113.

يقرِّب أمَّهاتِ المؤمنين من عصمة الرَّسول، ويقطع دابرَ الخواطر الشَّيطانية عنهنَّ، ولو بالفرض؛ فإنَّ الطَّيِّبات للطَّيِّبين[1].

دلالةُ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

علوُّ شأنِ ما ذكر لكم من الآداب والأحكام

التَّعبيرُ بالإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ﴾ يقتضي مرجعًا يُشار إليه، فهو "ما ذُكِرَ من عدم الدُّخول بغير إذنٍ، وعدم الاستئناس للحديث عند الدُّخول، وسؤال المتاع من وراء حجاب"[2]، ولَمّا كان هذا المذكور ممّا علَتْ رتبته[3]؛ أشار إليه بحرف اللّام الدّال على البُعد.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾:

الأحكامُ الشَّرعيَّة سببٌ في طهارة قلوب الرِّجال والنِّساء معًا

من دلالات اللّام في كلام العرب أنَّها تأتي للعلَّة أو السَّبب، وتكون على معنى (من أجل)، كقولهم: جئتك للإحسانِ[4]، والوارد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ من هذا القبيل، فإنَّ ما ذُكِرَ مِنَ الاستئذان - وترك الحديث في بيت النَّبيِّ، والسُّؤال من وراء حجاب وغيره ممّا أمر به الحقَّ سبحانه - سببٌ في زيادة تطهير القلوب، سواء كانت قلوب الرِّجال الذين يسألون، أم قلوب النِّساء اللّائي يُسألن، فالآيةُ تربط بين الفعل - وهو السّؤال من وراء الحجاب وما في حكمه - والنَّتيجة: وهي طهارة القلوب برابطة سببيَّة قويَّة.

سرُّ دخولِ اللّام على قلوبهم دون قلوبهنَّ:

السَّؤالُ من وراء الحجاب أوكدُ لطهارة القلوب ونقاء السَّرائر

أُدخِلَتِ اللّامُ على قلوب السّائلين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ دون المسؤولات، وهنَّ أزواج النَّبيِّ ﷺ، والفائدة من ذلك التَّوكيد[5]، أي: توكيد طهارة قلوبِهِم بالالتزام بحكم اللّه في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 91 - 92.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 113.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 393.
(4) المالقي، رصف المباني، ص: 223.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 23.

سؤالهنَّ من وراء حجاب، أمّا قلوبهنَّ؛ فهي أطهرُ مِن قلوب النّاس؛ لأنَّهنَّ أزواجُهُ، فلم يحتج معها إلى التَّوكيد.

سرُّ تقييد (الطُّهْر) بقوله: ﴿لِقُلُوبِكُمْ﴾:

القلبُ بالتزامه الآداب أطهرُ، وهو بعدم الفتنة أنور

تقييدُ الطُّهرِ بالجارِّ والمجرور من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾؛ لأنَّ العين مرآةٌ للقلب، فما تعاينه العين يستقرُّ في القلب، وما يطيب له النَّظر تشتاق إليه النَّفسُ، ولذا فإنَّ منع البصرِ، هو أزهى سبيلٍ لطهارة القلوب، وسكينة النُّفوس؛ إذ به يتجنَّب القلب الفتنَ، ويطمئنُّ إلى ما عنده[1].

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾:

الأمرُ موجَّهٌ لرجال الأمَّة الأبرار، ولنساء النَّبيِّ الأطهار

الواو في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ عطفتْ ما بعدها على ما قبلها[2]، والعطف دالٌّ على أنَّ خطاب الحجابِ وما يتعلَّق به متوجِّهٌ على حدٍّ سواء لرجال الأمَّة، ولنساء النَّبيِّ ﷺ، وقد أُلحِقَ بأزواج النَّبيِّ ﷺ بنتُهُ فاطمة، فلذلك لمّا خرجوا بجنازتها؛ جعلوا عليها قبَّةً حتَّى دُفنت، وكذلك جُعِلَتْ قبَّةٌ على زينبَ بنت جحش في خلافة عمر بن الخطاب[3].

دلالةُ الإضافة في ﴿لِقُلُوبِكُمْ﴾ و﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾:

معنى طهارة قلوب الرِّجال غيرُ معنى طهارة قلوب زوجات الرَّسول

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أضاف القلوب إلى السّائلين، وإلى المسؤولات؛ لأنَّ طهارةَ قلوب الرِّجال غيرُ طهارة قلوب النِّساء؛ لأنَّ السُّؤال من وراء حجاب يكون أطهرَ لقلوبهم من الرّيبة والفجور ووساوسِ الشيطان، أمّا النِّساءُ؛ فقد علِمْنَ أنَّهنَّ لا يحللْنَ لغيره؛ لمّا اخترن اللّه ورسوله، فإذا علِمْنَ أنَّ الدّاخل عليهنَّ ناظرٌ إليهنَّ شهوةً؛ امتلأت قلوبهنَّ عداوةً وضغينة،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 180.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 522.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 92.

فكأنَّه يقول: إنَّ الحجاب أطهرُ لقلوبهم من الفجور، وأطهر لقلوبهنَّ من الضَّغينة[1].

سرُّ تقديم ﴿لِقُلُوبِكُمْ﴾ على ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾:

تطهيرُ ما هو أقرب للوقوع في الدَّنس، أولى ممّا هو أبعدُ منه

قدَّم قلوب السّائلين على قلوب زوجات النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾؛ لحكمة بالغة إذ إنَّ قلوبَ المؤمنين بصفة عامَّة أقربُ إلى الوقوع في الشِّرك والشَّهوات والذُّنوب والدَّنس والخطيئة من قلوب زوجات النَّبيِّ اللَّواتي طهَّرهنَّ الحقُّ تعالى، واختارهنَّ ليكنَّ قدواتٍ للنِّساء المؤمنات، ففي التَّقديم قصد الاهتمام بتطهير الَّذي يقرب من الوقوع في الدَّنس على البعيد منه[2]، وفيه توجيهٌ بأنَّ الاهتمام بتطهير القلوب وحفظها أمرٌ واجبٌ على المسلمين.

دلالةُ (الواو) في سياق الآية المحكم:

مفادُ عطف العامِّ على الخاصِّ، وأثره في الإبانة عن المراد

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ تحتمل أن تكون عاطفة، عطفت هذه الجملة على جملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾[3]، فإنَّ دخول بيوته يؤذيه، وكذلك نكاحُ أزواجه من بعد وفاته ﷺ.

والعطفُ هنا من باب عطف العامِّ على الخاصِّ، فإنَّ الجملة الأولى المعطوف عليها متضمِّنةٌ النَّهي عن أذيَّته ﷺ بدخول بيوته من غير إذنٍ، والمكوث فيها، والاستئناس بالحديث، وهذه الجملةُ المعطوفة متضمِّنةٌ النَّهيَ عن أذى النَّبيِّ نهيًا عامًّا، فعطف النَّهي العامَّ على النَّهي الخاصِّ[4].

ويجوز أن تكون الواو اعتراضيةً بين جملتين هما: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾، والجملة من قولهِ تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 407.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 306.
(3) الخراط، المجتبى: 3/ 976.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 501.

﴿فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 55][1]؛ لاتِّصال الجملتين، فإنَّه نفى الجُناح عن أصنافٍ من الرِّجال والنِّساء في الدخول والخلوة من غير حجاب.

دلالةُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ﴾:

المرادُ هنا نفي صحَّة الإيذاء، لا نفي كونه حاصلًا

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، "تكرار للعلَّة، وتأكيد لحكمها، وتأكيد العلل أقوى في الأحكام"[2]، فقد بيَّنت هذه الآية علَّة الأمر بالحجاب وبالآداب في بيت النَّبيِّ ﷺ، وأنَّ تجاوز ذلك فيه إيذاء له ﷺ، ودلَّت جملة ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ﴾ على الحظر المؤكَّد؛ لأنَّ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ﴾ نفيٌ للاستحقاق الذي دلَّت عليه اللام، وإقحام فعل ﴿كَانَ﴾ لتأكيد انتفاءِ الإذن، وهذه الصيغةُ من صيغ شدَّة التحريم[3]، وإيذاءُ النَّبيِّ ﷺ إيذاءٌ لله تعالى الذي قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾ [الأحزاب: 57].

دلالةُ تقديم القيد ﴿لَكُمۡ﴾:

لا يكون من المؤمنين إلّا التوقيرُ لرسول الله ﷺ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، على فعل الإيذاء؛ تحذيرًا للمخاطَبين، وهم المؤمنون[4]، وإبلاغًا في تهديدهم وتخويفهم، فكيف تؤذون رسولكم الَّذي آمنتم به، وصدَّقتم رسالته؟ فإنَّكم إن فعلتم هذا؛ فإنَّ إيذاءكم ما هو إلّا إيذاءٌ لأنفسكم، وإيذاءٌ للإيمان الَّذي تتدثَّرون به، فالإيمان بالله ورسوله - ﷺ - يقتضي المحبَّةَ والتَّقدير والطّاعة، لا الإيذاءَ والمعصية.

دلالةُ جملة ﴿أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾:

النَّهي عن أذيَّة رسول الله ﷺ بـأيِّ نـوع من الأذى

جملة ﴿أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤوَّل في موقع الرَّفع على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 92.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 228.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 92.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 95.

أنَّها اسم كان[1]، والتقدير: ليس لكم أذيَّة رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء[2]، والمعنى: يحرم عليكم أذيَّة الرَّسول ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تُؤۡذُواْ﴾:

محظورٌ على المؤمنين أيُّ قول أو عمل يؤذي الرَّسول في حياته وبعد مماته

التَّعبيرُ بالإيذاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على تحريم إيذاء الرَّسول ﷺ من أيِّ قولٍ يُقال، أو فعلٍ يُعامل به ما من شأنه أن يكون سببًا لغضبه، أو توجيهِ الإساءة لذاته الشَّريفة، فالإيذاءُ أمر محظورٌ على المؤمنين[3]، وهو وإن كان متعلِّقًا بواقعة وقت نزوله إلّا أنَّ حُكم هذا الحظر جارٍ في كلِّ زمان، فخصوص السَّبب لا يمنع عموم اللَّفظ، فمحظورٌ على المؤمنين أيُّ قول أو عمل يؤذي الرَّسول في حياته، وبعد مماته حتّى قيام السّاعة، ولذلك عُبِّر عنه بالمضارع الدّالِّ على التَّجدُّد والحدوث.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿رَسُولَ﴾ دون (نبيّ):

وصفٌ فيه سببُ سعادتهم، مستجمعٌ لصفات الكمال ما يستوجبُ الإكرام

التَّعبيرُ بصفة الرِّسالة دون النُّبوَّة في قوله تعالى: ﴿تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ تذكيرٌ لهم بالوصف الذي هو سببُ سعادتهم، واستحقَّ به عليهم من الحقِّ ما لا يقدرون على شكره؛ بأن جاءهم رسولًا هاديًا، فله منكم الإحسانُ إكرامًا له وإجلالًا، فضلًا عن الكفِّ عن الأذى، فلا تؤذوه بالدُّخول إلى شيء من بيوته بغير إذنه، أو المكث بعد فراغ الحاجة ولا بغير ذلك[4].

سرُّ الإضافة في ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾:

مقامُ رسول الله عظيمٌ، يقتضي الشُّكر والعرفان، لا الإساءة والعدوان

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ تحملُ معنى الإنكار والتقبيح لفعلهم في إيذائه، والإشارة إلى حقيقة رسالته السّامية، ومكانته العظيمةِ بما يوجب حرمةَ إيذائِه، فمَن يمسُّه ﷺ؛ فهو يمسُّ رسالة

(1) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 221.
(2) الخازن، لباب التأويل: 3/ 434.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 93.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 394.

اللّه تعالى وهديه، ويؤكّد أنَّ الرِّسالة جاءت بالخير والرَّحمة والنَّفع للنّاس من عند اللّه تعالى، ولا يليق بأهلها مقابلة ذلك بالأذى، بل الواجب مقابلتها بما يوجب الشُّكر والعرفان، لا الإساءة والعدوان[1].

كما أنَّ الإضافة تشريفٌ للرَّسول ﷺ، ورفعة لمقامه، فهو رسول اللّه وخليفته في الأرض، ومن ثَمَّ فإنَّه حقيق بالتَّوقير والإجلال والاحترام.

دلالة ﴿أَن﴾ في جملة ﴿أَن تُؤۡذُواْ﴾:

النَّهيُ عن إيذاء الرَّسول في الحال والاستقبال

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ موصول حرفيٌّ سابك، موصول بالفعل المضارع[2]، يخلِّصُ الفعل المضارع للاستقبال، فحرمةُ إيذاء النَّبيِّ ﷺ مستمرَّة وقت حياته وبعد مماته، ومن ذلك حرمةُ نكاح أزواجه، فإنَّه محرَّمٌ في حياته وبعد وفاته على العالمين[3]؛ ليظلَّ شأنه معظَّمًا، وجنابه مكرَّمًا، فهو رسول اللّه وخليفته في الأرض، ومن ثمَّ فإنَّه حقيق بالتَّوقير والإجلال والاحترام.

دلالة (الواو) في السّياق المحكم:

وصلُ النَّهي عن نكاح أزواج الرَّسول بالنَّهي عن أذيَّته

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ﴾ عاطفة[4]، والجملة معطوفة على اسم كان[5]، عطف مصدر مؤوَّل مقدَّر بنكاح أزواج الرَّسول على مصدر مؤوَّل مقدَّر بأذيَّته ﷺ.

دلالة (لا) في ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ﴾:

تحريمُ أزواج الرَّسول عليهم، تقريرٌ لحكم أمومتهنَّ للمؤمنين

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ﴾ دالَّة على النَّفي؛ توكيدًا لِما سبق من حكم النَّفي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ﴾[6]، وهو نفي تحريم أزواج الرَّسول ﷺ على النّاس عند طلاقهنَّ، أو وفاته، وفيه

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 248.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 43.
(3) الشافعي، تفسير الإمام الشافعي: 3/ 1215.
(4) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1860.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 140.
(6) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 268.

إشارة بليغة إلى أنَّ هذا النَّهي فيه تقرير لحكم أمومة أزواج الرَّسول للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾ [الأحزاب: 6]، وهو حكمٌ دائم ثابتٌ في حياة الرَّسول، وبعد مماته حتّى انتقالهنَّ إلى الرَّفيق الأعلى(1).

دلالة ﴿أَن﴾ في: ﴿أَن تَنكِحُوٓاْ﴾:

النَّهيُ عن نكاح أزواج الرَّسول بعد طلاقه أو وفاته

﴿أَن﴾ حرف مستعملٌ للاستقبال، وفي إيراده في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ﴾ لطيفةٌ بلاغيَّةٌ، فالحقُّ ﷻ حرَّم نكاح أزواج الرَّسول ﷺ على أمَّته بعده(2) فيما يستقبل من أمرهنَّ، والاستقبالُ هنا وقت وفاته ﷺ، أمّا في الحال - وهو الوقت الذي يكنَّ في عصمته حيًّا - فنكاحهنَّ ممتنع شرعًا، كما هو معلوم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿رَسُولَ﴾ دون (نبيّ):

جمْعُ الرَّسول لصفات الكمال، ما يستوجبُ الإكرام

للتَّعبير بصفة الرِّسالة دون النُّبوَّة في قوله تعالى: ﴿تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ تذكيرٌ لهم بالوصف الذي هو سبب سعادتهم، واستحقاقهم من الحقِّ ما لا يقدرون على شكره بأن جاءهم رسولًا هاديًا، فله الكمالُ جميعُهُ، وله منكم الإحسان إكرامًا له وإجلالًا(3).

دلالة ﴿مِنۢ﴾ في: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾:

النَّهيُ عن زواج نساء النَّبيِّ بعده على وجه التَّحقيق

نهاهم عن أن يؤذوا رسولَ اللّه ﷺ في عدم الاستئذان، وطول الاستئناس بالحديث، ووجوب الحجاب، ثمَّ زاده نهيًا بحرمة نكاح أزواجه، فلا يُتَزَوَّجْنَ بعده(4)، فلمّا أراد بلوغَ التَّحريم مبلغًا عظيمًا؛ أورد الظَّرف، وأكَّده بـ﴿مِنۢ﴾ الزّائدة في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾(5)؛ ليؤكِّد حرمةَ هذا الفعل درءًا لما يتوهَّم أنَّ ذلك قد يكون بعد مماتِه جائزًا، فإنَّ النَّهي شاملٌ للأزمنة كلِّها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 93.
(2) ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام، ص: 225.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 394.
(4) الجصاص، أحكام القرآن: 3/ 483.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 94.

دلالةُ التَّعبير بالقيد ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾:

بيانُ أنّه لا يحلُّ نكاح أزواجه بعد وفاته ﷺ

البعديَّةُ في الزَّمن دالَّة على ما يُستقبل، وقد أضاف لفظة بعد إلى ضميره ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾؛ ليتعيَّن أنَّ المراد من هذه البعديَّة ما يحصل بعد حياته، وهو شائعٌ في استعمال مثل هذه الإضافة؛ إذ ليس المراد بعد انحلال عصمته من طلاق ونحوه، فإنَّ طلاقه ﷺ ليس واردًا شرعًا لقوله تعالى في حقِّه: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾[(1)].

الغرضُ مِنَ التَّوكيد بقوله: ﴿أَبَدًاۚ﴾:

معنى التَّأبيدِ: تحريمُ الزَّواج بنساء النَّبيّ في الحياة وبعد الممات

لَمّا نهاهم عن أن يتزوَّجوا نساء النَّبيِّ ﷺ بعده في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾؛ أكَّد عموم ذلك النَّهي بالظَّرف ﴿أَبَدًاۚ﴾[(2)] إيذانًا وإعلامًا بأنَّ ذلك الحكم لا يتطرَّقه النَّسخ ولا التَّغيير[(3)] في حياته، وبعد مماته حتّى يتوفّاهنَّ اللّه تعالى، والتَّوكيد على حُرمة نكاح زوجات نبيِّه ﷺ إلى الأبد في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ دالٌّ على نفي انقضاء العدَّة من نسائه، وفي هذا التَّوكيد بالأبديَّة دلالةٌ عميقة على عظمة الرَّسول وجلالة قدره، فكيف تنقضي عدَّة امرأة كانت زوجةً لخاتم الأنبياء، الذي له الجلال والعظمة والكمال، فهو ما زال حيًّا في قبره[(4)].

دلالةُ فصل ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ عمّا قبلها:

ممّا يعظُم عند اللّه الأعظم إيذاءُ رسول الله الأكرم

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه جملة مستأنفة مؤكِّدة لمضمون الجملة من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 94.

(2) ظرف زماني دال على الدوام بلا حدود مستعمل في المستقبل، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 1/ 87.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 94.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 394.

﴿لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[1]، فإنَّ إيذاء رسول الله ﷺ من أعظم الأمور عند الحقِّ ﷻ، الجالبةِ لأليم العذاب وعظيم العقاب.

التَّحذيرُ الصَّريح من مغبَّة الزَّواج بأمَّهات المؤمنين

الغرضُ من توكيد الخبر في الآية:

لَمّا نهاهم في الجملة السّابقة عن نكاح أزواجه بصيغة التَّأبيد المؤكَّدة؛ زاده هنا توكيدًا وتحذيرًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[2]، بما يُضفي على ذلك الفعل الآثم رهبةً وخطورةً، ويتجاوز ذلك إلى دلالات عميقة على مرتكبه، ووعورة الطَّريق الذي يقوده إليه، وهذا التَّأكيد الإلهيُّ بمنزلة تحذير صريح لكلِّ مؤمن من مغبَّة اقتراف مثل هذا الفعل الشَّنيع.

إيذاؤهُ ونكاح أزواجه منزلة بعيدة في الشَّرِّ والفساد

دلالةُ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

لَمّا أراد الإشارة إلى ما ذكره آنفًا من حُرمة أذى النَّبيِّ ﷺ، ونكاح أزواجه من بعده؛ عبَّر بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾؛ وقد قرنَهُ بحرف اللّام الدّالِّ على البُعد إيذانًا ببُعد مرتبته في الشَّرِّ والإيذاء والفساد[3].

تعدُّد المشارُ إليه، فتعدَّدت دلالاته

سرُّ الإضافةِ في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

أُضيفَ اسمُ الإشارة المقترن بلام البُعد إلى الضَّمير الدّالِّ على الجمع؛ لأنَّ المعنى يعود إلى أمور كثيرةٍ مجتمعةٍ، كالتَّعرُّض للنَّبيِّ ﷺ بأنواع من الأذى من مثل دخولِ بيوتِهِ من غير إذنٍ، والمكوث فيها، والاستئناسِ بالحديث، ثمَّ ما ذُكر من تزوُّج أزواجه من بعده، فلكلِّ ذلك المذكور عبَّر بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، وهذا التَّعبير بلفظ الجمعية يفيد التَّهويل والتَّعظيم[4].

إيذاءُ الرَّسول الأمين جرمٌ عظيم عند الله في كلِّ حين

دلالةُ التَّعبير بالكون الماضي ﴿كَانَ﴾:

الإخبارُ بفعل الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 94.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 94.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 113.
(4) الصابوني، روائع البيان: 2/ 347.

دالٌّ على شمول ذلك الجرم جميع الأزمنة[1]؛ وليدلَّ على تحقُّق وصف الشَّناعة في هذا الفعل، فهو جرمٌ عظيم، وفيه تأكيد على أنَّ إيذاءَ الرَّسول ﷺ، ونكاح زوجاته من بعده، ذنبٌ عظيم عند اللّه تعالى.

سرُّ التَّقييدِ بقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

الــزَّواجُ بنساء النَّبيِّ الكريم إثــمٌ عـظـيـم الشَّناعة عند الله العظيم

قيَّدَ صفة العظيم بكونه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾؛ لأجل التَّهويل والتَّحذير والتَّخويف؛ وذلك لشناعته العظيمة، فزواج مسلم ما من إحدى نساء النَّبيِّ ﷺ فيه إثمٌ عظيم، وذنبه كبيرٌ عند اللّه[2]، فإنَّ نساء النَّبيِّ هن أمَّهات المؤمنين، فلا ينبغي لأحد من المسلمين أن يتزوَّج إحداهنَّ؛ لحرمة أن يتزوَّج الرَّجل أمَّه[3]، وقدَّم قوله: ﴿عِندَ ٱللَّـهِ﴾ مبالغة في هذا التَّهويل، فإذا كان الأمرُ عند اللّه قبيحًا، وفعْلُه عظيمًا؛ فينبغي الحذر أشدَّ الحذر من اقترافه أو الاقتراب منه؛ خوفًا من عقاب اللّه العظيم.

دلالةُ صوغ لفظ ﴿عَظِيمًا﴾ على (فَعيل):

مخالفةُ أوامر الله إثمٌ عظيم وجرم أثيم

التَّعبيرُ بالعظم في الخبر في قوله تعالى: ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ يدلُّ على شناعة الإثم الذي يرتكبه من يتجرَّأ على نكاح أزواج النَّبيِّ ﷺ، فاللَّفظ القرآنيُّ هنا يحمل في طيّاته دلالةً قويَّةً على عظمة الإثم والجرم وفظاعته[4]؛ إذ ورد الوصف ﴿عَظِيمًا﴾ بصيغة المبالغة، وعليه تكون عقوبتُه على قدر عظمتِه وشناعته.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الانتشار والتفرُّق:

التَّـفـرُّق فصلٌ وتمييز معهود، والانـتـشـار الـخـروجُ بعد انقضاء المقصود

استعمل فعلَ الانتشار في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾، ولم يستعمل فعل التَّفرُّق الدّال على التَّمييز والتَّزييل والفصلِ بين

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 23.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 94.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 169.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 94.

شيئين[1]، فإنَّ معناه أن يذهبَ كلُّ واحد منهم في ناحية، أمّا الانتشارُ فهو دالٌ على الفتح والتَّشعُّب[2]، ولا يدلُّ على التَّمييز بين الأشياء بأن ينفصلَ الواحدُ عن الآخر، ولمّا كان معنى فعل الأمر في الآية "بعد الإطعام بأن يتفرَّق جميعهم، وينتشروا، والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل"[3]، والتَّصرُّف في حاجاتهم وشؤونهم، فإنَّ التَّعبيرَ بالانتشار وارد في موضعه معبِّر عن معناه بلا لبس ولا إيهام.

المتاع والمنفعة:

المنفعةُ عامّةٌ في الحسن والمتاع، وما يحتاجه النّاس لتحقيق المقصود

استعملَ مفردةَ المتاعِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾، والمتاع: هو كلُّ ما يهدف إليه الإنسان، وتحصل منه النَّفس على مقصدها أو مرادها[4]، ويشعر نفسه باللَّذَّة والرِّضا، فهو كلُّ ما يقتنيه، أو يسعى إليه لتحقيق سعادته وراحة باله، وهو المراد من معنى الآية، فالمتاع بمعنى: الحاجة أو العارية أو صُحُفِ القرآن[5]، وفي كلٍّ منها يحصل المقصود؛ لاحتياج النّاس إليها، ولم يعبِّر بالمنفعة؛ لأنَّها أعمُّ، فقد تكون حسنة وسيئة، وقد تكون معصية كقوله تعالى: ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219][6]، وليس ذلك كائنًا في المتاع.

الحَجْب والسَّتْر:

السَّترُ حائلٌ لا يمنع الدُّخول، والحجاب يكون المنع فيه مقصودًا

استعملَ مفردةَ الحجاب في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، ولم يعبِّر بالسّاتر أو السَّتر؛ لأنَّه يقال: حجبني فلانٌ عن كذا، ولا تقول: سترني عنه، فالحجابُ هو المانع والممنوع به،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 226.
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 558.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 418.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 196.

فالحجابُ ما كان المنع فيه مقصودًا، وإنَّما يقال: حجبه؛ إذا قصد منعه، وثمَّة فرقٌ آخر، وهو أنَّ السَّتر لا يمنع من الدُّخول على المستور، والحجاب يمنع[1]، فذكر الحجاب في الآية، ولم يذكر السَّتر، فإنَّهنَّ لو كنَّ ملتحفات بستر لم يمنع إلّا بوجود الحجاب الذي يحول بينهن وبين السّائل، يؤيِّده ما روي من قول عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عند وفاة زينب بنت جحش رضي الله عنها ألّا يشهدَ جنازتها إلّا ذو محرم، فأشارت عليه أسماءُ بنت عميس أن يستَرَها في النَّعش في القبَّة[2]، فتكون قبَّتها بمنزلة حجابها.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 176.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 306.

﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٥٤﴾

[الأحزاب: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربْطُ النَّهي عن إيذاء النَّبيِّ في أزواجه، بكون النّيّات المخفيَّة معلومة عند الله

لَمّا حذَّرهم في الآية السّابقة عن إحداث الأذى برسول الله ﷺ بنكاح أزواجه من بعده؛ ذكر هنا أنَّ الإنسان قد يضمر فعلًا مؤذيًا عند التَّمكُّن، وقد يؤذي بفعل يفعله، بادِّعاء أنَّه قصد شيئًا آخر لا يؤذي، فنبَّههم إلى التَّفطُّن والتَّنبُّه في الأقوال وغيرها، والمقاصد الحسنة ظاهرًا بأن يبدوه بألسنتهم وغيرها، وباطنًا بأن يخفوه في صدورِهم[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبۡدُواْ﴾: (بدو) أصلٌ واحد، وهو ظهور الشَّيء، يقال: بدا الشيءُ يبدو؛ إذا ظهر، فهو بادٍ، وسُمّيَ خلاف الحضر بدوًا من هذا؛ لأنَّهم في براز من الأرض، وليسوا في قرًى تسترهم أبنيتها، وبدو الشَّيء: ظهورُهُ ظهورًا بيِّنًا، وقيل للبريَّة: بادية؛ لأنَّها ظاهرة، والمعنى المحوريُّ للبُدوِّ أن يظهر الشَّيء، ويتكوَّن أوَّل مرَّة[2]، ومعنى ﴿تُبۡدُواْ﴾ في الآية: إذا أظهرتم شيئًا من أمر التَّزويج أو نحوه[3].

2) ﴿تُخۡفُوهُ﴾: (خفي) أصلان متباينان متضادان، فالأوَّل: الستر، والثاني: الإظهار، فمِن الأوَّل: الإخفاءُ، والخفية والخافية وهي نقيض العلانيَّة، وقولك: أخفيتُ الشَّيء بمعنى: سترته، وكلُّ شيء غطَّيته بستر فقد أخفيته، ويقال للرَّجل المستتر: إنَّه مستخفٍ، والخفاء ما كان مقابلًا للإعلان والإبداء، واستخفيتُ مِن فلان،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 402.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدو - بدا).
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 71.

أي: تواريتُ، واستترتُ[1]، ومعنى ﴿تُخۡفُوهُ﴾ في الآية، أي: تسرّونه في صدوركم، ولا تظهرونه[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

لا تخفى على الله خافيةٌ؛ لأنَّ عِلمَهُ محيطٌ بكلِّ شيء

يشير النَّصُّ الكريم إلى أنَّ الحقَّ ﷻ يحاسب الإنسان على كلِّ ما يفعله من الأذى ظاهرًا كان، أو في طيِّ الكتمان، فإنَّ اللّه تعالى يعلم كلَّ شيء على جهة التَّفصيل، ولا يخطِئُ في عِلمِهِ أبدًا، فيعلم ما تكنُّه القلوب، وما تنطوي عليه السَّرائر، و﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]، فلا يخفى عليه شيء، ثمَّ يجازي كلَّ امرئٍ بحسب ذلك العلم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾ عمّا قبلها:

السّياقُ منبئٌ عن التَّحذير الشَّديد، ومظهر للوعد والوعيد

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾؛ لأنَّه تذييلٌ لما اشتملت عليه من العموم في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾، فهو كلام جامعٌ تحريضًا وتحذيرًا، ومنبئٌ عن وعد ووعيد، فإنَّ ما قبله قد حوى أمرًا ونهيًا، وإذا كان الامتثال متفاوتًا في الظاهر والباطن وبخاصَّة في النّيّات والمضمرات؛ كان المقام مناسبًا لتنبيههم وتذكيرهم بأنَّ اللّه مطَّلع على كلِّ حال من أحوالهم في ذلك وعلى كلِّ شيء[3].

سرُّ تقييدِ الإيذاء بـ﴿إِن﴾ دون (إذا):

إبداءُ فعلِ السّوء أو إضماره لا ينبغي من المؤمن

لَمّا كان الفعلُ منهم مذمومًا سواء أكان باديًا ظاهرًا منهم، أم كان خافيًا يكنّونه في قلوبهم؛ استعمل ﴿إِن﴾ الشَّرطية الدّالَّة على النُّدرة والقلَّة والاحتمال[4] بقوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خفي).
(2) الخازن، معاني التنزيل: 3/ 434.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 95.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 2/ 520.

للإيذان بأنَّ مثل هذه الأفعال - وهي ممّا يتأذّى منها نبيُّ اللّه ﷺ - قليلةُ الحصول من المؤمن، أو ينبغي أن تكون كذلك، خلاف (إذا) الدّالَّة على حتميَّة حصول الفعل.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تُبْدُوا﴾:

إبـــداءُ نـكـاحِ أزواج الـرَّسـول مِن أقبح الفعل وأشنعه

الإبداءُ بمعنى الإظهار، فقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾، أي: إن تظهروا شيئًا، لكنَّه وارد مورد الوعيد، فالمعنى: أنَّ اللّه يستوي علمه بأفعالكم كلِّها سواء ما أبديتموه منها، أو ما أخفيتموه، وهو مُجازٍ عن ذلك كلِّه.

واستعمل الفعل مضارعًا في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾؛ للدِّلالة على استمرار علم اللّه تعالى وثبوته، فهو ﷻ مطَّلع على جميع أفعالِ عباده، قليلِها وكثيرِها، ظاهرِها وباطنِها.

سرُّ إسناد ﴿تُبْدُوا﴾ إلى ضمير الجماعة:

اللهُ عليمٌ بخلقِهِ فردًا فردًا

في إسناد الفعل إلى واو الجماعةِ في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ دلالةٌ على أنَّ الحقَّ ﷻ مطَّلعٌ على أفعال خَلقِهِ جميعًا، فردًا فردًا، لا يغيب عنه أحدٌ منهم، ولا يخفى عليه عمل عاملٍ منهم، فهو الذي قال سبحانه: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾ [سبأ: 3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعول به نكرة في ﴿شَيْـًٔا﴾:

علمُ اللهِ محيط بـكـلِّ مـا يظهر على الـحـال، أو يخطر على البال

جاء بمفعول الإبداء بلفظ الشَّيء في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الحقَّ ﷻ مطَّلع على كلِّ ما يخطر في بال العبادِ من جميع الأمور مهما دقَّت، ومهما عظُمت، لا يفوته شيء، ولا يخفى عليه أمر(1)، وهو محيط بكلِّ ما يظهره المرء بلسانه أو بفعله، فالعلمُ الإلهيُّ يشمل كلَّ شيء.

(1) مكي القيسي، الهداية: 9/ 5865.

ونكَّر ﴿شَيْـًٔا﴾؛ للدِّلالة على العموم، فلفظ ﴿شَيْـًٔا﴾ هنا عامٌّ في كلِّ ما كان باديًا، وكلِّ ما كان خافيًا؛ لِما تقرَّر عند العرب أنَّ النَّكرة في سياق الشَّرط تعمُّ[1].

معنى ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾:

ما يظهره البشرُ، أو يكتمونه، يعلمُهُ الله، فيجازيهم به

من معاني ﴿أَوۡ﴾ في لسان العرب الجمع المطلق كالواو[2]، ويردُ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾، والمعنى: "ما تظهرونَهُ في شأن أزواج رسوله، وما تكتمونه في صدوركم"[3]، فاللّٰه تعالى يعلمُ جميعَ ذلك، ويجازي به سبحانه.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تُخۡفُوهُ﴾:

بيانُ أنَّ اللهَ عليمٌ بما تكنُّه الضَّمائر، وما تنطوي عليه السَّرائر

الإخفاء في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ يدلُّ على إضمار الشَّيء وستره، أي: "ما تكنُّه ضمائركم، وتنطوي عليه سرائركم، فاللّٰه يعلمه؛ إذ لا تخفى عليه خافية... ثمَّ يجازيكم بما صدر منكم من المعاصي البادية والخافية"[4].

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿تُبۡدُواْ﴾ و﴿تُخۡفُوهُ﴾:

مقابلةُ ما يدلُّ على الإبداء والظُّهور، بما يدلُّ على الإخفاء والسُّتور

بين فعل الإبداء في قوله تعالى: ﴿تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾، وفعل الإخفاء في قوله تعالى: ﴿تُخۡفُوهُ﴾ مطابقةٌ بديعية لطيفة[5]، فقد قابل بين جملتين تشتمل كلٌّ منهما على فعل وفاعل ومفعول، مع التَّباين في المعنى، فالأولى تدلُّ على الإبداء والظُّهور، والثّانية على الإخفاء والسِّتر، وذلك ما يزيد المعنى بيانًا وظهورًا، ويكون أبلغَ في التَّهديد والتَّخويف.

سرُّ تقديم ﴿تُبۡدُواْ﴾ على ﴿تُخۡفُوهُ﴾:

إبداءُ المعصية والمجاهرة بها مِن شنيع الفعلِ عند الله

قدَّم فعلَ الإبداء على فِعلِ الإخفاء في قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 95.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 88.
(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 11/ 132.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 31.
(5) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 523.

﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذا الفعل أشنعُ وأقبح[1] عند اللّه تعالى من فعل الإخفاء؛ لأنَّ فيه مجاهرةً وإعلانًا بالمعصية، وإصرارًا عليها.

بلاغةُ حذف جواب شرط ﴿إِن تُبۡدُواْ﴾:

الحذفُ دالٌّ على بالغ التهديد والوعيد

في قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ مجازٌ بالحذف، فإنَّ جواب الجملةِ الشَّرطية محذوفٌ، تقديرهُ يعلمه اللّه، فيكون قوله تعالى بعده: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ تعليلًا للجزاء المحذوف، أُقيمَ مقامه، والتَّقدير: يعلمه اللّه، فَإِنَّ اللّه كانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ[2].

والحذف هنا لِتَجۡمَعَ الآيةُ بين معنيين: عِلمِ اللّه الخاصِّ بالحادثة بعينها، وعِلمِهِ سبحانه المحيط بكلِّ شيء، فيكون في هذا الحذف بالغُ التَّهديدِ والوعيد.

دلالةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

كلُّ ما يصدر من المعاصي يجازي عنه اللّهُ الآخذُ بالنّواصي

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ رابطة لجواب الشَّرط بفعله[3] على أنَّ الجملة جوابُ الشرط، لا أنَّها الدليل عليه، والتقدير: (إن تبدوا شيئًا، أو تخفوه، فأخبركم أنَّ اللّه كان بكل شيء عليمًا)[4]، وفيه معنى المجازاة، أي: مهما يكن ممّا يصدر منكم من المعاصي التي تبدونها على ألسنتكم، وتظهرونها في أفعالكم، والمعاصي الخافية التي تكنّونها في أنفسكم؛ فإنَّه يجازيكم بها لا محالة[5].

أمّا على كون الجملة دليلًا على جواب الشرط المحذوف، والذي تقديره: (إن تبدوا شيئًا أو تخفوه؛ يجازِكم به، فإن اللّه كان بكل شيء عليمًا)، فتكون الفاءُ هنا دالَّةً على معنى التَّعليل، فإنَّ اللّه تعالى يجازي على السِّرِّ والعلن؛ لأنَّه مطَّلع على كلِّ شيء.

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 413.
(2) المظهري، التفسير المظهري: 7/ 373.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 43.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 249.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 113.

الغرضُ من توكيد الخبر في السّياق:

التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾؛ للتَّخويف والتَّهديد بما كان في مضمون الجملة السابقة، فإنَّه سبحانه أكَّد علمَهُ بظواهر العباد وخفاياهم، ويلزم من ذلك جزاؤهم وحسابُهم، فلا يظنُّ ظانٌّ بعد هذا أنَّه إن أخفى شيئًا؛ فإنَّه قد يخفى على اللّه تعالى.

تنبيهٌ وترهيبٌ لمن ظنَّ أنَّ فِعلَهُ عن الله يغيب

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

التَّعبيرُ بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ إيذانٌ وتذكير بأنَّ له صفات الكمال والجلال جميعها[1]، ويدلُّ على أنَّ عِلْمَهُ الكامل يحيط بكلِّ شيء، فيحذر العبد مخالفةَ أمر ربِّهِ في ظاهره وباطنه.

بيانٌ بأنَّ الله تعالى، له جميعُ صفات الكمال والجلال

دلالةُ الإخبار بالماضي ﴿كَانَ﴾:

الإخبارُ بفعل الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ تأكيدٌ على أزليَّة علم اللّه وأبديَّته[2]، فهو إخبارٌ بأنَّ عِلم اللّه ﷻ سبق كلَّ شيء، فهو العليم الخبير، الذي لا يخفى عليه شيء.

العليمُ بكلِّ شيء في الأزل والأبد هو الله الواحد الأحد

دلالةُ (الباء) في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾، دالَّة على الإلصاق والمصاحبة والدَّوام، وقيل: إنَّه الأصل في جميع معانيها، فعلمُهُ تعالى مصاحبٌ متَّصل ملتصق بكلِّ شيء مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، سرًّا أو جهرًا، فعلًا أو قولًا[3].

عِلمُهُ تعالى مصاحب لكلِّ شيء مهما صغر أو كبر

دلالةُ التَّعبير بلفظ العموم (كُلّ):

لفظةُ (كلّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾، دالَّةٌ على التَّعميم، "وفي هذا التَّعميمِ مع البرهان على المقصود

إحاطةُ الله بكلِّ شيء علمًا، تهديدٌ من عقابه الصّارم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 402.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 402.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 24.

مزيدُ تهويلٍ وتشديد ومبالغة في الوعيد"[1]، فهو تحذيرٌ صريح لكلِّ العصاة، فاللّه تعالى مطَّلع على كلِّ ما يبطنونه، ويعلنونه.

دلالةُ إظهار لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ بعد ذكره من قبل:

علـــمُ اللـــه محيطٌ بأحوال النّاس وأحوال الموجودات

قد يردُ سؤال عن تكرار لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾، وقد ذكره في مستهلِّ الآية بقوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾، فهلّا كان موضع الإضمار بعد الذِّكر؟ والجواب عن ذلك أنَّ الإضمار هنا لا يستقيم من جهة أنَّ الشَّيء المذكور ثانيًا هو غير المذكور أوَّلًا، فالمراد بالأوَّل خصوصُ أحوال النّاس ما كان ظاهرًا منها، وما كان باطنًا، أمّا المرادُ بالثّاني؛ فجميعُ ما أوجده اللّه تعالى، وخَلَقَهُ، فيدخل فيه الصِّنف الأوَّل، والحقُّ ﷻ عليمٌ بكلِّ كائنٍ، ومن جملته ما يبدونه، وما يضمرونه من أحوالهم المخصوصة[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿عَلِيمًا﴾:

مَن أدركَ إحاطةَ عِلـمِ اللـه بكلِّ شيءٍ؛ كـان على خــوف وحــذرٍ دائمين

التَّعبيرُ بالعلم في قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾، معناه أنَّه لا يخفى عليه شيءٌ، يعلم إعلانكم وإسراركم مهما بالغتم في كتمانه[3]، فهو محيطٌ بكلِّ شيء، والمقصد من ذلك أن يكونوا على حذر وخوف دائمين إن أيقنوا أنَّه تعالى يعلم سرائرهم فضلًا عن ظواهرهم[4]، وأورد صفةَ العلم على صيغة (فَعيل) بقوله تعالى: ﴿عَلِيمًا﴾ الدّال على المبالغة في العلم، فعِلْمُهُ تعالى علم أزليٌّ أبديٌّ غير حادث ولا متجدِّد، وهو عليم في الأزمان كلِّها الماضي والحاضر والمستقبل؛ لأنَّه لا زمن عند الحقِّ ﷻ، وإنَّما الزَّمن ظرفٌ لبني الإنسان[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 113.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 95.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 402.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 408.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 12138.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٥٥﴾

[الأحزاب: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّرخيصُ في تركِ الاحتجابِ مِن بعضِ الأفرادِ

لمّا نزلت آيةُ الحجاب؛ قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله، أوَ نحن أيضًا نُكَلِّمُهُنَّ من وراء الحجاب؟ فنزلت: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ﴾، أي: لا إثمَ عليهنَّ في أن لا يحتجبن من هؤلاء[1]، فالآيةُ تخصيصٌ مِنْ عموم الأمرِ بالحِجابِ الَّذي اقتضاهُ قولُهُ ﷻ: ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ [الأحزاب: 53][2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّا جُنَاحَ﴾: (جنح) أصلٌ يدلُّ على المَيْلِ والعدوانِ، يقالُ: جَنَحَ إلى كذا، أي: مالَ إليه، والجُناحُ: الإثمُ، سُمّي بذلك؛ لمَيْلِهِ عن طريق الحقِّ، والجوانحُ: الأضلاعُ؛ لأنَّها مائلةٌ، وسُمّيَ الجناحانِ جناحينِ؛ لمَيْلِهما في الشِّقَّينِ[3]، ومعنى ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ﴾: لا إثمَ عليهنَّ[4].

2) ﴿وَٱتَّقِينَ﴾: (وقي) أصلٌ يدلُّ على دفع شيءٍ عن شيءٍ بغيرِهِ[5]، والوِقايةُ: فَرْطُ الصّيانة[6]، وحفظُ الشَّيءِ ممّا يُؤذيه، ويَضُرُّه، قال سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11][7]، والوِقاءُ: ما وقَيْتَ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 566.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 180، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 113، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 95.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنح).
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 33.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقي).
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وقي).
(7) الرّاغب، المفردات: (وقى).

به شيئًا[1]، والتَّقوى: جعْلُ النَّفسِ في وِقايةٍ ممّا يُخافُ، وصارت في عُرْفِ الشَّرعِ حِفظَ النَّفسِ عمّا يُؤثِمُ، وذلك بترك المحظور[2]، ومعنى ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾: واخشَيْنَ اللّهَ[3].

3) ﴿شَهِيدًا﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على الحضورِ والعِلْمِ والإعلام[4]، فالشُّهودُ والشَّهادةُ: الحضورُ مع المشاهدة، إمّا بالبصر، وإمّا بالبصيرة، وقولُه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: 73]، أي: ما يَغيبُ عن حواسِّ النّاسِ وبصائرِهم، وما يشهدونَهُ بهما، وقولُهُ تعالى: ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ [النّمل: 49]، معناهُ: ما حضَرْنا، وقولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: 72]، أي: لا يَحْضُرونَهُ بنفوسِهم ولا إرادتِهم، والشَّهادةُ أيضًا: قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حصلَ بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصرٍ[5]، والشَّهيدُ في الآيةِ: الشّاهدُ، وهو مبالغةٌ في الفعل[6].

المَعنى الإجماليُّ:

الـتَّرخيـص مقرونٌ بوجوب التَّقوى

الآية الكريمة مسوقة لبيان مَن لا يجب على نساء النَّبيِّ ﷺ أن يحتجِبْنَ منه، أي: لا حرجَ ولا إثم على أمَّهات المؤمنين، ألّا يحتجِبْنَ من آبائهنَّ، ولا أبنائهنَّ، ولا إخوانِهنَّ، ولا أبناءِ إخوانهنَّ، ولا أبناءِ أخواتهنَّ، ولا النِّساءِ المؤمناتِ، ولا العبيدِ المملوكينَ لهنَّ، ثمَّ أمرَهنَّ سبحانَهُ بتقواهُ فيما أمرهنَّ بهِ، وفي سائرِ شؤونهنَّ، فلا ينبغي أن يتجاوزنَ حُدودَهُ؛ لأنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ، لا تخفى عليه خافيةٌ[7].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (وقي).
(2) الرّاغب، المفردات: (وقى).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 33.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شهد).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 96.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 241، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 631.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

التَّرخيصُ في حقِّ المحارمِ مِنَ الرِّجالِ

فُصِلَتِ الآيةُ عمّا قبلَها؛ لِما بينهما مِن شبه كمال الاتِّصال الموجِب للفصل؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، جيءَ به جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن فَرْض الحجاب، كأنَّهُ قيل: هل هذا شاملٌ للمحارم مِنَ الرِّجال؟ فقيلَ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الآية[1].

معنى ﴿لَّا﴾ ولطيفةُ تنكيرِ ﴿جُنَاحَ﴾:

الجُناحُ بجميع صُوَرِهِ منفيٌّ عنهنَّ

﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ نافيةٌ للجنسِ[2]، وهي تفيدُ المبالغةَ في النَّفي، ونُكِّرَ ﴿جُنَاحَ﴾ إفادةً للعموم، وكأنَّ ﴿لَّا﴾ تستقصي في النَّفي أفرادَ الجُناح فردًا فردًا، ولا تُبقي منها شيئًا، وفي ذلك مزيدُ بيانٍ للحِلِّ والتَّرخيصِ، والمعنى: لا إثمَ عليهنَّ في شأن هؤلاء المحارم، ولا يجبُ الاحتجابُ عليهنَّ عنهُم، ولا جُناحَ على هؤلاء في سؤال المَتاع علَنًا، ولا الدُّخول عليهنَّ مَعَ محافظة الحدود ومراعاة آداب الدُّخول، كما لا جُناحَ عليهنَّ في إبداء زينتهنَّ للمحارم[3].

دلالة (عَلَى) في قوله: ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾:

الإثـمُ لا يُثقِلُ كواهلَ المُرخَّصِ لهنَّ

(عَلَى) في قول الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾؛ للاستعلاء المعنويِّ، وهي الَّتي يُعبَّرُ بها عادةً في سياقِ التَّكليف، فيقال: (عليكَ كذا)، وفي التَّعبير بها في سياق نفيِ الإثم هنا تأكيدٌ لاندفاعِ الإثم عنهنَّ، وأنَّهُ لا يُصيبُهنَّ بوجهٍ مِنَ الوجوه، ولا يستعلي عليهنَّ بحيثُ يُشعِرُهنَّ بالإثقال.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 113، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 414، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 251.

(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 43.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 414.

الجُناحُ منفيٌّ عن نساء النَّبيِّ ﷺ

مرجعُ الهاء في ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾:

ضميرُ الغَيبة في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ لنساء النَّبيِّ ﷺ، اللَّواتي أُمِرْنَ بالحجاب في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ [الأحزاب: 53][1]، والإثمُ منفيٌّ عنهنَّ.

الآباءُ ومَنْ عُطِف عليهم ليسوا محلًّا للإثم

دلالة ﴿فِيٓ﴾ في قوله: ﴿فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾:

الظَّرفيَّةُ المُفادةُ مِنْ حرفِ ﴿فِيٓ﴾ الواردِ في قوله جلَّ من قائلٍ: ﴿فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ مجازيَّةٌ شائعةٌ في مثلِه، يقال: لا جُناحَ عليك في كذا، فهو كالحقيقة، فلا تُلاحَظُ فيه الاستعارةُ[2]، وفائدةُ هذه الإضافة: الإشعارُ بأنَّ الآباء ومَن عُطِفَ عليهم مَحَلُّ انتفاء الإثم عنهنَّ.

نُكْتَةُ جمعِ الآباءِ:

تعدُّدُ الآباءِ بتعدُّدِ المُتحدَّث عنهنَّ

جيءَ بلفظ الآباء مجموعًا في قوله تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾؛ لأنَّ الكلامَ عن جماعةٍ مِنَ النِّساء، كما يدلُّ عليه قولُهُ: ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾، وهذا يستلزمُ تعدُّدَ الآباءِ بتعدُّدِهنَّ؛ إذ لكلِّ واحدةٍ أبٌ، ومقابلةُ الجمع بالجمع تقتضي القِسْمَةَ آحادًا.

شدَّةُ الاتِّصال علَّةُ التَّرخيص

لطيفةُ الإضافة في ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾:

في إضافة الآباء إلى الضَّمير الرّاجع إلى النِّساء، في قول الحقِّ ﷻ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾، دون أن يقال: (في الآباء)، إشارةٌ إلى شدَّة الاتِّصال والاختصاص بينهم، وبيانٌ لعلَّة التَّرخيص؛ إذ كونُهم آباءً لهُنَّ يستدعي كثرةَ المخالطة، وانتفاءَ دواعي الرّيبة والفتنة، فكانَ حَريًّا بالتَّرخيصِ والإذنِ والتَّوسعةِ، كأنَّهُ قيلَ: لا جُناحَ عليهنَّ فيهم؛ لأنَّهم آباؤُهنَّ.

جعلُ ذواتِ الآباءِ مَحلًّا لانتفاءِ الإثم تعظيمٌ لشأنهم

بلاغةُ الإيجازِ في قولِه: ﴿فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾:

في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ إيجازٌ بديعٌ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 96.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 96.

وذلكَ بحذفِ مُضافٍ، تقديرُهُ: (في رؤيةِ آبائِهنَّ إيّاهُنَّ)[1]، أو نحوُ ذلكَ، وفي هذا الحذفِ إشعارٌ بالتَّوسعةِ عليهنَّ، والمبالغةِ في الإذنِ والتَّرخيصِ لهنَّ؛ إذ جُعِلَتْ ذواتُ الآباءِ مَحَلًّا لانتفاءِ الإثم عنهنَّ، وكأنَّ كلَّ شأنٍ مِنْ شؤونِ الآباءِ لا إثمَ عليهنَّ فيهِ إلّا ما خصَّهُ الدَّليلُ.

نُكْتَةُ نفيِ الجُناحِ عنهنَّ لا عن الرِّجالِ:

ترجيحُ جانبِ الآذنِ على المُستأذِنِ

أوجبَ السُّؤالُ مِنْ وراءِ الحِجابِ على الرِّجالِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ [الأحزاب: 53]، فكانَ الظّاهرُ أنْ يُنفى الجُناحُ عن الرِّجالِ، فيقال: (لا جُناحَ على آبائِهنَّ)، لكنْ عُدِلَ إلى قولِهِ تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ [الأحزاب: 53] أمرٌ بسَدْلِ السِّتْرِ عليهنَّ، وذلكَ لا يكونُ إلّا بكونِهنَّ مستوراتٍ محجوباتٍ، وكأنَّ الحِجابَ وجبَ عليهنَّ، ثمَّ أُمِرَ الرِّجالُ بتركِهنَّ كذلكَ، ونُهوا عن هَتْكِ أستارِهنَّ، فاستُثْنينَ عندَ الآباءِ ومَنْ عُطِفَ عليهِم.

وفيهِ لطيفةٌ: وهي أنَّه عندَ الحِجابِ أمرَ اللّٰهُ الرَّجلَ بالسُّؤالِ مِنْ وراءِ حجابٍ، ويُفهَمُ منهُ كونُ المرأةِ محجوبةً عن الرَّجلِ بالطَّريقِ الأولى، وعندَ الاستثناءِ قالَ تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ﴾ عندَ رفعِ الحِجابِ عنهنَّ، فالرِّجالُ أولى بنفيِ الإثمِ[2]، والمعنى: لا جُناحَ عليهنَّ ولا عليكُم[3].

ويحتملُ أنَّهُ إنَّما رُجِّحَ جانبُهُنَّ هنا؛ لأنَّهُ في معنى الإذنِ؛ لأنَّ الرِّجالَ مأمورونَ بالاستئذانِ، والإذنُ يَصْدُرُ منهنَّ، فلذلكَ رُجِّحَ هنا جانبُهنَّ، فأُضيفَ الحُكمُ إليهنَّ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 96.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 96.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 96.

براعةُ تقديمِ الآباءِ على الأبناءِ:

اطِّلاعُ الآباءِ على بناتِهم أكثرُ

قُدِّمَ الآباءُ على الأبناءِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾؛ لأنَّ اطِّلاعَهم على بناتِهم أكثرُ، وكيفَ وهم قد رأوا جميعَ بدنِ البناتِ في حالِ صِغَرِهِنَّ؟[1]، ولأنَّ حُرْمتَهم آكدُ مِنْ حُرْمةِ الأبناءِ[2]، ثم إنَّ الآباء محلُّ عناية ومكانة واعتبارٍ يوجب تقديمَهم.

نُكْتَةُ عدمِ ذكرِ الأعمامِ والأخوالِ:

العَمُّ والخالُ بمنزلةِ الأبوينِ

لم يُذكَرْ مِنَ المحارمِ العمُّ والخالُ، فلم يقل: (ولا أعمامِهنَّ ولا أخوالِهنَّ)؛ لأنَّهما يجريانِ مَجْرَى الوالدينِ، وقد جاءَتْ تسميةُ العمِّ أبًا، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، وإسماعيلُ كانَ العمَّ[3]، فيكونان داخِلَين في آبائهن بطَريق عموم المَجاز، أو يُعْلَم حكمُهما من آبائهن بدلالة النَّص، أو تدلُّ عليهما، فيكونان مُقدَّرَين، ولذلك سُمّي العمُّ أبًا مَجازًا؛ لكونهما من أصل واحد، ولمّا كان الخالُ بمنزلة الأُمِّ، وهي كالوالد؛ كان الخال أيْضًا بمنزلة الوالد[4].

مناطُ عدمِ لزومِ الاحتجابِ بينَ المذكورين وبينَ العمِّ والخالِ واحد

ولأنَّ استثناءَهما عُلِمَ مِنْ بني الإخوةِ وبني الأخواتِ؛ لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ بني الأخِ للعمّاتِ محارمُ؛ عَلِمَ أنَّ بناتِ الأخِ للأعمام محارمُ، وكذلكَ الحالُ في أمرِ الخالِ[5]، فلم يذكرهما؛ لأنَّ ذِكْرَ أبناءِ الإخوان وأبناء الأخوات يقتضي اتِّحاد الحُكم؛ لكون مناطِ عدمِ لزومِ الاحتجابِ بينهنَّ وبينَ الفريقينِ عينَ ما بينهنَّ وبينَ العمِّ والخالِ[6]، ولأنَّهُ قد اقتُصِرَ هنا على بعضِ ما ذُكِرَ مِنَ المحارمِ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 181.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 307.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 557، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 231.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 5/ 414.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 181، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 113.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 113، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 96.

سورةِ النّورِ؛ اكتفاءً بما تقدَّمَ[1]، والآيةُ تمثيلٌ لا حصرٌ[2]، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّهما لم يُذكَرا؛ حذرًا مِنْ أنْ يَصِفاهُنَّ لأبنائِهما[3].

معنى الواوِ في ﴿وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾؛ لعطفِ الأبناءِ على الآباءِ، فيكونونَ مُستثنَينَ مِثْلَهم مِنْ وجوبِ احتجابِ المذكوراتِ عنهُم، وكذا حُكمُ الواوِ في الإخوانِ ومَنْ بعدَهم.

معنى (لا) في ﴿وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾:

انتفاءُ الجُناحِ مُؤكَّدٌ

(لا) في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾؛ لتأكيدِ النَّفيِ المستفادِ مِنْ (لا) في قولِه: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾، وهذا التَّأكيدُ يناسبُ مقامَ نفيِ الجُناحِ، ومقامُ التَّرخيصِ والتَّيسيرِ حَريٌّ بالتَّأكيدِ، وكذا (لا) فيمَنْ بعدَ الأبناءِ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿أَبۡنَآئِهِنَّ﴾:

الأبـنـاءُ بَضْعـةٌ مِنْ أمَّهاتِهم

في إضافةِ الأبناءِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى النِّساءِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾، دونَ أنْ يقالَ: (ولا الأبناءِ)، إشارةٌ إلى شدَّةِ اختصاصِهم بهنَّ، وقد فُسِّروا بأبناءِ البطنِ أو الرَّضاعةِ[4]، وفيها أيضًا بيانٌ لعلَّةِ التَّرخيصِ؛ إذ كونُهم أبناءً لهنَّ يستدعي كثرةَ المخالطةِ بينَهم، وانتفاءَ دواعي الرّيبةِ والفِتْنةِ؛ إذِ الأبناءُ بَضْعةٌ مِنْ أمَّهاتِهم، ويَرْبَوْنَ في حُجورِهنَّ، ففي أمرِهنَّ بالاحتجابِ منهُم تشديدٌ عليهنَّ وعليهم، وما جعلَ اللهُ علينا في الدّينِ مِنْ حَرَجٍ.

سرُّ عدمِ ذِكرِ أبناءِ الزَّوجِ:

أبناءُ الزَّوجِ بمنزلةِ الأولادِ، وقد تُرِكَ ذِكرُهم في الآيةِ؛ إشارةً إلى أنَّ الوَرَعَ الحِجابُ عنهُم[5].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 343.
(2) أطّفيّش، تفسير أطّفيِّش: 8/ 201.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 318، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 397.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 403.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 403.

لطيفةُ تقديمِ الأبناءِ على الإخوةِ:

حُـرْمـةُ الأبـنـاءِ آكَدُ

قُدِّمَ الأبناءُ على الإخوانِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾؛ لأنَّ حُرْمةَ الأبناءِ آكَدُ مِنْ حُرْمةِ الإخوانِ، بدليلِ أنَّ آدمَ عليه السلام كانَ يُزوِّجُ الأخَ أختَه، ولم يُنقَلْ أنَّ ابنًا تزوَّجَ أمَّهُ قطُّ[1].

لطيفةُ استثناءِ الإخوةِ:

استُثْنيَ الإخوانُ مِنَ الاحتجاب، في قولِ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾؛ لأنَّ عارَ أخواتِهم عارُهم[2]؛ لِما بينَهم مِنْ لُحْمةِ القرابةِ والنَّسَبِ، واتِّصالِ اللَّحْمِ والدَّمِ.

نُكْتَةُ تقديمِ الإخوةِ على أبنائِهم:

تـقـديـمُ الأقـربِ فالأقربِ

قُدِّمَ الإخوانُ على أبنائِهم في قولِ الحقِّ جل جلاله: ﴿وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾؛ لأنَّ الإخوانَ أقربُ إليهنَّ مِنْ أبنائِهم وأكثرُ مخالطةً؛ فالإخوةُ والأخواتُ يَرْبَوْنَ في بيتٍ واحدٍ قبلَ أنْ يفترقوا، ووجودُهم سابقٌ على وجودِ أبنائِهم، فكانَ استثناؤُهم أولى.

علَّةُ استثناءِ أبناءِ الإخوةِ:

رُخِّصَ للنِّساءِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾، في تركِ الاحتجابِ مِنْ أبناءِ الإخوةِ؛ لأنَّهنَّ بمنزلةِ آبائِهم[3]، وكثرةُ مخالطتِهم إيّاهنَّ وتردُّدهم عليهنَّ تستدعي التَّخفيفَ والتَّيسيرَ.

سرُّ تقديمِ أبناءِ الإخوةِ على أبناءِ الأخواتِ:

أزواجُ الأخـواتِ ليسوا بمحارمَ

قُدِّمَ بنو الإخوانِ على بني الأخواتِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾؛ لأنَّ آباءَ بني الأخواتِ ليسوا بمحارمَ، إنَّما هم أزواجُ خالاتِ أبنائِهم، وبني الإخوةِ آباؤُهم محارمُ أيضًا،

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 307.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 403.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 403.

ففي بني الأخواتِ مَفْسَدةٌ ما، وهي أنَّ الابنَ ربَّما يصفُ خالتَه عندَ أبيهِ، وهو ليسَ بمَحْرَمٍ، ولا كذلكَ بنو الإخوةِ[1].

حكمةُ استثناءِ أبناءِ الأخواتِ:

استُثْنيَ أبناءُ الأخواتِ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾؛ لأنَّهنَّ بمنزلةِ أمَّهاتِهم[2]، وبينَهم مِنَ المودَّةِ والرَّحمةِ وكثرةِ الاختلاطِ والامتزاجِ ما هو مَظِنَّةُ التَّخفيفِ والتَّيسيرِ.

المرادُ بالنِّساءِ ونُكْتَةُ الإضافةِ:

إرادةُ نساءٍ مخصوصاتٍ أو عمومِ المؤمناتِ

المرادُ بالنِّساءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ إمّا نساءٌ مخصوصاتٌ، وهنَّ الأخواتُ والأمَّهاتُ وسائرُ القراباتِ ومَنْ يتَّصلُ بهنَّ[3]، فتكونُ الإضافةُ دالَّةً على أنَّهنَّ النِّساءُ اللّاتي لهنَّ بهنَّ مزيدُ اختصاصٍ، وإمّا جميعُ النِّساءِ المؤمناتِ، وعليهِ فلا يجوزُ التَّكشُّفُ للكافراتِ[4]، والاختصاصُ في الإضافةِ باعتبارِ وصفِ الإيمانِ[5].

وجوَّزَ ابنُ عاشورٍ أنْ يكونَ المرادُ جميعَ النِّساءِ، والإضافةُ إلى الضَّميرِ حيثُ لم يقل: (ولا النِّساءِ) اعتبارٌ بالغالبِ؛ لأنَّ الغالبَ أنْ تكونَ النِّساءُ اللّاتي يدخلنَ على أمَّهاتِ المؤمنينَ نساءً اعتَدْنَ أنْ يدخلنَ عليهنَّ[6]، أو تكونُ الإضافةُ على سبيلِ الإتباعِ ومراعاةِ ملاءمةِ الكلمةِ لِما قبلَها وما بعدَها مِنَ الكلماتِ المضافةِ إلى ضميرِ النِّسوةِ، فتكونُ لداعٍ لفظيٍّ، لا لداعٍ معنويٍّ.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ﴾:

الظّاهرُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ﴾ دخولُ جميعِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 181.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 403.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 397، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 501.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 319، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 181.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 501.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 96.

العبيدِ والإماءِ[1]؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ موصولةٌ، وهي مِنْ ألفاظِ العمومِ، ولا دليلَ هنا على التَّخصيصِ.

نُكْتَةُ استثناءِ الإماءِ والعبيدِ:

انتفاءُ الرِّيبةِ سببُ التَّيسيرِ

استُثْنيَ الإماءُ والعبيدُ في قولِهِ : ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ﴾؛ لأنَّ ما لهنَّ عليهِم مِنَ السُّلطانِ يُبعِدُ الرِّيبةَ منهُم؛ هَيْبةً لهنَّ، معَ مشقَّةِ الاحتجابِ عنهُم[2]؛ لتردُّدِهم عليهنَّ في الخدمةِ وقضاءِ الحوائجِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمِلْكِ اليمينِ:

إسنادُ المِلْكِ إلى اليمينِ مجازٌ عقليٌّ، وهو سببٌ وهميٌّ للمِلْكِ

إسنادُ المِلْكِ إلى اليمينِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ اليمينَ سببٌ وهميٌّ للمِلْكِ؛ لأنَّ سببَ المِلْكِ إمّا أسْرٌ، وهو أثرٌ للقتالِ بالسَّيفِ الَّذي تُمسِكُهُ اليدُ اليُمنى، وإمّا شراءٌ ودفعٌ للثَّمنِ، وهو يكونُ باليدِ اليُمنى عُرْفًا، فهي سببٌ وهميٌّ ناشئٌ عن العادةِ[3].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿مَلَكَتۡ﴾:

مِلْكُ النِّساءِ لمماليكِهِنَّ مُتحقِّقٌ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ : ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ مِلْكَهنَّ لمماليكِهنَّ أمرٌ مُتحقِّقٌ، قد مضَى، وثبتَ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ التَّرخيصِ ورفعِ الحرجِ؛ إذ تحقُّقُ مِلْكِهنَّ لهُم يناسبُهُ التَّخفيفُ باستثنائِهم مِنَ الاحتجابِ؛ لِما يترتَّبُ على ذلكَ مِنَ المُخالَطةِ، وطوافِ مماليكِهنَّ عليهنَّ لقضاءِ حوائجِهنَّ.

دلالةُ التَّعبيرِ باليمينِ دونَ الشِّمالِ:

عُبِّرَ باليمينِ دونَ الشِّمالِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ﴾؛ لأنَّ اليمينَ في كلامِ العربِ كنايةٌ عن اليدِ حينَ تُمسِكُ السَّيْفَ، وهي الَّتي جرَتِ العادةُ باستعمالِها في التَّعبيرِ عن الأرقّاءِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 502.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 403.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 215.

سرُّ تكرارِ (لا) في الآية:

كُرِّرَتْ (لا) في الآية، ولم يقل: (لا جُناحَ عليهنَّ في آبائِهنَّ وأبنائِهنَّ) ... إلخ؛ لتأكيدِ النَّفيِ المستفادِ مِنْ (لا) في ﴿لَّا جُنَاحَ﴾، ولبيانِ أنَّ كلَّ صنفٍ مِنَ الأصنافِ المُستثناةِ في الآيةِ مقصودٌ لذاتِه، وليسَ تبعًا لغيرِه؛ لِما في تكرارِ (لا) مِنَ الإشعارِ باستقلاليَّةِ المذكورِ بعدَها، وأنَّهُ حَريٌّ بنفيٍ خاصٍّ به.

كلُّ صنفٍ مِنَ الأصنافِ المذكورةِ مقصودٌ أصالةً

معنى الواوِ في ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ للعطفِ، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها، ووجهُ العطفِ: أنَّهُ تعالى لمّا ذكرَ الرُّخصةَ في هذهِ الأصنافِ؛ عطفَ بأمرهِنَّ بالتَّقوى، وهذا في نهايةِ البلاغةِ والإيجازِ، كأنَّهُ قالَ: اقتَصِرْنَ على هذا، واتَّقينَ اللّهَ تعالى فيهِ أنْ تتعدَّيْنَهُ إلى غيرِه[1]، أو أنَّ الجملةَ معطوفةٌ على محذوفٍ، والتَّقديرُ: امتَثِلْنَ ما أُمِرْتنَّ به، واتَّقينَ[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ ذكرُ الجملةِ بعدَ ذِكرِ المماليكِ دليلًا على أنَّ التَّكشُّفَ لهُم مشروطٌ بشرطِ السَّلامةِ والعِلْمِ بعدمِ المحذورِ[3].

تجاوزُ محلِّ التَّرخيصِ محُرَّمٌ

بلاغةُ الالتفاتِ في ﴿وَٱتَّقِينَ﴾:

نُقِلَ الكلامُ مِنَ الغَيبةِ إلى الخطابِ في قولِه سبحانه: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾، وفي هذا النَّقلِ ما يدلُّ على فضلِ تشديدٍ[4]؛ لأنَّ الخطابَ أقوى مِنَ الغَيبةِ، ومَنْ كانَ مُشافَهًا في الزَّجرِ؛ كانَ أردعَ لهُ ممّا كانَ غائبًا[5]، وفي الالتفاتِ أيضًا اهتمامٌ بأمرِ التَّقوى[6]، فالأسلوبُ جعلَ الموقفَ موقفَ حضورٍ، وأمَّهاتُ المؤمنينَ يَسْمَعْنَ الخطابَ الإلهيَّ

التَّقوى سبيلُ تطهيرِ النُّفوسِ والقلوبِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 379، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 231.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 140.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 181.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 557، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 43.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 473.
(6) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 415.

سماعَ المُخاطَبِ، وفي ذلكَ غايةُ العنايةِ بالأمرِ بالتَّقوى في سياقِ تطهيرِ القلوبِ، وقطعِ خواطرِ السّوءِ[1].

أمَّهاتُ المؤمنين محلُّ تشريفٍ، واحتجابُهُنَّ عنِ الظُّهورِ تكليف

ويحتملُ أنْ يكونَ أسلوبُ الخطابِ إيذانًا بأنَّ الورعَ تركُ الظُّهورِ على أحد غيرِ مَنْ يملكُ التَّمتُّعَ، فإنْ دَعَتْ حاجةٌ؛ كانَ معَ الظُّهورِ حجابٌ كثيفٌ مِنَ الاحتشامِ والأدبِ التّامِّ[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ الالتفاتُ لتشريفِ نساءِ النَّبيِّ ﷺ بتوجيهِ الخطابِ الإلهيِّ إليهنَّ[3].

غرضُ الأمرِ بالتَّقوى:

التَّـقـوى هي الـرَّقـيـبُ على القلوبِ

الأمرُ بالتَّقوى ومراقبةِ اللّهِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾؛ لأنَّ التَّقوى هي الضَّمانُ الأوَّلُ والأخيرُ، وهي الرَّقيبُ اليَقِظُ السّاهرُ على القلوبِ، ونساءُ الأرضِ كلُّهنَّ مأموراتٌ بذلكَ بالطَّريقِ الأولى؛ لأنَّ نساءَ النَّبيِّ أمَّهاتُ المؤمنينَ، وقدوةٌ طيِّبةٌ لنساءِ الأرضِ، ويأتي الأسلوبُ معَهنَّ في هذهِ الصّورةِ مِنَ الاهتمامِ، وضرورةِ مراقبةِ دواخلِ النَّفسِ، حتَّى يكونَ الحجابُ حجابًا ظاهرًا، وانقيادًا قلبيًّا للّهِ؛ لأنَّ الحجابَ حينَ يُضرَبُ على المرأةِ، وهي كارهةٌ لا يكونُ إسلاميًّا، ولا تُؤمَنُ حياطتُهُ مِنَ التَّدنُّسِ[4].

سرُّ تخصيصِ الأمرِ بالنِّساءِ:

الـنِّـسـاءُ أولى بـالأمـرِ بمراعاةِ السَّترِ

خُصَّتِ النِّساءُ بالذِّكرِ والأمرِ بالتَّقوى في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾؛ لقلَّةِ تحفُّظِهنَّ، وكثرةِ استرسالِهنَّ عمومًا[5]، أمّا نساءُ النَّبيِّ ﷺ؛ فَمُطهَّراتٌ مِنَ العيبِ، وذِكْرُهنَّ تذكيرٌ وإرشادٌ، وتوجيهٌ يناسب مقامَ النُّبوَّةِ، وخصوصَ مكانتِهنَّ فيه، ويُحتملُ أنْ يكونَ تخصيصُهنَّ بذلكَ ملاءمةً لتخصيصِهنَّ بنفيِ الجُناحِ.

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 387.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 403.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 96.
(4) محمد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 387.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 231.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

تقوى الجليلِ توجبُ المَهابةَ والامتثالَ

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ دونَ غيرِه في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾؛ لمناسبةِ هذا اللَّفظِ لمقامِ الأمرِ بتقوى اللّهِ تعالى واجتنابِ ما يوجِبُ سَخَطَهُ، أي: واتَّقينَ الَّذي لا أعظمَ منهُ، فلا تَقْرَبْنَ شيئًا ممّا يكرهُهُ[1]، وفي لفظِ الجلالةِ أيضًا إشارةٌ إلى جميعِ صفاتِ الجلالِ الَّتي تزرعُ المَهابةَ في النُّفوسِ، وتُقرِّرُ الأحكامَ.

علَّةُ فصلِ جملةِ الفاصلةِ عمّا قبلَها:

مراقبةُ الجليلِ توجِبُ تقواهُ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ عن قولِه: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾؛ لأنَّه تعليلٌ لهُ[2]، أي: واتَّقينَ اللّهَ؛ لأنَّه مُطَّلِعٌ على كلِّ شيءٍ، وفي ذلك وعيدٌ لهنَّ؛ إنْ تَرَكْنَ العملَ بمقتضَى هذا الأمرِ[3].

غرضُ توكيدِ جملةِ الفاصلةِ:

اطِّلاعُهُ تعالى على السَّرائرِ مُتيقَّنٌ

لمّا كانَ الخوفُ لا يَعْظُمُ إلّا ممَّنْ كانَ حاضرًا مُطلَقًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ مُؤكِّدًا بـ﴿إِنَّ﴾، والإظهار، والجملة الاسميَّة، وفعلِ الكون الماضي، وتقديم شبه الجملة؛ تنبيهًا على أنَّ فعلَ مَنْ يتهاونُ في شيءٍ مِنْ أوامرِه فعلُ مَنْ لا يتَّقي، ومَنْ لا يتَّقي كمَنْ يظنُّ أنَّهُ ﷻ غيرُ مُطَّلِعٍ عليهِ[4].

لطيفةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

قرعُ الأسماعِ بما يزرعُ المَهابةَ في القلوبِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (إنَّهُ كانَ على كلِّ شيءٍ شهيدًا)؛ لتقدُّمِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾؛ لزيادةِ تأكيدِ وجوبِ التَّقوى؛ لأنَّ الشَّهيدَ على كلِّ شيءٍ هو ذو العظَمةِ والجلالِ[5]، الَّذي يُربّي ذِكْرُهُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 403.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 404، ومحمد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 387.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 397، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 231.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 404.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 404.

المَهابةَ في النُّفوسِ، ويُحرِّكُ سلسلةَ الامتثالِ، والإظهارُ أيضًا أنسبُ بكونِ الجملةِ تذييلًا مُخرَجًا مُخْرَجَ الأمثالِ؛ لاستغنائِهِ عمّا قبلَهُ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿كَانَ﴾:

عِلْمُ اللهِ الرّاسخ سبحانَهُ أزليٌّ

صيغةُ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ هي الّتي للدَّوامِ قبلُ وبعدُ[1]، والرُّسوخ لا أنَّها تُعطي مُضيًّا فقط، وفي التَّعبيرِ بها إيذانٌ بأنَّ اطِّلاعَهُ تعالى على كلِّ شيءٍ راسخٌ واجبٌ لهُ، وهو متَّصفٌ بهِ في الأزلِ، فـ ﴿كَانَ﴾ تقتضي ثبوتَ الوصفِ له تعالى وتحقُّقَهُ، وأنَّه شأنٌ من شؤونه المعروف بها.

دلالة ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾:

عِلْمُ الله تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾؛ للاستعلاءِ المجازيِّ، وكأنَّ علمَهُ تعالى مُستعلٍ على كلِّ شيءٍ، ومحيطٌ بهِ مِنْ كلِّ جانبٍ، فلا يَفوتُهُ، ولا يغيبُ عنهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

لا يَخفَى على علمِ اللهِ سبحانَهُ شيءٌ مِنَ الأشياءِ

عُبِّرَ بـ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾؛ لإفادةِ إحاطةِ علمِهِ تعالى بكلِّ شيءٍ مِنَ الأشياءِ، مِنْ أفعالِهِنَّ وغيرِها[2]؛ لأنَّ لفظَ ﴿شَيۡءٖ﴾ أعمُّ الأجناسِ، وقد أُضيفَ إليهِ لفظُ العمومِ ﴿كُلِّ﴾، وفي هذا التَّعميمِ زيادةُ تخويفٍ وتهديدٍ؛ إذ يُفيدُ الكلامُ المبالَغةَ في اطِّلاعِهِ تعالى، وأنَّهُ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، وإنْ دقَّ مِنْ هواجسِ القلوبِ ووساوسِ الصُّدورِ.

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

استعلاءُ علمِ اللهِ على كلِّ شيءٍ محلُّ العنايةِ

قُدِّمَت شبهُ الجملةِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على ﴿شَهِيدًا﴾، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ، وهو استعلاءُ علمِ اللّهِ على كلِّ شيءٍ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 404.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 319.

اطِّلاعُهُ تعالى، ولأنَّ في تأخيرِ ﴿شَهِيدًا﴾ مراعاةً لملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

مناسبةُ خَتْمِ الآيةِ بوصفِ ﴿شَهِيدًا﴾:

الخَلْوةُ في علمِ اللهِ كالجَلْوةِ

اُصطُفيَ وصفُ ﴿شَهِيدًا﴾ في فاصلة الآية؛ لأنَّ ما سبقَ إشارةٌ إلى جوازِ الخَلْوةِ بهِم، والتَّكشُّفِ لهُم، فقالَ: إنَّ اللّهَ شاهدٌ عندَ اختلاءِ بعضِكم ببعضٍ، فخَلْوتُكم مِثْلُ مَلَئِكم بشهادةِ اللّهِ تعالى، فاتَّقوا[1]، ولأنَّ وصفَ الشَّهيدِ يناسبُ مقامَ التَّهديدِ والوعيدِ؛ لأنَّ معناهُ - كما قيلَ - الَّذي يعلمُ خَطَراتِ القلوبِ كما يعلمُ حركاتِ الجوارحِ[2]، ومِثْلُ ذلكَ لهُ أثرٌ كبيرٌ في أنْ تَلِجَ آدابُ القرآنِ وتعاليمُ اللّهِ سبحانَهُ سرائرَ النُّفوسِ، فتستلَّ منها سخائمَ الشَّيطانِ، وإذا لم يكنْ سُلوكُ المسلم نابعًا مِنِ استشعارِ مراقبةِ اللّهِ وتوجيهِ الهمَّةِ نحوَهُ؛ كانَتْ أعمالُهُ لا وزنَ لها[3].

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيلٍ):

المبالغةُ في اطِّلاعِهِ وعلمِهِ سبحانَهُ

جيءَ بلفظ (شهيد) على صيغةِ (فعيلٍ)؛ لِما تُفيدُهُ هذهِ الصّيغةُ مِنَ المبالغةِ في الفعلِ[4]، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّخويفِ والتَّهديدِ، والحثِّ على استشعارِ مراقبةِ اللّهِ تعالى.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجُناحُ والحَرَجُ والإِثْمُ:

الجُناحُ أنسبُ بمقامِ التَّيسيرِ والتَّرخيصِ

الجُناحُ: المَيْلُ إلى الجنايةِ والجُرْمِ[5] وأصلُ الحَرَجِ: مَجتمَعُ الشَّيئينِ وتُصوِّرَ منهُ ضيقُ ما بينَهما فقيلَ للضّيقِ: حَرَجٌ وقيلَ للإثمِ: حَرَجٌ[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 181.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 43.
(3) محمد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 387.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 96.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/ 355، ومحمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 32 - 34.
(6) الرّاغب، المفردات: (حرج).

والإثمُ في أصلِ اللُّغةِ: التَّقصيرُ، وسُمّيَتِ الخمرُ إثمًا؛ لأنَّها تقْصُرُ بشاربِها؛ لذهابِها بعقلِه[1]، والإثمُ أيضًا: البُطْءُ والتَّأخُّرُ عنِ الخيرِ[2].

وقدِ اختيرَ في الآيةِ الجُناحُ؛ لِما في نفيِه مِنْ نفيِ مَيْلِهنَّ إلى الجنايةِ، فضلًا عنِ ارتكابِها، فيكونُ أنسبَ بمقامِ التَّرخيصِ والتَّيسيرِ.

الأبناءُ والأولادُ:

الابنُ أدلُّ على الاتِّصالِ المُستلزِمِ للتَّرخيصِ

الابنُ يفيدُ الاختصاصَ ومداومةَ الصُّحبةِ، ولهذا يقالُ: ابنُ الفَلاةِ، لِمَنْ يداومُ سُلوكَها، وابنُ السُّرَى - أي: السَّيرِ في اللَّيلِ - لِمَنْ يُكثِرُ منهُ[3]، وأيضًا: لفظُ الأبناءِ يُطلَقُ على الذُّكورِ فقط، والأولادُ يُطلَقُ على الذُّكورِ والإناثِ[4]، وقدِ اختيرَ في الآيةِ لفظُ الأبناءِ؛ لأنَّهُ أدلُّ على الاختصاصِ والصُّحبةِ المُستلزِمةِ للتَّرخيصِ والتَّيسيرِ ورفعِ الحَرَجِ، ولأنَّهُ يُطلَقُ على الذُّكورِ فقطْ، وذلكَ كافٍ؛ لأنَّ الإناثَ داخلاتٌ في قولِه: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾.

الإخوانُ والإخوةُ:

لفظُ الإخوانِ يتلاءمُ صوتيًّا معَ الأصنافِ المذكورةِ في الآيةِ

الأخُ: هو المُشارِكُ آخرَ في الولادةِ مِنَ الطَّرفينِ، أو مِنْ أحدِهما، أو مِنَ الرَّضاعِ[5]، ويُجمَعُ على (إخوة) و(إخوان)، وقدِ اختيرَ في الآيةِ لفظُ الإخوانِ؛ لأنَّهُ يتلاءمُ مِنْ حيثُ الوزنُ والتَّناغمُ الصَّوتيُّ - حيثُ يشتملُ على مدٍّ في وسطِهِ - معَ باقي الأصنافِ المذكورةِ في الآيةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 15.
(2) زيدان، الفروق اللّغوية، ص: 72.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 12.
(4) زيدان، الفروق اللّغوية، ص: 44.
(5) الرّاغب، المفردات: (أخو).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: 56]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذهِ الآيةِ لِما قبلَها وجوهٌ متقاربةٌ، تحريرها في الآتي:

تكميلُ بيانِ حُرْمتِهِ ﷺ

لمّا أمرَ اللّهُ المؤمنينَ بالاستئذانِ وعدمِ النَّظرِ إلى وجوهِ نساءِ النَّبيِّ ﷺ احترامًا؛ كمَّلَ بيانَ حُرْمتِه[1]؛ إعلاءً لمقامه، وإكرامًا له، بإيجاب ديمومة الثَّناء عليه، والدُّعاء له.

تعظيمُهُ ﷺ بعدَ تعظيمِ أزواجِهِ

ولمّا تقدَّمَ التَّنبيهُ على تعظيمِ أزواجِهِ ﷺ، وأمرَ سبحانَهُ سائرَ الأُمَّةِ بتعظيمِهم، حيثُ نُهوا أنْ يسألوهنَّ إلّا مِنْ وراءِ حجابٍ، وألّا يَنكِحوهنَّ مِنْ بعدِهِ؛ عقَّبَهُ ببيانِ تعظيمِهِ ﷺ بما هو أقوى مِنْ ذلكَ وأعظمُ، وهو صلاةُ اللّهِ وملائكتِهِ عليهِ[2].

شرفُ منزلتِهِ ﷺ سببُ الأحكامِ السّابقةِ

ثمَّ أُعقِبَتْ أحكامُ معاملةِ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ بالثَّناءِ عليهِ وتشريفِ مقامِهِ؛ إيماءً إلى أنَّ تلكَ الأحكامَ جاريةٌ على مناسبةِ عظَمةِ مقامِ النَّبيِّ ﷺ عندَ اللّهِ تعالى، وإلى أنَّ لأزواجِهِ مِنْ ذلكَ التَّشريفِ حظًّا عظيمًا[3]، فشرَّفَ اللّهُ تعالى في هذه الآية رسولَه ﷺ، وذكَرَ منزلتَه منه، وظهرَ بها سوءُ فعلِ مَنِ استصحب في جهته فكرةَ سوءٍ في أمر زوجاته، ونحو ذلك[4].

ما للنَّبيِّ عند ربِّه من منزلةٍ لا يُدرِكُ كنهها بشرٌ

الآياتُ السّابقة وقدْ عرضت الآياتُ السّابقة لأمورٍ خُصَّ بها النَّبيُّ ﷺ، كَحِلِّ التَّزوُّجِ بعدد مِنَ النِّساء لا يحِلُّ لغيره من المسلمين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 181، وزاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 661.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 307.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 97، ومحمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 388.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 397.

التَّزوُّجُ بهنَّ، وكالتَّزوُّج ممَّن يَهَبنَ أنفسَهُنَّ له من غير مهر، وكتلك الحراسة التي أقامها اللّهُ على بيت النُّبوَّة من خارجٍ ومن داخل، وبهذه الخصوصيّات يُعْرَف بعضُ ما لرسول اللّه مِن منزلة كريمة، ومقامٍ عظيم عند ربِّهِ، ومعرفة المسلمين لذلك سبيلُ أن يوقنوا أنَّ ما للنَّبيِّ عند ربِّه أكثر[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُصَلُّونَ﴾: (صلي) الصَّلاةُ في اللُّغةِ: الدُّعاءُ[2] والتَّبريكُ والتَّمجيدُ، والصَّلاةُ الَّتي هي العبادةُ المخصوصةُ أصلُها الدُّعاءُ، وسُمّيَتْ بذلكَ كتسميةِ الشَّيءِ باسمِ بعضِ ما يتضمَّنُهُ[3]، وصلواتُ الرَّسولِ على المسلمينَ: دعاؤُهُ لهُم وذِكرُهم، وصلاةُ النّاسِ على الميتِ: الدُّعاءُ، وصلاةُ اللّهِ على الأنبياءِ والمسلمينَ: حُسْنُ ثنائِهِ عليهم، وحُسْنُ ذِكرِهِ لهُم، أو مغفرتُهُ لهُم، وصلاةُ الملائكةِ: الاستغفارُ[4]، وفي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾[5]، صلاةُ اللّهِ: كلامُهُ الَّذي يُقدِّرُ بِهِ خيرًا لرسولِهِ ﷺ، وصلاةُ الملائكةِ والنّاسِ: استغفارٌ ودعاءٌ بالرَّحَماتِ[6].

2ـ ﴿وَسَلِّمُواْ﴾: (سلم) أصلٌ يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[7]، والتَّعرّي مِنَ الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنةِ[8]، والتَّسليمُ: التَّحيَّةُ بالسَّلامِ، والسَّلامُ فيهِ معنى الأمانِ والسَّلامةِ، وجُعِلَ تحيَّةً في الأوَّلينَ عندَ اللِّقاءِ مبادأةً بالتَّأمينِ مِنَ الاعتداءِ والثَّأرِ ونحوِ ذلكَ؛ إذ كانوا إذا اتَّقَوا أحدًا؛ خافوا أنْ يكونَ مُضمِرًا شرًّا لمُلاقيهِ، فكلاهما يدفعُ ذلكَ الخوفَ بالإخبارِ بأنَّهُ مُلْقٍ على مُلاقيهِ سلامةً وأمنًا، ثمَّ شاعَ ذلكَ حتَّى صارَ هذا اللَّفظُ دالًّا على الكرامةِ والتَّلطُّفِ[9].

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 748.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (صلي).
(3) الرّاغب، المفردات: (صلي).
(4) الخليل، العين: (صلي).
(5) الرّاغب، المفردات: (صلي).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 97 - 98.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(8) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 101.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكونُ يَضِجُّ بالصَّلاةِ والتَّسليمِ على النَّبيِّ الكريمِ

إنَّ اللّهَ وملائكتَهُ جميعًا يُصلّونَ على النَّبيِّ، ويُعظِّمونَ شأنَهُ، يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا صلّوا عليهِ أنتم أيضًا، وسلِّموا عليهِ تسليمًا عظيمًا(1)، وصلاة اللّه ﷻ هي: الرَّحمة والإحسان والرُّضوان، وصلاةُ الملائكة: هي الدُّعاء والاستغفار، أمّا صلاة المؤمنين؛ فهي دعاؤهمُ اللّهَ تعالى أن يُصَلّيَ عليه، وأن يديمَ هذه الصَّلاة، ويضاعفَها، فيضاعفَ من رحمته وإحسانه ورضوانه على رسوله، وأمّا التَّسليم مِن المؤمنين على النَّبيِّ؛ فهو تسليم عليه بالدُّعاء له بالأمن والسَّلام مِنَ اللّه، وتسليمٌ له بالطّاعة والولاء(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

مَن تولَّى اللهُ تشريفَهُ حَريٌّ بالاتِّباعِ والتَّشريفِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ كالتَّعليلِ، لِما أفادَهُ الكلامُ السّابقُ مِنَ التَّشريفِ العظيم الَّذي لم يُعْهَدْ لهُ نظيرٌ(3)، فَصِلةُ هذهِ الجملةِ بالكلامِ السّابقِ صِلةُ السَّببِ بالمُسبَّبِ، وهذهِ الطَّريقةُ شائعةٌ جدًّا في الكتابِ الكريمِ؛ لأنَّ الغرضَ منها توثيقُ الأوامرِ والنَّواهي، وإقناعُ القلوبِ والعقولِ بها(4)، أي: كيفَ تُؤذونَهُ، أو تُكلِّمونَ نساءَهُ بلا حجابٍ، أو تتزوَّجونهنَّ، معَ أنَّهُ تعالى يُصلّي عليهِ، وملائكتُهُ يُصلّونَ عليه، وهو أهلٌ لفضلِ اللّهِ؟(5).

غرضُ التَّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ هو محلُّ عنايةِ اللهِ

تأكيدُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾، وإظهار لفظ الجلالة، والجملة الاسميَّة؛ للاهتمام بمضمونِهِ(6)،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 320.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 749.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 405، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 252.
(4) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 389.
(5) أطّفيّش، تفسير أطّفيّش: 8/ 203.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 97.

والإشارةِ إلى عنايةِ اللّهِ سبحانَهُ بمدلولِه، ومَلْءِ أسماعِ أهلِ الأرضِ بأنغامِ الصَّلاةِ والتَّسليم، الصّادرَين مِنَ اللّهِ وملائكتِه[1]، وفي ذلكَ أيضًا تأديبٌ وترهيبٌ لِمَنْ يتهاونُ بحقِّ النَّبيِّ ﷺ[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّأكيدُ؛ لوقوعِ الجملةِ في جوابِ سؤالٍ مُقدَّرٍ، نشأ مِنَ الكلامِ السّابقِ، وهو: ما سببُ هذا التَّشريفِ العظيمِ؟[3].

وجهُ الجمع بينَ الجُمْلتين الاسميَّة والفعليَّة:

دوام الصَّلاة على النَّبيِّ من أقرب القُرُبات، وأعظمِ الطّاعات

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾؛ للدِّلالةِ على الدَّوامِ والاستمرارِ، وهي تفيدُ الدَّوامَ نظرًا إلى صدرِها مِنْ حيثُ إنَّها جملةٌ اسميَّةٌ، وتفيدُ التَّجدُّدَ نظرًا إلى عَجُزِها، مِنْ حيثُ إنَّها جملةٌ فعليَّةٌ، فيكونُ مُفادُها استمرارَ الصَّلاةِ وتجدُّدَها وقتًا فوقتًا[4].

فائدة إظهارِ لفظِ الجلالة:

تشريفُ العظيمِ عظيمٌ

افتتاحُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ باسمِ الجلالةِ لإدخالِ المَهابةِ والتَّعظيمِ في هذا الحُكمِ[5]، ببيانِ أنَّهُ فِعْلُ ذي العظَمةِ والعِزِّ والكِبْرياءِ، وفي ذلكَ رَدْعٌ وتأديبٌ لِمَنْ قد يتهاونُ بهذا الحقِّ[6]، ولذلكَ أُظهِرَ لفظُ الجلالةِ مَعَ أنَّ الظّاهرَ أنْ يُضمَرَ ويقالَ: (إنَّهُ وملائكتَهُ)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِه في قولِه: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾.

دلالةُ الجمعِ والإضافةِ في ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾:

جميعُ الملائكةِ المُكرَمين يُصلّونَ على النَّبيِّ الأمين

إضافةُ الملائكةِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى

---

(1) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 389.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 405.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 252.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 252، ومحمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 389.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 97.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 405.

﴿ٱلنَّبِيِّۚ﴾؛ للاستغراقِ، وقيلَ: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾، ولم يُقلْ: (والملائكةَ)؛ إشارةً إلى عظيمِ قَدْرِهم، ومزيدِ شرفِهم بإضافتِهم إلى اللّه تعالى، وذلكَ مُستلزِمٌ لتعظيمِه ﷺ بما يصلُ إليهِ منهُم، مِنْ حيث إنَّ العظيمَ لا يَصْدُرُ منهُ إلّا عظيمٌ، ثمَّ فيهِ التَّنبيهُ على كثرتِهم، وأنَّ الصَّلاةَ مِنْ هذا الجمعِ الكثيرِ الَّذي لا يُحيطُ بمُنتهاهُ غيرُ خالقِه، واصلةٌ إليهِ ﷺ على مرِّ الأيّامِ والدُّهورِ، معَ تجدُّدِها كلَّ وقتٍ وحينٍ، وهذا أبلغُ تعظيمٍ وأشملُهُ وأكملُهُ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالصَّلاةِ:

إظهارُ شرفِ النَّبيِّ عليه السلام

الصَّلاةُ في الأصلِ بمعنى الدُّعاءِ، وقد تُجوِّزَ بها في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ وقولِه: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ عن الاعتناءِ بصلاحِ أمرِ النَّبيِّ عليه السلام، وإظهارِ شرفِه[2]، ومعنى الاعتناءِ بما ذُكرَ: إعلاءُ ذِكْرِه، وإبقاءُ شريعتِه، وإشاعةُ جلالتِه في الدُّنيا والآخرةِ[3].

دلالةُ المضارعةِ في ﴿يُصَلُّونَ﴾:

التَّرغيبُ في الإكثارِ منَ الصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ

جيءَ في صلاةِ اللّهِ وملائكتِه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ بالمضارعِ الدّالِّ على التَّجدُّدِ والتَّكريرِ؛ ليكونَ أمرُ المؤمنينَ بالصَّلاةِ عليهِ والتَّسليمِ عَقِبَ ذلكَ مُشيرًا إلى تكريرِ ذلكَ منهُم، والإكثارِ منهُ؛ تأسّيًا بصلاةِ اللّهِ وملائكتِه[4].

نُكْتةُ الإخبارِ عن اللهِ وملائكتِهِ بخبرٍ واحدٍ:

الملائكةُ مُكرَمونَ عندَ اللهِ تعالى

الضَّميرُ في قولِه سبحانَهُ: ﴿يُصَلُّونَ﴾ للّهِ وللملائكةِ، وفي هذا الجمعِ تشريفٌ للملائكةِ[5]، حيثُ جُعِلَ الضَّميرُ لهُم وللّهِ سبحانَهُ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 252، ومحمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 389.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 238.

(3) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 183.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 99 - 99.

(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 397، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 232.

واحدًا، وفيهِ تشريفٌ أيضًا للنَّبيِّ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ في الكلامِ حذفٌ، تقديرُهُ: إنَّ اللّهَ يُصلّي على النَّبيِّ، وملائكتُهُ يُصَلّونَ عليهِ، فلا يكونُ في الآيةِ اجتماعٌ في ضميرٍ[2].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

التَّشريكُ في الخبرِ أفخمُ وأعظمُ

قالَ تعالى فيما سبقَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: 43]، فجعلَ الصَّلاةَ للّهِ، وعطفَ الملائكةَ على اللّهِ، وهنا جمعَ نفسَهُ وملائكتَهُ، وأسندَ الصَّلاةَ إليهم، فقالَ: ﴿يُصَلُّونَ﴾، وفي ذلكَ تعظيمٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ إفرادَ الواحدِ بالذِّكرِ وعطفَ الآخرِ عليهِ يوجبُ تفضيلًا للمذكورِ على المعطوفِ، كما أنَّ المَلِكَ إذا قالَ: (يدخلُ فلانٌ وفلانٌ أيضًا)؛ يُفهَمُ منهُ تقديمٌ، لا يُفهَمُ لو قالَ: (فلانٌ وفلانٌ يدخلانِ)، فقال في حقِّ النَّبيِّ ﷺ: ﴿يُصَلُّونَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّهُ في الصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ كالأصلِ، وفي الصَّلاةِ على المؤمنينَ اللّهُ يرحمُهم، والملائكةُ يوافقونَهُ، فهُم في الصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ يُصَلّونَ بالإضافةِ، كأنَّها واجبةٌ عليهم أو مندوبةٌ، سواءٌ صلَّى اللّهُ عليهِ، أم لم يُصَلِّ، وفي المؤمنينَ ليسَ كذلكَ[3].

دلالة ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾:

النَّبيُّ ﷺ مُحاطٌ بصلاةِ اللهِ وملائكتِهِ

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، وهو يفيدُ أنَّ الصَّلاةَ الكثيرةَ المُتجدِّدةَ مِنَ اللّهِ وملائكتِهِ قد أحاطَتْ بالنَّبيِّ ﷺ وغمرَتْهُ؛ تشريفًا وتعظيمًا لهُ، كما يُحيطُ المُستعلي بالمُستعلَى عليهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالنُّبوَّةِ دونَ اسمِهِ ﷺ:

اختصاصُ النَّبيِّ ﷺ بمزيدِ التَّفخيمِ والتَّكريمِ

عُبِّرَ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ بالنَّبيِّ ﷺ دونَ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 345.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 397، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 232.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 181، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 406.

اسمِه، على خلافِ الغالبِ في حكايتِه تعالى عن أنبيائِه ﷺ؛ إشعارًا بما اختُصَّ بِه ﷺ مِنْ مزيدِ الفخامةِ والكرامةِ وعُلوِّ القَدْرِ(1).

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾:

غلبةُ وصفِ النُّبوَّةِ على نبيِّنا ﷺ

أُكِّدَ تعظيمُ النَّبيِّ ﷺ وتفخيمُ شأنِه في قولِه: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ بالإتيانِ بـ(أل) الَّتي للغلَبةِ؛ إشارةً إلى أنَّهُ ﷺ هو المعروفُ الحقيقُ بهذا الوصفِ(2)، فلا حاجةَ إلى بيانِه؛ إذ لا يتبادرُ إلى الذِّهنِ غيرُه.

علَّةُ فصلِ جملة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ عمّا قبلَها:

صلاةُ المؤمنينَ مُترتِّبةٌ على صلاةِ اللهِ وملائكتِه

فُصِلَتْ جملةُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها هي المقصودةُ، وما قبلَها توطئةٌ لها وتمهيدٌ؛ لأنَّ اللهَ لمّا حذَّرَ المؤمنينَ مِنْ كلِّ ما يُؤذي الرَّسولَ ﷺ؛ أعقبَهُ بأنَّ ذلكَ ليسَ هو أقصَى حظِّهم مِنْ معاملةِ رسولِهم أنْ يتركوا أذاهُ، بل حظُّهم أكبرُ مِنْ ذلكَ، وهو أنْ يُصَلّوا عليهِ، ويُسلِّموا، وذلكَ هو إكرامُهم الرَّسولَ ﷺ فيما بينَهم وبينَ ربِّهم، فهو يدلُّ على وجوبِ إكرامِه في أقوالِهم وأفعالِهم بحضرتِه بدلالةِ الفَحْوى، فجملةُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمنزلةِ النَّتيجةِ الواقعةِ بعدَ التَّمهيدِ(3).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دونَ النّاسِ:

الأمرُ بالصَّلاةِ والتَّسليمِ مِنْ خواصِّ هذهِ الأمَّةِ

ناداهم اللهُ تعالى في قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ بوصفِ الإيمانِ؛ تأكيدًا للأمرِ بالصَّلاةِ وحثًّا عليها، وإلهابًا لهُم وتهييجًا؛ ليُقبِلوا على المأمورِ به، كأنَّهُ قيلَ: إنْ كنتُم مُؤمنينَ حقًّا؛ فصَلّوا عليهِ، وسلِّموا؛ لأنَّ ذلكَ مِنْ موجَباتِ الإيمانِ، وعُبِّرَ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دونَ النّاسِ الشّاملِ للكفّارِ؛ إشارةً إلى أنَّ الصَّلاةَ عليه ﷺ مِنْ أجَلِّ الوسائلِ وأنفعِها، والكافرُ لا وسيلةَ لهُ، فلم يُؤْتَ بلفظٍ يشملُه،

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 252.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 252.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 97.

ولأنَّ السّياقَ حديثٌ معَ المؤمنينَ، والأمرُ بالصَّلاةِ والتَّسليمِ مِنْ خواصِّ هذهِ الأمَّةِ، فلم تُؤمَرْ أمَّةٌ غيرُها بالصَّلاةِ والتَّسليمِ على نبيِّها[1].

الصَّلاةُ على النَّبيِّ حُكْمٌ تكليفيٌّ واجب

لو كان النِّداء بـ(يا أيُّها النّاس)؛ لعمَّ المؤمنين والكافرين؛ لأنَّه يكون متضمِّنًا خطابًا للكافَّة، ويكون المطلوب فيه إجابةَ الدَّعوة المحمَّديَّة بالتَّوحيد، مع ذكر البرهان العامِّ الدّالِّ على التَّوحيد وصدقِ الرَّسول ﷺ، أمّا النِّداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فإنَّه يكون متَّجهًا إلى بيان الأحكام التَّكليفيَّة: نهيًا أو طلبًا، أو إباحةً بنصٍّ شرعيٍّ، وسواء أكان التَّكليفُ يتعلَّق بالأسرة، أم بالعلاقات الدَّوليَّة، أم كان بالتَّحريض على الجهاد[2].

نُكْتَةُ أمرِ المؤمنينَ بالصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ:

إكرامُ المؤمنينَ بثوابِ الصَّلاةِ والتَّسليمِ

قد يقالُ: إذا صلَّى اللّهُ وملائكتُهُ على النَّبيِّ ﷺ؛ فأيُّ حاجةٍ إلى صلاةِ المؤمنينَ المأمورين بها في قولِه: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾؟ والجوابُ: أنَّ الصَّلاةَ عليهِ ليسَتْ لحاجتِهِ إليها، وإلّا فلا حاجةَ إلى صلاةِ الملائكةِ معَ صلاةِ اللّهِ عليهِ، وإنَّما هي لإظهارِ تعظيمِه، كما أنَّ اللّهَ تعالى أوجبَ علينا ذِكرَ نفسِه، ولا حاجةَ لهُ إليهِ، وإنَّما هو لإظهارِ تعظيمِهِ منّا؛ شَفَقَةً علينا ليُثيبَنا عليه[3].

دلالةُ الأمرِ بالصَّلاةِ على النَّبيِّ:

الصَّلاةُ على النَّبيِّ ﷺ واجبةٌ

ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ يدلُّ على وجوبِ الصَّلاةِ والسَّلامِ عليه في الجملةِ[4]، أي: مِنْ غيرِ تعيينِ مِقْدارٍ وزمانٍ وتكرارٍ[5]، وأقلُّ ذلكَ مرَّةٌ واحدةٌ؛ لضرورةِ إيقاعِ الفعلِ، ولا خلافَ في استحبابِ الإكثارِ مِنَ الصَّلاةِ عليه[6].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 260.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/ 154.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 182.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 238.

(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 183.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 97 - 98.

معنى (على) في قوله: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾:

(على) في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾؛ للاستعلاءِ المجازيِّ، وهي تفيدُ الأمرَ بصلاةٍ تُحيطُ بالنَّبيِّ ﷺ تشريفًا لهُ وتعظيمًا، كما يُحيطُ المُستعلي بالمُستعلَى عليهِ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى ندبِ الإكثارِ منها؛ ليتحقَّقَ الاستعلاءُ المذكورُ أتمَّ التَّحقُّقِ وأكملَهُ.

الإشارةُ إلى ندبِ الإكثارِ مِنَ الصَّلاةِ والسَّلامِ على النَّبيِّ ﷺ

سرُّ تخصيصِ النَّبيِّ بالصَّلاةِ عليهِ:

أمرَ اللّهُ تعالى عبادَهُ في القرآنِ الكريمِ في قولِهِ: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ بالصَّلاةِ على نبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ دونَ أنبيائِهِ؛ تشريفًا لهُ[1]، وإظهارًا لعُلوِّ قَدْرِهِ ومكانتِهِ.

التَّخصيصُ مِنْ أماراتِ التَّشريفِ

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَسَلِّمُواْ﴾:

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾؛ لعطفِ التَّسليمِ على الصَّلاةِ، والآيةُ تضمَّنَتِ الأمرَ بهما، ولم تقتضِ جمعَهما في كلامٍ واحدٍ، فالمُسلِمُ مُخيَّرٌ بينَ أنْ يَقْرِنَ بينَهما، بأن يقولَ: صلَّى اللّهُ على محمَّدٍ، والسَّلامُ عليهِ، أو أنْ يقولَ: اللّهمَّ صلِّ على محمَّدٍ، والسَّلامُ على محمَّدٍ، وبينَ أنْ يُفرِدَ الصَّلاةَ، ويُفرِدَ التَّسليمَ[2].

الأمرُ بالصَّلاةِ والتَّسليمِ

سرُّ اختصاصِ السَّلامِ بالمؤمنينَ:

خُصَّ السَّلامُ بالمؤمنينَ في قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ دونَ اللّهِ والملائكةِ؛ لأنَّ السَّلامَ تسليمُهُ ﷺ عمّا يُؤذيهِ، فلمّا جاءَتْ هذهِ الآيةُ عَقيبَ ذكرِ ما يُؤذي النَّبيَّ ﷺ، والأذيَّةُ إنَّما هي مِنَ البشرِ، وقد صدرَتْ منهُم؛ ناسبَ التَّخصيصُ بهِم[3].

مناسبةُ السَّلامِ لمقامِ النَّهيِ عن الإيذاءِ

دلالةُ ذكرِ المصدرِ معَ التَّسليمِ دونَ الصَّلاةِ:

ذُكِرَ المصدرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، وهو مفعولٌ

طلبُ كمالِ التَّسليمِ دفعٌ لتوهُّمِ قلَّةِ الاهتمامِ

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 232.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 102.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 183.

مطلق مُؤَكِّدٌ لفعله؛ ليُكمِلَ السَّلامَ عليهِ، ولم تُؤكَّدِ الصَّلاةُ بهذا التَّأكيدِ، فلم يقل: (صلّوا عليهِ صلاةً)؛ لأنَّها كانَتْ مُؤكَّدةً بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾[1]، وهذا التَّأكيدُ أقوى مِنَ التَّأكيدِ بالمصدرِ، ففيهِ تنبيهٌ على فضلِ الصَّلاةِ[2]، ولأنَّ الصَّلاةَ غلبَ إطلاقُها على معنى الاسم دونَ المصدرِ، وقياسُ المصدرِ: التَّصليَةُ، ولم يُستعمَلْ في الكلامِ؛ لأنَّهُ اشتُهرَ في الإحراقِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤﴾ [الواقعة: 94][3]، وأيضًا الصَّلاةُ مُقدَّمةٌ عليهِ لفظًا، والتَّقديمُ يفيدُ الاهتمامَ، فحَسُنَ تأكيدُ السَّلامِ؛ لئلّا يُتوَهَّمَ قلَّةُ الاهتمامِ بهِ لتأخُّرِه[4]، ويُحتملُ أنْ يكونَ في الآيةِ فنُّ الاحتباكِ، حيثُ حُذِفَ مِنْ أحدِهما ما ذُكِرَ في الآخرِ، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ اللّهَ وملائكتَهُ يُصلّونَ على النَّبيِّ صلاةً، ويُسلِّمونَ عليهِ تسليمًا، يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا صلّوا عليهِ صلاةً، وسلِّموا عليهِ تسليمًا[5].

لطيفةُ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفعيلِ:

التَّسليمُ على العظيمِ عظيمٌ

جيءَ بصيغةِ التَّفعيلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، ولم يقلْ: (وسلِّموا سلامًا)؛ للمبالغةِ في طلبِ السَّلامِ، وأنْ يكونَ فيهِ تفخيمٌ وتعظيمٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ إنزالًا له منزلتَه التي يستحِقُّها.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 182.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 415.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 103.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 256.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 407، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 415.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨﴾ [الأحزاب: 57 - 58]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

بيانُ حالِ مُؤذي النَّبيِّ بعدَ بيانِ حالِ المُصلّي والمُسلِّمِ عليه

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لِما قبلَها؛ ففيها وجوهٌ متقاربةٌ، منها: لمّا أمرَ تعالى بالصَّلاةِ والسَّلامِ على النَّبيِّ ﷺ؛ بيَّنَ حالَ مَنْ يُؤذي رسولَهُ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيةَ؛ لتتبيَّنَ فضيلةُ مَنِ امتثلَ أمرَهُ تعالى، وفضيلةُ مَنْ يُصلّي، ويُسلِّمُ على النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ فضيلةَ الأشياءِ تُظهرُ انحطاطَ شأنِ أضدادِها[1]، ومنها: لمّا نهَى سبحانَهُ عن أذاهُ ﷺ، وحضَّ على إدخالِ السُّرورِ عليهِ؛ توعَّدَ على أذاهُ[2]، ومنها: لمّا أرشدَ اللّهُ المؤمنينَ إلى تناهي مراتبِ حُرْمةِ النَّبيِّ ﷺ وتكريمِهِ، وحذَّرَهم ممّا قد يَخفَى على بعضِهم مِنْ خفيِّ الأذى في جانبِهِ، وعلمَ أنَّهم قدِ امتثلوا؛ أردفَ ذلكَ بوعيدِ قومٍ اتَّسَموا بسِماتِ المؤمنينَ، وكانَ مِنْ دأْبِهم السَّعيُ فيما يُؤذي الرَّسولَ ﷺ، فأعلمَ اللّهُ المؤمنينَ بأنَّ أولئكَ ملعونونَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ليعلمَ المؤمنونَ أنَّ أولئكَ منافقونَ[3].

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى؛ ففيها وجوهٌ أيضًا:

إيذاءُ المُصلّي على النَّبيِّ مِنْ إيذاءِ النَّبيِّ

لمّا كانَ اللّهُ تعالى مُصلّيًا على نبيِّهِ، لم ينفكَّ إيذاءُ اللّهِ عن إيذائِهِ، فإنَّ مَنْ آذى اللّهَ؛ فقد آذى الرَّسولَ، فبيَّنَ اللّهُ للمؤمنينَ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أنَّكم إنْ أتيتُم بما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 182، وزاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 662.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 409.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 103.

أمرتُكم، وصلَّيتُم على النَّبيِّ؛ لا ينفكُّ إيذاؤُكم عن إيذاءِ الرَّسولِ، فيأثمُ مَنْ يُؤذيكم[1].

ذِكْرُ إيذاءِ الصّالحينَ بعدَ ذِكْرِ إيذاءِ الرَّسولِ

لمّا فرغَ تعالى مِنْ ذمِّ مَنْ آذى اللّهَ ورسولَهُ؛ ذكرَ الأذيَّةَ لصالحي عبادِهِ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآيةَ[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤۡذُونَ﴾: (أذي) أصلٌ يدلُّ على الشَّيءِ تكرهُهُ[3]، فالأذَى في الأصلِ: الضَّرَرُ الحاصلُ[4]، والمرادُ بأذى اللّهِ: إيذاءُ رسولِهِ، والمرادُ بالأذَى في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾: إمّا أذَى القولِ، بقرينةِ قولِهِ: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا﴾؛ لأنَّ البهتانَ مِنْ أنواعِ الأقوالِ[5]، وإمّا أذى الأقوالِ والأفعالِ، بقرينةِ عطفِ الإثم على البُهْتانِ[6]، وقولُه تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ معناهُ: فلا يتعرَّضُ لهنَّ الفُسّاقُ يحسبونَهنَّ إماءً، أو يتعرَّضُ لهنَّ المنافقونَ استخفافًا بهنَّ بالأقوالِ الَّتي تُخجِلُهنَّ؛ فيتأذَّينَ مِنْ ذلكَ، وربَّما يَسُبُّنَ الَّذينَ يُؤذونهنَّ، فيحصلُ أذًى مِنَ الجانبينِ[7].

2) ﴿ٱكۡتَسَبُواْ﴾: (كسب) أصلٌ يدلُّ على طلبٍ وإصابةٍ[8]، فالكَسْبُ: ما يتحرّاهُ الإنسانُ ممّا فيهِ اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، ككَسْبِ المالِ، وقد يُستعمَلُ فيما يظنُّ الإنسانُ أنَّهُ يجلبُ منفعةً، ثمَّ استجلبَ بهِ مَضَرَّةً[9]، ويقالُ: اكتسبَ، أي: تصرَّفَ،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 183.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 348.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(4) الرّاغب، المفردات: (أذي).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 104 - 105.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 19/ 12159.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 107.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(9) الرّاغب، المفردات: (كسب).

واجتهدَ[1]، ومعنى ﴿بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾: بغيرِ جِنايةٍ استحقّوا بها الإيذاءَ[2].

3) ﴿ٱحۡتَمَلُواْ﴾: (حمل) أصلٌ يدلُّ على إقلالِ الشَّيءِ[3]، ويُستعمَلُ الحملُ في الأثقالِ المحمولةِ في الظّاهرِ، كالشَّيءِ المحمولِ على الظَّهرِ، وفي الأثقالِ المحمولةِ في الباطنِ، كالولدِ في البَطْنِ، والماءِ في السَّحابِ، والثَّمرةِ في الشَّجرةِ؛ تشبيهًا بحَمْلِ المرأةِ[4]، ومعنى ﴿ٱحۡتَمَلُواْ﴾: كلَّفوا أنفسَهم حِمْلًا[5].

4) ﴿بُهۡتَٰنٗا﴾: (بهت) أصلٌ يدلُّ على التَّحيُّرِ[6]، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: 258]، أي: دُهِشَ، وتحيَّرَ[7]، وانقطعَتْ حُجَّتُهُ[8]، ومِنْ ذلكَ البُهْتانُ، وهو الباطلُ الَّذي يَحيرُ النّاظرُ فيهِ[9]، والبُهْتانُ أيضًا: الكذبُ، يقالُ: بَهَتَهُ فلانٌ، أي: استقبلَهُ بأمرٍ قذفَهُ بهِ، وهو بريءٌ منهُ لا يعلمُهُ[10]، والمرادُ بالبُهْتانِ في الآيةِ: الكذبُ الَّذي يَبْهَتُ الشَّخصَ لفظاعتِهِ[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ كرامةِ الرَّسولِ ومكانةِ المؤمنينَ والمؤمناتِ عندَ اللهِ تعالى

إنَّ الَّذينَ يُؤذونَ رسولَ اللّهِ بالقولِ أو الفعلِ أبعدَهم اللّهُ مِنْ رحمتِهِ في الدُّنيا وفي الآخرةِ، وهيَّأ لهُم في الآخرةِ عذابًا مُذِلًّا؛ جزاءً لهُم على ما اقترفوهُ مِنَ الإيذاءِ، كما أنَّ الَّذينَ يُؤذونَ المؤمنينَ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (كسب).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 238.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حمل).
(4) الرّاغب، المفردات: (حمل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 106.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بهت).
(7) الرّاغب، المفردات: (بهت).
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بهت).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (بهت).
(10) الخليل، العين: (بهت).
(11) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 35.

والمؤمناتِ بقولٍ أو فعلٍ مِنْ غيرِ ذنبٍ فعلوهُ؛ فقد تحمَّلوا وِزْرَ كذبِهم عليهِم، وأتَوا ذنبًا قبيحًا ظاهرَ القُبْحِ، يُعاقَبونَ عليهِ يومَ القيامةِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ﴾ عمّا قبلَهُ:

مـآلُ مُـؤذي الـرَّسـولِ ﷺ الخِزْيُ

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهُ يَخْطُرُ في نفوسِ كثيرٍ ممَّنْ يسمعُ الآياتِ السّابقةَ أنْ يتساءلوا عن حالِ قومٍ قد عُلِمَ منهُم قِلَّةُ التَّحرُّزِ مِنْ أذى الرَّسولِ ﷺ بما لا يليقُ بتوقيرِهِ[2]، كأنَّهُ قيلَ: ما حالُ مَنْ يُؤذي رسولَ اللّهِ ﷺ؟ فأُجيبَ بما في هذهِ الآيةِ.

غرضُ توكيدِ الآيةِ:

عـقـابُ مُـؤذي الـرَّسـولِ ﷺ مُتيقَّنٌ

لمّا نهَى اللّهُ ﷻ عن أذى النَّبيِّ ﷺ، وحضَّ على إدخالِ السُّرورِ عليهِ؛ توعَّدَ مَنْ يُؤذيهِ، وأكَّدَ هذا الوعيدَ؛ إظهارًا لكونِهِ ممّا ينبغي أنْ يُؤكَّدَ، وأنْ يكونَ لكلِّ مَنْ يتكلَّمُ بهِ غايةُ الرَّغبةِ في تقريرِهِ، فقالَ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيةَ[3]، وفي ذلكَ مزيدُ عنايةٍ بكونِ العقابِ مُتيقَّنًا، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، فيكونُ أنسبَ بمقامِ التَّخويفِ والتَّهديدِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ:

الإيـــذاءُ عـلَّـةُ اللَّعْنِ والعذابِ

جيءَ باسمِ الموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيةَ؛ للدِّلالةِ على أنَّهم عُرِفوا بأنَّ إيذاءَ النَّبيِّ ﷺ مِنْ أحوالِهم المُختصَّةِ بهِم، ولذلكَ ذُكِروا بهذا الوصفِ دونَ تعيينٍ لهُم، ولدلالةِ الصِّلةِ على أنَّ أذى النَّبيِّ ﷺ هو علَّةُ لَعْنِهم وعذابِهم[4]،

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 35، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 632.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 409، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 104.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 409.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 104.

كأنَّهُ قيلَ: لعنَهم اللّهُ، وأعدَّ لهُم عذابًا مُهينًا؛ لأنَّ إيذاءَ النَّبيِّ ﷺ كانَ مِنْ أحوالِهم المُختصَّةِ بهِم.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُؤْذُونَ﴾:

الإيـذاءُ عادتُهم المُستمِرَّةُ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ إيذاءَهم للنَّبيِّ ﷺ أمرٌ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ منهُم على الدَّوامِ، لا يتركونَهُ في حالٍ مِنَ الأحوالِ، فقدِ امتلأتْ نفوسُهم بالعداوةِ والبغضاءِ لهُ ﷺ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

مُـؤذي العظيمِ يستحقُّ العذابَ العظيمَ المُهينَ

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لأنَّ السّياقَ للتَّخويفِ والتَّهديدِ، وبيانِ سوءِ عاقبةِ مَنْ يُؤذي النَّبيَّ ﷺ، وهذا اللَّفظُ أنسبُ بهذا السّياقِ؛ لِما يُفيدُهُ مِنَ الإشارةِ إلى صفاتِ العظَمةِ والجلالِ والكِبْرياءِ، والمعنى: يُؤذونَ اللّهَ الَّذي لا أعظمَ منهُ، ولا نعمةَ عندَهم إلّا مِنْ فضلِه[1]، وفي ذلكَ مزيدُ إنكارٍ عليهِم، وتقبيحٍ لصنيعِهم، حيثُ تجرَّؤوا على المُنتقِمِ الجبّارِ.

بلاغةُ إيقاعِ الإيذاءِ على اللهِ:

مُؤذي النَّبيِّ ﷺ مُؤذٍ للهِ

قولُه تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مُشكِلٌ مِنْ حيثُ الظّاهرُ؛ لأنَّهُ تعالى لا يتأذَّى بشيءٍ، بل هو مُنزَّهٌ عن أنْ يلحقَهُ أذًى[2]، وفي توجيهِ إيقاعِ الأذى عليهِ وجهانِ، **أحدُهما**: أنْ يُعبَّرَ بإيذاءِ اللّهِ ورسولِه عن فعلِ ما يكرهانِه، ولا يَرْضَيانِه مِنَ الكفرِ والمعاصي، وإنكارِ النُّبوَّةِ، ومخالفةِ الشَّريعةِ، وما كانوا يُصيبونَ بهِ رسولَ اللّهِ ﷺ مِنْ أنواعِ المكروهِ، وذلكَ التَّعبيرُ واردٌ على سبيلِ المجازِ المُرسَلِ[3]، بإطلاقِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 409.

(2) زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 662.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 559.

السَّببِ وإرادةِ المُسبَّب[1]، **والثّاني**: أنْ يرادَ: يُؤذونَ رسولَ اللّهِ ﷺ[2]، فيكونَ ذِكْرُ اللّهِ تمهيدًا لذكرِه، وأنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ عندَ اللّهِ بمكانةٍ، حتَّى إنَّ إيذاءَهُ إيذاؤُهُ[3]؛ لأنَّهُ إذا ذُكِرَ اسمانِ متعاطفانِ، والحُكمُ إنَّما هو لأحدِهما أفادَ قوَّةَ اختصاصِ المعطوفِ بالمعطوفِ عليهِ، وأنَّهما بمنزلةِ شيءٍ واحدٍ، بحيثُ يصِحُّ نسبةُ أوصافِ أحدِهما وأحوالِه إلى الآخرِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالرِّسالةِ:

حقُّ المُتفضِّلِ الإحسانُ إليهِ لا إيذاؤُهُ

عُبِّرَ بوصفِ الرَّسولِ في قولِه جلَّ منْ قائلٍ: ﴿يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لزيادةِ التَّشنيعِ على المُؤذينَ؛ لأنَّ الرَّسولَ هو الَّذي أُوحيَ إليهِ بشرعٍ وأُمِرَ بتبليغِه، وفي هذا التَّبليغِ ما يُنقِذُهم منْ شقاوةِ الدّارينِ، ويوجبُ لهُم سعادتَهما، فينبغي أنْ يُقابِلوا ذلكَ بالشُّكرِ لا بالإيذاءِ[4].

بلاغةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

رسولُ العظيمِ مُشرَّفٌ مُعظَّمٌ

أُضيفَ الرَّسولُ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى اللّهِ ﷻ في قولِهِ: ﴿يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لتشريفِ النَّبيِّ ﷺ، وتفخيمِ شأنِه، وبيانِ منزلتِه العظيمةِ عندَ اللّهِ، وزيادةِ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ على المُؤذينَ؛ لأنَّهم يُؤذونَ رسولَ ذي العظَمةِ والجلالِ، وفي هذهِ الإضافةِ تلويحٌ بالعقابِ والانتقامِ.

نُكْتَةُ عدمِ تعيينِ المُؤْذَى بِهِ:

كلُّ ما يُؤذي منهيٌّ عنهُ

لم يُذكَرْ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ نوعُ الأذى؛ ليشملَ الكلامُ كلَّ ضربٍ منْ ضروبِ الإيذاءِ[5]، ويفيدَ المبالغةَ في تحريمِ الأذى وتجريمِه، حتَّى إنَّ صغيرَ الأذى وكبيرَهُ في ذلكَ سواءٌ.

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 476.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 559.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 476.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 409.
(5) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 391.

دلالةُ التَّعبيرِ باللَّعْنِ:

عاقبةُ المُؤذي الإبعادُ مِنْ كلِّ خيرٍ

عُبِّرَ باللَّعْنِ في قولِه تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ لشِدَّةِ مناسبتِه لمقامِ الوعيدِ والتَّهديدِ؛ لأنَّ فيهِ إبعادًا مِنْ كلِّ خيرٍ[1]، وتحقيرًا للملعونِ[2]، ولأنَّهُ أشدُّ المحذوراتِ؛ لأنَّ البُعْدَ مِنَ اللّهِ لا يُرجَى معَهُ خيرٌ، بخلافِ التَّعذيبِ، ألا ترى أنَّ المَلِكَ إذا تغيَّرَ على مملوكٍ إنْ كانَ تأذّيهِ غيرَ قويٍّ يزجرُهُ، ولا يطردُهُ، ولو خُيِّرَ المُجرِمُ بينَ أنْ يُضرَبَ، أو يُطرَدَ عندَما يكونُ المَلِكُ في غايةِ العظَمةِ والكرمِ، يختارُ الضَّربَ على الطَّردِ، ولا سيَّما إذا لم يكنْ في الدُّنيا مَلِكٌ غيرَ سيِّدِهِ[3].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿لَعَنَهُمُ﴾:

اللَّعْنُ لاصِقٌ بالمؤذينَ

عُبِّرَ عن اللَّعن بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ لَعْنَ هؤلاءِ المُؤذينَ أمرٌ ثابتٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وقد حَكَمَ اللّهُ بهِ في الأزلِ، ولا تبديلَ لكلماتِ اللّهِ.

نُكْتَةُ إظهارِ اسمِ الجلالةِ:

لَعْنُ العظيمِ عظيمٌ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (لعنَهم في الدُّنيا والآخرةِ)؛ لتقدُّمِ لفظِ الجلالةِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ لِما في لفظِ الجلالةِ مِنَ الإيماءِ إلى صفاتِ العظَمةِ والجلالِ، الَّتي تناسبُ مقامَ الطَّرْدِ والإبعادِ، أي: لعنَهم العظيمُ الَّذي لا عظيمَ غيرُهُ[4]، ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ [النّساء: 52].

معنى ﴿فِى﴾ في قولِه: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾:

اللَّعنةُ قرينةُ مَنْ يُؤذي اللهَ ورسولَهُ في الدّارينِ

جيءَ بحرفِ الجرِّ ﴿فِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ للدِّلالةِ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، فيُفيدُ أنَّ مكانَ لَعْنِهم هو

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 398.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 104.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 182.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 409.

الدُّنيا والآخرةُ، وأنَّ اللَّعْنَ قدِ اتَّخذَ هَذَينِ الدّارينِ منزلًا لهُ، بحيثُ لا يفارِقُهما، ولا ينتقلُ عنهما، وفي ذلكَ مزيدُ تهويلٍ وتخويفٍ لِمَنْ لم يُقلِعْ عمّا هو عليهِ مِنَ الإيذاءِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

شأنُ المُـؤذينَ حقيرٌ دَنيءٌ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنَّ المقامَ للتَّخويفِ والتَّهديدِ، وتحقيرِ أمرِ المُؤذينَ، وبيانِ دناءَةِ شأنِهم، ولفظُ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ يناسبُ ذلكَ، وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّهم لم يَفوزوا مِنَ الدُّنيا الَّتي آذَوُا النَّبيَّ ﷺ مِنْ أجلِها، إلّا بكونِها مَحَلًّا للَعْنِهم، فهُم فيها مُحقَّرونَ عندَ المسلمينَ، ومحرومونَ مِنْ لُطْفِ اللهِ وعنايتِهِ[1].

معنى الواوِ في ﴿وَأَعَدَّ﴾:

جزاءُ المُـؤذي اللَّعنُ والتَّعذيبُ

الواوُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ونُكتَةُ هذا العطفِ: بيانُ أنَّهُ تعالى لم يَحْصُرْ جزاءَ المُؤذينَ في الإبعادِ، بل أوعدَهم بالعذابِ المُهينِ[2]، وفي ذلكَ مزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهُم، يناسبُ مقامَ التَّخويفِ والتَّهديدِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإعدادِ بصيغةِ الماضي:

عذابُ المُؤذينَ مُـهـيَّأٌ لـهُـم ينتظرُهم

الإعدادُ: تهيئةُ الشَّيءِ، يقالُ: أعدَدْتُ هذا لكَ، أي: جعلتُهُ بحيثُ تتناولُهُ بحسَبِ حاجتِكَ إليهِ[3]، وفي التَّعبيرِ بهِ بصيغةِ الماضي في قولِهِ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العذابَ المُهينَ قد تمَّتْ تهيئتُهُ لهُم، كما يُهيَّأُ النُّزُلُ للضَّيفِ، فلا رجوعَ عنهُ لِمَنْ لم يَتُبْ، وهو ينتظرُهم؛ ليَذوقوهُ يومَ القيامةِ[4]، وفي ذلكَ تهويلٌ للعذابِ، وفي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 104.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 182.

(3) الرّاغب، المفردات: (عدد).

(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 348.

التَّعبيرِ بهِ تأكيدٌ أيضًا؛ لأنَّ السَّيِّدَ إذا عذَّبَ عبدَهُ حالةَ الغضبِ مِنْ غيرِ إعدادٍ يكونُ دونَ ما إذا أعدَّ لهُ قَيْدًا؛ فإنَّ الأوَّلَ يمكنُ أنْ يقالَ: هذا أثرُ الغضبِ، فإذا سكتَ الغضبُ؛ يزولُ، وليس كذلكَ الثّاني[1].

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾:

العـذابُ المُهينُ مُسـتـحـقٌّ للمُؤذينَ

اللّامُ في قوله ﷻ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ للمِلْكِ والاستحقاقِ، وهي تُفيدُ أنَّ العذابَ المُهينَ مُستحَقٌّ للمُؤذينَ، لا ينازعُهم فيهِ أحدٌ، وذلك بسببِ أعمالِهم السَّيِّئَةِ.

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿لَهُمۡ﴾:

تعجيلُ المَساءةِ زيادةٌ في العذابِ

قُدِّمَ ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ في قوله تبارك شأنُهُ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾؛ لتعجيلِ المَساءةِ للكافرينَ، ببيانِ أنَّ الإعدادَ مخصَّصٌ لهُم، ولو تأخَّرَ الجارُّ والمجرورُ إلى ما بعدَ المفعولِ وصفتِه؛ لَما أُفيدَ هذا المعنى، بل أُفيدَ كونُ الإهانةِ لهُم، فضلًا عمّا يترتَّبُ على تأخيرِ ﴿عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ مِنْ مراعاةِ تناسُبِ فواصلِ الآياتِ.

لطيفةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٗا﴾:

عـذابُ المُؤذيـنَ هائلٌ فظيعٌ

نُكِّرَ ﴿عَذَابٗا﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾؛ لتهويلِ شأنِ عذابِ المُؤذينَ وتفظيعِه، ببيانِ أنَّ العبارةَ تَقْصُرُ عن وصفِ كُنْهِه، وأنَّهُ قد جاوزَ كلَّ حدٍّ ووصفٍ، أي: عذابًا هائلًا عظيمًا، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ؛ لأنَّ الَّذي تولَّى إعدادَهُ هو ذو العظَمةِ والجلالِ، الَّذي لا يُبْلَغُ كُنْهُ عظَمتِهِ وكِبْريائِه.

سِرُّ وصفِ العذابِ بكونِهِ مُهينًا:

عـذابُ المُؤذيـنَ مَشوبٌ بتحقيرٍ وخِزْيٍ

وُصِفَ العذابُ بكونِهِ مُهينًا في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾؛ لبيانِ أنَّهُ مَشوبٌ بتحقيرٍ وخِزْيٍ[2]، ويُقصَدُ به إيلامُهم وإذلالُهم[3]، وللإشارةِ إلى أنَّهُ إنَّما كانَ مُهينًا؛ لأنَّ الحاملَ لهُم على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 104.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 418.

الإيذاءِ هو الاستهانةُ[1]، وفي هذا الوصفِ تأكيدٌ للعذابِ أيضًا؛ لأنَّ مَنْ تأذَّى مِنْ عبدِه، وأمرَ بحَبْسِه وضربِه، فإنْ أمرَ بحَبْسِه في موضعٍ مُميَّزٍ، وأنْ يضْربَهُ رجلٌ كبيرٌ؛ دلَّ ذلك على أنَّ الأمرَ هيِّنٌ، وإنْ أمرَ بضربِهِ على ملأٍ، وحبسَهُ بينَ المُفسِدينَ؛ فإنَّه يُنبِئُ عن شِدَّةِ الأمرِ، فمَنْ آذى اللّهَ ورسولَهُ؛ يُعذَّب عذابًا مُهينًا[2].

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشْرِ في الآيةِ:

اللَّـعْـنُ جـزاءُ اللهِ، والتَّعذيبُ جـزاءُ إيـذاءِ الرَّسولِ

ذُكِرَ في الآيةِ إيذاءُ اللّهِ وإيذاءُ الرَّسولِ، وذُكِرَ عَقيبَهُ أمرانِ: اللَّعْنُ، والتَّعذيبُ، فاللَّعْنُ جزاءُ اللّهِ؛ لأنَّ مَنْ آذى المَلِكَ يُبعِدُهُ عن بابِهِ؛ إذا كانَ لا يأمرُ بعذابِه، والتَّعذيبُ جزاءُ إيذاءِ الرَّسولِ؛ لأنَّ المَلِكَ إذا آذى بعضَ عبيدِهِ كبيرٌ، يستوفي منهُ قِصاصَهُ[3].

معنى الواوِ في ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ﴾:

حُـرمـةُ المؤمنين عند الله تعالى عظيمةٌ

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وذِكرُ الوعيدِ لمَنْ يُؤذي المؤمنينَ والمؤمناتِ - بعدَ وعيدِ مَنْ يُؤذي اللّهَ ورسولَهُ - مُؤذِنٌ بمكانتِهم عندَ اللّهِ ورسولِهِ[4]، وأنَّ لهُم حُرْمةً لا ينبغي المَساسُ بها، وهي حُرْمةُ الإيمانِ والتَّوحيدِ، فيا سَعْدَ مَنْ آمنَ، وصدَّقَ! فإنَّهُ داخلٌ في حِرْزِ اللّهِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

الإيــذاءُ سببُ احتمالِ البُهْتانِ والإثمِ

جيءَ باسمِ الموصولِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآيةَ؛ للدِّلالةِ على أنَّ المذكورينَ قد عُرِفوا بأنَّ إيذاءَ المؤمنينَ والمؤمناتِ مِنْ أحوالِهم المُختصَّةِ بهم، ولذلكَ ذُكِروا بهذا الوصفِ دونَ تعيينٍ لهُم، ولدلالةِ الصِّلةِ على أنَّ أذى المؤمنينَ والمؤمناتِ هو سببُ احتمالِ المُؤذينَ البُهْتانَ والإثمَ، كأنَّهُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 410.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 183.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 182.

(4) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ، دراسةٌ تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 391.

قيلَ: احتمَلوا بُهْتانًا وإثمًا مُبينًا؛ لأنَّ إيذاءَ المؤمنينَ والمؤمناتِ كانَ مِنْ أحوالِهم المُختصَّةِ بهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُؤْذُونَ﴾:

إيـذاءُ المؤمنينَ والمؤمناتِ دَيْدَنُهم

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إيذاءَهمُ المؤمنينَ والمؤمناتِ أمرٌ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ منهُم على الدَّوامِ، لا يتركونَهُ في حالٍ مِنَ الأحوالِ، فقد امتلأتْ نفوسُهم بالعداوةِ والبغضاءِ للمؤمنينَ، فكلَّما وجدوا فُرْصةً لإيذائِهم؛ انتهزوها.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾:

رُسوخُ المؤمنينَ والمؤمناتِ في إيمانِهم

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ رُسوخِهم في الإيمانِ[1]، وأنَّهُ صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الَّتي لا ينفكّونَ عنها، كما هو شأنُ أهلِ الفلاحِ، ولذلكَ أثِمَ مُؤذيهم أقبحَ الإثمِ.

غرضُ تعريفِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وجمعِهما:

أذى العدوِّ ينالُ كلَّ مُؤمنٍ ومُؤمنةٍ

جيءَ بالمؤمنينَ والمؤمناتِ في قولِه تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ مجموعَينِ مُعرَّفَينِ؛ لتوسيعِ دائرةِ أذى أعدائِهم، وبيانِ أنَّ في قصدِهم إيذاءَ كلِّ مَنْ تحقَّقَ بصفةِ الإيمانِ؛ لِما في نفوسِهم مِنَ الحِقْدِ على الإيمانِ وأهلِه، وفيهِ إيماءٌ أيضًا إلى أنَّ المؤمنينَ بمنزلةِ الجسدِ الواحدِ، فإيذاءُ بعضِهم إيذاءٌ للكلِّ.

دلالةُ عطفِ ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أذى المؤمناتِ وأذى المؤمنينَ سواءٌ

عَطْفُ ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وعدمُ الاقتصارِ على ذِكْرِ المؤمنينَ كما هو الغالبُ في القرآنِ؛ للتَّصريحِ بمساواةِ الحُكمِ وإنْ كانَ ذلكَ معلومًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 410.

مِنَ الشَّريعةِ، ولكفِّ المُؤذينَ عن أذى المؤمناتِ؛ لأنَّهنَّ جانبٌ ضعيفٌ، بخلافِ الرِّجالِ؛ فقد يكفُّهم عنهُم اتِّقاءُ غضبِهم وثأرِهم لأنفُسِهم[1].

أذى المؤمنينَ أكثرُ مِنْ أذى المؤمناتِ

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾:

قُدِّمَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لأنَّ الأكثرَ والأغلبَ وقوعُ الأذى على المؤمنينَ؛ لأنَّهم هم الَّذينَ يتولَّونَ نَشْرَ الدّينِ والدَّعوةَ إلى اللهِ ﷻ، فيكونونَ عُرْضةً لأذى أعداءِ الدّينِ.

أذى المؤمنينَ والمؤمناتِ ظُلْمًا وعُدْوانًا فعلٌ قبيحٌ

معنى الباءِ في ﴿بِغَيْرِ﴾:

الباءُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ للسَّببيَّةِ، وهي تفيدُ حُرْمةَ أذى المؤمنينَ والمؤمناتِ بسببِ جُرْمٍ لم يفعلوهُ؛ فإنَّهُ جَمْعٌ بينَ أمرينِ في غايةِ القُبْحِ، وهما: الإيذاءُ والظُّلْمُ.

يُؤاخَذُ المُؤمِنُ بالَّذي عملَهُ فقطْ

معنى ﴿مَا﴾ في ﴿مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾:

الظّاهرُ أنَّ ﴿مَا﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ موصولةٌ، أي: بغيرِ الذي اكتسبوا مِنْ سيِّئٍ[2]، وفي التَّعبيرِ بالموصولِ الدّالِّ على العمومِ والشُّمولِ بأمارةِ استعمالهِ لغيرِ العاقلِ تعميمٌ لِما اكتسبوهُ مِنَ السَّيِّئاتِ، فيشملُ كلَّ ما اكتسبوهُ منها، ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ مصدريَّةً[3]، أي: بغيرِ اكتسابِهم.

لا ذنبَ للمؤمنينَ والمؤمناتِ يستحقّونَ لأجلِهِ الأذى

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿ٱكْتَسَبُوا۟﴾:

ضميرُ ﴿ٱكْتَسَبُوا۟﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ عائدٌ إلى المؤمنينَ والمؤمناتِ على سبيلِ التَّغليبِ[4]، والظّاهرُ أنْ يقالَ: (بغيرِ ما اكتسبوا واكتسَبْنَ).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 105.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 106.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 45.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 105.

سرُّ التَّعبيرِ بالاكتسابِ دونَ الكَسْبِ:

وجـــوبُ الاحـتـيـاطِ قبلَ إيـذاءِ المؤمنينَ والمؤمناتِ

فُرِّقَ في اللُّغة بينَ صيغة (فعلَ) و(افتعلَ)؛ وذلك بأنَّ (فعلَ) تدلُّ على فعلٍ طبيعيٍّ ليسَ فيهِ مبالغةٌ ولا تكلُّفٌ، أمّا (افتعلَ)؛ فتدلُّ على فعلٍ فيهِ تكلُّفٌ ومبالغةٌ، ومِنْ ذلكَ (كسبَ) و(اكتسبَ)، فالفعلُ (اكتسبَ) فيهِ زيادةٌ وافتعالٌ؛ ولذلكَ غلبَ استعمالُهُ في الشَّرِّ، وغلبَ استعمالُ (كسبَ) في الخيرِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286]؛ لأنَّ الخيرَ يأتي طبيعيًّا تلقائيًّا، أمّا الحرامُ؛ فيحتاجُ إلى محاولةٍ وافتعالٍ واحتياطٍ[1]، والاكتسابُ يدلُّ على التَّعمُّدِ أيضًا[2]، ولذلكَ عُبِّرَ بهِ في قولِهِ: ﴿بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى ضرورةِ الاحتياطِ قبلَ إيذاءِ المؤمنينَ والمؤمناتِ.

نُكْتَةُ التَّقييدِ بقولِهِ: ﴿بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾:

في التَّقييدِ زيادةُ تشنيعِ الأذى، بأنَّهُ ظلمٌ وكذبٌ

قولُه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ احترازٌ عن الأمرِ بالمعروفِ مِنْ غيرِ عُنْفٍ زائدٍ، فإنَّ مَنْ جَلَد مئةً على شُرْبِ الخمرِ؛ آذَى بغيرِ ما اكتسبَ، ومَنْ جلدَ على الزِّنى؛ لم يُؤْذِ بغيرِ ما اكتسبَ[3]، وفي هذا القيدِ مَلْمَحٌ آخرُ، وهو أنَّ المجرورَ في موضعِ الحالِ، وهذهِ الحالُ لزيادةِ تشنيعِ ذلكَ الأذى، بأنَّهُ ظلمٌ وكذبٌ، وليسَ المرادُ بالحالِ تقييدَ الحُكمِ، حتَّى يكونَ مفهومُهُ جوازَ أذى المؤمنينَ والمؤمناتِ بما اكتسبوا، أي: أنْ يُسَبّوا بعملٍ ذميمٍ اكتسبوهُ؛ لأنَّ الجزاءَ على ذلكَ ليسَ موكولًا لعمومِ النّاسِ، ولكنَّهُ موكولٌ إلى ولاةِ الأمورِ[4].

سرُّ تقييدِ إيذاءِ المؤمنينَ والمؤمناتِ وإطلاقِ إيذاءِ اللهِ ورسولِهِ:

لا يصدرعن اللهِ تعالى ورسولِهِ إلّا الحقُّ، فأذاهم باطلٌ أبدًا

أُطلِقَ إيذاءُ اللّهِ ورسولِهِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وقُيِّدَ إيذاءُ المؤمنينَ والمؤمناتِ بقولِهِ تعالى: ﴿بِغَيۡرِ مَا

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 19/ 12157.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 410.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 183.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 105.

﴿ٱكۡتَسَبُواْ﴾؛ لأنَّ أذى اللّهِ ورسولِهِ لا يكونُ إلّا غيرَ حقٍّ أبدًا، وأمّا أذى المؤمنينَ والمؤمناتِ؛ فمنهُ حقٌّ، كالحدِّ والتَّعزيرِ، ومنهُ باطلٌ(1).

معنى الفاءِ في ﴿فَقَدِ﴾:

نتيجةُ الأذى البُهْتانُ والإثْمُ

قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا﴾ خبرُ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، وقد دخلتِ الفاءُ لشَبَهِ الموصولِ بالشَّرطِ(2)، وفي ذلكَ بيانُ تسبُّبِ احتمالِ البُهْتانِ والإثمِ عن الإيذاءِ، وما أقبحَهُ مِن احتمالٍ!

غرضُ التَّوكيدِ بِ(قد):

احتمالُ البُهْتانِ والإثمِ مُتيقَّنٌ

جيءَ بحرفِ التَّحقيقِ (قد) في قوله ﷻ: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا﴾؛ لتشديدِ أمرِ الإيذاءِ(3)، والتَّحذيرِ مِنْ عواقبِهِ المُترتِّبةِ عليهِ ترتُّبًا قطعيًّا، لا ريبَ فيهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿ٱحۡتَمَلُواْ﴾:

سرعةُ ترتُّبِ البُهْتانِ والإثمِ على الأذى

جيءَ بالفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا﴾ على صيغةِ الماضي، مِنْ غيرِ أنْ يُراعَى المضارعُ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى وقوعِ الفعلِ، وأنَّهم قدِ احتملوا البُهْتانَ والإثمَ(4)، وأنَّ هذا الاحتمالَ قد ترتَّبَ على الإيذاءِ دونَ تأخيرٍ أو تَوانٍ، وفي ذلكَ مزيدُ تحذيرٍ مِنْ عاقبةِ الإيذاءِ، وإنذارٌ بوخامةِ ارتكابه.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ:

عِظَمُ ما احتملوهُ مِنَ البُهْتانِ والإثمِ

عُبِّرَ عن الحمْلِ في قوله ﷻ: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ﴾ بصيغةِ (افتعلَ) الدّالَّةِ على التَّكلُّفِ، ولم يقل: (فقد حَمَلوا)؛ للإشارةِ إلى عِظَمِ ما احتملوهُ من البُهتانِ والإثمِ، وكأنَّهُ أمرٌ لا يُطاقُ حَمْلُهُ إلّا بمزيدٍ مِنَ الجهدِ والمعاناةِ(5)، وفي ذلكَ تمثيلٌ للبُهْتانِ بحِمْلٍ ثقيلٍ على صاحبِهِ(6)، يَنوءُ بحَمْلِهِ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 559، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 44.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 141، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 263.
(3) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 391.
(4) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 391.
(5) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 391.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 106.

غرضُ تنكيرِ ﴿بُهۡتَٰنٗا﴾:

البُهْتانُ المحمولُ عظيمٌ فظيعٌ

جيءَ بلفظِ البُهْتانِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا﴾ نكرةً؛ للتَّفخيم والتَّعظيم، أي: فقد احتملوا بُهْتانًا شنيعًا عظيمًا[1]، وهذا التَّعظيمُ المُستفادُ مِنَ التَّنكيرِ، يُقوّي التَّعظيمَ المُستفادَ مِنْ معنى الكلمةِ، فالبُهْتانُ هو الافتراءُ المُجاوِزُ للحدِّ، وهو أقبحُ الكذبِ[2]، وفي ذلكَ وعيدٌ شديدٌ وتخويفٌ عظيمٌ للمُؤذينَ.

نُكْتَةُ عطفِ الإثمِ على البُهتانِ:

جمعُ المُؤذينَ بينَ الأذى القوليِّ والفعليِّ أمارةُ حقدهم على المؤمنين

عُطِفَ الإثمُ على البُهْتانِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾؛ لبيانِ جمعِ المُؤذينَ بينَ نوعينِ مِنَ الأذى، وهما الأذى القوليُّ المُعبَّرُ عنهُ بالبُهْتانِ، والأذى الفعليُّ المُعبَّرُ عنهُ بالإثمِ[3]، فهم لم يَتركوا صورةً مِنْ صوَرِ الإيذاءِ إلّا أتَوا بها؛ لأنَّ نفوسَهم قد فاضَتْ بالحِقْدِ على أهلِ الإيمانِ.

علّةُ تنكيرِ الإثمِ:

إثمُ الذَّنبِ العظيمِ عظيمٌ

جيءَ بلفظِ الإثمِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ نكرةً؛ لتعظيمِ شأنِ هذا الإثمِ وتهويلِه، أي: وإثمًا عظيمًا فظيعًا، وفي ذلكَ مزيدُ تحذيرٍ مِنْ عواقبِ الإيذاءِ.

نُكْتَةُ وصفِ الإثمِ بـ﴿مُّبِينٗا﴾:

إثمُ المُؤذينَ ظاهرٌ لا شُبْهةَ فيه

وُصِفَ الإثمُ بكونِه مُبينًا في قولِ اللّهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه عظيمٌ قويٌّ، أي: جُرْمًا مِنْ أشدِّ الجُرْمِ[4]، وللتَّنبيهِ على أنَّهُ يعلمُ كلُّ أحدٍ أنَّهُ إثمٌ، أي: إثمًا ظاهرًا لا شُبْهَةَ في كونِه إثمًا[5]، وكأنَّهُ يكونُ يومَ القيامةِ كالشَّيءِ المُعْلَمِ، فيقالُ:

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 418، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 263.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 410، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 418.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 410.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 105.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 105.

هذا بُهْتانُهم فلانًا وكَذِبُهم عليهِ، ويأتونَ يومَ القيامةِ المشهودِ، وقد تجسَّدَتْ أكاذيبُهم وآثامُهم، واحتملوها على ظهورِهم؛ إعلامًا بافترائِهم، وبراءةِ ساحةِ هؤلاءِ المؤمنينَ المُؤذَيْنَ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيذاءُ والإضرارُ:

لم يَدَّخِرِ المُؤذون وسيلةً للأذى مِنْ قولٍ أو فعلٍ إلّا ارتكبوه بحقدهم

الأذى: ما يصلُ إلى الحيوانِ مِنَ الضَّررِ: إمّا في نفسِهِ، أو جسمِهِ، دنيويًّا كانَ أو أُخْرَويًّا[2]، فيكونُ معنى الإيذاءِ: إلحاقَ الضَّررِ المذكورِ بالحيوانِ.

والضَّرُّ في الأصلِ: سوءُ الحالِ: إمّا في نفسِهِ لقلَّةِ العلمِ والفضلِ والعِفَّةِ، وإمّا في بدنِهِ لعدمِ جارحةٍ ونقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ مِنْ قلَّةِ مالٍ وجاهٍ، والإضرارُ: إيصالُ الضَّرَرِ إلى الآخرِ[3].

ويظهرُ أنَّ الأذى أشدُّ؛ لأنَّهُ يشملُ الضَّررَ الدُّنيويَّ والأُخرويَّ، فيكونُ أنسبَ بالسّياقِ هنا؛ لأنَّ المُؤذينَ لم يَدَّخِروا وسيلةً للأذى مِنْ قولٍ أو فعلٍ[4]؛ لِما اشتملَتْ عليهِ قلوبُهم مِنَ الحِقْدِ والضَّغينةِ المستوجبَيْنِ لشدَّةِ العقابِ.

الكذبُ والافتراءُ والإفكُ والبُهْتانُ والخَرْصُ والزّورُ:

البُهْتانُ أنسبُ بمقامِ تقبيحِ فعلِهم وتشنيعِهِ

الكذبُ: خلافُ الصِّدقِ، والافتراءُ: اختلاقُ الكذبِ، والإفكُ: قلبُ الشَّيءِ وصرفُهُ عن الحقِّ في الاعتقادِ إلى الباطلِ، وعن الصِّدقِ في المقالِ إلى الكذبِ، وعن الجميلِ في الفعلِ إلى القبيحِ[5]، والبُهْتانُ: هو الكذبُ الفظيعُ الَّذي يتحيَّرُ منهُ سامعُهُ عندَ سماعِهِ[6]، والخَرْصُ:

(1) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 391.
(2) الرّاغب، المفردات: (أذى).
(3) الرّاغب، المفردات: (ضرر).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 398، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 114.
(5) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 154 - 159.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/ 1154.

كلُّ قولٍ مَقولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ[1]، والزّورُ: تزيينُ الكذبِ وزخرفتُهُ، والمَيْلُ بهِ عن الحقِّ[2].

وقد عُبِّرَ بالبُهْتانِ في قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنْ فظاعةِ كذبِهم وشناعتِهِ وفُحْشِهِ[3]، وتجاوزِهِ الحدَّ، بحيثُ ينفرُ منهُ السّامعُ، ويتعجَّبُ، ويتحيَّرُ؛ لأنَّ مِثْلَ ذلكَ حقُّهُ ألّا يكونَ، ولفظُ البُهْتانِ يُشعِرُ أيضًا بكونِهِ إثمًا عظيمًا يُؤدّي إلى عذابٍ أليمٍ[4].

الإثمُ والخطيئةُ:

تعمُّدُهم الإيذاءَ سببُ تشديدِ الوعيدِ عليهم

الخطيئةُ قد تكونُ مِنْ غيرِ تعمُّدٍ، ولا يكونُ الإثمُ إلّا عن تعمُّدٍ[5]، وقدِ اختيرَ الإثمُ في قوله سبحانَهُ: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ للإشارةِ إلى تعمُّدِهم الإيذاءَ، ونفيِ احتمالِ الخطأِ فيه، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ وتشنيعٍ لحالِهم، وتأكيدٌ لاستحقاقِهم العقابَ.

(1) زيدان، الفروق اللّغوية، ص: 154 - 159.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 268.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 324.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 410، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 418.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 222.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأحزاب: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأمرُ باتِّقاءِ أسبابِ الأذى بعدَ النَّهيِ عنهُ

بعدَما نهَى ﷻ عن أذى المؤمنينَ والمؤمناتِ، وبيَّنَ سوءَ حالِ المُؤذينَ؛ زَجْرًا لهُم عن الإيذاءِ؛ أمرَ النَّبيَّ ﷺ بأنْ يأمرَ بعضَ المُتأذّينَ منهُم بما يدفعُ إيذاءَهم في الجملةِ مِنَ التَّستُّرِ والتَّميُّزِ عن مواقعِ الإيذاءِ، فقالَ: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الآيةَ[1]؛ لأنَّ مِنْ شأنِ المَطالبِ السَّعيَ في تذليلِ وسائلِها[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُدۡنِينَ﴾: (دنو) أصلٌ يدلُّ على المقاربةِ[3]، ومِنْ ذلك يقالُ: دَنا إليه، ومنهُ، ولهُ، أي: قَرُبَ، ودنّاهُ تدنيَةً، وأدناهُ: قرَّبَهُ[4]، ومعنى ﴿يُدۡنِينَ﴾: يُرْخينَ، ويُسْدِلْنَ[5].

2) ﴿جَلَـٰبِيبِهِنَّۚ﴾: (جلب) مِنَ الأصولِ الَّتي يدلُّ عليها: تغطيةُ شيءٍ شيئًا آخرَ، ومِنْ ذلكَ: الجِلْبابُ، وجمعُهُ: جلابيبُ[6]، والمرادُ به في الآيةِ: ثوبٌ أصغرُ مِنَ الرِّداءِ، وأكبرُ مِنَ الخمارِ والقِناعِ، تضعُهُ المرأةُ على رأسِها، فيتدلَّى جانباهُ على عِذاريها، وينسدلُ سائرُهُ على كتفِها وظهرِها، تلبسُهُ عندَ الخروجِ والسَّفرِ[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 183، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 115، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 263.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 106.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دنو).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (دنو).
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: (دنو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جلب).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 106.

3) ﴿يُعۡرَفۡنَ﴾: (عرف) مِنَ الأصولِ الَّتي يدلُّ عليها: السُّكونُ والطُّمأنينةُ[1]، ومِنْ ذلكَ: المعرفةُ والعِرْفانُ، أي: إدراكُ الشَّيءِ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثَرِهِ، ويضادُّهُ الإنكارُ[2]، وقولُهُ: ﴿يُعۡرَفۡنَ﴾، أي: يُميَّزْنَ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

صيانةُ الحرائرِ عن الإيذاءِ

يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأزواجِكَ وبناتِكَ وجميعِ المؤمناتِ: لا يتشبَّهْنَ بالإماءِ في لباسِهنَّ؛ إذا خَرَجْنَ مِنْ بيوتِهنَّ لحاجتِهنَّ، وليُرْخينَ على أبدانِهنَّ مِنْ جلابيبِهنَّ الواسعة، فذلكَ أقربُ وأحرَى أنْ يُميَّزْنَ، ويُعلَمَ أنَّهنَّ لَسْنَ بإماءٍ، فلا يُتعرَّضَ لهنَّ بمكروهٍ أو ريبةٍ، واللهُ غفورٌ رحيمٌ؛ لِما عسَى يَصْدُرُ منهنَّ مِنَ الإخلالِ بالتَّستُّرِ، بشرطِ التَّوبةِ مِنْ ذلكَ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

اتِّقاءُ أسبابِ الأذى دفعٌ لهُ

فُصِلَ قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لأمرِ المُتعرِّضاتِ للأذى بفعلِ ما يُبعِدُ الأذى عنهنَّ[5].

بلاغةُ افتتاحِ الآيةِ بالنِّداءِ:

الاهتمامُ بشأنِ الأمرِ بالإدناءِ

جيءَ بالنِّداءِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ الآيةَ، واستُعمِلَتْ فيهِ (يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ، وجيءَ معَها بهاءِ التَّنبيهِ؛ إشارةً إلى شدَّةِ الاهتمامِ بالأمرِ الَّذي سيقَتْ لهُ الآيةُ[6]، ولذلكَ نُبِّهَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرف).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عرف).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 36.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 324، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن العظيم، ص: 632.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 115، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 45.
(6) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 392.

إليه النَّبيُّ ﷺ؛ ليتلقّاهُ بنفسٍ يَقْظَى، وفي ذلكَ حثٌّ للمؤمنينَ أيضًا على التَّيقُّظِ لِما يُتلَى في هذهِ الآيةِ.

دلالةُ إيثارِ وصفِ النُّبوَّة:

تعظيمُ المأمورِ بهِ بتولّي النَّبيِّ ﷺ الأمرَ به

نوديَ النَّبيُّ ﷺ بوصفِ النُّبوَّة؛ تلطُّفًا به[1]، ومدحًا لهُ بالوصفِ الَّذي هو مَنْبَعُ المعرفةِ والحكمة؛ لأنَّ السّياقَ لبيانِ وسيلةٍ يُذَبُّ بها عن الحريمِ؛ لئلّا يشتغلَ فكرُهُ ﷺ بما يحصلُ لهنَّ مِنَ الأذى، عن تلقّي شيءٍ مِنَ الوارداتِ الرَّبّانيَّة[2].

نُكْتَةُ توجيهِ الخطابِ للنَّبيِّ ﷺ:

تعظيمُ المأمورِ بهِ بتولّي النَّبيِّ ﷺ الأمرَ به

وُجِّهَ الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ الآيةَ، ولم يوجَّهْ للمأموراتِ، فلم يقل مثلًا: (يا أزواجَ النَّبيِّ وبناتِهِ ونساءَ المؤمنينَ أدْنينَ) ... إلخ؛ لبيانِ شدَّةِ العنايةِ والاهتمامِ بهذا الأمرِ؛ إذ أُمِرَتْ بهِ المذكوراتُ بوساطةِ النَّبيِّ ﷺ، ولأنَّهُ قد سبقَ تهديدُ الَّذينَ يُؤذونَ رسولَ اللّهِ ﷺ، فأُمِرَ ﷺ بأنْ يُباشرَ الأمرَ بما يُدفَعُ بهِ الأذى عنهُ؛ لأنَّ ما يُؤذي أزواجَهُ وبناتِهِ ونساءَ المؤمنينَ يُؤذيهِ أيضًا.

غرضُ الأمرِ في ﴿قُل﴾:

وجوبُ أمرِ المذكوراتِ بإدناءِ الجلابيبِ

مادَّةُ القولِ تشملُ كلَّ أنواعِ التَّعبيرِ اللَّفظيِّ، ما كان منها مباشرًا أو غيرَ مباشر، والظّاهرُ أنَّ المقصودَ بالأمرِ في قوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ الوجوبُ؛ لأنَّهُ الأصلُ في صيغةِ الأمرِ، ولا صارفَ عنهُ هنا، فيُفيدُ الكلامُ وجوبَ أنْ يأمرَ النَّبيُّ ﷺ بالحُكمِ المذكورِ.

معنى اللّامِ في ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾:

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للتَّبليغِ، فتفيدُ تبليغَ المذكوراتِ الأمرَ بالإدناءِ؛ ليبلغَ الغايةَ مِنَ الوعظِ، وهو التَّأثيرُ في أنفسِهم، فيستجيبوا.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 419.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 411.

دلالةُ التَّعبيرِ بالأزواجِ دونَ الزَّوجاتِ:

عادةُ القرآنِ استعمالُ لفظِ الأزواجِ

جيءَ بلفظِ الأزواجِ في قوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ دونَ لفظِ الزَّوجاتِ؛ لأنَّ الأزواجَ جمعُ زوجٍ، وهو يُطلَقُ على كلٍّ من الزَّوجين، ويتبيَّنُ المرادُ بِهِ مِنَ السّياقِ، وقد جرَتْ عادةُ القرآنِ باستعمالِ لفظِ الأزواجِ، وأمّا الزَّوجاتُ؛ فهو جمعُ زوجةٍ، ولم يُستعمَلْ في القرآنِ.

نُكْتَةُ تقديمِ الأزواجِ على البناتِ:

تربيةُ الأزواجِ تستلزمُ تربيةَ البناتِ

قُدِّمَ الأزواجُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ على البناتِ؛ لأنَّ تربيتَهنَّ أهمُّ؛ لِما لهنَّ به مِنَ الوُصْلةِ بالنِّكاحِ، ولأنَّهُ بتربيتِهنَّ تحصلُ تربيةُ البناتِ في الجملةِ[1]، ولأنَّ الأزواجَ سابقاتٌ على البناتِ؛ إذ يتزوَّجُ الإنسانُ، ثمَّ يولَدُ لهُ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾:

عُلوُّ شأنِ أزواجِ النَّبيِّ وبناتِهِ

أُضيفَتِ الأزواجُ والبناتُ في قوله تعالى ذِكرُهُ: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ إلى كافِ الخطابِ الرّاجعِ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لتشريفِهنَّ وتفخيمِ شأنِهنَّ، والعنايةِ بتعليمِهنَّ وإرشادِهنَّ؛ لِما جُبِلَ عليهِ الإنسانُ مِنَ الغَيْرةِ على حريمِهِ ومَنْ يَلوذُ بهِ.

نُكْتَةُ تقديمِ الأزواجِ والبناتِ على نساءِ المؤمنينَ:

الدّاعيةُ يبدأُ بنفسِهِ وبِمَنْ يَعولُ

ابتُدِئَ بأزواجِ النَّبيِّ ﷺ وبناتِهِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّهنَّ أكملُ النِّساءِ، فَذِكْرُهنَّ مِنْ ذِكرِ بعضِ أفرادِ العامِّ للاهتمامِ به[2]، ثمَّ ترى القولَ يعمُّ نساءَ الأمَّةِ على امتدادِ ساحةِ وجودِ هذهِ الأُمَّةِ الموصولةِ بآخرِ الوجودِ، وترى في هذا السّياقِ القصيرِ ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ما يُغري المرأةَ المسلمةَ بالامتثالِ لهذا الأمرِ؛ لأنَّها تكونُ في صحبةِ أزواجِهِ وبناتِهِ، وهذا غايةُ ما يمكنُ أنْ يكونَ مِنَ التَّكريمِ، ثمَّ ترى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 411، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 419.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 106.

المُتبرِّجاتِ يَنْفَلِتْنَ مِنْ هذهِ الكوكبةِ المُشرِقةِ بنورِ الفضيلةِ والتُّقى، إلى دائرةٍ أخرى لا تتَّصل بالنَّبيِّ ولا بأهلِهِ الأطهارِ، وفي الآيةِ إشارةٌ ذاتُ مَغْزًى، وهي أنَّ أهلَ البلاغِ إنَّما يَبْدؤونَ في الأمرِ بمَنْ حولَهم، فالنَّبيُّ ﷺ يبدأُ بأزواجِهِ وبناتِهِ؛ ليكونَ بذلك قدوةً عمليَّةً في إذاعةِ هذا الأمرِ، وهذهِ هي الخطوةُ الضَّروريَّةُ الَّتي يجبُ أنْ يخطوَها الدّاعي، وإلّا كانَ عملُهُ ضائعًا[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

جميعُ المؤمناتِ مُكلَّفاتٌ بالسَّترِ

ليسَ المرادُ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أزواجَ المؤمنينَ فقطْ، بل المرادُ أعمُّ مِنْ ذلكَ، وهو الإناثُ المؤمناتُ، وإضافتُهنَّ إلى المؤمنينَ على معنى (مِنْ)، أي: النِّساءِ مِنَ المؤمنينَ[2]، وفي هذهِ الإضافةِ تنبيهٌ على علَّةِ العنايةِ بتعليمِهنَّ وإرشادِهنَّ، وهي انتسابُهنَّ إلى المؤمنينَ، وتحلّيهنَّ بصفةِ الإيمانِ الَّتي توجِبُ عليهنَّ التَّستُّرَ والانقيادَ لأوامرِ اللّهِ سبحانه وتعالى.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ مجموعًا في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

رسوخُ الإيمانِ يستلزمُ الامتثالَ لأوامرِ الشَّرعِ

لمّا كانَ مقصودُ الشّارعِ الحكيمِ نشرَ الفضيلةِ والعفافِ والسَّترِ في أرجاءِ المجتمعِ الإسلاميِّ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ؛ جيءَ بلفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مجموعًا مُعرَّفًا؛ ليشملَ نساءَ جميعِ المؤمنينَ، فضلًا عمّا في التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ مِنَ الدّلالةِ على رُسوخِ المؤمنينَ في صفةِ الإيمانِ، وذلكَ يستدعي الخضوعَ والانقيادَ لأوامرِ الشَّرعِ وتعاليمِهِ.

موقعُ ﴿يُدۡنِينَ﴾ ممّا قبلَهُ وسرُّ مجيئِهِ مضارعًا:

شأنُ المؤمناتِ سرعةُ الامتثالِ

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿يُدۡنِينَ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ جوابَ أمرٍ مُقدَّرٍ، على حدِّ قولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم:

(1) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 392.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 106.

[31]، والتَّقديرُ هنا: (قُلْ لهنَّ: أَدْنينَ يُدْنينَ)، فيكونُ في هذا الحذفِ إيذانٌ بأنَّهنَّ لفَرْطِ مطاوَعتِهنَّ النَّبيَّ ﷺ بحيثُ لا ينفكُّ فعلُهنَّ عن أمرِهِ، وأنَّهُ كالسَّببِ الموجبِ لهُ[(2)]، ولذلكَ أُخبِرَ عنهنَّ بصيغةِ المضارعِ الَّتي تدلُّ على تصويرِ الحدثِ الواقعِ، وتدلُّ أيضًا على الاستمرارِ، وأنَّهنَّ يلتزمنَ السَّترَ في جميعِ الأزمنةِ والأوقاتِ، ويحتملُ أنْ يكونَ ﴿يُدۡنِينَ﴾ مَقولَ القولِ، وهو خبرٌ بمعنى الأمرِ[(3)].

علَّةُ تعديةِ الإدناءِ بـ(على):

الإدناءُ مُتضمِّنٌ معنى الإرخاءِ أو السَّدْلِ

الإدناءُ: التَّقريبُ، يقالُ: أدناني، أي: قرَّبَني، وضُمِّنَ في قوله تعالى: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ معنى الإرخاءِ أو السَّدْلِ، ولذلكَ عُدّيَ بـ(على)، ونُكْتَةُ التَّضمينِ الإشارةُ إلى أنَّ المطلوبَ تستُّرٌ يتأتَّى معَهُ رؤيةُ الطَّريقِ؛ إذا مَشَيْنَ[(4)]، والظّاهرُ أنَّ المرادَ بـ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾: على جميعِ أجسادِهنَّ، فلا يَدَعْنَ شيئًا منها مكشوفًا[(5)]، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ: على رؤوسِهنَّ أو على وجوهِهنَّ؛ لأنَّ الَّذي كانَ يَبْدو منهنَّ في الجاهليَّةِ هو الوجهُ[(6)].

معنى (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾:

في سَتْرِ الجلابيبِ أجسادَ العفائفِ دفْعٌ للرّيبةِ والأذى

لمّا كانَ المطلوبُ إسدالَ الجلابيبِ على جميعِ الأجسادِ - كما هو الظّاهرُ - أو على الرُّؤوسِ أو الوجوهِ؛ جيءَ في قولِهِ تعالى: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ بحرفِ الجرِّ (على)، الدّالِّ على الاستعلاءِ، وفيهِ مبالغةٌ في كونِ الجلابيبِ قدِ استعلَتْ على ما سترَتْهُ، واشتملَتْ عليهِ منْ كلِّ الجوانبِ، وبذلكَ يتحقَّقُ مطلوبُ السَّترِ ودفعِ الرّيبةِ والأذى.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 265.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 419.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 265.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 264.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 411، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 264.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 264.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾:

مطلوبُ الشّارعِ تجلبُبُ النِّساءِ ببعضِ الجلابيبِ

معنى ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ هو التَّبعيضُ، والتَّبعيضُ محتملٌ وجهين: **أحدُهما**: أنْ يتجلبَبْنَ ببعضِ ما لَهنَّ مِنَ الجلابيبِ، والمرادُ ألّا تكونَ الحُرَّةُ مُتبذِّلةً في دِرْعٍ وخمارٍ فقطْ كالأمَةِ، **والثّاني**: أنْ تُرخيَ المرأةُ بعضَ جِلْبابِها على وجهِها تتقنَّعُ، حتّى تتميَّزَ مِنَ الأمَةِ[1]، والتَّجلبُبُ على الأوّلِ لُبْسُ الجِلْبابِ على البدنِ كلِّه، وعلى الثّاني التَّقنُّعُ بسَتْرِ الرَّأسِ والوجهِ معَ إرخاءِ الباقي على بقيَّةِ البدنِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجلابيبِ دونَ الخُمُرِ:

مقصودُ الشّارعِ المبالغةُ في السَّترِ

الجِلْبابُ: ثوبٌ واسعٌ، أوسعُ مِنَ الخِمارِ[3]، وقد عُبِّرَ بِهِ في قوله سبحانَهُ: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾؛ لأنَّهُ لسَعَتِهِ أنسبُ بالمبالغة في السَّترِ، والمطلوبُ الشَّرعيُّ هو ألّا يُبْرِزَ الثَّوبُ منها شيئًا يُشتهَى، ولا يَصِفَهُ؛ لأنَّ المرأةَ إذا عَرَضَتْ مِنْ محاسنِها ما يُشتهَى؛ فقد سقطَتْ في الدّائرةِ الهابطةِ، وانسلخَتْ عن الكوكبةِ الطّاهرةِ في هذا السّياقِ الشَّريفِ[4].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾:

الإدناءُ مِنَ الجلابيبِ الَّتي تملكُها المرأةُ

أُضيفَتِ الجلابيبُ في قوله تعالى: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى المذكوراتِ في الآيةِ، ولم يقل: (مِنَ الجلابيب)؛ إشارةً إلى أنَّ الإدناءَ يكونُ ممّا تحتَ يدِ المرأةِ مِنَ الجلابيبِ الَّتي ينبغي أنْ تكونَ مملوكةً لها مهيَّأةً عندَها؛ لتلبسَها عندَ الخروجِ، وفي الإضافةِ أيضًا تناغمٌ صوتيٌّ معَ حرفِ النّونِ المُتكرِّرِ في قولِهِ: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 560.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 183.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 559.
(4) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 393.

علّةُ فصلِ ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ تعليلٌ لهُ[1] على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ، كأنَّ سائلًا قال: ما سببُ الأمرِ بإدناءِ الجلابيبِ؟ فأُجيبَ بأنَّهُ أدنَى.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ:

شـــأنُ الـسَّــترِ عظيمٌ عندَ اللهِ

مرجعُ الإشارةِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾؛ لإدناءِ الجلابيبِ[2]، أو للتَّستُّرِ[3]، أو لكليهما[4]، وفي الإشارةِ إليهِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ تفخيمٌ لشأنِهِ وتعظيمٌ، كيفَ لا؟ وفيهِ دفعٌ للأذى عن المؤمناتِ، وعن النَّبيِّ ﷺ، وفيهِ حفظٌ وصيانةٌ للمجتمعِ، وترسيخٌ لقيَمِ العفافِ والسَّترِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالدُّنوِّ:

الإدناءُ أقربُ إلى تميُّزِ الحرائرِ عن غيرِهنَّ

قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ معناهُ: ذلكَ أقربُ أنْ يُعْرَفْنَ على الجملةِ، حتَّى لا يختلطْنَ بالإماءِ، فإذا عُرِفْنَ لم يُقابَلْنَ بأذًى؛ مراقبةً لرتبةِ الحُرّيَّةِ، وليسَ المرادُ أنْ تُعْرَفَ المرأةُ حتَّى يُعلَمَ مَنْ هي[5]، وقد عُبِّرَ بـ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾، ولم يُعبَّرْ بـ(أقربُ)؛ لمناسبةِ ﴿يُدۡنِينَ﴾ ومجانستِهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿يُعۡرَفۡنَ﴾:

يحتملُ أنْ تكونَ المعرفةُ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ على ظاهرِها، ويحتملُ أنْ تكونَ بمعنى التَّمييزِ مجازًا؛ لأنَّهُ المقصودُ[6]، أي: ذلكَ أدنى أنْ يُميَّزنَ من الإماءِ[7].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 412.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 142.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 115.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 265.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 399.
(6) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 184.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 115.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُعۡرَفۡنَ﴾:

المعرفةُ مستقبَلةٌ بالنِّسبةِ لزمنِ الإدناءِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾؛ لأنَّ المعرفةَ مستقبَلَةٌ بالنِّسبةِ لزمنِ الامتثالِ بإدناءِ الجلابيب، ولأنَّ الإدناءَ المُستمرَّ يترتَّبُ عليهِ التَّمييزُ المُستمِرُّ للحرائرِ من الإماءِ.

سرُّ بناءِ ﴿يُعۡرَفۡنَ﴾ للمفعولِ:

تعميمُ معرفةِ المؤمناتِ

عُبِّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾؛ لبيانِ أنَّ المقصودَ تميُّزهنَّ من الإماءِ دونَ التفاتٍ إلى العارفِ مَنْ هو، وفي ذلكَ تعميمٌ يناسبُ مقامَ الحرصِ على التَّسترِ؛ لإفادةِ الصّيغةِ تمييزَهنَّ من الإماءِ مِنْ كلِّ أحدٍ.

معنى الفاءِ في ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ للسَّببيَّةِ[1]، وهي تفيدُ تسبُّبَ عدمِ الإيذاءِ عن معرفتِهنَّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

عدمُ الإيذاءِ للمُدْنياتِ مستمرٌّ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قوله جلَّ ذِكرُهُ: ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ عدمَ الإيذاءِ المُترتِّبَ على المعرفةِ أمرٌ مستقبَلٌ بالنِّسبةِ لزمنِ الإدناءِ، ويحتملُ أنْ يكونَ للدِّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ الإيذاءِ للمُدْنياتِ عليهنَّ مِن جلابيبهنَّ.

دلالةُ بناءِ ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ للمفعولِ:

انتفاءُ الإيذاءِ مِنَ الجميعِ

عُبِّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قوله جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾؛ لبيانِ أنَّ مقصودَ الشّارعِ مِنَ الإدناءِ انتفاءُ وقوعِ الأذى لهنَّ، دونَ التفاتٍ لتعيينِ المُؤذي، وفي ذلكَ إشعارٌ بأنَّ الإيذاءَ مُنتفٍ مِنْ كلِّ أحدٍ.

بلاغةُ التَّذييلِ في ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾:

الإطماعُ بمغفرةِ اللهِ ورحمتِهِ

الواوُ في قوله تقدَّسَ ذِكرُهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ للاستئنافِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 412.

والجملةُ تذييلٌ، وقد اختيرَ فيهِ صفتا المغفرةِ والرَّحمةِ؛ ليكونَ فيهِ تنبيهٌ على الصَّفْحِ عمّا سبقَ مِنْ أذى الحرائرِ قبلَ تنبيهِ النّاسِ على هذا الأدبِ الإسلاميِّ[1]، وعلى الحضِّ على التَّوبةِ، والإطماعِ بالمغفرةِ والرَّحمةِ[2]، والعفوِ عمّا يُمكن أنْ يصدرَ عنهنَّ مِنَ الإخلالِ في أمرِ التَّستُّرِ[3].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بفعل الكينونة الماضي:

مغفرةُ اللهِ ورحمتُه أزليّتانِ

التَّعبير بفعل الكينونة الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يدلُّ على الدَّوام قبلُ وبعدُ، لا المُضيُّ فقط، وفيه إيذانٌ بأنَّ اتِّصافَهُ تعالى بالمغفرةِ والرَّحمةِ أزليٌّ، وهاتانِ الصِّفتانِ راسختانِ فيهِ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

ملاءمةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ التَّشريعِ

لمّا كانَ المقامُ لتشريعِ هذا الحُكمِ الرَّفيعِ، الَّذي فيهِ صيانةُ المؤمناتِ وحفظُهنَّ، وقد أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بتولّي تبليغِهِ للمذكوراتِ في الآيةِ بنفسِهِ؛ عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذا الحُكمَ صادرٌ من ذي العظَمةِ والجلالِ، الَّذي لهُ الكمالُ المُطلَقُ[5]، الحكيمُ فيما يَشْرعُ، الَّذي تجبُ طاعتُهُ، ولا تجوزُ مخالفتُهُ.

لطيفةُ التَّعبيرِ بصيغتَيْ (فَعولٍ) و(فعيلٍ):

مغفرةُ اللهِ ورحمتُه وسعتا كلَّ شيءٍ

لمّا كانَتْ مغفرةُ اللهِ تعالى ورحمتُهُ عظيمتَينِ شديدتَينِ، لا يُحيطُ بهما الوصفُ؛ جيءَ بصيغتَيْ (فَعولٍ) و(فعيلٍ) في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لما تدلُّ عليهِ هاتانِ الصّيغتانِ مِنَ المبالغةِ[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 107.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 399.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 480.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 412.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 412.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 265، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 81.

نُكْتَةُ تقديمِ المغفرةِ على الرَّحمةِ:

تقديمُ المُسبَّبِ على السَّببِ

قُدِّمتِ المغفرةُ على الرَّحمةِ في قوله تبارَكَ شأنُهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ غُفْرانَهُ تعالى للذُّنوبِ ومَحْوَهُ وإزالتَهُ لها نتيجةٌ لرحمتِهِ الَّتي وسِعَتْ كلَّ شيءٍ، كأنَّهُ قيلَ: وكانَ اللّهُ غفورًا؛ لأنَّهُ رحيمٌ، وأيضًا الرَّحمةُ أعمُّ مِنَ المغفرةِ؛ لأنَّها لا تقتصرُ على مَحْوِ الذُّنوبِ وسَتْرِها، فيكونُ ذلكَ مِنْ قبيلِ تقديمِ الخاصِّ على العامِّ، ثمَّ إنَّ التَّخليَةَ مُقدَّمَةٌ على التَّحْلِيَةِ؛ لأنَّ المغفرةَ سببٌ لرحماتٍ كثيرةٍ، بوصفها إنهاءً لغضب اللّه المترتِّب على الذَّنب.

سرُّ عدمِ ذِكْرِ مُتعلِّقٍ للمغفرةِ والرَّحمةِ:

وجوبُ السَّعي لتحصيلِ أسبابِ المغفرةِ والرَّحمةِ

لم يُذكَرْ مُتعلِّقٌ للصِّفتينِ في قوله سبحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ ليكونَ النّاسُ ساعينَ في تحصيلِ أسبابِ المغفرةِ والرَّحمةِ، ولإفادةِ سَعَةِ المغفرةِ والرَّحمةِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزَّوجةُ والمرأةُ:

مناسبةُ الأزواجِ لمقامِ الحرصِ على دفعِ الأذى عنهنَّ

جاءَتْ كلمةُ (زوجٍ) في الاستعمالِ القرآنيِّ في سياقِ النِّعمةِ والتَّوافقِ وحُسْنِ المُعاشرةِ، وفي سياقِ ذكرِ نساءِ المؤمنينَ، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة: 25]، وقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]؛ وذلكَ لِما في لفظِ الزَّوجِ في اللُّغةِ مِنَ الإشعارِ بالمجانسةِ والاقترانِ، واستُعمِلَتْ كلمةُ (امرأةٍ) في سياقِ الإخبارِ عن نساءِ أهلِ الشِّركِ، كقولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التّحريم: 11]، ففِرْعونُ كانَ مُشرِكًا، وامرأتُهُ كانَتْ مؤمنةً، فعَدَلَ القرآنُ عن لفظِ (زوجٍ) الدّالِّ على

التَّجانسِ والتَّشاكلِ، وعبَّرَ بلفظِ (امرأةٍ) الدّالِّ على مُجرَّدِ الأُنوثةِ؛ قطعًا للمشابهةِ والتَّجانسِ بينَ الكفّارِ والمؤمنينَ، وكذلكَ عبَّرَ القرآنُ بلفظِ (امرأةٍ)؛ إذا كانَ الرَّجلُ كافرًا والمرأةُ كافرةً، كما في حالِ أبي لَهَبٍ وامرأتِهِ في قولِه: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ [المسد: 4]؛ قطعًا للمشابهةِ في الوصفِ بينَ المؤمنينَ والكفّارِ، وأمّا قولُه تعالى على لسانِ زكريّا عليه السلام: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ [مريم: 5]، وقولُه عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ [الذاريات: 29]، فلأنَّ لفظَ (امرأةٍ) أنسبُ بسياقِ الحملِ والولادةِ المرتبطينِ بصفةِ الأُنوثةِ، ويناسبُها ذِكرُ كلمةِ (امرأةٍ) الدّالَّةِ عليها[1].

وقد اختيرَ لفظُ الأزواجِ في الآيةِ؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنَ التَّوافقِ وحُسْنِ المعاشرةِ بينَ الزَّوجينِ، وهو يناسبُ مقامَ الحرصِ على دفعِ الأذى عن أزواجِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فذلكَ مِنْ علاماتِ التَّوافقِ وحُسْنِ المعاشرةِ.

الدُّنوُّ والقُرْبُ:

الإدناءُ أنسبُ بدفعِ الأذى؛ لأنَّهُ يتضمَّنُ التَّغطيةَ والسَّتْرَ

الدُّنوُّ لا يكونُ إلّا في المسافةِ بينَ شيئَينِ، تقولُ: دارُهُ دانيةٌ، وأمّا القُرْبُ؛ فهو عامٌّ في ذلكَ وفي غيرِه، ولذلكَ تقولُ: قلوبُنا تتقاربُ، ولا تقولُ: تتدانَى[2]، وقد عُبِّرَ بالإدناءِ في الآيةِ؛ لما يُفيدُهُ مِنَ الإرخاءِ والسَّدْلِ، وتقريبِ الجلابيبِ بحيثُ تقِلُّ المسافةُ بينَها وبينَ الجسدِ، فتُغطّي البدنَ كلَّهُ أو الوجهَ، يقالُ إذا زلَّ الثَّوبُ عن وجهِ المرأةِ: أَدْني ثوبَكِ على وجهِكِ[3].

(1) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 278 - 280، وزيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن، ص: 596، والنّزهيّ، الفروق اللّغوية، ص: 40.
(2) النّزهيّ، الفروق اللّغويّة في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 184.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 560.

﴿۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ
فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠
مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ
خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: 60 - 62]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ الآياتِ لما قبلَها وجهانِ متقاربانِ:

ذِكْرُ حالِ المنافقِ المُسِرِّ بعدَ ذِكْرِ حالِ المُشركِ والمُجاهِرِ

أحدُهما: لَمّا ذكرَ ﷻ حالَ المُشرِكِ الَّذي يُؤذي اللّهَ ورسولَهُ، والمُجاهِرِ الَّذي يُؤذي المؤمنينَ؛ ذكرَ حالَ المُسِرِّ الَّذي يُظهِرُ الحقَّ، ويُضمِرُ الباطلَ، وهو المنافقُ[1].

التَّهديدُ بالعقابِ العاجلِ بعدَ التَّهديدِ بالعقابِ الآجلِ

والثّاني: الآياتُ انتقالٌ مِنْ زَجْرِ قومٍ عُرِفوا بأذى الرَّسولِ ﷺ والمؤمنينَ والمؤمناتِ، ومِنْ توعُّدِهم بغضبِ اللّهِ عليهم في الدُّنيا والآخرةِ، إلى تهديدِهم بعقابٍ عاجلٍ في الدُّنيا إنْ لم يُقلِعوا عن ذلكَ؛ لأنَّهُ لا ينفعُ في أولئكَ وعيدُ الآخرةِ؛ لأنَّهم لا يؤمنونَ بالبعثِ، وأولئكَ هم المنافقونَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنتَهِ﴾: (نهى) أصلٌ يدلُّ على غايةٍ وبُلوغٍ، ومنهُ: أنهيتُ إليهِ الخبرَ، أي: بلَّغتُهُ إيّاهُ، ونهايةُ كلِّ شيءٍ غايتُهُ، ويقالُ: نَهَيْتُهُ عن كذا، فإذا انتهَى؛ فذلكَ غايةُ ما كانَ وآخِرُهُ[3]، والنَّهيُ: الزَّجْرُ عنِ الشَّيءِ، والانتهاءُ: الانزجارُ عمّا نُهيَ عنهُ، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38][4]، وقولُهُ: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾ معناه: لئنْ لم يَكُفَّ[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 184، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 505.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 107.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهي).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نهي).
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 38.

2) ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ﴾: (رجف) أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ شديدٍ[1]، يقالُ: رَجَفَتِ الأرضُ؛ إذا تزلزلَتْ[2]، ورَجَفَ البحرُ، أي: اضطربَتْ أمواجُهُ[3]، ورَجَفَ القلبُ؛ إذا اضطربَ شديدًا مِنْ فَزَعٍ[4]، والإرجافُ: إيقاعُ الرَّجْفةِ[5]، والمرادُ بالمُرجِفينَ في الآيةِ: الَّذينَ كانوا يُلفِّقونَ أخبارَ السّوءِ، وينشرونَها بينَ المسلمينَ[6].

3) ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ﴾: (غرو - غري) أصلٌ صَحيحٌ، وهو يدُلُّ على الإعجابِ والعجَبِ لِحُسنِ الشَّيْءِ، من ذلكَ الغريُّ، وهو الحسنُ[7]، يقالُ: أُغريَ بكذا، وغَريَ بهِ؛ إذا أولِعَ بهِ[8]، ولزمَهُ مِنْ حيثُ لا يحملُهُ عليهِ حاملٌ[9]، وأصلُ ذلكَ مِنَ الغِراءِ، وهو ما يُلصَقُ بهِ[10]، والإغراءُ: الإيلاعُ[11]، وقولُهُ تعالى: ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾، أي: لَنُسَلِّطَنَّكَ عليهِم تسليطًا بليغًا[12].

4) ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾: (جور) الجارُ: مَنْ يَقْرُبُ مَسْكَنُهُ منكَ[13]، ولمّا استُعظِمَ حقُّ الجارِ عقلًا وشرعًا، عُبِّرَ عن كلِّ مَنْ يَعْظُمُ حقُّهُ، أو يستَعْظِمُ حقَّ غيرِهِ بالجارِ، وتُصوِّرَ مِنَ الجارِ معنى القُرْبِ، فقيلَ لِمَنْ يَقْرُبُ مِنْ غيرِهِ: جارُهُ[14]، وقولُهُ: ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ معناهُ: لا يسكنونَ معَكَ فيها إلّا قليلًا، ثمَّ تخلو المدينةُ منهُم بالموتِ أو الإخراجِ[15].

5) ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾: (لعن) أصلٌ يدلُّ على إبعادٍ وطَرْدٍ[16]، واللَّعْنُ: الطَّرْدُ والإبعادُ على سبيلِ السُّخْطِ، وذلكَ مِنَ اللّهِ تعالى في الآخرةِ عقوبةٌ، وفي الدُّنيا انقطاعٌ مِنْ قبولِ رحمتِهِ وتوفيقِهِ، ومِنَ الإنسانِ دعاءٌ على غيرِهِ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رجف).
(2) الخليل، العين: (رجف).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (رجف).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (رجف).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (رجف).
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 37.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرو).
(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غري).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (غري).
(10) الرّاغب، المفردات: (غري).
(11) الخليل، العين: (غري).
(12) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (غري)، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 38.
(13) الخليل، العين: (جور).
(14) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جور).
(15) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 38.
(16) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعن).

18]، والتَّلاعنُ والملاعنةُ: أنْ يلعنَ كلُّ واحدٍ منهما نفسَهُ أو صاحبَهُ[1]، وقولُهُ: ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾ في الآية، أي: مُبْعَدينَ مِنْ رحمةِ اللّهِ[2].

6) ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾: (ثقف) أصلٌ يدلُّ على الإتقانِ والإحكامِ[3]، ومنه قيل: رجلٌ ثَقِفٌ، أي: حاذقٌ في إدراكِ الشَّيءِ وفعلِهِ[4]، ويقالُ: ثَقِفْتُ كذا؛ إذا أدركتَهُ ببصرِكَ لحِذْقٍ في النَّظرِ، ثمَّ يُتجوَّزُ به، فيُستعمَلُ في الإدراكِ، وإنْ لم تكنْ معَهُ ثقافةٌ، قال تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ [البقرة: 191][5]، والثَّقْفُ في الآيةِ: الظَّفَرُ والعُثُورُ على العدوِّ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عاقبةُ النِّفاقِ الطَّرْدُ والأسْرُ والتَّقتيلُ

لَئِنْ لم ينتهِ أهلُ النِّفاقِ الَّذينَ يُبطِنونَ الكفرَ، ويُظهِرونَ الإيمانَ، والَّذينَ في قلوبِهم شكٌّ وريبةٌ، والَّذينَ يأتونَ بالأخبارِ الكاذبةِ في المدينةِ؛ لَنُسَلِّطَنَّكَ عليهِم، ثمَّ لننفينَّهم عن المدينةِ، فلا يسكنونَ معَكَ فيها إلّا قليلًا مِنَ الزَّمنِ، ثمَّ تُخرِجُهم منها مطرودينَ، حيثُما وُجِدوا؛ أُسِروا، وقُتِّلوا تقتيلًا، وهذهِ سنَّةُ اللّهِ الجاريةُ في المنافقينَ؛ إذا أظهروا النِّفاقَ، وسنَّةُ اللّهِ ثابتةٌ لا تتغيَّرُ[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

تهديدُ المنافقينَ بعاجلِ النَّكالِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[8]، وفائدتُهُ: تهديدُ المنافقينَ بأمرٍ ظاهرٍ، وهو إجلاؤُهم مِنْ ديارِهم وأرضِهم، وأخْذُهم أخذًا شديدًا بالأسْرِ

(1) الرّاغب، المفردات: (لعن)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (لعن).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 59.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ثقف).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (ثقف).
(5) الرّاغب، المفردات: (ثقف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 110.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 326 - 329، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 632.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 108.

والقتلِ، وهذا عذابٌ دنيويٌّ، وهو أوجعُ بالنِّسبةِ إلى هؤلاءِ الَّذينَ لا تُعْمَرُ قلوبُهم بالإيمانِ بالغيبِ، والخوفِ من عذابِ الآخرةِ[1].

معنى اللّامِ في ﴿لَّئِن﴾:

الوعدُ بالقَسَم تحقيقٌ لتهديدِ المنافقينَ

اللّامُ في ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ موطِّئةٌ للقَسَم، والكلامُ بعدَها قَسَمٌ محذوفٌ، والتَّقديرُ: (وعزَّتي لَئِنْ لم يَنْتَهِ المنافقونَ ...)[2]، وفي اللّام إشارةٌ إلى تحقيق الخبر وحتميَّة وقوعه في حال عدم الانتهاء.

نُكْتَةُ التَّأكيدِ في ﴿لَّئِن﴾:

تهديدُ المنافقينَ قطعٌ لأمل الصَّبر عليهم

جيءَ بالقَسَم المُقدَّر المُعبَّر عنه باللّام في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾؛ لتأكيدِ تهديدِ المنافقينَ، وتفظيعِ شأنِه[3]، ولئلّا يَظُنّوا أنَّهُ تعالى يَحْلُمُ عنهُم[4]، فيزدادوا في غيِّهم وضلالِهم وإيذائِهم للنَّبيِّ ﷺ والمؤمنينَ والمؤمنات.

سرُّ التَّعبيرِ بـ(إنْ) دونَ (إذا):

انتهاءُ المنافقينَ مشكوكٌ فيهِ

عُبِّرَ بـ(إنْ) في قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ دونَ (إذا)؛ لأنَّ (إنْ) تُستعمَلُ في الأمرِ النّادرِ المشكوكِ فيه، غيرِ المقطوعِ به، فتفيدُ أنَّ انتهاءَ المنافقينَ أمرٌ مشكوكٌ فيهِ بحسَبِ ما عُرِفَ مِنْ طِباعِهم، وأنَّهم مُستمِرّونَ على ما هم عليهِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

الانتهاءُ مطلوبٌ فيما يأتي

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قوله ﷻ: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾؛ لأنَّ (إنْ) للشَّرطِ في الاستقبالِ، ولذلكَ تكونُ كلٌّ مِنْ جملتَي الشَّرطِ والجوابِ فعليَّتَين استقباليَّتَين؛ لأنَّ الشَّرطَ مفروضُ الحصولِ في الاستقبالِ، والجزاء حصولُهُ مُعلَّقٌ على حصولِ الشَّرطِ في

(1) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 396.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 109.
(3) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 396.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 413.

الاستقبالِ[1]؛ ولذلكَ عُبِّرَ بالمضارعِ في ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ﴾ أيضًا، وهو جوابُ القَسَمِ الدّالُّ على جوابِ الشَّرطِ.

لطيفةُ حذفِ مفعولِ ﴿لَّمۡ يَنتَهِ﴾:

المطلوبُ الانتهاءُ عن الإيذاءِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾؛ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، أي: لئنْ لم ينتهوا عن أذى الرَّسولِ والمؤمنينَ[2]، أو عمّا هم عليهِ مِنَ النِّفاقِ وأحكامِهِ الموجِبةِ للإيذاءِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالنِّفاقِ وتعريفِ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ وجمعه:

المنافقونَ خارجونَ مِنَ الشَّرعِ، والتهديدُ يشملهم جميعًا

تدلُّ مادَّةُ (نفق) في الأَصلِ على الخروجِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: قد نافقَ اليربوعُ، ونفقَ، ومنهُ: النِّفاقُ، وهو الدُّخولُ في الشَّرعِ مِنْ بابٍ، والخروجُ عنهُ مِنْ بابٍ[4]، فتفيدُ كلمةُ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ في قوله عزَّ شأنُهُ: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾: أنَّ المنافقينَ خارجونَ مِنَ الشَّرعِ، وأنَّهم لم يدخلوا فيهِ إلّا بحسَبِ الظّاهرِ؛ حفظًا لدمائِهم وأموالِهم، ومجيءُ لفظِ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ مُعرَّفًا مجموعًا؛ للدّلالةِ على عموم التَّهديدِ لكلِّ المنافقينَ، وأنَّهم جميعًا مُطالَبونَ بالكفِّ عن الإيذاءِ، بدلالة جنسيَّة (أل)، وقد تكون عهديَّة، ويُراد بهم منافقون مخصوصون، عُرِفوا بأذاهم للّه ورسوله.

لطيفةُ اسمِ الفاعلِ في ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾:

المنافقونَ راسخونَ في النِّفاقِ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ المنافقينَ لهُم قَدَمُ سَبْقٍ في سبيلِ النِّفاقِ، وأنَّهم قد أُشْرِبوا حُبَّ النِّفاقِ في قلوبِهم، حتَّى صارَ صفةً مِنْ صفاتِهم الرّاسخةِ، الَّتي لا تتغيَّرُ، ولا تتبدَّلُ.

(1) التّفتازانيّ، المختصر، ص: 276.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 108.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 115.
(4) الرّاغب، المفردات: (نفق).

نُكْتَةُ عطفِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ﴾:

جمعُ المنافقينَ للصِّفاتِ القبيحةِ

إمّا أنْ يُرادَ بالمنافقينَ والمِراضِ والمُرجِفينَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ﴾ قومٌ مخصوصونَ، ويكونَ العطفُ لتغايرِ الصِّفاتِ مَعَ اتّحادِ الذّاتِ، وفي ذلكَ إشعارٌ بتميُّزِهم بكلِّ صفةٍ مِنْ هذهِ الصِّفاتِ، أو يُرادَ بهم أقوامٌ مختلفونَ في الذَّواتِ والصِّفاتِ، فعلى الأوَّلِ: تكونُ الصِّفاتُ الثّلاثُ للمنافقينَ، ويُؤيِّدُهُ ما عُرِفَ مِنْ وصفِهم بالَّذينَ في قلوبِهم مَرَضٌ في أوَّلِ سورةِ البقرةِ، وأنَّ الأراجيفَ بالمدينةِ أكثرُها منهُم، لكنَّهُ لا يوافقُ ما ذُيِّلَ بِهِ مِنَ الوعيدِ بالإجلاءِ والقتلِ، فإنَّهُ لم يقعْ للمنافقينَ، وعلى الثّاني: هم المنافقونَ، وقومٌ ضِعافُ الدّينِ، كالمُؤلَّفةِ قلوبُهم أو الفَسَقةِ وأهلِ الفُجورِ، والأوَّلُ أصحُّ؛ لأنَّهُ لم يكنِ الثّاني في صدرِ الإسلامِ، والمُرجِفونَ اليهودُ الَّذينَ كانوا مجاورينَ لهُم بالمدينةِ، وقد وقعَ القتالُ والإجلاءُ لِمَنْ لم ينتهِ منهُم[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

مَـرَضُ القلبِ سببُ الذُّلِّ والهَوانِ

جيءَ بالاسمِ الموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾؛ للتَّسجيلِ على المنافقينَ بمَرَضِ القلبِ، وبيانِ اشتهارِهم بذلكَ بينَ النّاسِ، فلا يُحتاجُ إلى التَّصريحِ بذكرِهم، وفي التَّعبيرِ بالموصولِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ ما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو مَرَضُ القلبِ - علَّةُ التَّهديدِ بالإخراجِ مِنَ الدّيارِ والأسْرِ والتَّقتيلِ.

معنى ﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾:

قلوبُ المنافقينَ أوعيةٌ للنِّفاقِ

حرفُ الجرِّ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ للظَّرفيَّةِ، وهو يفيدُ أنَّ قلوبَ المنافقينَ أوعيةٌ للنِّفاقِ، وأنَّ هذا الدّاءَ العُضالَ قدِ اختلطَ بكلِّ جزءٍ مِنْ قلوبِهم، واتَّخذَهُ مَسْكَنًا.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 184.

سرُّ التَّعبيرِ بالقلوبِ دونَ الأفئدةِ:

قلوبُ المنافقينَ محلُّ الكفرِ

عُبِّرَ بالقُلوبِ دونَ الأفئدةِ في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ لأنَّ الأفئدةَ مواضعُ العواطفِ والهوى، والقلوبَ مواضعُ العقلِ واليقينِ والوَحْيِ والدِّينِ والاعتقادِ، وهي المناسبةُ للسّياقِ هنا؛ لأنَّهُ للحديثِ عمّا في قلوبِهم مِنَ الاعتقادِ الفاسدِ - وهو الكفرُ - وإنْ أظهَروا خلافَهُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمَرَضِ:

المرضُ مجازٌ عنِ الأعراضِ النَّفسانيَّةِ المُخِلَّةِ بالأخلاقِ

المَرَضُ في الحقيقةِ: عارضٌ للمِزاجِ يُخرِجُهُ عنِ الاعتدالِ الخاصِّ بنوعِ ذلكَ الجسمِ خروجًا غيرَ تامٍّ، وبمقدارِ الخروجِ يشتدُّ الألمُ، فإنْ تمَّ الخروجُ؛ فهو الموتُ، وهو مجازٌ في الأعراضِ النَّفْسانيَّةِ العارضةِ للأخلاقِ البشريَّةِ، عُروضًا يُخرِجُها عن كمالِها، وإطلاقُ المَرَضِ على هذا شائعٌ في كلامِ العربِ، والمرادُ بالمَرَضِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو معناهُ المجازيُّ؛ لأنَّهُ هو الَّذي اتَّصفَ بهِ المنافقونَ، وهو المقصودُ مِنْ ذمِّهم وبيانِ منشأِ مَساوي أعمالِهم[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

مرضُ النِّفاقِ عظيمٌ خطيرٌ

جيءَ بلفظِ المرضِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نكرةً؛ لإفادةِ تفخيمِهِ وتعظيمِهِ، وأنَّهُ جاوزَ الحدَّ في شناعتِهِ، أي: في قلوبِهم مَرَضٌ أيُّ مَرَضٍ، هو أشدُّ فَتْكًا مِنْ أمراضِ الأبدانِ، ويحتملُ أن يكونَ التَّنكيرُ للتَّنويعِ، أي: في قلوبِهم نوعٌ مِنَ المرضِ غيرَ ما يتعارفُهُ النّاسُ، وهو مرضُ الكفرِ والنِّفاقِ، وما ينتجُ عنهما مِنَ العِلَلِ النَّفسيَّةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

مَرَضُ النِّفاقِ مُستمِرٌّ مُزمِنٌ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ولم يقل مثلًا: (مَرِضَتْ قلوبُهم)؛ للدِّلالةِ على استمرارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 279.

مَرَضِهم وثباتِه، وشدَّةِ تمكُّنِه مِنْ قلوبِهم، إلّا مَنْ شاءَ اللّهُ لهُ الهدايةَ بعدَ ذلكَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإرجافِ:

غايةُ المُرجِفينَ الفِتْنةُ والاضطرابُ

المُرجِفونَ المذكورونَ في قولِهِ سبحانه: ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ ناسٌ كانوا يُرجِفونَ بأخبارِ السّوءِ بينَ المسلمينَ، ومِنْ ذلكَ إرجافُهم بأخبارٍ كاذبةٍ عن سرايا رسولِ اللّهِ ﷺ، فيقولونَ: هُزِموا، وقُتِلوا، وجرى عليهم كيتَ وكيتَ، فيُرهِبونَ بذلكَ قلوبَ المؤمنينَ، وأصلُ هذهِ الكلمةِ مِنْ: أرجفَ بكذا؛ إذا أخبرَ بهِ على غيرِ حقيقةٍ؛ لكونِهِ خبرًا مُتزلزِلًا غيرَ ثابتٍ، مِنَ الرَّجْفة، وهي الزَّلزلةُ[1]، وفي التَّعبيرِ بهِ إشارةٌ إلى كونِ الأخبارِ كاذبةً أو مُسيئةً[2].

نُكْتَةُ تعريفِ ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ﴾ وجمعِهِ:

الوعيدُ شاملٌ لكلِّ مُرجِفٍ

جيءَ بلفظِ المُرجفينَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ مُعرَّفًا مجموعًا؛ للتَّنبيهِ على شمولِ التَّهديدِ والتَّخويفِ لكلِّ مُرجِفٍ يُشيعُ خبرًا مِنْ أخبارِ السّوءِ في الجماعةِ المُسلِمةِ، وسواءٌ في ذلكَ ما يتَّصلُ بكيانِها الأخلاقيِّ، أو قوَّتِها في أيِّ مَظْهَرٍ مِنْ مظاهرِها[3].

دلالةُ اسمِ الفاعلِ في ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ﴾:

الإرجافُ دَأْبُ المنافقينَ

لمّا كانَ دَيْدَنُ المنافقينَ إضعافَ المسلمينَ وكَسْرَ شوكتِهم بشتَّى الطُّرُقِ والوسائلِ، وكانَتِ الأراجيفُ والأكاذيبُ مِنْ أسلحتِهم الَّتي يستعملونَها لتحقيقِ هذهِ الغايةِ الدَّنيئةِ؛ عُبِّرَ في قولِهِ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ للدِّلالةِ على أنَّ لهُم في إشاعةِ الأكاذيبِ نَسَبًا عريقًا، وأنَّهم قد ضَرِيَتْ نفوسُهم بذلكَ، حتَّى صارَ مِنْ سجاياهم وطِباعِهم، الَّتي تمتزجُ بلَحْمِهم ودمِهم، ولا يُرجَى انفكاكُهم عنها.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 561.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 108.

(3) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 396.

معنى ﴿فِى﴾ في قوله: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾:

المدينةُ محلُّ أراجيفِ المنافقين

حرفُ الجرِّ ﴿فِى﴾ في قولِ الباري جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ للظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، وفيهِ دلالةٌ على أنَّ المدينةَ كانَتْ محلَّ أراجيفِ هؤلاءِ المنافقينَ وأكاذيبِهم؛ لأنَّهم كانوا يريدونَ تقويضَ دعائمِ الإسلامِ فيها، بوصفها نواةَ دولتِه، ومنطلقَ امتدادِهِ ونشرِه.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾:

المدينةُ عندَ الإطلاقِ، هي مدينةُ رسولِ اللهِ ﷺ

تعريفُ ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ للغلبة؛ إذِ المرادُ بها عندَ الإطلاقِ مدينةُ رسولِ اللّهِ ﷺ خاصَّةً، وقد غلبَتْ عليها تفخيمًا لها، وإعلاءً لشأنها، بما شرَّفَها اللّهُ وصانَها[1].

غرضُ التَّوكيدِ في ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾:

الإغراءُ بالمنافقينَ حاصلٌ يقينًا

اللّامُ في ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ لامُ جوابِ القَسَمِ، الدّالِّ على جوابِ الشَّرطِ[2]، وفي الإتيانِ بها وبنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ توكيدٌ للإغراءِ وتحقيقٌ لهُ، وإشعارٌ بأنَّهُ قابُ قوسينِ أو أدنى، وذلكَ يناسبُ مقامَ الوعيدِ والتَّهديدِ الشَّديدين.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإغراءِ:

الإغـراءُ مجازٌ عن الأمرِ بفعلِ الأفاعيلِ بهم

في قوله ﷻ: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ مجازٌ لطيفٌ، وذلكَ أنَّ معناهُ: لَنَأمُرَنَّكَ بأنْ تعاقبَهم، وتفعلَ بهم الأفاعيلَ الَّتي تسوؤُهم، ثمَّ بأنْ تضطرَّهم إلى طلبِ الجَلاءِ عن المدينةِ، وإلى ألّا يُساكنوكَ فيها إلّا زمنًا قليلًا، فسُمّيَ ذلكَ الأمرُ إغراءً - وهو التَّحريشُ - على سبيلِ المجازِ المُرسَلِ[3]؛ إذِ الإغراءُ مُستلزِمٌ للأمرِ، والدّاعي إلى المجازِ بيانُ الاهتمامِ بالأمرِ[4].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (مدن).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 109.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 561.

(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 422، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 421.

لطيفةُ إسنادِ الإغراءِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

شأنُ الإغراءِ عظيمٌ

أُسنِدَ الإغراءُ في قولِ اللّهِ جلَّتْ قدرتُهُ: ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾ إلى نونِ العظَمةِ؛ لتفخيم شأنِهِ وتهويلِهِ، ببيانِ أنَّ الَّذي يتولّاهُ هو القادرُ العظيمُ ﷻ، وفي ذلكَ فَتٌّ مِنْ عَضُدِ المنافقينَ، وخلقٌ للمَهابةِ وزرعٌ للرَّهبةِ في نفوسِهم، وما يعلمُ جنودَ ربِّك إلّا هو.

معنى الباءِ في ﴿بِهِمۡ﴾:

الإغراءُ مُلابِسٌ للمنافقينَ

الإغراءُ: الحثُّ والتَّحريضُ على فعلٍ، ويتعدَّى فعلُهُ بحرفِ (على) وبالباءِ، والأكثرُ أنَّ تعديتَهُ بـ(على) تفيدُ حثًّا على الفعلِ مُطلَقًا في حدِّ ذاتِهِ، وأنَّ تعديتَهُ بالباءِ تفيدُ حثًّا على الإيقاعِ بشخصٍ؛ لأنَّ الباءَ للملابَسةِ، فالمُغرَى عليهِ مُلابِسٌ لذاتِ المجرورِ بالباءِ، أي: واقعٌ عليها، فلا يقالُ: أغراهُ بهِ؛ إذا حرَّضَهُ على إحسانٍ إليهِ، فمعنى ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾: لَنُغْرِيَنَّكَ بعقوبتِهم، أي: بأنْ تُغريَ المسلمينَ بهِم[1].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ وسرُّ إيثارِها:

عاقبةُ عدمِ الانتهاءِ خَطْبانِ عظيمانِ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطفٌ على ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ﴾، ولم يُعطَفْ عليهِ بالفاءِ؛ لأنَّهُ ليسَ مُسبَّبًا عنهُ، ولكنَّهُ جُعِلَ جوابًا آخرَ للقَسَمِ معطوفًا على الأوَّلِ، كأنَّهُ قيلَ: (لئنْ لم يَنْتَهِ المنافقونَ؛ لَيَحْصُلَنَّ لهُم خَطْبانِ عظيمانِ)، وإنَّما عُطِفَ بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ الجَلاءَ عن الأوطانِ كان أعظمَ عليهم مِنْ جميعِ ما أُصيبوا بهِ، فتراخَتْ حالُهُ عن حالِ المعطوفِ عليهِ[2]، فـ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتَّفاوتِ الرُّتَبيِّ[3].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾:

قُربُ إجلاءِ المُصرّينَ على ما هم عليهِ

لمّا كان في قوله تعالى: ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مُكْثَ المُصِرّينَ على ما هم عليهِ لن يدومَ طويلًا بعدَ الإغراءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 109.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 561، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 482.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 422.

بهِم، وأنَّ إجلاءَهم ونفيَهم قدِ اقتربَ؛ ولذلك جيءَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ الدّالَّةِ على ذلكَ.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿فِيهَآ﴾:

لا قرارَ في المدينةِ للمنافقين المصرّين

الضَّميرُ المجرورُ في قوله تعالى: ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ للمدينةِ[1]، أي: لا يجاورونَكَ في المدينةِ إلّا قليلًا، فخلاصُها منهم سبيلُ إرساءِ أُسسِ دولة قويَّة، وبناءِ سلامٍ اجتماعيٍّ بعيدٍ عن النِّفاق والإرجاف وزعزعةِ الأمن والاستقرار.

إعرابُ ﴿قَلِيلًا﴾:

مآلُ النِّفاقِ إلى قلَّةٍ وذلَّةٍ

يحتملُ ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النَّصبَ على الحالِ مِنَ الضَّميرِ في ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾، أي: لا يجاورونكَ إلّا أقِلّاءَ أذِلّاءَ، فكانَ الأمرُ كما قالَ ﷻ؛ لأنَّهم لم يكونوا إلّا أقلّاءَ[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى: إلّا وقتًا قليلًا، أي: لا يَبْقَونَ معكَ إلّا مدَّةً يسيرةً، أي: لا يجاورونَكَ فيها إلّا جِوارًا قليلًا حتَّى يهلكوا، فيكونُ نعتًا لمصدرٍ أو ظرفٍ محذوفٍ[3].

بلاغةُ الاستثناءِ:

إظهارُ قوَّةِ شَوْكةِ النَّبيِّ عليه السلام

في الاستثناءِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لطيفةٌ، وهي أنَّ اللّهَ تعالى وعدَ النَّبيَّ عليه السلام أن يُخرِجَ أعداءَهُ مِنَ المدينةِ، ويَنفيَهم على يدِهِ؛ إظهارًا لشَوْكتِه، ولو كانَ النَّفيُ بإرادةِ اللّهِ مِنْ غيرِ واسطةِ النَّبيِّ؛ لأخلَى المدينةَ عنهُم، بقولِه: كُنْ، فيكونُ، ولكنْ لمّا أرادَ اللّهُ أنْ يكونَ على يدِ النَّبيِّ، لا يقعُ ذلكَ إلّا بزمانٍ وإنْ لَطُفَ، فقال: ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهو أنْ يتأهَّبوا للخروجِ[4].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 238، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 46.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 247.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 247.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 184.

توجيهُ إعرابِ ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾:

لـزومُ اللَّعْنةِ للمنافقينَ

نُصِبَ قولُهُ: ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾ على الذَّمِّ[1]، أي: أذمُّ ملعونينَ[2]، أو على الحالِ، أي: لا يُجاورونَكَ إلّا ملعونينَ[3]، أي: في ذلكَ القليلِ الَّذي يُجاورونَكَ فيهِ يكونونَ ملعونينَ مطرودينَ مِنْ بابِ اللّهِ وبابِكَ، وإذا خرجوا؛ لا ينفكّونَ عنِ المَذَلَّةِ[4].

علَّةُ فصلِ ﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ عمّا قبلَهُ:

الطَّرْدُ لا يُنجي المنافقينَ مِنَ القتلِ

أخبرَ ﷻ بقولِه: ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾ أنَّ المنافقينَ يُطرَدونَ؛ إنْ لم يَنْتَهوا، ولمّا كانَ المطرودُ قد يُترَكُ بعدَ طَرْدِهِ؛ بيَّنَ جلَّ ذِكْرُهُ أنَّهم على غيرِ ذلكَ، فقالَ مستأنفًا: ﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾[5]، بفصلِ الجملةِ عمّا قبلَها، وفي هذا الاستئنافِ مزيدُ تخويفٍ وتهديدٍ لهُم؛ لعلَّهم يَرْعَوونَ، وينزجرونَ عمّا هم عليهِ مِنَ الأفعالِ الذَّميمةِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَيۡنَمَا﴾:

أمكِنةُ المدينةِ كلُّها محلُّ قتلٍ للمُهدَّدينَ

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَيۡنَمَا﴾ ظرفٌ مضافٌ إلى جملةِ ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾، على أنَّ ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾ حالٌ منهُم بعدَ صفتِهم بأنَّهم في المدينةِ، فأفادَ عمومَ أمكنةِ المدينةِ، وأنَّهُ ليسَ فيها مكانٌ يأمنونَ فيهِ، بل المدينةُ كلُّها رُعْبٌ ومَخافةٌ لهُم، و﴿أَيۡنَمَا﴾: اسمُ زمانٍ مُتضمِّنٌ معنى الشَّرطِ[6].

إعرابُ جملةِ ﴿أُخِذُواْ﴾:

﴿أَيۡنَمَا﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ اسمُ زمانٍ مُتضمِّنٌ معنى الشَّرطِ[7]، وقولُهُ: ﴿أُخِذُواْ﴾ بمنزلةِ جوابِ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 328.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 422.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 561.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 184.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 414.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 110.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 110.

الشَّرطِ، والكلامُ يُفيدُ ترتُّبَ الأخذِ على الثَّقْفِ ترتُّبًا سريعًا، لا انفكاكَ فيه.

نُكْتَةُ عطفِ التَّقتيلِ على الأخذِ:

المنافقونَ بينَ مِطْرقةِ الأخذِ وسِنْدانِ التَّقتيلِ

عُطِفَ التَّقتيلُ على الأخذِ في قولِه جلَّتْ قدرتُه: ﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما يُلاقونَهُ ليسَ الأخذَ فقط، بل يلاقونَ التَّقتيلَ أيضًا، وفي الجمعِ بينَهما بثٌّ للرُّعْبِ والخوفِ، يناسبُ مقامَ التَّخويفِ والتَّهديدِ.

غرضُ تقديمِ الأخذِ على التَّقتيلِ:

قُدِّمَ الأخذُ على التَّقتيلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ﴾؛ لأنَّ الأَسْرَ يسبقُ التَّقتيلَ عادةً.

دلالةُ صيغةِ التَّفعيلِ:

التَّهديدُ بالإثخانِ في القتلِ أنسبُ للتَّرهيب

جيءَ بصيغةِ التَّفعيلِ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَقُتِّلُواْ﴾؛ للتَّكثيرِ والمبالغةِ في فعلِ القتلِ[1]، والدِّلالةِ على قوَّتِه، فالشَّيءُ الكثيرُ قويٌّ في أصنافِ نوعِه، وأيضًا هو شديدٌ في كونِه سريعًا، لا إمهالَ لهُم فيه[2]، وذلك أنسب لمقام التَّرهيب والرَّدع.

سرُّ بناءِ الأفعالِ للمفعولِ:

الثَّقْفُ والأخذُ والتَّقتيلُ يأتي مِن كلِّ جانبٍ

بُنِيَتِ الأفعالُ في قولِه ﷻ: ﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ﴾ للمفعولِ؛ لأنَّ هذهِ الصّيغةَ توحي في هذا السّياقِ بشيءٍ مِنَ الرَّهْبةِ والخوفِ، وكأنَّهم يُختطَفونَ مِنْ حيثُ لا يشعرونَ[3]، فلا يُدرَى فاعلُ ذلكَ بهِم، أو لا يُكترَثُ بتعيينِه؛ لشيوعِ إيقاعِ هذهِ الأفعالِ بهِم.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿تَقۡتِيلٗا﴾:

التَّقتيلُ فظيعٌ شديدٌ شاملٌ

﴿تَقۡتِيلٗا﴾ في قولِه تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ مصدرٌ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 46، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 414.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 110.

(3) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 398.

مُؤكِّدٌ لعاملِه[1]؛ بُغْضًا لهُم، وإرهابًا لهُم[2]، أي: قُتِّلوا قتلًا شديدًا شاملًا، فالتَّأكيدُ هنا تأكيدٌ لتسلُّطِ القتلِ على جميعِ الأفرادِ المدلولةِ لضميرِ ﴿وَقُتِّلُواْ﴾؛ لرفعِ احتمالِ المجازِ في عمومِ القتلِ، فالمعنى: قُتِّلوا قتلًا شديدًا، لا يُفلِتُ منهُ أحدٌ، وبهذا الوعيدِ انكفَّ المنافقونَ عن أذى المسلمينَ وعنِ الإرجافِ، فلم يقعِ التَّقتيلُ فيهِم؛ إذ لم يُحفَظْ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قتلَ منهُم أحدًا، ولا أنَّهم خرجَ منهُم أحدٌ[3]، وإنَّما فعلَ ذلكَ بأعداءِ الإسلامِ مِنَ اليهودِ.

إعرابُ قولِه: ﴿سُنَّةَ﴾ ونُكْتَةُ التَّعبيرِ بِه:

إهلاكُ المُكذِّبينَ سنَّةُ اللهِ تعالى في الأرضِ

قولُهُ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في موضعِ مصدرٍ مُؤكِّدٍ، أي: سنَّ اللهُ في الَّذينَ يُنافقونَ الأنبياءَ أنْ يُقتَّلوا حيثُما ثُقِفوا[4]، فحُذِفَ الفعلُ، وأُضيفَ المصدرُ إلى الفاعلِ[5]، وفي التَّعبيرِ بلفظِ السُّنَّةِ إشارةٌ إلى أنَّ ذلكَ ليسَ بِدْعًا، بل هو سُنَّةٌ جاريةٌ، وعادةٌ مُستمِرَّةٌ تُفعَلُ بالمُكذِّبينَ[6].

لطيفةُ الإضافةِ في ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾:

تفظيعُ شأنِ إهلاكِ الظَّالمينَ

لمّا كانَ إهلاكُ الظّالمينَ والمُكذِّبينَ أمرًا عظيمًا لا يَقدِرُ عليهِ إلّا ذو العِزَّةِ الَّذي لا يُغالَبُ، ولا يُرَدُّ بأسُهُ عن القومِ المجرمينَ؛ أُضيفَتِ السُّنَّةُ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾؛ لتعظيمِ هذهِ السُّنَّةِ، بأنَّها سنَّةُ المُتَّصفِ بكمالِ العظَمةِ[7]، ولذلكَ اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِه في هذا المقامِ.

معنى ﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾:

تغلغلُ سنَّةِ اللهِ في المُعذَّبينَ

حرفُ ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 422.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 414.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 110.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 561.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 423.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 184.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 414.

﴿قَبۡلُۚ﴾ للظَّرفيَّةِ المجازيَّةِ، شُبِّهَتِ السُّنَّةُ الَّتي عوملوا بها بشيءٍ في وسطِهم؛ كنايةً عن تغلغلِه فيهم، وتناولِه جميعَهم، ولو جاءَ الكلامُ على غيرِ المجازِ؛ لقيلَ: سنَّةَ اللهِ معَ الَّذينَ خَلَوا مِنْ قبلُ[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

عمومُ الاستئصالِ للمُكذِّبينَ

المرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾: مَنْ سَبَقوا مِنْ أعداءِ النَّبيِّ ﷺ، الَّذينَ أذِنَ اللهُ بقتلِهم، كالَّذينَ قُتِلوا مِنَ المشركينَ ومِنْ يهودِ قُريظةَ؛ لأنَّ ما أصابَ هؤلاءِ أوقعُ في الموعظةِ؛ إذ كانَ هذانِ الفريقانِ على ذكْرٍ مِنَ المنافقينَ، وقد شَهِدوا بعضَهم، وبلغَهم خبرُ بعضٍ، ويحتملُ أيضًا أنْ يشملَ الكلامُ الأممَ السالفةَ الَّتي غَضِبَ اللهُ عليها؛ لأذاها رُسُلَها، فاستأصلَهم اللهُ تعالى، كقومِ فرعونَ وأضرابِهم[2]، وفي التَّعبيرِ بالموصولِ دلالةٌ على العمومِ المناسبِ لسياقِ الوعيدِ والتَّهديدِ، وإيجازٌ يُغني عن تعيينِ المرادِ بهم، وفيهِ إشارةٌ إلى عدمِ الاكتراثِ بتعينِهم؛ فسنَّةُ اللهِ جاريةٌ، بصرفِ النَّظرِ عمَّنْ تَجْري عليهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿خَلَوۡاْ﴾ ماضيًا:

انقضاءُ أيّامِ المُعذَّبينَ وأعمارِهم

جيءَ بالفعل ﴿خَلَوۡاْ﴾ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾؛ للدِّلالةِ على انقضاءِ وقائعِهم وأعمارِهم[3]، بحيثُ لم يبقَ منهُم إلّا بقايا آثارٍ لمساكنِ بعضِهم، وعُبِّرَ بصيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ الخُلُوِّ وتيقُّنِه، وأنَّهُ أمرٌ لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وذلكَ أنسبُ بمقامِ التَّهديدِ والوعيدِ، والحثِّ على أخذِ الموعظةِ والعِبْرةِ.

نُكْتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾:

جيءَ بقولِه ﷻ: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ تعذيبَهم وقتلَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 111.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 111.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 414.

مُبيَّنٌ بكونِهم في بعضِ الأزمنةِ[1]، وفي الكلامِ حذفٌ، تقديرُهُ: (مِنْ قبلِ زمانِهم).

معنى الواوِ في ﴿وَلَن تَجِدَ﴾:

نـزولُ العـذابِ بالمنافقينَ مُحقَّقٌ

قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ، وقد ذُيِّلَ بها الكلامُ؛ لزيادةِ تحقيقِ أنَّ العذابَ حائقٌ بالمنافقينَ وأتباعِهم إنْ لم ينتهوا عمّا هم فيه، وأنَّ اللّهَ لا يخالفُ سنَّتَهُ؛ لأنَّها مُقتضَى حكمتِهِ وعلمِهِ، فلا تجري مُتعلَّقاتُها إلّا على سَنَنٍ واحدٍ[2]، وهذا التَّذييلُ جارٍ مَجْرى الأمثالِ؛ لاستقلالِهِ عمّا قبلَهُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(لن) دونَ (لا):

سـنَّـةُ الـلـه لا تـتـبدَّل حـاضرًا ومستقبلًا

جيءَ في النَّفيِ في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ بـ(لن) دونَ (لا)؛ لأنَّها أبلغُ، فهي تفيدُ النَّفيَ في الحاضرِ والمستقبلِ، أي: ولن تجدَ أبدًا؛ فإنَّ سنَّةَ اللّه لا تتبدَّل حاضرًا ومستقبلًا.

سرُّ التَّعبيرِ بعدمِ الوجدانِ دونَ عدمِ التَّبديلِ:

سـنَّـةُ الـلـه لا تبدَّل، ما تحرّى المـرءُ واستقصى واستفرغ الجهد

عبَّر النَّظمُ الجليل بقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، ولم يقل: (ولن تُبدَّلَ سنَّةَ اللّه)؛ لأنَّ ما عليهِ النَّظمُ أبلغُ[3]؛ لأنَّهُ يفيدُ أنَّكَ لن تجدَ لها تبديلًا بعدَ البحثِ والتَّفتيشِ والتَّنقيبِ، واستفراغِ الوُسْعِ والطّاقةِ في ذلكَ، فيكونُ أشدَّ توكيدًا للُحوقِ العذابِ بالمُكذِّبينَ؛ إنْ لم ينتهوا.

تعيينُ المُخاطَبِ في ﴿وَلَن تَجِدَ﴾:

إعمامُ الخطابِ يـنـاسـبُ مـقـامَ التَّنبيهِ على ثباتِ سنَّةِ اللهِ

يُحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ في قولِ اللّهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ للنَّبيِّ ﷺ خاصَّةً، أي: ولن تجدَ أيُّها النَّبيُّ، ويُحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ لكلِّ مَنْ يتأتّى منهُ الوِجْدانُ، أي: ولن تجدَ يا مَنْ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 414.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 112.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 423.

يصِحُّ منكَ الوِجْدانُ[1]، وفي هذا تعميمٌ ومبالغةٌ، يناسبانِ مقامَ التَّنبيهِ على ثباتِ سنَّةِ اللّهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

الحــقُّ ظـاهـرٌ غالبٌ، والباطلُ مُـنـدحـرٌ خائبٌ ولو بعد حين

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قدرتُهُ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عدمَ وِجْدانِ التَّبديلِ لسنَّةِ اللّهِ تعالى مُستمرٌّ على الأزمنةِ والدُّهورِ، لا ينقطعُ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، فسيفُ الغلَبةِ بيدِ الحقِّ مشهورٌ في كلِّ زمانٍ، وفي كلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَم.

معنى اللّامِ في ﴿لِسُنَّةِ﴾:

عــدمُ التَّبديلِ يلازمُ سنَّةَ اللهِ

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ لشَبَهِ التَّمليكِ، فتفيدُ أنَّ عدمَ التَّبديلِ بمنزلةِ شيءٍ مملوكٍ لسنَّةِ اللّهِ، يلازمُها، ولا يفارقُها، وتحتملُ الاختصاص، فيكون عدمُ التَّبديلِ مختصًّا بسُنَّةِ اللّهِ، كقولنا: (الجنَّةُ للمؤمنين).

نُكْتَةُ إظهارِ السُّنَّةِ:

سنَّةُ العظيمِ لا يـقـدرُ أحـدٌ على تبديلِها

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ولن تجدَ لها تبديلًا)؛ لتقدُّمِ السُّنَّةِ في قوله تعالى: ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قوله سبحانَهُ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾؛ للمبالغةِ في عدمِ تبديلِ السُّنَّةِ بإضافتِها إلى لفظِ الجلالةِ، المُستجمِعِ لصفاتِ الجلالِ والعظَمةِ والكمالِ، وسُنَّةُ العظيمِ لا تبديلَ لها، ولا يَقدِرُ أحدٌ على تبديلِها، كما تُبدَّلُ سُنَنُ المُلوكِ[2].

غرضُ تقديمِ ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾:

ســنَّــةُ الــلــهِ محلُّ العنايةِ والاهتمامِ

قُدِّمَ ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ على ﴿تَبۡدِيلٗا﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾؛ للعنايةِ والاهتمامِ بالمُقدَّمِ، وهو تعلُّقُ عدمِ الوِجْدانِ بسُنَّةِ اللّهِ، ولِما في تأخيرِ ﴿تَبۡدِيلٗا﴾ مِنْ مراعاةِ تلاؤمِ فواصلِ الآيِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 266.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 415.

علَّةُ مصدريَّةِ ﴿تَبۡدِيلٗا﴾ وتنكيرِها:

عـمـومُ عـدمِ التَّبديلِ لجميعِ الأزمنة

جيءَ بلفظِ التَّبديلِ في قولِ الباري تقدَّس ذكرُهُ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ مصدرًا نكرةً؛ لتوكيد نفي التَّبديل والمبالغة فيه، وللدِّلالةِ على عموم عدمِ التَّبديلِ لجميعِ الأزمنةِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعُمُّ، والمعنى: لن تجدَ لسُنَّةِ اللّهِ تبديلًا معَ الَّذينَ خَلَوا مِنْ قبلُ، ولا معَ الحاضرينَ، ولا معَ الآتينَ، وبهذا العمومِ تأهَّلَتِ الجملةُ لِأنْ تكونَ تذييلًا[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

سُنَّةُ اللهِ ثابتةٌ لا تبديلَ فيها ولا تحويل

قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، وقال في الفتح: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الفتح: 23]، وقال في الإسراءِ: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ [الإسراء: 77]، وقال في فاطرٍ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر: 43].

والتَّبديلُ: تغييرُ الشَّيءِ عمّا كانَ عليهِ قبلُ، معَ بقاءِ مادَّةِ الأصلِ، كقولِه تعالى: ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النّساء: 56]، والتَّحويلُ: نقلُ الشَّيءِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ آخرَ، وسنَّةُ اللّهِ تعالى لا تُبدَّلُ، ولا تُحوَّلُ، فخُصَّ موضعُ سورةِ فاطرٍ بالجمعِ بينَ الوصفينِ؛ لأنَّهُ قد وُصِفَ الكفّارُ بوصفينِ، وذُكِرَ لهم غرضانِ، وذلكَ في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩﴾ [فاطر: 39]، وقوله: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾ [فاطر: 43].

واقتصرَ في الأحزابِ والفتحِ على مرَّةٍ واحدةٍ؛ لأنَّهُ لا موجِبَ للتَّكرارِ، وخُصَّتْ سورةُ الإسراءِ بالتَّحويلِ؛ لأنَّ قريشًا قالوا لرسولِ اللّهِ ﷺ: "لو كنتَ نبيًّا؛ لذهبتَ إلى الشّامِ؛ فإنَّها أرضُ المَبْعَثِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 112.

والمحشرِ". فهمَّ النَّبيُّ ﷺ بالذَّهابِ إليها، فهيَّأ أسبابَ الرَّحيلِ والتَّحويلِ، فنزلَتِ الآياتُ تطبيقًا للمعنى[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الانتهاءُ والامتناعُ والإباءُ:

الانتهاءُ فيهِ كفٌّ معَ انزجارٍ، يمنعُ مِنْ معاودةِ الفعلِ

الامتناعُ: خلافُ الإعطاءِ[2]، وفُرِّقَ بينَهُ وبينَ الإباءِ: بأنَّ الإباءَ شدَّةُ الامتناعِ، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليسَ كلُّ امتناعٍ إباءً[3]، وأمّا الانتهاءُ؛ فهو الانزجارُ[4]، وهو أنسبُ بمقصودِ الآيةِ هنا؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنَ الكفِّ، معَ الانزجارِ المانعِ مِنْ معاودةِ الفعلِ، ولذلكَ عُبِّرَ بهِ.

الإرجافُ والإشاعةُ:

غايةُ المنافقينَ زعزعةُ صفوفِ المسلمينَ

مادَّةُ (رجف) تدلُّ على اضطرابٍ[5] شديدٍ، يقالُ: رَجَفَتِ الأرضُ؛ إذا تزلزلَتْ[6]، والإرجافُ: إيقاعُ الرَّجْفةِ، والشّياعُ: الانتشارُ والتَّقويةُ[7]، ويقالُ: شاعَ الخبرُ في النّاسِ، أي: ذاعَ وفَشا وظهرَ وانتشرَ، ومعنى قولِهم: هذا خبرٌ شائعٌ: أنَّهُ قدِ اتَّصلَ بكلِّ أحدٍ، فاستوى عِلْمُ النّاسِ بهِ، ولم يكنْ علمُهُ عندَ بعضِهم دونَ بعضٍ[8]، وقد عُبِّرَ بالإرجافِ في الآيةِ؛ لِما يُشيرُ إليهِ مِنْ أنَّ غايتَهم مِنْ نَشْرِ الأكاذيبِ زلزلةُ المسلمينَ، وزعزعةُ صفوفِهم، وليس إذاعةَ الأكاذيبِ فحسب، ولذلكَ استحقّوا هذا الوعيدَ الشَّديدَ.

الإغراءُ والأمرُ:

الإيلاعُ بالتَّعذيبِ أنسبُ بسياقِ التَّهديدِ

يقالُ: أُغريَ بكذا، وغَريَ بهِ؛ إذا أولِعَ بهِ[9]، ولزمَهُ مِنْ حيثُ

---

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن: 210 - 211، وانظر: الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 297 - 298.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منع).
(3) الرّاغب، المفردات: (أبي).
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/ 407.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رجف).
(6) الخليل، العين: (رجف).
(7) الرّاغب، المفردات: (شيع).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (شيع).
(9) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غري).

لا يحملُهُ عليهِ حاملٌ[1]، والأمرُ: مصدرُ أمرتَهُ؛ إذا كلَّفتَهُ أنْ يفعلَ شيئًا[2]، وقد عُبِّرَ بالإغراءِ هنا؛ لِما يشتملُ عليهِ مِنَ المبالغةِ في جعلِ الحاقِ العقابِ بهِم أمرًا يولَعُ بهِ النَّبيُّ ﷺ، ويلزمُهُ.

الثَّقْفُ والإدراكُ واللَّحاقُ والوِجْدانُ:

الثَّقْفُ فيهِ إشارةٌ إلى قوَّةِ المسلمينَ واقتدارِهِم

الثَّقْفُ: الحِذْقُ في إدراكِ الشَّيءِ عِلْمًا كانَ أو عملًا[3]، والإدراكُ: لُحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ ووصولُهُ إليهِ[4]، واللَّحاقُ: إدراكُ شيءٍ وبُلوغُهُ إلى غيرِهِ[5]، والوِجْدانُ: يُعبَّرُ به عن التَّمكُّنِ مِنَ الشَّيءِ، نحوُ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التّوبة: 5][6].

وفي إيثارِ الثَّقْفِ على غيرِهِ إشعارٌ بأنَّ جماعةَ المسلمينَ يجبُ أنْ تكونَ مُتمكِّنةً في كلِّ حالٍ، فإذا لاقَتْ أعداءَ اللّهِ؛ كانَ لقاؤُها لقاءً على وجهِ الغلَبةِ والاقتدارِ، وكأنَّ الآيةَ تصفُ اللَّحظةَ الَّتي تقعُ فيها المواجهةُ بينَ المسلمينَ وأعدائِهم، وأنَّ قَبْضةَ المسلمينَ حينَئِذٍ ينبغي أنْ تكونَ قَبْضةً قادرةً[7].

الأخذُ والأسْرُ:

المنافقونَ بمنزلةِ متاعٍ يُؤخَذُ

الأخذ: حَوْزُ الشَّيءِ وتحصيلُهُ[8]، ويُعبَّرُ عنِ الأسيرِ بالأخيذِ والمأخوذِ[9]، والأَسْرُ: الحَبْسُ والإمساكُ[10]، والشَّدُّ بالقَيْدِ[11]، وفي التَّعبيرِ بالأخذِ في الآيةِ تحقيرٌ للمنافقينَ، وتنزيلٌ لهُم منزلةَ متاعٍ يُؤخَذُ باليدِ، ويُستولَى عليه.

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (غري).
(2) الرّاغب، المفردات: (أمر).
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/ 405.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لحق).
(6) الرّاغب، المفردات: (وجد).
(7) محمّد أبو موسى، من أسرار التّعبير القرآنيّ دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب، ص: 398.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(9) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أسر).
(11) الرّاغب، المفردات: (أسر).

﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ [الأحزاب: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّهديدُ بعذابِ الدّارَين استصحابًا ودفعًا لسُخرية المنافِقين

بعدَ أن ذكرَ النّظمُ الجليلُ حالَ الفئات الثّلاثِ منَ المنافقين والمُرجفين والذين في قلوبهم مرضٌ، مهدّدًا إيّاهم بالعذاب في الدّنيا، أتبعَ ذلك بما يبيّنُ حالَهم في الآخرة، فذكّرَهم بيوم القيامة، وبيّنَ ما يكونُ لهم فيه[1]، ومنَ المناسبة أنّهم لمّا كان من شأنهم أنّهم يخوضون في أمر الآخرة ساخِرين منها، كما يخوضُ المؤمنون فيها خوفًا منها، أتبع ذلك بذكر السّؤال عنها[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّاعَةِۖ﴾: أَصْلُ (سوع) يَدُلُّ على اسْتِمرارِ الشَّيْءِ ومُضيِّه، مِنْ ذلكَ السّاعَةُ سُمّيَتْ بذلكَ، يُقالُ: جاءَنا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وسواعٍ؛ أَيْ: بَعْدَ هَدْءٍ مِنْهُ[3]، والسّاعَةُ: الوقتُ الحاضرُ، وهي في الأَصْلِ تُطْلَق بمعْنَيَيْن: أحدُهما: أَنْ تكونَ عِبارَةً عَنْ جُزْءٍ مِنْ أربعةٍ وعِشْرينَ جُزءًا هي مجموعُ اليَوْمِ واللَّيْلَةِ، والآخرُ: أَنْ تَكونَ عبارةً عَنْ جُزْءٍ قَليلٍ مِنَ النَّهارِ أوِ اللَّيْلِ، يُقالُ: جلستُ عِنْدَكَ ساعَةً مِنَ النَّهارِ؛ أَيْ: وقْتًا قليلًا منه، ثُمَّ استُعير لاسْمِ يَوْمِ القيامَةِ[4]، قيل: سُمّيَت بذلكَ لأنَّها تَفجأُ النّاس في ساعَةٍ، فيَموتُ الخَلْقُ كلُّهُم عِنْدَ الصَّيْحَةِ الأولى[5]، والمُرادُ بها في الآية: يومُ القيامة، ووقتُ قيامِها[6].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 40.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 22/ 112.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوع).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 329 - 330.

2) ﴿يُدۡرِيكَ﴾: (درى) أصلُه قَصْدُ الشَّيْءِ واعْتِمادُهُ طَلَبًا، وهو العِلْمُ، والدَّريَّةُ: الدّابَّةُ الَّتي يَسْتَتِرُ بِها الَّذي يَرْمي الصَّيْدَ لِيَصيدَهُ، ودَرَيْتُ الظَّبْيَ: خَتَلْتُهُ، أي: احْتَلْتُ لَهُ حَتَّى أصيدَه[1]، ومنه الدّراية: وهي المعرفةُ المُدركةُ والعلمُ بضرب منَ الحيل[2]، فالمعنى المحوريُّ لهذا الجذر: تغلغلُ الشّيء بدقّة وقوّة خلال جرم كثيفٍ فيَصلُ إلى عمقه، فالدّراية: عِلْمٌ فيه نفاذٌ إلى ما خَفيَ، والنّفاذُ إلى ما وراء الظّاهر. ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ [الأنبياء: 109]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾ [الحاقة: 3]، وورد التّركيبُ بهذا المعنى في كلّ القرآن مسبوقًا دائمًا بنفيٍ أوِ استفهامٍ لتعلّقِ الفعلِ بغيبيٍّ أو مجهولٍ أو شيءٍ يعظمُ عن أن يحيطَ الإنسانُ به، ومن أجل قيدِ كونِ العلمِ فيها مسبوقًا بخفاء فهي لا تُسندُ إلى الله ﷻ؛ لأنّه تعالى لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يحتاجُ إلى احتيال[3]، والمرادُ به في الآية الكريمة الإعلامُ.

المَعنى الإجماليُّ:

خوضُ النّاسِ الدّائمُ في شأنِ الآخرةِ وميقاتِه

يخبرُ النّظمُ الكريمُ عن سؤال النّاسِ الدّائمِ عن يوم القيامة، فيقولُ جلّ شأنُه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾ يا محمّد ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ متى هي قائمةٌ؟ قل لهم: إنّما علمُها ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ لا يعلمُ وقتَ قيامها غيرُه، وما أشْعرَك يا محمّد لعلّ قيامَ السّاعة يكون منك قريبًا، فقد قرب وقتُ قيامِها، ودنا أوانُ مجيئها[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآيةِ عما قبلها:

تمهيدُ الكلامِ لبيانِ ما أعدَّ الله تعالى للكافرين في الآخرة

فصلَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (دري).
(2) الرّاغب، المفردات: (درى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (درى).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 329 - 330.

﴿ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ لأنّها مستأنفةٌ، سيقت للاعتراض بين الجملة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠﴾ [الأحزاب: 60]، والجملةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وفائدةُ هذا الاعتراض التّمهيدُ لجملة لعنِ الكافرين(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالسّؤالِ مادّةً وصيغةً:

إحالـةُ ميقاتِ القـيـامةِ على الله لـدرءِ كثرةِ الـسّـؤالِ عنها امـتـحـانًا أوِ استهزاءً

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ السّؤالِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ لبيان أنّ السّائلين طلبوا معرفةَ زمانِ حلولِ يوم القيامة؛ لأنّ السّؤال هو استدعاءُ معرفةٍ، أو ما يؤدّي إلى المعرفة، ويكون جوابُه على اللّسان(2)، وجاء التَّعبيرُ عن ذلك بالفعل المضارع للدّلالة على تجدُّد السّؤال وتَكرارِه، فكان المشركون يسألون النّبيَّ ﷺ عن موعد يوم القيامة استعجالًا بطريق الاستهزاءِ والتّعنّتِ والإنكارِ، وكان اليهودُ يسألونه عنها امتحانًا له ﷺ؛ لأنّ الله تعالى أخفى وقتَها عن كلّ أحدٍ(3).

معنَى (أل) في ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

عِـظَـمُ حـدثِ القـيـامةِ دافـعٌ لـلـسّـؤالِ عن موعدِها

عرّفَ النّظمُ الجليلُ النّاسَ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ وهو هنا دالٌّ على تعريف الجنسِ، فلفظُ النّاسِ عامٌّ يشملُ النّاسَ جميعًا، وعمومُه هنا عرفيٌّ، فهو لا يستغرقُ النّاسَ فردًا فردًا، بلِ المرادُ جميعُ النّاس الذين من شأنهم الاشتغالُ بالسّؤال عنها؛ وذلك لأنّ كثيرًا منَ النّاسِ يسألُ عن ذلك(4).

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ دون غيرها:

تـعـدّدُ أصـنـافِ الـسّـائـلـين عن يوم القيامة

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبير بلفظِ النّاس دونَ غيره في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ ليشملَ جميعَ أنواعِ السّائلين،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 112.

(2) الراغب، المفردات: (سأل).

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 243.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 113.

والسّائلون أقسامٌ فمنهم: المُكذّبون بها وهم أكثرُ السّائلين وسؤالُهم للتّهكّم للاستدلال بإبطائها على عدم وجودها، وصنفٌ مؤمنون بها لكنّهم يسألون عن أحوالها وأهوالها، وصنفٌ يسأل اختبارًا للنّبيّ ﷺ لعلّه يجيبُ بما يخالفُ ما في علمهم فيجعلونه حجّةً على انتفاء نبوءته، وهؤلاء همُ اليهود[1]، وقد ذهب البقاعيُّ إلى أنّ المُرادَ بالنّاس هنا المشركون؛ وإنّما عبّر عنهم بلفظ النّاس "إشارةً إلى أنّهم بُعدٌ في نَوْسِهم لم يصلوا إلى أدنى أسنانِ أهل الإيمان، فكان المتردّدون في آرائهم لا يكادون ينفكّون عنِ النَّوْسِ وهو الاضطرابُ"[2]، والتّذبذبُ في الشّيء[3].

معنَى ﴿عَنِ﴾ في القيد ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾:

معرفةُ موعدِ القيامِ المُضمرِ الذي يشغلُ الأنامَ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿عَنِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ وهو حرفٌ دالٌّ على المجاوزة، فالسّؤالُ مقصودٌ به وقتُ قيامِ السّاعة، أي عن وقت قيامِها[4]، فالحرف ﴿عَنِ﴾ يبيّنُ المسؤولَ عنه، وهو هنا وقتُ السّاعة، وموعدُها.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلسَّاعَةِۖ﴾:

قُربُ موعدِ البعثِ دافعٌ لتحرّي العملِ الصّالحِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن يوم القيامة بلفظ السّاعةِ دونَ سواه في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾، وإنّما السّاعةُ هي جزءٌ منَ الزّمان يقيس به النّاسُ مقدارًا منَ الوقت، فأطلقَ تعالى لفظَ السّاعة على يوم القيامة تشبيهًا بقلّة زمانِ السّاعة وسرعةِ حسابه[5]، وعرّفها بالألف واللّام؛ للدّلالة على أنّها هي السّاعةُ التي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 112 - 113.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 415.
(3) الخليل، العين: (نوس).
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 243.
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 243، والشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12190.

لا ساعةَ في الحقيقة غيرها[1]، إيقاظًا للنّاس ولفتًا لنظرِهم إلى سرعة مجيءِ هذا اليوم، وما يقتضيه ذلك منهم من أداء الأعمال الصّالحةِ والبدارِ فيها.

علّةُ فصلِ جملةِ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾:

ردُّ الجوابِ عنِ السّؤالِ حوارٌ أغنَى عنِ العاطفِ في وصلِ الكلام

فصَلَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ مُساقةٌ للرّدّ على سؤالهم، أي قل لهم ذلك جوابًا لهم[2]، فكأنّها في محاورة؛ فالسّؤالُ يدلّ على القول ضمنًا، فلمّا سألوا ردّ على سؤالهم بذلك، فلم يَحتجْ إلى العطف لقيام المحاورة بوصل الكلام وربْطِه.

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ القولِ:

وظيفةُ الأنبياءِ التّبليغُ عنِ الله تعالى

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بفعل القول فعلَ أمرٍ في قوله جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ للدّلالة على أنّ القول والجوابَ جاء عن طريق التّبليغ، بصيغة الوجوب، وليس صادرًا منَ النّبيّ ﷺ، فإنّما هو مُبَلِّغٌ عنِ اللّه تعالى، واللّه ﷻ هو الذي يقول، فقال: قل، والمقولُ صادرٌ منَ اللّه تعالى، وأنّا أقوله لكم[3]، فلو قال: (إنّما علمها عند اللّه) بلا فعْلِ القول؛ فسيُفهمُ أنّ هذا الجوابَ منَ النّبيّ ﷺ، وفي لفظ القول إشارةٌ إلى التّصريح بالمقولِ والجهرِ به.

بلاغةُ القصرِ في جملة ﴿إِنَّمَا﴾:

السّاعةُ غيبٌ تفرّدَ الخالقُ بميقاتِه ولم يُطلِعْ عليه فردًا

قصرَ النّظمُ الجليلُ معرفةَ وقتِ يوم القيامة على اللّه تعالى في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ للدّلالةِ على أنّ اللّه تعالى استأثرَ بعلمِ ذلك، ولم يُخبر به أحدًا منَ الأنبياءِ الكرام، أوِ الملائكةِ المقرَّبين[4]، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ، فقصَرَ صفةَ العلم بيوم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 416.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 3/ 272.
(3) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12188.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 11/ 148.

القيامة على اللّه تعالى، وهو قصرٌ حقيقيٌّ؛ لأنّ العلم بالسّاعة محصورٌ عليه تعالى لا بالنّسبة إلى أحدٍ آخرَ، بل على وجه الحقيقة.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(العِلم) دونَ (الوقت):

العلمُ بموعدِ السّاعةِ مختصٌّ بالله تعالى

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالعلم دونَ الوقت في قوله جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنّ المسؤولَ عنه ليس الوقتَ، بل العلمُ بالوقت، فلم يطلبوا منه وقتًا بل العلمَ بالوقت، والسّؤال يدلُّ على طلب المعرفة والعلم بالمسؤول عنه، فكان الجوابُ بأنّ العلم بذلك محصورٌ عند اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظّرفِ ﴿عِندَ﴾:

قيامُ السّاعةِ في حيّزِ علمِ الله الذي لا يملكه سواه

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالظّرفِ ﴿عِندَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ للدّلالةِ على أنّ العلمَ بذلك هو في حكم اللّه تعالى وفي حيّزِ علمِه تعالى لا يملكه أحدٌ سواه، كما في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرعد: 43]، أي: في حكمه[1]، فهو دالٌّ على ملك اللّه تعالى لذلك العلم، وإضافةُ الظّرف إلى لفظ الجلالة للدّلالةِ على تعظيم علمِه، فهو تعالى الذي أحاط علمُه بكلّ شيء، ووسعَ كلَّ شيء علمًا، ولا يعلم أحدٌ شيئًا ممّا عنده إلّا بإذنه تعالى[2].

معنَى (الواو) في جملة ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾:

انتفاءُ العلمِ بموعدِ السّاعةِ لا يَنفي قربَها

افتتح النّظمُ الجليلُ الجملةَ بالواو في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ وهي هنا دالّةٌ على الاستئناف[3]، فالجملة مستأنَفةٌ مستقلّةٌ سيقتْ "لبيانِ أنّها معَ كونِها غيرَ معلومةٍ للخلقِ مرجوَّةُ المجيءِ عن قريبٍ"[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (عند).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 416.
(3) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 539.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 116.

موعدُ السّاعةِ شديدُ الخفاءِ عظيمُ البلاءِ

معنَى (ما) في قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ باسم الاستفهام (ما) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ للدّلالةِ على الإنكار(1)، أي: أيُّ شيءٍ يُدريك متى السّاعةُ، قد تكون بعيدةً أو قريبة(2)، وفائدةُ الاستفهام الدّالِّ على الإنكار والنّفي الإشارةُ إلى شدّة خفائِها، حتّى إنّه قد أخفاها عن أكمل الخلقِ ﷺ، لِما في ذلك الإخفاء منَ التّهديد برجاء قُربِ وقتِها(3).

تّيئيسُ السّائلين بمعرفة ميعادِ يومِ القيامة

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الدّرايةِ مضارعًا:

عبّرَ النّظمُ البليغُ بلفظ الدّراية في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾؛ لأنّه يُطلقُ على المعرفة التي تُدرَك بضربٍ منَ الحيل(4)، وهذا أنسبُ للتّعبير عنِ الجهل بمعرفة ميعادِ يومِ القيامة، أي: ليس هناك طريقةٌ للعلم بوقت السّاعة وإن كانت عن طريق الاجتهاد والاحتيال، فلا سبيلَ لبلوغ ذلك، والتَّعبيرُ بالفعل المضارع يدلّ على استمرارِ انتفاءِ تلك الدّراية، وقد دأبَ القرآنُ الكريم على التَّعبير بالفعل ﴿يُدۡرِيكَ﴾ في سياق الأمر أوِ الاستفهام الّذي لن يُعلَم به حتّى يومِ القيامة، وأمّا الفعلُ الماضي (أدراك) فقد دأبَ القرآنُ على استعماله في سياق الأمر أوِ الاستفهامِ الّذي سيظهرُ علمُه عن قريب(5)، فالعلمُ بميعاد السّاعةِ لن يظهر حتّى يحين يومُ القيامة؛ فعبّر بالفعل المضارع عن ذلك.

خطابُ النّبيّ بنفيِ علمِه موعدَ السّاعةِ أمارةُ شدّةِ خفائِها

عودُ الضّمير في الفعل ﴿يُدۡرِيكَ﴾:

خاطب النّظمُ الجليلُ النّبيَّ ﷺ بكاف الخطاب في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، فهو خطابٌ يَنفي

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 50.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 113.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 416.

(4) الراغب، المفردات: (درى).

(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 22/ 33.

عنِ النّبيّ ﷺ الدّرايةَ عن ميقات يوم القيامة، أي: أيُّ شيءٍ يجعلُ لك درايةً[1]، ونفيُ العلم عنِ النّبيّ ﷺ عن ميقاتها يدلُّ على شدّة خفائها؛ فإنّه تعالى إذ لم يُطلعْ عليها أقربَ الخلق إليه فأنّى سيخبرُ السّائلين عنها من سائر الخلق؟ وإذا كانت محجوبةً عنه ﷺ لا يعلم وقتَها، وهو رسولُ اللّه، فكيف بغيره من النّاس[2]؟

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾:

إنشاءُ الرّجاءِ ببيانِ ميقاتِ السّاعةِ بعد الانقطاع

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾؛ لأنّها مستأنَفةٌ سيقت لإنشاء الرّجاء[3]، وذلك لِما بين الجُملتَيْن من كمال الانقطاع، فالجملةُ السّابقةُ إنشائيّةٌ في معنى الخبر، وهذه جملةٌ إنشائيّةٌ، فوقع بينهما كمالُ انقطاعٍ، فبعد أن نفى عنِ النّبيّ ﷺ معرفةَ يومِ القيامة ألحقه ببيانِ أنّ وقت السّاعة قد يكون قريبًا.

معنَى ﴿لَعَلَّ﴾:

مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ تعالى يَرجو قربَ يومِ القيامةِ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الرّجاء ﴿لَعَلَّ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ للدّلالةِ على أنّ يوم القيامة "بحيث يرجو قُربَها من يرجوه ويخشاه من يخشاه، فهل أعدَّ مَن يخشاها شيئًا للمدافعة إذا جاءت، أوِ النّجاةِ منها إذا أقبلت؟"[4].

نكتةُ تَكرارِ لفظِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾:

شأنُ السّاعةِ مهولٌ، ووقْعُها عظيمٌ، ووقوعُها مؤكّدٌ

وضع النّظمُ الكريمُ الاسمَ الظّاهرَ موضعَ المُضمرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، فلم يقل: (لعلّها)؛ فأظهرَ لفظَ السّاعة مع كونِها قد سبقَ ذِكْرُها؛ تهويلًا لشأنها،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 113.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 351.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 113.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 416.

وزيادةً في تقريرها، فإنّ عدم الإظهارِ يدلُّ على استقلال الجملة فيكونُ المعنى قائمًا بنفسه تأكيدًا لمضمونه وتقويةً له(1).

دلالةُ التّعبيرِ عن خبر ﴿لَعَلَّ﴾ بفعلِ الكونِ مضارعًا:

إيرادُ ما يدلُّ على المبالغة في حدوث السّاعة

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بفعل الكونِ في الإخبار عن رجاء قربِ السّاعة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ للدّلالةِ على الوجود والحدوثِ على وجهٍ بالغِ الهولِ والعجب(2).

سرُّ الإشارةِ إلى القُربِ وتذكيرِه:

زمانُ السّاعة قريبٌ وشيكٌ، والمسؤولُ عنه وقتُها

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ القُربِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ للدّلالةِ على قرب زمانِ السّاعة؛ فإنّ القُربَ يُستعملُ في المكان، وفي الزّمان(3)، فهو تعبيرٌ عن قلّة الزّمان بين وقت الخطابِ وبين وقتِ قيامها، وجاء التَّعبيرُ عنه بصيغة التّذكير مع أنّ لفظ السّاعة مؤنّثٌ، فلم يقل: (لعلّ السّاعة تكون قريبةً)؛ وذلك لأنّ ﴿قَرِيبًا﴾ هنا صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، وتقديرُه: وما يدريك لعل زمان قيامها قريب، أوِ التّقديرُ لعلّ السّاعةَ تكون شيئًا قريبًا(4)، وإنّما كان السّؤالُ عن وقتها، فكان التّذكيرُ إشارةً إلى المسؤول عنه وهو الوقتُ(5).

بلاغةُ التّعريضِ في بيان قُربِ السّاعة:

الفَطِنُ يَستشعرُ قربَ السّاعة ويُديمُ الحَذَر

عرّض النّظمُ الجليلُ بقوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ تهديدًا للمُستعجِلين بهذا اليوم، والمُنكرين له، فهو وعيدٌ للسّامعين بقرب وقتها، فهي ينبغي أن تُحذَرَ(6)، فسوقُ الحديث عنها بما لا يفصحُ عن موعدها مع الإشارة إلى رجاء قرب وقتها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 116.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 416.
(3) الرّاغب، المفردات: (قرب).
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 483، والشّعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 12191.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 416.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 400.

يُدخلُ في نفس السّامعين الهلعَ والخوفَ من سرعة حلولِها، فيبدرُ منهمُ الاتعاظُ والارعواءُ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّاعة والقيامة:

القيامةُ يقوم فيها النّاسُ للحساب، والسّاعةُ تعبيرٌ عن قرب زمانِ حلولِها

السّاعةُ والقيامةُ اسمان ليوم القيامة، وسُمّيت بالقيامة؛ لأنّ النّاس يقومون في ذلك اليوم لربّ العالمين ﷻ لحسابهم، فيقومون منَ الموت[1]، والسّاعةُ اسمٌ ليوم القيامة، والسّاعةُ في الأصل: القطعةُ منَ الزّمان، وعبّر به عنِ القيامة وإن كانت متطاولةَ الأزمنة تنبيهًا على سرعة الحساب، وإنّه تعالى لا يفوته شيءٌ من أعمال خلقه من صالحٍ وسيّءٍ، فهو يجازي الفريقَيْن في أسرع زمان في ظنّكم[2]، فسُمّيت بذلك لقرب حلولِها ومجيئِها، وفيها دلالةٌ على حتميّة المجيءِ كما أنّ الزّمان لا محالةَ كائنٌ وآتٍ[3]، وإنّما آثر اسمَ السّاعة في هذا الموضع؛ لأنّ السّياق يتحدّثُ عن قربها، فناسب إطلاق لفظ السّاعة المُشعرِ بقِصَرِ الزّمان.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/ 305.
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (سوع).
(3) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 5/ 318.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾ [الأحزاب: 64 - 68]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعدَ ذكْرِ السّؤالِ بيَّنَ للكافرين بالسّاعة الحالَ

لمّا أخبر النّظمُ الجليلُ عن سؤال النّاسِ عنِ السّاعة، أتبعَه بالإخبار عن حال الكافرين بها الذين هم قِسمٌ ممّن يَسألُ عنها، فتوعّدَ الله تعالى الكافرين بعذابٍ ليس لهم من دونه وليٌّ ولا ناصرٌ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَعِيرًا﴾: (سعر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اشْتعالِ الشَّيْءِ واتِّقادِه وارْتِفاعِهِ، مِنْ ذَلِكَ: سَعيرُ النّارِ، واسْتِعارُها: تَوَقُّدُها[2]، وسعارُ النّارِ والحَرْبِ إيقادُهما وهَياجُهما، والتهابُهما، والسُّعارُ: حرُّ النّار، وسَعُرَ الرّجل: أصابه حرٌّ[3]، والمُرادُ به في الآية الكريمة "النّارُ المسعورة، الشّديدةُ الإيقاد"[4].

2) ﴿تُقَلَّبُ﴾: (قلب) أصلٌ يَدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، تقول: قَلَبْتُ الشّيْءَ: كَبَبْتُهُ، وقَلَّبْتُهُ بيدي تَقْليبًا[5]، فالقَلْبُ: تَحْويلُ الشّيءِ عَنْ وجهِه، وتحويلُه ظَهْرًا لبَطْنٍ، كالحَيَّةِ تَتَقَلَّبُ عَلَى الرَّمْضاءِ[6]، ومنه قَلْبُ الشّيء: تصريفُه وصرفُه عن وجهٍ إلى وجهٍ،

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 400، والبقاعي، نظم الدّرر: 15/ 416.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعر).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سعر).
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 562.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (قلب).

كقلب الثّوب، وقلب الإنسان، أي: صرفه عن طريقته، وتَقْليبُ الشّيء: تغييرُه من حال إلى حال نحو: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾[1]، والمُرادُ به في الآية الكريمة تقليبُ الكافرين في النّار من جهة إلى جهة أخرى تشديدًا لعذابهم[2].

3) ﴿سَادَتَنَا﴾: (سود) أَصْلٌ يدلّ على خلاف البياض في اللَّوْنِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه ويُشْتَقُّ مِنْهُ، وسَوادُ كُلِّ شَيْءٍ: شَخْصُهُ، والسَّواد: العَدَدُ الكَثيرُ، وسُمّيَ بذَلِكَ لأَنَّ الأَرْضَ تَسْوادُّ لَهُ[3]، والسَّوادُ الأعظمُ جُمْلَةُ النّاسِ ومُعْظَمُهم، والسَّيِّدُ الذي فاق غيره بِالعَقْلِ والمالِ والدَّفْعِ والنَّفْعِ، المُعطي مالَهُ في حُقوقِهِ المُعينُ بِنَفْسِه، وسُمّيَ سَيِّدًا لأنّه يَسودُ سَوادَ النّاسِ أي عُظْمهم[4]، والسَّيِّدُ: المتولّي للسّواد، أي: الجماعة الكثيرة، فيقال: سيّدُ القوم، ولمّا كان من شرط المتولّي للجماعة أن يكون مهذّبَ النّفس قيل لكلّ مَن كان فاضلا في نفسه: سَيِّدٌ، وقولُه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا﴾، أي: ولاتَنا وسائِسينا، وقوله: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا﴾ [يوسف: 25]، فسُمّي الزّوجُ سَيِّدًا لسياسة زوجتِه[5]، والمُرادُ به في الآية الكريمة عظماءُ النّاس وأشرافُهم الذين يقودونهم ويسوسونهم[6].

4) ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾: (كبر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الصِّغَرِ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ، وكَذَلِكَ الكِبْرياءُ، ويُقالُ: ورثوا المَجْدَ كابِرًا عَنْ كابِرٍ، أَيْ كَبيرًا عَنْ كَبيرٍ في الشَّرَفِ والعِزِّ[7]، وكَبُرَ يَكْبُر، أي: عَظُمَ، وقوله جلّ شأنُه: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ [يوسف: 80]، أي أَعْلَمُهم؛ لأنّه كانَ رَئيسَهُمْ، ويُقالُ: سادوك كابِرًا عَنْ كابِرٍ أي كَبيرًا عَنْ كَبيرٍ[8]، وكلُّ كبير هو كِبَرُ عِظَمٍ، أو كِبَرُ رياسةٍ، وجمعُه (كُبراء)[9]، فاعتبرَ فيه المنزلة والرّفعة نحو قولِه جلّ شأنُه: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: 9]، وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ﴾ [الأنبياء: 58]، وقولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ

(1) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(2) النّخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 164.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سود).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سود).
(5) الرّاغب، المفردات: (سود).
(6) الواحديّ، البسيط: 18/ 298.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (كبر).

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: 71] أي: رئيسكم[1]، والمرادُ به في الآية الكريمة: عظماءُ العشائر والقبائل، وهم دونَ السّادة[2].

5) ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾: (سبل) أصلُه يدلُّ على امتداد الشَّيء طولًا، فالسَّبيلُ الطَّريق، سُمّي بذلك لامتداده[3]، أو هو ما وضَحَ مِنَ الطّريق، يُذَكَّر ويُؤَنَّثُ، وسَبيلُ اللّه: طَريقُ الهُدى الَّذي دَعا إليه[4]، والسَّبيلُ هو الطَّريق الَّذي فيه سهولةٌ، وجمعُه: سُبُل[5]، ويُطلَق السَّبيلُ أيضًا على المذهب والطَّريقةِ في الدّين، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ [العنكبوت: 12]، أي: طريقتَنا في ديننا[6]، والمرادُ به في الآية الكريمة طريقُ الإيمان[7].

المَعنى الإجماليُّ:

توصيفُ حالِ الكافرين وندمِهم يومَ يتقلّبون في النّار

يخبرُ النَّظمُ الكريمُ أنّ اللّه تعالى قد أبعدَ الكافرين عن كلّ خيرٍ، وأنّه قد أعدَّ لهم في الآخرة نارًا تتّقدُ وتتسعّرُ، ليمكثوا فيها أبدًا إلى غير نهايةٍ، وأنّهم في ذلك اليوم لا يجدون من يَتولّاهم فينقذهم من تلك النّار، ولا نصيرًا ينصرُهم، فينجّيهم من عقاب اللّه، فلا يجدُ هؤلاء الكافرون وليًّا ولا نصيرًا في يوم تُقلّبُ وجوهُهم في النّار حالًا بعد حال، وفي تلك الحال يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾ في الدّنيا وأطعنا رسولَه فنكونَ من أهل الجنّة، ويعترفُ الكافرون وهم في النّار قائلين: ربّنا إنّا أطعنا أئمّتَنا وكبراءَنا في الشّرك فأزالونا عن مَحَجَّة الحقِّ وطريق الهدى والإيمان بك، ربّنا عذّبهم منَ العذاب مثلَيّ عذابنا الذي تُعذِّبُنا، والعنهم واخزهم خزيًا كبيرًا[8].

(1) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 117.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والجوهريّ، الصحاح: (سبل).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 330، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سبل).
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 426.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 330 - 331.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾؛ لأنّها مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنّ الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠﴾ [الأحزاب: 60] إلى قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: 62] تثير تساؤلًا في نفوس السّامعين، فيتساءلون عنِ الاقتصار على لعنِهم وتقتيلِهم في الدّنيا، وهل ذلك هو منتهى عقابِهم، أم أنّ لهم من ورائه عذابًا آخرَ؟ سيق قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ جوابًا عن ذلك[1].

من وجوهِ العدلِ الإلهيِّ تعاقبُ حسابَيِ الدّنيا والآخرة

معنَى ﴿إِنَّ﴾:

أكّد النّظمُ الجليلُ الجملةَ بتصديرها بحرف التّأكيد ﴿إِنَّ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾ فجاء الكلام مؤكدًا وذلك للاهتمام بالخبر، وتأكيدًا على سوء مصير الكافرين في ذلك اليوم الذين ينكرون وقوعَه، فالتّأكيدُ منظورٌ به حالُ السّامعين منَ الكافرين[2]، فالتّأكيد ردٌّ على إنكارهم.

جزاءُ إنكارِ الكافرين القطعُ بعذابِهم يومَ الحساب

دلالةُ التَّصريحِ بلفظِ الجلالةِ:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لِما في الاسم الأعظمِ من دلالةٍ على التّعظيم، فهو الملك الأعظمُ الذي لا أعظم منه، وذلك تهويلًا لشأنِ اللّعنة الصّادرةِ عنه تعالى للكافرين، أي إنّه لعن الكافرين وأبعدَهم إبعادًا عظيمًا عن رحمته[3].

أشدُّ العذابِ وأقساه الطّردُ من رحمة الملك الأعظم

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ اللّعنِ ماضيًا:

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ اللّعنِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ

ملكُ الملوك إذا توعّدَ فالوعدُ قد تحقّق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 114.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 114.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 417.

﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تعبيرًا عن سخطه على الكافرين؛ فاللّعْنُ هو الطّردُ والإبعاد على سبيل السّخط، فهو في الآخرة عقوبةٌ، وفي الدّنيا انقطاعٌ من قَبولِ رحمته وتوفيقه[1]، وجاء التّعبيرُ بصيغة الفعل الماضي للدّلالة على تحقيق الوقوع، واللّعنةُ في الآخرة لمّا تقعْ بعدُ فعبّر بالفعل الماضي تأكيدًا وتحقيقًا لحصوله، كقوله جلّ شأنُه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1][2].

معنَى (أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

كلُّ الكافرين مشمولون باللّعن جزاءً وفاقًا

عرّف النّظمُ الجليلُ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالألف واللّام في قوله جل شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾ وهي هنا صالحةٌ أن تكون للعهد، بمعنى الكافرين الذين سبق ذِكْرُهم ممّن شاقّوا الرّسولَ ﷺ وآذَوه وأرجَفوا في المدينة وهمُ المنافقون ومناصروهم منَ المشركين واليهود، وصالحةٌ أن تكون للجنس، فالتّعريفُ فيها دالٌّ على الاستغراق؛ أي كلُّ كافر[3]، ولعنُ الكافرين عامٌّ لا يختصُّ بأهل مكانٍ وزمان، فهو تعالى قد لعنهم على الإطلاق، فشمل كلَّ كافر، لا مُنكري الحشر، ومعاندي النّبيّ ﷺ فقط[4].

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

لعنةُ الله تعالى واقعةٌ على كلّ مُنكرٍ ساترٍ للحقّ مصرٍّ على ذلك

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للدّلالةِ على سترِهم الحقائقَ الظّاهرةَ البيّنةَ لكلّ عقلٍ سليم، سواءٌ كانوا منافقين أو مشاقّين[5]، فلفظُ الكفر شاملٌ لكلِّ مُتمرّد عاصٍ، وصوغُه على هيئة اسم الفاعل للدّلالة على مَن قام بفعل الكفر، أوِ اتّصف به على وجه الحدوثِ والتّجديد، ولذلك حُرِموا الرّحمةَ، وأُدخلوا دائرةَ العذاب.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (لعن).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 115.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 114 - 115.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 244.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 417.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾:

لعنةُ الكافرين فـي الآخـرة مـصـحـوبـةٌ بـإدخـالـهـم السّعيرَ

عطفَ النّظمُ الجليلُ إعدادَ السّعير للكافرين على لعنهم في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾ بالواو العاطفة، لبيان أنّ اللّعن في الآخرة مُتعلّقٌ ومُقترنٌ بالسّعير، كما أنّ لعنة الدّنيا مُقترنةٌ بالأخذ والتّقتيل[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَأَعَدَّ﴾ ماضيًا:

تهيئةُ السّعير تـهـديـدٌ بـلـيـغٌ بـالـعـذاب الشّديد

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ الإعداد في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾ للدّلالةِ على أنّه تعالى قد هيّأ تلك النّارَ وأوجدَ لهم[2]، فلم يُعبّرْ عن دخول النّار فحسبُ؛ بل بيّن أنّه قد عكفَ لتهيئة النّار لهم، فهو يبيّنُ شدّةَ هذه النّار، كمَنْ ينتظرُ وافدًا فيأخذُ يتكلّفُ له ما يناسبه وما يُتحفُه به، فهذا وعيدٌ شديدٌ، وقد آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي تأكيدًا لوقوعِه وتحقيقًا له.

معنَى (اللام) في القيد ﴿لَهُمۡ﴾:

سَـوقُ مـا يـدلُّ على الاختصاص واسـتـحـقـاقِ العذاب

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾ وهي هنا دالّةٌ على الاختصاص والاستحقاق[3]، فهذه التّهيئةُ خاصّةٌ بهم، وقد استحقّوها فصارت شيئًا مُحازًا لهم، لا يشاركُهم أحدٌ به.

نكتةُ تقديمِ القيدِ ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿سَعِيرًا﴾:

تـخـصـيـصُ العذاب أدلُّ على هول الحساب

قدّم النّظمُ الجليلُ شبْهَ الجملة منَ الجارّ والمجرور على المفعول به في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾ دون أن يقول: (وأعدّ سعيرًا لهم)؛ لأنّ الغرض من إعداد السّعير أنّها تكون لهم، فقدّم ذِكْرَهم اهتمامًا بهم، فهمُ المقصود بالإعداد، كما أنّ تأخير لفظِ السّعير يحافظُ على نسق الفاصلةِ الصّوتيّ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 114.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 417.

(3) الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 22/ 34.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿سَعِيرًا﴾ مادّةً وصيغةً:

تسعيرُ النّار يعني شدّةَ الإيقاد

عبّرَ النّظمُ الجليلُ عنِ النّار بكونها سعيرًا في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾ للدّلالةِ على شدّة اتّقادها؛ فتسعيرُ النّار يعني شدّةَ الإيقاد، وهي نكرةٌ صيغت على وزن (فعيل) مبالغةً للدّلالةِ على شدّةِ التّسعير والاتّقادِ(1).

نكتةُ تقديمِ ﴿لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾:

قدّم النّظمُ الجليلُ جملةَ اللّعن على جملة الإعدادِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾ وذلك لأنّ اللّعنة تسبقُ الجحيمَ وتُبرّرُ استحقاقَه.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دون (مخلّدين):

خلودُ الكافرين في النّار ثابتٌ طويلُ الأمد

عبّرَ النّظمُ الجليلُ عنِ الخلود بصيغة اسم الفاعل في قوله جلّ شأنُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ للدّلالةِ على ثبوت صفةِ الخلود وتجدُّدِها، فهو خلودٌ لا ينتقضُ بمرّ الزّمان، تعبيرًا عنِ الاستقرارِ الثّابتِ في النّار، وجاء التَّعبيرُ بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، دونَ (مخلّدين)؛ لأنّ لفظة (خالد) مناسبةٌ للدّلالة على طول المدّة والخلود؛ وذلك لتضمّن بنْيتِها على حرف الألف، ففي مدّهِ لمحٌ لطول الزّمان، أمّا لفظ (مخلّدون) فيدلُّ على المبالغة في الخلود، والسّياقُ آثرَ التَّعبيرَ بلفظ (خالد) عنِ الخلود لبيان طول زمانه.

نكتةُ تقييدِ خلودِهم بالجارّ والمجرور:

التّنصيصُ على كون الخلود مستقرًّا في النّار فضلٌ منَ التّرهيب

قيّد النّظمُ الجليلُ الخلودَ بكونه في النّار في قوله جلّ شأنُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ إيغالًا في التّهديد، وإظهارًا لشدّة العقاب، فهم ليسوا خالدين فحسبُ، بل خلودُهم لا ينفكّ لحظةً عنِ الوجود فيها، فعبّرتِ الظّرفيّةُ على رسوخ الخلود في النّار، وأنّه لا خروجَ منها، فهي دارٌ مُستقرٍّ للخالدين لا ينفكّون منها.

---

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 185.

دلالةُ التّقييدِ بالتّأبيدِ نكرةً:

خلودُ الكافرين في النّار أبديٌّ حقيقيٌّ

قيّد النّظمُ الجليلُ الخلودَ بأنّه أبديٌّ في قوله جلّ شأنُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ وذلك لتأكيد معنى الخلودِ، وأنّه خلودٌ أبديٌّ بلا انقطاعٍ، فلا خروجَ منَ النّار[1]، وفائدةُ التّأكيد هنا أنّه يؤكّد إرادةَ حقيقةِ الخلودِ لا مجازِه؛ لأنّه قد يُظَنّ أنّ الخلود يدلُّ على طول المدّة على سبيل المبالغة، فجاء بلفظ الأبد للدّلالة على تأكيد الخلود، وأنّ المُراد الحقيقةُ[2]، والتّنكيرُ يدلّ على إبهام الأبد، وذلك يشير إلى أنّه أبدٌ لا يُعرفُ كنهُه.

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾:

انقطاعُ الأملِ صورةُ عقابٍ لا تُحتملُ

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ لأنّها مُستأنَفةٌ؛ سيقت لبيان حالِ الخالدين المذكورين في الجملة السّابقة، أي إنّهم خالدون في حالة انتفاء وجودِ الوليّ والنّصير، فيُعدمون مَن يشفعُ لهم بتخفيف العذاب، أو ردِّه عنهم[3]، والغرضُ من ذلك تأييسُ الكافرين وقطعُ السُّبلِ عنهم، وهذا غايةُ المبالغة في التّهديد والوعيد.

سرُّ نفيِ فعلِ الوُجدانِ المضارعِ:

أشدُّ المنعِ دوامُ حجبِ المطلوب، والحرمانُ منَ المرغوب

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ الوُجدانِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾؛ لأنّه يدلّ على وُجدان المطلوب[4]، فعبّر بذلك للدّلالة على أنّهم طلبوا الوليّ وأرادوه، ولكنّ مانعًا حالَ بينهم، وهو ما حكمَ اللّه تعالى به في ذلك اليوم بأن لا ينفعَ وليٌّ ولا نصيرٌ، إلّا مَن جاء بقلب سليم، فلمّا كان الشّيء يُطلبُ ويُراد ثمّ يمنعُ منه مانعٌ، قال مبيّنًا ذلك الحالَ: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾[5]، وقد آثر النّظمُ الكريمُ

---

(1) القنّوجي، فتح البيان: 11/ 149، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 250.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 417.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 115.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (وجد).

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 417.

التَّعبيرَ بالفعل المضارع المَنفيِّ للدّلالة على تجدُّدِ النّفي، فوُجدانُ الوليّ والنّصير مُنتفٍ على وجه الدّوام والتّجدّدِ والاستمرارِ، فلن يأتيَ زمانٌ في ذلك اليوم يجدون فيه وليًّا ما.

دلالةُ إسنادِ فعلِ الوُجدان إلى ضمير الجماعة:

النّفيُ الشّاملُ لفعلِ الوُجدان

أسندَ النّظمُ الجليلُ الفعلَ إلى ضمير الجماعة في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾؛ للدّلالةِ على أنْ لا أحدَ منهم يجدُ وليًّا أو نصيرًا، فهو نفيٌ شاملٌ لكلّ أحد منهم.

نكتةُ حذفِ مُتعلّقِ ﴿يَجِدُونَ﴾:

انتفاءُ الوليِّ يومَ القيامة عامٌّ لكلّ أحدٍ

حذفَ النّظمُ الجليلُ شبْهَ الجملة المتعلّقةِ بالفعل (يجد) في قوله جلّ شأنُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾، وذلك لأنّ انتفاءَ وجودِ الولاية ليس مختصًّا بهم، بل هو مُطلقٌ عامٌّ لكلِّ أحد، فكلُّ امرئ إنّما يذودُ عنه عملُه وصحيفةُ أعماله.

دلالةُ التَّعبير بلفظِ الولايةِ مادّةً وصيغةً:

فقدانُ الولاية خسرانٌ وخيبةٌ

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الولاية في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ للدّلالة على أنّهم لا يجدون أحدًا يتولّى أمرَهم ولا يؤدّي لهم ما يُهمُّهم من شفاعةٍ أو غيرها[1]، وقد جاء التَّعبيرُ عن ذلك بصيغة (فعيل) للدّلالة على أنّ الوليَّ شديدُ القرب والحُبّ لمواليه، فقد عدّوا الحبيبَ المُخلصَ لهم، والقريبَ الّذي يتولّى أمرَهم في ذلك اليوم، والتَّعبيرُ بالتّنكير يدلُّ على العموم، أي لا يجدون وليًّا مّا، ولا ما يمكن أن يقال له وليٌّ بأيّ صفةٍ منَ الصّفات[2].

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾:

تمامُ المهلكةِ انعدامُ المُحبِّ الأمين، والنّاصرِ المُعين

عطفَ النّظمُ الجليلُ النّصيرَ على الوليّ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ فكما أنّهم لا يجدون مَن يحولُ بينهم وبين

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 417.

(2) الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 22/ 35.

الدّخول في النّار المُسعَّرة، فهم لا يجدون مَن يُخلِّصُهم من عذابها وسعيرها[1]، وفائدةُ العطف تأكيدُ انتفاءِ كلّ أسبابِ نجاتِهم ممّا عهدوه من سُبلِ الدّنيا بوجود الوليّ والشّفيع والنّصير.

معنَى ﴿لَّا﴾ ودلالةُ تَكرارها:

تَكرارُ النّفي يشيرُ إلى تَكرار الطّلب مِنَ الوليّ ومِنَ النّصير

كرّر النّظمُ الجليلُ ﴿لَّا﴾ النّافيةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ فلم يقل: (لا يجدون وليًّا ونصيرًا)؛ لتأكيد النّفي، فنفَى وُجدان النّصير نفيًا مستقلًّا؛ وذلك لتأكيد انتفاءِ النّوعين على وجه الاستقلال، كما أنّ انتفاءَ وُجدان الوليّ وانتفاءَ النّصير نفيًا مستقلًّا يشير إلى أنّهم طلبوا كلَّ أحدٍ منهما طلبًا مستقلًّا، وهذا تعبيرٌ عن شدّةِ الفزع وعِظمِ الهول الذي أحْوَجهم إلى كلّ أسبابِ النّصرة.

دلالةُ تقديمِ الوليّ على النّصير:

حين يَتخلّى الحبيبُ لن يتوانَى النّصيرُ عنِ التّولّي

قدّم النّظمُ الجليلُ الوليَّ على النّصير في قوله جلّ شأنُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾؛ لأنّه أخصُّ منَ النّصير، فالوليّ هو القريبُ المحبُّ، أمّا النّصيرُ فلا يشترطُ فيه ذلك، فنفى القريبَ المُحبَّ الذي لا يتحقّقُ إلّا بأحد محدَّدٍ ومُعيَّنٍ، ثمّ أتبعَه بالمُعيَّن النّاصر الذي يتحقّقُ من كلّ أحد.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾ نكرةً:

الآخرةُ مستودعُ الأحداث العظام والأهـوالِ الجسام

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالظّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ دونَ غيره منَ الأسماء كالآخرة مثلًا؛ لأنّ اليوم ظرفٌ لِما يقع فيه منَ الأحداث، والتّعبيرُ به يُهيّئُ الذّهنَ لاستقبال ما يُذكرُ بعده منَ الأهوال والأحداث العظام التي تقع فيه، فلذا ابتدأ به تفخيمًا لشأنه، وجاء به نكرةً للتّهويل والتّعظيم[2].

---

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 250.

(2) الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 22/ 36.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل التّقليبِ مادّةً وصيغةً:

تقلّبُ الكافر في النّارِ كتقلّبِ المَغليّ في القِدْرِ

عبّر النّظمُ الجليلُ بالتّقليبِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ للدّلالةِ على أنّ وجوهَهم تقلّبُ من جهةٍ إلى جهةٍ أخرى تغليظًا عليهم في العذاب[1]، فتقلبُ حينًا على الجانب الأيمن، وحينًا على الأيسر، فشبّه وجوههم "بقطعةِ لحم في قِدرٍ تغلي ترامى بها الغَليانُ من جهةٍ إلى جهةٍ"[2]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة التّفعيل للدّلالةِ على كثرة التّقليب وشدّته[3].

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿تُقَلَّبُ﴾ لغير فاعلِه:

غيابُ الفاعلِ تصويرٌ لعِظم التّقليب وشدّةِ التّرهيبِ

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بفعلِ التّقليبِ المبنيِّ للمفعول في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ لكون المُرادِ التّرهيبَ بالتّقليب لا بكونه من معيّن، فالتّقليبُ تصويرٌ لسوء حال أهلِ السّعير، جيء به لبيان شدّةِ العذاب، ولا حاجةَ لبيان القائم به، فيكفي داخلي النّار سوءًا وقوعُ التّقليب لا بكونه تقليبًا من معيّن.

براعةُ اختصاصِ الوجوهِ بالتّقلُّبِ:

تقليبُ أشرفِ ما في الإنسان إذلالٌ مع التّعذيب

خصَّ النّظمُ الجليلُ ذِكرَ الوجه بالتّقليب في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ وإن كان سائرُ الجسد يتقلّبُ؛ لأنّ الوجوه أكرمُ ما في الإنسان، وفائدةُ تخصيصها بالذّكرِ الزّيادةُ في تهويل الخطْبِ، وتفظيعُ العقاب[4]، فلمّا كان أكرمَ ما في الإنسان وجهُه كان تصويرُ حالته مُتقلّبًا في النّار شديدَ الوقع على السّامعين، فيوقعُ في أنفسهم الاتّعاظَ والبِدارَ إلى اتّباع سبيل الحق.

لطيفةُ الإضافةِ في قوله: ﴿وُجُوهُهُمۡ﴾:

تخصيصُ التّقليب بوجوه الكافرين تعظيمٌ للنّكاية بهم

أضافَ النّظمُ الجليلُ الوجوهَ إلى ضمير الكافرين في قوله

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 164.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 185.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 417.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 116.

جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ للدّلالة على أنّ وجوهَهم أنفسِهم هي التي تقلّبُ لا مُطلق الوجوه، فهو زيادةٌ في النّكاية بهم.

معنَى ﴿فِي﴾ في القيد ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾:

دلالـةُ الظّرفيّةِ علـى سـوء الأحوال

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ الدّالّ على الظّرفيّةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ لتبيين فظاعةِ ذلك التّقليب، فهو واقعٌ في النّار، وليس تقليبًا مُطلقًا، فالظّرفيّةُ دالّةٌ على شدّةِ سوءِ الحالة.

معنَى (أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

النّارُ هي السّعيرُ المـتّـقـدةُ ذاتُـها أُعـيـدت بلفظ الـنّـار تبيينًا لجنسها

عرّف النّظمُ الجليلُ النّارَ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ وهي هنا للعهد الذِّكْريّ، فهي النّار المعهودةُ المذكورةُ بلفظ السّعير آنفًا، وعبّر بلفظ النّار دون سائر مرادفاتِها للتّصريح بأصرحِ ألفاظها دلالةً على جنسها، وهو أشدُّ بيانًا على شدّة العذاب.

نكتةُ إظهارِ ﴿ٱلنَّارِ﴾ دونَ الإضمارِ:

مـن زيـادة التّرهيبِ تكثيرُ أسماءِ النّار

أظهر النّظمُ الجليلُ لفظَ النّار في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ بعد أن ذكرها بلفظ السّعير آنفًا، فلم يقل: (تقلّب وجوههم فيها) بالإضمار؛ وذلك لأنّ إظهار الاسم فيه زيادةٌ في البيان، مع الدّلالة على استقلال المعنى بالتّرهيب[1]، فذكرها باسم آخرَ غيرِ السّعير فيه تهويلٌ لشأنها، وإيرادها على السّمع بألفاظ مختلفة تشديدًا في التّرهيب وقوّةً في البيان.

علّةُ فصلِ جملةِ التّمنّي عمّا قبلها:

الشّروعُ بحكاية حـالِ الكافرين في النّار

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾؛ لأنّها مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فقد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 418.

سيقت للجواب عن سؤال نشأ من حكاية حالِهم الفظيعةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾، فقيل: فماذا يصنعون عندَ ذلكَ؟ فقيل: إنّهم يقولون تلك المقولةَ مُتحسِّرين على ما فاتَهم(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالقولِ مادّةً وصيغةً:

الاعترافُ بالذّنبِ قـولًا صريحًا دلـيلُ شـدّةِ الحسرة

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ القولِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ للدّلالةِ على أنّهم صرّحوا بندمِهم، واعترفوا بجُرمِهم، وهذا يُنبئُ عن شدّة حسرتِهم، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على أنّ هذا القولَ النّادمَ يتجدّدُ منهم ويصيرُ ديْدنًا لهم.

معنَى حرفِ النّداءِ في المَطلع:

مـآلُ الكافرين لـهولِ المشهدِ حسرةٌ وندامة

افتتح النّظمُ الجليلُ جملةَ مقولِ القول بحرف النّداء في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ لإظهار تحسّرِهم، فالنّداءُ جيء به لتّنبيه السّامع بكون حالهم حقيقةً بأن يُرثى لها(2)، فمدُّ الصّوت بياء النّداء يدلُّ على شدّة تحسّرِهم وفداحةِ ندمِهم على ما فوّتوا من طاعة الله تعالى والنّبيّ ﷺ.

دلالةُ ندائِهم كلمةَ التّمنّي (ليت):

استدعاءُ التّمنّي كنايةٌ عن شدّةِ النّدم

أوقع النّظمُ الجليلُ حرفَ النّداء على الحرف الدّالِّ على التّمنّي في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ للدّلالةِ على أنّ المقصودَ بالنّداء هو إظهارُ التّحسّر والنّدم، والتّمنّي هنا مرادٌ به الكنايةُ عنِ النّدم على ما فات(3)؛ وذلك لأنّ (ليت) تدلُّ على

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 22/ 116.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 116.

استحالة التّحقّق، فلمّا نادوا ما هو مستحيلٌ ظهر أنّ المراد مجرّدُ بيانِ شدّة العوزِ لِما فاتهم، فأظهروا النّدم عليه.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الطّاعةِ ماضيًا:

الإقرارُ بالعصيانِ بعد فواتِ الأوانِ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ باللّفظِ الدّالِّ على الطّاعة صراحةً في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ للدّلالة على أنّهم تمنَّوا امتثالَ الأمر والنّهي الذي بلّغَهم به النّبيُّ ﷺ، ومَن سبقه منَ الأنبياء والرّسل عليهم السلام، وجاء التَّعبيرُ عن ذلك بالفعل الماضي للدّلالة على أنّ زمان تلك الطّاعةِ قد مضى وأنّه من شأن الدّنيا لا منَ الآخرة⁽¹⁾، والتَّعبيرُ بتمنّي الطّاعة اعترافٌ ضِمنيٌّ بالعصيان.

دلالةُ إسنادِ فعلِ الطّاعةِ إلى ضميرهم:

الاجتماعُ على الضّلالة إمعانٌ في الغيِّ

أسند النّظمُ الجليلُ فعلَ الطّاعة التي تمنَّوها إلى ضمير جماعة المتكلّمين في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ للدّلالةِ على أنّ تلك مقولةُ جميعِهم، وأنّ النّدم والتّحسّر ظهرَ منهم كلِّهم، وهذا يُنبئُ عن هول الخطْب ثَمّ.

دلالةُ التّصريحِ باسمِ الجلالة:

يُؤذنُ التّصريحُ بأحقيّةِ الله سبحانه بالطّاعة

أوقع النّظمُ البليغُ فعلَ الطّاعة على لفظ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ تصريحًا منهم بأنّهم قد علِموا أنّ الله تعالى هو الملك الأعظمُ الذي تجب طاعتُه⁽²⁾.

معنَى (الواو) في قولهم ﴿وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾:

شدّةُ الحسراتِ تحيلُ على تمنّي إيقاعِ كلِّ الواجبات وتحقيق كلِّ الطّاعات

عطفَ النّظمُ الجليلُ طاعةَ الرّسول ﷺ على طاعة الله تعالى في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾؛ لأنّ طاعة الرّسل واجبةٌ، وهي الطّريقُ إلى طاعة الله تعالى، فتمنّوا أنّهم قد

---

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 164، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 244.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 418.

فعلوا كلا الطّاعتين، أي: ليتنا أطعنا اللّه في الدّنيا فيما أمر ونهى، وأطعنا الرّسول ﷺ فيما فصَّلَ وبيَّن ونهى[1].

تمنّي الإذعانِ والخنوعِ بتكرار تمنّي الطّاعةِ والخضوع

دلالةُ تَكرار فعلِ الطّاعةِ:

كرّر النّظمُ الجليلُ لفظَ الطّاعة في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ دون أن يُقال: (أطعنا اللّه والرّسول)؛ لأنّهم ندموا كلَّ النّدم على فوات الطّاعة، فكرّروا لفظَها لبيان تمنّيهم المبالغةَ في الإذعان والخضوع[2]، كما أنّ إعادة العامل تدلّ على أنّ طاعة النّبيّ ﷺ واجبةٌ على سبيل التّأكيد والاستقلال[3].

طاعةُ الرّسول يومَ الدّين أمنيةُ كلِّ الضّالّين

وجهُ إيثارِ لفظِ (الرّسول) معرّفًا:

آثر النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بلفظ (الرّسول) معرّفًا بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ للدّلالةِ على أنّه بُعث برسالة، لا بكونه نبيًّا حسبُ، فتمنّوا اتّباعَ الرّسول وما في رسالته من شرائعَ وتعاليمَ، والتّعريفُ فيه تعريفُ الجنس، فيدلُّ على أنّهم تمنَّوا اتّباعَ كلِّ الرّسل؛ لأنّ رسالتهم واحدةٌ.

طاعةُ الله تعالى هي أصلٌ لكلّ طاعةٍ سواها

دلالةُ تقديم ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ﴾ على ﴿وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾:

قدّم النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ طاعةِ اللّه تعالى على طاعة الرّسول ﷺ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾؛ لأنّ الأصل في الطّاعة طاعة اللّه تعالى، وطاعةُ النّبيّ ﷺ تابعةٌ لطاعته ﷻ، فقدّم الأصلَ وأتبعَه بالفرع.

تمنّي حصول الطّاعة بعد الحسرة والتّنصّل من السّادة في الآخرة

معنَى (الواو) في صدرِ الجملة:

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ على الجملةِ في قوله

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 22/ 36.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 418.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 22/ 36.

تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾[1]، وفائدةُ العطفِ حكايةُ جملةِ أقوالِهم الكاشفةِ عن ندمهم ولاتَ ساعةَ مندمٍ، وشدّةِ تحسّرهم، وتنصّلِهم من سادتهم وكبرائِهم، ودعائِهم عليهم.

لطيفةُ الالتفاتِ منَ المضارعِ إلى الماضي:

التّنصّلُ والتّبرّي مِنَ السّادة سابقٌ لتمنّي الطّاعةِ

عدلَ النّظمُ الجليلُ عن التّعبيرَ بالفعل المضارع إلى الفعل الماضي في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ فعطفَ الماضيَ على المضارع على طريقة الالتفات؛ لأنّ قولهم هذا صدرَ قبل التّمنّي في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ﴾؛ فالتّمنّي حصل حين مسَّهمُ العذابُ، وهذا التّنصّلُ والدّعاءُ صدرَ منهم حين مشاهدةِ العذاب وحشْرِهم مع رؤسائهم إلى جهنم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: 38][2]، والتّعبيرُ بالماضي أيضًا يشيرُ إلى أنّ قولَهم هذا ليس مستمِرًّا كقولِهم السّابقِ بل هو اعتذارٌ أرادوا به التّشفيَ بمضاعفةِ عذابِ أسيادِهم وكبرائِهم بعد أن أيقنوا عدَم قَبولِ دعائهم لخلاصِهم منَ النّار[3].

دلالةُ التّعبيرِ بعنوانِ الرّبوبيةِ دونَ الألوهية:

الإقرارُ بالرّبوبيّة اعترافٌ بالإحسان سابقًا، ممهّدٌ للقَبول المرجوِّ لاحقًا

عبّر النّظمُ الجليلُ في سياق النّداءِ والدّعاء بعنوان الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ إشارةً إلى اعترافهم بنعمِه عليهم بإرسال الرّسل وإنزالِ الكتب والشّرائع، فدعوا اللّه تعالى مُقرّين بأنّه قد أكرمهم بأنواع الإكرام وجميلِ الإحسان[4]، فالاعتذارُ إلى اللّه تعالى بصفة الإحسان يحملُ الإقرارَ بإحسانه إليهم، طمعًا منهم برجاء القَبول.

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 194.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 117.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 117.
(4) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 165.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبَّنَآ﴾:

التّلطّفُ في الدّعاء طمعًا في حصول القَبول

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الرّبوبيّة إلى ضمير المتكلّمين في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾، اعترافًا ببلوغ إحسانِه إليهم، أي: أيّها المحسنُ إلينا[1]، فهو تلطّفٌ منهم في الدّعاء، وإقرارٌ بإحسانه السّابق، طمعًا بحصول القَبول.

نكتةُ حذفِ أداةِ النّداء:

يستظهرُ اللّائذُ باللهِ القربَ والانكسارَ طمعًا بالقَبول

حذفَ النّظمُ البليغُ حرفَ النّداء في قوله جلّ شأنُه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ فلم يقولوا: (يا ربّنا)؛ فأجروا خطابَهم "على عادة أهل الخصوصِ بالحضْرةِ؛ زيادةً في التّرقّق، بإظهارِ أنّه لا واسطةَ لهم إلّا ذلُّهم وانكسارُهم الذي عُهِد في الدّنيا أنّه الموجبُ الأعظمُ لإقبال اللّه على عبده، كما أنّ المُثبتَ لأداة البُعد بقوله: (يا اللّه) مشيرٌ إلى سُفولِ منزلته وبُعدِه بكثرة ذنوبه وغفلته تواضعًا منه لربّه؛ لعلّه يرفعُ ذلك البُعدَ عنه"[2].

علّةُ الفصلِ في جملة ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا﴾:

الطّاعةُ العمياءُ علّةُ الضّلال

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾؛ لأنّها مُستأنَفة استئنافًا ابتدائيًّا سيقت لبيانِ جوابِ النّداء[3]، فلمّا تقدّم النّداءُ شرعَ ببيان مقصودِهم منه، وهو التّمهيدُ لطلب الانتصاف من سادتِهم وكبرائهم، والإفضاءِ إلى جملة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾[4].

معنَى (إنّ) في قولهم ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا﴾:

طريقُ الإضلالِ الاتّباعُ عن جهلٍ وتغييبِ العقل

أكّد النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 418.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 418 - 419.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 194.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 22/ 117.

﴿وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بحرف التّأكيدِ (إنّ)، للإعلام بأنّهم قدِ اجتهدوا في اتّباعِهم سادتَهم وكبراءَهم في الدّنيا عن جهل، والآن صاروا على بصيرة منَ الحقّ، فأعلموا بالتّأكيد أنّهم كانوا يظنّون أنّ اتّباع السّادة والكبراء ليس ضلالًا[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الطّاعة:

اتّبعَ الكفّارُ أسيادَهم خضوعًا وإذعانًا

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ الطّاعة في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ للدّلالةِ على أنّهم قدِ امتثلوا أمرَ سادتهم وكبرائهم، وتوقّفوا عند نهيهم، إذعانًا منهم وخضوعًا في غير محلّهِ، وإشارةً منهم إلى أنّهم لم يضلّوا من تلقاء أنفسِهم، فهو اعتذارٌ عن عصيانهم اللّه تعالى ورُسلَه ﷺ وتنصّلٌ من أسيادهم.

اختلاف القراءات في كلمة ﴿سَادَتَنَا﴾ وتوجيهها:

نوع الجمع له دلالة واضحة على سياق الكلام:

قرأ يَعْقوبُ وابْنُ عامرٍ ﴿سَادَاتِنَا﴾ بِالجَمْعِ وكَسْرِ التّاءِ، وقرأ الباقونَ بِالتَّوْحيدِ: ﴿سَادَتَنَا﴾، ونَصْبِ التّاءِ[2]، فالحجة لمن قرأه بالجمع: أنه لما جاء بعده (كبراء)، وهو جمع (كبير) وجب أن يكون الذي قبله (سادة) وهو جمع (سيِّد)؛ ليوافق الجمع في المعنى، والحجة لمن قرأه بجمع الجمع: أن السادة كانوا فيهم أكبر من الكبراء، فأبانوهم منهم بجمع يتميزون به عنهم، وأيضًا: فإن جمع الجمع ورد على إرادة التكثير؛ لكثرة من أضلَّهم وأغواهم من رؤسائهم، فهو جمع (سادة)، جمع مسلَّم بالألف والتاء، وقراءة الباقين ﴿سَادَتَنَا﴾ على أنّه جمع (سيد)، فهو يدلّ على القليل والكثير؛ لأنه جمع مُكسَّر[3].

دلالةُ عطفِ الكُبراءِ على السّادةِ:

حشدُ الأسبابِ الدّاعيةِ للكفر غايتُه قبولُ العُذر

عطفَ النّظمُ الجليلُ الكبراءَ على السّادة في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّآ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 419.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 349.
(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 291، ومكّي، الكشف: 2/ 199.

﴿أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ لبيان أنّ اتّباعهم قد وقع على من امتلك الصّفاتِ الحسنةَ، فالسّادةُ هم قادةُ النّاس الذين يتولّون تدبيرَ أمورهم وعليهم طاعتُهم، والكبراء همُ الذين يَفضلون النّاسَ في العلم أوِ السّن أوِ الشّرف، فجمعوا بين السّادة والكبراء لإلقاء اللّوم عليهم؛ لعلَّ اللّه يقبلُ اعتذارَهم[1]، وجعل ابنُ عرفة العطفَ محتملًا أن يكون للتّأسيس، وذلك إذا أريد بالكبراءِ كبراءُ السّنّ، ويحتمل أن يكون العطفُ للتّأكيد إذا أريد بالكبراء الكِبرُ في المنزلة والقدر[2]، ويُزادُ على ذلك أنّ المُراد تقويةُ اعتذارهم، وإلقاءُ التّبِعة عنهم، والتزكية لاتّباعهم بأنّهم اتّبعوا أهلَ الرّأيِ والحكمة منهم، والأتمَّ عقلًا ورجاحة فيهم، فإذا كان السّادة والحكماء قد ضلّوا فنحن أقربُ للكفر منهم لافتقارنا للحكمة التي عندهم، والكفرُ والضّلالُ يُتصوّر فينا أكثرَ منهم، فلمّا ضلّوا هم مع ما لهم من عقل وحكمة ودرايةٍ، فليس علينا تَبِعةٌ ولومٌ إذا ضللنا نحن.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ السّيادةِ والكِبرِ يومَ القيامة:

حكايةُ حالِهم الماضيةِ تسويغٌ لاعتذارهم

عبّرَ النّظمُ الجليلُ عنِ المُتّبَعين بلفظ السّادة والكبراء في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ ويومَ القيامة ليسوا كذلك؛ فهم في مقام التّحقير والإهانة، فإنّما عبّروا عنهم بذلك تقويةً لاعتذارهم، وإظهارًا لكونهم لم يضلّوا من تلقاءِ أنفسهم[3].

معنَى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾:

الضّلالُ المُبينُ مُتسبِّبٌ عن طاعة الضّالّين

عطفَ النّظمُ الجليلُ الإضلالَ على الطّاعة بالفاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾؛ للدّلالةِ على

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 22/ 37.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 311.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 117.

أنّ طاعتنا إيّاهم بسببِ ما لهم من نفوذ الكلمة وقوّةِ السّلطان أنّنا اتّبعناهم[1].

سرُّ إيثارِ فعلِ الإضلالِ:

الضّلالُ عدولٌ عنِ الهداية والصّراطِ المستقيم

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ الضّلال في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ لأنّه نقيضُ الهداية، وهو العدولُ عنِ الطّريق المستقيم، وكلُّ عدولٍ عنِ المنهج هو ضلال[2]، أي: أنّهم صرفونا عنِ اتّباع الإسلام والتّوحيد؛ وذلك لأنّهم زيّنوا لنا الكفرَ والشّركَ، فأخطؤوا بنا السّبيلَ كما يضلّ المرء طريقَه إذا أخطأ وحاد عن جادّةِ الصّواب[3].

نكتةُ إسنادِ الإضلالِ إلى ضمير الجماعة:

إضلالُ النّاس منهجٌ يتواطأُ الكفّارُ عليه

أسندَ النّظمُ الجليلُ الضّلالَ إلى ضمير الجماعة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾؛ للدّلالةِ على أنّهم عملوا على جعْلِ النّاسَ ضالّين بجُملتِهم، فتواطؤوا على ذلك، أي: جعلونا ضالّين عنِ السّبيل[4].

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ معرّفًا:

السّبيلُ إلى الله واضحٌ يسيرٌ سويٌّ

عرّف النّظمُ الجليلُ السّبيلَ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ وهي هنا دالّةٌ على معهودٍ ذهنيٍّ، فالسّبيلُ هو ما عبّر عنه لفظُ الطّاعة، أي الإيمانُ وطاعةُ اللّه تعالى ورُسلِه ﷺ، وإنّما عبّر بلفظ السّبيل دون الطّريق؛ لأنّ الإيمان والدّين منهجٌ واضحٌ واسعٌ سهلُ السّلوك، فهو الطّريقُ "السّويّ المستقيمُ الموصِلُ إلى توحيدك وتصديق رسلك"[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 419، وصافي، الجدول: 11/ 194.
(2) الرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 244.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 185.
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 165.

علّةُ فصلِ جملة ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ﴾:

لا يسلم المُضِلُّ من دعاء المُضَلِّ

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾؛ لأنّها مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فسيقتِ الجملةُ جوابًا عن سؤال نشأ من إحالتهم معصيتَهم على السّادة والكبراء، فكأنّه قيل: فما تريدون لهم؟ فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾[1].

لطيفةُ تصديرِ الدّعاء بالنّداء مكرّرًا:

تقريرُ الرّبوبيّةِ إظهارٌ للضّراعةِ والاسترحام

صدّر النّظمُ الجليلُ الدّعاءَ بالنّداء مُكرَّرًا والتّصريحَ بالمنادَى بلفظ الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ فلم يقولوا: (وآتهم ضعفين من النّار)؛ وذلك للمبالغة في الجُؤارِ واستدعاءِ الإجابةِ[2]، فهو تأكيدٌ للضّراعة وطلبٌ للاسترحام.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الإيتاء على صيغة الأمر:

الدّعاءُ بمضاعفةِ الانتقامِ دليلُ شدّةِ الإيلامِ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ الإيتاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لدلالةِ الإيتاء على الإعطاء، وأصلُه منَ الإتيان وهو دالٌّ على المجيء بسهولة[3]، فعبّروا بذلك لطلب إحضارِ العذابِ إليهم؛ فأصلُ الإيتاء الإحضارُ[4]، فكأنّه إعطاءُ العذاب إليهم خاليًا ممّا يردُّه ويمنعُه عنهم.

لطيفةُ التَّعبيرِ بلفظِ الضِّعفِ مثنًّى:

طلبُ تكرارِ العذابِ وتكثيره تعبيرٌ عن شدّة غيظِ الضّالّين منَ المضلّين

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ الضِّعف في قوله جلّ شأنُه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ للدّلالةِ على تكرار العدد فيه، أي: مِثلَيّ عذابِنا، فالمرادُ الكثرةُ والشّدّةُ، أي مضاعفًا أضعافًا[5]، ولمّا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 419.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 117، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 245.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتو/ أتى).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 419.

كان العذاب معنى لا ذاتًا يمكن عدُّها، كان معنى التّكريرِ والمضاعفةِ فيه مجازًا عنِ الشّدّة والقوّة، والتّعبيرُ عنه بصيغة التّثنيةِ للدّلالةِ على التّكرير والتّشديد، كما في قوله جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك: 4]؛ والبصرُ لا يخسأ في نظرتين، فعُلم أنّ المراد التّكريرُ والكثرة[1].

معنَى ﴿مِنَ﴾ في قولهم ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ وهي هنا بيانيّةٌ، تبيّنُ جنسَ العذاب الذي سألوه لسادتهم وكبرائهم، أي: مثلَيْ عذابِنا[2].

معنَى (أل) في ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾:

الإحالةُ على العذابِ المعهودِ

عرّف النّظمُ الجليلُ العذابَ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ وهي هنا لتعريف العهد، والمرادُ به العذابُ الذي وقع بهم وعهدوه، أي: مثلَيْ عذابِنا[3].

معنَى (الواو) في قولهم ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ﴾:

ليس بعدَ العذابِ من مخرجٍ بل لعنةٌ تُخلّدهم فيه

عطفَ النّظمُ الجليلُ جملةَ اللّعن على جملة إيتاءِ العذاب في قوله جلّ شأنُه: ﴿ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾[4]، وذلك لتأكيد خلودِهم في العذاب، فليس بعد العذاب من مَخرجٍ، فطلبوا أن يكونوا ملعونين خالدين في العذاب.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ اللّعنِ أمرًا:

طلبُ لعنةِ أسيادهم تعريضٌ بانتفاء استحقاقِهم العذابَ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بسؤالِ اللّعنةِ على معنى الدّعاءِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ للتّعريض بكوْن تَبعةِ ما هم فيه إنّما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 22/ 118.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 419.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 419.
(4) صافي، الجدول: 11/ 195.

هي بسبب هؤلاء، وأنّ العذابَ الذي أُعدّ لهم حَريٌّ أن يُسلّطَ على الذين أضلّوهم[1].

دلالةُ تقييدِ فعلِ اللّعنِ بالمفعول المُطْلق:

تعيينُ نوعِ اللّعنِ طلبٌ لشدّةِ التّنكيل

قيّد النّظمُ الجليلُ اللّعنَ بالمفعول المطلق في قوله جلّ شأنُه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ وذلك لبيان كيفيّةِ اللّعنِ، فهو مخصوصٌ بكونه كبيرًا، تعبيرًا عن عِظم خُسرانهم الذي لا يَجبرُه عوضٌ، فكان طلبُهم نوعًا منَ اللّعن وهو اللّعنُ الكبير الكثير تنكيلًا بأسيادهم الذين سوّلوا لهم اتّباعَهم وأضلّوهم، والتّنكيرُ دالٌّ على التّعظيم لِما فيه منَ الإبهام، أي: لعنًا عظيمًا بحيث لا يَعلمُ كُنهَهَ إلّا اللّه تعالى.

سرُّ وصفِ اللّعنِ بالكِبَر:

أشدُّ اللّعنِ الذي لا يُجبرُ، ولا يُرجى بعدَه نجاةٌ

وصفَ النّظمُ الجليلُ اللّعنَ بكونه كبيرًا في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾؛ لدلالة الكبير على العظَمة، فالمُرادُ أشدُّ اللّعن، وأعظمُه[2]، أي اطردْهم عن رحمتك طردًا عظيمًا، وأبعدهم تبعيدًا بعيدًا بحيث لا يُرجى بعد ذلك أن ينجوا أبدًا[3].

اختلاف القراءات في كلمة ﴿كَبِيرٗا﴾ وتوجيهها:

الجمع بين الكمِّ والكيف لتأكيد المعاني:

قَرَأ عاصِمٌ وهشام بخلاف عنه بِالباءِ المُوَحَّدَةِ مِنْ تَحْتٍ: ﴿كَبِيرٗا﴾، وقرأ الباقون: بِالثّاءِ المُثَلَّثَة: ﴿كَثِيرٗا﴾[4]، فحجة من قرأ بالثاء أنه جعله من الكثرة على أنَّهم يُلعنون مرة بعد مرة بدلالة قوله: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]، فهذا يدلُّ على كثرة اللَّعن لهم، فالكثرة أشبه بتكرير اللعن لهم من الكبر، وحجة من قرأ بالباء أنَّه لمّا كان الكبر مثل (العِظَم) في المعنى، وكان كل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 119.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 185.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 165.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 349.

شيء كبيرًا عظيمًا دلَّ العِظَم على الكثرة وعلى الكبر، فتضمَّنت القراءة بالباء المعنيين جميعًا، الكبر والكثرة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّادة والكُبَراء:

السّادة أخصّ من الكبراء؛ فهم عظماء مع قيادة النّاس

السّادة جمع سيّد؛ وهو الذي فاق غيرَه بِالْعَقْلِ والمالِ والدَّفْعِ وَالنَّفْعِ، المعطي مالَهُ في حُقوقِهِ، المُعينُ بِنَفْسِه، وسُمِّيَ سَيِّدًا لأَنَّه؛ يَسودُ سَوادَ النّاسِ، أي: عُظْمهم[2]، أمّا الكبراءُ فجمْعُ كبير وأصلُه من (كبر) وهو يَدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ، ويُقالُ: وَرِثوا المَجْدَ كابِرًا عَنْ كابِرٍ، أَيْ: كَبيرًا عَنْ كَبيرٍ في الشَّرَفِ وَالْعِزِّ[3]، فالكبراء همُ العظماءُ ولا يشترطُ فيهم أن يكونوا قادةً للنّاس وأسيادًا، أمّا السّيّدُ فهو الذي يفوق النّاسَ ويقودُهم ويسود السّوادَ الأعظم، فالسّادّةُ أعلى منزلةً ومكانةً منَ الكبراء.

(1) مكّي، الكشف: 2/ 199.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سود).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإيـذاءُ المسبّبُ للكفر دونَه إيذاءٌ آخـرُ حـذّرَ اللهُ المؤمنين منه

بعد أن ذَكرَ النّظمُ الجليلُ فيما سلف وعيدَ الذين يُؤذون اللّه تعالى ورسولَه ﷺ ولعْنَهم قال جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأحزاب: 57]، وكان هذا في الإيذاء الذي يؤدّي إلى الكفر، وهو ما دأبَ عليه المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمُرجفون، أتبعَ ذلك بذكر إيذاءٍ دونَ ذلك لا يورث الكفرَ، كعدم الرّضا بقِسمةِ النّبيّ ﷺ للفيء، ونهى النّاسَ عنه أيضًا، فذكر أنّ بني إسرائيل قد آذَوا موسى بأن نسبوا إليه ما ليس فيه، فبرّأَهُ اللّه تعالى منه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاذَوۡاْ﴾: أصلُ (أذي) الشَّيءُ تتكَرَّهُهُ ولا تَقَرُّ عليه[2]، والأذى: ما يصلُ إلى الحيوان منَ الضّرر إمّا في نفسه أو جسمه أو تبعاتِه دنيويًّا كان أو أخرويًّا[3]، والأذى في الأصلِ: الضّررُ الحاصلُ، وقولُه: ﴿قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾ [البقرة: 222] كنايةٌ عنِ الاستقذار، وقوله: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ [النساء: 16] إشارةٌ إلى الضربِ، وقولُه: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264] وهو ما يَسمعُه منَ المكروه، وقولُه: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ [الأحزاب: 48]؛ أي اتركْ ما تَسمعُه منَ المنافقينَ[4].

2) ﴿فَبَرَّأَهُ﴾: أصلُ (برأ) التّباعدُ منَ الشّيء ومزايلتُه، من ذلك البُرْءُ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 43.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذي).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذي).
(4) السّمين، عمدة الحفاظ: (أذي).

وهو السّلامةُ منَ السّقم[1]، فهو التّقصّي ممّا يُكره مجاورتُه[2]، والبرءُ والتّبرّي: الانفصالُ منَ الشّيءِ المكروهِ مجاورتُه، يُقال: برأت منَ المرض وبرئت منه وأبرأت منك[3]، والمعنى المحوريُّ هو: سلامةُ الحيّ وخلوصُه ممّا يكتنفُه أو ينقصُه: كما تغطي البُرأةُ الصّائدَ فيَسْلَمَ ممّا حوله، وكما يَبْرأُ المريض من علّته ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: 49] ومنه الخلوصُ أوِ التّخليصُ منَ الدَّيْن والعَيْب، والتّهمة، وكلٍّ ما يُظنُّ أنّه شرّ: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾[4]، والمرادُ به في الآية الكريمة: تطهيرُه ممّا قالوا[5].

3) ﴿وَجِيهًا﴾: (وجه) أصلٌ يدلُّ على مقابلةٍ لشيءٍ، والوجه مُسْتَقْبلٌ لكلِّ شيء، يقال وجه الرّجل وغيره، وواجهتُ فلانًا: جعلتُ وجهي تِلْقاءَ وجهه، ومنَ الباب قولُهم: هو وجيهٌ بيّنُ الجاه[6]، وأصلُ الوجه الجارحةُ، ولمّا كان الوجهُ أوّلَ ما يستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهر البدن استُعملَ في مستقبل كلِّ شيء، وفي أشرفِه ومبدئِه، فقيل: وجه كذا، ووجه النّهار، وفلان وجيهٌ: ذو جاه وقدْر، وأَوْجَهَهُ اللّه، أي: صيَّره وجيهًا، قال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: 45][7]، ورَجُلٌ وجيهٌ: ذو وجاهةٍ، ووجَّهَه السّلطانُ وأوجَهَه: شرَّفَه، وأوجَهْتُه: صادَفْتُه وجيهًا، وكلُّه مِنَ الوَجْهِ[8]، والمُرادُ به في الآية الكريمة: ذو مكانةٍ وقدرٍ ووجاهةٍ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نهيُ المؤمنين عن أذيّةِ النّبيِّ ﷺ

يقول اللّه تعالى معلّمًا أصحابَ النّبيِّ ﷺ ومُذكِّرًا إيّاهم: يا أيّها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (برأ).
(3) السّمين، عمدة الحفاظ: (برأ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (برأ).
(5) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 4/ 310.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجه).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (وجه).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (وجه).
(9) الواحديّ، البسيط: 18/ 300.

الذين آمنوا باللّه ورسولِه لا تؤذوا رسولَ اللّه بقولِ ما يكرهُه، ولا بفعلِ ما لا يحبّه، ولا تكونوا أمثالَ الذين آذوا موسى عليه السلام إذ رماه قومه بعيبٍ كذبًا وباطلًا، ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ فيه كذبًا وزورًا، فأظهر منَ البراهين ما يبيّنُ كذبَهم، وكان موسى عند اللّه وجيهًا مشفَّعًا فيما يسألُ، ورفيعَ المنزلة عنده تعالى بطاعته إياه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الجملةِ في مفتتحِ الآية:

الشّروعُ بتحذير أهلِ الإيمان من مواطأة الضّالين

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾؛ لأنّها مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، والغرضُ من ذلك الشّروعُ بتحذير المؤمنين من أذيّة النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فبعد وعيدِ الذين يؤذونه منَ المكذّبين، استأنف لتحذير الذين يُؤذونَه منَ المؤمنين، فلا يكونوا مثل قومٍ نسبوا إلى رسولهم ما هو أذًى له[2].

غرضُ النّداءِ في مُفتتحِ الآية:

النّداءُ تنبيهٌ للسّامعين وإيقاظٌ لهم من عارضِ الغفلة

افتتح النّظمُ الجليلُ الجملةَ بالنّداء في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ لِما في النّداء من تنبيهٍ على أهمّية مضمونِ الخطاب، والمُرادُ إقبالُ السّامعين على الخطاب بحضورٍ وانتباهٍ للتّفهُّم، والإصغاء إليه[3].

علّةُ التّعبيرِ بالموصول (الذين):

المؤمنُ الحقُّ لا يُؤذي من يَهديه

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسم الموصول دونَ الاسمِ الصّريح في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فلم يقل: (يا أيّها المؤمنون)؛ للدّلالةِ على المعهودين بالإيمان، ولِما في صلة الموصول

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 331 - 332.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 119.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 122.

من دلالةٍ على علّة الخطابِ وتوجُّهِ مضمونِه للمخاطَبين، فلكونِهم مؤمنين قصدَهم بالنّهي عن أذيّة نبيّهم ﷺ.

سرُّ إيثارِ فعلِ الإيمانِ الماضي:

المصدّقون هم وحدَهم الجديرون بخطاب التّحريم

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإيمان دونَ الإسلام في قوله جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ إيماءً إلى أنّ إيمانهم يقتضي ما سيؤمرون به، وتعريضًا بأنّ الذين يُؤذون النّبيَّ ﷺ قاصدين ذلك ليسوا منَ المؤمنين[1]، فضلًا عن أنّ الإيمان أخصُّ منَ الإسلام، فالمُرادُ الذين صدّقوا بدعوة الإسلام، فإنّهم همُ المنتفعون بمضمون الخطاب، وجاء التَّعبيرُ بلفظ الماضي؛ للدّلالةِ على تمكّن الإيمان فيهم وتحقّقِه.

معنَى ﴿لَا﴾:

المؤمنُ مأمورٌ بالكفّ عن فعلِ الأذى

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف النّهي ﴿لَا﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ وهو صيغةُ طلبٍ، جيء بها لإلزام المؤمنين بالكفّ عن فعلٍ يكونون به في حالة مماثلةٍ لبني إسرائيل بأذيّة نبيِّهم، وهي هنا دالّةٌ على وجوب الامتناعِ عن فعل ذلك.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ المضارع:

النّهيُ عن الكينونةِ أدلُّ على شدّةِ الحُرمة

أدخلَ النّظمُ الجليلُ ﴿لَا﴾ النّاهيةَ على فعل الكونِ في قوله جلّ شأنِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾؛ للدّلالة على شدّة النّهي، فنهاهم عنِ الوجود في حالة يقع فيها التّماثلُ، والنّهيُ عنِ الوجود والكينونة أبلغُ منَ النّهي عنِ الفعل.

معنَى الكافِ في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ﴾:

تمثيلُ المَنهيّاتِ بفعلِ مَن سبقَ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف (الكاف) الدّالِّ على المماثلةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ المنهيَّ عنه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 122.

هو الفعلُ الذي يكون مُماثلًا لِما جاء به بعضُ بني إسرائيل مع موسى عليه السلام.

علّةُ التَّعبيرِ بالموصول (الذين):

الـنّـهـيُ عن مـمـاثـلـةِ فئةٍ مـعـهـودةٍ بالإساءة

عبّرَ النّظمُ الجليلُ عنِ الذين آذوا موسى عليه السلام بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾؛ لأنّ المرادَ النّهيُ عنِ التّماثل مع فئة منَ النّاس معروفةٍ معهودةٍ، وهمُ الذين قالوا ما قالوا منَ الأذى في حقّ موسى عليه السلام.

دلالةُ التَّعبيرِ عنِ الإيذاءِ بصيغةِ الماضي:

الاتّهامُ بما ليس بـحـقٍّ يُـؤذي النّفس

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ الأذَى في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ وهو يدلُّ على الضّرر الذي يلحقُ بالنّفس والجسم، وجيء به هنا للدّلالة على الضّررِ الذي لحق بنفس موسى عليه السلام، فهم قد آذَوه مرّاتٍ عديدةً؛ فاتّهموه بالبَرَص، وبالعيب الخَلقيِّ، وغيرِها من سوء الأقاويل، فبرّأه تعالى من كلّ ذلك[1]، وجاء التَّعبيرُ بلفظ الماضي للدّلالةِ على تحقّق الأذى ووقوعِه حقيقةً.

غرضُ التّشبيهِ ووجهُ بلاغتِه:

أقبحُ الفعالِ محاربةُ الأنبياء

وقعَ التّشبيهُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ بالنّهي عنِ الكينونةِ بحالةٍ مثلِ حالة قوم موسى عليه السلام، والغرضُ من هذا التّشبيه تقبيحُ الحالةِ المُشبّهةِ وتشويهُها؛ لأنّه قد تقرّر في نفوس المؤمنين قبحُ ما أوذي به موسى عليه السلام حين سمعوا قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: 5][2]، والتّمثيلُ يتضمّنُ الإفصاحَ عنِ المَنهيِّ عنه وهو الأذى، مع بيان قباحةِ فِعْلِه بالنّظر إلى الفاعلين السّابقين.

---

(1) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 22/ 39.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 119.

إظهارُ البراءةِ بلا مهلةٍ بيانٌ لمكانة الأنبياء عند الله

معنَى (الفاء) في صدرِ جملةِ التّبرئة:

عطفَ النّظمُ الجليلُ التّبرئةَ على الأذيّةِ بالفاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ للدّلالة على أنَّ التّبرئة قد وقعت عقبَ أقوالهم وإساءتِهم له، وتدلّ - أيضًا بما فيها من معنى السّببيّة - على أنّ إظهار التّبرئةِ مسبّبٌ عن أذاهم له عليه السلام[1].

تبرئةُ البريء إظهارٌ لخلوصِه ممّا نُسب إليه

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ التّبرئةِ ماضيًا:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ التّبرئةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ للدّلالةِ على إظهار براءتِه عيانًا وإعلانًا؛ لأنّه عليه السلام كان بريئًا ممّا لفظت أفواهُهم، فكذّبَهم فيما أسندوا إليه، وإنّما دلّتِ التّبرئة هنا على إظهار البراءة؛ لأنّه عليه السلام كان بريئًا ممّا قالوا، فالمترتّبُ على كلامهم وأذاهم ظهورُ تبرئته لا تبرئتُه[2]، وقد جاء التَّعبيرُ عن ذلك بالفعل الماضي للدّلالة على تحقّق تلك البراءةِ، وفي التَّعبيرِ بصيغة التّفعيل أيضًا دلالةٌ على أنّ البراءة قد ظهرت بالتّدريج؛ وذلك بما وقع منَ الخسف، وموتِ الفجاءة، وغيره منَ البراهين[3].

تبرئةُ الرّبّ الكريمِ فخامةٌ للمُنزَّه وحُسنُ تكريم

لطيفةُ إسنادِ التّبرئةِ إلى اسمِ الجلالة:

أسند النّظمُ الجليلُ التّبرئةَ إلى لفظ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ تعبيرًا عن أنّ الله تعالى المُتفرِّدَ بصفات الكمال والجلال والقدرة أظهر براءةَ عبده[4]، فدلّ ذلك على صدق البراءة، وفخامةِ شأنها.

إظهارُ البراءة يتجاوزُ كذبَهم وسلامتَه عليه السلام من دعواهم

معنَى (مِنْ) في القيد ﴿مِمَّا قَالُواْۚ﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (مِنْ) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ وهي هنا بمعنى المجاوزةِ كما في (عن)، أي: أظهر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 420.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 185.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 421.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 420.

براءته ﷺ منَ العيب، فلا يقال: براءةٌ منَ القولِ، بلِ البراءةُ منَ العَيْب[1]، فأظهر براءتَه مُجاوزًا بها أقوالَهم، وفي البراءة السّلامةُ ممّا أدّعوه.

إعمامُ التّبرئةِ من كمال التّنزيه

علّةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما):

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسم الموصول (ما) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ لِما فيه من دلالةٍ على العموم والإبهام، فيشملُ جميعَ ما وقع فيه أذًى له ﷺ من أقوالهم، والإبهامُ هنا هو من دَأْبِ القرآن الكريم بأن لا يفصّل فيما لا فائدةَ منه؛ بل يقصدُ العبرةَ والفائدةَ.

الأذى بالقول أشدُّ إيلامًا للنّفوس النّقيّة

سرُّ إيثارِ فعلِ القولِ ماضيًا:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ القول في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ دونَ أن يقول: (ممّا آذوا)؛ وذلك للدّلالة على أنّ الأذى المرادَ هنا قوليٌّ، وليس فعليًّا، كما آذى بعضُ النّاس النّبيَّ ﷺ في مقالتِهم بأمر زينب رضي الله عنها[2].

من ارتفعَ مقامُهُ عند الله تولّى الدّفاعَ عنه في بَلواه

معنَى (الواو) في ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾:

عطفَ النّظمُ الجليلُ وجاهةَ موسى على براءته ﷺ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ بالواو العاطفة[3]، وذلك لأنّ وجاهته ومكانته شأنٌ مُغايرٌ لبراءته، وأفاد هذا العطفُ الإشارةَ إلى علّة التّبرئة؛ "لأنّه لا يبرئ الشّخصُ إلّا مَنْ كان وجيهًا عنده"[4].

رسوخُ المكانة الرّفيعةِ سبيلُ يقينِ البراءةِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالكونِ الماضي:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بفعلِ الكون في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ للدّلالةِ على أنّ تمكّن وجاهتِه وعلوِّ قدره عند الله تعالى[5]،

---

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 487.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 421.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 56.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 421.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 22/ 121.

وصيغةُ الفعل الماضي تدلُّ على قوّة ذلك التّمكُنِ وأنّه راسخٌ في تلك المكانة المكينةِ.

أشرفُ المقاماتِ وجاهةٌ كائنةٌ عند الله

نكتةُ تقييدِ الوجاهةِ بالقيد ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

قيّد النّظمُ الجليلُ الوجاهةَ بشبْه الجملةِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ تعظيمًا لمكانته وبيانًا لِعظم هذه الوجاهة، فالظّرفيّةُ هنا مجازيّةٌ[1]، والمُرادُ منها بيانُ أنّ موسى عليه السلام مرضيٌّ عند ربّه قريبٌ منه، مستجابُ الدّعوة، ذو كرامة ومكانة ومقامٍ سامٍ[2].

وجاهةُ الله عاليةٌ ووجاهةُ النّاس فانيةٌ

دلالةُ إضافةِ الظّرفِ إلى لفظ الجلالة:

أضافَ النّظمُ الجليلُ الظّرفَ إلى لفظ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ تفخيمًا لشأن الوجاهة، فالوجاهةُ ليست عند النّاس، بل هي عند الله تعالى الذي لا يذلُّ من والاه[3].

وجاهةٌ عند الله أسمَى من كلّ وجاهة

نكتةُ تقديمِ القيدِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على الخبر ﴿وَجِيهًا﴾:

قدّم النّظمُ الجليلُ شبْهَ الجملةِ منَ الظّرف والمضافِ إليه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على الخبر في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾، ولم يقل: (وكان وجيهًا عند الله)؛ لأنّ الأهمّ كونُ تلك الوجاهةَ عند الله تعالى، لا بكونه وجيهًا حسبُ، فقدّم القيدَ للتّنبيه على مكانة الوجاهة وعِظمِها.

المكانةُ الرّفيعةُ والقبولُ الحسنُ صفاتٌ أصيلةٌ في موسى عليه السلام

دلالةُ التّعبيرِ بالوجاهةِ في الخبر ﴿وَجِيهًا﴾:

أخبر النّظمُ الجليلُ عن موسى بكونه وجيهًا في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ للدّلالة على حسن مكانته، وقَبولِه عند النّاس، وهذا يشير إلى رضوان الله تعالى عنه، وأنّه مقبولٌ عند

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 353.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 121.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 421.

مولاه، وجاء التَّعبيرُ بصيغة الصّفةِ المُشبّهةِ على وزن (فعيل) للدّلالة على رسوخ هذه الصّفة وثبوتِها فيه[1]، وجاء به على صيغة التّنكير لتفخيم الصّفةِ وتعظيمِها.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيذاءُ والضَّررُ:

الضّرر سوءٌ في الحال، والأذى ضررٌ في النّفس أوِ الجسم

الأذى هو الشَّيْءُ تَتَكَرَّهُهُ ولا تَقَرُّ عليه[2]، وهو: ما يصل إلى الحيوان مِنَ الضرر إمّا في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته دُنيويًّا كان أو أخرويًّا[3]، وقوله: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ [النساء: 16] إشارةٌ إلى الضّربِ[4]، أمّا الضّرّ فهو خِلافَ النَّفْعِ[5]، وهو سوءُ الحال، إمّا في نفسه لقلّةِ العلم والفضل والعفّة، وإمّا في بدنه لعدم جارحةٍ ونقصٍ، وإمّا في حالة ظاهرة من قلّةِ مالٍ وجاه، وقوله: ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾ [الأنبياء: 84][6]، فالضّرّ سوءُ الحال الذي تنقطع فيه المنفعةُ، أمّا الأذى فهو أشدُّ مِنَ الضّرّ فيُقال للضّرب أذى ولا يُقال له ضرّ، وعبّرَ في الآية الكريمة بالأذى؛ لأنّ القول السّيِّءَ يؤذي النّفسَ أشدَّ مِنَ الضّرّ بسوء الحال.

التّبرئةُ والتَّطهيرُ والتّنزيهُ:

التّبرئةُ الخلوصُ عن كلّ مكروهٍ، والتّطهيرُ خلوصٌ مِنَ النّجاسة، والتّنزيهُ خلوصٌ مِنَ السّوء

التّبرئة تدلُّ على التّباعد مِنَ الشّيء ومزايلتِه، من ذلك البُرْءُ وهو السّلامةُ مِنَ السّقم[7]، فهو التّقصّي ممّا يُكره مجاورتُه[8]، والبُرء والتّبرّي: الانفصالُ مِنَ الشّيء المكروهِ مجاورتُه، يقال: برأت مِنَ المرض وبرئت منه وأبرأت منك[9]، أمّا التّنزيه فهو من (نزه) وأصلُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 121.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذي).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذي).
(4) السّمين، عمدة الحفاظ: (أذي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرّ).
(6) الرّاغب، المفردات: (ضرّ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(8) الرّاغب، المفردات: (برأ).
(9) السّمين، عمدة الحفاظ: (برأ).

يدلُّ على بُعْدٍ في مَكانٍ وغَيْرِهِ، ورَجُلٌ نَزيهُ الخُلُقِ: بَعيدٌ عَنِ المَطامِعِ الدَّنيَّةِ، ونَزِهُ النَّفْسِ: ظَلِفُها عَنِ المَدانِسِ، خَرَجْنا نَتَنَزَّهُ، إذا تَباعَدوا عَن الماءِ والرّيفِ، ومَكانٌ نَزيهٌ: خَلاءٌ لَيْسَ بِهِ أَحَدٌ[1]، والتّنزيه عنِ الأقذار، المُباعدةُ عنها، والنَزاهَةُ: البُعدُ عنِ السّوءِ[2]، فهو دالٌّ على الخلوص منَ الأقذار والبعدِ عنها، أمّا التّطهيرُ فهو يدلُّ على نَقاءٍ وزَوالِ دَنَسٍ، ومِنْ ذَلِكَ الطُّهْرُ، خِلافُ الدَّنَسِ، والتَّطَهُّرُ: التَّنَزُّهُ عَنِ الذَّمِّ وكُلِّ قَبيحٍ[3]، والطُّهر: نَقيضُ النَّجاسَةِ[4]، والطّهارة: النّظافةُ والمبالغةُ فيها[5]، فالتّطهيرُ عنِ الخُلوصِ منَ النّجاسة، وقد عبّرَ في الآية الكريمة بالتّبرئة للدّلالة على تخليصه منَ المكروه الذي قالوه، وتطهيرِه منه[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزه).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (نزه).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (طهر).
(5) السّمين، عمدة الحفاظ: (طهر).
(6) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 4/ 310.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: 70 - 71]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

النّـهـيُ عنِ المُنكراتِ متبوعٌ بالأمرِ بالفضائلِ

لمّا نهى النّظمُ الجليلُ المؤمنين عمّا يؤذي النّبيَّ ﷺ، فنهاهم أن لا يكونوا مثلَ الذين آذوا موسى عليه السلام، أتبع ذلك بتوجيه المؤمنين بأن يتّسِموا بالتّقوى، وأن يكون قولُهم سديدًا؛ لأنّ المقصود منَ النّهي عنِ المنكرات هو التّحلّي بالمحامد[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَدِيدٗا﴾: (سدّ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى رَدْمِ شَيْءٍ ومُلاءَمَتِهِ، مِنْ ذَلِكَ سَدَدْتُ الثُّلْمَةَ سَدًّا، وكُلُّ حاجِزٍ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ سَدٌّ، ومِنْ ذَلِكَ السَّدِيدُ، ذو السَّدادِ، أي: الاسْتِقامَةِ؛ كَأَنَّهُ لا ثُلْمَةَ فيهِ[2]، والتَّسْديدُ: التَّوفيقُ للسّداد، وهو الصَّوابُ والقصدُ من القول والعمل، ورجلٌ مُسَدَّدٌ، إذا كان يعملُ بالسّداد والقصد[3]، والسّدادُ: الإصلاح والإيثاق، والاستقامة والإصابة في المَنْطِقِ[4]؛ والمرادُ به في الآية الكريمة: "القصدُ إلى الحق، والقولُ بالعدل"[5].

2) ﴿فَازَ﴾: (فوز) أصلٌ يدلُّ على النّجاةِ، وقولهم: فاز يفوز، إذا نجا، وهو فائزٌ، وفاز بالأمر، إذا ذهب به وخلُصَ[6]، والفوز: النّجاءُ والظّفرُ بالأمنية والخير مع حصول السّلامة، وفي التّنزيل العزيز:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 121 - 122.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سدّ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (سدد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سدد).
(5) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 563.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوز).

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ [آل عمران: 188]؛ أي: بمنجاة من العذاب، ويقال: فاز إذا لَقيَ ما يُغْتَبَطُ[1]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج: 11]، ﴿فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[2]، والمرادُ به في الآية الكريمة: النّجاةُ منَ النّار، والظّفرُ بجميع أمانيه في الدّنيا والآخرة[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مآلُ تقوى المؤمنين وسدادُ قولهم حسنُ الجزاءِ في الدّنيا والآخرة

يقول اللّه تعالى ذِكرُه مُناديًا الذين آمنوا وصدّقوا اللّه ورسولَه ﷺ: اتّقوا اللّه، ولا تعصوه، وقولوا في رسول اللّه والمؤمنين قولا قاصدًا غيرَ باطل، فإنّكم إنِ اتّقيتم وقلتم القولَ السّديدَ فإنّ اللّه يوفّقُكم لصالح الأعمال، فيصلحُ أعمالكم، ويعفو عن ذنوبكم، فلا يعاقبُكم عليها، ومَن يعملْ بما أمر اللّه تعالى به والنّبيُّ ﷺ فيطعْهما فإنّه قد ظفرَ بالكرامة العظمى منَ اللّه وهو الفوز والنّجاة يومَ القيامة[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآية عما قبلها:

بعدَ النّهيِ عنِ الأذى الشّروعُ ببيانِ ما فيه النّفعُ والخيرُ

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾؛ لأنّها مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، فلمّا نهى المؤمنين في الآية السّابقة عنِ الأذى، شرع بأمرهم بما فيه الفائدةُ والنّفعُ، والغرضُ من ذلك تقويةُ الصّارف عن ذلك الأذى، بإيراد ما يدعو إلى تركه وهو الأمرُ بالتّقوى والقولِ السّديد[5].

غرضُ النّداءِ في جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

نداءُ المؤمنين دليلُ عِظَمِ الشأن ووجوبِ الأمر

افتتحَ النّظمُ البليغُ قولَه جلّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ بالنّداء؛ وذلك لِما في النّداء منَ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فوز).
(2) الرّاغب، المفردات: (فوز).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 422.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 335 - 336.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 421.

التّنبيه على أهمّية مضمونِ الخطاب، فيُقبلُ المخاطَبُ على حسن الإصغاء والانتباه[1].

علّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

صفةُ الإيمانِ معهودةٌ في المخاطبين

عبّرَ النّظمُ الكريمُ بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ دونَ الاسمِ الصّريح بأن يقول: (يا أيّها المؤمنون)؛ وذلك للدّلالةِ على أنّهم معهودون بالإيمان، فضلًا عن أنّ صلة الموصول تتضمّنُ علّةَ الخطاب وهو الإيمانُ، أيّ: إنّ سببَ مخاطبتِكم بالتّقوى والأمرِ بالقول السّديد هو إيمانُكم.

سرُّ إيثارِ فعلِ الإيمان وصوْغِه ماضيًا:

الإيمانُ علّةُ الأمرِ بالتّقوى والسّدادِ في القول

آثرَ النّظمُ الكريمُ النّداءَ بصفة الإيمان دونَ الإسلام في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ إيماءً إلى أنّ صفة الإيمان تقتضي الأمرَ بالتّقوى والقولِ السّديد، ففيه تعريضٌ بأنّ مَن لا يفعلُ ذلك فهو ليس من أهل الإيمان ولكنّهم منافقون[2]، والخطابُ بصفة الإسلام يشملُ مَن أسلم نفاقًا لا إيمانًا، فعُلِم بذلك أنّ الخطاب بصفة الإيمان تعريضٌ بالمنافقين، وجاء بصيغة الفعلِ الماضي إشارةً إلى تحقُّق الإيمان فيهم وصدْقِهم فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتّقوى في الفعل ﴿ٱتَّقُواْ﴾:

المُتّقي أبعدُ النّاسِ عن إيقاعِ الأذى بغيره

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالأمرِ بالتّقوى في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تأكيدًا على وجوب الكفّ عمّا نهى عنه في الآية السّابقة، وهو أذى النّبيّ ﷺ، فالأمرُ بالتّقوى بعد ذلك النّهي حثُّ المؤمنين على الانصراف عنِ الأذى وترْكِه[3].

دلالةُ إيقاعِ فعلِ التّقوى على عنوان الألوهيّةِ:

التّذكيرُ بالجلالة أدعى لفعلِ التّقوى

أوقعَ النّظمُ الجليلُ فعلَ التّقوى على عنوان الألوهيّة في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 122.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 421.

جلّ شأنُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ دونَ الرّبوبيّة، فلم يقل: (اتّقوا ربّكم)؛ تذكيرًا لهم بمخافةِ مَن له العظمةُ والجلالُ، فيكونُ ذلك أدعى؛ لأن يتّقوا فيصدّقوا إيمانَهم بالعمل فتكونَ لهم وقايةٌ من سخط اللّه تعالى[1]، فإنّ إيراد الاسم الجليل أنسبُ في بيان عِظم المأمور به والمنهيّ عنه وتنبيهٌ للسّامع على عظمة الآمر والنّاهي.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾:

القولُ السّديدُ والتّقوى من شُعب الإيمان

عطفَ النّظمُ الجليلُ الأمرَ بالقول السّديد على الأمر بالتّقوى في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾؛ للإشعار بأنّ القول السّديد هو من شُعب الإيمان، فكما أنّ التّقوى من لوازم الإيمان فإنّ القول السّديد كذلك[2].

غرضُ الأمرِ بالقولِ السّديدِ:

الأقوالُ الصّالحةُ والنّافعةُ من مقتضياتِ الإيمانِ

أمرَ النّظمُ الجليلُ المؤمنين بالقول السّديد في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ للدّلالةِ على أنّ الأقوالَ الصّالحةَ والنّافعةَ واجبةٌ على المؤمنين، كإفشاءِ السّلام، وإظهارِ المحبّة بأن يقول المؤمن للمؤمن: إنّي أحبُّك في اللّه تعالى، وإيجابُ القول السّديد هو بابٌ عظيمٌ من أبواب الخير[3].

لطيفةُ وصفِ القولِ بالسّداد:

القولُ السّديدُ هو السّليمُ المستقيمُ الخالي منَ الانحراف

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالسّداد في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ وهو لفظٌ دالٌّ على الاستقامة[4]، فهو الأقوالُ السّليمةُ الخاليةُ منَ الانحراف عنِ الحقّ، كما يسدّد الرّامي سهمَه بإتقانٍ إلى الهدف[5]، فيكون القولُ المرادُ هو القولَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 421 - 422.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 122.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 122.
(4) الرّاغب، المفردات: (سدّ).
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 252.

الصّحيحَ السّليمَ البعيدَ عن أذى النّاس واتّهامِهم والافتراءِ عليهم، والبعيدَ عنِ الجدال والمراء[1].

دلالةُ التّنكير في ﴿سَدِيدًا﴾:

كلُّ قولٍ حَسَنٍ هو قولٌ سديدٌ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ القول بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ليعمّ جميعَ ما يأتونه منَ الأقوال، فلا يخصُّ نوعًا دون نوع[2]، فيشملُ كلَّ قول حسَنٍ سديد، كإرشادٍ للنّاس بأقوال الأنبياء والحكماء، وقراءةِ القرآن، وروايةِ الحديث، وتمجيدِ اللّه تعالى والثّناءِ عليه، والتّسبيحِ وغيرِ ذلك من محاسن الأقوال التي بها تشيعُ الفضائلُ والحقائقُ بين النّاس فيرغبون في التّخلّقِ بها[3].

الغرضُ من تقديم الأمرِ بالتّقوى:

التّقوى ميزان قَبول العمل

قدّمَ النّظمُ الجليلُ الأمرَ بالتّقوى على الأمر بالقول السّديد في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ للدّلالةِ على أنّ سداد القول وصلاحَه من شُعب التّقوى، كما أنّه من شُعب الإيمان[4]، وفي التّقديم بيانٌ لأهميّة التّقوى بوصفه ميزانَ قَبولِ العمل، والهاديَ إلى صواب القول، والعاصمَ منَ الزّيغ والخَطَل.

الموقعُ البيانيُّ للجملة في صدر الآية:

صلاحُ الأعمال قرينُ التّقوى وسدادِ الأقوال

ساق النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ جوابًا للطّلب في الآية السّابقة؛ لكونِه ﷺ لمّا أمر بالتّقوى والقولِ السّديد وهما من وسائل الإصلاح، فإنّه أعقبَ ذلك ببيان جزاءِ مَنْ يأتي بهما، فمن أطاع اللّه تعالى بالتّقوى والقول السّديد فإنّه تعالى يصلحُ له أعمالَه ويغفرُ له ذنوبَه[5].

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 165.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 353.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 122.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 122.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 22/ 123.

بلاغةُ المجازِ في جملة إصلاحِ الأعمال:

إصلاحُ الأعمالِ أماراتٌ على التّوفيق والهدى

إصلاحُ الأعمالِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ مجازٌ عنِ التّوفيق؛ فاللهُ تعالى وعد المؤمنين بأنّه يوفِّقُهم للأعمال الصّالحة، ويَهْديهم إليها، ثمّ يُثيبُهم عليها[1]، فذكر المسبَّبَ وهو الأعمالُ الصّالحة، وأراد السّببَ وهو توفيقُه تعالى لذلك؛ فاللهُ تعالى لا يُصلح فاسدَ الأعمال ممّا اكتسبت أيدي العباد، ولكنّه يوفّقُ عبده؛ لأن يأتي بالأعمالِ الصّالحة، وإنّما أورد ذلك على سبيل المجاز لبيان أثرِ نعمتِه وتوفيقِه تعالى بأنّه هو الذي يُصلحُ الأعمالَ، تنبيهًا للمؤمنين على عظيم نعمائِه عليهم.

وجهُ التّعبيرِ عنِ الإصلاح بالمضارع:

تجدّدُ إصلاحِ الأعمالِ وتدريجُهُ وجهٌ للثّباتِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ الإصلاح بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ للدّلالة على استمراره ودوامِه، فإنّ صلاح العمل يلزمُ التّدريجَ، فيقعُ شيئًا بعد شيءٍ حتّى يكون على أتمّ وجهٍ[2].

معنَى (اللام) في القيد ﴿لَكُمۡ﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ وهي دالّةٌ على الاختصاص، أي: يخصُّكم بهذا الإصلاح، فهو إكرامٌ لهم على سداد القول.

نكتةُ تقديمِ الإصلاحِ وتقييدِه بالقيد ﴿لَكُمۡ﴾:

إظهارُ عنايةِ الله تعالى بالمؤمنين من تمام الإكرام

قيّد النّظمُ الجليلُ الإصلاحَ بشبْهِ الجملة ﴿لَكُمۡ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ دون أن يقول: (يصلح أعمالكم)؛ وذلك للدّلالة على عنايته تعالى بالذين يتّقونه ويقولون القولَ السّديد، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشرح: 1][3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 117، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 353.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 422.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 123.

من كرمِ الله تعالى إصلاحُهُ جميعَ الأعمال التي قدَّمَتْها أيديهم

دلالةُ جمعِ ﴿أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ وإضافتِه إلى ضميرهم:

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ الأعمال بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ للدّلالةِ على أنّه تعالى يُصلحُ جميعَ أعمالهم، فالجمعُ يتناول أعمالَ كلِّ واحد منَ المؤمنين، وأضافها إلى ضمير المخاطَبِ للدّلالةِ على الأعمال التي تنسبُ إليهم، أي: أعمالكم التي تأتونها وتقومون بها، والتي تُهمّكم بحيث إنّها تُنسبُ إليكم، فاللّه تعالى يصلحُ هذه الأعمالَ تكريمًا منه ومباركةً بالقول الصّالح السّديد.

بركةُ التّقوى تعمُّ إصلاحَ الأعمال ومغفرةَ الذّنوب

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾:

عطفَ النّظمُ الجليلُ مغفرةَ الذّنوب على إصلاح الأعمال في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ للدّلالةِ على أنّ التّقوى المأمورَ بها تكونُ سببًا في إصلاح الأعمال، وكذلك سببًا في مغفرة الذّنوب[1].

سترُ الذّنوبِ ومحوُها إكرامٌ منَ الجليل لعباده المتّقين

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ المغفرةِ مضارعًا:

عبّرَ النّظمُ البليغُ بلفظ المغفرة في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾؛ للدّلالةِ على سترِ اللّه تعالى ومحْوِه ذنوبَ المؤمنين، فاللّه تعالى هو السّاترُ لذنوب عباده المُتجاوِزُ عن خطاياهم وذنوبهم[2]، ومغفرةُ الذّنوب منه تعالى هي أن يصون العبدَ من أن يمسّه العذابُ[3]، وآثر النّظمُ التَّعبيرَ عن ذلك بالفعل المضارع للدّلالة على دوام مغفرتِه تعالى تفضّلًا منهُ، ومنّةً.

مغفرةُ الذّنوب تكريمٌ للمؤمنين

معنَى (اللّام) في القيد ﴿لَكُمۡ﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنُه:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 123.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).

(3) الرّاغب، المفردات: (غفر).

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ وهي هنا دالّةٌ على الاختصاص والتّعليل، أي لأجلكم خاصّةً، وهذا غايةُ التّكريم والرّحمة أن يتجاوز اللّه تعالى عن ذنوب عباده من أجلهم، وفائدةُ هذه المغفرة تعود على وجه الخصوص للمؤمنين، وليس للّه تعالى منها منفعةٌ، فهو الغنيّ عن عباده.

فائدةُ تقديمِ القيد ﴿لَكُمۡ﴾:

من جميلِ العطاءِ تخصيصُه بالمخاطَب

قدّمَ النّظمُ الجليلُ شبْهَ الجملة منَ الجارّ والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ على المفعول به في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾، فلم يقل: (ويغفر ذنوبكم لكم)؛ للدّلالةِ على اختصاص هذه المغفرة بهم، أي: يغفر لكم خاصّةً[1].

سرُّ إيثارِ التعبير بقوله: ﴿ذُنُوبَكُمۡۗ﴾:

يَمحو اللّه تعالى عواقبَ الأعمال يومَ العرضِ عليه للحساب

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ الذّنْبِ دونَ غيره كالمعاصي والآثام في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾؛ لأنّ الذّنب يتعلّقُ بعاقبة الفعل؛ فالذَّنْبُ هو الأخذ بذنَبِ الشّيء، ويُستعملُ في كلّ فعل يُستوخمُ عقباه اعتبارًا بذنَب الشّيء، ولهذا يسمّى الذَّنْبُ تبعةً، اعتبارًا لِما يحصلُ من عاقبته[2]، والإثم اسمٌ للأفعال المُبطئةِ عنِ الثّواب[3]، أمّا المعصيةُ فهي نقيضُ الطّاعة[4]، فعبّر في الآية بالذّنوب؛ لأنّها تتعلّق بالمغفرة؛ نظرًا إلى دلالة الذّنب على عاقبة الفعل، فالمغفرةُ تكون لِما يعقبُ ذلك الفعلَ منَ العقاب، فعفا اللّه تعالى عنهم أن يعاقبهم، فالمؤمنون أطاعوا اللّه تعالى، ولكنّهم غيرُ معصومين منَ الوقوع في الخطأ والسّوء.

نكتةُ جمع (الذنوب) وإضافتِها:

من وجوهِ فضلِ المنّانِ محوُ ذنوبِ أهلِ الإيمان

آثرَ النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ الذّنوب بصيغة الجمع في قوله

(1) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 22/ 41.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذنب).
(3) الرّاغب، المفردات: (أثم).
(4) الرّاغب، المفردات: (عصا).

جلّ شأنُه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ للدّلالةِ على أنّه تعالى يغفرُ لهم جميعَ ذنوبهم؛ ولذا لم يقل: (من ذنوبكم)[1]، فمغفرةُ الذّنوب تكون على سبيل الاستقصاء تفضّلًا منه تعالى، وإضافةُ الذّنوب إلى ضمير المخاطَبين يدلُّ على أنّ تلك الذنوبَ هي الذّنوبُ التي صدرت منكم[2]، فيكون ذلك أظهرَ للامتنان.

لطيفةُ تَكرارِ القيد ﴿لَكُمۡ﴾:

كرّرَ النّظمُ الجليلُ القيدَ بشبْهِ الجملة ﴿لَكُمۡ﴾ مع فِعْلَي الإصلاح والمغفرة في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ للدّلالةِ على عظيم عنايته تعالى بهم، وتأكيدًا لاختصاصِهم بذلك الامتنان، ففي التَّكرارِ ترسيخٌ وتقرير، وإظهارٌ للمنّة والفضل.

نكتةُ تقديمِ إصلاحِ الأعمال على مغفرةِ الذنوب:

مَـن يجتهد في إصــلاح عملِه يُكـافَأ بغفران ذنبِه

قدّمَ النّظمُ الجليلُ إصلاحَ الأعمال على مغفرة الذّنوب في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾؛ لأنّ العمل الصّالح هو السّببُ الذي لأجله تقعُ المغفرةُ، فقدّمه من باب تقديم السّبب على المسبَّب.

بلاغةُ النّشرِ في الآية:

مـــن جـــمـــال التَّعبيرِ ترتيبُ الــجــزاء على عـكـس تـرتـيـبِ الأوامر

أورد النّظمُ الجليلُ المذكوراتِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ نشرًا على عكس اللّف، ففي الآية أمران وجزاءان، "فإصلاحُ الأعمال جزاءٌ على القول السّديد؛ لأنّ أكثر ما يفيدُه القولُ السّديد إرشادُ النّاس إلى الصّلاح أوِ اقتداءُ النّاس بصاحب القول السّديد، وغفرانُ الذّنوب جزاءٌ على التّقوى"[3].

(1) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 22/ 41.
(2) النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 2/ 166.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 123.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾:

من تمامِ الجزاءِ الوعدُ بالفوزِ عندَ تحقيقِ الطّاعةِ

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾، أي: وتفوزوا فوزًا عظيمًا إذا أطعتم[1]، وتصلحُ الواو أن تكون استئنافيّةً[2]، فالجملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا للتّقرير، فقرّرتِ الجزاءَ بإصلاح الأعمال ومغفرة الذّنوب المُترتّبَ على التّقوى والقولِ السّديد، فإنّ مَن يأتي بالطّاعة المأمورِ بها بأن يتّقيَ ويُحسنَ القولَ فإنّه قد فاز الفوز العظيم.

دلالةُ (مَنْ) في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ﴾:

كرمُ المنّانِ لا يحدّهُ حدٌّ بدلالةِ العمومِ والشّرطِ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ باسم الشّرط (مَنْ) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ وهو اسمٌ دالٌّ على العموم، فيفيدُ أنّ الحُكم شاملٌ لكلِّ مطيعٍ ولكلّ طاعةٍ، فليس الحكمُ مخصوصًا بأهل زمان، ولا بفئة منَ الأعمال، وجاء التَّعبيرُ باسم الشّرط دون غيره لِما في مضمون الشّرط من تأكيدٍ على وقوع الوعد وتحقّقِه، فإنّ الفوز العظيم واقعٌ لا محالةَ إذا جيء بالطّاعة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يُطِعِ﴾ مضارعًا:

دوامُ إتيانِ المأمورِ به واجتنابِ المنهيّ عنه سبيلٌ للفوزِ العظيمِ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ الطّاعة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾؛ للدّلالةِ على أنّه يفعلُ جميعَ الأوامر والنّواهي، والتي من جُملتها التّقوى والقولُ السّديد، أي: أنّه يفعل جميع الطّاعاتِ، أو أكثرَها[3]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع للدّلالةِ على أنّه يجدّد الطّاعةَ للّه ورسوله في كلِّ وقت[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 123.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 196.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 312.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 422.

نكتةُ إيثارِ الاسم الجليلِ مع ذِكْر الطّاعةِ:

إنّما يتّقي المتّقون ويمتثلُ المطيعون لمعرفتِهم بجلالِ الله تعالى

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ تنبيهًا على شدّة لزوم الطّاعة ووجوبِها، فهي طاعةٌ للإله الذي لا أعظمَ منه[1]، وإيماءً إلى أنّ الطّاعةَ حصلت منهم لمعرفتهم بعظمةِ إلههم وجلاله، فهو الإله العظيم ذو الجلال والإكرام.

دلالةُ عطفِ الرّسول على الله تعالى:

طاعةُ الرّسولِ من تمامِ طاعةِ الله تعالى

عطفَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الرّسولِ على اللّه تعالى في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بيانًا بأنّ عظمةَ النّبيّ ﷺ فرعٌ عن عظمةِ اللّه تعالى[2]، وتعظيمًا لشأن طاعته ﷺ، وأنّ الفوز في الدّار الآخرة متوقّفٌ على وقوع كلا الطّاعتيْن؛ طاعةِ اللّه تعالى وطاعةِ النّبيّ ﷺ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ(رسوله) دون (نبيّه):

الرّسولُ لفظٌ يصرّحُ بتحمّلِ رسالةٍ وشريعةٍ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الرّسالة دونَ النّبوّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾؛ للدّلالةِ على أنّه مبعوثٌ برسالةٍ، وأنّ الطّاعة المذكورة واقعةٌ فيما تضمّنته تلك الرّسالةُ من تعاليمَ وأوامرَ ونواهٍ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

عظمةُ النّبيّ ﷺ صادرةٌ من عظمة الله تعالى

أضافَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الرّسول إلى ضمير الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ تعظيمًا للنّبيّ ﷺ، وإشارةً إلى أنّ عظمته من عظمة اللّه تعالى[3]؛ لأنّه تعالى هو الذي أرسله واختاره لتحمُّل الرّسالة، فهو منتسبٌ إلى اللّه تعالى، وهذه رتبةٌ ومكانةٌ ساميةٌ رفيعةٌ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 422.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 422.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 422.

معنَى (الفاء) في قوله: ﴿فَقَدۡ فَازَ﴾:

الفوزُ العظيمُ نتيجةٌ للطّاعة السّابقة

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الفاء الدّاخلِ على (قد) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ وهي هنا الفاءُ الرّابطةُ لجواب الشّرط بفعله[1]، فجيء بها للدّلالةِ على أنّ ما بعدها جوابٌ للشّرط الذي سبقها، فربطت آخرَ الكلام بأوّله، ورتّبتِ النّتيجةَ على السّبب، أي: أنّ مآل الطّاعةِ الفوزُ العظيمُ.

معنَى (قد):

سَوقُ ما يدلّ على تحقُّق الوعدِ الرّبّانيّ تنشيطًا للسّامعين

أدخلَ النّظمُ الجليلُ حرفَ التّحقيق (قد) على الفعل الماضي في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ للدّلالةِ على تحقيقِ الفوز وتأكيدِه[2]، وفائدةُ التّأكيد هنا تأكيدُ تحقُّقِ الوعد تنشيطًا للسّامعين وإلهابًا لهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفوز فعلًا ماضيًا:

الفوزُ الحقيقيُّ يتحقّقُ بدخول الجنّة والنّجاةِ منَ النّار

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ الفوزِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ لدلالته على الظّفر بالخير مع حصول السّلامة[3]؛ تعبيرًا عن نجاتهم منَ النّار، مع حصولهم على ما يتمنّون وظفرِهم به[4]، وصوْغُه على هيئة الماضي يُظهرُه مُتحقّقًا واقعًا.

نكتةُ تقييدِ فعْلِ الفوزِ بالمفعول المُطلق:

تأكيدُ تحقُّقِ الفوزِ وحدوثِه تشجيعٌ على الطّاعة

قيّد النّظمُ الجليلُ فوزَ مَن يطيعُ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ بالمفعول المطلق في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾؛ تأكيدًا لحدوث الفوز وتحقُّقه[5]، فهو فوزٌ لا فوزَ بعده، ولا أعلى منه، والغرضُ من تأكيد ذلك الفوز تشويقٌ وإلهابٌ للسّامع وحثٌّ له على الطّاعة.

---

(1) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 22/ 41.

(2) الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 22/ 41.

(3) الراغب، المفردات: (فوز).

(4) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 22/ 41.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 422.

نكتةُ وصفِ الفوزِ بالعظيم:

مقامُ الفوز بالجنّة في المرتبة العليا من العظمة والسُّموّ

وصفَ النّظمُ الجليلُ الفوزَ بكونه عظيمًا في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ للدّلالةِ على أنّه في الغاية العليا منَ القدر والمكانةِ الرّفيعة التي لا يبلغُها أحدٌ[1]، وجاء الوصفُ نكرةً بصيغة المبالغة على وزن (فعيل) للمبالغة في عظمته، فليس هناك فوزٌ أعظمُ منه[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّداد والصّواب:

السّديدُ قولٌ مستقيمٌ ملائمٌ، أمّا الصّوابُ فهو صحيحٌ نقيضُ الخطأِ

السّديدُ أصلُه يَدُلُّ عَلَى رَدْمِ شَيْءٍ ومُلاءَمَتِه، والسَّديدُ، ذو السَّدادِ، أي: الاسْتِقامَةِ؛ كَأنَّه لا ثُلْمَةَ فيه[3]، وهو: الإصابةُ في المَنْطِقِ، يقالُ: إنه لَذو سَدادٍ في مَنْطِقِه وتَدْبيرِه[4]، أمّا الصّوابُ فهو من (صوب) وأصلُه يدلّ على نُزولِ شَيْءٍ واسْتِقْرارِه قَرارَهُ، مِنْ ذَلِكَ الصَّوابُ في القَوْلِ والفِعْلِ، كَأنَّه أمْرٌ نازِلٌ مُسْتَقِرٌّ قَرارَهُ، وهوَ خِلافُ الخَطَأ[5]، فالقول غيرُ السّديد هو القول غيرُ المستقيم، وغيرُ الملائم، أمّا الصّوابُ فهو خلافُ الخطأ، ولمّا كان المرادُ بالسّديد في الآية الكريمة: "القصد إلى الحقّ، والقول بالعدل"[6] ناسب إيثارُه في سياق الآية؛ لأنّ اللّه تعالى قد أمرَهم في الآية بالقول السّديد لتكون أقوالُهم ملائمةً مقبولةً قاصدةً للحقّ والعدل، وهي الوصيّةُ المناسبةُ للآداب في القول، وليس المرادُ القولَ المصيبَ الذي يخالف الخطأ الذي هو أنسبُ بالعلم والحُكم.

الفوز والنّجاة:

الفوزُ نجاةٌ وظفرٌ بالمطلوب

الفوزُ: أصلٌ يدلُّ على النّجاةِ، وفاز بالأمر، إذا ذهب به وخلَص[7]،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 117.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 22/ 41.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سدّ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سدد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 563.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوز).

والفوز: النّجاةُ منَ الشّرّ، والظَّفَرُ بالأمنيّة والخير مع حصول السّلامة، ويقال: فاز إذا لَقيَ ما يُغْتَبَطُ[1]، أمّا النّجاةُ فأصلُها يدلّ على كشْطٍ وكشفٍ وانفصال منَ الشّيء، وهو قرينُ السّرعةِ وفيه معنى الذهاب والانكشاف منَ المكان، والنّجوةُ منَ الأرض، وهي التي لا يعلوها سيلٌ بذهابه عنها، ثمّ أطلق على كلّ خلاص، كقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: 53] أي خلّصناهم[2]، وممّا ذُكِرَ فالفوز يجمع بين النّجاة منَ الشّرّ والفوز بالمطلوب، فعبّر به في الآية للدّلالةِ على النّجاة منَ النّار، والظّفَرِ بجميع الأماني في الدّنيا والآخرة مع السّلامة[3].

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نجو).

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 422.

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾ [الأحزاب: 72 - 73]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

محاسنُ الأخلاقِ وفضائلُ الآدابِ من جنسِ التّكليفِ بالشّريعة

لمّا بيّنَ النّظمُ الجليلُ للمؤمنين محاسنَ الأخلاق وفضائلَ الأعمال، وأدّبَهم بأحسنِ الآداب؛ أتبعَ ذلك ببيانِ أنّ التّكليفَ الذي أمر اللّه تعالى به الإنسانَ أمرٌ عظيمُ الخطر جليلُ الخطْب؛ فقال عزّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾[1]، ومنَ المناسبة أنّه لمّا بيَّن عِظَم شأنِ طاعةِ اللّه ورسولِه بما ذَكَرَ من سوءِ جزاءِ مَن يَعصيهما، وبما ذَكَرَ من حسن مآلِ مَن أطاعهما وما له بتلك الطّاعة منَ الفوزِ العظيم؛ أتْبعَه ببيانِ عِظمِ التّكاليفِ الشَّرعيةِ التي هي الأمانةُ التي تحمّلها الإنسانُ؛ فكان ظلومًا جهولًا[2]، ولمّا أجمل النّظمُ الجليلُ بكون الإنسان ظلومًا جهولًا أتْبعَه بالتّفصيل؛ فذكر أنّ النّاس صنفان: أحدُهما مُضيِّعٌ للأمانة والآخرُ مُراعٍ لها، فقال تعالى مبيّنًا جزاءَ كلِّ فريق منهما: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا﴾[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 187.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 130 - 131.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَرَضۡنَا﴾: (عرض) أصله العرضُ الذي هو خلاف الطّولَ، وعَرْضُ الجُنْدِ: أنْ تُمِرَّهُمْ عَلَيْكَ، وذَلِكَ كَأنَّكَ نَظَرْتَ إلى العارِضِ مِنْ حالِهِمْ، وعَرَضَ الفَرَسُ في عَدْوِهِ عَرْضًا، كَأنَّهُ يُري النّاظِرَ عَرْضَهُ[1]، وعَرَضَ الشَّيْءَ لَهُ عَرْضًا: أظْهَرَه لَهُ، وأبْرَزَهُ إلَيْه، وأراهُ إيّاهُ، ومِنْه قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ﴾ [الكهف: 10]؛ أي: أبرزناها وجعلناها بحيث يرونها[2]، وهو معنى ﴿عَرَضۡنَا﴾ في الآية.

2) ﴿ٱلۡأَمَانَةَ﴾: (أمن) أصلُ الأَمْن: طمأنينةُ النَّفس وزَوالُ الخَوفِ، والأمانَةُ اسمٌ لِما يُؤَمَّن عليه الإنسانُ، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: 27]، أي: ما ائتُمِنْتم عليه، وقولُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[3]، والأمانةُ ثقةٌ في الباطن إذا وُجِدَت؛ وُجِدَ الأمنُ، فالأمين والمؤمن أوصافٌ تورثُ الثِّقةَ والطُّمأنينةَ والأمنَ[4]، والأمانَةُ ضِدُّ الخيانَةِ، ومعناها سُكونُ القَلْبِ[5]، والمُرادُ به في الآية الكريمة خلافُ الخيانة، وهي الفرائضُ التي شرّعها الله تعالى لعباده[6].

3) ﴿فَأَبَيۡنَ﴾: (أبي/ أبى) أصلٌ يدلُّ على الامْتِناع، والإباءُ: أنْ تَعْرِضَ على الرَّجُلِ الشَّيْءَ فَيَأْبَى قَبولَهُ[7]، والإباءُ مَصْدَرُ قَوْلِكَ أبَى فُلانٌ يَأْبَى، أي: امْتَنَعَ، وكَرِهَ[8]، وعند الرّاغب: هو شدّةُ الامتناع، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناع إباءً[9]، والمقصودُ بالإباءِ في الآيةِ: الامتِناعُ عنِ الفِعْل، فلم تحتملْ تلك المخلوقاتُ الأمانةَ[10].

4) ﴿وَأَشۡفَقۡنَ﴾: (شفق) أصْلٌ يَدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيْءِ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: أشْفَقْتُ مِنَ الأمْرِ، إذا رَقَقْتَ وحاذَرْتَ[11]، وإذا قُلْتَ: أشْفَقْتَ مِنْهُ، فَإنَّما تَعْني

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).

(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (عرض).

(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (أمن)، والمناوي، التّوقيف، ص: 63.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أمن).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).

(6) الزّجاج، معاني القرآن: 4/ 238.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبي).

(8) ابن منظور، لسان العرب: (أبي).

(9) الرّاغب، المفردات: (أبى).

(10) الزجاج، معاني القرآن: 4/ 238.

(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفق).

حذرْتَه، والشَّفَقُ الخَوْفُ، تَقولُ: أنا مُشْفِق عَلَيْك، أيْ: أخاف، وأشْفَق مِنْهُ جَزِع(1)، والإشْفاقُ: عنايةٌ مُختلطةٌ بخوفٍ، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء: 49]، فإذا عُدّي بـ(مِن)؛ فمعنى الخوف فيه أظهرُ، وإذا عُدّي بـ(في)؛ فمعنى العناية فيه أظهرُ، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦﴾ [الطور: 26]، وقال جلّ شأنُه: ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: 18](2)، والمُرادُ به في الآية الكريمة: الخوفُ منَ الخيانة(3).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قابليّةُ الإنسانِ للتّكليف بالشّريعة وقبولُه بها دونَ المخلوقات

يخبرُ النّظمُ الكريمُ أنّ اللّه تعالى قد عرض طاعتَه وفرائضَه والتّكليفَ بالشّريعة على السّماوات والأرض والجبال على أنّها إن أحسنتْ أُثيبت وجوزيت، وإن ضيّعتْ عوقبتْ، فأبت حمْلَها خوفًا أن لا تقوم بالواجب عليها، وحمَلها الإنسانُ والتزم بها على ضَعفِه، إنّه كان شديدَ الظّلم والجهل لنفسه(4)، ولتكون عاقبةُ تحمّلِ تلك الأمانة أن يعذّبَ اللّه الجليل المنافقين والمنافقات وهمُ الذين يُظهرون الإسلامَ ويُخفون الكفرَ، والمشركين والمشركات وهمُ الذين اتّخذوا من دونه شركاءَ، وأن يتوب اللّه على المؤمنين والمؤمنات بسَتْرِ ذنوبِهم وتركِ عقابهم، وكان اللّه غفورًا للتّائبين من عباده، رحيمًا بهم فيقبلُ توبتَهم ولا يعذّبُهم بعد توبتهم منها(5).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾:

تقريرُ عَظَمَة الفوزِ بتقريرِ عِظَمِ التّكليفِ والأمانة

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شفق).
(2) الرّاغب، المفردات: (شفق).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 49.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 336، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 427.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 343، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 427.

﴿ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾؛ لأنّها مُستأنَفةٌ تقريريًّا؛ إذ قرّرَ الوعدَ بالفوز العظيم لِمَن أطاع اللّه تعالى والنّبيَّ ﷺ، وذلك ببيان عِظم الطّاعة التي هي الأمانةُ التي كلّفَ بها الإنسانَ[1]، ويصلحُ أن يكون استئنافًا ابتدائيًّا، والغرضُ منه الإنباءُ عن سنّة اللّه تعالى في تكوين العالم وما فيه، وواجبِ الإنسان فيه، ليراقبَ النّاسُ سلوكَهم مع اللّه تعالى، ويُحْسنوا في تعاملاتهم فيما بينهم[2].

غرضُ توكيدِ الخبر وتعظيمِه:

نبأُ الأمانةِ وعرضِها تحفُّه العَظَمةُ من كلّ طرف

أكّدَ النّظمُ الجليلُ الخبرَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ بحرف التّأكيد للاهتمام بالخبر ولغرابة مضمونه، فقد يُنكرُه السّامع، فنزّلَه منزلةَ الخبر الذي يُنكرُ فيلزمُ تأكيدُه؛ دفعًا للإنكار[3]، وجاء الخطاب بضمير التّعظيم تعظيمًا لمضمون السّياق، وتنبيهًا على عِظم الأمانة، فاللّه تعالى كاملُ العَظَمَة والجلال هو الذي عرض تلكُمُ الأمانةَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في عَرْض الأمانةِ:

الأمانةُ ثقيلةٌ عظيمةٌ لا تُطيقُ حمْلَها أعظمُ المخلوقات

أوقعَ النّظمُ الجليلُ عرضَ الأمانة على السّماوات والأرض والجبال في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ على طريقة المجاز التّمثيليّ[4]، فهو استعارةٌ تمثيليّةٌ، فقد شبّه حالةَ صرفِ الأمانة عنِ السّماوات والأرض والجبال وتكليفِ الإنسان بها بحالة عرضِ شيءٍ على أُناسٍ فيرفضُه بعضُهم ويقبلُه واحدٌ منهم، والقرينةُ في هذه الاستعارة حاليةٌ وهي أنّ العرضَ والإباءَ بالسّماوات والأرض والجبال لا يقعُ؛ لأنّها غيرُ مُدركةٍ، وهي ليست قادرةً على الاختيار والرّفض، فالأفعال: عرضْنا، فأبَيْن،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 240.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 124.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 186.

يحملْنَها، وأشفقن منها، وحملُها هي أجزاءُ للتّمثيل، وفائدةُ هذه الاستعارة تهويلُ شأن الأمانة وتعظيمُها[1]، وفي بيان ذلك قال أبو السّعود: "والمَعنى أنَّ تلك الأمانةَ في عظم الشَّأنِ بحيثُ لو كُلِّفت هاتيكَ الأجرامُ العظامُ التي هي مَثَلٌ في القوَّةِ والشِّدَّةِ مراعاتَها وكانتْ ذاتَ شُعورٍ وإدراكٍ لأَبَيْنَ قَبولَها وأشفقنَ منها ولكنْ صرفُ الكلامِ عن سَنَنِه بتصويرِ المفروضِ بصورةِ المحقّقِ رَوْمًا لزيادةِ تحقيقِ المعنى المقصودِ بالتَّمثيلِ وتوضيحِه"[2].

نكتةُ إسنادِ العَرض إلى ضمير العَظَمَة:

عــرضُ الأمـانـةِ واقــعٌ بـما لله تعالى من عَظَمَةٍ وجلالٍ

أسندَ النّظمُ الجليلُ العرضَ إلى ضمير التّعظيم في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ للدّلالةِ على أنّ الله تعالى عرض تلك الأمانةَ بما له منَ العظَمةِ والجلال، والمُرادُ تعظيمُ شأن الأمانة وعرضها.

معنَى ﴿عَلَى﴾ في القيد ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

عــرضُ الأمـانـةِ مَكينةٌ بالوجوبِ على المُخاطَب به

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ وهو دالٌّ على الاستعلاء؛ وذلك للدّلالة على تمكّن ذلك العرض، وأنّه عرضٌ يلزمُ منه الوجوبُ بالإيفاء بما تقتضي الأمانةُ.

معنَى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولطيفةُ جمْعِها:

الإحالةُ الذّهنيّةُ على السّماوات كـلِّـها لـحمْـل الأمانة

عرّفَ النّظمُ الجليلُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ وهي هنا دالّةٌ على العهد الذّهنيِّ، فإنّ السّماواتِ قد تواتر ذِكْرُها في القرآن الكريم، فالإحالةُ عليها ذهنيّةٌ؛ لكونها حاضرةً في الأذهان، والغرضُ من تعريفها الدّلالةُ على أنّ المُرادَ حصولُ العرض على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 125 - 126.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.

السّماوات عينِها لا على أهلها[1]، تحقيقًا للاستعارة والتّمثيل، وجاء لفظُها بصيغة الجمع للدّلالةِ على أنّ العرض قد وقع للسّماوات السّبع كلِّها.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

عرضُ الأمانةِ العظيمةِ شاملٌ للأرضِ بَلْهَ السّماء

عطفَ النّظمُ الجليلُ الأرضَ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ بواو العطف؛ للدّلالةِ على أنّ العرض قد وقع للأرض كما وقع للسّماوات، وتخصيصُ الأرض بالذِّكر وهي ضمْنَ السّماوات لِما في ذلك التّصريح من مزيد التّعظيم[2].

معنَى (أل) في (الأرض) ولطيفةُ إفرادِها:

الأرضُ بضخامتِها وعِظمِها عُرضت عليها الأمانةُ

عرّفَ النّظمُ الجليلُ (الأرض) بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ وهي هنا دالّةٌ على العهد الذّهنيِّ، فهي - وإن لم تُذكر في السّياق - حاضرةٌ في الأذهان، ودلّ التّعريفُ على أنّ المراد بالأرض عينُها لا سكّانُها[3]، ولكونها مُرادةً عينًا وذاتًا وأنّها المعهودةُ في الأذهان جاء الخطاب بصيغة الإفراد.

نكتةُ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾:

سياقُ التّعظيمِ يقتضي تقديمَ الأعظمِ مِنَ المذكورات

قدّم النّظمُ الجليلُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على المذكورِ بعدها في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾؛ لأنّ السّماوات أعظمُ الموجودات[4]، وهي أعظمُ منَ الأرض وما فيها منَ الجبال، ولمّا كان السّياقُ لبيان عِظم الأمانة فإنّه يُقدّمُ الأعظمُ ليتناسق عِظمُ المضمون مع عِظمِ المذكور.

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 549.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 424.
(3) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 549.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 125.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلْجِبَالِ﴾:

عرضُ الأمانةِ شملَ الجبالَ العظيمةَ

عطفَ النّظمُ الجليلُ (الجبالَ) على (الأرض) في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ للدّلالة على أنّ الخطاب قد وقع للمذكورات جميعًا، وأنّه قد خصَّ الجبالَ بخطاب التّكليف بالأمانة كما وقع للسّماوات والأرض، والعطف بين المذكورات لِما فيهنّ من عَظَمةٍ شاخصةٍ تلاحظُها الأبصار[1]، وفائدةُ العطف زيادةُ عِظمِ الأمانة.

معنَى (أل) في (الجبال) ولطيفةُ جمْعِها:

الجبالُ التي تراها العيونُ وتعهدُها العقولُ خوطبت بعرض الأمانة

عرّفَ النّظمُ الجليلُ (الجبالَ) بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ وهي هنا دالّةٌ على تعريف الجنس، فالمخاطَبُ بعرضِ الأمانة كلُّ الجبالِ لا جبلًا دونَ غيره، فالمُرادُ عمومُ الجبال، وفائدةُ التّعريف الدّلالةُ على أنّ المُرادَ أعيانُ الجبال وذاتُها[2]، والتَّعبيرُ عنها بصيغة الجمع للدّلالةِ على شمول جميعِ الجبال، ففيه تأكيدٌ على العموم المدلولِ عليه بتعريف الجنس.

لطيفةُ ذِكْرِ (الجبال) خصوصًا:

حشدُ المخلوقاتِ العظيمةِ بالذّكر يُفصحُ عن عِظم الأمانة

خصَّ النّظمُ الجليلُ (الجبالَ) بالذّكر في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ وهي ضِمْن الأرض؛ وذلك لِما في الجبال من عظمةٍ ظاهرةٍ تشهدها الأبصارُ؛ بل إنّ الجبال هي أعظمُ ما على الأرض[3]، فذكرُ الجبالِ في سياق تعظيم الأمانة بعد ذِكر السّماواتِ والأرضِ هو حشدٌ لأعظمِ المخلوقات، وأقوَى الأجرام التي تلاحظُها الأبصارُ، والمُرادُ من ذلك بيانُ غِلظِ التّكليفِ بالأمانة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 125.
(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم: 7/ 549.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 125.

معنَى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَبَيْنَ﴾:

إباءُ حملِ الأمانةِ وقعَ على وجهِ المبادرةِ بلا تمهّلٍ

عطفَ النّظمُ الجليلُ الإباءَ على العَرض في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ بالفاء العاطفة[1]، وذلك للدّلالة على أنّ الإباء عن حملِ الأمانة قد وقع عقبَ عرْضِها على وجه البِدارِ وبلا مُهلةٍ، تعبيرًا عن شدّة الإشفاق من تحمُّلِ الأمانة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإباء على هيئة الماضي:

الامتناعُ الشّديدُ تعبيرٌ عن عِظمِ مكانةِ الأمانة

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ الإباء في قوله جلّ شأنِه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ لدلالته على الامتناع الشّديد، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناع إباءً[2]، فعبّر به للدّلالةِ على شدّة امتناعِهما عن قَبولِ حمْلِ الأمانة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّل ﴿أَن يَحْمِلْنَهَا﴾:

تحمّلُ الأمانةِ يقتضي مزاولةَ التّكليفِ على وجهِ التّجدُّدِ والدّوام

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدرِ المُؤوّل ﴿أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ دون المصدرِ الصّريحِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ فلم يقل: (فأبَين حَمْلَها)؛ لِما في الفعل من دلالةٍ على التّجدُّد والحدوث، فالإباءُ عن حمْلِ الأمانة وقع لأنّ التّكليفَ بها يقتضي الإيفاءَ بها وتحمّلَها على وجه الاستمرار والدّوام، وهذا المعنى إنّما يدلّ عليه الفعلُ، وهو ما يتضمّنُه المصدرُ المؤوّلُ دون المصدر الصّريح، فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالمصدر المؤوَّل فيه ترسيخٌ للامتناع عن حدث الحمل دون النَّظر في كيفيّاته؛ لأنّ المصدر المؤوّلَ ولا سيما مع (أنْ) يدلُّ على مجرّدِ معنى الحَدَث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي (أنْ) تحصينٌ منَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعْلِ الحمل مضارعًا:

ثقلُ التّكليفِ والأمانةِ شاقّان كثِقلٍ يُحمَلُ على الظّهور

عبّرَ النّظمُ الجليلُ عن قَبولِ الأمانة بالحمْلِ في قوله جلّ شأنُه:

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 8/ 57.

(2) الرّاغب، المفردات: (أبى).

(3) السّامرائي، معاني النحو: 3/ 148.

﴿فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ للدّلالة على أنّ الأمانة ثقيلةٌ، فالتّكليفُ بالشّريعة ثقيلٌ، كالأثقال التي تُحملُ على الظّهر[1]، والمرادُ من ذلك بيانُ صعوبة أمرِها بجعلِها جسمًا ثقيلًا يصعبُ حملُه[2]، فـ "الأمانةُ كأنّها راكبةٌ للمؤتمَن عليها وهو حاملُها، ألا تراهم يقولون: ركبتْه الدّيونُ ولي عليه حقٌّ، فإذا أدّاها لم تبق راكبةً له ولا هو حاملًا لها"[3]، والتَّعبيرُ بذلك يدلُّ على وجوب الإيفاء بحقّها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ﴾ [الجمعة: 5]، أي: كُلّفوا أن يتحمّلوها؛ أي: يقوموا بحقّها، فلم يحملوها[4]، ومجيئُها مُضارعًا يدلُّ على تجدُّدِ الامتناع عنِ الحمل دلالةً على رسوخها قناعةً دائمةً.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾:

علّةُ الامتناعِ عن الحمل الإشفاقُ من عاقبتِها

عطفَ النّظمُ الجليلُ الإشفاقَ على الإباء في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ بالواو العاطفة، للدّلالةِ على علّة الإباء، فالامتناعُ كان بسبب الخوف من عدم الإيفاءِ بالتّكليف بالأمانة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإشفاقِ:

تعليقُ الخشيةِ بالسّماوات والأرض والجبال

أسندَ النّظمُ الجليلُ الإشفاقَ إلى الضّمير العائد على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ للدّلالةِ على أنّ هذه المخلوقاتِ العظيمةَ خشيت من حمل الأمانة، فهو تعبيرٌ عن عِظم تلكُمُ الأمانة، وغِلَظِها.

نكتةُ تقييدِ الإشفاقِ بشبْهِ الجملة ﴿مِنۡهَا﴾:

ثِقلُ الأمانةِ منشأُ الخشيةِ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (مِنْ) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ وهي هنا للابتداء؛ فمنشأُ الخوف

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (حمل).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 424.
(4) الرّاغب، المفردات: (حمل).

صادرٌ من ذات الأمانة لِما فيها من ثِقلٍ وكلفةٍ يجبُ أداؤها للّه تعالى الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، وتقييدُ الإشفاق بهذا القيد يدلُّ على أنّ الإشفاق لم يكن عامًّا بل كان مقيَّدًا بحمل الأمانة، فهو تعبيرٌ عن علوّ مكانةِ هذه الأمانة، وعِظَم شأنها.

براعةُ تقديمِ الإباءِ على الإشفاق:

ذِكرُ الإباء متبوعٌ ببيان سببِه

قدّمَ النّظمُ الجليلُ الإباءَ على الإشفاق في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ لأنّ الإشفاقَ هو العلّةُ في الإباء، فقدّمَه من باب تقديم المسبَّب على سببه[1]؛ فالمقصودُ منَ السّياق بيانُ أنّ تلك المخلوقاتِ قد أبتْ تَحمُّلَ الأمانة، فقدّمَ الأهمَّ، ثمّ أتبعه بالعلّة التي نشأ منها الإباء.

معنَى (الواو) في قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾:

قَبولُ الإنسان على ضعفه تحمُّلَ ما أبَتْه المخلوقاتُ العظامُ

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾، بالواو العاطفة[2]، وفائدةُ العطف هنا إظهارُ ضخامة ما تكلّفَ به الإنسانُ من قَبوله بالأمانة، فإنّ التّعقيب على إباءِ المخلوقات العظام حمْلَ هذه الأمانة بحمْلِ الإنسان لها يشيرُ إلى عِظم الأمانة، وعِظم قَبولِ التّكليف بها.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعْلِ الحَمل ماضيًا:

حمْلُ الأمانة قبولٌ بوجوب التّكليفِ والقيامِ بتعاليمه

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالحَمْل في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ للدّلالة على أنّ تلك الأمانة واجبةٌ على الإنسان، فكأنّها راكبةٌ عليه، وهو مُلتزمٌ ببذل الجهد لحمْلِها والقيام بها، فحمْلُ الأمانة هو عبارةٌ عنِ التّكلّفِ بها والالتزام بما فيها[3]، وجاء التَّعبيرُ عن ذلك بالفعل الماضي للدّلالة على تحقُّق قَبولِ حمل الأمانة ووقوعِه.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 312.

(2) صافي، الجدول: 11/ 197.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾:

عـلّـةُ قبـولِ الأمـانـة عِـظـمُ جـهـلِ الإنسـان بـعـواقـبـهـا، ورسـوخُ ظلمِه لنفسه فيه

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ لأنّها مُستأنَفةٌ تعليليًّا، فهي جملةٌ اعتراضيّةٌ توسّطت بين جملة حمل الأمانة والجملة المبيّنة للغاية من ذلك وهي قولُه تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾[1]، أي أنّ التّعليل يقع على قَبول الإنسان لا على تحمّله إيّاها، فإنّه لجهله وظلمه لنفسه قبلَ التّكليفَ بالأمانة، ويجوز أن يكون الاستئناف بيانيًّا؛ لأنّ السّامعَ خبرَ أنّ الإنسان تحمّلَ الأمانة يترقّبُ معرفةَ ما كان من حُسْنِ قيام الإنسان بما حملَه وتحمّلَه"[2].

فائدةُ توكيدِ جملةِ الاعتراض:

اغـترارُ الإنسان بنفسه ظلمٌ لها يوردُه المهالكَ

جاءت جملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ مؤكَّدةً بـ(إنّ) وبكونها اسميّةً تقويةً لمضمونها، وهو ظلمُ الإنسان لنفسه وجهلُه بعاقبة ما قَبِل به، وما أحسنَ ما قال البقاعيّ: "ولمّا كان الإنسان - لِما له بنفسه منَ الأُنس، وفي صفاته منَ العشق، وله منَ العقل والفهم - يظنّ أنّه لا نقصَ فيه؛ علّل ذلك بقوله مُؤكِّدًا: ﴿إِنَّهُۥ﴾"[3].

دلالةُ الإخبارِ بالكونِ الماضي:

الظّلمُ والجهلُ خـصـلـتـان متأصّلتان في الإنسان

أخبرَ النّظمُ الجليلُ عن ظلم الإنسان وجهلِه بفعل الكونِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ إشارةً إلى أنّ من شأن الإنسان الثّابتِ فيه اتّصافه بالظّلم والجهل[4]، فهما صفتان أصيلتان فيه؛ وذلك لأنّهما وصفان غالبان على جنس الإنسان[5]، إلّا مَن وفّقه اللّه تعالى ليكونَ من أهل الخير والصّلاح فيكونَ بعيدًا عن تلكم الصّفتين.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 129.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 425.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 494.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 130.

لطيفةُ صوْغِ الظلم على وزن (فعول):

العُدولُ عن الحقّ صفةٌ شديدةُ الرّسوخ في الإنسان

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالظّلم في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ للدّلالةِ على أنّ الإنسان في غالب أمره يضعُ الأشياءَ في غير موضعها؛ لأنّ الظلم هو "وضعُ الشّيءِ في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه"[1]، فلمّا قصّر الإنسانُ في الوفاء بحقّ ما تحمّله وصفُه بالظّلم، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة المبالغة على وزن (فعول) للمبالغة في صفة الظّلم في الإنسان[2].

لطيفةُ صوْغِ الجهل على وزن (فعول):

انتفاءُ العلم بعاقبة الأمورِ وصفٌ مُتمكّنٌ في الإنسان

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالجهل صفةً للإنسان في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ للدّلالةِ على انتفاء تدبّرِه بعواقب الأمور، وانتفاءِ علْمِه بعاقبة ما يُقدمُ عليه لِما ركّبَ فيه من حبّ الشّهوات[3]؛ لأنّ الجهل هو "فعلُ الشّيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل، سواءٌ اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، كمَن يتركُ الصّلاةَ متعمِّدًا"[4]، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة المبالغة على وزن (فعول) للمبالغة في صفة الجهل في الإنسان بكونِه يجهلُ في ما يتعلّقُ به منَ المكروه، والمضرّة[5]، فهو كثير الجهل بليغُه.

نكتةُ تقديمِ الظّلم على الجهل:

الظّلمُ مقصدُ السّياق؛ فذُكر أوّلًا وأُتبع بسببِه

قدّمَ النّظمُ الجليلُ صفةَ الظّلم على صفة الجهل في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ لأنّ الجهل هو سببُ الظّلم، فجهلُه يغلب حِلْمَه فيوقعُه في الظّلم[6]، فلمّا ذكرَ الظّلمَ أتبعَه بالصّفة

(1) الرّاغب، المفردات: (ظلم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 130.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 46.
(4) الرّاغب، المفردات: (جهل).
(5) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 550.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.

الأخرى التي هي سببٌ له، فكأنّه علّل سببَ ظلمه، وهو كونُه جهولًا، وإنّما قدّم النّتيجةَ على السّبب؛ لأنّ الأصل في السّياق الحديثُ عن ظلم الإنسان لنفسه بتحمّل الأمانة، وهذا الظّلم هو نتيجةٌ لجهله.

بلاغةُ تغليبِ صفتَي الظّلِم والجهل دون غيرِهما:

الظّلمُ والجهلُ من نوازع الشّرّ التي تغلبُ على البشر

غلّبَ النّظمُ الجليلُ صفةَ الظّلم والجهل على الإنسان في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾، فليس كلُّهم أهلَ ظلمٍ وجهلٍ؛ فإنّ "الإسناد إلى الجنس لا يلزمُ منه أن يكون كلُّ فرد منه كذلك، فهو هنا باعتبار الأغلب"[1]، فإعمامُ الوصفِ من باب التّغليب؛ لأنّ تلك الأوصاف ظاهرةٌ في أغلب الأفراد من بني آدم، وفي مقام التّرهيب والتّحذير يُراعى الغالبُ منَ الأوصاف[2].

معنَى (اللّام) في قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾:

مـآلُ خيانةِ الأمانةِ عذابٌ عظيمٌ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ وهي هنا لامُ العاقبة، والتّعليلُ فيها مجازيٌّ[3]، فعلّل بقَوْلِه تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ قَولَه جلّ شأنُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾، وصحّ التّعليلُ؛ لأنّه يترتّبُ عليه، من حَيثُ إنّ العذاب هو نتيجةٌ لخيانة الأمانة، وإليه يؤولُ الحملُ[4]، وقد أجاد أبو السّعود إذ قال: "فإنَّ التَّعذيبَ وإنْ لم يكُن غرضًا له منَ الحملِ لكنْ لمّا ترتَّبَ عليهِ بالنسبةِ إلى بعضِ أفرادِه ترتُّبَ الأغراضِ على الأفعالِ المُعلَّلةِ بها أبرزَ في معرضِ الغرضِ، أي: كان عاقبةُ حملِ الإنسانِ لها أنْ يعذّبَ اللّه تعالى هؤلاءِ من أفرادِه لخيانتِهم الأمانةَ وخروجِهم عنِ الطّاعةِ بالكُلّية"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 425.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 130.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 187.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 492.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 118.

نكتةُ الالتفاتِ منَ التّكلُّم إلى الغيبة:

العذابُ الصّادرُ مـنَ الله تعالى أبـلـغُ الـعـذاب وأشدُّه

التفتَ النّظمُ الجليلُ بالخطابِ من صيغة المُتكلّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا﴾ إلى الخطاب بصيغة الغيبة بإظهار الاسم الجليلِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ وذلك لِما في إظهار الاسم الأعظم بلفظ الجلالة من تربيةٍ للمهابة، مع ما في التّنويع في المقال بين الإظهار والإضمار من جلالٍ وجمالٍ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعْلِ التّعذيبِ مضارعًا:

إيجاعُ الكافرين الشّديدُ في النّار دائمٌ مُتجدّدٌ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ العذاب في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ للدّلالةِ على شدّة تعذيبِهم؛ فالعذابُ هو الإيجاع الشّديد[2]، وجاء التَّعبيرُ عن ذلك بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على دوام العذاب واستمرارِه، وتجدُّدِه عليهم.

دلالةُ إسنادِ التّعذيبِ إلى الاسمِ الجليلِ:

صـدورُ الـعـذابِ منَ الله العظيم شديدٌ أليمٌ

أسندَ النّظمُ الجليلُ العذابَ إلى لفظ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ تفخيمًا وتغليظًا لشأن العذاب؛ فإنّ اللّه تعالى هو بجلاله وعظمته يُعذِّبُ المذكورين.

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ النّفاقِ على هيئة اسمِ الفاعلِ:

خـداعُ الـنّـاس والـكـذبُ والـزّورُ صفةٌ عريقةٌ في أهل النّفاق

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ النّفاق في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾ للدّلالةِ على فئة منَ النّاس يُظهرون خلافَ ما يُعلنون، فهم يُظهرون بذلَ الأمانة كذبًا وزورًا، وآثرَ النّظمُ التَّعبيرَ بصيغة اسمِ الفاعل للدّلالة على أنّهم متّصفون بصفة النّفاق على وجه الثّبوتِ والعراقةِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.
(2) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾:

الـرّجـلُ هـو المُسبِّبُ لنفاقِ أهلِه باعتبار الأغلب

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذِكرَ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾ اعتبارًا بأنّ الولاية والقوامة للرّجل، فيكون في الغالب هو المُسبّبَ لنفاق أهله، والنّساءُ في حكم الأغلب تبعٌ للرّجل، فهو الأجدرُ بالتّقديم.

توجيهُ العطفِ بين صفاتِ النّفاق والشّرك بـ(الواو):

العـذابُ شاملٌ لكلِّ أهلِ النّفاق والشّرك

عطفَ النّظمُ الجليلُ بين صفات النّفاق والشّرك في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ للدّلالةِ على أنّ المذكورين جميعًا مُدرجون تحت حُكم العذاب، وأنّ النّار هي موئلُهم جميعًا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: 140].

دلالةُ التّعبيرِ بمُفردةِ الإشراك على هيئة اسمِ الفاعل:

إثبـاتُ شريكٍ لـلّـه تـعـالى وصفٌ راسخٌ في المشركين

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ الشّرك في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ للدّلالةِ على أعظم الذّنوب، وهو الشِّركُ العظيم، وهو: إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، وذلك أعظمُ كفرٍ[1]، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة اسمِ الفاعل للدّلالةِ على أنّهم عريقون في الشّرك، متّصفون به على وجه الثّبوت والدّوام[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾:

إشراكُ الرّجالِ سببٌ في إشراك الـنّـسـاء من أهلهم

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذِكرَ ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ تبعًا لمكانة قوامةِ الرّجل، فالرّجل في الغالب هو المُسبّبُ لشرك نساءِ بيته، والنّساءُ في حكم الأغلب تبعٌ للرّجل، فهو الأجدرُ بالتّقديم.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (شرك).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.

دلالةُ تقديمِ صفةِ النّفاقِ على الإشراك:

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذِكرَ أهلِ النّفاق على أهل الشّرك في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾؛ لأنّ أهل النّفاق أجدرُ النّاس بالعذاب؛ فهم يُظهرون بذلَ الأمانة كذبًا وزورًا، والمشركون يصارحون بخيانتها[1]، فالمنافقون أسوأُ الصّنفين؛ لأنّهم مع كفرهم فهم يخادعون الله والذين آمنوا.

المنافقُ أسوأُ النّاس؛ فهو كافرٌ مُخادعٌ

معنَى (الواو) في صدرِ جملةِ التّوبة:

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ للجمع بين عذابَيْن على المنافقين والمشركين، فلمّا "كانَ كَرامةُ العدوِّ غَيْظَ العدوِّ وموجبَ شَماتتِه وكانت التّوبةُ على المؤمنين إرغامًا للكافرين، عَطَفَ ﴿وَيَتُوبَ﴾ على ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ ليجمَعَ لهم بينَ العذابَيْن"[2].

الإحسانُ على المؤمنين زيادةٌ في عذاب أهلِ النّفاق والشّرك

دلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ التّوبةِ على هيئة المضارع:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ التّوبة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ليدلَّ على أنّ الله تعالى يقبلُ توبةَ عباده المؤمنين، فإنّ التّوبة منَ الله تعالى تعني قَبولَها[3]، وقد آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عن ذلك بالفعل المضارع إشارةً إلى أنّه تعالى يقبلُ توبةَ عباده على الدّوام والاستمرار.

توبةُ الله على عباده قبولُ توبتِهم والعفوُ عنهم

دلالةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ في جملة التّوبة:

أظهرَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فوضع الظّاهرَ موضعَ المُضمَر، فلم يقل: (ويتوب على المؤمنين)؛ لِما في إظهار اسمِ

لطفُ الله بعبادِه وعنايتُه بهم من تمام إكرامِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 492.
(3) الرّاغب، المفردات: (توب).

الجلالة من دلالة على كمال العنايةِ بأمر المؤمنين، مع ما فيه من توفيّةٍ لمقام الوعد حقَّه منَ الإكرام[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ الإيمان وصوْغِه اسمَ فاعلٍ:

التّصديقُ والتّسليمُ صفةٌ راسخةٌ في المؤمنين

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ الإيمان في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ وهو يدلُّ على الإذعان للحقّ والتّصديق به، وذلك باجتماع ثلاثةِ أشياء: تحقيقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللّسان، وعملٌ بحسب ذلك بالجوارح، ويدلّ الإيمانُ أيضًا على الشّريعة التي جاء بها النّبيُّ ﷺ، ويوصف به كلُّ مَن دخل في شريعته مُقرًّا باللّه وبنُبوَّة رسولِه الخاتم[2]، وقد آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الفاعل عن ذلك إشارةً إلى أنّهم عريقون في وصف الإيمان، وأنّهم قد ثبتوا عليه حتّى بلوغِهم الموتَ[3].

وجهُ تقديمِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾:

تقديمُ مَن له القِوامةُ في الجزاء اعتبارًا بالأغلب

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا﴾ لِما للرّجل من قوامةٍ على المرأة، فيكون أغلبُ الأوصاف منَ الإيمان والكفر والنّفاق والشّرك تصلُ إلى النّساء بسبب الرّجل على وجه الأغلبيّة.

براعةُ تأخيرِ ذِكْرِ أهلِ الإيمان عن أهل الشّرك والنّفاق:

كثرةُ أهلِ النّفاق والشّرك من أماراتِ الظّلمِ والجهلِ

أخّرَ النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ أهلِ الإيمان عن ذكر أهل النّفاق والشّرك في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ إشارةً إلى أنّ المُتقدِّمين في الذِّكر أكثرُ عددًا، فخونةُ الأمانة أكثرُ من حافظيها[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 119.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 427.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 426.

كما أنّ الختم بالتّوبة يشيرُ إلى أنّ بابها مفتوحٌ، ممّا يحثّ السّامعين على الطّاعة وحفظ الأمانة.

بلاغةُ الاحتباكِ في الآية:

حالُ المؤمنين يومَ القيامة توبةٌ ونعيمٌ، وحالُ المنافقين عذابٌ أليمٌ

أوجزَ النّظمُ الجليلُ عن طريق الاحتباك في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ فذكرَ "العذاب أوّلًا دليلًا على النّعيم ثانيًا، والتّوبة ثانيًا دليلًا على منعها أوّلًا"[1]، وتقديرُ الكلام: ليعذّب المنافقين ويُنعمَ على المؤمنين، ويتوبَ على المؤمنين دون المنافقين، وهذا نظمٌ بديعٌ لِما فيه من براعة الإيجاز بحبك العبارة.

معنَى (الواو) في مطلع جملةِ الفاصلةِ:

علّةُ قَبولِه توبةَ عبادِه أنّه لم يزل غفورًا رحيمًا

افتتحَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ بالواو الاستئنافيّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾؛ لأنّ الجملة مُستأنَفةٌ استئنافًا تعليليًّا، سيقت لبيان علّةِ قَبولِه توبتَهم[2]، وهو تبشيرٌ للمؤمنين بأنّ اللّه تعالى يغفرُ لهم ويعاملُهم بما تقتضيه الرّحمة[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكونِ الماضي:

رسوخُ صفاتِ الغفران والرّحمة بُشرى لعباده بالقَبولِ والرّضى

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بفعلِ الكون في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ لبيان ثبوت صفةِ الرّحمة والمغفرة وتأكيدِ وقوعها، وقد آثر التَّعبيرُ عن ذلك بالفعل الماضي تحقيقًا لرسوخ الوصف، والمرادُ من ذلك تقويةُ بشارةِ المؤمنين بتقوية ثبوتِ الصّفتين.

نكتةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ في جملةِ الفاصلةِ:

أظهرَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ دون أن يقول: (وهو الغفور الرحيم)؛ فوُضع الاسمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 427.

(2) المراغيّ، تفسير المراغي: 22/ 47، وصافي، الجدول: 11/ 198.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 132.

الظّاهرُ موضعَ المُضمَرِ إظهارًا لزيادة العناية بعباده المؤمنين[1]، ولا سيّما في مواطنِ تنزُّلِ الرّحمات، والمنّ والمكرمات.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ المغفرةِ على صيغة (فعول):

يَمحو الغفورُ الرّحيمُ ذنوبَ عبادِه على كثرتها

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظِ المغفرة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ للدّلالةِ على أنّه تعالى يمحو ذنوبَ عباده ويسترُها عليهم، وجاء التَّعبيرُ بصيغة المبالغة لبيان كثرةِ المغفرة؛ فهو تعالى يغفر الذّنوبَ الفعليّةَ والقوليّةَ والإمكانيّةَ، يغفرها عينًا، وما يلحقُها من أثر[2]، وصيغةُ المبالغة في صفاته تعالى تدلُّ على كثرة المتعلّق، فلمّا كثرت ذنوبُ العباد وكثرت مغفرتُه تعالى لهم؛ ناسب التَّعبيرُ عن تلك الكثرة بصيغة المبالغة.

دلالةُ الإخبارِ بمُفردةِ الرّحمةِ على صيغة (فعيل):

رحمتُه تعالى إحسانٌ على عباده ومحضُ تفضّلٍ منه

وصفَ النّظمُ الجليلُ اللّه تعالى بكونه رحيمًا في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ وهذه الصّفة عند إسنادها الى اللّه تعالى تدلُّ على الإحسان المجرّد دون الرّقّة، ورحمته تعالى إنعام وإفضال[3]، فهو إشارةٌ إلى أنّ مغفرته تعالى محضُ إحسانٍ منه، وقد جاء التَّعبيرُ عن ذلك بصيغة (فعيل) للمبالغة في قوّة صفته تعالى؛ "حيثُ تابَ عليهم وغفرَ لهمُ فرَطاتِهم وأثابَ بالفوزِ على طاعاتِهم"[4].

وجهُ مناسبةِ الرّحمةِ للمغفرة:

جمعَ النّظمُ الجليلُ بين صفتَيِ الرّحمة والمغفرة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ للدّلالةِ على أنّه تعالى يقبلُ توبةَ عباده رحمةً منه وتفضُّلًا[5]، وأنّ مغفرته كائنةٌ بسبب رحمته تعالى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 131.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 427.
(3) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 119.
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 167.

نكتةُ تقديمِ المغفرةِ على الرحمة:

بعدَ المنّ بالمغفرة تـحـلُّ عليهم سَعةُ الرّحمة

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ المغفرة على الرّحمة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا﴾ للدّلالةِ على أنّه تعالى يُكرِمُهم برحمته بأنواع الإكرام بعد أن رجعوا إلى طاعته بتوبتهم عنِ الإجرام[1]، كما أنّ تقديم المغفرة أنسبُ للسّياق لِما سبق من ذكر توبتِه تعالى عليهم، وأخّر الرّحمةَ لكونها سببَ تلك المغفرة، فهو من باب ذكر السّبب ثمّ إلحاقِه بمسبِّبه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 427، والنخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 167.

سُورَةُ سَبَإٍ

سُورَةُ سَبَإٍ

التعريف العامّ بالسورة:

سورة سبأ كلُّها مكّيّة

سورةُ سبأ كلُّها مكّيّةٌ باتّفاقِ أهلِ التّفسير[1]، إلّا قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، فقدِ اختلُف فيها: قال جماعةٌ من العلماء: هي مكّيَّةٌ، والمرادُ المؤمنون بالنّبيِّ ﷺ؛ وقال جماعة: هي مدنيّة، والمرادُ أَهْلُ الكِتابِ الَّذينَ أَسْلَموا، مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ[2]، واستثنَى بعضُهم قصَّةَ سبأ؛ لِما جاء عند التّرمذيِّ من حديث فَرْوَةَ بْنِ مُسَيْكٍ المُراديِّ، وفيه قالَ: «وَأُنْزِلَ في سَبَأٍ ما أُنْزِلَ»[3]، والحديثُ مدنيٌّ؛ والأقربُ أنّه حكايةٌ عمّا تقدّم نزولُه قبل الهجرة.

ترتيبُ المصحف وترتيب النزول وعد الآي:

الرّابعة والثّلاثون في ترتيب المصحف، الثّامنة والخمسون في ترتيب النّزول

هي السّورةُ الرّابعةُ والثّلاثون في ترتيب المُصحف الشّريف، وهو التّرتيبُ الثّابتُ والمُعوَّلُ عليه عند أهل النّظر والتّحقيق؛ جاءت بين سورتَيِ الأحزاب وفاطر، وأمّا ترتيبُها النّزوليّ، فقيل إنّها الثّامنة والخمسون في تَعْدادِ نُزولِ السّوَر، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ لقمانَ، وقَبْلَ سورَةِ الزُّمر[4].

وهي خمسٌ وخَمْسونَ آيةً في العدِّ الشّاميّ، وأَرْبعٌ وخمسون في عدّ الباقينَ؛ واختلافُهم في آية ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾ [سبأ: 15] عدّها الشّاميُّ، ولم يعُدَّها الباقونَ[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 133.
(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 63.
(3) الترمذي، سنن الترمذي، برقم: (3222).
(4) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43، ودروزة، التفسير الحديث: 4/ 264.
(5) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 209.

فضلُ سورةِ سبأ:

لم يثبتْ في فضائلها أحاديثُ صحيحةٌ على وجه الخُصوص، سوى ما جاء فيها وفي أخواتِها أنّها منَ المثاني؛ فعَنْ واثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «أُعْطِيتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبْعَ، وأُعْطِيتُ مَكانَ الزَّبورِ المَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكانَ الإِنْجيلِ المَثانيَ، وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ»(1).

أُعطيَ النّبيُّ ﷺ مكانَ الإنجيل سورةَ سبأٍ وأخواتِها منَ المثاني

❁ تسميةُ سورةِ سبأ:

في اختيارِ اسم سورةِ سبأ مناسَباتٌ لطيفة

اشتهرت سورةُ سبأ بهذا الاسم في كُتُبِ السُّنَّةِ، وكُتُبِ التَّفْسيرِ، وبَيْنَ القُرّاءِ، ولَمْ تردْ تَسْمِيَتُها في عَصْرِ النُّبوءَةِ؛ ووجْهُ تَسْمِيَتِها بِهِ أَنَّها ذُكِرَتْ فيها قِصَّةُ أَهْلِ سَبَأٍ(2).

وسرُّ اختيارِ هذه القصّةِ لتسمية السّورة أنّها تتضمّن الإشارةَ إلى نعيم الجنّة في السّعة وعدمِ الكُلفة والخلوِّ منَ الآفة، وإلى تبدُّلِها بالنِّقَم لمن كفر بالمُنعِم؛ وهذا من أعظم مقاصد القرآن(3).

ويناسبُ اسمُ السّورة مقصودَها أنّ الدّار الآخرة كائنةٌ لا ريبَ فيها، لِما في ذلك منَ الحكمة، ولله عليها منَ القدرة، وفي تركها من عدم الحكمة والتّصوير بصورة الظّلم؛ ولقصّة سبأ التي سُمّيت بها السّورةُ مناسبةٌ كبيرة لهذا المقصد(4)، فمحورُ السّورة يقوم على بيان أثرِ شُكران النّعم أو كُفرانِها في تحقيق الشّهودِ أوِ الزّوال الحضاريّ، وتُعَدُّ الحضارةُ السّبئيّة أنموذجًا لكلا الأمرين؛ فهي أنموذجٌ على بيان أثرِ الإيمان بالله واليوم الآخر، وشُكرانِ النّعم في تحقيق النّهوض الحضاريّ، وهي أنموذجٌ في الوقت نفسه على بيان أثرِ الكفر بالله وجحودِ نِعَمِه وتركِ شُكرِها في تحقيق الزّوال الحضاريّ.

(1) أخرجه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (16982)، وغيره، ويُنظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم: (1480).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 133.

(3) المهايمي، تبصير الرّحمن وتيسير المنّان: 3/ 50.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 428.

۞ المحورُ العام للسّورةِ:

تُثبِتُ السّورةُ البعثَ والنّشورَ، مع معالجة قضيّةِ التّوحيد، وبيانِ حجّيّةِ الرّسالةِ

هذه السّورةُ الكريمةُ تشاركُ أخواتِها منَ السّوَرِ المكّيّةِ في تناولها لقضايا التّوحيد والوحي والبعث، فجاء ما تناولته السورة غبى الشكل الآتي:

أولًا: أمّا قضيّةُ التّوحيد، فالآية الأولى تعرّضت لها بإعلان الحمدِ للّه؛ لأنّ له الحكمَ والتّصرُّفَ في السّماوات والأرض، وله الحمدُ في الآخرة، وهو الحكيم الخبير، فلا ينازعُه منازِعٌ ممّا عبدَه مشركو العرب منَ الأصنام والأوثان.

ثانيًا: في مقام الوحي والرّسالةِ يحكي القرآنُ إعراضَ الكفّار عمّا جاء به الرّسولُ ﷺ، ووصْفَهم إيّاه بالإفك والسّحرِ.

ثالثًا: أتت السّورةُ لتَرُدَّ عليهم كذبَهم وافتراءَهم، وتصفُ ما أنزله اللّه على رسوله بأنّه الحقُّ، وأنّه مصدرُ الهداية للبشريّة جمعاءَ، وهذا المحوَرُ واضحٌ في سياق آياتِ السّورةِ التي أبرزتِ الحججَ الدّامغةَ للنّبيِّ ﷺ في الردِّ عليهم، ودَحضِ حُججهم الواهية.

رابعًا: تناولَتْ السورة قضيّةُ البعث والجزاء - وهما الموضوع الأكبرُ في هذه السّورة - في آيات عديدة فيها.

تُوضِّحُ السّورةُ أثرَ شُكران النِّعمِ أو كفرانِها في تحقيق العُمران الدّنيويِّ والأخرويِّ

خامسًا: يقوم الخيطُ النّاظمُ لموضوعات السّورة وآياتِها على بيان أثر شُكرِ النّعم أو كُفرانِها في تحقيق نهوض الحضاراتِ أوِ اضمحلالِها، من خلال نموذجَيْنِ بارزَيْن: الأنموذجُ الأوّل يتمثّل في الحضارة التي أقامها نبيّا اللّهِ تعالى داودُ وسليمانُ عليهما السلام، التي فاقت في قوّتها كلَّ حضارة، نظرًا لِما أكرمهما اللّه تعالى به منَ المعجزات والخوارق، ولِما قاما به منِ استثمار أسبابِ هذه القوّة في تحقيق سعادةِ المؤمنين، شكرًا للّه تعالى منهما بالقول والفعل.

ثمّ ضربتِ السّورةُ مثلًا بأنموذجٍ مقابِلٍ لهذا الأنموذج، أكرمهم

اللّه تعالى بما لم يُكرِم به غيرَهم منَ الخيرات والنِّعم، ولكنّهم أعرضوا، وجحدوا هذه النِّعَمَ المرّةَ تِلوَ المرّة، فأزيلت حضارتُهم، وبادت دولتُهم.

تشيرُ آياتُ السّورة إلى الأسبابِ الدّافعةِ نحوَ كُفرانِ النّعمةِ

سادسًا: تناولت آياتُها الأسبابَ الدّافعة لكفران النّعم وتركِ شُكرِها، وعلى رأس هذه الأسباب: الجهلُ وتركُ العلم؛ فبيّنت أثرَ العلم في النّجاة.

موضوعات السورة وخصائصها:

مَدارُ السّورة حولَ إثباتِ البعثِ والوَحدانيّةِ والدّعوةِ إلى الشّكر

تُثبِتُ سورةُ (سبأ) برهانَ نبوّةِ الرّسولِ ﷺ، وصدقَه فيما أخبر به، من خلال حديثِ السّورة عن معجزات داودَ وسليمانَ ووفاتِهما، وهلاكِ سبأ؛ وكلُّ ذلك لا يتأتّى إلّا عن طريق الوحي؛ وترسّخ صدّقَ ما جاء به النّبيُّ ﷺ منَ القرآن بشهادة علماءِ أهلِ الكتاب بذلك[1].

الخصائصُ الموضوعيّةُ لسورة سبأ:

تميّزت سورةُ سبأ بخصائصَ أفردتها عن غيرها منَ السّوَر:

تميّزت سورةُ سبأ بوجوهٍ من شُكرِ المُنعِم وكُفرانِه

أولًا: منها ذكرُها لجوانبَ منَ النّعم التي أنعم اللّه تعالى بها على نبيَّيهِ داودَ وسليمانَ عليهما السلام، ممّا لم يردْ في سورةٍ أخرى منَ السّوَر التي ذكرت جوانبَ من قصّتَيْهما؛ وهذا التّفرّدُ مرتبطٌ بمحورِ السّورة الكريمة، لبيانِ أنّ الاستسلام والخضوع للّه بإظهار شُكرِه أدعَى إلى ديمومةِ البقاء الحضاريّ، واستمرارِ البشريّة.

ثانيًا: من خصائصها كذلك أنْ ذكرت قصّةَ سبأ وإعراضَهم عن دين اللّه تعالى بعد موت مليكتِهم، التي أسلمت مع سليمانَ للّه ربّ العالمين كما جاء في سورة النّمل؛ وصوّرتِ السّورةُ هنا النّعمَ التي أنعم اللّه تعالى بها عليهم، وتبدُّلَ حالِها بعد إعراضهم وتمزّقِهم في الأرض.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 134 - 135.

ثالثًا: من خصائصها ذكرُ مَشاهدَ من حوار المستكبرين والمستضْعَفين في الآخرة، وكيف ألقى كلٌّ منهما التّبِعةَ على الآخر؛ وهي وإن تشاركت في هذا الحوار مع سورة إبراهيم وغافر، إلّا أنّها كشفتِ النّقابَ هنا عن مكر المستكبرين بالمستضْعَفين ليلَ نهار.

الخصائصُ الأسلوبيّةُ لسورةِ سبأ:

تميّزت سورةُ سبأ في أساليبها اللّغويّةِ، وفي اختيار مُفرداتِها مادّةً وصيغةً

في هذه السّورةِ العديدُ مِنَ الأساليب والقضايا اللّغويّةِ الّتي تميّزت بها هذه السّورةُ:

أولًا: ظاهرةُ التّقابلِ الثّنائيّةُ في السّورة، مثل: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾/ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿يَلِجُ﴾/ ﴿يَخۡرُجُ﴾، ﴿أَصۡغَرُ﴾/ ﴿أَكۡبَرُ﴾، وغيرُها كثيرٌ في السّورة.

ثانيًا: كثرةُ استعمالِ فعلِ الأمر ﴿قُلۡ﴾ في سياقاتِ حوارِ المشركين وإبطالِ مستنداتِهم الفكريّةِ، ومنَ المعلوم أنّ هذا الأسلوبَ يأتي في سياقاتٍ تقتضي منَ النّبيِّ ﷺ تبليغَهم بمضمونِه ومتابعتِه؛ لا سيّما وأنّ السّورة قد عالجت قضايا في غاية الأهمّيّةِ، كالتّوحيد، والوحي، والبعث؛ حيث ورد الفعل (قُلْ) نحوَ أربعَ عشْرةَ مرّة[1].

ثالثًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمةُ في أسلوبها أيضًا بذكرِ بعضِ الأبنيةِ والمشتقّات الصّرفيّة التي لم تردْ في غيرها منَ السّور؛ فمنها: ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: 11]، و﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾ [سبأ: 13]، ﴿وَقُدُورٍ﴾ [سبأ: 13]، و﴿رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ: 13]، و﴿مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ [سبأ: 14]، و﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾ [سبأ: 26]، و﴿مَوۡقُوفُونَ﴾ [سبأ: 31]، و﴿مِعۡشَارَ﴾ [سبأ: 45]، ولا شكّ أنّ لهذه الأبنية والاشتقاقات ارتباطًا قويًّا بمحور السّورة ومقصودِها العامّ.

رابعًا: ممّا تميّزت به السّورةُ منَ الأساليب أيضًا: قولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ - وقد جاء في سورة القصص: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي

(1) الآيات: 3، 22، 24، 25، 26، 27، 30، 36، 39، 46، 47، 48، 49، 50.

﴿ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [القصص: 70] – وتقديمُ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، وقولُه تعالى: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ [سبأ: 25]؛ ولا شك أن هذه الأساليبَ لها تأثيرُها القويُّ في موضوع السّورةِ ومقصدِها.

خامسًا: وممّا تميّزت به السّورةُ الكريمةُ كذلك: ذكرُها بعضَ الألفاظِ الفريدةِ في مادّتها اللّغويّة، ممّا لم يردْ في سورة أخرى، وهي: ﴿ٱلسَّرۡدِۖ﴾ [سبأ: 11]، ﴿وَجِفَانٖ﴾ [سبأ: 13]، و﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ [سبأ: 16]، و﴿خَمۡطٖ﴾ [سبأ: 16]، ﴿وَأَثۡلٖ﴾ [سبأ: 16]، و﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ [سبأ: 52]؛ ولا شكّ أنّ جُلّها مرتبِطٌ بالقصصِ الواردِ فيها، ومؤدّاها ظاهرٌ في أثر الشُّكرِ في دوام النِّعمِ.

بيان المناسبة بين سورة سبأ وبين السورتين السابقة واللاحقة:

مناسبةُ سورةِ سبأ لِما قبلها:

حـثّـت سـورةُ سبأ على شُكرِ مـا جـاء في سـورة الأحـزاب مـنَ الـهدايات الرّبّانيّة

جاءت سورةُ سبأٍ في التّرتيب المصحفيّ بعد سورة الأحزاب، وقبل سورة فاطر؛ وهذا التّرتيبُ يُنبئُ عن شدّة الاتّصال والتّرابُطِ بين السّوَر الثّلاثةِ، فكلُّ سورةٍ تُسَلِّم للأخرى المعانيَ المنوطةَ بها وكأنّها خرجت من رحِمها، فلا انفصالَ فيها ولا تبايُنَ، وذلك لأنّ سورة الأحزاب هدفُها الأساسُ تصويبُ الأخطاءِ الاجتماعيّةِ التي وقعت في حياة الناس من نحو التّبنّي وغيره، وآداب الطعام، إلى غير ذلك مما هو مذكور في السّورة؛ وكلُّ هذا يستوجب منَ العبد الشّكرَ والثّناءَ لله ربِّ العالمين، فافتتحت سورة سبأٍ بقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

وارتبطتِ السّورتانِ بروابطَ عديدةٍ، منها:

أولًا: إنّ سورة سبأ افتُتِحت ببيان صفاتِ المُلك التّامِّ، والقُدرةِ الشّاملةِ، التي تناسب ختامَ الأحزاب في تطبيق العذاب وتقديم الثّوابِ؛ فقال تعالى في مقدّمة سبأ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، وقال في نهاية الأحزاب: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [الأحزاب: 73].

ثانيًا: جاء آخرَ الأحزاب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٣﴾ [الأحزاب: 73]، وكان مطلَعُ سبأٍ في فاصلة الآية الثانية: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾؛ فالصّفاتُ الرّبّانيّةُ التي ابتدأت بها سورةُ سبأ هي ذاتُ الصّفات التي اختتمت بها الأحزاب.

ثالثًا: جاء في سورة الأحزاب سؤالُ الكفّار عنِ السّاعةِ استهزاءً: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب: 63]؛ وفي هذه السّورةِ حكى القرآن عنهم إنكارَها صراحةً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

رابعًا: إنّ كِلا السّورتيْن تناولَ الحديثَ عنِ السّادة والكبراء.

خامسًا: إنّ الرّيحَ كانت جنديًّا من جنود اللّه في سورة الأحزاب، ونعمةً من نِعمه أرسلَها على الأحزاب؛ وفي سبأ كانت أيضًا نعمةً من نعمِ اللّه تعالى على نبيّه سليمانَ عليه السلام، وجندًا من جنوده بأمر اللّه، تأتمرُ بأمره، وتسيرُ معه حيث شاء.

سادسًا: ما جاء في سورة الأحزاب من وصيّة نساءِ بيتِ النّبوّة بتقوى اللّه وشُكرِه على نعمه، حتّى يذهبَ عنهم ﴿ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: 33]؛ وأوصت سورةُ سبأ آلَ داود أن يعملوا شكرًا: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: 13].

سابعًا: اختُتمتِ الأحزابُ بالحديث عن عَرض الأمانة ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: 72]، وبدأت سبأ بالحديث عنِ السّماوات والأرض ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

مناسبةُ سورةِ سبأ لِما بعدَها:

يظهر التّرابُطُ بين سورةِ سبأ وسورةِ فاطر من خلال وجوه عدة:

بين سورتَيْ سبأٍ وفاطرٍ وجوهٌ عِدَّةٌ منَ التّرابُطِ الموضوعيّ

أولًا: اتّفاق بدْئِهما بالحمد، حيث جاء في سورة سبأ أنّ الحمد مستحَقٌّ للّه، الذي له ما في السّماوات وما في الأرض، وأنّ له الحمدَ في الآخرة، أمّا سورةُ فاطر فقد خَصّصتِ الحمدَ بعد التّعميم الواردِ في سورة سبأ، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١﴾ [فاطر: 1]؛ فكان الحمدُ فيها على نعمة الفَطر والخَلق والزّيادةِ فيه، وجَعلِ الملائكة رسُلًا أولي أجنحة.

ثانيًا: تناولت السّورتان موضوعَ الرّزق، وأنكرت على من يُشرك باللّه الرزّاق؛ فجاء في سورة سبأ: ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: 24]، وجاء في سورة فاطر: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٣﴾ [فاطر: 3].

ثالثًا: جاءت في كلا السّورتَيْن الإشارة إلى تكذيب السّابقين؛ ففي سورة سبأ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾ [سبأ: 45]، وفي سورةِ فاطر ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ٢٥﴾[1] [فاطر: 25].

رابعًا: أشارت السّورتان إلى أنّ وعدَ اللّه للكافرين واقعٌ لا مرية فيه ولا ارتيابَ.

خامسًا: حذّرت سورةُ فاطر منَ الشّيطان، وقرّرت أنّه عدوٌّ مبينٌ للجنس البشريّ، وسبَقَتْها سورةُ سبأٍ ضاربةً المثَلَ بالذين أنعمَ اللّه عليهم بنعمٍ شتّى، ولكنّهم أعرضوا فجازاهم اللّه بما صنعوا.

سادسًا: ذكرت السورتان جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين؛

(1) المستغانمي، جواهر الدّرر في علم مقارنات السّور، ص: 87.

فذكرت سورةُ فاطر جزاءَ الذين كفروا أوّلًا، نظرًا لقرب الحديث عنِ الشّيطان الذي يسعى جاهدًا ليجعل متّبِعيه في عذاب السّعير: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾ [فاطر: 7]، أمّا في سورة سبأ، قُدّم الحديثُ عن الذين آمنوا وعملوا الصّالحات في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ وأُخِّر ذكرُ العقاب للمعانِدين: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾.

سابعًا: ذكرت سورة فاطر أنّه لا يقع شيءٌ في الكون، ولا يولدُ من مولود، ولا يُعمَّر من مُعمَّرٍ، ولا يُنقصُ من عمره: إلّا وهو مسجَّلٌ في كتاب مبين، وتناولت سورة سبأ ذاتَ الموضوع، مع مَزيد بيانٍ وإيضاح.

ثامنًا: قرّرت سورة سبأ أنّ الله تعالى أرسل محمّدًا ﷺ بشيرًا ونذيرًا، وقرّرت سورة فاطر الحقيقةَ نفسَها، مع حذف المُرسَل إليه.

تاسعًا: من أوجه التّرابُطِ بين السّورتَين كذلك، وهي كثيرةٌ متكاثفةٌ: تقريرُ سورةِ فاطر بأنّ الذي أوحاه اللّهُ إلى نبيّه محمّدٍ ﷺ هو الحقُّ مصدّقًا لِما بين يديه منَ الكتب، والمؤمنون الذين أوتوا العلم أيضًا شَهِدوا في سورة سبأ بأنّ الذي أُنزل على محمّدٍ ﷺ هو الحقُّ.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١﴾ [سبأ: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لله الملكُ والأمرُ كلُّه، لا يخرجُ عنه شيءٌ في ملَكوته، وهو مستحقٌّ للحمدِ على تقاديره

لمّا خُتمتْ سورةُ الأحزاب بعرضِ اللهِ أداءَ الأمانةِ وحملَها - وهي جميعُ ما في الوجود منَ المنافع - على السّماوات والأرض والجبال، فأشفقن منها، وحملَها الإنسانُ، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب: 72]؛ ابتدأت هذه السّورةُ بأنّ السَّماوات والأرض وما فيهما إنَّما هو مُلكٌ للّه ربِّ العالمين؛ فابتدأت سورةُ سبأ بقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، حتَّى لا يظُنَّ ظانٌّ أنَّ رفضَ السَّماوات والأرض للأمانة نقصٌ في تمام مُلكِه، ولا أنَّهما خارجانِ عن نطاق الرُّبوبيَّة ومُلكه.

ومنَ المناسبة كذلك بين مُختتمِ سورة فاطر ومُفتتحِ سورة سبأ أنّه لمّا ختم اللّه سُبحانه سورةَ الأحزاب ببيانِ الغرضِ في التَّكاليف، وأنَّه سُبحانه يَجزي المحسنَ بإحسانه والمُسيءَ بإساءته، افتتح هذه السّورةَ بالحمد على نعمته وكمالِ قُدرته(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: (حمد) أصلٌ يدلُّ على المدحِ والثّناء؛ فالحمدُ ضِدُّ الذّمّ، تَقولُ: حَمِدْتُ الرَّجُلَ على شَجاعَتِه، أَحْمَدُهُ، حَمْدًا ومَحْمَدَةً، أيْ: مَدَحْتُهُ وأَثْنَيْتُ عليه(2)، والتَّحْميدُ: كَثْرَةُ الحَمْدِ وتَكرارُهُ، وضِدُّه:

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 428، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 3.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (حمد).

الذَّمُّ، ويأتي بمعنى الشُّكْرِ، يُقال: فُلانٌ حامِدٌ لِرَبِّه، أيْ: شاكِرٌ لَهُ، والحَمْدُ أيضًا: الرِّضا، يُقال: حَمِدْتُ فِعْلَهُ، أيْ: رَضيتُهُ وقَبِلْتُ بِهِ[1]، والمُرادُ بالحَمْدِ في الآية: إخبارٌ عن محاسِنِ المحمود، مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه.

2) ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: (حكم) أصلٌ يدلُّ على المَنْعِ، وأَوَّلُ ذلكَ الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ؛ وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ مِنَ الفَسادِ فقد حَكَمْتَهُ وأَحْكَمْتَهُ[2]، والإِحْكامُ: الحُسْنُ والإِتْقانُ؛ والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمورِ[3]؛ والحِكْمَةُ: إصابةُ الحقِّ بالعِلْمِ والعَقْلِ، والحِكمةُ مِنَ اللّه تعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومِنَ الإنسان: معرفةُ الموجودات وفِعلُ الخيرات[4]، والمقصودُ بالحكيم في الآية: المُحْكِمُ المُتْقِنُ للمَصنوعاتِ، فَعيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٌ[5].

3) ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾: (خبر) أَصلانِ، أحدُهما يدلُّ على العلم[6]؛ فالخُبْرُ: العِلْمُ بالأشياءِ المعلومةِ من جهة الخَبَر، وخَبَرْتُهُ خُبْرًا وخِبْرَة، وأَخْبَرْتُ: أعلمتُ بما حصل لي مِنَ الخَبر؛ وقيل: الخِبْرَةُ المعرفةُ ببواطِنِ الأمر[7]؛ والإخبارُ: الإعلامُ[8]، والخَبيرُ: العالمُ بالأمر[9]؛ وهذه الصِّفَةُ لا تكونُ إلّا للّه ﷻ[10]، فاللّهُ سبحانه الخبيرُ، أَيِ العالِم بدقائقِ الأشياءِ وظواهِرِها، بحيثُ لا يفوتُه شيءٌ منها[11]؛ وهو المرادُ بالآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّه ﷻ عن نفْسِه الكريمةِ في هذه الآية بأنّ الحَمْدَ الكاملَ لا يكون إلّا له، لأنّه المالك لجميع ما في السَّماوات وما في الأرض، ليس يملكها أيُّ شيءٍ ممّا يعبدونه، ولا شيءَ سواه يستحقُّ الحمدَ المُطلقَ؛ وللّه وحْدَه الحَمدُ في الآخرةِ، فهو المحمودُ أبدًا، وهو

(1) ابن منظور، لسان العرب، والفيروآبادي، القاموس المحيط، والزبيدي، تاج العروس: (حمد).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حكم).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 165.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبر).
(7) الراغب، المفردات: (خبر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبر).
(9) ابن عباد، المحيط في اللغة: (خبر).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 310.
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 137.

الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، وفي مُلكِه وتدبيرِ خَلْقِه، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللّائِقِ به؛ وهو الخبيرُ الَّذي لا تخفَى عليه خافيةٌ، المطَّلِعُ على سرائرِ الأمورِ وخفاياها.

اللــه تعالى المُستحقُّ لجميع المحامدِ، العالِمُ بحقيقة كلِّ شيءٍ من الظَّواهر والخَوافي

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستهلالِ في افتتاحِ السّورةِ:

الإشارةُ إلى مقاصدِ السّورة، وتضمُّنُها دلائلَ تفرُّدِه سبحانه بالإلهيَّة

اتَّسم مَطلعُ السّورة ببراعة الاستهلالِ الذي يأسِرُ الألبابَ، حيث افتُتحت بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، للتَّنبيه على أنَّ السّورة تتضمَّنُ من دلائل تفرُّده بالإلهيَّة، واتّصافِه بصفات العظَمة: ما يقتضي إنشاءَ الحمدِ له، والإخبارَ باختصاصِه به، وممّا يُذكرُ في غرض براعةِ الاستهلال: الإشارةُ إلى موضوع السّورة، وهو استحقاقُ الرَّبِّ ﷻ الحَمدَ في الأولى والآخرة، وذلك لعِلْمِه بما تُبطن الأرضُ وما تُظهرُه وما تنزلُه السَّماواتُ وما يعرجُ إليها؛ لذلك كان وضعُ مطلعِ الحمد في ترتيب القرآن في أوّله ووسطه والرُّبعِ الأخير، لِما يحملُه من موجبات الحمد في نعمة الإيجاد والبقاء[1].

سِرُّ الافتتاحِ بالجُملةِ الاسميَّةِ:

ثبوتُ الحمد لله على جهة الاستمرار والثُّبوت، وإن أشرك به المُشركون

جاء النَّظمُ الكريمُ في مطلعِ السّورةِ بالجُملة الاسميَّةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، لتدُلَّ على معنى الاستحقاقِ المطلَقِ له بالحمد على جهة الثَّباتِ والدَّوام، فلا ينازعُه ولا يشاركُه فيه أحد، وممّا يؤكِّدُ ذلك أنَّ الآية خلَتْ مِنَ التّعبيرِ بالأفعال، ممّا انعكس على أسلوب الآية بتميُّزها بقوّة السَّبْكِ في إثبات الحمد للّه واستحقاقِه له؛ لأنَّ موضوع السّورة يقتضي إجلالَ اللّه ﷻ بالعظمة والجبروت، الذي يحاول المشركون بشِركِهم المساسَ بما تفرّد اللّه به، فالتَّعبيرُ بالجُملة الاسميّة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يفيدُ الاستمرارَ والثّبوتَ[2]،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 135، ومرعي آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 27.

(2) الدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 66.

بخلاف التّعبيرِ بالفعليّة، فإنّه لا يؤدّي هذا المعنى المرادِ، ولو قيل: (أحمد اللّه) لظنّ الحامدِ أنّه يستطيعُ توفيةَ اللّه حقَّه منَ الحمد، وهذا أمرٌ لا يستطيع البشرُ تحقيقَه؛ كما أنّ التّعبيرَ بالفعليّة يدلُّ على التّجدُّد والحدوث، والنِّعَمُ المذكورةُ في هذه السّورة لا يناسبُها إلّا ثبوتُ الحمد واستمرارُه، وفي التّعبير بالاسميّة أيضًا إشارةٌ إلى أنّ الحمد للّه ثابتٌ أزلًا وإن لم يحمده البشرُ؛ وفي ذلك تعريضٌ بالجاحدين لأنعُم اللّه.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

استغراقُ جميع أنواعِ المحامدِ

الألف واللّام الدّاخلتان على ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ في مفتتح السّورةِ الكريمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هما لاستغراق الجنس، أي (الحمدُ على تنوُّعِه للّه تعالى من جميع جهات الفكرة)[1]، فلمّا كانت مِلكيَّةُ السَّماواتِ والأرض وما فيهما عائدةً له سبحانه، وكان هو خالقَها ومُدبِّرَها: اقتضى ذلك أن يكون الحمدُ مشتملًا على كمال الثّناءِ، فجاء به مُعرَّفًا بـ(أل) الجنسيَّةِ، التي تستغرق جميعَ أوصافِ ذلك الجنس المُعرِّفةِ له، فلا يخرجُ عنها شيءٌ؛ فدلَّ التَّعريف هُنا على اتِّساع معنى الوصْفِ بالحمد وعموم دلالتِه وشمولِه[2].

نُكتةُ اختيارِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

عمومُ الحمد، وشمولُه للفضائل اللّازمة لذات المحمود، والفواضلِ المُتعديَّة

آثرَ النَّظمُ الكريمُ كلمةَ الحمد على الشُّكْرِ في مُفتتح سورة سبأٍ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنَّ الحمد يَعُمُّ الفضائل والفواضلَ دونَ الشّكر، فإنَّه يختصُّ بالفواضل[3]، إنّ الحمد يقع بإزاء الفضائلِ اللّازمة لذات المحمود والفواضلِ المُتعديَّة

(1) ابن عطيّة الأندلسي، المحرر الوجيز: 4/ 404.
(2) شكر محمود، دلالة الجملة الاسمية في القرآن الكريم، ص: 66.
(3) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 23/ 180.

منه إلى الحامد، فاختصاصُ ما في السَّماواتِ وما في الأرض به تعالى خلقًا دليلٌ على قدرته الباهرةِ، واختصاصُ جميع ذلك به تعالى نعمةٌ وصلت إلينا؛ فهذا دليلٌ على كثرة موائد إفضاله وإنعامه علينا، فظهر به أنّه تعالى يستحِقُّ حمدَ جميعِ الحامدين استحقاقًا ذاتيًّا ووصفيًّا، من جهتَيَ فضله الذّاتيِّ وإفضاله المُتعدّي[1]، وهو دليلٌ على عموم الحمد، لأنّها نعمةٌ عمّتِ الجميعَ، بخلاف الشُّكرِ الذي يكون على النِّعمةِ الخاصّة الواصلةِ إلى الشّخصِ بعينه؛ لذلك كان التّعبيرُ بالحمد دون الشُّكرِ.

دلالةُ لامِ الجرِّ في ﴿لِلَّهِ﴾:

جنسُ المحامدِ للـه تعالى استحقاقًا ومُلكًا

يُخبِرُ اللّه تعالى في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عن نفسه الكريمة بأنَّ له الحمدَ المُطلقَ في الدُّنيا والآخرة، لأنَّه المُنعِم المتفضِّلُ على أهل الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص: 70]، أي: الجميع ملكُه وعبيدُه وتحت قهره وتصرّفِه[2]، فاللّامُ الدّاخلةُ على الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ للتّمليك والاختصاص؛ أي جميعِ أفرادِ المدح والثّناءِ والشُّكرِ من كلِّ حامد مِلكٌ للّه تعالى ومخصوصٌ به، لا شِركةَ لأحد فيه، لأنّه الخالق والمالك، ويجوز أن يكون المرادُ إنشاءَ ثناءٍ على اللّه، على وجه تعليم النّاس أن يخُصّوه بالحمد؛ فتكون اللّام للتَّبيين، لأنَّ معنى الكلام: (أحمد اللّه)[3]، وعلى كُلٍّ، فإنَّ اللّامَ في ﴿لِلَّهِ﴾ إمّا للملك، أو للاستحقاق، أو للاختصاص؛ والأولى منها كونُ اللّام للاستحقاق؛ لأنّه يلزمُ من استحقاق الجنسِ استحقاقُ الأفراد من بابٍ أولى، والمعنى حينئذ: (جنس الحمد بجميع أفراده وأنواعِه مُستحَقٌّ للّه تعالى)[4].

---

(1) زاده، حاشية محيي الدِّين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 6/ 671.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 494.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 135.

(4) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 180.

بلاغةُ القصرِ بتعريفِ الطّرفَين:

التّعريضُ بالمُشركين الذين نسبوا الحمدَ إلى الأصنامِ

جاء القصرُ في الجُملة الكريمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ بتعريف الطّرفَين، للدّلالةِ على أنَّ الحمد لا يستحقُّه إلّا اللّه، وهذا قصر إضافيٌّ، للردِّ على المُشركين الذين حمِدوا الأصنامَ على ما تخيّلوه من إسدائِها إليهم نِعَمًا ونَصْرًا وتفريجَ كرباتٍ.

ويجوزُ أن يكون قصرًا حقيقيًّا، على معنى الكمالِ، وأنَّ حَمْدَ غيرِ اللّه تعالى منَ المُنعِمين تسامحٌ؛ لأنَّه في الحقيقة واسطةٌ صوريّةٌ لجرَيان نعمةِ اللّه على يديه؛ والمقصودُ هنا الرَّدُّ على المُشركين في زعمهم نفعَ الأصنام.

نكتةُ اختيارِ الاسمِ الجليلِ (الله):

دلالتُه على الجلالِ والجمالِ والكمالِ ذاتًا وصفةً

اختار النَّظمُ الكريمُ اسمَ الجلالة (اللّه) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾[1]، دونَ غيرِه منَ الأسماء والصّفاتِ: لدلالتها على صِفات الجلال والجمال، وعلى استحقاقِه الحمدَ لذاته، لئلا يُتوهّمَ اختصاصُه بصفة دون أخرى؛ لأنَّ تعليق الحكم بمُشتقٍّ يُؤذنُ بعليَّة ما منه الاشتقاقُ[2].

دلالةُ جملةِ الحمدِ بين الخبريَّة والانشائيَّة:

الدّلالةُ على أنّ الحمد مستحَقٌّ لله تعالى إخبارًا وإنشاءً

تعدّدت أقوالُ المفسّرين في كون جملةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هل هي خبريّةٌ أم إنشائيَّةٌ؟ على مذهبين: فمنهم من يرى أنَّها خبريَّةٌ، وهؤلاء فريقان: منهم من يرى أنَّها خبرٌ باقٍ على خبريَّته من جهة اللّفظِ والمعنى، ولا إشعارَ فيه بالإنشائيَّة، لأنّه يلزمُ على ذلك الحمدُ عند نطقها؛ أمّا الخبريّةُ فالحمدُ واقعٌ قبل نطقها، لأنّ الحمد للّه ثابتٌ له قبل أن يحمدَه الحامدون[3]، وفريقٌ آخر يرى أنَّها خبرٌ لا محالةَ، ولكن أُريدَ به الإنشاءُ مع اعتبار الخبريَّة، كما يُراد منَ الخبر

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 429.

(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 180.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 125.

إنشاءُ التَّحسُّر في قول امرأة عمران: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36]؛ فالمقصدُ الأصليُّ هو الإنشاءُ، ولكنَّه عدلَ إلى الخبر لِما يتحقَّق بواسطته من دلالة الدَّوام والثّبوت، ووجْهُ التَّلازمِ بين الإخبار عن حَمْدِ النّاس وإنشاءِ الحمد حاصلٌ بدلالة الالتزام، لأنَّ المُخبِر عن حمد النّاس للّه لا شكَّ أنَّه مُنشِئٌ ثناءً عليه(1).

ومنَ المفسِّرين من يرى أنَّها إنشاءٌ محضٌ، لا علاقةَ له بالخبريَّة، وهي منَ الصّيَغِ التي نقلتها العربُ منَ الخبر إلى إنشاء الثَّناء، كما نُقلت صيَغُ العقودِ وأفعالُ المَدْح والذَّمِّ مع عدم إماتةِ المعنى الخبريِّ في الاستعمال، والذي عليه المُحقِّقون: جوازُ الاعتبارَين في هذه الجُملة؛ فجملةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هنا يجوز كونُها إخبارًا بأنَّ جنس الحمد مُستحَقٌّ للّه تعالى، ويجوز أن تكون إنشاءَ ثناءٍ على اللّه، على وجه تعليم النّاس أن يخصّوه بالحمد، فيكونَ معنى الكلام: (احمدوا اللّه)(2).

سرُّ التّعبير بمصدرِ الحمدِ دونَ فِعْلِه:

الـحـمـدُ ثـابـتٌ لـلـه، سـواءً حـمـدَه الحامدون أو لم يحمدوه

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالمصدرِ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دونَ الفعل (أحمد اللّه)، لأنّ التَّعبيرَ بالفعليّة يشيرُ إلى فاعل معيَّن، فإذا قلتَ (أحمد اللّه) فقد أخبرتَ عن حمدك أنت دون غيرك، بخلاف ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فإنّه يدلُّ على عموم وقوعِ الحمد منك ومن غيرك؛ ولأنّ التَّعبيرَ بالفعليّة يدلّ على أنّ الحمد ناشئٌ بإحداث الفاعل له، فإذا لم يحمدْه الإنسانُ لم يقعِ الحمد - وهذا غيرُ مراد - بخلاف

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 74، والمغراوي، التَّدبُّر والبيان: 28/ 6.
وقد فصَّل ابن عاشور هذه الأقوال وناقشها مُناقشة طريفة في بحث مطوَّل في تفسيره لسورة الفاتحة وختم المبحث بقوله: "والحق الذي لا محيد عنه أن الحمد لله خبر مستعمل في الإنشاء، فالقصد هو الإنشائية لا محالة، وعدل إلى الخبرية لتحمل جملة الحمد من الخصوصيات ما يناسب جلالة المحمود بها من الدلالة على الدوام والثبات والاستغراق والاختصاص والاهتمام".
للاستزادة يرجى الرجوع إلى ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 1/ 161 - 162.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 74، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 136.

التّعبيرِ بالمصدر، الذي يدلّ على الحدث من غير زمن، وأنّ الحمد ثابتٌ للّه قبل أن يحمده الخلقُ، وسواء حمِدوه أو لم يحمِدوه.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

الـدّلالـةُ على عظمةِ الخالقِ الذي عَمَّ ملكُه الـسَّـمـاواتِ والأرضَ وما فيهنّ

أفاد التَّعبيرُ بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ الواقع في مَحلِّ الصِّفة لاسم الجلالة (اللّه) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾: التَّذكيرَ بعظيمِ قَدْرِ الخالق، الذي عَمَّ مُلكُه السَّماواتِ والأرضَ وما فيهنّ مِنَ الجواهر والأعراض، فله الثَّناءُ الكاملُ على جهة التَّعظيم والتَّبجيل؛ كما يدلّ وصفُه تعالى بالموصول وصِلتِه على تقرير ما أفاده تعليقُ الحمد المعرَّفِ بلام الحقيقة بالاسم الجليل، مِن اختصاص جميع أفراده به تعالى، ببيان تفرُّده واستقلاله بما يوجبُ ذلك، وكونِ كلِّ ما سواه مِنَ الموجودات - التي من جملتها الإنسانُ - تحت ملكوته ﷻ؛ فظهر بذلك اختصاصُ جميع أفراده به تعالى[1]، ففي التَّعبيرِ بالموصول إيجازٌ بديعٌ للَّفظ في استحضار عظمةِ قدرةِ اللّه تعالى[2].

دلالةُ التّعبيرِ بصلةِ الموصولِ:

إبـرازُ مزيـدٍ من صفاتِه ﷻ في سياقِ العظَمةِ

اقتضت صلةُ الموصول ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ مزيدًا من إبراز صفاتِه ﷻ في سياق العظمةِ، وذلك بإثبات ملكيّتِه سبحانه وتصرُّفِه لِما في السَّماوات والأرض؛ وبهذا تكون الصِّلةُ عِلَّةً لإنشاء الثَّناء عليه، لأنَّ مُلكَه لِما في السَّماوات وما في الأرض مُلكٌ حقيقيٌّ، وهو متضمِّنٌ معانيَ جمّةً مِنَ الإنعامِ والإفضال، في إيجاد الخلق وتربيتِهم ورَزْقِهم والعنايةِ بهم.

وفي التّعبيرِ بهذه الصِّلة تعريضٌ بكُفرانِ المشركين، الذين حمِدوا

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 120.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/ 126، والخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن الكريم: 3/ 981، وقاسم، عقد الجمان في تفسير القرآن، ص: 911.

أشياءَ ليس لها في هذه العوالم أدنى تأثيرٍ، ولا لها بما تحتوي عليه أدنى شعورٍ، ونسوا حمدَ مالكها ومالكِ سائرِ ما في السَّماوات والأرض[1].

دلالةُ لامِ ﴿لَهُۥ﴾:

اختصاصُ الله بالملكِ الحقيقيِّ والتّصرُّفِ التّامّ

دلّ التّعبيرُ باللّام الدّاخلةِ على الضَّمير - ﴿لَهُۥ﴾ - في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على اختصاصه سبحانه لِما في السّماوات والأرض خَلْقًا ومُلكًا وتصرُّفًا بالإيجادِ والإعدامِ والإحياءِ والإماتةِ[2].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

حصرُ ملكِ السّماوات والأرض لله تعالى وحده

قُدّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾، المتعلِّقُ بخبرِ المبتدأ ﴿مَا﴾ في قول الله تعالى ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لإفادة حصرِ مُلكِ السّماوات والأرض لله تعالى وحده دون غيره؛ فالحمدُ التّامُّ كُلُّه للمعبود الذي هو مالكُ جميعِ ما في السَّماوات السّبع، وما في الأرضين السَّبع، دون كُلِّ ما يُعبد من دونه، ودون كُلِّ شيءٍ سواه، لا مالكَ لشيء من ذلك غيرُه، فجاء تقديمُ اللّام مع مجرورها لإفادة معنى الملكيَّة واختصاصِها بالله رب العالمين[3].

دلالةُ اسميّةِ الجملةِ، وخُلوّها منَ المُؤكِّدات:

الدَّلالةُ على دوامِ الملك وثبوته لله تعالى

جاء التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّة ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للدَّلالةِ على دوام الملك لله وتفرُّدِه به دون غيره؛ لأنَّ الحمد ثابتٌ له، غيرُ منقطعٍ أبدًا، فإنَّه حمدٌ يستحقُّه لذاته وكمالِ أوصافه، وما يستحقُّه لذاته دائمٌ بدوامه لا يزول أبدًا[4]، وممّا يُذكر في سرِّ خلوِّ الجملة منَ المُؤكِّدات: ظهورُ الأمر ووضوحُه؛ فأمرُ ملكيّته سبحانه

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 120، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 135، 136.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 429، وإسماعيل حقِّي، روح البيان: 7/ 258.

(3) ابن جرير جامع البيان: 19/ 207.

(4) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 79.

للسّماوات والأرض وما فيهنّ لا ينكرُه أحدٌ ممَّن عَبَدَ غيرَ اللّه، ولم يجرُؤْ أحدٌ على نسبة مُلْكِ السَّماوات والأرض لمعبوده الباطل أبدًا، فهو أمر مُتقرِّر في النُّفوس، والغرضُ من إيراد الخبر في هذه الآية هو إظهارُ القوَّةِ المُطلقة والقُدرةِ البالغة في ملكوت اللّه جلَّ شأنُه.

علّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَا﴾:

الـدّلالــةُ على عموم ما تحتويه الـسّـمـاوات والأرض، وعظمةِ مَـن يـمـلـك ما فيهما

أظهر التّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في موضِعَيه من قول اللّه تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعضًا من جوانبِ عظمته؛ لأنّ من مقاصدِ الآية إبرازَ مَلكوتِ اللّه بالوجه الذي يعكسُ هذه العظمةَ، وذلك بدخول كلٍّ منَ الاسمَينِ الموصولَينِ على صلته: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ليدلّا على عموم ما تضمُّه وتحتَويه السَّماواتُ والأرض، والمرادُ بهما العالَم العلويُّ والسّفليُّ، فمن كان له هذان العالَمان مُلْكًا ومِلْكًا وخَلقًا فالكمالُ الأكملُ له[1].

سرُّ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

مكانةُ السَّماواتِ وأهـمّـيَـتُـهـا وعَظَمتُها

قُدِّم ذِكْرُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وهو من باب تقديم الأعظم والأعلَى؛ فالشّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذكرُ الأعظم والأعلَى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يوجبُ خلافَه، والتَّقديمُ أيضًا للأهمّيَّةِ والقداسةِ؛ فالسَّماءُ فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنّةُ والملأ الأعلى، وسوى ذلكَ منَ الغيبيّاتِ، والتّقديمُ أيضًا للتّعلُّقِ الماديِّ منَ الخلق بها، من إنزال المطر، وتصريفِ الرّياح، والاهتداءِ بالنُّجوم، وكذلك لتعلُّقهم الرّوحيِّ بها من إنزال الوحي والشَّرائع[2].

وممّا يُذكر في سرِّ هذا التّقديمِ أنّه جاء جريًا على عادةِ القرآنِ

(1) البالساني، حسن البان، ص: 1959.
(2) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 29.

الكريمِ؛ فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذكرَ السَّماواتِ على الأرضِ بما يزيدُ على مائةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذكرُها إلّا في آيتينِ لموجبٍ دلاليٍّ.

بلاغةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

كون السّماوات أجناسًا مختلفةً، والأرضِ جنسًا واحدًا

جُمعتِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّها أجناسٌ مُختلفة، كلُّ سماءٍ من جنسٍ غيرِ الأخرى، ووُحدّتِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّها كُلُّها تُرابٌ[1]، ولأنَّ الأرض عالَمٌ واحدٌ[2]؛ كما أنَّ الأرض لا نسبةَ لها إلى السَّماوات وسَعتِها، بل هي بالنّسبةِ إليها كحصاة في صحراءَ، فهي وإن تعدّدت كالواحد القليلِ، فاختير لها اسمُ الجنس[3].

وممّا يُذكرُ في سرِّ هذا الجمع والإفراد: الإشارةُ إلى تفاوتهما في الشّرفِ؛ فجُمعَ الأشرفُ اعتناءً بسائر أفراده، وأُفرد الشّريفُ، ووجه أشرفيَّة السّماءِ: أنّها محلُّ الملائكة المقدّسين - على تفاوت مراتبهم - وقبلةُ الدّعاء، ومعراجُ الأرواح الطّاهرةِ، ولعِظَمها وعِظم آيات اللّه فيها، ولأنّها لا يُعصى اللّه تعالى فيها، وفيها الجنّةُ دارُ القرار[4]، وأمرٌ آخرُ أشار إليه بعضُ الباحثين، حيث أَرجع عدم جمْع الأرض على (أرضين) إلى ثِقَلِ النُّطق بها، حيث تُرك هذا الجمْع في قول اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطَّلاق: 12][5].

دلالةُ التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِى﴾:

إحاطةُ مُلك اللّه، وعِلمُه بكُلِّ شيء فيها

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالظَّرفيَّة في قول اللّه تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى

(1) النَّيسابوريُّ، التَّفسير البسيط: 3/ 453، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 1/ 195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 77.
(3) الزَّركشي، البرهان: 4/ 6.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 77.
(5) أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 50.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ليشملَ ملكُ السّماوات والأرض مُلكَ كُلِّ شيءٍ تحتويه، ما عُلم منها وظهرَ للإنسان، وما لم يعلمْه، وفيها إشارةٌ إلى إحاطته بها سُبحانه وعِلمِه بما أودعه فيها، وقدرتِه على تصريفِها تصريفًا مُحكمًا من لدُنْ حكيم خبير، إذ تقرّر أنَّ له ما في الكُلِّ، فأنتج ذلك أنّ له الكلَّ؛ وإذ قد كان له ذلك كلُّه فلا نعمةَ على شيءٍ إلّا منه، فكلُّ شيءٍ يحمدُه لِما له عليه من نعمة، بلسان قولِه أو بلسان حالِه[1].

دلالةُ تَكرارِ (ما):

إبـــرازُ عـظـيـمِ مـلـكـوتِ الـلـه وسَعتِه

تكرّر الموصولُ (ما) في قول اللّه تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لإبراز عظيم ملكوتِ اللّه وسَعتِه؛ وذلك لأنّ الموصول (ما) يردُ في مواطنِ الشّمولِ والإحاطةِ والتّفصيلِ[2]، والغرضُ من هذا التّكرار: إبرازُ ملكِ اللّه، وتعظيمُه بإفراد الحمد له واستحقاقِه بذلك؛ والتَّكرارُ من صوَر الإطناب المناسبِ لهذا المقام.

بديعُ الطِّباق بِذِكْرِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

طابق النَّظمُ الكريمُ بذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليدلَّ على الملكيَّة المُطلَقة التّامَّة للملكوتِ العُلويّ والسُّفليّ[3].

دلالةُ الجَمْعِ بين الحمد والمُلْك:

الحمدُ مع الملك غايةُ الكمال

قرن النّظمُ الكريمُ في قول اللّه تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بَيْنَ المُلكِ والحمد، جريًا على عادة التّعبيرِ القرآنيّ؛ فإنَّ اقتران أحدِهما بالآخر له كمالٌ زائدٌ على الكمال بُكلٍ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 429.
(2) السامرائي، التعبير القرآني، ص: 94 - 95.
(3) علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 168، والباليساني، حسن البان، ص: 1959.

واحدٍ منهما؛ فلله كمالٌ من مُلكه، وكمالٌ من حمده، وكمالٌ فوقَ ذلك من اقتران أحدِهما بالآخر؛ فإنَّ الملك بلا حمدٍ يستلزم نقصًا، والحَمْدَ بلا مُلْكٍ يستلزم عجزًا، والحمدَ مع الملك غايةُ الكمال(1).

فائدةُ عطفِ ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾:

إفادةُ أنَّ لله دارًا أُخرى يُظهِرُ فيها العدلَ وينشرُ فيها الكرمَ

جُملة ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ عَطْفٌ على الصِّلة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: (والذي له الحمد في الآخرة)؛ وهذا إنباءٌ بأنَّه مالكُ الأمر كُلِّه في الآخرة(2)، كما أفاد المعطوفُ عليه أنَّ له الدُّنيا وما فيها، وقد عُلِمَ في آخر الأحزاب أنّ نتيجةَ الوجود العذابُ والمغفرة، وأكثرُ الظَّلمةِ والمُنافقين يموتون من غير عذاب، وأكثرُ المُؤمنين يموتون ولم يوفَّوا ما وُعدوه مِنَ الثَّواب، وليس من صفات الحكيم العليم أن يتركَ عبيدَه سُدًى، يبغي بعضُهم على بعض وهو لا يَغير عليهم؛ فأفاد ذلك أنَّ له دارًا أُخرى، يُظهرُ فيها العدلَ، وينشرُ الكرمَ والفضلَ(3).

دلالةُ اسميّةِ الجملة ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾:

الـدّلالـةُ على ثُبوت الحمدِ لله في الآخرة واستقراره، كما في الدُّنيا

بعد الثّناءِ على اللّه بالحمد الأوَّل، عُطف عليه حمدٌ مقيَّدٌ بالآخرة، فقيل: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، أي أنَّ له حمدًا ثابتًا له في الآخرة؛ وهذا يدلّ على أنّ حَمْدَ الآخرة غَيْرُ حمدِ الأولى(4)، وجاءتِ الجملةُ اسميَّةً لتُفيد الثُّبوتَ والاستقرار أيضًا، كما أفادته الجُملةُ الأولى.

دلالةُ لامِ ﴿وَلَهُ﴾:

اختصاصُه بالحمد في الآخرة، بعدَ بيان اختصاصِه بالحمد في الدّنيا

لمّا بَيَّن النّظمُ الكريمُ اختصاصَ اللّهِ تعالى بالحمد في الدُّنيا ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أعقبَه ببيانِ أنّ له وحدَه الحمدَ في الآخرة، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾؛ أي: (وله

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 79.
(2) بن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 136.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 430.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 278.

الحمد في الآخرة خالصًا دون سواه، على ما أنعم به فيها)، كما حكى عن أهل ثوابه فيها من أنّهم يقولون ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزمر: 74] ويقولون ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾ [فاطر: 34]، فاللّامُ للاختصاصِ، تُفيد اختصاصَ اللّه ﷻ دون سواه بالحمد في اليوم الآخر، وثبوتَه له[1].

بلاغةُ القصرِ في ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾:

تأكيدُ الحصرِ المُستفادِ مِنَ اللّامِ اعتناءً بشأنِ نِعَمِ الآخرة

قدَّم النَّظمُ الكريمُ الخبرَ على المبتدأ في قول اللّه تعالى ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾، لتأكيد الحصر المُستفادِ مِنَ اللّام على ما هو الشّائعُ، اعتناءً بشأن نِعَم الآخرة، وأفاد القصرُ بطريق التَّقديم تَفرُّدَ اللّه ﷻ بالحمد في الآخرة دون غيره، لأنَّه لا متصرِّفَ سواه في ذلك اليوم؛ ويكونُ معنى الحصر: (لا حمدَ في الآخرة إلّا له)، فلا تتوجّه النُّفوس إلى حمدِ أحدٍ سواه، لأنّ النّاسَ يومئذ في عالَم الحقّ، فلا تلتبسُ عليهم الصّوَرُ[2]؛ بخلاف الدّنيا، حيثُ قد يسدي العبدُ معروفًا فيُحمَدُ عليه، فيشارك اللّه في صورة الحمد، فيفيد الاختصاصُ أيضًا هذا المعنى، لأنَّ النِّعَمَ الدُّنيويَّةَ قد تكون بواسطةِ من يستحقُّ الحمد لأجلها[3].

أسرارُ المُغايرة بتَكرار الحمد:

تميُّزُ حَمْدِ الآخرة لدوامه وعِظَم ظهورِ الحقائق فيه

جاء تقييدُ الحمد في موضعه الثّاني منَ الآية بأنَّ مَحَلَّه الآخرةُ: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، بعد أن استُفتِحت الآية بعموم الحمد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ محلَّ الحمد الأوَّل في صدر الآية الدُّنيا، وبذلك تكون الجُملتان دلّتا بمجموعهما على أنَّه ﷻ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 55.

(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 241، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 120، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 136.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 279.

هو المحمودُ على نِعم الدُّنيا فيها، وأنَّه ﷻ المحمودُ على نِعمِ الأخرى فيها[1]؛ فله الحمدُ أوّلًا وآخرًا، وله الشُّكرُ باطِنًا وظاهرًا.

ويُحتمل أن يكون الحمد الأوَّلُ للعُموم والاستغراق، ويكونَ الثّاني على الخصوص؛ لذلك جُمع الحمدُ في الدّنيا والآخرة، ثم جُرِّد منه الحمد في الآخرة، كقوله: ﴿فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ۝٦٨﴾ [الرَّحمن: 68]، ثُمَّ إنَّ الحمد في الآخرة يحتمل أن يرادَ به الجِنْسُ، أو يرادَ به ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: 10] أو قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [الزّمر: 74][2].

وممّا يُذكر في سرِّ تكرار الحمدِ في الآية أنّهما مُختلفان باختلاف المُتعلَّق والفاعل: فحمدُ الآخرة أكثرُ لدوامه، إذْ هي حياةٌ لا موتَ فيها، قال اللّه تعالى ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: 34]؛ وحمدُ الدُّنيا منقطعٌ بموت صاحبه، ثُمَّ تموت جميعُ الخلائق عند النّفخ في الصّور، وهما مُختلفان باختلاف السَّبب: فحمدُ الآخرة أعظمُ لتبيين الحقائقِ فيه وصيرورةِ الأمر النَّظريِّ ضروريًّا، فالمُحقُّ يرى ما أعدَّ اللّه له، وما نجّاه منه عيانًا، فحمدُه حينئذ أعظمُ وأجلُّ[3]، وظهورُ حمدِ اللّه في الآخرةِ أبيَنُ وأوضحُ، فإنَّ في الدُّنيا مَن يُنكِرُ حمدَ اللّهِ ﷻ ويَكفُرُ به، لكنْ في الآخرةِ لا يمكنُ لأحدٍ إلّا أنْ يحمَدَ اللّهَ ﷻ[4].

بلاغةُ الاحتباكِ في تقييدِ الحمدِ بالآخرة:

الحمدُ في الدّنيا على نهج العبادة، وفي الآخرة على وجه التّلذُّذِ والاغتباط

تظهر بلاغةُ الاحتباك في حذف بعضِ الجُملِ، الدّالِّ على روعة الإيجاز؛ وأصلُ الكلام في هذه الآية (الحمد للّه الذي له ما في السماوات وما في الأرض في الدنيا، وله ما في الآخرة والحمد

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 278.

(2) ابن جزي، التَّسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 161.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 313.

(4) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 16.

فيها)، فأُثبت في كلٍّ منهما ما حُذف منَ الآخر: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[1]، فقد أُثبت في الأولى ما حُذف في الجُملة الثّانية، وهو ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وأُثبت في الثّانية ما حُذف في الأولى، وهو ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، حَيْثُ يُفهمُ في جملة الحمد الأولى أنَّه حَمْدٌ في الدُّنيا؛ ولا شَكَّ أنَّ المعنى الذي يُدركه الفَهمُ إدراكًا قويًّا مع حذف الألفاظِ الدّالّةِ عليه: يكون في ذكرها فضولٌ، يتنزّه عنه البيانُ الحكيمُ[2].

فالاحتباكُ في الآية: حَذفُ (له الحمد في الأولى) لِما دَلَّ عليه ثانيًا، وحذفُ (وله كلُّ ما في الآخرة) لِما دلَّ عليه أوَّلًا[3]؛ والفرق بَين الحمْدَين - مع كون نِعم الدُّنيا ونِعم الآخرة كليهما بطريق التَّفضُّل: أنَّ الأوَّلَ على نهج العبادة، والثّانيَ على وجه التَّلذُّذ والاغتباط[4].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

استغراقُ أفرادِ جنسِ الحمدِ

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ يحتمل أن تكون للجنس، فتكون الآيةُ خبرًا، أي أنّ أفراد الحمد في الآخرة للّه وحده، لإنعامه وإفضاله وظهورِ قدرته وغيرِ ذلك من صفاته؛ ويحتمل أن تكونَ الألفُ واللّامُ فيه للعهد، ويكونَ المرادُ الحمدَ المعهودَ في قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: 10]، أو الذي في قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا﴾ [الزُّمر: 74][5].

وجهُ مناسبةِ ذِكر ﴿ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

ذُكرتِ الآخرةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بعد ذكر

---

(1) القاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 132، وتعيلب، فتح الرحمان، ص: 2839.
(2) عدنان الأسعد، بلاغة الحذف التركيبي في القرآن الكريم، ص: 36.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 431.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 278.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 404.

التَّذكيرُ بِنِعَمِ الآخرة، وقياسُ نِعَمِها بنعم الدُّنيا قياسَ الغائب على الشّاهد

السماوات والأرض في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنّه لمّا كانت نعمةُ الآخرة مُخبَرًا بها، غيرَ مرئيَّةٍ لنا في الدُّنيا: ذكرَ اللهُ النِّعمَ المرئيّةَ، وهي ما في السَّماوات وما في الأرض، ثمّ قال تعالى ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، مُنبِّهًا على نعمة الإعادة والإبقاء ثانيًا[1]، لتُقاسَ نِعَمُ الآخرة بنِعم الدُّنيا، ويُعلَمَ فضلُها بدوامها وفناءِ العاجلة؛ ذَكَرَها ليُقاسَ نِعمُها بنعم الدُّنيا قياسَ الغائب على الشّاهد، وإنِ اختلفا في الفضيلة والدَّيمومة[2].

سرُّ التعقيب بالصّفتَين ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾:

كمالُ الإرادةِ والتَّصرّفِ لا يكونُ إلّا بالعلمِ بظواهرِ الأمورِ والخبرةِ ببواطِنِها

عَقَّب النَّظمُ الكريمُ الحمدَ والمُلْكَ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ باسم الحكيم الخبير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، لدلالتهما على كمال الإرادةِ، وأنَّها لا تتعلَّقُ بمُرادٍ إلّا لحكمة بالغة، وعلى كمال العلم، وأنَّه كما يتعلَّقُ بظواهرِ المعلومات، فهو متعلِّقٌ ببواطنها التي لا تُدركُ إلّا بخبرة، فنسبةُ الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرةِ إلى العلم؛ فكمالُ الإرادةِ أن تكون واقعةً على وجه الحكمة، وكمالُ العلم أن يكون كاشِفًا عنِ الخبرة؛ فالخبرةُ باطنُ العلم وكمالُه، والحكمةُ باطنُ الإرادة وكمالُها[3]، فلمّا نيط حمدُه في الدّنيا والآخرة بما اقتضى مرجعَ التَّصرُّفات إليه في الدّارَين: أعقب ذلك بصفتَيِ الحكيم الخبير[4].

دلالةُ التَّذْييل بالوصفَين ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾:

إحاطةُ العلمِ والخبرةِ وشمولُهما ابتداءً وانتهاءً

ذُيِّلتِ الآيةُ بصفتَيِ الحكيم الخبير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ مناسبةً لِما في الآية من نعمة إيجادِ ما في

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 15/ 430.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 518.
(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 79.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 136.

السّماوات والأرض، والتّصرّفِ فيهما، ونعمةِ البقاء في الآخرة، وهذا لا يتأتّى إلّا عن حكمة وخبرة؛ ولشدّة التّلازم بينهما، لأنّ الحكمة هي العلمُ الذي يتصلُّ به الفعلُ، فإنَّ من يعلمُ أمرًا ولا يأتي بما يُناسب علمَه لا يُقال له حكيم، والفاعلُ الذي فعله على وفقِ العِلم هو الحكيمُ، والخبيرُ هو الذي يعلم عواقبَ الأمور وبواطنَها، فقوله ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي في ابتداء الخلق كما ينبغي، و﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ أي بالانتهاء يعلمُ ما يصدرُ منَ المخلوق وما لا يصدر؛ فهو حكيمٌ في الابتداء، خبيرٌ في الانتهاء[1].

دلالةُ تعقيبِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ بـ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾:

الحكمةُ لا تتهيّأُ إلّا بدقيقِ العلم وصافيه ولُبابه وهو العلم ببواطن الأمور

لمّا تقرَّر أنَّ الحِكمة لا تتمُّ إلّا بإيجاد الآخرة قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾، أي الذي بلغت حكمتُه النِّهايةَ التي لا مزيدَ عليها؛ والحكمةُ هي العلمُ بالأمور على وجه الصَّواب، مُتَّصِلًا بالعمل على وفْقه، ولمّا كانتِ الحكمةُ لا تتهيّأ إلّا بدقيق العلم وصافيه ولُبابه - وهو العلم ببواطن الأمور - قال تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾، أي البليغُ الخُبْرِ؛ وهو العلمُ بظواهر الأمور وبواطنِها حالًا ومآلًا[2].

دلالةُ المبالغةِ في ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾:

ثبوتُ الوصفِ ورسوخُه في الموصوفِ

خُتمتِ الآيةُ الكريمةُ بذكر صفتَين من صفات اللّه العليا ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ - وهما اسمان جليلان من أسمائه الحُسنى - للدّلالةِ على ثبوت الوصفَين ورسوخِهما وتمكُّنِهما في الموصوف، وجاءا على صيغة المُبالغة على وزن (فَعيل) للإشارة إلى تمكُّن صفتَيِ الحكمة والخبرة في خلق السّماوات والأرض وما فيهما، وأنّهما صفتان ثابتتان للّه تعالى، لا يمكن زوالُهما منَ الموصوف[3].

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 16/ 5.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 439، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 3/ 347.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 240.

سرُّ الاقترانِ بين الصّفتَين ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾:

بيانُ أنَّ حكمته ﷻ مبنيّةٌ على علمِه الدّقيقِ

اقترنتِ الحكمةُ بالخبرة في قول اللّه تعالى ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، والحكمةُ غالبًا تُقرَنُ في القرآن بالعِزَّة وبالعلم؛ أمّا هُنا فقُرنت بالعلم الذي تتضمَّنُه الخبرةُ، وإنَّما قُرِنَت بذلك ليتبيّن أنّ حكمتَه ﷻ مبنيَّةٌ على علمه، وأنّه إذا تراءى لأحد أنَّ أمرًا ما ليس بحكمة فإنّما ذلك لنُقصانِ علمِه، ولو كان عنده فهمٌ بدقائق الأمر وعلمٌ بمآلاته: لعرفَ أنّ الحكمةَ فيما شرعه اللّه ﷻ، وفيما قدّره[1].

وممّا يُذكر في سرِّ الاقتران بيْنَ الصِّفتينِ هُنا أيضًا: أنَّ كلَّ واحِدةٍ تَدُلُّ على معنًى أصليٍّ ومعنًى لُزوميٍّ، وهما مُختلفانِ؛ فالمعنى الأصليُّ للحَكيمِ: أنَّه مُتقِنُ التَّصرُّفِ والصُّنْعِ، لأنَّ الحكيمَ مُشتقٌّ مِنَ الإحكام، وهو الإتقانُ، وهو يَستلزِمُ العِلمَ بحَقائقِ الأشياءِ على ما هي عليه، والخبيرُ: هو العليمُ ببواطنِ الأشياءِ وظَواهِرِها بالأَولى، بحيث لا يَفوتُه شَيءٌ منها، وهو يَستلزِمُ التَّمكُّنَ مِن تَصريفِها، ففي التَّتميم بهَذينِ الوَصفينِ إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ مِن الجُملةِ قبْلَه استِحقاقُ الَّذين أقْبَلوا في شُؤونِهم على آلهةٍ باطلةٍ[2].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الحمد والشُّكر والمَدْح:

الحـمـدُ أعـمُّ مُتَعَلّقًا وأخصُّ آلـةً، والشُّكـرُ أخصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً

الحمدُ في اللُّغة هو الوصْفُ بالجميل الاختياريّ على جهة التَّعظيم، وموردُه اللّسانُ وحدَه، فهو مختصٌّ بالظّاهر، ومُتعلّقه النِّعمةُ وغيرُها؛ فموردُه خاصٌّ، ومتعلَّقه عامٌّ، والشّكرُ لغةً على العكس من ذلك: مُتعلَّقه خاصٌّ، ومورده عامٌّ، لأنّه فعلٌ يُشعر بتعظيم

(1) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 18.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 136، 137.

المُنعِم بسبب إنعامِه؛ فمتعلَّقُه النّعمةُ الواصلةُ إلى الشّاكر، وموردُه الظّاهرُ والباطن، لأنَّه يَعُمُّ اللِّسانَ والجَنانَ والأركانَ؛ ومن موارده القلبُ، وهو أشرفُ الموارد كلِّها[1].

فبَيْنَ الحمدِ والشُّكْرِ عمومٌ وخصوصٌ وجْهيًّا، لأنّ الحمدَ قد يترتّب على الفضائل المجرَّدةِ، والشّكرَ يختصُّ بالفواضل، والحمد أعمُّ مُتَعَلّقًا وأخصُّ آلةً، والشُّكْرُ أخصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً[2]؛ لأنَّ الحَمْدَ يكون في مقابِلِ النِّعمةِ ويكون ابتداءً، وقَدْ يكون شُكْرًا للصَّنيعة، وقد يكون ابْتِداءً للثّناء عَلَى الرَّجُلِ[3]؛ بخلاف الشُّكْر، فلا يكونُ إلّا في مُقابَلَةِ نِعْمَةٍ، إذْ هو "عِرْفانُ الإحْسانِ ونَشْرُه، ولا يَكونُ إلّا عن يَدٍ"[4].

فتَحَصَّل مِن هذا أنَّ الحَمْدَ أعمُّ متعلَّقًا مِنَ الشُّكر؛ أمّا الآلةُ، فالحَمْدُ يكونُ باللِّسان والقلبِ دون الجوارح، بخلاف الشُّكْرِ فَإنَّه يكونُ بالقلب واللِّسان والجوارح، كما قال اللّٰه سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سَبَأ: 13]؛ فتقرَّر من هذا أَنَّ الشُّكْرَ أعمُّ مِنْ جهة الآلَةِ.

الحمدُ: الإخبارُ عن محاسن المحمودِ مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه؛ أمّا المدحُ؛ فهو ذلك الإخبارُ مُجَرَّدًا عنِ الحُبِّ وتوابعِه[5]؛ كما أنَّ الحمدَ لا يكون إلّا لحيٍّ، والمدحَ يكون لِلْحَيِّ وغيرِه، فقد يَمْدَحُ الإنسانُ جمادًا[6].

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (شكر)، والجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية: (حمد)، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 432.
(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 202، والتَّهانَوِي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/ 541.
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (حمد).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).
(5) ابن القيِّم، بدائع الفوائد: 2/ 93.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/ 191.

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرتِ الآية الأولى من سورة سبأٍ الحمدَ للّه ﷻ، وذكرتْ موجباتِه من ملكيّة السّماوات والأرض والتّصرّفِ فيهما، وذلك بحكمته سبحانه وخبرته، فهو الحكيمُ الخبير: جاءت هذه الآية بذكرِ شواهدِ حكمتِه وخبرتِه، وذلك لعلْمِه ما يلجُ في الأرض، وما يخرجُ منها، وما ينزلُ منَ السّماء، وما يعرجُ فيها.

فجاءت هذه الآية بمثابة الشّرحِ والبيانِ لصفة الخبير التي وصف الحقُّ بها ذاتَه في ختام الآية السّابقةِ، لأنّ معناه العالِمُ علمًا كاشفًا لكلّ شيءٍ، بحيث لا يقع شيءٌ في الوجود إلّا عن علم؛ ومن هذا العلم: ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلِجُ﴾: (ولج) أصلٌ يدُلُّ على دُخولِ شيءٍ[2]، يُقالُ: ولجتُ البيتَ ألِج ولوجًا إذا دَخلته؛ والمَوْلَجُ: المَدْخَلُ؛ والوِلاجُ: البابُ، والوِلاجُ: الغامِضُ مِنَ الأرض والوادي، والجَمْعُ وُلُجٌ ووُلوجٌ - الأخيرةُ نادرَةٌ؛ لأَنَّ فِعالًا لا يُكسَّر عَلَى فُعول - وهي الوَلَجَةُ، والجَمْعُ وَلَجٌ[3]؛ قال الرّاغبُ: الولوجُ الدُّخولُ في مضيقٍ؛ وفسَّره غيرُه: بمطلق الدُّخول[4]، والمرادُ بالولوج في الآية: الدُّخولُ والسُّلوكُ، مثل ولوجِ ماءِ المَطَرِ في أَعماقِ الأَرضِ ووُلوجِ الزَّريعةِ[5].

2) ﴿يَخۡرُجُ﴾: (خرج) أصلان، أحدُهما يدلُّ على النّفاذِ عنِ الشّيءِ[6]؛ فخرج خروجًا:

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 8/ 774.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولج).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (ولج).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ولج).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 137.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).

أي برزَ من مقرِّه أو حالِه، سواء كان مقرُّه دارًا أو بلدًا أو ثوبًا، وسواءً كانت حالُه حالةً في نفسه أو في أسبابه الخارجة، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: 21]، وقال تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ﴾ [الأعراف: 13]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ [فصلت: 47]، والإخراجُ أكثرُ ما يقال في الأعيان، نحو حكاية قولِ المكذِّبين: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾ [المؤمنون: 35]؛ ويقال في التّكوين الذي هو من فعل الله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣﴾ [طه: 53][1].

3) ﴿يَعۡرُجُ﴾: (عرج) أصلٌ يدُلُّ على ارتِقاءٍ[2]، فالعُروجُ: الصُّعودُ والارتِفاعُ؛ والمِعْراجُ: آلةُ العُروجِ، كالمَصعَدِ والمَرْقى التي يُصْعَد بها مِن أسْفَلَ إلى أعلى؛ يُقال: عَرَجَ إلى السَّطح وإلى السَّماء، يعرُجُ، عُروجًا ومَعْرَجًا، أي: صَعَدَ[3]، والمقصودُ بالعروج في الآية: الصُّعودُ من أسفلَ إلى أعلى[4].

4) ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾: (غفر) أصلٌ يدلّ على السّتر[5]، فالغَفر: إلباسُ الشّيء ما يصونه عن الدّنسِ؛ ومنه قيل: اغفر ثوبَك في الوعاء، وأصبغ ثوبَك فإنّه أغفرُ للوسَخ، والمرادُ التَّغْطيَةُ والسَّتْرُ، والغُفْرَةُ: ما يُغطَّى بِهِ الشَّيءُ[6]، والمغفرةُ: سَترُ الذُّنوب بعدم الحسابِ عليها، والغَفّارُ والغافِرُ: من صفاتِ اللهِ تَعالَى، وهُما من أَبْنِيَةِ المُبالَغَة، ومعناهُما: السّاترُ لِذُنوب عِبادِه، المُتَجاوِزُ عَن خَطاياهُمْ وذُنوبهم[7]؛ والغفورُ: ذو المغفرة، اسمٌ يتضمَّنُ مُبالغة الغفران؛ لِأَنَّهُ تَعالى واسِعُ المَغْفِرَةِ إذْ يَغْفِرُ لِمَنْ لا يُحْصَوْنَ، ويَغْفِرُ ذُنوبًا لا تُحْصَى.

المَعْنى الإجماليُّ:

تُبيِّنُ هذه الآيةُ أنَّ الله تعالى يَعلَمُ كُلَّ ما يَدخُلُ في الأرضِ ويَغيبُ فيها: كالمطَرِ، والبُذورِ، والحيواناتِ، والأمواتِ، والكُنوزِ، وغيرِ ذلك؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَخرُجُ مِنَ الأرضِ: كأنواعِ

---

(1) الراغب، المفردات: (خرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (عرج).
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 222.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(7) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (غفر).

النَّباتاتِ، والمعادِنِ، والكنوزِ، وغيرِ ذلك، يَعلَمُ عَدَدَه وكيفيَّتَه وصِفاتِه؛ ويَعلَمُ سبحانه كُلَّ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ: كالأمطارِ، والبرَدِ، والثُّلوجِ، والصَّواعِقِ، والأرزاقِ، والملائِكةِ؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَصعَدُ ويَدخُلُ في السَّماءِ: كالملائكةِ، والأرواحِ، وأعمالِ العبادِ؛ واللهُ هو الرَّحيمُ بعِبادِه، الغفورُ لذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها(1).

علم الله محيط بالكون

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الجُملة عمّا قبلها:

الجملةُ في مقام التَّعليلِ لِما قَبْلها والتّفسيرِ والبيانِ

فُصلت جُملة ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها استئنافٌ في مقام التَّعليل، لبيان إحاطةِ علمِه تعالى بالأشياء التي نيطت بها مصالحُهم الدّينيّةُ والدّنيويّةُ؛ أو لأنّها تفسيرٌ للاسم الأحسنِ ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾(2)، فإنَّ الخبير هو الذي يعلم عواقِبَ الأمور وبواطنَها.

بلاغةُ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ:

التّفصيلُ بعدَ الإجمالِ أوقعُ في النُّفوس وأرسخُ في القلوب

لمّا خَتم النَّظمُ الكريمُ بصفة الخِبْرة في قول اللّه تعالى ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، أتبعَ ذلك ما يدلُّ عليها من تفصيلٍ لبعض معلوماته التي تعلّقُ بها مصالحُ الدّين والدّنيا، فقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾(3)؛ وفي الكلام تَفصيلٌ لِبَعضِ ما يُحيطُ به عِلمُه تعالى مِنَ الأُمورِ المتعلّقةِ بمَصالِحِهم الدُّنيويَّةِ والدّينيَّةِ(4)، وفائدةُ هذه الطَّريقةِ البلاغيَّةِ هي أنَّ الشَّيءَ إذا جاء مُجْمَلًا تَشَوَّفَتِ النُّفوسُ إلى تفصيلِه، ثمّ يجيءُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 208، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 259، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 494، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 55، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 674.

(2) المظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 4، مدرس، مواهب الرَّحمان، ص: 263.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 442، والصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 3/ 253.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 121.

التَّفصيلُ واردًا على نفوسٍ تتطلَّعُ إليه؛ فالتّعبيرُ أوقَعُ في النَّفْسِ، وأرسَخُ في القلبِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالعلم:

العـلـمُ صفـةٌ تـنـكـشـفُ بـها حقائقُ الأشياء

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالعلم في قول اللّه تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾؛ لأنّ عِلْمَ اللّه تعالى يمتدُّ ليشملَ كلَّ شيءٍ في هذا الكون، فلا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ؛ فيشملُ علمُه ما يدخلُ في الأرض من حَبَّة أو دودة، أو حشرةٍ أو هامةٍ، أو زاحفةٍ تلج في أقطارها المتراميّةِ، أو قطرةِ ماء أو ذرّةِ غاز، أو إشعاعِ كهرباء يندسُّ في أرجاء الأرض الفسيحةِ، أو غيرِ ذلك ممّا لا حصرَ له ولا عدد، تراه عينُ اللّه التي لا تنام[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَعْلَمُ﴾:

علمُ الله باقٍ، وعلمُ غيره فانٍ؛ وعلمُ الله أزليٌّ ثـابـتٌ، وعـلـمُ غيرِه زائلٌ فائتٌ

دلَّ التَّعبيرُ بصيغة المضارع من فِعل العلم في قول اللّه تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ على أنّ علم اللّه تعالى على سبيل الاستمرار والدَّيمومةِ، لذا صيغَ هذا الفعلُ مُضارِعًا في الجُملة الكريمة؛ وفي هذا تعريضٌ بمن يشركُ باللّه ما لا يسمع ولا يُبصرُ ولا يُغني عنهم شيئًا، ولو ركنوا إلى عبادة ما يعقلُ منَ البشر أوِ الملائكة فإنّ علمَهم لا يوصفُ بالدّيمومةِ ولا بالاستمرار.

ومِمّا تجدرُ الإشارةُ إليه هنا التّفريقُ بَيْنَ المضارع في الإسناد الوضعيّ، وفي التَّنزيل الحكيم: أنَّ الفعل المُضارع في الإسناد الوضعيِّ ينتهي بانتهاء الزَّمنِ والقائلِ، أمّا المُضارع القرآنيّ فهو فعلٌ أزليٌّ باقٍ ثابتٌ؛ والأفعالُ المُضارعةُ في الآية تدلُّ على ثبوت علمِ اللّه، وأنّها صفةٌ أزليَّةٌ، اختصّ بها ﷻ.

(1) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 24.

(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 22/ 4368.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَا﴾:

شمولُ علمِه وإحاطتِه تعالى بكُلِّ ما في الوجود

دلَّ التّعبيرُ بالموصول ﴿مَا﴾ دون غيره منَ الموصولات في قول اللّه تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لإفادتها العمومَ؛ أي: (يعلم ما يدخل في الأرض منَ المياه، والأحياء، والكنوزِ والدَّفائنِ والأمواتِ والحشراتِ والهوامِ ما هو أصغرُ منها، ويشملُ الأشعّةَ والحرارة وأجزاءهما حتى أصغرِ جزء)[1]، ففي التَّعبير بالموصول ﴿مَا﴾ دليلٌ على التَّعميم في جملة الصّلةِ في الآية؛ فيعمُّ كُلَّ ما يلجُ في الأرض ولو بالوضع فيها، وكلَّ ما يخرجُ منها حتَّى الحيوان فإنَّه كُلُّه مخلوقٌ منَ التُّراب، وفيه دليلٌ على شُمول علْمِه وإحاطتِه بكلِّ كبير وصغير في الوجود، حتّى أصغر أجزاءِ الذّرّة الّذي لا تُدركُ الخلائقُ حدودَه، لبلوغه الغايةَ في الصّغر، فإنَّ اللّه يعلمُه.

سِرُّ تكرارِ الموصولِ ﴿مَا﴾:

التّعريضُ بكُفران المُشركين الذين حمِدوا غيرَ الله

تكرّر التَّعبيرُ بـ﴿مَا﴾ الموصولةِ في قول اللّه تعالى ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾، وذلك للتّعريضِ بكُفرانِ المُشركين الذين حمِدوا أشياءَ ليس لها في هذه العوالم أدنى تأثيرٍ، ولا لها بما تحتوي عليه أدنى شعورٍ؛ ونَسوا حمدَ مالكها ومالكِ سائرِ ما في السّماوات والأرض، وفي هذا التَّعريض أيضًا تنبيهٌ إلى غباوتهم بسوء معتقدِهم في إشراكهم اللّه من لا يملكُ مثقالَ ذرّة في الأرض ولا في السَّماء، وتذكيرٌ لهم بنسبة الفضلِ للّه وحدَه، وأن يتوبوا عنِ الشِّرك ليُغفَرَ لهم ما قدَّموه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجُمَل الفعليَّة المُضارِعة:

التّجدُّدُ والحدوثُ مناسبٌ لحركة الحياة الدّائبة المستمرَّة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عنِ الخبر بالجُمَل الفعليَّة في قول اللّه تعالى ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 259، والمكي، المعين على تدبر الكتاب المبين، ص: 428.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 138.

﴿فِيهَا﴾؛ ليتناسبَ مع حركة الحياةِ الدّائبةِ، من ولوجٍ وخروجٍ ونزولٍ وعروجٍ، في شتَّى مناحي الحياة.

فحضورُ الفعلِ المُضارع كان لافتًا للتّدبُّر في الآية: ﴿يَعْلَمُ﴾، ﴿يَلِجُ﴾، ﴿يَخْرُجُ﴾، ﴿يَنزِلُ﴾، ﴿يَعْرُجُ﴾، وإذا استثنينا الفعلَ ﴿يَعْلَمُ﴾ الذي يُشير إلى سعة علمِه وإحاطتِه بكلّ ما يدورُ في الكون، وأنّه لا تخفى عليه خافيةٌ: فإنّ بقيَّة الأفعال تعجُّ بالحركة والتّوثّب، فهي أفعالٌ تتّسقُ مع حركة الكون الوثّابة، وتُحضِرُ بعضًا من صورِ الحياة المتجدّدةِ إلى خيال السّامعين.

بلاغةُ الإيجازِ في ذكر المعلومات:

طويَ في هذه الكلمات حشدٌ هائلٌ من الصّوَر والمعاني والحركات

تعلّق علمُ اللّه تعالى ببعض مظاهرِ علمِه وقدرتِه في العالَم العلويّ والسّفليّ في قول اللّه تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، وذلك من باب الإشارةِ إلى بعض علمِ اللّه في العالم الأرضي الذي يعيشون فيه؛ فهذه الأرض يعلمُ اللّه سبحانه ما يلجُ فيها، أي ما يَنفُذُ إلى باطنها، ويتسرّبُ إلى أعماقها، فهو سبحانه يعلم كلَّ حبّة في باطن الأرض، ويعلمُ مُستقرَّها ومُستودعَها، ويعلمُ سُبحانه ما يجري في باطن الأرض من ماءٍ كذلك؛ ومن بابٍ أولى في حسابنا: يعلمُ سبحانه ما يخرج منَ الأرض من نبات، وما يتفجّرُ من عيون، وما يَخرُجُ منها منَ النّباتِ بأصنافه، أو منَ الحشرات المنبعثةِ منها بإرادته تعالى وإجراءِ سنّته الكونيّة؛ ويعلمُ ما ينزلُ منَ السّماء، وما يعرُج فيها: منَ الملائكةِ، والطّيورِ، والأمطارِ، والثّلوجِ، والبردِ، والصّواعقِ، والهواءِ، وسائرِ الموادّ النّازلة منها، وغيرِها ممّا لا يعلمُه إلّا اللّه؛ فيقف الإنسانُ أمامَ هذه الصَّفحة المعروضةِ في كلمات قليلة، فإذا هو أمامَ حشدٍ هائل عجيبٍ منَ الأشياء والحركاتِ والأحجامِ والأشكالِ والصّورِ والمعاني والهيئات، لا يصمدُ لها الخيال![1].

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 774.

سرُّ تخصيصِ علمِ الله بما ذُكر:

ذكرُ علمِ الولوجِ والخروجِ، والنّزولِ والعروجِ يستلزمُ علمَ الجَولِ والدّبيبِ وغيرِهما

خصّ النّظمُ الكريمُ ما يلجُ وما يخرجُ منَ الأرض بالذّكر في متعلّقِ العلم دون ما يدبُّ على سطحها، وما ينزلُ وما يعرجُ إلى السّماء دون ما يجولُ في أرجائها، في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾: لأنّ ما ذُكر لا يخلو عن أن يكون دابًّا وجائلًا فيهما، فالذي يعلمُ ما يلجُ في الأرض وما يخرجُ منها: يعلمُ ما يدبُّ عليها وما يزحفُ فوقَها، والذي يعلمُ ما ينزلُ منَ السّماء وما يعرج فيها: يعلمُ ما في الأجواء والفضاء منَ الكائنات المرئيّة وغيرِها، ويعلمُ سَيرَ الكواكبِ ونظامَها[1].

بلاغةُ المُقابلةِ بين الأفعال:

بيانُ الإحاطةِ بالموجوداتِ الأرضيَّةِ وبأحوالِ الموجوداتِ السّماويّة

قابل النَّظمُ الكريمُ في قول اللّه تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ بين فِعلَي الولوجِ والخروجِ وبين فعلَي النّزولِ والعروجِ؛ وتدلُّ هذه المقابلةُ على وجوب حَمْدِ اللّه تعالى وشُكرِه بالقلب واللِّسان، وأنَّ اللّه تعالى يعلمُ ظواهِرَ ملكوتِه وبواطنَه، وتظهرُ دِقَّةُ التَّعبيرِ القرآنيِّ في اختيار المفردات، فكلمتا ﴿يَلِجُ﴾ و﴿يَخۡرُجُ﴾ أوضحُ ما يُعبَّرُ به عن أحوال جميع الموجودات الأرضيَّة بالنِّسبة إلى اتِّصالها بالأرض، وكلمتا ﴿يَنزِلُ﴾ و﴿يَخۡرُجُ﴾ أوضحُ ما يُعبَّر به عن أحوال الموجودات السَّماويّة بالنِّسبة إلى اتّصالها بالسَّماء.

بلاغةُ التّضادِّ بين الأفعال:

التَّدليلُ على وحدانيّة الله في علمِه وقدرتِه

تظهرُ بلاغةُ التّضادّ بين الأفعال من قول اللّه تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾، حيثُ ولّدَ التَّضادُّ بين الإيلاج في الأرض والإخراج منها، والتَّضادُّ بين الإنزال منَ السَّماء والعُروج إليها: معانيَ العلمِ والرَّحمة والقدرة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 137.

والرّزق؛ وهي معانٍ تدلُّ على وحدانيَّة اللّه سبحانه، قهرًا للمشركين الذين اتّخذوا أربابًا من دون اللّه، ويدلّ التّضادُّ على قدرةِ اللّه، قدرته على البعث، وقدرتِه على الوحي؛ فذِكرُ الآية ما يلجُ في الأرض وما يخرج منها: كالومضةِ التي تقدَحُ في ذهن المشركين صورةَ دخولهم في قبورهم ثم الخروجِ منها؛ وذِكرُ ما ينزل منَ السّماء وما يعرج فيها: تصويرٌ للوحي الذي كذّبوا به، كما أنّه يتضمّن التّضادُّ بين النّزولِ منَ السّماء والعروج فيها ترغيبًا وترهيبًا؛ بتصوير عروج الأعمال - حسنِها وسيّئِها - إلى الملِك، ثمّ نزولِ ثوابه على حسنِها أو عقابه على سيّئِها، وفي هذه الدلالاتِ والإشاراتِ توطئةٌ وتمهيدٌ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ وما بعده منَ الآيات[1].

كما أنّ في هذا التّضادِّ أيضًا دلالةً على تقلّب الأحوال في ملكوت السّماوات والأرض، وعدمِ استقرارها فيهما؛ ويدلُّ على استمرار دورةِ الحياةِ مع اختلاف هيئاتِها[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالولوجِ:

الولوجُ أدقُّ منَ الدُّخول

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالولوج دون الدّخولِ في قول اللّه تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ﴾ لأنّ مادّةَ الولوج اللّغويّةَ تعني الدُّخولَ في مَضيق[3]، فهي أدقُّ تعبيرًا من كلمة دَخَل، فاللّه سُبحانه يُحيط بكلِّ ما يلجُ في باطن الأرض عن طريق مساماتِها وعُروقِها، مِمّا يلجُ في الأرض بالإيلاج البشريِّ وبلا إيلاجٍ منهم[4].

سِرُّ تقديمِ الولوجِ:

الـولـوجُ يسبقُ الـخـروجَ في الوجود

قُدِّم في الآية الكريمة الولوجُ على الخروج في قول اللّه تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ تقديمًا وجوديًّا، حيث إنَّ

(1) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 35.
(2) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 34.
(3) الرّاغب، المُفردات: (ولج)، وإسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 259.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 442.

الولوج هو السّابقُ على الإخراج؛ فينزلُ في الأرض الماءُ، وتُبذرُ فيها البذورُ، وينزلُ فيه الحديدُ منَ الشُّهب المتساقطةِ، ثمّ يخرجُ بعدَ كلِّ ذلك، المياهُ والمعادنُ والنّباتُ، ولا شكَّ أنَّ ما تُخرجه الأرضُ منَ الأرزاق سببُه المطرُ الذي يلجُ في الأرض، فقدَّم النَّظمُ الكريم الولوجَ؛ لأنَّ الشَّيء يغيبُ في التُّراب أوّلًا، ثمّ يُسقى فيخرجُ ثانيًا[1].

بلاغةُ العطفِ بالواو:

إظهارُ حُسنِ التّرابُطِ بين هذه الجُمَلِ

تعاقبتِ المُتعاطفاتُ بالواو - دون الفاء أو ثُمّ - في قول الله تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾؛ لأنّ الواوَ تفيد مُطلَقَ الجمع؛ والوصلُ بين هذه الجُمَل يُعَدُّ من أقوى الرَّوابطِ التي تميَّزت بها الواو في السّورة الكريمة، وممّا يُؤكِّد حُسنَ اختيارها: الاشتراكُ بين هذه الجُمَل في الفعليَّة، وفي الخبريَّة، وعلاقةِ التّقابلِ بين معنى الإيلاج في الأرض والإخراج منها، والإنزالِ منَ السَّماء والعروجِ فيها، وعلاقةِ التَّضادِّ بين ﴿يَلِجُ﴾ و﴿يَخۡرُجُ﴾، وبين ﴿يَنزِلُ﴾ و﴿يَعۡرُجُ﴾، وعلاقةِ شِبه التَّضادِّ بين الأرض والسّماء[2]، وهذا الوصلُ بين الجُمل من قَبيلِ التّوسُّط بين الكمالَين، أي كمالِ الاتّصال وكمالِ الانقطاع؛ وهذه العلاقاتُ من رَوْعَة النّظمِ في الرَّبط بَيْنَ الجُمَلِ[3].

سرُّ ترتيبِ المعطوفاتِ:

مراعاةُ التّرتيبِ المنطقيِّ بين المتعاطفاتِ

أفادتِ الواو في قول الله تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ التَّرتيبَ المنطقيَّ بين المُتعاطفات: فتميَّز ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ المعطوفُ عليه بالتَّقدُّم، لكونه يُبذَر في الأرض أوّلًا، ثم يُسقى بما ﴿يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ولذلك

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 442.
(2) القزويني، بغية الإيضاح: 2/ 57، والميداني، البلاغة العربية: 1/ 594.
(3) حصة الرميح، من بلاغة القرآن في سورة الحج، ص: 298.

عُطِفَ عليه، وعُطِف على ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، لأنَّه يأتي غالبًا بعد الإيلاج في الأرض؛ كاستخراج كنوزِ الأرض، والإنباتِ بعد البَذر، والبعثِ بعد القَبر، وبدأ بالإنزال منَ السَّماء قبل العروجِ فيها؛ لأنَّ الشَّرائع تنزل بالوحي أوَّلًا، حتّى إذا عرجت أعمالُ العباد حوسِبوا عليها؛ وكما أنّ الأمر الشّرعيَّ يسبقُ عملَ المُكلَّفين، فكذلك يسبقه الأمرُ الكونيُّ والتّقديرُ الإلهيُّ، ينزل أوّلًا ثمّ تَعرُج أعمالُ العباد على وفق قضاء اللّه وقدرِه، ولعلَّ ترتيبَ المُتعاطفات لإفادة التَّرقّي في المدح[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالموصولِ (ما):

إفادةُ العمومِ في الخارجِ منها في عَـدده وكيفيَّته وصفاتِه

دلّ التَّعبيرُ بالموصول (ما) في قول اللّه تعالى ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ على العموم في كلّ ما يخرجُ منَ الأرض، من أنواع النَّباتِ والزُّروعِ والكُنوزِ والفلذاتِ، والأمواتِ إذا حُشروا، والماءِ منَ الآبار والعيونِ ممّا يكونُ حياةً وخيرًا كالرِّزق الحَسَنِ، أو عذابًا مُدمِّرًا كالبراكين والزَّلازل، وغيرِ ذلك مِمّا لا يعلمُه إلّا اللّه[2] في عَدده وكيفيَّته وصفاته؛ فيعلمُ ربُّنا أعيانَها ومقاديرَها وأحوالَها ومدّةَ بقائها ووقتَ فنائها[3].

سرُّ عطفِ معلوماتِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الرّبطُ بين الحياةِ المادّيةِ والحياة المـعـنـويّـة، وكلاهما مُحاطٌ بعلم الله وخُبره

ذكرَ النّظمُ الكريمُ فعلَ الإنزال منَ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ والعروجِ فيها بعد أمر الولوجِ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ والخروجِ منها، في قول اللّه تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾: للرّبطِ بين الحياة المادّيَّة والمعنويَّة، بأنّ ما سبق ذكرُه يتعلّقُ في الغالب بمقوِّمات الحياة المادّيَّة - ومنه إنزالُ الماء - وأيضًا ما يتعلّقُ بحياة الأرواحِ، حيث ينزلُ منَ السَّماء الوحيُ الذي هو رحمةٌ، ثُمَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 279.
(2) الطَّبراني، التَّفسير الكبير: 5/ 224، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 4.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 494، والنَّسفي، تفسير النَّسفي: 12/ 222.

يصعدُ إليها أعمالُ العباد السَّيِّئةُ، والتي تُقابل منَ اللّه بالمغفرة، وأنَّ ما ينعمُ به العبدُ منَ الهداية فبسبب الوحي الذي ينزلُ منَ السَّماء[1]، وفي هذا العطف أيضًا تقريرٌ لشموليّة العِلم الإلهيّ؛ فكما أنّه عالمٌ بما يجري في الأرض فهو كذلك غيرُ خافٍ عليه ما فوق هذا العالَم الأرضيِّ، يعلمُ ما ينزل منَ السّماء من ماء، وملائكةٍ، ويعلمُ ما يعرج في السّماءِ ويصعدُ إليها من عالَم الرّوحِ الذي نزل إليها[2].

سِرُّ تقديمِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

ذِكْرُ الأقربِ لِما يتعلّق بمعيشة الإنسان

قُدِّم ما يتعلّق بالأرض على ما يتعلّقُ بالسّماء في قول اللّه تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ لشدّة ما يمسُّ الإنسانَ في معيشته، وإن كان غيرُه أشرفَ منه؛ لذلك جاء الحديثُ عمّا يلجُ في الأرض وما يخرجُ منها قبل التَّحدُّث عمّا ينزلُ منَ السّماء وما يعرجُ فيها[3].

سِرُّ عدمِ عطفِ لفظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

استقلالُ كلِّ صِلَةٍ بأسرارٍ مكتنَزةٍ منَ المعاني والصّوَر

لم تُعطَفِ السَّماءُ على الأرض في قول اللّه تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾، فلم يُقَل: (يعلم ما يلج في الأرض والسماءِ، وما يخرج منهما)، ولم يُكتفَ بإحدى الجُملتين عنِ الأخرى[4]، وذلك لاستقلال كلٍّ منَ الأرض والسّماءِ بأسرارٍ تتميّز بها عنِ الأخرى، فلو أنّ أهل الأرض جميعًا وقفوا حياتَهم كُلَّها يَتتبَّعون ويُحصون ما يقع في لحظة واحدة مِمّا تشيرُ إليه الآيةُ: لأعجزَهم تَتَبُّعه وإحصاؤه عن يقين! فكم من شيء في هذه اللَّحظة الواحدة يلجُ في الأرض؟ وكم من شيء في هذا اللَّحظة يخرجُ منها؟ وكم من شيء في هذه اللَّحظة ينزل من

(1) السيري، دلالات التقديم والتأخير في القرآن، ص: 563.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 774.
(3) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 23.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 138، والخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 11/ 774.

السَّماء؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يعرجُ فيها؟ فهذه الكلماتُ (الولوجُ والخروجُ، والنّزولُ والعروجُ) من كلمات اللُّغة التي تَدلُّ على المعاني الموضوعةِ للدَّلالةِ عليها دلالةَ مُطابقةٍ على الحقيقة دون المجاز ودون الكناية.

دلالةُ إفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

إرادةُ مُطلَقِ العُلوِّ، الدّالِّ على إحاطة الله تعالى بكلِّ الملكوت عِلْمًا ومُلْكًا

أفرد النَّظمُ الكريمُ لفظَ السَّماء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، مع إيراده مجموعًا في الآية السّابقة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ المُراد هو مطلقُ العلوّ؛ والآية تعريضٌ بمُنكِري البعث، الذين لا يُدركون بحواسّهم سوى السّماءِ الدُّنيا، فلذلك أُفردت، وعند تأمُّل الآيتين يتبيّنُ أنّ الأولى قرّرت ملكَ السَّماوات والأرض للّه، والثّانيةَ أبرزت جانبًا من مظاهرِ إحاطتِه وعلمِه بهذا الملكوت، الذي لا يُنكرُه المشركون؛ وفي هذا تحريضٌ لهم إلى أن يتفكّروا في أنفسهم، فما خلْقُهم بأكبرَ من خلق السّماء والأرض، وليس يعسُر على اللّه بعثُهم بعد موتهم[1].

دلالةُ التَّعبير بالعروج:

الدَّلالةُ على النُّفوذ والتَّمكُّن في الصُّعود، من غير الدّلالة على المشقّة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالعروجِ دون الصعود في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ للفرق بينهما؛ فالصّعودُ هو الذّهابُ في المكان العالي، يستعمل لكلِّ شاقٍّ، بخلاف العروج، فهو الذَّهابُ في صُعودٍ إلى أعلى؛ والسَّماءُ جهة العُلوِّ مُطلقًا[2]، وعبَّر النَّظمُ الكريمُ بالعُروج ليُفهَم نفوذُه فيها وصعودُه وتمكُّنه فيها[3].

أسرارُ تعديةِ العُروج بـ(في):

علمُ الله تعالى لا يحدّه شيءٌ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ باستعمالِ حرفِ الظّرفيّةِ (في): ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، ولم يُقَل: (وما يعرج إليها)، لأنَّ الأصل في (إلى

(1) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 33.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/ 264.
(3) الشربيني، تفسير الخطيب الشربيني: 3/ 347.

أن تكون لانتهاء الغاية[1]، والعدولُ عن ذلك لِأن لا يُفهمَ أنَّ عِلْمَهُ يقفُ عند حدود الشّيء، المفهوم من معنى (إلى)، بل إنَّ علمه نافِذٌ ليس له حدودٌ؛ فضُمِّن العروجُ معنى السَّير أوِ الاستقرار، فلذا عُدّيَ بـ(في) دون (إلى)، فاختيارُ (في) لفائدتين: العروج - أي الصُّعود - مع الدُّخولِ؛ لأنَّ (في) يُناسِبُها مِنَ الأفعالِ: الدُّخولُ، أمّا العروجُ فالَّذي يُناسِبُه: (إلى)؛ لكِن عُدِلَ عن قَولِه: (يَعرُجُ إليها) إلى قَولِه: ﴿يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ ليُفيدَ الصُّعودَ والدُّخولَ معًا، وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار التَّضمين، فالمُرادُ بما يعرج فيها: (ما يعرج في ثخن السَّماء)؛ ويُفهَمُ من علمِ اللّه بذلك علمُه بما يعرج إلى السّماء من بابٍ أولى[2].

وممّا يُذكرُ في سرّ التّعبيرِ بالظّرفيّة: أنّه لدفعِ توهُّمِ أنَّ أعمال العباد تعرجُ إلى سماء الدُّنيا فقط؛ لأنّه لو قيل: (وما يعرج إليها) لَتوُهِّم أنَّ الأعمال تعرج إلى السّماء الأولى فقط، والمنقولُ أنَّها تعرج في السَّماوات السَّبع، وتصعدُ إلى أعلاها[3]، وفيه إشارةٌ إلى قَبولِ الأعمالِ الصّالحةِ، ومَرتبةِ النُّفوسِ الزَّكيَّة، لأنَّ كَلِمةَ (إلى) للغايةِ؛ فلو قيل: (وما يَعرُجُ إليها) لفُهِمَ الوقوفُ عندَ السَّماوات، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾، ليُفهَمَ نُفوذُها فيها، وصعودُها منها؛ ولهذا قال في الكَلِمِ الطَّيِّب: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، لأنَّ اللّه هو المنتهَى، ولا مرتبةَ فوقَ الوصولِ إليه؛ وأمّا السَّماءُ فهي دنيا، وفوقَها المنتهَى[4].

دلالةُ العطفِ بِذِكْرِ الرَّحمة والمغفرة:

بيانُ أنَّ الأفعال السّابقةَ في الآية من آثار الرَّحمة والمغفرة

عطفَ النّظمُ الكريمُ جملةَ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ إشارةً إلى أنَّ

---

(1) السامرائي، معاني النَّحو: 3/ 16.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 104.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 314.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 191.

ما يلج في الأرض وما يخرج منها هو هذه الرَّحمةُ التي تنزل ماءً منَ السَّماء، فتلج في الأرض، فتخرجُ منها حبًّا ونباتًا وجنّاتٍ ألفافًا، وفي هذا حياةُ كُلِّ حيٍّ طعامًا وشرابًا؛ ثُمَّ إشارةٌ أخرى إلى ما ينزل منَ السَّماء من آيات اللّه وكلماته، يحملها أمينُ الوحي إلى المُصطَفين من عباد اللّه لرسالته، فيكونُ فيها حياةُ الأرواح، وتزكيةُ النُّفوس[1]، فاللّه رحيم عند الإنزال، حيث ينزلُ الرِّزقَ منَ السّماء، غفورٌ عند ما يعرج إليه الأرواحُ والأعيانُ والأعمالُ[2].

دلالةُ مجيءِ صفة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغة فعيل:

الــدّلالــةُ على المُــبــالــغــة في الرَّحمة الدّالّة على الإنعام

جاءت صفةُ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ صفةً مشبَّهةً مأخوذةً منَ الرَّحمة، وهي مبنيّةٌ على وزن (فعيل) الّذي هو من صيَغ المُبالغة؛ لأنّه يدُلُّ على رحمة اللّه العظيمةِ الواسعةِ، الّتي وسِعت كُلَّ شيء، ورحمةُ اللّه ﷻ صفةٌ من صفاته الذّاتيَّة على ما يليق بجلاله، ومن آثارها: الإنعامُ والإكرامُ، والعفوُ والغفرانُ.

لطائفُ تقديمِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على ﴿ٱلْغَفُورُ﴾:

تقديمُ ما يدلُّ عـلى العـمـوم قبلَ ما يدلّ على الخصوص

انفردت هذه الآية دون سِواها بتقديم الرَّحمةِ على المغفرة في قول اللّه تعالى ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، ولم تتقدَّم عليها إلّا في هذا الموضع؛ وتقديمُ الرّحمة على المغفرة إمّا بالفضل والكمال، وإمّا بالطّبع؛ لأنّها مُنتظِمةٌ بذكر أصناف الخلق منَ المكلَّفين وغيرهم منَ الحيوان، فالرَّحمة تشملُهم، والمغفرة تخصُّهم، والعمومُ بالطّبع قبل الخصوص، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البقرة: 98]، وتقديمُ الرّحمة في هذا الموضع أيضًا لتقدُّم صِفةِ العِلم، فحَسُنَ ذِكرُ الرَّحيم بعدَه، ليَقترِنَ به فيطابِقَ قولَه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 775.

(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 5، والزِّين، بيان النَّظم: 3/ 373.

[غافر: 7] الآيةَ التي خُتِمَت بذِكرِ صِفةِ المغفرةِ، فالمغفرةُ تتضمّن دَفْعَ الشَّرِّ، ويتضَمّنُ ما قبْلَها منَ الرّحمة والعلم جَلْبَ الخَيرِ؛ ولّما كان دفْعُ الشَّرِّ مُقدَّمًا على جَلبِ الخيرِ قُدِّم اسمُ الغَفورِ على الرَّحيم حيثُما وقَع، لكن لّما كان في هذا الموضِعِ تعارُضٌ يقتضي تقديمَ اسمِ الرَّحيم - وهو الاقتران بصفة العلم - قُدِّم على الغَفورِ[1].

ومن لطائف تقديمِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: تقديمُ الرّحمةِ الجالبةِ للمصالحِ والمنافعِ، والتّثنيةُ بالمغفرةِ الدّافعةِ للمصائب؛ فمن آثار الرّحمةِ ما يكون في السّماء والأرض منَ المصالح الدّينيّةِ والمنافع الدّنيويّة، وأمّا المغفرةُ فهي محوُ الذّنب والوقايةُ ممّا يترتّب عليه منَ المكروهات والآثار السّيّئةِ؛ فقُدّمَ ما يجلبُ الخيرُ على ما يدفعُ الضّرّ، ومن لطائف التّقديمِ كذلك أنّ اللّه رحيمٌ بالإنزال حيث يُنزلُ الوحيَ والرّزقَ منَ السّماء، غفورٌ عند ما تعرج إليه الأرواحُ والأعمالُ؛ فرحم أَوَّلًا بالإنزال، وغفر ثانيًا عند العُروج[2]، لأنَّه لا يخلو عبدٌ من ذنبٍ يقعُ فيه، ومنها أيضًا أنّ المغفرة تقي العبدَ من عقاب اللّه وغضبِه، ورحمةُ اللّه سبقت غضبَه[3].

وممّا يُذكر في سرِّ التّقديم أنّه من باب تقديم الوصْفِ النّاظر إلى التّكميل على الوصف النّافي للنّقصِ؛ وهذا المعنى أشار إليه أسلوبُ التّقديمِ بما أثاره في الوِجدان منِ استشعارِ رحمة اللّه وحلْمِه وعفوه، مِمّا يكون دافعًا روحانيًّا للإقبال عليه والابتهالِ إليه؛ فرحمتُه سبقت غضبَه، والكلامُ جاء في سياق الحمد، فناسب تقديمُ الوصفِ النّاظرِ إلى التّكميل على الوصْفِ النّافي للنّقص[4].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ مادَّة وصيغة:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الغفور في قول اللّه تعالى ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ لأنّه اسمٌ من أسماء اللّه الحسنى دالٌّ على أنّه يَسترُ ذنوبَ عباده إذا استغفروا وتابوا إليه؛ ويلزمُ من سَترها أن يتجاوز عن محاسبتِهم ومؤاخذتِهم عليها؛ لأنَّ الغفْر في اللُّغة السَّترُ، وهذا المعنى مناسبٌ لعموم المكلَّفين، لأنّهم بطبيعتهم يقعون في المعصية؛ وجاء الاسمُ

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 80، والسُّهلي، نتائج الفكر، ص: 213.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 191.
(3) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 25.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 443، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 3/ 278.

ليُنادَى على الإنسان: إذا استغفرت اللّهَ وجدتَه غفورًا لكلِّ ذنوبك ما لم تُشرك به شيئًا، بل وجدتَه على الغاية في صفة الغفران؛ يؤكِّدُ هذا أنّه جاء على صيغة (فَعول)، وهذه الصّيغةُ تدلُّ على كثرة الفعل ودوامِ الاتّصاف به.

سَتْرُ ذنوبِ المُذنبين والتَّجاوزُ عن محاسبتهم

بلاغةُ التّذييلِ بصفَتَي ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾:

إطماعُ المُذنبين والعُصاة في رحمة الله ومغفرته

ختم اللّه هذه الآيةَ باسْمَيْن عظيمَيْن جليلين من أسمائه الحسنى - ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ - لِما فيهما من إطماع المُذنبين والعُصاة - مهما بلغت معاصيهم - أن يستغفروه ويتوبوا إليه حتَّى يغفرَ لهم، ويتوبَ عليهم بفضله وإحسانه وعظيم رحمته؛ يؤكّد هذا البناءُ اللّغويُّ للاسمين الكريمين: ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾، أي الواسعُ الرَّحمة، الواسعُ المغفرة.

وفي هذا التّذْييلِ حَثٌّ للنّاس على طلب أسبابِ الرَّحمة والمغفرة المرغوبِ فيهما، فإنَّ من رغِب في تحصيل شيءٍ بَحَث عن وسائلِ تحصيله وسعى إليها؛ وفيه تعريضٌ بالمُشركين أن يتوبوا عنِ الشِّرك فيغفر لهم ما قدَّموه.

سرُّ اختلافِ فاصلةِ هذه الآية عن سابقتِها:

تكميلُ ذِكرِ مُلك الله بالإحكام والخبرة، وتتميمُ ذكرِ أفضالِ الله بالرّحمة والمغفرة

خُتمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾، وخُتمتِ الآية السّابقةُ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، وقد يُتَوَهَّمُ عدمُ دِقّة الفاصلة، وأنّ المناسِب أن تُختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ لِما اشتملت على إيجاب الحمد على نعمة الدّارَين ليرحمَهم اللّهُ، ويغفرَ لهم ما إن عسى أن فرطوا فيه، وأن تُختمَ الآيةُ الثّانية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ لمناسبة العلم الحكمةَ والخبرةَ.

وأجاب عن هذا التّوهُّم الإمام الطّيبيُّ مبيِّنًا دِقَّةَ الفاصلة لكلِّ آية، وأنّها مُحكَمةٌ وبليغةٌ، بقوله رحمه اللّه: "خولِف ليتكاثر المعنى، ويحصُلَ التّتميمُ والتّكميل؛ فدلّ انضمامُ الأولى بفاصِلَتها الدّالّةِ

على نوعٍ منَ العلم على معنى التّكميل، وأنّ اللّه تعالى - كما أنّه مُنعِمٌ في الدّارَيْن - كذا يُحْكِمُ أمورَهما على وجهٍ قويٍّ رصين، ويعلمُ ما يصدرُ عنِ العباد من تفاصيلِ الحمدَين، ليَجزيَهم بها على وجه التّمامِ والكمال، وانضمامُ الثّانيةِ بفاصلتها آذَنَ بالتّتْميم لِما يستلزمُه معنى قولِه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى آخر الآية، منَ الامتنان بموجِب الحمد من فضائله المتكاثرة، ومنَ التَّفريطِ فيما أوجب عليهم منَ الشّكر على تلك النّعمة الجسيمة؛ لذا عقّبه بهذين الوصفين ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ تتميمًا للمقصود، ولو أُجريَ الأمرُ على الظّاهر كما توهّم البعضُ لفاتَ أكثرُ تلك الفوائد، واللّه أعلم بأسرار كلامه"[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الولوج والدُّخول:

الولوجُ يكونُ في شيءٍ يحتاجُ إلى ضيقٍ، والدُّخولُ أوسعُ منه معنىً

الولوجُ هو الدُّخولُ في مضيقٍ[2]؛ فهو الدُّخولُ والسُّلوكُ، مثل وُلُوجِ ماءِ المَطَرِ في أَعماقِ الأَرضِ، ووُلوجِ الزَّريعةِ[3]، أمّا الدّخولُ، فهو نقيضُ الخروجِ؛ ويُستعملُ ذلكَ في المكانِ، والزّمانِ، والأعمالِ[4]، قال تعالى ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر: 29 - 30]، فالولوجُ يكون في شيءٍ يحتاجُ إلى ضيقٍ، والدُّخولُ أوسعُ معنًى.

المغفرة والرَّحمة:

المغفرةُ سَتْرٌ للذّنب السّابق، والرَّحمةُ تحصيلٌ للمطلوب اللّاحق

الفرقُ بينَ المغفرةِ والرّحمةِ أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[5]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[6]، وأحدُهما سبَبٌ في الآخَرِ، فرَحمةُ اللّه سببٌ في مغفرة ذنوب عبادِه، كما أنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ في البشر

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 499.
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ولج).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 137.
(4) الراغب، المفردات: (دخل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).

يوجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ، ولله المثلُ الأعلى[1]؛ هذا باعتبار أوصافِ الخالقِ سبحانه، أمّا باعتبار فعْلِ المخلوقِ: فإنّ الاستغفار وطلبَ المغفرة هو الجالبُ للرَّحمة والسَّببُ فيها، كما قال تعالى ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النَّمل: 46].

ومنَ الفروق بينهما أنَّ المغفرة والرَّحمةَ إذا جُمِعا في محلٍّ واحدٍ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى منَ الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلْعِصْمة مِنْها فيما يُستقبَلُ[2]، ومنها أنَّ المغفرة فيها زَوالُ المكروه مِن آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المطلوب[3].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 435، 2/ 258.

(2) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلَّتها، ص: 19.

(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/ 66.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾

[سبأ: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنكارُ قدرةِ الله على البعث والنّشور من كُفران نِعَمِه وجحودِ عظمتِه

لَمّا بيَّن اللّهُ تعالى عَظَمَتَه بما وصَف به نفْسَه في الآية السّابقةِ، وكان هذا موجِبًا لتَعظيمِه وتقديسِه والإيمانِ به: ذكَرَ في هذه الآية أنَّ من أصنافِ النّاسِ طائفةً لم تَقْدُرْ رَبَّها حَقَّ قَدْرِه، ولم تُعظِّمْه حَقَّ عظَمتِه، بل كفَروا به، وأنكَروا قُدرتَه على إعادةِ الأمواتِ، وقيامِ السّاعةِ، وعارَضوا بذلك رُسُلَه[1].

وذِكْرُ ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ يُشعرُ بحال الموتى عند وُلوجِهِمُ القبورَ، وعند نشرِهم منها، كما أنّ ذكرَ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ يومِئُ إلى عروج الأرواح عند مفارقة الأجسادِ ونزولِ الأرواح لِتُرَدَّ إلى الأجساد التي تُعاد يومَ القيامة؛ فناسب ذِكرُ هذه الآية إنكارَ المُشركين للبعث والحشرِ وقيامِ الساعة، بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، ثم ردَّ اللّه عليهم قائلًا: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، لأنَّ إبطال زعمِهم من أهمّ مقاصدِ هذه السّورة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَيۡبِۖ﴾: (غيب) أصلٌ يدُلُّ على تستُّرِ الشَّيءِ عنِ العُيون، تقول غابتِ الشّمسُ وغيرُها إذا استترت عنِ العين، ويُقال غاب

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 674، وقاسم، عقد الجمان، ص: 911.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 13.

عنّي كذا، قال تعالى على لسان سليمانَ عليه السلام: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ٢٠﴾ [النمل: 20]؛ واستُعمِل (الغائب) في كلِّ غائبٍ عنِ الحاسّة، وفيما يغيب عن علم الإنسان، ومِن الغَيب ما لا يَعلمُه إلّا اللّهُ[1]، وكلُّ مكانٍ لا يُدرَى ما فيه فهو غيبٌ، وجمعُهُ غيوبٌ[2]؛ ويُقالُ للشَّيءِ: غيبٌ وغائبٌ باعتبار غيوبه عنِ النّاس، لا باعتبار علمِ اللّه تعالى، فإنَّه لا يغيبُ عنه شيءٌ في السّماوات ولا في الأرض[3]، والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: ما خَفيَ وغابَ عن عِلمِ النّاسِ واستأثرَ اللّهُ بعِلْمِه.

2) ﴿يَعْزُبُ﴾: (عزب) أصلٌ يدُلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ[4]، يُقالُ: عَزَبَ يَعْزُبُ ويَعْزِبُ إذا غابَ[5]، وكلُّ شيءٍ يَفوتُك حتَّى لا تقدِرَ عليه فقد عَزَبَ عنك؛ ولا يَعْزُبُ عنِ اللّه شيءٌ، والعازبُ منَ الكَلأ: البعيدُ المطلبِ[6]، ومعنى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يَخفى عن عِلْمه[7].

3) ﴿مِثْقَالُ﴾: (ثقل) أصلٌ يدلّ على ضِدِّ الخِفّة، فالثِّقَلُ هو الوَزْنُ[8]، ويُقال: ثَقُلَ الشَّيْءُ ثِقَلًا وثَقالَةً، أيْ: رَجَحَ وزْنُهُ وغَلَبَ، والمِثْقالُ: مِقْدارٌ مِنَ الوَزْنِ مَعْلومٌ، يُقال: مِثْقالُ الشَّيْءِ، أيْ: مِقْدارُهُ مِنَ الوَزْنِ، ويُطْلَق على الدّينارِ مِنَ الذَّهَبِ خاصَّةً، والجَمْعُ: مَثاقيلُ[9]، والمُرادُ بالمِثقالِ في الآية: ما يُماثِلُ شيئًا في الثِّقَل، أي الوزنِ؛ فمثقالُ الحَبَّةِ أوِ الذَّرة: مِقدارُها[10].

4) ﴿ذَرَّةٍ﴾: (ذرّ) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على لطافةٍ وانتشارٍ، ومن ذلك الذَّرُّ: صغارُ النَّمْلِ[11]، وبها يُضربُ المَثَلُ في الصِّغر، والواحدةُ ذَرَّةٌ، والذَّرَّةُ أيضًا: هباءَةٌ من غُبار، لا تُرى إلّا في ضوء الشَّمس المُتسلِّلِ من كوَّة في مكانٍ مُظلِم؛ وهذا أحقرُ ما يُقَدَّرُ بهِ[12]، وهو المرادُ بها في الآية.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيب).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (غيب).
(3) الراغب، المفردات: (غيب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (عزب).
(6) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (عزب).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 214، و22/ 141.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثقل).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ثقل).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 86.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرّ).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 214، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1653.

5) ﴿مُّبِينٍ﴾: (بين) أصلٌ يدلُّ على بُعْدِ الشَّيءِ وانْكِشافِه، ومنه البَيْنُ، وهو الفِراقُ؛ والبَيِّنةُ: الأمرُ الواضح؛ والبيانُ: التَّوضيحُ والكَشْفُ[1]، والمُبِينُ: اسْمُ فاعِلٍ بِمَعْنَى بانَ، أَيْ ظَهَرَ[2]؛ والمُرادُ به في الآية: المُبالغةُ في الظُّهورِ والوضوح.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ردٌّ على المكذِّبين بإثبات القيامة، وأنّ الله أعلمُ بكلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، سابقةٍ ولاحقةٍ

يَذكُرُ اللّه سبحانه ما قاله الكافرونَ في إنكار وقوع القيامة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾؛ والمرادُ بهم الذين كفروا باللّه وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليوم الآخر، وأنكروا إتيانَها بقولهم: لا تأتينا السّاعة بحالٍ منَ الأحوال، وإنَّما نحن نموتُ ونحيا وما يُهلِكُنا إلّا الدَّهرُ، وإذا مِتنا فإنَّ الأرض تأكل أجسادَنا، ولا نعودُ إلى الحياة مرَّةً أخرى، فردَّ اللّه عليهم: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا مُحمَّدُ ﷺ: ﴿بَلَىٰ﴾ ستأتيكم القيامةُ، وأُقسِمُ بربّي العالم بكُلِّ ما يَغيبُ عن خَلْقِه ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾؛ لا يَعلَمُ وقتَ مَجيءِ القيامةِ أحدٌ سِواه، فلا يَغيبُ عنِ اللّهِ تعالى وزنُ ﴿ذَرَّةٖ﴾ سواءٌ كانت ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولا يخفَى عليه شَيءٌ من خَلقِه، وإن تفرَّقَت أجزاؤُهم وتمزَّقَت وتلاشَت بعدَ مَوتِهم، ولا يَغيبُ عنِ اللّه تعالى ﴿أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ منه؛ فكلُّ مَكتوبٌ مُثبَتٌ في لَوحٍ مَحفوظٍ في غايةِ الإبانةِ والوُضوحِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة واوِ ﴿وَقَالَ﴾:

الاستطرادُ في ذكر قول المشركين المكذِّبين بالبعث

دلَّ التَّعبيرُ بالواو في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ على عطف هذه الآية على مضمون الآيتَين السّابقتَين؛ فهذا المضمونُ هو قولُ الوجود كُلِّه، وهو قولُ المؤمنين منَ النّاس: ﴿ٱلۡحَمۡدُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 86.

﴿لِلَّهِ﴾، هذا ما قاله الوجودُ والمؤمنون، أمّا الكفّار فلم يقولوا هذا القولَ، بل كان قولُهم: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾[1].

ويجوزُ أن تكون الواوُ اعتراضيّةً للاستطراد؛ وهي في الأصل واوُ عطفِ الجملة المعترِضة على ما قبْلَها منَ الكلام، لكن لمّا لم تُفِدْ إلّا التشريكَ في الذِّكْرِ دون الحكم: دَعَوها بالواو الاعتراضيّة، وليست هنا للعطف لعدم التَّناسُبِ بين الجملتَين، وإنَّما جاءت المناسبةُ من أجزاء الجُملة الأولى[2].

ويجوز أن تكون الواوُ استئنافيّةً، وتكونَ جملةُ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ جملةً مستأنَفةً، ويكونَ المرادُ: بيانَ إنكارِ المشركين لإتيان الساعة[3].

دلالةُ (قال) مادَّةً وصيغةً:

التّأكيدُ على صُدور المَقول منهم على حقيقته

دلَّ التَّعبيرُ بالقول ماضيًا في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ على وقوعِه منهم حقيقةً، ليكونَ ذلك من باب إثبات الوقوعِ، حتّى تتمَّ مُناقشةُ تلك المقولةِ الصّادرةِ منَ المُشركين بالدّليلِ العقليِّ والنّقليِّ، من خلال الآية؛ فهم قالوا هذه الكلمةَ حقيقةً؛ لأنَّ الأصل أنَّ ما نُقل عنِ الغير فإنّه منقولٌ بنصّه وفصله، فهم قالوا: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، وقالوا في موضع آخرَ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: 78]؛ وهذا يدلُّ على تنوُّعِ عباراتِهم في إنكار القيامةِ[4]، لذلك ناسب التَّعبيرُ بالقول للدّلالةِ على صريح عبارتِهم، وجيء بصيغةِ الماضي ليدُلَّ على تحقُّقِ وقوعِه منهم.

سرُّ تعريفِ المُسنَد إليه بالموصوليّة ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

(الذين كفروا) كالعلَم بالغلَبة على المُشركين في اصطلاح القرآن

في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعريفُ المُسنَد إليه

---

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 775.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 444، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 138.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 214.
(4) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 28.

بالموصوليَّة؛ لأنَّ هذا الموصولَ صار كالعلَم بالغلَبة على المُشركين في اصطلاح القرآن وتَعارُفِ المُسلمين[1]؛ والمرادُ به: جنسُ الكفَرة على الإطلاق، أو كفّارُ مكّةَ على الخصوص.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكُفر مادّةً وصيغةً:

الـدّلالـةُ على سوء عقيدتِهم

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالكفر دون غيرِه في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، لأنّه لفظٌ عامٌّ يندرج تحته الجحودُ والشِّرك والإنكار؛ وهذا الذي يناسبُ السّياقَ، لأنّهم أنكروا وقوعَ السّاعةِ، وهذا الإنكارُ هو عينُ الكفر باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وممّا يدلُّ على فساد عقيدتِهم، وأنّه أمر مركوزٌ في فِطرَتهم التّعبيرُ عنه بصيغة الماضي.

سرُّ التّعبيرِ بنفي الإتيانِ:

إرادةُ نفــي الوجودِ بالكليَّة، لا عَدَمِ حُضورها مع تحقُّقِها

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بنفيِ الإتيانِ دون غيرِه في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ - وإن أرادوا بنفيِ إتيانِها نفيَ وجودِها بالكليَّة، لا عدمَ حضورها مع تحقُّقها في نفس الأمر - لأنَّهم كانوا يوعدون بإتيانها، ولأنَّ وجود الأمورِ الزَّمانيَّة المُستقبَلة - لا سيما أجزاء الزَّمان - لا تكونُ الّا بالإتيان والحضور[2].

دلالةُ مَقولِ القولِ ﴿لَا تَأۡتِينَا﴾:

إبـرازُ مـوقـفِ المُـشـركـين في اسـتـمـرار إنكـارِهـم إتيانَ السّاعة وتجدُّده

وقعت جُملةُ مَقولِ القول ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ جُملةً خبريَّة، وجاءت فعليَّةً منفيّةً لتُبرِز موقفَ المُشركين منَ السّاعة، الرّاميَ إلى استمرار إنكارِهم وتجدُّدِه، من خلال نفيِ المُضارع الدّالِّ على حُدوث حركة السّاعةِ وقُربِ وقوعها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإتيان:

نفى المُشركون مجيءَ السّاعة حين قالوا ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ بفعل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 22/ 139.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 260.

التصاقُ فعلِ الإتيان بحلول المكاره في الغالب

الإتيان دونَ المجيء؛ لأنّ مجيء السّاعة هاجِسٌ يقضّ مضاجعَهم ويقف حائلًا دون التَّنعُّم بملذّاتهم؛ لذا عبروا بالفعل (أتى)، لأنَّه فعلٌ يرِد كثيرًا في معنى حلولِ المكروه[1]، وكثيرًا ما تقترنُ السّاعة بالفعل (أتى)، إلّا في سورة الأنعام، فقد جاءت مع الفعل (جاء)، قال تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾ [الأنعام: 31]، وقد نَصَّ أهلُ اللُّغة أنَّ الجيئة والمجيءَ بمعنى الإتيان، لكنَّ المجيء أعمُّ، لأنَّ الإتيان مجيءٌ بسهولة؛ والإتيانُ قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيء يُقال اعتبارًا بالحُصول، كما أنَّ لفظةَ ﴿تَأۡتِينَا﴾ توحي بقرب السّاعة لأنَّ من معاني (أتى): القُربَ الزَّمانيَّ، وهو هاجسٌ لا يفتأ المُشركون في إنكاره، فهو حاضرٌ في أذهانهم[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالإتيان:

قيامُ السّاعةِ قريبٌ ومُفاجئٌ

جاء إنكارُ الكفّار لِما كانوا يوعَدونه من إتيان السّاعة، فقالوا ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾؛ والمقصودُ بإتيان السّاعة: تقادمُ الزَّمن إلى وقتها الموعود، لا مجيئُها حقيقةً؛ فيكونُ على هذا المعنى استعارةً، فقدِ استُعير الإتيانُ لحقيقة وقوعِ السّاعةِ في موعدها الذي حدَّده اللّه، واشتُقّ منَ الإتيان الفعلُ ﴿تَأۡتِينَا﴾، وذلك على سبيل الاستعارة التَّصريحيّة التَّبعيَّة، وتوحي هذه الاستعارةُ مدلولًا مُهمًّا، وهو أنَّ قيام السّاعة قريبٌ ومُفاجئٌ؛ وهذا مؤذِنٌ بتصرُّم الأيّام، وتقارُبِ الزّمان، حتَّى إذا جاء وعدُ اللّه اعتقد من قامت عليه السّاعةُ أنَّها قد أقبلت وأتَت[3].

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبير بانتفاءِ الإتيان:

انتفاءُ الوقوعِ بانتفاء الإتيان، في زَعمِهمُ الباطل

عبَّر الذين كفروا عنِ انتفاء وقوعِ السّاعةِ بانتفاء إتيانِها على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 138.

(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 43.

(3) مرعي، من بلاغة القرآن في سورة سبأ، ص: 38.

طريق الكناية في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، إذ لو كانت واقعةً لأتت، فوقوعُها إتيانُها[1]، ففي قولهم نفيٌ للبعث وإنكارٌ لمجيء السّاعة، أوِ استبطاءٌ لِما قد وُعِدوه من قيامها على سبيل الهُزءِ والسُّخرية، كقولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [يونس: 48][2].

سببُ تقييدِ نفْيِ الإتيانِ بالضّمير:

وقعَ النّفيُ في سياق جواب كفّار قريشٍ على الوعيد بقيام السّاعة

حكى النَّظمُ الكريمُ ما قيّدَ به كفّارُ قريشٍ نفيَ إتيانِ السّاعة، من أنّها لن تأتيَهم، ولن تقعَ عليهم، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، وإن كان مرادُهم نفيَ وقوعِها على جميعِ النّاسِ، وانتفاءَ إتيانِها مُطلَقًا؛ لأنّ قولَهم هذا وقعَ جوابًا لِما كانوا يوعدونه أنفسُهم من إتيانها[3].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلسَّاعَةُۖ﴾:

جاء تعريفُ كلمةِ السّاعة بـ(أل) في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾؛ لأنَّها صارت عَلَمًا بالغَلَبة في القرآن على يوم القيامة وساعةِ الحشر[4].

سرُّ التّعبير عنِ القيامةِ بالسّاعة:

بيانُ سُرعةِ الحسابِ ووقوعِه فيها

عُبِّر في القرآن عنِ القيامة بالسّاعة - كما في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ - تشبيهًا لها بالسّاعة التي هي جُزءٌ من أجزاء الزَّمان، لسُرعة حسابِها، بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ[5]؛ أو لأنّها تقوم في آخر ساعةٍ من ساعات الدّنيا؛ أو لأنّها تقعُ بغتةً[6]، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: 77].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.
(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 3/ 567.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 121.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 260.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 210.

مُبالغةُ المشركين في نفيها نفيًا كُلّيًّا

دلالةُ موقعِ جُملةِ ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾:

دلَّ موقعُ جملةِ مَقولِ قولِ الذين كفروا: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ على موقف المُشركين في إنكار السّاعة، وعلى المُبالغة في نفيها نفيًا كُلّيًّا؛ فكأنَّهم يقولون: لا تأتينا السّاعة في حال من الأحوال، لأنَنّا نُنكر وجودَها أصلًا، فضلًا عن إتيانها[1].

الـرَّدُّ عليهم بإثباتِ ما نفَوه

سرُّ فَصْلِ جُملة الجواب:

فُصِل قولُ اللّه تعالى ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ عمّا قبلَه، لأنَّه بمثابة الرَّدِّ على الذين كفروا؛ وذلك أنّه لمّا كان الاعتراضُ على قيام السّاعة من أدعى الأسبابِ إلى مُناقشتها والرَّدِّ عليها بما يُزيل هذه الشُّبهةَ: جاء الرَّدُّ بجملةٍ اسميَّة مُصدَّرةٍ بـ﴿بَلَىٰ﴾ لإثباتِ ما نفَوْه[2].

تلقين الله لنبيّه ﷺ الجواب على المكذّبين

دلالةُ الأمرِ في ﴿قُلۡ﴾:

دلّ الأمرُ في قول اللّه تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ على نبوّة محمّد ﷺ، وذلك بتلقين اللّه له الجوابَ عن قول الكافرين بالإبطال المؤكَّد، على عادة إرشادِ القرآن في تبليغ العقائدِ[3].

التَّمهيدُ للرَدِّ على المُشركين بنفي إنكارهم مجيءَ السّاعة

دلالةُ التّعبير بحرف ﴿بَلَىٰ﴾:

جاء الحرفُ ﴿بَلَىٰ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ بمعنى الإضراب، تمهيدًا للرَدِّ على المُشركين؛ فقد أضربتْ ﴿بَلَىٰ﴾ عن المعنى السّابق قبلَها، وهو النّفيُ الواقعُ في قول المُشركين: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، أي: (بل ستأتيهم)، و﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جوابٍ مُختصٌّ بإبطال النَّفي، فهو حرفُ إيجابٍ لِما نفاه كلامٌ قبلَه؛ ففي معنى ﴿بَلَىٰ﴾ في هذه الآية نَفيٌ لنفْيِهم، ونفيُ النَّفي إثباتٌ، فيكونُ في ذلك إثباتٌ لمجيء السّاعة[4].

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/ 265.
(2) شكر محمود، دلالة الجملة الاسميَّة في القرآن الكريم، ص: 90.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.

دلالةُ القَسَمِ بالواو:

تأكيدُ إتيانِ الساعة، ودفعُ كلِّ المزاعم

لمّا تقدَّم في الآياتِ السّابقةِ منَ الأدلّة ما لا يُرتاب معه في إثباتِ وحدانيّةِ اللّه ووقوعِ البعث، ومع ذلك أنكر المشركون: أمرَ اللّهُ رسولَه ﷺ أن يُجيبَهم برَدِّ كلامهم، ردًّا مُؤكَّدًا بالقسَم على إتيان السّاعةِ - مع أنَّه لم يُخلِه من دليلٍ ظاهرٍ[1]؛ فأكّد ما اقتضته ﴿بَلَىٰ﴾ مِن إثباتِ إتيان السّاعةِ بالقسم، الذي دلّ على أنّها آتيَةٌ لا ريبَ فيها؛ وفيه تأكيدٌ يُروِّع السّامعين المُكذِّبين[2].

وممّا يُذكرُ في دلالة القسَم: فَصْلُ الحُكم، وإكمالُ الدَّليل، ودحضُ ذرائعِ المُنكِرين؛ لأنَّ إعادةَ القول على مُنكِره يَلزَمُ أن يكونَ مُقترِنًا باليمين[3]، وهذا واضحٌ في الآية، حيث جُمع بين الدّليل واليمين: فقد أُبطِلت مقالتُهم الفاسدةُ المُنكِرةُ للسّاعةِ بالحرف ﴿بَلَىٰ﴾، الذي للإضراب، وأوجب ما بعدها، أي: ليس الأمرُ إلّا إتيانُها؛ ثُمَّ أُعيد إيجابُه، مُؤكَّدًا بما هو الغايةُ في التَّوكيد والتَّشديد، وهو التَّوكيدُ باليمين باللّه ﷻ، فقال: ﴿وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾[4]، والقسَمُ من أقوى المُؤكِّدات، فجيء به لفصلِ الحُكم، وإكمالِ الدَّليل، ودحْضِ ذرائعِ المُنكرين[5]، حتّى لا يبقى للمعاندين عذرٌ ولا ريب، لأنّهم كانوا يعرفون أمانةَ محمَّدٍ ﷺ، ونزاهتَه عنِ الكذب - فضلًا عنِ اليمين الفاجرة - وإنّما لم يُصَدِّقوه مكابَرةً[6].

دلالةُ ذِكرِ الرُّبوبيّة في مقام القَسَمِ:

الدَّلالةُ على الإحسان والإكرام

جاء القسمُ بالرَّبِّ في قول اللّه تعالى ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 444.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 280.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 62.
(5) شكر محمود، دلالة الجملة الاسمية في القرآن، ص: 90.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 185.

للإشارةِ إلى أنَّ إتيان السّاعة من شؤون الرُّبوبيَّة[1]، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى تثبيت رسولِ اللّه ﷺ وتبكيت المشركين؛ وذلك بأنّ المعنى المرادَ: (إنّ ربي - المُحسِنَ إليّ بما عمَّني به معكم من النِّعَم، وبما خَصَّني به من تَنبئَتي وإرسالي إليكم - هو أكرمُ مِن أنْ يدَعَكم من غير أن يحشُرَكم لينتَقِمَ لي منكم، ويُقِرَّ عيني بما يُجازيكم به من أذاكم لي ولمِن اتَّبعني)[2].

وممّا يُذكَر في دلالة القسم بالربوبيّة: الإشارةُ إلى ربوبيّة اللّه تعالى لهؤلاء الذين يُنكِرونه، وينكرون ما تقضي به الرّبوبيّةُ مِنَ الولاء للّه، والتّصديقِ برسله؛ وما وقع منهم إنّما هو إنكارٌ غليظ في مواجهة الرّبوبيّةِ، التي لا تنقطع فواضلُ إحسانها وإنعامِها لحظةً واحدةً عن أيِّ موجود[3].

دلالةُ الإضافة في ﴿وَرَبِّي﴾:

الـدَّلالـةُ على عِـظَـم القَسَـم ووكادته

جاء القسمُ على إتيان السّاعةِ في قول اللّه تعالى ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ بإضافة الربِّ إلى ضمير المتكلّم، العائدِ إلى الرّسول ﷺ: ليدلَّ على شِدَّة القَسَم؛ إذ لم يأت به مضافًا إلى الاسم المُشتَرك بين النّبيِّ ﷺ وبَيْنَ من أَنْكَرَ السّاعة[4].

وهذه إحدى الآيات الثَّلاث - التي لا رابعَ لهُنَّ - التي أمر اللّه فيها رسولَه ﷺ أن يُقسِم بربِّه العظيم على وقوع المَعادِ، لمّا أنكرَه من أنكره من أهل الكُفْرِ والعناد؛ أُخرَياها قولُ اللّه تعالى: ﴿۞وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس: 53]، وقولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التَّغابن: 7][5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 280.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 444.
(3) الخطيب، التفسير القرآني: 11/ 777.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 519، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 280.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 495.

دلالةُ توالي المؤكِّدات في الجُملة:

تأكيدُ الإتيان على أتمِّ الوجوه وأكملِها

اجتمعَ في قول الله تعالى ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ أكثرُ من مُؤكِّد، لأنَّ المُخاطَبَ مُنزَّلٌ مَنزِلةَ المُنْكِر، فاحتيج إلى التَّأكيد: بالقَسَم، ولام التَّأكيد الواقعةِ في جواب القسَم، ونونِ التَّوكيد المُثقَّلة، إضافةً إلى مُؤازرة صيغة الإضراب ﴿بَلَىٰ﴾، والصِّفةِ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾، وهي مُؤكِّدات دعى إليها حالُ المُخاطَب المُنْكِر؛ ولمّا كان موضوعُ الإنكار منَ الموضوعات المُهِمَّة في العقيدة - وهو الإيمانُ باليوم الآخر وقيامِ السّاعة[1] جاءتِ الجملة بهذه التّوكيداتِ.

دلالةُ تعديةِ الإتيانِ إلى ضمير المخاطبين:

المقصودُ إتيانُ السّاعة الذي يكون عنده عقابهم

عُدّي إتيانُ السّاعة في قول الله تعالى ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ إلى ضمير المُخاطَبين من بَيْنِ جميعِ النّاس، دون: (لتأتيَنّا)، ودون أن يُجرَّد عنِ التَّعدية لمفعول: (لتأتيَنَّ)، لأنَّ المُراد إتيانُ السّاعة الذي يكون عنده عقابُهم، كما يُقال: أتاكمُ العَدوُّ، وأتاك اللّاحقون؛ فتعلُّقُه بضمير المُخاطَبين قرينةٌ على أنَّ إتيان السّاعةِ كنايةٌ عن إتيان مكروهٍ فيه عذابٌ[2].

دلالةُ الوصفِ بعلم الغَيب بعد القسَم:

إمدادٌ للتَّأكيد، وتسديدٌ له إثرَ تسديد

جاء قولُ الله تعالى ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ بعد القسَم ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ إمدادًا للتَّأكيد، وتسديدًا له إثرَ تسديد، وكسرًا لسَوْرَة نكيرِهم واستبعادِهم، فإنَّ تعقيب القسَم بجلائل نعوتِ المقسَم به على الإطلاق يُؤذِن بفخامة شأنِ المُقسَم عليه، وقوَّة ثباته وصحّته، لِما أنَّ ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر؛ ولا ريبَ في أنَّ المستشهَدَ به كُلَّما كان أجلَّ وأعلى، كانتِ الشَّهادةُ آكدَ وأقوى، والمُستشهَدُ عليه أَحَقَّ بالثُّبوت وأولى، لا سيما إذا خُصَّ بالذّكرِ منَ النُّعوت ما له تَعَلُّقٌ

(1) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 37.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 139.

خاصٌّ بالمقسَم عليه؛ فإنَّ وصْفَ الربِّ بعلم الغيب الذي أشهرُ أفراده وأدخلُها في الخفاء هو المُقسَمُ عليه، وهو إتيانُ السّاعة: تنبيهٌ لهم على عِلَّة الحُكم وكونِه ممّا لا يحوم حوله شائبةُ ريبٍ ما[1].

ولمّا كان إنكارُهم البعثَ باعتبار أنّ الأجزاء المتفرِّقةَ المنتشِرةَ يمتنعُ اجتماعُها، كما كان يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾ [ق: 4]: جاء الوصفُ بهذه الأوصاف، ردًّا لزعمِهم واستحالتِهم؛ فمن كان علمُه بهذه المثابة، كيف يمتنعُ ذلك منه[2]؟!

بلاغةُ الادماج في ذكر صفة العلم:

العلمُ التّامُّ بوقت مجيء السّاعة

في جواب القسم ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ وإتباعِه بالصِّفة ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ إدماجٌ[3]؛ فقد جاءتِ الصِّفة لتُفيد معنى تفرُّدِ اللّه بهذه الصِّفة، ولكنّها أيضًا ضُمِّنت معنًى آخرَ، وهو أنَّ اللّه هو الذي يعلم وقتَ مجيئها، لأنَّ السّاعة من أدخلِ المغيَّبات في الخفية[4]، وقد أفاد الإدماجُ في هذه الآية التَّنبيهَ على سوء حالهم، وفسادِ معتقدهم، وخطورةِ ذلك على عاقبتهم، وجاء هذا الإدماج أيضًا لتقرير واسعِ علْمِه ﷻ، فإنَّه لا يَغيب عنه شيءٌ مهما صَغُرَ أو خفيَ.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡغَيۡبِۖ﴾:

إفادةُ العموم والشُّمول لِكُلِّ المُغيَّبات

دلّ دخولُ (أل) على لفظ الغيبِ في قول اللّه تعالى ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ على العموم والشّمولِ، وأنّه لا يخرج عن علم اللّه شيءٌ، فهو سُبحانه يعلمُ كُلَّ غَيبٍ[5] غاب عنِ الخلق؛ فالعلقة غيبٌ في النّطفةِ، والمضغةُ غيبٌ في العلقة، والإنسانُ غيبٌ في هذا

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 567، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 241، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 519، 520.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 500.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 280.
(4) الايجي، جامع البيان: 3/ 374.
(5) السِّيواسي، عيون التَّفاسير: 3/ 310.

كلِّه[1]؛ فهو سبحانه ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ بالعلمِ المحيطِ الحُضوريِّ، بعموم المغيَّبات، حاضرةً عنده غيرَ مغيَّبةٍ عنه[2].

نُكتةُ الفصل بالمُقسَم عليه:

دلالـةُ إتبـاع ذِكـرِ السّاعـة بـذكـر انـفـراد الله بعلمها في النَّظم الكريم

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ - على قراءة ﴿عَٰلِمِ﴾ بالجرِّ - بالفصل بين الموصوف (ربّ) وصفتِه ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ بالمُقسَم عليه ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾: للردِّ على إنكار الكفّار عدمَ إتيان السّاعةِ، لأنّهم جعلوا من عدم العلم بها دليلًا على عدم وقوعِها، وهذا واردٌ في أسلوب القرآن الكريم، حيث يُتبَعُ ذِكْرُ السّاعة بذكر انفرادِه تعالى بعلْمِها، لأنَّ الكافرين بها جعلوا من عَدَمِ العلم بها دليلًا سُفسطائيًّا على أنّها ليست بواقعة، ولذلك سمّاها القرآن الواقعةَ في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢﴾ [الواقعة: 1 - 2][3]، وفي الفصل إشارةٌ أيضًا إلى المبادرة بالغرَض المُرادِ ذكرُه لأهمّيَّتِه وخطورته، وهو إتيانُ السّاعة، وتبكيتُ المشركين.

دلالةُ التّعبير بالاسميّة ﴿عَٰلِمِ﴾:

العلمُ صفةُ ذاتٍ لله، ثابتةٌ منذ الأزل، دائمةٌ إلى الأبد

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسميّة في وصْفِ الله سبحانه بالعلم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾، فقال ﴿عَٰلِمِ﴾ دون الفعليّة (يعلم): للإشارةِ إلى أنّ العلم صفةُ ذات، بخلاف الفعليّة (يعلم)، فهي صفةُ فعل، والمقامُ هنا يناسبُه التَّعبيرُ بالاسميّة الدّالُّ على الثّبوتِ والاستمرار، فعلمُه سبحانه بالغيب أمرٌ ثابت؛ أمّا إذا كان الأمر يتعلّق بحدَثٍ يتكرّر حدوثُه ويتجدّد وقوعُه: فإنّه يأتي التَّعبيرُ بالفعليّة، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: 34]، وكما في الآية السّابقة مِن هذه السّورة.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 185.

(2) علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 168.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 140.

وقدِ اقتضتْ ذكرَ وصفِه تعالى بعلم الغيب: مناسبةُ تحقيقِ إتيانِ السّاعة، فإنّ وقتَها وأحوالَها منَ الأمور المغيَّبةِ في علم النّاس؛ وفي هذه الصّفةِ أيضًا إتمامٌ لتَبْيين سَعَة علْمِه تعالى بالكائنات ظاهرِها وخفيِّها، جليلِها ودقيقِها[1].

أثرُ تعدُّدِ قراءاتِ ﴿عَٰلِمِ﴾ على المعنى:

تأكيدُ وقوعِ السّاعة، وعدًا من علّام الغيب والشّهادة

تعدّدتِ القراءاتُ في لفظ ﴿عَٰلِمِ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾: فقرأ نافعٌ وأبو جعفر وابنُ عامر ورُوَيس ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ بضَمِّ الميم، على أنَّ ﴿عَٰلِمُ﴾ خبَرٌ لمبتدأ مَحذوفٍ، تقديرُه (هو عالمُ الغيب)، أو على أنّه مبتدأٌ وخبَرُه ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾؛ فالجملةُ استئنافيَّةٌ[2]، وقرأه ابنُ كثير وأبو عمرٍو وعاصِمٌ وخَلَفٌ ورَوحٌ عن يعقوبَ بصيغةِ اسم الفاعل مجرورًا ﴿عَٰلِمِ﴾، على أنّه صفةٌ لاسم الرّبوبيَّةِ المقسَم به في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ ﴿عَلَّٰمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ بصيغة المُبالغة في صفة العِلم، لأنَّ السّاعة من أدخَلِ المُغَيَّبات في الحقيقة[3]، مجرورًا صفةً أيضًا لـ(رَبّي) المقسَم به.

وهذه القراءاتُ يُكَمِّل بعضُها بعضًا في قوّة ترابُطِ جُمَلِ الآية، وبراعةِ تسلسُلِ معانيها؛ فتارةً تُقرأُ الآيةُ بالقطع والاستئناف، برفع ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ على المدح والتَّعظيم[4]، وتارةً بالوصل على الإتباع، بجرّ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أو ﴿عَلَّٰمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾؛ لتأتيَ هذه الصفةُ - سواءً على الاستئناف أو على الإتباع - تؤَكِّدُ إتيانَ السّاعة ووقوعَها بلا رَيب، وفي تعدُّدِ القراءات أيضًا إبرازٌ لعلم اللّه تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 140.

(2) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 349، وابن خالويه، الحُجّة في القراءات السَّبع، ص: 291، 292، والأزهري، معاني القراءات: 2/ 287.

(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 349، وابن زنجلة، حُجَّة القراءات، ص: 581، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 31، والملا علي القاري، أنوار القرآن، ص: 223.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 121.

بالغيب، إذْ منَ المعلوم أنّ الغيبَ نسبيٌّ، فكلُّ مرحلةٍ مِن مراحلِه ناسبها صيغةٌ من أوصافه بالعلم: فمرّةً أتى بـ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾، وأخرى أتى بـ﴿عَلَّٰمِ ٱلۡغَيُوبِ﴾.

دلالةُ الاكتفاء بذكر الغيب:

من يعلمِ الغيبَ يعلمِ الشَّهادةَ

وصف اللّهُ ذاتَه الأقدسَ سُبحانه بعلم الغيب في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾، بينما غالبُ آيات القرآن في هذا السّياقِ تجمعُ بين علم الغيب وعلمِ الشّهادةِ، كما في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: 73]؛ وغيرِها منَ الآيات؛ واكتُفيَ في بعضها بذكر الغيب، كما في هذه الآية، وكما في سورة التّوبةِ وسورة الجنّ، وفي هذا الاكتفاء مناسبةٌ لسياق الآية، فالحديث في مطلَعِ سورة سبأٍ عن إنكار الكافرين للسّاعة، وهو أمر غيبيّ، فناسب تخصيصُ الكلام على علم الغيب؛ ثُمّ فُرِّع عن إتيان السّاعةِ وقوعُ الجزاء للذين آمنوا والعقابِ للذين كفروا، وهذا أيضًا من أمر الغيب، فكان المناسبَ ذكرُ الغيب، وفي الاكتفاء به دلالةٌ على علم سائرِ المعلومات، فمَن علِمَ الغيبَ علِمَ الشَّهادةَ من بابٍ أولى.

سرُّ التّعبير بالجُملة المنفيّة ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾:

تأكيدُ البعث بذكر إحاطة عِلْمِ الله بالكون

جاءت جُملة ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ خبريّةً منفيَّةً، للدَّلالة على إحاطة عِلْمِ اللّه بالكون، وأنَّها إحاطةٌ أبديَّةٌ دائمةٌ، لا تغيبُ عنه غائبةٌ طَرْفةَ عينٍ، ولا أقلَّ من ذلك، لأنَّ المولى سبحانه وصف نفسَه بكامل العلم وعظيمِ الإحاطة بالموجودات، وهذا مِمّا يؤكِّدُ وقوعَ البعث، فوقتُ مجيءِ السّاعةِ لا يعلمُه سوى علّامِ الغيوب، الذي لا يغيبُ عن علمه شيءٌ في السّماوات ولا في الأرض من ذرّة فما دونَها، ولا ما فوقَها، أين كانت وأين ذهبت، فكلُّ ذلك محفوظٌ في كتاب مبين؛ فالعظامُ

وإن تلاشت، فهو عالمٌ أين ذهبت، وأين تفرَّقت، فيُعيدُها كما بدأها أوَّلَ مرَّة، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ[1].

دلالةُ التَّعبير بالعزوب:

التّعبيرُ بالعزوب أبلغ في نفي الغيبة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بنفْيِ العزوبِ دونَ نفْيِ الخفاءِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنه أدقُّ من كلمة يخفى؛ فالعازبُ: المُتباعِدُ في طلب الكلأ، ويقال: عزَب ظهرُها إذا غاب عنها زوجُها، وقومٌ مُعزِبون، عَزَبَتْ إبلُهم[2]، فلا يُقال عَزَبَ إلّا للمُبتعِدِ الغائبِ الذي لا يُدركه الإنسانُ بالبصر، ولا يُعرَفُ مكانَه بالحِسِّ، إمّا لِابتِعاده، أو لدقَّته وصِغَرِه، أمّا الخافي فهو المُستترُ، والخافيةُ نقيضُ العلانية، فلا نقول عن شيء بأنَّه مختفٍ إلّا للموجود المستترِ، الذي لا يمكن الوصولُ إليه إلّا بإظهاره، فالتّعبيرُ بالعزوبِ أبلغُ في نفي الغيبةِ أوِ الخفاءِ عنه.

بلاغةُ الكناية في التَّعبير بالعزوب:

الخفاءُ من لوازم الشّيءِ البعيد

تظهرُ بلاغةُ الكناية في التَّعبيرِ بالعزوب في قول اللّه تعالى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وذلك أنّ أصلَ العزوب يدُلُّ على التَّباعُد والتَنَحّي[3]، ثُمّ أُريد به معنًى آخرُ مجازيٌّ، هو الخَفاءُ وفواتُ العِلْم، وهذا بطريق المجاز المُرسَل بعلاقة اللزوميَّةِ، لأَنَّ الخَفاءَ لازِمٌ للشَّيءِ البعيدِ؛ فمعنى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يَخفى عن عِلْمه[4].

دلالةُ اختلاف قراءات ﴿يَعْزُبُ﴾:

لا يغيب عن الله شيء، ولا يخفى عليه شيء، وهو اللطيف الخبير

قرأ الجمهورُ ﴿يَعْزُبُ﴾ بضمّ الزّاي في قول اللّه تعالى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وقرأ الكِسائيّ

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 58.

(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (عزب).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 214، و22/ 141.

﴿يَعۡزِبُ﴾ بكسرها[1]؛ وهما لغتان، ويشيرُ اختلافُ القراءة بين قوّة الضّمِّ وضعفِ الكسر إلى شموليّة علْم اللّه الواسع، فلا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرّة لا عزوبًا قويًّا كاملًا ولا عزوبًا ضعيفًا لطيفًا، بل قد أحاط بجميع الموجودات - ظاهرِها وخفيِّها - علمًا وقدرةً.

دلالةُ التَّعبير بالمثقال مادَّةً وصيغةً:

إحاطةُ عِلْمِ الله بكُلِّ شيءٍ

استعمل البيانُ القرآنيُّ لَفْظَ ﴿مِثۡقَالُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾، وأتى به على وزن مِفْعال: لأنّه اسمٌ للآلة التي يُعرف بها مقدارُ ثِقَلِ الشَّيءِ أو خفَّتِه مهما تناهت في الخفّةِ، وجاء بعده بلفظ ﴿ذَرَّةٖ﴾، والأصلُ فيها ألّا توزَن، بل لا تكاد تُرى بالعين المجرَّدة، فالذّرّةُ يُضرب بها المثل في الخفّة وعدم القيمة، إذْ يُطلق الذَّرُّ في الأصل إمّا على صِغار النَّمل أو على الدّقيقة منَ الهباء، وهو الغُبار الذي لا يُرى إلّا في ضوء الشمس؛ وهما من أحقرِ وأصغرِ ما يُشاهَد بالعين المجرَّدة، لكن جُعل لها في هذا التّعبيرِ وزنٌ وثِقَلٌ وقَدرٌ، حيثُ توزن بالمثقال؛ وفي هذا مبالغةٌ أيَّما مبالغة، ليدلّ التّعبيرُ البليغُ على عِظَم إحاطة علْم اللّه سبحانه، إذ لا يَغيب عنه أدقُّ الأعمال وأصغرُها وأحقرُها، فما هو أعظمُ منَ الذَّرَّة يكون أولى بالحُكم[2].

بلاغةُ المجاز في التَّعبير بالمثقال:

الإشـــارةُ إلى سَـعـةِ الـعـلـم وإقامة العدْلِ

في قول اللّه تعالى ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ؛ فقد ضَرَبَ اللّه مثلًا بأصغرِ مخلوقٍ يُدركه البشرُ على العموم - ومشركو مكّةَ على الخصوص - وهو الذَّرَّةُ، حين نفى أن يغيب عنه مثقالُها في السَّماوات والأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 16]، فالمثقال آلةُ الثِّقل، وهو اسم للصُّنوجِ التي يوزَن بها؛ وأُطلق

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 285.
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 7/ 555، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/ 265.

على العديل مجازًا مُرسلًا[1]، والعلاقةُ بين المعنى الحقيقيّ والمجازيّ هي علاقةُ الآليَّة، حيث أُطلقت آلةُ الوزن التي من دلالاتها الثّانوية العدْلُ، والمراد العَديلُ.

بلاغةُ الكناية في التّعبير بالذّرَّة:

إحاطةُ علم الله تعالى بكُلِّ شيء مهما دقَّ وصغُر

في التّعَبيرِ بالذَرَّة في قول اللّه تعالى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: تأكيدٌ على شموليّة علْمِ اللّه تعالى، وإحاطتِه بكلّ مُخلوقاته، مهما دقَّت وتناهت في الصِّغر، فالآيةُ نُظمت لبيانِ إحاطةِ علم اللّه تعالى، فنفتْ عزوبَ أدقِّ المخلوقات المتناهيةِ في الصِّغر، وهي الذرَّة؛ والذَّرّة في الأصل نملةٌ حمراءُ صغيرةٌ جدًّا، صارت مثلًا في أقلِّ القليل، فهي كنايةٌ عنه[2].

دلالةُ تنكيرِ ﴿ذَرَّةٍ﴾:

إفادةُ العُموم والشّمول، وبيانُ قدرة الله على البعث بعد الموت

نَكَّر النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ذَرَّةٍ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ للدّلالةِ على إحاطة علْم اللّه بأصغرِ شيءٍ من مخلوقاته، حيث جعل اللّه الذرَّةَ مِثالًا لأقلِّ الأشياء وأحقرِها، مِمّا يتعذَّر معها رؤيتُها، للتَّأكيد على علم اللّه وإحاطتِه بمخلوقاته، وفي التّنكيرِ أيضًا دلالةٌ على بلاغة اللّفظِ القرآنيِّ، لإفادتها دخولَ كلِّ ما يُسمَّى ذرَّة، ولو انقسمت أجزاؤها.

وممّا يُذكرُ في دلالة التّنكيرِ لكلمة ﴿ذَرَّةٍ﴾: الإشارةُ إلى وقوع حشْرِ الأجساد بعد استحالتها، لأنَّ الكافرين أحالوه بِعلَّةِ أنَّ الأجساد تصير رُفاتًا وتُرابًا، فلا تمكن إعادتُها؛ فنُبِّهوا إلى أنّ علم اللّه محيطٌ بأجزائها، فمواقعُ تلك الأجزاء في السّماوات وفي الأرض، وعلمُه بها تفصيلًا يستلزم القدرةَ على تسخيرِها للتَّجمُّع والتِحاق كُلٍّ منها بعديله، حتَّى تلتئمَ الأجسامُ منَ الذَّرّات التي كانت مُركَّبةً منها في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 186.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 446.

آخر لحظاتِ حياتها، ثمّ عقبها الموتُ، وتوقّفَ الجسدُ عنِ اكتساب أجزاءٍ جديدة، فإنْ عَدَتِ الأرضُ على أجزاء ذلك الجَسَدِ ومزَّقته كُلَّ مُمزَّق: كان اللّه عالِمًا بمصير كُلِّ جُزء، فإنَّ الكائناتِ لا تضمحلُّ ذرّاتها، فتمكنُ إعادةُ أجسام جديدة تنبثق من ذرّاتِ الأجسام الأولى وتُنفَخُ فيها أرواحها، فاللّهُ قادر على تسخيرها للاجتماع، بقوى يُحدثها اللّه تعالى لجمع المتفرِّقات، أو بتسخير ملائكةٍ لجمعها من أقاصي الجهات في الأرض والجوِّ أوِ السّماءِ على حسب تفرُّقها[1].

سرُّ تقديم ذِكْرِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

كونُ السَّماوات أعظمَ إحاطةً بالموجودات منَ الأرض

قدَّم النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنَّ الإحاطة بمثل الذَّرّات أمرٌ مُعجِزٌ للبشرِ في الأرض، فالسَّماواتُ من بابٍ أولى وأعجز.

دلالةُ جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

علمُ اللّه محيطٌ بملكوت السماوات، على تعدُّدِها وكثرة ما يجري فيها

جاء لفظُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مجموعًا في قول اللّه تعالى ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنَّ المقامَ بيانُ شموليّة علْمِ اللّه، وواسِعِ إحاطته، وقد ذُكرَ قبله سَعَةُ مُلك اللّه سبحانه، وأنّه شاملٌ للسَّماوات كلِّها، كما سبقتِ الإشارةُ إلى علم اللّه ما يجري فيها منَ الأحداث على كثرتها وتنوُّعِها؛ فناسبه جمعُ السَّماوات، للتّأكيدِ على سَعةِ علْمِ اللّه وإحاطتِه بملكوته.

ولمّا كان من أغراض إثباتِ شُمولِ علم اللّه: اختصاصُه تعالى بعلم الغيب، ونفيُه عن كلِّ من هو في واحدة منَ السَّماوات: أتى بها مجموعةً[2]، ولمّا بَيَّن اللّه سبحانه علمَه بأمور السَّماء في الآية السّابقة، وكان المُرادُ بها الجِنْسَ: جمَعَ هنا تصريحًا بذلك المراد[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 141، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 3/ 348.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 116.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 446.

نكتةُ إيراد علمِ الله بما في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إثباتُ قدرة الله على جمع الأرواح والأجسام لِعلمِه بمحالِّها

تظهرُ مناسبةُ ذكرِ علْم اللّه بما في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في الآية ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بسياق إقرار البعث والنّشور: في أنَّ الإنسانَ له جِسْمٌ وروحٌ، فالأجسامُ أجزاؤها في الأرض، والأرواحُ في السَّماء، فقوله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى علمه بالأرواح، وقوله: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارةٌ إلى علمه بالأجسام؛ فإذا عَلِم الرّوحَ والأجسامَ قدر على جمعها، فلا استبعادَ في الإعادة[1].

سِرُّ تقييد عدم العُزوب بما في السَّماوات والأرض:

كونُ المُخاطَبين لا يُشاهدون سواهما

قيَّد النَّظمُ الكريمُ عدمَ عُزوبِ علْم اللّه سُبحانه بالسَّماوات والأرض في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ - مع أنَّه سبحانه لا يغيبُ عنه شيءٌ لا فيهما ولا فيما هو خارجٌ عنهما - تقريبًا لفهوم العامَّة منَ المُخاطَبين؛ لأنَّ النّاس لا يُشاهدون سواهُما، وسوى بعضِ ما فيهما منَ المخلوقات.

بلاغةُ الإطناب بقوله ﴿وَلَا فِي﴾:

الزّيادةُ في تأكيد عدم عزوب أيِّ شيءٍ عن علم الله

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بتَكرارِ حرفِ النَّفي والظّرفيّة في قول اللّه تعالى ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يكتفِ بالمُتقدِّم، بأن يُقال: (مِثقالُ ذَرَّةٍ في السَّماواتِ والأَرضِ): زيادةً في تأكيد عدم عزوبِ أيِّ شيءٍ عن علم اللّه، مِمّا يتصوّرُه الإنسانُ، وممّا لا يتصوَّرُه؛ كما أنَّ في إعادة قراءتها وسماعِها استشعارًا لعظمة عِلْم اللّه ومُراقَبته سُبحانه.

ومن أسرار هذا الإطنابِ كذلك: الإشارةُ إلى استقلال كلٍّ منَ السّماء والأرض في قضيّة علم الذّرّة، لذلك ناسب التَّعبيرُ باستقلال كلٍّ منهما، دون أن يُعطفَ الأرضَ على السّماء.

---

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 7.

دلالةُ واوِ ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ﴾:

الواو في قول اللّه تعالى ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ﴾ من الآية الكريمة ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ للعطف، وفيه إشارةٌ إلى أنّ ذكرَ مثقالِ الذَّرّةِ ليس للتَّحديد، بل حتّى الأصغر منه لا يعزبُ[1]؛ فالجُملة مُؤكِّدةٌ لِنَفْيِ العُزوبِ[2].

علـمُ اللـه لا يـحُـدُّه شيءٌ، فلا يعزب عنه مثقالُ الذَّرّة، بل لا ما هو أصغرٌ منه

دلالةُ ذكر الأصغر:

أشار بقوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ إلى ما لا يعلمُه إلّا اللّه منَ العناصر والقوَى الدَّقيقةِ أجزاؤُها، الجليلةِ آثارُها وتسييرُها، بما يشملُ الأرواحَ، التي تحلُّ في الأجسام، والقوى التي تودعُها فيها[3].

الإشارةُ إلى علم الله تعالى بكلّ عناصرِ الكَون، وأجزائه الدّقيقة

سِرُّ التّعبير بصيغة أفعل التَّفضيل:

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿أَصۡغَرُ﴾ و﴿أَكۡبَرُ﴾ بصيغة أفعل التَّفضيل في قول اللّه تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ إشارةً إلى أنَّ هُناك ما هو أصغرُ منها وأكبرُ، فلفظُ الذّرّة في العربيّة يصدُق على النّملة الصّغيرةِ، المتناهيةِ في الصِّغَر، حتّى إنّها لا تُرى بالعين المجرّدة؛ وتواطأَ الفيزيائيّون على إطلاقه على الذّرّة التي هي أصغرُ مكوِّنات المادّة، والقرآنُ الكريمُ في ذكره الذّرّةَ وما هو أصغرُ منها يحمِل بين طيّات نظمِه إعجازًا علميًّا، حيث إنّ العقل البشريَّ، مهما اجتهد في التّنقيب والبحث عمّا هو صغيرٌ، فثمّةَ ما هو أصغرُ منه، مثل البروتون، والإلِكترون، وما هو أصغرُ منهما ممّا لم يصلْ إليه العلمُ البشريّ بعدُ، فتباركَ اللّه الذي لا يعزبُ عن علمه الشّاملِ المطلَقِ مثقالُ ذرّة ولا أصغرُ منها في السّماوات ولا في الأرض.

الإشـارة إلى سَعة عِلْمِ الله بكل ما تناهَى في الصِّغَر، وتعاظَم في الكِبَرِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 192.

(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 241، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 121.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 142.

فمجيء أفعل التَّفضيل ﴿أَصۡغَرُ﴾ أدخلَ كلَّ ما يُمكن أن يوجد أصغرَ منَ الذّرّة، إذ أفعلُ التَّفضيل ليس له حدٌّ ولا حصر، وأمّا لفظُ ﴿أَكۡبَرُ﴾ فهو واضحٌ، إذ يَدخُل تحتَه كلُّ شيء أكبرُ منَ الذَّرّة مهما بلغ؛ وفي هذا إفادةٌ لِعظَم علْم اللّه، وإحاطتِه بِكُلِّ شيء، وأنَّه لا يعزبُ عنه شيءٌ مهما صغُرَ أو كبُرَ.

بلاغةُ الطِّباق بين لفظيْ ﴿أَصۡغَرُ﴾ و﴿أَكۡبَرُ﴾:

التّـقـابُـلُ بين تـنـاهـي صغر الأشياء وتعاظُمِ كبَرِها

طابق البيانُ القرآنيُّ بين لفظَيْن متقابلَيْن في المعنى، هما: ﴿أَصۡغَرُ﴾ و﴿أَكۡبَرُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾؛ وتقابلُ المعنيَين مِمّا يزيد الكلامَ حُسنًا وطرافةً، ويدلُّ هذا الطِّباقُ على كمال سَعَة علم اللّه، الذي يشملُ كلَّ شيء صغيرًا مهما بلَغ في صِغَره، وكبيرًا مهما بلَغ في كِبَره؛ فأتاح هذا الطِّباق للخيال أن يتصوّرَ تناهيَ صِغَرِ الأشياء وتعاظُمَ كِبَرِها.

سِرُّ تَكرار حَرْفَي العطف والنَّفي بين المُتَقابلات:

تأكيدُ النَّفي، وتقرير المعنى في أذهان المُنكرين

جاء نفيُ العزوبِ عن علم اللّه في الآية ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ بطريق الطِّباق بين السَّماوات والأرض، وبين ما هو أصغر وما هو أكبر، مع تَكرارِ حرفَي العطف والنَّفي (لا)، تأكيدًا للنَّفي، وتقريرًا للمعنى في أذهان المُنكرين؛ فقد أحاط علمُ اللّه بالسّماوات، كما أحاط بالأرض، وشمل ما هو أصغر من عديل الذّرّة، كما بلغ ما هو أكبر منه، وفي هذا التّكرارِ للتّقرير والتّأكيدِ: تهديدٌ أيضًا للمنكرين منَ الذين كفروا.

سِرُّ عَطْفِ ﴿أَكۡبَرُ﴾ على ﴿أَصۡغَرُ﴾:

الأمـورُ صغيرُها وكبيرُها مُثبَتةٌ في الكتاب المبين

عطفَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿أَكۡبَرُ﴾ على ﴿أَصۡغَرُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾، ولم يكتفِ بالأصغر، معَ أنَّ مَن عَلِم بالأصغر لا بدّ وأن يعلم الأكبرَ؛ وذلك

لإفادة إحاطةِ علْمِه سبحانه بجميع الأشياء، فقد علِم أدقَّ الأشياء وأخفاها، كما علم أكبرَ الأشياء وأظهرَها، ولا يكبر عليه الكبيرُ، كما أنَّه لا يعزب عن علمه الصّغيرُ.

ويكمُن سرٌّ آخرُ من أسرارِ هذا العطف في مناسبته بيانَ إثباتِ الأمورِ في الكتاب؛ فلوِ اقتصر على الأصغر لَرُبَّما تَوَهَّم متوهِّمٌ أنَّه يُثبِتُ الصّغائرَ لكونها محلَّ النِّسيانِ، وأمّا الكبائر فلا حاجةَ إلى إثباتها؛ فلذلك بيّن أنَّ الإثباتَ في الكتاب ليس كذلك، فإنَّ الأكبر مكتوبٌ فيه كما الأصغرُ[1].

بلاغةُ الاكتفاءِ في حذف متَعَلَّقِ ﴿أَكۡبَرُ﴾:

الإيجازُ والاختصارُ من أساليب القرآن الكريم

اكتفى البيانُ القرآنيُّ في قول اللّٰه تعالى ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ بدلالة ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ عن تَكرارِ مثلِه بعد لفظ ﴿أَكۡبَرُ﴾؛ فلم يقل: (ولا أكبر منه)، أو (ولا أكبر من ذلك)، لكون السّياق قد دلّ عليه، وفي ذلك إيجازٌ واختصارٌ، لأنَّه إذا دلَّ على المحذوف دليلٌ، ولم يتأثّر المعنى بحذفه: كان الإيجازُ أبلغَ؛ والاكتفاءُ فنٌّ من فنون بلاغة القرآن الكريم، ويُسمّيه بعضُهم الاستغناءَ؛ وهو الحذف لوجود الدَّليل اللَّفظيِّ على المحذوف المقدَّر.

بلاغةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناء:

تأكيدُ علمِ الله بالغيب وقصْرِه عليه دونما سواه

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن سَعَةِ علم اللّٰه تعالى بطريق النَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾؛ وهذا من طُرُقِ القصر، فقد قُصِر نفيُ العزوب المستلزَمُ منه سَعَةُ علمِه وإحاطتِه في كتاب مبين على اللّٰه دون غيره، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوف، وعبَّر عن ذلك بطريق القصر لتأكيد علمِ اللّٰه بالغيب.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 192.

وفيه إشارةٌ إلى حصر الموجودات كلِّها صغيرِها وكبيرِها في كتاب مبين، فُصِّل فيه كلُّ شيءٍ تفصيلًا واضحًا، وفيه تقويةُ المعنى وتأكيدُ الحكم[1].

سِرُّ التَّعبير بحرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

عُبِّر بالظَّرفيَّة في قول اللّٰه تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ لِما فيها من معاني التَّمكُّن والحفظ والقدرة في الإحاطة بالعلم بكلّ شيء.

دلالةُ الاحتراسِ في التَّعبير بالكتاب:

تقييدُ العلمِ بالكتاب منهج قرآنيٌّ

جاء الاحتراسُ بقول اللّٰه تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ بعد بيان عظيم إحاطتِه ﷻ وسَعةِ علمه، ليُراعَى إدراكُ الإنسانِ العاجزِ عن تصوُّر سَعة هذا العلم، وعجزِ نفسه عن إحاطة شيءٍ من هذا العلم دون حفظِه في كتابٍ للعودة إليه عند نسيانه؛ أمّا اللّٰه سبحانه فهو غنيٌّ عن تدوين علمِه[2]، وفي هذا الاحتراس أيضًا تأكيدٌ لحفظ هذا المعلوم، وعدمِ وقوع الخلل فيه وإن طال عليه الزّمنُ؛ مع الإشارة بتعليم الإنسان ما ينبغي عليه للحفاظ على العلم، من تقييدِه وحفظِه بالكتاب.

سِرُّ تنكير ﴿كِتَٰبٖ﴾:

نَكَّر البيانُ الكريمُ لفظَ الكتاب في قول اللّٰه تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ لتعظيم مكانته، وشرفِه، وسَعتِه المستلزمِ عِظَمَ علمِ اللّٰه[3].

نكتةُ وصفِ الكتاب بـ﴿مُّبِينٖ﴾:

وضوحُ ما في الكتاب وظهورُه، مع حفظه من التّبديل والنّسيان

لّما كان الإنسانُ قد يكتب الشّيءَ ثُمَّ يغيبُ عنه وينسى مكانَه فيعجزُ في استخراجه: أخبر اللّٰه تعالى أنَّ كتابه على خلاف ذلك، بل هو حيث لا يكشفُ من يريد اطّلاعه عليه شيئًا إلّا وجده في

(1) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 43.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 446.
(3) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 43.

الحال، فقال سبحانه ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[1]؛ فوصفُ الكتابِ بأنَّه مبينٌ، لوضوح أمره وظهوره، فالله لا يخفى عليه شيءٌ.

توجيهُ المتشابهِ مع سورة يونس:

اللهُ شهيدٌ على أعمال عباده في الأرض، حفيظٌ لها في السماء

تشابهت هذه الآية ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مع قول الله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 61]؛ فالملاحظُ تقديمُ السَّماوات على الأرض في موضِع سورة سبأ، وتقديمُ الأرض على السَّماء في سورة يونس، ووجْهُ ذلك أنَّه قُدِّم ذِكْرُ السَّموات على الأرض في سورة سبأ - كما في مُفتتَح السّورة، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ - لأنَّ مُلكَها أعظمُ شأنًا وأكبرُ سلطانًا، وأمّا الآية التي في سورة يونس فإنّها جاءت عقيبَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: 61]، فكان القصدُ إلى ذكر علمِه بما يتصرّف فيه العبادُ من خير أو شرّ، وذلك يكون في الأرض، فأتمّه بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 61]؛ فاستوعبَ جميعَ ما في الأرض، ثُمَّ أتبعه بذكر السّماءِ؛ لأنّ الابتداء وقع بما يتعلّق بالأرض، وما يعمل العبادُ فيها[2]، فالسّياقُ سياقُ تحذيرٍ وتهديدٍ للبشرِ، وإعلامِهم أنّه سُبحانَه عالمٌ بأعمالِهم دقيقِها وجليلِها، وأنَّه لا يَغيبُ عنه منها شَيءٌ؛ فاقتضَى ذلك ذكرَ مَحلِّهم - وهو الأرضُ - قبْلَ ذكرِ السَّماءِ، التي فيها حفظُ الأعمال وتسطيرُها[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 446.

(2) الإسكافي، دُرَّة التَّنزيل، ص: 1074 - 1076، والكرماني، أسرار التَّكرار، ص: 207، 208، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/ 383.

(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 74.

ومن أسباب تقديم ذِكْرِ السَّمَوَاتِ على الأرضِ في سورة سبأ، والسِّياقِ لإقرار السّاعةِ وإثبات البعث: أنَّ السّاعةَ إنَّما تأتي مِن قِبَلِها، وهي غَيْبٌ فيها، ومِن جهتِها تَبتدِئُ وتَنشأُ؛ ولهذا قَدَّمَ صَعْقَ أهلِ السّماوات على أهلِ الأرضِ عندَها، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزُّمر: 68].

ما تخفى على اللهِ أعمالُ عباده، ولن يغيب عنه علمُ الساعة

وممّا يُذكر في اختلاف التّعبيرِ بين سورة سبأ وسورة يونس: أنّ نفي الخفاء جاء بـ﴿لَا﴾ في سبأ - ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ - لأنَّ الكلامَ على السّاعة، والسّاعةُ استقبالٌ، فجاء بـ﴿لَا﴾ الدّالَّةِ على الاستقبال في النَّفي؛ وأمّا موضع سورة يونس ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ فجاء النّفيُ بـ(ما)؛ لأنَّ الكلامَ على الحال، و(ما) مُختصَّةٌ بنفي الحال؛ فجيء بكلِّ حرفٍ في سياقه وموضعه الذي يليق به.

آيةُ يونسَ في استغراق علمِ اللهِ الكونَ، وآيةُ سبأ في الاحتجاج للسّاعة بهذا العلم

ومنَ المتشابه بين الآيتين زيادة ﴿مِن﴾ [يونس: 61] في سورة يونس، وعدمُ ذكرِها في آية سبأ، في قول الله تعالى ﴿مِن مِّثۡقَالِ﴾ [يونس: 61]؛ وسياق كُلِّ كلمة منهما يقتضي ذلك، فالكلامُ في آية يونس على إحاطة علْمِ الله بعلم الغيب، وأنَّه يعلم كلَّ شيء؛ فأوّلُ الآية قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: 61]، وأمّا في آية سبأ فالكلامُ على السّاعة ابتداءً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾؛ فجاء الحديثُ عن علم الغيب تبَعًا للسّاعة، فلمّا كان الكلامُ في آية يونس ابتداءً على علم الغيب، ومقدارِ علم الله، وإحاطتِه بكلِّ شيء، بحيث لا يخرج عنه شيءٌ: ناسبَ ذلك زيادةُ ﴿مِن﴾ [يونس: 61] الاستغراقيّةِ المؤكِّدةِ، التي تستغرق كلَّ مثقال ذرّة في الكون[1].

(1) السّامرائي، التعبير القرآني، ص: 260.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العُزوب والبُعْدُ والخفاء:

يُطلَقُ البُعدُ على الهلاك والموت والخيانة؛ أمّا العزوبُ فهو بُعدُ غيابٍ وذهاب

يفترقُ العزوبُ عنِ البعد والخفاء، فلكلٍّ منهما ما يميّزُه في اشتقاقه ومعناه، فمادّة عزب تدُلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ[1]، والعازبُ: المتباعِدُ في طلب الكلأ عن أهله[2]؛ واستعمال العزبِ في الغياب لازمٌ للبعد، فالعُزوبُ: الغَيْبَةُ والذّهابُ، أمّا البُعد فهو خلافُ القُربِ، يقال بعُدَ الرَّجُلُ، أي: تباعد، وهو بعيد؛ وبَعُدَ: هَلَكَ أوِ اغْتَرَب، والبُعْدُ والبَعدُ: الهَلاك؛ والأباعدُ: خلافُ الأقارب، والأَبْعَدُ: الخائنُ، والبعد والقُرب ليس لهما حدٌّ محدود، وإنّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره؛ يُقال ذلك في المحسوس - وهو الأكثر - وفي المعقول؛ والبُعد أكثرُ ما يُقال في الهلاك.

والملاحظُ من هذه المعاني اللّغويّةِ للفظين: أنَّ بينهما تقاربًا دلاليًّا، إذ يشتركان في معنى البُعدِ الذي هو ضدُّ القُرب؛ ويتميّزُ البُعدُ بأنَّه يُطلق على الهلاك والموت والخائن، بينما يتميّز العَزْبُ بأنَّه بُعدٌ مُلازم لمعنى الغياب أوِ الذّهاب أوِ الانفراد.

العزوبُ أدقُّ من الخفاء، فلا يُقال (عَزَب) إلّا للمُبتعد الغائب الذي لا يُدرَك بالبصر

أمّا الخفاء فهو استتارُ الشّيءِ استتارًا غيرَ تامٍّ، بحيث يظهرُ من وراء السّاتر ظهورًا ضعيفًا؛ والمُختفي: النَّبّاش الّذي يستخرجُ أكفان الموتى، لأنّها مُسْتخفيةٌ تحتَ التّراب، ولأنّه يفعل ذلك خِفيَةً؛ والإخفاء ضدُّ الإبداء؛ والخَفا بالقصر: الشّيءُ الخافي؛ وخَفِي الشّيءُ واختفى واستخفى وتخفَّى: استتر؛ وأخفيت الشّيء: سترتُه[3].

فالعزوبُ أدقُّ من كلمة الخفاء، فلا يُقال عزبَ إلّا للمُبتعِد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).

(2) الأزهري، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (عزب).

(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (خفي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خفو، خفي).

الغائب الذي لا يُدرَك بالبصر، ولا يُعرَف مكانُه بالحِسِّ، إمّا لابتعاده أو لدقَّته وصِغَره؛ أمّا الخافي فهو المُستترُ، والخافيةُ نقيض العلانيَّة، فلا نقول عن شيء بأنَّه مختفٍ إلّا للموجود المستترِ الذي لا يمكن الوصولُ إليه إلّا بإظهاره.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [سبأ: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يحفظُ الله أعمالَ خلقِه في الدّنيا، ثمّ يبعثُهم للجزاء في الأخرى

لمّا بيّن اللّهُ تعالى وُسعَ علمِه وكمالَ إحاطَتِه في الآية السّابقةِ بكلِّ صغير وكبير وأصغرَ وأكبرَ: ذكر في هذه الآية أنّ جمْعَ ذلك وحفظَه في كتاب مبين: من أجْلِ الجزاء، ولمّا كان سياقُ ذكرِ علمِ اللّه بمخلوقاته، وحفظِه لأعمالهم من أجل إثبات قدرتِه على البعث والنّشور: جاءت هذه الآية لبيان حكمتِه منَ الخلق الآخر، وهو الحساب الكاملُ، والجزاء العادلُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾: (جزي) أصلٌ يدلُّ على قيامِ الشَّيْءِ مَقامَ غَيْرِه ومُكافأَتِه إيّاه؛ يُقالُ جَزَيْتُ فُلانًا أَجزيهِ جَزاءً، وجازَيْتُهُ مُجازاةً[1]، وقد ورد الجزاءُ في القرآن على ستَّة أَوجهٍ: بمعنى المكافأة والمقابلة، وبمعنى الأَداءِ والقضاءِ، وبمعنى الغُنْيَة والكفاية، وبمعنى العِوَض والبَدَل، وبمعنى خَراج أَهلِ الذِّمّة، وبمعنى ثوابِ الخَير والشّرِّ[2]، والمقصودُ بالجَزاءِ في الآية: المُكافأةُ على عَمَلٍ حسَنٍ بِشيءٍ مِثلِه في الحُسْنِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ الحكمة منَ البعث والحساب، والتَّرغيبُ في الإيمان بالله والعملِ الصّالح

بيّن اللّه ﷻ أنّ حِكمتَه منَ البعثِ وقيامِ السّاعةِ هو إثابةُ الَّذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الخالِصةَ للّهِ تعالى، الموافِقةَ لِشَرعِه؛ أولئك لهم مِنَ اللّهِ مَغفرةٌ لِذُنوبِهم،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(2) الراغب، المفردات: (جزا)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 380.

فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ولهم رِزقٌ حَسَنٌ في كَمّيَّته وكيفيَّته[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ التّعبير بلامِ ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾:

تعليلُ ما ذُكر من قيام السّاعة

صُدّر قولُ اللّه تعالى ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ باللّام لدلالتِها على التَّعليل لقيام السّاعة؛ فإنَّ اللّه لم يخلُقِ الخلقَ عَبَثًا - بل أفعالُه كلُّها مُعَلَّلَةٌ[2] وإنَّما خلقهم لعبادتِه واتّباعِ أمره، وكان منَ الإنصاف أن يُجازيَ المحسنين والمسيئين على أفعالهم، فجعل قيامَ السّاعة موعِدًا للحساب والجزاء، فقولُه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ عِلَّةٌ لقوله تعالى: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، وبَيانٌ لِما يَقْتضي إتيانُها منَ الحكمة؛ أي: (لتأتينَّكم السّاعةُ أيُّها الكافرون، والحكمةُ في ذلك جزاءُ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات الجزاءَ الحسنَ الذي يستحقّونه)[3].

سرُّ فصلِ هذه الآية عمّا قبلها:

فُصل قولُ اللّه تعالى ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ عمّا قبله، لأنّه جاء تعليليًّا لِما ذُكر في الآية السّابقةِ؛ وذلك أنّ اللّه لَمّا بيَّن عِلمَه بالصَّغائرِ والكبائرِ ذكَرَ أنَّ جَمْعَ ذلك وإثباتَه للجزاءِ[4].

دلالةُ المُضارعة في الفعل ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾:

الإشـارة إلى الجـزاء الدّائـم والثواب المُستمرّ لأهل الإيمان

يدلّ التَّعبيرُ بالمضارع في قول اللّه تعالى ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ على ديمومة الجزاءِ الذي أُعِدَّ للمُؤمنين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 211 - 212، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 261، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 265.

(2) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 45.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 568، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 242، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 121 - 122، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 267.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 192.

واستمراره؛ فهم في ثوابٍ مُستمرٍّ، وتنْعيم لا ينقطعُ ثوابُه، وجعل اللّه تعالى للمُكلَّف دارًا باقيةً، يكون ثوابُه واصلًا إليه فيها دائمًا أبدًا[1].

سرُّ عدمِ تقييدِ الجزاءِ:

دلالةُ السّياق على نوع الجزاء، فلا يُجزى المحسِنون إلّا بالإحسان

أطلق البيانُ الحكيمُ الجزاءَ الذي يجزي به اللّه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾، ولم يُقيَّد بأنَّه جزاءٌ حَسَنٌ: للدَّلالة على أنَّه أمرٌ واضحٌ لا يحتاج إلى بيان، إذ ليس للإحسان جزاءٌ إلّا الإحسانُ، كما يقول سُبحانه: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: 60][2].

سرُّ اقترانِ الإيمان بالعمل الصّالح:

الإيمانُ بلا عملٍ لا يكفي، والعملُ بلا إيمانٍ لا يُجدي

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بالإيمان في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ وهو التّصديقُ، من أعمال القلوب: للتّفريقِ بينه وبين الإسلام، الذى هو امتثالٌ ظاهريٌّ؛ ويكونُ المعنى: (آمَنوا بالقلب، وعَمِلوا الصّالِحاتِ بالجوارح)، ففي الاقتران بين الإيمان والعمل الصّالحِ دلالةٌ على شدّة التّلازم بينهما؛ فالإيمان بلا عملٍ لا يكفي، والعمل بلا إيمان لا يُجدي، فقُرِنَ بينهما للإشارة إلى أنّ الإيمان في القلب والعملَ في الجوارح، فالإيمان سِرٌّ والعملُ علانيةٌ[3]؛ وبذلك يُجمَع بين الظّاهرِ والباطن، ويجوز أن يدُلَّ كلٌّ منهما على الآخر: فالإيمان إذا أُطلق شملَ أعمالَ الجوارحِ الظّاهرة؛ والعملُ إذا أُطلق اندرج في عمومه الإيمانُ بالقلب.

دلالةُ واوِ ﴿وَعَمِلُواْ﴾:

الإيمانُ الصّحيحُ يُثمر العملَ الصّالحَ

دلّ التّعبيرُ بالواو في قَولِ اللّه تعالى ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ على أنَّ الإيمانَ والتّصديقَ الَّذي في القَلبِ فقط لا

---

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 10 - 11.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 777.

(3) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 39.

يَكفي، ولا يُغني عنِ العَمَلِ الصّالح؛ لأنَّه رَتَّبَ الجزاءَ على قيام الوَصفَين بالفاعِلِ، وهما الإيمانُ والعَمَلُ الصّالحُ[1]، فاللّه سُبحانه يُثيب مَن تمكّن الإيمانُ في قلوبهم فأثمر الأَعمالَ الصّالحةَ، والأَفعالَ المرضيَّة[2].

عِلَّةُ حذفِ موصوفِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الإيجـازُ لكونه معلومًا منَ القرينة والسّياق

حُذِف موصوفُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فتقديرُه: (وعملوا الأعمالَ الصّالحاتِ)؛ فـ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وصفٌ لمَوصوفٍ محذوف، وحذفُ المنعوت جائزٌ إذا قامتِ القرينةُ عليه[3].

وفي الحذف إشارةٌ إلى تمكُّنِ صفة الصّلاح في العمل، فأهل الإيمان لا يصدُر عنهم إلّا كلُّ عملٍ صالح؛ وفيه دعوةٌ إلى الحرص على العمل الصّالح.

سرُّ فصلِ جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ عمّا قبلها:

جوابُ السّؤال عن ماهيّة الجزاء

فُصلت جملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ عنِ الجملة التي قبلها لوقوعها جوابًا لسؤالٍ مقدّر تضمَّنَتْه الجملةُ الأولى، وتقديرُه: فما جزاءُ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات؟ فجاءت جُملةُ الجواب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾؛ فبَينَ الجملتين شبهُ كمالِ الاتّصال.

سرُّ التّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإيذانِ الإيذانُ ببُعدِ منزلتِهم في الفضلِ والشَّرف

دلَّ التّعبيرُ باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ على أنَّ المُشارَ إليه جَديرٌ بما سَيَرِدُ بعدَ اسم الإشارةِ منَ الحُكم، لأجلِ ما قبلَ اسم الإشارة منَ الأوصاف، وما فيهِ منْ معنَى البُعدِ هو للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضلِ والشَّرفِ[4]؛

(1) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 46.
(2) نخبة من العلماء، التَّفسير الوسيط، ص: 245.
(3) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 46.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 447، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 122، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 142.

أي: (أولئك رفيعو المكانة عند ربّهم لهم ثوابانِ: الثَّواب الأول مغفرةٌ لذنوبهم، فيسترُها ويتجاوزُ عن محاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ والثَّوابُ الثّاني رزقٌ كريم، ينالونه في جنّاتِ النَّعيم)(1).

التَّعبيرُ بالجُملة الاسميَّة:

الـدّلالـةُ على ثـبـوت عـلـوِّ منزلتهم وما أُعِدَّ لهم مِنَ الثواب

جاء النَّظمُ الكريمُ بجملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ بطريق الاسميَّة، وهذا أبلغُ في البِشارةِ من قول القائل: (ليجزي الذين آمنوا رزقًا)(2)، والغرضُ من هذا الخبر - كما يدلّ عليه السّياقُ - بيانُ الجزاءِ المترتّبِ على التّصديقِ بالسّاعةِ، والحثُّ على الإيمان بها والعملِ لها، ومن فوائد الاسميّة كذلك: الدَّلالةُ على تمييز المُشار إليه المقصودِ بالجزاء أكملَ تمْييزٍ، وتحديدُه ظاهرًا باستحضاره في ذهن المخاطَبِ بالإشارة الحِسّيَّة.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُم﴾:

الـعـنـايـةُ بـالـمؤمـنـين، واخـتـصـاصُ الجزاء الحسن بهم في الآخرة

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ ومتعَلَّقُه الخبرُ المحذوفُ على المبتدأ ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾: للعناية والاهتمام بشأن أهلِ الإيمان؛ وفيه إشارةٌ إلى تخصيص المغفرة والرّزقِ الكريم في الآخرة بهم دون غيرهم.

سِرُّ الجمع بَيْنَ المغفرة والرِّزق الكريم:

المـغـفـرةُ جـزاءٌ للإيمان، والرِّزق الكريم للعمل الصّالح

جمعَ القرآنُ الكريمُ بين المغفرة والرّزقِ الكريم في قول اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾: للتّناسُب مع الإيمان والعمل الصّالحِ؛ فالمغفرةُ جزاءُ الإيمان، إذْ كُلُّ مؤمنٍ مغفورٌ له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: 48]؛ والرِّزقُ الكريمُ جزاءُ العملِ الصّالحِ، كما أنَّ مَن عملَ لِسَيِّدٍ كريمٍ عَمَلًا، نال منه عند فراغه منَ العمل إنعامًا وإحسانًا(3).

---

(1) المكي، المعين على تدبُّر الكتاب المُبين، ص: 428.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 10.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 193.

لطيفةُ تقييدِ الرِّزق بالكريم:

المَغفِرةُ لا تنقسِم؛ أمّا الرِّزقُ فمنه كريمٌ، ومنه غيرُ ذلك

وصف البيانُ القرآنيُّ الرِّزقَ بأنّه كَريمٌ، ولم يَصِفِ المَغفرةَ بذلك، في قول اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾: لأنّ المَغفِرةَ عطاءٌ كلّيٌّ للمُؤمنينَ، والرِّزقَ مختلفٌ، فمنه ما هو كريم، ومنه ما هو غيرُ كريم؛ لذلك ميَّز الرِّزقَ - لحُصولِ الانقِسامِ فيه - ولم يميِّزِ المغفرةَ، لعدَمِ الانقِسامِ فيها[1].

نكتةُ وصفِ الرزق بالكريم:

رزقُ الجنّة كريمٌ لا ينغِّصُه شيء

وُصِف الرِّزقُ بالصِّفة المُشبّهة ﴿كَرِيمٞ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾: لأنَّه يأتي من غير طلب، بخلاف رزقِ الدُّنيا، فإنَّه ما لم يُطلبْ ويُتسبّبْ فيه لا يأتي؛ والوصفُ به على وزن (فَعيل) لدلالته على ثبوت ذلك لهم في دار الخلود[2].

وفي وصف الرّزقِ بالكريم دلالةٌ على تعظيمه وخلوِّه منَ المنغِّصات، فهو موصولٌ بهم، لا ينقطعُ، ولا يمتنعُ، وصفَ اللّه تعالى أهلَ الجنّة بأنّهم في جنّاتِ النَّعيم ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣﴾ [الواقعة: 32 - 33]؛ فتلك الآية، وإن كانت في وصف الفاكهة، إلّا أنّها تصدُق على رزق الجنّة بأكمله، ومنه الفاكهةُ الكثيرة المذكورة.

دلالةُ تنكيرَ ﴿مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾:

دلّ تنكيرُ ﴿مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ على التّعظيم والتّفخيم؛ فللمؤمنين الصّالحين مغفرةٌ عظيمة لا يعلم كُنهَها إلّا اللّه، ولهم رزقٌ كريم لا يَعلَم قدرَه إلّا اللّه.

دلالةُ تقديمِ المغفرة على الرّزق الكريم:

التَّخليةُ مقدَّمةٌ على التَّحلية

قدّمتِ المغفرةُ على الرّزقِ في قول اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لأنَّ التَّخلية مُقدَّمةٌ على التَّحلية[3]؛ فمعلومٌ من

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 193، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 3/ 279.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 192.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 193، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 10.

طبع الإنسان وقوعُه في المعصية، فأراد اللّه أن يُطَمئِنَ الإنسانَ بفتح باب المغفرة له، فيترُكَ المعاصيَ ويعودَ إلى حظيرة الإيمان والعمل الصّالح.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأَجرُ والثّوابُ والجزاءُ:

الجزاءُ أعمُّ منَ الثَّوابِ والأجرِ

الأَجْرُ في الأصل مصدرٌ، يقال: أَجَرَهُ اللّهُ يَأْجُرُه أَجْرًا، وقد يُعَبَّر به عن نفس الشَّيءِ المُجازَى به[1]؛ والأُجرة في الثّواب الدُّنيويّ[2]، والثَّوابُ: ما يرجعُ إلى الإنسان من جزاء أعماله؛ والثَّوابُ يقال في الخير والشّرّ، لكنَّ الأكثرَ المُتعارفَ في الخير[3]، والجزاءُ الغَناءُ والكفايةُ، وما فيه الكِفايةُ منَ المُقابلة، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[4]؛ فهو أعمُّ منَ الثّوابِ والأجرِ.

المغفرةُ والعَفْوُ:

الغَفرُ سَترٌ والعَفوُ مَحوٌ

الفرقُ بينَ المغفرة والعفْوِ أنَّ أصلَ الغَفْرِ في لُغة العربِ: السَّتْرُ[5]؛ وأمّا العفوُ فأصلُه: المَحْوُ وتركُ الشَّيْءِ[6]، والغالبُ استعمالُ العفوِ في تركِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فعل المحرَّماتِ[7].

والعفوُ أبلغُ مِنَ المغفرة من جهة أنَّها تُنْبِئُ عَنِ السَّتْرِ، أمّا العفوُ فإنَّه مشعِرٌ بالمَحْوِ، والمحوُ أبلغُ منَ السَّتْرِ[8].

والمغفرةُ أبلغُ مِنَ العفوِ من جهة أنَّها مُتضمِّنَةٌ وقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبِهِ وإقبالَ الغافِرِ عليهِ ورضاهُ عنه؛ بخلاف العفوِ، فإنَّهُ متضمِّنٌ

(1) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/ 187.
(2) الراغب، المفردات: (أجر).
(3) الراغب، المفردات: (ثوب).
(4) الراغب، المفردات: (جزأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عفا).
(7) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/ 341.
(8) الصَّفُّوري، نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس: 1/ 88.

فقط إسقاطَ صاحبِ الحقِّ حقَّهُ ومسامحتَه، فقد يَعْفو ولا يُقْبِلُ على من عفا عَنْهُ، ولا يرضَى عَنْهُ، وبهذا يكون العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفضلًا وجودًا[1]، فلذلك اختيرت في مقام الإحسان والجزاء الكريم من هذه الآية.

(1) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 14/ 140.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾ [سبأ: 5]

الترهيبُ بعدَ الترغيب، وبيانُ من كذّب بالسّاعة بعدَ وضوحِ براهينِها

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بيَّن اللّهُ تعالى حالَ المؤمِنينَ والجزاءَ المُعَدَّ لهم يَوْمَ القيامةِ في الآية السّابقةِ: بيَّنَ في هذه الآية حالَ الكافِرينَ[1]، والعذابَ المُعَدَّ لهم؛ وتكونُ المناسبةُ بينهما من باب التّرهيبِ بعد التّرغيب، ومناسبةُ الآيةِ لِما قبل الآية السّابقةِ من سياق مُفتتحِ السّورةِ أنّه لَمّا كانت أدِلَّةُ السّاعةِ قدِ اتَّضحت، حتَّى لم يَبْقَ مانِعٌ مِنَ التَّصديقِ بها إلّا العِنادُ، وكان السّياقُ لتَهديدِ مَن جَحَدها: بيّن في هذه الآية سلوكَ الجاحدين الكافرين[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَعَوۡ﴾: (سعى) أصلٌ يدلّ على تسيُّبِ جِرم الشّيء المجتمعِ وذهابِه شيئًا فشيئًا[3]، ومنه السَّعيُ وهو المَشي السَّريعُ، وهو دون العَدْوِ[4]، ثمّ استعمِل للجِدّ في الأمر خيرًا كان أو شرًّا؛ وقالَ الزَّجّاجُ: أَصلُه في كلامِ العَرَبِ التَّصرُّفُ في كُلِّ عمَلٍ؛ ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ [النجم: 39]، مَعْناهُ إلّا ما عَمِلَ[5]، والسَّعْيُ في الآية مُستعارٌ للاجتهادِ في العَمل، أي: سعَوا في آياتنا مُجتهدين في إبطالها[6].

2) ﴿ءَايَٰتِنَا﴾: (أيي) أصلٌ يدلّ على بقاء الشّيء في مكانه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 193.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 448.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سعو/ سعى).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سعى).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سعي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 218.

شاخِصًا علامةً لشيء[1]؛ ومنه الآيةُ، وهي العلامةُ الثّابتة الدّالّةُ على أَمْرٍ من شأْنه أن يَخفى[2]، والآية الجماعةُ منَ النّاسِ، وخَرَجَ القومُ بآيَتِهم، والآياتُ منَ القُرْآنِ، والجَميعُ الآيُ؛ وسُمّيت آيةُ القُرآنِ بذلكَ لأنّها جماعةُ حُروفٍ، وقيلَ: لأنّها علامةٌ لانقطاعِ الكلامِ الّذي بعدَها، وقيلَ: لأَنَّها دالَّةٌ على انقِطاعها عنِ المخلوقينَ، وأنّها ليست إلّا من كلامِ اللّه تعالى[3]، والآيةُ أيضًا: العِبرةُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرةً يُعتَبر بها[4]، والمقصودُ بالآيات في الآية: القُرآنُ، كما يدُلُّ عليه قولُه بعدُ: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[5].

3) ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: (عجز) أصلٌ يَدُلُّ على الضَّعفِ؛ يُقال: عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فَهوَ عاجِزٌ، أَيْ ضَعيفٌ[6]، والعجزُ أصلُه التّأخُّرُ عنِ الشّيءِ، وحصولُه عند عجُزِ الأمرِ؛ وصار في التّعارفِ اسمًا للقصور عن فعل الشّيءِ، وعَجَّزَ الرَّجُل وعاجَزَ: ذهب، فلَم يوصَل إليه؛ والمُعاجِزُ: المُسابِقُ الطّالبُ عَجْزَ مُسايِرِه عنِ الوُصولِ إلى غايته وعنِ اللِّحاقِ به[7]، وهو في الآية حالٌ لبيان الغاية منَ السَّعي الآثمِ في آيات اللّه، وأنّه لم يكن سعيًا للإفادة منها، والاهتداءِ بهديها، وإنّما هو سعيٌ لحجبها عنِ النّاس، ولتعجيزها، وإعجازِ النّاس عنِ الوصول إليها[8].

4) ﴿رِّجْزٍ﴾: (رجز) أَصلٌ يدلُّ على الاضطرابِ والمَيْلِ؛ يُقال: تَرَجَّزَ الرَّجُلُ: إذا مالَ وتَحَرَّكَ تَحَرُّكًا بَطيئًا[9]، ومِنْهُ الرَّجَزُ: وهو داءٌ يُصيبُ البَعيرَ، فَتضطرِبُ فَخِذاهُ إذا أَراد القِيامَ، والرِّجْزُ - بِكَسْرِ الرّاءِ وضَمِّها: العَذابُ؛ وقيل: هو العَمَلُ الذي يُؤَدّي إلى العَذابِ[10]؛ ورِجْزُ الشَّيْطانِ: وساوِسُهُ؛ ويأتي الرِّجْزُ والرُّجْزُ بِمعنى الصَّنَمِ والوَثَنِ؛ وقيل: عِبادَةُ الأَوْثانِ؛

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أيي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَيَّ).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/ 108.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (إيي).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 143.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 295.
(8) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 778.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجز).
(10) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رجز).

وقيل: هو الشِّرْكُ مُطْلَقًا، لأنّ مَن عَبَدَ غير اللّه تعالى فهو على شَكٍّ مِن أَمْرِه واضْطِرابٍ في اعْتِقادِه[1]؛ ومِن مَعانيه أيضًا: الإثْمُ، والقَذَرُ، والرِّجْسُ[2]، والمقصودُ بالرِّجْزِ في الآية: أَسوأُ العذاب[3].

5) ﴿أَلِيمٌ﴾: (ألم) أصلٌ يدلُّ على الوَجَع[4]، قال الخليلُ: الأَلَمُ: الوَجَعُ، يُقالُ: وجَعٌ أَليمٌ، والفِعْلُ من الأَلَم: أَلِمَ، وهو أَلِمٌ[5]؛ والتَّأَلُّمُ: التَّوَجُّعُ؛ والإيلامُ: الإيجاعُ؛ والأليمُ: الموجِعُ، فهو على هذا القياسِ فَعيلٌ بمعنى مُفْعِلٍ، مثل السَّميع بمعنى المُسمِع[6]، والعَذاب الأَليمُ: الّذي يَبْلغ إيجاعُهُ غايةَ البُلوغِ[7]، والمقصودُ به عذابُ جهنَّم.

المَعْنى الإجْماليّ:

العذابُ الأليمُ للكافرين المعاندين

تبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنّ الّذين اجتَهَدوا في إبطالِ آياتِ اللّهِ تعالى المُنْزَلةِ على رسول اللّه ﷺ، وصَدِّ النّاسِ عنها، فسمَّوْها تارةً سحرًا، وتارةً شعرًا، وتارةً أُخرى أَساطيرَ الأَولين، ظانّين إبطالَ آياتِ اللّه أو تعجيزَها عن أَن تصل إلى النّاس في نقائها وصفائِها، لتعملَ عملَها الطيِّبَ المُبارَكَ في القلوب، فتهديَها إلى الحقِّ والنّور، أو أنَّهم يعملون على تعجيز المؤمنين عن تكثير أتباعِها: هؤلاء لهم - دون سواهم - عذابٌ بالغُ السّوءِ في إيلامه[8].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ وصلِ هذه الآيةِ بسابقتِها:

المُقابلةُ بين عاقبةِ الأبرارِ والفُجّارِ

وُصل قولُ اللّه تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رجز).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رجز).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 144.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألم).
(5) الخليل، العين: (ألم).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ألم).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (ألم).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 261، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 495، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 245.

﴿لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ بالآية السّابقةِ لِما بينهما من شدّة الاتّصال، من باب ذكرِ عاقبةِ الفُجّارِ بعد عاقبة الأبرار، لأنّ الذين سَعَوا في آيات اللّه معاجزين همُ الفريقُ المُقابِلُ للذين آمنوا؛ فمعناه: (والذين استمرّوا على الكفر وثبّطوا النّاس عن مُتابعة النّبي ﷺ - ظَنًّا منهم أنَّهم يُعجزوننا، وأنَّهم لا يُبعثون، فهم يثبّطون النّاس ويعوِّقونهم عنِ الإيمان باللّه وبما جاء به رُسُل اللّه، تضليلًا عنِ الحقّ، وإغراءً وإغواءً - أولئك لهم العذاب)[1]، فهو تفصيلٌ لحال المُشركين، بعد تفصيلِ حال المؤمنين، حيث بَشَّر المؤمنين أوّلًا، وأنذر الكافرين ثانيًا؛ وحينئذ يكونُ هذا في مقابلة ما تقدّم، لأنَّ قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ معناه: صَدَّقوا، وهذا معناه كذَّبوا[2].

سرُّ المقابلةِ بين الإيمان والتّكذيب:

من بلاغة أسلوب القرآن التّرغيبُ والتّرهيبُ

إنّ من سماتِ الخِطابِ القرآنيِّ أنْ يكونَ جامعًا بيْنَ أسبابِ الخَوفِ وأسبابِ الرَّجاءِ، وهو ما يُعرفُ بأسلوب التّرهيبِ والتّرغيبِ، كما في هذه الآية والسّابقةِ عليها: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ الخَوفُ فقط فقد يَستولي على القَلبِ القُنوطُ من رحمةِ اللّهِ، وإذا ذُكِرَ الرَّجاءُ فقطْ فقد يَستولي عليه الأمنُ من مَكرِ اللّهِ ﷻ[3]؛ لذلك كانت عنايةُ القرآن بهذا الأسلوب البديع، لتأثيره النّفسيِّ على الإنسان.

سرُّ العدولِ إلى الجملة الاسميَّة:

السّعيُ في الصدِّ عن آيات الله من سجايا المَوصوفين

كان المتبادرُ إلى الذّهن أن يكون نسقُ الآية بالجملة الفعليّة، بأن يُقال: (ويجزي الذين سعوا)، لكن عُدل عنه إلى التّعبير بالجملة

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 261.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 193.
(3) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 55.

الاسميّة: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾، لقصد التَّأكيد على أنَّ سعيَهم في صدّ النّاسِ عن آيات اللّه وصرفِهم عنها: من سجاياهم، فهم لا ينفكّون عن ذلك.

بلاغةُ العدولِ عن مطابقة لفظ الإيمان:

التَّمهيدُ لإبطال قـول المشركين في الـقـرآن وفي الرّسول ﷺ

يعدِل النَّظمُ القرآنيُّ في التَّعبير عن صيغةٍ إلى صيغة أخرى، وعن كلمة إلى كلمة أخرى لأغراض بلاغيَّة تُفهم من خلال السّياق، وتُكشَفُ بعد التَّأمُّل والنَّظر، فقولُ اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾، وكان المتبادَرُ إلى الذِّهن أن تُجعلَ صلةُ اسم الموصول مطابقةً لسابقتها، بأن يُقال: (والذين كفروا) كما قيل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لكنْ عُدِل عن ذلك إلى الوصف بالسّعي في آيات اللّه بالمعاجزة: لتصلُحَ الجُملةُ أن تكون تمهيدًا لإبطال قولِ المشركين في الرَّسول ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ [سبأ: 7 - 8]، ولتبكيتهم بالجُرم الذي استحقّوا به أشدَّ أنواع العذاب، حيث لم يكتفوا بالكفر فحسْب، بل سَعَوا بكلِّ ما أوتوا لإبطال آيات اللّه والصدِّ عنها(1).

بلاغةُ الإيجازِ بحذف متعلّق السَّعي:

كونُ المحذوفِ مفهومًا من السّياق

السّعيُ في قول اللّه تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ مفتقِرٌ إلى ما يخصِّصُه ويبيِّنُ نوعَه، إذِ السَّعيُ يُطلَق على الجِدِّ في الفعل، خيرًا كان أو شرًّا، مأخوذٌ منَ المشي السّريع، ويدلّ قولُه تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ على تقدير المحذوف، أي يسعَونَ بالإبطال وتعويق النّاس عن آيات اللّه وتزهيدِهم فيها(2)، فإنْ قيل:

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 778، ومرعي، البلاغة القرآنيَّة، ص: 48.
(2) ابن عجيبة، البحر: 6/ 63، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 7.

من أين عُلم كونُ سعيِهم في الإبطال والتَّعويق والتّزهيدِ؟ فالجواب أنّ هذا معلومٌ من قوله تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾، لأنَّه حالٌ معناه: (سعوا فيها وهم يريدون التَّعجيز)(1)؛ وهذا الإيجاز من أبلغِ الإعجاز الذي تَميَّز به البيانُ القرآنيُّ.

بلاغةُ التّعبير بالسَّعي:

بيانُ اجتهادِهم في رَدِّها والتَّكذيبِ بها وصرفِها عن طريقها

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالسَّعْي في قول اللّه تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ دون غيره لأنّه يُطلقُ على الاجتهاد في العملِ، سواءً لإصلاحِه أو لإفسادِه، فمِن استعمالِه في الإفسادِ قولُه تعالى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ ومِنْ إطلاقِه في الإصلاحِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ٢٢﴾ [الإنسان: 22]، وقولُه: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ٩﴾ [عبس: 8 - 9]؛ ومِن إطلاقِ السَّعيِ على الخيرِ والشَّرِّ مَعًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل: 4](2).

ولمّا كان السَّعيُ يُستعمَل في الخير والشرِّ مع الاجتهاد الدّؤوبِ أوثِر التَّعبيرُ به، لأنّ المُرادَ هُنا اجتهادُ المشركين في رَدِّ الآيات، وجِدُّهم في التَّكذيب بها، فهو سعيٌ للباطل والضَّلال، حيث يَسعَونَ للتّعجيزِ عن آيات اللّه بصرفها عن طريقها، والطَّعنِ فيها؛ فسمَّوها سحرًا، وشعرًا، وأساطيرَ الأوّلين، وثبَّطوا النّاسَ عنِ الإيمان بها(3).

وفي التَّحذيرِ مِن سَعيِ الإنسانِ في إبطالِ آياتِ اللّهِ تعالى أمرٌ بضِدِّه، فالآيةُ مُتضَمِّنةٌ الحثَّ على السَّعيِ في آياتِ اللّه لِتَقريرِها وتَثبيتِها، دون صرف النّاسِ عنها؛ لأنّنا مأمورونَ بأنْ نسعَى قَدْرَ استطاعتِنا في تثبيتِ آياتِ اللّهِ، ونَشْرِها بينَ الأُمَّةِ، حتَّى تقومَ المِلَّةُ(4).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 193.
(2) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 5/ 283.
(3) القنوجي، فتح البيان: 5/ 421، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 143، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 134.
(4) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة سبأ، ص: 56.

إيثارُ فعلِ السّعي ماضيًا:

الزّيادةُ في تخوّف الجاحدين للسّاعة والمُنكرين للبعث

جاء التّعبيرُ بفعلِ السّعي ماضيًا في قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ زيادةً في التّخويفِ؛ لأنّه لمّا كانت أدلَّةُ السّاعة قدِ اتّضحت حتّى لم يبقَ مانعٌ منَ التّصديق لها إلّا العنادُ، وكان السّياقُ لتهديد من جحدها، قال مُعبِّرًا بالماضي زيادةً في التّخويف: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾، أي أوقعوا السّعي ولو مرّةً واحدةً بشبهةٍ مِنَ الشُّبه[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّة ﴿سَعَوْ﴾:

تصويرُ شِدَّة حرص الكافرين لتكذيب القرآن بهَيْأَة السّاعي في طريقٍ يُسابق غيره

السَّعيُ في الأصل هو المشيُ الشَّديد، ويُطلقُ على شِدَّة الحرص في العمل، تشبيهًا للعامل الحريص بالماشي الشّديدِ المشي في كونه يَكِدُّ للوصول إلى غاية، فقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ أي: (والذين استمرّوا على الكفر)؛ وعبَّر عنه بالسَّعي في الآيات لأنَّه أخصُّ منَ الكفر، وذلك حالُ المشركين المتحدَّثِ عنهم؛ والكلام تمثيلٌ، شُبِّهت هيئةُ تفنُّنِهم في التَّكذيب بالقرآن، وتَطَلُّبِ المعاذير لنقض دلائله - من قولهم: هو سحرٌ، هو شِعرٌ، هو أساطيرُ الأوّلين، ونحوُ ذلك من أكاذيبهم - بهيئة السّاعي في طريقٍ، يمشي مَشْيًا سَريعًا، يُسابِق غيرَه، ليفوزَ بالوصول، ويسبقُ غيرَه، ويُعجز من يريد اللّحاقَ أوِ السّباقَ[2].

وغرضُ التَّشبيه في الآية هو تصويرُ كُفرهم البالغ ومحاولتِهم النَّيْلَ منَ الدّعوةِ المحمَّديَّة، وجعلُها مُحَسَّةً مشاهَدةً، حتى يتصوّر المتلقّي سعيَهم في بطلان آيات الله بصورة الرّجُلِ الذي يجدُّ في سعيه، ويُخلِص في تحقيق هدفه؛ ليدرِكَ في نهاية الآية سِرَّ استحقاقهم أشدَّ أنواع العذاب، فتبدو بَراعةُ التَّشبيه التَّمثيليِّ وقيمتُه البلاغيَّة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 448.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 144، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 134.

في نقل التّشبيهِ منَ العقليِّ إلى الحسّيّ، ومنَ الخفيِّ إلى الجَليِّ؛ ومِن هنا يكون تأثيرُه في تقوية المعنى، وتوكيدِه في النُّفوس[1].

نكتةُ تعديةِ السّعيِ بـ﴿فِيٓ﴾:

بيانُ انغماسِهم في الكيد وإيغالِهم في التَّلبيس

عُدّيَ فعلُ السّعي في قول اللّه تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ بحرف الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ الذي يُفيد الظّرفيّةَ، إشارةً إلى أنَّ من سعيِهم محاولتَهم إدخالَ في آيات اللّه ما ليس منها، وأنّهم يُلبِّسون الحقَّ بالباطل، إذ يُحرِّفون الكلِمَ عن مواضعه، ويُلْقون فيه بالهَذرِ منَ القول، والسَّخَف منَ الكلام، وأنّهم كانوا يخوضون في آيات اللّه خوضًا بغير حساب، استخفافًا بها، وسخريّةً منها؛ كما حكى القرآن ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26][2].

سرُّ التّعبيرِ بالآيات وجمعِها:

الإشارةُ إلى عمومِ الآيات وتَنوُّعِها وتعدُّدِها

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالآيات مجموعةً في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ لدلالتها على العموم، فهي تشمل كلَّ الآيات التي ذكر اللّه في كتابه، مرئيَّةً كونيَّةً، أو مسموعةً بيانيَّة[3]؛ فالآيات إمّا كونيّةٌ، كالشَّمس والقمر، وإمّا معجزاتٌ، وإمّا آياتُ الأحكام، ومعنى السّعي في الآيات أنّهم قالوا فيها قوْلًا باطلًا غيرَ الحقِّ، كما يسعى الواشي بالباطل بين النّاس؛ فهؤلاء إنْ نظروا في آيات الكون قالوا: مِن صُنعِ الطَّبيعة، وإنْ شاهدوا معجزَةً على يد نبيٍّ قالوا: سحرٌ وأساطيرُ الأوّلين، وإنْ سمعوا آياتِ الأحكام تُتْلى قالوا: شعرٌ؛ وهم بذلك كلِّه يُريدون أنْ يُفسِدوا على أهل الإيمان إيمانَهم، ويصدّوا عن سبيل اللّه[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 143، 144.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 778.

(3) المكي، المعين على تدبر الكتاب المبين، ص: 428.

(4) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 16/ 9871، وتعليب، فتح الرَّحمان، ص: 2843.

سِرُّ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العظمة:

تشريفُ الآياتِ وتعظيمُ شأنها

في إضافة الآياتِ إلى ضمير العظَمةِ والكبرياء في قول اللّه تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ دليلٌ على عظَمةِ شأنِ هذه الآيات، لأنَّها صادرةٌ عنِ العظيم ﷻ وتقدَّست أسماؤه؛ وفي هذه الإضافة منَ التّعظيم والتَّشريف ما فيها، ممّا يدعو الإنسانَ إلى الايمان بها وتصديقِها[1].

دلالةُ صيغةِ المُعاجَزَة:

الـدَّلالـةُ على التّكلُّف وبذل الجهد في الفعل

أوثرَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بصيغة المفاعلة في قول اللّه تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ لدلالتها على التّكلُّفِ؛ فالمعاجزة مُفاعَلَةٌ ومشاركةٌ، دالَّةٌ على التَّكلُّف وبذلِ الجهد في المُشاقَّة والمُخاصمة[2]، و﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ جمعٌ لاسم الفاعل (مُعاجِز)، من عاجَزَ - غيرَ عَجَزَ عن كذا أي لم يقدر عليه - يقال: عاجَزَ فلانٌ فلانًا، أي باراه ليُرى أيُّهما يَعجزُ قبل الآخر؛ فعاجزه مثل باراه ليثبتَ أنّه الأفضل، ومثل: سابقَه ونافسه.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالمُعاجزة:

بـيـانُ تَـكـرارِ المُـحـاولـةِ والمجادلة منَ الكفّار

تظهر بلاغةُ الاستعارة في التَّعبيرِ بالمُعاجَزة في قول اللّه تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾، فهي تُصوِّرُ مُحاولةَ أهل الكفر، واجتهادَهم في مُجادلة أهل الإيمان؛ لأنّ المُعاجزة مُستعارَةٌ للمُشاقَّة مع المؤمنين ومُعارضتِهم، من قبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيّة، فكُلَّما طَلَبَ المؤمنون إظهار الحَّق طَلَبَ هؤلاء إبطالَه، كما يُقال (جاراه في كذا)؛ والمرمى في هذا المجاز أنَّ هؤلاءِ المُشركين يجتهدون في آيات اللّه تعالى لغاية مُعاجزة المؤمنين، وتحويلِ الأمر إلى جدل عقيم[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 153.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 153، وعبد الملك قاسم، عقد الجمان، ص: 912.

(3) القاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 134، والجبلي، البستان، ص: 148.

بيانُ جَمْعِ أهلِ الكُفْرِ بَيْنَ ضَلالِهم في أنفسهم وإضلالِهم لغيرهم

أثرُ تعدُّدِ قراءاتِ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾:

قرأ الجمهورُ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو البصريُّ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ بفتح العين وحذفِ الألف وتضعيف الجيم[1]، وعلى قراءة الجمهور يكون معنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مُسابقين مشاقّين للسّاعين فيها بالقَبولِ والتَّحقيق، مِن عاجَزَه فأَعْجَزه إذا سابقه فسَبَقه؛ لأنَّ كلًّا مِنَ المتسابقَيْن يطلب إعجازَ الآخر عنِ اللُّحوق به[2]، فالمعنى مُعاندين؛ وقيل معناه: ظانّين أنَّهم يغلبون الرَّسول وأتباعه؛ وقيل معناه: يحسبون أنَّهم يفوتوننا لإنكارِهم البعثَ والثَّوابَ والعقابَ، فلا نقدر على إعادتهم ومُعاقبتهم[3]؛ و﴿مُعَجِّزِينَ﴾ بتشديد الجيم حالٌ مُقدَّرة، معناه: مُبطِّئين مثبِّطين؛ أي: يثبِّطون النّاس عنِ اتِّباع الحقِّ؛ وقيل معناه: يَنسبون المؤمنين إلى العجز[4].

فهما قراءتان متواتِرَتان مُتقاربتا المعنى؛ فمَن عجَّز عن آيات اللّه فقد عاجز اللّه، ومِن مُعاجزة اللّه: التَّعجيزُ عن آيات اللّه، والعملُ بمعاصيه، ومخالفةُ أمره، وكان من صفة كفّار قريش الذين أنزل اللّه هذه الآيات فيهم أنَّهم كانوا يُبطِّئون النّاس عنِ الإيمان باللّه، واتّباعِ رسوله، ويُغالبون رسولَ اللّه ﷺ، ويحسبون أنَّهم يُعجزونه، ويغلبونه؛ وقد ضَمِنَ اللّه له نَصرَه عليهم، فكان ذلك مُعاجزتَهم اللّه[5]؛ فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المرادِ.

دلالةُ اسمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشارةُ الى بُعْدِ السّاعين في مُحاربة الله، وبُعدِهم من رحمة الله

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قول اللّه تعالى

(1) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 327.

(2) مكي بن أبي طالب، الهداية: 9/ 5886، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 558، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 449.

(3) ابن خالويه، الحُجَّة في القراءات السبع، ص: 254، والأزهري، معاني القراءات: 2/ 185، والفارسي، الحُجَّة: 5/ 284.

(4) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 481.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 602، والعثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 53.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ ليدلّ على معنى البُعدِ، للإيذان ببُعدِ منزلتهم في الشّرِّ وسوء الحال[1]؛ وللتَّنبيه على أنَّ المشار إليه جديرٌ بما سيرد بعد اسم الإشارة منَ الحُكم، لأجل ما قبْلَه منَ الأوصاف[2]؛ وللإشارة إلى أنّ الموصوفين بالكُفر باللّه والتّكذيبِ بآياته والسّعْي في محاربة اللّه وأوليائه: همُ الحقيقون بالبُعد من رحمة اللّه، وهمُ الأحرى بالجزاء المذكور بعد اسمِ الإشارة.

دلالةُ التَّعبير بالعذاب مُنَكَّرَ:

تعظيمُ العذاب وتهويلُ شأنه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالعذابِ مُنَكَّرًا في قول اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ للدّلالةِ على سوء عملِهم في صدّ النّاسِ عنِ الآيات؛ والمعنى: (أولئكَ السّاعون لَهُمْ بسبب ما ذُكِرَ من أوصافهم عَذابٌ عظيم[3]، لا يقادَر قدرُه)؛ دلّ على ذلك تنكيرُ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾، فهو يُفيد تعظيمَ العذاب وتهويلَ شأنه.

دلالةُ ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ بيانيَّةٌ، لبيان جنسِ العذاب ونوعِه؛ أي: (عذابٌ مِن سَيِّئِ العذاب وأشدِّه)[4].

دلالةُ التّعبير بـ﴿رِّجۡزٍ﴾ مُنَكَّرًا:

تعظيمُ نوعِ العذاب وجنسِه

الرِّجز هو السَّيِّئُ من كُلِّ شيءٍ، فقول اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ معناه: سيِّئُ العذاب، بل إنّه أسوأُ العذاب، وجاءت لفظةُ ﴿رِّجۡزٍ﴾ نكرةً، لتُفيد بيانَ نوعِ ذلكَ العذابِ وشدَّته، بدليل ﴿مِّن﴾ التي لبيان الجِنْسِ، فإنَّ العذابَ أجناسٌ وأنواعٌ[5]؛ فهو أشدُّ من كلِّ عذاب وأسوأه، لا تقواه قواهم[6].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 122، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 142.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 142.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 188.
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 359، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 282.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 449.
(6) آلغازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 496.

نُكتةُ وصف الرِّجز بـ﴿أَلِيمٌ﴾:

الــزّيــادةُ في التّهديد، وبثُّ الــرُّعــبِ في نفوس السّاعين في آيــات الله معاجِزين

قولُ اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾: أي مُؤلِمٌ موجِعٌ[1]، ووُصِفَ الرِّجزُ بأنَّه ﴿أَلِيمٌ﴾: زيادةً في التَّهديد وبثِّ الرُّعب في نفوسهم، فهي صفةٌ كاشفةٌ أو مؤكِّدةٌ[2]، وهذا الوصفُ مفتاحٌ للتّرهيب منَ العذاب الذي أعدَّه اللّه الحَكَمُ العَدْلُ للكافرين الّذين يتوهّمون أنّهم قادرون على الإفلات من عذابِ اللّه، وللكافرين المضلّين الذين يصدّون النّاس عنِ الإيمان باللّه وباليوم الآخر وعن سلوك صراط اللّه المُستقيم.

دلالةُ تعدُّد قراءاتِ ﴿أَلِيمٌ﴾:

لــهــم عــذابٌ مــؤلِــم، مِــن جنس العذاب الموجِع، فهل مِن مرتدِع؟!

قرأ الجمهورُ بتنوين الميم بالكسر في ﴿أَلِيمٍ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ نعتًا للرِّجز، كأنّه قيل: (عذابٌ من عذابٍ أليم)؛ فإنّ الرِّجز هو العذابُ، قال اللّه تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: 59]، وقرأ ابْنُ كَثيرٍ وحَفْصٌ ويَعْقوبُ ﴿مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ بالرّفعِ صفةً للعذاب مخصِّصةً[3]، والرّفعُ أقربُ نظرًا إلى المعنى، والجرّ أقربُ نظرًا إلى اللّفظ[4].

بلاغةُ المُقابلة بين الآيتين:

إبــرازُ المـعـانـي بالمقارنة أدعى للعِبرة والعِظَة

جاء قولُ اللّه تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ مقابلًا لقوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾، وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ في مُقابلة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾؛ وتتعاضَدُ الآيتانِ بهذه المقابلة، ليتكاملَ الذِّكرُ الحكيم، ويتناهى الوعدُ والوعيد، ويزدادَ كلٌّ منَ التّرغيبِ والتّرهيب قوّةً إلى قوّته، عند مُقارنَته مع مُقابِله.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 212.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 449.

(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 349، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 261، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 449.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 194.

سرُّ خُلوِّ نَظمِ الآية الكريمة من تعدُّد المُؤكِّدات:

جاء قولُ اللّه تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ خاليًا منَ المؤكِّدات - سوى الاسميّة - على الرّغمِ مِن أنّ إنكار الشّيءِ يستلزم منه إنكارُ تَبيعِه، فالمشركون أنكروا قيامَ السّاعةِ، وذلك يستلزم إنكارَ ما يتبعُ السّاعةَ منَ الجزاء والحساب؛ فقد نُزِّل المنكِرُ منزلةَ خالي الذِّهن منَ الحكم، للإشارة إلى أنَّ أحداث ذلك اليوم، إذا عاينوها بحواسّهم فلا مجالَ للإنكار والجحود يومَئذ[1].

يؤمنُ المنكِرُ إذا رأى العذاب، ويرجو بإيمانه الخلاصَ، ولاتَ حينَ مناص!

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الرِّجْزُ والرِّجْسُ:

الرِّجْزُ والرِّجْسُ متَقاربانِ لفظًا ومَعْنًى: فإنَّ الرِّجْزَ يدلُّ على اضطِرابٍ، والرِّجْسَ يدلُّ على اختلاطٍ؛ إلّا أنَّ الرِّجْزَ في القرآن الكريم اختصَّ بالعذاب، بخلافِ الرِّجْسِ، فإنَّه يغلِبُ في التَّعبير عنِ القذَرِ، حسّيًّا كان أو معنويًّا، لِما في القذَرِ مِنَ اللَّطْخِ والخَلْطِ، والرِّجْسُ وإن استُعمِلَ في القرآن الكريم مرادًا به العذابُ - كما في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ [الأعراف: 71] - إلّا أنَّهُ قَدْ جُعِلَ ما أفضَى إلى العذابِ رجسًا استقذارًا لَهُ، فَلَمْ يخْرُجْ عَنْ أصلِ دِلالَتِه، أمّا الرِّجْزُ فلا يَخْرُجُ عَن معْنَى العذابِ، وذلك لِما يُتَصوَّرُ فيه مِن اضطرابٍ وحركَةٍ وجلَبَةٍ؛ إذِ العذابُ النّازِلُ لا بُدَّ فيه لِلْمنزولِ بِهِم مِن أن يَضْطَرِبوا لأَجْلِه.

الرِّجزُ مختصٌّ بالعذاب، والرِّجسُ يغلِبُ في التَّعبير عنِ القَذَرِ، حسّيًّا كان أو معنويًّا

وثَمَّ مَلْمَحٌ دِلاليٌّ بين الرِّجْزِ والرِّجْسِ، يومئُ إليهِ الحرفانِ اللَّذانِ وقعَ فيهما الاختلافُ بين الكَلِمَتَيْنِ - وهما الزّايُ والسّينُ: فإنَّ الرِّجْزَ

(1) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 45.

اختصَّ بالعذابِ لِما في الزّاي مِنَ الجهْرِ، والجَهْرُ مِنْ صفاتِ القوَّةِ في الحروفِ، فهو بهذا الاِعْتِبارِ أقوَى مِنَ السّين التي من صفاتِها الهمسُ، والهَمسُ مِن صفاتِ الضَّعْفِ؛ فاختصَّ الرِّجْسُ بِما لَيْسَ في مَعناهُ مِنَ الشِّدَّة التي في الرِّجْزِ[1].

(1) الدوري، دقائق الفروق اللُّغوية، ص: 336 - 358.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يسعى المكذّبون في إبطال آياتِ الله، بينما أهلُ العلم بالوحي مُعترِفون بأنّه الحقُّ مِنَ الله

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ إنكارَ من أنكر البعثَ، وعرضت مقولةَ الكافرين المُترجِمةَ لِمَوقِفهم العقَديِّ تُجاهَ قيامِ السّاعة، وأنّهم يَرَون أنّ ما أُنزل على الرّسولِ ﷺ ليس حقًّا: ذكرتْ هذه الآيةُ الفريقَ الآخر، الذي آمن بالكتاب، وآمن أنَّ كُلَّ ما فيه إنَّما هو حقٌّ، وأنَّه يهدي إلى صراط مستقيم؛ فذكَرَ حالةَ الموفَّقينَ مِنَ العبادِ - وهم أهلُ العِلم - وأنَّهم يَرَونَ ما أَنزلَ اللّهُ على رَسولِه مِنَ الكِتابِ، وما اشتَمَلَ عليه مِنَ الأخبارِ: هو الحَقَّ[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَيَرَى﴾: (رأى) أصلٌ يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ[2]؛ فالرُّؤيَةُ: إدراك المَرْئيِّ، وذلك أضرُبٌ بحسب قِوَى النَّفس: فإمّا بالحاسَّة وما يجري مجراها، وإمّا بالوَهْم والتَّخيُّل، وإمّا بالتَّفكُّر، وإمّا بالعَقل؛ والرُّؤيا: ما يُرى في المنام[3]؛ والرُّؤيةُ بالعَيْن تتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العِلْم تتعدَّى إلى مفعولَين، والرُّؤيةُ في الآية عِلْميَّةٌ، واختيرَ فِعْلُ الرُّؤية هنا للتَّنبيه على أنَّه عِلْمٌ يقينيٌّ، بمنزلةِ العِلْم بالمرئيّاتِ الَّتي عِلْمُها ضروريٌّ[4].

2) ﴿ٱلْحَقَّ﴾: (حقّ) أصلٌ يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[5]؛

(1) السعدي، تفسير الكريم الرحمن، ص: 675، والبقاعي، نظم الدرر: 15/ 448، 449.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رأى).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 145، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/ 496.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).

يُقال: حُقَّ لَهُ أن يَفْعَلَ كذا، يَحِقُّ، حَقًّا، أيْ: ثَبَتَ[1]؛ وضِدُّه: الباطِلُ، ويأْتي الحَقُّ بمعنى المَوجود؛ وضِدُّه: المَعدومُ، ويُطلَق على الواجِبِ واللازِم، فيُقال: يَحِقُّ عليك أن تَفْعَلَ كذا، أيْ: يَجِبُ، ويُستعملُ بمعنى المُؤَكَّدِ المُتيقَّنِ[2]، ومِن مَعانيه أيضًا: الصَّوابُ، والصَّحيحُ، والعَدْلُ، والصِّدْقُ[3]، والحَقُّ في الآيةِ معناه: الثّابتُ والخالصُ الَّذي لا رَيْبَ فيهِ ولا كَذِبَ، والمرادُ به القرآنُ المجيد[4].

3) ﴿وَيَهْدِيٓ﴾: (هدي) أصلٌ يدلّ على الرَّشادِ والبَيانِ والدَّلالةِ بلُطْفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطْلوبِ، يُؤَنَّثُ ويُذَكَّرُ، وهو لازِمٌ ومُتَعَدٍّ، يُقالُ: هَداهُ، هُدًى، وهَدْيًا، وهِدايَةً، وهِدْيَةً، وهَداهُ للدّين وإلى الدّين، أي: أرْشَدَهُ إليه وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ به، وضِدُّه: الضَّلالُ[5]، والهُدَى والهِدايَةُ في موضوع اللّغة واحدٌ، لكن قد خصَّ اللّٰه ﷻ لفظةَ الهدى بما تولّاه وأعطاه، واختصَّ هو به دون ما هو إلى الإنسان، والاهتداءُ يختصُّ بما يتحرّاه الإنسانُ على طريق الاختيار، إمّا في الأمور الدُّنيويَّة، أوِ الأخرويَّة، وهدايةُ اللّٰه للإنسان على أربعة أوجه، إمّا الهدايةُ التي عمّت بجنسها كلَّ مكلَّفٍ منَ العقل والفطنةِ والمعارفِ الضّروريّة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]، وإمّا الهدايةُ التي جُعلت للنّاس بدعوة الأنبياء وإنزال القرآن، وإمّا التّوفيقُ الذي يختصّ به منِ اهتدى، وإمّا الهدايةُ في الآخرة إلى الجنّة[6]، والمقصودُ بالهداية في الآية: الإرشادُ على المقصِدِ النّافعِ والدَّلالةُ عليه[7].

4) ﴿صِرَٰطِ﴾: (صرط) أصلٌ يدلُّ على مرورٍ في المَسلَكِ المُمتَدِّ بيُسرٍ وسهولة[8]؛ ومنه الصّراطُ، وهو الطَّريقُ الواضِحُ المُستَقيمُ، وسُمّيَ صِراطًا لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَهُ بسُرعَةٍ، لِكونِهِ واسِعًا مُستقيمًا، والجَمْعُ: صُرُطٌ؛ أو مِنْ سَرِطتُ الشَّيْءَ: إذا ابْتَلَعْتَهُ، لِأنَّ الطَّريقَ

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حق).

(2) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية: (حق)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 143.

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حق).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 146.

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هدي)، والجرجاني، التعريفات، ص: 277، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 343.

(6) الراغب، المفردات: (هدى).

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 101.

(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سرط).

يَبْتَلِعُ المارَّةَ لِكَثْرَةِ سُلوكِهِم[1]، والمقصودُ بالصِّراط في الآية: الطَّريقُ البَيِّنُ.

5) ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: (عزّ) أصلٌ يدلّ على الشدّة والقوّة والغلبة والقهر[2]؛ فالعِزَّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسان مِن أنْ يُغلَب، من قولهم أرضٌ عِزازٌ أي صلبةٌ؛ والعِزّةُ خِلافُ الذُّلِّ[3]؛ يقال: عَزَّ يَعَزُّ: إذا اشتَدَّ وقَوِيَ، وبالكسر يَعِزُّ: إذا قَوِيَ وامتَنَع، وبالضَّم يعُزّ: إذا غَلَبَ وقَهَر[4]، والعَزيزُ من صِفات اللّهُ تعالى وأسمائِه الحُسنى، قالَ الزَّجّاج: هوَ المُمتَنِعُ فلا يغلبُه شيءٌ، وقالَ غيره: هوَ القويُّ الغالِبُ كلِّ شَيْءٍ؛ وقيل: هو الَّذي لَيْسَ كمِثله شيءٌ[5]، والمُرادُ به في الآيةِ: القويُّ الغالبُ على كلِّ شيءٍ.

6) ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: (حمد) أصلٌ يدلّ على المدحِ والثَّناءِ، خلافَ الذَّمِّ؛ تَقولُ: حَمِدْتُ الرَّجُلَ على شجاعته، أحمدُه حمدًا ومَحمَدَةً، أيْ: مدحتُه وأثنيتُ عليه[6]، والحميدُ من أمثلة المُبالَغة، أي شديدُ الحمد، لأنَّه يُثني على فاعلي الخَيراتِ[7]؛ وهو من صفاتِ اللّه بمعنى المحمودِ[8]، والحميدُ في الآية معناه: المحمودُ المُثنَى عليه، بحمده لنفسه أزلًا، وبحمد عباده له أبدًا[9].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهلُ العلمِ همُ الذين صدّقوا بالقرآن وانتفعوا بما فيه

يُبيِّنُ اللّه ﷻ موقفَ أهلِ العلمِ النّافعِ ممّا جاء به الرَّسولُ ﷺ،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط - صرط).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عز).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دون).
(4) النحاس، معاني القرآن: 1/ 379.
(5) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (عز).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (حمد).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 58.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد).
(9) المراغي، تفسير المراغي: 13/ 123.

فيقولُ: ويرى أهلُ العِلمِ أنَّ ما أنزَلَ اللّهُ إليك يا مُحمَّدُ ﷺ مِنَ القُرآنِ: هو الحَقُّ وحْدَه دونَ ما سِواه، ويَرَونَه يَهدي مَن اتَّبَعه إلى طريقِ اللّهِ سبحانه المَنيعِ الجَنابِ، المنتَقِم مِن أعدائِه، والقاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ فلا يُغالَبُ؛ الحامِدِ لعبادِه، والمحمودِ من خَلقِه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ وصلِ الآية بما قبْلها:

الاستشهادُ بأولي العلمِ على جهلِ السّاعين في الآيات

وُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ بما قبله، والواو استئنافيّةٌ، فالجملة كلامٌ مستأنَفٌ استئنافًا نحويًّا، مسوقٌ للاستشهاد بأولي العلم على الجهَلَة السّاعين في الآيات[2]؛ والغرضُ من هذا الاستئناف هو التَّمهيد لإبطال سعْي الذين كفروا بشهادة أهلِ العلم.

ويجوزُ أن تكون الواوُ عاطفةً، ويكونَ الكلامُ عطفًا على ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، الذي قوبل بجزاءِ الذين كفروا ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾؛ فكان جديرًا بأن يُمهِّد لإبطال سعْيِهم بشهادة أهلِ العلم بأنّ ما جاء به الرَّسولُ هو الحقُّ دون غيرِه من باطلِ أهلِ الشِّركِ الجاهلين، فعَطفُ هذه الجملة من عطفِ الأغراض، وهذه طريقةٌ في إبطال شُبَهِ أهل الضَّلالة والملاحدةِ، بأنْ يُقدِّم قبل ذِكْرِ الشُّبهة ما يقابلُها من إبطالها[3].

ويجوز أن تكون جُملة ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ عطفًا على جُملة ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾؛ فبعد أن أوردت جملةُ جزاءِ المكذِّبين لمقابلة جملةِ جزاءِ المؤمنين، رُدَّ مضمونُها بجملةِ ﴿وَيَرَى

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 214، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 262، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 28.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 520، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 122.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 213، والعكبري، التِّبيان في إعراب القرآن، ص: 314، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 144، 145.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾، للإشارة إلى أنَّ الذين سَعَوا في الآيات أهلُ جهالة؛ فالعطف لتعقيب الشُّبهة بما يُبطلها(1).

دلالةُ التَّعبير بالرؤية:

التَّـنبيـهُ على أنّـه علم يقينيٌّ بمنزلة العلم بالمرئيّات

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرّؤيةِ دونَ العلم في قول الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ للتّنبيه على أنَّه علمٌ يَقينيٌّ، بمنزلة العلم بالمرئيّات التي عِلْمُها ضروريٌّ؛ فالرُّؤيةُ عِلميَّةٌ، وفي التّعبيرِ إشعارٌ بأنّهم قد آمنوا هذا الإيمانَ الجازمَ عن إدراكٍ ومشاهدةٍ ويقينٍ، وأنّهم قد صاروا لا يشكّون في كون هذا المنزّلِ عليه من ربّه هو الحقَّ الهاديَ إلى الصّراطِ المستقيم(2).

دلالةُ المُضارعة في فِعلِ الرؤية:

الـدَّلالـةُ على استمراريَّة تلك الرُّؤية المتجذّرة في نفوسهم

جاء التّعبيرُ بالفعلِ (يرى) مضارعًا في قول الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ للدّلالةِ على استمراريَّة تلك الرُّؤيةِ المتجذِّرةِ في نفوسهم حولَ حقيقة الوحيِ والكتابِ، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم في عملهم غيرُ شاكّين، بل هم كالشّاهدين لكلِّ ما أخبرهم به الرّسولُ ﷺ؛ بل عِلمُهم متجدِّدٌ، فيترقَّون في رُتَبِه على الدَّوام، بخلاف جلافةِ أولئك في ثباتهم على الباطل الذي أشار إليه الماضي ﴿سَعَوۡ﴾(3).

عِلَّةُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

بـيـانُ رِفـعـةِ مكانتهم وشرفِ فضيلتهم

التَّعبيرُ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾: فيه بيانٌ لرفعة مكانتِهم، وشَرَفِ فضيلتِهم؛ مع الإشارةِ إلى عمومِ من أوتي العلمَ من قَبْلِ النَّبيِّ ﷺ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 144، 145، واطفيش، تيسير التَّفسير: 11/ 367.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 5/ 430، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 145، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 268.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 449.

سرُّ التَّعبير بالإيتاء:

الإيتاءُ أقوى منَ الإعطاء، والمؤْتَى أعظمُ من المعْطَى

آثرَ البيانُ الحكيمُ التَّعبيرَ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ في قول اللّه تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾: لأنَّ الإيتاء أقوى منَ الإعطاء، بدليل أنّه لا مُطاوِع له: يُقال أتاني فأخذته، وأعطاني فعَطَوت، وما له مُطاوعٌ أضعفُ في إثبات مفعولِه ممّا لا مطاوعَ له؛ ولأنّ الإيتاء في أكثرِ مَواضعِ القرآن فيما له ثباتٌ وقرارٌ منَ الأمورِ العظيمة: كالحكمةِ والسَّبعِ المثاني والمُلكِ الذي لا يؤتى إلّا لذي قوَّة، والإعطاءِ فيما ينتقل منه بعد قضاء الحاجة منه: كإعطاء كلِّ شيءٍ خلْقَه لتكرُّرِ حدوث ذلك باعتبار الموجودات؛ فلمّا كان العلمُ الذي به صلاحُ الدُّنيا والدّين منَ الأمور العظيمة: كان التّعبيرُ عنه بالإيتاء.

نُكتةُ جمعِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإشـارةُ إلى جماعة المؤمنين من علماء أهل الكتاب، أو إلى عموم علماء الصّحابة

في إيرادِ الاسم الموصولِ جمعًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾: إشارةٌ إلى أنَّهم جماعةٌ وفريقٌ آتاهم اللّه العلمَ قبل نزولِ هذا القرآن، وميَّزوا بَيْنَ الحَقِّ والباطل، فلَمّا سمعوا كتابَ اللّه اتَّفَقوا على الخضوعِ له، والشُّكرِ للّه على إنجاز وعدِه بإرسالِ النَّبيِّ ﷺ، وإنزالِه القرآنَ العظيمَ، فيمكنُ أن يُطلَق ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ على مؤمني علماءِ أهلِ الكتاب، كعبد اللّه بن سلام وغيرِه، الذين كانوا على علمٍ بالكتب السّماويّةِ السّابقةِ للقرآن، ثمّ آمنوا بالذي أُنزل على خاتمِ الأنبياء، ممّا يصدِّقُ سابقَ وحيِ اللّه تعالى؛ ويحتملُ أن يعُمَّ علماءَ الصّحابةِ الذين آمنوا باللّه، وصدّقوا برسوله، وتلقَّوا علومَ الإسلام[1]، فيُحمَل الموصولُ على العموم.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 490.

دلالةُ صيغةِ الفعل ﴿أُوتُواْ﴾:

العلمُ بمن آتاهم هذا العلم وهو الله تعالى

بَنى البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿أُوتُواْ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه في قول اللّه تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ للعلمِ بمَن آتاهم هذا العلمَ، وهو اللّه تعالى؛ فالذين أوتوا العلمَ همُ الذين يَرَون أنّ ما أُنزل إلى النّبيِّ ﷺ هو الحقّ، وذلك بما آتاهم اللّه ﷻ منَ العلم الرّاسخ في قلوبهم؛ فإيتاءُ العلم مِنَّةٌ منَ اللّه على خُلَّص عِباده وصَفوَةِ خلْقِه[1]، وفي بناء الفعل لِما لم يُسَمّ فاعلُه تعظيمٌ لثمرة العلم، بالتّركيزِ على حَدَثِ إتيانِ العلم لا عَينِ المؤتي.

وفي بِناء الفعلِ للمَفعولِ إشارةٌ إلى أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يُعجَبَ بعِلمِه، لأنَّهم ما أدركوه بأنفُسِهم، ولكنَّ اللّهَ تعالى مَنَّ عليهم به؛ فلا يَنبغي للإنسانِ أنْ ينسبَ ذلك لنفسه، لأنّ عاقبة ذلك الهلاكُ، وقد حذّر القرآنُ من ذلك بما أخبر عن قارونَ، وأنّه لمّا نسبَ المالَ إلى علم نفسِه خُسف به.

دلالةُ تعريف المُسنَدِ إليه بالاسم الموصول:

الإيماءُ إلى وجهِ استحقاقهم للثَّناء منَ الله سُبحانه

عُرّف المُسندُ إليه بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ بدلًا منَ المحلّى بأل (العلماء) في قول اللّه تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾: للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقهم للثّناء منَ اللّه سُبحانه - وهو العلمُ الذي أوتوه - وأنّه كان سببَ إيمانهم وخضوعِهم، وهذا ثناءٌ على أصحاب الرُّسل بأنّهم أوتوا العلمَ، فإنّ نور النُّبوَّة يُشرق في قلوب الذين يصحبون الرُّسُل[2].

سرُّ تخصيصِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ بالذِّكر:

العلمُ الحقيقيُّ هو الدّالُّ على الإيمانِ

خَصَّ البيانُ القرآنيُّ العلماءَ بالذّكر في قول اللّه تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ مدحًا لهم

(1) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 58.

(2) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 5887.

وللعلمِ الذي كان سببًا في إيمانهم بالنَّبيِّ ﷺ، وبالقرآن الذي أُنزل عليه، وفيه دليلٌ على أنَّ العِلمَ يدُلُّ على الإيمانِ، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ﴾ [النِّساء: 162]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الرّوم: 56][1].

ففي ذكر الذين أوتوا العلم مَنقَبةٌ لهم، وفَضيلةٌ وعَلامةٌ يتميّزون بها، وفيه تعريضٌ بأنَّ الذين أعرضوا عنِ الإيمانِ بالقرآنِ جهلةٌ وأهلُ جاهليَّة؛ فمن كان يعلمُ ولم يحمِلْه عِلْمُهُ على الإيمان بهذا الكتاب، الذي لا شيءَ أَبْيَنُ من حقيقته بمُصادقتِه لكتبِ الرّسل السّابقين: فعلمه كَلا علمٍ، بل هو أجهلُ الجاهلين.

الاهتمامُ بالمُنَزَّل والمُنَزَّل عليه

سرُّ التَّعبير بالاسم الموصول:

عبَّرتِ الآيةُ الكريمةُ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ عنِ القرآن بالموصوليَّة ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: للدَّلالة على حقيقة ذلك الكتاب، وأنَّه مُنزلٌ على محمّد ﷺ حَقًّا، وأنَّه يهدي إلى صراط مستقيم[2]؛ فالتَّعبيرُ بالموصول للعناية بهذا المُنزَل وبالمنزَل إليه[3].

دلالةُ صيغةِ الفعل ﴿أُنزِلَ﴾:

بُنِيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه في قول اللّه تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾: للعلم بالمُنزِل، وهو اللّه؛ ولـلاهتمام بالمُنزَل، وهو القرآن.

حصرُ نزولِ القرآن على النَّبي ﷺ

نُكتةُ ترتيبِ متعلّقات ﴿أُنزِلَ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيْكَ﴾ على الآخر ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ - على

(1) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 13/ 271.
(2) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 4/ 364.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 65.

عكس ما يقتضيه التّرتيبُ العقليُّ للإنزال - في قول الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾: لحصر نزولِ القرآن على النَّبيِّ ﷺ؛ مع ما فيه منَ الإشعار بأحقّيَّته ﷺ بالنُّبوَّة، وتعظيم شأنه، ورفعة قدره.

دلالةُ تعديةِ فعلَ الإنزال بـ(إلى):

المُنـزَل عليه واصِلٌ إليه

عُدّيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ بـ(إلى) في قول الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ للدّلالةِ على أنّ فعلَ الإنزال ضُمِّن معنى الوصول؛ فالمُنزَل إليه غايةٌ للنّزولِ[1].

سرُّ التَّعبير بالرُّبوبية:

الدّلالةُ على العناية الرّبّانيّة والرِّعاية الرّحمانيّة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرّبوبيّةِ دونَ الألوهيّة في قول الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ لأنّ المقام هنا مقامُ إنعامٍ وتفضُّلٍ على الرّسولِ ﷺ، بتأييده بالوحي في مواجَهة المشركين؛ وذلك لتثبيته أمامَ إعراضِهم واعتراضِهم.

دلالةُ إضافةِ الرّبوبية إلى ضمير الخطاب:

ربوبيّةُ الرّسالةِ خاصّةٌ في هذه الأمّة بمحمّدٍ ﷺ

أُضيفَ اسمُ الرُّبوبيّةِ إلى ضمير الخطاب المفرد، العائدِ إلى النَّبيِّ ﷺ في قول الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾: لأنّ الوحي ربوبيّةٌ خاصّة، إذ لا أحدَ يُشارك النّبيَّ ﷺ من هذه الأمّة في ذلك؛ فأضاف الرّبوبيّةَ إلى الرّسولِ وحدَه للعناية به وبما أُنزِل عليه[2].

دلالةُ التّعبير بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

قَصْرُ الحقِّ المَحضِ على القرآن، لأنَّ غيرَه مِنَ الكُتبِ خُلِطَ حقُّها بباطلٍ

جاء البيانُ الحكيمُ بضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ تفخيمًا للأمر، وتنصيصًا على أنّ ما بعده مفعولُ ﴿أُوتُواْ﴾ الثّاني؛ فقال ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾: أي لا غيرَه منَ الكتب، لِما وقعَ فيها منَ التّحريفِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 299.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 60.

ويفيدُ ضميرُ الفصل التّخصيصَ، بقصر المسنَد على المسنَد إليه؛ وهذا القصرُ من قبيل قصْرِ الصّفةِ على الموصوف، أفاد حَصْرَ الحقِّ في القُرآنِ حَصرًا إضافيًّا، أي: لا ما يَقولُه المشركونَ ممّا يُعارِضون به القُرآنَ، ويَجوزُ أيضًا أنْ يُفيدَ قَصْرًا حَقيقيًّا، أي: قَصْرَ الحقّيَّةِ المَحضِ عليه، لأنَّ غيرَه مِنَ الكُتبِ خُلِطَ حقُّها بباطلٍ[1]؛ ويؤيِّدُ هذا الوجْهَ ما ذهب إليه كثيرٌ منَ المفسرين بأنّ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ هم مَن أسلم مِن أهل الكتاب، لمّا وازنوا بين الكُتبِ رأَوا أنّ القرآن الكريم هو الحقّ.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

التّدليلُ على معنى الكمال في الحقّيَّة والغاية فيه

عُرِّفت كلمةُ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ بـ(أل) في قول الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ للدّلالةِ على معنى الكمال والغايةِ فيه؛ لأنَّ من معاني التَّعريف باللّام: الدَّلالةَ على الكمال في الوصف[2].

دلالةُ وصفِ القرآن بأنّه ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

القرآنُ تنزيلٌ من الحقِّ المبين

وُصف القرآنُ بالحقّ في هذه الآية ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ تنزيهًا لمُنزِله ﷻ منَ القدح، فهو المحمودُ في جميع أقوالِه وأفعالِه وشرعِه وقدرِه، ولا يليق به صفةُ العجز.

دلالةُ واوِ ﴿وَيَهۡدِيٓ﴾:

من طلب الوُصولَ إلى الحقِّ من طريق غيرِ القرآنِ ضَلَّ وتاه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالواو في قول الله تعالى ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ لدلالتِها على الاستئناف، كما أنّ جملةَ ﴿وَيَرَى﴾ مستأنفةٌ؛ ويكونُ الغرضُ منها: مدحَ ما أُنزل بكونه هاديًا إلى الصّراطِ القويم، إثرَ مدحه بأنّه الحقّ[3]، ويجوزُ أن تكون الواوُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 145.
(2) السامرائي، معاني النحو: 01/ 109.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 451.

عاطفةً على ﴿ٱلۡحَقَّ﴾، لكونه في تأويل الاسم، كأنّه قيل: (ويرى الذين أوتوا العلْمَ أنّه الحقُّ وأنّه هادٍ)؛ ويكونُ الغرضُ من ذلك: التّدليلَ على أنَّ مَنِ ابتغَى الهدَى مِن غيرِ القرآنِ ضَلَّ.

دلالةُ التَّعبير بالهداية:

تمكّنُه في الدّلالة على الحقِّ والإرشاد

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرِ بفعْلِ الهدايةِ في قول اللّه تعالى ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ لأنّه أدلُّ من غيره في الدّلالةِ على الحقِّ والإرشاد إليه، ولأنَّ حاجةَ الإنسانِ للقرآن مُلحَّةٌ ليهتديَ إلى الطّريقِ الواضح، بدلًا من طريق التّخبُّطِ والظّلام؛ وهُنا تجتمعُ صفتانِ للقرآن الكريم: صفتا الثّباتِ والقوَّة.

لطيفةُ العدولِ عنِ الاسميّة:

الإشعارُ بتَجدُّدِ الهدايةِ وتَكرُّرِها، على اختلاف الأزمنة والظروف

على القول بعطف جملةِ ﴿وَيَهۡدِيٓ﴾ على مفعول ﴿وَيَرَى﴾ الثّاني ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، عدلَ القرآنُ الكريمُ عنِ التّعبيرِ بالاسميّة الوصفيّة (ويرونه الهاديَ إلى صراطِ العزيزِ الحميد) إلى الفعليّة بصيغَةِ المُضارِع: لإشعارِها بتَجدُّدِ الهدايةِ وتَكرُّرِها[1]، وفي تجدُّدِ الهداية بناءٌ للنّفسِ المؤمنة، التي تطلُبُ الأمانَ والاطمئنانَ دائمًا؛ وفيه إثباتُ كونِ القرآن صالحًا لِكُلِّ زمان ومكان.

دلالةُ تعديةِ فعل الهداية بـ﴿إِلَىٰ﴾:

غايةُ الطّريقِ القويمِ واضحةٌ في نفوس الراغبين

عُدّيَ فعلُ الهدايةِ بحرفِ الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ للدّلالةِ على وضوح الطّريقِ الذي يبعثه الحقُّ في نفوس الرّاغبين فيه، وهو الإسلامُ؛ يجدون فيه غايتَهم منَ الوضوح والاستقامة.

دلالةُ اختيارِ لفظ الصِّراط:

الصِّراطُ أَوْسَعُ وأَوْضَحُ

اخْتيرَتْ كلمةُ الصِّراط دونَ السّبيلِ أوِ الطّريقِ في قول اللّه تعالى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 22/ 146.

﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ لأنَّ ﴿صِرَٰطِ﴾ على زِنَةِ (فِعالٍ)، وهذا الوزنُ يُستعمل كثيرًا في المُشتمِلاتِ على الأشياء، وذلك مثل: الخِمار، والرِّداءِ، والرِّباطِ، واللِّحافِ؛ ومنه الصِّراطُ لكونه مشتمِلًا على سالِكيه كاشتمالِ الحَلْقِ على المَسْروطِ[1]، فهو صِراطٌ واسعٌ، لا يضيقُ بالسّالكينَ؛ بخلاف الطّريقِ والسّبيلِ، فلا يدلّان على هذا المعنَى، فقد يكونان ضيِّقَيْنِ غيرَ مُستوْعِبَيْنِ[2].

دلالةُ إفراد الصِّراط:

الدّلالةُ على أنَّ طريقَ الحقِّ واحدٌ لا يتعدَّد

جاء إفرادُ الصِّراطِ في قول اللّه تعالى ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ للدِّلالةِ على أنَّ الذي يوصِلُ إلى اللهِ وجنَّتِهِ صِراطٌ واحدٌ[3]؛ وهو لزومُ القرآن واتِّباعُ نَبيِّ الإسلام ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153].

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بالصِّراط:

الدّلالةُ على وُضوحِ الطَّريقِ وتَجَلّيهِ وعدمِ اشتباهِهِ

الصِّراطُ يُطلقُ في الأصل على الطَّريقِ الحِسّيِّ المخصوص، فاستعمالُهُ لطريقِ الإسلام في قول اللّه تعالى ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ من باب الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّة، حيث شُبِّهَ دينُ الإسلام بالطَّريق المخصوص الحسّيِّ، والجامعُ بينهما أنَّ كُلًّا مِنْهُما موَصِّلٌ للمقصودِ؛ فصُرِّحَ باسم المُشَبَّه به وطويَ ذكرُ المشبَّه، على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة، وفائدةُ الاستعارة ههنا: التَّنْبيهُ على وضوح الطَّريقِ وعدمِ اشتباهِهِ، إذِ الحِسّيّاتُ أظْهَرُ في التَّصوُّرِ مِنَ العقليّاتِ.

بلاغةُ التَّذييلِ بـ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾:

خُتمتِ الآيةُ ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بصفتين من

(1) السُّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 236.
(2) السّامرّائي، لمسات بيانيّة، ص: 58.
(3) السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 58.

صفات اللّه جاءتا على وزن (فَعيل) لإفادة المبالغة، واختير ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ دون غيرهما من بقيّة الأسماء تعظيمًا للصّراطِ، فإنزالُ القرآن نعمةٌ جسيمة لا نعمةَ فوقَها، ولأنّ جزاءَ المحسن والمسيء إنّما هو بالقدرةِ الكاملة، فيستحقُّ الحمدَ على ذلك، ولأنّهما يفيدان الرَّهبةَ والرَّغبةَ: فالعزيز يُفيدُ التّخويفَ والانتقام منَ المكذّب، والحميد يُفيدُ التَّرغيبَ في الرَّحمة للمُصدِّق[1].

إفادةُ المُبالغةِ في الوصف، تخويفًا لـلـمُـكـذِّبـين، وتـرغـيـبًـا للمُصدِّقين

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾:

قُدِّم العَزيزُ على الحَميدِ في قول اللّه تعالى ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ لأنَّ كونَه عزيزًا تامَّ الهَيبةِ شَديدَ الانتِقام يُقوّي جانِبَ الرَّغبةِ؛ لأنَّ رضا الجبّارِ العزيزِ أعَزُّ وأكرَمُ مِن رضا مَن لا يكونُ كذلك، فالعِزَّةُ كما تخوِّفُ تُرجّي أيضًا، وكما تُرغِّبُ عنِ التَّكذيبِ تُرغِّبُ في التَّصديق، ليَحصُلَ القُربُ مِنَ العزيزِ[2].

تـقـديـمُ جـانـبِ الـرّهـبـةِ مع تضمُّنه للرّغبة أدعـى لـلـسّـعيِ إلى رحمة الله

دلالةُ إضافةِ الصّراط إلى ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾:

إيثارُ وصفَي العَزيزِ الحَميد دونَ بقيَّةِ الأسماءِ الحُسنى في قول اللّه تعالى ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنينَ حينَ يُؤمنون بأنَّ القُرآنَ هو الحقُّ والهِدايةُ، يَستشعِرون منَ الإيمانِ أنَّه صِراطٌ يُبلَغُ به إلى العِزَّةِ، كما قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، ويُبلَغُ به إلى الحمدِ، أي: الخِصالِ الموجبة للحمْدِ، وهي الكمالاتُ مِنَ الفضائلِ والفواضلِ[3].

مَن تَمَسَّك بهذا الـصِّـراطِ كانت له العِـزَّةُ، ومن لَـزِمَـه كـان في مقامٍ محمودٍ

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهِدايَةُ والإِرْشادُ:

الإِرْشادُ إلى الشَّيْءِ هوَ الدَّلالَةُ عَلَيْهِ والتَّبْيينُ لَهُ، والهِدايَةُ: هي التَّمَكُّنُ مِنَ الوُصولُ إلَيْه، وقدْ جاءَتِ الهِدايَةُ لِلمُهْتَدي في قَوْلِه

الهُدى اِسْتِقامَةٌ فـي الـعِـلْـمِ، والـرَّشـادُ اسْـتِـقـامَـةٌ في العَمَلِ

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 14.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 194.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 146.

تَعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: 6]، فَذَكَرَ أَنَّهُمْ دَعَوْا بالهِدايَةِ وهُمْ مُهْتَدونَ لا مَحالَةَ، ولمْ يجيءْ مِثْلُ ذَلِك في الإرْشاد.

وَيُقال أَيْضًا هَداهُ إلى المَكْروه، كَما قالَ تَعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصَّافات: 23]، وإلى المَحْبوب، قالَ تَعالى ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧﴾ [الحَجُّ: 67]؛ ولا يُقالُ أَرْشَدَهُ إلّا إلى المَحْبوبُ[1].

والهِدايَةُ ضِدُّ الضَّلالَة، كَما أَنَّ الرُّشْدَ ضِدُّ الغَيِّ، وهوَ الانْهِماكُ في الفِسادِ؛ فالرُّشْدَ يَدُلُّ على الحَدَثِ ويَكونُ في العَمَلِ، والهَدايَةُ الاسْتِقامَةُ في العِلْم[2].

الطَّريقُ والسَبيلُ والصِّراطُ:

الطَّـريـقُ ما يُـسْـلَـكُ، والـسَّـبـيـلُ أَسْـهَـلُـهُ، والصِّراطُ أَقْوَمُهُ

الطَّريقُ هوَ كُلُّ ما يَطْرُقُهُ الطّارِقُ مِنَ النّاس، مُعْتادًا كانَ أَوْ غَيْرَ مُعْتاد[3]؛ قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ۝٧٧﴾ [طه: 77]، أَمّا السَّبيلُ فهوَ الطَّريقُ السَّهْلُ؛ وأَغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعامُ: 55]، وأَمّا الصِّراطُ: فَهوَ السَّبيلُ الذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ولا التِواءَ.

فالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسَّبيلِ: أَنَّ الطَّريقَ لا يَقْتَضي السُّهولَةَ واعْتِيادَ السُّلوك[4]؛ أَمّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ فهوَ السَّهْلُ المُعْتادُ، والفَرْقُ بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ: أَنَّ الصِّراطَ لا اعْوِجاجَ فيه[5]، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعامُ: 161]؛ فالصِّراطُ أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعامُ: 153]، والسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[6]؛ وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْها على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

(1) العَسْكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 209.
(2) المُصطفوي، التَّحْقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريم: 4/ 141.
(3) الكَفَويُّ، الكُلِّياتُ، ص: 513.
(4) العَسْكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 298.
(5) أَبو البَقاءِ الكَفَويُّ، الكُلِّياتُ، ص: 513.
(6) المَناويُّ، التَّوقيفُ، ص: 215.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧﴾ [سبأ: 7]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

تفصيلٌ بعدَ إجمالٍ، وتعجيبٌ بعدَ تعجيبٍ

لَمّا بيَّن الله أنَّ الكافرينَ أنكَروا السّاعةَ، وردَّ عليهم بقولِه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، وبيَّن ما يكونُ بعدَ إتيانِها مِن جزاءِ المؤمنِ على عمَلِه الصّالحِ، وجزاءِ السّاعي في تكذيبِ الآياتِ بالتَّعذيبِ على السَّيِّئاتِ: بيَّن حالَ المؤمنِ والكافرِ بعدَ قولِه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾؛ فقال: المؤمنُ هو الَّذي يقولُ: ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ﴾ وقال: الكافرُ هو الَّذي يقولُ: هو باطلٌ! ومن غايةِ اعتِقادِهم وعِنادِهم في إبطالِ ذلك، قالوا ذلك على سبيلِ التَّعجُّبِ[1].

فجاءت هذه الآيةُ لتفصيلِ مقولةِ المُكَذِّبين بعد إجمالِه؛ فلَمّا عَجَّب ﷻ فيما سبقَ من قولِ الَّذين كفروا ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ المتضَمِّنِ تَكذيبَهم، وختَمَ بتصديقِ الَّذين أوتوا العِلمَ، مُشيرًا إلى أنَّ سببَ تكذيبِ الكفَرةِ الجهلُ، والجهلُ سببُه الكِبْرُ: عجَّب منهم هُنا تعجيبًا آخَرَ أشَدَّ مِنَ الأوَّلِ لتصريحِهم بالتَّكذيبِ على وجهٍ عجيبٍ[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿نَدُلُّكُمۡ﴾: (دلّ) أصلٌ يدلُّ على إبانة الشَّيءِ بأَمارَةٍ تتعلَّمُها؛ يُقالُ: دَلَلْتُ فُلانًا على الطَّريقِ[3]، والدّلالةُ: ما يُتوصَّلُ به إلى معرفة الشَّيءِ[4]، كدلالة الألفاظ على المعاني، ودلالةِ الإشارات والرّموزِ والكناية والعقود في الحساب، والدَّليلُ: ما يُستَدَلُّ بِهِ، وكذلك:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 151.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 450.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دلَّ).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دلَّ).

الدّالُّ[1]، وغالِبُ اسْتِعْمالِ فِعْلِه أَنْ يَكونَ إرْشادُ مَنْ يَطْلُبُ مَعْرِفَةً؛ فمعنى ﴿نَدُلُّكُمْ﴾ في الآية: نُعَرِّفُكم ونُرشِدُكم[2].

2) ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾: (نبأ) أصلٌ يدلُّ على الإتْيانِ مِنْ مكانٍ إلى مَكانٍ؛ يُقالُ لِلَّذي يَنْبأُ مِنْ أَرضٍ إلى أَرْضٍ نابِئٌ، ومِنْهُ النَّبأُ: الخَبَرُ، لأَنَّهُ يأتي مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ[3]؛ والنَّبْأَةُ: الصَّوْتُ الخَفيُّ[4]؛ والإنباءُ: الإخبارُ بالنَّبأ، وهو الخَبَرُ ذو الفائدةِ العظيمَةِ[5]، يحصل به علمٌ أو غلبةُ ظنّ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأٌ حتّى يتضمّن هذه الأشياءَ الثّلاثة، والنُّبوءَةُ، وتبدلُ الهمزةُ واوًا فيُقال النُّبوَّة: سِفارَةٌ بَيْنَ اللّه وبَيْنَ ذَوي العُقولِ مِنْ عِبادِهِ؛ وتَنَبَّأَ فلان: ادَّعى النُّبوءَةَ[6]، والمقصودُ بالإنباءِ في الآيةِ: الإخبارُ عن أمرٍ عظيم[7].

3) ﴿مُزِّقْتُمْ﴾: (مزق) أصلٌ يدُلُّ على تخرُّقٍ في شَيءٍ[8]؛ من ذلك: المَزْقُ شقُّ الثّياب؛ يُقالُ: صار الثَّوبُ مِزَقًا أَي: قِطَعًا، والقِطعةُ منه مِزْقَةٌ، وكذلك مِزَقُ السَّحابِ قِطَعُه[9]؛ ومزَّقتُ القَومَ: فرَّقتُهُم فتمزَّقوا[10]؛ والتَّمزيقُ: التَّخريقُ والتَّقطيعُ[11]، والمرادُ به في الآية: تفكيكُ الأجزاءِ المُتلاصقةِ بعضِها عن بعضٍ بحيثُ تصيرُ قِطَعًا مُتباعِدةً[12]؛ فمعنى ﴿مُزِّقْتُمْ﴾: بَليتُم، وتفرَّقَتْ أجسادُكم.

4) ﴿خَلْقٍ﴾: (خلق) أصلٌ يدلُّ على ابتداعِ الشَّيء على مثالٍ لم يُسبَق إليه[13]، وعلى التَّقدير، يُقالُ: خَلَقْتُ الأديمَ، إذا قَدَّرْتَهُ قبل القطع؛ والخَلْقُ يَكونُ المصدرَ ويكونُ المخلوقَ[14]، وأُطلقَ الخَلْقُ في القُرآنِ الكريم على إيجادِ الأشياءِ المعدومةِ إيجادًا لا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (دلل).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 148.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، مقاييس اللغة: (نبأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 412.
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبأ).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 149.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مزق).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (مزق).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مزق).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (مزق).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 149.
(13) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).
(14) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خلق).

صنعةَ فيه للبَشَرِ؛ فالمقصودُ بالخَلْقِ في الآية: الإيجادُ وإبرازُ الشَّيءِ إلى الوجودِ.

5) ﴿جَدِيدٍ﴾: (جدّ) أصلٌ يدُلُّ على القَطْعِ للأرض المستوية؛ يُقالُ جَدَدْتُ الشَّيءَ جَدًّا، وهو مجدودٌ وجديدٌ: أيْ مقطوعٌ؛ وقولُهم: ثوبٌ جديدٌ، كأنَّ ناسجَهُ قَطَعَهُ الآنَ، هذا هو الأَصلُ، ثمَّ سُمّيَ كلُّ شيءٍ لم تأتِ عليه الأيّامُ جديدًا[1]؛ والجِدَّةُ: نَقيضُ البِلى، والجَمْعُ أَجِدَّةٌ وجُدُدٌ وجُدَدٌ[2]، والخَلْقُ الجَديدُ: الحديثُ العهدِ بالوُجودِ، أيْ في خَلْقٍ غيرِ الخَلْقِ الأَوَّلِ الَّذي أبلاهُ الزَّمانُ؛ وعليه فالمقصودُ به في الآية: المُحدَثُ، أيْ غيرِ خلقِنا الَّذي كُنّا فيه[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـسُّـخـريّـةُ والاسـتـهـزاءُ بـالأنبياء شأنُ الكافرين

يقصّ الحقُّ سبحانه ما قاله الكفّارُ فيما بيْنَهم على سبيلِ الاستهزاءِ بالنَّبيِّ ﷺ في إخبارِه بالبعثِ، واستبعادَهم ذلك، فيقولُ: وقال كُفّارُ قُرَيشٍ: هل ندُلُّكم على رجُلٍ يُنَبِّئُكم بأنَّكم إذا مِتُّم وأكلَتْكُمُ الأرضُ، وصِرتم رُفاتًا وعِظامًا، وتفَرَّقَت في قُبورِكم كُلَّ تقطيعٍ وتَفريقٍ: أنَّكم بعدَ تلك الحالِ ستُبعَثونَ أحياءً من جَديدٍ؟![4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ عطفِ الآيَة:

مُقابلةُ قولِ أهلِ الايـمـان بذكر مـقـولـةٍ أخـرى لأهل الشِّرك

عُطفَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾؛ وغرضُ ذلك العطف: الجمعُ بين المقالة السّابقةِ وبين هذه المقولةِ التي تدلّ على شناعةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جدد).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جدد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 219، و26/ 298.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 214، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 496، والبقاعي، نظم الدرر: 15/ 450، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 61.

أهل الشّرك، فالقولُ في هذه الآية قائمٌ مقامَ الاستدلال على قولهم الأوّل ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ الذي هو بمنزلة الدّعوَى؛ فقولُهم: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ مستنَدُ تلك الدّعوَى، ولذا حُكيَ بمثل الأسلوب الذي حكيت به الدّعوَى في المسنَد والمسنَد إليه.

ويجوز أن تكون الآية معطوفةً على قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾؛ أي أنَّ الذين أوتوا العلمَ رأوا ما أُنزِل إلى النَّبيّ من آيات ربِّه، فعلموا أنَّها الحقّ، وقالوا بلسان الحال آمنا به وبما حدّث به عنِ البعث والحساب والجزاء؛ وكان قولُ الذين كفروا هو الاستهزاءَ والسُّخريّةَ برسول اللّه، والتَّكذيبَ لآيات اللّه، فقالوا ساخرين مستهزءين منكِرين: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾[1].

فمحصولُ الآيتَينِ أنَّه ﷺ لمّا قال: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ اعتقد المؤمنون إتيانَها، وقالوا: القرآن هو الحقُّ الهادي؛ وأمّا الكافرون المُنكِرون إتيانَها فقالوا مُتعجِّبين مستهزئين: (هل ندلُّكم على رجل يخبركم بحشر الأموات بعد ما تفرّقتْ أجسادُهم كلَّ التَّفرق؟).

دلالةُ التَّعبير بفعل القول ماضيًا:

هذا القولُ منهم قائمٌ مقامَ الاستدلال على القول الأوّل في زعمهم الباطل

جاء التّعبيرُ بفعلِ القولِ ماضيًا في الآية الكريمة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ على نسق سابقتِها ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، لأنّ هذا القولَ منهم قائمٌ مقامَ الاستدلال على ذلك؛ فدَعواهُم ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ مستندُها في زعمهم الباطلِ: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾، ولذلك حُكيَ بمثل الأسلوبِ الذي حُكيت به الدَّعوَى في المسنَد والمسنَد إليه[2].

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 11/ 780.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 147.

رضا الجماعةِ بالمقولةِ كإصدار كلِّ فردٍ منهم هذا القولَ

عِلَّةُ التَّعبير بالموصول المجموع ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أوثرَ التّعبيرُ بالفاعل اسمًا موصولًا مجموعًا في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾، وإن لم يقُلْ به كلُّ فردٍ من أفراد الذين كفروا: للإشارة إلى أنّه صدرَ من بعضهم برضا الجميعِ، من باب إسنادِ ما للبعض إلى الكلّ مجازًا لرضاهم[1].

التَّصريحُ على مناط الحُكم

دلالةُ الصِّلة ﴿كَفَرُواْ﴾:

دلَّ التّعبيرُ بالصّلةِ في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ على مناط الحُكم، أي: (قال مُنكرو البعث بعضُهم لبعض مُتعجّبين منَ الرّسول هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلى رَجُلٍ)[2]؛ فكفرُهم هو سببُ إنكارهم للبعث واستهزائِهم بالنَّبيِّ ﷺ.

مِن عاداتِ المستهزئين إخراجُ كلِّ شيءٍ عن مضمونه

دلالةُ جملةِ موقعِ جُملة ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾:

وقعت جُملةُ ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ مقولًا للقول في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾؛ وهذه الجملةُ جملةٌ إنشائيّةٌ طلبيّةٌ، لأنَّ الجملةَ الاستفهاميَّةَ تُعَدُّ من أنواع الإنشاء الطّلبيِّ، فالأصلُ فيها طلبُ الإفهام والإعلام لتحصيل فائدةٍ عمليّةٍ مجهولةٍ لدى المستفهم، ثُمّ قد يَخرُجُ عن هذا الأصل إلى غيره، فيُستَدَلُّ على المعنى المراد بالقرائن القوليَّة أوِ الحاليَّة.

وإذا افترضنا أنَّ المُخاطَبين بهذا القول قد يكونون ممّن لا يعرفُ النَّبيَّ ﷺ ولا يعلمون عن دعوته شيئًا، منَ العرب الذين أَتَوا مكَّةَ حاجّين أو معتمِرين - بقرينة التَّعبيرِ عنه بـ﴿رَجُلٖ﴾ نكرةً -

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 452.

(2) المظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 8.

فإنّ هذا القولَ إنّما صدر من مشركي قُريشٍ، العارفين حالَ النّبيّ وصدقَه وأمانتَه، فلا يمكن أن يكون إلّا في تقرير إنكار البعث فيما بينهم[1]، استهزاءً منهم بما وعدهم اللّه على لسان رسوله منَ البعث، فليس الاستفهامُ هنا مُرادًا على أصله، وإنّما أخرجوه مخرجَ التّلهّي به، والتّضاحُك مِمّا يقوله من ذلك، لمّا كان البعثُ عندهم منَ المحال؛ كما يقول الرَّجلُ لمن يريد أن يُعجبه: هل أدلُّك على قصّة غريبةٍ نادرة؟.

بلاغةُ الإدماجِ في الاستفهام:

بيانُ سوءِ أدبِ المشركين مع الرَّسول ﷺ وشناعةِ مقولتهم

أدمج المُنكرون للبعث في الاستدلال الوارد في قولهم: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ التّعجيبَ منَ الذي يأتي بنقيض دليلهم، ثُمَّ أردفوا ذلك التّعجيبَ بالطّعن في المُتعَجَّب به في قولهم ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [سبأ: 8][2]؛ وهذا يشفُّ عن سوء أدبِهم مع الرَّسول ﷺ وشناعةِ كُفرِهم وتكذيبِهم.

الغرضُ منَ الاستفهام ومورِدُه:

التَّعجيبُ إمعانٌ في التّشكيك وإغراءً للتّكذيب

الاستفهامُ بـ﴿هَلۡ﴾ في قول الذين كفروا ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ للعرْض - كالذي في قول اللّه تعالى ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨﴾ [النّازعات: 18]، وهو عَرْضٌ مكنّى به عنِ التّعجيب، أي: (هل ندلُّكم على أعجوبةٍ من رجل يُنبِّئكم بهذا النّبأ المُحال)؛ والمعنى: (هلّا تسمعون منه ما سمعناه منه فتعرفوا عذرَنا في مناصبته العداءَ؟)، فلعلَّ المُشركين كانوا يستقبلون الواردين على مَكّة بهاتِه المقالة طَمَعًا منهم بأنّها تَصرِفُ النّاسَ عنِ النّظر في الدَّعوة؛ ويرجِّحُ ذلك إتمامُها

(1) آلغازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 497.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 147.

بالاستفهام ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: 8]، أي يقولون: (هل ندلّكم على رجلٍ يزعم أنّه نبيٌّ، لكنّه يدَّعي مُحالًا عجيبًا، بل هو مفترٍ أو مجنون؟!).

فموردُ الاستفهام هو ما تضمّنه قولُهم: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: 7 - 8]، أي: (هل تريدون أن ندلَّكم على مَن هذه صفتُه - أي - وليس من صفته أنّه نبيٌّ، بل هو إمّا كاذبٌ أو غيرُ عاقل؟)[1].

سرُّ التَّعبير بالدَّلالة:

تظاهُرُ المشركين بجهله، استخفافًا به وبأمره

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالدّلالةِ دونَ غيرها في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لأنّ معناها نُعرِّفُكم ونرشدُكم إلى الطَّريق الموصِل إلى مكانٍ مطلوب؛ وغالبُ استعمال هذا الفعل أن يكون إرشادَ مَنْ يطلبُ معرفةً، وبذلك فالآية تقتضي أنّ هذا القولَ يقولونه للذين يسألونهم عن خبر رجل ظَهَرَ بينهم يدّعي النَّبوءة[2]، وعرضوا عليهم الدّلالةَ عليه.

ويظهر من خلال التّعبير بفعل الدّلالة إبرازُ سلوكِهم السّيّءِ في تعاملهم مع الرّسولِ ﷺ ودعوتِه بالتّقليل من شأنه، بجعلِه بمثابةِ رجلٍ مجهولِ المكان، يحتاج لدلالةِ دليلٍ عليه؛ وكانوا يقصدون الاستخفافَ والسُّخريّةَ، فأخرجوه مخرجَ التَّحلّي ببعض الأحاجي التي يُتحاجى بها للضّحِك والتّلهّي، متجاهلين به وبأمره[3].

سببُ عدمِ تعيينِ المخاطَب بـ﴿نَدُلُّكُمْ﴾:

الاعتبارُ بشناعة القول، دون النّظر إلى مُخاطَبٍ بعينه

لم يُعيَّن المُخاطَبُ بـ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 147 - 148.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 148 - 149.

(3) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 569.

﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لأنَّ المقصودَ في الآية الاعتبارُ بشناعةِ القول، ولا غرضَ يتعلّقُ بالمقولِ لهم، فيجوزُ أن يكون قولُهم هذا تقاوُلًا بينهم، أو يقولَه بعضُهم لبعض، أو يقولُ كبراؤهم لعامّتهم ودهمائهم؛ ويجوزُ أن يكون قولَ كفّار مكّة للواردين عليهم في الموسِم، وهذا الذي يُؤْذِنُ به الفعلُ: ﴿نَدُلُّكُمْ﴾، من أنَّه خطابٌ لمن يبلغُهم قولُ النَّبيِّ ﷺ[1].

دلالةُ التّعبير بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾:

تعَجُّبُ المكذّبين بالقرآن، مع استخفافِهم بالنّبيّ ﷺ، وسُخريتِهم منه

دلَّ التّعبيرُ بالجارّ والمجرور ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ على أنّ غرضَهم الإخبارُ بالأعاجيب، وليس تعيينَ الرّجل، إذ ليس ذلك مقصودًا، بلِ المقصودُ كونُ ما أَخبر به من أعجَب الأعاجيبِ في زعْمِهم؛ لأنَّ ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ بظاهرِه يُفيد أنَّه رجلٌ مجهولُ المكان، مُحتاجٌ لدلالةِ دليلٍ عليه، فقالوا هل ندلُّكم عليه؟ وهل لكم رغبةٌ في ذلك؟[2] من باب السّخريّةِ والاستهزاء.

دلالةُ التّعبير بـ﴿رَجُلٍ﴾ نكرةً:

التّجاهُل والتّقليلُ من شأنه

جاء التّعبيرُ بـ﴿رَجُلٍ﴾ مُنَكَّرًا في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾، وهم يقصدون النّبيَّ ﷺ، مع كَونِه مَعروفًا بيْنهم، ومِن أهْلِ بَلدِهم: لأنَّهم قَصَدوا من تَنكيرِه أنَّه لا يُعرَفُ، تَجاهُلًا وسُخريّةً منهم؛ فأخْرَجوهُ مخرَجَ التَّحلّي ببَعضِ الأحاجيِّ الَّتي يُتحاجَى بها للضَّحِك والتَّلهّي، مُتجاهِلينَ به وبأمْرِه فيما بينهم، وهذا السّلوك منهم لأسلوبِ تجاهُلِ العارفِ إنّما هو من سوءِ أدبهم، وشناعةِ كَذِبهم؛ أن يصِفوا من عاشروه وعرفوه بأنّه ﴿رَجُلٍ﴾ من باب الازدراء والتّحقير.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 147.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 451.

التّعبيرُ على مقتضى الظّاهر في حال خطابِ من يجهَلُه

وإذا كان قولُ المشركينَ موجَّهًا إلى الواردينَ مكَّةَ في المَوسم، كان التَّعبيرُ بـ﴿رَجُلٍ﴾ جَرْيًا على مُقْتضى الظّاهرِ، لأنَّ الواردينَ لا يَعرِفون النَّبيَّ ﷺ ولا دَعوتَه؛ فيكونُ كقولِ أبي ذَرٍّ قبْلَ إسلامِه لأخيهِ: (اذهَبْ فاستعْلِمْ لنا خبرَ هذا الرَّجُلِ الَّذي يَزعُمُ أنَّه نَبيٌّ)[1].

دلالةُ التَّعبير بالتَّنبئة:

تهكُّمُ المكذِّبين بأمرِ القرآن من أساليبِ صدّ النّاس عنه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالإنباءِ دونَ الإخبارِ في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ لأنّ الإنباء يكونُ بالإخبار عن أمرٍ عظيم، وعظمةُ هذا القول عندهم عظمةُ إقدامِ قائلِه على ادِّعاء وقوعِ ما يرونه مُحالَ الوقوع[2]؛ ولأنَّ لفظةَ النَّبأ تُستعملُ في الخبر الذي فيه غرابةٌ، فيدلُّ على أنّه أمر غريبٌ عجيبٌ في نظرهم الفاسد[3].

دلالةُ التَّقييد بـ﴿إِذَا﴾:

يُنكرون الخلقَ منَ المُمَزَّق، وهم خُلِقوا منَ العَدَم!

﴿إِذَا﴾ في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ ليس بمُفيدٍ شرطًا للخلق الجديد، لأنّه ليس يلزمُ للخلق الجديد أن يتقدَّمه البِلى؛ ولكنّ المُرادَ أنَّه يكون البِلى حائلًا دون الخلق الجديد المنبَّأ به[4].

سِرُّ ترتيب جملةِ ﴿إِذَا﴾ في الآية:

تعدّدُ الوجوه الإعرابيّة للجملة

الظّرفُ ﴿إِذَا﴾ في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ عاملُه محذوفٌ، تقديرُه (تُبعَثون)، دلَّ عليه ما بعده ﴿لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾،

---

(1) الكشّاف، الزَّمخشري: 3/ 570، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 521، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 122.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 149.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 451.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 149.

والمعنى: (ينبئكم أنّكم تُبعَثون إذا مُزِّقتُم كلَّ مُمَزّق إنّكم لفي خلق جديد)؛ سواءً جُعل ﴿إِذَا﴾ ظرفًا محضًا، أو متضَمِّنًا معنى الشّرط، وجوابُه (تُبعَثون)، وجملةُ الظّرف مع عاملِه، أوِ الشّرطِ مع جوابه: إمّا في محلّ مفعولِ ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾، وجملةُ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ تأكيدٌ لها؛ أو هي جملةٌ اعتراضيّةٌ، وجملةُ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هي التي حلّت محلَّ مفعولِ ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾[1].

وسواءً على جعْلِ جملةِ ﴿إِذَا﴾ في محلّ مفعول ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾، أو على جعْلِها اعتراضيّةً: تكون الجملةُ مقدَّمةً على ما يدلُّ على معنى عاملِ ﴿إِذَا﴾، وهو ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وسرُّ هذا التّرتيب: أنّه للاهتمام به، ليتقرّرَ في أذهان السّامعين، لأنَّه مَناطُ الإحالة في زعمهم؛ فإنَّ إعادةَ الحياة للأموات تكونُ بعد انعدام أجزاءِ الأجساد، وتكونُ بعد تفرقُّها تفرُّقًا قريبًا منَ العدم، وتكونُ بعد تفرُّقٍ ما، وتكونُ مع بقاءِ الأجساد على حالها بقاءً متفاوتًا في الصّلابة والرُّطوبة؛ وهم أنكروا إعادةَ الحياة في سائر الأحوال، ولكنّهم خصّوا في كلامهم الإعادةَ بعد التَّمزُّقِ كُلَّ مُمَزَّق - أي: بعد اضمحلال الأجساد أو تفرُّقِها الشّديد - لقوَّة استحالة إرجاعِ الحياة إليها بعدئذٍ - في عقولهم القاصرةِ[2] إذِ استبعَدوا أشدَّ الاستبعاد كونَ أجزاءِ الموتى متمزِّقةً ومتفرّقة، غيرَ قابلةٍ للإعادة والخلق الجديد؛ لذلك قدّموا جملةَ ﴿إِذَا﴾، اهتمامًا ودلالةً على البعد والمبالغة فيه[3].

لـلـدَّلالـة على البعد والمبالغة، اهـتـمـامًـا بـالمـضـمـون، وتـقـريـرًا في الأذهان

دلالةُ الاعتراض بجُملة ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾:

الجُملةُ الاعتراضيَّةُ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ تُمَهِّد للحكم على المنطوق قبل

التَّمهيدُ للحُكم عـلى المـنـطـوق قبل النُّطق به، توجيهًا للنّفوس إلى هذا الحكم

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 154.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 242، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 149.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 453.

النُّطق به، وهذا القولُ ليس من قول النَّبيِّ ﷺ، وإنَّما اعترضت بين المُتلازمَين لتؤدّيَ دورًا نَفْسيًّا للمقولِ لهم، وتلوحَ للحُكم عليه دون التَّصريح به، للتّأثيرِ على المخاطَبين؛ فقد أدخل المُشركون هذا الاعتراضَ ضِمنَ كلام النّبيِّ ﷺ تنبيهًا على استحالة ما يقوله هذا الرَّجلُ، على أنّه لازِمٌ لإثبات الخلق الجديد لِكُلِّ الأموات[1].

سرُّ التّعبير بالتَّمزيق مرّتين:

التّأثيرُ النَّفسيُّ علـى قلـوب المخاطَبين

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بمادّةِ التّمزيقِ مرّتينِ في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾: لِما يحمِلُه هذا اللّفظُ من إيحاءاتٍ نفسيّة تُؤَثِّرُ على نفوس المخاطَبين؛ لأنّ التّمزيقَ هو تفكيكُ الأجزاءِ المُتلاصقة بعضِها عن بعض، بحيث تصير قِطَعًا مُتباعدة؛ والمُمَزَّق: مصدرٌ ميميٌّ لِمَزَّقه، مثل المُسرَّح للتَّسريح[2]، وقد جيء بهذه المادّة مكرّرةً للتّأثيرِ النّفسيِّ على المخاطَبين، واستمالتِهم إلى ردِّ الدَّعوة الإسلامية ومعاداةِ صاحبِها.

بلاغةُ الاستعارةِ باستعمال مادّة التَّمزيق:

المبالغةُ في معنى تفرُّق أجسادهم بعد الموت، تمهيدًا لإنكار البعث

تظهر بلاغةُ الاستعارة في استعراض المشركين إنكارَ البعث بما توهَّموه دليلًا عقليًّا عن طريق الاستعارة، حيث شَّبه المشركون تحلُّلَ أجسادهم وتفرُّقَها بعدَ الموت بتمزيق الثَّوب، في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾؛ واشتُقَّ منَ التَّمزيق الفعلُ ﴿مُزِّقۡتُمۡ﴾ والمصدّرةُ ﴿مُمَزَّقٍ﴾، والجامعُ بين التّحلُّلِ والتّمزُّقِ هو استحالةُ إعادة الشَّيء لحالته الأولى بعد فنائها في زعمهم الموهوم، وقد مَنَعَ من إرادة المعنى الأصلي القرينةُ العقليَّةُ، باستحالة أن يكون التَّمزيق

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 149.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 149.

للجسد؛ ثُمَّ حُذف المشبَّهُ به - وهو الثّوبُ - ودُلّل عليه بفعل التَّمزيق، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ ملائمٌ للمشبّه، لأنَّ إعادة الخلق تناسب هيئةَ المشبّه في حال التَّحلُّل؛ ولذلك فالاستعارة مكنيَّةٌ تبعيَّةٌ مُجرَّدةٌ.

وقد أفادت هذه الاستعارةُ المُبالغةَ، حيث عبَّروا بها للمبالغة في معنى تفرُّق أجسادهم بعد الموت تمهيدًا لإنكار البعث، فعند التَّمَعُّن في استعادة التّمزيقِ في الجملة: يُلاحَظ أنّ التَّعبيرَ بهذه المادّة من خلال القالب التَّصويريِّ لها تأثيرٌ وِجدانيٌّ في نفس المستمع، يستميلُه إلى صدق دعواهم؛ فالثَّوبُ لا يعود على حالة نَسْجِه الأولى بعد تمزيقه، فكيف تعود الأجساد بعد تحلُّلها خلقًا جديدًا؟! فكان هذا تصويرَ المُشركين للبعث، ولا شكَّ أنّه تصوُّرٌ خاطئ، نابعٌ عن رؤية فاسدة[1].

دلالةُ صيغة ﴿مُمَزَّقٍ﴾:

استبعادُ الكافرين بأنْ يبعثَ الله الموتى بعد تفريق أجسادهم، وتفرُّقِ أجزائهم

يحتمل أن يكون لفظُ ﴿مُمَزَّقٍ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ اسمَ مصدرٍ، أي: (إذا مزِّقَت أجسادُكم كلَّ تمزيقٍ وتفريق، بحيث تصير ترابًا)؛ ويحتملُ أن يكون ظرفَ مكانٍ، بمعنى: (إذا مُزِّقتُم وذهبَتْ بكمُ السيولُ كلَّ مَذهَب، وطُرِحتُم كلَّ مَطرَح)[2]، وفي هذا اللّفظ دَلالةٌ على الاستبعاد، أي بُعدَ المدّعَى في رأي القائلين، من تجديد الخَلق، فإنَّ تفريقَهم غايةَ التَّفريق يُبعِد الإعادة[3].

دلالةُ التّعبير بلفظ العموم ﴿كُلَّ﴾:

استعمالُها في معنى كثرة التَّمزُّق والتَّشتُّت

لفظُ العموم ﴿كُلَّ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ

(1) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 56.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 242، وزاده، حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 6/ 676.
(3) الشِّهاب، حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي: 7/ 523.

﴿جَدِيدٍ﴾ مستعملٌ في معنى الكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: 97][1]؛ أي: (إذا مُزِّقتم بما حصل لكم بعد الموت، فتفرّقت أجسادُكم في الأرض، وفي بطون الطّيرِ والسّباع، ومرّتِ السّيولُ فذهبت بها كلَّ مَذهَب، وسفَّتِ الرّياحُ فطرحتها كلَّ مطرح)[2].

علّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّكُمْ﴾ عما قبلها:

الجملةُ واقعةٌ جوابًا عن سؤال مفهوم ممّا قبلها

فُصلت جملةُ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عمّا قبْلَها - على القول بمفعوليّة جملةِ ﴿إِذَا﴾ لفعل التّنبئة: لأنّها وقعتْ جوابًا عن سؤالٍ مفهوم ممّا قبْلَها؛ فكأنَّ سائلًا سأل: ماذا يُنبئنا هذا الرَّجلُ؟ فجاء الجواب ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ ففُصلتِ الجملةُ لشبه كمال الاتّصال.

سِرُّ مجيء حرفِ التَّوكيد (إنَّ) مكسورَ الهمزة:

مُراعاةُ حكايةِ القول في التَّعبير بالإنباء

جاء حرفُ التّوكيدِ (إنَّ) مكسورًا في قول الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لحمل الإنباء على معنى القول، فالإنباءُ إخبارٌ، وضربٌ منَ القول[3]، ولذلك صحّ أن يقع بعده ما هو من قول المنبِّئ؛ فالمعنى: (يقول إنّكم لفي خلق جديد)، ولذلك اجتلبت (إنّ) المكسورةُ الهمزةِ دون المفتوحة، لمراعاة حكايةِ القول[4].

غرضُ التَّوكيدِ في جملة ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾:

شأنُ الكافرين تهويلُ الدَّعوى، واستخفافُ المُدَّعي

جاءت جملةُ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مؤكَّدةً بـ(إنّ) وباللّام، لأنّها نَزَّلت خاليَ الذِّهن منَ الحكم منزلةَ المُنكِر له، وتنزيلُه هذه المنزلةَ يُشعِر بعِظَم الأمر الذي يدعو إليه هذا الرَّجلُ، كما يُشعِر بمدى ازدرائِهم بتلك الدَّعوى؛ وهذا التَّنزيلُ مُفادُه أنّ الخبر خرجَ عنِ الظّاهر للمأرب البلاغيّ المذكور.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 150.

(2) الزَّمخشري، الكشاف: 3/ 569، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 8.

(3) الواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 316.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 150.

استبعدوا أن يحتويَ الخلقُ الجديد أجسادَهم البالية

دلالةُ التّعبيرِ بحرف الظرفيّة (في):

دلَّ الحرفُ (في) من قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ على الظَّرفيّة المجازيّة؛ فالتّعبيرُ بها يُفهِمُ شدَّةَ التَّلبُّس بالخلق الجديد، تَلَبُّسًا كتلبُّسِ المَظروف بالظَّرف[1].

المُبالغةُ في استبعاد البعث بعد الموت

لطيفةُ تنكيرِ ﴿خَلۡقٖ﴾:

نُكِّرَت لفظةُ ﴿خَلۡقٖ﴾ في الآية للمبالغة في استبعاد البعث بعد الموت؛ أي: (تُخلَقون خلقًا جديدًا، وتُبعَثون من قبوركم أحياءً، وتعودون إلى الصّوَر التي كنتم عليها أوَّلًا)[2].

إعادةُ الخلقِ باتّحاد الذّات، وتجديدِ الصّفات

نكتةُ وصفِ الخلق بـ﴿جَدِيدٍ﴾:

وُصِف الخلقُ بـ﴿جَدِيدٍ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾، لأنَّ الإنسانَ إذا بُعِثَ فإنَّه لا يُبعَثُ كحالِه في الدُّنيا، بل يُبعَثُ في حالٍ أشَدَّ وأقوى، فهو سيُبعَثُ على أنَّه مُؤبَّدٌ لا يموتُ؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ أي: في أوصافِه، لأنَّ الصَّحيحَ أنَّ الخَلْقَ هو إعادةُ ما مضَى[3].

استبعادُهم عودةَ الأجساد إلى الحياة، أو عودةَ الحياة إلى الأجسام

دلالةُ صيغةِ الوصف ﴿جَدِيدٍ﴾:

وُصفَ الخلقُ بأنّه جديد في قول اللّه تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾، والجديدُ عند البصريّين بمعنى (فاعل)، تقول: جدّ فهو جديد، كحدَّ فهو حديد، وقلَّ فهو قليل؛ وعند الكوفيّين بمعنى (مفعول)، من جَدَّه إذا قطعه، وقالوا: هو الذي جَدَّه النّاسجُ السّاعة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 150.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 191.

(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 70.

في الثَّوب، ثمّ شاع، ولهذا قالوا: مِلحفةٌ جديد[1]، وعلى هذا يكون تعجُّب الكفّار من ذلك الجسد الذي يعود إلى الحياة كسابق عهدِه في خلقه الأوَّل، فيكونُ هذا على معنى اسم الفاعل، أو يكون بمعنى أن تعود إليه الحياة بإعادة خلقه مرَّةً أخرى، فيكونُ هذا على معنى اسم المفعول؛ ومثل ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ [الإسراء: 49]، والكفّارُ بهذَين المعنَيَين يستبعدون حدوثَ الأمرين، في سبيل إنكار البعث بالكليَّة[2].

غرضُ العدولِ إلى اسميّة الجملة:

عُدِل بالجملة الاسميّة ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ عنِ الجُملةِ الفِعليَّةِ الدّالَّةِ على الحُدوثِ مِثلُ (تُبعثون)، أو (تُخلَقون خلۡقًا جديدًا): للإشباعِ في الاستِبعادِ والتَّعجُّبِ[3].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّة:

الدّلالةُ والإرشادُ:

الدَّلالةُ عامَّةٌ في معنى البيانِ والتَّعريفِ، والإرشادُ بيانُ وجهِ الحقِّ والخير

الدَّلالةُ ما يُتوصَّل به إلى معرفة الشَّيء، كدلالةِ الألفاظ على المعنى، ودلالةِ الإشارات والرُّموزِ والكتابةِ والعقودِ في الحساب؛ سواءٌ كان ذلك بقصدٍ ممّن يجعله دلالةً، أو لم يكن بقصدٍ: كمن يرى حركةَ إنسان فيعلم أنَّه حيّ، قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 14]، والإرشادُ بيانُ الطّريقِ والتّعريفُ بالقصد والصّواب[4]؛ ولا يُقال أرشده إلّا إلى المحبوب، والرّاشد هو القابلُ للإرشاد، والرَّشيد مُبالغةٌ من ذلك؛ ويجوز أن يكون الرَّشيدُ الذي صلحَ بما في نفسه ممّا بعث عليه الخير[5].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 455، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 284.
(2) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 56.
(3) أبو السُّعود، ارشاد العقل السَّليم: 7/ 122، 123.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رشد).
(5) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 4/ 141.

والنّاظرُ في سياق الآيات التي ورد فيها لفظُ الدَّلالة ومُشتقّاتُه يجد أنّ أكثرها في غير معنى الهداية إلى الله، بلِ الدَّلالةُ على شيءٍ دنيويّ، ما عدا قولَ الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾ [الصف: 10]، ولعلَّ في هذا قرينةً على أنّ الاستعمال القرآنيَّ للفظِ الدَّلالة يقصرُه على معنى البيان والتَّعريف؛ وعلى هذا يكون الإرشاد أخصَّ منَ الدَّلالة، فالدّلالةُ عامّة في معنى البيان والتّعريف، سواءً في الخير أو في الشرّ، وسواءً بقصد أو بغير قصد؛ أمّا الإرشادُ فهو بيانُ وجْهِ الحقِّ والخير، ولا يكون الإرشادُ في الشّرّ، كما أنّه لا بدّ أن يكون مقصودًا[1].

الخبرُ والنَّبأُ:

النَّبأُ خبرٌ ذو شأنٍ عظيمٍ، والخبرُ أعمُّ

النَّبأ هو الخبرُ الذي له شأنٌ عظيمٌ[2]؛ ومنه اشتقاقُ النُّبوَّة، لأنَّ النَّبيَّ مُخبِرٌ عنِ الله تعالى؛ وفي قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2]، وصفٌ للنّبأ بالعظمة، وصفًا كاشِفًا عن حقيقته، ولا يُقال للخبر نبأٌ حتَّى يكونَ خبرًا ذا فائدة عظيمة، يحصلُ به العلمُ أو غلَبةُ الظّنّ، والصّيغةُ الفعليَّةُ للنَّبأ (أَنْبَأَ) أقوى أيضًا منها للخبر (أَخْبَرَ)؛ قال تعالى ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣﴾ [الكهف: 103][3].

(1) محمد داود، الفروق الدلالية، ص: 254.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 481.
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 529.

﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨﴾ [سبأ: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ أثرٍ مِن آثارِ عدمِ الإيمانِ بالآخرةِ

لمّا عَجَزَ الكُفّار في أمرِ السّاعةِ عن مُقارعة الحُجَّة بالحُجَّة، والبرهان بالبرهان؛ لجؤوا إلى أُسلوب العاجز، وهو السُّخرية والتَّسفيه والإثارة، فقال فريقٌ منهم لفريق آخر استهزاءً برسول اللّه ﷺ واستبعادًا لأَمر البَعث: هل ندلُّكم على رجل منكم يحدِّثكم بِأنَّكم إذا صرتم رفاتًا وتُرابًا، ومُزِّقت أجسادُكم كلَّ مُمَزَّق؛ تُبعثون، وتعودون خلقًا جديدًا سويًّا، وإمعانًا منهم في السُّخرية والاستهزاء؛ تجاهلوا اسمَ رسولِ اللّه ﷺ، وأتوا به نكرةً كأنَّه ليس معروفًا لديهم شخصُهُ ووصفُهُ بالأمانة والصِّدق، فقالوا: أَهو مفترٍ وكاذبٌ فيما يدَّعيه على اللّه تَعالى أَم به جنونٌ يوهِمُه ذلك، ويلقيه على لسانه؟ فحكى سبحانه عن هؤلاءِ الكفّارِ أنَّهم قالوا: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾: (فري) أصلُ الكلمةِ مِنَ الفَرْيِ، وهو: القَطْعُ والشَّقُّ، يُقالُ: أَفْرَى الذِّئبُ بطنَ الشّاة، أي: شقَّه، ومنه الفراءُ، وهو الجِلْدُ؛ لأنَّه يُقطَعُ، ويأتي الفَرْيُ بمعنى الصُّنعِ والاختلاقِ، وسُمّيَ الكذبُ فِرْيَةً وافتراءً؛ لأنَّ المفتَريَ يَقتطِعُ الكلامَ اقتطاعًا من تِلقاءِ نَفْسِه[2]، والجَمْعُ: فِرًى، وفُسِّر الافتراءُ بالكذبِ العظيم، وفُسِّرَ بأنَّهُ

(1) القنوجي، فتح البيان: 5/ 422، ولجنة من العُلماء، التَّفسير الوسيط، ص: 247.
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فري).

الكذبُ المُتعلِّقُ بالأعْراضِ، ويَرِدُ بمعنى البُهتانِ والظُّلم[1]، والمُرادُ بالافتراء في الآية: الاختلاقُ وإيجادُ خبرٍ لا مُخبِرَ له[2].

2) ﴿جِنَّةٌۢ﴾: (جنّ) تدلُّ تصريفاتُه على السَّتْرِ والتَّسَتُّرِ، فالجَنَّةُ: ما يَصيرُ إليهِ المُسلمونَ في الآخرةِ، وهو ثوابٌ مَستورٌ عنهم اليومَ[3]، والجِنُّ نوعٌ مِن العالم، سُمّوا بذلك لاجْتِنانِهم عَنِ الأَبْصار[4]، والجِنَّةُ: الجُنونُ، وسُمّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ، ويُغطّيه، وهوَ الخَلَلُ العَقْليُّ الذي يُصيبُ الإنسانَ[5]، وهو المُرادُ به هنا في الآيةِ.

3) ﴿وَٱلضَّلَٰلِ﴾: (ضلّ) تدلُّ اشتقاقاتُه على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ[6]، والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن؛ إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ النّاسي؛ إذا غابَ عَنهُ حِفْظُهُ[7]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريق، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضلُّ، ضلالًا؛ إذا انحرفَ، وضاعَ، ولم يهتدِ إلى الطَّريق، وضَلِلْتُ الشَّيْءَ أَضِلُّهُ؛ إذا جعلتَه في مكان، ولم تَدْرِ أين هو، وأضْلَلْتُه: أضَعْتُهُ[8]، وضِدُّه: الاهتداءُ والاستقامةُ والرَّشادُ.

والمقصودُ بالضَّلالِ في الآيةِ: خطأُ الطَّريق المُوَصِّل إلى المقصود[9].

4) ﴿ٱلْبَعِيدِ﴾: (بعد) تدور تصريفاتُهُ على ضدِّ القُرْب، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدَّ قَرُبَ يَقرُب قُربًا، وليس لهما حدٌّ محدود[10]، ويكونُ ذلكَ في المحسوسِ، وهو الأكثر، والمعقول نحو: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾، وبَعِدَ بالكسر يبعَد بالفتح، بمعنى: هلك، قال تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ [هود: 95][11]، والبعيدُ في الآية معناه: صفةٌ لمكانِ الضَّلالِ، وهو الطَّريقُ الذي حادَ عن المكانِ المقصودِ[12].

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 449، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 151.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(4) ابن سيده، المحكم: (جنن).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 89.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلَّ).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 151.
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).
(11) السمين، عمدة الحفاظ: (بعد).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 151.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه سبحانه عَمّا قاله الكفرةُ فيما بيْنَهم على سبيلِ الاستهزاءِ بالنَّبيِّ ﷺ في إخبارِه بالبعثِ واستِبعادِهم ذلك، فذكر أنَّهم قالوا: أَختلَق محمَّدٌ ذلك الأمرَ، فكَذَب على اللّهِ في إخبارِه بأنَّه سيَبعثُنا بعدَ مَوتِنا؟ أم هو امرؤٌ مَجنونٌ يَهْذي بكَلامٍ لا معنى له؟ ثمَّ ردَّ اللّه تعالى عليهم، فبيَّنَ أنَّ الأمرَ ليس كما زعموا، بل إنَّ محمَّدًا ﷺ هو البرُّ الرَّشيد الذي جاء بالحقِّ، وإنَّهم هم الكذبةُ الجهلةُ الأغبياء الذين بلغوا الغايةَ في اختلال العقلِ، وأوغلوا في الضَّلال، وبعدوا عنِ الإدراك والفَهم(1).

السُّخرية والسَّفهُ والإثارة أُسلوبُ العاجز

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ جملةِ ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ عمّا قبلَها:

كونُ الكلامِ تفصيلًا لِما سَبَقَ أو جاريًا مَجرى المُحاورة

قوله: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يحتملُ أن يكونَ من تمامِ قولِ الكفّارِ أوَّلًا الذين قالوا: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ [سبأ: 7]، فهو من جملةِ ما حُكي، ويجوزُ أن يكونَ من كلامِ السّامعِ المُجيبِ للقائل: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ [سبأ: 7]، كأنَّ السّامعَ لمّا قيل له: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ [سبأ: 7]، قال لَهُ: وهو يفتري على اللّه كذبًا؟ - إن كان يعتقدُ خلافَهُ - أو به جِنَّةٌ؟ - إن كان لا يعتقدُ خلافَهُ - وفُصِلَت الجملةُ على كلا الاحتمالينِ؛ لما بينهما من كمالِ الانقطاعِ؛ لاختلافِ الجملتَين خبرًا وإنشاءً(2).

معنى الهمزةِ في جملة: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

إفادةُ التَّعجُّبِ المُفضي إلى التَّشكيك ومن ثَمَّ الإنكار

الهمزةُ في قولِه تَعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ همزة استفهامٍ؛ إذ كان المشركون في حيرةٍ من أمرِهم أمامَ دعوة النَّبيِّ ﷺ، فجاء الاستفهامُ هنا على لسانِهم إمّا تعجُّبًا أو تشكيكًا في شأنِ النَّبيِّ ﷺ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 215، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 263، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 496، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 61.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 194، وابن عادل، اللُّباب: 16/ 18.

ومِن ثَمَّ إنكار نبوَّته ورسالته، فإمّا أن يكونَ النَّبيُّ ﷺ - بزعمهم - قد افترى كذبًا، أو أنَّه قد أصابه جنونٌ[1]، وفي الحالين هم يقصِدون إلى نفي النُّبوَّة عنه.

وجاء الإخبارُ بطريق الاستفهام؛ ليصحَّ كونُهُ أحدَ الخيارين، ولتشريك المُخاطَبين معهم في ترديد الرَّجل بين هاتَين الحالين[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الافتراء)، ولطيفة صَوْغِهِ:

الافتراء تعمُّدُ الكذب، والافتعال فيه لإرادة المُبالغة

الافتراءُ مأخوذٌ مِنَ الفَري، وهو قَطْعُ الجِلد قطعًا ليُصلِحَ بهِ، مثل أن يُحذَى النَّعل، ويُصنَعَ النِّطع أو القِربة، وافترى: افتعالٌ من فَريَ؛ لإفادة المُبالغةِ فيه، يُقال: افترى الجلدُ، كأنَّهُ اشتدَّ في تقطيعهِ أو قطعَهِ تقطيعَ إفساد، وهو أكثر إطلاقاتِ (افترى)، وأطلقت العربُ على الإخبار عن شيءٍ بأنَّه وقَعَ، ولم يقع اسمُ الافتراءِ بمعنى الكذبِ.

والافتراءُ أخصُّ مِنَ الكذب؛ إذ الكذب خبرٌ لا يُطابق الواقع سواء كان عَمدًا أو خَطَأً، بخلاف الافتراء، فإنَّه ما كان منه عن عَمْد، فمُقابلتُهُ بالجُنون لا تقتضي أنَّ كلامَ المجنونِ ليس من الكذب، بل إنَّه ليس مِنَ الافتراء؛ إذِ الافتراء هوَ الاختلاق وإيجاد خبر لا مُخبِر له[3].

سوءُ نيَّةِ المُشركين ومحاولتهم الطَّعن في الوحي والرِّسالة

والمشركون إذْ قالوا: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أرادوا بذلك أن يَطْعنوا في مصداقيَّة الرِّسالة، مُدَّعين أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليس مُجرَّدَ كاذبٍ، بل هوَ شخصٌ يتعمَّد الافتراء على اللّٰه؛ لذلك كان اختيارُ لفظ الافتراء هُنا يدلُّ على سعيٍ حثيثٍ منهم؛ لتشكيكِ النّاس في نبوَّة النَّبي ﷺ وحقيقة الوحي، فالتَّعبيرُ بـ ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ بدل (أَكَذَبَ) يُضيف دلالة قويَّةً تشير إلى تَعَمُّدِ الكذب واختلاقه، خاصَّة عندما

---

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 319، وإسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 263، والجبلي، البستان في إعراب مشكلات القرآن، ص: 153.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 150.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 64، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 8، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 151.

يتعلَّق الأمر بالافتراء على الله سبحانَهُ، مِمّا يُنبئُ عَن سوء نيَّة المُشركين في محاولتهم الطَّعنَ في الوحي والرِّسالة.

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ ودلالة إضماره:

استصغارُ المشركين أمرَ النَّبيِّ ﷺ

الضَّميرُ المستترُ في ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، راجعٌ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ إذ المشركون زعموا أنَّهُ ﷺ - وحاشاه - كذب على الله هذا القول، وزوَّره عنه، وادَّعى أنَّه أخبرَهُ بوجود بعثٍ جديد للنّاس بعد موتِهم لحسابِهم وجزائهم، وذلك منهم استصغارٌ لأمرِهِ وتغافُلٌ عن شأنه، وقد كان بينهم قبل ذلك الصّادق الأمين، فزعموا أنَّ ما جاء بهِ النَّبيُّ من وحيٍ وتعاليمَ وإخبار بالغيب هو من اختلاقه وافترائِهِ وليس من عند الله تعالى[1].

وآثرَ البيانُ القرآنيُّ اسْتِتارَ الضَّميرِ مع فعل الافتراءِ في حكاية كلام الكفّارِ مع تصريحِهِم هُم في كَلامِهِم به؛ حفظًا لمقامِ النُّبوَّة عن أن يُقرنَ اسمُهُ ﷺ بفعل الافتراءِ، ولو على جِهَةِ الحكايةِ.

نكتة التقييد بـ ﴿عَلَى﴾:

الدلالةُ على شدَّة الاتِّهام وخطورته، وبيانُ قُبحِ الافتراءِ على اللهِ تعالى

قُيِّدَ فعلُ ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ بكونِهِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ يقتضي أنَّ الشَّخصَ لا يكتفي بالكذبِ على النّاس، بل يتجرَّأ على الكذبِ على الله تَعالى بادِّعاء أمورٍ تتعلَّق بالدّين والوحي، وهو أمرٌ أعظمُ في جرمِهِ وأشدُّ في خطورته، وفيه مع هذا بيانُ قُبحِ الافتراءِ على اللهِ تعالى، حتَّى إنَّ الكافِرينَ يَستقبِحونَه[2].

لطيفةُ التَّعبيرِ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾:

تعميقُ الشُّعور بخطورةِ الاتِّهام

جاء التَّعبيرُ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ لإرادةِ تعظيم شأن الخبر، فإنَّ الكفارَ لمّا اتَّهموا النَّبيَّ صلى الله عليه سلَّم بالافتراء على الله؛ لم يكُن قصدُهم مطلقَ الافتراءِ، بل قصدُهُم افتراءٌ على أعظم

(1) مكي القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 5888، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 306.
(2) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 76.

عظيم في الوجود، مِمّا يزيد من شناعةِ الادِّعاء الذي يوجِّهُهُ الكفّار؛ إذْ لو كان الاتِّهام بمطلق الافتراءِ؛ لكان الأمرُ أقلَّ خطورةً، لكنَّ التُّهمة بالافتراء على اللّه يُصيِّرُ الادِّعاءَ أشنَعَ، فيكون تخصيصُ ذكرِ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ هُنا معمِّقًا الشُّعورَ بخطورة الاتِّهام[1].

دلالةُ تقييدِ الافتراءِ بـ ﴿كَذِبًا﴾:

التَّشديدُ على شناعةِ هذا الافتراء وكونهِ في غاية البطلانِ

جاءت لفظةُ ﴿كَذِبًا﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لتوضِّح نوعَ الافتراء الذي ادَّعاه المُشركون؛ إذ المعنى على زعمهم: أفتَرى عن عمدٍ؟ ونسبَهُ إلى اللّهِ كَذِبًا تغريرًا وتلبيسًا على ضعفاء الأنام؛ ليقبلوا منه أمثالَ هذه الأباطيل، ويعتقدوهُ رسولًا مُخبرًا عن المغيَّبات وعجائب الأمور وغرائبها؟[2] فالاتِّهام بالافتراء في ذاتهِ يُشير إلى الادِّعاء الباطل، ولكنَّ تقييدَهُ بـ ﴿كَذِبًا﴾ زيادةٌ في تشنيعِ هذا الافتراء وعلى كونه باطلًا تمام البطلانِ.

وفي تقييد الافتراءِ بالكذب إيضاحٌ لنوعِ الافتراءِ، وجعْلُهُ أكثرَ استنكارًا؛ إذ دونَ ذِكْرِ لفظ ﴿كَذِبًا﴾، قد يُفهَم الافتراءُ بمعنى الادِّعاء أو القول دون تحقُّقٍ، لكنَّ التَّقييدَ بـ ﴿كَذِبًا﴾ يدفع أيَّ احتمالٍ آخرَ، ويعيِّنُ الافتراءَ لمعنى الباطلِ والكذب الصَّريح[3].

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿كَذِبًا﴾:

تعظيمُ الكذبِ وتفخيم شأنه

نُكِّرَ لفظُ ﴿كَذِبًا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ إشارةً إلى تعظيم هذا الجُرم، وأنَّه ليس ككُلِّ كذبٍ، بل هو من أعظمِ أنواع الكذب وأفحشِها، كما أنَّ تنكيرَ لفظ ﴿كَذِبًا﴾ يدلُّ على الإطلاقِ، فيكون هذا الكذب المُتَّهم به ليس كَذِبًا مخصوصًا، بل يصدُقُ على أيِّ نوعٍ من الافتراءِ أو الكذبِ المحتمَل، مِمّا يوحي بشموليَّة الاتِّهام وجَسامَتِه.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 452.
(2) الشَّيخ علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 169.
(3) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 57.

معنى ﴿أَم﴾ في قوله: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٞۢ﴾:

إبراز التّردُّدِ والاضطراب في موقف الكفّار

﴿أَم﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٞۢ﴾ مُتَّصلةٌ، وهي تومئُ إلى تردُّد الكفّار واضطرابهم في تحديد موقفٍ واضح من النَّبيِّ ﷺ، فهم يتأرجَحون بين احتمالين متناقضين: الكذبِ العمد أو الجنون، غير جازِمين بأحدهما، مِمّا يكشف عن ضعف حُجَّتهم وتخبُّطهم في محاولة تشويهِ دعوتهِ ﷺ، وهذا التَّردُّد يجعل اتِّهاماتِهم غيرَ مُقنعة، ولا مُجدية[1].

توبيخُ الكفّار والتَّعريض بِهم على سوء تقديرهم

وفي قولِ الله تَعالى حكايةً لقولهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٞۢ﴾ أنَّهم يزعمون أنَّ هذا القولَ العجيب الغريب المستنكر لا يقوله إلّا أحدُ اثنين، من يفتري على الله كذبًا، ومَن به جنونٌ، فإمّا أن يكون محمَّدٌ ﷺ سويَّ الفِكرِ إلّا أنَّه - وحاشاهُ - يكذب على الله كذبًا على وجه الافتراء، يَخْتَلِقُه اختلاقًا من عنده، وإمّا أن يكون قد أصابَهُ الجنونُ، فهو يقولُ أقوالًا لا تَقْبَلُها العقولُ، ولم يُخبروا بما يتحقَّقونَهُ في شأن البعثِ، فاقتصرت مقالتُهم على ترديد ما تقدَّم دفعُهُ بالبرهان العقليِّ[2]، فتأتي (أم) للإيماءِ إلى أنَّ الكفّارِ يسوقون افتراضاتٍ واتِّهاماتٍ عبثيَّةً، قاصدين إلى تكذيب أمرِ البعث بالطَّعن في المُخبرِ بِهِ، وهذا تضمَّنَ توبيخَهم على سوء تقديرِهم وفساد منطقِهم، وتعريضًا بسفاهة عقولهم، وهذا يستلزِمُ تحريكَ ذهنِ المُتلقّي ودفعَهُ إلى رفض الاتِّهامات بعد إدراك تَهافُتِها.

معنى (الباء) في المتعلّق ﴿بِهِۦ﴾:

بيانُ كونِ الجنونِ - في زعمهم - مُلاصقًا وملابسًا له

الجِنَّةُ في قوله: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٞۢ﴾ بمعنى: الجنونِ، والباء في ﴿بِهِۦ﴾ للإلصاقِ الحقيقيِّ[3]، فالجنونُ في زعمهم مُلاصقٌ وملابسٌ له، كأنَّهم يقولون: هل الجنونُ قد تلبَّس به تلبُّسًا شديدًا حتّى صارَ من

(1) الإيجي، جامع البيان: 3/ 375.

(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 192.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 455.

صفاتِه الملازمَة؟ فهذه الباءُ تعكس أنَّ الجنونَ شيءٌ قد سَيطرَ عليه - بحسب ادِّعائهم - فيجعلُهُ غير قادرٍ على التَّصرُّف كالعقلاءِ، وهذا في غاية التَّضليل مِنْهُم لِلنّاس مِمّا يخدمُ غرض تشويهِ صورةِ النَّبيِّ ﷺ بوجهٍ مؤكَّد عند المتَلقّين.

نُكتةُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿جِنَّةٌۢ﴾:

المبالغةُ في اتِّهامهم النَّبيَّ ﷺ

تقديم ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿جِنَّةٌۢ﴾ يلفت الانتباه إلى ذاتِ النَّبيِّ ﷺ، فهو مِحْوَر تُهمتهم الَّتي يدور الحديثُ عنها، والهدف هو جعْلُ ذهنِ المُتلقّي يُركِّز أوَّلًا في الموصوف الذي يُعاني من هذه الحالِ، قبل ذِكْرِ صفة الجنون.

وفي التَّقديم أيضًا معنى الحصرِ والقصرِ، كأنَّهُ ﷺ - وحاشاه - هو المخصوص بوصف الجنون دون غيرِه؛ لشدَّة الجنون المُدّعى له، حتّى كأنَّ جنونَ غيرِه لا يُعدُّ جنونًا، وقصدُهُم من هذا الاتِّهام الجائرِ هو إبطالُ رسالته وإثارة السُّخرية حوله.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿جِنَّةٌۢ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تضخيمُ الاتِّهام وتثبيتُهُ في نفوسِ المتلقّين

﴿جِنَّةٌۢ﴾ في الآية بمعنى: الجنونِ والخبلِ وذهابِ العقل، وذلك الذي جعل النَّبيَّ ﷺ بزعمهم - وحاشاه - يَتَكَلَّمُ بما لا يدري، ولا يعقلُ ما يقول، ويتوهَّم البعثَ، ويتخيَّله[1]، وكأنَّ العقلَ السَّويَّ قد احتجب عَنه.

ولفظُ ﴿جِنَّةٌۢ﴾ على وزن (فِعْلَة)، وهو من مصادر الهيئةِ، يصاغ للدَّلالةِ على الهيئة بوصفٍ أو إضافة[2]، كجَلَس جِلْسَةَ أبيه، وفي الحديث: «إذا قتلتُم؛ فأحسِنوا القِتْلَة»[3]، وهذا الوزنُ في الآية الكريمة يُشير إلى هيئة الجِنَّةِ أو حالها التي تصيب الإنسان مدَّةً

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 263، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 561، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 22/ 4373.

(2) ابن قاسم، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك: 2/ 868، وعلى الجارم ومصطفى أمين، النَّحو الواضح: 2/ 251.

(3) الحديث رواه مسلم من حديث شداد ابن أوس ﵁: ينظر: مسلم، صحيح مسلم، برقم (1955).

معيَّنة، وهذا يُعزِّز تصوُّر أنَّ هذا الجنونَ صار جُزءًا من ذاتهِ بعد أن كان عندَهم من أعقلِ النّاس وأصدقِهم ممّا يزيدُ من تضخيم هذه التُّهمة وتثبيتها في الأذهان.

تصويرُ التُّهمةِ بأنَّها حالٌ من غيابِ العقلِ تحت تأثيرٍ غامضٍ

وفي اختيار لفظِ ﴿جِنَّةٌۢ﴾ إيماءٌ بأنَّ الحالَ ليست غيابَ عقلٍ فحسبُ، بل اضطرابٌ ناتج عن قوًى غيبيَّةٍ غامضة، وهُمُ الجنُّ[1].

فالصِّلةُ بين المادَّة اللُّغويَّة (الجيم والنّون)، والمعنى البلاغيِّ في الآية تقوم على تصوير التُّهمةِ بأنَّها حالٌ من غياب العقل واستتاره تحت تأثيرٍ غامضٍ وخفيٍّ، يتماشى مع تصوُّرات الكفّار عن الجنون والجنِّ، كما يدلُّ هذا التَّعبيرُ عَلى جهلهم وغيِّهم في إدراك الحقيقة النَّبويَّة.

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿جِنَّةٌۢ﴾:

تهويلُ شأنِ الجُنونِ إمعانٌ في التَّلبيسِ

جاءَ لفظُ ﴿جِنَّةٌۢ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ منكَّرًا، لإبهام هذا الجنون، والإبهام في نوع الجنونِ يجعل التُّهمة أكثرَ تأثيرًا؛ لأنَّها تجعلُ ذهنَ السّامعِ يذهب كلَّ مذهبٍ، أهو فقدانٌ كامل للعقل؟ أم اضطرابٌ عارضٌ؟ وهذا الضَّربُ مِنَ الكلام - وهوَ الإبهام - يستعملهُ القائل لقصد التَّشويش، حيث يُلقي الشَّكَّ من غير إيرادِ حُجَجٍ على مقالتِه، ممّا يوقِعُ السّامع في الإرباكِ، ويدفعه إلى التَّفكير في أسوأ الاحتمالات، وهذا يُفضي إلى تهويل الأمرِ وتضخيمه في نفسِه.

فكان تنكيرُ لفظِ ﴿جِنَّةٌۢ﴾ دالًّا على أنَّ هذا الجنونَ أمرٌ غريب مُبهَمٌ ومخيفٌ عظيمٌ، كلُّ هذا منهم للإمعان في التَّلبيسِ والمغالطَة.

دلالةُ الاحترازِ بين الافتراءِ والجنونِ:

الكافرُ لا يرضى أن يَظْهَرَ كذِبُهُ وعجزُه

في ترديدِ المُشركين حالَهُ ﷺ بين الافتراء والجنون إشارةٌ إلى أنَّ الكافر لا يرضى بأن يظهرَ كذبُهُ، ولهذا قَسَّم، ولم يَجزم بأنَّه مفترٍ،

(1) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 306، والفرماوي: السَّهل المُفيد، ص: 41.

بل ردَّد الأمر بين حالين: الافتراء أو الجنون؛ احترازًا مِن أن يقولَ قائلٌ: كيف يقول بأنَّه مفترٍ؟ مع أنَّه جازَ أن يظنَّ أنَّ الحقَّ ذلك، وظنُّ الصِّدق يمنع تسميةَ القائلِ مُفتريًا وكاذبًا في بعض المواضع، وذلك كمَن يقول: جاء زيدٌ، فإذا تبيَّن أنّه لم يجِئ، وقيل له: لمَ كذبت؟ يقول: ما كذبتُ، وإنَّما سمعتُ مِن فلانٍ، فظننتُ أنّه صادق، فيدفع الكذبَ عن نفسهِ بالظَّنِّ، وكذلك هؤلاء الكفّار احترزوا عن تبيين كذبهم، فكلُّ عاقلٍ ينبغي أن يحترِزَ عن ظُهورِ كذبِه عند النّاس، ولا يكون العاقلُ أَدْنى درجةً مِنَ الكافر[1].

بيانُ تخبُّطِ المشركينَ في فهْمِ الرِّسالة النَّبويّة

ومع الاحترازِ المتقدِّم مِن الكفار بترديدِهم حالَ النَّبيِّ ﷺ بين الافتراءِ والكذبِ، فإنَّ جُملة ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ و﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ جُملتان تدلّانِ على تناقضٍ كبيرٍ مِنْ هؤلاء الكفّارِ؛ وذلك أنَّ الافتراءَ يقتضي عقلًا واعيًا وكذبًا مُتعمَّدًا، بخلافِ الجنونِ، فإنَّه يشيرُ إلى فقدان العقل، وهذا التَّناقضُ يكشف عَنْ تخبُّطهم في فهمِهم الرِّسالةَ النَّبويَّة.

دلالةُ الكنايةِ في الآية:

هروبُهم مِن ظهورِ تناقضِهم

في قول اللّهِ تعالى حكاية عن الكفّار: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ كنايةٌ عن بطلانِ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ، وقد آثر أهلُ الكُفر الكنايةَ على التَّصريح؛ لأنَّ في التَّصريح تناقضًا بين تكذيبِهم القرآنَ ووصفهم النَّبيَّ ﷺ بالصّادق الأمين، ولكنَّهم وجَّهوا سهامَ الكذبِ والجنون للنَّبيِّ ﷺ؛ ليستلزم ذلك الطَّعنَ في كُلِّ ما يأتي به ووصفهم إيّاه بالكذبِ والافتراء[2].

بلاغةُ الاحتباكِ وسِرُّ ذكر الاحتمالين:

رفْعُ الاحتمال الثّالث بَيْنَ الأمرين

في قول اللّه تعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾، جعَلَ المُشركون حال الرَّسول ﷺ دائرًا بين الكذب والجنون بناءً على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 194، وابن عادل، اللُّباب: 16/ 18.
(2) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 57.

أنَّه إن كان ما قالَهُ مِنَ البعثِ؛ قاله عن عمدٍ وسلامةِ عقلٍ، فهوَ في زعمِهم مفترٍ؛ لأنَّهم يزعمون أنَّ ذلك لا يُطابق الواقع؛ إذ ذلك مُحالٌ في نظرِهم القاصر، وإنْ كان قاله بلسانهِ لإملاء عقلٍ مُختلٍّ؛ فهو مجنون، وكلام المجنون لا يوصف بالافتراء، وإنَّما ردَّدوا حاله بين الأمرَيْن بناءً على أنَّه أخبر عن تلقّي وحي من اللّهِ، فلم يبقَ احتمالٌ لقسم ثالثٍ، وهو أن يكون مُتوهِّمًا أو مخطئًا، كما لا يخفى[1]، فالآيةُ مِنَ الاحتباك؛ إذ ذِكْرُ الافتراءِ أوَّلًا يدلُّ على ضِدِّه ثانيًا، وذِكْرُ الجنون ثانيًا يَدُلُّ على ذكرِ ضدِّهِ أوَّلًا[2]، وهذا الاحتباكُ يُسَمّى الاحتباكَ الضِّدّيَّ؛ لأنَّه يقع بين ألفاظٍ، العلاقةُ بينها قائمةٌ على التَّضاد، فحُذِف مِنَ الأوَّل ما دلَّ عليه إثباتُ الثّاني، وهو الجنونُ وعكسُه العقل، وحُذِفَ من الثّاني ما دلَّ عليه مِن إثباتِه في الأوَّل، وهو الافتراءُ، الذي يدلُّ على تعمُّدِ الكذبِ، وعكسُهُ الكذب بغير قَصْدٍ وعَمْدٍ[3].

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

بيانُ عاقِبَةِ السّوءِ لِلمُشْركينَ

لمّا قال المشركون ما قالوهُ من زعمِهم الباطلَ ورميهم النَّبيَّ الكريم بالافتراء والجنونِ؛ كان تقديرُ الجواب ردًّا عليهم: (ليس به شيء من ذلك)، فعَطفَ النَّظم الكريمُ عليه - مُخبرًا عن بعضِ الذين كفروا بما يوجِبُ رَدْعَ الآخرينَ - قولَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: لا يُجدِّدون الإيمانَ؛ لأنَّهم طُبِعوا على الكُفْرِ[4]، والفصلُ بين الجملتين؛ لما بينهما من كمالِ الانقطاع؛ لاختلافِهما خبرًا وإنشاءً؛ إذ جملة: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ إنشائيَّةٌ، وجملة: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ خبريَّةٌ، وفي هذا الفصلِ توضيحٌ لحالِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 150 - 151.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 452.
(3) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 57.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 452.

هؤلاء المكذِّبين بأنَّهم هُم مَن يعيشُ في الضَّلال، وليس النَّبيَّ ﷺ، مِمّا يجعَلُ المُشركين في موضع الإدانة، ويُبرز أنَّ عاقبتَهم العذابُ.

معنى ﴿بَلِ﴾ في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

النِّداءُ على الكفّار باختلالِ العقل والانحراف في الفهم والإدراكِ

جاء هذا الرَّدُّ الإلهيُّ العظيم مُصدَّرًا بحرف الإضراب ﴿بَلِ﴾؛ وذلك بإثبات ما هو أفظعُ من القِسمَيْن بالنِّسبة لهم، وهو الضَّلال البعيدُ عن الصَّوابِ، بحيث لا يُرجى الخلاصُ منه وما هو مُؤدّاه مِنَ العذاب، وقد عطف الجواب بـ ﴿بَلِ﴾ في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على مقولةِ المشركين في صدر الآيةِ، وذلك لأنَّهم ردَّدوا حالَ النَّبيِّ ﷺ، فزعموا بهتانًا بأنَّه كاذبٌ أو مجنون، وأخرجوا ذلك في صورة الاستفهام، فجاء الجوابُ مِنَ اللّٰه تعالى بالإضراب عن كِلا الاحتمالَين، وإبطالِهما، وإثبات قسم ثالثٍ كاشف عن حقيقة الحال، ناعٍ عليهم سوءَ حالِهم بما قالوا في حقِّ نبيِّه ﷺ، كأنَّه قيل: ليس الأمر كما زعموا، بل هم في كمال اختلالِ العقل وغاية الضَّلال عن الفهم والإدراك[1].

دلالةُ القصرِ في الآيةِ:

إثباتُ الضَّلال لَهُم

نفى اللّٰهُ تعالى الكذبَ والجنونَ عن نبيِّه ﷺ، وأثبته لهم؛ إذ جملة: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ مُقابلة لجملة: ﴿بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾، وبذلك يتمثَّل القصرُ بـ ﴿بَلِ﴾ في قصر الاتِّهامات التي رموها جُزافًا على أنفسِهم من قبيل قصرِ الصِّفة على الموصوف[2].

فردَّ اللّٰهُ عليهم استدلالَهم بما أشار إلى أنَّهم ضالّون أو مُضلّون، فأبطل قولَهم بحذافيرهِ بما يدلُّ عليه حرفُ الإضراب، ثُمَّ بجُملة: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾[3].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 123، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 360.
(2) الشِّربيني، السراج المنير: 3/ 281، وآل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 58.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 151.

عِلَّةُ الإظهارِ دون الإضمار:

التَّنبيهُ إلى أنَّ عِلَّةَ ما ارتكبوه مِنَ الجرائمِ هو كُفرهم بالآخرة

في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عُدولٌ عن الإضمارِ؛ إذ مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ في النَّظمِ القرآنيِّ: (بل هم في العذابِ)، إلى إبرازِهم بالموصول؛ وذلكَ للتَّنبيه بما في حَيِّزِ الصِّلة، مع إرادةِ التَّوبيخِ والإيماء إلى سببِ الحُكْم، وأنَّ عِلَّةَ ما ارتكبوه، واجترَؤوا عليه من الشَّناعةِ الفظيعَةِ هو كُفرُهم بالآخرة وما فيها من فُنون العقاب، ولولا ذلك؛ ما فعلوا ذلك خوفًا من غائِلَتِه[1].

دلالةُ ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الإشارةُ إلى عنادِهِم الرّاسخ

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ نافيةٌ، والمعنى: لا يوجدون الإيمان؛ لأنَّهم طُبعوا على الكفر بالآخِرَةِ[2]، وهذا النَّفي يتضمَّنُ إدانةً لأهل الكفر، فَهيَ لا تُشير إلى غياب الإيمان فحسبُ، بل إلى عنادٍ مُترسِّخٍ يجعلهم يستحقّون ما توعَّدهم اللّهُ به من عذابٍ عظيمٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيمانِ:

الدَّلالةُ على التَّصديقِ الجازمِ الدّاعي إلى العمل

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يكفي مُجرَّد الإقرار أو الاعتراف بالآخرة، بل لا بُدَّ من تصديقها تصديقًا نابعًا مِنَ القلب، ويكون هذا التَّصديقُ مستلزمًا للإذعانِ والعمل بما يقتضيه ذلك، وإذا فُقِدَ ذلك كُلُّهُ؛ أورثَ العذابَ والضَّلال.

دلالةُ التَّعبيرِ عن الإيمان بالفعل المُضارِعِ:

عدمُ إيمانِهم حالٌ مُستمرَّة ومُتجدِّدة

قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: لا يجدِّدون الإيمانَ؛ لأنَّهم طُبعوا على الكُفر، فهُم الذين ضلّوا عن الفهمِ وإدراك الحقائق، فكفروا بالآخرة، ولم يؤمنوا بما جاءَهُم به، فصاروا بسبب ذلك في العذاب الدّائم في الآخرةِ، وهم اليوم في الضَّلال البعيدِ عَنِ الحقِّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 123، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 285، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 263.

(2) الشِّربيني، السراج المنير: 3/ 350، والصافي، الجدول في إعراب القرآن: 22/ 203.

غايةَ البعدِ[1]، فَصياغَةُ لفظِ الإيمانِ بصيغة الفعلِ المُضارع توحي بأنَّ عدمَ إيمانِهم حالٌ مُستمرَّة ومُتجدِّدة، وليست أمرًا عارضًا، وهذا يُبرزُ أنَّ الكُفر والإعراض عن الإيمان بالآخرة يتكرَّر في أزمنتهم المُختلفة، ويُصرّون عليهِ؛ كُلَّما تَجَدَّد داعيه.

معنى (الباء) في ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

قـطـعُ الـصِّـلـةِ بين الكفّارِ وبين الآخــرَةِ إيمـانًا وإقْرارًا

علَّقَ النَّظمُ الكريم الإيمانَ بالآخرة؛ لأنَّها غايةُ المُؤمن الَّتي من أجلها يعمل؛ إذ فيها الجزاءُ على الأعمال، ولقاء اللّه ﷻ، فتكون حياتُهُ الأولى هادفةً وسعيُه فيها حثيثًا؛ لتحصيل السَّعادة الأبديَّة والعيشة الرَّضيَّة، بخلاف الذين لا يؤمنون بها؛ فهُم يتخبَّطون في حياتهم، لا يَحْدوهُم هدَفٌ، ولا تُحفِّزهم غاية.

والباء في ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ، على ما هو الأصلُ فيها، فيكون في الآية نفيُ الصِّلةِ بينهم وبين الآخرة إيمانًا بها وإقرارًا وإذعانًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الآخرة)، و(السّاعة):

لـفـظُ (الآخــرة) أكــثرُ شـمـولًا لأحداثها

التَّعبيرُ بـ (الآخرة) أكثرُ شمولًا ودلالةً من (القيامة) أو (السّاعة)؛ إذ يدلُّ على الحياةِ بعد الموت على امتدادها، بما في ذلك عذابُ القبرِ ونعيمه والحساب والجنَّة والنّار[2]، بخلاف (القيامة) و(السّاعة)؛ فإنَّهما يدلّانِ في الأصلِ على مُدَّةٍ معيَّنةٍ منَ أحداث اليوم الآخرِ، كقيام النّاس من القبورِ وبدء الحساب، ولا ينفي ذلك أن يُطلَقَ هذان اللَّفظان على عموم الأحداث.

واختار النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالآخرة؛ ليفتح البابَ لمعنًى أوسع يشمل الجزاءَ الكامل، وفيه أنَّ عدمَ إيمانِهم بالآخرة لا يَنْحَصِرُ في تكذيبِ حدثٍ من أحداث الآخرةِ، بل في إنكار أصلِ الجزاء الأخرويِّ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 452، والقنوجي، فتح البيان: 5/ 422.
(2) الجاوي، مراح لبيد: 2/ 265، والعثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 73.

وما يتعلَّق به سواءٌ تقدَّم أو تأخَّر، وهذا يُناسب سياقَ التَّهديد بالعذابِ واستحقاق الضَّلال.

كما أنَّ التَّعبيرَ بلفظ (الآخرة) يَرِدُ مُقابلةً للدُّنيا في القرآن الكريم، فكان التَّعبيرُ بها مشيرًا إلى الحياة الأبديَّة التي تَعقُب الحياة الفانية، ولذا كان نفيُ الإيمان بالآخرة دالًّا على الانغماسِ في الدُّنيا ونُكران الحياة الأبديَّة.

معنى حرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ ودلالتُه:

التَّنبيهُ على تحقُّقِ وقوع العذاب المُعَدِّ لهؤلاء الضُّلّال

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّةِ، والظَّرفيَّة هنا بمعنى الإعدادِ لَهُم، فحصل في حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ مَجازٌ في استعمال الموضوع للواقع فيما ليس بواقع؛ تنبيهًا على تحقيق وقوعه[1]، فاستعمالُ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ هنا لا يدلُّ على وُقوعِهم في العذاب بالفعل وقتَ نزولِ الآية، بل يَدلُّ على أنَّ العذابَ مُعدٌّ لهم، كأنَّه واقعٌ بهم لا محالةَ؛ تنبيهًا على تحقُّق وقوع العذاب على هؤلاءِ؛ لأنَّ الضَّلالَ هو سَبب العذاب؛ إذِ العذابُ لمّا كان من لوازم الضَّلالِ؛ جُعِلا كأنَّهما مقترنان[2].

وفي اختيارِ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ من قوله: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ جعلَ العذابَ والضَّلال مُحيطين بهم إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف؛ لأنَّ أسبابَ العذابِ معهم، فكأنَّهم في وسطِهِ[3]، فكان حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ دالًّا على تمكُّن العذابِ منهم، والمُبالغة في معنى ضَياعِهم وتخبُّطهم في الضَّلال.

ويجوز أن يكون لفظُ العذابِ دالًّا على حصول الاضطراب والقلق الدُّنيويِّ، فيكون المجاز مُرسلًا بعلاقة السَّببية؛ إذ منكرو الآخرةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.

(2) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 54.

(3) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 7/ 263، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 226.

في العذابِ المُترتِّب على إنكارهم؛ لتحَقُّق الرِّجس فيهم، والكفّار في بُعدهم عن اللّه تعالى في قلَقٍ نفسيٍّ، واضطراب وعدم استقرار، فهُم في عذاب دنيويٍّ[1].

دلالةُ تقديمِ العذاب على الضَّلال، وسِرُّ العطف:

العذابُ رادعٌ عنِ الضَّلال، وفي تقديمِهِ تعجيلٌ لمَسَاءَتِهم

لمّا كان قولُ المشركين وزعمُهم مُسبَّبًا عن ضَلالهم، وكان ضلالهم سببًا لعذابهم؛ قَدَّم العذاب لأنَّه المحطُّ، وليكون ذلك أشدَّ ردعًا لمَن أراد اللّهُ إيمانَه، وفي تقديم العذابِ على ما يوجِبُه، ويُؤَدّي إليه - وهو الضَّلال - مُسارعةٌ إلى بيانِ ما يسوؤُهُم[2]، فقال: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾، أي: في الدُّنيا بمحاولة إبطال ما أراد اللّه إتمامه، وفي الآخرة لِما فيه من المعصية، فأتبَعَ العذابَ بذِكْرِ سَبَبِه[3].

ولمّا كان الضَّلال يؤدّي ضَرورَةً إلى العذاب؛ كانا كأنَّهما مترابطان لا يَنْفَصِلان بحالٍ، وجعله قرينًا له، كأنَّهما حاصلانِ في وقتٍ واحدٍ، والواوُ وإنْ لم يَدُلَّ على القِران في الوقوع، إلّا أنَّ القِرانَ في الذِّكر رُبَّما أشعرَ بالقِران في الوقوع، فمدلولُ الكلام: أنَّهم الآن في العذابِ كما أنَّهم الآن في الضَّلال، لكنَّ الثّانيَ على الحقيقة، والأوَّلَ على وجه المُبالغة والمجازِ[4].

بلاغةُ المجاز العقليِّ في إسناد البُعد إلى الضَّلال:

المبالغةُ في وصف الانحرافِ الكبير عن الحقِّ

في قوله تعالى: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الذي يوصف بالبُعْدِ الإنسانُ الضّالُّ، فالبُعد صفةُ الضّالِّ؛ إذا بَعُدَ عن الجادَّة، وكلَّما ازداد عنها بُعدًا؛ كان أكثر ضلالًا[5]، فجيءَ بالمعنى المجازيِّ هنا للمُلابسةِ بينهما؛ إذِ الفاعل يُلابس المصدَرَ، ثُمَّ شُبِّه البُعد عن

(1) الزِّين، بيان النَّظم: 3/ 375، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 22/ 4373.
(2) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 7/ 263.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 452.
(4) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 242، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 456.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 570، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 242.

الحقِّ بالبُعدِ عن الجادَّة، فأُطْلِقَ عليه الضَّلال على جهةِ الاستعارة، ثُمَّ شاع فيه، فصارت حقيقةً عُرفيَّةً فيه، فاعتُبِر في هذا المعنى أيضًا كون البُعد صِفَةً للضَّلال عن الجادَّة المعنويَّة حقيقةً، وإسناده إلى الضَّلال مَجازًا[1]، والمَجازُ هُنا يُرادُ به المُبالغة التي توحي بتَباعُدِ الضّالِّ عن الحقِّ والجادَّة المستقيمة، وذلك يقتضي شدَّةَ الانغماسِ في الباطل والانحرافِ الكبيرِ عَنِ الصَّوابِ[2].

لطيفةُ التَّعبيرِ بالبُعدِ في وصف الضَّلال بالبعيد:

الضَّالُّ البعيدُ توغُّلٌ في الانحراف تعسُّرُ معهُ العودة إلى الحقِّ

الضَّلالُ البعيدُ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ هوَ الضَّلال الذي يعسُرُ الرُّجوعُ منه إلى الهُدى؛ تشبيهًا بِمَن ضَلَّ عن محجَّة الطَّريق بُعْدًا مُتناهيًا فلا يكاد يُرجى له العودُ إليها[3]، ولمّا كان الضَّلالُ يَبْعُد بِبُعْدِ صاحبه عن الجادَّة وتوَغُّله في المهامِهِ الوعرة الشّاسعة؛ قال واصفًا له بوصف الضّالِّ: ﴿ٱلۡبَعِيدِ﴾، فبيَّن الوصفُ أنَّه لا يمكِنُ الانفكاكُ عنه[4]؛ لأنَّ مَن يُسمّي المهتديَ ضالًّا يكون هو الضّالَّ، ومَن يُسَمّي الهاديَ ضالًّا يكون أضلَّ، والنَّبيُّ ﷺ هادٍ لِكُلِّ مُهتَدٍ هدايةَ إرشادٍ ودلالةٍ[5]، فالضّالُّ كلَّما توغَّل في الطَّريق الخطأ؛ ازداد بُعدًا عن المقصودِ، فاشتدَّ ضلالُهُ، وعَسُر خلاصُه، وهذا ترشيحٌ للإسنادِ المجازيِّ[6].

دلالةُ ذِكْرِ السَّببِ بعد المُسبَّب:

توضيحُ الصِّلةِ بَيْنَ الفعلِ ومآلِهِ

البدءُ بالعذاب - وهو النَّتيجةُ النِّهائيَّةُ - تدلُّ على خطورة الضَّلالِ؛ ولذا جاء ذِكْرُ ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ هنا تفسيرًا لهذا المصير، مِمّا يُسْهِمُ في توضيح الصِّلةِ بين الفعل والجزاء، فذِكْرُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 457.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 263.
(3) الرّاغب، المُفردات: (بعد).
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 453.
(5) الجاوي، مراح لبيد: 2/ 265، والشِّربيني، السراج المنير: 3/ 350.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 151 - 152.

المُسَبَّبِ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ أوَّلًا يَجْعَلُ السّامع يتساءل عن السَّبب، مِمّا يُعزِّز أثَر ذِكْرِ ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ لاحقًا؛ لكونِه السَّببَ المُباشرَ لهذا العذاب، فذِكْرُ الضَّلال بعد العذابِ هو من ذِكْرِ السَّببِ بعد المسبَّبِ، أي: إنَّ عذابَهم في الآخرة مسبَّبٌ عن ضلالهم في الدُّنيا، وأُخِّر ذكرُ المسبَّب عن السَّبب وإن كان السَّبب مُتقدِّمًا؛ تعجيلًا للمساءَةِ، ومُراعاةً للفاصلة[1].

بلاغةُ الإدماج في الآية:

إبـــرازُ الصِّـلة الوثيقةِ بين العقيدةِ الفاسدةِ والمصير المحتومِ

في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ قابلَ اللّه تعالى في قوله: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ ما وصفوا به الرَّسولَ ﷺ بوصفَين، أنَّهم في العذاب، وذلك مُقابلُ قولِهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لأنَّ الذي يَكذِبُ على اللّه تعالى يُسلِّط اللّهُ سبحانَهُ عليه عذابَه، وأنَّهم في الضَّلال البعيد، وذلك مُقابلٌ لِقولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾، وهذا إدماجٌ يَصِفُ به حالَهُم في الآخرة مع وصف حالِهم في الدُّنيا، ويقصِدُ الإدماجُ في هذه الآيةِ إلى تحذير المشركين من مغبَّة الانسياقِ وراءَ ضلالاتهم في الدُّنيا التي سَتوقِعُهم في العذاب يوم القيامة[2]، فتتجلَّى في هذه الآية بلاغة الإدماج من خلال الرَّبط المتين بين الكفرِ بالآخرةِ والعذاب، وذلك دالٌّ على التَّرابط الحتميِّ بين العقيدة الفاسدةِ والمصير المحتوم، مِمّا يُضيف عُمقًا بلاغيًّا وقوَّةَ تأثيرٍ في نفس السّامع، فالتَّعبيرُ لا ينفرِدُ فقط بذكر عقيدتهم الفاسدةِ، بل بذكْرِ نتيجَتِها، وهي العذابُ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكذب والافتراء والبهتان:

الافتراءُ والبهتانُ كلاهما أخصُّ من الكذبِ

الكَذِبُ: هو عدَمُ مُطابقةِ الخبرِ للواقِعِ، وهذا هو القول الصَّحيحُ المختار، أو أنَّه عدمُ مطابقة الخبرِ لاعتقادِ المُخبِرِ لهُ، على خلافٍ

(1) الباليساني، حسن البيان، ص: 1961.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.

معروفٍ في ذلك، والافتراءُ: أخَصُّ منه؛ لأنَّه الكَذِبُ في حَقِّ غيرِكَ بما لا يرتضيهِ، بخِلافِ الكَذِبِ فإنَّه قد يكونُ في حَقِّ المتكلِّم نفسِهِ؛ ولذا يقالُ لمن قال: فعلتُ كذا، ولَم أفعَلْ كذا، مع عدَمِ صِدقِهِ في ذلك: هو كاذِبٌ، ولا يقالُ: هو مُفترٍ، وكذا مَن مدَح أحدًا بما ليس فيه، يقالُ: إنَّه كاذِبٌ في وصفِه، ولا يقالُ: هو مُفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ما يرتضيه المقولُ فيه غالبًا، ومنه ما ذَكَرَهُ اللّه تعالى من قول الكفّار: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لزعمِهم أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّهُ سُبحانَه مع نِسبتِه إليه.

وأيضًا قد يحسُنُ الكَذِبُ على بعضِ الوجوهِ، كالكَذِبِ في الحَربِ، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ، وعِدَةِ الزَّوجةِ، بخلافِ الافتراءِ فلا يحسُنُ بحالٍ.

وأمّا البُهتانُ؛ فهو الكَذِبُ الذي يواجِهُ به صاحِبُه على وجهِ المكابَرةِ له بما لم يُحِبَّه[1].

الضَّلال والغواية:

الضَّلالُ فقدانُ الطَّريقِ الموصلِ، والغوايَةُ العُدولُ عن الطَّريقِ القويمِ قصدًا

الضَّلال: فقدانُ ما يوصِلُ إلى المطلوبِ، وذكروا في تعريفِهِ أنَّهُ سلوكُ طريقٍ لا يوصِلُ إلى المطلوب[2]، وكلُّ عدولٍ عَنِ النَّهجِ عمدًا أَو سَهوًا قَليلًا كانَ أو كثيرًا[3]، فَهوَ ضلالٌ، وفي باب الحقِّ والباطلِ يكون الضَّلالُ عدولًا عن الطَّريقِ المستقيم[4]، وقد يكون عن قصدٍ أو عن غيرِ قَصْدٍ، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الجاثية: 23]، وقال اللّه سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104]، أمّا الغوايةُ؛ فهي جَهْلٌ عَن اعتقادٍ فاسدٍ[5]، فلا يكون للغاوي مَقْصِدٌ إلى الطَّريقِ المُستَقيم[6]، فالغواية

(1) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 47، والكفوي، الكلِّيّات، ص: 154.
(2) الجرجاني: التَّعريفات، ص: 138.
(3) الكفويُّ، الكليات، ص: 567.
(4) المناويُّ: التوقيف، ص: 223.
(5) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (غوى).
(6) الكفويُّ، الكليات، ص: 576.

إمعانٌ في الضَّلال، بخلاف الضَّلال؛ فهو عامٌّ[1]؛ إذِ الضَّلالُ يكون للعاقل وغيره، فيُقال: ضلَّت الدّابَّةُ، ولا يُقال: غوتِ الدابَّة، بخلافِ الغواية فهي للعاقل المُكلَّف.

والضَّلال: نقيضُ الهُدى، قال اللّه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: 8]، وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: 79]، والغوايَةُ: نقيضُ الرُّشْد، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146]، وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256].

وقد اجتمعَ ذِكرُ الضَّلال والغواية في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النَّجم: 2]، وفيه الشَّهادةُ للرَّسول ﷺ بأنَّه راشدٌ تابع للحقِّ لَيْسَ بضالٍّ، والضّالُّ: هو الجاهلُ الَّذي يسلكُ طريقًا بغير علم، والغاوي هو العالم بالحقِّ، العادِلُ عنه قصدًا إلى غيره، فنزَّه اللّهُ رسولَهُ ﷺ وشرعَهُ عن مشابهة أهل الضَّلال كالنَّصارى، وطرائق غواية اليهود، وهي عِلْمُ الشَّيءِ وكِتمانُهُ والعملُ بخلافه، بل هو صلاةُ اللّه وسلامُهُ عليه وما بعثه اللّهُ به مِنَ الشَّرع العظيم في غاية الاستقامةِ والاعتدال والسَّداد، فأثنى عليه بكمال العِلْمِ والعمل[2].

والحاصلُ أنَّ الضَّلال أعمُّ؛ وهو ألّا يَجِدَ السّالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغوايةُ: ألّا يكونَ له إلى المَقْصَدِ طريقٌ مستقيم[3].

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 199.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 411.
(3) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 199، والتَّهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون: 2/ 1119.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ٩﴾ [سبأ: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الأدلَّةِ على صِدقِ النَّبيِّ ﷺ في جميع ما أخبَرَ به

لَمّا كان المُشرِكونَ قد أنكَروا السّاعةَ؛ لِقَطعِهم بأنَّ مَن مُزِّق كُلَّ مُمَزَّقٍ لا يمكِنُ إعادتُه، فقطعوا - جهلًا - بأنَّ اللّه تعالى لا يقولُ ذلك، فنَسَبوا الصّادِقَ ﷺ في الإخبارِ بذلك إلى أحَدِ أمْرَينِ: تعمُّدِ الكَذِبِ، أو الجُنونِ؛ شَرَعَ اللّهُ سُبحانَه يذكر البراهينَ على صِدقِ النَّبيِّ ﷺ في جميعِ ما أخبَرَ به، فبدأ بإثباتِ قُدرتِه على ذلك، وذكَرَ فيه تهديدًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرَوْاْ﴾: (رأي) تدُلُّ تصريفاتُه على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَينٍ أو بصيرةٍ، فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأمْرِ، وجمعُه الآراءُ[2]، والرُّؤيةُ: إدراكُ المَرئيِّ، وذلك أضربٌ بحسب قِوى النَّفس، فالأوَّلُ: بالحاسَّة وما يجري مجراها، نحو قول اللّه تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ٧﴾ [التَّكاثر: 6 - 7]، والثّاني: بالوَهْم والتَّخيُّل، نحو قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 50]، والثّالث: بالتَّفكُّر، نحو قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: 48]، والرّابع: بالعَقل، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النَّجم: 11]، والرَّأْيُ: اعتقاد النَّفس أحد النَّقيضين عن غلبةِ الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤيا: ما يُرى في المنام[3]، والرُّؤية بالعَيْنِ تتعدَّى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 453، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/ 195.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).

(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رأى).

إلى مفعولٍ واحدٍ، وأمّا الّتي بمعنى العِلْم؛ فإنّها تتعدّى إلى مفعولين، والرُّؤية في الآية: رُؤيةٌ بصريَّةٌ، والمقصودُ بها: حثُّهم على التَّأمُّل والتَّدبُّر؛ ليتداركوا عِلْمَهُم بما أهملوه[1].

2) ﴿خَلۡفَهُم﴾: أصلُ (خلف) خِلافُ قُدّام، وتكونُ اسْمًا وظرفًا، فإذا كانت اسْمًا؛ جرت بوجوه الإعراب، وإذا كانت ظرفًا؛ لم تزل منصوبةً على حالها[2]، يُقالُ: هذا خَلْفي، وهذا قُدّامي، والخَلْفُ: الظَّهْر[3]، ومن البابِ الخِلْفُ، وهو الواحدُ من أخلافِ الضَّرْع، وسُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّه يكونُ خَلْفَ ما بعدَه[4]، والمُرادُ بـ ﴿وَمَا خَلۡفَهُم﴾ هنا: ما هو وراءَ كُلِّ أحدٍ منهم[5].

3) ﴿نَخۡسِفۡ﴾ (خسف) تدلُّ اشتقاقاتُه على غُموضٍ وغُؤورٍ، وإليه يَرجعُ فُروعُ البابِ[6]، فالخَسْفُ والخَسَفُ: زلزالٌ شديدٌ تنشقُّ به الأرضُ، فتحدُثُ بانشقاقها هوَّةٌ عظيمةٌ تسقُط فيها الدّيارُ والنّاسُ، ثمَّ تنغلقُ الأرضُ على ما دَخَلَ فيها[7]، قال اللّهُ تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: 81]، ومنه الخَسيفُ: البئرُ المحفورة في حجارة يخرج منها ماءٌ كثيرٌ[8]، والمقصودُ بالخَسْفِ في الآية: انقلابُ ظاهرِ الأرضِ في باطنها من الزِّلزالِ[9].

4) ﴿نُسۡقِطۡ﴾: (سقط) تدلُّ تصريفاتُه على الوُقوعِ، وهو أصلٌ مُطَّرِدٌ، فمن ذلك: سَقَطَ الشَّيءُ يَسقُطُ سُقوطًا[10]، والسُّقوطُ: طرحُ الشَّيءِ، إمّا من مكان عالٍ إلى مكان منخفض، كسقوط الإنسان من السَّطح[11]، والمَسْقَطُ - بالفتح - السُّقوطُ، وتساقط الشَّيْءِ: تتابع سُقوطه[12]، والسِّقَطُ والسُّقاطُ: لما يقلُّ الاعتداد به[13]، والمرادُ بالسُّقوط في الآية: وقوعُ الشَّيءِ من مكان عالٍ إلى مكانٍ منخفض.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (خلف).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 153.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسف).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 165.
(8) السمين، عمدة الحفاظ: (خسف).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 162.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقط).
(11) الراغب، المفردات: (سقط).
(12) ابن سيده، المحكم: (سقط).
(13) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (سقط).

5) ﴿كِسَفًا﴾: (كسف) تدلُّ تصريفاتُه على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[1]، ومِنهُ: الكِسْفَةُ، وهي القِطعَةُ من السَّحاب والقُطنِ والصّوف، فإذا كانَ واسِعًا كثيرًا؛ فهو كِسْفٌ[2]، يقال: أعطني كِسْفَةً مِن ثوبِك، والجمع: كِسْفٌ وكِسَفٌ، ويقال: الكِسْفُ والكِسْفَةُ واحدٌ[3]، والكَسْفُ - بالفتح - مصدرُ: كَسَفْتُ البعيرَ؛ إذا قطعت عرقوبَه، وكذلك كَسَفْتُ الثّوبَ؛ إذا قطعتَه، والتَّكْسيفُ: التَّقطيعُ، والمقصودُ بالكِسَفِ في الآية: جمع كِسْفَةٍ، وهي القِطعَةُ مِنَ السَّماء التي تنزلُ، فتُلْقي الرُّعب، وقد تكون نارًا تلهبُ، وتفزع[4].

6) ﴿مُّنِيبٍ﴾: (نوب) تدلُّ اشتقاقاتُهُ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إِلَيْهِ[5]، يُقال: نابَ نَوْبًا ونَوْبَة، وسُمّي النَّحل نوبًا؛ لرجوعها إلى مقارِّها، والإنابة إلى اللهِ تعالى: الرُّجوعُ إليه بالتَّوبة وإخلاص العمل، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 24][6]، ويُقال: فلانٌ ينتاب فلانًا، أي: يقصده مرَّةً بعد أخرى، والمُنيبُ مَنْ أنابَ؛ إذا رَجَعَ[7]، والمقصودُ بالمُنيبِ هنا: الرّاجعُ بفكرِه إلى البحثِ عمّا فيه كمالُهُ النَّفسانيُّ وحُسْنُ مصيره في الآخرةِ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من قدر على خَلْق الأجرام العظام لا تعجزه إعادة الأجسام

يقولُ اللهُ سبحانه مُنبِّهًا الكفّار على قدرتِه، ومهدِّدًا لهم بسوءِ العاقبةِ؛ إذا ما استمَرّوا في ضلالِهم وجهالاتِهم: أفلم ينظر هؤلاء المكذِّبون بالمعاد، الجاحدونَ للبعثِ بعد المماتِ إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم مِنَ السَّماءِ والأرضِ؛ فإنْ نَشَأْ؛ نُغَيِّبْهم في باطنِ الأرضِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كسف).
(2) ابن عباد، المحيط في اللُّغة: (كسف).
(3) الجوهري، الصحاح: (كسف).
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4453.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نوب).
(6) الراغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (نوب).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (نوب).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 154.

أو نأمر السَّماء، فتسقط عليهم كِسَفًا، فإنّا إن نشأ أن نفعل ذلك بهم؛ فعَلْنا، لكنّا نُؤخِّره لحِلْمِنا، وعفونا، إنَّ في ذلك لَدَلالةً لكُلِّ عبدٍ تائبٍ إلى اللّه تعالى راجعٍ إليه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

الانتقالُ إلى ذِكرِ البُرهان الحِسّيِّ المقرونِ بالتَّهديد في مواجهة الإنكار

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لكونِهِ استِئنافًا مَسوقًا لِتَهويلِ ما اجْتَرؤوا عليه، وقالوه مِن تَكذيبِ آياتِ اللّه تعالى، واستِعظامِ ما قالوا في حقِّه ﷺ، وأنَّه مِن العظائم الموجِبةِ لِنُزولِ أشدِّ العِقابِ، وحُلولِ أفظَعِ العذابِ مِن غَيرِ رَيْثٍ وتأخيرٍ(2)، ويأتي الفصلُ في هذه الآيةِ لإبرازِ الانتقال إلى خطابٍ حِسّيٍّ مُباشرٍ ممزوجٍ بتهديدٍ لإرادَةِ تنبيهِ العقول إلى ما هو مشاهَدٌ محسوسٌ مِنَ البراهين الدّالَّة على القُدرة والعظمة، مِمّا يقطع عُذرَ المُشركين، ويُثبت قُدرة اللّه على الخلق والبعث، فهو استئنافٌ مسوقٌ لتذكيرهم بما يُعاينون، مِمّا يَدُلُّ على كمال قُدرته ﷻ(3)؛ وتنبيهِهم على ما يَحتمِلُ أنْ يقَعَ مِن الأمورِ الهائلةِ في ذلك؛ إزاحةً لاستحالتِهم الإحياءَ حتَّى جَعَلوهُ افتراءً وهُزْءًا، وتَهديدًا عليها، والمعنى: أَعَموا، فلمْ يَنظُروا إلى ما أحاطَ بجوانبِهم مِن السَّماءِ والأرضِ، ولم يَتفكَّروا أهُم أشَدُّ خلقًا أم هي(4)؟.

دلالةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

التَّأكيدُ على وُجوب التَّأمُّل في آيات الخَلْقِ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾ خرجَ عن أصلِهِ من الدِّلالة على طلب العلم بشيءٍ لم يكُن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 218، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 264، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 496، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 62.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 285.

(4) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 242، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 286.

معلومًا مِنْ قبلُ، بل المقصودُ بالاستفهامِ التَّعجيبُ المقرونُ بالتَّوبيخ والإنكارِ على انتفاء تأمُّلهم فيما بين أيديهم وما خلفهم مِنَ السَّماء والأرض، أي: مِنَ المخلوقات العظيمةِ الدّالَّة على أنَّ الذي قَدِرَ على خَلْقِ تلك المخلوقات من عدَم، هو القادرُ على تجديدِ خَلْقِ الإنسانِ بعْدَ العَدَم[1]، فهذه الآيَةُ تَدُلُّ على وجوبِ النَّظَرِ والاعتبارِ فيما حصَلَ مِن الآياتِ في السَّماءِ والأرضِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ يُرادُ بِه التَّوبيخُ، ولا يوبَّخون إلّا على تَركِ واجبٍ[2].

دِلالةُ العطفِ بالفاءِ:

الفاءُ في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾ عاطفةٌ على مُقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ، ومِن معانيها: التَّفريعُ، فهي تفرِّعُ ما بعدها على قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ رُؤية مخلوقاتِ اللّهِ تعالى في السَّماء والأرض من شأنها أن تهديَهُم لو تأمَّلوا حَقَّ التَّأمُّل[3].

تقريرُ التَّلازمِ بَينَ الإيمانِ والتَّأمُّلِ في آيات الخلقِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ دونَ الواوِ:

جاءَ التَّعبيرُ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ دون الواو؛ لأنَّ الاعتبارَ فيها بالمُشاهَدة، ولِشِدَّةِ اتِّصالها بما قبلَها[4]؛ لأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الذين قَسَموا الكلامَ في النَّبيِّ ﷺ، وقالوا: محمَّدٌ إمّا غافلٌ أو كاذبٌ، وإمّا مَجنونٌ هاذٍ، وهو قولُهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾، فقيل لهم: بَل تَركْتُم القِسمةَ الثّالثةَ، وهي: إمّا صَحيحُ العقلِ صادقٌ[5].

بَيانُ شِدَّةِ التَّرابُطِ بين الجُملتين

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ جُملةٌ إنشائيَّةٌ مصدَّرةٌ بالاستفهام

بيانُ عماهُم عَنِ التَّفكُّرِ في آياتِ الله

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 83.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.
(4) الزَّركشي، البرهان: 4/ 150.
(5) الكرماني، أسرار التَّكرار، ص: 208، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/ 383.

والنَّفي، ومعنى الاستفهامِ عن انتفائِها منهم: انتفاءُ آثارِها من الاستدلالِ بأحوال الكائناتِ السَّماويَّة والأرضيَّة على إمكانِ البَعْثِ، فَشَبَّه وجود الرُّؤية بعدمها، واستُعير له حرف النَّفيِ بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والمقصود: حثُّهم على التَّأمُّل والتَّدبُّر؛ ليتداركوا عِلْمَهُم بما أَهْمَلوه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الرُّؤية) في الفعل ﴿يَرَوْا﴾:

لفظُ الرُّؤيةِ جامعةٌ بين النَّظر والدَّعوة إلى التَّأمُّل

الرُّؤيةُ في الآية الكريمة بصريَّةٌ في قول بعض أهل العلم بالتَّفسير، بقرينة تعديتها بحرف ﴿إِلَىٰ﴾، ومعنى الاستفهامِ عن انتفائِها منهم: انتفاءُ آثارها مِن الاستدلال بأحوالِ الكائنات السَّماويَّة والأرضيَّة على إمكان البَعْث[2].

والأَوْلى أن تكونَ شاملةً للرُّؤية البصريَّة التي بمعنى النَّظر، والرُّؤية القلبيَّة التي بمعنى العلم والتَّفكُّر، والمعنى: أنَّ اللّه يحثُّهم على أن يتفكَّروا حَثًّا يُراد به التَّهديد[3].

وجاءَ التَّعبيرُ بالرُّؤية دون الإبصارِ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ قوَّةٌ في العين تَنْقُل صورَ الأشياء، فيُدْرِكُها العقل، وتلك هي الرُّؤية، ثُمَّ يحصل العلم بالمرئيِّ، فكأنَّها مراحلُ مُتتابعة[4]، فيكون ذلك دعوةً إلى التَّأمُّل والتَّفكُّر، وليس مُجرَّدَ النَّظرِ المجرَّدِ بالعَين، فهُم يُصبحون، ويُمسون على آثار اللّه دون أن يُعمِلوا عقولهم فيها، فاختيارُ النَّظمِ الكريم لِلَفْظِ الرُّؤيةِ في الآية أَدخلُ وأعمقُ دلالةً على الجمع بين النَّظر والدَّعوة إلى التَّأمُّل[5].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 79.
(4) المنجد، الترادف في القرآن، ص: 182.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 457.

إظهارُ تقصيرِهم الدّائم في التَّأمُّل في آيـات اللـه تَعالى

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارع المنفي ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾:

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعل المُضارع ﴿يَرَوْا﴾ يوحي بالدَّوام والاستمرار، مِمّا يَقْتَضي أنَّ عدمَ تأمُّلهم في هذه الآيات ليس أمرًا عارضًا، بل هو سلوكٌ مُتكرِّرٌ ومتأصِّلٌ فيهم، فاللّه ﷻ يوبِّخهم على إهمال مُستمرٍّ رُغْم تكرار المشاهد الكونيَّة التي تُحيط بهم.

والنَّفيُ في الآيةِ ليس نفيًا مجرَّدًا، بل يتضمَّنُ الإنكار عليهم؛ لإظهارِ تَقْصيرِهِم المستمرِّ في أداء واجبِ التَّأمُّل في آيات اللّه سُبحانَهُ.

تعميقُ التَّوبيخِ الموجَّه إليهم وتقويته

بيانُ مرجعِ الضَّمير في: ﴿يَرَوْا﴾:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾، أي: أَعَميَ هؤلاء الكُفّار الذين لا يُؤمنون بالآخرة[1]، وغَشيَت أبصارُهم، فلم يروا ما أحاط بهم مِن آثار قدرةِ اللّه في السَّماء والأرض، مِن أجرام فلكيَّة وعوالمَ ذريَّة وخَلْقٍ كبير وآخر صغير، وكُلُّ ذلك آياتٌ شاهدة وأدلَّة ناطقة بقُدرة اللّه تَعالى على البعثِ والنُّشور، فليرتدعوا عن جهْلِهم، وليَنْزَجروا عن تكذيبهم[2]، فالضَّميرُ في قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ راجعٌ لهؤلاء الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ، حيث وقَّفهم اللّه تعالى على قُدرته، وخوَّفهم من إحاطتها بهم[3]، والتَّعبيرُ بالضَّمير يربط بَيْنَ الآيات السّابقة التي وصَفتْ هؤلاءِ المُكذِّبين، وذكرتِ اتِّهاماتهم للنَّبيِّ ﷺ (بالكذب أو الجنون)، وبَيْنَ التَّوبيخِ على عدم التَّفكُّر في آيات الكون، وهذا يُعمِّق التَّوبيخَ الموجَّه إليهم ويقوّيه؛ إذْ يُظهر أنَّهم لَو أَعْمَلوا عُقولَهُم؛ لرأوا الأدلَّة التي تُبْطِلُ ادِّعاءاتِهم.

إبرازُ اسْتِنْكافِهِم مَعَ وضوحِ الأدلَّةِ تنبيهٌ على بُعدهم عَن الإدراك النّافع

معنى حرف الجرِّ ﴿إِلَى﴾:

نبَّهَ النَّظمُ الكريم على أنَّ الكفّارَ في مَحَلٍّ بُعْدٍ عن الإبصار

---

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 522.

(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/ 271، وجمال، التَّفسير الفريد، ص: 2524.

(3) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 4/ 364، وابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 406.

النّافع بحرف الغايةِ ﴿إِلَىٰ﴾، فقال: ﴿إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أي: أمامهم[1]، وهذا يُشير إلى أنَّ المُشركين في حالٍ تجعلهم بعيدين عن النَّظرِ النّافع المُفيد، حتَّى مع وجودِ هذه الآيات الكونيَّةِ أمام أعينهِم، فهُم لم يَصِلوا إلى الإدراكِ الصَّحيح الذي كان يجبُ أن ينتهيَ إليه هذا النَّظرُ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول في قوله: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾:

إفادةُ الشُّمولِ لكُلِّ ما هو موجودٌ بين أيديهم من المخلوقاتِ

قوله: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أي: ما يستقبلُهُ كلُّ أحدٍ منهم، وما يقع عليه نظرُه مِنَ الكائنات السَّماويَّة والأرضيَّة الدّالَّة على أنَّ الذي قدَّرَ على خلقِ تلك المخلوقاتِ مِن عدَمٍ هو قادر على تجديدِ خلقِ الإنسان بعد العدم[2]، فالتَّعبيرُ بالموصولِ ﴿مَا﴾ يدلُّ على العموم، فهو يُفيد شمولَ كُلِّ ما هو موجود بين أيديهم، سواءٌ أكان من المخلوقات القريبةِ أمامَهم أم البعيدة، وهذا ما يوسِّع دائرةَ الأشياء التي يَجِبُ أن يُلاحظوها، ويتأمَّلوا فيها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالبينيَّة ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾:

الإشارةُ إلى ما هو حولهم وفي متناولِ أبْصارِهم

معنى ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾، أي: أمامهم ووراءهم مِمّا حولهم من السَّماء والأرض، فلا سبيلَ لهم إلى فَقْدِ ذلك عن أبصارهِم ولا عدم إحاطتِهِ بهم[3]، فالبَينيَّة تُشير إلى أنَّ الدَّلالات والآيات واضحةٌ وقريبة لأبصارِهم، لكنَّهم أهملوا التَّدبُّرَ فيها.

دلالةُ العطفِ بـ (الواو) في ﴿وَمَا خَلۡفَهُم﴾:

إبرازُ قُدرة الله سُبحانَهُ وإحاطته بتَعداد مَلكوته

عَطَفَ النَّظمُ الكريم ﴿وَمَا خَلۡفَهُم﴾ على ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لِما بَيْنَ المعطوفِ والمعطوف عليه من التَّناسُبِ؛ إذ يجمعهما جامعٌ وهميٌّ، وهو التَّضادُّ والتَّقابل البديعي الذي يدلُّ على إحاطة قُدرة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 453.

(2) الشَّيخ علوان، الفتوحات الإلهية: 6/ 209، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 154.

(3) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 4/ 406، والخطيب، التفسير القرآني: 11/ 781.

اللّه بهم، وزاد من حُسنِ العطفِ وبهائه تقديمُ المعطوف عليه؛ لأنَّهُ أدلُّ على الإحاطة.

واختير حرفُ العطفِ (الواو)؛ لكونِهِ أدلَّ مِن غيرِهِ؛ إذِ المقامُ يقتضي إبْرازَ قُدرةِ اللّه تعالى وإحاطَتِه بتَعْدادِ مَلكوته[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول في ﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾:

الإشارةُ إلى كلِّ ما هو مُدركٌ مِنَ الآياتِ الشاهدة على قدرة اللّه تَعالى

قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾، أي: من آياتٍ شاهدة وأدلَّة ناطقة بِقدرة اللّه سبحانه، وعلى علمِهِ الكامل المحيط بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ[2]، فالموصول ﴿مَا﴾ يدلُّ على العمومِ؛ إذْ يُشير إلى كلِّ ما هو موجودٌ أمامَهُم وخلفهم من مخلوقاتٍ وظواهرَ كونيَّة، والتَّعبيرُ به فيه إشارةٌ إلى أنَّ آياتِ اللّه كثيرةٌ لا تُحصى، مِمّا يجعل تجاهُلَها ضربًا مِنَ التَّعنُّت والإعراضِ المُتَعَمَّدِ، ودليلًا على العِناد والعَمى عن الحقائقِ.

بديعُ الطِّباقِ في الآية:

الإعلامُ بإحاطةِ الأدلَّةِ والآياتِ مِن جميعِ الجِهات

بين قولِهِ تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ بمعنى أمامِهم، وقوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾ طباقٌ، وفي هذا الطِّباقِ إشارةٌ إلى جميع الجوانبِ مِن كلا الخافِقَين[3]، فالجمعُ بين ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ و﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾ يوحي بإحاطة الأدلَّةِ والآيات من جميع الجِهات، فالأشياءُ القريبة (الأمام) والماضي أو الأمور التي غابت عنهم (الخلف) كلُّها تَحْوي إشاراتٍ دالَّةً على قدرة اللّه تَعالى، وهذه الإحاطةُ الكاملةُ تشعِرُ بأنَّ الحقائقَ الإيمانيَّة حاضرةٌ في كُلِّ وقتٍ ومكانٍ.

دلالةُ الكنايةِ بِذكْرِ ما هو أمامهم وما خلفهم:

إحاطةُ العلم الإلهيِّ وقُدرته بكُلِّ شيء

في قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ ذِكْرُ إحاطةِ الأدلَّة والآيات بحواسِّ الإنسان وبصيرته من كلِّ جانبٍ، وفي ذلك كناية

(1) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 62.

(2) الحجازي، التَّفسير الواضح: 3/ 129.

(3) الشّربيني، السراج المنير: 3/ 350.

عن إحاطة آياتِ اللّه تَعالى بهم قُدرةً وعِلْمًا، وهي كنايةٌ عن صفة، وهذه الكنايةُ تَقصِد إلى إبراز صفةِ الإحاطةِ، وهي إحاطةُ العلمِ الإلهيِّ وقُدرته بكلِّ شيء[1].

بلاغةُ الحذفِ في الآيةِ الكريمة:

طيُّ ما دلَّ السّياق على تَعْيينه

قوله تعالى: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾، أي: إنَّ الآياتِ يُشاهدونها عيانًا، ولكنْ لا يُعْمِلون أفكارَهم فيها، أو أنَّهم يتجاهَلونَها[2]، فحَذْفُ الموصوفِ (الآيات أو المخلوقات) في هذه الجملةِ يُحقِّق إيجازًا بلاغيًّا، والمحذوف ظاهِرٌ من السّياق.

توجيهُ الاقتصارِ على ذِكْرِ الأمامِ والخَلْفِ دونَ الأَيْمان والشَّمائل:

دقَّةُ البيانِ القرآنيِّ في انتقاء الألفاظ الملائِمَة لسياقاتِها

المُرادُ بـ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾: ما يستقبله كُلُّ واحدٍ منهم مِنَ الكائناتِ السَّماويَّة والأرضيَّة، وبـ﴿وَمَا خَلۡفَهُم﴾: ما هو وراء كُلِّ واحدٍ منهم، فإنَّهم لو شاؤوا؛ لنظروا إليه بأن يَلتَفِتوا إلى ما وراءَهم، وذلك مثل أن ينظروا إلى النِّصف الشَّماليِّ ليلًا، ثُم يَنْظروا إلى النِّصف الجنوبيِّ، فيروا كواكبَ ساطعةً، بعضُها طالعٌ من مَشْرِقه، وبعضُها هاوٍ إلى مغربِه، وقمرًا مُختلفَ الأشكالِ باختلاف الأيّام، وفي النَّهار بأن ينظروا إلى الشَّمسِ بازغةً وآفلة، وما يُقارِن ذلك من إسْفارٍ وأصيل وشفَقٍ، وكذلك النَّظرُ إلى جبال الأرض وبحارها وأوديتها وما عليها من أنواع الحيوان واختلاف أصنافه[3].

ولم تُذكرِ الأيمانُ والشَّمائِلُ كما ذُكِرَت في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: 17]؛ لأنَّه وُجِدَ هنا ما يُغْني عن ذِكرِهما مِن لَفظِ العُمومِ والسَّماءِ والأرضِ، بخِلافِه موضع الأعراف[4].

---

(1) قاسم، عقد الجُمان، ص: 913، وآل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 61.
(2) الباليساني، حُسن البيان، ص: 1962.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 153.
(4) الأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 465.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ دالٌّ على التَّبعيض[1]، فلم تُطلَب من النّاس الإحاطةُ بجميع أسرار السَّماوات والأرض، بل يكفيهم تدبُّر جزءٍ يسيرٍ مِنْهُما؛ لأنَّ كلَّ جزءٍ مِنْهما يحمل آياتٍ كافيةً؛ للدِّلالة على قدرة اللّهِ تعالى على الخلق والبعث، دون حاجةٍ إلى تتبُّعِ كُلِّ تفاصيل الكونِ.

تدبُّرُ جزءٍ مِنَ الكونِ كافٍ لإثباتِ الحقِّ

بلاغةُ المجازِ في ذكر ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

في كلمتَي السَّماء والأرض مجازٌ مرسل بعلاقة المحلِّيَّةِ، فقد أُطلِقتا على محويّاتِهما، كما أُطلِقَتِ القرية على أهلها في قوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82][2]، ويتجلّى المجازُ في هذه العبارةِ مِن خلال التَّعبير عن ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وإرادة ما تَضمّانه ممّا أودعَهُ اللّهُ تعالى فيهما مِنْ كواكبَ ونجوم ونباتاتٍ، وهذا التَّعبيرُ المجازيُّ يُثري السّياق، ويدعو إلى التَّأمُّل فيما تَحْويه هذه العوالمُ من آياتٍ وعجائبَ دالَّةٍ على القدرة الإلهيَّة.

السَّماءُ والأرضُ وعاءٌ جامعٌ لما أَوْدَعَهُ الله تعالى فيهما

دلالةُ إفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

لَمّا لم تدعُ حاجةٌ إلى الجمعِ في لفظَي ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أَفْرَدَ النَّظمُ الكريم كُلًّا منهما، فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وهذا راجعٌ إلى بيان المُلْكِ الشّامل المذكور في مطلع السّورة: أنَّ للّه كُلَّ ما فيهما[3]، فأُفردتِ اللَّفظتانِ لتوجيه النَّظرِ إلى جنس السَّماء والأرض الشّامل لِكُلِّ ما تحويهما.

توجيهُ النَّظرِ إلى جنس السَّماء والأرض

كما أنَّه تعالى ذكَّرهم بأظهر شيءٍ يُعاينونَه حيثما وُجِدوا، ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا، وفيه دليلٌ على قدرتِه سُبحانه على البعثِ والإحياء، فإنَّ مَن قَدِرَ على خلْقِ تلك الأجرامِ العِظام؛

مِن خَلَقَ تلك الأجرامَ العِظام؛ لا تُعجزه إعادةُ الأجسام

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 153، وأطفيش، تيسير التفسير: 11/ 371.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 153.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 454.

لا تعجزه إعادة الأجسام، فهي إذا قيسَتْ بها؛ كانت كأنَّها لا شيء، كما قال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: 81][1].

بديعُ المُطابقة بذكر ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

الــدَّلالــةُ على الإحاطة الكونيَّة المـفـيـدةِ كـمالَ عـظـمـة الـلـه وقُدرته

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: أَعَموا، فلم ينظروا إلى السَّماء والأرض، وأنَّهما أينما كانوا، وحيثما ساروا؛ وجَدوهُما أمامَهُم وخلفَهُم مُحيطتَيْن بهم، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما، وأنْ يخرجوا عمّا هُم فيه من ملكوتِ اللّٰهِ تعالى[2].

وبَيْنَ كلمتَي ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ طباقٌ، وهو مفيدٌ إحاطةَ ملكوت اللّٰه بهم، وتعدَّت بذلك حاسَّةُ البصر إلى الإدراك بها أن تكونَ محسوسةً بين أيديهم وخلفهم؛ تمهيدًا إلى التَّهديد بخَسْفِ الأرض بهم أو إسقاط السَّماء عليهم كِسَفًا، وذلك ليُدْرِكوا قوَّةَ الخالق وقُدرته في التَّصرُّف بملكوته الذي هو سبَبٌ في رِزْقِهم، فيجعل اللّٰه تعالى ذلكَ سببًا في هلاكهم[3].

دلالةُ الإطناب بذكر ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

إيضاحُ الصّورة بـالـتَّـفـصـيـلِ والإطنابِ

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ينظرون إلى ما خلقَهُ اللّٰه في كونهِ مِنَ السَّماء والأرض، وذلك بالنِّسبة إليهم: بعضُه بين أيديهم، وبعضُه خلفهم، فمِن مواقع أقدامِهم إلى جهة امتداد بصرهم: شَطْرُ الأرض وشطرُ السَّماء، وهو واقعٌ بين أَيْديهِم، ويُقابلُه مِنَ الجهةِ الأخرى ما هو واقعٌ خلفهم، وجاءت العبارةُ على التَّفصيل والإطناب؛ لإيضاحِ الصّورة والإرْعابِ.

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 62.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 65.

(3) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 61.

عِلَّةُ فَصْلِ قوله: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

التَّحذيرُ مِن إهمالِ التَّفكُّرِ بعد الدَّعوةِ إليه والدَّلالة عليه

فُصِلَت قول اللّه تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا لفعل الرُّؤيةِ الدّاعي إلى التَّفكُّر في السَّماء والأرض؛ لكون قولِ اللّه تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ﴾ جوابًا عن سؤال تضمَّنَتهُ الجُملة المتقدِّمة، والتَّقدير: ماذا سيفعلُ اللّهُ بهم إن تجاهلوا أمرَ التَّفَكُّرِ فيهما؟ فجاء الجواب: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ﴾، فيكون بين الجملتين شِبْهُ كمالِ الاتِّصال.

وفي هذا السُّؤالِ المقدَّر وجوابِه تحذيرٌ من إهمال التَّفكُّرِ، وتهديدٌ عن التَّغافلِ عنهُ بعدَ الدَّعوة إليه والدَّلالة عليه.

بلاغةُ الاعتراضِ في قوله: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

تأكيدُ القُدرة الإلهيَّة بالتَّذكير بِمصائر المُكذِّبين

قول اللّه تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ واردٌ على جهة الاعتراض، والمقصودُ به التَّهديدُ، وهو مناسبٌ للتَّعجيب الإنكاريِّ المتقدِّم بما يُذكِّرهم بقُدرة خالقِ تلك المخلوقات العظيمة على عقاب الذين أشركوا معه غيرَهُ، والذين ضيَّقوا واسعَ قُدرتِه، وكذَّبوا رَسولَهُ ﷺ، وما يخطر في عقولِهم ذِكْرُ الأمم الَّتي أصابها عقابٌ بشيءٍ من الكائنات الأرضيَّة كالخسف، أو السَّماويَّة كإسقاط كِسَفٍ مِنَ الأجرام السَّماويَّة، مثل ما أصاب قارونَ مِنَ الخسفِ، وما أصاب أهلَ الأيكةِ من سُقوط الكِسَفِ[1].

فعندما لفَتَ النَّظمُ الكريم أنظارَهم إلى السَّماوات والأرض، وما يترتَّب مِنَ التَّأمُّل فيهما من التَّوبة والرُّجوع إلى اللّه، والتَّذكير بإحاطة السَّماءِ والأرضِ وما فيهما من آياتِ اللّه؛ ناسبَ أن يُؤتى بالجملة الاعتراضيَّة: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ في مقام التَّهديد، وفيه إشارةٌ إلى مصارعِ الأمم السّابقةِ، فالمعنى: إن نشأ؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 153.

نخسف بهم الأرض كما خَسفناها بقارون، أو نسقط عليهم كِسَفًا - أَيْ: قِطَعًا - من السَّماء، كما أسقطنا على أصحاب الأيكةِ؛ لتكذيبِهم بالآياتِ بعد ظهور البَيِّنات[1].

التَّنبيهُ على بُلوغِهم في التَّقصيرِ مَبْلغًا يستحقّون به العذابَ

كما أنَّ في جُملةِ الاعتراض التَّأكيدَ على تقصيرهم، والتَّنبيهَ على أنَّهم بلغوا فيه مبلغًا يستحقّون بِهِ في الدُّنيا فضلًا عن الأخرى نزولَ أشدِّ العقابِ وحلولَ أفظعِ العذاب، وأنَّه لم يبقَ من أسباب ذلك إلّا تَعلُّقُ المشيئةِ بهِ[2].

نُكتةُ تقييدِ فعل المشيئةِ بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

الدّلالةُ على إمهالِ اللهِ لهم ورحمته بهم

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بـ ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾، وهي شرطيَّةٌ تدلُّ على تقييد حصول الجزاءِ بحصول الشَّرط في الاستقبال، مثل قولِكَ: إن جئتَني؛ أكرمتُك، ومثلها (إذا)، إلّا أنَّ الفرقَ بينَهُما هو أنَّ (إنْ) تدلُّ على الشَّكِّ في وقوع مدخولِها، بخلاف (إذا)؛ فإنَّها تدلُّ على القطعِ والجزم بوقوع مدخولِها، وبهذا نُدرك السِّرَّ في اختيار ﴿إِن﴾ دون (إذا) في الآيةِ الكريمةِ؛ لِما في معنى ﴿إِن﴾ وتعليق المشيئةِ بها من دلالةٍ على إمهالِ اللّهِ تعالى لهم ورحمته بهم؛ لعلَّ تفكُّرَهُم بآياتِهِ يُنَجّيهم من عقابهِ المُحدِقِ بهم، وفي التَّعبير بها أيضًا تَنبيهٌ على أنَّه لم يَبْقَ مِن أسبابِ وُقوعِ العذابِ إلّا تَعلُّقُ مَشيئةِ اللّهِ به[3].

لطيفةُ إسنادِ فِعْلَي المشيئة والخسف إلى ضمير العظمة:

إظهارُ عظمةِ المشيئةِ الإلهيَّة وتعظيم عذابه النّازل على مَن عصاه

في قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ دلالةٌ على أنَّ ما يحصُلُ من الخَسْفِ والزَّلازلِ والنَّوازلِ، فإنَّه بإذْنِ اللّهِ؛ عقوبةً للعِبادِ واعتبارًا، خلافًا لِمَن قال: إنَّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 286.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123.

هذه أمورٌ طبيعيَّةٌ لا تدُلُّ على غضبِ اللّهِ ولا على إنذارِه - كما هو رأيُ مَن لا يؤمنُ باللّهِ تعالى - فالخَسْفُ في الأرضِ عقوبةٌ، وما يأتي مِنَ الصَّواعقِ والكوارثِ الأفقيَّةِ عقوبةٌ أيضًا[1]، ولمّا كان الإنكارُ لائقًا بمقام العظمة، فكان المعنى: إنّا نفعلُ بهما وفيهما ما نشاءُ؛ عبَّر بقوله: ﴿إِن نَّشَأۡ﴾، أي: بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ[2].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿نَخۡسِفۡ﴾:

التّكاملُ الدّلالي للقراءات القرآنيّة

قرأ جمهورُ القرّاء ﴿نَّشَأۡ﴾ و﴿نَخۡسِفۡ﴾ و﴿نُسۡقِطۡ﴾ بالنّون، وذلك بإسنادِ الأفعال الثّلاثة إلى نون العظمة؛ تعظيمًا لشأن مشيئة اللّه تعالى وعذابه الذي يحل بأهلِ الكُفر والضَّلالِ، ويكون في الآيةِ التفاتٌ؛ لأنَّ الكلامَ في الآية المتقدّمة كان على الغَيبةِ ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فعُدِلَ عن الغيبَةِ إلى التَّكلُّم؛ لأنَّ التَّكلُّمَ أدخَلُ في التَّرهيبِ والتَّخويف.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفُ البزّار الأفعالَ الثّلاثة بالياء ﴿يَشَأۡ﴾ و﴿يَخۡسِفۡ﴾ و﴿يُسۡقِطۡ﴾ على الغَيبة[3]؛ بناءً على أنَّ في الأفعال المذكورة ضميرًا مستترًا يعودُ إلى اللّه سُبحانَهُ المذكور في قوله قبلُ: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

وأدغم الكسائيُّ الفاءَ في الباء ﴿يَخۡسِف بِّهِمُ﴾، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّه سُبحانه قد يفعل ذلك في أسرع من لَمحِ البصر، وأمّا على قراءة مَن أظهَرَ؛ ففيه إيماءٌ إلى أنَّ اللّه تعالى يوقِعُ الخسْفَ على وجهِ الوضوح[4].

دلالةُ ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ نُسۡقِطۡ﴾:

الدّلالةُ على تنويع العقوباتِ والإشارة إلى إحاطتها بالظّالمين

قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: الّتي تحتهم، كما خَسَفنا بقارون ﴿أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الّتي هي

---

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 83.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 454.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 349، وابن البنّا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 458.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 454.

فوقهم[1]، فحرف ﴿أَوْ﴾ يُبرزُ تنويعَ العقوبات، وأنَّ هُناك طرائقَ للعذاب وأساليب لَهُ، فالسَّماءُ والأرضُ مُحيطتان بهم، فيعلمون أنَّه لا مهربَ لهم مِنَ اللّه[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى إحاطةِ عقوباتِ اللّه سُبحانَهُ وقدرته على كلِّ شيء.

لطيفةُ إسنادِ فعل الإسقاطِ إلى ضميرِ العظمةِ:

إبـرازُ الهيمنةِ المُطلقة للهِ ربِّ العالمين

قولُ اللّه تعالى: ﴿نُسۡقِطۡ﴾ فعلٌ مضارعٌ، فاعلُهُ ضمير مستتر وجوبًا، تقديره: نحن، وذلك راجعٌ إلى اللّهِ ﷻ، والمعنى: لفعلنا ذلك بقدرتنا عليهم؛ جزاءَ ظُلمِهم وكفرِهم، ولكنّا نُؤَخِّر ذلك عنهم لِحِلْمِنا، وهذا يُشير إلى هيمنتِهِ المُطلقة على الكونِ وقُدرتهِ على التَّصرُّف بالعظمة والجلال.

وإسنادُ الفعل إلى ضميرِ الكِبْرياء يُفيد التَّعظيمَ والتَّفخيمَ، وهذا مِمّا يُضْفي جلالًا وهيبَةً على فِعْلِ العقابِ[3].

بلاغةُ المُقابلة في الآية الكريمة:

بيـانُ قَـهْـرِ الله تـعـالى لـلـعبادِ وأنَّــه لا مـهـربَ لَهُم مِن عذابه

تَبْرُزُ المقابلةُ في قوله: ﴿نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ بَين معنى الاستعلاءِ والمُصاحبة، وبين الأرض والسَّماء، ولا يخفى ما في ذلك مِنَ التَّرهيب والوعيد، وذلك بالمُقابلة بين هذين المَعْنَيَيْن، فقد جاءت الآية أوَّلًا بِتَنْبيهِهم إلى عظمةِ الكون الذي يعيشون فيه بما فيه مِن أسبابِ عَيْشِهم وعِمادِ حَياتِهم، ثُمَّ صعَقَتْهُم ببيانِ أنَّ ذلك الكون قد يكونُ وسيلةً في هلاكهم ومحلًّا لعقوبتهم، فلا مهربَ لَهُم؛ لأنَّهم مَهْما جَرَوا هاربين؛ فإنَّ السَّماءَ لا تزالُ فوقهم، والأرضَ تحتهم، واللّه تعالى قاهرٌ لهم متى شاء؛ خَسف بهم، أو أسقط السَّماءَ عليهم كِسَفًا[4].

---

(1) الرَّسعني، رموز الكنوز في تفسير: 6/ 214.

(2) ابن جزي، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 162.

(3) الفرماوي، السَّهل المُفيد، ص: 42.

(4) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 306، وآل مبارك، البلاغة القرآنيَّة في سورة سبأ، ص: 62.

معنى حرف الجرِّ (على):

قوله تعالى: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾، أي: قطعًا مُهلكة لهم من السَّماء، فَنَدْفِنَهُم تحتها، ومجيءُ الحرفِ (على) الدّال على الاستعلاء والهَيْمَنة يقتضي أنَّ الإسقاطَ يأتي من جهةٍ عُليا؛ ليُغَطّيَهُم، أو يُحاصِرَهُم، مِمّا يشير إلى أنَّ العذابَ سيكون مِن فوق رُؤوسِهِم في صورةِ تهديدٍ مستعلٍ، لا يمكنهم الفرارُ منه، وفي ذلك مِنَ القهرِ والغلبة ما فيه، فهو يُشيرُ إلى تَسَلُّط العقابِ عليهم، وكأنَّهم تحت سلطةِ ذلك العذاب الذي لا يُمَكِّنُهم دفعه، وهذا كلُّه يدلُّ على حقارةِ الإنسانِ وضَعْفه تُجاهَ العظمة الإلهيَّة[1].

الـدَّلالـةُ على حقارةِ الإنسانِ تُجاه العظمةِ الإلهيَّة

نُكتةُ تقييدِ فعل الإسقاط بـ ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

قُيِّدَ فعلُ الإسقاط بحرف الجرِّ (على) في قول اللّٰه تعالى: ﴿نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الضَّرر مقصودٌ على هؤلاء القومِ بعَيْنِهم، فَهُمُ الذين يستحقّون هذه العقوبةَ، بأَن تَساقَطَ عليهم قِطَعُ السَّماء؛ لِعظَمِ ما خاضوا فيه من جُحود المعاد، والاستهزاء بالمبعوثِ رحمةً للعباد ﷺ[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذه العقوبةَ نازلةٌ عليهم من فوقُ، وذلك يقتضي شدَّةَ هذا النّازل، وأنَّهُ ممّا لا يُمكِنُ صدُّهُ.

بيانُ أنَّ العقابَ مقصودٌ على هؤلاء القوم بعينِهم

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كِسَفًا﴾ مُنَكَّرًا مَجْموعًا:

قوله تعالى: ﴿كِسَفًا﴾، أي: قِطَعًا من السَّماء، كالنَّيازك والمذنَّبات والأشعَّة الكونيَّة التي تسقطُ عليهم[3] مِنَ السَّماء، فَتُهْلِكُهم عن آخرهم، فلا يَجدون مهربًا[4]، وقد وردت كلمةُ ﴿كِسَفًا﴾ منكَّرةً تعظيمًا وتفخيمًا لشأنِها؛ وذلك لإدخالِ الرُّعب في نفوس المُشركين

بَثُّ الرُّعبِ في نفوس المُشركين وزجرهم

---

(1) الزِّين، بيان النَّظم: 3/ 376.
(2) التَّعليب، فتح الرحمن، ص: 2845.
(3) الزِّين، بيان النَّظم: 3/ 376.
(4) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 306.

أن يروا السَّماء التي كانت سببًا في رزقهم قد صارت كِسَفًا عظيمةً تتساقط عليهم.

وإيرادُ لفظِ ﴿كِسَفًا﴾ مجموعًا دالٌّ على كثرةِ الكِسَفِ النّازلة عليهم من السَّماء، وهذا أدخَلُ في الوَعيد والتَّهديدِ.

دلالةُ حَصْرِ العذابِ في (الفوق) و(التَّحت):

الهلاكُ المحتومُ تهديدٌ من السَّماء والأرض لا مَفَرَّ منه

ذِكْرُ السَّماء والأرض يُفيد أنَّ القِطَعَ مِنَ العذاب نازلةٌ مِن فوقهم، وخسْفُ الأرض حاصلٌ مِنَ تحتهم، وإنَّما ذُكِرَ الفوق والتَّحت؛ لأنَّه لا يُمكن الفرارُ منهما، بخلاف اليمين والشِّمال والخلف والأمام، فإنَّهُ قد يتأتّى الفرارُ إلى جهةٍ غير الجهة الَّتي جاء مِنها العذابُ، فلو جاء عدوٌّ مِنَ الخلف؛ أمكن الفرارُ منه إلى الأمام، ولو جاء مِنَ الأمام؛ أمكنَ الفِرارُ منه إلى الخلف، لكن إذا جاء من فوق أين يذهب؟ وإذا جاءه عذابٌ مِن تحتُ؛ فإلى أيِّ جهةٍ يفِرُّ؟ فلا يستطيع الفرارُ منه أبدًا، ولهذا هدَّدهم اللّه تعالى بأَمْرَيْنِ لا يُمَكِّنُهم الفرارُ منهما[1].

سِرُّ تقديم ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أوَّلًا وتَقديم ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ ثانيًا:

إظهارُ براعةِ النَّظمِ بين الامتنان والتَّرهيب بين سياق التَّفكُّر وسياق التَّعذيب

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ نَلْحَظُ في النَّظم الكريم أنَّه قدَّم أوَّلًا ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ في سياق الأمر بالتَّفكُّر في ملكوت اللّهِ تَعالى التي تُحيطُ بِهِم على سبيلِ الامْتِنان، ثُمَّ قَدَّم المؤخَّرَ بعد ذلك في سياق التَّهديد، فالنُّفوس في أرزاقها مُعلَّقة بالسَّماء؛ لما فيها مِن أسباب العيشِ والحياةِ، فكان التَّقديم هُنا سببيًّا، أمّا في تقديم النَّظم للأرض في سياق التَّهديدِ؛ فكان الغرضُ منه التَّرهيبَ في أن يكونَ الملاذ الآمن لهم لملاصقتِهم به وعيشِهم عليه هو مكان هلاكِهم[2].

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 78.

(2) ابن الأثير، المثل السّائر: 3/ 173، وآل مبارك، البلاغة القرآنيَّة في سورة سبأ، ص: 64.

عِلَّةُ فَصْلِ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ عمّا قبلَهُ:

تعظيمُ شأنِ التَّفكُّرِ الموصلِ إلى العلمِ بِعظمة الخالقِ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ عمّا قبلها؛ لما بينهما من كمالِ الاتِّصال؛ إذ جاءت الآيةُ مُؤكِّدَةً لها لإبراز قيمة التَّفكُّرِ الذي يَتَوصَّل به العبدُ إلى عظمة الخالق، فلو أنَّهم أعملوا فِكْرَهم فيما أحاطَ بِهم مِنَ الآياتِ الكونيَّةِ؛ لتوَصَّلوا إلى حقيقة البعث، ففي النَّظرِ إلى السَّماء والأرض والتَّفكُّر فيهما - وما يدلّان عليه من كمال قُدرتِهِ تعالى - لَدلالةٌ ظاهرة على البعثِ والإنشاء من بعد التَّفريقِ(1).

معنى ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾:

التَّعليلُ المُؤكِّدُ للتَّعجيبِ الإنكاريِّ حثٌّ على التَّدبُّرِ والتَّأمُّل

قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ واردٌ على جِهَةِ التَّعليل؛ لإرادةِ التَّعجيب الإنكاريِّ باعتبار ما يتضمَّنُهُ مِنَ الحثِّ على التَّأمُّل والتَّدبُّر، فلمّا كان هذا أمرًا ظاهرًا؛ أنتج قوله مؤكِّدًا لِما لَهُم من إنكار البعث: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في قدرتنا على ما نشاءُ من كُلٍّ منهما، والتَّأمُّل في فنون تصاريفهما(2)، فموقعُ حرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ هُنا التَّعليلُ، والغرضُ من تأكيد الخبرِ الحثُّ على التَّدبُّر والتَّأمُّل، وإعمال البصائر المستفادةِ من الفعل ﴿يَرَوْاْ﴾، فليس المرادُ الرُّؤيةَ المجرَّدة بالعَيْن، بل الحثُّ على إعمالِ الرُّؤى وإطلاق الفكر بما أودعَهُ اللّه تعالى فيها مِنَ الفِطْرَةِ السَّليمة(3).

بيانُ مرجعِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ودلالته:

الإشارة إلى عظمَةِ الأدلَّةِ على قدرة الله تعالى

قولُ اللّه تعالى: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: فيما ذُكِرَ من السَّماء والأرض، من حيثُ إحاطتُهما بالنّاظرِ من جميع جوانب الكونِ الرَّحيب، وما يَرَوْنَ فيه من عجائِبِ صُنع اللّه تعالى(4).

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 65، والواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 319.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 455.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 154.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 264، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 271، والفرماوي، السَّهل المُفيد، ص: 43.

فالإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في هذه الآيةِ تعود إلى ما تقدَّم ذِكْرُهُ في الآية من أدلَّة على قدرةِ اللّه تعالى وعظمتِه، وأنَّها عظيمةُ الشَّأن تستحقّ التَّفكُّر والتَّأمُّل؛ لأنَّ المعانيَ المتقدِّمةَ مِن عجائبِ قدرة اللّه سُبحانَهُ وأدلَّته، بعيدةٌ في مكانَتِها وسُموِّها؛ ولذا جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ.

نُكتةُ تَنْكيرِ لفظِ ﴿لَأٓيَةٗ﴾، ولطيفة إفرادها:

تعظيمُ الأدلَّـةِ وتفخيم شأنها

الآيةُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾، أي: لعلامَةً عظيمةً دالَّةً على قُدرتنا على البعثِ بعد الموت[1]، فالتَّنكيرُ في لفظ ﴿لَأٓيَةٗ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ وتفخيمُ شأنِها وقدرِها، وهذا يوحي بأنَّها علامةٌ لا يُدْرَكُ مَداها إلّا بالتَّأمُّل في قدرة اللّه تعالى.

وأورِدت لفظةُ ﴿لَأٓيَةٗ﴾ مفردةً مع تَنْكيرها؛ للدِّلالةِ على أنَّ هذه الآية الواحدة عظيمةٌ بذاتها، وكافية لتَكونَ حُجَّةً قاطعة على قدرةِ اللّهِ تَعالى المطلقة.

لطيفةُ الإفرادِ في لفظ ﴿لَأٓيَةٗ﴾ وجمعها بعدُ:

التَّـصـرُّف في الألـفـاظ إفـرادًا وجَـمْـعًـا بـما يُلائِمُ السّياق

في إفراد لفظ ﴿لَأٓيَةٗ﴾ وجمعها مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ جاءت الآيةُ هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ بالإفرادِ، وقال اللّه تعالى بعْدُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾ [سبأ: 19] بالجمْعِ، ووَجْهُ ذلكَ: أنَّ الإشارةَ هُنا إلى قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾، ولم يَتقدَّمْ ما حُرِّكوا إلى الاعتبارِ به غيرُ هذا، وقد انضمَّ ذلك تحتَ ﴿مَا﴾ الموصولة، ولَفظُها مُفرَدٌ، فروعيَ الإفرادُ لأجل لفظِ ﴿مَا﴾، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ بالإفرادِ.

أمّا قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾ [سبأ:

(1) المكي، المُعين على تدبُّر الكتاب المُبين، ص: 429.

19]، فتقدَّمَهُ قولُه: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، إلى قولِه: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، ثمَّ قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: 15]، فذكَّرَ سُبحانَهُ بالاعتبارِ بما منَحَ داوودَ عليه السلام من تَسبيحِ الجبالِ والطَّيرِ معه، وإلانةِ الحديدِ، وبما سخَّرَ لِسُليمانَ عليه السلام من الرّيحِ تَحملُهُ وجُنودَه حيث شاء في السُّرعةِ التي أشارَتْ إليها الآيةُ، وإسالةِ عَينِ القِطرِ له، وعمَلِ الجِنِّ بيْن يَديْه، ثمَّ ذكَرَ ما كان لِسَبأٍ في مَساكنِهم من آيةِ الجنَّتَين عن يَمينٍ وشِمالٍ، وأكْلِهم منها، وتَنعيمِهم إلى أنْ أعرَضوا، فأرسَلَ عليهم سَيْلَ العَرِمِ، إلى آخِرِ قِصَّتِهم، فهذه المُعتبراتُ لم تَدخُلْ تحت مَوصولٍ، ولا اسمٍ مُفرَدٍ يَضُمُّ جَميعَها، بل ذُكِرَت مُفصَّلةً، فقيل إشارةً إلى جميعِها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ [سبأ: 19][1].

مَعنى (اللّام) في قوله: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾:

إظهارُ اختصاصِ أهلِ العبادةِ بالانتفاعِ بالآياتِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾ تدلُّ على الاختصاصِ، وتتجلَّى بلاغةُ الاختصاصِ مِن حيثُ إفرادُ الفِئَةِ المَعْنيَّةِ بالخطابِ، وهو كلُّ مَنْ أنابَ إلى اللّه تعالى، ورجعَ إليه، وتأمَّل في خَلْقِه[2]، وذلك دالٌّ على عِظَمِ شأنِ عبادةِ اللّه سُبحانَهُ والرُّجوعِ إليه ﷻ، فالآيةُ تُظهِرُ أنَّ هذه العلامةَ مُتوجِّهةٌ إلى العبادِ المُخلصين الذين يَتَّسمون بالتَّوجُّهِ القلبيِّ نحو خالقِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (كُلِّ):

شمولُ الخطابِ لجميعِ العبادِ المنيبينَ

لفظ (كُلّ) في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ

---

(1) أبو جعفر الغرناطي، ملاك التَّأويل، ص: 408، 409، والكرماني، أسرار التَّكرار، ص: 208، والفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/ 384، والأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 465.
(2) ياقوت، إعراب القرآن، ص: 3784، والزَّجاج، معاني القرآن، ص: 242.

مُّنِيبٍ﴾ يدلُّ على العموم والشُّمول في العباد المُقبلين إلى اللّه بالإخلاص[1]، بحيث لا يَخْرُج عنِ الخطاب أيُّ فردٍ من أفرادِ العبادِ الموصوفين بالإنابةِ، فقوله سُبحانه: ﴿لِّكُلِّ عَبۡدٍ﴾، يُفْهَمُ منه أنَّ كلَّ عبد منيبٍ - بصرفِ النَّظر عن زمانه أو مكانهِ - مشمولٌ بالانتفاع بهذه الآية، فما مِن عبدٍ يُنيب إلى اللّه سُبحانَهُ إلّا وله حظٌّ مِن هذه الآيةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ العبوديَّة ﴿عَبۡدٍ﴾، ولطيفة تنكيره:

الإشـادَةُ بمقام العبوديَّة وبيانُ عِظَمِ مقامه

قال اللّه تعالى: ﴿لِّكُلِّ عَبۡدٍ﴾ أي: مُتحقِّقٍ أنَّه مربوبٌ ضعيف مُسخَّرٌ لما يُراد منه[2]، ونُكِّر لفظُ ﴿عَبۡدٍ﴾ تعظيمًا وتفخيمًا لمقام العبوديَّة، فالآيةُ لا تُميِّز بين فردٍ وآخرَ إلّا بالنَّظَرِ إلى التَّحقُّق بالعبوديَّة للّهِ تَعالى، وفي هذا مِنَ الإشادة بمقام العبوديَّة ما فيه.

مُناسبةُ وصفِ العبدِ بالإنابةِ، وسرُّ تخصيصهِ بالذِّكر:

الرّاجعُ إلى ربِّه دائـمُ الاعتبار والاستبصار بآياتِ اللهِ تعالى

المُنيبُ هو الرّاجع بفكرهِ إلى البحث عمّا فيه كمالُهُ النَّفسانيُّ وحُسن مصيرهِ في الآخرة، فهو يُقَدِّرُ المواعظ حقَّ قدرها، ويعاود النَّظر فيها حتَّى يهتديَ، ولا يرفضُ نصْحَ النّاصحين وإرشاد المُرشدين مُرْتَديًا برداء المتكبِّرين، فلا يَخْلو حالُهُ مِنَ النَّظر في أدلَّةِ قدرة اللّه تعالى، فالرّاجع إلى ربِّه قلَّما يخلو من الاعتبارِ والاستبصار بآيات اللّه سُبحانَهُ، فيعتبر، ويَعْلَم أنَّ مَن قَدِرَ على إنشاءِ هذه الأجرام العظام؛ قادِرٌ على إحياء الأموات وبعْثِها، وحسابها وعقابها[3].

الـحـثُّ على الإنابةِ إلى الله والرُّجوع إليه

وخُصَّ المنيبُ بالذِّكر؛ لأنَّه هو المنتفعُ بالتَّفكُّر في حُجَج اللّه تَعالى

(1) الهواري، تفسير كتاب الله العزيز: 3/ 341، والقيرواني، تفسير يحيى بن سلام: 2/ 747.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 455.

(3) أبو حيان الغرناطي، النَّهر المادّ: 2/ 744، والأعرج، تفسير غرائب القرآن: 5/485، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 154.

وآياته، فيكون نَظَرُهُ للمخلوقات نظرَ فِكْرٍ وعبرةٍ، لا نظرَ غفلةٍ غيرِ نافعة[1]، فإذا تأمَّل فيما يراه، وتأمَّل قدرةَ اللّه تعالى؛ انْزجَر عن القبائح، وفي هذا حثٌّ لَهُم على سلوكِ مسلكِ الإنابة[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّظر والبصر والرُّؤية:

الإبصارُ يتميَّزُ بالوضوح، والرُّؤيةُ تتميَّز بالعلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّل

النَّظرُ هو عبارةٌ عن تقليب العين نحْوَ المرئيِّ التماسًا لرؤيته، فهو طلبُ ظهورِ الشَّيء، ويكون النّاظرُ الطّالبُ لظهور الشَّيء بإدراكهِ من جهة حاسَّة بَصَرِه أو غيرها من حواسِّه، والنَّظر بالقلبِ من جهة التَّفكُّر، والنَّظرُ هو الفكر والتَّأمُّل في أحوال الأشياء[3]، والرُّؤية هي إدراك المرئيِّ، ولذلك قد ينظر، ولا يراه، ولمّا كانت الرُّؤيةُ من توابع النَّظر ولوازمه غالبًا؛ أُجْرِيَ لفظُ النَّظرِ على الرُّؤية على سبيل إطلاق اسمِ السَّببِ على المسبَّب[4]، كما ورد في قول اللّه تعالى حكايةً لقولِ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]، فكان الرَّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يَطْلُب جماعةٌ الهلالَ، فيراهُ جماعة منهم، ولا يستطيعُ الآخرونَ رؤيتَه، مع أنَّهم جميعًا ناظرون[5]، فالفرقُ بين الرُّؤيةِ والنَّظرِ: أنَّ الرُّؤيةَ هي إدراك المرئيِّ، والنَّظر هو الإقبالُ بالبصر نحو المرئيِّ.

أمّا البصرُ؛ فهو إدراكُ العين، ويُطلق على القوَّة الباصرةِ التي من شأنِها إدراكُ أشباح الصّور[6]، والعينُ هي أداة الإبصار، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلَقُ البصرُ على

---

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 810.
(2) المنصوري، المقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 290.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 543.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/ 457.
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 543.
(6) الكفويُّ، الكليّات، ص: 247، والتّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 938.

العلم القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بَصُر بالشَّيءِ: عَلِمَهُ عن عيان، فهو بصيرٌ به(1)، قال اللّه تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينها يكون الفرقُ بين النَّظر والبصرِ كالفرق بين النَّظرِ والرُّؤيةِ، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

وحاصلُ الفرق بينها: أنَّ الإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّزُ بالعلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّلُ، وهذا ظاهرٌ في استعمالات القرآن لهذه الألفاظ.

الإياب والرُّجوع والإنابة:

الإيابُ رجوعٌ إلى مُنْتَهى المقصد، والإنـابةُ رجوع إلى الطّاعة، والرُّجوعُ أعمُّ

الإيابُ: هو الرُّجوعُ إلى منتهى المقصدِ، والرُّجوعُ يكون لذلك ولغيره، فيُقال: رجعَ إلى بعضِ الطَّريق، ولا يُقال: آب إلى بعض الطَّريقِ، ولكنْ يُقال: رجعَ إلى منزلِه، ولهذا قال أهلُ اللُّغةِ: التَّأويبُ أَنْ يَمْضيَ الرَّجل في حاجته، ثُمَّ يعود، فيثبت في منزلِه(2)، فالتَّأويبُ: الرُّجوعُ، ومَبيتُ الرَّجل في منزلِه وأهله(3)، وهَذا يَدُلُّ على أَنَّ الإيابَ الرَّجوعُ إلى مُنْتَهى القَصْدِ، ولِهذا قال تَعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كَأَنَّ القيامَةَ مُنْتهى قَصدِهِمْ؛ لِأَنَّها لا مَنْزِلَةَ بَعْدَها.

والرُّجوعُ أيضًا عامٌّ في الطّاعةِ والمَعصيةِ، بخلاف الإنابة؛ فهي الرُّجوع إلَى الطّاعَةِ، فَلا يُقال لمن رَجَعَ إلَى مَعصية: إنَّه أناب، والمُنيبُ اسْمٌ دالٌّ على المدحِ، كالمؤمن والمُتَّقي(4).

(1) الحميري، شمس العلوم: 1/ 544.
(2) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 303.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 219.
(4) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 302 - 303.

﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾ [سبأ: 10 - 11]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الاستدلالُ بالمُمكِنِ العجيبِ على وقوعِ البعث

مُناسَبةُ قِصَّةِ داوودَ وسُلَيمانَ عليهما السلام لِما قَبْلَها، هي: أنَّ أولئك الكُفّارَ أنكروا البَعْثَ لاستِحالتِه عندَهم، فأُخبِروا بوقوعِ ما هو مُستحيلٌ في العادةِ ممّا لا يُمكِنُهم إنكارُهُ؛ إذ طفَحَت ببعضِه أخبارُهم وشعراؤُهم، من تأويبِ الجِبالِ والطَّيرِ مع داوودَ، وإلانةِ الحديدِ - وهو الجِرْمُ المُستعصي - وتسخيرِ الرّيحِ لسُلَيمانَ، وإسالةِ النُّحاسِ له، كما ألانَ الحديدَ لأبيه، وتسخيرِ الجِنِّ فيما شاء مِنَ الأعمالِ الشّاقَّة[1].

ذِكْرُ مَن أنابَ وأصابَ بعد ذِكْرِ الحَثِّ على الإنابةِ

وأيضًا فإنَّ اللّهَ تعالى لَمّا ذكَرَ مَن يُنيبُ مِن عبادِه، ذكَرَ منهم مَن أناب، وأصاب، ومِن جُملتِهم: داوودُ، كما قال تعالى عنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ٢٤﴾ [ص: 24]، وبيَّن ما آتاه اللّهُ على إنابتِه[2].

تصديرُ الفضلِ؛ لاستنهاضِ الهِممِ وإبرازِ كمالِ السُّلطانِ الإلهيِّ

وكذلك فإنَّ اللّه ﷻ لَمّا أشار في الآيةِ السّابِقةِ - الَّتي دلَّت على نفوذِ الأمرِ - إلى أنَّه تارةً يَعدِلُ، وتارةً يَتفضَّلُ، وكان الفَضلُ أكثَرَ استِجلابًا لذَوي الهِمَمِ العَليَّةِ والأنفُسِ الأبيَّةِ، بدأ به في عبدٍ مِن رُؤوسِ المُنيبينَ، على وجهٍ دالٍّ على البَعثِ بكَمالِ التَّصَرُّفِ في الخافِقَينِ وما فيهما[3].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاتَيۡنَا﴾: (أتي) أصلُ الإيتاءِ: الإعْطاءُ، يُقال: آتَى يُؤاتي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 524.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 195.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 455.

إيتاءً، وآتاهُ إيتاءً، أَي: أَعطاه، ويُقالُ: لِفُلانٍ أَتْوٌ، أَي: عَطاءٌ، وآتاهُ الشَّيْءَ، أَي: أَعطاه إيّاه، وآتاهُ على الأَمْرِ: طاوَعَهُ[1]، والإيتاءُ: مُسْتَعارٌ للإنعام بالحالِ النّافِعَةِ؛ لأَنَّ شَأْنَ الإعْطاءِ أَنْ يَكونَ تَمْكينًا بالمَأْخوذِ المَحْبوبِ[2]، والمُؤاتاةُ: حُسْنُ المُطاوَعة، وآتَيْتُهُ على ذلكَ الأَمْرِ مُؤاتاةً؛ إذا وافَقْتُهُ، وطاوَعْتُهُ[3]، والمقصودُ بالإيتاءِ في الآية: الإعْطاءُ، وهو مُشْعِرٌ بأَنَّ المُعْطَى مَرْغوبٌ فيه[4].

2) ﴿فَضۡلًاۖ﴾: (فضل) تدُلُّ تصريفاتُهُ على زيادةٍ في شيءٍ، ومن ذلكَ الفضلُ، وهو الزّيادةُ في الشَّيءِ[5]، سواءٌ أكان محمودًا أم مذمومًا، واستعماله في المحمودِ أكثرُ، يُقالُ: فَضَلَ الشَّيءُ فضلًا، أي: زاد، وضدُّه: النَّقْصُ[6]، والفضلُ: الشَّرفُ والخيرُ والرِّزقُ، ورَجُلٌ فاضلٌ: ذو شَرَفٍ وخيرٍ، والإفضالُ: الإحسانُ، والفضائلُ: خصالُ الخيرِ، ويَأْتي الفضلُ بمعنى بقيَّةِ الشَّيءِ، والجمعُ: أَفْضالٌ[7]، والمُرادُ بالفضلِ في الآيةِ: الزّيادةُ في الشَّرفِ والكمالِ، أي: ما أوتي داوود من فضلِ النُّبوَّةِ وفضلِ المُلْكِ، وفضلِ العِنايةِ بإصلاحِ الأُمَّةِ، وفضلِ القَضاءِ بالعدلِ، وفضلِ الشَّجاعةِ في الحربِ، وفضلِ سَعَةِ النِّعمةِ عليه، وفضلِ إغنائه عن النّاسِ بما أُلهِمَهُ من صُنعِ دُروعِ الحديدِ، وفضلِ إيتائه الزَّبورَ، وإيتائه حُسْنَ الصَّوْتِ، وطولَ العُمْرِ في الصَّلاحِ وغير ذلك[8].

3) ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾: (أوب) تدلُّ اشتقاقاتُهُ على الرُّجوعِ[9]، يُقالُ: آب فلانٌ إلى سيفِهِ، أي: ردَّ يدَهُ إلى سيفِه[10]، وآبَ الرَّجُلُ يؤوبُ إيابًا؛ إذا رَجَعَ إلى مُستقرِّهِ، والمآبُ: المرجِعُ، والأَوْبُ: الرُّجوعُ[11]، وآبت الشَّمسُ إيابًا؛ إذا غابَت في مآبِها، أي: مَغيبِها[12]، وجاؤوا من

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أتي).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 179.
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 252.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (فضل).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 155.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوب).
(10) الخليل، العين: (أوب).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة: (أوب).
(12) الخليل، العين: (أوب).

كلِّ أَوْبٍ، أي: من كلِّ ناحيةٍ، والأوّابُ: التّائِبُ[1]، والتَّأويبُ: التَّرجيعُ، أي: ترجيعُ الصَّوتِ، وقيل: التَّأويبُ بمعنى التَّسبيحِ، وهو المُرادُ به في الآية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: 18][2].

4) ﴿وَأَلَنَّا﴾: (لين) تدور اشتقاقاتُه على مَعنى الرِّقَّةِ، وضدُّها: الخُشونة[3]، ويُستعمل ذلك في الأجسام، ثمَّ يُستعار للخُلُق وغيره مِن المعاني، فيقال: فلانٌ لَيِّنٌ، وفلانٌ خشِن، وكلُّ واحدٍ منهما يُمدَحُ به طورًا، ويذمُّ به طورًا آخرَ بحسب اختلاف المواقِع[4]، يُقال: لانَ الشَّيءُ يَلينُ لينًا، وشيءٌ لَيِّنٌ ولَيْنٌ: مخفَّفٌ منه، والجمع: أَلْيِناء، وليَّنت الشَّيءَ وألْيَنْتُه، أي: صيَّرته لَيِّنًا، ويُقالُ أيضًا: أَلَنْتُه، وأَلْيَنْتُه على النُّقصان والتَّمام، مِثْل: أطلتُهُ وأطولتُهُ[5]، والمقصودُ بإلانَةِ الحديدِ في الآية: تَسخيرُ الله تعالى الحديدَ لأصابع داوودَ عليه السلام حينما يَلْوي حِلَقَ الدُّروعِ، ويغمزُ المساميرَ[6].

5) ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: (سبغ) تدُلُّ تصريفاتُه على تمامِ الشَّيءِ وكمالِه[7]، يُقال: شَيْءٌ سابِغٌ، أَي: كامِلٌ وافٍ، وسَبَغَ الشَّيءُ يَسْبُغُ سُبوغًا: طالَ إلى الأَرض، واتَّسَعَ، والسّابِغةُ: الدِّرْعُ الواسِعةُ، ورَجُلٌ مُسْبِغٌ: عليه دِرعٌ سابِغةٌ، والدِّرْعُ السّابِغةُ: التي تجرُّها في الأرض أو على كَعْبَيْكَ طولًا وسَعةً[8]، ومنه اسْتُعير إسْباغُ الوضوء، وإسباغ النِّعَمِ[9]، والمُرادُ بها في الآيةِ: الدُّروعُ الكاسيات ذوات الفضول[10].

6) ﴿وَقَدِّرْ﴾: (قدر) تدورُ اشتقاقاتُه على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونهايته، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كلِّ شيءٍ، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا، أي: مَبْلَغُهُ[11]، وقَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: ضيَّقته، كأنَّما جعلتُهُ بقدَرٍ،

(1) الجوهري، الصحاح: (أوب).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 156.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لين).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (لين).
(5) الجوهري، الصحاح: (لين).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 156.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبغ).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (سبغ).
(9) الراغب، المفردات: (سبغ).
(10) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 408.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).

بخلاف ما وُصِفَ بغير حساب[1]، والتَّقديرُ: جَعْلُ الشَّيْءِ عَلَى مِقْدارٍ مَخْصوصٍ، ومَعْنَى ﴿وَقَدِّرْ﴾ هنا: اجْعَلْهُ على تقديرٍ[2]، أي: أحكمه، وهو أن تَجْعَلَ المَسامير طبق الحِلَق[3].

7) ﴿ٱلسَّرْدِ﴾: (سرد) تدُلُّ تصريفاتُهُ على التَّوالي والتَّتابُع[4]، ومنه السَّرْدُ، وهو نَسْجُ ما يخشُنُ، ويغلظ، كنسج الدُّروع وخَرْزِ الجِلْد، يُقالُ: سردٌ وزردٌ، وسرادٌ وزرادٌ، نحو: سِراط وزِراط[5]، والسَّرْدُ أيضًا: الثَّقْبُ، والمَسْرودَةُ: الدِّرْعُ المثقوبةُ، وقيلَ: السَّرْدُ السَّمْرُ، والسَّرْد: الحِلَق، وفُسِّرَ بأنَّه ألّا يَجعلَ المِسمارَ غليظًا والثَّقْب دقيقًا، فيَفْصِمَ الحِلَقَ، ولا يَجعلَ المِسمارَ دقيقًا والثَّقبَ واسعًا، فيتقلقلَ، أو ينخلعَ أو يتقصَّفَ، بل يجعلَهُ على القَصْدِ وقَدْرِ الحاجَة[6]، والمقصودُ به في الآية: صُنْعُ دِرْعِ الحديدِ، أي: تركيبُ حِلَقِها ومساميرِها التي تَشُدُّ شُقَقَ الدِّرعِ بعضها ببعضٍ، فهي للحديدِ كالخياطةِ للثَّوبِ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّه سبحانه مخبرًا عمّا أنعَمَ به على عبدِه ورسولِه داوودَ عليه السلام: ولقد أعطينا داوودَ منّا نِعَمًا ومِننًا، فقلنا للجبال وللطَّير: رَجّعي معه التَّسبيحَ ورَدِّديه؛ إذا سبَّح، وذلك بأَنْ تَحْمِلَهُ عليه إذا تأمَّل عجائبَها، فهي له مُذكِّراتٌ، كما يُذكِّر المُسبِّحُ مُسبِّحًا آخر، وألَنّا له مَعدِنَ الحديدِ الصُّلْبِ، فهو يتصَرَّفُ فيه بسُهولةٍ، وأمَرْناه، فقُلْنا له: اصنَعْ من الحديدِ دُروعًا تامَّةً كاملةً، طويلةً وافيةً، واجعَلْ نَسْجَ الدُّروعِ على مِقدارٍ مَحدودٍ، ونَسَقٍ مُتناسِبٍ مُحكَمٍ، واعمَلوا

تـعـلُّم أهـلِ الفَضلِ الصَّنائعَ لا يَـنـقُصُ مِن قدرِهم، بل ذلك زيادةٌ في فَضلِهم

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (قدر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 157.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (قدر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرد).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (سرد).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سرد).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 157.

عَمَلًا خالِصًا للّه تعالى، موافِقًا لِشَرعِه، إنّي بصيرٌ بما تَعمَلونَهُ مِن أعمالٍ، لا يخفَى علَيَّ شَيءٌ منها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾:

الاستطرادُ بذكرِ حالِ سادةِ المُنيبين مِن أنبياءِ الله تعالى وأصفيائِه

الواوُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدها واردةٌ استئنافًا على وجهِ الاستطرادِ، ووجهُ ذلك أنَّ المُنيبَ لمّا كان لا يخلو مِنَ النَّظر في آياتِ اللّه على أنَّه قادرٌ على كُلِّ شيءٍ من البعثِ ومن عقاب من يكفرُ به، وكان وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾، فيه إشارةٌ إلى بيانِ ذلك؛ كان موقعُ جملةِ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ استطرادًا في ذِكر من أنابَ، وأصابَ؛ لأنَّ داوودَ عليه السلام من المُنيبين المتفكِّرين في آياتِ اللّه، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص: 17]؛ فلإنابتِه وتأويبِه أنعمَ اللّهُ تعالى عليه بنِعَمِ الدُّنيا والآخرة، وباركَهُ، وباركَ نَسْلَهُ[2].

دلالةُ تصديرِ الجُملة بالتَّأكيدِ:

تقويةُ الخبرِ المُظهِرِ قُدرةَ الله تعالى وإنعامَه على عباده

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمة بلامِ التَّوكيدِ وحرف التَّحقيق (قد) الواقعتين جوابًا للقسم المحذوف (واللّه)، وفي تصدير الآيةِ الكريمةِ بالقسم قصدٌ إلى توكيدِ الخبر؛ لكونه أمرًا عجيبًا غيرَ مُعتادٍ، أو لأنَّ هذا الخِطابَ جاء في سياق الرَّدِّ على الكفّار الذين أنكروا البعثَ لاستحالتِه عندهم، فأُخبِروا بوقوع ما هو مُستحيلٌ في العادةِ ممّا لا يُمكِنُهم إنكارُهُ، والغرَضُ من نظم هذهِ الأخبارِ مؤكَّدةً بمؤكِّداتٍ عدَّةٍ تقويةٌ للخبرِ بإظهارِ قُدرة اللّهِ تعالى وإنعامِه على عباده، والتَّدبُّر في عاقبةِ الصّالحين، كما أنَّ التَّأكيدَ بلامِ القسَم وحرفِ التَّحقيق والقسَم المقدَّرِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 222، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 497، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 64، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 676.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 155.

في هذه الآية فيه تنزيلُ المُخاطَبين - بالتَّعريض بهذه القِصَّة - مَنزلةَ مَن يُنكِرُ ذلك؛ لعدم اتِّعاظهم بحال قومٍ مِن أهلِ بِلادِهم[1].

دلالةُ (قد) في جُملة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾:

تحقيقُ وقوعِ الفعل وتقوية الامتنان

(قد) حرفُ تحقيقٍ يُفيد تحقيقَ وقوعِ الفعل وتثبيتَهُ[2]، وجاء التَّعبيرُ به ههنا؛ ليُؤَكِّد أَنَّ الفضل الذي آتاه اللّه لداوود عليه السلام أمرٌ مُحقَّقٌ وثابتٌ، لا شكَّ فيه، ولا ريب، وفيه تقويةٌ لمعنى الامتنانِ، مِمّا يُعزِّز الشُّعورَ بعظمة هذا الفضل والمنَّة الإلهيَّة على داوود عليه السلام.

نُكتةُ إسنادِ فعل الإيتاء في ﴿ءَاتَيْنَا﴾:

إبرازُ عظمةِ العطاء المرتبط بجلالةِ المُعطي

قولُ اللّه تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ معناه: أعطيناهُ إعطاءً عظيمًا دالًّا على نهاية المُكنة بِما لنا مِن العظمة[3]، فإسْنادُ الفعل ﴿ءَاتَيْنَا﴾ إلى ضمير العظمةِ والكبرياءِ يوحي بأَنَّ هذا العطاء عظيمُ الشَّأن جليلُ القدرِ؛ لكونِهِ صادرًا مِنَ اللّه تعالى بعظمته وكمال قُدرته، فهو ليس عطاءً عاديًّا، بل هو عطاءٌ مِنَ المالكِ العظيمِ والرَّبِّ الكريمِ.

معنى (مِنْ) في ﴿مِنَّا﴾، ونكتةُ التَّقييد بـ ﴿مِنَّا﴾:

شرفُ الفضلِ الَّذي أوتيه داوود شرفًا ذاتيًّا وإضافيًّا

(مِنْ) في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ ابتدائيَّةٌ متعلِّقة بـ ﴿ءَاتَيْنَا﴾، أي: من لدُنّا ومِن عندنا، وذلك تشريفٌ للفضل الذي أوتيه داوودُ عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: 57][4].

وقُيِّدَ فعلُ الإيتاءِ بـ ﴿مِنَّا﴾ مع أنَّ إسنادَ الفعل إلى ضمير العظمَةِ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ قد يوهِمُ استغناء السّياقِ عَنْ ﴿مِنَّا﴾، إلّا أنَّ المقامَ لمّا كان مقامَ تبيانٍ للمنِّ الذي منحَهُ اللّه سُبحانَهُ لآل داوود؛ ناسبَ ذكرها هُنا تأكيدًا على مرجعيَّة هذا الفضلِ، وأنَّه مِن عند اللّهِ تعالى، وما كان مِن عند اللّهِ عز وجل؛ فإنَّ لَهُ شأنًا عظيمًا، وهذا من مواطن

(1) الأنصاري، أساليب الأمر والنهي، ص: 182.
(2) بهجة صالح، الإعراب المفصل: 9/ 318.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 456.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 155.

الذِّكر، فهو فضلٌ مِنّا، أي: بلا واسطةٍ؛ تأكيدًا لِفخامته الذّاتيَّة بفخامَتِه الإضافيَّة(1).

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنَّا﴾:

الاهتمامُ بالمقدَّم لتعظيم المُعطي والتشويق للعطاء

جاء تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ على المفعول الصَّريح ﴿فَضْلًا﴾، وهذا التَّقديمُ يُبرز أنَّ هذه النِّعمةَ العظيمةَ الَّتي أوتيت لداوودَ ﵇ ليست من أيِّ جهةٍ، بل هي مِنَ اللّهِ تعالى نفسِه، ممّا يجعل العطاءَ يتَّصِف بقُدْسيَّة خاصَّة، ويُضفي على الفضل مزيدًا مِنَ التَّعظيم، وفي تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول اهتمامٌ بالمُقدَّم والتَّشويق إلى المُؤَخَّر؛ ليتمكَّن في النَّفس عند وُرودِه فضلَ تمكُّنٍ(2)، فيلفِت النَّظر أوَّلًا إلى عظمة المُعطي، وهو اللّهُ تعالى؛ إذ المتلقّي يدركُ أوَّلَ الأمر أنَّ الفضلَ الذي سيُذكر لاحقًا ليس مجرَّد عطاءٍ عاديٍّ، بل هو عطاءٌ إلهيٌّ صادرٌ من اللّه صاحبِ العظمةِ المُطلقَةِ.

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿فَضْلًا﴾:

التَّنكيرُ لتعظيمِ هذا الفضلِ وتفخيمهِ

جاء تنكيرُ لفظ ﴿فَضْلًا﴾ من قوله تعالى: ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾؛ تعظيمًا لشأن هذا الفضلِ وتفخيمِه، وهذا الفضلُ هو فضل النُّبوءة وفضل الملك، وفضل العناية بإصلاح الأمَّةِ، وفضل القضاءِ بالعدل، وفضل الشَّجاعة في الحرب، وفضل سعةِ النِّعمة عليه، وفضل إغنائِه عن النّاس بما ألهمه مِن صُنع دروع الحديد، وفضل إيتائهِ الزَّبور، وإيتائه حُسْنَ الصَّوت، وطول العمرِ في الصَّلاح وغير ذلك(3)، فالتَّنكيرُ لتعظيمه في ذاتِه وتكثيرِ أفرادِه(4).

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 124، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 265، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 456.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 124، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 287.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 124، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 155.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 456.

إشراقة الفضلِ الإلهيِّ نِعَمٌ زائدةٌ واختصاصات فريدة في النُّبوَّة والملك

بلاغةُ الإيجازِ في التَّعبير بمُفرَدة الفضل:

قوله تعالى: ﴿مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ معناه: آتيناهُ نعمةً زائدةً على رُتبة النُّبوَّة والرِّسالة، وهي التي تُستفاد مِنَ الآياتِ الآتي ذكرُها بعدُ، مِن حسن الصَّوتِ البارع، وتسبيح الجبالِ والطَّير معه، وإلانة الحديد له، وبولدٍ شاركه في رُتبة النُّبوَّة[1]، وهذه اللَّفظةُ مِن قبيل إيجازِ القصر؛ لدلالَتِها على معانٍ متكاثرةٍ تندرِجُ تحتها أفضالٌ كثيرة ومتنوِّعة.

اعتبارُ النّاسِ بحُسْنِ عِنايةِ اللهِ تعالى بالمُنيبين

لطيفةُ اختصاصِ ﴿دَاوُۥدَ﴾ بالذِّكْر:

في ذِكْرِ إيتاءِ اللّه تعالى داوودَ فضلًا عِبرةٌ للنّاس بحُسْنِ عِنايةِ اللّه سُبحانَهُ بالمُنيبين؛ تعريضًا بِضدِّ ذلك للَّذين لم يعتبروا بآيات اللّهِ ﷻ، وفي هذا إيماءٌ إلى بشارةِ النَّبيِّ ﷺ بأنَّه بعد تكذيب قومِهِ وضيق حاله منهم سيؤول شأنُه إلى عِزَّةٍ عظيمةٍ وتأسيس ملكِ أمَّةٍ عظيمة، كما آلت حالُ داوودَ، وذلك الإيماء أوضحُ في قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص: 17][2].

بيانُ الفضلِ الإلهيِّ الذي أوتيَهُ داوودُ عليه السلام

دلالةُ فَصْلِ جُملة ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي﴾ عمّا قبلَها:

فُصِلَ قولِ اللّه تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي﴾ عمّا قبلَهُ؛ لما بين الجملتين من كمالِ الانقطاعِ؛ إذِ الجملةُ الثّانيةُ جملة إنشائيَّة، وجملة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، وجملة النِّداءِ أيضًا واقعةٌ موقعَ البيانِ ممّا قبلَها؛ إذِ الفضلُ وقعَ مُجملًا، ثم جاءَ تفصيلُهُ بعدُ.

براعةُ التَّعبيرِ بالنِّداء في جملة ﴿يَٰجِبَالُ﴾:

جاء النِّداءُ في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ﴾ على حقيقتهِ؛ لأنَّ المُناديَ هو اللّه ذو العظمةِ والجلال، فلا شيءَ مِن مخلوقاتِهِ يمتنع عن إجابته، فالجماداتُ والأحياء كلُّها مأمورةٌ بأمره، مسيَّرةٌ بمشيئته؛ لذا جاء النِّداءُ هُنا على أبدَعِ ما يكون مِنَ الجمالِ والجلال والعظمَة، وسرُّ

---

(1) مدرِّس، مواهب الرَّحمن، ص: 265.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 155.

هذا الجمالِ: هو تَصويرُ هذه الأجرامِ العظيمة الرّاسية الصمّاء في صورةِ مَنْ يَسْمَعُ ما يُقال لَها، مِمّا يبعث على الرَّهبةِ والاستكانةِ والخشوع أمام هذا النِّداء الرَّبّانيِّ العظيم، وهذا يقودنا إلى عظمةِ سببِ النِّداء، وهو تسبيحُ اللّه جلَّ في علاه، فالنِّداءُ واردٌ لإرادةِ تحفيزِ مكامن التَّدبُّر لدى النّاس، وبعثِ مواطن التَّأمُّل في خلق اللّه تَعالى، وهو يخاطب الجبالَ والطَّير، والأرض والسَّماء، وكلَّ شيء في الوجود يسبِّح له، كما قال سُبحانَهُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 44].

تصويرُ الأجرامِ العِظامِ في صورة مَن يسمَعُ المقالَ؛ يَبعثُ على الرَّهبةِ والاستكانةِ والخشوعِ

لطيفةُ انتخاب النِّداءِ بأداة البُعد: ﴿يَٰجِبَالُ﴾:

من أفضالِ اللّه على نبيِّه داوود عليه السلام مُشاركة الجبال والطَّير له في التَّسبيح، وهو أمرٌ لم يرد ذِكْرُهُ عَنْ نبيٍّ غَيْره، وفي النِّداء بالياء من قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ من الفخامة قدرٌ عظيمٌ؛ إذ فيه الدَّلالةُ على عِزَّة الرُّبوبيَّة وكبرياء الألوهيَّة، حيثُ نادى ربُّ العزَّة والجلال الجبالَ، وأمَرَها، ولو جاء النَّظمُ القرآنيُّ: (آتينا داوود منّا فَضلًا تأويب الجبال معه والطَّير)، لم يكن فيه مِنَ الفخامةِ ما جاءَ في الآية الكريمة[1]، وكانت دلالةُ توظيفِ أداة النِّداء (يا) بارزًا في الآية، وهي الَّتي تُستعمَلُ في الأصلِ لنداء البعيد، وذلك موح بعلوِّ شأن المنادَى، ممّا يبُثُّ الشُّعورَ بسَعَةِ استجابة النِّداء الذي يملأُ الأرجاء.

الإشارةُ إلى فخامةِ النِّداء وعلوِّ قَدْرِ المُنادَى به

دلالةُ مُخاطبةِ الجبال وتنزيلها منزلة العُقلاء:

قَولُ اللّهِ عز وجل: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ يُفيدُ أنَّ الجمادَ يُدرِك خِطابَ اللّهِ سبحانه وتعالى، ووجْهُ ذلك: أنَّه لولا إدراكُهُ؛ لَكان توجيهُ الخطابِ إليه عَبَثًا، واللّهُ سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ في أقوالِه وأفعاله، وذلك دالٌّ على إدراكِها التَّأويبَ مع داوودَ والتَّرجيع[2]، وجُعِلَتِ الجبالُ بمنزلة العقلاءِ الذين إذا

انقيادُ جميعِ الخَلْقِ لمشيئة اللهِ تَعالى

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 11/ 287.

(2) العُثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 94.

أمرهم؛ أطاعوا، وأذعنوا، وإذا دعاهم؛ سمعوا، وأجابوا؛ إشعارًا بأنَّه ما مِن حيوان وجماد، وناطق وصامت؛ إلّا وهو مُنقادٌ لمشيئة اللّه تعالى، غير مُمتنعٍ على إرادته، وذلك لسعَةِ عِزَّة الرُّبوبيَّة وكبرياء الألوهيَّة[1].

دلالةُ اختصاصِ الجبال والطَّير بالأمر بالتَّأويب:

ذِكْرُ الجبال والطَّيرِ تأكيدٌ لشموليَّة التَّسبيح

لم يكنِ الموافق لداوودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في التَّأويب مُنحصرًا في الجبال والطَّير، ولكنْ ذُكِرَتِ الجبالُ؛ لأنَّ الصُّخورَ وهي للجُمود، والطَّير وهي للنُّفور تُستبعد منها الموافقة، فإذا وافقَتْه هذه الأشياءُ، فموافقةُ غيرِها مِنْ بابٍ أولى وأحرى، ثم إنَّ في ذلك تعريضًا بِمن لم يوافِق مِنَ النّاس في التَّسبيح؛ بأنَّ قلوبَهُم قاسيةٌ أشدُّ من قسوةِ الحجارَةِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (التَّأويب) دون (التَّرديد) و(التَّرجيع):

الإشارةُ إلى التَّسبيح المتواصل وتجدُّد العود إلى ذِكْر اللّه في أوقاتٍ مُتكرِّرةٍ

التَّأويبُ: التَّرديدُ والتَّرجيع، يُقال: أوَّبَ فلانٌ تأويبًا؛ إذا رجَّع مع غيرِهِ ما يقولُهُ، وتأويبُ الجبال مع داوود: هو ترديدُ تسبيحِهِ[3]، ويَرِدُ التَّأويبُ بمعنى سيرِ النَّهار، فكأنَّ المعنى: سبِّحي نهارَكِ كلَّهُ معه، كتأويب السّائرِ نهارَهُ كلَّهُ[4]، فالتَّأويبُ هنا إشارةٌ إلى التَّسبيح المتواصلِ وتَجَدُّدِ العود إلى ذِكْرِ اللّهِ في أوقات مُتكرِّرةٍ، وهذا المعنى لا يُعطيه لفظُ التَّرديدِ والتَّرجيعِ؛ إذ ليس فيهما معْنَى العمومِ في الوقتِ.

عِلَّةُ تأنيثِ الفعل ﴿أَوِّبِي﴾:

الإيماءُ إلى عظمةِ التَّسبيح

أمَرَ اللّهُ تعالى الجبالَ، كما تُؤمَرُ الواحدةُ المؤنَّثة ﴿أَوِّبِي﴾؛ لأنَّ جَمْعَ ما لا يعقل كذلك يُؤمَرُ، وكذلك يُكَنَّى عنه، ويوصف، ومنه المثلُ: (يا خيلَ اللّه اركبي)، وضوعِفَ فعلُ ﴿أَوِّبِي﴾؛ لإرادةِ المُبالغة تأكيدًا على عظمة هذا الفعل؛ إذ هو تسبيحٌ عظيمٌ مُستمِرٌّ من الجبال، يدلُّ على حالٍ مهيبةٍ من الامتثال الكامل والطّاعة[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 456.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 196، والمنصوري، المقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 291.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 785، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/ 272.
(4) ابن الهائم، التِّبيان، ص: 267، والواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 321.
(5) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 4/ 407.

غرضُ الأمرِ في الفعل ﴿أَوِّبِي﴾:

الفعلُ ﴿أَوِّبِي﴾ هو أوَّل فعلِ أمْرٍ يُذكر في هذه السّورة، والأمر في أصلِه يدلُّ على طَلب الفعل، ومعنى ﴿أَوِّبِي﴾: رَجِّعي التَّسبيح، وقراءة الزَّبور وغيرهما من ذِكرِ اللّه معه كُلَّما سَبَّح، وقرأ، وذَكَرَ، وجاء التَّعبيرُ فيه بالأمر للدِّلالة على عظيم القُدْرَة، فالأمرُ في فعل ﴿أَوِّبِي﴾ خارجٌ مَخْرَجَ التَّسخيرِ والتَّكوين، وخروجُ الأمر إلى هذا المعنى مُلائِمٌ لِما تفضَّل اللّه تعالى به على نبيِّه داوود عليه السلام من أفضالٍ إلهيَّةٍ لم يُعْطَها غيرُه من الأنبياء[1].

الـدَّلالـةُ على الـتَّـسـخـير والتَّكوين تكريمٌ لداوود عليه السلام

معنى (مع) في قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾:

يُشير التَّعبيرُ بالمعيَّة هُنا إلى أنَّ جميعَ مخلوقات الكون، سواء أكانت عاقلةً أم غير عاقلةٍ كالطَّير والجبال، تَجْتَمِعُ في أداء غاية واحدةٍ، وهي تمجيدُ اللّهِ تَعالى وعبادته، فالظَّرف (مَعَ) يدلُّ على الاجتماع والمُصاحبة، وهذا يُفيدُ وحدة الكونِ في عبادة اللّه سُبحانَهُ؛ إذ تجتَمِعُ المخلوقاتُ على اختلافها في أداء غايةٍ واحدةٍ، مِمّا يوحي بعظمة الخالق وقدرتِه المُطلقة، حيث سبَّحت مع داوودَ عليه السلام الجبالُ والطُّيور والخلائق بدَويٍّ يُبْهِر العقول والأسماع[2].

تآلفُ الكونِ في تسبيح الخالق سُبحانَهُ رسالة الـتَّـوحـيـد بين الـجـمـادات والأحياء

فهذِهِ الوحدةُ والتَّناسق تبعَثُ في النُّفوسِ رهبةً وجلالًا خاصًّا؛ تَدفع الإنسانَ إلى التَّفكُّر في عظمة الخالق، ويحثُّه على الانضمام إلى هذا التَّسبيح الكونيِّ، وفي هذه المعيَّة رسالةٌ ضمنيَّةٌ للإنسان؛ لئلّا يَقْسو قلبُهُ أمامَ هذا التَّفاعل الكونيِّ البديع.

توجيهُ تقييد أمرِ الجبال بالتَّأويب بقيد المعيَّة ﴿مَعَهُۥ﴾:

وردَ في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأنبياء: 79]، فَقَيَّدَ التَّسبيحُ بالظَّرف

بين المُصاحبة والتَّمليك أسرارُ البيان في تسخير الجبال والرّيح

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 321، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 457.
(2) ملاحويش آلغازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 498، بهجت صالح، إعراب القرآن الكريم، ص: 199.

(مَعَ)، وكذلك التَّأويب في سورة سبأٍ، بخلاف ما وردَ في شأنِ الرّيح، فقُيِّدت باللّام ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾؟ وذلك لأنَّ الجبالَ لمّا سبَّحت؛ شَرُفت بذِكرِ اللّه تعالى، فلم تُضَف إلى داوودَ عليه السلام بلام الملك، بل جُعِلَتْ معه بمنزلةِ المُصاحِب، بخلاف الرّيح فإنّه لم يُذكر تسبيحُه، فجُعِلت بمنزلةِ المملوكةِ له، وفي هذه المغايَرة وجهٌ آخَرُ - على القولِ بأنَّ أَوِّبي معه معناه سيري - أنَّ الجبلَ في السَّيرِ ليس أصلًا، بلْ هو يَتحرَّكُ معه تَبَعًا، والرّيحُ لا تَتحرَّكُ مع سُليمانَ عليه السلام، بلْ تُحرِّكُ سُليمانَ مع نفْسِها، فلمْ يقلِ: الرّيح مع سُليمانَ، بلْ سُليمانُ كان مع الرّيحِ[1].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾:

بيانُ إذعانِ الأكثَف والألطف إبرازٌ لعظمة الخالق وقُدرَته

لمّا كانت الجبالُ أغلظَ الأرض وأثقلَها، وكان المعنى: دَعَوْنا الجبال، وسَخَّرناها للتَّأويب معه، فبادرَتِ الإجابةَ لدُعائنا؛ لِما ذكره اللّه تعالى في آخر سورةِ الأحزاب من أنَّ الجبالَ من جُملة مَن أبى أن يحمل الأمانةَ؛ لمّا كان كذلك؛ عُطِفَ على ذلك أخفُّ الحيوان وألطفُه؛ ليكون آيةً سماويَّة، على أنَّه يفعل في السَّماء ما يشاء، فإنَّه لو أمات الطّائر في جَوِّ السَّماء؛ لَسَقَطَ، ولا فرق في ذلك بَيْنَ عالٍ وعالٍ[2]، ففي العطف تعبيرٌ عن التَّناسق بين الأرض والسماء، بإشراك الطَّيرِ الذي يُحلِّق بين السَّماء والأرض، وهذا يُظهِر المعنى العميقَ لوحدة الكون في عبادةِ اللّه تَعالى، حيث تُسَبِّح الكائناتُ الأرضيَّةُ (الجبال) والجوّيَّة (الطُّيور) معًا، ففي العطفِ دلالةٌ على شُمول قدرة اللّهِ تَعالى في إخضاع كلِّ شيء في الكون، من الأجسام الثَّقيلة إلى الأحياء اللَّطيفة، أرضيَّةً كانت أو سماويَّةً.

معنى (أل) في ﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾، ولطيفة اختصاصها:

إفادةُ مُطلَقِ الشُّمولِ في تسبيح كُلِّ طَيرٍ مع داوودَ عليه السلام

﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ اسمُ جَمْعٍ أو جَمْعُ طائر، ولم يُبيِّن أيُّ الطَّير مرادٌ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 197، 198.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 457.

فالظّاهر العمومُ، فيشمل أيَّ نوعٍ من الطَّير، إذا صادفت تسبيح داوودَ عليه السلام؛ سَبَّحت معه، فاللّامُ في الطَّير للجنس، فيَنْدَرِجُ في لفظ ﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ جميع أفراده، فلا يُخصُّ نوع مُعيَّن، ويكون المخاطَب موجَّهًا إلى إدْراكِ مشهَدٍ عامٍّ تتفاعل فيه الطُّيور مع تسبيح داوودَ عليه السلام، وهذا يُعزِّز استحضار مَشهد التَّسبيح بِكُلّ تنوُّعه وجماله.

سِرُّ الجَمْعِ بين (الجبال والطير):

إظهارُ انسجامِ الخلق في عبادة الله تعالى

السِّرُّ البلاغيُّ في الجَمْعِ بين (الجبال والطَّير) في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ يكمُن في تصوير مشهد تسبيحيٍّ مَهيب يمزج بين العناصر الثَّقيلة الجامدة والأخرى الخفيفة المتحرِّكة، مِمّا يعكس وحدةَ الكون وتكامُلَهُ في عبادة اللّه تعالى، فكان داوود عليه السلام إذا سبَّح؛ تُسبِّح معه الجبالُ الرّاسيات، وتقف له الطيورُ الغادياتُ والرّائحاتُ، وتجاوبه بأنواع اللُّغات[1]، فهذا الجمعُ يدلُّ على تنوُّعِ الخلق وتكامل وظائفه رُغم اختلاف صفاته؛ ليظهر أنَّ كُلَّ الكائنات - الثَّقيلة والخفيفة - خاضعةٌ لأمر اللّه العظيم.

نكتةُ تقديم الجبال على ﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾:

مـن جـمـودِ الـجـبـال إلى حركة الطُّيور رسالة الوحدانيَّة وإظهارُ العظمة والجلال

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجبال على ﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ في سياق تسبيحها؛ لتأكيدِ عَظمةِ الخالق في جعل ما هو صلبٌ جامد يُسبِّح، مِمّا يبرزُ قُدرة اللّه سُبحانه على أن تشملَ عبادتُهُ كُلَّ مخلوق، مهما كانت طبيعته، مُؤكِّدًا بذلك وحدةَ الكونِ في عبادة اللّه تعالى، فكان تقديمُ تسبيح الجبالِ - وهي جامدة - أبعدَ وأعجبَ من تسبيح الطَّير[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾:

مظاهرُ الإفضالِ الإلهيِّ على نبيِّ الله داوود عليه السلام

لمّا ذَكَرَ اللّه جل جلاله طاعةَ أكثفِ الأرض وألطف الحيوان الذي أنشأه اللّه تعالى منها؛ ذكر ما أنشأه سبحانه من ذلك الأكثفِ، وهو أصلبُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 497.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 463.

الأشياء، فقال سبحانَهُ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾، أي: الذي ولَّدْناهُ من الجبال، فجعلناه في يده كالشَّمع يعمل منه ما يُريد بلا نارٍ ولا مطرقة[1]، والجملةُ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ قبلها، وإنَّما عُطِفَت عليها لما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراكهما في الخبريَّة، ووجود المناسبة بينهما؛ إذِ الجملةُ الثّانية واردةٌ لذكر فضلٍ آخرَ معطوفٍ على الأفضالِ المتقدِّمةِ.

دلالةُ صوغِ فعل التَّليين ماضيًا في ﴿وَأَلَنَّا﴾:

تجلّي العظمةِ في تطويع الحديد الصُّلب

جاء التَّعبيرُ عن فعل التَّلْيينِ فعلًا ماضيًا في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾؛ إظهارًا لعَظمة اللّهِ القادر على تحويل الشَّيء عن مادَّته الطَّبيعيَّة الصُّلبة إلى مادَّة أُخرى مُطاوعةٍ ليِّنة، وفي تحويل هذا المعدن إيحاءٌ بأنَّه تَمَّ دون نَصَبٍ أو تَعَبٍ[2]، فالفعلُ الماضي يحمِلُ دِلالَةً تامَّةً على الإنجاز والتَّمكين، مِمّا يوحي بأنَّ هذا التَّحوُّلَ في خصائص الحديد وقع دون مَشَقَّةٍ أو جهد، وهذا يُؤكِّد استجابةَ المخلوقاتِ لقدرة اللّه تَعالى المُطلقَةِ.

لطيفةُ إسنادِ الفعل ﴿وَأَلَنَّا﴾ إلى ضمير العظمة:

تجلّياتُ العظمةِ الإلهيَّة في تليين الصُّلب في مشهد التَّمكين والفضل الرَّبّانيِّ

قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ معناهُ: ألَنّا الحديدَ الذي ولَّدناه من الجبال، فجعلناهُ في يده كالشَّمع والعجين يعمل منه ما يشاءُ مِن غير نارٍ ولا ضربِ مطرقة، أو جعلناه بالنِّسبة إلى قوَّته الَّتي آتيناه إيّاها ليِّنًا كالشَّمع، بالنِّسبة إلى سائر القوى البشريَّة، وهو في قدرة اللّه تعالى يسيرٌ، فإنَّ الحديدَ يَلينُ بالنّار، وينحلُّ حتَّى يصيرَ كالمداد الذي يُكتَبُ به، فأيُّ عاقلٍ يستبعد ذلك مِن قدرةِ اللّه؟[3] فهذا الإسنادُ إلى ضمير العظمةِ والكبرياءِ ﴿وَأَلَنَّا﴾ يُعبِّر عن عظمة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 458.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 459.
(3) الشِّربيني، السراج المنير: 3/ 352، والمنصوري، المقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 291.

الخالق في التَّصرُّف بخصائص الأشياء كيفما يشاء، ويُؤكِّد دلالةَ التَّمكين والاستجابة التّامَّة لمشيئة اللّه سُبحانَهُ، مِمّا يُظْهِر صِفَةَ العظمة والإعجاز الإلهيّ في تسخيره وفضله.

تجسيدُ التَّخصيصِ وتأكيد الفضل والتكريم الإلهيِّ في التَّسخير

معنى (اللّام) في ﴿لَهُ﴾، ونكتة تقديم ﴿لَهُ﴾:

قولهُ تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾، أي: له خاصَّة أيضًا؛ ليعمل منه لبوسًا للحرب، ولم يُلِنْهُ لأحَدٍ قبلَهُ[1]، فأتتِ اللّام في ﴿لَهُ﴾؛ للدِّلالة على الاختصاص، وقُدِّم الجارُّ والمجرور على المفعول ﴿ٱلۡحَدِيدَ﴾؛ لإرادةِ مَعنى التَّخصيص والتَّكريم؛ إذ إنَّ إلانةَ الحديدِ لداوود عليه السلام جاءت تخصيصًا له بفضلٍ خاصٍّ من اللّه تَعالى، فيصيرُ الحديدُ طَيِّعًا بيدهِ على وجهٍ يُجاوِزُ العادَةَ.

بيانُ حكمةِ الإلانةِ وعلَّتها في كونها أمرًا إلهيًّا

موقعُ جُملةِ: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ مِمّا قبلها:

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾، أي: وعهدنا إِلَيْهِ أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ، وهي الدُّروعُ الكاملةُ[2]، كأنَّه قيل: وألَنّا له الحديدَ لأنْ يعملَ سابغاتٍ، ويكون بمعنى: وألَنّا له الحديدَ؛ لِأَنْ يعملَ سابغاتٍ، وتوصَل ﴿أَنِ﴾ بلفظ الأمر، ومثل هذا مِن الكلام قولك: أَرْسِل إليه أَنْ قُمْ إلى فلان[3]، فهذه الجُملة تُبيِّن الحِكمة من كون اللّه تعالى ألانَ له الحديدَ، وهوَ أنْ يعمل منه الدُّروع للمجاهدين في سبيلِ اللّه تعالى[4]، وذَكَرَ عِلَّةَ الإلانة بصيغة الأمرِ إشارةً إلى أنَّ عملَهُ كانَ للّهِ تَعالى وبأمرِهِ[5].

التَّفنُّنُ في التَّعبير تعليلٌ لإلانة الحديد، وتفسيرٌ للأمر بالصِّناعة

معنى ﴿أَنِ﴾ في جُملة ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾:

(أنْ) في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ﴾ مصدريَّة، والمصدر المنسبِكُ منصوبٌ على نزعِ الخافض، والتَّقدير: ألنّاه لعمل سابِغاتٍ[6]، ويجوز

---

(1) ملا حويش آلغازي، تفسير القرآن العظيم عبد القادر: 2/ 498.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 222.

(3) الواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 325.

(4) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 88.

(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 458.

(6) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 526.

أن تكون ﴿أَنِ﴾ هُنا تفسيريَّةً؛ لأنَّ إلانةَ الحديد له في معنى الأمر بأن يَستعملَهُ[1]، فهي مصدريَّة أو مُفسِّرة[2]، ولمّا كان من شرط المُفسِّرة أن يتقدَّمها ما هو بمعنى القول، ولم يتقدَّم هنا؛ قُدِّر ما هو بمعنى القول، والمعنى: وأمرناهُ أن اعْمَل، والمفسَّر مطويٌّ غيرُ مذكور في اللَّفظ، يكشفه التَّدبُّر، والتَّقدير: وأَلَنّا لَهُ الحَديدَ، وأَوصَيْناهُ أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ، فأبان اللّه ﷻ لداوود ﵇ الغايةَ من إلانة الحديدِ له.

دلالةُ الأمرِ في جُملة: ﴿ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾:

تَعَلُّمُ الحِرَفِ والصِّناعاتِ فَخْرٌ وتواضعٌ

في قوله اللّه تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ دَليلٌ على تعلُّم أهلِ الفَضلِ الصَّنائِعَ، وأنَّ التَّحَرُّفَ بها لا يَنقُصُ من مناصِبِهم، بل ذلك زيادةٌ في فَضلِهم وفَضائِلِهم؛ إذ يَحصُلُ لهم التَّواضُعُ في أنفُسِهم، والاستِغناءُ عن غيرِهم، وكَسْبُ الحلالِ الخَليِّ عن الامتنانِ، وفي الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وإِنَّ نَبِيَّ اللّهِ داوودَ ﵇، كانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[3]، فالآيةُ فيها دَليلٌ على الاكتِسابِ بعَمَلِ اليدِ[4].

والأمرُ في ﴿ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ يدلُّ على النُّصح والإرشاد؛ لِما يترتَّب عليه من مصالِحَ دنيويَّةٍ ودينيَّةٍ، ولا ينافي هذا أن يكونَ داوودُ ﵇ مأمورًا على سبيلِ الإلزام من اللّه سُبحانَهُ.

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾:

الاهتمامُ بجودة الصَّنعةِ

في قولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾: حذْفٌ لِلَفْظِ الدُّروع؛ استغناءً بالصِّفة عن الموصوف، والتَّقدير: (دروعًا سابغات)[5]؛

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 486.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 196، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 11.

(3) أخرجه البُخاري من حديثِ المِقْدامِ بنِ مَعدِ يْكَرِبَ ﵁، يُنظر: البخاري، صحيح البخاري، برقم: (2072).

(4) القصّاب، النُّكت الدالة على البيان: 3/ 687، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 267.

(5) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 362.

وذلك لظهورِهِ مِنَ المقام؛ إذ شاع وصفُ الدُّروع بالسّابغاتِ والسَّوابغ حتّى استغنَوا بذكرِ هذا الوصفِ عن الموصوف[1]، والسِّرُّ في حذفِ الموصوف والإبقاء على الصِّفة: الاهتمامُ بجودة الصَّنعة مِن أجْلِ العنايةِ بفائدةِ هذه الدُّروعِ، وهي أنْ تكونَ سابغةً تامَّةً؛ إذ المطلوب أن تكون الدِّرعُ سابغةً لا مُجرَّدَ درعٍ[2].

سِرُّ اختيارِ صنعةِ الدُّروع دون غيرِها من وسائل الحرب:

في صناعةِ الدُّروعِ وقايةٌ للرّوح وسعيٌ نحو حفظ الآدمي المكرَّم عند الله تعالى

في اختيار اللّهِ ﷻ لنبيِّه داوود ﵇ صناعة الدُّروع دون غيرها من أنواع السِّلاح لفتةٌ لطيفةٌ؛ لأنَّ الدُّروع فيها وقايةٌ للرّوح التي هي مِن أمره، وسعيٌ في حفظ الآدميِّ المكرَّم عند اللّه تَعالى مِن القتل، فالزَّرّاد خيرٌ من القوّاس والسَّيّاف وغيرهما[3]، وفي قَولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ أيضًا دليلٌ على إباحةِ لُبْسِ الدُّروعِ، وأنَّها لا تكون مؤثِّرةً في التَّوكُّلِ، والفرارِ مِن الأجَلِ، وتكونُ حِرزًا بينَ لابِسِها وبينَ ما يتَّقيه مِنَ الطَّعْنِ والجَرْحِ، وجُنَّةً مِن وصولِ المكارِهِ إلى المكانِ، والتَّوكُّلُ قائمٌ على حالِه[4].

معنى (الواو) في جُملة: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾:

التَّوجيهُ الإلهيُّ في تجويد العمل وإتقانه بعد الأمر به

الجُملةُ الفعليَّةُ ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ معطوفةٌ بالواو على جملة ﴿ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾[5]، عَطْفَ أمرٍ على أمرٍ إلّا أنَّ هذا الأمرَ بالتَّقدير هو أمْرُ توجيهٍ من اللّه ﷻ، بإتقان العمل وإحسانِه وضبطِه على أحسن وجهٍ له[6]، فهو أمرُ إرشادٍ إلى الاقتصادِ في نسج الدُّروع وتأليفها على قَدْرِ الحاجة بلا مُجاوزة للحدِّ في شيء منها[7].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 156.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 458.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 486، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 23.
(4) القصّاب، النُّكت الدالة على البيان: 3/ 687.
(5) عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل: 9/ 319.
(6) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 786.
(7) السِّيواسي، عيون التَّفاسير: 3/ 312.

وبين جملة ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ والجملة قَبْلَها: توسُّطٌ بينَ الكَمالَيْن؛ لاشْتِراكِهما في الإنشائيَّة، ولِما بينَهُما مِن التَّناسُبِ الظَّاهر في المعنى.

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردة (التَّقدير) دون (الإحكام):

الإرشادُ الإلهيُّ في توازن الدُّروع بين الخِفَّة والمتانة

معنى ﴿وَقَدِّرۡ﴾: اجعلْهُ على تقدير، والتَّقدير: جَعْلُ الشَّيءِ على مِقدارٍ مخصوص[1]، وتقديرُ الدُّروع: جَعْلُها مُقدَّرةً متناسبة[2]، وقد كانت الدُّروعُ قبل داوودَ ﵇ ثِقالًا، فلذلك أُمِرَ هو بالتَّقدير فيما يَجْمَع الخِفَّة والحصانة، أي: قَدِّرْ ما تأخذُ مِن هذين المعنيَين بقِسْطِه، فلا تَقصدِ الحصانةَ، فيثقلَ، ولا الخِفَّة فيُزيلَ المنعة، وذهب بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ التَّقديرَ الَّذي أُمِرَ به في قدر الحَلْقَةِ، أي: لا تعملْها صغيرةً، فتضعفَ، ولا يقوى الدِّرعُ على الدِّفاع، ولا تعملْها كبيرةً، فتثقلَ على لابسها، ويُنال لابسُها من خلالها[3]، ويحتمل أنَّ التَّقديرَ في الدُّروع يكون في المسمار، أي: لا تجعل مسمارَ الدِّرعِ رقيقًا فيقلقَ، ولا غليظًا فيَفصِمَ الحِلَقَ[4].

معنى ﴿ٱلسَّرۡدِۖ﴾، ولطيفة التَّعبير به دون (النسج):

في السَّردِ دلالةٌ على الإحكام والاتِّصالِ في نسج الدُّروع ونَسَقِها

﴿ٱلسَّرۡدِۖ﴾: نسجُ الدُّروع، ويُقال: السَّرد والزَّرد، كما يُقال: السَّرّاد والزَّرّاد لصانع الدُّروع، والسَّرد أيضًا: الخَرْزُ، يقال: سرد يَسرُدُ؛ إذا خرز، ومنه سَرْدُ الكلام؛ إذا جاء به مُتواليًا، وسَرْدُ الدُّروع: إحكامُها، وأن يكونَ نِظام حِلَقِها غير مُختلفٍ[5]، من خلال تركيبِ حِلَقِها ومساميرها التي تشدُّ شُقَق الدِّرع بعضها ببعضٍ، فهي للحديد كالخياطةِ للثَّوب، والدِّرع توصف بالمسرودَة كما توصف بالسّابغة[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 157.

(2) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 89.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 267، وابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 4/ 408.

(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 363، والقنوجي، فتح البيان: 5/ 425.

(5) مكي القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 5892، والواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/ 488، والقنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 5/ 425.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 157.

غرضُ الأمرِ في الفعل ﴿وَقَدِّرۡ﴾:

الأمرُ العدلُ في الأشياء تجلٍّ للتَّناسقِ الكونيِّ وعدم التَّبايُن لِلمخلوقاتِ

الأمرُ في ﴿وَقَدِّرۡ﴾ يُراد به الدِّلالة والإرشاد؛ لاشتمالها على تحصيلِ المنافِعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ.

والآيةُ دالَّةٌ على العدل في الصِّناعة؛ إذ لا بُدَّ منه في الخَلقِ والأمرِ، فلا بُدَّ من التَّسويةِ بينَ المتماثِلَين، فإذا فُضِّل أحدُهما؛ فسَدَ المصنوعُ، كما في مصنوعاتِ العبادِ، إذا بَنَوا بنيانًا؛ فلا بدَّ من التَّسوية بينَ الحيطانِ؛ إذ لو رُفِعَ حائِطٌ على حائطٍ رَفعًا كثيرًا؛ فَسَد، وكذلك إذا صُنِعَت ملابسُ للآدميّينَ؛ فلا بدَّ من أن تكونَ مُقدَّرةً على أبدانِهم لا تَزيدُ، ولا تَنقُصُ، وكذلك ما يُصنَعُ مِن الطَّعام لا بُدَّ أن تكونَ أخلاطُه على وجهِ الاعتدالِ، والنّارُ التي تَطبُخُه كذلك، ولهذا قال اللّهُ تعالى لداوود: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾، أي: لا تُدِقَّ المِسمارَ، فيَقلقَ، ولا تُغلِظْهُ، فيَفصِمَ، واجعَلْهُ بقَدَرٍ، فإذا كان هذا في مصنوعاتِ العبادِ - وهي جزءٌ مِن مصنوعاتِ الرَّبِّ سُبحانه - فكيف بمخلوقاته العظيمة التي لا صُنعَ فيها للعبادِ، كخَلقِ الإنسانِ وسائرِ البهائمِ، وخَلقِ النَّباتِ، وخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ والملائكةِ؟ فالفَلَكُ الذي خَلَقَهُ اللّهُ تعالى، وجعَلَه مستديرًا ما له من فُروجٍ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾ [الملك: 3 - 4]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات: 7]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦﴾ [ق: 6]، فهو سُبحانَه سَوّاها، كما سوَّى الشَّمسَ والقمَرَ وغيرَ ذلك مِن المخلوقاتِ، فعَدَل بيْنَ أجزائِها، فالعَدلُ والتَّسويةُ لازِمٌ لجَميعِ المخلوقاتِ والمصنوعاتِ، فمتى لم تُصنَعْ بالعَدلِ والتَّسويةِ بين المتماثِلَين؛ وقع فيها الفَسادُ(1).

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 16/ 133.

التَّوجيهُ إلى الاقتصاد في الكسب بقدر الحاجةِ والإرشاد إلى الاشتغال بالعبادة

وفي التَّقديرِ أيضًا إشارةٌ وإرشاد إلى عدم الاستغراقِ في شَغْلِ الوقت في الكسب وطلبِه، أي: أنَّك غير مأمورٍ به أمر إيجاب إنَّما هو اكتساب، والكسب يكون بقدرِ الحاجةِ، وباقي الأيّام واللَّيالي للعبادة، فقدِّر في ذلك العمل، ولا تشتغل جميع أوقاتِك بالكسب، بل حَصِّل به القوتَ فَحسب، ويدلُّ عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالسَّرد:

الإيماءُ إلى بلوغِ كمالِ الحماية ودِقَّة الصِّناعة

لمّا كان السَّردُ الخَرْزَ في الأديم وإدخالَ الخَيْطِ في موضع الخَرْزِ؛ شُبِّهَ إدخالُ الحلْقَةِ في الأخرى بلُحمَةٍ لا طرَفَ لها بمواضع الخرزِ، بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة الأصليَّة، فقال: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾، أي: النَّسج بأن تكونَ كُلُّ حلقةٍ مُساويةً لأختها مع كونها ضيِّقةً؛ لئلّا يَنْفُذَ منها سَهْمٌ، ولتكن في تحتِها بحَيْثُ لا يقلعها سيف، ولا تثقلُ على الدّارع، فتمنعُهُ خِفَّة التَّصرُّف وسُرعة الانتقال في الكَرِّ والفَرِّ والطَّعن والضَّرب في البرد والحرِّ[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾:

التَّرغيبُ في تحقيق غاية الخَلْقِ عبرَ الاقتصادِ في الكسب والإكثار من الصّالحات

قولهُ تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾، أيْ: أَحْسِنِ الصَّنعةَ وأَحْكِمْها، وقلنا له ولأهله: اجتهدوا في العملِ الصّالح، وأخرجوهُ على الوجه المرضي[3]، فَلَسْتُم - يا آلَ داوود - مخلوقِينَ إلّا للعملِ الصّالح فأكثروا منه، وأمّا كَسْبُ القوتِ، فاقْتَصِدوا فيه[4]، فَفي تعقيبِ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾، بقوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ لا يَستغرقُ في الدُّنيا، ولا يَلتفتُ إلى زَخارفِها، وأنَّه يجِبُ أنْ يَعمَلَ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 196، والشِّربيني، السراج المنير: 3/ 354.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 458.

(3) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 786، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 136.

(4) النَّيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 486.

صالحًا[1]، وفيه أيضًا أنَّه يجِبُ على مَن أنعَمَ اللّهُ تعالى عليه نِعمةً أن يَقومَ بشُكرِها بالعَمَل الصّالح[2].

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ النَّحويِّ الدّال على معنًى جديدٍ يرتبط بما قبله[3]، وهي تُضيف توجيهًا جديدًا بعد أمر داوود عليه السلام بإتقان العمَل، فجاء الأمرُ بعمل الصّالحات عامًّا، ويكون هذا التَّوجيهُ شاملًا لجميع أعمالِ الخيرِ، وبهذا تَحمِلُ الواوُ دلالةَ التَّكامل بَيْنَ الجزأين، مِمّا يُشير إلى إتمام النَّصيحة الإلهيَّةِ في إتقان العمل والإخلاصِ في العمل الصّالح، ليكتملَ مقصدُ الأمر.

نكتةُ الالتفاتِ من خطاب المُفرَد إلى خطاب الجَمْعِ:

إبـرازُ شموليّة الخِطاب القرآنيِّ من الأمر بالفعل الخاصِّ إلى الوصيَّة العامَّة

في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ التفاتٌ، وهو مظهرٌ من مظاهر العُدول في الأسلوب بالانتقال مِنَ الخِطاب للمُفرد في قوله: ﴿ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ إلى الجماعة، والمقصودُ بالضَّمير داوود عليه السلام وأهله، ولو لم يَجرِ لهم ذِكرٌ؛ لدلالة ذِكرِه عليهم، أو هوَ خطابٌ لهم كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾، أو خطاب له بصيغَةِ الجماعة تعظيمًا[4]، ففيه تلوين الخطاب، وسِرُّه: أنَّ الأوَّلَ فِعْلٌ خاصٌّ به، فخصَّ الخطابَ به عليه السلام، والثّاني عامٌّ له ولأهله[5].

نُكتةُ حذفِ المفعول:

التَّنبيهُ على مقاصد العمل الصّالح

﴿صَٰلِحًاۖ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ نعتٌ لمصدر محذوف، حيث حُذِفَ الموصوف (عملًا) في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾، وأُقيمَت الصِّفةُ ﴿صَٰلِحًاۖ﴾ مُقامه، والتَّقديرُ: واعملوا عملًا صالحًا خالصًا مِنَ الأغراضِ[6]، فيما يتعلَّق بأمور دينِكم ودنياكم،

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 529، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 199.
(2) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 95.
(3) العلوان، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1876.
(4) أطفيّش، تيسير التَّفسير: 11/ 376.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 466.
(6) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 268، والجبلي، البستان في إعراب مُشكلات القرآن، ص: 159.

لا في عملِ الدُّروع خاصَّة لعموم الخطاب، ولَم يُخْلَق الإنسانُ إلّا لأن يعمل صالحًا، وأوَّلُه عبادةُ اللّه تعالى، ثُمَّ صيانة النَّفس من مَشاقِّ الدُّنيا والآخرة، ثُمَّ الأدنى فالأدنى حتَّى الحيوان، يُؤيِّدُ هذا قوله بعدُ: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ إذ لو كان خاصًّا بالدُّروع؛ لما احْتيجَ إلى هذه المُراقبة المُؤكَّدة، هذا وقد ظَهَرَ أنَّ الحِكمةَ من إلانَةِ الحديدِ هو تَعلُّمه هذه الصَّنعة التي هي من لوازمِ الجهاد الذي هو أحدُ أركانِ الدّين[1]، ففي هذا حثٌّ على الصَّلاح والإخلاص، وتنبيهٌ إلى أنَّ الصَّلاح من صفات العمل المقبولِ الذي به يُجازى صاحبُه، وإرشادٌ إلى أهمّيَّة أن يُقرَنَ الإتقانُ بالنّيّة الصّالحة. فالعمل الصّالحُ لا يقتصر على أداء الحرفةِ بإتقانٍ فحسبُ، بل يجب أن يُصاحبَه تَوَجُّهٌ صالحٌ وتقوى.

عِلَّةُ فصل قوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾:

التَّعليلُ البليغ لتمام الحثِّ على الامتثال

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ لوُقوعه تعليلًا للأمر المتقدِّم في قوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ﴾، ولاختلاف الجُملتين خبرًا وإنشاء، فالإنشائيَّةُ تأمرُ بالعمل، بينما الجُملةُ الخبريَّةُ المُتمثِّلة في: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تُعلِّلُ هذا الأمر، وتُحفِّز على تنفيذه[2]، فيكون بين الجملتينِ كمالُ الانقطاعِ.

والآيةُ فيها بيان أنَّ اللّه سُبحانه مُطَّلِعٌ على الأعمال، ويُجازي عليها، وهذا التَّنوُّع بين الخبر والإنشاء يُعطي تمايزًا دِلاليًا يُقوّي أثرَ الكلام، ويُشَجِّعُ المُتلقّي على الامتثال للأمر، خصوصًا أنَّه جاء مُؤَكِّدًا لحقيقةِ علم اللّه تعالى الكامل والمُراقبة المُطلقة، ممّا يدفع الإنسان إلى الالتزام بالإتقانِ والإخلاصِ.

(1) ملاحويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 499.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 125، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 268.

غَرضُ توكيدِ الخبر في قوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾:

التَّعبُّدُ بمرتبة المراقبةِ محفِّزٌ على الإتقان والخشية

عَلَّلَ النَّظم الكريم الأمر بعمل الصّالحاتِ مُؤكِّدًا على وجه التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[1] في قوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، فإنَّ مَن يعلمُ أنَّه بمرأًى من المَلِكِ؛ اجتهد في حُسْنِ العمل وتزكية الباطن[2].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما) في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾:

تأكيدُ الإحاطةِ الإلهيَّة بأفعال الإنسان تفصيلًا وإجمالًا

الاسمُ الموصول (ما) في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ يُشير إلى شموليَّة العلم الإلهيِّ لجميع أعمال الإنسان، سواء أكانت خفيَّةً أم ظاهرةً، فاللّهُ تعالى بصيرٌ بكُلِّ ما يعملُهُ العبادُ من خير وشَرٍّ، وقليلٍ وكثيرٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، كما قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16][3].

ولم تُذكرِ الأعمالُ بلفظها لكثرة أفرادِها وعدم انحصارِها، فكان التَّعبيرُ بالموصول بدلًا مِنَ التَّنصيص على الأعمال استيعابًا للأعمال بلفظٍ أخصَرَ وأوجزَ، فيشمل كلَّ ما يقوم به العبدُ من الأعمال، مِمّا يُضفي على النَّص معنى الإحاطة التّامة، ويُعزِّز في نفس السّامع الشُّعور بالرَّقابة الدّائمة لكلِّ أفعالهِ وأقوالهِ ونيّاته وتصرُّفاته، وهذا مِمّا يزيد من أهمّيَّة الإخلاص والتَّقوى في الأعمال، ويؤكِّدُ على ضرورة الالتزام بالصَّلاح والإتقان؛ لأنَّ اللّهَ تعالى بصيرٌ بكلِّ ما يصدر عن الإنسان، صغيرِه وكبيرِه، سواءٌ أكان ذلك العمَلُ ظاهرًا للنّاس أم خفيًّا[4].

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

التَّوجيهُ الجماعيُّ في الخطاب الإلهيِّ تأكيدٌ على عموم الالتزام بالعمل الصّالح

ضميرُ الجماعةِ في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مِنْ قولهِ تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 461.
(2) النَّيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 486، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 24.
(3) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 90.
(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، ص: 411، لجنة من العلماء، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 250.

﴿بَصِيرٌ﴾ يعود على المُخاطَبين بالفعل السّابق في الآية: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾، وهم داوود عليه السلام وآلُه[1]، فالخطابُ موجَّهٌ لداوود وأهل بيته ابتداءً، مع التَّنبيهِ إلى عموم الخِطاب؛ ليشملَ أتباعَهُ وأهلَ الإيمان مِن بعدِهِ عامَّةً، مِمّا يقتضي التَّوجيهَ القرآنيَّ العامَّ في مثل هذه الأوامر إلى الجماعةِ؛ للالتزام بالعمل الصّالح ومُراقبة اللّهِ تَعالى في جميع الأعمال.

نُكتةُ تقديمِ المعمول ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرٌ﴾:

إظهارُ خصوصيَّةِ الإحاطةِ دفعٌ لتوهُّم غياب الرَّقابة الإلهيَّة

قول اللّه تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه تقديمٌ وتأخير، فقوله تعالى: ﴿بَصِيرٌ﴾ هو المُؤخَّر، والمُقدَّم هو معمولُهُ: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، ومن القواعدِ المُقرَّرة أنّ تقديمَ المعمول يدلُّ على الحَصْرِ والقصرِ، فكان المعنى: أنَّ اللّهَ تعالى بصيرٌ بما يعملون من دونِ غيرِهِ، مع أنَّه بصيرٌ بكلِّ شيءٍ، ونُكتةُ التَّعبيرِ بما هو في الظّاهر صيغةُ حصر الرَّدع عن المُخالفة، كأنَّهُ لو لم يكنِ اللّه تعالى بصيرًا بالشَّيء؛ لكان بصيرًا بأعمالكم، فَلَمّا كان الإنسانُ قد يقول: إنَّ اللّه تعالى لا يُبْصِر عملي؛ جعل اللّه تعالى الصّيغة دالَّةً بظاهرها على الحصرِ، حتَّى لا يدّعي مدَّعٍ أنَّ اللّه تعالى ليس عالمًا بعمله، هذا مِن وجهٍ، ومِنْ جهة أُخْرى لِمُناسبة فواصلِ الآيات[2].

نُكتةُ صَوْغِ ﴿بَصِيرٌ﴾ على (فعيل):

الإشارةُ إلى شدَّةِ التَّمكُّن والثَّبات في الوصف والمُبالغةِ فيه

البصيرُ مِن أسماء اللّه الحُسنى هو الذي يُبصر كُلَّ شيءٍ وإن دقَّ وصَغُر، وأحاط بصرُهُ بجميع المُبصرات في أقطار الأرضِ والسَّماوات، حتَّى أخفى ما يكون فيها، فإنَّ اللّهَ سُبحانَهُ يراهُ، ويُبْصِرهُ، لا يخفى عليه مِن ذلك شيءٌ[3]، وصيغةُ (فعيل) تشير إلى

(1) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 2/ 879، والبغويّ، تفسير البغوي: 3/ 672.

(2) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 90.

(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 946.

شِدَّة التَّمكُّن والثَّبات في الوصف والمُبالغة فيه، فاللّهُ تعالى عظيمُ البصرِ، كثيرُ الإبصار، نافذُ البصرِ ﷻ، ومعنى الآية: إنّي بما تعملُ أنتَ وأتباعك ذو بصَرٍ، لا يخفى عَليَّ منه شيءٌ[1] مُطَّلعٌ على عملِ كُلِّ عامل، فهو سُبحانه بصيرٌ بما يعمل العاملون، يكشف ما في العملِ مِن عَيْبٍ أو عِوَجٍ، ويُجازي المُحسِن على إحسانه، والمسيءَ بإساءته[2].

بلاغةُ الكنايةِ ﴿بَصِيرٌ﴾:

اللّهُ ﷻ بصيرٌ بكلِّ موجودٍ برؤيته، ومن عرف أنَّه البصيرُ راقبَهُ في الحركات والسَّكنات، حتَّى لا يراهُ حيث نهاه، أو يفقده حيث أمرَهُ، وفي ذكرِ اسمِ البصير مع المعنى الأصليِّ هُنا كنايةٌ عن الجزاء عن العمل الصّالح[3]، وهذا ترغيبٌ في العمل الصّالح، وتحذيرٌ ووعيد مِنَ التَّقصير والإهمال[4].

في التَّعبير بالبصيرِ تحفيزٌ للإنسان على الإحسان في العمل وتجنُّب التَّقصير

مُناسبةُ ختْمِ الآيةِ الكريمةِ بِصفة البصر:

بعد أن وردَ الأمرُ بالعمل الصّالح في الآية الكريمةِ، خُتِمت باسم اللّه البصير؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللّهَ تعالى يرى، ويُبصر التزامَ العبادِ بذلك الأمر، وفي هذا ما لا يخفى من التَّنبيهِ والإغراء بإصلاح العمل، والإخلاص فيه؛ فتذكيرُ العبدِ بأنَّ اللّهَ تعالى بصير؛ يُلزمه التَّوجُّه للّهِ تعالى بنيَّة خالصة، مع سَعْيِه لتحقيقِ أمرِ اللّهِ سُبحانَهُ على وجهٍ مُتكامل[5].

ارتباطُ المُراقبةِ بالأمرِ بالعمل تحقيقٌ لصلاحه والإخلاص فيه

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفعل والعمل:

الفعلُ كونُ الشَّيءِ مُؤَثِّرًا في غيره[6]، ولفظُ الفعلِ أعمُّ من معنى

العملُ فِعْلٌ صادر بالقصدِ، والفعل أعمُّ منه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 362.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 786.
(3) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 157.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 430.
(5) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 202.
(6) الجرجاني، التعريفات، ص: 168.

سائر أخواته، نحو: العمل، والصُّنع، والإبداع، والإحداث، والخلق، والكسب، أمّا العملُ؛ فهو كلُّ فعلٍ صادر بالقصدِ، فالعمَلُ لا يُقال إلّا لِما كان من الحيِّ دون ما كان من الجماد، ولِما كان بقصدٍ وعلمٍ دونَ ما لم يكن عن قصدٍ وعلمٍ[1]، فهو أخصُّ من الفعل[2].

والعمل أيضًا لا يُقال إلّا ما كان عن فِكْرٍ ورويَّة، ولهذا قُرِنَ بالعِلْم، فقيل: عِلْمٌ وعَمَلٌ، حتَّى قال بعضُ الأدباء: قُلِبَ لَفْظُ العمل عن لفظِ العِلم؛ تنبيهًا أنَّه مِن مقتضاه[3].

فالفعلُ لفظٌ عامٌّ، يُقال لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بعلم أو غير علم، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولِما كان مِنَ الإنسانِ والحيوان والجماد[4]، والعملُ أخصُّ منه.

(1) المناوي، التَّوقيف على مهمات التعاريف، ص: 247، والرّاغب الأصفهاني، المفردات، ص: 348.

(2) الرّاغب، المُفردات، والسمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ: 3/ 124.

(3) الرّاغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/ 119.

(4) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 322.

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾ [سبأ: 12]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

إتـباعُ ذِكْـرِ سُليمان بعد ذكر أبيهِ داوودَ عليهما السلام؛ لاشتراكِهما في الفضل والإنابَة

لَمّا أتَمَّ اللهُ سُبحانَه ما أرادَ مِن آياتِ داوودَ عليه السلام؛ أتبَعَهُ ابنَه سُلَيمانَ عليه السلام؛ لمُشاركتِه له في الإنابةِ[1]، وأيضًا فإنَّ اللهَ تَعالى لَمّا ذكَرَ فَضْلَهُ على داوودَ عليه السلام؛ ذكَرَ فضلَهُ على ابنِه سُلَيمانَ عليه السلام[2].

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿غُدُوُّهَا﴾: (غدو) تدُلُّ تصريفاتُهُ على زَمانٍ، ومِنْ ذلك: الغُدوُّ، يُقالُ: غَدا يَغْدو[3]، والغَداةُ والغُدْوَةُ والغُدوُّ بمعنًى، وهو من أوَّلِ النَّهارِ إلى الزَّوالِ[4]، والغَدْوَةُ: المَرَّةُ مِنَ الغُدوِّ، وهو سَيْرُ أوَّلِ النَّهارِ نقيضُ الرَّواحِ[5]، والغاديَةُ: سَحابَةٌ تَنْشأُ صَباحًا، والغَداءُ: الطَّعامُ بِعَيْنِه، سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ يُؤكَلُ في ذلك الزَّمانِ[6]، والمُرادُ بالغُدوِّ في الآية: الزَّمانُ الذي يغدو فيه النّاس، أي: يخرجون إلى حوائجِهم، فأطلَقَ الغُدوَّ على الانصرافِ والانطلاقِ من المكانِ؛ تشبيهًا بغُدوِّ النّاس في الصَّباحِ[7].

2) ﴿وَرَوَاحُهَا﴾: (روح) تدُلُّ اشتقاقاتُه على سَعَةٍ وفُسحةٍ واطِّرادٍ، وأَصلُ ذلِكَ: الرّيحُ، والرَّواحُ: العَشيُّ، وسُمّيَ بذلك لرَوْحِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 462.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 676.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غدو).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (غدو).
(5) الراغب، المفردات: (غدا)، وابن منظور، لسان العرب: (غدو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غدو)، والراغب، المفردات: (غدا).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 158.

الرِّيحِ؛ فإنَّها في الأَغلَبِ تَهُبُّ بعد الزَّوالِ[1]، وقيل: مِن لدن زَوال الشَّمْس إلى اللَّيل، ورُحنا رَواحًا وتروَّحنا: سِرْنا في ذلك الوقت، أو عَملنا[2]، والمَراحُ: الموضع الذي تروحُ إليه أو مِنْهُ، كالمَغْدَى مِنَ الغداة[3]، ومعنى ﴿وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ هُنا: تسيرُ بالعَشيِّ مَسيرةَ شهرٍ.

3) ﴿وَأَسَلۡنَا﴾: (سيل) تدُلُّ تصريفاتُه على جرَيانٍ وامتِدادٍ[4]، يُقال: سالَ الشَّيءُ سَيْلًا وسَيَلانًا؛ إذ جرَى، والسَّيْلُ: الماءُ الكَثيرُ السّائِلُ، وهوَ اسْمٌ لا مَصْدَرٌ، وجَمْعُهُ: سُيولٌ[5]، ويُطلَقُ على المَوْضِعِ الذي تَجْتَمِعُ فيه مياهُ الأَوْدِيَةِ ونَحْوِها، ثمَّ تَجْري منه؛ لِتَنتَقِلَ إلى مَكانٍ أَخْفَضَ مِنْهُ، والمرادُ بالإسالةِ في الآية: جَعْلُ الشَّيْءِ سائِلًا، أي: مائِعًا مُنْبَطِحًا في الأَرْضِ، كَمَسيلِ الوادي[6].

4) ﴿عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾: (عين) تدور تصريفاتُه على عُضْوٍ بِهِ يُبْصَرُ، ويُنْظَرُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ منه، قالَ الخليلُ: العَيْنُ النّاظِرَةُ لكُلِّ ذي بَصَرٍ، وتُجْمَعُ على أَعْيُنٍ وعُيونٍ وأَعْيانٍ[7]، ويُستعار العَيْنُ لمعانٍ هي موجودةٌ في الجارحة بنَظراتٍ مختلفةٍ، واستُعيرَ للثُّقب في المزادة؛ تشبيهًا بها في الهيئة، ويقالُ لمنبع الماءِ: عَيْنٌ، تشبيهًا بها، لِما فيها مِنَ الماءِ[8]، ومثلها: عَيْنُ القِطْرِ، والقِطْرُ: هو النُّحاس المذاب، مأخوذٌ من قطرَ الشَّيءَ يقطرُ قطرًا وقطرانًا؛ إذا سال[9]، والمقصودُ بـ﴿عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ في الآيةِ: اسمٌ لثُقْبٍ أرضيٍّ، يَخرجُ منه النُّحاس المذابُ مِن الأَرْضِ.

5) ﴿يَزِغۡ﴾: (زيغ) تدُلُّ اشتقاقاتُه على مَيْلِ الشَّيء، يُقالُ: زاغَ يَزيغُ زَيْغًا، والتَّزَيُّغُ: التَّمايُلُ[10]، وزاغَ البصر، أي: كَلَّ، وأَزاغَهُ عن الطَّريق، أي: أمالَهُ، وزاغَت الشَّمس، أي: مالت، وذلك إذا فاء الفيءُ[11]، والزَّيْغُ: الشَّكُّ، والجَوْرُ عَن الحقِّ، ومِنْهُ قوْلُهُ تعالى: ﴿فِي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (روح).
(2) ابن سيده، المحكم: (روح).
(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (روح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سيل).
(5) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (سيل).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 159.
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(8) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عين).
(9) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 275.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيغ).
(11) الجوهري، الصحاح: (زيغ).

﴿قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾ [آل عمران: 7][1]، وقالَ الرّاغبُ: الزَّيْغُ المَيْلُ عَن الاستقامةِ إلى أحدِ الجانبَيْنِ، وزالَ، ومالَ، وزاغَ: مُتَقارِبَةٌ، لكنْ زاغَ لا يُقالُ إلّا فيما كانَ عنْ حَقٍّ إلى باطِلٍ[2]، والمقصود بالزَّيْغِ في الآية: تجاوزُ الحَدِّ والطَّريقِ، والمعنى: من يعصِ أمرَنا الجاري على لسانِ سُليمان[3].

6) ﴿نُذِقۡهُ﴾: (ذوق) تدور اشتقاقاتُه على اختبارِ الشَّيءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، ثمَّ يُشتقُّ منهُ مجازًا، يُقال: ذُقْتُ المأكولَ أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عند فُلانٍ؛ إذا اخْتَبَرْتُهُ[4]، وذَوَّقَهُ الطَّعامَ: جَعَلَهُ يَخْتَبِرُ طَعْمَهُ بِلِسانِهِ، والذَّوق: وجودُ الطَّعم بالفَم، واسْتُعْمِل في العذاب بكثرةٍ، قال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان: 49]، واستُعْمِلَ في الرَّحمة أيضًا: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ [هود: 10][5]، فإن كان التَّذوُّق للنِّعمة زيادةً في التَّنعُّم، فالتَّذوُّق للعذاب زيادةٌ في الألم؛ فهو مُستعارٌ للإحساسِ القَويِّ، وهذا هو المرادُ في الآيةِ.

7) ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: (سعر) تدُلُّ تصريفاتُه على اشتعالِ الشَّيءِ واتِّقاده وارتفاعه، ومن ذلك: السَّعيرُ: سعيرُ النّارِ، واسْتِعارُها: تَوَقُّدُها[6]، يُقال: سَعَرْتُ النّارَ أسعَرُها سَعْرًا؛ إذا أوقدتها، وهي مسعورَةٌ، وسَعَرت نار الحَرب سَعْرًا، واستُعِرت النّارُ؛ إذا استوقدت وسُعار النّار: حَرُّها[7]، والمِسْعَرُ والمِسْعارُ: الخشبُ الَّذي تُسْعَرُ به النّار[8]، والمقصودُ بالسَّعير في الآية: النّارُ الشَّديدَةُ الإيقادِ، والمرادُ بعَذابِ السَّعيرِ: عذابُ النّارِ، وهوَ تَشْبيهٌ، أَي: عذابًا كعذاب السَّعير، أَيْ: كعذابِ جهنَّم، وأمّا عذابُ جهنَّم؛ فإنَّما يكونُ حقيقةً يوم الحساب[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يَذكُرُ اللّه ﷻ ما أنعَم به على سُليمانَ عليه السلام بعدَ أن ذكَر ما أنعَم به على أبيه، فيقولُ: وسَخَّرنا لسُلَيمانَ الرّيحَ تجري مِن أوَّلِ النَّهارِ إلى الزَّوالِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ،

(1) الزبيدي، تاج العروس: (زيغ).
(2) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (زيغ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 160.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(5) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 5/ 282، والمناوي، التَّوقيف على مهمات التعاريف، ص: 172.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سعر).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سعر).
(8) الجوهري، الصحاح: (سعر).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 115، 160.

سلطانُ الله تعالى قائمٌ على مخلوقاتِه يُسخِّرها لتَخدُم عبدًا من عبادِهِ

وتجري مِنَ الزَّوالِ إلى اللَّيلِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وأجرَينا له عينَ النُّحاسِ، وسَخَّرْنا له مِنَ الجِنِّ مَن يَعمَلُ بينَ يَديه فيما يأمُرُه به، وذلك بأمرِ اللهِ تَعالى وتَسخيرِهم له، ومَن يَخرُجْ مِنهم عن أمرِنا لهم بطاعةِ سُلَيمانَ؛ نُذِقْهُ مِن عذابِ النّارِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾، ودلالة عَطْفِها:

الاعتبارُ بما أوتيه سُليمان عليه السلام من فضل كرامة لأبيه على إنابته

عَطْفُ فضيلةِ سُليمان عليه السلام على فضيلة داوودَ عليه السلام للاعتبار بما أوتيه سُليمان من فضل كرامةٍ لأبيه على إنابته، ولِسُليمان على نشأته الصّالحة عند أبيه، فالعطف على ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾، والمُناسبة مثل مُناسبة ذِكْرِ داوود، فإنَّ سُليمانَ كان موصوفًا بالإنابة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ ٣٤﴾ [ص: 34][2]، فهو من عطفِ القِصَّة على القِصَّة وذكر سُليمان وما اختصَّه به من الكرامة[3].

بلاغةُ الحذفِ في صدرِ الآيةِ الكريمةِ:

الإشارةُ إلى شِدَّة التَّمكُّنِ من الرِّيح وتحكُّمه بها

في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ إيجازٌ بالحذف، فـ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ مفعولٌ لفعل محذوفٍ تقديرُه: (سخَّرنا)، فهو من قبيل الإيجازِ بالحذف، وقد أوحى الإيجازُ بحذف الفعلِ إلى تمكُّنِه من الرّيح وتحكُّمه بها، والرّيحُ عَطْفٌ على الحديد في قوله تعالى في الآية السّابقة: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ بتقدير فعلٍ يدلُّ عليه: ﴿وَأَلَنَّا﴾، ويكونُ التَّقديرُ: وسخَّرنا لسليمان الرّيح، على نحو قول الشّاعر:

يا ليتَ زوجكِ قد غدا *** مُتقلِّدًا سَيفًا ورُمحا[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 227، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 268، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 499.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 157.

(3) الرَّسعني، رموز الكنوز: 6/ 219.

(4) البيت من مُرفَّل الكامل، ومطلعه: يا ليت زوجك قد غدا، وهو لعبد الله بن الزِّبعري، كما قال الأخفش وقد ورد في عدد من كتب اللُّغة والنَّحو، ورواه صاحب الإنصاف: يا ليت بعلك في الوغى، يُنظر: الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص، ص: 80، والأنباري، الإنصاف: 2/ 500.

أي: وحاملًا رُمْحًا.

ومعنى (تسخيرُهُ الرّيح): أنَّه خَلَقَ له ريحًا تُلائم سَيْرَ سفُنِه للغزو أو التِّجارة، فجعل اللهُ تعالى لَمراسيهِ في شُطوط فلسطين رياحًا موسميَّة تَهُبُّ شَهْرًا مُشرِّقة؛ لتذهب في ذلك الموسم سُفُنُهُ، وتهُبُّ شهرًا مُغرِّبة لترجع سفنُه إلى شواطئِ فلسطين، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ [الأنبياء: 81][1].

دلالةُ (اللّام) في ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ﴾:

الدّلالةُ على تقويةِ عامل معنويٍّ بعد حذف الفعل

اللّامُ في قوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ﴾ لامُ التَّقوية، فإنَّه لمّا حُذِفَ الفعلُ لدلالة ما تقدَّم عليه؛ قُرِنَ مفعولُهُ الأوَّل بلام التَّقوية؛ لأنَّ الاحتياجَ إلى لام التَّقوية عند حذف الفعلِ أشَدُّ من الاحتياج إليها عند تأخيرِ الفعل عن المفعول[2].

دلالةُ انتخابِ اللّام هنا دون (مع):

التّمايزُ بين ترجيعِ الجبال مع داوود وتسخير الرّيح لسليمان

جاء في الآية السّابقة بـ (مع) في شأن داوودَ في قول الله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾، ولم يردِ في النَّظْمِ القرآنيِّ عند ذِكر سليمان: (ومع سليمان الرّيح)؛ لأنَّ حركتَها بتسخير سُليمان لها، وسُلطانه عليها بأمر ربِّها، فتسير معَهُ حيث شاءَ، وهذا على خلاف تَأْويب الجبال؛ فإنَّه كان تبعًا لتأْويبِ داوودَ عليه السلام، ولم يكن مُسَلَّطًا عليها؛ فلذا جيءَ هُناك بـ (معه)[3].

نكتة تقديم ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ﴾ على المفعول ﴿ٱلرِّيحَ﴾:

إبرازُ الاختصاص بالنِّعمة وتمكين النَّبيِّ سُليمان من التَّصرُّف فيها وحده

جاء تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ﴾ على المفعول ﴿ٱلرِّيحَ﴾؛ ليُفيدَ معنى تخصيصِه بهذه النِّعمة دون سواه وتمكينه منها، فإنَّ اللّه جل جلاله آتى سليمانَ عليه السلام من فضله ثلاثَ مِنَنٍ امتنَّ بها عليه، وخَصَّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 158.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 158.
(3) النَّيسابوري، تفسير غرائب القرآن: 5/ 486، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 290.

بها دون سائرِ الأنبياء والمُرسلين، وهي: تسخيرُ الرّيح له، وإسالة عين النُّحاس له، وتسخير الجِنِّ للعمل بأمرِه، وهذا مصداقُ إجابةِ ما دعا به عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص: 35]، وهذا يُشير بوضوحٍ إلى أنَّ هذه النِّعمة بالتَّحكُّم في الرّيح كانت خاصَّةً بسليمان عليه السلام دون غيرِه من النّاس، فاللّهُ تَعالى مكَّنه منها، وأعطاه سُلطةَ التَّصرُّف فيها، ممّا يُبرِز كمال فضلِه على غيرِه، ويَزيد من قدر النِّعمة، ويُشعر القارئَ والمُتدبِّر بمدى التَّمكين والتَّكريم الذي منَحهُ اللّه تَعالى إيّاهُ.

تكثيرُ المعاني بين التَّسخير والثَّبات باختلاف القراءات

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة في ﴿ٱلرِّيحَ﴾:

قرأ الجمهورُ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ بإفراد ﴿ٱلرِّيحَ﴾، وبنصبها على أنَّها معطوفةٌ على ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾ في قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، وقرأ أبو بكر عن عاصم برفع ﴿ٱلرِّيحُ﴾ على أنَّه من عطف الجمل[1]، فيكونُ مُبتدأً محذوفَ الخبرِ، والتَّقديرُ: ولسليمان الرّيحُ ثابتةٌ مُسخَّرةٌ له تسخيرًا[2]، فأوردت الجُملة اسميَّة؛ للدَّلالة على أنَّ كونها مُسخَّرة لسُليمان أمرٌ ثابتٌ عند العامَّة، مذكورٌ على الألسنة، أو على تقدير فعلٍ مبنيٍّ للمفعول، والتَّقدير: سُخِّرت لسليمان الرّيحُ.

وأمّا على قراءة الباقين بالنَّصب؛ فعلى أنَّ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ مفعولٌ به لفعل محذوفٍ، تقديرهُ: وسخَّرنا لسليمانَ الرِّيح، والجُملة معطوفةٌ على مفهوم كلام سابقٍ، فإنَّه يُفهم من قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[3].

وقرأ أبو جعفر ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بصيغة الجمع[4]، وقد فرّق بعضُ

(1) الواسطي، الكنز في القراءات العشر: 2/ 611، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 158.
(2) البغوي، تفسير البغوي: 3/ 672.
(3) المظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 12، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 363، وخواجه الأنصاري، كشف الاسرار: 8/ 117.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 02/ 223.

العلماء بين لفظَي ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد، و﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع، فجعلَ حجّةَ من أفرد أنّه جعلَها عذابًا، واستدلَّ بما روي عنِ النّبيّ ﷺ: «اللّهم اجعلها رياحًا لا ريحًا»[1]، والحجّةُ لمن جمعَ: أنّه فرّق بين رياح الرّحمةِ، ورياح العذابِ، فجعل ما أُفرد للعذاب، وما جُمعَ للرّحمة[2].

ومع ذلك فقد يقال: إنَّ (الرّيح) إذا ذُكرت مطلقةً فالغالبُ أن تكون في العذاب، و(الرّياح) إنِ استُعملت غيرَ مقيّدَةٍ فإنّ الغالبَ أن تكون للرّحمة، وأمّا إذا قُيّدا بالإضافةِ أو بالوصف خرجا عمّا هو الغالبُ لنُكتةٍ، ولعلَّ النّكتةَ هنا أنّ قراءةَ الجمهور توجّهُ على ملاحظة صفةِ (العصف) الدّالّةِ على الشّدّة والقوّةِ والإهلاك، وقراءةَ غيرهم توجّهُ على ملاحظة صفةِ ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾، فتكونُ الرّيح المُسخّرةُ لسليمان عليه السلام مُطلقةً في العذابِ والرّحمة والشّرّ والخيرِ ممّا يدلُّ على عظمة التّسخير وإطلاقه.

وملمح بلاغي آخر في توجيه قراءة الجمع والإفراد هو اختلاف الجهة، فوجه القراءة بالجمع هو إتيانها من كل جانب، وذلك معنى يدلّ على اختلاف هبوبها، فهي رياح لا ريح؛ لأنّ الريح الواحدة إنما تأتي من جانب واحد، فكان لفظ الجمع فيها أولى، لتصرّفها من جهات فيكون لفظها مطابقًا لمعناها في الجمع، ووجه القراءة بالتوحيد أن الواحد يدلّ على الجمع؛ لأنه اسم للجنس، فهو أخفّ في الاستعمال، مع ثبات معنى الجمع فيه[3].

دلالةُ فصلِ قوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ﴾:

إيضاحُ كيفيَّةِ التَّسخيرِ بِذِكْرِ سُرعةِ الرّيحِ وعظمتها

قوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ﴾ جُملةٌ مُستأنفة استئنافًا بيانيًّا[4]،

(1) ضعيف جدّا، لأنّ في إسناده حسين بن قيس الرحبي الملقب بحنش، وهو متروك، الألباني، السّلسلة الضعيفة، رقم: (4217).
(2) ابن خالويه، الحجّة، ص: 91.
(3) مكّي، الكشف: 1/ 271.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 125.

مسوقةٌ لبيان كيفيَّة التَّسخير، أو هي حالٌ هي في قوَّة الاستئنافِ، كأنَّه قيل: كيف كان التَّسخيرُ(1)، فجاءَ الجوابُ موضِّحًا سرعة الرّيح وتسخيرها لسليمان ﷺ؛ ليدلَّ على عظمةِ قدرةِ اللّهِ تَعالى في تسخير عناصرِ الطَّبيعةِ وتيسيرها لنبيِّه كرامةً له؛ ففُصِلت هذه الجُملة عمّا قبلها لشِبْه كمال الاتِّصال بينهما.

مَوقِعُ الاسميَّةِ في جُملة ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ﴾:

استقرارُ تسخيرِ الرّيحِ بالغدوِّ والرّواح دلالة على امتداد النِّعمة وثباتِها

قوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ﴾ جُملة اسميَّة في مَحَلِّ نصبِ حالٌ من ﴿ٱلرِّيحَ﴾(2)، أي: جريُها بالغدوِّ من الصَّباح إلى الزَّوال كان مسيرةَ شهرٍ، وبالعشيِّ من الزَّوال إلى الغُروبِ كذلك(3)، وتوضِّح هذه الجُملة وظيفةَ الرّيح المُسخَّرة لسُليمان ﷺ، وتُشير إلى سُرعتها الكبيرة؛ إذْ تَقْطَعُ في وقت الغدوِّ مسافةَ شهر، ومثل ذلك في وقت الرَّواح؛ ليُصبح (الغدوّ) و(الرَّواح) حالًا ثابتة في تسخيرها، وذلك تعبيرٌ عن مدى تيسير اللّه تعالى لسليمان ﷺ في التَّحكُّم بعناصر الطَّبيعة.

دلالةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بـ (الغدوّ) و(الرواح):

تصويرُ سُرعةِ الرّيحِ وحركتها ذهابًا وجيْئَةً

الغدوُّ: أوَّل النَّهار، وفيه تغدو الكائناتُ إلى حيث تَطلُب رزقَها وغذاءها، والرَّواح: آخرُ النَّهار، حيثُ ترجعُ الكائنات الغادية، وتروح إلى مَراحها الذي ترتاح فيه، بعد عمَلِ يَوْمِها، ومعنى غدوِّها شهر ورواحها شهر، أي: إنَّ مسيرةَ الرّيح المسخَّرة لسُلَيْمان، في غدوة تقدَّرُ بمسيرةِ شَهْرٍ، سَيْرًا على القَدم، كما أنَّ مراحَها ورُجوعَها مِن غدوَتِها، يَعْدِلُ مسيرةَ شَهْرٍ(4).

وأُطْلِق الغدوُّ على الانصراف والانطلاقِ من المكانِ تشبيهًا

(1) زاده، حاشية محيي الدِّين زاده على تفسير البيضاوي: 6/ 681، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 466.

(2) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 9/ 320.

(3) المظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 12.

(4) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 787.

بخروج الماشية للرَّعي في الصَّباح، وهو وقت خروجها، أو تشبيهًا بغدوِّ النّاس في الصَّباح، وأُطلِقَ الرَّواحُ على الرُّجوع من النُّهمة التي يخرج لها؛ لأنَّ عُرفهم أنَّ رواحَ الماشية يكون في المساء، فهو مشتقٌّ من راح؛ إذا رجع إلى مَقرِّه[1]، ففي الكلامِ استعارةٌ تصريحيَّة أصليَّة، تَمَّ فيها استخدام كلمة (الغدوِّ) المرتبطة في الذِّهن بالخُروج والنَّشاط ممّا يُعطي صورةً واضحة عن طبيعة الرِّيح وسُرعة انطلاقها، وكلمة (الرَّواح) الدّالة على الرُّجوع، وقد شُبِّعت بعودةِ الماشيةِ إلى مكانها في المساء؛ إظهارًا للتَّوقيت المرتبط بهذا الفعل، حيثُ يرتبط الرّواحُ بتجربة مألوفةٍ للجميع، مِمّا يجعل الفكرة أكثر قُربًا للقارئ، ويُساعد في تصوير سُرعةِ الرّيح وحركتها ذهابًا وجيئة.

دفعُ توهُّمِ سُكون الرّيح مساءً

دِلالةُ العطفِ بِذِكْرِ الرَّواح وعدم الاقتصار على ذكر الغدوِّ:

عَطفَ النَّظمُ الكريم ذكرَ الرَّواح بعد ذِكْرِ الغُدوِّ، ولم يقتَصِر على زمن الغدوِّ ليُقاسَ عليه زمن الرَّواح؛ لأَنَّ الرّياح كثيرًا ما تسكن، أو تضعف حركَتُها بالعشيِّ، فدُفِعَ بالتَّنصيص على زمَنِ الرَّواح توهُّمُ اختلافِ الزَّمانين[2].

بيانُ غايةِ سُرعة الرّيح بالإيجاز في اللَّفظ وتصوير الإعجاز في التَّسخير

بلاغةُ الحذفِ في الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾، أي: غدوُّها مسيرة شهر، ورواحها مسيرة شهر، وإنَّما وجب هذا التَّقدير؛ لأَنَّ الغدوَّ والرَّواح ليس بالشَّهر، وإنَّما يكونان فيه، فحُذِفَ من الآية الكريمة لفظ (مسيرة)، وهو بيانٌ لغاية سُرعتها؛ لدلالة السّياق على المحذوف[3]، وهذا الحذفُ يُحقّق غاية الإيجاز الذي هو من أساليبِ البلاغة، حيث يُفهم المعنى تمامَ الفَهْمِ دون الحاجةِ لتوضيح المسافة، فكأنَّ مجرَّدَ ذكرِ الغدوِّ والرَّواح مع الشَّهر كافٍ لإظهار قوَّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 158.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 290.

(3) الصّابوني، الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص: 263.

الرّيح وخُضوعها التّام لإرادة سليمانَ ﷺ، وهذا يُعْطي إحساسًا بالتَّسخير المُطلق للرّيح في أيِّ وقت يشاء، وهذا يزيد من الشُّعور بعظمة هذه النِّعمة وقوَّة التَّسخير.

سِرُّ تكرارِ لفظ ﴿شَهۡرٞۖ﴾:

الإعلامُ بمقدار زمـن الـغـدوِّ وزمن الرَّواح

أَعاد النَّظمُ الكريم لفظَ الشَّهر في قوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾؛ للإعلام بمقدارِ زمَنِ الغدوِّ وزمن الرَّواح، والألفاظ التي تأتي مُبيِّنة للمقادير لا يَحْسُن فيها الإضمار[1].

ولأنَّ في ذكرها دفعًا لِتَوهُّم أن يكون الشَّهر الواحد مدَّةً لمجموع الغدوِّ والرَّواح، فنُصَّ على الشَّهْرِ مكرَّرًا؛ لبيان أنَّ كُلًّا مِنَ الغدوِّ والرّواحِ مُدَّتُهُ شهرٌ.

بلاغةُ المُطابقةِ بين الغدوِّ والرَّواح:

التّـقـابـلُ في الزّمانِ دليلٌ على التّسخير الكامل للرّيح لسليمان ﷺ

كلٌّ مِنَ الكلمتينِ - (الغدوّ) و(الرَّواح) - يُشير إلى مُدَّتين مُحَدَّدتين مِنَ اليوم، فالغدوُّ هو وقتُ الصَّباح، بينما الرَّواح يشير إلى المساء، وهذا التّوازن بين المُدَّتينِ يُبْرِزُ مدى انتظام الرّيح وسُرعتها في كلا الاتّجاهين، حيث تقطع مسافة شهر في الصَّباح، وأخرى في المساء، أي: مِن منتصفِ النَّهار إلى اللَّيل، فتقطعُ مسيرة شهرين في يوم واحدٍ[2]، وهذا ما يَدُلُّ على كمال التَّسخيرِ مِنَ اللّه تَعالى لعناصر الطَّبيعة لنبيِّه سليمانَ ﷺ؛ فكلمتا (الغدو) و(الرَّواح) تَدلّان على حركتين متقابلتينِ، وُهَما الذّهاب والعودة، مِمّا يُعزِّز فكرة أنَّ الرّيحَ كانت مُسخَّرةً لسليمان ﷺ في الأوقاتِ كُلِّها، وهذا دالٌّ على عظمةِ هذا النَّبيِّ الكريم وكرامَتِهِ عِنْدَ اللّهِ سُبحانَهُ.

معنى (الواو) في: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على قولِه

(1) ابن الحاجب، أمالي ابن الحاجب: 1/ 272.

(2) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 309.

إظهارُ تعدُّدِ النِّعَمِ على سُليمانَ عليه السلام وتكامُلها

قبلُ: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾[1]، والعطف هُنا جاء ليُضيف نعمةً أخرى خَصَّ اللّه بها نبيَّهُ سليمان عليه السلام بعد ذِكر تسخير الرّيح، مِمّا يُشير إلى تَعدُّدِ النِّعم الَّتي أنعم بها اللّهُ تَعالى عليه وتكامُلِها من خلال تسخيرِ عناصرَ مُختلفةٍ للنَّبيِّ سُليمان عليه السلام تحقيقًا لُملكه العظيم.

فيكونُ على هذا التَّقريرِ بين الجملتَين توسُّطٌ بين الكمالَين؛ لاشتراكِ الجُمْلتين في الخبريَّة، ولِما بَيْنَهُما مِنَ التَّناسُبِ في المعنى، وحسَّن هذا العطفَ اشتراكُ الجُمْلَتَيْنِ في الفعليَّةِ على قراءةِ نَصْبِ ﴿ٱلرِّيحَ﴾، وفي أحَدِ تَوْجيهَي قراءةِ الرَّفع ﴿ٱلرِّيحُ﴾ أيضًا.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ (الإسالة) دون التَّفجيرِ في ﴿وَأَسَلۡنَا﴾:

الإسالةُ رمزٌ للرِّفق وسهولة التَّمكين الإلهيِّ في تسخير المادَّة لنبيِّ الله سليمانَ عليه السلام

الإسالةُ: جعْلُ الشَّيءِ سائلًا، أي: مائعًا مُنْبَطِحًا في الأرض كمسيل الوادي، والمعنى هُنا: سخَّرنا له عينَ النُّحاسِ، وسَهَّلنا له الأسبابَ في استخراج ما يُستخرجُ مِنها مِنَ الأواني وغيرها[2]، بحيثُ يكونُ سهلَ الاستخدامِ والتَّشكيل للنَّبيِّ سُليمان عليه السلام، فلفظُ الإسالةِ يوحي بتدفُّق المادَّة وانسيابها برِفْقٍ وسلاسَةٍ على نحو مُستمرٍّ، بينما لفظُ (التَّفجير) يوحي بالاندفاع القويِّ المُنْتَشِر، فكان لفظُ الإسالةِ دالًّا على كمال العناية واللُّطف الإلهيِّ في تمكين نبيِّه عليه السلام من استعمالِهِ مِنْ دون عناءٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ هُنا بالإسالةِ وعن الحديدِ بالإلانة:

تناسقُ التَّعبير بين الإلانة والإسالة بحسب طبيعة المعادن

في التَّعبيرِ عن الحديد بالإلانةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾، وعن النُّحاسِ بالإسالَةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ إشارةٌ إلى اختلاف طبيعَتَي كُلٍّ مِنَ الحديد والنُّحاس، وأنَّ الحديدَ يُمكنُ تشكيلُهُ بالطَّرْقِ؛ إذا سُخِّنَ، ولان، بخلاف النُّحاس، فإنَّهُ لا يُنتفع بِهِ حتَّى يَنْصَهِر، ويتحوَّلَ إلى مادَّة أقرب ما تكون إلى

(1) المظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 12.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 159، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 676.

السَّوائل، وهذا ما نجدُه في قوله تعالى حكايةً عن ذي القرنين قولَه: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ [الكهف: 96]، فالحديدُ هُنا قد عُرِضَ على النّار حتَّى احمرَّ، وصار أشبه بالجَمْر، ثُمَّ جاء بالقِطْرِ - وهو النُّحاس الذّائب - فأفرغه على هذا الحديدِ، وصَبَّهُ فَوْقَهُ، كما يُصَبُّ الماء على النّار، وعينُ القِطر هو الخالص منه، فهو نحاسٌ خالِص[1].

نُكتةُ إسنادِ (الإسالة) في ﴿وَأَسَلۡنَا﴾:

بيانُ عظمةِ الإعجازِ في تحويل الجمادِ الصُّلب إلى سائلٍ مائع

أُسنِدَ فعلُ الإسالةِ إلى (نا) الدّالَّة على العظمة والكبرياءِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾؛ لِما يقتضيه السّياقُ بعظمة تلك الإسالةِ وذلك التَّسخيرِ، وهذا دليلٌ على كمال قُدرةِ اللّه تَعالى؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ النُّحاس مَعْدِنٌ جامدٌ، فجعلَهُ اللّه ﷻ لسليمانَ عليه السلام عَيْنًا سائلةً، كأنَّها الماءُ[2].

معنى (اللّام) ونُكتة تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على المفعول:

خُصوصيَّةُ النِّعمةِ لسليمان عليه السلام بالإسالة وتفرُّده بها

في قوله تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ دلالةٌ على أنَّ اللّه تعالى أسال له عينَ القِطْرِ، يتصرَّف فيها كما يشاء، وهذا يقتضي أن تكونَ هذه الإسالةُ مستمرَّةً حيثُما أرادها؛ وجَدها[3]، ولم يُذَبِ النُّحاس فيما رويَ لأحدٍ قبله[4]. فاللّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ يُرادُ بها الاختصاص، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعولِ ﴿عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ لإرادة القصر والحصر، فالتَّقديمُ دالٌّ على تخصيص نعمةِ الإسالة للنُّحاس بالنَّبيِّ الكريم سُليمان عليه السلام وحدَهُ، وفي ذلك إظهارٌ لفضلهِ وتميُّزه، وتكريمٌ له وتعزيزٌ لمكانتِهِ باعتبارِهِ مَلِكًا نبيًّا.

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 788.
(2) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 99.
(3) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 100.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 409، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 527.

دلالةُ التَّعبيرِ بالعين في ﴿عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾:

بيانُ قُدرة الله تعالى المُطلقةِ في التَّصرُّف في خَلقِهِ

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾، أي: أذبناهُ له حتَّى صار كأنَّه عينُ ماء مُتدفِّقة من الأرض، وذلك دالٌّ على أنَّه تعالى يفعل في الأرض ما يشاء، فلو أراد؛ لأسالَها كُلَّها، فَهلَكَ مَنْ عليها، ولو أرادَ؛ لجعل بدَل الإسالةِ الخَسْفَ والإزالة(1).

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ بإسالةِ عين القطر:

تصويرُ الكثرة والتَّدفُّق في إسالة القِطر إظهارٌ للنِّعمة والامتنانِ

﴿عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ في الآية الكريمة مُستعارةٌ لَمَصَبِّ ما يُصهر في مصانعِهِ من النُّحاس، حتَّى يكونَ النُّحاس المذاب سائِلًا خارجًا من سواقٍ ونحوها مِنَ الأنابيب، كما يخرج الماءُ مِنَ العين؛ لشِدَّة إصهارِ النُّحاس وتوالي إصهارِه، فلا يزالُ يسيل ليصنع له آنية وأسلحة، وما ذلك إلّا بإذابةٍ وإصهارٍ خارقَيْنِ للمُعتاد بقوَّةٍ إلهيَّة، وذلك ما لم يُؤْتَهُ مَلِكٌ من ملوك زمانِه، ويجوز أن يكونَ السَّيلانُ مُستعارًا لكثرة القِطرِ كثرةً تُشبه كثرةَ ماءِ العيون والأنهار، ويكون ﴿وَأَسَلۡنَا﴾ أيضًا تَرْشيحًا لاستعارة اسمِ العين لمعنى مُذاب القطر، ووجهُ الشَّبه: الكثرةُ(2)، فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ أصليَّة، والعلاقةُ بين المعنى المجازيِّ والحقيقيِّ السَّيلانُ والتَّدفُّقُ الحاصل داخل المصبِّ والعين، وقد مَنَع مِن إرادة المعنى الأصليِّ القرينةُ اللَّفظيَّة ﴿ٱلۡقِطۡرِۖ﴾، حيث يتعذَّر أن يتدفَّق النُّحاس من العين.

بيانُ الامتنانِ الإلهيِّ في تسخير النُّحاسِ مذابًا بلا عناءٍ

وقد يكون التَّعبيرُ بالعين من قبيلِ المجاز المُرسل؛ لأنَّ الذي يُذاب هو النُّحاس، وليس المكانَ الذي يُصَبُّ فيه، فتكون علاقتُه محليَّةً، وسِرُّ التَّعبيرِ بالمجاز المرسل يوحي بمدى تسخير النُّحاس له مُذابًا لا جهدَ في إلانَتِه، وفي هذا امتنانٌ عظيمٌ من اللّه تَعالى على نبيِّه.

ولأنَّه لا تَزاحُمَ في الأسرارِ والنِّكات، فإنَّه يُمكنُ الجمعُ بينَ قيمَة

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 463، وقاسم، عقد الجُمان، ص: 914.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 159، وأطفيش، تيسير التَّفسير: 11/ 378.

الاستعارَةِ والمَجاز في إضْفاءِ معانٍ دلاليَّةٍ تَجْمَعُ بين وفرَةِ النُّحاس أوَّلًا، وبين جاهزيَّته للاستخدامِ دونَ عناءِ إذابَتِه، وفي هذا امتنانٌ على امتنانٍ[1].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ﴾:

استمرارُ سَرْدِ النِّعمِ بِتَسخيرِ الجِنِّ وتذليلِهم لخدمةِ سليمانَ عليه السلام

قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ يجوز أن يكونَ عطفًا على جُملة: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾، فقوله: ﴿مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ خبرُه، وهو في موضع الحال، ويجوزُ أن يكون ﴿مَن يَعۡمَلُ﴾ عطفًا على ﴿ٱلرِّيحَ﴾ في قوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾، أي: سخَّرنا له مَن يعمل بين يديه من الجنِّ، وتكون جُملة: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ مُعترضةً بين المعطوفِ والمعطوف عليه، وسخَّرنا له من الجنِّ مَن يعمل لديهِ مِنَ المحاريب وغَيْرِها، بأمر ربِّه وقُدْرَتِهِ وتيسيره وتسخيره إيّاهم لسليمانَ عليه السلام[2].

فالعطفُ يُشير إلى تسلسل النِّعَمِ الَّتي أنعمَ اللّه تعالى بها على نبيِّه سُليمان عليه السلام؛ حيث ذُكِرَت النِّعم بشكلٍ متتابعٍ، فبدأت بتسخير الرّيح، ثُمَّ إسالة النُّحاس، وأخيرًا بتسخير الجِنِّ ليعملوا تحت إمْرَتِه، فالعطفُ يُبرِز تكامُلَ هذه النِّعم وتعدُّد وسائل التَّمكين التي منحها اللّهُ تَعالى لسليمانَ عليه السلام، مُجسِّدة شموليَّة هذا التَّمكين الإلهيِّ لِسُليمان في العناصر المحيطة به مِنَ الرّيح إلى المعادنِ، بل والكائنات غير المرئيَّة كالجِنِّ، كما يُشير العطف هنا إلى نوعٍ مِنَ التَّفصيل والتَّدرُّج في ذكر الجنود المُسخَّرين لسُليمان عليه السلام.

دلالةُ (مِنْ) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ﴾:

تخصيصُ بعض الجِنِّ لطاعة سليمان عليه السلام

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ دالَّةٌ على التَّبعيض، والمعنى: أنَّ اللّهَ تعالى سخَّرَ لسُليمان بعضَ الجِنِّ لخدمتِهِ وطاعتِهِ فيما

(1) آل مبارك، البلاغة القرآنيَّة في سورة سبأ، ص: 71.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 159، والشِّربيني، السراج المنير: 3/ 354.

يأمرهم بِهِ، ويوكِّلهم من الأعمال، ولذلك وكَّل مَلَكًا يُعذِّب مَن عَدَلَ منهم عن أمر سُليمان[1].

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ بيانٌ للتَّسخير الفريد للجِنِّ

ويجوزُ أن تكون (مِنَ) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ بيانيَّةً؛ لأنَّ بها بيانًا لإبهام (مَنْ) بعدَها، وقُدِّمَ على المبيَّن اهتمامًا به لغرابته[2]، فإنَّ تذليلَ الجنِّ وتسخيرَ طاقاتهم الخارقة لخدمة بشرٍ، وفي طاعة نبيٍّ؛ يُعدُّ أمرًا غيرَ مألوف وشأنًا عظيمًا يَستدعي الاهتمامَ بِذكره والتَّنويه بشأنه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (العمل) ولطيفةُ صَوْغِهِ مُضارعًا:

استمرارُ العمل بُرهانٌ على كمال التَّمكُّن وقوَّة التَّسخير

من فضلِ اللّهِ تَعالى على سُليمان أن سَخَّر له الجِنَّ، حيث قال اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، أي: بأمرِه، واختيار كلمة ﴿يَعْمَلُ﴾؛ للدَّلالة على الفعلِ مُمتد الزَّمان.

وصيغَ فعلُ العمَلِ مُضارعًا؛ للدَّلالة على الاستمرارِ والدَّوام، فهُم دائبون مُستغرقونَ في العمل، والدَّليل على ذلك أنَّهم ظَلّوا على هذه الحالِ من العمل المتواصلِ رغمَ وفاته مُدَّة طويلةً، وهم لا يعلمون بأمرِه، فقد أمكنَهُ اللّه تعالى منهم غايةَ الإمكانِ في غَيْبَتِهِ وحُضوره[3].

دلالةُ تقييدِ ﴿يَعْمَلُ﴾ بالظَّرف ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

الدَّلالةُ على القُربِ والمُشاهدة

في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ دليلٌ على أنَّ الجِنَّ قد يُشاهَدونَ، فإنَّ الظّاهرَ أنَّهم يُشاهَدونَ، وهم يَعملونَ بينَ يدَي سُلَيمانَ عليه السلام[4]، فيُشير التَّعبير ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إلى القُربِ في المكان المُتاحِ للنَّظر، وهوَ يدلُّ على أنَّ سليمان عليه السلام كان يَرى الجِنَّ، وهم يعملون، ويباشرون أوامرَهُ بمَرْأى مِنْهُ ومسمعٍ.

---

(1) المظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 13، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 292.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 159.

(3) الشِّربيني، السراج المنير: 3/ 354.

(4) العُثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 109، وابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 15/ 7، وابن حجر، فتح الباري: 6/ 459.

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ بالظَّرف ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾:

التَّأكيدُ على الخضوع والطَّاعة والامتثال

معنى قولهِ: ﴿يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: يخدمُهُ ويُطيعُهُ، يُقال: أنا بين يديك، أي: مطيع[1]، فالظَّرفُ يحمِلُ في طيّاته دلالةَ الطّاعة والخدمة المُباشرة لنبيِّ اللّهِ سُليمان عليه السلام.

براعةُ الالتفاتِ من التَّكلُّم إلى الغيبةِ:

بيانُ عظمةِ الرُّبوبيَّة بتسخير الجنِّ له، وقربه من نبيِّه سُليمانَ ونصرته إيّاه

عَدَلَ النَّظمُ الكريمُ عن التَّكلُّم إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾، وكان مقتضى الظّاهرِ أن يردَ في النَّظم القرآنيِّ: (بإذننا)؛ لأنَّه تقدَّمَ قبلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾، وقد أفادَ هذا الالتفاتُ عظمةَ الرُّبوبيَّةِ بتسخير الجنِّ له، وقُربهِ مِن نبيِّه ونصرته إيّاه، وهي معانٍ لم تكن لتُؤَدّيَ مدلولَها دون الالتفات.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإذنِ دون (الأمر) في: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

شمولُ الدَّلالةِ للأمر الكونيِّ والشَّرعيِّ إبطالٌ لاستقلال الجنِّ بأعمالِهم واستبدادِهم

لمّا كان ظَنُّ ظانٍّ أنَّ للجنِّ استبدادًا بأعمالِهم؛ نفاه رَبُّنا بقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾، أي: بإرادة ربِّه وتسخيره[2]، فالإذنُ هُنا كونيٌّ، يعني: أنَّ اللّه تعالى سَخَّرَ الجنَّ؛ ليعملوا بَيْنَ يدَي سليمان عليه السلام بإذنِه، بأمره الكونيّ، ويحتمِلُ أن يكونَ الإذنُ شرعيًّا، أي: بأمر ربِّه، والمعنى: أنَّ ربَّهُم أَمَرَهُم أنْ يُطيعوهُ في جميع ما يأمر، وينهى بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

نُكتةُ إضافةِ (الإذن) في ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

الدَّلالةُ على الرَّحمة والإحسان في مقام التَّفضُّل والامتنان

في قوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾، أي: بتمكينِ المُحسنِ إليه لَهُ ولَهُم بما يُريد فعله[4]، فجاء باسْمِ الرُّبوبيَّةِ الدّالِّ على الرَّحمة والإحسان في مقام التَّفضُّل والامتنان.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 159.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 463، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 12.

(3) الماتريدي، تفسير الماتريدي: 8/ 432، والعُثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 109.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 463.

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمَن يَزِغۡ﴾:

زيادةُ التَّقرير بالرَّبط بين الجزاء والأمر

لمّا قرَّر اللّه سُبحانه أنَّ ذلك التَّسخيرَ العظيمَ للجنِّ كان بإرادته وأمره؛ زاد ذلك تقريرًا بقوله عاطفًا على ما تقديره: فَمن عَمِلَ بأمرنا؛ أَثَبْنَاهُ جنّات النَّعيم: ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1]، فالعطفُ هنا للرَّبط بين أمر اللّهِ تَعالى بطاعة سُليمان، وبيان الجزاء لِمَن يَخْرُج عن هذا الأمر، فهي تُفيد الانتقالَ من التَّمكينِ الذي منحهم اللّه تَعالى إيّاه إلى تذكيرهم بالتَّحذير مِنَ العقوبة التي تَنْتَظِرُ مَن يعصي هذا الأمرَ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بـ (مَنْ) في ﴿وَمَن يَزِغۡ﴾:

الإشارةُ إلى الميَلِ المتأصِّل في الجنِّ إلى طبيعة الزَّيغ والميل

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا﴾، فقد دخلت (مَنْ) الشَّرطيَّة على الجُملةِ الفعليَّة، و(مَنْ) في محلِّ رفع مبتدأ؛ لأنَّ الفعلَ بعدها فعلٌ لازمٌ، فتكون الجملة اسميَّةً دالَّةً على الثُّبوتِ والاستمرار.

وفي التَّعبيرِ بالشَّرطِ ربطٌ لإذاقةِ عذابِ السَّعيرِ بالزَّيْغ، وأنَّ الجنَّ الذي سخَّرهم اللّه تَعالى لا يجرؤُ أحدٌ مِنهم على مخالفةِ نبيِّ اللّه تَعالى سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ إذاقتَهُ عذابَ السَّعيرِ أمرٌ متحقِّقٌ متيقَّنٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع: ﴿يَزِغۡ﴾:

الدَّلالةُ على اسْتِمْرارِ العقوبَةِ؛ كُلَّما وُجِدَ الزَّيْغ

قولُ اللّه تعالى: ﴿يَزِغۡ﴾ معناهُ: يَمِلْ، وينحرفْ عاصيًا[2]، فالزَّيْغُ دالٌّ على انحرافٍ عن قصدٍ وعَمْدٍ، وصيغ هذا الفعلُ مُضارعًا؛ للدّلالةِ على أنَّ مِنَ الجنِّ مَنْ طُبِعَ على التَّمرُّد، إلّا أنَّ العُقوبةَ تقع عليهم في كُلِّ مَرَّةٍ يحيدون فيها عن أمرِ اللّه تَعالى.

سر التعبير بالأمرِ في ﴿عَنۡ أَمۡرِنَا﴾:

الإشارةُ إلى الأمر بطاعة سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ

قولُ اللّه تعالى: ﴿عَنۡ أَمۡرِنَا﴾، أي: الذي أَمَرْنا به من طاعةِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 464.
(2) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 4/ 409.

سُليمانَ عليه السلام[1]، ولم يقل: (إرادتنا)؛ لأنَّه لا يقعُ في العالم شيءٌ يُخالف إرادتَه سُبحانه تعالى، ولا يقَعُ ما يُخالف الأَمْرَ[2].

لطيفةُ إضافةِ الأمرِ إلى ضميرِ العظمة في ﴿أَمۡرِنَا﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ سُلطانَ اللهِ سُبحانه قائمٌ على هذه الكائنات مُهيمنٌ عليها

في التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ إشارةٌ إلى أنَّ سُلطان اللّه ﷻ قائمٌ على هذه الكائنات، وأنَّه سبحانه قد سَخَّرها لتخدم عبدًا مِن عبادِه، وهو سُليمان عليه السلام، فهي واقعةٌ تحتَ هذا الحكم، لا تخرج عنهُ، ومن خَرَجَ عنه منها؛ عذَّبه اللّه عذابًا أليمًا[3].

سِرُّ المُغايرةِ في الإضافة في الآية:

بين الإذنِ والأمرِ مُناسبةُ الرِّعاية الرَّبّانيّة والعظمة الإلهيَّة

جيءَ في قولِه تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ بلفظِ الربِّ، وقال بعدُ: ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا﴾، ولم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (عن أمرِ ربِّه)؛ لأنَّ (الرَّبَّ) لفظٌ ينبئُ عن الرَّحمةِ، فلمّا كانت الإشارةُ إلى حِفظِ سُلَيمانَ عليه السلام، قال: ﴿رَبِّهِۦۖ﴾، ولمّا كانت الإشارةُ إلى تعذيبِهم؛ قال: ﴿عَنۡ أَمۡرِنَا﴾، بلفظِ التَّعظيم المُنْبِئ عن الهَيبة الموجِبِ لزيادةِ الخَوفِ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالإذاقةِ:

تصويرُ العذابِ في الإدراك استحضارٌ لسُرعة الإحساس به وشدَّتِه

أخبرَ اللّه تَعالى أنَّ جزاءَ مَن يَمِلْ عن أمرِ اللّه تَعالى وأمرِ نبيِّه سُليمان عليه السلام أن يُذيقَهُ مِن عذابِ السَّعير، وأصلُ الذَّوق يكونُ للطَّعام، والإذاقةُ في الأصل: إصابةُ المطعوم بطرف اللِّسان؛ لإدراك الطَّعام واختبارِه، وهي أضعفُ إصاباتِ الأعضاءِ للأجسام، فهي أقلُّ من المَضْغِ والبلعِ، ثُم استُعيرت الإذاقةُ للإصابةِ بالعذاب والإحساسِ به، حيث شُبِّهَ ذلك الإحساسُ بذوقِ الطَّعم بجامع سُرعةِ اتِّصال الإحساس بالإدراكِ، ففي التَّعبيرِ بالإذاقةِ استعارةٌ تصريحيَّة

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 479.

(2) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 4/ 365، وابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 4/ 409.

(3) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 787.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 198، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 486.

تبعيَّة؛ حيث عبَّرَ عن الطَّعامِ بالعذاب، وتَحسُّسه بالذَّوق؛ لأنَّ الذَّوق من جُملة الإدراكات، والمَذوق إذا لاقى اللِّسانَ؛ يُدرك أيضًا حرارتَه وبُرودَتَه وخشونَتَه ومَلاسته، كما يُدرك سائر أعضائه الحسيَّة، ويُدرك أيضًا طَعْمَهُ، ولا يُدركه غير اللِّسان، فإدراكُ اللِّسان أتَمُّ، فإذًا الذَّوق إدراكٌ لَمْسيٌّ أتمُّ من غيرِه في الملموسات[1]، ففي هذه الاستعارةِ تمثيلٌ للعذاب واستحضارُ سرعةِ الإحساس بهِ وشدَّته، مِمّا يدلُّ على قُربِ العذابِ وإيلامه.

دلالةُ المضارعِ في ﴿نُذِقْهُ﴾، ولطيفة إسناده:

الـدَّلالـةُ على عظيمِ العذابِ وأليمِ العقابِ

جاء التَّعبيرُ بفعلِ الإذاقةِ فعلًا مضارعًا في قولِ اللّه تعالى: ﴿نُذِقْهُ﴾؛ للدِّلالة على استمرارِ الإذاقة ودوامِها ما دام الزَّيْغُ واقعًا مِنْهم، وأُسنِدَ الفعلُ إلى ضميرِ العظَمَةِ (نحن) المستترُ وجوبًا في ﴿نُذِقْهُ﴾، أي: بما لنا مِنَ العَظمة التي أمكنَّا سُليمان ﷺ بها مِمّا أمكنّاه فيه من ذلك[2]، وهذا يَدلُّ على أنَّ فِعْلَ العذاب حاصِلٌ بقُدرةٍ إلهيَّة عظيمَةٍ، وهذا أبلغُ في التَّهديدِ.

معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ الـعـذابَ الـذي يُلاقـونه ألـوانٌ وأصنافٌ

﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تبعيضيَّة، وقد أفادت هُنا أنَّ العذابَ الذي يُلاقونَهُ ألوانٌ وأصنافٌ[3]، وأنَّ هذه الإذاقةَ الحاصلةَ في الدُّنيا تعقبُها إذاقةُ عذابٍ أشدَّ وأعظمَ في الدّارِ الآخرةِ.

بلاغةُ التَّشبيهِ في التَّعبيرِ بالعذابِ:

تـصـويـرُ شـدَّةِ العذابِ الدُّنيويِّ بـمـسـتـوى الـعـذابِ الأخرويِّ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يَحْتَمِلُ أنَّ عذابَ السَّعيرِ ليس العذابَ الأخرويَّ، وإنَّما يُحمل على التَّشبيه، والتَّقدير: نذقهُ عذابًا كعذاب السَّعير، فَشُبِّهَ العقابُ الدُّنيويُّ بالعذابِ في الآخرة.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 468.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 464.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 9/ 322.

بجامع شِدَّةِ العذاب حَمْلًا على التَّهديد من باب المُبالغة، وقد حُذِفَتِ الأداةُ ووجه الشَّبه، فيكون هذا التَّشبيهُ من قبيلِ التَّشبيهِ البليغ، والغاية من هذا التَّشبيه: قَذْفُ الرُّعبِ في قلوب الجِنِّ، ببيان مقدارِ العقاب المُنتظر[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزَّيغ والميل:

الزَّيغُ أخصُّ من الميلِ

الزَّيغُ: الميلُ عنِ الاستقامة، والزّائغُ: المائل[2]، وهو اسْمٌ لِمَيْلٍ مَكْروهٍ، ولا يَكونُ إلّا في المَيْلِ عَنِ الحَقِّ، يُقالُ: فُلانٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ، ويُقالُ: زاغ عَنِ الحَقِّ، ولا يُقالُ: زاغَ عَنِ الباطِلِ، قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8]، وقال سُبحانَهُ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 7]، وأمّا الميلُ؛ فهو يَدُلُّ عَلَى انْحِرافٍ في الشَّيْءِ إلى جانِبٍ مِنْهُ[3]، فالميلُ: العدولُ من جهة الوسط إلى أحدِ الجانبين، ويُستعمَلُ في الجَوْرِ[4]، يُقال: مالَ عَنِ الطَّريقِ؛ إذا تَرَكَهُ، وحادَ عَنْهُ، ومالَ الحائطُ: زالَ عن استوائه، وانحرفَ، وانعطفَ، وعدلَ عمّا كان عليه[5]، والمَيْلُ: عامٌّ في المَحبوب والمَكْروه[6]، فالمَيْلُ أَعَمُّ مِنَ الزَّيْغِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 160.
(2) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 2/ 157، والفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 154.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ميل).
(4) الرّاغب، المُفردات، ص: 784، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 4/ 133.
(5) الفيومي، المصباح المنير، ومعجم اللُّغة العربيَّة المُعاصرة: (ميل).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 269.

المحتويات